بيان الهدى من الضلال

في الرد على صاحب الاغلال

تأليف
العلامة المحقق الشيخ
ابراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي
القاضي الشرعي
ورئيس محاكم المقاطعة الشمالية (في العلا وتبوك وملحقاتها)

الجزء الأول

١٣٦٨

المطبعة السلفية ومكتبتها
٢١ شارع الفتح ☆ بجزيرة الروضة (القاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبةً ، ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾

النحل ٩٧

﴿ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون﴾ المنافقون ٨

﴿ولينصرنَّ الله من ينصره ، إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الَّذينَ إنْ مكَّنَّاهم في الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عنِ المنكرِ ، ولله عاقبةُ الأمور﴾

الحج ٤٠ — ٤١

﴿فمن اتَّبعَ هداىَ فلا يَضلُّ ولا يشقَى ، ومنْ أعرضَ عن ذكرى فإنَّ له معيشةً ضنكا ونحشره يومَ القيامةِ أعمى﴾

طه ١٢٣ — ١٢٤

القرآن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

أما بعد فإني وقفت على كتاب الفه عبد الله بن على القصيمى [1] سماه (هذى هى الاغلال) . ووجه تسميته بهذا الاسم - على زعمه - أنه نظر الى ما أصاب المسلمين من التأخر والضعف ، ففهم أن ذلك انما نشأ عن ارتكاب أمور أوثقت المسلمين عن العمل ، وعاقتهم عن اللحوق بمن سبقهم من الأمم الغربية ، فكانت هذه الأمور التى ارتكبوها كالأغلال التى تعوق الأنسان عن السير الى غايته ، وقد ضل فى هذه التسمية كما زل فى موضوع مسماه

وقد ذكر فى أول كتابه هذا أنه بذل جهده فى البحث عن الأسباب التى أخرت المسلمين الى هذه الحالة ، وسأل كثيراً ممن اجتمع به عن أسباب هذا التأخر ، وما وجد أحدا عنده معرفة تكفى فى بيان الحقيقة . وليته طالع كتاب جمعية أم القرى [2] وأمثاله ليقتنع به ويسلم من التعب ان كان صادقا ، ولكنه - ويا للأسف - ذكر أنه وجد سبب هذا التأخر وعرفه حتى لم يكن لديه أدنى شك فيه ، فوهم هذا الوهم الخاطىء الذى أبرزه فى هذا الكتاب . وحاصله (أن التمسك بالدين هو الذى أخر المسلمين) فظفر بعد التعب بهذا الوهم المقلوب

---

(١) هو الذى لقب نفسه بهذا اللقب ، وإلا فلا يعرف له نسب من جهة أبيه فى القصيم

(٢) ويسمى أم القرى ايضا ، للعلامة المصلح السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي رحمه الله . وكتبه محمد نصيف

الذى وجهه الى الوراء وتصوره هو الحقيقة التى لا مرية فيها ، فسقط منتكسا على أم رأسه فى هاوية عميقة من أجل هذا الوهم المقلوب والتصور المعكوس ، ثم ادّعى أن ما صنعه هو الدواء الوحيدالناجح ، فضرب بذلك عقدة مشئومة على تلك العقد التى أراد حلها ، وزاد المريض وهنا على وهن والمصيبة بلاء على بلاء . وهكذا كل من أراد أن يصنع دواء وهو لا يعرف كيفية الداء وتشخيصه ولا يعرف الدواء وتركيب مفرداته ، فانه ولا بد أن يكون دواؤه مضرا إن لم يكن سما قاتلا

إن من أعظم فساد التصور عكس الحقيقة الواضحة التى لا شك فيها عند جميع العقلاء وتغييرها عن حالتها الوضعية ، وهذا التصور المعكوس قد تطور ظهوره فى كثير من ذوى العقول الضعيفة المعجبين بأنفسهم من العصريين الذين لم يستضيئوا بنور الوحى ولم تفهم قلوبهم تعاليم الديانة الصحيحة ، والقلب إن لم يستمد حياته من نور النبوة فانه لن يفلح بل يكون مظلما مريضا ، فتكون آراؤه وتصوراته كلها مظلمة مريضه لأنها صادرة عن تفكيره وارادته

وهذا الضرب فى الناس تجدهم بمجرد ما يبدو لهم أدنى لامع من لوامع المخترعات العصرية يقذفون بأنفسهم عليه كالفراش الذى يقذف بنفسه على ضوء المصباح الضئيل ، فيعشقونه ويظلون دائرين حوله دوران الفراش على مصباحه فلا ينزعهم عنه نازع ولا يردهم عنه رادّ مهما حاول واجتهد ، ما دام هذا اللامع الضئيل مضيئا ، حتى يحرقهم أو يطفأ ضوؤه . أما نور الشمس الواضح فانهم لا يرونه إلا صدفة أو كرها ، وإن قابلوه كاد أن يذهب بأبصارهم فتجدهم ينفرون منه ويهربون الى كل نفق وملجأ

لسنا بحاجة هنا الى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل وكثرة تقلب آرائه ، فان مضادّة كتابه هذا لكتبه السابقة فى كل شىء أمر لا يخفى على كل من تدبر ذلك . وقد أشار فى كتابه هذا الى أنه قضى عصرا من حياته وهو معتقد خلاف هذه الآراء التى نشرها فى هذا الكتاب . ولا شك أن اضطراب الرأى وتناقض الاعتقاد فى الأصول الضرورية الثابتة القطعية من أظهر

الدلائل على فساد التصور ، ولا سيما مع دعواه فى كل من هذه الكتب المتضادة بأن ما اعتقده وقرره فيها مبنى على براهين ثابتة صحيحة . ومعلوم أن البراهين الثابتة لا تتناقض ، وهذا بخلاف الآراء الجزئية التى تبنى على الظنون والقرائن وامثال ذلك

لقد استغرب الناس انقلاب هذا الرجل بهذه السرعة ، وانسلاخه من آيات الله التى تظاهر بنصرها من قبل ، فذهبوا يتساءلون عن الأسباب التى أحدثت هذا الانهيار الخلقى والانقلاب المفاجىء الغريب والانسلاخ البلعامى المنكر ، لأن هذا الرجل كان يتظاهر قبلا بنصر السنة وقد ألف فى ذلك كتبا معروفة طريقته فيها - كما قلنا - نقيض طريقته فى هذا الكتاب ، فكان كتابه هذا هدماً لها من أساسها ، كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ، فساءت لذلك فيه الظنون ، وذهبوا يعللون هذا التراجع والتقهقر تعليلات شتى بحسب ما يظهر من القرائن ، فعلل كثير بأنه ارتشى من بعض الدعايات المحاربة للأديان واستدلوا على ذلك بأمور كثيرة ستتبين اكثرها فى ثنايا هذا الكتاب ، ثم هو ليس ممن عرف بالتقوى والديانة المتينة التى تحجزه عن الدخول فى هذه المزالق الخطرة ، فان من سبر حاله علم أن به زهوا واعجابا بنفسه غير قليل ، ينبىء عن ذلك قوله من قصيدة له (١) :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ... ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكرِ
ولم يرغبوا إلا الىّ اذا ابتغوا ... رشادا وحزما يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ... ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر
فما أنا إلا الشمس فى غير برجها ... وما أنا الا الدرّ فى لجج البحر . . .
أعلل نفسى بالأكاذيب والمنى ... وقد ينفع الكذاب فى ساعة الشر .
فلولا رجائى والرجاء مخادعى ... لعذت بشر لا يضيق به صدرى

(١) فى أول الفصل الحاسم

وقال فى أخرى :

متى جريت فكل الناس فى أثرى وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

وخليق بمن هذا عقله ورأيه أن يشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وأن تكون عاقبته غير حميدة

إن من الغباوة الشديدة والبلادة المحققة أن ننخدع بتلك التمويهات التى خادع بهـا فى بعض كلامه فى كونه ما يريد الا الأحسان ، وأنه مؤمن بالله واليوم الآخر ، فكلا وهيهات وأنى ذلك ، بل هذه الدعوى جريمة فوق جريمة فكيف يجتمع الأيمان بالله واليوم الآخر مع محـاربة الدين وسبه وتشويهه ورفضه ، وكيف يصرح الانسان بقول واعتقاد أو يعمل عمـلا ثم يدعى أنه يريد خلاف ما يقول ويعمل ، فان هذا غير مقبول لا شرعا ولا عقـلا ولا عرفا ، فالمنافقون الذين قالوا للرسول ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ كاذبون فى شهادتهم بشهادة الله تعالى عليهم ، كما أن الذين بنوا مسجد الضرار وحلفوا أنهم ما أرادوا الا الحسنى كاذبون فى هذه الدعوى بشهادته تعالى عليهم أيضا ، لأن كلا من هؤلاء فعلوا ما يضادّ أقوالهم وادعاءهم ، فأصل النفاق مضادة القول للفعل ، ولو أن رجلا أهان المصحف أو سعى فى هدم الكعبة ثم ادعى أنه يريد بذلك التعظيم والاحسان لقطع الناس بكذبه ، وكما لو أن رجلا حارب نظاما محترما من الأنظمة المعمول بها وبذل جهـده فى ازالته وتشويهه وخلعه ورفضه ثم ادّعى مع ذلك أنه مؤمن به ومعظم له فـلا شك عند العقـلاء أنه كاذب متلاعب وأن دعواه هذه مكر ومخادعة ، وقد حذرنا الله سبحانه عن الاغترار بمثل هذا القول ممن فعل هذا الفعل بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ الى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ اتخذوا أيمانهم جنـة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والآيات فى هـذا كثيرة

واضحة . وقد صادف هذا الخداع البسيط المموه قلوبا غلفا ليس لها نصيب من البصيرة فى معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فبقيت مضطربة فى أمره تتخبط فى ظلمات الجهل والريب ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون ﴾

إن أعظم جرم يجره الأنسان على نفسه وعلى أمته أن يذهب الى الكمالات السامية والمبادىء الأساسية العادلة العالية التى شهدت العقول السليمة بكمالها الكمال الذى لانهاية فوقه ، واتضح ذلك اتضاحا لا يمكن جحده ، فيفهم من هذه الكمالات خلاف حقائقها وخلاف أوضاعها المعقولة ، فيظل مندفعا بلا أدنى هوادة الى قلب صورتها وتحويلها الى ضدها سواء كان ذلك جهلا أو تجاهلا ، ثم يدعى مع ذلك أنه بفعله هـذا صنع إحسانا الى قومه ، فيكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، وهذا غاية الضلال والبعد عن سواء السبيل

إن من تأمل مافى هذا الكتاب المنكر علم بلا أدنى شك أنه دعاية خبيثة مقصود بها هدم الأسلام والمروق منه بتشويه أوضاعه ومحاسنه بالكذب والتزوير والبهت والنفاق ، فيجب على كل ذى علم وصلاح وغيرة على ديانته أن يقوم ضده ويبذل غاية جهده فى محاربته والتحذير منه ، فان فيه خطرا كبيرا على كثير من الناس لما فيه من النفاق العميق ولبس الحق بالباطل بالدعاوى المزخرفة ، وفتنة للذين فى قلوبهم مرض من الطبقات المتطرفة الذين لم ترسخ علوم الشريعة فى قلوبهم ، ولم يفهموها فهما صحيحا ، والقلوب الفارغة أسرع قبولا للباطل من الحق ، فان القلب ان لم يكن مشغولا بمعرفة الديانة الصحيحة مستمداً حياته من نورها كما ذكرنا فانه يكون عرضة لتأثير الأوهام والخرافات المزخرفة بصوغ العبارات وبهرجة الاستدلال عليها

ولما كان هذا الرجل مصروفا عن الحق والهدى ، قد انصرف الى نصر دعايته التى هى غاية الجهل والردى ، بأقصى ما لديه وبكل ما يعول عليه ، ورأى ان الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كلها واقفة فى ردّ ما يرمى اليه وضد ما يدعو اليه أسهب فى تطويل المجادلة وأطنب فى اخفاء الحقائق بالمغالطة فى

كل كتابه فى هذا الغرض . محاولا صرف النصوص الشرعية عن مدلولاتها الى ما يوافق هواه ولو خرج عن الحدود اللغوية فضلا عن الحدود الشرعية ، فبعضا حرفه ، وقسما كذب به ، ونوعا آخر أعرض عنه ، فكان حاصل مقاله وحاله التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله والجدال الطويل فى ذلك ، فجدير دخوله فيمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنىٰ يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم فى النار يسجرون ﴾ فكتابه هذا سلسلة أغلال صنعتها يد شقاوته لنفسه لما اختار العمى على الهدى وآثر الحياة الدنيا ، وما من شك لدينا أن له قصداً سيئاً فى ابراز هذا الكتاب الشنيع ، فمثله لا يجهل ما فيه من صرائح الكفر وقبائح الالحاد ، فان كلامه فى هــذه الأمور واضح كالشمس لا يخفى الا على أعمى البصيرة كما سوف ترى وضوح ذلك فيما يأتى مفصلا

وقد عمد هذا الرجل الى كل ما كتبه الملاحدة من أعداء الدين وزنادقة الكتابيين الذين بذلوا وسعهم لتشويه الأديان لدى العامة ليلبسوا عليهم دينهم متذرعين بذلك الى نقلهم عنه تدريجيــا الى الاباحية التى هى نهاية الكفر والالحاد ، فاخذ هذا الرجل عصارة تلك الآراء المسمومة ونشرها فى هذا الكتاب وموه عليها بشىء من النصوص التى ظن أنها توافق هواه ، فخلط الحق بالباطل ترويجا لقصده الخبيث ومكره السىء ﴿ ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ﴾ . وقد جعل كتابه هذا عشرة مباحث وخلاصة ، وكل بحث يشتمل على مقالة ذكر فيها أنها من الأسباب التى أخرت المسلمين ، وذكر فى الخلاصة حاصل ما ذكره فى كتابه كله وسماها المشكلة التى لم تحل ، وأبان فيها صريحا مقصوده وما يرمى اليه ، وهو أن الأيمان بالله وتصرّفه فى العالم هو سبب التاخر ، وأن التدين مضاد للرقى

وفى مباحث سلسلة هذه الأغلال من الجنون والتخليط والجرءة الحادة

على الدين والاستهزاء به وبأهله والوقاحة والتهكم بأصوله وفضائله ما لا نعلم أحدا من الكافرين والمنافقين سبقه الى مثله ، حتى أنه تصرف فى النصوص المقدسة طبق ما يوافق هواه من المعانى ، فما خالفه حرفه أو كذب به ، وما ظن أنه موافق له قبله وصدقه واحتج به بكل حال ، وقد أدخل مع ذلك فى هذه المباحث من البهرجة والنفاق والتلبيس واخراج الباطل فى قالب الحق شيئا كثيرا جدا يتبين من ذلك انه من اعظم الدعايات الى الكفر والالحاد

وقد رأينا أن نسلك فى هذا الرد عليه مسلكا متوسطا مقبولا فنتكلم على تلك المباحث ونجيب عن كل ما اعتمد عليه فى الانتقاد على الدين والمتدينين ، كما نجيب عن كل ماادعاه ونسبه الى الدين من الأمور الباطلة التى أضافها اليه بعد نقل كلامه بحروفه فى هذه الأمور ، ونحذف ما هو مكرر أو ما لا حاجة ضرورية الى الرد عليه غالبا ، ونشير الى المحذوف أحيانا اذ تتبع كلامه يستدعى تطويلا قليل الفائدة ، وكلامه كله يدور على أصلين أحدهما الحث على رفض الأديان ، والثانى الانهماك فى تعلم نواميس الطبيعة والاعتماد الكلى عليها لأن ذلك عنده هو سبب التقدم والمجد المنشود

فصل

وهاهنا احدى عشرة ملاحظة تطلعك على أصول كلامه التى يدور عليها ، وتعرف بها كيفية ردنا عليه فيها ، وتسهل لك حل بعض مباحثه المعقدة :

﴿ الملاحظة الأولى ﴾ أن تعلم أن طريقتنا فى رد ما فى هذا الكتاب هى طريقة من يريد بيان الحق وازالة الباطل بالطريق الصحيحة الشرعية والعقلية المقنعة لكل منصف عارف يميز الحق من الباطل تمييزا صحيحا ، ليست بطريقة من يحاول اقناع خصمه فقط ، فان سلوك هذه الطريقة لا يفيد مع مثل هذا الرجل ، لأنه اعتقد اعتقادا شاذا وحصر الحق فيه وحده ، ولبس أحيانا فى تعمية قصده وإرادته : تارة بالتجاهل ، وحينا بالمغالطة ، ومرة بالعناد

والمكابرة ، فانه رفض امرا وحاربه باطنا وظاهرا ، ثم ادعى احيانا فى الظاهر أنه يراه ويعمل به ، فكان قوله لاضطراب حالته وقصده معقدا ملتبسا متناقضا لا يستقر على حالة ثابتة ، ومثل من هذه حاله لا يمكن اقناعه بجميع الوسائل المبينة للحقيقة ، لأن قصده الحقيقى اتباع هواه ورأيه الشاذ لا الحق ، ولهذا فاننا نستدل بالنصوص الشرعية حقيقة كما استدل بها هو فى كتابه مخادعة ، ونستدل بالمعقولات الصريحة والقواعد الثابته والضرورة المحققة لأننا نتكلم بلسان المتدين الصادق كما أنه تكلم بلسان الملحد المنافق ، وقد وضع كتابه فى الحط على المتدينين فكان الرد عليه بلسان أحدهم (١) ولا يحسبن أحد أننا لا نعتمد على دلالة العقل مطلقا ، بل إننا نعتمد ذلك ونرى أن من الأدلة العقلية ما يفيد اليقين ، ونعلم من حيث الجملة أنه ليس فى الشريعة المطهرة ما يخالف المعقول الثابت فى نفس الأمر أبدا ، وما يزعمه البعض من وجود التعارض فى بعض الأشياء فليس لذلك حقيقة ، بل هو فساد فى فهم من زعم ذلك ، فإنه اما غلط فى فهم المنقول أو فى نظرية المعقول أو فساد فى إحدى مقدمات أحدهما ، وعند تحقيق البحث فى ذلك تتبين العلة وأنها خارجة عن حقيقة المعقول والمنقول كما بين ذلك الأمام شيخ الأسلام ابن تيمية فى كتاب العقل والنقل بالبراهين القاطعة الواضحة

﴿ الملاحظة الثانية ﴾ اعلم أن روح كتابه وموضوعه هو الحث على رفض الدين بل الأديان كلها ، ودعوى أن الالحاد هو أساس الرقى والتقدم كما صرح بذلك فيما يأتى فى مواضع لا تحصر . وقد جره هذا المغزى الخبيث الى ما ادعاه إخوانه من ملاحدة العصر حيث ادعى أن الناس لا بد من أن يكونوا على ثلاث حالات : إما على دين صحيح ، واما على دين باطل ، واما على غير دين

---

(١) ولو أنه سلك مسلك الملاحدة المحض الذين لم يدخلوا فى الالحاد نفاقا وخداعا لسلكنا فى الرد عليه مسلكا آخر يبطل جميع ما يعتمد عليه من الباطل بادلة عقلية محضة

بل على الحاد محض . اما الدين الصحيح فقد صرح بأنه لا يعرف ، وأن الناس عاجزون عن معرفته ، فقد سد هذا الباب سدا محكما ولكنه استثنى النادر مخادعة ، ومعلوم أن النادر لا حكم له فوجوده كعدمه ، فعنده أن الله كلف الناس ما لا يطيقون حيث صرح بأنهم عاجزون عن معرفته فقد كلفهم ماهم عاجزون عنه . وأما الحالة الثانية فانه اجتهد غاية جهده فى أن يعزو الى الدين من القبائح والفساد وسوء السمعة ما لا يوجد فيه أبدا ، وتوسل الى ذلك ببعض كلمات للاتحادية من الصوفية ونحوهم وعزاها الى المسلمين ليثبت بذلك أن الدين قد فسد وأن الناس على دين باطل ، ليسهل لهم الطريق الى رفضه حيث صرح بأن الدين الباطل آلة ضعف وانحطاط ، وان الألحاد المحض لا يقف فى وجه الرقى والتقدم ، فحصر التقدم والرقى فى الدين الصحيح أو الالحاد الصريح ، والتأخر فى الدين الباطل ، ثم نفى معرفة الأول أى الدين الصحيح وأثبت وجود الحالة الثانية لتترك ، وسهل الوصول الى الحالة الثالثة أى الالحاد المحض لتسلك بل اوجب ذلك لأن الأولى غير معروفة ، والثانية لا يمكن الأقامة عليها ، والثالثة متيسرة والظروف تقتضيها . وسر المسئله أنه ادعى أنه وضع كتابه للبحث على التقدم وجعل التقدم محصورا فى حالتين إما فى الدين الصحيح أو فى الالحاد المحض ، ثم سد باب الحالة الأولى وادعى أن ذلك لا يكاد يعرف أو يوجد ، فاقتضى أن يكون الكتاب فى الحث على اعتناق الألحاد المحض بضرورة التقسيم ، لانه لم يبق الا حالة الدين الباطل وقد قرر أنها توجب التأخر فهو لا يريدها على دعوى وضع الكتاب ، بل جعلها وسيلة الى رفض ما عليه الناس اليوم لأنه قرر أنه دين محرف واهم فلا بد من رفضه أى هو دين باطل فيجب خلعه ، فتأمل هذا يزل عنك تلبيس كثير مما خادع به ضعفاء البصائر . وستأتى مناقشته فى هذه الدعوى العريضة تفصيلا [١] ، وبيان ان

---

(١) فى المشكلة التى لم تحل فى آخر الكتاب

هذا التقسيم باطل من أصله ، وأن التفريع عليه ساقط سقوطا بينا

وقد حمله غلوه واسرافه فى تشويه سمعة الأسلام وإفساده لاجل رفضه على أن يخترع وهما كاذبا خاطئا فى أول كل بحث من مباحث هذه الاغلال ، فيدعى أن الناس والمسلمين على هذا الاعتقاد أو هذا الرأى أو العمل ، وأنهم يدينون ، به ولا يخص طائفة دون طائفة ولا قوما دون قوم ، ثم يستشهد لهذه الدعوى الكاذبة الخاطئة إما بحكاية عن صوفى أو بحديث باطل أو ضعيف لا أصل له أو صحيح لكن يجعل معناه على وفق هواه ـ وان كان المسلمون كلهم مخالفين هذا الرأى ـ ثم اذا اخترع هذا الكذب وسبكه على ما تقتضيه إرادته وشهوته وهواه رمى به المسلمين واضافه اليهم وجعله رأيا ومعتقدا لهم ، ثم أخذ فى الرد والتشنيع عليهم والتشمت والاستهزاء والسخرية بهم فيما نسبه اليهم زورا وفجورا . وهذه القاعدة المنكرة أصل كبير فى كتابه بنى عليها أكثر ضلاله وفرع عليها غالب أقواله ، وهى من أعظم العوامل التى تنفر عن الأسلام وتسىء السمعة وتشمت به الأعداء . وقد اقتبس هذه العملية من دعاية المبشرين من أضداد الاسلام وأعدائه للتنفير منه ، وهى من أعظم ما يرجح صواب قول من قال انه خدم بكتابه بعض الدعايات اللادينية لغرض دنيوى كما سلف

﴿ الملاحظة الثالثة ﴾ يجب أن يعلم أنه لحرصه على التلبيس وخلط الحق بالباطل ومزجه به مكرا وخداعا أنه كثيرا ما يعطف الجمل الكفرية والجمل المشتبهة والمسائل المباحة والصحيحة بعضها على بعض ثم يجعل الحكم عليها حكما واحدا من غير تفصيل ، فتارة يذكرها مضافة الى المسلمين ويدعى أن حكمها لديهم واحد ، وتارة يذكرها عنهم ويحكم عليها حكما واحداً بلا فرق ، وهذا التلبيس والمراوغة كثيرا ما ينتحلهما فى مضايق كتابه فى مواضع لا تحصر كقوله ص ٢٨ « إن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الأنسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل

مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل مشكلة من هـذه المشاكل ، بل وانهم غير مخاطبين بحلها ، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التطاول عـلى الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس . وما عليهم الا ان ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤن ويشتهون الخ» فبالله عليك تأمل مافى هذا الكلمات من الخلط الفاحش والخبط المدهش والبهت والفجور العظيم فى دعواه أن المسلمين يرون أن حـل مشكلة الجهل والبطالة من التطاول على الله والوثوب على مقام الالوهية وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بحل ذلك ، فجعلهم يرون التعليم وبناء المدارس من الـكفر والشرك ومحاربة الله تعالى ، فاين العقول ؟ ثم انظر الى خلطه مشكلة الجدب مع مشكلة الجهل ، وأدنى رجـل من المسلمين يفرق بين هذه المسائل فيرى أن انزال المطر لا يقدر عليه الا الله ، وأن الجهل يجب على صاحبه أن يتعلم ، وأمثال هذه المواضع كثير جدا كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى (١)

﴿ الملاحظة الرابعة ﴾ يجب ان تعلم أن من أعظم أصوله أن كل حديث يخالف رأيه وهواه فهل باطل لا صحة له ولو اتفق المسلمون على صحته ، وكل تفسير يخالف فكرته وعقله فهو باطل سواء كان له أصل من كلام السلف أو لم يكن له اصل ، وكذلك كل قول أو رأى للفقهاء فى أى مسئلة كانت فهو رأى يضرب به عرض الحائط اذا كان لا يوافق هواه ولو أجمعوا كلهم عليه . ولهذا ادعى فى البحث الثامن أن الناس منذ عشرة قرون ضالون ، وأن اجماعهم على تقديم السلف إجماع باطل ، وأقر بأنهم غالطون جميعا ، وأنه مخالف لهم كلهم ولهذا هجم على كتب الدين كلها من غير استثناء وادعى بأنها كتب جهل وضلال

---

(١) ونظير هذه الجملة المتقدمة ما ذكر فى ص ٦٨ فى قوله ان من السخط المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا ورجال الدين وغـير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب مؤكدين لنا أن الانسان ما خلق ليكون عالما ولا ليكون شيئا كبيرا ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله فى علمه وقوته وقدرته.. الخ !

ولم يمدح كتابا واحدا من كتب علماء المسلمين على كثرتها وتنوعها ، كما انه لم يثن فى أصل كتابه على عالم واحد من علماء المسلمين على كثرتهم بل رماهم كلهم عن قوس واحدة بالجهل وعدم الفهم ، ولهذا كان من أعظم تلبيسه فى قلب الحقائق أن العلم والثقافة والتقدم والرقى والحياة كل ذلك هو علم الطبيعة والمادة وعلوم الالحاد والعلوم الدنيوية المحضة وما يتعلق بذلك ، وليس عنده مايسمى علما وحياة وتقدما وثقافة غير هذه العلوم ولواحقها ، أما علم أصول الدين من التفسير والحديث والفقه وجميع الدين فليست عنده بعلم ولا يقيم لها أدنى وزن بل هى الجهل بعينه كما سوف تقف على ذلك . ولهـــذا أكثر من السخرية والاستهزاء والازدراء بها ، وقد صرح بأن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث وقد قال فى بعض عباراته فى الحط على الفقهاء واقوالهم (ص ٦٥) : « والأسلام لا يقبل شهادة الأطفال ، ونحن نفهم أنه انما رد شهادتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، أما قول بعض الفقهاء أوقولهم كلهم إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية » انتهى . فأقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة فى العلم والعقل والدين عنده كما ترى . اذا فهمت هذا فاعلم أنه اذا أطلق العلم فى هذا الكتاب وأثنى عليه بالثناء الطويل العريض وذم الجهل كذلك فاعلم أنه يريد بالعلم ماذكرنا تعريفه وبالجهل ما شرحنا حقيقته ، وكذلك اذا ذكر الحياة والثقافة والتقدم فانه يريد بذلك هذا الذى ذكرنا ، فافهم هذا ولاحظه فى جميع فصول هذا الكتاب تجده صحيحا . ولقد بلغ به التعصب والغلوّ فى متابعة الهوى ولجاجة الخصومة والعناد الى حد أن حاول سلب اسم العلم والعلماء من علماء الدين ومنحه بطيب نفس للملاحدة ، ولم يكتف بذلك حتى كابر وادعى أن علماء الملاحدة هم العلماء الممدوحون فى القرآن كما يأتى ، وحاول أيضا سلب مسمى العقل والعقلاء من علماء الأمة وعقلائها وإعطاءه علماء الملاحدة الذين لهم معرفة فى أمور الطبيعة

ونحوها أو لهم معرفة فى بعض الأمور المحرمة ، فهؤلاء عنده هم أهل العلم والعقل والحياة الصحيحة والثقافة والسعادة ، ومن خالفهم من أئمة الدين فهم أهل الجهل والغباء والجنون والشقاء وكل وصف ذميم ، فلينظر العاقل المنصف هذا الخضوع التام والاستسلام الكامل والخدمة الصادقة للملاحدة ومروجيهم وهذا البغض المنكر والمقت الشديد لعلماء الملة ، ولينظر ماذا يراد من وراء هذا وما هو الدافع اليه ، فانه أمر لا ينبغى السكوث والأغضاء عنه

﴿ الملاحظة الخامسة ﴾ ينظر ما هى الأسباب التى دفعته الى هذا الحد البعيد فى التشنيع على المسلمين بتكرر الخطب أيام الجمع وترغيبهم فى العبادة والتقوى . ويدعى أن هذه الدعاية مخدرة عن العمل ، ثم ينظر الى سكوته الطويل عن جميع الدعايات الوقحة المزخرفة المرغبة فى الألحاد والفجور والفواحش وحضور مواضع اللهو من الرقص والغناء ونحو ذلك ، وقد ذكرت احدى مجلات (أم درمان) وغيرها ان عدد الذاهبين الى بيوت السينما أكثر من عدد الذاهبين الى المدارس فى الاحصاء ، هذا فى المدارس فكيف بالمساجد ، فرجل يدعى أنه يقصد الحث على العمل كيف يشنع على خطباء الدين أيام الجمع وعلى الذاهبين الى المساجد أوقات الصلوات ، ويسكت كانه أخرس على كثرة الدعايات الطويلة المتنوعة فى الحث على الفجور والألحاد وعن كثرة الذاهبين الى مواضع اللهو ونحوها واستغراق اكثر أوقاتهم فى ذلك ، لا شك أنه ماجن مستهتر منافق متلاعب فى دعايته ، فقد علم العقلاء كلهم أنه لا اشد ولا أعظم فى التخدير والتثبيط عن الأعمال النافعة من الأشتغال بأعمال اللهو والغرام والتعلق بالعشق والهيام والفتنه بحب الصور ، بل هذا بمنزلة السكر لا بمنزلة التخدير ، فانك لا تجد أعجز ولا أوهن ولا أكسل من المنهمكين فى الملاهى والمفتونين بالعشق والتعلق بالصور الفتانة ، ثم أى تخدير فى الخطب التى تحذر من الكسل ومن فتنة الدنيا والوقوع فى الأخلاق الرديئة . بل هى الدافع القوى لاثارة العواطف الدينية الباعثة على الأعمال النافعة ، لانها تلهب

الأيمان والدين الصحيح والفطرة المستقيمة الكامنة وتوقظها ، فان الدين الصحيح من لوازمه العمل لأعزاز الحق وحماية الفضائل وطلب مرضاة الله بالجهاد فى سبيله والفوز بجنته والنجاة من ناره ، فأين حالة هذا من حالة من فتن بصورة جميلة الهندام لا يهمه ولا يشغل قلبه من هذه الدنيا كلها الا الحصول عليها والانسجام معها وقضاء الوطر منها ، فأى الفريقين أشغل عن العمل وأحرى بالتخدير ، فلينظر المنصف ما هى الأسباب التى دفعته الى ما ذكر مع ما تقدم

﴿ الملاحظة السادسة ﴾ يجب أن يعلم أننا من أعظم الناس دعاية إلى الحث على العلم والعمل الدينى والدنيوى ، وأننا نرى أن التجارات والثراء المالى وتعلم الصناعات كلها من أعظم العوامل التى لها الأثر فى التقدم والتأخر ، وأنه يجب تعلم مبادىء هذه الامور بقدر الحاجة ، فلسنا ننكر شيئا من ذلك ، كما أنه ليس فى المسلمين ممن يعتد بقوله من ينكر ذلك ، بل المسلمون يقولون إن الواجب تعلم جميع الوسائل التى بها يحصل عز الاسلام وتقدمه ، وقد صرح غير واحد من علماء الملة أن تعلم الصناعات ونحوها مما به قوام الامة فرض من فروض الكفاية . ومن القواعد المعروفة فى كتب الأصول المعمول بها أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد نوه القرآن العزيز بهذا الأصل تنويها موجزا كافيا لم يبق وراءه مطلب لاحد قال الله تعالى ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وهذا يتناول جميع صور القوى ، ويتناول جميع ما فى استطاعتنا منها وما نستطيع أن نعمله ، فهو سبحانه أمرنا بالاستعداد بجميع ما نملكه من قوة وجهد ، ومعلوم أن هذا لا يحصل الا بمعرفة الوسائل التى تمكن من ذلك وتسهله . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وهذا أمر لنا بالحزم والاستعداد التام والتيقظ الدائم وسوء الظن بمقاصدهم المجهولة . ولكن علينا أن نعلم ونعتقد أن تحصيل هذه الامور من صناعات وغيرها لا يحصل به النفع الناجح المستقيم المطلوب إلا اذا أقيمت على الدين المتين ، وإذن فالواجب علينا أن نؤسس هذه الاعمال ونحوها كلها على الدين ،

وتأسيسه الصحيح هو الاجتهاد فى تطبيقه على ما كان عليه السلف الصالح أى الاخذ بالاخلاق الدينية الاولى وهو العمل بالكتاب والسنة ، وذلك سهل يسير ولله الحمد الا على القلوب المظلمة الخبيثة كما قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للأسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد فى السماء ﴾ . ويجب أن يعلم أنه لا تنافى بين الاخذ بعلوم الدين والعمل بالعلوم الصناعية والتجارية والمادية والاقتصادية ونحو ذلك ، فليس فى الدين حرف واحد ينهى عن الاخذ بهذه الامور ، وانما يدّعى عدم إمكان التوفيق بينهما زنادقة الملاحدة والمنافقون الذين لم يفهموا الدين على حقيقته ، ولهم مقاصد سيئة فى الصد عن سبيل الله فيتخذون ذلك ذريعة الى الانحلال والشك فيه والمروق منه كما فعل هذا الرجل فى هذه الاغلال

﴿ الملاحظة السابعة ﴾ اعلم أن هدفه الاكبر الذى وجه اليه جميع اللوم والذم والحط الشديد فى هذا الكتاب هم أولئك الذين أيقظوا فكرة المسلمين بان طريق المجد الاسلامى والقومى ينحصر فى العمل بالكتاب والسنة فى أصول الدين وما يتعلق به ، ثم بالأخذ بالأسباب المشروعة فيما يلزم الأمة ، وقد ذكرهم فى صدر كتابه فى دعواه أنه « يوجد جماعات عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة يرون أن طريق المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الرجوع إلى الأخذ بالاخلاق الدينية الاولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية وفى أداء الزكاة وفى إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية والايمان بالله والجهاد الدينى فى سبيله » ، هكذا ذكر عنهم ، ثم انه خالفهم فادعى أن المجد القومى ينحصر فى الاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى أى غير نتائج المجد ، ولهذا فسرها فى الموضع الآخر بأنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، فجميع ما فى كتابه من سب وحط يوجه الى الجاحدين والجاهلين والهدامين والرجعيين والمغفلين واليائسين والخرافيين وامثال ذلك فكله موجه إلى هذا الهدف وهم هؤلاء

الجماعات الذين ذكرهم وذكر رأيهم ، وجميع ما يوجد فى كلامـــه من مسبة الجمود والرجوع إلى الوراء والحماقة والبؤس والشقاء والاوهام والخرافات والاباطيل وأمثال ذلك فهو موجه إلى مقالتهم التى قالوها وهى الاخذ بالاخلاق السلفية والعمل بالكتاب والسنة على ما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام مالك « لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها » . والسبب الوحيد الذى دفعه إلى هذه الجراءة النكراء هو أنه رأى هؤلاء الجماعات العظيمة ـ بيض الله وجوههم ـ واقفين فى وجه دعايته وأقوالهم مضادة لما يحاوله ويجمح اليه فى الحث على المروق من الدين والاخذ بأخلاق العصريين الملاحدة كما سجله فى كتابه ، لهذا حرج صدره وضاق بهم ذرعا فلم يجد بدا من الطعن فيهم والحط عليهم وإساءة أقوالهم وآرائهم بهذا الهراء المنكر ليخلو له الطريق ، ولكن ما زاده هذا الصنيع إلا رجسا إلى رجسه وعاد سهمه فى نحره ، ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون

﴿ الملاحظة الثامنة ﴾ اعلم أن قاعدته التى يعتمد عليها و نقطة دائرته التى يدور حولها فى دعايته أن التقدم كله والرقى والسيادة العالمية كلها وملاك ناصية الوجود كله محصور فى معرفة شيء واحد ، وهذا الشيء الواحد هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها كما صرح بذلك ، وهذه عبارته بحروفها فى ص ٨٢ : « وإن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل انواع الاستقلال والسيادة لا يعود إلى فساد فى الاخلاق ولا إلى خلاف فى الرأى والقلوب [1] ولا إلى شيء مما يحسبه الجاهلون ، إنما يعود إلى شيء واحد فقط ، يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين أى الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها » انتهت عبارته . وهى إحدى سجداته العمياء للطبيعة ونواميسها ، فالمصيبة عنده والبـــلاء الذى أصاب المسلمين هو جهلهم بقوى الطبيعة ونواميسها ، والعلم والقوة والسيادة العالمية وناصية الوجود كله

(١) كلامه صريح فى أنه لا يرى فساد الاخلاق ولا الخلاف فى الرأى ونحوه عائقا عن التقدم

بيد العارفين بقوة الطبيعة ونواميسها ، أما الأخلاق الدينية كلها من توحيد وغيره فكل ذلك بمعزل عن التقدم ، بل هو أوهام وملهاة وجهل وخرافات لها نتائج أخرى وهى التأخر والانحطاط ، وعلى هذه القاعدة المنكرة بنى جميع دعايته وجعل الدين مضادا لها وحض على رفضه ، فقد أطال فى تكرار هذه القاعدة فى كل صحيفة وجملة إلا ما ندر تكريرا مُمِلا بمغالاة زائدة ومجازفة حادة وأساليب متنوعة ، وكتابه كله يدور على هذا الغرض مع دعواه فيه بأنه حاول به فهم الدين ، فيكون قد فهم أن علم الطبيعة ونواميسها هو أصل الدين عنده ، فيكون الدين هو فهم الطبيعة ونواميسها ، فيكون الله خلقهم لذلك ويكون معنى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ أى ليفهموا الطبيعة ونواميسها ، وهذا من آيات الله فيمن خرج عن نور كتابه المبين(١)

﴿الملاحظة التاسعة﴾ إذا علمت أن أصل دعايته وأساسها الذى يدور عليه كلامه كله هو الحث على معرفة الطبيعة ونواميسها ، فاعلم أنه سهل الحصول على ذلك فجعل معرفة هذا الاصل الكبير عنده موقوفة على شىء واحد ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا بهذا السبب الوحيد ، وهذا السبب هو الاعتماد الكلى على الأسباب المادية والاعتقاد بأنها فاعلة بطبعها حتما ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، ولا يمكن الحصول على هذا الاعتقاد أيضا إلا من طريق واحد وهو الكفر بمشيئة الله وتدبيره لهذا العالم وتصرفه فيه بجميع أسبابه بالقطع والوصل والاعطاء والمنع ، فاذا كفر بهذه المشيئة المطلقة كان سببيا محضا والنجاح محتوم له ، ولا يمكن أن ينجح إلا إذا كان سببيا محضا ، فطريقة

(١) هذا مع أنه تناقض فادعى أن طريق المجد والسيادة محصور أيضا فى شىء واحد وهو تعليم المرأة ، حيث ادعى فى قوله « علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ، ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا » فجعل روح الرقى كله والتقدم بحذافيره فى تعليم المرأة ، فسبحان الخالق

الحصول على النجاح هى أن يكون الانسان سببيا محضا ، ولا يمكن أن يكون سببيا محضا إذا آمن أن الله يتصرف فى خلقه بما اقتضاه علمه ورحمته وحكمته تصرفا مطلقا بقوة قاهرة جبارة مهيمنة على كل أسباب الوجود تتحكم فى نهاياته وغاياته ، ثم انه تجاوز ذلك إلى ما هو أكبر منه[١] فأشار إلى أن الحصول على الكفر بالمشيئة موقوف على الكفر بوجوده تعالى ، فانه صرح بأنه لا إله بلا فعل ، وأن نفى فعله نفى له . ثم ادعى أن الايمان بفعله يوجب عدم النجاح وهو خلاف المطلوب كما يأتى . وإنما طول هذه الطريق وجعلها ملتوية غمغمة وتلبيسا على الجهال وضعفاء البصائر ومن ضرب الله قلبه بالطمس والاقفال والعمى ، ولهذا بالغ هذا الملحد فى الغلو بالاعتماد على الأسباب والتعلق بها وحدها وصرح بأن تأثيرها لذاتها لا لمشيئة الله وإرادته ، وادعى بأنه يجب الجزم بأن الله لا قدرة له على تغييرها عن سبيلها فلا يمكن بحال أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء جعلها غير أسباب ، أو أنه يفعل بدون الأسباب ، فان هذا عنده هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . وقد كرر هذا الأصل مرار كثيرة ، قال فى بحث التوكل (ص ٢٦٨) : « لست أقول ان التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله يدخل فيها [٢] فيجعلها إن شاء أسبابا ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها » انتهى . فتأمل هذا فانه لم يجعل الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله فى حصول النتيجة كافيا فى نجاح العمل ، بل لا بد عند الأخذ بها من الكفر بقدرة الله على تغييرها ، فلا يمكن بحال أن

---

(١) ولكنه لما وصل الى هذه المرتبة أشار ولوح وحمجم وغمغم وجعل ذلك مشكلة لم تحل

(٢) انظر الى دقة الحاده ، فانه جعل لفظ « يدخل » بدل « يتصرف » تشويها لسمعة المشيئة ، قاتله الله ما أخبثه

يغيرها الله ابداً ، فانه جعل الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله له قدرة على تغييرها وقلبها أوله قدرة على أن يفعل بغيرها فوضى وسفها لا ضابط له كما يقولون ، وقد صرح بهذا فى المشكلة التى لم تحل كما سيأتى . ولا شك أن هذا يبطل جميع النبوات [١] لأن النبوة لم تثبت إلا بالمعجزة والمعجزة هى خرق للأسباب العادية أو قلب لها وإلا لم تكن معجزة ، وهذا يبطل جميع الأديان ولهذا كان روح الكتاب هو رفض الأديان . فتبين لك أن هذا الأصل الخبيث الوحيد الذى هو مفتاح الطريق إلى الوصول إلى تلك القاعدة التى اعتمدها هو جحد قدرة الله ومشيئته العامة بل وربوبيته . ومغزى هذا وفحواه إنكار وجود الرب جل جلاله ، أو على الأقل جحد كماله ، لأن الرب الذى لا يدبر ملكه ولا يتصرف فيه بالقطع والوصل على ما تقتضيه إرادته ورحمته وحكمته إما معدوم أو عاجز كالاصنام ، والمعدوم لا شىء ، والعاجز لا يكون إلها يستحق العبادة ولا الدعاء ، ولهذا صرح فيما يأتى بأن الدعاء لا فائدة فيه بعد ان قرر أنه عبادة ، فجعل دعاء الله كدعاء المعدوم او الاصنام الذى لافائدة فيه ، فهذا حل لغز هذا الكتاب المظلم وفك طلسمه المعقد ، وبه تعرف أن حقيقته الكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء القدر

﴿ الملاحظة العاشرة ﴾ إذا علمت أن كلامه يدور على المغالاة فى التعلق بالأسباب المادية وتأثيرها بطبعها ، فيجب أن تعلم أننا لا ننكر تأثير الأسباب وارتباطها بالنتائج ، وأن تأثيرها بالقوة التى أودعها الله فيها ، فالماء عندنا يروى بنفسه ، والسكين تقطع بنفسها ، والنار تحرق بنفسها ، وهكذا جميع الأسباب مربوطة بنتائجها ، فهى عندنا كما هى عند جماهير المسلمين من أهل السنة وأصحاب الحديث مؤثرة بنفسها بالقوة التى أودعها الله فيها بمشيئته وقدرته ، ولا نقول

---

(١) بل ويبطل الاعتراف بالربوبية إذ الرب الذى لا يتصرف فى ملكه تصرفا مطلقا ليس بكامل ، بل هو ناقص مقهور

ان الأسباب لا تؤثر بنفسها أو بالقوة المودعة فيها ، وإنما ذلك التـــأثير بفعل الله عند اقتران السبب بالمسبب كما هو مذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة ، فان هذا القول مرجوح وليس بصحيح كما سوف يجيء بيانه فى بحث الأسباب . وليعلم أن النزاع بيننا وبينه فى الأسباب إنما هو فى إمكان تغييرها عن طبعها وصرفها عن وجهتها بقطع أو وصل كخلق أسباب تعارضهـــا أو تفسدها ، فهو يدعى أن الله لا يغير فيها أبدا فلا يجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء جعلها غير أسباب ، بل هى عنده مطبوعة طبعا مؤبدا ليس لقوة من القوى صرفها عن سبيلها ، فلا يمكن أن يغيرها الله أو يغير فيها شيئا . ونحن ننازعه فى هذا فنقول : إن الله خلقها وأبدعها من العدم إلى الوجود ، فهى ملكه وتحت تصرفه ، فله القدرة الكاملة والمشيئة المطلقة عليها ، فهى بنتائجها تحت سيطرة المشيئة الالهية والقدرة الربانية ، فلا تجرى إلا على مقتضى مشيئته وإرادته ، فان شاء جعلها أسبابا موصلة إلى نتائجها كما هى العادة الأغلبية وإن شاء قطعها أو غيرها فجعلها غير أسباب نافعة بل قد يحولها إلى ضدها كما وقع كثيرا ، وقد حول الله النار بردا وسلاما بعد أن كانت حرارة محرقة ، ونظائر ذلك من المعجزات ، بل كون النتائج تتخلف عن الأسباب أمر معروف لدى الخاص والعام بالضرورة والحس ، بل ليس فى الدنيا سبب واحد مستقل بنتيجته بدون سبب آخر ، كما أنه ليس فى الدنيا سبب لا يبطله سبب آخر أو يفسده أو يغيره . وينبغى أن يعلم أننا إذا أطلقنا الأديان فنريد بذلك الأسلام ودين أهل الكتاب خاصة دون غيرهم من أهل النحل الأخرى ، لأنهـا لا تسمى أديانا الا مضافة الى أهلها . واذا أطلقنا الدين الصحيح فهو ما كان عليه السلف الصالح الأول والقرون المفضلة فى أصول الدين وإثبات الصفات دون تحريفها الذى يسميه المتأخرون تأويلا ، واذا أطلقنا الأسلام فالمراد به ما كان عليه السلف الصالح ومن اتبعهم ، ويدخل فى ذلك تبعا فى الجملة البدع التى لا تخرج من الملة دون الجهمية المحضة والاتحادية وأمثالهم فان هؤلاء كفار مرتدون

﴿ الملاحظة الحادية عشرة ﴾ ينبغى أن يعلم أن أهم ما قصدناه فى موضوع كتابنا هذا هو بيان مضادة كتابه للشريعة الاسلامية بل وغيرها من الشرائع السماوية ، وأنه مضاد لها من كل وجه ، لئلا يروج كلامه الذى خادع به فيه على من لم يعرف حقيقة أمره ، ولا سيما فانه لما أسقط فى يده وارتكس فى هذا المأزق الحرج حاول الخروج والتخلص منه فأكثر من اللجاجة والمغالطة والخداع فى مخاطباته ومكاتباته ، مدعيا أنه ليس فى كلامه ما يخالف الدين ، وأنه ما قال غير الحق ، وأن الناس لم يفهموا كلامه . فأردنا أن ننبهه على هذا الأهم ، وان كان فى كتابنا ما يتضمن مباحث أخرى متعلقه بهذا الاصل . وليعذرنا القارىء الكريم مما يراه فى بعض الكلمات من الشدة . فاننا لم نعامله أكثر مما اعتدى به علينا وعلى ديننا العظيم ، ولا بد من أن يكون الجواب مناسبا لكلامه ، ومن الواجب فى مثل هذا أن ينزل منزلته اللائقة به التى اختارها لنفسه ، ويكال له بالصاع الذى كال به لغيره . ولقد كان من الممكن له أن يبدى رأيه - كغيره - بدون بهت وسخرية وتهكم واستهزاء وكذب وافتراء لا طائل تحته ولا فائدة فيه ، وبدون أن يرتكب هذا الأمر الكبير ويقتحم هذا الشىء الخطير ، ومعاملة الانسان بجنس عمله من العدل ، وليس من العدل أن يحترم من لم يحترم شرع الله ونظامه ، فلا كرامة لمثل هذا ، وصنيعه فى كتابه صنيع المتهكم المتحدّى لا صنيع العاقل المستدل المرشد ، فلا بد من الاجابة بما يليق به وبكتابه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

مقدمة

وقبل البدء فى نقض مباحثه نذكر قاعدة مهمة لابد من ذكرها لتكون كالأساس لما يأتى فى هدم جميع ما اعتمد عليه ، فنقول :

من المعلوم أن لكل مخلوق بداية ونهاية وغاية ، وأن المقصود من ايجاده غايته التى هى الثمرة المطلوبة منه ، فان الله لم يخلق خلقه عبثا ، وكل مخلوق فغايته تكون بحسب قدره فى العظمة أو الصغر وغير ذلك . ولما كان الانسان هو أرقى هذه الموجودات المشاهدة وأشرفها وأبدعها كانت الغاية المرادة منه هى الغاية فى الشرف والعظمة لشرف مآلها ونتيجتها ، فكان من الواجب أن يعرف الأنسان الغاية المطلوبة منه . وقد كان من حسن حظه أن الذى خلقه وأبدعه من العدم وأعطاه كل ما يحتاج اليه من النعم هو الذى بين له الغاية بكلامه بنفسه بأوضح بيان وأجله وأجمله فقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ﴾ فنص أنه خلقه لعبادته نصا صريحا . وقد بين سبحانه هذه الغاية الجليلة وفصلها فى كتابه تفصيلا واضحا جليا أعظمها وأجلها بل قطبها وروحها قصده بالدعاء والتضرع وما يتضمن ذلك من الأحوال الفعلية من التوجه والافتقار والاعتماد الكلى عليه فى كل مهمة ومقصد . وتفصيل هذا الأصل العظيم الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له مبسوطة فى النصوص لسنا بصدد تفصيلها هنا ، وانما نبين الأصل الذى هو الغاية المقصودة من ايجاد هذا المخلوق البديع ليعلم الأنسان المراد من إيجاده فيتبين له ان ما أصابه من سوء إنما هو لتفريطه واهماله لنفسه لعدم إتيانه بما طلب منه إما إعراضا وإما تقصيرا . ويجب عليه مع هذا أن يعلم أن الله سبحانه غنى عنه وعن عبادته ، وانما أمره بذلك لحكم عظيمة من أعظمها تزكيته وتطهيره وتقويته وتقديسه بالعبادة ليكون متأهلا لمجاورته تعالى فى المقامات العالية المقدسة فى الدار الآخرة مع ما يناله فى الدنيا من روح العبادة ونورها ولذتها وفرحها وعزتها

وكل هذه التكاليف الدينية السهلة اليسيرة المفروضة عليه والمعلقة بها سعادته لا تستفرغ معشار حياة الانسان ، وتلك من مظاهر وآثار رحمته وفضله وإكرامه فلا بد من ظهور آثار أسمائه الحسنى المشتقة من صفاته العليا فى هذا الوجود

ولما كان الانسان خلق ضعيفا جهولا مقذوفا به بين هذا العالم المظلم المملوء بالطغيان والظلم والجهل والعدوان ، وهو عرضة للتلف والمصادمات القاسية ، فلا يمكن بحال كما هو الواقع أن يرشد نفسه بنفسه وأن يمنعها من شر غيره ، فاقتضت رحمة من خلقه ورباه أن ينزل اليه فى هذه الظلمة نورا ساطعا كالشمس ويجعل له عقلا كالبصر يبصر به هذا النور المبين الذى هو الكتاب والسنة وهما أصل الدين ، فاعطى هذا النظام العظيم المقدس الذى هو فى غاية الإحكام والاتقان ليتمشى على ضوئه فيعدل ظلمه ويزيل جهله ويسلك به الطريق التى فيها خلاصه من كل سوء ومكروه ، فهو المصباح المنير والحرز الكبير والجنة الواقية ، وقد وعده — ومن اصدق من الله قيلا — بالسلامة والتوفيق والهداية والتمكين متى اعتصم بهذا النظام المحكم وعض عليه بالنواجذ ، وأعلمه أن رشده وعزه وتمكينه وحفظه موقوف على المحافظة عليه ، وأنه إن أعرض عنه فقد تلف لا محالة ، وأن التباب والخسار والدمار والهلاك المحتوم فى تركه والاعراض عنه فسماه نورا ، فان من فقد النور فهو فى معرض العطب ، وسماه روحا لأن من فقد الروح فهو فى حكم الميت ، والنور والروح هما أصل القوى كلها ، كما سماه ايضا برهانا وبينة وحقا وهدى وصراطا مستقيما ، فان من فقد هـــذه الأمور فهو على باطل وفساد وجور وفوضى ، ومن حظى بهذه النعم فاز بالحياة الصحيحة النافعة المستمرة ، قال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الأيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله

الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور ﴾ . وقال تعالى ﴿ ياأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض (١) وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا عن الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا اولئك فى ضلال بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة شهيرة . وعن على رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « انها ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله . قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس

---

(١) كثيرا ما يذكر الله سبحانه ملكه للسموات والأرض بعد الأمر بالاعتصام بكتابه ومدحه . وفى ذلك سر بديع وهو ارتباط سننه الكونية بسننه الشرعية وأن من اتبع سننه الدينية التى شرعها لخليق أن ينتفع بخيرات هذه السموات والارض انتفاعا صحيحا مستمرا . وفيه إشارة الى عظمته فانه اذا كان مالك هذه السموات والارض فيكون لا أعظم منه فيكون لا أعظم من تأثيره فان عظمة الرسالة تكون على قدر عظمة المرسل

بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء » وفى رواية « ولا تختلف به الآراء هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » رواه الترمذى وغيره . والاحاديث فى هذا كثيرة معروفة . فكل من تمسك بهذا الدين العظيم واعتصم به فقد سار على نور وبصيرة مستمسكا باسباب قوته ، ومن خرج عن هذا الدين أو تساهل فى الأخذ به فقد بعد عن هذا النور والروح والهداية والأمان بقدر خروجه وبعده وتساهله ولا يظلم ربك أحدا .

فاذا عرفت أن الله خلق الخلق لهذه الغاية الجليلة وأنه بين لهم الطريق التى توصلهم اليه والى ما خلقوا له فاعلم أنه سبحانه مكنهم فى الأرض وسخر لهم جميع ما فيها وأباح لهم من الطيبات وفعل الأسباب مالا يدخل تحت حصر ليتم نعمته عليهم بذلك وليتقووا به ويستعينوا به على عبادته وجهاد أعدائه ، فهذان أمران تجب ملاحظتهما : أحدهما أنه خلق الخلق لعبادته ، وثانيهما أنه سخر لهم ما فى الأرض جميعا ومكنهم فيها ودلهم على فعل الأسباب الممكنة النافعة ، كل ذلك لأجل العبادة بأنواعها . فالأمر الأول هو الغاية والثانى وسيلة اليها . وبهذا يتبين لك أن ما نال المسلمين من الوهن والضعف ليس ناشئا عن التدين بالدين ، وانما نشأ عن اضاعته والتقصير فى القيام به كما يجب ، فانهم لم يقوموا به على الوجه المطلوب ، بل منهم من أضاع ومنهم من قصر ، فلو طبقت التعاليم الدينية الصحيحة على أحوال غالب المسلمين أو من ينتسب الى الأسلام اليوم لوجد اختلاف كثير وخلل كبير ، فما نالهم من التأخر انما هو بسبب عدم المحافظة عليه والتضييع له . هذا هو أصل التأخر وأساسه ، فكيف

ينسب تأخرهم ووهنهم إلى التمسك بالدين وهم لم يتمسكوا به لا فى عبادة الله ولا فى فروعها كفعل الأسباب النافعة التى أرشدهم الله الى فعلها فقصروا فى الأمرين جميعا ، فنتج عن هذا التقصير العظيم قصورهم عن غيرهم ممن فعل أكثر الأمر الثانى ، وإلا فلو فعلوا الأمرين لنجحوا حتما ، فمن المحال أن يوجد شعب أو أمة حافظت على دينها كما ينبغى فنالها الضعف والوهن أبدا ، ولو أن هذه الشعوب الراقية فى الاسباب الصناعية ونحوها أضافت الى ذلك دينا صحيحا لازدادوا قوة الى قوتهم وحياة صحيحة الى حياتهم المنكدة المهددة ، ولكان ذلك أعظم عاصم لهم من الأنهيار العظيم المتوقع ، ومن التورّط فى أسبابه التى عسر حلها وخشى كلٌّ عاقبة أمرها . ومما يبين لك بالبرهان الواضح القاطع أن الاعتصام بالدين ملازم للنصر والتقدم والتمكين أن الجاهلية الأولى التى كانت قبل النبوة لما كان الدين معدوما لديهم كانت العرب فى أسوأ حالة من الحالات المزرية الوضيعة جدا فلما جاء الأسلام ودخلوا فيه أفواجا فأخذوا بتعاليمه ومبادئه المقدسة على حالته الجديدة كان أولئك العرب الذين كانوا على تلك الحالة أعظم الناس استقامة فى أخلاقهم وأرواحهم وآرائهم ، فاثر فيهم هذا الدين القوى القويم انقلابا عجيبا عظيما فى أسرع وقت ممكن حتى غلبوا على قلتهم وفقرهم أعظم دولتين على وجه الأرض ، ونالوا من العز ما لم تنله أمة قبلهم ولا بعدهم فى أقصر وقت عرف ، وما زال المسلمون فى تقــدم ورقى واتساع ملك عزيزين مستقيمين على تلك الحالة الصحيحة الطيبة حتى حرجت صدور أعدائهم من زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم ممن سلبوا ملكهم لما علموا أنه لا طاقة لهم بحربه بالاسباب المادية ، فدخلوا فى الأسلام كيدا له ولأهله ، فنافقوا وخادعوا وأدخلوا على أصوله وتعاليمه السامية ما يناقضها من الدسائس الغريبة الخبيثة التى لا تناسبه بل تناقضه ، وادعوا أنها من أصول الدين ، فلبسوا على من قلَّ نصيبه من العقل والدين ، فبدلوا قواعده وأصوله الثابتة بقواعد وأصول واهية ، كما بدلوا علوه تعالى فوق العرش بأنه لا داخل العالم

ولا خارجه ، وبدلوا كلامه لموسى وكلامه بالقرآن بأنه خلق كلاما فى غيره فتكلم عنه وأمثال ذلك من تحريف الصفات حتى غيروه ، وما زال هذا البلاء يزيد وينتشر فى صميم الاسلام حتى تناثرت أجزاؤه وتداعت أركانه

ومن المعلوم أنه من عهد الخلفاء الراشدين الى عهد المأمون والاسلام فى عزّ منيع وقوة قاهرة واتساع باهر ، فلما غلبت الجهمية على عقل المأمون فأدخلوا عليه العلوم الخبيثة التى هى علوم الزندقة وهى طريقة الجهمية النافين لعلو الله على خلقه فوق عرشه القائلين ان كلامه مخلوق أو أنه لم يتكلمه بحروفه ومعانيه ، وطريقة الرافضة التى مضمونها القدح فى الاسلام وأهله ، فحسنت الجهمية له القول بخلق القرآن وأنه تعالى ليس فوق العرش ، وأنكروا رؤيته فى الآخرة ، ونفوا كثيرا من الصفات حتى شغف المأمون بهذا الوباء الفاتك وأكره الناس على الدخول فى تلك التعاليم المنكرة الخبيثة وقتل وحبس وعذب كل من لم يدخل فى ذلك وجعل هذه القواعد الكفرية دينا يدان الله به بدلا عن قواعده الشرعية الثابتة فبدل قولا غير الذى قيل له : بدل قواعد الاسلام بقواعد الكفر ، واجبر الناس باتباعها قهرا واضطرارا ، فاضطرب الاسلام لذلك وتغيرت حالته فاخذ فى النقص والتدهور ونزل من أعلى قمة وصلها من وقت المأمون الى هذا الوقت الحاضر ﴿ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وكل هذا بسبب آراء الجهمية الزنادقة التى ارتكزت على قوة هذا الخليفة الضال الظالم الذى لا يعظمه الا جاهل لا خلاق له ، فانه أول خليفة سعى فى هدم الاسلام ، ثم لم تزل هذه العلل الخبيثة مصاحبة له سارية فيه تارة تضعف وحينا تقوى فان قويت ضعف وإن ضعفت قوى بحسب العوامل والظروف المقارنة له ، ولكنها كلما بعد العهد عن زمن الرسالة قويت هذه العلل فيتبعها الضعف ، ولهذا لما اجتمع التجهم والرفض وفروعهما فى وقت المستعصم بسبب تمكن دعاة هذه المذاهب من مقام الخلافة وتلاشى مذهب أهل الحديث والسنة فى العراق وما والاه جرى على تلك الاقطار ماهو معروف

من فتنة التتار الشنيعة ، فكان اجتماع هذه المذاهب الخبيثة فى أهلها كاجتماع الجذام والبرص فى الجسم ، وأنّى يحيى جسم عمه هذا البلاء . فأكبر دهليز دخل منه الملاحدة وأعداء الدين على الاسلام دهليز التجهم والرفض ، وأعظم اعتقاد جرّ الى الالحاد اعتقاد التجهم والرفض ولم يستول الاجانب على الاقطار الاسلامية الا لما فشت فيها هذه المذاهب . ولا شك عند كل عارف بدينه أنهما يضادّان الاسلام أعظم مضادة وأن من أدخلهما فيه فهو لا يعرف دين الاسلام بحدوده الشرعية ، فمن أكبر الخطأ اذن إلصاق أعمال هاتين الطائفتين بدين الاسلام وهما أعظم أعدائه وأضداده ، ومجرد الانتساب بالدعوى لا يغنى فى الحقائق شيئا

اذا تقرر هذا فدين الاسلام هو النور والروح والحق والبرهان والهدى ، وهو دين الحكمة والعدل والعلم العقل والعز والتقدم والقوة الصارمة التى لا يقف فى وجهها شىء من أى قوة كانت ، فان مبناه على صلاح الأرواح وتقويتها وثباتها ، فليس فى الدنيا خير إلا والدين كفيل به ، وليس فى الدنيا شر إلا والدين كفيل ببيانه والتحذير منه ، فانه ينهى عن عبادة المخلوقات بأنواعها والخضوع المرذول والتملق لها ، وعن جميع الفواحش والمنكرات كالكذب والبهت والخيانة والنميمة والغش والنفاق والخداع والظلم وجميع الاخلاق الممقوته ، كما أنه يأمر بالمساواة فى الحقوق البشرية وانه لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى ، وهذه القاعدة الكبرى هى أصل العدالة والنظام فى الحقوق البشرية ، ويأمر بنصر المظلوم وإغاثة الملهوف والضعيف والبر والصلة والرفق بالضعفاء والبهائم ، ويأمر بالشجاعة والكرم والصبر والثبات والنصح فى الأعمال والصدق فى الاقوال والبعد عن الرذائل وأمثال ذلك ، وهذه هى اسس النهضات العلمية والعملية كلها ، وما دخل الناس الفشل إلا بسبب إهمالها أو إهمال أكثرها فما من خصلة حميدة إلا قد أمر بها وما من خصلة ذميمة الا وقد نهى عنها . والحث على هذه الأمور مشهور فى نصوص الكتاب والسنة ، فمن جعل هذه

الخصال أغلالا فقد عكس الحقائق عكسا بينا، وانما جعلها هؤلاء أغلالا لأنهم وجدوها أغلالا تغل الانسان عما يحاوله ويجمح اليه من الانحدار في دركات الإلحاد والغي واللهو والفسوق والفجور التي تضادّ هذه الخصال من كل وجه، فلولا أخــلاق الدين الساميــة لم يكن بين الانسان وبين الحيوانات المنطلقة وراء شهواتها أدنى فرق إلا بمجرد الصورة الجسمية لا غيرها

وينبغي أن يعلم أننا لا نريد بالعبادة المذكورة هنا لزوم المساجد والزوايا والعكوف فيها دواما ومتابعة الصيام والانقطاع عن جميع الاعمـال الدنيوية وأمثال ذلك مما يظنه الجاهلون، وانما نعني بالعبادة اتبـاع أوامر الله سبحانه وتعالى التي أنزلها في كتابه، وهي ولله الحمد سهلة يسيرة على من باشر قلبه الايمان، وكل عمل يكون يسره وعسره بحسب مافي قلب صاحبه من الاقبال عليه والرغبة فيه وحبه لذلك العمل، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وفروض الشرع كلها يسيرة معروفة اعتقاداتها وأعمـــالها وأقوالها. ومن المعلوم أن هؤلاء الذين يتركون الأوامر الدينية يبتلون بأغلال القوانين القاسية وبالذهاب الى أعمال وإشغال لا نفع فيها من ملاه وخلاعة وغيرها وهي تعطل عن العمل الديني والدنيوي النـافع، فهم كما لا يتقيدون بأوامر الشرع فلا بد أن يكونوا مقيدين بقوانين ضيقة عسيرة، فان الانسان مهما بلغ في الرقي لا يمكن أن يترك بلا نظام يمسك عنان أغراضه وشهواته. وعلى كل حال فان الله سبحانه وتعالى قد ضمن لكل من قام بشرعه أن ييسر له أمره ويجعل له فرجا وأن يعطيه من الفرح والسرور والراحة والطمأنينة ما يوجب أن تكون حياته سعيدة صحيحة، وأن من رفض شرعه فلا بد أن يعاقب بقوانين ونظم كالأغلال والقيود الضيقة العسـيرة ستوصله الى أصفاد وأغلال جهنمية مستمرة وبيلة. والعاقل يختار لنفسه ما يخلصها ويسعدها، والله لا يضيع أجر من احسن عملا.

وكما أن الدين هو أساس كل خير ونهوض وفلاح ونجاح وهو مصدره

ومنبعه كما ذكرنا فإن الالحاد ورفض الاديان هو أصل كل شر فى الدنيا وعنصره وعلته ، فلا يوجد فى الدنيا مصيبة وعناء وشر وبلاء الا وهى نتيجة الكفر وفروعه وأثره . وأنت اذا تأملت كل شر ونقمة وبلاء ومحنة حدثت فى الدنيا من أولها الى آخرها وجدت أن أصل ذلك عدم التدين أو البعد عن الدين . فالهلاك الذى أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأمثالهم ما هو الا بسبب رفض الأديان التى جاءتهم بها رسلهم . ولما كان قوم لوط هم أشد الخلق انغماسا فى الاباحية وانطلاقا فى اتباع شهواتهم كانت عقوبتهم أشنع عقوبة وأفظعها فناسب أن تكون عقوبتهم لجريمتهم ، وكذلك الأمم التى جاءت بعد تلك الأمم الى هذا الوقت الحاضر فان العقوبات المتنوعة لا تزال متتابعة عليهم فهذه المجازر الواسعة النطاق والحروب الطاحنة المتصلة حلقها ما هى إلا نتيجة الكفر والالحاد ، وكل أمة من هذه الامم فانها تصاب بقدر ما معها من الالحاد والكفر . ولما ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الامم السابقة وذكر ما حل بهم من العقوبات ذكر أن من سلك سبيلهم فسيحل به ما حل بهم فقال تعالى ﴿ فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ وقد اخبرنا بسنته فى الأولين أنه الهلاك لا محالة لكل فى خالف الرسل ، وقال تعالى ﴿ فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قال الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فاصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾ فتأمل هاتين الآيتين وما فيهما من العبر ، فقوله ﴿ ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ﴾ فانه اذا استحصل على ما استحصل عليه من نعمة الدنيا قلت أو كثرت أسند ذلك الى نفسه وعمله وقوته وطبيعته

واستعداده ومواهبه لمعرفة ذلك . وحقيقة هذا أنه استحصل على هذا بعلمه الذى به استعمل الاسباب المحصلة له ذلك [1] ولم يقل هذا بفضل من الله وتوفيقه ، فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ بل هى ﴾ اى هذه النعمة إنما أوتيتها ﴿ فتنة ﴾ لك لننظر كيف تعمل فيها ، فاما أن تعمل بالطاعة فهى متاع حسن الى حين ، وإما أن تكفر بها فتجازى بسلبهامنك وتعاقب بها كأسلافك . فلا بد من أحد الأمرين . ثم أخبر تعالى بان هذه القولة ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل هذا الانسان القائل بتلك المقالة الجائرة ، قال تعالى فى أولئك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى فما أغنى عنهم ما كسبوه من الاسباب التى اعتمدوها وهى هذه النعمة التى ادعوا أنهم أتوها على علم فلم يغن عنهم ما معهم من تلك الأسباب وغيرها شيئا ، بل ﴿ أصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ القائلين بمقالتهم ﴿ سيصيبهم ﴾ مثل ما أصاب اولئك ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ فانها سنة الله فى هذا النوع با نه يصاب بسيئات ما كسب حتما وما هم بمعجزيه سبحانه وتعالى

والمقصود أن من تأمل هذه الحروب الفظيعة المشتملة على المحن والمصائب المتنوعة وجدها عقوبات محضة من جنس العقوبات السابقة ، لما سلك هؤلاء سبيل أولئك وقالوا مقالتهم انما أتوه على علم ، وقد قال تعالى ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة امرها خسرا ﴾ وقد وقع كل هذا الذى أخبر الله به عز وجل ووعد به الملحدين الظالمين ، فهذه المواضع التى طحنتها الحروب وترددت عليها كرة بعد كرة حتى سحقتها سحقا شنيعا هى التى بيتت فيها عناصر الالحاد وهى التى نبتت فيها أصوله ورسخ فيها وباؤه ، وأكثره مستمد من هذه المواضع ، ففيها الحظ الوافر من العتو عن

---

(١) وهذا عين كلام ملاحدة العصر كصاحب الأغلال

أمر ربها فلهذا اذيقت الحظ الوافر من البطش الشديد والفتك المفزع والعذاب الفظيع . والحكمة فى أن عذاب هؤلاء المتأخرين ليس كعذاب الامم السابقين فى الصفة المتحدة بل كان متنوعا هو ان كفر اولئك كان متحدا جنسا فكل أمة منهم كان كفرها نوعا واحدا فكان عذاب كل أمة نوعا واحدا بخلاف الأمم المتأخرة فان كفرهم كان متنوعا فمنهم الوثنى المشابه لقوم نوح وامثالهم ومنهم الإباحى كاللوطى ومنهم عباد الطبيعة كقوم ابراهيم ومنهم على غير ذلك فكان كفر هؤلاء ممتزجا من كفر اولئك فكان عذابهم ممتزجا من جنس عذاب اولئك كما امتزج كفرهم بكفرهم قال تعالى فى الامم السابقة ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا﴾ وهكذا كان عذاب الامم المتأخرة على هذه الصفة وايضا فان كفر الأمم المتأخرة كان اكثر أسبابه الافتتان بالطبيعة وجمالها ومظاهرها وموادها فكان عذابهم بهذا الشىء الذى فتنوا به وتوجهوا اليه وشغفوا بحبه والتعلق عليه والامل فيه والطبيعة مظلمة عاتية وهم لكفرهم وبعدهم عن نور الدين كانوا مظلمين عاتين مناسبين لها فى الطبيعة فصدمتهم واصطدموا بها فجرعتهم من علقم مرارتها اضعاف ماذاقوه من حلاوة عسلها . وايضا فان كفرهم كان بسبب الدعايات واللذات التى نالوها من هذه الانتاجات والصناعات المستخدمة فكان من الحكمة الالهية ان ياتيهم العذاب من الجهة التى جاءتهم منها الدعايات ونالوا منها اللذات وان يكون هلاكهم بجنس الآلات التى استخدموها وجعلوها سببا للحياة فانقلبت عليهم هذه الاسباب فصارت نقمة بعد أن حسبوها نعمة . وتأمل بعين البصيرة كيف كثرت آلات الفتك والقتل لما كثرت دعايات الكفر والالحاد ورفض الاديان ، وكلما توسعت دائرة الالحاد توسعت بازائها دائرة عوامل الهلاك والفتك والمحن والمصائب ولما فشت وتوسعت مذاهب الاباحية واللادينية ظهرت بازائها مخترعات القتل والفناء العام كالطاقة الذرية ونحوها فجنس هؤلاء الذين بثوا دعايات الالحاد ورفض

الاديان قد هيئوا بازائها للملحدين من الكيد والمكر والاستعداد اسبابا من جنس أسباب تلك الدعايات تقضى بهلاكهم وتكدير لذاتهم فهم كما أنهم يصنعون لهم من جانب آلات للذات فهم يعملون لهم من الجانب الآخر عوامل هلاك ودمار ومصائب وبلاء ومحن . وها نحن أولاء لا نزال نرى هولاء العاتين فى كل وقت وحين تصيبهم بما صنعوا قارعة تلو قارعة وقارعة قد حلت قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد

وبالجملة فكل سبب يعتمد عليه الانسان اعتمادا كليا غير ملتفت الى ربه الذى خلقه وخلق سببه بل يتخذ هذا السبب إلها من دون الله يتعلق به ويعتمد عليه وينسى الله وراءه فان سببه هذا سيكون وبالا عليه وسيعاقب به ولا بد ، وإن تأخر زمنا أو فترة فلا بد من وقوع سوء عقباه ، فقد يتأخر عذاب الملحدين وعقوبتهم زمنا أو فترة كما تأخر عذاب الامم السابقه ولكن لا يمكن بحال ان يتركوا بحالتهم مستمرين فى غيهم او ظاهرين على غيرهم من المتدينين فان سنة الله فى خلقه تأبى هذا كما انه لم يقع ابدا

فما أسفه رأى من ظن أن رفض الدين هو سبب الحياة والتقدم وهو يرى ما اثبته التاريخ والأبصار والبصائر من أن رفض الدين هو سبب الدمار والهلاك الأبدى ، كما أنه لا أضل رأيا ولا سعياً ممن ظن أن الله يخلق خلقا لعبادته وقصده والتوجه اليه والاعتماد عليه ثم يرفضون ذلك فيتركون هملا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ثم لا ينتقم منهم كما انتقم من أسلافهم وهو يقول فى كتابه العزيز ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ويقول ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

إذا عرف هذا كله فعلينا إذن من الواجب المحتم أن نعرف طريق المجد والنهوض والخلاص معرفة صحيحة محققة . نعم انها هى هذه الطريق النيرة الواضحة ، هى طريقة الدين ، هى الطريقة السلفية ، هى التمسك بالاخلاق الدينية

الاولى فى أصول الدين . يجب ان نعلم ونعتقد أن نهوض المسلمين ومجدهم واستقلالهم وخلاصهم كل ذلك معلق بهذا الحبل السماوى ، معلق بالقيام بهذا الدين المتين قياما صحيحا صادقا صارما ونفى الشكوك والأوهام الملصقة به وابعاده عن مضايق التأويلات والتحريفات والتعسفات المزيفة المولدة من المحاماة للمذاهب والأنساب والاسلاف ، فالقيام بهذا أعظم كفيل لتقدمهم ونجاحهم ولا يمكن لهم تقدم ولا نجاح مهما حاولوا وفعلوا بدون ذلك أبدا ، فان هذه الدولة الاسلامية لم توجد وتتكون إلا على روح الدين ، فبوجود روحه وقوتها يعظم ويقوى ، وبعدم روحه أو ضعفها يضعف ويتأخر ، وكل هذه الاحزاب والتعصبات القومية الثائرة الهائجة الطائشة فمآلها الفشل والهبوط ما لم تكن روحها عصبية دينية اسلامية ، وبهذا السلاح الجبار وبهذا النور الساطع وبهذه الروح الصارمة الوثابة الملتهبة يكتب لنا النصر والمجد المنشود ان شاء الله تعالى وبه الثقة والاعتماد

الكلام على اسم كتابه

(هذى هى الأغلال)

من عجيب أمر هذا الرجل أن الله لما قلب قلبه وعكس بصيرته تصور ما جعله الله نوراً وروحاً وفرحا وسرورا من تعاليم الدين الحنيف أغلالا وخرافات واوهاما ، فسمى كتابه (هذى هى الأغلال) ، ولهذا أطال فى تكرار ذكر الأغلال والخرافات والأوهام ، فرمى المسلمين بدائه ، وضرجهم بدمائه . ويا ليت هذا الأحمق فكر فى نفسه ليعلم أنه هو الذى أصيب بهذه الأدواء ، وأنه هو الذى غلت بها عنقه ويداه فالأولى له أن ينعى نفسه ولا يرمى ببلائه غيره ، وفى المثل « رمتنى بدائها وانسلت » فلقد كان من عظيم قدرة الله تعالى القاهرة وأنه يحول بين المرء وقلبه أنه لما طمس على بصيرة هذا الرجل وخسف بقلبه جعله يسمى كتابه (هذى هى الأغلال). وهذا من عجائب قدرته تعالى ، ولو لم يسمه بهذا الاسم لسميناه نحن به ، ذلك أن الناس كلهم اذا صنف أحد منهم مصنفا فأنه يسميه بما يتضمنه من الفوائد التى يحث عليها ذلك الكتاب فيختار له الأسم الحسن الذى يطابق مسماه كما يقال الشفاء والمصباح والمنهاج والدليل والأفراح وهكذا ، لأن الاسم عنوان على ما يتضمنه الكتاب ويحث عليه ، لا على ما يحذر منه ، ولهذا لا تكاد تجد رجلا يسمى كتابه هذى هى السموم أو الضلال أو الظلام أو القيود أو الأغلال إلا اذا كان يريد أن يحث على ذلك ويدعو اليه ، ثم انه لعظم شقائه أكده بقوله « هذى هى الأغلال » لئلا يظن ظان أنه يريد بيان الأغلال أو يكون المحذوف شيئا يصرف ما يفهم ظاهر هذا الاسم ، فدفع بهذا التأكيد هذا الاحتمال وبين بأوضح بيان أن كتابه هو الأغلال التى لا شك فيها كما لو أن ظرفا مملوءاً بالسموم فيكتب عليه عنوانا « هذى هى السموم » فلا يفهم أحد من هذا العنوان أن داخله دواء للسموم وهو مكتوب عليه ذلك ، فهكذا قوله « هذى هى الأغلال » فأنه ينبغى أن يكون

المراد بيان إزالة الأغلال . ولو أن كتابا كتب عليه هذا هو التوحيد فليس المراد منه إلا الحث على التوحيد لا نفي التوحيد ، ولهذا لا تكتب على الكتب التي يحض فيها على التوحيد « هذا هو الشرك » ولو كان فيها التحذير من الشرك لأن المقصود هو الحث على التوحيد . نعم لو قيل بيان الشرك ونحو ذلك لكان له وجه كما لو أن هذا قال بيان الأغلال أو كسر الأغلال وأمثال ذلك فقد يكون له وجه أيضا ولكنه لعماية بصره أكده باسم الأشارة والضمير دفعاً لأزالة هذا الأحتمال البعيد . وطرد هذا ان الأنسان الذى عنده ظروف فيها سموم وأدوية وأغلال مرصودة فأنه يكتب عليها هذى هى السموم وهـــذى هى الأدوية وهذى هى الأغلال فيعرف أن داخلها هذه المسميات ، وكل عاقل يعرف أن هذه الأشياء صنعت لأمورها الخاصة . فلو أن رجلا وجد ظرفا مكتوبا عليه هذى هى السموم ثم أخذ ما فى داخله فأكله فعطب لكان قد جرّ على نفسه البلاء ، ولو ظن أن داخله دواء للسموم لم يكن معذوراً بل يكون فاسد الفهم والذهن عند جميع العقلاء ، فلا أسخف عقلا وذهنا وفهماً ممن يرى كتابا مكتوبا عليه « هذى هى الأغلال » ، ثم يفتن فيأخذ أغلاله فيجعلها فى عنقه ويديه ثم مع ذلك يظن ـ لعماية بصيرته وبصره ـ أن الناس مثله ، فأن هـــذا غاية الضلال

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى الأغلال فى مواضع من كتابه العزيز كلها اذا تأملها الأنسان وجد هذا الرجل متصفاً بصفات من استحقوها . منها قوله تعالى ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا فى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأخبر تعالى عن هؤلاء الكفرة المكذبين بالبعث الكافرين بربهم أن فى أعناقهم أغلالا . ومعلوم أنهم إنما كفروا بآيات ربهم وكذبوا بالبعث لأنهم تصوروا كما تصور هذا الرجل أن الأيمان والأعمال الصالحة ومتابعة الرسول وتصديقه بالبعث أغلال تعوقهم عن التمادى فيما ألفوه من الأغراض والأهواء

والغى والضلال ، فكان هذا الرأى الذى رأوه هو فى الحقيقة الأغلال التى غلوا بها فى أعناقهم ، ولأنهم لشدة كراهتهم للحق وعدم الانقياد اليه كانوا كمن سلسلوا بالأغلال فلا يستطيعون المضى الى ما ينفعهم من الأعمال الصالحة والمتابعه للرسول . وهذا الرجل كفر بالله تعالى حيث رفض دينه ودعا الى رفضه وادعى أن عبادته ملهاة ومصرف خبيث وكذب بالبعث فأنه ذكر [١] ضرر الأيمان بالنعيم الأخروى وأنه عامل من عوامل التأخر لأن المؤمن يأمل النعيم الاخروى فيشغله أمله وعمله لهذا النعيم عن العمل لهذه الحياة ، فيكون أمله عائقا عن التقدم ، وكتابه فى الحث على التقدم ، فهو حث على التكذيب بالبعث كما هو ظاهر

ومنها قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ الى قوله ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فهؤلاء الكفار الذين قالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه انما قالوا ذلك لانهم رأوا كما رأى هذا الرجل وكما رأى جميع الملاحدة والكفرة أن الايمان بالقرآن وبما بين يديه أغلال تمنعهم عن بلوغ ما يريدونه ويرونه نافعا لهم أو غير نافع ، فلهذا قالوا هذا القول وخالفوا القرآن لظنهم انه أغلال ، فجعل الله فى اعناقهم أغلالا حقيقية جزاء لهم على هذه الآراء التى هى الاغلال الحقيقية ، فما فروا منه بنظرهم المطموس ورأيهم المعكوس وقعوا فيه ، ولهذا كانت حالتهم كحالة العصاة المعتدين الذين أوقفوا لدى الحاكم العدل فى معاتبة بعضهم بعضا ومنازعة بعضهم بعضا ، فان الله تعالى يقول بعد قولهم ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ : ﴿ ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم

---

(١) أى فى « المشكلة » فى آخر كتابه

مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهـــار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا ، وأسرُّوا الندامة لما رأوا العـــذاب وجعلنا الأغلال فى اعناق الذين كفروا ، هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فتأمل هذه المنازعة والعتاب الشديد بينهم فى هذه الحالة الذليلة تجد الأمر كما ذكر . وما أجمل قوله تعالى آخر الآية ﴿ هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فانهم عملوا أعمالا هى الاغلال الحقيقية خوفا من الأفراح التى تصوروها أغلالا فكانت هذه الاغلال التى عملوها موصلة لهم الى الاغلال الجهنمية الـــتى هى مسبباتها ونتائجها ، وهكذا كل مبطل يجازى من جنس عمله

ومنها قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ الى قوله ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ فدل على أن كفرهم بالله ورفض الايمان والأعمال الصالحة هو الاغلال الحقيقية ، فان الله تعالى وصفهم بهذا الوصف الذى هو ضد الايمان والعمل الصالح ، ودل على أن من اتبع الذكر فهو سالم من الأغلال ، ومن رفض الذكر فقد جعل الله فى عنقه أغلالا مستمرة . وهذا الرجل رفض الذكر وعاداه وجعله ملهاة ومصرفا خبيثا ونكبة وشرا وخرافات وأوهاما وأغلالا عائقة عن التقدم فلم يخش الرحمن مطلقا . ومنها قوله تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ . فأخبر أن هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله مصروفون عن الحق وانهم كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، ومعلوم أنهم ما فعلوا ذلك الا من اجل أنهم فكروا كما فكر هذا الرجل وأمثاله من الملاحدة والزنادقة فرأوا أن التصديق بالكتاب وبما أرسل الله به رسله واتباع ذلك أغلال تعوقهم عن التقدم والاستمرار فيما يريدونه ويهوونه كما قالوا ﴿ ان نتبع الهدى معك

تتخطف فى أرضنا ﴾ أى نكون ضعفاء أذلاء مغلولين عن مكافحة أعدائنا بالقوة كما يقول أتباعهم ، وهذا الرجل كل كتابه فى هذا الغرض فى التكذيب بالكتاب وما أرسل الله به رسوله والجدال والعناد والمكابرة فى ذلك ، فقد اتصف بهذه الصفات كلها حتى قلب الله قلبه فأخبر عما تصوره فى تعاليم الدين بأنها أغلال فسمى كتابه (هذى هى الأغلال) . فليس هو ببدع من إخوانه الكفار والمنافقين فى هذا التصور الذى تصوره فى الأخلاق الدينية من الأيمان والعمل الصالح ، بل هذه هى سجية كل كافر ومنافق ، فلهذا تبع سلفه فى هذا التصور كما تبع سلفه فى معاداة هذه الأخلاق ، تشابهت قلوبهم ، فقوله (هذى هى الأغلال) نقول « نعم هذى هى الأغلال التى فى عنقك » فهلا راجعت نفسك أو استرشدت من غيرك حتى تسعى أو يسعى لك فى الانفكاك منها ، لكنك رأيت صورتك فى غيرك فشنعت عليه توهماً وضلالا فى تصورك

قبيح من الأنسان ينسى عيوبه ويزعم عيباً فى أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها به اكتفى

هذا مع ملاحظة أنه كان قبل ذلك فيما يزعم فى هدوء وراحة وطمأنينة نفس ، فلما انسلخ والعياذ بالله وطفىء نوره غل بهذه الأغلال ، فأخبر عن حالته التى رسمها فى كتابه بما تضمنه هذا الاسم الواضح الصريح . نسأل الله السلامة بمنه تعالى وكرمه

(الكلام على فاتحة كتابه)

اعلم أن هذا الرجل لم يبتدىء كتابه ببسملة ولا حمدلة ، لأن ذلك عنده من القديم الذى يجب هجره ورفضه ، ولا يناسب الابتداء به موضوع كتابه فان موضوعه رفض هذه الأمور الاعتقادية الدينية . وأيضا فان كتابه لا يناسب الرحمة بل يناسب الغضب واللعنة والطرد والابعاد ، فكان من حكمة الله أن صرفه عن الابتداء بها ، وقدذكر جملة فى أول كتابه مستفتحا بها ومعجبا

بها ومستعيضا بها عن البسملة والتحميد والشهادتين والصلاة على النبي ﷺ كما يفعله المسلمون فى مصنفاتهم ، فذكر هذه الجملة عوضا عن ذلك ، ونحن ننقلها برمتها ونجيب عليها بما يبين مقدارها ، ونبين أنه لو لم يكن فى هذا الكتاب من الأدلة على فساده إلا هذه الجملة لكفى ، فكيف وفيه من السخافات الكثيرة مالا يدخل تحت حصر كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى

قال « ان الجهل الاعتقادى قد ضرب على قومنا عقدا فوق عقد ، وان أفضل ما يفعله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد . إن للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج : اولاها أن يعوق عن السير الى الغاية المنشودة ، وثانيها أن يوجه الى جهة أخرى مضادة وهذا فيه ابعاد عن الغايه وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها افساد العقل فإن الأوهام تأكل العقول وكل وهم يأخذ من العقل بقدره ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزا عن التمييز ويتخلى فى النهاية عن وظيفته . إن مافى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبعية وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار إذا اريدت له حياة صحيحة طبعية »

وهذه الجملة ابتدأ بها كتابه فى أول ورقة منه ، وقد أعجب بها جدا حتى أنه أعاد بعضها حرفيا فى وسط كتابه ، وهى جملة فاسدة من أولها الى آخرها . فدعواه « أن الجهل الاعتقادى قد ضرب على قومه عقدا فوق عقد ، وأن أفضل ما يفعله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد » دعوى فى إمكان كل أحد أن يدعيها من محق ومبطل ، وانما الشأن فى بيان هذا الجهل الاعتقادى المشار اليه وبيان العقد ماهى وبيان الحل الذى يراد به حل هذه العقد ما هو ، فهو يريد بالجهل ما عليه المسلمون من الاعتقادات الدينية ، والعقد عقائدهم الدينية وحلها ازالة ذلك . هذا هو مراده على ما قرره فى كتابه . ومعلوم أن كل رجل يريد أن يتكلم فى مثل هذه الأمور فى امكانه ان يدعى بمثل هذه الدعوى بأن

يسمى ما يضاد رأيه جهلا وما يخالف اعتقاده عُقدا وما يقرره حلاً لهـا ، والمتدين لا يعسر عليه أن يعكس هذه الدعوى عليه فيقول ما ادّعيته جهلا فهو العلم ، وما ادعيته من الحل فهو العقد بعينه ، وليس قبول قولك بأولى من قبول قولنا لأن ما ذكرته مجرد دعوى تقابل بمثلها ، وما ذكرته من الأدلة فنحن معك فى نقضه بالبراهين الواضحة ، بل كل كتابنا فى حل عقدك التى عقدتها على عقول الأغبياء وضعفاء البصائر . وقوله «ان للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج » الى آخره ، فيقال : هذا التقسيم باطل كما ان المعنى الذى يريده فاسد ايضا فان عنى أن للوهم الذى هو تصور الشىء على خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر له ثلاث نتائج فليس بصحيح بل الوهم المطلق تختلف نتائجه كثيرا باختلاف متعلقاته وبواعثه فقد يكون للوهم الواحد نتيجة واحدة ونتيجتان وثلاث وأكثر من ذلك بحسب كثرة متعلقات الوهم وقلتها وضعفه وقوته ، وان عنى بالتقسيم أن الوهم الواحد الذى هو تصور غير الحقيقة بقطع النظر عن متعلقاته له ثلاث نتائج فالتقسيم باطل أيضا ، فالتقسيم المعقول أن يقال ان للوهم الواحد نتيجة ضارة وهى تأثيره فى العقل بالنقص أو الفساد ، فإما أن يعوق عن السير أو يوجه الى جهة أخرى مضادّة ، وذلك بحسب تأثيره فى ضعف العقل وافساده ، فان أضعفه نشأ عنه ضعف السير أو وهنه أو الوقوف وإن أفسده نشأ عنه انقلاب السير الى الجهة الأخرى المضادة أو المنحرفة ، أو يقال بعبارة أخرى ان للوهم الواحد - بالنظر الى كونه وهما محققا - نتيجة مفسدة للعقل او منقصة له ، وهما درجات إما تعطيل السير أو تضعيفه عن الوصول الى الغاية المطلوبة ، واما التوجيه الى الجهة المضادة او الانحراف عن الجهة المطلوبة بحسب قوة الوهم ، فان الأوهام تختلف اختلافا لا ينحصر كما تقدم ، فالتقسيم الذى ذكره مدخول فإن النتيجة الثالثـة هى أصل النتيجتين الأولين فهما فرعان لها فكيف تكون قسما ثالثا . ثم ان تخصيص النتيجة الثانية بقوله « وهذا فيه ابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى » خطأ فى خطأ

فان هذا الضرر شامل للنتائج الثلاث على حسب تقسيمه الفاسد ، بل هو فى النتيجة الثالثة أظهر ، فلو أتى بهذه الجملة بعد الثلاث لتشملها جميعا لأنها تترتب عليها كلها ، او لو أنه خصص كل نتيجة بجملة مثلها لكان أولى على حسب تقسيمه الباطل ، أما تخصيص النتيجة الثانية بهذه الجملة والأتيان بها فى هذا المحل الذى أعجب به ففساد ظاهر فى تركيب العبارة لا سيما فى هذا المقام

وأما بطلانه من جهة المعنى فمن وجهين : أحدهما أنه تناقض فى هذه الدعوى فانه ادعى هنا أن للوهم الواحد ثلاث نتائج ، وحاصلها أنه ضرر بكل حال ، ثم نقض هذه الدعوى فذكر فى صحيفة ٣٨ عن بعض المسيحيين كلاما يتضمن أن الوهم الباطل يفيد ، واستحسن نتيجته مع دعواه بأنه باطل فى حقيقته فقال « ومن غريب الاستدلال الباطل فى حقيقته العجيب فى مرماه أنى قرأت فى كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته : إن القول فى ألوهية المسيح وان كان باطلا فى نفسه الا أنه مفيد فى نتيجته ، وذلك أننا اذا أفهمنا الدائنين بالنصرانيه ففهموا أن بشرا فى مظهره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلها يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب الى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده فقد فتحنا مجالا للتسامى والرقى لا حدّ له يأخذ بالهمم والآمال ، فتتسامى هذا التسامى وتطمح بأبصارها الى هذا المرتقى العظيم ، وفى هذا من الحفز للهمة والأغراء بالوثوب مايعجز عن وصفه الواصفون . ولهذا فان الفرق فى عظمة الآمال واتساع المطامع عظيم بين الامم المسيحية وغيرها » ثم قال « هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح . وليس يخاف مافى هذا القول من محاولة التسامى بالمواهب الأنسانية والحقيقة الأنسانية . وكم من الفرق بين هذه الروح التى أملت هـــذا الكلام وبين تلك الروح التى أملت قولهم : ما للتراب وللعلوم الى آخره . لقـد عظم الفرق فى التوجيه والاتجاه ، فعظم الفرق فى النتيجة والغاية» انتهى . فانظر الى سياقه لهذه الجملة وكلامه بعدها ، مستدلا بذلك على أن الوهم وان كان باطلا فى حقيقته

الا انه مفيد فى نتيجته لان فيه محاولة للتسامى بالمواهب الانسانية . ولا شك أن محاولة التسامى بالمواهب الحقيقية الانسانية نتيجة نافعة مفيدة مطلوبة ، وهذا تصريح بأن الوهم وان كان باطلا فقد تكون نتيجته مفيدة ، فانه صرح بأن هذا الوهم باطل فى حقيقته وصرح بأنه مفيد وبأن فيه محاولة للتسامى بالمواهب الانسانية والحقيقة الانسانية ، فكيف يدعى أن الوهم يفسد العقل وهنا يدعى أنه مفيد مع أن هذا الوهم كفر صريح ، ثم ان القول الذى حكاه عن المسيحى - ان صدق فى حكايته - ينقض أصله ، لأن المسيح لم يبلغ هذه الغاية التى ادعاها - لو صحت - الا بالعبادة المحضة والتقشف والزهد فى الدنيا ، لم يبلغها بالاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها ، فهذا النقل حجة عليه لا له

الوجه الثانى أن يقال : ما هو الوهم الذى تريده ، فانه يجب عليك بيانه بصراحة وتفصيل ، لأن الوهم الذى نتائجه هذه النتائج السيئة لا بد من ايضاحه ليجتنب ، فان الوهم فى ألسنة الناس اليوم لا ضابط له ، فكل أهل ملة أو بدعة تدعى أن ما اعتقدته هو الحقيقة وما اعتقده مخالفها وهم لا حقيقة له ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب فى قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ الآية . فمجرد رميك لمخالفك بأن ما هو عليه من الاعتقاد وهم أو أوهام فى امكانه أن يقابلك بمثل دعواك عليه بل فى امكانه إقامة البراهين على أن ما تدعو اليه فى هذا الكتاب أو أكثره أوهام لا حقيقة لها . ويكفيه برهانا على ذلك أنك معترف فى هذا الكتاب بأن هذه الأفكار لم تسبق اليها وانما هى شىء رأيته وحدك بعقلك وتفكيرك حتى ادعيت أن هذا الرأى قد يكون لسوء حظك ، فاذا كان هذا شيئا قد اعترفت أنك منفرد به عن جميع الناس ولا سيما وهو فى أصل الدين فالحكم عليك بانك واهم أولى فى جميع العقول السليمة من أن ترمى جميع أهل الملل

بالوهم فيه وخصوصا اذا كنت معترفا بأن هذا الرأى مخالف لما كنت معتقده من قبل مع أنك قد أقمت البراهين على اعتقادك الاول ، وهذا يتضمن أنك لست على بصيرة من أمرك وأنك فى شك منه ، والشك فى الاسباب عندك من أعظم ما يصاب به الانسان فى علمه وعمله ، لان منشأه ضعف اليقين . وقد ختمت كتابك هذا أيضا بأن حاصله مشكلة لم يوجد لها حل الى اليوم ، فكان خلاصة كلامك كله وقوع فى الإشكال باعترافك صريحا ، فتبين بهذا أن ما ذكرته فى هذا الكتاب الشاذ أوهام لا حقيقة لها ، فما ذكرته من نتائج الوهم فانك أنت المتصف به ، وقد ظهرت صفته عليك فى مظهرك وأخلاقك وأقوالك ومجموع أحوالك وأغلالك ، فان هذه الاوهام قد أفسدت عقلك أو أكلته — كما تقول — حتى أصبح عقلك عاجزا عن التميز حتى بين المسلم والكافر فانك سويت بينهما صريحا فيما يأتى (١) فصار عقلك متخليا عن وظيفته التى بها يدرك الاشياء على حقائقها ، ولا أبين فى الدلالة على تخلى العقل عن وظيفته من أن يعجز عن تميز المسلم من الكافر ، فمن خفى عليه هذا فهو كمن خفى عليه التميز بين الشمس والظلام والسماء والارض والنار والثلج ونحو ذلك من الاشياء المتضادة

وأما قوله « إن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لانها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ، ولن يوجد مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية »

---

(١) أى فى الأسباب المادية فى تناولها حيث جعل سير الكون وما فيه من الحوادث كالمسألة الرياضية لا يختلف فى حلها المسلم والكافر ، أما العلم والمعرفة فانه يفضل الكافر على المسلم بكثير

فيقال من تأمل هذا الكلام حقيقة التأمل فهم منه ان هـذا الرجل يحاول به وبغيره من الدسائس التى أدخلها فى مطاوى هذا الكتاب وغيره أن يكون بمنزلة الإله ، وأن يحل كتابه هذا محل الكتب السماوية ، فانه وصفه بوصف لا ينطبق إلا عليها ، وهذه الجملة الشنيعة نزعة انفلتت من سجاياه الكامنة العريقة التى يفكر بها أحيانا حين يغلب على شعوره الكبر والاعجاب والزهو والاختيال كقوله :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكر
ولم يرغبوا إلا الىّ اذا ابتغوا رشاداً وحزما يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

أضف الى ذلك قوله :

اذا قلت قولا أمن الدهر واستحيا وهاب مقالى أن ينازعه الدربا

واضف الى ذلك قوله أيضا :

متى جريت فكل الناس فى أثرى وان وقفت فما فى الناس من يجرى

وأضف الى ذلك قوله ايضا :

نثرى شفاء للنفوس وللحجى وردىء شعرى معجز الشعراء

وأضف الى ذلك ما كتبه تحت اسم كتابه حيث قال « سيقول مؤرخو الفكر انه بهذا الكتاب بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل » الى أمثال هذه الدسائس التى لا تعد ولا تحصى ، فالأمة المحمدية منذ وقت محمد ﷺ وأصحابه الى هذا الوقت الذى هو سنة ١٣٦٣ فى ظلمات الجهل والغفلة فالرسول ﷺ ما أخرج الامة العربية وغيرها من الظلمات الى النور حتى أبصرت طريق العقل ، وجميع القرون المفضلة كذلك لم يبصروا طريق العقل والنور وكذلك من بعدهم حتى جاء بلعام زمانه فصنع هذه الاغلال فأخرج الناس بها من ظلمات الجهل الى أن عرفوا بها طريق العقل ، فياسبحان الله كيف العقول التى تروج عليها مثل هذه السخافات والمخازى التى هى فى غاية الوضوح . فهذه

الجملة التى قالها فى هذا الكتاب متولدة عن هذه الفكرة الخبيثة ونزعة منها ، فالناس على مقتضى هذه الجملة وهذه الابيات لن ينصفوا ويسلكوا طريق القسط والعدالة الا إذا قدّموه فى الامر ولم يطلبوا غيره ولم يرغبوا الا اليه ، فتقديمه وإفراده بالطلب والرغبة فرض لازم على الناس ، لان الإنصاف هو أعظم واجبات الامور لانه هو العدل ، وان لم يفعلوا ذلك فليسوا منصفين وليس لهم من الانصاف نصيب ، فالمنصفون اليوم هم الذين يقدمونه فى الامر الآخذون بحقائقه الازلية الابدية التى لن يستغنى عنها مسلم ، والجائرون هم الذين تركوا ذلك فخالفوه ولم يقبلوا كلامه . وهذا المسلك الذى سلكه هذا الملحد أخبث من المسلك الذين سلكه القاديانى الهندى الذى ادعى النبوة واخرج كتابا من عنده وادعى أن الحق فيه وأنه يجب الاخذ به على كل مسلم فلا شك أن هذا الرجل أشنع حالة منه ، فان هـذا الهندى لم يحصر الطلب والرغبة فيه ولم يقدح فى الاديان ويدعى أن خطب الجمعة إحدى النكبات ، بل هو يدعى تعظيم الاديان وتعظيم الانبياء ، ويدعى انه وإن كان نبيا فان نبوّته تابعة لنبوة محمد ﷺ ، أما هذا الملحد فانه هجم على الاديان السماوية هجوما عنيفا لم يسبق له نظير ، وقدح فى الانبياء وجميع أتباعهم ، وادعى أنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، وحصر الحق فى كتابه وجعل النهوض موقوفا على الاخذ به ، والسقوط موقوفا على تركه . وأن كل فرد من افراد المسلمين لن يستغنى عنه ، وطلب لنفسه مع ذلك التقديم فى كل أمر ، وأن تصرف اليه الرغبات والطلبات . فاين هذا الملحد من القاديانى فى الكفر وسوء الاعتقاد !

عمد هذا المختال الدجال فأخرج للناس هـذا الكتاب الهزيل بدلا عن التنزيل ، فادعى فى فاتحته قبل كل شىء عوضا عن ذكر الله تعالى بالبسملة والتحميد والشهادة أن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الازلية الابدية التى تفقدها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ، ولن يستغنى عنه مسلم واحد

بين الاربعمائة المليون المسلم . ومعلوم أن هذا الوصف الذى وصف به كتابه لا ينطبق إلا على القرآن العزيز ، قال تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ولا شك أن الذى لا يضل ولا يشقى هو الذى نهض النهوض الصحيح ، والذى كانت معيشته ضنكا هو الذى ضل وهوى . وحسبك دليلا على فساد هذه الدعوى المرذولة أنه ذكر فى نحو خمس صحائف فى هذا الكتاب ما جرى له مع وزارة التموين المصرية وأقذع فى ثلبها ونقدها لما لم تساعده على بيع ورق ، فهل نقده وزارة التموين المصرية من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها الأمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم اذا أريدت له حياة صحيحة ، وكذلك ما ذكره من الأشياء الكثيرة أمثال هذه الرعونات الساقطة . فالحقائق الازلية الأبدية لا تنطبق إلا على الكتب السماوية ، فإنها هى الحقائق الازلية لانها ثابتة فى نفس الامر ليس لأحد أن يغيرها أو يبدّل فيها . فكونها أزلية يقتضى أن تكون قديمة النوع ، والأبدية هى الدائمة الخالدة التى لا يدخلها نسخ ولا تبديل ولا تعديل ، والذى يدخله هذا بعد انقضاء الوحى لا يسمى أبديا ككلام المخلوقين فانه ليس بازلى ولا أبدى وليس فى المسلمين بل ولا فى العقلاء من يتجاسر على أن يصف كتابه بهذا الوصف ، لأن الكلام الذى هو الأزلى الابدى المعلق على الأخذ به النهوض وتركه السقوط هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وتصريحه بانه لا يوجد مسلم واحد يستغنى عن هذه الافكار وصف ثالث مؤكد لما قبله فى وجوب التمسك والاعتصام به . ولهذا قال : إذا اريدت له حياة صحيحة طبيعية ومعلوم أن كل فرد من الناس إنما يريد الحياة الصحيحة لا السقيمة ، ولكن كيف تكون صحيحة وهى طبيعية لا دينية ، فان هذا مبنى على وجود الحياة الصحيحة بدون أخلاق دينية ، وهذا لا يمكن . قال تعالى ﴿ من

عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ الآية . ثم على قوله هذا انه يجب على المسلمين ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم من كل مكلف أن يحفظوا هذا الكتاب ويدرسوه ويطبعوه وينشروه ، فهو بمنزلة القرآن العظيم ، بل هو أولى ، لأنه قد يقول كما قال أمثاله من الملاحدة انه دخله التأويل واختلاف المفسرين ، أما هذا الكتاب الجديد ففيه الحقائق الازلية الأبدية وصاحبه حيّ سويّ معروف مكانه ففي الامكان مراجعته في ما أشكل من المعاني والحقائق . وهذا صريح كلامه كما هو ظاهر ، فيجب أن نعرف أن سبب تأخر المسلمين كلهم في هذه العصور هو عدم وجود هذا الكتاب عندهم ، فلقد حرم المسلمون منذ ثلاثة عشر قرنا من وجود هذا الكتاب لديهم ولم يتمتعوا برؤيته ويسرحوا أبصارهم وبصائرهم في صفحاته وحقائقه

مضت هذه القرون الطويلة كلها وهي محرومة من ثمرات هذا الكتاب وقطوفه الدانية وأنهاره المتدفقة ، فلذلك هووا وأصيبوا بهذا الانحدار والدمار العام ، وصاروا على هذه الحالة المزرية من الشقاء والجهل والعناء ، فجميع ما أصاب المسلمين من التأخر والانحطاط في القرون الماضية الى اليوم هو من أجل شيء واحد ، هذا الشيء الواحد هو عدم وجود هذا الرجل فيهم لارشادهم أو عدم وجود حقائقه بين أيديهم ليأخذوا بما فيها من الحقائق الازلية الابدية التي لن يستغني عنها مسلم . فالطريقة الوحيدة اذن لأنقاذ المسلمين من هذه الورطات وتخليصهم من شباك العدوّ أمر واحد هو أن يأخذوا بهذه الحقائق وأن يعتصموا بها جميعا ولا يتفرقوا ، فاذا حصل هذا حصل النهوض التام والاخلاص الكامل ، وان أعرضوا عن هذا هووا في دركات الويل والثبور فلا خلاص ولا نجاة ولا مفر ولا محيد عن ما هم فيه ، لأنه علق النهوض على الأخذ بما في كتابه ، والسقوط على ترك ما فيه . وليس العجب ممن كتب هذه الآراء الجنونية ، فانها كتبت حين كتبت بمداد الأغراض والأهواء والشهوات

انما العجب ممن يدعى الاسلام أو المعرفه ثم تخفى عليه هذه الترّهات المخزية التى لا يقولها الا معتوه ، أو من يرى الناس كالمعتوهين لا يعلمون شيئا فيحقرهم ويلبس عليهم فيريد أن يؤمنوا به فيعظموه ويعزروه ويوقروه ويقدموه بل ويعبدوه . فليتنبه المسلمون ولينظروا ماذا يراد بهم وبدينهم من هذا البلاء المبين فى هذا الكتاب الشنيع ، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حى عن بينة ، وان الله لسميع عليم

ولعل من أصيب بداء المعاكسة والجهالة العمياء يستبعد ويستغرب ما أجبنا به على كلامه هذا ، لشدة شناعته وفظاعته ، ويزعم أن ذلك ليس بلازم من قوله . فاذا اعترض معترض بهذا قلنا : يظهر الجواب عن هذا الاعتراض بثلاثه أمور : أحدها أنه انما يستغرب ما ذكره فيمن كان معروفا بخلاف ما ذكر عنه ، إما بديانته وتقواه ، وإما بوجود كلام يكذب ذلك تكذيبا صريحا غير متناقض ، أو يكون كلامه فى هذا مشتبها ليس صريحا ، وكل هذه الأمور منتفية عنه ، فان من أحاط علما بما تضمنه هذا الكتاب من صرائح الكفر وسب الأديان السماوية وأهلها وبهتهم والتهكم والاستهزاء والسخرية بهم وعرف مغزاه ومرماه فى ذلك فانه لا يستغرب هذا ولا يهولنه ما قلناه ويكفى فى ذلك أن نحيل القارىء الى ما قاله هذا الملحد على أبيات الزمخشرى « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره كيف ناقشه تلك المناقشة وألزمه بلوازم فظيعة مستبعدة ، وسيأتى كلامه ، ونحن ننقل لك شيئا قليلا من فظائعه الكثيرة الآتية وسيأتى جوابها المفصل فى مواضعها لتعرف جرأته على الدين وأهله وإلزامهم ما لم يقولوه ولا له أصل فى كلامهم بل يكفرون من ادعاه . فمن ذلك قوله ص ٣٢٥ : « ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين . والذى يظهر لنا كثيرا أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلى وتعليل ثابت ، بل يرون أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هى كالمجنونة

فى أفعالها وتصرفاتها ، ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق فكل شىء جائز وكل شىء مستحيل » انتهى . فانظر الى هـــذا البهت العظيم للمتدينين بأنهم يرون أن هذا العالم محكوم بقوة مجنونة أو كالمجنونة . فهل فى الدنيا مذهب معروف من مذاهب المتدينين يوجب هذا أو يعتقده أو يتفوه به . ففى أى كتاب وجده ومن هو الذى أشار اليه . وأدنى رجل من المسلمين من عالم وعامى وبليد وعجوز لا يعلم أن الله عليم حكيم فى صنعه وحكمه وقضائه . ثم ما هو الاعتقاد الذى يلزم منه هذا الذى ادعاه حتى يحكم على المتدينين بهذا الحكم الخبيث الجائر المزور الذى لاأساس له البتة ، بل هم يكفرون من يدعيه .
ومن ذلك قوله ص ٣١٦ : « وجهـة أخرى هى أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ، فالله فى تقديرهم وتصويرهم ـ وان اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيرا ـ لا يعدو أن يكون فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم ، ولهذا فانه ـ أى الاله ـ يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه ويلجأ الى المحسوبية والى الاعطاء والمنع على الشفاعة ، ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنـده ، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها ، لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة . فاذا بلغوا هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا ، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضـاه وعطفه » انتـهى كلامه ، وهو سب صريح وقدح عظيم فى الله تعالى وفى أديانه وفى الدائنين بها فيا صاحب الأغلال غلت يداك ، من الذى تصوّر هذا فى ربه من المسلمين ، وفى أى دين وفى أى مذهب معتبر وجدت هذا حتى تحكم وتعمم فتدعى أن دين المتدينين ولو اختلفوا [1] لا يعدو أن يكون الله فى تصورهم بشرا مقتدرا

(١) قوله « ولو اختلفوا » صريح فى أن جميع المتدينين على هذا الاعتقاد

لا يسمو كثيراً على ما يعرفون ، وأنه يلجأ الى المحسوبية ، وأن هذه صفاته على ما ادعيته ووصفته . وانت قد قررت فى كتابك الصراع وغيره ـ صرعك الله تعالى ـ أن اعتقاد المسلمين فى الله تعالى وصفاته أنه ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والمسلمون وان ذكروا أنه يغضب ويرضى وينتقم على ما ورد فى النصوص فهم لا يقولون ان رضاه وغضبه وسائر صفاته كسائر صفات المخلوقين ، بل صفاته كذاته ، كما أن ذاته موجودة وليست تشبه ذوات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات خلقه . فالقول فى الصفات كالقول فى الذات . والآن لما انقلبت على عقبك انقلبت الى هذا البهت والفجور ، ولعلك كنت تعتقد هذا باطنا فى ربك فيما سبق فكان سببا فى ردتك وانتكاسك ، وإلا فأى ملة أو نحلة معروفة هذا دينها قاتلك الله ، وهل هذا إلا من أعظم الجرءة على الله تعالى وعلى دينه وعباده المؤمنين . وكلامه على هذا النحو فى الأديان ومن دان بها كثير جدا يأتى الكلام عليه فى مواضعه ثم انه لم يذكر الملاحدة ولا أنظمتهم ولا أفعالهم وأخلاقهم الخبيثة بشىء يعابون به ، بل حث على الأخذ بآرائهم واقتفاء آثارهم كما يأتى ، فمن يتجاسر على هذه الخبائث الظاهرة والعظائم الكفرية كيف يستغرب منه ما ذكرنا

(الأمر الثانى) أن هذا الذى ذكرنا هو صريح كلامه ، ومدلوله الظاهر الواضح منه ليس كله من لوازمه ، أفليس أنه قال بصراحة إن ما فى هـذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية ، ومعلوم أنه يريد ما تضمنه كتابه من الأمور التى يدعو اليها ، وقد كان معلوما حكم الحقائق الأزلية الأبدية ووجوب الأخذ بها واتباعها واعتمادها ولا سيما اذا صرح بان تركها يوجب السقوط وأن الأخذ بها يوجب النهوض ، فانه قال بصراحة « تفقدها أمة فتهوى ، وتأخذ بها أمة فتنهض » ومعلوم أن النهوض من أوجب ما يطلبه الانسان ، والانحطاط من أوجب ما يحذره الانسان ويحذر أسبابه ، وقد جعل أسبابه عدم الأخذ بكتابه ، أو ليس أنه قال بصراحة «ولن يوجد مسلم واحد

من الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هــذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة » فهـذا تصريح بأن الحقائق هى هـذه الافكار التى فكرها ورصدها فى هـذا الكتاب ، فهو تصريح أيضا بان كل فرد من أفراد المسلمين مفتقر الى هذا الكتاب (١) ومعرفة ما فيه وحفظه والعمل به ، لأن كل مسلم يجب عليه إرادة الحياة الصحيحة لا الحياة المريضة السقيمة . ولو أن هـذا المختال ظفر بمثل هـذه التصريحات لأحد علماء الدين لولد عليها من الالزامات والمسائل الشنيعة مالا يمكن حصره ، فانه يولد إلزامات على أوهام لا حقيقة لها يخترعها هو بنفسه مع علمه أن العلماء مصرحون بنفيها ، فكيف لو وجد لأحدهم مثل هذا القول ، فلقد ألزم المسلمين بأنهم اعتقدوا أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، حتى راح يجعل لذلك بحثا خاصا ويولد عليه من المسائل والالزامات المنكرة مالا يعدّ ولا يحصى ، وادعى أن الناس على هذا الاعتقاد مع أنه عجز عن أن ينسب هذا القول الى شخص معين ، ومع علمه بأن أدنى كتاب من كتب المسلمين يتناوله الانسان فيفتحه يجده مملوءاً بمدح العلم وذم الجهل ، ثم مع هذا أقدم على بهتهم ورميهم بأنهم يدعون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وولد على ذلك من الالزامات ما هو أبعد شيء عن معتقدهم بمجرد قول عزاه الى مجهول لا يعرف . ولقد شنع على الزمخشرى والرازى وغيرهما ورماهم بالفظائع والجرائم الكبرى حين قال الزمخشرى :

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه فى غمراته يتقمقم الخ

وادعى عليه بأنه رمى البشرية بالدواهى والعظائم ، ثم ناقشه أعظم المناقشة كما يأتى ، وكل ذى مسكة من عقل يعلم الفرق بين أبيات أولئك وأبيات هـذا الملحد المتقدمة ، فكيف يلزمهم باشياء لعلها لم تكن تخطر على بالهم وينسى ما فى أبياته من صرائح الكفر ودعوى الألوهية ، وما فى كلامه من مدح كتابه

---

(١) قد صرح فى بعض مقالاته بذلك أى بوجوب الأخذ به ودراسته والاعتماد عليه

وتنزيله منزلة القرآن العزيز فى وجوب الأخذ به والتحذير من تركه ، وهـذا ظاهر لا خفاء به

(الامر الثالث) أنه لو سلم على فرض التنزّل أن ما ذكرناه من لازم قوله لا من صريحه فلا يشك من له أدنى علم أن هذا اللازم هو مقتضى كلامه وأنه إن لم يكن صريحـه فهو لازم له لزوما بيناً وأن إلزاماته التى ادّعاها على المسلمين أبعد منه ـ لو فرض أنها لازمة ـ فهو إما أن يتنازل عن الاحتجاج بلازم القول مطلقا فينقض تشنيعه الذى شنع به على المتدينين كلهم ، وإما أن يلتزم بالاحتجاج باللازم الذى ادعاه مع بعده واستحالته ، فيختنق بغله ، ويعامل بما عامل به غيره ، على فرض أن يكون ما ذكرناه من لازم قوله ، وإلا فقد ثبت ثبوتا كالشمس أنه صريحه ومقتضاه كما سبق

أما تعليل إفادة كتابه وحقائقه بأنه موافق للطبيعة الكاملة فمن أخذ به فقد قابل طبيعته الكاملة بطبيعة كاملة ، ومن فقده فقـد حقيقة من حقائق طبيعته ، فهذا التعليل هو العلة التى أصابت فؤاده ، وهو مبنى على ضلالات ومقدمات كلها باطلة : أحدها أن الواجب على كل من أراد النهوض أن يقابل طبيعته بما يوافقها ، ولا يجوز له أن يعاكس طبيعته بل ينسجم معها انسجاما كاملا فى كل ما تريده وتصبو اليه (١) وهذا فى غاية الفساد كما هو فى غاية الضلال ، وكما هو فى غاية الاستحالة . فان من دعا الناس الى اتباع أهوائهم أو طباعهم مطلقا فقد ضل ضلالا بعيدا ، كما أنه مستحيل الوقوع فى كل فرد وشعب ، فانه يوقع فى الفوضى والهلاك ، فان شهوات النفوس وطبائعها لا تنضبط بحدود وقيود . الثانية أن طبائع جنس الانسان كلها متحدة فطبيعة الكافر كطبيعة المسلم لا فرق بينهما فى شىء ، وهذا فاسد أيضا كما هو معلوم . الثالثة أن جنس الانسان من

---

(١) هذا مع أنه قرر أن طبيعة الانسان هى الشرّ والخبث والظلم ، فعلى هـذا يقابل طبيعته بالشر والخبث والظـلم

حيث النظر العام ليس له إلا طبيعة واحدة ، وهذا فاسد أيضا فان الانسان له طبيعتان أو بعبارة أخرى له نفسان : عقليـة فطرية عاليـة وثابة تطلب معالى الامور وشريفها وتكره سفاسفها ورذائلهـا ، ونفس أو طبيعة بهيمية جشعة مكتسبة وهى عكس الاولى تحب الغى والفساد وقضـاء الشهوات النفسانية ، وهذا أمر موجود فى كل إنسان يجـده من نفسه ، فأن الانسان له دافعـان : دافع حب للمكارم ومعالى الامور ، ودافع عكسه . ولهذا كان كثير من الناس يستترون من فعل المعاصى وهم يفعلونها ويعيبون من يفعلها ويعلمون قبحهـا ويكرهون اطلاع الناس عليهم فى ذلك ، ولا شك أن هذا من أثر الدافعين المذكورين ، وقد ورد فى الشرع المطهر مـــدح النفس المطمئنة وذم النفس الأمارة ، كما ورد ذم متابعة الهوى ومدح نهى النفس عن الهوى ، وهذا ظاهر

اذا علمت هذا فاعلم أن الاديان وما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للطبيعة الاولى أى الفطرة الصحيحة الكامنة فى النفس ، فتعاليـم الأديان السماوية كلها تلهبها وتثيرها وتمدها بالحياة ، وهى معاكسـة للنفس أو الطبيعة الثانية لانها تعقلها وتمنعها من الانطلاق فى ميدان أغراضها ، فانها سفلية تنحدر فى مطالبها السفلية النفسانية فتفسد السجايا الطيبة الفطرية . وهذا الرجل يريد بالطبيعة هذه الثانية ، فانه شنّ الغارة على الخطب والخطباء ، وادعى أن الناس يخدّرون بها ، ولم يلاحظ أن الناس يشجعون بها بالنظر الى موافقتها للطبيعة الأولى التى هى الفطرة فان الانسان خلق حنيفيا مستعداً لقبول الدين باستعداد فطرته كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ﴾ فأخبر أن فطرته التى فطر الناس عليها هى الحنيفية ، وهى إقامة الوجه للدين ، أى الاخلاص الذى هو التوحيـد ، وذكر أن هذا هو الدين القيم ، كما قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح فى حديث قدسى « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » فالأديان السماوية بما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للفطرة ـ وهى الطبيعة

عنده ـ وقد صرح الائمة بأن الأديان الصحيحة موافقة للفطرة المستقيمة ، بل قد صرح بذلك غيرهم من أهل الأديان الأخرى قالوا : ان الشرائع السماوية قد سارت على المبدأ الطبيعى السليق. فقد علمت أن هذا التعليل العليل المورث العلل القاتلة مبنى على هذه المقدمات والضلالات الباطلة وان الصحيح خلاف ما ادّعاه . ثم من أين له أن كتابه موافق للطبيعة الكاملة ، بل هو معاكس لها فان هذا لا يعلم الا بالوحى ، أو على فرض التنزل بالتجربة ، وهى لم توجد ولن توجد ، فالدعوى ساقطة على كل احتمال وتقدير . فقد ظهر لك بالأدلة الواضحة بطلان فاتحة كتابه التى أعجب بها مع العلم بأنها هى امثل كلام قرره فى كتابه ولذلك صدّره بها ، قال الشاعر :

أحسن ما فى سالم وجهه ووجهه الغاية فى القبح

ومما ينبغى ملاحظته هنا أن نعرف الأسباب التى رغبت بعض الجهلاء والاشقياء فى هذه الأغلال مع ما فيها من هذه الفضائح الظاهرة والضلال ، ذلك أن صاحبه لما كفر بعد اسلامه ، وهم بما لم ينل ولن ينال أبدا ، أقام دعايته هذه الخبيثة على اساس الترغيب فى الشهوات العاجلة ، وأنه سبب فى حصول المطالب الكبيرة المؤملة ، وهذا هو مسلك ملاحدة العصر الذين خدعوا الاغبياء وأفسدوا عليهم عقولهم ، فان النفس البسيطة الطموح الجاهلة تكون دائما بين أملين : أمل التمتع بالشهوة العاجلة بانغماس وراحة وأمل الحصول على الأمانى الطويلة العريضة المتسلسلة ، فهى دائما تسرع فى الاندفاع الى ما يلائم غرضها العاجل ويحقق آمالها العريضة المتجددة . لهذا فاننا نجد بعض الجماهير المبتلين بالمروق بالأخلاق والدين يندفعون الى كل من يغمسهم فى الشهوات العاجلة ، ويعدهم ويمنيهم بالمستحيلات الآجلة ، فيضرب لهم على وتر الآمال الكاذبة التى يتمنونها ويغنى لهم بأناشيد الشهوات التى يحصلونها . فاذا رأينا بعضا من هذه الجماهير الجاهلة مسرعة فى الطلب الى ما يلائم غرضها وأملها معتقدة أن تظفر بكل ما تريد عاجلا ، وأن تحصل على كل ما تأمله

آجلا بهذه الوعود الرخيصة ، متعلقة بهذه الخيوط العنكبوتية التى نسجها وسجلها
هذا المغرور فى هذا الكتاب الهزيل ، ووصفها بما يستحيل وجوده ـ فانه
معدود أحد الناعقين للجماهير الضالة ، وليس هو بأول أفاك أو دجال نعق
وهذا بهذه الهذيانات الباردة ، حتى انخدع له بعض البسطاء المغفلين فدفعهم فى
مهامه التلف ، حاسبين أن سرابه ماء يبل أكبادهم ويطفىء حرارتها المتوهجة ،
وما هى إلا الهلاك المحتوم ـ يجب أن لا نعد شيوع هذه الاقاويل المزورة أو
الفتنة بها دليلا على صحتها ، أو أن لها أدنى قيمة علمية أو عقلية ، بل يجب أن
نعد أن صاحب هذه الآراء المزيفة عرف ناحية الضعف والغباء فى هؤلاء
الجهلاء الأشقياء فأراد أن يركز دعايته الجوفاء فيه لاستثمار أغراضه وآماله
منها ، وأن نعد هذه الأقاويل الفاسدة وافقت أمانى النفس الفارغة الجاهلة
المنحطة المؤملة حصول حاجاتها من غير أبوابها الطبيعية بل من الأبواب
المفتوحة بمفاتيح الوعود الكاذبة الخداعة

ليس من شك فى أن هؤلاء المصابين بالانهيار فى أديانهم وعقولهم هم أسرع
الناس إجابة لهذا التلويح بهذه الدعايات المزيفة التى توافق شهواتهم ، ولا سيما
اذا اقترن بذلك أن فى هذه الدعايات وجود كل ما يؤملونه ويتمنونه ، فيجتمع
لهم داعى الشهوة الحاضرة وداعى الأمل العريض الذى يتلهفون لطلبه ويتعطشون
اليه ، ولهذا كان هذا الرجل مؤسسا دعايته على هذين الغرضين المذكورين ،
فوجد هؤلاء الاغبياءُ والسفهاء والحمقىٰ والنوكىٰ فيه مجالا واسعا لما يريدونه
ويؤملونه ، فكانت هذه الطبقات المتطرفة مفتونة فيه لأنه صادف أغراضها
وأهواءها وآمالها

لقد عرف أن هناك بعضا من هذا الضرب الذى ضرب عليه البؤس والشقاء
الطويل الثقيل من جرّاء ما اجترحه من تمرّده وتطرفه فى دينه ومحاولة التملص
والتخلص منه حتى أصابه من أجل ذلك من الوباء والبلاء والقروح والجروح
والأحوال والاهوال المذهلة المزعجة ما حطه من مقامه الأعلى الى حضيضه الأدنى

حتى صار أسيرا لبلائه ونعالا لاعدائه ، فكلما أراد النهوض تعـــثر وتعذر وسقط لوجهه لما به من هذه الادواء الفظيعة

يريد هؤلاء الأغبياء المنكودون أن يعزوا هذا الكتاب الوضيع ، وأن يجعلوا أغلاله فى أعناقهم ، وأن يضعوا سمومه ووباءه فى طعمة المعافين منها .
يريد هؤلاء الاشقياء المضروبون بهذه الذلة والمسكنة أن يضعوا سموم هـذا الكتاب على قروحهم وجروحهم بل وعلى أسمـاعهم وأبصارهم ليستشفوا به من أسقامهم وأمراضهم فيذوقوا بذلك عذابا فوق العذاب ، وكلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيه ، لا شك أنهم بهذا يريدون الموت الأبدى ، وقد حق ذلك عليهم ولا محالة كما فعل بأشياعهم من قبل ، انهم كانوا فى شك مريب

الكلام على المبحث الاول

عنوانه فى كتابه: (قبل البدء)

وحاصل هذا المبحث أنه ادعى فيه أن قضية تأخر المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها، وأنه وحده فكر فيها تفكيراً لم يسبق اليه، وهو ما قرره فى هذا الكتاب، وذكر فيه أنه عرف العوائق التى منعت المسلمين من التقدم، وعرف كيفية علاجها، وعرف الطريق التى بها يمكنهم أن يتقدموا على غيرهم وهو بمنزلة المقدمة لكتابه فقال: (قبل البدء)

« لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها - بينما هى أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث - من هذه القضية. وذلك أن جموعا بشرية هائلة قيل إن أعدادها تبلغ أربعمائة مليون منتشرة فى سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوربا ايضا تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هى أسمى ما يتصوره العقل البشرى من القوة والحث على مواصلة السير فى سبيل المجد والكمال، عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الانسانى المغذ الخطا الى هذه الحياة التى تتفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الانسانية العلمية التى من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وفيمن فيه من حيوان وجماد ونبات »

قلت: إن عنيت بأن قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتنوا بها كتفكيرك وعنايتك التى سجلتها فى أغلالك هذه فنعم، وقد صانهم الله عن ذلك، وهم أجل وأكبر من أن يرضوا لأنفسهم ودينهم ما رضيته لنفسك ودينك من هذه المخازى الممقوتة والآراء الخبيثة، وليتك أهملتها وأهملت التفكير فيها والعناية بها ولم تتعرض لها بهذا التعرض الذى زادها ظلمة واستغلاقا وتعقيدا. وإن عنيت أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتنوا بها التفكير المجدى والعناية الصحيحة النافعة فنقول: من أين لك أنهم لم يفكروا فيها ولم يعتنوا بها، وهذه كتبهم مشهورة مشهودة،

وقضاياهم الهامة مدونة معروفة ، وكونك لم تعلم بذلك - لو صدقت - لا يدل على عدم وقوعه ، فان عدم العلم ليس علما بالعدم ، فلا يجوز لك الحكم على ما لم تعلمه ، وقد قام فى هذه القضية من العلماء العظماء من يعسر حصرهم ، فهذه قضية الامام أحمد ومن فى عصره من الأئمة وعلماء الأمة لما حاول أعداء الاسلام من الجهمية - وغيرهم ممن أسسوا مبادىء الالحاد فى الأمة - قلب أصوله وتغييرها عن أوضاعها الشرعية فقاموا فى ذلك قياما عظيما مبرورا مشكورا ، ثم قام بعد هؤلاء من أئمة الدين امثالهم كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي حين أظلم الجو من الشبهات والشكوك والأوهام التى اختلقها الزنادقة والمنافقون من الجهمية والرافضه ، وفشا الالحاد ، وشغف بهذه الاوهام التى يدعونها حقائق علماء الكلام ، وادعوها تجديدا وتوفيقا بين الدين والفلسفة . ثم قام بعد هؤلاء حين كثرت الخرافات الوثنية والعقائد الشركية شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فرفعوا راية الدين الصحيح حتى اتضح ذلك واستبان لمن أراد الله هدايته وعرف الحق معرفة واضحة كالشمس . وقد خلف هؤلاء العلماء فى موضوع هذه القضية من الميراث العلمى النافع ما هو كفيل باعادة مجدهم واسترداده بأقرب الوسائل وأسهلها ، وكتبهم فى هذا الموضوع كثيرة شهيرة . وهذا كتاب (جمعية أم القرى) للسيد عبد الرحمن الكواكبى كله فى موضوع هذه القضية ، وفيه من العناية بها والتفكير فيها ما فيه مقتنع فى الجملة ، وهو موجود بكثرة ، فكيف يقال ان قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها ، وآلاف الكتب المتنوعة بل والمجلات والجرائد طافحة بالتفكير فيها والعناية بها ، ولكن انما أردت المعنى الاول وهو أنه لم يفكر فيها أحد كتفكيرك وعنايتك ، وقصدك من ذلك توجيه النظر الى كتابك وترك ما سواه كما أشرت الى ذلك فى دعواك أنه حقائق أزلية أبدية تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض . وقد ذكرت فى نبذتك الهزيله (كيف ذل المسلمون) أن الناس قد كتبوا فى هذه القضية وبحثوا فيها كثيرا ،

وهذا يناقض دعواك هنا إلا على قصدك الذى أشرنا اليه وهو ساقط بلا ريب

ودعواه أن هذا العدد يدين بدين الاسلام دعوى تأتى مناقشته عليها فى آخر الكتاب عند دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئا جديداً الخ . ودعواه أن هذه الجموع عاجزة منذ مئات السنين الخ يقال له ماذا تريد بدعواك انها عاجزة عن التقدم واللحاق بالركب الانسانى ، أتريد أنها عاجزة عن التقدم على غيرها فى الصناعات ونحوها ، أم تريد أنها عاجزة عن مباراة هذه الدول فيما وصلت اليه فى جميع تقدمها . فيقال نحن هنا لا نتكلم فى مسئلة عجزها عن اللحاق ، إنما نتكلم معك فى الأسباب التى أوجبت هذا العجز الذين تدعيه ، فالعجز عن الحصول على الشىء إما أن يكون لعلل ملازمة لنفس العاجز كالجمود والفتور والكسل ونحوه ، وإما أن يكون لعوارض وعلل خارجية كالاشتغال بمقاومة ضد أو جنس ، فان أردت المعنى الأول فغير مسلم على هذا الاطلاق ، بل فيه مناقشة تفهم مما يأتى . وإن أردت الثانى فصحيح ، لكن لا يفيدك شيئا ، فأكثر المسلمين اشتغلوا عن أسباب النهوض بالمصادمات الداخلية الكثيرة المتنوعة ، فانها صدمتهم عن التقدم وصدتهم عن استعمال ما يجب من القيام ، وكلا الأمرين منشؤهما ضعف التمسك بالدين الصحيح على ما ينبغى كما تقدم تفصيله . ودعواه أن هذه المثل الانسانية العلمية من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وبمن فيه دعوى أقل ما يقال فى بطلانها أنها مخالفة للدين والعقل والحس ، فان ناصية الوجود بيد خالقه ومدبره الذى له ملك السموات والأرض كما قال تعالى ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وهذا المسكين المغرور جعل من عرف شيئا تافها من هذه الصناعات التى كان أكثرها وبالا على أهلها لما تعلقوا عليها فقد ملك ناصية الوجود من حيوان وجماد ونبات ، مع أنه لم يملك ناصية نفسه فيدبرها على كل ما يشاء ويريد ، فكيف اذن يكون تدبير الله لملكه وعباده إذا كانت ناصية الوجود بيد غيره يعمل به كيف شاء ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فصل

ثم قال «وقد غُلبت هذه الجموع على أمرها فى كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها ، فهى من الناحيـــة السياسية خاضعة بل خاضع ما تحت أقدامها إما بالعقل وإما بالقوة ـ كما يقول المناطقة ـ للسلطان الأجنبى ، ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمى شيئا يمكن أن ينسب اليها ، وعاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين فى أمر من أمورها الدقيقه والجليـلة . وهى من الناحية الصناعية عاجزة عن ايجاد ملاعق لأفواهها وإبر لأثوابهـا ، ومن الناحية الزراعية عاجزة ـ لولا الآخرون ـ عن الانتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أراضها . أما من الناحية التجارية فان أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحـد أبنائها متجر واحد يضارع أحـد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغنى عنه ، وهكذا هى فى كل وجه من وجوه حياتهـا وغرض من أغراض وجودهـا »

قلت : كل هذه الأمور التى ذكرها ونسبها الى جمـلة المسلمين مجازفات لا حقيقة لها ، بل هى باطلة بالضرورة والمشاهدة ، كقوله انهـا عاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين فى أمر من أمورها الدقيقة والجليلة ، فأين عاشت الأمة الاسلامية مئات السنين قبل دخول هؤلاء الأجانب منذ مائتى سنة تقريبـا ، وما هى حالتها فى تلك القرون المتقدمة بالنسبة الى غيرها . ولا شك أنه يقصد من وراء هذه المبالغة أغراضا خبيثة فى تحقيرهم وتصغير شأنهم فى أعين اعدائهم والا ففى إمكانه الاقتصار على الحث على الاعمـال وبيان منافعها بدون هـذه الشناعات التى لا أصل لها ولا طائل تحتها ، وليست معيشة المسلمين ولا حياتهم متوقفة اليوم وقبل اليوم عـلى ما يأتيهم من هؤلاء الأجـانب ، ولو تركوهم وبلادهم لما احتاجوا اليهم فى شىء ضرورى ، ولو قدر احتياجهم اليهم فى شىء من الأمور فهم محتاجون الى المسلمين فى أشياء أخرى أشد من حاجاتنا لهم ،

وما زالت الامم والشعوب يحتاج بعضهم الى بعضهم فى بعض الأشياء على اختلاف مذاهبهم ، ولم يكن ذلك عيبا تعاب به الأمم اذا لم يكن من الأمور الضرورية ، وهذا جعل هذه الأمور كلها عيوبا كبرى فى المسلمين مع أنها لم تختص بهم وحدهم ، فما ذكره من عدم الاستغناء عنهم وأن حياتنا بيد هؤلاء تشنيع محض لا فائدة فيه

ثم ذكر أن جموع المسلمين عاجزة أمما – كما هى عاجزة أفرادا – وإن التفاوت بيننا وبين الغربيين فى التقدم الصناعى أمر معلوم ، وهذا لا نزاع فيه ، انما النزاع فى الأسباب والنتائج التى أوجبت التقدم والتأخر ، ثم إن تقدمها هذا إنما هو تقدم صناعى لا غير كما اعترف بذلك فى نبذته (الثورة الوهابية) وليس هذا بأول زمان تقدم فيه الكافر على المسلم ، فان الله قد حكى فى كتابه العزيز عن تقدم الكافرين أعظم مما هو موجود الآن ، فليس تقدم الكفار على المسلمين وقتا أو برهة من الزمن دليلا على كونهم على حق وصواب دون المسلمين ، وأن من واجبنا أن نرفض ديننا من اجل هذا ، فان هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل ودين ، ونحن لم ندخل دين الاسلام بحجة التقدم والتأخر ، بل دخلناه عن بينة من ربنا وبصيرة من أمرنا بأنا على هدى من الله ، فلو أمطرت عليهم السماء ذهبا وأنبتت لهم الأرض لؤلؤاً لم ننظر الى ذلك ولم يؤثر فى اعتقادنا ، لان ذلك لا يدل على استقامتهم ، كما لا يدل تأخرنا على أننا على غير هدى وصراط مستقيم . فمن يحتج بالتقدم والتأخر على الحق والباطل فهو مدخول فى عقله ولا يمكنه طرد هذا الدليل ، وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « عرضت علىَّ الأمم ، فرأيت النبىَّ ومعه الرهط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد » الى آخر الحديث ، فدل على أن الله بعث الانبياء الى الأمم فكذبوا ولم يجبهم احد ، ومنهم من اجابه القليل كنوح عليه السلام ، ومع هذا فكل هؤلاء الذين خالفوا الرسل على الباطل وان بلغوا ما بلغوا من متاع الدنيا ، والذين اجابوا الرسل على حق وان بلغوا ما بلغوا

من التأخر فى اسباب المعيشة ، ولكن لا بد ان تكون العاقبة والنصر لأتباع الرسل كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز ﴾ وقال تعالى ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ أما التأخر حينا وزمنا فانه يقع تمحيصا وابتلاء ، وقد يقع بسبب التقصير فى متابعة الرسل ، وهذا هو الغالب لكن لا بد أن يكون لصاحب الحق تقدم بحسب ما معه من الديانة الصحيحة بخلاف الكافر والملحد المحض فلا بد من أن تكون عاقبته أسوا عاقبة

ثم ذكر أنه اجتمع بأناس بارزين ممن ظن أن لديهم معرفة من أهل الحجاز وغيرهم وسألهم عن أسباب التأخر ، وانه لم يجد عند احد منهم معرفة كافية ، وحق له ذلك فانه منعكس رايه لأنه راى شيئا وهم يرون شيئا يضاد رأيه وقصده ، فلهذا لم يوافقهم ولم يوافقوه ، وكل هذا حجة عليه لأنه لم يوافقه احد وليس معه دليل مقنع

ثم ذكر انه يوجد اناس يعللون التأخر بسبب سفور المراة واختلاطها بالرجل ، ثم رد هذا التعليل . ونحن نقول : ليس هذا هو السبب كله للتأخر ، بل هو سبب من اسباب كثيرة مذكورة فيما شرحناه فى هذا الكتاب ، وكلها ترجع الى مخالفة الدين الصحيح ، وقد نسى هذا الرجل انه ادعى فى بحث قضية المرأة ان سبب تأخرناهو عدم تعليم المرأة فقط ، فأين هذه الدعوى مما ادعاه هنا وسيأتى كلامه فى موضعه

فصل

قال : « ويوجد الى جانب هؤلاء جماعات اخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة تكاد فى هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها ، وانا اعنى ـ كما لا يخفى ـ دنيانا فقط لا دنيا الأعداء ، مبشرة برسالة روحية خلقية استاقت فى طريقها جماهير الشباب ، واوشكت تصيب فى معظمهم بنوع من جنون الفكرة والتقى

البار او الجنون المقدس (١). خلاصة هذه الرسالة ان طريق المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الرجوع الى الأخلاق الدينية الأولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية وفى اداء الزكاة وفى اقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية، ثم فى الأيمان بالله والجهاد فى سبيله. وقد انطلقوا فى كل مكان يبشرون بهذه الرسالة، واخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة اليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون »

قلت : هذا الذى نقله عن هؤلاء الجماعات العظيمة الشأن هو الحق الذى لا مرية فيه، وهو الدين الصحيح الذى ندعو اليه، فهو الدواء الوحيد الناجح لهذه الأمراض والعلل القاتلة التى قضت على المسلمين بالانحلال، واوهنتهم واهلكت كثيرا منهم، فليس لهم دواء غير هذا، لأن الدولة الاسلامية لم تكون إلا على هذه الروح وهى روح القرآن والسنة. واعلم ان كتابه كله من اوله الى آخره يدور على ردّ ما ذكره عن هؤلاء الجماعات والحمل عليهم وعلى آراهم، حتى انه لشدة عدوانه لهم وحقده عليهم افرد لذمهم مقالة خاصة فى آخر الكتاب عنوانها (امامنا لاوراءنا)، ورماهم بكل ما خطر على باله من زور وفجور، وهيهات وما كيد الكافرين الا فى ضلال

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها واوهى قرنه الوعل

وكتابنا هذا كله فى نصر هذه الدعاية الدينية المحضة الخالصة الجبارة الصارمة التى لا يقف فى وجه من عمل بها احد، وانما جاءنا الوهن والضعف من تفريطنا فيها واهمالنا لأكثرها. ثم ان هذا المخذول لما ساق هذه الجملة التى ذكرها عن هذه الجماعات الكريمة لم يرض بهذه الطريقة التى اختاروها ولم تطب بها نفسه ولم تملأ عينه، بل شمخ بأنفه عنها واختار طريقة اخرى، اختار العمى على الهدى والثوم والبصل على المن والسلوى، وهكذا يكون كل من آثر الحياة

---

(١) تأمل هذا، فانه جعل الفرح بفضل الله و رحمته جنونا مقدسا استهزاء

الدنيا، إذ لو كانت هذه الطريقة الدينية قد ملأت نفسه لما حصر المجد فى غيرها فقــال :

« ويا ليت هؤلاء يعرفون ان الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون اليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك الى دخول ملكوت الله والى امتلاء انفسنا بالجمال والرضا والثقة »

فيقال : ويا ليتك تعلم ان هؤلاء العلماء العظماء النبلاء لم ينكروا مالا بد من الأخذ به من الأسباب الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها ، بل جثوا على استعمالها والأخذ بها فى جميع كتبهم ودعاياتهم ، فلا معنى للاعتراض عليهم والاقتصار على قولك هذا الذى هو الدخول فى ملكوت الله تعالى وامتلاء النفس بالجمال والرضا والثقة فقط ، فاعتراضك عليهم ثم اقتصارك على هذه الأخلاق دون ذكر التقدم والمجد والاستقلال فساد فى العقل وإعراض عن الشرع ، فانك جعلت الأخلاق الدينية انما تفيد فيما يتعلق بالنفس من القناعة والرضا والثقة لا غير ذلك ، وهذه هى نظرية الملاحدة فى تعاليم الدين ، وقد حصر المجد والتقدم فى غير هذه الأخلاق الدينية كما يأتى . ولا ندرى عن مقصوده بملكوت الله والدخول فيه ، فأن ملكوت الله ملكه كما قال تعالى ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء ﴾ وقال جل وعلا ﴿ فسبحان من بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون ﴾ . فيكون معنى كلامه على هذا هو دخولنا فى ملك الله ، وهذا لا مانع منه ، فأننا فى ملك الله لا نخرج منه منذ خلقنا ، وانما جاء بهذه العبارة تهكماً واستهزاء ، ثم قال بعد عبارته السابقة :

« لكن السبيل الى المجد القومى المطلوب ينحصر فى اشياء اخرى ، فى الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية »

وقد علم من هذا التصريح ان هذا الرجل لم يقتنع بالطريقة الأولى التى مضمونها العمل بالأخلاق الدينية -كما ينبغى- اصلا وفرعا ، بل اختار انحصار المجد فى هذه الأخلاق التى ذكرها ، وهو يريد بعدم اقتناعه بالأولى واختياره

للثانية وحصر المجد فيها عدم امكان اتفاقهما ، وهذه المحاولة والقصد هو محور كلامه الذى يدور عليه ، وحقيقته عدم إمكان التدين والتقدم كما صرح بذلك مراراً لأن طريقة التدين هى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى ، وطريقة التقدم والمجد هى الأخذ بالأخلاق الثانية ، وهو قد حصر المجد فى الثانية ولو كان يرى إمكان اتفاقهما لم يحصر المجد فى الثانية ويدعى فيما يأتى ان الأخلاق الدينية لها نتائج اخرى لما ذكر ان الأخلاق الصناعية هى التى تعز" الشعوب وتبلغها الذروة فادعى بعدها ان الأخلاق الدينية لها نتائج اخرى ، وهذا صريح فى انه يرى ان الأخلاق الدينية آلة ضعف وانحطاط كما استشهد بذلك فى طر"ة كتابه حيث نقل عن بعض مجهول اسمه من فلاسفة الغرب ان الدين اذا فسد صار آلة ضعف وانحطاط ، وهو قد صرح فى آخر الكتاب ان ما عليه المسلمون اليوم دين محرف واهم (يعنى باطل) فيكون آلة ضعف يجب رفضه . ولو انه يرى إمكان اتفاق الأخذ بالأخلاق الدينية والأخذ بالأخلاق الصناعية ونحوها التى هى عنده سبيل للمجد لكان فى إمكانه ان يقول هذا حق وصحيح ولكن يجب ان تعاضد هذه الروح وهذه الأخلاق اشياء اخرى لا بد منها هى الأخلاق الصناعية الى آخره او ما هذا معناه ، وكلامه فى « المشكلة التى لم تحل » آخر الكتاب صريح جدا فى كونه يرى عدم اتفاق التدين والتقدم

اذا تبين هذا فاعلم ان كتابه كله قائم على رفض الدين ، لانه بزعمه لا يتفق مع هذه الأخلاق التى حصر المجد فيها . ونحن سلكنا فى كتابنا هذا مسلك الحق والأنصاف ، فنصرنا طريقة الأخلاق الدينية الأولى وجعلنا الطريقة الثانية لا تخالفها ، بل هى فرع للطريقة الأولى بالقصد ، فالأخلاق الصناعية والتجارية والمادية ونحوها لا تنافى الأخلاق الدينية أبدا ولا تضادها بل تشايعها وتؤيدها لأنها من فروعها ، والقاعدة عند المسلمين أن « مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » وكل المعاملات والصناعات والتجارات ونحوها مباحة فى أصل الشرع ولا يحرم منها الا مادل النص على حظره والمنع منه ، ولا يوجد نص

يحرم الأخذ بهذه الأمور فى الجملة ، لكن قد يقع أشياء فى أفرادها يظن أنها نافعة فيكون هذا الظن خطأ ، فتكون ضرراً محضاً أو يكون ضرّها أكثر من نفعها فتمنع من أجل هذا . فالاخلاق الصناعية والمادية ونحوها لا تخالف أصول الدين أبدا ، فلا يظن الظان أننا نمنع الأخذ بالأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها وندّعى أنها منافية للأخلاق الدينية ، فإن هذا لا يقوله أحد من المسلمين ممن يعتبر قوله ورأيه ، ولا يوجد فى شيء من الكتب المعتمدة ما يؤيده ، بل تعاليم الدين الصحيحة تحث على تحصيل هذه الأمور النافعة وترغب فى طلبها ، فكيف تكون مضادّة له وهى بالقصد تكون من فروعه . وهذا المسلك الذين سلكه الملحد فى التفريق بين الأخلاق الدينية والصناعية فى عدم اتفاقهما هو مسلك بعض ملاحدة العصر الذين اتخذوا أمثال هذه الدعاية الخبيثة أعظم آلة لهم فى هدم الأديان والتحلل منها ، فهذا الرجل سلك هذه الطريقة الملتوية المظلمة ، واجتهد فى توسيعها وترميمها وتسهيلها لغيره ، والله متم نوره ولو كره الكافرون

فصل

ثم قال « واذا كان لا أمل لنا فى أن يخرج صيام غاندى الانجليز من الهند فانه كذلك لا أمل لنا أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا وصيامنا وايماننا المجرّد وباخلاقنا الدينية الصرف »

قلت : هذا لا يصح دليلا على ما ذكرته إلا على اعتقادك أنت ومن على شاكلتك ممن يرون صيام من عبد البقر من جنس صيام من عبد ربّ العالمين ، وإلا فكيف يقاس صيام المسلمين على صيام الوثنيين ، واذا كان لا أمل لك أن تخرج عباداتنا الدينية وايماننا هؤلاء الغاصبين فان أملنا وثقتنا بالله تعالى أن ذلك هو الذى يخرجهم كما أخرجهم من قبل ، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نخرجهم الا بايماننا وإخلاصنا لله تعالى ، فمتى عملنا بالأخلاق الدينية التى

منها فعل ما يجب فعله من الاسباب المشروعة فان ذلك هو الطريق الوحيد لاخراجهم فانهم لم يدخلوا علينا إلا من هذا الثغر الذى هو التفريط فى القيام بالدين كما يجب ، فاننا لما كنا محافظين فيما سبق على هذا الأصل لم يدخلوا علينا فالاخلاق الدينية هى التى ترفع الشعوب وتحلها الذروة العليا ، والالحاد هو الذى يهوى بها فى الهاوية التى مالها من قرار ، ولو أنها تماسكت قليلا ونفعت برهة فلا بد من سقوطها وإصابتها بالكوارث المدمرة كما علم ذلك بالدلائل اليقينية التى لا ريب فيها

ثم قال « فالأخلاق الصناعية الاقتصادية العلمية المادية هى التى تعز الشعوب وتحلها الذروة ، ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم الآخرين إياها ، أما الاخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى لها نتائج اخرى »

قلت : هكذا ادعى هذا الرجل أن الاخلاق الصناعية ونحوها هى التى تعز الشعوب وتحلها الذروة ، ثم ادعى أن الأخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى ، فهى لا تعز الشعوب ولا تحلها الذروة . وقد سبق قوله ان المجد ينحصر فى الاخلاق الصناعية ونحوها فحصر المجد فيها وادعى أنها تعز الشعوب وأن للأخلاق الدينية نتائج أخرى ، وهذا صريح فى أن الأخلاق الدينية آلة ضعف وتأخر ، وقد صرح بهذا فى مواضع من أغلاله هذه ، فقد فسر هذه النتائج الأخرى فى الكلام على الدعاء فى المبحث الثانى الآتى ، فانه صرّح أن الدعاء ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، ومعلوم أن الدعاء قطب العبادة وقطب الاخلاق الدينية التى تدور عليه كما اعترف بذلك فى كتبه كما يأتى ، كما قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » فكانت نتائج الاخلاق الدينية التعويق والملهاة والصرف الخبيث لانها عنده تلهى عن العمل وتعوق عنه وتصد عن قضاء الشهوات النفسية ، وليس هناك من يجيب من دعاه ، بل هى الطبيعة تتفاعل بتفاعلها المستمر فلا حاجة الى الدعاء ، هذا روح دعايته كلها وكلامه يدور على هذا الاصل الخبيث الذى ليس وراءه كفر وزندقة ، وحقيقتها الحث على رفض

الأديان والاقبال على هذه الاخلاق الدنيوية فقط . ثم مع هذا يقول « ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم الآخرين إياها » ، فيقال له لا حاجة الى الأسف فالمسلمون أجل من أن يغترّوا بهذا وأكبر من أن يرضوا لانفسهم ذلك ، فهم يتيقنون أنه لا نجاة ولا نجاح لهم إلا بحبل الله المتين والسير على مقتضى صراطه المستقيم ، وذلك يتضمن الأخذ بأصول الدين وفعل ما يجب فعله من الأسباب المادية المشروعة ، وأن الاعتماد على الأخلاق المادية وحدها ليس كافيا فى نيل استقلالهم وخلاصهم من استيلاء العدو ، ودعواه « أن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى » صريح فى أنها لا ترفع ولا تكسب المجد ، فانه حصر المجد فى الأخلاق الصناعية ونحوها وذكر أنها تحل الشعوب الذروة والعزّ ، ثم ذكر أن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، ومعلوم أنه لا واسطة بين المجد والعز والانحطاط والضعف ، وكتابه كله يدور على هذا المحور الخبيث ، فانه صرح فى مواضع لا تحصى بأن الأخذ بالأخلاق الدينية لا نفع فيه بل هو ضرر محض ، لانها عنده تشغل عن اتباع الشهوات والنظر فى العلوم المادية التى هى أساس التقدم ، ولم يلتفت الى فساد الاخلاق كلها وأثره فى التعويق والتثبيط بل جعل المصائب فى الأخلاق الدينية . فانظر الى هذا التحامل الزائد على الأعمال الصالحة والايمان بالله تعالى . وقد تقدم نحو هذا قريبا لكن أوضحناه هنا لشدة الحاجة اليه . والحق الذى لا شك فيه ولا مرية وهو واضح كالشمس أن المجد والتقدم منوط كله بالأخلاق الدينية الصحيحة ، فانها متى صحت وصلحت دفعت الى العمل المادى ، وبقدر الاستهانة وضعف الاخذ بالاخلاق الدينية فى الاسلام يكون الضعف والوهن ، لأن هذا مقتضى روح الاسلام ، أما وجود التقدم فى بعض الأمم التى لا دين لها أو غالبها الحاد فان ذلك انما يكون تقدما على جنسها أو الذين دونها فى أخلاقها ، ولأن الروح التى نشأت عليها غير روح دينية صحيحة طيبة ، بخلاف الاسلام فان روحه التى تكوّن عليها وقام صرحه روح سماوية دينية زكية فلا يمكنه أن يصح

أو يتقدم الا بالاعمال التى تناسب روحه وأصله ، والا كان عليلا ضعيفا ، لان الاخلاق الخبيثة لا تناسب روحه الطيبة فلا ينمو ولا يقوى عليها أبدا . ثم ان تقدم اولئك تقدم مؤقت لا بد أن ينهار كما تقوم بعض الأشياء على غير أساس صحيح ويكون قيامها وتقدمها على بعض الشعوب التى معها أخلاق دينية ضعيفة نوع ابتلاء وامتحان للصادق وللكاذب فيمن كان دينه على شفا جرف ولأن فى ذلك ايقاظا وتنبيها لمن له عقل كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون ﴾ الى غير ذلك ، وتقدم الملاحدة على جنسهم وأمثالهم لسنا بصدد البحث فيه لأن الكلام فى الاخلاق الدينية وكونها آلة رقى وتقدم ، وكلامه يدور على نقطة واحدة وهى أن الدين آلة ضعف وانحطاط ، وان غمغم أحيانا وخادع ولبّس فهيهات أن يظن بنا الغباوة ثم تصدقه فى ظنه فنكون كالأنعام بل أضل سبيلا

فصل

ثم قال « وان المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الاعداء لا يرهبون هذه الأخلاق ولا يخشون أصحابها ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها . بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التى يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم متدينة مسرفة فى تدينها محافظة على كل فضائلها الدينية »

فيقال لهذا الزائغ : هذا مخالف لما تدعيه فى مقالاتك السابقة فى مناظرتك مع من ترميهم بالالحاد فتدّعى أنهم آلات للمستعمرين فى افساد الأخلاق الدينية فهو تصريح منك أولا بان الأخلاق الدينية هى أعظم ما يضرهم ويؤلمهم ويسوؤهم لشدة عاقبة ذلك لانه انما ينبعث من قوة الايمان التى هى الأصل فى التحرر والقيام ضد الاعداء . ثم يقال على فرض التنزل هنا : وهل رأيك هذا - لو صح - يكون حجة على أن الاخلاق الدينية لا ترفع أهلها ، أو هل يجوز لنا أن نعاديهم ونرفض ديننا عنادا لهم اذا كانت هذه الاخلاق لا تهمهم

وهل تشير أو توجب علينا أن نترك كل مالا يؤذيهم حسدا لهم ، وهل هذا الاستدلال إلا من مهازل الدعايات المرذولة ، فان عدم اهتمامهم بالأمور الثابتة فى ديننا لا علاقة له بتقدم ولا تأخر ولا صحة ولا فساد ، هذا لو سلم صدق ما ادعاه ، وإلا فالدهاة من ملاحدة المستعمرين يعلمون أن هذه الاخلاق الدينية هى أعظم سلاح يشهر فى وجوههم وكلامهم فى هذا كثير جدا ، ولهذا فانهم دائما يسعون فى تشويه الأخلاق الدينية الصحيحة وافسادها ومعاكسة من قام بها ودعا اليها . وأما كونهم يخشون الأخلاق الصناعية والمادية ونحوها فهذا لا ينافى عدم خشيتهم للاخلاق الدينية كما لا يدل على وجوب الاعتماد على الأخلاق المادية وحدها ، ومجرد خشيتهم الشيء وعدمها ليس بدليل عند المسلمين بل ولا عند العقلاء على صحة الاعتماد على الشيء وتركه ، وإنما يستدل على صحة الشيء وفساده ببراهين الصحة والفساد وباتفاق العقلاء

فصل

قال « ومن الواضح المستغنى عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم انما انتصروا فى بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزوّدة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوّقة ، وأن خصومهم انما انتصروا فى آخر الجولة بهذه الامور نفسها ، وان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية »

فيقال : هذا حجة عليك ، فان عنيت أنه ليس معها أخلاق دينية مطلقا لا صحيحة ولا فاسدة فهذا ممنوع ، فانك ذكرت فى آخر الكتاب أن الدين الباطل سبب فى التأخر ، ومعلوم أن معها أديانا باطلة ، وهذه الدول المتقاتلة كلها دول كافرة ضرب الله بعضها ببعض انتقاما منها وعقوبة لها بنفس ما اعتمدت عليه . وعلى فرض أن لا يكون معها دين مطلقا فانها تكون سواء ، فانتصرت احدى القوتين على الأخرى ، وهذا لا نزاع فيه ، انما النزاع فى كون الأخلاق

الدينية آلة ضعف . وأنها لا تقدم أهلها ، وهذا الذى قلته خارج عن هـذا ، فان حاصل ما معها قوتان مجردتان ، فانتصرت إحداهما على الأخرى بمشيئة الله ونحن لم ننكر قط تأثير زيادة القوة المادية على مايقابلها من جنسها من الصناعية المحض كهذه المسألة ، إنما ننكر تأثير زيادة القوة المادية فى القوة المادية المقابلة لها اذا أسست على دين صحيح لا يخرج الى دائرة الـكفر فتنتصر عليها انتصارا نهائيا ، وهذه الدول ليس معها أخلاق دينية صحيحة كأخلاقنا حتى يصح قولك ان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية ، فان هذا القول لا محل له ، إنما يصح هذا لو كانت إحدى هذه الدول المهزومة معها دين صحيح وهذا لم يوجد ، فالدعوى ساقطة جداً لا محل لها ، فان هذه الدول ان كان لها ديانة متقاربة وهى باطلة وان لم يكن لها ديانة فكذلك ما عدا اليابان ، وقد عرف مآلها مع انك مدحت فى آخر الـكتاب ديانتها وهى المهزومة ، أما روسيا فيأتى الكلام فيها وفى ديانتها فى محله [١] . وقد قدمنا أن الأخلاق الدينية الصحيحة المحض توجب وجود ما به تستقيم حالتها من الاخلاق الصناعية ، فان الأخلاق الدينية المحض تحث على الاستعداد والعمل وأخذ الحذر والحيطة كما تقدم ، ولا بد أن الله سبحانه يوفق من قام بدينه الى تحصيل ما ينفعه من الأسباب المادية كما وفقه الى الاسباب الدينية الصحيحة ، فان هذا من سنته التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وانما أتى النقص فى الأسباب المادية من حيث جاء النقص فى الاسباب الدينية فانه الأصل والاساس ، فمن أقام دينه واستقام عليه فلا بد أن تستقيم حالتـه فى الاخـلاق الصناعية ولا عكس كما يأتى

ثم قال : «أمريكا اليوم مثلا هى أقوى منا مع الفروق المخجلة بلا شك ، فالى ماذا ترجع قوتها وتفوّقها علينا ، وبماذا يرجع ضعفنا وعجزنا . من الجـلى

---

(١) أى آخر الـكتاب

المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوّق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية والروحية ، وانما نالت هذا التفوّق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والعلمية ، واننا إنما عجزنا من اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه لا بعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية » انتهى

وهذا القول الذى قاله تهوّر وهذيان لا قيمة له ، فلا حجة فيه على مراده فانه من الواضح الجلى أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب رفضها الأديان وبعدها عن أخلاقها حتى يصح الاحتجاج بهذا فان هناك دولا مخالفة لها فى الأخلاق والديانة وهى تقاربها فى القوة وانما تفوقها بالاخلاق الصناعية والمادية وغير ذلك ، وهذه الاخلاق ليست برفض للأديان ومعاداة لها ، وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافى الديانة الصحيحة . بل تلائمها ، ولو كان مع هذه الدول ديانة صحيحة لازدادت قوة الى قوتها هذه قطعا

ودعواه أن تأخرنا عنها ليس لقصور فى ايماننا وفضائلنا الدينية دعوى فى غاية السقوط ، قد نقضها فى آخر الكتاب حيث ادّعى أن الناس اليوم على دين محرّف واهم ، فكيف يدعى هنا أنه غير ناقص ، هذا تناقض صريح اضطرته الحاجة واللجاجة الى السقوط فيه ، بل ان تأخرنا إنما هو لعجز فى إيماننا وفضائلنا الدينية ، وتقصيرنا فى ذلك تقصير واضح لا شك فيه ولا يلزم من تقصيرنا أن يكون ديننا محرفا فان الدين المحرف هو الدين الباطل المخرج عن الملة ، ولهذا يطلق علماء المسلمين على دين أهل الكتاب بأنه دين محرف أما دين المسلمين فلم يقل أحد منهم انه دين محرف ، ولا يلزم من التقصير فى طاعة الله أن نكون على عبادة محرفة فالفرق واضح . وبالجملة فدعواه أن تأخرنا ليس عجزا فى ديننا كلام باطل ، كما أنه نقضه نقضا صريحا كما تقدم ، فان كثيرا من المسلمين قصروا فى معرفة الأصل ، ثم العمل به ، وذلك فى تأويل صفات البارى ، وفى دعوة الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد عند قبورهم وغيرها ، ثم فى وضع ما يحل محل الاحكام الشرعية ، ثم فى فساد الأخلاق

كالكذب والفجور والفسوق والخيانات وغير ذلك ، ثم فى عدم القيام بالأسباب المادية كالأمور الصناعية والتجارية ونحوها ، فصار قصورنا من كل ناحية ، ثم مع ذلك لا بد من أسباب أخرى فى تفوقها علينا ككثرة عددها وزيادة ثروتها المادية وموقعها الطبيعى وغير ذلك ، مع ملاحظة أنه قد مضى عليها فى القدم مئات السنين أو آلاف السنين وهى فى غاية الانحطاط والخمول ، على حين قوة ورقى عظيم مطرد فى الشرق الاوسط وتفوق كبير عليها ، وقد جعل الله الدنيا دولا كما قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ إذ كلهم عبيده وملكه ، فلا بد أن تنال حظا من آثار الرحمة العامة سواء كان حظها دينيا أو دنيويا فتصيب من جنس ما أصاب غيرها من متاع الدنيا أسوة بامثالها وحجة عليها . ولقائل أن يعارضه أيضا ويقول : فلم تفوق العرب عليها وعلى غيرها فى القرون الاولى . وبماذا يرجع ضعفها هى وعجزها فى تلك القرون حين وجود الدين الصحيح النقى . من الواضح الجلى أن تفوق العرب عليها أو على غيرها فى ذلك الوقت ليس بكثرة عدد ولا قوة صناعية ولا بكثرة إنتاج ، بل إنما هو بالأخلاق الدينية فقط ، هذا أمر مفروغ منه ، ولا نحتاج فى تقرير هذا الى أن نقع فى تناقض كما وقع ، بل هى دعوى صحيحة كالشمس ، فلما أن انتشر على الشرق بلاؤها هى وأمثالها من دسائس الالحاد وفساد الاخلاق ضعفت كالجسم الذى يفقد غذاءه الملائم له ويستبدل عنه غذاء آخر غريبا خبيثا لا يلائم روحه ، فانه يضعف بقدر ما يبعد عما يلائم روحه . وكل ذى عقل ومعرفه يعلم أن الاندلس لم يسقط حتى دخله مذهب الجهمية فى انكار الصفات كالعلو ومذهب غلاة عباد القبور وأمثالهم ، ويدل على هذا كتبهم المتأخرة ، فمن طالع كتب ابن عبد البرّ وكتب من جاء بعده فى القرن الثامن وما بعده علم الفرق فى تحول علوم الأندلس وهبوط علوم الدين فيه هبوطا عظيما ، فلذلك هبطوا لانهم لم يرتفعوا إلا به ، والحكم يدور مع علته ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

وقوله « وإنما نالت هذا التفوق باخلاقها الصناعية » يقال بهذه وبغيرها لا برفض الأديان وعداوتها ، ولو رفضت الأديان وتركت هذه الاخلاق لم تنل شيئا . وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافى الدين ، وهذا الملحد لم يحثّ على هذه الأخلاق فقط ويترك الأمور الدينية حتى يصح له الاحتجاج ، ونزاعنا معه ليس فى نفع هذه وضررها ، بل جدالنا فى كون الأخلاق الدينية آلة ضعف كما زعم ، حيث ادعى هذا وادعى أيضا أن الدعاء لا فائدة فيه ، وانه مصرف خبيث وملهاة وتعويق . هذا محل النزاع ، وجميع خصومه من علماء الدين يحثون على الأخلاق الصناعية ونحوها فلا حاجة الى الاستدلال عليهم بكونها تنفع ، فان هذا الاستدلال لا محل له ، بل حثهم عليها أعظم من حثه هو ، فان معظم كتابه شتم فى الأديان لا حثّ على الاعمال كما سنبينه ، وكون أولئك تقدموا بهذه الأسباب لا يدل على أن أسباب الدين لا تقدم أهلها ، فان ثبوت تقدم الأديان أظهر من ثبوت تقدم هذه الأسباب ، لأن هذه الأسباب كثيرا ما تكون نكبة على أهلها ، وقد تقدم تارة وتؤخر أخرى ، وقد يعارضها أسباب أكبر منها . أما الأخلاق الدينية فلا يعرف أنها أخرت أهلها أبدا ، ولم يتقدم على أهلها أحد ممن يضاد أخلاقهم الا اذا كانت ضعيفة جدا ، فقد يقع ذلك تمحيصا ، ولا بد أن يعود الحق الى نصابه . فهذه الدول الغربية لو اعتمدت على دين صحيح لازدادت قوة الى قوتها كما قال هود عليه السلام ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ فدل هذا على أن لديهم قوة مع كفرهم ومخالفتهم لرسولهم ، ودل على أن القوة الدينية لا تنافى القوة المادية بل تزيدها ، فلهذا أرشدهم هود عليه الصلاة والسلام الى أن الايمان لا ينافى قوتهم بل يزيدها ، ولكنهم كفروا بذلك لأنهم ظنوا - كما ظن هذا الرجل وكما ظن جميع الملاحدة - أن الايمان به واتباعه ينافى القوة المادية التى استحصلوا عليها ، وأن ذلك ملهاة وتعويق وأغلال تعوقهم عن الاستمرار فى هذه القوة وتطورها ، لهذا

عصوه واستكبروا عن اتباعه فرحين بما عندهم من العلم بهذه القوة التى تحصلوا عليها ، فلهذا حرمهم الله ثمرة هذه القوة فانهارت عليهم فجاءتهم قوة أعظم من قوتهم ودمروا تدميرا فظيعا كما دمر أمثالهم ممن ظن كما ظنوا ، وسيدمر من اتبعهم فى ذلك الى يوم الدين . ولا شك أن كثيرا من هذه الدول والحكومات التى حاقت بها الكوارث إنما تركت الايمان الصحيح لظنها أن التدين يضعف قوتها ويحرمها من الرقى والتقدم الذى تؤمله وتسعى اليه . وأعظم الاسباب فى ذلك أنها لا تعرف حقيقة الدين الصحيح ، ولكن ليس هذا عذرا سائغا لها فانها دائما تبذل أقصى ما لديها فى التنقيب والبحث عن كل ما فيه نفع دنيوى لها كما تفعل فى مكافحة الامراض بالاجتهاد فى العثور على الادوية القاطعة للأمراض القاتلة ، وكما تفعل فى المعادن وغيرها ، فكان من الواجب أن تتعب وتكوّن هيئات وجمعيات عظيمة للبحث والتنقيب والنظر فى العقائد والاديان النافعة ، ولو فعلت هذا لكان من المحتم أن يتبين لها الدين الصحيح الذى يعيش به العالم كله بسلام ، فهو الذى تطمئن اليه النفوس والفطرة المستقيمة كما هو موضح فى كتب الامام ابن تيمية وأمثاله . فمن طالع كتاب العقل والنقل له وغيره من كتبه وكتب تلميذه ابن القيم تبين له أصل الدين بيانا كالشمس . فهل فعلت شيئا من ذلك . أنها لم تفعله فهى اذن لم تعلمه علما صحيحا ، وذلك لضعف الداعى لا لعدم القدرة ، فان وجود القدرة والارادة الجازمة وقوة الداعى يوجب وقوع الفعل . وبالجملة فقد أخبر الله أنه يسر القرآن للذكر فهل من مدكر ، فكان التفريط وعدم التذكر هو السبب فى عدم معرفة الحق ، لا عسر فى معرفة الحق فى نفسه

ومما يجب التنبيه عليه والتفطن له أن تقدم الكافر على المسلم فى الدنيا بالامور الصناعية والتجارية ونحوها لا يقتضى أنه سيستمر ، أو أن الكافر على صواب فى أخلاقه ونظامه ، بل إن ذلك يقع ولكنه لا يستمر ، فلا بد من وجود النكبة . ان قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم ابراهيم وكثيرا من الانبياء

وأتباعهم قد تقدم عليهم قومهم وغير قومهم من الكفار فى هذه الامور ولم يزحزحهم ذلك عن ايمانهم ، ولم يفتنهم هذا التقدم ، فان الله يمتحن عباده ، فمن رسخ الايمان فى قلبه علم أن الحق حق لا يتغير بمثل هذه الامور ، فان الحق حق فى نفس الامر سواء تقدم أهله فى الدنيا أو تأخروا ، وليس برهان الحق هو التقدم والتأخر حتى يزول بزواله ، وانما يزيغ قلب من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، اذ لولا التأخر لم يميز الصادق من الكاذب والراسخ إيمانه ممن هو على شفا جرف ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبىّ الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . فتأمل هذه الآيات وما فيها من العبر الباهرة والدلالة الظاهرة على أن الكفار قد يتقدمون أحيانا على أهل الدين فى الامور المادية وأن وجود هذا التقدم المادى متاع دنيوى وامتحان وتمحيص للصادق فى ايمانه من الكاذب ، ولا يلبث هذا التقدم أن ينقلب وينهار لانه عارض من العوارض المقصودة لغيرها فلا بد من انهياره وسوء عقباه ، وان ذلك سنة من سننه تعالى فى هذا الكون ، وإنه مطرد فى الامم المتقدمة والمتأخرة ، فهو تقدم يشبه الطفور المؤقت الذى

لا بد من فشله وهبوطه ، كما فشل وهبط تقدم أعداء الرسل وأعداء الانبياء كفرعون وقومه بالنسبة الى بنى اسرائيل وأمثالهم ، فلا عجب أن حصل على المسلمين تأخر ما فى وقت قليل لما غير أكثرهم دينه ، وقد تقووا قرونا كثيرة جدا فلربما كان فى هذا التأخر عبرة لهم وأن يكون داعيا لهم الى معرفة مضرة ترك الدين والتقصير فيه ، وحفزا لهم على جمع أمرهم ومعرفة طريقهم الحقيقى فمن احتج بتقدم الغربيين على المسلمين فى هذا الوقت الحاضر على أنهم أكمل عقولا وأهدى سبيلا فهو من جنس فرعون حين احتج على موسى بهذه الحجة نفسها حين قال فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ فتأمل هذه الحجة الفرعونية تجدها بعينها هى حجة هذا الرجل فى هذه الاغلال كلها[1] ولما كان قوم فرعون يومئذ أغبياء سخفاء عقول لم ينظروا الى الحقائق الثابتة بل نظروا الى المظاهر السطحية الدنيوية التى نظر اليها هذا الرجل ومن على شاكلته ، فنظروا الى تقدم هذا وتأخر هذا فى الملك والمظهر والتجارة ونحوها ، قال تعالى فيهم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهكذا وقع ، فانهم كانوا سلفا لمن فعل فعلهم ومثلا لهم من الآخرين ممن نكبوا بهذه النكبات المتتابعة . وهذه سنة مطردة وقاعدة معروفة مشى عليها جميع الكفار من أولهم الى آخرهم فى احتجاجهم بالتقدم

---

(١) فانه احتج عليه بتقدمه فى الملك والتجارة والأبهة والمظهر السطحى. ومن عمق خبثه أنه عرض بنقص ابانة موسى للكلام ، يعنى أنه ناقص حتى من ناحية الكلام ، فذكر الاهانة معبراً عنها بعدم الملك وبالضعف الخارجى ، وذكر ضعف الابانة للضعف الجسمى ، وهذه هى حجة الملاحدة والزنادقة كهذا المعارض

فى الحياة على الصحة والصواب والتأخر على خلاف ذلك ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ وهذا عين ما يحتج به هذا المارق كما هو ظاهر ، ثم يقال لهذا الملحد أيضا : هل التقدم فى الامور المادية من صناعة أو تجارة أو غيرها دليل على الحق ، وإن التأخر فى هذه الامور دليل على الباطل ، أم ليس ذلك بدليل . فان قلت بالأول بأنه دليل فصرح بذلك ولا تتناقض وتغمغم تارة وتلوح تارة أخرى وتاتى بأقاويلك فى هذا ملتوية أحيانا وصريحة أحيانا أخرى ، وقل إنهم على الحق وإن المسلمين على الباطل . وان قلت بالثانى وانهم ليسوا على الحق . وما أكبر هذا عليك . فما وجه هذه المنافقة والمخادعة والمراوغة المنكرة ، فان هذا يبطل تهويلك وتطويلك فى هذه الامور

فصل

ثم قال : « لا أحد يستطيع أن يمارى فى هـذه الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر ، مع أن هؤلاء سلبيون من هـذه الناحية تمامـا »

فيقال : كل أحد من العقـلاء يستطيع أن يدفع هذه الاوهام التى ادعيتها حقائق كما أوضحناه . وكل هذا الذى وقع فى هذه الحرب حجة عليك ، فانهـا كوارث ساحقه حلت بمواضع الالحاد وحقت على رءوس الملاحدة المعاندين الذين نبذوا النصوص السماوية وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . فليست ألمانيا ولا اليابان ولا ايطاليا بدول معتمدة على الايمان والاعمال الصالحة فانتصرت عليها هذه الدول الملحدة كما تزعم حتى يكون هـــذا حجة لك وحقائق تعتمد عليها فى أن الايمان بالله والاخلاق الدينية لا تعز أهلهـا بل تفيـد التأخر ، وهذا هو محز النزاع الذى نجادلك فيه ، فكيف تدعى أنه حقائق لا يمارى فيها وهى لم توجد البتة ونحن لم ننكر قط ان الدول الكافرة ينتصر بعضها على بعض

ثم انه قد علم أن هذه الاسباب التى تحث عليها فى أغلالك وتعلق النصر عليها مطلقا قد نفعت من وجه وأضرت من وجوه كثيرة ، فان كانت نفعت روسيا فقد أضرت ألمانيا . وأما الأخلاق الدينية التى صرحت بأنها لا فائدة فيها وأنها مصرف خبيث فقد نفعت أهلها ولم تضرهم قط ، بل ربما انها لو لم توجد لديهم لحل بهم ما حل بغيرهم ولا سيما مع ضعف أهلها من ناحية الاسباب المادية مع أنهم لم يأتوا بها الا ضعيفة

ودعواه ان نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر فهى دعوى تنم عن خبث كامن عميق إذ هى مكابرة واضحة ، فأدنى عاقل يعلم أن روسيا لم تنفرد بحرب ألمانيا ، وأنها لم تستغن عن مساعدات غيرها لها بأنواع الوسائل الحربية ، وأمريكا أيضا تدّعى أنها هى التى هزمت ألمانيا ، وكذلك الانجليز . فالنصر هذا انما وجد من الكل بلا ريب ، على أن نصر روسيا هذا لا حجة له فيه كما تقدم مرارا ، فانها منتصرة على دولة من جنسها فى أكثر المبادىء والبعد عن الدين الصحيح ممن هم سلبيون من الدين ، فحقيقة هـذا ـ لو سلم ـ أن تكون منتصرة على جنسها فى أعظم مبادئها عقوبة لهما ، وهذا خارج عن محل النزاع ، بل هو حجة عليه فانه يدعى أن الانحلال من الأديان هو طريق المجد والتقدم فاذا كان نصر روسيا من حيث كونها سلبية من ناحية الدين فعدوّها المنهزم كذلك على زعمه ، لأنه يدعى أن أكثر هذه الدول ملاحدة ، فان كان الانحلال سببا للنصر فقد صار أيضا سببا للهزيمة والدمار والوبال على أهله ، وان لم يكن سببا بطل احتجاجه . على أنه ينبغى أن يعرف أن روسيا ليست كلها سلبية كما يدعى ، بل فيها مذاهب وشيع مختلفة ، وقد غيرت كثيرا من مبادئها البلشفية فى الالحاد قبل الحرب لما عرفته من تأثير الفساد فى شبابها ، وهى بكل حال مضطربة فى أمر الديانات فليست بسلبية تماما من هذه الناحية الدينية كما زعم . ومما لا شك فيه أن أكثر هذه الأفكار التى يدعو اليها فى أغلاله هى من أعظم الأسباب التى حاقت بألمانيا حتى أوقعتها فيما وقعت فيه ، هـذا

وهى دولة عظيمة قوية ، فكيف اذا كان يدعو دولا ضعيفة بالنسبة الى غيرها الى هذا المبدأ الهدام ، فلا حجة لما ادعاه فى نصر روسيا مطلقا فانها لم تنتصر على أخلاق دينية محضة حتى يكون حجة له ، وروسيا نفسها لم تدع بهذه الدعوى ولم تدع أيضا أنها مستقلة بالنصر دون غيرها كما ادعاه لها هذا المكابر . ثم هذه الحرب التى دخلتها روسيا كانت صدمة عظيمة فى روحها وشبابها سيبقى لها الأثر الى أمد طويل ، ولو لم تدخل الحرب لكان أولى بها وأقوى لها ، فانها ما استعاضت فى انتصارها مقدار ما فاتها لو لم تدخل الحرب ولا مقدار خسارتها فى حروبها ، فهذه الحرب والتى قبلها كلها صارت على رأسها هى وألمانيا ومن معهم فمن شغفوا بهذه التعاليم الالحادية فكلما خرجوا من شقاء دخلوا فى آخر ولا سيما بعدأن كثر الالحاد وتوسعت دائرته فيهم ، وهذا المستقبل ينذر بشر أدهى وأمر على هؤلاء ومن أعجب بهم وسحر بآرائهم ، فكيف يصح أن يقال إن نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر والحال المعروفة عند كل عاقل هى ما ذكرنا وقد شاهده الناس ، وهو أمر ظاهر لا تنكره روسيا نفسها ، فهو حقائق لا يمارى فيها لوضوحها ، ولكن « لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ » .

فصل

ثم قال : « فطريق المجد القومى إذن يجب أن يكون معروفا واضحا متفقا عليه ، ويجب أن يعلم أنه غير ما يدعو اليه هؤلاء الصالحون اذا كان هؤلاء الاخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم انما يدورون حولها الآن اضطرارا او انهم بعد أن حشدوا الحشود سيتعرفون الى طريقهم الحقيق »

قلت : قد صرح هنا - كما ترى - بأن طريق المجد القومى هو غير ما يشير اليه هؤلاء الاخوان الصالحون الذين حصروا المجد فى الأخلاق الدينية الأولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية الى آخر العبارة السابقة . وقد علمت أنه ليس فيها نفى للأخذ بالأسباب المادية بأنواعها مما فيه استعداد للعدو ، بل هم قد صرحوا

بان ذلك من أهم واجبات الدين وذلك موجود فى كتبهم ومقالاتهم الكثيرة الشهيرة فى المجلات والجرائد وغيرها فادعى هذا الملحد أن المجد فى غير ما يدعون اليه ، بل صرح فى مواضع أخرى بان هذه الطريق لا تفيد شيئا فى التقدم بل هى أسباب للتأخر ، فادعى انها أغلال تعوق عن الرقى ، وصرح فى البحث الثانى بأنها ملهاة ومصرف خبيث وتعويق للبشر . ثم قوله « فطريق المجد يجب أن يكون معروفا الخ » يقال : قد عرفناه معرفة أوضح من الشمس فى نصف النهار ليس دونها أدنى حجاب بأنه الأخذ بالأخلاق الدينية ، ولكن أنت لم تعرفه لعماء بصرك فلهذا كنت أعظم الموغلين فى الضلال فى معرفته ، فمن عمى بصره فلم ير عين الشمس على شدة وضوحها لم يجز له أن يحكم على غيره بأنه لا يراها . ومن عظيم ايغالك فى الضلال وانعكاس الرأى أنك جعلت أسباب التقدم أسبابا للتأخر وجعلت أسباب التأخر هى أسباب التقدم ، فقلبت الحقائق اليقينية لما انقلب قلبك كالمريض الذى يتصور الاشياء على غير حقائقها فيحكم عليها بما يراه فى حالته المختلة . قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ٭ وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقولك ويجب أن يعلم أنه غير ما يشير به هؤلاء الصالحون فنقول بل يجب أن يعلم أنه هو ما يبشر به هؤلاء العلماء المظفرون ، وأنه غير ما تدعو اليه أنت وأضرابك الهدّامون ، وقد تقدم أن الأخلاق الصناعية المادية لا تنافى الأخلاق الدينية بوجه من الوجوه ، وتقدم أن هؤلاء الاخوان الصالحون لم ينفوا هذه الأخلاق المادية فانها إن كانت داخلة فى مسمى الجهاد وأنها من وسائله فهم قد ذكروها كما نقله عنهم صريحا فلا معنى لاعتراضه عليهم ورده لكلامهم ، وان لم تكن داخلة فهم لم ينفوها فى كلامهم الماضى وقد ذكروها صريحا فى المواضع الأخرى ، واذا كان يرى أن هذه الاخلاق مضادة للدين فلا معنى للحث عليها واطالة الجدال والترغيب فى الاعتماد عليها وانتسابه مع ذلك الى الدين ومحاولة التوفيق بينها وبين الدين على ما يزعم فان المتضادات لا

يمكن الجمع بينها بحال ، فما ذكره تهور ساقط لا أساس له البتة

وقوله : « ان كان هذا هو الامر الذى ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم وبأتباعهم » فيقال : لقائل أن يقول لك وما أبعد ما تذهب اليه أنت ومن على شاكلتك بأنفسكم وبأتباعكم ـ ان كان لكم اتباع ـ فان هذا مجرد دعوى فتقابل بمثلها

وقوله « ونظنه مخطئا جدا من حاول أن يقوى نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت النور الضئيل » . يقال : هذا المثل هو منطبق عليك تماما ، فانك سلكت فى دعايتك هذه مسلكا لا أخفى ولا أفسد منه ، لانك جعلت الانحلال من الأديان واعطاء النفس شهواتها حتى ترجع الى طور الحيوانية والطفولية سببا فى حصول المجد والرقى وحصول الآمال الكبار (١) فهذه الدعاية الهوجاء انما ينطبق عليها هذا المثل الأهوج المناسب لها ، فان حصول الرقى والمجد باتباع الأهواء وفساد الأخلاق لا يمكن أن يفهم من هذا ، فلا أخفى ولا أغمض منه ان لم يكن مستحيلا

فصل

ثم قال « كم تستولى علىّ شتى العواطف اذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسوف فى إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة ، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها . اننى لأهتف أحياناً كثيرة اذا رأيت هؤلاء المؤمنين كما كان يهتف أحد ادباء فرنسا اذا رأى أمثالهم : ياللسذاجة المقدسة ، وياللايمان المخدوع ! »

---

(١) والعجب أنك ادعيت فى بحث المراة أنها اذا تعلمت فلن نخشى شيئا بعده ذلك أبدا ، فجعلت رأس السياسة كلها والنهوض والمجد والاستقلال فى تعليم المرأة فأى انسان يقوى نظره حتى يستطيع أن ينظر حروف هذه السياسة الدقيقة فى هذه الظلمة الحالكة

قلت : لا يخفى بما مر أن هذه الأفكار التى أشار اليها هنا وهى التى يقاد بها هؤلاء الشبان المخلصون أنها هى ما ذكره عن أولئك الجماعات العظيمة الشأن فى تعريف طريقة المجد المنشود ، وقد عرفت أنها الأخذ بالأخلاق الدينية وفعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة المادية ، فكان هذا الرجل حسب ما زعم تستولى عليه شتى العواطف وشدة الأسف عندما يرى هؤلاء الشبان المخلصين يقادون بهذه الافكار الدينية . وذكر أن هـــذه الأفكار أضعف الأسباب وأصغرها فى تحصيل آمالهم ، وقد صرح بأنهم مؤمنون ، ثم ذكر أنه يهتف أحياناً اذا رأى هؤلاء المؤمنين على هذه الحالة الدينية يتوقدون حمية وغيرة كما كان يهتف هذا الفرنسى قائلا « ياللسذاجة ، وياللأيمان المخدوع !» فصار ما دعا اليه أولئك الجماعات الصالحون سذاجة وايمانا مخدوعاً . وقد نقلنا ما ذكره عن أولئك الجماعات الصالحين أن حقيقته الأخذ بالأخـــلاق الدينية الأولى فى الأصل والفرع ، أى الأخذ بالطريقة السلفية فى أصول الدين ثم فعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة ، فكانت هـذه الأمور هى السذاجـة والأيمـان المخدوع عنده ، وحق له أن يهتف بذلك لأنه كما أصيب بداء النفاق والزندقة اتبع سلفه فى هذا الهتاف ، فهذا الأرث انمـا تسلسل اليه فى أسلافه أولئك المنافقين الذين فى قلوبهم مرض فأنهم يهتفون بجنس هذا الهتاف حينما يرون المؤمنين فى زمانهم ساعين جادين متوقدين حميـــة وغيرة على الحق ، فانهم يظلون هاتفين أحيانا قائلين « غرّ هؤلاء دينهم » وتارة يهتفون قائلين « ان هؤلاء لضالون » فلو أن هذا المنافق اتبع أسلافه من منافقى العرب لكان أولى به من أن يتبع هذا الفرنسى ، لا سيما اذا كان يدعى أنه من العرب وأنه مضاد لفرنسا . ولـكن إيغاله فى النفاق تجاوز به الى هذا الحد فى الشقاق . قال الله جل من قائل ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فأن الله عزيز حكيم ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا

انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون ﴾ .
وقال الله تعالى ﴿ زُين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ الآية . فما ذكره هذا المؤلف هو من جنس ما حكاه الله عن أسلافه الكافرين والمنافقين من عيب دين المؤمنين والاستهزاء بهم ، ولكل قوم وارث . ثم هو انتقاد واستهزاء محض ليس من الحجة فى شيء ، وقد سبق اليه من هو على شاكلته ممن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . وقوله « بأضعف الأسباب وأصغرها » فيقال كلا بل هى أقوى الأسباب وأعظمها ، وانما كانت ضعيفة صغيرة عندك لضعف بصيرتك وبعدك عنها ، فضعف البصيرة والبعد عن الشيء القوى الكبير يصوره صغيراً ضعيفاً وليس لك أن تحكم على الأشياء القوية العظيمة ـ التى شهدت الشرائع والعقول السليمة بقوتها وعظمتها ـ بنظرك الضعيف المعكوس مع بعدك عنها ، فان هذا قلب للحقائق وضلال بعيد

فصل

ثم قال : « يقال ان الدعاة ينجحون كثيرا ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الاتكالية التى يعتمد أفرادها على الآخرين فى تحقيق آمالهم وعجزهم هم عن تحقيقها ، فأمثال هؤلاء يسارعون الى تصديق كل من جاءهم بفكرة ومبدأ أو دين أو مذهب زاعماً أنه سيعطيهم كل شيء اذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا فى ايمانهم ويسارعون الى التنازل لمتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شيء فيهم » فيقال : لعل هـــذا هو الذى دفعك الى هذه السخافات التى سجلتها فى هذه الاغلال ، اذ ظننت أن كل من جاء بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب جديد وعلق النجاح على الأيمان به أنه ينجح ، فلا عجب أن جئت بهذه الفكرة المرذولة فسجلت هذه المخازى الوبيلة ، وادعيت أنها « من الحقائق الأزلية الأبدية التى تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى

ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار » ثم بنيت هذه الدعوى على اتباع الشهوات وفساد الأخلاق وأنها سبب للتقدم والنجاح ، ثم ذهبت تعلق على الكتاب قولك المضحك : « سيقول مؤرخ الفكر انه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » . فليت شعرى متى كانت الأمم العربية مجانين او معتوهين حتى رقيت جنونهم بهذا الهذيان والهراء والصديد والقيح الذى قذفته فى هذا الكتاب

يا صاحب الحقائق الأزلية الابدية إن من كان على هدى من أولئك الدعاة لم يدعوا الناس الى ما دعوتهم اليه من رفض الايمان واتباع الشهوات ، أو يدعون أن تحصيل آمالهم موقوف على الاخذ بأقوالهم التى سجلوها وكتبوها كما ادّعيت ، إنما دعوا الناس الى أوثق العرى وأثبت الأصول ، ودعوهم الى النور المبين والروح التى لا تقهر ، دعوهم الى صراط العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، دعوهم الى إصلاح أخلاقهم التى هى الأساس الأول لجميع الأعمال والنهضات كلها ، فبصلاح الأخلاق يصلح كل شىء وبفسادها يفسد كل شىء « وانما الامم الاخلاق » كما يقال ، فالاعمال المادية كلها ونتائجها إنما تصدر عن الأفكار الصحيحة ، فلا يمكن صدور أى سبب أو نتيجة من صناعة أو زراعة أو غيرها حتى يتصورها الفكر أولا ، ولا يمكن أن يتصورها الفكر تصوراً صحيحا حتى تكون معارفه، وأخلاقه صحيحة نيرة . ياهذا ان الدعاة الصالحين لم يرفضوا العقل والشرع كما رفضته ، بل علموا وبينوا أنه ليس بين الدين الصحيح والعقل السليم أدنى تباين ، بل هما أخوان ، فالأصل الدين والعقل تابع له ، فان العقل إن كان قد صدّق بالدين فيجب أن يتبعه ، والا كان ذلك قدحا فى تصديقه له لأنه قد صدّقه فكيف يصدّقه ثم يشك فيما أخبر به ودعا اليه ، وان كان العقل يصدقه مطلقا فبأى شىء يصدّق ، أيريد أن يصدق عقله وحده أم عقول طائفة أو أمة أو شعب أو جماعة مع تباين العقول وتضادّ نظرياتها ، ولا شك أن هذا يوقع فى التناقض والفساد والفوضى

التى لا تنضبط ، ثم إن هؤلاء الدعاة الدينيين لم يدعوا الى اتباع آرائهم ولا لكل ما يقولونه ، فهم أعقل من أن يدّعوا أن ما فى كتبهم « حقائق أزلية ابدية ، وانها تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى ولن يستغنى عنها مسلم » فهم أجل وأكبر من ذلك ، إنما دعوا الى تعظيم الرب وعبادته واتباع أوامره على ألسنة رسله ، فاذا نجحوا فان نجاحهم من أعظم البراهين على صحة دعايتهم ، لانهم لم يدعوا الى أنفسهم ولا الى كل ما يوافق الطبيعة والشهوات حتى يكون ذلك مرغبا فى قبول دعايتهم ، بل دعوا الى الحق وهو ثقيل كبير على أكثر النفوس ، فاتباعهم دليل على وضوح برهان دعايتهم ، بخلاف من اتبع ما يوافق هواه فانه قد يكون إنما اتبعه لموافقة هواه لا لصدقه وصحته فى نفس الامر ، وهذا ظاهر جلى . فما أورده وادعاه على الدعاة والعلماء الصالحين فهو حجة عليه فلا وجه لتشنيعه واستهزائه ، وقد كرر هذا القول مرارا فى غضون هذا الكتاب ، وقد علمت فساده فلا حاجة الى تكرار الكلام عليه

فصل

قال : « ولا أجد مفرا من أن أذكر هؤلاء الأخوان أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة وعطلا فى أصحابها إن لم يشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة ومن التربية العالية ، وفى الحق إنهم قليلون جدا إن لم يكونوا غير موجودين اولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الابداع فى الحياة والنهوض بها ، ولهذا فانه ليكاد يعجز الباحث ان يجد متدينا حرفيا استطاع أن يكون فى الحياة شيئا مذكورا ، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها . ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه»

قلت : خليق بمن هذه حاله وهذا رأيه ، ان لا يجد مفرًّا من أن ينفث هذا الشر الكامن فى قلبه ، لأن هذا القيح المنضغط فى صدره لا بد من خروجه

والا قتله فلا مفر من نفثه والقول به لكى يعافى منه ، لانه خبث قاتل اجتمع وتكون من الشك والريب وفساد العقيدة والقلق وانعكاس الرأى . هذه حقيقته فما ذكره من أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة . الى آخره كذب ظاهر فإن الروح الدينية المحض روح فعـــالة قوية وثابة صارمة تدفع بمقتضياتها الى التربية العالية فانها توجب بتعاليمها تحصيل الاسباب المادية التى بها قوام الدين وليس هناك روح دينية تنافى الروح المادية بل روح الدين الصحيح توجب تحصيل ما يؤيدها من الاسباب المادية من الاستعداد للاعداء وجمع الكلمة وازالة العوائق التى فى سبيل ذلك . ولكن كلامه يدور على عدم اتفاق الدين واسباب التقدم ، بل روح الكتاب كله يدور على تضاد الدين والتقدم ، ولهذا ادعى هنا انه يعجز الباحث ان يجد متدينا استطاع ان يكون فى الحيـاة شيئا مذكورا ، وصرح بأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم هم المنحرفون عن الدين والمتحللون منه ، وهذا نص صريح فى الدعاية الى رفض الدين وتصريح بان الدين اعظم حجاب عن النهوض والتقدم لأن أهله -على كثرتهم- لم يتحصلوا على صنع الحياة وايجاد العلوم لها وانما تحصل على ذلك من تحلل من الدين . واى قدح فى الدين وسب له اعظم من هذا . وقد كرر هذا المعنى مرارا كثيرة جدا وهو كفر صريح لانه قدح ظاهر فى الاديان لان مضمونه ان الله ارصد للبشر دينا يمنعهم عن التقدم والنهوض فى حياتهم وان الانبيـاء سعوا فى هدم الحيـاة والى حث الناس عـلى الانحطـاط والدمار فلو تركوهم ومواهبهم واستعداداتهم الكامنة لتقدموا . هذا مقتضى كلامه بل صريحه وقد صادم قول الله تعالى ﴿ كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾ الآية الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كما تقدم بيانها . وقد نسى هذا الملحد ان الذين هدموا الحياة وجروا على الانسانية الويلات والأنات الطويلة والدمار الفظيع والفناء المتتابع واماتة الاخلاق العالية هم المنحرفون عن الاديان المتحللون منها ، وقد صرح فى آخر الكتاب بمثل ما صرح به هنا حيث ذكر أن

المتدينين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم واجناسهم عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا وان يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، انتهى .
فالكتب السماوية كلها ، وتعاليم الانبياء المقدسة التي سار على ضوئها الوجود كله وآراء فحول اهل الاديان كلها ، ليس بشيء فلم يهبوا الحياة ولم يصنعوا لها شيئا جديدا ، وأما أغلاله التي من أطول آياتها او سورها مسبته وزارة التموين المصرية حيث لم تبعه ورقا على الفور هو الشيء الذي يهب الحياة وهو الشيء الذي يكون به المخلوق متألقا ، ثم مع هذا يصرح بان ذلك كله لسادته من الملاحدة والزنادقة فقط . ونحن نتحداه ببيان بشيء واحد جديد صنعه الملاحدة استقلالا بدون المتدينين وبدون شيء من مبادئهم فانه لا يمكن بحال أن يجد هذا ابدا ، كما نتحداه ان يوجد لنا ملحدا اوزنديقا أو متحللا كان في الحياة شيئامذكورا ولم يكن في المتدينين من هو ارفع منه قدرا واظهر منه ذكرا ، ولعله لم يتحلل من دينه ويرتد بعد اسلامه الا من اجل ان يكون مثلهم فيهب الحياة شيئا جديدا ويكون فيها مخلوقا متالقا ، ولكن الله عامله بنقيض قصده

ما اقدر الله ان يخزي خليقته ولا يصدق قوما في الذي زعموا

وما هي الحياة الصحيحة التي اختص بها الملحد المتحلل دون اتباع الانبياء .
بل الذي نقوله انه لا يوجد في الدنيا شيء جديد نافع سواء كان ماديا أو علميا الا وأصل ابداعه أو اولياته من المتدينين ، ولا يوجد ملحد في الحياة صار مخلوقا متألقا أبدا ولو بلغ ما بلغ ، فلا بد ان تنغص عليه حياته . قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فالحياة الطيبة انما يختص بها من عمل صالحا فقط ومن حرم من العمل الصالح فقد فقد من الحياة الطيبة بقدر حرمانه . وهذا أمر لا يشك فيه الا من في قلبه ريبة ولم يسبر الامور وينظر اليها بعين البصيرة . ثم التألق ما هو أهو ركوب الطائرات وغيرها من سائر المركوبات المتنوعة الحادثة او أكل المأكولات اللذيذة ونحوها فان هذا كله قد اشترك فيه المتدينون والملحدون والكلاب والخنازير

وغيرها من اكثر المخلوقات وان كان شيئا آخر فليبينه حتى نعرفه ونجيب عنه

فصل

ثم قال : « والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ، ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة »

قلت : قد أصبت فى قولك منافقة « عندنا » حيث أضفت هذا الرأى الى نفسك ، لان العقلاء كلهم يتحاشون عن هذا الرأى ، فان عيب المتدين إنما ينشأ عن عيب دينه بلا شك ، فكل متدين بدين فلا بد أن تظهر أخلاقه عليه ، ومن عاب أخلاقه التى بها يدين فقد عاب دينه ، فان الدين ليس شيئا قائما بنفسه إنما هو أعمال واعتقادات وأقوال تقوم بالمتدين ، فمن عاب المتدين لدينه فقد عاب دينه بلا شك ، وإذا قيل إنه لم يعمل بالاخلاق الدينية المطابقة لحقيقة الدين قيل هذا يحتاج أولا الى بيان ، ومتى ثبت خروجه عن العمل به كما ينبغى ثبت التفريق بين الدين والمتدين ، ولا يثبت التفريق بمجرد الاجمال والدعوى ثم اذا ثبت التفريق زال اسم المتدين المطابق لمسماه إما فى الجملة وإما فى الغالب ، والا فمحاولة التفريق بين القدح فى المتدين ومدح الدين محاولة خداع ونفاق ، فان هذا يفضى الى سب الأديان وشتمها والقدح فيها بمجرد هذا العذر البسيط الذى لا يعسر على أحد ادعاؤه ، واحترام الأديان وتعظيمها من أعظم أركان الملة فيمنع القدح فى المتدين حتى تظهر مخالفته للدين ، ثم بعد ظهورها يقدح فيه بأفعاله مقرونة بالقدح ، فلا يجوز سب المتدين بلفظ الاطلاق حتى يعرف خروجه عن ديانته ووجه القدح فيه ، كما يمنع سب المصلى والمزكى والمتصدق والموحد والعابد والمسلم ونحو ذلك حتى يتبين مخالفته لافعاله بيانا واضحا ، ثم بعد البيان يقدح فيه ، لا باسم الدين بل باسم فعله الذى أوجب القدح فيه . ومن اعظم الواجب ان يبين من قام بالدين الصحيح ومن قام بما يخالفه حتى يصح مدح الدين على وجه الاطلاق ويصح مدح من قام به ، أما الدين الذى

لا يدرى ما هو ولا من قام به فمن أين يعلم صحته وفساده ، ومن أين علم المدعى صحة الدين وهو قد ذكر فى آخر الكتاب أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح وتصوره على وجه نافع مفيد إلا فيما ندر ، فمن أين يعلم هذا النادر وهو لم يبينه ولم يشر اليه إلا فى دعواه أنه ما تضمنه هذا الكتاب الذى هو الاغلال ، فكيف يمدحه ويدعى أن العيب ليس عيبه اذن ، وانما قصد بذلك الخداع ، ثم اذا كان العيب ليس بعيب الدين مع خفاء الدين على ما يدعى فما هذا الحط الشديد على أهله مع عدم تحقيق مخالفتهم له ، وهــذا أمر يجب التفطن له فانه طالما كرره وخادع به ، ثم اذا كان جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأزمانهم كلهم قد عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا لأنهم عجزوا عن التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة فكيف لا يكون العيب عيب الدين ، اللهم إلا أن يكون دماغك الذى هو أكبر دماغ فى العالم - على مقتضى رأيك - يريد أن يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة فى هذا الكتاب المظلم او فى هذه الأغلال المحكمة ، وحينئذ يحصل لنا الرجل القادر على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة كما يحصل لنا معرفة الدين الذى لا يعاب وهو ما تضمنه هذا الكتاب ، ويكون اذن ليس العيب عيب الدين بل عيب الأنبياء وأتباعهم على اختلاف أجناسهم وديارهم وأزمانهم وأمزجتهم ، لأنهم لم يقدروا على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة ، اذ لو كانوا قادرين لوهبوا الحياة شيئا جديدا ، ولصنعوا لها العلوم المبتكرة ، ولكانوا فيها مخلوقات متألقة . ومن كان عاجزا عن هذا فانه لم يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة ، فيكون متدينا تدينا باطلا ، لأن من لم يوفق بينهما فهو كذلك كما ادعاه غير مرة ، وهو واضح فلا حاجة الى المخادعة .

فصل

قال : « وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء ، ويروى أن زياداً ذلك القائد

الداهية العربى المشهور قال : أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه ، يعنى عن النهوض الى السيادة والمجد . وقال المتنبى يصف الرجل الذى سيكون عونه فى انتزاع الملك :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

يريد أنه غير متدين لأنه يرى المتدينين غير أهل لما يطلب ويراد منه ، ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون :

أمسى امام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

غضب وقال : « مازدت أن جعلتنى عجوزاً عاجزة عن الحياة »

قلت : استدلاله بهذه الأمور مما يدل على رسوخه فى الغباوة وسقوط الرأى ، ولا عجب فالمضطر يأكل الجيف ، وإلا فلو كان له أدنى مسكة من عقل وحياء لم يسجل على نفسه هذه الفضائح المخزية مع أنها حجة عليه . وليس فى هذه الأقوال على سذاجتها ما يدل على أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان حتى تكون مطابقة لقوله « وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء » فليس هولاء هم القدماء مع أنه ادعى أن القدماء رجعيون لا يؤخذ بأقوالهم . أما ما ذكره عن زياد فادنى رجل من عقلاء المسلمين يعلم أن ابن عمر أشرف وأجل وأعظم من زياد دينا وعقلا ورأيا ، بل لا نسبة بينهما فى الفضيلة والشرف ، هذا لو قدر أن زيادا هذا الظالم المعروف بالظلم انتقد على ابن عمر وسيرة زياد هذا وظلمه لا يخفى على من له أدنى خبرة بأيام الناس ، وكم لزياد هذا من الأقوال والأفعال ما يعاند رأى هذا الملحد ، ولكنه لم يعشق من قوله إلا هذه الكلمة ، وهى ـ لو صحت ـ فليس له فيها حجة بوجه من الوجوه فإن قوله « أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه » فهذا مدح له لاذمّ ، فانه ليس فيه أنه قعدت به تقواه عن السيادة والمجد والقيام بما يجب كما زعم هذا الضال ، ولا فيه مايشير الى هذا ، وزياد أعقل من أن يقدح فى ابن عمر وهو يعرف حالته وحالة ابن عمر عند الناس ، وليس ابن عمر بعدوّ له حتى يتكلم

فيه بما يشينه ، فليس هناك باعث لا من عصبية ولا دين ، وانما أراد بهـذه الكلمة ـ إن كان قالها ـ أن تقواه قعدت به عن الدخول فى الفتن وسفك الدماء وطلب مالا طائل تحته ولا فائدة فيه ويستبعد حصوله ، فان التقوى هى التى تقعد عن هذا ، لا تقعد به عن طلب السيادة والمجد المشروع ، بل هى تبعث على ذلك ، فمن أين لهذا الزائغ أن زيادا نوى هذا الذى ادعاه . ومعلوم أن ليس فى ظاهر كلامه ما يشير اليه ألبته ، وليس له أن يحرف كلام زياد ويؤوله على رأيه فيقوّله ما لم يقل ويظلم ابن عمر بضعف الهمة ويجـزم بذلك بدون تردد ، بل يجعله حجة يحتج بها ، فان ما ذكرنا هو المعقول من حالة ابن عمر ، فانه لم يكن مع على فى تلك الحروب ولا مع معاوية ، بل اعتزل هذا وهـذا ، فان هذه الحرب حرب فتنة لم يحصل للمسلمين منها طائل ، ولهذا لم يدخل فيها كثير من رؤساء الصحابة وبكل حـال فلا حجة له فى كلام زياد هـذا بل هو حجة عليه ، وقد كان زياد هذا معروفا بقتل الزنادقة والملاحدة فهلا احتج بما فعله فى ذلك كسائر أفعاله

وأما استدلاله بقول المتنبى فمن أغرب الاستدلال أيضا ، والعجب أنه استحسن هذا القول الخبيث المنكر حيث كان ملائما لطبيعته الخبيثة :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

وجعل هذا القول دليلا على ضعف رجال الدين وضعف همتهم ، ونسى هذا الملحد أنه قال فى كتابه (الفصل الحاسم) ص ٨٠ فى اعتراضه على الدجوى لما استدل بقول المتنبى ، فقال هذا الملحد ما نصه « ولا يحتج بكلام المتنبى على ايمانه إلا من يصدّقه فى ادعائه أنه رسول الله ، وإلا فاى انسان يستدل بقول شاعر فاسق متهوّر متناقض على عقيدته ، اعتبروا ياقوم وانصفونا ، هـذا يكفرنا اذا احتججنا بكتـاب الله وبكلام رسوله عـلى أن لا يدعى الا الله ، وهو يحتج بشعر رجل يتصلصل الالحاد والفسوق فى شعره تصلصلا ، يكفرنا اذا آمنا بربنا واحتججنا به على صفاته ، وهو يستدل بكلام الشعراء ، اللهم

اهد قومى فانهم لا يعلمون ، ولماذا يحتج بقوله هذا ولا يحتج بقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايـــلام »

انتهى كلامه بحروفه . فنحن نخنقه بغله الذى صنعته يداه ، ونقول له كما قال لعـــدوه :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيـــلام

ومع هذا فالبيت الذى استشهد به لا حجة له فيه ، والمتنبي لم يرد ما ادعاه هذا الملحد من أنه يمدح هذا الشيخ بل هو ذم له فى التحقيق لا مدح له ، ومن أين له أنه يريد مدحه ، فلو فرض أنه يريده عونا له على انتزاع الملك كما يدعى فهو لم يظفر بذلك وقد يحتاج الانسان الى اعانة الفاجر كما يحتـــاج الى اعانة الكلب ونحوه على بعض شئونه ، فليس فى بيته مدح أو شرف ، ثم قوله « لانه يرى أن المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه » يقال : ان كان يرى هذا فهو يرى أنه غير أهل لما يطلب منه من الاعانة على الفجور والمنكر والظلم والنفاق والقيادة ونحو ذلك (١) فهذا أولى ما يحمل عليه كلامه لأنه مدح أناسا كثيرين من الملوك والأمراء وأثنى عليهم بالدين وأنهم أهل للملك بذلك ، فاما أن يجمع بين كلامه كما ذكرنا وإلا يكون متناقضا فيسقط ويكون لا حجة له فيـه على كل تقدير ، والعجب أنه حمل قول المتنبي على هذا الرأى الذى اخترعه على هواه ، ثم فرّع عليه فجعل هذا الرأى الذى رآه المتنبي أعظم من رأى الصحابة وأئمة المسلمين الذين اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان واعتمدوا فى ذلك عـــلى فضائلهم الدينية ، وتبعهم الأئمة على ذلك فقرروا أنه يجب تولية الأمثل فالأمثل فى الدين وجعلوا الدين من أركان الولاية ، وأن الكافر لا صحة لولايته ، فلو كان عدم التدين هو المطلوب للرآسه وأن المتدينين غير اهل لما يطلب ويراد

---

(١) وهو هنا انما أراد أن يكون عونا له على نقض العهد وسفك الدماء واثارة الفتنة ، وهذا ليس بمدح على التحقيق إلا عند الزنديق

عنهم فى القيام بالأمور الهامة لكان اعظم من وقع فى هـذا الغلط هم الصحابة والقرون المفضلة ، وكلامه يتضمن القدح فى الأمـة بلا شك اذ استشهاده به وتفريعه عليه ظاهر فى ذلك . ثم ان فى شعر المتنبي فى الابيات الكثيرة الشهيرة التى يطول ذكرها فى مدح الملوك والأمراء وغيرهم على فعل الطاعات والقيام بالدين مالا يخفى على عارف ، وكل ذلك لم يملأ نفسه وانما ملأها هـذا البيت الخبيث الساقط المنتن ، فلهذا أخذه وحفظه وكتبه وتمسك به واحتج به وعض عليه بالنواجذ ، وهذا هو اللائق بمن انسلخ من آيات الله وأخلد الى الارض واتبع هواه

وأما احتجاجه بمعارضة المأمون لذلك الشاعر فما اسخفه من استدلال ، فهو لو صح فلا دليل فيه كما هو ظاهر ، فان المأمون إنما انكر وصفه بالانقطاع فى العبادة لكونه خليفة واضاعة امور الناس . لأن النظر فى امور الناس ممن هو مثل المأمون او دونه محتم فيكون تركه نقيصة لا يجوز المدح عليها ، وهو لم ينتقده إلا فى وصفه بالانقطاع ، لا بالعبادة فى الجملة ، بدليل صريح انكاره ، ولا شك ان الواجب فعل الطاعات المفروضة وما يتبعها والقيام بما يجب من امور الناس حسب الطاقه وما سوى ذلك فمستحب ومباح فأى حجة فى هذا ، ولو انه احتج بأفعال المأمون واقواله المنكرة الخبيثة الشنيعة فى تعذيب الأئمة والقول بخلق القرآن وانكار العلو والرؤية وتحريفه لصفات رب العالمين لكان من جنس احتجاجه بهذا ، والحمد لله إنه لم يجد ما يحتج به على إلحاده وترويج دعايته وتنقيصه للمتدينين الا بمثل هـــذه الاقاويل السخيفة التى لا تليق الا بالعقول الضعيفة ، وإنما ناقشناه هنا بهذه المناقشه الطويلة لأن هذه هى اكبر البراهين عنده فى احتجاجه على الطعن فى اهل الدين ، فانه هو غاية ما قدر عليه

فصل

ثم قال « فطبيعة المتدين ـ غالبا ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة

المولدة للابداع ، ومن ثمة فانك غير واجد اعجز ولا اوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية »

قلت : هذه دعوى مجردة من عدوّ على عدوّه ، فتقابل بالردّ على من قالها ، بل تعكس عليه عكسا صحيحا ، لأن ذلك هو الحق بلا شك ، فان طبيعة الملحد طبيعة جامدة فاقدة لحرارة الايمـــان المولدة للحركة الصحيحة المولدة للانتاج الناجح المفيد ، ولهذا فانه لا يوجـد أكسل ولا اعجز ولا اوهن ممن رفض دينه واتبع هواه ، وهذا أمر قد عرف بالحس والاستقراء لا بمجـرد التخرص والمجازفة والدعوى ، ويكفى دليلا على هذا انك لا تجد ادين ولا اتقى من الصحابة رضى الله تعالى عنهم واهل القرون المفضلة ، ومع ذلك فلا تجـد اقوى حركة ونشاطا ولا ادوم صبرا ولا اثبت قلوبا منهم ، وقد كانت نتائج حركاتهم اعظم النتائج واحمدها واصلحها وادومها ، ولقـد قضوا حياتهم او اكثرها فى الغزوات النافعة الشديدة والسديدة واصلاح شئون البشرية حتى دخل الناس فى دين الله افواجا ووجدوا عزّ الحياة وراحة اليقين والطمأنينة بعد ان ذاقوا من ويلات الكفر وعدم الدين والفوضى ما لا حـدّ له ، ولما ضعفت الديانة فيمن جاء بعدهم ضعفت الحركة والحرارة فيهم بقـدر ضعف الديانة ، فكانت القوة والحرارة دائرة مع الدين ، وهكذا كانت الحالة فى كل من كان اشد صلابة فى دينه فى كل القرون ، فإنه يكون اشد حرارة واحسن آثارا ، فكل من كان اشد تمسكا بما كان عليه اهل القرون المفضلة كان اشد قوة وصلابة فى كل شئونه واعماله ، وقد كان معروفا لدى الخاصة والعامة انه بعد القرون المفضلة لم يكن اشد صلابة فى دينهم فى القرون الوسطى من امثـــال السلطان محمود بن زنكى الشهيد وصلاح الدين الأيوبى والسلطان محمود بن سُبكتكين واولاده وقد عرف قوة شكيمة هؤلاء وحركاتهم ونتائجها ، بخلاف آل بويه والفاطميين العبيديين وامثالهم من البعداء عن الدين فقد عرف ضعف حركتهم وفساد نتائجها ، فقـد اصيب المسلمون فى زمانهم بالضعف الشـديد

لبعدهم عن الدين ، وقد عرف واستفاض لدى العالم ما ابدته الدولة السعودية من البسالة النادرة والشجاعة المدهشة فى حركاتها كلها من اول ظهورها الى هذا الوقت حتى ظهر لها من النتائج الحسنة فى العالم مالا ينكره إلا مكابر ، هذا مع قلتها وقلة ما لديها من العدة والعدد سوى دافع الدين الصحيح والايمان القوى المتين . او ما علم هذا الاحمق انه بهذا الكلام قد صرح بثلب حكومته التى ينسب نفسه اليها كما سب سائر المسلمين ، وكل عارف بحال هذا الزائغ يعلم انه من اول عمره الى آخره إنما يعيش ويتمتع بما ناله من حركة المتدينين فى مدخله ومخرجه ومأكله ومشربه وملبسه وكل شئونه بانتسابه الى المتدينين . ولا يخفى على كثير من الناس ما ابداه من شدة المنافقة والخداع والتملق الزائد اولا وآخرا فى استحصال ما يستمده من عندهم ، فلما حصل له شيء من هذه النعمة كفر بها وقابلها بالجحود والتمرد ، وقد قيل فى الحكمة « ابت النفس الخبيثة ان تخرج من الدنيا إلا وقد اساءت الى من احسن اليها » . وبالجملة فأدنى عاقل يعلم ان طبيعة المتدين الذى تدفعه حرارة الايمان بالله واليوم الآخر ومحبة الله وطلب رضاه وما يرجوه من النعيم الاخروى ويخشاه من العذاب الاخروى اعظم من حرارة من لا يدفعه الى عمله غير شهوات بطنه وفرجه وامثال ذلك من الامور التافهة الضئيلة التى حاصلها تمتع كتمتع الوحوش او الانعام ، ولهذا تجد هؤلاء فى حركاتهم ومقاصدهم كالوحوش فى معاملاتهم مع غيرهم ، وكالأنعام فى شهواتهم النفسانية ، فلا تعدو ان تكون حركاتهم لمصالحهم الخاصة فقط

ثم قال : « ونرجع فنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين : روح الدين ، وروح العمل للحياة . وسيكون عملنا هو محاولة التوفيق » انتهى

قلت : هذه هى سجيته دائما فى المراوغة المنكرة ، فهو كما قال فيه الاستاذ

السيد قطب « هذا رجل ينافق يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص » انتهى . وقد صدق فان عمله هذا عمل من يريد أن يظهر شيئا فيمنعه مقصد آخر ، فهو تارة يصرح به وتارة يأتى بما يظن أنه يعمّى مراده . وقد علمت من كلامه هذا أنه ادّعى أن كتابه هذا هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل ، وأنه قدر على ما لم يقدر عليه أحد غيره ، لانه قرر أن الابداع وصنع الحياة إنما يقدر عليه من وفق بين روح الدين وروح العمل ، وقد ذكر أن المتدينين على اختلاف اجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأزمنتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فعلى هذا فهم لم يقدروا على التوفيق بين الروحين ، والا فلو قدروا لوهبوا الحياة شيئا جديدا ، فهذا الرجل قدر على مالم يقدروا عليه كلهم ، مع أنه ادعى فيما سبق قريبا أن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبتكرة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه ، فيكون التوفيق الذى حاوله فى هذا الكتاب هو الانحراف عن الدين والتحلل منه ، وهذا التحلل والانحراف هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل للحياة ، فقد صرح بالكفر الظاهر ، وان كتابه كفر صريح لان مضمونه ـ بمقتضى كلامه المتناقض المتعاكس ـ هو الانحراف عن الدين والتحلل منه ، بل هو الواقع الذى لا شك فيه

فصل

ثم قال « وان مما يؤلم ويتعجب منه حقا أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وقفا على الشعوب الاسلامية فحسب ، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين »

فيقال : وهذا ايضا حجة عليك ، فانه دليل على أن ضعف المسلمين لا بسبب دينهم الذى صنعت هذه الاغلال لرفضه ، فاننا نرى كثيرا من هذه

الشعوب اللادينية والوثنية المحضة قد اجتاحها هذا الضعف والانحدار ، بل هو فيها أعظم من الشعوب المتدينة بالاسلام ، فلو كانت طبيعة المتدين كما تزعم طبيعة فاترة ، وأن المنحرف عن الدين المتحلل منه هو المستطيع لصنع الحياة ، لوجدت الحضارة والمدنية فى الشعوب الملحدة العريقة فى الالحاد والوثنية المحض (١) ، فلما كان الانحطاط فى هذه الشعوب الملحدة ملازما لها سائرا معها الى اليوم علم أن الانحراف والالحاد الذى تدعيه وتدعو اليه ضرر محض وتأخر ظاهر . ثم أخذ يعيد ما تقدم بأن أمريكا وأوربا تقدمت علينا بصناعتها وتجارتها وغيرها ، وقد سبق الكلام على هذا قريبا فراجعه .

ثم قال : « ان المطابع تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عدّه من الاسفار المؤلفة فى الآداب ونحوها ، ولكن أى كتاب أخرجته فى هذه القضية بل أى كاتب فكر فيها » (٢)

قلت : قد أخرجت المطابع كثيرا من الكتب المتنوعة كل عام فى هذه القضية مما لا يعد ولا يحصى ، ومن تتبع الكتب الدينية والادبية والتاريخية وغيرها من المجلات والجرائد علم ذلك يقينا ، وهذا تفسير المنار والوحى المحمدى وأم القرى وغير ذلك من الكتب القديمة والحديثة مما يصعب حصره كل ذلك كما تقدم ، ولكن لما كانت هذه الكتب كلها على خلاف ما تريده عميت عنها ونسيتها وأبصرت وحفظت كتاب الملحد جستاف لوبون المسمى (الآراء والمعتقدات) فانه لما كان هذا الكتاب يوافق رأيك ومزاجك ومعتقدك - وكتابك هذا كله على حذوه فى الحاده - حفظته وجعلت مؤلفه فيلسوفا عظيما ، ونقلت منه هذه الجملة الخبيثة التى هى « ان الايمان بالله وحده

---

(١) كشعوب جنوب أفريقيا وغيرها

(٢) هذا يناقض ما ادعاه فى نبذته « كيف ذل المسلمون » من أن هذه القضية كتب فيها كثيرون .

كان نكبة على البشر » وجعلتها هى روح كتابك كله ، وقولك « أىّ كاتب فكر فيها » فنقول لك أما على تفكيرك فنعم ، فمن هو الذى أوتى مثل ما أوتيته من عظمة العقل وكبر الدماغ والاختيال والغطرسة ، فلقد جمعت المتدينين على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم فى صعيد واحد وجعلتهم كلهم من أولهم الى آخرهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة لأنهم لم يستطيعوا ان يوفقوا بين روح الدين والعمل ، وأنت وحدك استطعت ذلك فأودعته فى هذه الاغلال وادعيت أن ما فيها حقائق ازلية أبدية لا تأخذ بها أمة إلا نهضت ولا تتركها أمة الا هوت ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم ، فمن هو الذى يفكر هذا التفكير الواسع ، وأين الدماغ الذى يحمله . فتباً لك ما أسخف عقلك ، وهذه سنة الله فيمن رفض دينه ولم يرد إلا الحياة الدنيا أن يكون هذا مبلغه من العلم

ثم ذكر أن الشعوب اذا مرضت أمراضا اجتماعية ضعف شعورها ، وهذا لا حجة له فيه ، لأن كلامنا معه فى هذه الامراض وعللها لا فى وقوعها ، فهو يريد أن يجعل أسبابها أخلاق الدين ، ونحن نحقق أن أسبابها البعد عن الدين أو التطرف فيه

ثم استطرد بأن الناس قد ألفوا ما هم فيه من الاستعباد ولم ينهضوا ولم يفكروا فى النهوض ، وأنهم فى أسوأ حالة ، وهذا لا نزاع فيه فى الجملة ، ولكن لا علاقة له بالاستهزاء بالمتدينين والحط عليهم والسخرية بهم وأن الدين آلة ضعف ، وهذا هو أعظم ما ننازعه فيه ، وكلامه كله يدور على أن الدين هو الذى أضعف المسلمين ، ونحن نقول : بل عدم التدين والتقصير فيه هو السبب للتأخر ، والبرهان على هذا إجمالا أمران :

أحدهما الواقع المشاهد ، فان المسلمين منذ عهد القرون المفضلة لما كانوا متمسكين بالدين على وجهه الصحيح كانوا فى أعظم عز وأرقى أمة ، وكلما بعدوا عن التمسك بعدوا عن العزّ والتقدم بمقدار بعدهم عن التمسك ، وهذا ظاهر

والأمر الثانى النصوص الصحيحة الكثيرة التى لا تحصى فى الدلالة على وجوب الاعتصام بالدين والتمسك به، وأن النجاح والتقــدم والعز المستمر الصحيح الطيب معلق به، فمن تمسك به فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد قدمنا الشواهد من النصوص على ذلك فى أول هذا الكتاب، فتأخرهم ليس إلا نتائج تأخرهم عن التمسك به وعدم الأخذ الصحيح به والمحافظة عليه والتعظيم له، وما دخل على الناس هذا الذل الا لما أدخلوا فى أصوله ما أدخلوه من البدع المعروفة واتبعوا أهواءهم وانقادوا لشهواتهم وقطعوا أوقاتهم فى مواضع اللعب والملاهى وتصنيف المقالات التافهة التى لا نفع فيها، وتهالكوا على الدنيا ومحبتها حتى لا تكاد تجد الا من شاء الله من يوثق به فى النصح بالقيام بعلمه ووظيفته، والأغلب انما يتبع مصالح نفسه الخاصة، وكل ذلك ناشىء عن ضعف الأخذ بالدين الذى أساسه قوة الايمان وصحته، فما ذكره حجة عليه لا له. والله اعــلم

فصل

قال: « أما أنا ـ وقد يكون هذا لسوء حظى [١] ـ فلقد فكرت فى هذه المسألة تفكيرا شاقا مضنيا، وما زلت منذ ست سنوات ورأسى يلتهب بالتفكير فيها التهابا، مقلبا لها على كل الوجوه، محاولا إنضاجها فى معمل الفكر، وما فتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية والحروب الجدلية بغية الاحاطة بها من كل أطرافها والالمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض أشفى اذا تحدثت فيها، وأمرض اذا سكت عنها. وقد اجتهدت أن ادرس القضية درسا دقيقا من كل وجوهها واحتمالاتها فدرستها فى الكتب التى ظننتها مصدر الداء، ودرستها فى التاريخ

---

(١) ما فى ذلك شك

الخاص والعام ، ودرستها – وهذا ابلغ الدرس – فى نفوس المسلمين : فى نفوس الخاصة والعامة ، المتعلمين والجاهلين ، الآخذين معارفهم عن الشرق أو الغرب»

قلت : ذكر هنا سبب تأليفه لهذه الاغلال والله اعلم بحقيقة الحال ، ولسنا بصدد التعرض للبحث عن صدقه فى هذا أو كذبه ، ولكن الذى لا نشك فيه أن له قصداً سيّئاً فى تأليفه ، فمثله لا يجهل ما تضمنه من صرائح الكفر المخالف للأديان السماوية كلها ، ولا شك أن تأليفه لهذه الآراء من سوء حظه دينا ودنيا ، وقضية المسلمين لم تهمل – كما زعم – ولله الحمد ، وسبب تأخرهم ليس هو ما ذكره ، بل السبب الوحيد لذلك هو تقصيرهم فى التمسك باصل دينهم واعتماده والرجوع اليه ، ثم فى الاخذ بالأسباب المادية النافعة والاستعداد التام للعدو ، ثم فى تفرقهم شيعا بسبب المحاماة للمذاهب والتعصب للأنساب حتى نتج عن هذين السببين تلك الحروب والثورات المتتابعة بينهم ، فصار بعضهم يكفر بعضا ويشتم بعضهم بعضا ، فاشتغل بعضهم بالايقاع بالبعض الآخر والكيد له . هذا هو السبب الذى لا شك فيه ، فمن يحمل عهدة التأخر على التمسك بالدين فهو مصاب فى دينه وعقله ، وقد علم بلا شك أن تقدم المسلمين فى القرون الأولى انما هو بالتمسك بالدين ، ولذلك كانوا بسبب تمسكهم أعز دولة على وجه الأرض ولم يتغير عزهم وتقدمهم حتى غيروا أصل دينهم بتحريف الصفات وعبادة المخلوقات ، ونحو ذلك . ومعلوم أن انتاجهم وإبداعهم فى الأسباب المادية فى تلك القرون بالنسبة الى غيرهم من دول الحضارة لا يعد شيئا مذكورا ، وانما نالوا ذلك كله بقوة الدين والتمسك به والسير على مقتضى الأوامر السماوية ، وهذا هو الانتاج المعنوى الصحيح النافع ، والأسباب المادية فرع عنه فهى تابعة له ، ولو أن هذا المختال الفخور درس هذه القضية وعللها فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة لوجد ذلك ولوجد حقيقة الأسباب يقينا لا شك فيه ، ولا حاجة الى هذا الضجيج والتعب والنصب واللجاجة والخصومة ، قال تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان

فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ فلا أبين ولا أكبر ولا أعظم من قوله جل من قائل ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾ وقال تعالى ﴿ يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله » وقال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى الا هالك » والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جدا . ولكنه لم ير هذه الطريق الصحيحة شيئا كبيرا نافعا يكتفى به ، بل فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فلم تملأ نفسه هذه المراجع الكبيرة العظيمة فاستصغرها واحتقرها وشمخ بانفه عنها ، وذهب يلتمس العلل فى غيرها - كما زعم - فباء بالخيبة والعلة القاتلة بأن اخلد الى الارض واتبع هواه ، فلذلك اصيب بما أصيب به أمثاله من المنسلخين ، فكانت طريقته فى هذا الكتاب اللهث على الدنيا بشدة غريبة ، وجشع ماله من نظير فى الحث على أسبابها واكتسابها من جميع الطرق المتباينة ، ونبذ ما يخالف ذلك من ديانة وقناعة ، وهذا ظاهر على حاله عند كل من عرفه وعرف مقاله

فصل

ثم ذكر أنه قد خيل اليه أن قد صدر فى هذه الدراسة عن نتيجة طيبة كاملة فقال « وقد خيل إلى أنى قد صدرت فى هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندى ، فجئت أعرضها هنا عرض مؤمن

بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل »

فيقال : كلا بل صدرت عن نتيجة خبيثة مشئومة ، وداء عضال لا شفاء منه ، فلا شك فى بطلان ما ذكرته وسجلته عند كل عاقل يميز الحق من الباطل ، فان هذه الجراثيم الخبيثة التى قذفتها فى هذا الكتاب هى من المواد القذرة التى شربتها من آراء الزنادقة وخبثاء الملاحدة ، وخليق بمن صدر عن هذه الموارد القذرة مملوءاً قلبه من عصارتها أن يقذف هذا الوباء الخبيث . وكونها صحيحة عندك وأنك مؤمن بها لا يدل على صحتها فى نفسها ، فكل حيوان يستطيب ريقه وان كان خبيثا ، وقد قال تعالى فى المنافقين ﴿ ويحسبون أنهم على شىء ، ألا انهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ ثم ذكر أن التفاوت الذى بيننا وبين الغربيين فى التقدم ليس سببه تفاوتا فى أصل الخلقة أو صدفة من الصدف وانما سببه أنهم فهموا الحياة وسنن الوجود وما بين الأسباب والمسببات من الارتباط ، ونحن جهلنا ذلك ، يعنى أنهم علموا قوانين الطبيعة ونواميسها ، ونحن لم نعلم ذلك كما ذكر فى المواضع الأخرى الآتية ، فعلمهم بذلك هو الذى قدمهم ، وجهلنا به هو الذى أخرنا . وهذا الذى ادعاه غير مسلم على اطلاقه ، فليس هذا هو السبب ، بل فيه مؤاخذات ومناقشات يأتى الكلام فيها ، ثم انه ضرب مثلا أهوج يثبت به ما ادعاه فى الفرق بيننا وبينهم ، لأنهم تقدموا بفهم قوانين الطبيعة ونحن تأخرنا حيث جهلنا ذلك فقال :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الارضى الواسع الارجاء الكثير الأخطار ، أحدهما فكر فى نواميس هذا الكوكب الذى هبطه وفى قوانينه ونظمه وفى نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص ، فاهتدى الى كل شىء مما يتصل بذلك ، فسار تحت ضمان معرفته فى قوة لا يكبو ولا يضل ، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان . وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه ، بل

جاهلا نواميس نفسه ونواميس وجوده فلم يدر كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه ، ولم يعرف ما يقوده الى النجاح والفوز ولا ما يؤدى به الى الفشل والدمار . هذان شعبان ، فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما ، ليس هناك أدنى ريب فى أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان ، وقد كان حقا وليس هناك أقل تردد فى هزيمة الجاهل اذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة » انتهى

قلت : هذا المثل الذى ذكره غير مطابق لما ادعاه وقصده ، ومع عدم مطابقته فهو فاسد فى معناه ، فانه مبنى على مقدمات كلها باطلة أحدها أن جنس بنى آدم من عنصرين اثنين مختلفين فى النظر والتفكير ، ولا ندرى كيف جعلهم شعبين ولم يجعلهم أكثر من ذلك مع كثرة الشيع وتباين النحل ومع اختلاف الألسن والألوان والافكار وغير ذلك ، اذا كان يرى أن التقسيم من أجل اختلاف النظر والتفكير ، ومعلوم تفاوت الناس فى ذلك ، ولا شك ان هذه المقدمة باطلة فان الانسان من حيث النظر العام جنس واحد فى عنصره وكفاءته وفيما يطلب منه كما دلت عليه الشرائع والعقول ، ومبنى أيضا على أنهما هبطا موكولين الى عقولهما ومعرفتهما فى جميع ما يسيران عليه ويعملانه ، فليس لهذا الكوكب مالك يدبره وينظر من يهبط فيه وماذا يصنع فيه ، وأيضا فليس هناك عناية غيبية تلاحظهما وتتصرف فيهما على مقتضى ناموس العدل والرحمة والحكمة فتجازى كل عامل على قدر عمله من دقيق وجليل ، ومبنى على أن ليس فيهما أو فى أحدهما من يحمل رسالة من رب هذا الكوكب تتضمن هذه الرسالة نظاماً يمشيان عليه ويسيران على ضوئه : من تمسك به نجا وتحصل على الغاية النافعة ، ومن رفضه تلف لا محالة ، فهو مبنى على هذه المقدمات الباطلة كما رأيت . أما فساد معناه فظاهر ، فقوله أحدهما فكر فى نواميس هذا الكوكب الى قوله فساد تحت ضمان معرفته فى قوة لا يكبو ولا يضل ، فهذا قول ساقط بالمرة ، فمن هو الشعب الذى هبط منذ هبط الى اليوم فسار فى قوة لا يكبو ولا يضل ، ان هذا لا يوجد ولم يوجد فى شعوب الارض كلها . ثم

قوله وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه الى آخره قول كالذى قبله فى السقوط ، فكيف يكون هذا الشعب غريبا دون الآخر فانه جعله غريبا ولم يذكر فى الاول أنه غريب ، مع أنه قال أول الجملة شعبان هبطا هذا الكوكب ، فلا ندرى لم اختص الثانى بالغربة دون الأول وهما هبطا جميعا ، ثم انه لم يذكر أسبابا لعدم معرفة الثانى لنواميس هـــذا الكوكب وقوانينه مع أن فى امكانه التفكير الذى هو السبب لمعرفة الشعب الآخر ، فلو كان التفكير وحده كافيا ـ كما يدعى ـ فى الشعب الأول لكان الثانى مثله أيضا لانهما سواء فى الخلقة والاصل والعنصر والمواهب والاستعدادات الكامنة ، وكل ما يمكن أن يقال من الموانع فى الثانى يمكن تجويز وجوده فى الأول لضرورة التساوى من كل وجه وعدم وجود المرجح الخارجى ، فما هو السبب الذى عاق الشعب الثانى عن التفكير ومعلوم أن طبيعة التفكير موجودة فى الآخر على حد سواء لأنه قرر أنه ليس هناك تفاوت فى أصل الخلقة فهما سواء من كل وجه حين هبطا ، فهو لم يذكر سببا أوليا خارجيا ولا داخليا معقولا لوجود الترجيح ، فالمثل الذى ضربه ساقط لا يعتدّ به لانه غير قائم على تفكير صحيح فلم يطابق لما ادعاه فى دعواه الفاسدة ، فهو فاسد مبنى على ما هو أفسد منه ، فانه كله يرمى الى حقيقة الالحاد كما لا يخفى

فصل

ونحن نذكر مثلا صحيحا مطابقا لما ندعيه مقابلا لمثله الباطل فى بيان حالة الناس وأسبابهم ، وما ينتج عن ذلك من التقدم والتأخر فى الامم والشعوب فنقول : شعب هبط غريبا فى جزيرة كبيرة متحدة ولا بدّ له من المكث فيها وقتا محدودا ثم يعبر متزودا منها الى بلاده ومقره . وصل هذا الشعب الى هذه الجزيرة العجيبة فرأى فيها من الحيوانات المختلفة والنباتات المتنوعة والمعادن المتباينة والألوان والطعوم والروائح المختلفة مالا يعد ولا يحصى ، وفيها من

الاشباح والخيالات والحقائق والأوهام والمظاهر اللامعة والسموم الضارة والقاتله والأدوية الشافية الطيبة والملاذ" والافراح والهموم والغموم والآلام والمصائب مالا يمكن حصره . ومن المعلوم أن الغريب اذا وصل الى مثل هذه الجزيرة ورأى هذه الأمور المدهشة فلا بد له من أحد أمرين فى معرفة تميز هذه الأشياء وتناولها نفعا وضررا ، إما التجربة ، وإما السير على مقتضى علم خارجى صادر عن وحى صحيح من عالم بها وبما فيها ، لأن هذه الأشياء الموجودة الكثيرة المتنوعة لا بد لها من مالك وفاعل لها بالبداهة . أما التجربة فالاعتماد عليها لا يكفى فى كل شىء ولو تكررت ، لأنها خطرة ، اذ ليس كل شىء يمكن تجربته من كل وجه كالسم ، ثم التجارب كلها - ولو تكررت - ترجع الى حكم العقل والتفكير ، ومن المعلوم الواقع أن العقول والأفكار تختلف اختلافا كثيرا كبيرا لا ينضبط ، وهذا الاختلاف لا يزال مستمراً فى كل نواحيه ، وجميع الحروب والفوضى ما هى الا نتائج أخطاء العقول المختلفة ، فلو كانت التجارب المتكررة كافية لم يوجد هذا الاختلاف الواسع النطاق ، ولو اعتمد الناس على عقولهم وتفكيرهم لوقعوا فى الفوضى التى لا ضابط لها ، وذلك هو سبب الهلاك ، وكل فساد حدث فى الدنيا من أولها الى آخرها إنما جاء من الاعتماد على العقل المخالف للعدل الذى جاءت به الشرائع السماوية. ومن المعلوم الذى لا ريب فيه أن التجارب لم تزل على كثرة تطورها وتقلبها مستمرة فما كانت على طول هذه الأزمنة السحيقة عاصمة للناس عن الوقوع فى الأخطاء والأغلاط التى نتج عنها الخراب والدمار والفوضى والفساد الشامل فى كثير من الاحيان ، وكما هو مشاهد الآن .

الامر الثانى الذى لا بد منه لهذا الشعب - وإلا هلك كله لا محالة - هو العلم المبنى على الايحاء الخارجى الصادق ، فهذا قد حصل لهذا الشعب على أكمل الوجوه الممكنة ، فقد أعطى رسالة صادقة من مالك هذه الجزيرة الحكيم الخبير بها المتصرف فيها المحيط علما بما فيها ، وهى مطابقة للعقل الصحيح لا

للعقول كلها ، لتكون مرجعا لحل الخلاف الناشىء عن اختلاف العقول الناقصة المتباينة ، وفى هذه الرسالة من القواعد والاصول الكلية والنظام الباهر بيان ما ينفع وما يضر ، وما هو خيال وأوهام وما هو حقيقة وصدق ، وفيها من التحذير عن تناول بعض الأشياء الجميل منظرها القبيح مخبرها ، وفيها عكس ذلك . وفيها ايضا الحث على أشياء جميل منظرها ومخبرها ، وقد تكررت فيها الوصاية بالتمسك بها والاعتصام بها بتأكيدات صارمة ، وعلق الفلاح والفوز على العمل بما فيها ، وعلقت الخسارة والهلاك على التفريط فيها وتركها ، وقد جرب العمل بهذه الرسالة مع صدقها فوجدت فى غاية الصحة والنفع ، فاتفق برهان التجربة الواقعى وبرهان الخبر المنشود وهذا أعظم برهان يجب الأخذ به ، فافترق هذا الشعب فرقا شتى : فريق كذب بالرسالة ولم يرفع بها رأسا مطلقا فاحتقرها واعتمد على عقله وتفكيره وهواه وذوقه ، لانه تصور أن ما فى هذه الرسالة يخالف أغراضه وأهواءه وأذواقه ومعقولاته ، فلهذا رفضها وتبع فكرته وعقله وهواه ، فأخذ يخلط ويخبط ويتناول ما لذ له وطاب عنده بشره زائد وسير أعمى بدون حدود وقيود إلا ما حدّ له عقله وتفكيره وتجاربه فماذا تكون عاقبة هذا . لا شك أنه هالك لا محالة ، إما فجأة بأمر فظيع وهو الأحرى ، واما بعلل وأمراض فاتكة مدمرة . وفريق ثان علم صدق هذه الرسالة وعلم أن النجاة والحياة فى العمل بها ، فاجتهد غاية الجهد فى معرفتها وفهمها ، فدرسها درسا دقيقا بصدق واخلاص [١] حتى فهمها فهما صحيحا ، فعلم أنها موافقة للعقل الصحيح والذوق السليم والفكر المستقيم ، فسار فى هذه الجزيرة على نور وبصيرة بمقتضى هذا النظام الباهر فى أعماله كلها من تناول حاجاته وأخذه وإعطائه ، واستعمل الأسباب القوية البارعة التى أرشدت اليها إما بحكم الإباحه فى الأصل وإما بالاشارة والارشاد ، فثبت أقدامه على علمها ونظامها

---

(١) ومن اجتهد فى أمر ممكن بصدق واخلاص فلا بد أن يدركه ويفهمه

وقواعدها ، وبذلك عرف أمور أهلها وآراءهم وسعيهم ومعاشهم ، كما عرف ما فيها من منافع ومضار ، فأصبح بسعيه وعلمه وعمله بميزان الحق والعدل نشيطا عالما قويا فى روحه وعقله وجسمه وجميع آرائه ، ففى إمكانه حماية نفسه واستقلالها ما دام موجودا فى هذه الجزيرة ، ثم فى وصوله الى مقره سالما صحيحا قويا متزوداً كل ما يحتاجه . وفريق ثالث وهو نوعان : نوع خالف الرسالة ورفضها باطنا وحرّفها وحملها على ما يوافق هواه وشهوته ظاهرا ، والا فهو لا يعتقدها فى نفس الأمر شيئا كبيرا نافعا ، وانما فعل هذا ليسلك مع هذه الفرق المتباينة ويحصل على غرضه الدنيوى ، فصار مذبذبا بين الفرق يتلون معها على كل ألوانها لتحصل مقاصده عندها . فهذا النوع لا شك فى هلاكه ، ولا بد أن يكون عليلا فى حياته ، لأن خلطه وخبث ضميره سيوقعه فى الأمراض القاتلة بكل حال . وأما النوع الثانى من هذا الفريق الثالث فانه أخذ بهذه الرسالة أخذا ضعيفا فلم يفهمها فهما شديداً لأنه لم يحرص كل الحرص على ذلك ، فأخذها بفتور ورداءة همة فصار يخلط فى علمه وعمله ، تارة يتبع هوى نفسه ويتناول ما لذ له وطاب ، وتارة يتبع لامع السراب ، وحينا ينقاد لنظام هذه الرسالة فيتقيد بها ويستشفى بها من آثار خلطه ، وكلما عوفى عاد فخلط لقوة شهوته وضعف الارادة الحاجزة له ، فاصبح عليلا ضعيفا علته وضعفه بقدر خلطه واستشفائه . وهذا النوع درجات متفاوته كل بحسب علمه بالرسالة وعمله بها فى القوة والضعف والحكم ، للذى يغلب عليه من المادتين . وبكل حال فهذا النوع أحسن حالا من غيره ما عدا الفريق الثانى ، والحكم واضح فى الفرق بين هذه الأقسام ونتائجها فى الحال والمآل من التقدم والتأخر والله اعلم

فصل

قال : « فمهمتنا إذن فى هذا الكتاب ـ بل مهمتنا العامة ـ أن نعمل على

دلالة قومنا بان الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سننا لا تبديل ولا تحويل لها ، وان هذه السنن تسير وفق حكمته وعدله سيرا دقيقا موزونا مقدورا لا تشويش فيه ولا اضطراب ، كأنه مسئلة رياضية لا يختلف فى حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لاختلاف العلماء الحالين لها ، فالنتيجة هى هى واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر ، وسواء حلها الشرقى أو حلها الغربى ، فان الحقائق المجردة لا تتغير لاختلاف المتناولين لها ، أو لاختلاف اديانهم ومبادئهم»

قلت : هذه الجملة التى ذكرها هنا هى أصل كلامه فيما يختص بالاسباب والنتائج ، وقد كررها مرارا عديدة وأفرد لها فصولا خاصة يأتى الكلام عليها هناك مفصلا ، ونحن نتكلم عليها هنا إجمالا بما يناسب المقام ، وحيث أنه جعل هذه الجملة المدخولة المموهة هى الأساس لموضوع كلامه كله وقد أتى بها بهذا التعبير الملبس الغامض المشتبه فنحن ننقل شيئا من كلامه الذى هو بمعناها ليتبين لكل منصف مراده بهذه الجملة ، فان كلامه يفسر بعضه بعضا ، وان كان يتناقض غالبا ، لان هذا شان كل مخادع

قال فى موضع من كتابه (ص ٢٢٥) فى هذا المعنى : « والذى نريد أن نقوله هنا أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغى ، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصوم ويصلى ويكثر من ذكر الله بلسانه » انتهى . فهذه الجملة كالجملة التى ذكرها وهى توضح مقصوده ومغزاه ، وسياتى الكلام عليها مفصلا فى موضعها

وننقل هنا أيضا اعتقاده فى خلق هذا العالم وتصرفه وتدبيره لكى يتبين لك منه معنى القوانين والنواميس والسنن والنظام والقدرة والعدل والحكمة التى أشار اليها ، لتعرف معنى هذه الالفاظ عنده ، وأنه يريد بذلك تفاعل

الطبيعة لذاتها، فالطبيعة على ما يرى ولدت النواميس، ثم هذه النواميس حكمتها اى حكمت الطبيعة، فالنواميس أولاد الطبيعة وهى حاكمتها ، والطبيعة الأم المحكومة، فهذا العالم يحكم نفسه بنفسه . وهذا صريح الالحاد

وقال فى ص ٢٨٧ : « من الحقائق التى ترتفع اليوم عن متناول النزاع أن هذا العالم كله حيوانه ونباته وجماده لم يزل دارجا فى طريق التطور منتقلا من طور الى طور أفضل ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف . وعند العلماء (١) أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة ولا بحالة فيها الاستعداد والرجوع الى الوراء ولا الانتقال من الكمال الى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدائيا وأنه قد ظل يتنقل من وجود الى وجود ومن شكل الى شكل، وأنه قد ظل فى عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الاعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود الحياة : عُلم الكون أول ما علـم فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا مثل أن تبخر مقدارا من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء، أو مثل أن تنثر مقـدارا من الدقائق فى مكان نثرا متساويا ، وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر (٢) أن يفلت من هـذه الحـالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقلص، فأصبح كتلة واحدة هائلة أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع، فبقى على هـذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلا مستمرا استعداداً للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمـل، وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشود فى ذراته انفجارا فجائيا فى الظاهر مؤقتا معلوما مقدورا فى الباطن مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة فتطايرت

---

(١) اى ملاحدة علماء الطبيعة ، اعتمد كلامهم و نبذ نصوص الدين المخالفة لهم

(٢) هذا تصريح بعدم خلق الله له كما هو ظاهر

منه الدقائق والذرات تطايرا قائما على الحساب الدقيق فتفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية ، فبقيت هـذه الكتل المتفرقه تتفاعل وتجتمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى أصبحت نجوما وشموسا ، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هـذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التى يدعونها اليوم المجموعات الشمسيه أو المجموعات النجمية التى إحداها مجموعتنا الشمسية التى نحن من رعاياها ، وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضـا وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون - أى الأقمار - من حولها كما كانت هى من حول شمسها ، وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التى يكون الغرض منها ايجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعا لسنة هـذا الوجود ، والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست الا نسل المادة الجامـدة ، والنواميس التى تحكمها أى تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة [1] فلا غرابة اذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد . وبعد هذا التوزيع وهذه الانقسامات فى ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شىء منها صالحا للحياة والاستقرار ، بل لقد قدر العلماء أن عمر الشمس قبل أن توجد الحياة فى الأرض وهى منفصلة عنها بنحو خمسة ملايين مليون سنة وقدروا عمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا فى نحو ثلاثمائة مليون سنة ، أى انها ظلت حوالى الف وسبعمائه مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الانسان فى الأرض بثلاثمائة

---

(١) قف وتأمل هذه النقطة السوداء ، فقد صرح بأن النواميس مولودة عن المادة وأنها هى التى تحكم هذه الكائنات الحية ، فالعالم يحكم نفسه بنفسه

ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم [١] ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل ان تصلح لوجود حياة الأنسان الذى هو أرقى الموجودات فيها ، أى أنها تهيأت لوجود حياة الأنسان المعدود كائناً راقياً ، وما من شيء فى هـذا الوجود وصل الى حالته التى هو عليها الا بعد أن سلك هذا السبيل ، سبيل التطور المنظم البطيء فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار والنجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق . وهذه الأرض التى نعيش عليها ونجد فيها كل ما نحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور ، انه لولاه لما وجدت ولا وجد فيها ما وجد ، ولما صلحت لظهور الحياة عليها ، ولما وجدنا فيها ، ولو وجدنا لما بقينا أحياءً ، ولو بقينا أحياءً لما وجدنا ما نحتاج اليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا . انه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهودها الجلدية وعن عهودها النارية الى عهد الاعتدال الذى نبض معه حياة النبات والحيوان الذى منه الأنسان ، وبهذا الناموس تمهـــدت الأرض وتهذبت ، وارتفعت فيها الجبال ونهضت الآكام ووجدت السهول والسهوب والأودية وانشقت الأنهار وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التى عليها نحن ، وبهذا التطور أيضا وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة ، ووجدت التربة الخصبة التى تنبت لنا كل ما نشاء ، ووجدت كل هذه العناصر التى لا بد منها لبناء أجسامنا ولأخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعيا وطبيعيا » . انتهى

واذا تأملت هذا الكلام والذى قبله ظهر لك معنى الجملة الأولى التى جعلها كحجر الزاوية لكلامه ، وتبين لك معنى السنن والنواميس والقوانين التى طالما كررها فى كلامه ، وأنها تفاعل الطبيعة يعنى حركاتها العادية ، فانه قرر كما ترى

---

(١) كما هو معلوم عند منْ ؟

أن النواميس مولودة من الطبيعة التى هى المادة ، وقرر أنها هى الحاكمة عليها ، فالسنن هى التفاعل والطبيعة أى المادة هى موضوع التفاعل ، واذن فلا غرابة على هذا الاعتقاد أن يبطل بذلك تأثير الأعمال الصالحة التى منها الدعاء ، لأن الداعى لاحظ له الا العناء ما دام أن هذا الوجود يجرى على هذه السنن التى هى تفاعل الطبيعة ، ولهذا فأنه ادعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث . ولا شك أنه على هذا الاعتقاد لا فائدة فيه

اذا عرفت هذا الأصل الخبيث الذى بنى عليه زيغه وضلاله فاعلم أنه اذا أطلق السنن والنواميس والقوانين فأنه يريد ما ذكرناه كما هو صريح كلامه ، ولهذا لا يوجد فى كلامه أن هذا العالم يسير على مقتضى مشيئة الله وإرادته أو رحمته ، أو أن هذه النواميس والقوانين تسير على وفق مشيئته ورحمته ، بل لم يذكر المشيئة قط أو الأرادة الا فى معرض الذم ، وأما الرحمة الربانية التى شملت هذا العالم فلا تكاد تجد لها ذكراً أبداً ، حتى انه رفض البسملة لما فيها من ذكر الرحمة ولأنها من القديم ، ولهذا قال هنا « تسير على وفق حكمته وعدله» ولم يقل وفق مشيئته ورحمته وعدله ، أو ارادته المقتضية لعدله وحكمته وقد فسر الحكمة بالعدل وفسر العدل بتفاعل الطبيعة بنفسها الذى معناه وحقيقته سلب المشيئة ونسبة الجور والظلم اليه تعالى .

ونحن ننقل لك كلامه فى تفسير القدرة والعدل والحكمة ليتبين لك معنى هذه الألفاظ المكررة التى موه بها على هذا الأصل الخبيث مكرا ونفاقاً ، وانها كلمات حق أراد بها أشنع ضروب الباطل . قال فى بحث التوكل : « ولكن التوكل هو الأيمان بقدرة الله وبعدله وبحكمته وبأخباره ، والأيمان بقدرته يوجب الأيمان بأن ما جعله سبباً لشىء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال ولن يوصل الى ذلك الشىء شىء غيره ، ويوجب الأيمان بأن ذلك الشىء الذى جعله مسبباً عنه لن يوصل اليه بدونه ، فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد » انتهى . فهذا تفسير القدرة ، فقد فسرها بضدّها وهو العجز ،

فالايمان بالقدرة عنده أن تعتقد أن الله لا يقدر على تغيير شيء من الأسباب المادية ، فلا يغير سببا عن طبيعته المطبوع عليها أبدا ، ولهذا قال « فلن تبطل سببيته بحال » وحقيقة هذا أن تعتقد أن الله عاجز عن تغيير شيء من الأسباب عن طبعه ، وهذا كفر صريح ، وتكذيب لمعجزات الانبياء فانها تغيير وخوارق للاسباب عن طبيعتها المطبوعة عليها ، والا فلما ذا كانت معجزة ، ولهذا بطلت سببية حرارة النار واحراقها حين دخلها الخليل عليه الصلاة والسلام وانقلبت الى برد وسلام ، والبحر بطل سيلانه الذى طبع عليه لما ضربه موسى ﷺ بعصاه وبطلت سببية الموت فى أهل الكهف ويونس فى بطن الحوت ، بل هذه الاسباب المشاهدة التى هى سبب للحياة كثيرا ما تكون سببا للموت ، ولو أن الاسباب لم تتغير لكان الحى حيا والميت ميتا والجماد جمادا والمتحرك متحركا والساكن ساكنا دائما أبدا ، فان أصول المادة كلها هى هى ، فلماذا تنقلب العناصر الى أضدادها كما قال تعالى ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ﴾ . وهذه الحجة بعينها احتج بها المشركون الذين انكروا البعث ، فانهم كفروا بالبعث لأنه تغيير لحقائق الأشياء وقلب لها من الموت واليبوسة الى الحياة والحركة ، فان ذلك المشرك الذى قال الله عنه ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم ﴾ وقد ورد أنه أخذ عظماً قد أرم ففته وقال : من يحيي هذا . ومعلوم أنه انما اعتمد على ما اعتمد عليه هذا الملحد من أن هذا ينافى مقتضى عقله ، اذ كيف ينقلب الضد الى ضده فينقلب الساكن الميت الهامد الى حى متحرك مريد متصرف ، فان هذا تغيير وقلب للأسباب الى ضدها ، وهذا السحاب المشاهد بعد أن كان أجزاء لطيفة خفيفة تطلب الصعود بطبعها انقلب الى أجسام كثيفة ثقيلة تطلب الهبوط بطبعها ، ولهذا قال تعالى ﴿ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبثَّ

فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ﴾ فان هذه كلها تقلبات وتغييرات متطورة متحولة منعكسة مطردة بمشيئة الله تعالى ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ فدل على أن من لم تكفه هذه الآيات فهو لا يعقل . وقد طرد الملاحدة هذا الأصل فأنكروا البعث كما أنكره أعداء الرسل ، لأن أصولهم الكفرية تقتضيه واضطربوا فى هذه الاسباب فلا أكثر من اختلاف هؤلاء الملاحدة الذين لا يؤمنون الا بالمادة فى هذه الأمور . والذى اتفقوا عليه كله لا ينافى النصوص بل هو يعرف بمقتضى العقل واكثر أصناف الملاحدة على كفرهم أحسن حالا من هذا الملحد صاحب الأغلال لأنهم لا يوجبون على الناس الكفر بما يخالف آراءهم مطلقا كآراء أهل الدين ، ولا يأخذون نصوص رب العالمين فيقلبونها دلائل لهم ، غاية ما فى ذلك أنهم يتوقفون فيما لم يعلموه ، ويظهرون آراءهم فقط ولا يتعرضون للنصوص الشرعيه بقلبها أدلة لهم ، فإن الكفر بها أسهل من قلبها الى ضدها لما فى ذلك من احتقارها واللعب والتضليل بها ، وهؤلاء بلا شك من أكفر خلق الله ، ولكن المنافقين أكفر منهم ، فقد جعلهم الله تحت أصناف الكفار فى جهنم لانهم أعظم ايغالا فى دركات الكفر ، فكانوا فى الدرك الاسفل من النار ، ويعلم الله أننا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين وصل من الكفر والزندقة والنفاق والالحاد الى ما وصل اليه صاحب هذه الأغلال ، ومن درس كتابه وفهمه حقيقة الفهم علم أنه شتم للشريعة الغراء وأهلها وأنه لم يوضع الا لغرض القدح فى الشرائع السماوية وفى العاملين بها

والمقصود أن ما ادعاه فى تفسير القدرة باطل لا شك فيه ، ولا ريب أن من اعتقد أن الله لا يغير فى الأسباب فقد اعتقد بطلان الربوبية ، فالرب الذى لا يتصرف فى ملكه ولا يدبره إما عاجز أو معدوم بلا شك ، وهو انما قصد بها إبطال المعجزات لأنها اذا بطلت بطلت النبوات وببطلانها تبطل الأديان . وكلامه كله يدور على ابطال الاديان كما نبهنا على هذا غير مرة . وقوله

« ولن يوصل الى ذلك الشيء شيء غيره ، ويوجب الايمان بان ذلك الشيء الذى جعله مسببا عنه لن يوصل اليه بدونه ، فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد » . فيقال : وهذا ايضا تصريح آخر مؤكد لما قبله فى جحد القدرة والكفر بها . ومعلوم أن الولد مسبب عن الرجل والانثى جميعا بحكم العادة ، وقد وجب هذا المسبب بدون سببه فى آدم وعيسى بن مريم وحواء عليهم السلام ، فانه وصل الى وجودهم وحصل كل واحد منهم بدون هذا السبب العادى المطرد ، وكل واحد منهم وصل اليه بتغيير خاص ، والايمان بهذه القضية التى ذكرها يبطل الايمان بوجود هؤلاء على ما ورد به الشرع بل والعقل ، وكذلك وجود زيادة الماء الذى نبع بين أصابع النبى ﷺ فأروى الجموع الكثيرة من إناء واحد صغير جدا من دون مادة ، وكذلك انشقاق القمر وأمثال ذلك كثير ، مع أنه يناقض ما ذكره ايضا فى نفس النقل الذى ذكرناه عنه ، فانه ذكر أن هذا العالم وجد بدائيا على تلك الحالة ، فاما أن يدعى أنه لم يزل قديما وهو عليها فيبطل قوله فى التطور لانه حينئذ يبقى أزمنة طويلة وهو ثابت على حالته البدائية ، وهو قد ذكر أنه لم يكن فى وقت من الاوقات على حالة ثابتة فيبطل قوله هذا [1] وإما أن يقر بانه وجد من العدم المحض بعد أن لم يوجد فما سبب إيجاده اذن فيكون موجودا بدون سبب مادى وهو يناقض ما ادعاه هنا . وبالجملة فكلامه فى الايمان بالقدرة معناه الكفر بها ، فان هذا الايمان الذى ادعاه معناه أن يؤمن الانسان أن الله لا يغير فى الأسباب أبدا فلا تتغير بل تجرى على طبيعتها ، وهذا الايمان قد آمن به الكفار ، فان الذين كفروا بالمعجزات وجحدوا بها انما كفروا بها لانها خالفت العادة فكذبوا بها ، وهذا الرجل يدعو الناس الى التكذيب بكل ما يخالف العادة ويدعى أن هذا هو الايمان . واياك أن تفهم من كلامنا هذا أننا نقول انه لا

---

(١) ويكون حينئذ قائلا بقدم العالم مع الله وهو كفر

ترابط بين الأسباب والمسببات والنتائج مطلقا ـ كما هو مذهب طائفة من أهل العلم ـ بل مذهبنا كما هو مذهب أهل السنة وأصحاب الحديث أن بين الأسباب والمسببات ترابطاً وثيقاً ، وأن كل مسبب فهو لازم لسببه ، لكن هذا الترابط غير خارج عن المشيئة والقدرة بل هو داخل تحت قدرة الله ومشيئته العامة ، فاذا شاء قطع الترابط كما فى المعجزات ، ونحن انما ننازعه فى إنكاره كون الله لا يغير فى الأسباب مطلقا ، وأن ذلك سفه وفوضى من دون استثناء كما صرح بذلك فى قوله « لست أريد ان أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بان الله قد يدخل فيها (١) فيجعلها ان شاء أسبابا ويجعلها ان شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بانه تعالى قد يفعل من غير أسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها » انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن تغيير الله للأسباب وجعلها أسباباً تارة وتارة غير أسباب سفه وفوضى ، فتصرف الله فى ملكه كيف شاء بتغيير الأسباب سفه وفوضى ، وسبحان من طبع على قلبه فهو يريد ان يحجر على الله فى التصرف فى ملكه كيف شاء ، فالله سبحانه هو الذى خلق الأسباب ومسبباتها فهو القادر على تغييرها كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر والمشاهدة والحس ، فقطع ترابطها أحيانا من سنن الله فى خلقه لأنه سبحانه قدّره وخلقه كما أخبر به ، فما أخبر به وجب التصديق به وبأنه من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، فمن أخرج هذا الترابط الذى بين الأسباب ونتائجها ومسبباتها عن قدرته جل وعلا كيف يكون مؤمنا بالقدرة ، بل كيف يكون مؤمنا بالله ، بل ايمان هذا كايمان عبدة الاصنام الجامدة التى لا قدرة لها على تغيير شيء من سير هذا الكون ، وانما هى واسطة بزعم عابديها ، بل هؤلاء أحسن حالا ، فانهم لم يذكروا تصرفه تعالى . بل ايمانه كايمان الدهرية الذين يقولون ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر

---

(١) يعنى « يتصرف » ، أبدل يتصرف بيدخل تشويها لسمعة المشيئة

وما لهم بذلك من علم ﴾ . ثم انه فسر عدل الله الذى يدّعيه فقال فى بحث التوكل : « والايمان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الاشياء التى لا تتصل بذلك وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا ، تلك هى العدالة الشاملة ». انتهى . فهذا هو الايمان بالعدل عنده ، فهذا التفسير الذى فسر به العدل كالتفسير الذى فسر به القدرة ، فانه فسره بضده وهو الكفر بالعدل ، فانه فسره بالتسوية بين الآخذين بالاسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب من مسلم أو كافر بلغ مسببه وإلا فلا . وكلامه فى الأسباب المادية كما لا يخفى ، فالمسلم كالكافر عنده فى كل نتائج الأسباب الكونية ، فلا تأثير للطاعة كما لا تأثير للمعصية ، فدعاء الله تعالى واستمداد النصر منه وطلب الاعانة على العدوّ والاغاثة لإنزال المطر ودفع البلاء بالصدقة والصلاة ونحو ذلك لا أثر له ، كما أن عصيان الله والتمرد عليه ومعاندته وسب كتبه وأنبيائه وأوليائه لا تأثير له أيضا ، لأن هذه كلها عنده أمور معنوية لا تتصل بذلك فوجودها كعدمها كما ادعى بان دعاء الله ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه ملهاة ومصرف خبيث وتعويق ، فالأنبياء عنده كالطواغيت فى نتائج هذه الاسباب المادية ، لأنه جعل تناول الناس للأسباب الكونية كمسائل الرياضة ، فلم يفرق بين ما يشرع له الدعاء ويستجلب بالطاعة كالامطار والنصر على الاعداء ونزول الخيرات والبركات ، وما ليس كذلك كسير الافلاك والمسائل الرياضية كالمسائل الحسابية ونحوها ، هذا هو العدل عند هذا المغرور كما هو صريح كلامه ، فتأمله فانه قال : الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الاشياء التى لا تتصل بذلك ، وقد علمت مما مرّ أنه قال : إن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى فهى لا تتصل بذلك ، ولهذا قال : وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، يعنى فلا ينظر الى دين هذا ودين هذا فلا أثر لذلك لان الدين له نتائج أخرى فلهذا قال « فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه والا فلا » يعنى والا

يأخذ بالسبب فلا يبلغ مسببه سواء فى ذلك كل من الكافر والمسلم ، فلو تقاتل فئتان مسلمون وكفار فالغلبة لمن هو أقوى سلاحا أو أكثر قوة مادية منهما قطعا ، ولهذا ادعى فيما يأتى أنه اذا تقاتل اثنان فالله مع أقواهما ، فجعل الله مع القوى منهما . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا . ولو دعا اللهَ المسلمُ وعبَـده وصدق ونصح معه فكما لو دعا وصدق ونصح مع صنم فانه لن ينفعه ذلك فى الدنيا أبدا لان الخلق الدينى لا يتصل بذلك بل له نتيجة أخرى هى الملهاة والمصرف الخبيث والتعويق كما صرح به فيما يأتى ، فيكون زيادة ضرر ، فلا يعان المؤمن من قبل العناية الربانية لايمانه وعمـله الصالح وتقواه ونصحه مع رب العالمين ، بل ينال بهذا كله الخيبة والفشل وسوء العاقبة حتى يكون سلاحه المادى مقابلا لسلاح أكفر موجود على وجه الارض ولو كان ذلك الكافر محاربا لله ورسوله ولأديانه وللدائنين بها ، فان هذا لا يضره شىء ابدا الا اذا نقص سلاحه المادى ، لان خلق الكفر لا يتصل بذلك ، هذه هى العدالة الشاملة عنده ، وهذا هو عدل رب العالمين وأرحم الراحمين ومجيب دعوة المضطرين عند هذا الملحد كما يقول ، لأن الفعل انما هو لنواميس الطبيعة فهى التى تحكم هذا العالم على مقتضى هذا العدل الذى ذكره ، فلو كانت عصا موسى مع فرعون لكانت هى هى لا تختلف ، لأنها سبب مادى والطاعة والمعصية ليس لها اتصال بذلك ، ولان نواميس الطبيعة هى التى تحكم هذا العالم على مقتضى التسوية بين الآخذين بالأسباب من المسلم والكافر كما هو صريح كلامه ، وكذلك بساط سليمان لو ركبه غيره لطار به ، لأن كلا من هذه المسائل أسباب مادية والأسباب المادية لا تعلق للطاعة والمعصية فيها بشىء كالمسائل الرياضية التى لا تختلف نتائجها باختلاف الحالين لها لاجل أديانهم ومبادئهم ، لأن الحكم للنواميس التى تسير على مقتضى التسوية بين الذين آمنوا وعملوا الصالحين والمفسدين فى الارض ، وأمثال هذا كثير ، وكلامه كما لا يخفى فى الأسباب المادية كما صرح بذلك والا فالاسباب الدينية عنده مبتورة من

مسبباتها ونتائجها ، فمن فعل السبب الدينى لم يبلغ مسببه أبدا ولا ينال الا الخيبة والحسرة ، لانه قال « ان الدعاء ليس بوسيله وليس له من فائدة » هـذا لفظه كما يأتى ، فجعل من أتى بهذا السبب الأعظم الذى شمل أثره الوجود كله وهو أقوى سبب فى الوجود اذا عمل به على وجهه النافع وسلم من المعارض ، جعل من أتى به لا يحصل له مسببه وليس بسبب وليس له من فائدة ، فالتسوية عنده والعدالة الشاملة كون المسلم كالمجرم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ، والمتقين كالفجار فى تحصيل نتائج هذه الأسباب المادية الكونية ، فانه جعلها كالمسألة الرياضية وجعل تغيير الله لها ونفع المسلم واعانته دون الكافر تشويشا واضطرابا ، فجعل قدرته وأفعاله فى خلقه بما تقتضيه الحكمة الربانية اضطرابا وتشويشا وتشويها لسمعة المشيئة العليا ، والله يعلم من فوق عرشه أننا لم نظلمه فى هذا وقد خاب من افترى . ومن العجب أنه لم يفرق بين المسائل الرياضية وبين غيرها ، فان المسائل الرياضية أمور أكثرها يجمع عليه بين الناس لا علاقة له بالطاعة والمعصية لانها أمور مباحة مشتركة ، بخلاف الطاعات والمعاصى فان الجزاء مرتب عليها فى الدنيا والآخرة ، ومعلوم أن سير الكون يختلف ، فليس سير الأفلاك المضبوط الذى لا يختلف أبدا فى الحساب كاتيان المطر ووجود الأمراض العامة فأن سير الأفلاك والمسائل الرياضية تعرف بالدرس والحساب ، بخـــلاف اتيان المطر والأمراض فانها لاتعرف بذلك أبدا ، والمطر ـ وكذلك المرض ـ وان عرفت المادة التى ينشأ منها فانه لا يعرف وقت مجيئه بالتحديد كما لا يعرف مقداره بالكم والكيف ، فخلطه هذه المسائل بعضها ببعض وجعلها كمسألة رياضية كذب ظاهر وتحويل لسنة الله فى خلقه ، وقد جعل الله سبحانه لجلب بعضه وتحصيله أسباباً بالطاعات ولم يجعل لتحصيل أو تغيـــير بعضه أسبابا بها ، وجعل لبعضه آثارا بسبب المعصية كالقحط ، وبعضه ليس كذلك ، فكون الدعاء والصدقة وأمثالهما من الطاعات له أثر فى جريان هـذه السنن الكونية أمر معروف ثبوته بالادلة

اليقينية الاضطرارية التي لا تدفع ، ومما علم بالضرورة أنه مما جاءت به الشرائع السماوية بجملتها ، وقد ثبت وقوعه بالضرورة والحس والمشاهدة والاستقراء ، فمحاولة نقضه كمحاولة نقض الشرائع بأجمعها والسفسطة فى المعقولات ، فان الدعاء ركن العبادة الاعظم فانه اعظم من الصلاة فانه روحها ، وان الصلاة لا تصح بدون الاتيان به فيها وياتى فى غيرها ، بل يتأتى فى جميع الأعمال القولية والفعليه والمالية ، فهو السبب الأكبر بين الله وعباده ، فمن جعله مصرفا خبيثا فقد حارب الله ورسوله ودينه جهارا بلا ريب . فالسنن الدينية كلها تدور على الدعاء ، فهو قطبها وروحها

والسنن الكونية بجملتها تدور على السنن الدينية وكلاهما مرتبط بعضه ببعض بدون انفكاك ، فمن أخذ بهذه السنن كلها جميعا على وضعها الدينى الكونى نال ما يبغى وحصل له مقصوده ، ومن رفض السنن الدينية وقطعها وصادمها لم ينتفع بالسنن الكونية نفعا صحيحا ، ولم يحصل له إلا نقيض قصده ، لأنه صادم السنن وقلبها وأتى الشىء من غير بابه ، ولهذا كانت عاقبة كل هؤلاء الذين صادموا سننه الدينية من الأولين والآخرين أن صدمتهم سننه الكونية وعذّبوا بها ، لانهم قطعوا الأسباب فتقطعت بهم الاسباب ، لأنها اذا لم تكن مربوطة فى عرى التقوى فهى واهية لا تماسك كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور ﴾ فهذا الرجل كل عناده وجداله فى مناقضة هذا الأصل وعكسه للسنن فهو ضد السنن الدينية ويلح فى الحمل عليها ، والاسراف والمغالاة فى الحث على الأخذ ببعض السنن المادية والاعتماد عليها حتى جعل بين هذه السنن أعظم التضاد والتباين ففصل سنن الله الشرعية من سننه الكونية وفرق بينهما ، وغرضه الأكبر من هذا التفريق والفصل والتباين كون الاعمال الدينية كالدعاء لا أثر له غير مضادة الاعمال المادية فيجب رفضه ، لكن دون هذا خرط القتاد والعقبة الكئود كما ياتى فى المبحث الثانى ، والحق أنه يجب ان نأخذ بسنن الله الدينية كما نأخذ

بسننه الكونية فانها كسنة واحدة فى ارتباط بعضها ببعض

فتبين بهذا أن هذا الرجل جعل السفه والفوضى التى لا ضابط لهـا هو العدالة الشاملة ، فانه لا شك عند كل عاقل أن من ساوى بين الصادق الناصح معه المجتهد فى اطاعته وامتثال أوامره ، وبين الكاذب المخادع الفاجر الذى قضى عمره فى معصيته والتمرد عليه انه ليس بعادل ولا حكيم ولا رشيد ، واذا قال هذا الملحد انهم كلهم خلقه فتجب المساواة بينهم قلنا له اذا كان علة وجوب المساواة تساويهم فى كونهم خلقه فأنت والكلب اذن سواء من هـذه الناحية ، فاحكم على نفسك بهذا وافعل كما يفعل أو كما تفعل سائر البهائم ، ولا تأمر ولا تنه ولا تطلب التقدم فى الأمر على الناس وأنت مثلهم والا كنت متناقضا ، وهذا ظاهر . فقد اتضح من كلام هذا الرجل أنه فسر عدل الله سبحانه بضده ، ففسر العدل بالكفر بالعدل ، كما فسر القدرة بالكفر بالقدرة ، ثم انه فسر الحكمة بالعدل فقال فى تفسير الحكمة « والايمان بحكمته يوجب الايمـان بهذا ايضا » يعنى بما فسر به العدل ، وقد علمت كلامه فى العدل وجوابنا عليه

ثم قال « اذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس فى الفوضى الاعتقادية ، ولن ينجو بهم من الفوضى إلا إيمانهم بالعدل ، والارتباط بين الاسباب والمسببات » انتهى

فيقال له : ما شاء الله يا بلعام زمانه ، لو لم يسر نظام الله على وفق رأيك الهزيل واعتقادك الوبيل لوقع الناس فى الفوضى ولن ينجيهم من هذه الفوضى إلا هذه الترهات المرذولة والرعونات الساقطة والمخازى المضحكة التى سجلتها فى هذه الاغلال ، ويل لك ثم ويل لك ثم ويل لك ، كيف لا ينجيهم إلا الكفر بقدرة الله على تغيير الأسباب وقطع الترابط بينها وبين مسبباتها اذا شاء ، فتباً لك ما أسخف عقلك وأقل حياءك ، واذن فلا غرابة أن تدعو لنفسك أن تكون المقدم فى الأمر وأن لا يرغب الا إليك ولا يطلب الا أنت فانه لا نجاة لهم على هذا الا بارشادك وهدايتك وإلا سقطوا فى الفوضى التى لا نجاة منها

ثم انه فسر الايمان باخباره تعالى فقال « وكذلك الايمان باخباره فانه اذا أخبر أن شيئا سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه » فيقال أولا : أنت كفرت بهذا ، فانه أخبر بأن الدعاء وسيلة الى الاجابة فعاكست اخباره وقلت انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة وقد قال فى كتابه العزيز ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ فقلت فى اغلالك : ان الدعاء ليس بوسيلة ، وليس له من فائدة . وقلت : ان الدعاء ملهاة ومصرف خبيث وتعويق ، فعاندت الله أعظم المعاندة ، فأين ايمانك باخباره وقد أخبر فى مواضع أكثر من أن تحصر بأنه قطع الأسباب عن مسبباتها ونتائجها كما فى المعجزات فانه جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم فقلت انه لا يغير فى الأسباب فيجعلها ان شاء أسبابا ويجعلها ان شاء غير أسباب ، ثم ذكرت أن ذلك فوضى وسفه ، فقد كفرت باخباره . ثم هذا القول الذى ادعيته فى الايمان باخباره قول مجمل قاصر معروف مرادك به ، بل الايمان باخباره هو الايمان بكتبه وتصديق رسله فى كل ما جاءوا به فى الأسباب وغيرها من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص التى تتضمن نجاة من آمن وعمل صالحا ، وهلاك وعقوبة من كفر وتمرّد ، والايمان بالبعث والجنة والنار وجميع مافى يوم القيمة من الثواب والعقاب وغير ذلك مما جاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فالله سبحانه وتعالى أخبر بهذا كله كما أخبر بأنه كل يوم هو فى شان وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ويعز من يشاء ويذل من يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، له الحكمة البالغة والعدل الشامل فهو يثيب المطيع ويدافع عن الذين آمنوا ويعاقب العاصى الكافر المتمرّد ويذيقه وبال أمره ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين وان حزبه هم المفلحون وحزب الشيطان هم الخاسرون وأنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ويذل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ، فكل هذا أخبر به وقد وقع بالحسّ والعيان فرآه كل مستبصر ، بخلاف من حقت عليهم كلمه الله فانهم لا يؤمنون

ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم . وبالجملة فجميع نصوص الدين من الكتاب والسنة يجب الايمان بها والاستسلام لها ، وهذا الملحد عاكسها وصادمها وعاندها ، فادعى أن الثناء على الله وحمده وتعظيمه فى أعظم مظهر اسلامى أسبوعى إحدى النكبات ، وأن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وأن الأخلاق الدينية كالدعاء ملهاة ومصرف خبيث ، وأن الايمان بالله وسيطرته على الأسباب يوجب عدم النجاح ، فأين الايمان ، فليس وراء هذا كفر ، وانما اقتصر على الايمان بالأسباب لأنها هى قصده فاقتصر على ما يهواه وأعرض عن ما سواه ، لأن مقصوده بهذا الايمان أن الأسباب تجرى بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، فلا يمكن أن تشملها القوة الالهية ، فتغييرها عن مجراها الطبيعى محال ، فلا معجزة ولا كرامة ، بل ولا غير ذلك من هذه الامور المشهودة فى كل وقت ، فالمعجزات عنده كذب لا أصل له وخرافات وأوهام ، هذا هو مقصوده بلا شك كما فسره بذلك فى المواضع الأخرى ، فتفسيره للايمان باخباره كتفسيره للايمان بقدرته وعدله وحكمته فانه فسره بالكفر باخباره فى تغيير الأسباب وابطال نتائجها كما فى المعجزات . والمقصود أننا نعتقد أن الله سبحانه وضع لهذا الكون العظيم سننا لا تبديل لها ولا تحويل وان هذه السنن تسير على وفق مشيئته الصادرة عن علمه وحكمته ورحمته ، فما شرعه لنا من الشرائع الدينية التى مدارها التقوى والعمل الصالح فهو من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، كما أن ما خلقه وسخره لنا على ما تقتضيه مشيئته القاهرة الصادرة عن علمه وحكمته ورحمته من نتائج هذه الاسباب الكونية المادية فهو من السنن التى لا تبديل لها ولا تحويل ، فقد اتفق شرعه الكونى وشرعه الدينى ، فمن حاول أن يقلب سننه الشرعية كما فى إثابة المطيع ومعاقبة العاصى فيجعلهما سواء فلا شك أنه محارب لله مصادم لسننه محاول لتبديلها ، ولهذا قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون ﴾

فأخبر أن هذا الحكم حكم سوء وجور ونظر ساقط من هؤلاء الذين حسبوا أن الله يجعل من آمن وعمل صالحا كمن اجترح السيئات ، فأعطاء كل عامل جزاء عمله هو محض العدل والحكمة والرحمة ، وأما جعل الجزاء واحداً والأعمال متضادة فهو جور وظلم لا يليق بالله ، كما نزه عنه نفسه وجعله ظناً للذين كفروا حيث قال ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وكلام صاحب الاغلال كله يدور على مراغمة هذه النصوص وردّها ومعاكستها بأقبح العبارات وأرذلها وأخبثها وأوقحها عامله الله بعدله فقد ظهر لك أن دعواه أن تناول الأسباب واستحصال نتائجها كمسألة رياضية كلام ساقط لا يعتدّ به ، فان المسائل الرياضية يعرفها الناس ويحيطون بها علما وأكثرها ليس فيه خلاف ، أما سير الكون فليس كذلك ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فمن الذى يحيط بدقائق هذا الكون العظيم ويعلمها ، وقد علم بلا شك أن هؤلاء الذين علموا المسائل الرياضية بل وعلموا من سنن هذا الكون ما لم يعلم به غيرهم إلا من شاء الله هم الذين سقطوا فيما سقطوا فيه من الدمار النهائى ، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، فالذين علموا المسائل الرياضية جهلوا نتائج الكون وضلوا فيه أعظم الضلال فكيف يكون سير هذا الكون العظيم وتناول نتائجه كمسائل الرياضة البسيطة ، فقياس سننه الشرعية الدينية وسننه الكونية على المسائل الرياضية من افسد القياس وابطله ، وهذا الرجل نفسه قد تناقض فى هذا اظهر التناقض فلم يثبت له فيه قدم كما سوف يجىء

وها هنا قاعدة يجب ملاحظتها فى هذا الموضع وفيما ياتى فى بحث الاسباب وهى انه لا يوجد فى الموجودات سبب واحد مستقل بايجاد مسببه بدون سبب آخر ايجابى او سلبى أو اسباب أخرى تشترك معه فيه . ثم اذا وجدت الاسباب فلا بد من انتفاء الموانع والعوارض فانه لا يوجد سبب فى الموجودات

لا مانع ولا معارض له فى الوصول الى نتيجته، وهذا من آيات الله فى قطع علائق الكفر والالحاد من النفوس، فان الفقير الى غيره العاجز عن الوصول الى نتيجة الا باعانة ودفع عنه لا يصلح أن يعتمد عليه وتزال به الفاقات والحاجات ، بل ان ذلك كله انما يستحقه من له المشيئة المستقله بالتصرف المطلق ولا مرد لقضائه ابدا

واذا كانت النتائج لا تحصل الا بهذه الأمور المذكورة، فهى تختلف أيضا باختلاف أسبابها: فمنها ما يكون سببه بينا واضحا قليلا، ومنها ما تكون أسبابه كثيرة خفية، ومنها ما يكون له أسباب قليلة خفية ، ومنها ما تكون له أسباب كثيرة ظاهرة وخفية، ومنها ما تكون أسبابه ظاهرة وخفية. وهذه مراتب: فمنها ما لا يضر ضررا كثيرا تخلف بعض أسبابه، ومنها ما لا بد من وجود أسبابه كلها كاملة . ثم وجود الأسباب بكمالها فى هذه الصور كلها لا يكفى فى حصول النتيجة بل لابد من انتفاء كل مانع ومعارض. ثم الموانع والعوارض منها ما هو كثير ظاهر، ومنها ما هو عكسه ، ومنها ما يكون بعضه ظاهراً وبعضه خفيا على حسب الاسباب والنتائج فى الكبر والصغر والضعف والقوة والاهمية وغير ذلك. ثم الاسباب منها ما يكون فى طاقة الانسان تحصيله وعمله أو تحصيل بعضه كأكثر الصناعات ، ومنها ما هو خارج عن طاقة الانسان تحصيله وعمله كانزال المطر الذى هو مفتاح لكثير من الحوادث من الخيرات وغيرها. ثم الاسباب أيضا منها ما هو سبب مباشر بنفسه، ومنها ما هو سبب بالوساطة. فانزال المطر ونحوه من الأمور الكونية التى لا يقدر عليها الا الله إنما يستعمل لها الأسباب الدينية، وايجاد الحيوان والنبات ونحو ذلك وايجاد الحواس لا قدرة للانسان على شىء من ذلك أى فى خلقه وايجاده. وكذلك الموانع منها ما فى إمكان البشر اتقاء أسبابه أو بعض أسبابه الظاهرة كحفظ الزراعة بالبناء والتلقيح والتقليم وأمثال ذلك، ومنها ما ليس فى امكان الانسان استعمال أى سبب فى اتقائه كارسال البرْد والبَرَد والصواعق والقواصف

والعواصف ونحو ذلك من الآفات السماوية والارضية ، فنتائج الأسباب كلها لا بد أن تتعلق بشيء من الأمور الغيبية وتتوقف عليها مما ليس فى امكان البشر قهرها وردها وتحصيلها وتحويلها . ومعلوم أن الأسباب انما يتصرف فيها ويعمل بحسب الأفكار والمقاصد ، وهما أصلا الاعمال البشرية ، وقد علمت أنها عاجزة عن ايجاد النتائج استقلالا فلا بد فى حصول كل نتيجة من ملاحظة وجود سبب غيبي ، والسبب الغيبي يختلف فى تحصيل نتيجته وأثره المسلم والكافر لتفاوت أعمالها الدينية المرتب عليها حصول نتائج الأسباب الكونية ، فان النتائج على حسب الأعمال فانها جزاء عليها وآثار لها . وتبين أيضا من هذا أن الانسان عاجز عجزاً ظاهراً ذاتياً عن تحصيل النتائج بقدرته الذاتية ولو أهلك نفسه بالاجتهاد والجد فى العمل وأعطى من الوسائل الممكنة مالا يمكن حصره حتى يؤيد من العناية الربانية الغيبية العليا ويعتمد عليها ويستعمل من الأسباب مافى قدرته وطاقته

على المرء ان يسعى الى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

فقد ظهر من هذا التقرير أن الأسباب ومسبباتها نوعان : نوع عادى بسيط كالأكل والشرب والصناعات والمسائل الرياضية وأمثال ذلك ، فهذه الأمور يتساوى فى حلها والأخذ بها النوع الانسانى غالبا من مسلم وغيره ، لأن هذه الأمور خلقها الله لعباده جميعا وسائل الى غيرها ليستعملوها لقوام حياتهم وليتقوا بها فتكون حجة عليهم اذ أعطاهم كل ما به يتمكنون من أداء ما خلقوا له من طاعته فهى متاع لهم اختباراً لينظر كيف يعملون ، فكان الناس فيها غالبا سواء

وأما النوع الثانى وهى الامور العظيمة كالمعجزات التى هى خوارق للعادة والكرامات والامور الاخرى الخارجة أسبابها عن طاقة البشر كتسخير القلوب والارادات وتقليب الأفكار التى هى من أسباب الهزائم والحروب والانتصارات وأمثال ذلك مما فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل أو العقوبة والانتقام فلا بد

أن تكون النتيجة المحمودة الطيبة للمؤمن خاصة دون الكافر ، فلا يكون التقدم والنصر الا فى جانب المؤمن أو أتباعه قطعا ولو بخرق عادة أو ابطال سبب فانه إن كان الجند مؤمنا كله ايمانا خالصا ومضادّه كافرا كفرا خالصا حصل النصر فى جانب المؤمن حتما ، وان كان كل من الجيشين متقاربا فى ايمانه فهذا له نظر آخر ، وكذلك اذا كان الجميع كافراً فأكثر ما يقع الوبال فظيعا لأنه نوع انتقام ، وان كان الجيش مؤمنا لكنه مدخول بشيء من النفاق ونحوه فقد تقع فيه الهزيمة أحيانا تمحيصا واختبارا ، وبكل حال فالنصر انما يكون فى جانب الايمان فان الحق فوق الباطل سنة قاهرة جبارة فى الوجود لأنه أقوى منه والقوة فوق الضعف فى الوجود كله (١) فلا تبديل لهذه السنة ولا تحويل ، فلا بد أن يكون مستصحب الحق المحض فوق صاحب الباطل حين يحصل الامتحان والاصطدام الفاصل ، قال تعالى ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال تعالى فى هود وقومه ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقال فى قصة صالح ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ الآية ، وقال فى ابراهيم ﴿ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وقال فى لوط وقومه ﴿ فانجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ وكذلك قصة شعيب وموسى مع فرعون وعيسى عليه السلام حين عرج به الى السماء فعجز أعداؤه عن الوصول اليه ، وانتصارات النبى ﷺ ثم أصحابه على قلتهم وضعفهم فى الأسباب المادية وأعداؤهم أكثر عدة وعددا وثروة ، ثم كان أهل القرون المفضلة كذلك لما كانوا محافظين على أصل دينهم وروحه متمسكين به فى الجملة وكان الحق ظاهرا

---

(١) والاسباب الدينية اقوى من الأسباب الكونية لأنها الأصل

فيهم ، فلما أن حلّ تعطيل الصفات كالعلوّ والكلام وغيره تحول عزّ الدين ، وغير الله على من غيره ، وهذا أمر ظاهر تشهد له النصوص والتاريخ المتواتر والحس والضرورة والاستقراء التام ، ولا يمكن بحال أن توجد فى الدنيا معركة فاصلة إلا كان أصحاب الحق المحض هم المنصورين ، وما يوجد من بعض الهزائم الجزئية فهى لا توجد الا فى جند مدخول إما بذنوب أو غيرها ، وأكثر ما يوجد اذا كان فى الجند ملاحدة أو منافقون ، فيكون كالتمحيص والابتلاء وتميز المنافق المختفى ومن فى قلبه مرض من المؤمن الصادق كما قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أما الامور العظيمة التى يحصل بها انقطاع احدى الفئتين انقطاعا نهائيا فلا يوجد إلا والنصر فى جانب المؤمن حتما كما هو الواقع الذى لا شك فيه

فصل

قال : « فاذا ما استطعنا ـ وذلك ما يجب أن نستطيعه ـ أن نفهم قومنا ذلك ، واذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقا ـ وذلك ما يجب أن يفهموه ـ كان من اليسير جدا بل ومن المحقق يقينا أن يسيروا سيرا سريعا لا ابطاء فيه ولا تأخير فى سبيلهم التى خلقهم الله وأعدهم وهيأهم وأمرهم للسير فيها أى الى الكمال والحياة القوية . فان الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لان تبلغ أقصى مافى الحياة من قوة ونجاح ، وذلك ان الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، ولتبلغ أشدها فى وقت من الاوقات كما قلنا ، فالحيوان وعلى رأسه الانسان طبعا والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعى الآلى والشوق الاختيارى الارادى الى الكمال »

قلت : هذا تفريغ على ما ذكره من السنن التى هى عنده تفاعل الطبيعة حيث قرر أن النواميس التى تحكم الكائنات الحية انما ورثتها من أصلها المادة على ما

من تفصيله ، هـذا هو الذى يريد أن يفهمه قومه وأن يسيروا عليه مع تلك المخازى الأخرى التى لا تحصى ، والذى نقوله نحن والذى يجب أن نفهمه وأن نفهم كل عاقل مدلوله ومقتضاه صريحا هو السير على مقتضى الأوامر السماوية الدينية طبق ما فى الكتاب العـــزيز والسنة المطهرة كما قرره الصدر الاول والقرون المفضلة فى أصول الدين وفروعه وأن يسيروا على ذلك سيرا حثيثا صادقا قويا ، وأن نفهم كل عاقل أن ما خالف هذه الطريقة المستقيمة النيرة الواضحـة من الطرائق الملعونة الخبيثة الملتوية الوعرة كطريقة هذه الاغلال فيجب ان نضرب به عرض الحائط ان لم نضرب به وجه من جاء به . نعم إن الذى يجب أن نحذره وان نذود قومنا عنه هذه المعاطب المتلفة وهذه الموارد القذرة المسمومة القاتلة ، وأن ندلهم على هذا الكوثر السماوى الطيب الطاهر المشروع الذى شرعه الحكيم العليم وأنزله من فوق عرشه مع أفضل ملائكة السماء على أشرف نفس بشرية ، هـــذا الكوثر الذى فيه الشفاء المضمون ، وتالله ما حل بالمسلمين البلاء والأسقام والأدواء المتنوعة الا لما أعرضوا عنه أو قصروا فى الانتفاع منه وذهبوا يطلبون الشفاء من غيره ، فكرعوا فى هذه الامواه الآسنة القلوطة المتسربة من عصارة أفكار الرومان وفرنسا واليهود أو أشباههم ، فمن تغذى أو تداوى بعصارة هذه الآراء اليهودية وأمثالها فانى له الشفاء وانى له الخلاص وأنى له الحياة الصحيحة النافعة

لقد عظم الفرق والتوجيه بين من دل الناس على كوثر الله ورحيقه وهم أولئك الجماعات الصادقون ، بمن دلهم على هذه الموارد الخبيثة المنتنة القذرة عصارة أفكار اليهود والزنادقة وأشباههم كصاحب هذه الاغلال

لقد عاقب الله بنى اسرائيل حين اختاروا الثوم والعدس والبصل على المن والسلوى ، فضرب عليهم الذلة والمسكنة وقيل لهم أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكيف بمن اختار آراء ورثة هؤلاء الأشقياء من اليهود ممن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت على النصوص

السماوية الطاهرة الزكية من كلام الله العليم الحكيم الرءوف الرحيم ، ولهذا كانت النتيجة فى هؤلاء الذين نبذوا هذه النصوص المقدسة أو اخذوا بها أخـــذاً ضعيفا متطرفا ، وتعلقوا بهذه الآراء الخبيثة وعشقوها ، أن عوقبوا بمثل ما عوقب به أمثالهم وأسلافهم ، فضربوا بالذلة والمسكنة فأصبحوا فى هـذه القيود والأصفاد والأغـلال التى كانت عليهم فاثقلت كواهلهم ، فكلما ارادوا النهوض والتخلص منها عجزوا عن ذلك وارتكسوا فى قيودهم وأغلالهم جزاء بما كسبت أيديهم برفض ما فرض الله عليهم ، فلن يتخلصوا منها ولن يجـدوا عنها محيصا حتى يلقوها عن كواهلهم ، وحتى يخرجوا من أسبابها وعللها الـتى اقترفوها ، وحتى يعلموا أن أسلافهم الأقوياء المظفرين أهـل القرون المفضلة هم الذين علموا خطرها وضررها فتباعدوا عنها وحذروا منها وأفهموا قومهم سبيل العز والفلاح وأنه التمسك بهذا الدين المتين والنور المبين . هذا هو الذى يجب ان نفهم قومنا العمل به وأن يسيروا عليه سيراً خالصا صادقا بدون وهن أو وقوف . ويا لله العجب ، هل يسوغ فى العقل والدين أن نفهم قومنا بأن يسيروا على نحو ما قررته فى أغلالك هـذه الوبيلة وادعيت أنه من الحقـائق الأزلية الأبدية ولن يستغنى عنه مسلم ، ومن هذه الحقائق ان الرعود والبروق والعواصف تراض كما تراض الوحوش ، وأنه اذا تقاتل اثنان فالله مع أقواهما ، وأن أعظم المظاهر الاسلامية كالمنابر التى يخطب عليها يوم الجمعـة أدت شر ما يؤدى ، وأن المساجد التى تؤدى فيها الصلوات أدت شر ما يؤدى وأن هذه الخطب أيام الجمع احدى النكبات ، وأنها كلمات خفيفات مبهمات ، وأن الصلاة حركات يمثلونها أو تمثل بهم ، وأن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تصريف خبيثة ضارة وأنه أيضا ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، وان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يستطيع فراق الطبيعة وأنه ابتدأ رسالته بمناجاة الطبيعة وختمها بمناجاتها أيضا ، وأن تعليم المرأة أوجب من تعليم الرجل ، وأن الزواج تحكم فى المرأة لا يجوز ، وأن قدرة الله على

تغيير الاسباب فوضى وسفه ، وان المتدينين على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأنبيائهم وأزمنتهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المتحللون من الأديان ، وأن الانسان لن ينجح حتى يكون سببيا محضا ، ولا يكون سببيا ما دام مؤمنا بقدرة الله الشاملة المتصرفة فى الاسباب ، وأمثال هذه الآراء الكثيرة الملعونة ، والرعونات الجنونية والسخافات الباردة . ويل امك متى سولت لك نفسك أو عقلك أن المسلمين أو أن العروبة شاء او نعم تضحك بعقولها حتى تسجل هذه المخازى الوبيلة ثم تدعى أنهم لن يستغنوا عنها ، وأن النجاة فى العمل بها والسقوط فى تركها ، ثم توجب عليهم فهمها وافهامها والعمل بها ، لقد ضللت إذن وما أنت من المهتدين

أما قوله « ان الله خلق خلقه للسير الى الكمال والى الحياة القوية » فيقال : الذى دلت عليه الشرائع والعقول السليمة أن الله خلق خلقه لعبادته ، فالتمسك بدينه وعبادته هو السبيل الموصل الى الكمال الممكن فى حقهم والى الحياة القوية ، وأرفع الحياة القوية هى الحياة الأخرى فى النعيم المقيم ، ولكن انت جعلت هذه الطريق لا فائدة فيها فصددت عنها ، وجعلتها عوجا ، لانك ادعيت أن طريق المجد ينحصر فى الأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها ، وجعلت الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، وادعيت أيضا أن سبب تأخرنا شىء واحد هو الجهل بنواميس الطبيعة كما يأتى ، فقد خالفت الطريق الصحيحة الى الكمال والحياة القوية ، واتخذت طريقا هوجاء مظلمة لا يسلكها أحد الا عطب وتلف .

ودعواه أن الله «ذرأ فى خليقته بذور الكمال وذرأها مهيأة لأن تبلغ أقصى ما فى الحياة من قوة ونجاح »[1] فيقال : لكن أنت لم تقبل الذى ذرأه الله

---

(١) سيأتى دعواه أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم

فيها من البذور الطيبة الطاهرة ، بل عاديته وحاربته ورفضته وجعلته ملهاة ومصرفا خبيثا وشرا يؤدّى ، وهو الدعاء والثناء على الله والتوجه اليه بعبادته القولية والفعلية ، فانك قررت بأصرح عبارة أن الدعاء هو العبادة بلا خلاف ، ثم قررت أنه لا فائدة فيه بل هو ملهاة ومصرف خبيث ، وقررت أيضا أن الدعاء كالصلاة والحج وغيره من العبادات فجعلت عبادة الله التى انزلت لأجلها الكتب وأرسلت لأجلها الرسل والتى هى بذور الكمال الممكن ليست بشىء غير الضرر والتعويق ، فالتقوى والعمل الصالح والايمان بالله هو بذور الكمال الممكن كما قال تعالى ﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ فبذر فيهم توحيده والاعتراف بربوبيته وألوهيته وهم فى أصلاب آبائهم ، وجعل حياة ذلك وغذاءه بما آتاهم على ألسنة رسله من النور والروح والهدى والنيات التى هى الايمان والعمل الصالح ، فعمدت الى هذا البذر الطيب وعملت أقصى ما فى وسعك لافساده ومحقه عن آخره . وقال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فعلق سبحانه عدم الخوف والحزن على التقوى والعمل الصالح ، فدل على أن بذور القوة الصحيحة التى لا يدخلها خوف ولا حزن هى التقوى والاعمال الصالحة ، وأن من فقد هذا اعتراه من النقص والضعف بقدر ما فقد منه . وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فعلق الحياة الطيبة على الايمان والعمل الصالح ، وان من فقد هذا فقد من الحياة الطيبة بقدر ما تركه من الايمان والعمل الصالح ، وقل أن يوجد فى الدول الكافرة دولة يمضى عليها فى رفاهتها وقت طويل لم تصبها فيه نكبته ، وتلك المدة هى التى يمكن ان يعيش فيها الانسان طول حياته هادئا مطمئنا . وليس فى شىء من النصوص أن الكمال والحياة القوية فى تعلم الطبيعة ونواميسها ، الا على مذهب الملاحدة ، ومن سحر بأقوالهم من الذين لا يؤمنون

بالله ولا باليوم الآخر من أصناف المنافقين

أما ما ذكره من أن الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، فهـــذه الفلسفة الباردة والادعاء المرذول لا يصح ، بل هو باطل ، فان الله هو المختص بالكمال الذى لا غاية فوقه ، أما خلقه فيختص المطيع منهم بالـكمال الممكن فى حقه كل بحسب تقواه وصلاحه . ومعلوم أنه لو كان الخلق مثله فى الكمال لكانوا أربابا ، وهو باطل بالضرورة ، وتعليله باطل أيضا لأنه مجرد دعوى لا أساس لها فتقابل بالردّ

وقوله « ولتبلغ أشدهـا فى وقت من الأوقات » الى آخره فيقال : هـذه دعوى غامضة انما يصح ذلك فى أهل الطاعة فى وقت القيامة فى النعيم المقيم ، فلا حجة لك فى هـذا

ويجب ان يعلم وأن يلاحظ أن لهذا الملحد مغزى خبيث فى هذا الكلام ، فانه طالما كرره وردده بعبارات متنوّعة مدخولا بشىء من الجمجمة [١] وهو يرى أن العلوم المادّية والمعارف والتفاعل المستمر فى الطبيعة سيتطور حتى يصل الناس الى حالة يقضون فيها على جميع الشقاء من الامراض والاسقام والموت والهموم وغير ذلك من نقائص الحياة ، وهذا لا يمكن بحال

فصل

ثم قال « وقد حدّث العلماء أن هذه الشمس الباهرة الوضاءة وهذه النجوم المتلألئة وكل هذه الأفلاك التى تزين الظلام فى حلكة الليل الأصم وهــــذه الارض التى صارت من كمالها وقوتها تنبت الانسان والحيوان وكل ما فيها مما يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الانسان ويهبه الراحة والعيش الهنى ،

---

(١) بل صرح فيما ياتى بأنه ينتظر من فتوحات الانسان العلمية أن يقضى على جميع صنوف الشقاء القضاء التام

حدّث العلماء أن كل هـذه الموجودات خلقت - أول ما خلقت - لا تصلح لشيء مما هى صالحة له اليوم ، وليست شيئا له قيمة بالنسبة الى ما صارت اليـه اليوم ، ولكنها ظلت لما وضع الخالق فيها من الاستعداد للكمال والتقدم تدرج الى غاياتها وتحبو فى طريقها جادّة لا يعوقها عائق ولا يصدها صادّ ، حتى أصبحت اليوم شموسا ونجوما وكواكب لامعة ، تغمر الوجود بهجة وجمالا وحياة وضياء »

فيقال : هذا برهانه على ما ادّعاه فى الجملة التى قبلها من بلوغ النـاس الى الكمال . ويكفيك دليلا على فساد هذه الدعوى أنه أعرض عن النصوص الدالة على الوصول الى الحياة الصحيحة القوية والى التقدم والنجاح وتعلق بهذا القول الذى نقله عن بعض ملاحدة أهل الهيئة ، فكره الطيب ومقته ونفر منه وأعرض عنه ، وعشق الخبيث وأحبه وتعلق به واحتج به ، وهكذا يكون من انسلخ من آيات الله واتبع هواه . وينبغى أن يلاحظ أنه اذا أطلق العلماء فانه لا يريد من له أدنى معرفة فى دين الله مهما كانت حاله فى العلم والمعرفة ، وانما يريد بهذا الاسم اذا أطلقه الملاحدة ومن على شاكلتهم كما نبهنا على هذا وأعدناه ، لأنه سيتكرر كثيرا ، فينبغى ملاحظته . ثم لو فرض أن هـذا الرأى الذى ادعاه صحيح فلا حجة له فيه ، فهل هذه الارض وهـذه الموجودات وصلت الى ما وصلت اليه من هذه الحالة بتعلم قوانين الطبيعة ونواميسها فدخلت مدرسة تعلم فيها هذا العلم ، أم وصلت الى ذلك بخلق الله فيها ذلك ، وهل وصلت اضطرارا الى ذلك أو اختيارا ، فلا بد من التفصيل ليطابق هذا الدليل مدلوله

فصل

ثم قال : « والانسان بلا أدنى ريب وهب من الاستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر »

قلت : هذا لا حجة له فيه ، لان حاصله ومعناه أن الانسان فيه استعداد

لمعرفة ضروب عظيمة من الصناعات ونحوها ، وهذا لا ننكره ، وليس النزاع فيه ، ولو جعل أغلاله كلها فى هذا الموضوع لم نعارضه بشىء ، ولكنه عمد الى الاديان فشتمها وحاربها ، وهذا هو الذى ننازعه فيه ، لكن قوله هنا « وهب من الاستعداد للكمال » فيه ما فيه ، فاننا نمنعه الا فى من عمل صالحا ويكون حينئذ كماله الممكن بحسب إيمانه وعمله الصالح ، وهذا المعارض لا يقول بهذا فلا حجة له فيه

ثم قال « ولكن الانسان لسؤ حظه - وقد يكون لحسن حظه - جعل سيره لنحو الكمال اختياريا آليا معا لا آليا فقط ، بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضا نحو النقص والدمار ، وكلا الامرين بيده وتحت مشيئته لان الله شاء له ذلك »

فيقال : اذا كان سيره اختياريا لا آليا انتقض استشهادك الذى ذكرته عن علمائك فى الشمس والنجوم والارض ، فانها على زعمهم تسير سير آليا فقط ، ثم قولك « ولكن الانسان لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه الخ » لا ندرى أيهما أولى عندك فلم تبين الأولى ، وكون الانسان جعل سيره اختياريا نقول به فى الجملة أى أنه مختار ، لكن ذلك بعد مشيئة الله تعالى ، ففعله مخلوق ، وليس الناس سواء فى المشيئة ، بل المؤمن مختص بزيادة إيمانه فضلا ونعمة بخلاف الكافر ، وأنت سويت بينهما على مذهب المعتزلة ، بل هو شر منه كما ياتى فى بحث القضاء والقدر وفى مواضع أخرى ان شاء الله تعالى

ثم قال « فكان من اللازم الضرورى المحافظة على خطواته كيلا يزلّ أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق ، ولا جدال فى أن شيئا من الأشياء لا يستطيع أن يصل الى غايته المرسومة إلا اذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت عنه الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة والهبت استعداداته الطبيعية . ولكن يجب أن يفهم هنا - وهذا له شأن كبير - أن فى استعدادات المواهب البشرية وفى طاقتها أن تمضى فى سبيلها دون وقوف ، فعلينا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد

ذلك لأن نلتمس مهمازاً ندفع به الانسان الى العمل بطبيعته ، بل هذا المهماز موجود فيه وفى طبعه ، فارفعوا هـــذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والاغلال الاعتقادية ، ثم انظروا كيف يكون الانسان »

قلت : لا شك أن المحافظة على الخطوات وعدم الخروج عن الطريق أمر مطلوب ، لكن أنت خالفت ذلك فخرجت عن طريقتك الاولى التى أقمت البراهين كما تدعى على أنها حق ، ثم خالفتها ووقعت فى الخطل فى خطواتك ، حتى رجعت القهقرى وانحططت الى الورا . ثم انه يجب عليك أن تبين هذه الموانع التى تريد ازالتها عن الطريق ، ولا سيما فى هذا الموضع فيجب التصريح بها هنا ، ولا تكفى هذه الاشارة . ونحن نعلم أنك تريد بذلك الأخلاق الدينية كما فسرتها فى المواضع الأخرى حيث ذكرت أن الدعاء ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، فهذه هى الموانع عندك التى تجب ازالتها مع ما ذكرته فى خطب الجمعة وغيرها . ولكن الذى لا شك فيه أن الموانع والاغلال هى أغلالك فتجب إزالتها ، ومن العجب أنه سمى كتابه هذى هى الاغلال وقال هنا فارفعوا هذه الاغلال ، فنقول صدقت فلنرفض هذه الاغلال رفضا باتا قبح الله من عملها ثم دعا اليها ثم دعا الى رفضها ، فسبحان من أخزاه . ولا شك أنها والله أغلال ، وداء عضال ، لمن رسخت فى ذهنه أو ارتاب فى كونها مناقضة للدين ، فليبك على نفسه ، وليعلم أنه لم يعرف دين الاسلام ، فان هذه الاغلال غلت أهلها حتى خنقتهم خنقا مميتا كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر ، ثم ماذا تريد اذا أزيلت هذه العوائق والموانع التى هى تعاليم الدين ، أتريد أن الناس يستبدلون بها أنظمة الملاحدة ، أم تريد أن يحلوا محلها أفكارك التى عملتها فى هذه الأغلال وادعيت أنها حقائق أزلية أبدية تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى ولن يستغنى عنها مسلم ، ولعل هذا هو مرادك لتكون المقدم فى كل أمر كما تدعى فى هذيانك البارد

وقوله « ثم استعملت المواهب الكامنة وألهبت استعداداته الطبيعية » فهذا

تصريح منه بأن الطبيعة هى التى تدفعه الى الاعمال وتدبره ، فهى التى تهديه وتضله ، وهذا كما أنه يصادم الشرع والعقل فهو يناقض ما ذكره أيضا فى بحث الانسان الآتى فى دعواه أن الانسان خلق بطبيعته شريراً خبيثاً شيطانا ، وأنه لولا التعاليم لنشأ على الجهل والظلم والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد والضبط ، فكيف يدعى هنا أن الطبيعة هى التى تلهب استعداده وأن مهمازه موجود فيه ، وقد استكبر عن أن يقول : ويستعين الله ويستمد منه المعونة والتوفيق ، فشمخ عن ذلك بأنفه المرغم ، ولكن نحن نقول يجب على الانسان أن يستعين الله تعالى ويستمد منه المعونة ويصدق وينصح معه ويعلم أنه الجواد الكريم القادر القاهر الذى لا يخيب من سأله بصدق ونصح واخلاص ، وليس للمسلم نجاح بدون هذا أبدا ، وانما يؤتى الانسان من نفسه وسوء معاملته مع الله وجهله بتعظيم دينه واحترامه ، والا فمن رسخ الايمان فى قلبه دفعته حرارة الايمان الى أصح الاعمال وأنفعها وأرفعها ، فانها حرارة ربانية ، وقوتها وضعفها بحسب قوة الايمان وضعفه ، فلا أنجح من هذه الطريقة ، أى الحرص على ما ينفع والاستعانة بالله كما قال عليه الصلاة والسلام «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» الحديث

وأما دعواه أن فى استعدادات المواهب البشرية وفى طاقتها أن تمضى فى سبيلها دون وقوف ، فهذا اشارة الى ما كرره مرارا لا تحصى أن قدرة الانسان لا حد لها بل صرح بانه لا يقال لشىء من الاشياء مهما بلغ ما بلغ هذا فوق قدرته ، وصرح بأنه يعلم خلق السموات والارض وخلق نفسه وخلق كل شىء ولهذا ادعى هنا أنها تمضى فى سبيلها دون وقوف ، اذ لو كان فوق قدرتها شىء لوقفت دونه . ثم انه لحرصه على رفض الاعتقادات والاعمال الدينية وكراهته لها ولأهلها طلب ازالتها أولا ثم طلب رفعها ثانيا فقد أثقلت كاهله كما غمت قلبه وروحه ، فليمت كمدا وليعلم أن أخلاق الدين هى النور والروح وقرة العين والافراح واللذت والنعيم الذى لا يعادله شىء وحياة القلب التى ما طابت الحياة

إلا بها ، فهى البصائر النيرة التى من سار على نورها ومشى على ضيائها وصل الى محبوبه وتحصل على مطلوبه ، ومن أعرض عنها هوى فى دركات الضلال والظلام ، بل هو كمن خرّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق فلا يرجى له حياة ولا خلاص كما ذكره الله ، وهى الحد الفاصل بين الانسان وشر الحيوان ، فهى الحد الفاصل بين الحياة والموت والنعيم والجحيم ، وسيعلم هذا الملحد أن ما سلكه فى محاربة هذه الاخلاق الدينية وجعلها ملهاة وأغلالا وعوائق وأوهاما ان ذلك كله هو ما دعا اليه فى كتابه من النفاق والشقاق والخسة والنذالة والجشع والخبث والذل والسقوط النهائى وقد ذكرنا فى أول هذا الكتاب ما يتعلق بالأغلال وأن ما رمى به المسلمين هو أولى به بلا شك ولا أدنى ريب

خلاصة هذا المبحث

قد فهمت - أيها القارى العزيز - أن خلاصة هذا المبحث الذى هو كالمقدمة لهذا الكتاب ان مؤلف الاغلال ادعى أن تأخر المسلمين لم يفهم أحد من جميع الناس سببه ولم يعتن به أحد أو يفكر أو يبحث فيه غيره ، فهو الذى فكر فيه وحده وهو الذى عرف سبب التأخر ، وهو ما وصفه فى هذا الكتاب . وقد عرفت جوابنا عن ذلك ، ولكن نختم هذا المبحث بمعرفة أمور :

أحدها أن هذا الرجل له والدة كبيرة السن ضعيفة موجودة الآن فى قرية من قرى القصيم وهى على قيد الحياة ، وقد غاب عنها ما يزيد على ثلاثين عاماً وقد وصل الى الحجاز مرات فلم يصل اليها ولم تسمح نفسه أن يكتب لها حرفا واحدا ، وقد كاتبته مرارا بواسطة العالم الوجيه الشيخ محمد حسين نصيف وغيره وأوصلوا رسائلها اليه ونصحوه فى ذلك فاستكبر عن الاجابة . ولما قدم الحجاز سنة ثلاث وستين حاولت وصوله اليها وكان فى استطاعته اذ ذاك أن يصل اليها بدون مشقة بواسطة المواصلات المتيسرة ، فرفض ذلك ورجع الى

مصر ولم تسمح نفسه فى هـذه الحقبة الطويلة أن يرسل اليها ما يساوى درهما واحدا على شدة ما بها من الحاجة ، بل لم يسهل عليه أن يكتب لهذه الوالدة سطرا واحدا يعادل سطرا من هذا الكتاب الذى مكث فى تصنيفه ست سنين لم يقتطع منها ست دقائق من الزمن يكتب لها فيها رسالة يسترضيها ويزيل ما ألم بخاطرها من طول الفراق . فيا لله العجب ، هل يوجد عقل صحيح يصدق بأن رجلا يبخل عن والدته الكبيرة الضعيفة بأضعف وسيلة توجد على وجه الأرض لترضى عنه ، ويريد مع هـذا أن يفيض جوده على المسلمين الذين يقول عنهم انهم يبلغون اربعمائة مليون بكتاب يخرجهم به من الظلمات الى النور فيبصروا طريق العقل -كما يدعى- وينقذهم من استعمار العدو واستعباده . لا شك أن الانسان الذى يصدق بهذا إما غبى أحمق مفرط فى الغباء والجهل وإما معاند قد غلب على شعوره العناد . (ياالشمس التى فى غير برجها) اذا كنت عجزت عن أن تصلح شانك مع أمك بنحو عشر كلمات ، وأبيت الا أن تقابلها بالعقوق والهجر القبيح تكبرا واختيالا ، فكيف تريد أن تصلح الناس ؟

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك اذا فعلت عظيم

لقد عرف الناس كلهم - إلا من شاء الله - أنك امرؤ شغوف متهالك الى حد بعيد فى حب المادة وحب الشهرة الزائدة ، وكفى بكتبك كلها وما نقلناه فى هذا الكتاب دليلا على ذلك ، ومن كان هـذا خلقه فانى يكون صدوقا نصوحا ،

الأمر الثانى - أن جميع العلماء الدينيين الذين اطلعوا على «هذى الاغلال» ودرسوه وفهموه وهم على بينة من ربهم وبصيرة من أمرهم قد عرفوا حقيقة مغزاه ومرماه وأنه مضاد للشريعة الغراء مناقض لما خادع به وادعاه فى مطاوى كتابه ، وبينوا أنه نفاق ظاهر وخداع بين ، وأن موضوعه دعاية خبيثة ضد

الاسلام وروحه ، ولا يخفى هذا إلا على مطموس البصيرة مخسوف القلب لا يعرف حقيقة دين الاسلام ولا حقيقة النفاق والالحاد والكفر ، فان أصدق صورة ترسم للمنافق صورة هذا الموقف الذى اختاره لنفسه هذا المؤلف فى عملية هذا الكتاب ، وقد نوه العلماء بهذا وكلامهم فيه كثير جدا ، ومن تركه منهم فانما تركه اما احتقارا أو أنه لم يطلع على كلامه ولا أحاط بمرامه ، وعلماء نجد كلهم - لا أستثنى منهم أحدا - لا يشكون فى كفره ومضادته للاسلام ، وكذلك علماء الحجاز الذين عرفناهم ، وقد رد عليه كثير من العلماء بمقالات كثيرة متنوعة مشهورة وكشفوا خداعه وخزيه فى مصر والحجاز وغيرهما ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم لطال الكتاب جدا ، وممن نبه على ذلك الاستاذ السيد قطب الكاتب المشهور فى مقالة له نشرت فى مجلة الهدى النبوى عن مجلة السوادى قال السيد قطب :

هذى هى الاغلال

لم اكن أنوى أن أكتب شيئا عن هذا الكتاب ، لا خيرا ولا شرا ، فلعل صاحبه يصل الى أهدافه الحقيقية : الشر والخير سواء . وللكتاب وصاحبه معى قصة ما كنت لافشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيرى ولم تعد سرا :

أهدى الىّ الرجل كتابه ، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته ، ثم تفضل فزارنى مع صديق كريم عزيز أحمل له فى نفسى ودّا مكينا ، وأسرّ لى الصديق ثم أعلن أنه وافد لى فى مهمة . إن حرية الفكر فى خطر ، فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنّت له أفـــكار وآراء جريئة فأودعها كتابه ، وخصومه من الرجعيين والنفعيين فى الحجاز يدسون له هناك ، وانه على وشك أن يستدعى لمحاكمته وربما لشنقه ، وان علىّ ككاتب يقدر رسالة الفكر أن أشارك فى الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق . ولم يكن بد من ان أتحمس فى أول الأمر ، فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق

حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور ، ووعدت أن أفعل فى حدود ما أستطيع. وجلس الرجل وأخذنا باطراف الحديث فى دارى ، وشيئا فشيئا بدأت أن اشم رائحة فى الحديث ، رائحة ليست نظيفة

هذا رجل يريدنى على أن أفهم أن الأنجليز فى الشرق قوم مصلحون لا مستعمرون ، وأن وسائلهم فى الشرق أرقى واكرم من وسائل المسلمين عندما استعمروا الشعوب ، وليس المسلمون هم الأتراك مثلا فأجد عذرا ، ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب ، بل القرآن الذى أباح التخريب والتمثيل ، وكان ذلك كله ردا على ما قلته له من أن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير ، وأن الحضارة الاوربية الحديثة تستخدم وسائل غير انسانية فى الحروب وغير الحروب(١) : إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها جاء القرآن ليبررها لهم ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ ولم يرد أن يستمع الى حديثى عن وصايا النبى ﷺ للقواد ، ولا الى وصايا خلفائه الانسانية الرحيمة . فليكن . فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . ثم ماذا . ثم يجب أن ننفى العنصر الاخلاقى من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء هذا والمسلمون لم يكونوا فى أى عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساقا فجارا وهم الآن فى البلاد المحافظة أفسق وأفجر ، ولا عبرة بهذا كله فقد كانوا أقوياء وهم فساق فجار ، لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية ، وهم ضعفاء اليوم مع فسقهم وفجورهم لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية ، والمعوّل على هذه الوسائل لا على بر أو فجور

فليكن أيضا ، فقد تكون أيضا تلك عقيدة الرجل ، وأنا مستعد لأن استمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . وطال الحديث

---

(١) اى قال مجيبا

وأنا بعد هذا كله لا أزال معتزماً أن أقرأ الكتاب ، فان وجدت فيه حرية رأى حقيقية وفكرة ناضجة قوية دافعت عن الرجل ولو خالفته فى فكرته كل المخالفة . ثم عدت الى الكتاب ، وهنا تحول شعورى الى اشمئزاز عميق . هذا رجل ينافق ، يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ، ومن روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشىء : (دون كيشوت) جديد يطعن فى الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص ، وينكر أن يكون قد قرأ شيئا من هذه الافكار ، ثم — وهو الأهم — هذا الرجل مريب :

(١) فطبيعة المتدين — غالبا — طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة ، المولدة للابداع (ولنرجع فنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين ، والتوفيق بين الروحين : روح الدين وروح العمل للحياة) . هكذا طبيعة المتدين غالبا — طبيعة فاترة فاقدة للحرارة الخ . ثم الدين نفسه لا ذنب له وأمثاله فى كل موضع كثير ، والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين ، فهو دائما ضد العنصر الأخلاقى ، يراه قيداً معجزا وضعفا زريا ، ثم يتوارى بعد هنيهة وينكر ما تنطق به النصوص

هذا رجل تنقصه الجرءة على أن يقول ما يريد أن يقول ، وإذن فلا حرية فكر ولا خطر على حرية فكر ، انما هى دعوة خبيثة ملتوية ضد الدين ، وبخاصة الاسلام ، وضد الروح الخلقية فى النفس والضمير

(٢) مَن مِن الشعوب الاسلامية الآن يكتفى فى مجاهدة الغربيين بالدعاء بان يحرق الله بيوتهم وييتم أطفالهم الخ : قد تكون هذه بعض دعوات المنابر التقليدية ولكن الشعوب هذه تجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها فى كل مكان ، ولكن المخالف لا يرى فى المسلمين إلا هؤلاء الداعين على بعض

المنابر ، ويجيء بكتابه ليقول : انكم جميعا أخطأتم الطريق باقتصاركم على هـذا الدعاء .

هكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين (دون كيشوت) : يطعن فى الهواء وينازل الاشباح ويحارب الافكار التى حاربها الزمن منذ خمسين عاما أو تزيد

(٣) وفصل ضخم هو أحسن فصول الكتاب عن الايمان بالانسان ، وهو عنوان كتاب الاستاذ عبد المنعم خلاف ، ولا يشك إنسان أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعا كاملا ، وليس فى هذا من حرج ، ولكن الرجل حينما سمع منى اسم الكتاب أبدى أنه لم يسمع به أصلا . لم احترم هذا التجاهل ، لانه ليس سمة الباحثين المخلصين

(٤) « نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هـذا الغزو المحيط الماحق ، الغزو الصهيونى ، مع أنهما هما الخصمان . اننا ندع أنفسنا كثيرا ونضللها حينما نظن أن فى حولنا ـ لو تخلت هاتان الدولتان ـ أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمادية والفكرية ، أما نحن فنكاد نكون مجرّدين من كل ذلك » . واذن فعلينا أن نبدأ فى الاستعداد لحماية أنفسنا والى أن نستعد يجب أن نحافظ على بقاء قوة انجلترا بجانبنا لتحمينا من الغزو الصهيونى (هنا رائحة مّا)

هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما ، انه رجل يعرف طريقه جدا ، فلا داعى للخوف الشديد ، وعلى أن الاسطوانة التى أديرت على أذنى أديرت على آذان الكثيرين ، واستنهضت بها أريحية الكثيرين ، وقد تحمس الاستاذ اسماعيل مظهر فكتب كلمة قوية فى الكتلة عن الكتاب (انا واثق انه لم يقرأه الى نهايته ، وإلا فلن تفوت فطنة الاستاذ اسماعيل أن تتبين فى ثنايا الكتاب شيئا غير نظيف) . وكنت بعد هذا كله على نية أن أسكت ، لولا أنى وجدت بدء ضجة مفتعلة تعطى الكتاب أكثر من

قيمته ، وتصور المسألة على غير صورتها . ولا بد من أن الأستاذ السوادى وانا أعرف أريحيته قد تأثر بالاسطوانة المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأى المهددة بالشنق . لقد كنت على استعداد أن أدافع عن حرية الرأى المخالف لو وجدت شيئا ذا قيمة ، ولو وجدت ايمانا حقيقيا بفكرة ، ثم لو لم أشم هنا وهناك رائحة بشىء مّا ، شىء غير نظيف » . انتهى

وقال الشيخ الفاضل الاستاذ محمد عبد الظاهر ابو السمح إمام وخطيب الحرم المكى فى كتابه حياة القلوب (ص ٩٣ الطبعة الثانية) : والملحدون فى كل أمة متدينة دعاة فتنة وقادة همجية ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فهم بلاء الشعوب ووباء الانسانية ومرضها وعلة الاجتماع ، ولا شفاء للأمم منهم إلا بضرب أعناقهم واستئصال شأفتهم ، وملحد الأغلال بزّهم فى البهتان ، والكذب على الله والقرآن . فالقرآن يدعو الى الايمان والأعمال الصالحة ، والى العلوم والمعارف ـ الى أن قال ـ وقد قلنا فيه وفى أمثاله هذه القصيدة :

(الى صاحب الاغلال)

مدحتك يا أخا الأغلال قبلا ... بما ألفت من سفر الصراع
وأما الآن فاسمع من قوافى ... هجائك مهلكات كالافاعى
تساور مارقا يدعو لكفر ... تردّى فى الثرى بعد ارتفاع
عزوت الى الشرائع كل نقص ... ومنك النقص فى كل المساعى
وقلت الدين أخر تابعيه ... وهذا قول أحمق لا يراعى
أتنكر دين خير الخلق طرا ... وتاريخا تواتر بالسماع
أتنكر يا غوىّ قرون صدق ... سموا بالدين فى كل البقاع
أما ملكوا الورى فى كل قطر ... بدينهم القويم والاتباع
أهذا الدين أخر تابعيه ... وهذا الدين من رب مطاع
فقل لى يا أخا الاغلال واصدق ... أكذب منك أم قصر اطلاع
جنون منك أن تدعو لكفر ... وتؤثره بمنزور المتاع

تبيع الدين بالدنيا غرورا … لتشهر بين أوباش رعاع
أما دك الصحابةُ كل عرش … بهذا الدين من بعد القلاع
فسل ان كنت لم تعلم وإلا … فدار الجهل يابن بنى لكاع
أيابلعام عصرك أى أرض … تقلك والأنام عليك داع
وقد بارزت رب العرش جهلا … لكفر فيك أو لؤم الطباع
فمن يحميك من رب غيور … شديد البطش ذى أمر مطاع
أما والله ان الدين عزّ … لمن والاه حقا باتباع
وليس الذنب ذنب الدين لكن … ذنوب الجاهلين بالابتداع
لقد أسرفت فى الأغلال حتى … سقطت وكنت طلاع التلاع
وقد والله أشمت الأعادى … بلا سبب لديك ولا دواع
فبين بالأدلة اى غل … أتى فى الدين عقل أو سماع
وفى التنزيل أم سنن صحاح … نهاك الله عن حسن اختراع
تحبذ فعل افرنج تولوا … عن الاديان والرب المطاع
وتهوى أن تعيش الناس فوضى … كأنعام تسافد فى المراعى
وتدعو للتبرج كل أنثى … بلا خجل لديك ولا ارتداع
أتدعو للجهالة بعد علم … وللفحشاء والنكر المشاع
أيعجبك الفرنج وهم وحوش … وما للخير عندهم دواع
فما يرجون من رب ثوابا … ولا يخشون كالابل الرتاع
ويوم الحرب عندهم جحيم … تصب على الأكابر والرعاع
على الاطفال والضعفاء تترى … بلا رفق أضر من السباع
ولولا الشرق فى نوم عميق … لما نعم العلوج بذا المتاع
فأبشر يا غوىّ بكل خزى … وما تلقاه من صفع اليراع
ستندم يوم تجزى كل نفس … بما عملت لدى نشر الرقاع

أتذكر يوم كنت حليف فقر وقمل فى ثيابك واللفاع [1]
فلما أن حباك الله ما لا لتشكره بقدر المستطاع
بطرت وقمت للرحمن حربا بلا خجل لديك ولا قناع
خسرت الدين والدنيا جميعا وما لك فى القيامة من دفاع
فتب لله قبل الموت واصدق ودع ما قد نسجت من الخداع
نصحتك أن قبلت اليوم نصحى وان تعرض فاعلان الوداع
ويوم الحشر يندم كل باغ ويلقى ما جنى صاعا بصاع
وان متعت أياما قصارا فما الدنيا الغرور سوى متاع

وقال أيضا مرفوعة الى الملحد الدجال :

قولوا لهذا الملحد الدجال أحبطت ما قدمت من أعمال
وسببت دين الله يا شر الورى وأطعت كل مضلل دجال
وتقول ان الدين أخر أهله ثكلتك أمك من جهول قال
أو لم تر الاسلام قدّم أهله فى سالف الأزمان والأجيال
وشهادة التاريخ والسير التى تتلى وما تخفى على الأطفال
وكتابه الشافى لكل جهالة يدعو الى الاحسان والاعمال
ويبصّر العميان اذ يهدى الى سبل الحياة بأبلغ الاقوال
يا عائب الدين الحنيف بجهله وبأنه كسلاسل الاغلال

---

(١) مقصوده من هذا التذكير أنه قد كان من الواجب عليك أن تشكر الله على نعمه التى متعك بها بعد أن كنت على تلك الحالة طريدا شريدا ، وتبذل جهدك فى الدعوة اليه والى دينه ، ولكن عكست ذلك فبدلت نعمة الله كفرا . والتذكير بهذا أمر مشروع كما فى الآيات والأحاديث . وما أحسن ما قيل فى مثله :

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء عنك مساويا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

هات الأدلة يا جهول بنصها ... واذكر لنا دعواك بالأمثال
الدين قال الله قال رسوله ... لا قول مبتدع وفعل ضلال
ما أنت إلا ناقل ومقلد ... للملحدين شراهة فى المال
قد بعت دينك تبتغى الدنيا به ... وستبتلى بالفقر والاذلال
ومن الغباوة والضلالة زعمه ... أن الألى فضحوه فى الاغلال
حسدوه ما ادرى لأى فضيلة ... ألأنه أربى على الضلال (١)
وأتى بما أعيي الأوائل قبله ... من كل سخف مضحك وخبال

الى أن قال :

فاربأ بنفسك أن تحارب قادرا ... يرميك فى النيران بالأغلال
وارجع الى الاسلام والعرب الألى ... نصروه بالأرواح والأموال
ولم الكسالى ان أردت ملامة ... فالذنب ذنبهم بغير جدال
شهدت له الافرنج عن علم به ... من بعد بحث دائم وسؤال
دين يحث على الفضيلة والتقى ... وعلى العلوم ونيل كل كمال
يرميه بالبهتان أخرق أحمق ... أعمى جهول خائب الآمال
حقا لقد هزلت وقام يسومها ... نذل غبى غافل متغال
أرضيتمُ يا مسلمون بسبكم ... وبسبّ دينكم القويم الغالى
أين الشهامة والشجاعة أين غيـ ... ـرتكم على الاسلام فى ذى الحال

وقد ردّ عليه كثير من العلماء نظما ونثرا (٢) وكلامهم فى ذلك كثير مشهور

---

(١) لما انكشف أمره وقام العلماء ضده ادعى أنهم حسدوه كما قال أسلافه من المنافقين ﴿ بل تحسدوننا ﴾ ولم لم يحسدوك على كتبك السابقة وهى أكبر منه ، بل مدحوك عليها ، فهؤلاء الذين تدعى أنهم حسدوك هم الذين قاموا معك فى الدفاع عنك ومساعدتك فى كل شيء قبل هذا الكتاب

(٢) للشيخ الفاضل محمد حمزة عبد الرزاق مجلد لطيف فى الرد عليه

الامر الثالث : أن من تأمل كتابه حقيقة التأمل علم بلا أدنى ريب أنه ليس فيه دعاية صحيحة نافعة لا قليلة ولا كثيرة ، لا حثّ على عمل ولا غيره ، مع ما فيه من الكفر ومحاربة الأديان ، غاية ما يروج على بعض الناس فى بعض كلامه هو ذلك الاسهاب والاطناب فى مدح العلم مطلقا بدون تعيين مسماه والثناء عليه وذم الجهل مطلقا والنهى عنه . ومعلوم أن أدنى عامى فضلا عن غيره لا يمدح الجهل ويذم العلم بهذا الاطلاق ولا يقرّ بان ما هو عليه جهل وأنه يكره العلم . وليس الشأن فى مدح العلم وذم الجهل هنا ، فان هذه قضايا مفروغ منها عند الخاص والعام ، فكل الناس اليوم وقبل اليوم يمدحون العلم ويذمون الجهل ، ولكن الشأن فى بيان العلم الممدوح وما يراد به والجهل المذموم وما يراد به ، فان العلوم وموضوعاتها أكثر من أن تحصر ، وكذلك الجهل . وكل ذى عقل يتدبر كلامه يعلم أنه يريد بالعلم الذى يدعو اليه أشنع ضروب الجهل ، ويريد بالجهل الذى يحذر منه أعلى العلوم وأرفعها على الاطلاق وهو علم أصول الدين كما يأتى تفصيل ذلك . وليس بعجيب أن يعمد إنسان الى أوراق فارغة مهما بلغت فى الضخامة والكثرة فيحشوها من مدح العلم والصحة والعافية والاستقلال والمجد والسيادة والسعادة وحب الجمال ، ويذم فيها الجهالة والمرض والجوع والضعف والخرافات والاباطيل والجنون ، فان هذه كلها قضايا كلية قد عرف الناس كلهم ما يمدح منها وما يذم ، فلو أنه أضاف الى ذلك بيان أن الشمس ساطعة مشرقة وأن الليل أسود حالك وأن النار حارة يابسة والماء بارد رطب وأن السماء فوق الأرض وأطال فى ذلك لكان من جنس ما قرره فى تلك القضايا سواء بسواء ، فان معرفة الناس بضرر الجوع والمرض وحسن الصحة والعافية ونحو ذلك من جنس معرفتهم بضياء النهار وظلمة الليل ، انما الشيء المطلوب الذى يجب معرفته وإيضاحه هو بيان الطرق العلمية الصحيحة النيرة التى يتوصل بها الى المطالب الصحيحة المقصودة والاهداف الغائية ، وبيان العوارض والموانع التى تعترض فيها فتفسدها أو

تعمّيها ، بمقدمات صادقة وبراهين معقولة ، ثم عرض ذلك على العقول لتعرفها وتحكم فيها . أما حشو الكتب بالتهكم والاستهزاء والسخرية والسباب والاتهام والترهات والرعونات التى لا تحصى فليس ذلك من التحقيق فى شىء ، بل هو دليل واضح على ضعف عقلية من سلك هذه الطريق ، ولولا الضجة التى قامت حول هذا الكتاب لكان كاحدى تلك الآراء الأخرى المنبوذة المجهولة ولم يلتفت اليه أحد لظهور هجنته وقباحته ، ولكن صارت شناعته واشاعته وشذوذه ومخالفته سببا فى انتشاره والاطلاع عليه على حد قول القائل « خالف لتذكر » . والناس فى أمره أصناف منهم من يعلم أنه دعاية الحادية لا ريب فيها ، ولكن لا يهمه ذلك[١] . وصنف كذلك يراه دعاية ضد الدين فى الحث على رفضه ، ولكن يؤسفهم ذلك أشد الاسف . وصنف آخر وهو الأهمّ وهؤلاء منهم من اذا كان راضيا على الانسان موافقا له فى شىء ما من أمور الدنيا لم يعبأ بما يصدر عن هذا الانسان مما يمسّ بالدين ولم يبحث عن ذلك سواء فهمه أو لم يفهمه ، بل ربما كاف نفسه العماية والتغافل عن هذه الأمور الدينية مرتئيا أن ذلك أسلم له . وفريق من هؤلاء ينشأون فى بيئة وبيئة من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات ، فلكثرة احتكاكهم بأهل هذه الأمراض المتنوعة المختلفة وتأثرهم بهذه العالل ضعف احساسهم وشعورهم الدينى فأصيبوا بضعف البصيرة والبلادة المنكرة فنشأ عن ذلك ذهاب عظمة الدين من قلوبهم واحترامه وإجلاله ، والبعد كل البعد عن كل لفظ يمس أدنى ناحية من شرفه ، بل صار الدين عند هؤلاء ليس له قيمة كبيرة بالنسبة الى بعض الامور الدنيوية سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، بل متى وجدوا كلاما يقدح فيه التمسوا لقائله تلك المعاذير الواهية وارتكبوا فى تأويل كلامه ما هو أشدّ المحال . ومن العجب أن بعض هؤلاء لو وجد أحد منهم رجلا - ولو كان عفيفا - فى بيته أو مع أهله فى حالة منكرة جدا فادعى هذا الرجل انه ما دخل البيت الا ليصلح أمور البيت أو من فى البيت لكذبه ولم يقبل منه أى

---

(١) لأنه لا يهمه من أمر الدين شىء

عذر أو تأويل ، ولم يلتفت إلى ذلك بل يجزم بكذبه بل يرى ان تصديقه عين الغباوة والعار الشنيع والجنون لأن ادعاءه يناقض ظاهر الحال ، ومع ذلك تجده يرى رجلا يهجم على حرمة الدين ويكتب النصوص الواضحة التى لو كتبها أكفر يهودى ثم اعتذر عنها لضحك الناس من عذره ، فينتهك حرمات دين الله ثم يصدّقه فى خداعه أو يشك فى صدقه . لماذا فعل هذا هنا وتركه هناك ، فعله من أجل أن حرمة الدين ليست بأمر كبير عنده تساوى متاع بيته أو حرمة بيته أو جاهه أو شرفه ، فغيرته على دينه قد انطفأت فى تلك البيئة الفاسدة أو غيرها حتى ضعف شعوره وإحساسه بما يجرح دينه ويقدح فيه (١) . أو فريق من هؤلاء ياتى باعذار متناقضة لا يعمل بمقتضاها ، فيقول مثلا ان التكفير والتضليل أمر ليس بالسهل ولا بالأمر الهين ، فلا يمكن الوصول اليه الا بكيت وكيت . ويا ليت هؤلاء صدقوا فى هذا الادعاء وتركوا التكفير تدينا محضا ولم يتناقضوا فيه ، فنحن نقول لهم الأمر أعظم والله مما ذكرتم ، ولكن لو أنكم عرفتم عظمة الدين وعظمة احترامه وجلالته وجلالة منزله ومنزلته وأنه شرع الله ونظامه الذى قامت عليه السموات والارض وخلق لاجله الوجود وأرسل من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب ، ووازنتم بين عظمته فى نفسه وعظمته عند الله وبين تكفيركم لمن قدح فيه وسبه لعلمتم حينئذ حكم التكفير ، ولكنكم حكمتم بعظمة التكفير من غير أن تعرفوا حدود موضوعات ما حكمتم فيه ، وبمقدار ما خف أمره فى قلوبكم ثقل عليكم تكفير من تعرض له ، ولو علمتم أن قوما من الذين غزوا الروم مع النبى ﷺ كفروا بسبب كلمات قالوها على وجه المزح واللعب كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم﴾ الآية لعرفتم مقدار فكرتكم هذه . ثم اننا قد رأيناكم أعظم الناس ثورة وهياجا حينما ينال أحداً منكم شىء فى أعراضكم أو

---

(١) وليست الخيانة فى الدين باقل من الخيانة فى المحارم أو الوطن ، بل هى أشنع منها ، فما باله تساهل هنا واشتد هناك ، أليس ذلك من ضعف حرمة الدين فى قلبه

سياستكم أو اموالكم أو محارمكم فتشتمون وتلعنون بل وتكفرون وتفعلون من المجازفات فى الألفاظ والرسائل والاحكام مالا يسوغ فى العقل والدين ، أما حق الله فى دينه فانه دون ذلك لديكم . ثم ان عدم التكفير فى العظمة والخطورة والحرمة من جنس التكفير سواء فى الاثم ، فان من لم يكفر الكافر فهو كافر بالنص والاجماع ، وقد قال العلامة المحقق عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن [1] « اعلم أن من تصوّر حقيقة أى شىء على ما هو عليه فى الخارج وعرف ما هيته بأوصافها الخاصة عرف ضرورة ما يناقضه ويضاده ، وانما يقع الخفاء بلبس احدى الحقيقتين أو بجهل كلا الماهيتين ، ومع انتفاء ذلك وحصول التصور التام لهما لا يخفى ولا يلتبس أحدهما بالآخر ، وكم هلك بسبب قصور العلم وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة » انتهى . ولا شك أن من لم تحل عظمة الدين واحترامه قلبه ولم يتصوره تصوراً صحيحا فانه لا يعرف مضاده . ويجب أن يعلم أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان سواء بسواء ، فنسبة أمراض الأبدان واختلافها بالخفة والشدة كنسبة أمراض القلوب بالخفة والشدة ، فالالحاد للقلب كالجذام للبدن ، وهكذا الامراض فكما أنها تضر بالبدن وتعدى وأكثر ما يكون تأثيرها فى الاجساد الرديئة الضعيفة المزاج لعدم قوة الحياة المادية المقاومة لها فكذلك أمراض الالحاد والكفر أكثر ما يكون تأثيرها فى القلوب التى ضعفت حياتها الدينية الصحيحة القوية التى تضاد هذه الأمراض وتدفعها دفعا عنيفا . ومعلوم أنه بقدر ما يكون فى القلب من حب الدين والشرع يكون فيه من الحياة والصحة والقوة الدافعة لما يضادها ، وبمقدار ما يكون من ضعفها فيه يكون مقدار تأثير تلك الأمراض فيه . واذا عرفت هذه القاعدة هان عليك معرفة سرعة ادبار الدين وهان عليك معرفة سرعة سريان الالحاد والفلسفة فى الأمم التى ليس معها دين صحيح فان سريان أمراض الوباء الخبيث فى الاجسام القابلة له أعظم من انتشار الصحة فيها ، وهذا ظاهر لمن تأمله

(١) فى كتابه (الرد على ابن جرجيس) ص٧

الكلام على المبحث الثانى

قال الملحد :

« لقد كفروا بالانسان — الايمان به أول

العلم للرحمن جلّ جلاله — وسواه فى غمراته يتقمقم
ما للتراب وللعلوم وإنما — يسعى ليعلم أنه لا يعلم
(الزمخشرى)

نهاية إقدام العقول عُقالُ — وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
(الرازى المفسر)

فيك يا أغلوطة الفكر — حار أمرى وانقضى عُمُرى
سافرت فيك العقول فما — ربحت الا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا — أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذى ذكروا — خارج عن طاقة البشر
(ابن ابى الحديد المعتزلى)

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر — على ذقن أو قارعاً سنّ نادم
(الآمدى المتفلسف)

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين الى مكان ّما فى دولة ّما للقيام بالبحث عن النفط ، وبعد القيام بالاختبارات اللازمة الأولية نفضوا أيديهم قائلين انه لا يوجد نفط فى ذلك المكان ، وان وجد فمقادير ضئيلة لا توازى التكاليف والنفقات ، فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاه . ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها الى المكان نفسه للغرض نفسه فى الدولة نفسها فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون ، فأسرعت تلك الشركة الى شراء تلك

الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد ، ووضعت لها ولهم شروطا اتفقوا عليها ، فبدأت اعمالها وأخرجت الكنوز ، فأفادت هي وأفادت البلاد وازدادت بذلك الثروة العالمية العامة ، والتفت العالم لذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد ان كان في حساب النسيان والاهمال

هذه حادثة سقناها لنقول : إن الانسانية في نظرها الى نفسها والى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين في اختلاف رأيهم في وجود النفط وفي اختلاف النتائج التي تلزم كلا من الرأيين والنظرين ، ففريق من الانسانية بل أمم وشعوب ينظرون الى أنفسهم نظر خبراء الشركة الاولى اليائسين من الحصول على النفط في ذلك الموضع ، أي ينظرون الى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة ، واستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية ، بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدبين وسيبقون ؟ ' ك ضعفاء مجدبين ما بقوا ، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يـ ـوا طورهم ولن يقدموا نفطا ولا غيره ، فلا يحاولون القيام بعمل مّا لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده ، فيظلون كما يظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا ياتون بشيء ، ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الانسانية ، ولا يضيفون الى ثرواتها المختلفة قليلا ولا كثيرا .

أما الافراد الآخرون وشعوب أخرى فينظرون الى نفسهم نظر خبراء الشركة الاخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب استنباطه ، فيرون وهم ينظرون إلى أنفسهم أنهم حريون بالاستثمار والاستغلال ، وأن مواهبهم الطبيعية حرية بان تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية ، فينشطون الى العمل ، ويأخذون بكل الوسائل فيصبحون ما شاءوا مجدا وضخامة شأن ، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية » انتهى

والجواب أن يقال : أما الأبيات التي ساقها أول هذا المبحث فيأتي الاعتراض عليه عند اعتراضه عليها ، وأما هذه الجملة التمثيلية التي ذكرها

مصدراً بها هذا المبحث فهى جملة لا تنطبق على ما يقصده وما يريده ، فلا التمثيل مطابق لما قصده ، ولا التفريع عليه مستقيم على ما أراده ، كما يظهر ذلك من وجوه :

أحدها أنه مثل وجود المواهب فى جنس الانسان بوجود النفط فى جنس الارض ، ثم حث على وجوب الجزم والاعتقاد على وجودها فى جميع جنس الانسان ، ومعلوم أن هذا من أفسد التمثيل ، فان كثيراً من الآرض لا يوجد فيه نفط ، وأكثر المواضع الموجود فيها قليل لا يوازى النفقات ، ولو أن رجلا حث الناس على الجزم بوجود النفط فى جميع بقاع الارض ، وأفهمهم أن يعتقدوا أن كل موضع فيه نفط بلا تردد وأن عليهم أن يستخرجوه لعدّ من أضل الناس وأسفههم رأيا ، ولو أن له عقلا لعلم أن هذا المثل منعكس عليه ، فان النفط لا يخرجه الا القادر عليه العالم به من موضع منفصل عنه لا من نفسه ، ولا تخرجه الارض بنفسها وذاتها بل يخرجه من هو منفصل عنها مستقل بنفسه ، ولا يخرجه أيضا العاجز عن معرفته بل يطاب العالم به ان يعلمه وأن يعينه على استخراجه كما لا يطاب من الارض أن تستخرجه بنفسها ولا يعتمد على نفسه فى استخراجه بدون تعلم ممن هو عالم به

الوجه الثانى أن تشبيه المواهب والاستعدادات بمعادن الارض كلها أولى من تشبيهها بالنفط فقط ، لتشمل القلة والكثرة والطيب والخبيث والجيد والردىء والنفيس والوضيع ، فإن هذا أقرب الى الواقع ، فان الذهب والفضة والفحم الحجرى والكبريت والنحاس وسائر المعادن من جنسه وكلها تختلف بالقلة والكثرة والطيب والخبث وسهولة الاستخراج وصعوبته فما وجه التخصص بالنفط مع وجود غيره ، وهل يقول ان المواهب كذلك فى كل الامم والشعوب أو فى أمة دون أمة [1]

---

(١) وهذا يحتاج الى تفصيل آخر

الوجه الثالث أن المسلمين لم ينكروا وجود المواهب والاستعدادات على ما يقتضيه العقل والشرع ، ولكن ينكرون ما يدعيه هو وأمثاله أن فيهم مواهب واستعدادا للكمال المطلق ، وأن مواهبهم متفقه حتما كما فى التمثيل

الرابع أنه تناقض فى هذا التمثيل نفسه فانه مدح الأفراد والأمم التى تجزم بوجود المواهب والاستعداد وتعتمد عليها وتجزم بوجود النفط ، وذكر فى هذا المثل أن الخبراء الأولين لم يجزموا بان فى هذا الموضع نفطا ، وان وجد فمقادير ضئيلة ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من الأمم الراقية المؤمنة بوجود المواهب والاستعدادات فى الانسان ، ولكنهم علموا أن المجازفة فى هذا الايمان خطأ ، وأنه لا يجوز الاقدام على الجزم حتى تظهر علامات صحيحة توجبه فى النوع المعين لا فى الجنس العام ، كما لا يجب الجزم بوجود الذهب والفضة وغيرها فى كل مكان مالم تدل على ذلك دلالات صادقة بالكم والكيف

الخامس أنه نقض هذه الدعوى كلها برمتها أيضا فى هذا المبحث نفسه ، فانه ادعى فى ما يأتى أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم لو ترك وطبعه بدون تعلم لنشأ على الظلم والخبث والعدوان المطلق ، فكيف يدّعى هنا صريحا أنه بطبعه مستعد للمواهب والاستعدادات الطيبة التى هى العلم والعبقرية ، وهناك يدعى أنه بطبعه وسجيته ولد على الخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط

السادس أن المواهب والاستعدادات فى الانسان كثيرة فروعها ، فبعض من الناس مستعد لعلوم شتى وبعضهم لمعرفة شىء دون شىء ، لهذا تفرقوا فى العلوم والمعارف الدينية والدنيوية على كثرة فنونهما . ولو أن انسانا مثل بوجود هذا النفط بالفطرة واستعدادها للدين ، وأن فى الانسان قدرة واستعدادا تاما لمعرفة الدين والقيام به ، وأن وجود الدين الذى هو النور الساطع القوى بين الناس كوجود هذا النفط الذى يصدر منه نور وقوة ، وأن غفلتهم وجهلهم به كجهلهم بوجوده فى هذه الأرض ، فبعض من الناس ينظرون

الى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط فى معرفته والأخذ به على وجهه فيظنون أنه ليس ثم دين صحيح يكمن فيه النبوغ والعبقرية والكنوز النفيسة التى لا تنفد ، بل يرون كما يرى هذا الرجل وغيره من الملاحدة أنهم خلقوا مجدبين من هذه الكنوز السماوية ، مجدبين من هذه الناحية الدينية ، فلا دين صحيح يوجد فى الارض ولا نفوس قابلة للاخذ به واعتماده ، ولا شك أن هؤلاء سيبقون كذلك مجدبين ، وقد بقوا كما ظنوا فقراء مجدبين منه فلن يعدوا ظنهم ، فظنهم هو الذى أرداهم فأصبحوا خاسرين ، فانهم لم يحاولوا عملا ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده فلا يأتون بشىء فى هذا العمل ولا يرشدون غيرهم للتوجيه اليه والحرص على اخراجه ، بل يصدون عنه ويزرعون الياس والقنوط فى نفوس غيرهم منه ، فيقفون فى وجه الانسانية عن الوصول الى هـــذا النور والروح الكفيلين بالنجاح والنجاة . وهؤلاء بخلاف البعض الآخر - كالصدر الأول - فانهم نظروا الى هذه الكنوز السماوية التى هى مصدر النور والروح فحرصوا على استعمالها والعمل بها ، فكانوا كما شاءوا عزا وارتفاعا وسيادة . لو أن أحدا مثل بهذا لم يكن قوله ببعيد من الصواب ، ولم يكن عند هذا المعارض ما يبطله

فتبين لك من هذه الوجوه المسفرة عن هذه الفروق الواضحه أن ما ذكره فى هذه الجملة المظلمة باطل لا يصح فى النظر والعقل أن يبنى عليه فى هـــذه المسألة ، فانه يريد أن يبنى على هذا التمثيل أن جنس الانسان مستعد للكمال كما صرح بذلك ، وأن هذا الاستعداد كامن فى طبيعته كمون هذا النفط فى هذه الارض ، وأن الناس فى معرفة هذا الاستعداد كهؤلاء الخبراء فى الاختلاف فى الرأى ، وأن الذين جزموا بوجود النفط فى هذه الأرض أصابوا فيجب أن يصيب من جزم بأن فى جنس الانسان استعداداً للكمال . وقد ظهر لك بطلان هذا التمثيل الأهوج ، وببطلانه يظهر بطلان القياس الذى ادعاه عليه ، فان غاية ما فى ذلك أن هؤلاء الخبراء الأولين الذين نفضوا أيديهم غلطوا فى

معرفة مقداره فى الكفاءة فظنوا أنه كان قليلا لا يوازى تكاليف النفقات ، والآخرون أصاب ظنهم فيه ، وليس هذا خاصا بالنفط دون غيره من سائر المعادن وغيرها ، فان هذه الأشياء ليس كل من خاطر فيها يصيب نجاحا ، ولو كان ذلك كذلك لخاطر الخبراء الأولون وغيرهم فى كل معدن ، وهذا باطل لا يقول به احد . ثم ان هـذا النفط الذى يشير اليه قد حفظه الله تعالى للوقت الذى يناسب بعثه فيه لأقرب الناس اليوم تمسكا بالأخـلاق الدينية فى أحرج وقت وأشد حاجة اليه (١) لما علم الله سبحانه أن بهم قصورا فى الاعمال المادية وكان معهم بعض الأعمال الدينية الصحيحة فأخرج لهم هـذا تعويضا لما فاتهم من ذلك القصور ، وليكون اعانة لهم على اقامة دينهم حيث كانوا من الناحية الدينية مستمسكين بأصولها ، فانه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وقد قلنا فيما سبق إن الله سبحانه سخر ما فى السموات وما فى الارض لعباده ليعملوا بطاعته التى هى الأعمال الصالحة ، فمن عمل بذلك استثمر منافع هذا الكون بأعماله الدينية وما يتفرّع عنها من الأعمـال الدنيوية ، ومن رفض الأعمـال الصالحة وقطع ما أمر الله به أن يوصل من الطرق الشرعية ، فأتى الامر معكوسا من غير بابه عكس قصده ، حرم هذه المنافع إما بتاتا وإما نفعا صحيحا مستمرا ، وهذا ظاهر ، فيكون ما ادعاه حجة عليه

أما الكمال الذى يدعيه ويريده فأن نقول ان للانسان الذى عمـل صالحا النصيب الوافر منه على حسب عمله ، وهو الكمال الممكن فى حق الانسان ، لا الكمال المطلق ، فان الله سبحانه وتعالى هو المختص بالكمال المطلق الذى لا غاية فوقه ، أما عباده فان نقصهم عن الكمال نقص ذاتى طبيعى ملازم لهم مشاهـد محسوس فان كل واحد منهم مفتقر فى كل لحظة الى شىء خـارج عن ذاته (٢)

---

(١) يتبين هذا متى تصور الانسان ان لو وجد قبل هذا الوقت ، أو لم يوجد فى هذا الوقت

(٢) كالنفـس فانه افتقار الى الهواء

فهو مفتقر الى غيره ، والقول فى غيره من المخلوقات كالقول فيه لان كل فرد فيها مفتقر الى غيره ، وهكذا جميع أفراد المخلوقات فانها مفتقرة افتقاراً ذاتيا محسوسا ، ولا بد أن ينتهى هـذا الافتقـار الى امور غيبية فوق قدرة البشر لعجز الجملة عن تكميل بعضها ببعض العجز المشاهد المحسوس ، وجملة العالم هى الهيئة الاجتماعية ، فتكون هذه الجملة مفتقرة الى الأفراد لأنها مركبة منها فهى مفتقرة الى مفتقر ، لأن الأفراد -كما ذكرنا- مفتقرة افتقارا مشاهدا محسوسا ، فكان الافتقار من الكل ثابتا بالضرورة الى ما هو خارج عن الجملة المجموعة من الافراد ، ويجب ان يكون ذلك الغير غنيا لذاته كاملا لذاته من كل الوجوه مخالفا للجملة من كل وجه ، اذ لو لم يكن كذلك فالقول فيه كالقول فيها فيلزم التسلسل الى غير نهاية وهو باطل ببداهة العقل والاتفاق ، واذا كان مخالفا لها من كل الوجوه لزم أن يخالفها فى الكمال ، ولزم أن يخالفها فى التعليل ، فلا يعلل وجوده بشىء اذ التعليل فرع عن الافتقار وفرع عن وجود النقص ومعرفته ، فلو علل لكان مثلها ، فلما خالفها من كل وجه لزم أن يخالفها فى التعليل لانه من جملة الوجوه التى نشأت من معرفة النقص ، فالوضع الذاتى للجملة على هذا الوجه برهان على تعليلها ، وتعليلها برهان على أن لا يعلل هو ، أى برهان على بطلان تعليل وجوده والا لزم الدور والتسلسل وهو باطل ، ولو لم يبطل لزم فساد العقل والسفسطة لان العقل له حد ينتهى اليه من الضرورة والبداهـة ، والخروج وراء هذا يوقع فى السفسطة فلا يعتد به باتفاق ، فالله سبحانه هو المختص بصفات الكمال المطلق فى جميع صفاته وأفعـــاله ، وأما خلقه فالنقص عن الكمال أمر لازم لهم ، فانهم مخلوقون مربوبون ، والمخلوق المربوب لا بد أن يكون ناقصا عمن خلقه وأبدعه ، والله سبحانه وتعالى قسم عباده الى صالح وطالح ، فالطالح قد فسد طبعه أى فطرته فسادا نهائيا ، فكان غير قابل للصلاحية أصلا كما قال تعالى ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم

عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فالكافر والمنافق الذى كتب عليه الشقاء الأبدى قد فسد استعداده للهداية وموجباتها من السعادة والنعيم لأنه باختياره افسد فطرته بترك ما جاءه من النور السماوى الذى يصلحها ويزكيها ويقوّيها باعطائها الحياة الصحيحة ، فهو الذى جرّ على نفسه البلاء باختياره فعوقب بالختم والطبع والأغلال والأقفال كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ فالكافر والمنافق خبيث باطنا وظاهرا ، ومعلوم أن الخبيث ضد الطيب فلا يمكن أن يلائمه الا ما يناسبه من كل شيء ، وأما الصالح فالله سبحانه قد جعل نفسه طيبة وأخلاقه طيبه وآراءه وأفكاره طيبة فهو طيب باطنا وظاهرا ، ففطرته التى هى المواهب والاستعدادات ثابته قوية على أصلها ، وقد استمد بها من الدين أى الايمان والعمل الصالح ما جعلها قوية صحيحة ، فكان على نور من ربه ، فهو كالارض الطيبة التى كلها خير وبركة

ومما ينبغى معرفته هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الوجود كله من العدم فهو ناقص مظلم ، فافاض عليهم أثرا من آثار رحمته الكريمة التى وسعت كل شيء ، فكل موجود لا بد أن يصيبه نصيبه من هذا الأثر ، فجميع ما فى العالم من فرح وسرور ولذّة ونعمة وعلم وعدل وحكمة فهو من آثار رحمته ، وجميع ما يصيبه من الشر فهو من نفسه الناقصة بالأصل (١) فقد حصل لكل مخلوق من هذه المخلوقات قسطه من هذه الرحمة كما حصل له قسطه من النقص الذى هو الشر بعينه فالنقائص سلوب والفضائل كماليات أنعم الله بها على عباده ، فمنهم من يكون حظه من الرحمة فى دينه ونصيبه من النقص فى دنياه ، إما فى خصلة واحدة أو فى خصال كثيرة ، ومنهم من يكون نصيبه

---

(١) كما قال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾

بالعكس ومنهم من يكون نصيبه من الرحمة فى ماله ومنهم من يكون نصيبه فى حاله أو فى صوته أو فى صورته أو فى حواسه أو فى كلامه ، ويكون النقص فى أخلاق أخرى ، ومنهم من يكون نصيبه موزعا فى أخلاقه ولكن لا بد أن يكون له نصيب فى شىء مّا ، واذا اشتد النقص فى خصلة فلا بد أن يكون هناك ما يقابلها غالبا من نصيب الرحمة . ومن لطفه سبحانه أنه لم يحرم نوعا واحدا من جميع مخلوقاته من هذا الاثر العظيم ، فكلها قد شملها هذا الفضل الالهى ، فمن ذلك أنك تجد كل مخلوق من هذه الحيوانات قد أعطى من هذا الاثر خلقين خلق يستحصل به لذّته وسعادته وخلق يتقى به الضرر من عدوه غالبا ، إما فى ذاته كالوحوش أو خارجا عنها كالانعام . ثم انه سبحانه جدد هذا الاثر العظيم الذى هو من مصادر كاله بأثر آخر أعظم وأخص لأنه سبحانه جعله كتعويض لهم عما نقص فى أيام أعمارهم ولذاتهم وكتكميل لما بقى من الأول مع من حافظ عليه بالتزام حقوقه ـ ليستفيدوا به أياما خيراً من أيامهم ولذات أعظم من لذاتهم التى انقرضت أو فاتت . وهذا الاثر أعظم وأخص من الاول ، اذ الأول أثر موقت فهو كوسيلة الى استحصال الثانى . وهذا الأثر العظيم هو ما أنزله من الكتب السماوية وأرشد اليه من الآثار النبوية التى هى النور والروح والهدى ، فمن استمد من هذه المصادر الصحيحة القوية الطيبة ايمانه وعمله الصالح بقى متمتعا محتفظا بالنور الاول الشامل ، مجدّداً له من النور الأخير الخاص ، مستمدا منه حياته ، متزودا منه الى ما بعد مماته بقدر ما معه من الايمان ، ومن أعرض عن هذا الدين بقى معه ما استحصل عليه من الأثر الاول الدنيوى يتمتع به كما تتمتع بعض الأنعام ، وربما عظم النقص الملازم له فطغى عليه وأعدمه فكان من الهالكين[1] فذهب ما معه من الأول ولم يبق معه من النور الخاص أى نور الدين شىء يستمتع به فى حياته

---

(١) فان الذنوب كلها نقائص تؤثر فى الكمالات وتضعفها بل تعدمها كثيرا

استمتاعا صحيحـــا ، وانقطع عنه الأول بعد مماته فبقى فى الظلمات السحيقة والنقص والعذاب السرمدى كما دل على هذا سورة التين وسورة العصر ، وفى الأثر «ان الله خلق خلقه فى ظلمة والقى عليهم من نوره ، فمن أصابه هذا النور اهتدى ومن أخطأه ضل» وقد سمى سبحانه كتابه نورا وروحا وهدى وبيانا ، فمن أخذ به واستمد إيمانه منه أخذ نورا وروحا ينتفع بهما فيمشى بنور لا يطفأ ويحـيي بروح لا تموت ، ومن أعرض عنه فقـد قطع عن نفسه النور الذى يبصر به والروح الصحيحة التى يحيـا بها فبقى فى الظلمات الموحشة ليس بخارج منها فهو كميت لا روح فيه ، والميت الذى لا روح فيه يعبث به كل شىء حـتى الكلاب وأشباهها فتستولى عليه ، لانه لا يمكنه أن يمتنع عنها لعـدم وجود تلك الروح وسلامتها بل يبقى فى العذاب الأليم والظلمة الطبيعية

فاذا عرفت أنه لا حجة له فى هذه الجملة التمثيلية التى صدر بها هذا المبحث فقد سقط التفريع عليها لبطلان الاساس . ونحن نذكر هنا قولا عامـا شاملا للانسان من حيث علمه وجهله وتقدمه وتأخره يتضمن ما موّه به فى هـذا المبحث كله فنقول : قد بين الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حقيقة وجود الانسان وقدره وحياته ومآله من خير وشر أعظم بيان وأوضحه وأجمله وأشمله وأوجزه فقال جل من قائل ﴿ والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقال جل وعـلا ﴿ لقـد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلـين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ فبـين سبحانه فى هـذا القول الـكريم حقيقه حال جنس الانسان وحياته الحقيقية وتطوره وتحوله فيها فقسمه الى نوعين بعد ان كان نوعا واحدا ، فنوع تحول وردّ الى أسفل سافلين ، لانه لم يستمد من النور والروح ما يمسكه عن السقوط الى أسفـل سافلين التى هى حالته العدمية الاصلية ، فعثر لعدم النور وسقط لعدم الروح ، لان النور يريه الطريق والروح ترفعه وتدفعه ، ومن المعـلوم أن الذى رد الى أسفـل

سافلين لا خير فيه بالكلية فانه فى غاية الانحطاط والرذيلة ، ولهذا كان مصحوبا فى حياته كلها بالصفات المنحطة الناقصة ، ولو ارتفع أحيانا فمآله الى الانحطاط والنقص ، وكل ما لديه من المعارف الدنيوية حاصلها يرجع الى أنه عارف كيف يعيش المعيشة الحيوانية ، وهذا المقدار من المعرفة يشاركه فيه كثير من الحيوانات العجم على كثرة أنواعها ، فانها تعرف كيف تعيش بدهاء ومكر ومعرفة دقيقه قد يعجز عن بعضها كثير من بنى آدم . وكونه سبحانه استثنى من المردودين الى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات دليل على أن المردودين أصناف كثيرة فاستثنى القسم الناجى لانه نوع واحد وهو الموصوف بالايمان والعمل الصالح ، فان الاخلاق الدينية ترفع صاحبها فيتطور بها وتقويه وتزكى نفسه فيكون مرتفعا متماسكا فى مستوى الفطرة الذى هو أحسن التقويم الذى خلقه الله فيه ، أما اولئك الذين حرموا من الايمان والعمل الصالح فانهم لما بعدوا عن مهابط الوحى الذى هو النور والروح اللذان بهما جميع القوى وأنالهم الله ما تولوا من النقص والظلمة انحطوا الى اسفل سافلين . وكذلك سورة العصر فانها كهذه السورة فان من رفض الايمان والعمل الصالح فقد خسر ، فانه لم يقتبس من النور ما يستعيض به عما فات من أيامه المنقرضة أياما غيرها أحسن منها فصار من الخاسرين . واما المؤمن الذى آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق والصبر فقد ربح أيامه وحصل على ثمرتها المقصودة فكان من الرابحين الفائزين

فظهر من هذا أن الانسان نوعان زكى طاهر القلب قوى النفس والارادة صحيح الذهن والفكر ، ونوع ساقط مرذول مظلم القلب مريضه مدفوع دائما الى ما يوافق هواه من الشهوات والشبهات ، فما وافق هواه وشهوته اتبعه واعتمده وما خالف هواه وشهوته وفكرته تركه ورفضه ، فهو فى الحقيقة عبد شهوته وفكرته وهواه ، فحركاته كلها دقيقها وجليلها تدور على مقتضى ما يلائم هواه وتفكيره التابع لشهوته وشبهته ، ومعلوم عند كل عاقل أن ارادة الأول الذى

لا يخشى الا الله ولا يهمه الا اقامة الحق وازالة الباطل والظلم أقوى من ارادة من لا يهمه الا قضاء شهوته وتنفيذ فكرته أو فكرة جنسه، وقد تكون المصلحة لغيره من عدو أو غيره، فان الاول دافعه القوة الايمانية فجاذبها ودافعها الايمان النقى القوى والرغبة والرهبة الالهية، والثانى دافعه قوة الشهوة والشبهة، فاذا عرضنا على العقل السليم أن انسانا له دافع ايمانى اعتقادى عامله حب الله تعالى وخوفه ورجاؤه والتعلق عليه ومقت أعدائه وملاحظة جنته وناره، وانسان له دافع هوى وشهوة سواء أكان ذلك الدافع اعتقاد الكفاءة الذاتية فيه بانه قادر على بلوغ غرضه الدنيوى أو كان عامل ذلك حب المال أو الجاه أو المنكح أو الوطن ونحوه فاعتقاد الكفاءة فى العمل قد يكون موجودا فى المؤمن والكافر انما الفرق بينهما أن المؤمن يعتقد ان فى كفاءته تحقيق مقصوده اذا نصح مع الله وآمن به وتوكل عليه فكان اعتقاد كفاءته بواسطة القوة الجبارة المالكة للوجود، وأما الكافر فهو يعتقد كفاءته فى ذاته التى يراها وينظر الى عجزها بالحس ولكنه يغالط الحقائق، فاذا عرضنا هذين الانسانين وعرضنا عملهما على العقل الصحيح فلا شك أنه سيحكم بان دافع الانسان الاول الذى دافعه الدين والايمان أعظم وأقوى لان أهدافه أكبر وأعظم ووسائله أعظم وأشرف، فأمة او شعب يكون عامله اعتقاد الانسان الأول بلا أدنى شبهة ولا تردد أن حركته وقوته وابداعه وانتاجه سيكون متفوقا على حركة وابداع وانتاج الأمة أو الشعب الذى يكون دافعه الأمر الثانى الذى يرجع الى الهوى وشهوة النفس أو الاجبار القسرى، وأكثر عمال هذه الشعوب الملحدة انما يعملون قهرا لأن الدافع الحقيقى الصحيح موجود فى أهل المصالح الخاصة وهم الرؤساء والزعماء فهم الذين يدفعون أكثر الأفراد الى الأعمال دفعا قسريا لا أن فى الافراد دافعا من ذوات أنفسهم، لأن العوامل الذاتية غير موجودة فيهم لفساد التربية والتعليم وكل عاقل يعلم أن القوة العامة التى توجد فى الفرد كما توجد فى الجميع من

خصائص المتدينين الذين لهم أصل عريق فى الديانات ـ وان لم يكن بعضهم الآن متدينا فان العوامل الدينية الأولية هى التى هيأت فيهم الاستعدادات والمواهب التى بها استحصلوا على قوة الانتاج والابداع فانها أى الاستعدادات قد كانت موجودة فيهم فى زمن التدين ، أما الأمم العريقة فى الوثنيه المحضة والالحاد المحض ، البعيدون عن الاديان السماوية فى الازمنة القديمة ، فانهم أبعد الناس عن الانتاج والابداع لبعدهم عن العلوم الدينية لانها أصل العلوم كلها كما أنها أصل تنور الأفهام والأخلاق ، وتلك الصناعات ونحوها من فروعها ، ولولا شيوع الوثنية كعبادة القبور وشيوع الالحاد كانكار أكثر الصفات من العلو وغيره فى كثير من أقطار الاسلام فى هذه الأزمنة الاخيرة لما ضعف الانتاج والابداع . فالعلوم الدينية هى الأساس الأول لجميع أمور الحضارة والمدنية فانها ملازمة لهم فى الزمن السابق الى اليوم وهو ظاهر لا خفاء به . وبهذا يظهر الفرق بين أفراد الانسان من حيث العلوم الدينية والدنيوية ومن حيث الاستعدادات والمواهب ، كما يظهر الجواب عن معنى الكفر بالانسان والايمان به ، وأن ما ادعاه على المسلمين بأنهم كفروا بالأنسان حيث وصفوه بالضعف والعجز دعوى لا صحة لها ، فهم لم يؤمنوا به الايمان الذى يريده هو ، وهو الايمان بانه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء وأن فى استطاعته أن يصل الى غاية الكمال ، ولم يكفروا به على حسب ما زعمه من أنهم اعتقدوا أنه فى غاية العجز والضعف فى كل شىء من جميع العلوم ، فان هذه الدعاوى كلها مجازفة لا أصل لها وهى غير معقولة ، وقد تناقض فى ذلك أيضا أعظم المناقضة كما يأتى مفصلا

فصل

قال : « ان الشعوب الراقية تمتاز بالايمان بالثراء الطبيعى ، ولهذا تحاول الظفر بكل شىء والوصول الى كل شىء والتغلب على كل شىء ، فتسير الى

الامام بالمدنيـة وتسير بالحيـاة خطوات واسعة وتدفع فى سبيلها كل عناصر الحضارة »

فيقال : أولا هذا يناقض قولك فيما تقدم قريبا فى الخبراء الأولين أنهم نفضوا أيديهم عن مكان النفط قائلين انه لا يوجد فيه نفط وان وجد فمقادير ضئيلة الخ ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من أولئك الذين يؤمنون بالثراء الطبيعى فما لهم لم يؤمنوا بهذا الثراء الطبيعى استرسالا مع ايمانهم الذى تدعيه ، وأمثال هؤلاء كثيرون

ثانيا قولك انها تحاول الظفر بكل شىء والوصول الى كل شىء الخ ، يقال ان كانت كل هذه الشعوب تحاول الظفر بكل شىء والوصول الى كل شىء فهى لم تدرك ذلك ـ بل بعضها أدرك الشىء القليل من الذى يمكن ادراكه ، وبعضها تداركه البلاء وحل به الشقاء حيث حاول ما هو مستحيل ادراكه ، فليس علينا أن نقتدى بها فى كل ما تحاوله ، بل يجب أن ننظر الطرق الصحيحة لاستحصال ما يمكن استحصاله بالعلم والثبات والحساب الدقيق ، فانه من المعلوم أن الدول التى دمرت نفسها انمـا انزلقت الى ذلك بسبب هذا الايمان نفسه فلم يحصل لها الا عكس ما آمنت به ، ولو آمنت بالله كهذا الايمان لبلغت كل ما تريده من الممكن لهـا

ثالثا ان ما ادعاه هنا كذب ظاهر ، فان الشعوب الراقية تغير وتبدل دائما مواقفها فى هذه السياسة ، ولو أنها تؤمن هذا الايمـان الذى يدعيه لفعلت ما تشاء ، وهى انما أحجمت عن كثير مما تريده مع اضطرارها اليه لانها تعلم أنها عاجزة عن تعدى هذه الحدود التى رسمتهـا لنفسها سواء أكان ذلك فى الوقت الحاضر أو الى غير أمد ، انما المقصود أنها لم تؤمن بأن فى امكانها الوصول الى كل شىء والحصول عليه والتغلب عـلى كل شىء والظفر بكل شىء ، بل هى بوقوفها ومصانعتها لأعدائها معترفة بعجزها كرها بلا ريب . وكل الأمم الراقية لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقى بهذا الايمان ، إنمـا وصلت بامور أخرى

أكثرها عكس هذا الايمان وهى التؤده والثبات والحيطة وإعطاء كل شيء حسابه ، ولو ان هذا الايمان ينفع من آمن به واعتمده لنفع كل الأمم التى تخاطر به من الأمم الأولين والآخرين ، بل فرعون لم يحارب موسى وقومه إلا لأنه يؤمن بهذا الايمان ، وأن فيه هو وقومه كفاءة ذاتية فى أنفسهم للقضاء على موسى ، ولهذا قال ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حركاتهم حاذرون ، وهذا أقصى ما يبلغه الايمان بالذات ، أما موسى فانه اعتقد أن به كفاءة فى القضاء على فرعون بايمانه بالله لا بنفسه ، فقاتل بهذا الايمان القوى العظيم الذى فلق له البحر لقوته ، فحصل على كل شيء مما يطلبه ، بخلاف عدوه فانه لما كان ايمانه ضد ايمان موسى كانت النتيجة ضد تلك النتيجة . وكذلك كفار قريش لم يقاتلوا المسلمين الا بهذا الايمان نفسه الذى يدعو اليه هذا الملحد ، والمسلمون قاتلوهم بالايمان بالله وبان فى أنفسهم كفاءة اذا اعتصموا بالله ، ونحن لا نقول انه يجب اليأس والقنوط حتى يكثر من هذه السفسطة والدجل الذى لا طائل تحته بل يجب العزم والحزم واعتقاد الكفاءة بالله تعالى ، فهذا الايمان هو الذى ينفع ونتيجته لابدان تكون نتيجة صحيحة ، أما الايمان بما ذكره فانه يوجب الطيش والجنون وفساد الذهن وسوء الرأى والقلق ، فلا بد من التبصر فى الامور كلها ، وان يحسب لكل شيء حسابه بجد واجتهاد وقوة وانتظام

وظاهر كلام هذا فى قوله « والظفر بكل شيء ، والوصول الى كل شيء ، والتغلب على كل شيء » أنه يجب الايمان بأن فى امكان هؤلاء أن يصلوا الى تدمير السموات والارض وقلب نظامهما ، ويكون أيضا الذى حاج ابراهيم فى ربه لم يأت مستحيلا لانه يؤمن كهذا الايمان ﴿ اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾ فعلى هذا فهؤلاء يؤمنون بقدرة البشر على الاتيان بالشمس من المغرب الى المشرق عكس مجراها

الطبيعى ، ولا شك أن قاعدة هـذا الرجل تقتضى هـذا كما صرح بأمثاله مرارا فيما يأتى ، واذا عاكس هذا المعكوس وشمخ بأنفـه وقال هذا لا يلزم من قولى عكسنا عليه أغلاله وقلنا له مهلا لا تعجل قد ألزمت الدجوى بدون ما ألزمناك به مع أنه لم يقل إلا دون ما قلته ، وهذا كلامك معـه فى نبذتك (الفصـل الحاسم) ص ٧٥ فقلت ما نصه : « الفضيحة الثانيـة زعم [١] أن البشر قادرون على كل شيء حتى على أن يقلبوه فرسا أو ما شاء من أنواع المخلوقات . وهاك عبارته بحروفها (على ان لنا ان نقول ان كل شيء مقدور للبشر بالدعاء فما لا يقدر عليه بالذات يستطيعه بالدعاء) الله اكبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ، هل رأيتم أعجب من قوله ان البشر عـلى كل شيء قادرون ، نعوذ بوجـه الله . أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو يستطيع أن يقلب السماء أرضا والارض سماء ، أهو يدعى لنفسه أنه يقـدر أن يحيي ميتا أو يميت حيا ، أترونه يظن أنه قادر عـلى اخراج الانجليز من مصر وفرنسا من سوريا وانقاذ جميع البلاد الاسلامية من ورطة الاستعمار ، لان البشر على كل شيء قادرون [٢] وهو من البشر ولا شك ، نعم من البشر على رغم أنف المخالفين . أبشروا أيها المسلمون ، أبشروا ايهـا المظلومون فمولانا الشيخ الدجوى على كل شيء قادر ، قادر أن ينجيـكم وأن ينصفـكم فاطمئنـوا الى ذلك ، نعوذ بالله ، ماسمعنا بأعجب من هذا ، وما سمعت القرون المظلمة أعجب منه [٣] فنحن فى القرن العشرين قرن العـلم والنور والتفكير كما

---

(١) يعنى الدجوى

(٢) كل هذا تحامل فان الدجوى لم ينسب هـذا الى نفسه بل الى البشر بواسطة الدعاء

(٣) لـكن الآن سمعت أعظم وأعجب وأطم وأشنع منه ، وفى الحديث « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » فليس كلامـه على الدجوى بقصد اظهار الدين وقمع الباطل ، بل على وجه المماراة والقحة والمقاصد الاخرى

يقولون ، بل قرن القــدرة على كل شيء فالبشر على كل شيء قادرون . أين اوربا وأين مخترعوها وأين قدرتها ، فنحن عندنا معشر الشرقيين من يقـدر على كل شيء من يقدر على تخريبكم وتخريب مخترعاتكم وآلاتكم الحربية بشيء بسيط ، بكلامه ، بان يدعو عليكم فقط » انتهى بحروفه . ولا أظن القـارىء الكريم لهذا يريد أن نسهب فى التعليق على هذه الثرثرة والقحة الزائـدة فان تعليقها فى عنقه كاف عن التعليق عليها ، لكن يحسن أن نذكر هنا جملة واحدة ينبغى أن يقابل بها هذه الجملة التى ذكرها عن الدجوى وصاح عليه بها وهى قوله فى أغلاله هذه ص ٤٥ « ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله ـ وهذا بلا ريب على غير ظاهره ـ فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعيا وعمله موفقا قويا ، ولا بد أن يكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد أن لا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده اذا شاء أن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعا أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجا عن الطاقـة البشرية المعروفـة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد ان تبقى مواهبه العاقـلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ولا يقال شيء من الأشياء كائنا ما كان ان هذا فوقها أو أنه بعيد عن متناولها أو أنه ليس مما يدين لها » انتهى كلامه . فلنقـابل هذا بكلام الدجوى الذى نقله عنه ، مع أن الدجوى انمــا ذكر ذلك بواسطة الدعاء . ومعلوم أن الله قادر على كل شيء ، وأما هذا فأنه أضاف هذه القـــدرة الى الانسان[١] وسيأتى قوله أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وينبغى

---

(١) ولعل موضع الانتقاد على الدجوى والتحامل عليه هو انه جعل ذلك بواسطة الدعاء ، فهذا هو ذنب الدجوى ، والا فلو جعل ذلك للانسان نفسه لمـا كان له ذنب بل كان من أعظم الفضائل ، لان هذا الملحد قرر أن الدعاء لا فائدة فيـه كما يأتى وأن ليس فوق قدرة الانسان شيء

أن تلاحظ أنه صرح بأن الدجوى يدعى أنه على كل شيء قدير إلزاما له على تلك الجملة ، مع ان الدجوى ذكر أن ذلك بالدعاء ، فقد ادعى عليه بأنه يقول ان الانسان على كل شيء قدير ، فهذا الذى ألزمه الدجوى يجب ان يعامل به لانه صرح بمقتضاه تصريحا ظاهرا كما سيأتى ، والعجب أنه جعل ماذكره الدجوى فضيحة ، فيكون ماذكره فضيحة هو الفضيحة القبيحة التى لاتستر

فصل

ومن أعظم اكاذيبه قوله فى استطراد هذا البحث : « وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الاصلاحية التى سيطرت على مصير التاريخ وغيروا مسيره كانوا ممدودين بهذا الايمان الذى لا يتضعضع »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل باطل ، بل مكابرة ظاهرة . ونحن نطالبه بفرد واحد معروف أو شعب واحد حصل على التقدم بهذا الايمان وحده ، بل لقائل أن يعكس عليه دعواه فيقول وكل أمة هوت واندكت عروشها واختفت فى عالم الوجود لم يكن سببها الا هذا الايمان ، فانها لما نشأت على هذه التربية وتغلغل فيها هذا الايمان الباطل ولم يتضعضع حاولت بقوتها الضعيفة أن تصدم القوة الكبرى فتلاشت فيها وذابت وذهبت عن آخرها كما هو الواقع . فما ذكره كلام ساقط لا يعتد به

فصل

ومن فظائعه وفضائحه فى هذا المبحث ما ادعاه على المسلمين زورا وفجورا فى قوله « ان رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الانسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الاخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل كل مشكلة من هذه المشاكل ، بل وانهم غير مخاطبين بحلها ،

بل وإن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس » انتهى فلينظر العاقل المنصف الى هذا الفجور الذى ليس وراءه فجور كيف يدعى أن المسلمين يرون أن التعليم الذى هو حل مشكلة الجهل من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بذلك ، فهل اجترأ أكفر يهودى وأكبر عدو للاسلام والمسلمين من أصناف الكفرة أن يرمى المسلمين بهذه الوصمة الكبرى بدون حياء ولا خجل ، وصريح هذا أنهم يرون التعليم وبناء المدارس والتداوى والمطالبة بالاستقلال كل ذلك كفر عظيم وخروج من ملة الاسلام وقدح فى الربوبية . أيها المسلمون . أيها المسلمون تدبروا كلام هذا المنافق الدعى فيكم وأنصفونا وأنصفوا أنفسكم . واكبر من هذا أنه جعل العمل الذى هو ضد البطالة كفراً عظيما وخروجا من حظيرة الاسلام كما هو صريح كلامه . ومن عمق خبثه ونفاقه خلطه مشكلة الجدب مع مشكلة الجهل والبطالة ، وأدنى عاقل من العامة وغيرهم يفرق بين هذه المشاكل ، وانما قصد بهذا لبس الحق بالباطل ، فانزال الغيث وازالة الجدب من الأمور الكونية الغيبية التى لايقدر عليها الا الله تعالى ، وقد شرع لنا سببا لنستحصل ذلك به فنندفع به الجدب وهو الصلاة والدعاء والصدقة والتوبة ونحو ذلك ، وقد فرق المسلمون بين هذه الامور فجعلوا للجدب المساجد وللجهل والبطالة والاخلاق ونحوها المدارس ، وقد علم المسلمون على اختلاف مذاهبهم أنهم مأمورون بالتعلم والعمل والدعاء من مكملات ذلك . وحاصل هذه الدعوى المنكرة ان المسلمين على غاية من الغباء والجهل أو هم كالانعام بل هم أضل ، لأن من لم يفرق بين هذه المسائل ويرى أن التعليم والعمل وطلب الاستقلال كفر فهو كذلك

ثم قال « وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاءون ويشتهون ، كما يجب عليهم فى هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء ، وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يحملوا الانتظار »

قلت : غرضه من هذا الضجيج والتهويل تركيز بغض الدعاء والعبادة في قلوب الناس ، ليسهل عليهم رفض الدين ، فقد علم أن الدعاء هو روح الدين كما أقر بذلك فيما يأتي صريحا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن هذا فجور ظاهر مبنى على الزور الذى قبله ، فمن هو الشعب المسلم الذى ينتظر من الله أن يعطيه ويصنع له ما يشاء ويشتهى بدون عمل أو معالجة لهذه المشاكل ، بل بمجرد الدعاء والبكاء ، إلا فى مسألة الجدب ، وليس الامر كما زعم أيضا بل يطلبون ذلك بعمل شرعى خاص والدعاء من جملته ، وجميع المسلمين يأمرون بالتعلم والعمل وبناء المدارس ويلتمسون التداوى ومنهم من يرى وجوبه ، بل جماهير المسلمين أو كلهم يرون أن الاعراض عن التعلم كليا كفر وخروج من الاسلام فكيف يدعى عليهم أنهم يرون فعله كفرا وشركا فى الربوبية ، وهكذا قوله بعد هذا « وهكذا تمر الايام والشهور والسنون بل والقرون وهم يؤملون وينتظرون ما لم ينالوا » فكل هذا كذب لا صحة له البته واشتغال الاكثر بالملاهى والشهوات والامور الالحادية ونحوها هو الذى صدهم عن العلم والعمل بل أفسد اخلاقهم حتى عسر عليها الاشتغال بالامور النافعة

وقوله « لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه ولا ينصر من لا ينصرها ، كما قال القرآن ان تنصروا الله ينصركم ، وفى الانجيل ان الله يعين عبدا يعين نفسه » . فيقال : كل هذا حجة عليك فان الله تعالى اذا كان لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه فلم غضضت طرفك عن هذه الجماهير العاطلة عن الاعمال المنغمسة فى مواضع اللهو والخلاعة والرقص والغناء وسائر أنواع الملاهى فلم تتكلم فيهم بكلمة واحدة ، أما الاقلون الذين صدقوا الله وتوجهوا اليه فى الدعاء والصلاة فوجهت اليهم جميع اللوم وحملتهم كل مصيبة ، وهؤلاء هم الذين يفعلون لأنفسهم وقومهم ما ينفعهم ، فانه لا يعلم أن احدا صادق الاخلاص فى العبادة الا وهو جرىء على العمل ، بخلاف المنافقين وأهل الفسوق وأمثالهم ولان الله سبحانه ذكر أن الذى ينصر نفسه هو الذى يستحق النصر من عنده فقال

فى هذه الآية التى استدل بها هـذا المعارض وهى حجة عليه ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ وقد فسر سبحانه نصرنا له فى آيـة أخرى مثل هـذه الآية بطاعته ودعائه والقيام بأوامره والصلاة والدعاء فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين إن مكنـاهم فى الارض أقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنـكر ولله عاقبة الامور ﴾ فبين فى هذه الآيات الـكريمات أن نصره الذى طلبه منا هو اقامة الصلاة الى آخره ، فالآية حجة صريحة عليه لانه يرى ما دعت اليه الآية لا فائدة فيه ، ولـكن هو أطمع من أشعب يأخذ حجج خصومه عليه ويحتج بها فيكذب على الله تعـالى كما يكذب على عباده المؤمنين . ولا بد للنفاق أن يـكون هكذا فانه لا بد أن يكون متقلبا فى أموره وأقواله وأعماله فى الخداع والمـكر والمراوغة ، والا لم يكن لولا هذا منافقا بل يكون له وصف آخر

فصل

قال « اما الآخرون المؤمنون بالانسانية وبأنفسهم فيهبّـون لعـلاج كل مشكلة ، وينهضون لحمـل كل عبء ، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى ، الى أن يصيبوا فى النهاية النجاح الحقيق الأكبر » قلت : اذا كان هذا حال المؤمنين بالانسانية وبأنفسهم فحال المؤمنين بالله وحده أنهم يهبون لعلاج كل مشكلـة بما شرع لها فيزنون الأعمال بميـزان موضوعاتها ويحسبون لـكل شىء حسابه ويعتمدون على الله وحده ويرون بذلك أن فيهم الـكفاءة التامـــة بالله اذا صدقوا معه لانهم يعلمون ان الله يعين من استعان به وتوكل عليه ، فيعالجون المشاكل بوسائلها الدينية والمادية ، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض شأن الملاحدة الذين يؤمنون بالوسائل المادية ويكفرون بما وراءها من الوسائل الدينية فينهضون لحمل كل ثقيل على مقتضى ما يحتاجه بالحزم والعزم والصبر والثبات حتى يستحصلوا على النجاح الحقيقى فلا يفشلون ابدا الا اذا

كان فيهم شيء من خصال الذين يؤمنون بأنفسهم بالمعنى الذى يريده هــذا الهالك ومن على شاكلته فقد يفشلون وهو الاكثر ، وقد يصيبون اصابة مدخولة ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة ﴾ فأخبر أن الله نصرهم حين اعتمدوا على الله وحده وآمنوا به وحده فلم يلتفتوا لأنفسهم ، فلما جاء يوم حنين وكانوا كثيرين فداخـل بعضهم شيء من النظر الى أنفسهم لم يغن عنهم ذلك شيئا بل كان ذلك سبباً فى الهزيمة كما قال تعالى ﴿ ولقـد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم أنفسكم فـلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فنص تعـالى عـلى أن إعجـابهم بأنفسهم هو سبب الفشل والهزيمة مـع كثرتهم عما كانوا عليه من قبل ، وقد حصلوا ـ اذ ذاك ـ على النجاح لما لم يداخلهم الاعجـاب الذى منه الايمان بالنفس ، أما نجاح بعض من يؤمنون بأنفسهم فى بعض المواطن فهذا انما يكون على من كان مثلهم من المؤمنين بانفسهم أو فيه شيء من هذا الايمان ممن قدم آراءهم على أو امر الله السماوية وشرعـــه المطهر ، فهم الذين قدموا عدوهم عـلى أنفسهم لأنهم قدموا أفكارهم وعاداتهم وأمثالهم عـلى النصوص الدينية ، لهذا ولاهم الله ما تولوا واختاروه لأنفسهم وما ربك بظلام للعبيد

فصل

قال : « ان أولئك يرون كل شيء من السماء [١] ومن الآلهـــة المتعددة الأخرى ، أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا الى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل شيء وأن فى استطاعتها ان تهبهم ما فقـــدوا وما احتاجوا اليه فيبدعون فى الاعمال ويسيرون فى الطريق ، اما أولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل ثم الانتظار الطويل الممل ، ثم التسلى والاشتغال بذلك

---

(١) اى اهل التوحيد

كله عن العمل وعن اقتحام الصعاب »

قلت : هذا الرجل قسم الناس هنا الى قسمين قسم يعتمدون على أنفسهم فقط وقسم يعتمدون على غير أنفسهم ، فمن هؤلاء من يعتمد على الله وحده ، ومنهم من يعتمد على الآلهة المتعددة الأخرى من المخلوقات ، فجعل هؤلاء الآخرين قسما واحدا فسوى بين الموحدين والمشركين فى النتيجة كما سوى بين الله والاصنام فى عدم الافادة والنفع فى الدنيا ، ولهذا استطرد بان الدعاء ليس له من فائدة كما ياتى قريبا ، وقد ذم هذا القسم جميعا فلم يفرق بين من يعتمد على الله ومن يعتمد على الآلهة الأخرى ، ومدح القسم الذى يعتمد على نفسه ويرجع اليها وهم الملاحدة فان الناس فى الجملة قسمان إما معترف بالربوبية وإما منكر لها ، والأول نوعان إما موحد وإما مشرك فالأول هو الملحد الذى لا يعتمد الا على نفسه . ومن عظيم خبثه ومكابرته أنه ادعى على المسلمين زورا وفجورا أنهم يقتصرون على الدعاء والنحيب والانتظار فقط ، وكأنه أعمى عن هذه الدماء التى تراق فى هذا السبيل ، وهذه الاعمال الجليلة التى تبذل فى هذا الشأن ، وهذا القيام والقعود والثورات على الاستعمار التى لا تحصى . وانما قصده من هذا الحط من الدعاء وسبه وتركيز بغضه فى قلوب الناس لكى يرفضوه ويسلكوا سبيل الالحاد ، لأن من ترك الدعاء فهو ملحد ، فان الحد الفاصل بين الملحد والمتدين هو الدعاء ، لأن هذا اعتقد ربا قادرا كاملا فدعاه ، وذاك بعكسه فترك الدعاء لعدم وجود متعلقه فى اعتقاده

ثم قال « ان أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء [1] الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والابتهالات الوقحة

---

(١) بل أبشع واشنع صورة صورتك الظاهرة والباطنة ، فلو مسخت معنويتك على هذه الحالة المرسومة فى هذه الاغلال لكان من المؤكد أن تكون أقبح صورة فى العالم كله.

الذليلة سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الارض أو يجعلها عليهم نارا وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذرياتهم غنيمة باردة لهم ولامثالهم من المسلمين العاجزين عن الحياة . ولكن الله لا يصنع ذلك أبدا ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ، وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم حتى لا تمد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم » انتهى

قلت : بين هنا ما يفعله المسلمون من الأمور المنكرة عنده ، ومثل بذلك هذه الخطب الأسبوعية التى تقام على المنابر يوم الجمعة ، وجعل هذا المظهر الاسلامى الاسبوعى المقدس حالة بشعة نكراء ، وذلك لأنه علم أن ما يلقيه الخطباء من حمد الله والثناء عليه والوصية بتقواه أمر ينافى الالحاد الذى هو مقصوده والذى يدعو اليه ، وينافى ما قرره فى أغلاله الخبيثة ، فلهذا هجم على الخطب والخطباء هنا ، ولم يكتف بهذا التشنيع ولم يشف قلبه هذا المقدار حتى أعاد الحط عليهم فى المبحث الخامس وأفرغ جميع ما يحمله فى صدره من غل عليهم هناك ، وسترى لطمه ومناقشته هنا لك . والعجب أنه مثل أمور المسلمين المنكرة عنده بهذه الخطب ، أما غيرها من الدعايات الالحادية والاستهتار بالفضائل والاخلاق والاشتغال بالملاهى والشهوات فضرب عنه صفحا ولم يحرجه ويضيق صدره إلا حمد الله والثناء عليه والدعاء على الأعداء ، ومن عمق خبثه وتلبيسه دعواه على هؤلاء الخطباء أنهم يسألون الله أن يسقط على أعدائهم السماء أو يخسف بهم الارض ، ومعلوم أن هذا الدعاء لا يكاد يوجد ، ولا هو فى الخطب المشهورة المدونة ، وانما قصد بهذا تشويه سمعة الخطب والخطباء فى هذا المظهر الدينى المقدس ، ولو قدر أن أحدا من بعض العامة خطب بهذا فأى شىء فيه ، وهل المسلمون اقتصروا عليه بدون عمل وفعل كبير ، أو هو محرم حتى يجعله حالة نكراء . ولو أن هؤلاء الخطباء خطبوا بحقائقه الازلية الابدية التى تتركها امة فتهوى وتأخذ بها امة فتنهض

لما أنكر عليهم بل لجعلهم أهدى الناس سبيلا ، مع أن أكثرها سخافات لا تليق الا بالقلوب المقفلات

فصل

ثم ان هذا الملحد أتى بطامة كبرى وداهية دهياء ، فذكر أن دعاء الله جل وعلا ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وانما هو مصرف خبيث أى عمل خبيث ، فقال وهذا لفظه بحروفه : « ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقى بها عدو عدوه ، بل انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة » انتهت عبارته . فجعل عبادة الله التى خلق الخلق لأجلها وروح الدين وروح الايمان ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى الخبث . وسيأتى قوله قريبا « والدعاء هو المصرف الخبيث والملهاة والمفسدة المعوقة للبشر » فقد عرفت أن هذا الرجل جعل عبادة الله ليست بوسيلة ولا فائدة فيها ، وانما هى مفسدة وملهاة ومصرف خبيث صريحا لا شك فيه ، فهو لم يكتف بنفى كونها وسيلة حتى نفى الفائدة ، ثم لم يكتف بنفى الفائدة حتى جعلها خبثا وفسادا ، هذا مع أنه معترف بأن الدعاء عبادة بلا خلاف وبلا أدنى مماراة ، قال فى نبذته (البروق) ص ٩٣ : « فمن دعا الله واستغاث به أو صلى أو حج أو صام أو ذبح أو نذر أو خضع لله فقد عبد الله ، هذا مما لا ريب فيه » انتهى . فقد عرفت أنه قرر أن الدعاء عبادة كالصلاة والحج والصوم ، فلو أن قائلا قال ومعلوم ان الصلاة ليست بوسيلة وليس لها من فائدة وأنها ملهاة ومفسدة ومصرف خبيث لكان من جنس قوله سواء ، فانه حكم على نفسه بأن الدعاء كالصلاة والصوم والحج الى آخره ، فقد صرح بأن هذه كلها عبادات لله ، ومعلوم أن عبادة الله هى شرعه المطهر ، وهى دينه الذى أنزله على ألسنة رسله ، فمن جعل الدين أو ركنا من أركان الدين لا فائدة فيه وانما هو مفسدة وتعويق وملهاة وخبث فكيف يدعى الاسلام أم

كيف يشك فى كفره ، وقد رأيت أيضا أنه قرر أن ذلك أى كونه عبادة مما لا ريب فيه . وقال أيضا فى ص ٩٧ من البروق « فالدين قال لنا لا تعبدوا الا الله ، فأفادنا أن الدعاء والاستغاثه عبادة » انتهى . فقد رأيت أنه صرح بان الدعاء عبادة ، وأن ذلك مما قاله الدين ، فتكون العبادة لا فائدة فيها بل هى ملهاة ومفسدة وخبث معوق للبشر كما هو صريح كلامه . وقال فى نبذته الأخرى (الفصل الحاسم) رداً على الدجوى فى قوله « من دعا غير الله لم يلزم تكفيره » فقال هذا الملحد معارضا له ص ٨٩ : « هذا يقتضى أن دعاء الله ليس عبادة له ، وهو باطل بالاجماع » فقد رأيت أنه صرح بأن الدعاء عبادة بالاجماع . وقال أيضا فيه ص ٨٩ و ٩٠ « معلوم من أوليات الدين أن الدعاء داخل فى مادة (عبد) و (دان) وأن من دعا الله فقد عبده ودان له ، وفى الحديث الصحيح ان رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » وفى رواية « الدعاء مخ العبادة » وفى حديث آخر صحيح أن رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » ثم قال ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ففسر عليه السلام العبادة بالدعاء ، ولا إخال أحدا يمانع أن دعاء الله عبادة له ، ومعلوم بعد ذلك أن العبادة كلها لله وأن الدين كله له ، وأن صرف شىء منها لغير الله مفارقة للاسلام » انتهى كلامه بحروفه ، وأمثاله كثير يقرر أن الدعاء عبادة ، ولهذا قال ولا إخال أحدا يمانع فى أن دعاء الله عبادة له ، وقال هذا مما لا ريب فيه وادعى أن ذلك بالاجماع . فاذا كان معترفا بان الدعاء عبادة لله كالصلاة بالاجماع ، فكيف يكون مسلما من يدعى أن عبادة الله مصرف خبيث ومفسدة وأنها ليست بوسيلة وأنها لا فائدة فيها . اذا عرف هذا كله فنقول لهذا الملحد متى كان الدعاء ليس بوسيلة وأنه ليس له من فائدة وأنه يقوم بعملية خبيثة ، فان هذا لا يعرف الا عند الملاحدة فقط الذين لا يعترفون بالربوبية ، فان هذا لا يوافق غير اعتقادهم لان دعاء المعدوم ليس له من فائدة وانما هو

مفسدة وتعويق ، أما من اعتقد أن الله سميع عليم له الكمال المطلق الذى لا غاية فوقه فيسمع من دعاه ويجيبه ، وأنه القادر المدبر لأمر السموات والارض الرءوف الرحيم فانه يعلم ويعتقد أن الدعاء أكبر وسيلة بل كل وسيلة تخلو منه ولا يقارنها فانها لا تؤثر الا فى جنس مثلها . وجميع أهل الأديان الذين يقرون بالله سبحانه يعلمون أن الدعاء من أعظم الوسائل ، ولم يخالف فى ذلك الا الملاحدة الدهرية ، بل المشركون الذين يقرون بالخالق تعالى يدعونه فى الشدّة ، لأنهم يعلمون أن الدعاء هو أعظم الوسائل ، ولهذا يتركون دعاء آلهتهم فى أحرج وقت لانهم يعلمون أن دعاء الله هو الذى ينفع وحده فى الشدة كما قال تعالى ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ الآية . ومع ذلك فهم كفار ، فكيف بمن أنكر إفادة الدعاء مطلقا ، وهذا الملحد لما كان دهريا خبيثا يعتقد ان هذا الكون انما يجرى على نواميس الطبيعة حيث ذكر فيما تقدم أن النواميس المولودة من المادة هى التى تحكم هذا العالم ، فالحوادث كلها ترجع الى تفاعل طبيعى مرتبط بعضه ببعض ، فليس هناك رب له هيمنة عامة على الأسباب ومسبباتها وهى تجرى على مقتضى المشيئة فيجيب من دعاه وينفع من استغاث به ولجأ اليه واستعان به ويعاقب من عصاه اذا شاء ولو جمع من الاسباب ما لا يحصر ، لما كان يعتقد هذا الاعتقاد الذى هو كفر ظاهر بنى عليه هذا القول الذى هو كفر واضح ، ولا شك على هذا الاعتقاد أن الدعاء لا فائدة فيه ، فإن هذا القول مناسب لذلك الاعتقاد

عمد هذا الملحد إلى أعظم مظهر من مظاهر دين الاسلام وعبادة الله التى خلق الخلق لأجلها فادّعى أن ذلك مصرف خبيث أى عمل خبيث وأنه مفسدة وملهاة ومعوق لا فائدة فيه بين أمم تدّعى الاسلام ثم مع ذلك يقول ويدعى أنه وفق بين روح الدين وروح العمل ، بل يدعى أنه انما قال ذلك لأجل أن يكون ايمانه كايمان عمر بن الخطاب ، وأن هذه حقائق لا يستغنى عنها مسلم ، فيا سبحان الله أين العقول .

لقد هُزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا الذى ادعاه هنا هو تفسير قوله فى المبحث الاول ان الاخلاق الدينية المحض لها نتائج أخرى ، يعنى بهذه النتائج الأخرى هذه الخبائث التى ذكرها هنا وهى المفسدة والخبث والملهاة والتعويق وعدم الفائدة ، هذى هى النتائج الاخرى وهذى هى الأغلال النكراء ، ولا شك أنها لا تفيد المجد المنشود ، فانه لما ذكر أن سبيل المجد المنشود ينحصر فى الاخلاق الصناعية فذكر أنها هى التى تعز الشعوب ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى فذكرها هنا وهى هذه الاخلاق المشار اليها كما ترى ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾

ولم نعلم أحدا من الكفار من الأولين والآخرين اجترأ على التفوه بهذا المقال ، وكل من له دين وعقل صحيح يعلم بلا أدنى شك أن هذا الرجل ملحد زنديق لا يعتقد خالقا ، وانما يحتج ببعض الآيات قصداً لإفسادها وتشكيكا فى القرآن ومكرا وخداعا وتمويها على الاغبياء ممن أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . وكيف يخفى على من عرف دين الاسلام أن هذا كفر صريح واضح لا ريب فيه ، وكيف يخفى كفر من ادعى أن عبادة الله التى هى دينه مفسدة وملهاة وخبث لا فائدة فيه ، وكيف يخفى على من عرف الاسلام كفر من ساوى بين الله وبين المعدومات أو الاوثان التى لا فائدة فى دعائها وانما هو ملهاة ومفسدة ، هذا لو لم يكن فى هذه الأغلال الا هذا الغل ، فكيف وأكثره كذلك كما يأتى ، وفى الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال «الدعاء هو العبادة» وفى حديث أنس «الدعاء مخ العبادة» وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وانما كان الدعاء هو العبادة لانه أعظم مظاهرها فانه روحها السارى فيها ، لأنه يتأتى فى جميع الاعمال الشرعية القولية والفعلية والمالية ، فهو نور العبادة وروحها ولبها الذى تدور عليه ، ولهذا وجه

هذا الملحد الخبيث جهده فى محاربة هذا المظهر الأكبر فانه أعظم من الصلاة ، فانها لا تصح إلا به وهو يصح بدونها ، فهو توجه وافتقار حالى قولى مناسب للفقر الذاتى الانسانى ، وقد جعله هذا الملحد مضادا للايمان بالانسان ، وهو كذلك فانه مضاد للايمان بالانسان الذى يوجب الكفر بالله ، مناسب للايمان بالانسان على الوجه المشروع ، فان الانسان محتاج دائما فهو فقير الى خالقه الغنى بالذات ، فاتصاله بخالقه بواسطة الدعاء هو الذى يقويه ويزكيه ، فاتصال الانسان بخالقه أمر ضرورى لا بد له منه بهذا السبب (١) فهو السبب الأكبر الوحيد بين العبد وبين ربه ، فأراد هذا الملحد المغرور قرضه وقطعه ، وهيهات بئسما سولت له نفسه ، وانما كان ساريا فى العبادات لان حقيقتها توجه حالى فعلى فيتناسب مع التوجه القولى ، ولأن الاعمال الفعلية والمالية تحققه وتصدقه وتقويه ، وقد قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ أى ما يكترث بكم ربى لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد ، فعبر عن العبادة هنا بالدعاء لانه ركنها الاكبر كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وهنا قال ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى عبادتكم كما تقدم فى الحديث « الدعاء هو العبادة » فقد كذبتم رسله فكان تكذيب الرسل ملازما لانكار إفراد الخالق بالدعاء أو انكار فائدة الدعاء مطلقا ، ومن صدّقهم فمن لازمه أن يستعمل دعاء الله وحده بكل حال ، فهؤلاء الملاحدة لما كانوا مكذبين الرسل ولا يرون أنهم أتوا بشىء جديد ينفع الناس فلم يهبوا الحياة شيئا جديدا وانما صنع الحياة المتحللون من الأديان أنكروا منفعة الدعاء لأنه من أعظم الاسباب التى جاءوا بها ، وكفى به سببا صحيحا لو أعطى حقه ، فمن لازم تصديق الرسل استعمال الدعاء واعتقاد نفعه ، ومن لازم تكذيبهم ترك الدعاء واعتقاد أنه لا فائدة فيه او التشكيك فيه قال تعالى ﴿ فسوف يكون

---

(١) كما قال تعالى ﴿ يا ايها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾

لزاما ﴾ وهذا صريح فى أن كل من كذب الرسل واستكبر عن دعائه أن سيلازمه العذاب ويعامل بنقيض قصده ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ فانه عبر فى واحدة بان الحكمة فى ايجاد الخلق حصول الدعاء وفى الثانية العبادة ، وقرن بينهما فى قوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فربط الدعاء بالعبادة لانه مخها وروحها . فكل هؤلاء الخبثاء الذين شمخوا بانوفهم المرغمة المأفونة انما تركوا الدعاء استكبارا وقد اخبر أنهم سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين ، وقال تعالى ﴿ أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ﴾ ومن يقول انه لا فائدة فيه وانه مفسدة وملهاة يقول لا يجيب المضطر وليس بكفء لان يدعى فلا يكشف السوء فليس له من فائدة ، وقال تعالى ﴿ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ ومن يقول ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة وانه مصرف خبيث يعاند هذه الآية ويعاكسها ويقول لا يجيب دعوة الداعى لانه ليس بوسيلة اذ لو كان وسيلة أو فيه فائدة لأجاب دعوة الداعى ، إذ الاجابه أكبر فائدة ، فمن يقول انه لا فائدة فيه يقول لا يجيب دعوة الداعى وانما دعوته مفسدة وملهاة ومصرف خبيث فلا يحصل له الا عكس دعائه ورده لانه إنما يدعو معدوما أو عاجزا ليس بكفء للدعاء ، اذ القادر الحكيم العليم الرحيم الرءوف العظيم هو الذى يجيب دعوة الداعى . ولا شك أن كلام هذا الملحد معاكس للنصوص الدينية ولا سيما فى الأصول ، فانه يقصد أعظم أصل فى الدين فلا يكتفى بالقدح فيه فى موضع واحد بل كلما قدح فيه وأبعد هنيهة رجع اليه ثانيا وهكذا ومعلوم أن الرسول ﷺ كان يستعمل الدعاء فى الأوقات الحرجة عند مقابلة عدوه كما قال تعالى ﴿ اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ فانه يوم بدر قام عليه السلام يصلى

ويدعو كل الليل ، فاستعمل هذا السلاح الجبار على وجهه فحصل النجاح الكامل ، ولو كان الدعاء لا فائدة فيه وأنه مفسدة وملهاة لزم ان يكون ذنبا ويكون الرسول ارتكب هذا الذنب العظيم وأمر الناس كلهم بذلك ، وهذا عكس صريح الدين ، بل هو تسفيه للانبياء وجميع أهل الأديان ، وهو قد بين هذا حيث ذكر أنهم لم ياتوا بشيء جديد ينفع الناس ، فقبح الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

ولم تزل الامة المحمدية الاسلامية وقبلها الامم المتدينة تدعو ربها وتسأله وتعبده وتستغيث به حتى جاء هذا العي الدعي الذى قضى أول عمره [1] فى أمور معروفة لا داعى الى شرحها ، جاء هذا الملحد الزنديق فزقا بهذه المقالة الملعونة التى يستحى كثير من الكفار من التفوّه بها ، ثم يقول مع ذلك انه يريد بهذا أن يكون إيمانه كايمان عمر بن الخطاب المشهود له بالجنة

أمور تضحك السفهاء منهـــا ويبكى من عواقبهـــا اللبيب

ومما يبين لك أن هذا الملحد مخسوف القلب مطموس البصيرة أنه قرن السباب والاتهام بالدعاء فى قوله الآتى قريبا حيث قال « أما السباب والدعاء والاتهام فهو المصرف الخبيث والملهاة المفسدة المعوقة للبشر » فجعل حكم هذه الأمور واحدا على السواء ، جعل ركن العبادة كالقذف واللعن المحرم شرعا ، جعل العبادة التى اعترف بأنها عبادة بلا ريب ولا خلاف مثل السباب والاتهام الذى هو أقوال محرمة أو مكروهة شرعا ، فهذا برهان على أنه لا يرى عبادة رب العالمين شيئا معتبرا ، ولا يفرق بين العبادات والمعاصى ، ولا يفرق بين الله والاصنام والأوثان والاوهام التى لا حقيقة لها ، فالجميع لا فائدة فى دعائها وليس بوسيلة بل هو ملهاة وتعويق ومفسدة ومصرف خبيث ، فهو لا يرى العبادات الا من جنس المعاصى والمعاصى لا يراها الا من جنس

---

(١) فى أطراف البحرين

غيرها من الكلام ، كلمات خفيفات مبهمات كما صرح بذلك ، وكل هذا إنما يتأتى على أصل الالحاد ، فمن المحال أن يصدر هذا عن قلب يقر بالربوبية ويعلم انه مسئول عن هذا ، وقد طرد هذا الاصل الخبيث فيما يأتى فادعى أن الخطب التى تتلى على المنابر لانها تتضمن الدعاء والذكر وتعظيم الرب لا فائدة فيها بل هى شر ، وكذلك المساجد لم تؤدّ إلا الشر ، فانه قال فى المنابر والمساجد قد أدّت شر ما يؤدى ، وهنا يدعى أن الدعاء لا فائدة فيه ، بل دعوى أنه ملهاة ومفسدة ومصرف خبيث كدعوى أنه شر يؤدى أو أعظم من ذلك ، ثم مع هذا يقرنه بالسب والاتهام فجعل الشتم والقذف الذى هو السب ونحو ذلك من جنس الدعاء الذى هو ذكر لله تعالى وعبادة له ، ولعله لما رأى الجميع حروفاً وأصواتاً جعل الحكم فى ذلك واحدا بالقياس ، ولكنه لم يطرده فى كتابه لأنه كلام أيضا بل جعل الأمة انما تبصر طريق العقل به ، وجعل النهوض موقوفا على الأخذ به ، والسقوط على تركه واضاعته ، فسبحان من طبع على قلبه

واذا عكس هذا المعكوس وقال اننا نرى كثيرا يدْعون فلا يعطون ما طلبوا ، قلنا نعكس عليك رجسك ونقول أنت ادعيت فى هذه الأغلال كما يأتى أن كثيرا من الناس يبذلون أسبابا كثيرة ولا ينجحون ، ثم أجبت عن هذا دفاعا عن الأسباب المادية بانهم يبذلونها ويفعلونها قاصرة شاكين فيها وفى أنفسهم غير جازمين بالنجاح ، فلم يعملوا عمل من يجزم بالنجاح فلهذا لم ينجحوا ، وإلا فلو عملوا بها غير شاكين فيها وفى أنفسهم لنجحوا ، وحينئذ نقول لك فى هذا السبب الدينى كما قلته فى الأسباب الماديه سواء بسواء ، وحبوط الأسباب المادية التى تجرى عن غير وجهها أو ضعيفة أكثر فى المشاهد من عدم حصول المطلوب فى الدعاء ، ونقول ان أكبر سبب مادى فى الوجود لا يمكن تأثيره وحصول نتيجته إلا بوجود شروطه وانتفاء موانعه ، وليس فى الوجود كله سبب مستقل بنتيجته حتما بدون شروطه وانتفاء موانعه إلا

مشيئة الله تعالى ، فهؤلاء الداعون الذين لم ينجحوا أحيانا لم يأتوا بهذا السبب على وجهه صحيحا نقيا ، بل يأتون به ضعيفا أو مقرونا بما يبطله ، أو يعملون أعمالا تضاد مقتضاه ونتيجته ، فلا تكون نتيجته الا ضعيفة جدا كالسبب المادى الذى يقارنه ما يضعفه ، بل الدعاء لا بد له من نتيجة فلا يذهب سدى أبدا ، ولو أن الداعى أتى بالدعاء على وجهه كما أمر بذلك لحصل له مقصوده بلا ريب ، كما تقوله أنت فى الأسباب المادية سواء بسواء ، والله سبحانه أمر عباده بالدعاء ووعدهم أن يستجيب لهم ، وأمرهم مع ذلك أن يستجيبوا له كما قال ﴿واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ فبين فى هذه الآية الشروط التى تترتب عليها الاجابة أنها الاجابة له والايمان به ، فمن آمن بالله واستجاب له استجاب الله دعاءه ومن تمرد واستكبر وأعرض ونبذ أمر الله وراءه ظهريا أو تساهل فيه فان شاء الله استجاب له وان شاء لم يستجب له عدلا ، وهذا الملحد نفسه قد غلا فى الأسباب المادية غلواً تجاوز به الى حد الجنون ، وأسرف فى تسفيه الأسباب الدينية إسرافا تجاوز به الى حد الكفر ، فنقول له من المعلوم أن أكبر سبب فى الوجود عندك هو معرفة قوانين الطبيعة ونواميسها ، وليس فى هذه الارض أعلم من ألمانيا بهذا الشأن ، وعندها من الأسباب المادية والصناعية والكيمائيه ما قد عرفه العالم كله ، ومع هذا فقد حبطت أسبابها وعادت عليها نكبة عظيمة ولم تحصل على نتيجتها التى طلبتها بهذه الأسباب ، فما رأيناك تذم سببا واحدا من هذه الاسباب مع كثرتها ووضوح تخلف نتائجها وبطلانها كثيرا بل وفسادها وحصول ضدها فى بعض الأحيان ، وغاية ما تعتذر به عن ألمانيا وغيرها من الدول التى سقطت فى هذه الحروب وغيرها بأن أسبابها هذه عارضتها أسباب أكبر منها وأن أهلها وقعوا فى أغلاط أفسدت تأثيرها . فيقال لك حينئذ : وهكذا نقول فى الأسباب الدينية كالدعاء فان أهله عملوا معه أعظم مما عملته ألمانيا فى أسبابها ، ثم نقول أيضا : ان

اعترافك بانهـا أسباب قوية مؤثرة ومع ذلك بطل تأثيرها كاف فى بطـلان حجتك ، لأن حجتك دائرة على وجوب وجود النتيجة من السبب حتما ، فهى هنا لم توجد مع هذا السبب الاكبر عندك ، فكيف بدونه ، وأنت هنا نفيت كون الدعاء سببا لأنك قلت ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، فلم تكتف بنفى النتيجة حتى نفيت السببية فيه أيضا مع النتيجة ، فيلزمك أن تنفى سببية هـذه الأمور الصناعية والـكيمائيـة لان السبب الذى نفيت به سببية الدعاء ونتيجته موجود فى الأمور الصناعية والـكيمائية وغيرها وهو عـدم حصول المطلوب الذى بذل له هذا السبب كالانتصار فى الأسباب المادية ، والاجابة فى الأسباب الدينية كالدعاء لأن تلك الأسباب المادية لم تفعل وتهيـأ الا للانتصار والدفاع فلم يحصل كل منهما ، والدعاء بذل للاجابة فيما ينتفع به الانسان فى الأمور المباحة والمشروعة ، فلو قدر أن المطلوب لم يحصل فضده لم يحصل أى لم يحصل ضرر منه ، فكان من هذه الناحية أولى بالاعتراف بسببيته . وأنت عاكست الحقيقة فعمدت الى أسباب قد علم بالحس والمشاهدة بطـلان نتائجها وحصول ما يضاد ما بذلت له فغلوت فيها ، وبذلت جهدك فى الحث عليها والاعـــتماد عليها واعتقاد أنها موجبة حصول نتائجها بذاتها حتما ، ثم عمدت الى أكبر سبب فى الوجود وأجمعت عليه الأديان السماوية كلها وعرف تأثـيره بالشرع والعقل والضرورة والحس والاستقراء ، ولم يثبت فيه ضرر بالكلية ، فادعيت أنه ليس بوسيلة ، فنفيت كونه سببا ، ولم تكتف بذلك حتى قلت وليس له من فائدة ، فنفيت النتيجة ، ولم تكتف أيضا بذلك حتى قلت هو المصرف الخبيث والملهاة والمفسدة ، فجعلته ضررا محضا مع اعترافك بأنه عبادة ، ومع اعترافك بأن الخلق خلقوا للعبادة ، أليس هذا كله معاكسة الدين ومعاندة لرب العالمين

ثم اذا كانت هذه الأسباب المادية التى لم تحصل نتائجها بل حصل ضدها لم تنف عنها السببية فكيف تنفى عن الدعاء ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هـــذه الأمصار الاسلامية قد بذلت أسبابا عظيمة مادية لا تعدّ ولا تحصى فى طلب

الاستقلال وطلب أمور أخرى ، وكثير منها ذهب هواء ولم يحصل مسببه ، فاذا قال القائل انهم يدعون ولا يستجاب لهم قيل ويبذلون أسبابا مادية كبرى ولم يحصل مسببها ، ولم يوجب ذلك الطعن فيها فكيف يوجب الطعن فى الدعاء مع أننا نعلم ونشهد شهادة الحق اذا شهد أعداؤنا شهادة الزور بأن الدعاء لو كان يبذل ويعمل به فى الجد والاجتهاد كما يعمل بهذه الاسباب المادية لحصلت النتيجة بلا ريب ، ومن هو الذى يعلم أن هذه الأمصار الاسلامية لولا هذه الدعوات لكان لها شأن آخر ، وها هم يفرحون ويمرحون ويتقلبون فى نعم لا تعد ولا تحصى بينما كثير ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا أصبحوا يتقلبون فى أنواع البؤس والشقاء والعناء والعذاب الفظيع ، انه لا يوجد انسان رشيد صحيح العقل يعطى ولده الصغير كل ما طلبه واشتهاه مهما كانت حالته فى الرحمة والعطف والحنان ، بل لا يعطيه الا ما يراه صالحا له لا مفسدة فيه . ومعلوم أن نسبة جهل الانسان الى علم الرب أعظم من جهل الصغير بالنسبة الى أبيه ، هذا وهو يحبه ، فكيف اذا عانده وتمرد عليه وذهب يستعمل ما يخل بصحته ويفسد أموره

ان كل ما يبذله هؤلاء الداعون وهؤلاء المصلون وغيرهم يعرف كل أحد أنه لو استعمل كما تستعمل هذه الأمور الدنيوية التى يجتهد أهلها فى تأديتها والمحافظة عليها وعلى سمتها وعلى الاتيان بها صحيحة قوية لكان لها أكبر الأثر فكيف يؤتى بها على حالة شوهاء أو بفتور ورداءة همة وضعف وشك وغير ذلك ثم لا يتخلف بعض نتائجها . إن أكبر شىء اعتمد عليه هـذا الملحد وأطال الجدال والعناد فيه هو أن الناس يشكون فى قدرتهم وفى أعمالهم بالذات ويدعى انه لم يفسدهم ولم يوهنهم إلا هذا الشك ، وإلا فلو عملوا غير شاكين لحصل لهم مطلوبهم حتما . ومعلوم عند أدنى عاقل أنه لو فرض وجود هذا الذى يدعيه فى الاعمال من الشك فشكهم وفتورهم فى العبادات أشنع وأبشع وأعظم ، فلماذا يتحامل على دعاء الله وديانته والدائنين بها هذا التحامل المنكر

ويقدح فيها هذا القدح العظيم

سبحان الله ، من هو الذى يستطيع أن يحكم على أفراد هذا العالم أن كل من دعا منهم فلا يستجاب له ، وأن دعاءه ملهاة ومصرف خبيث ، مع أنهم كلهم - حاشا ملحد - يدعون ويفزعون الى ربهم سائلين حاجاتهم المختلفة دائما ، وقد وجدوا تأثير ذلك أظهر من أن يكابر فيه ، وليس فيهم أحد يشك أنه سبب من أقوى الأسباب ، انما يشكون فى أنفسهم لما يعرفون من تقصيرهم فى موجبات الإجابة ، ولو قيل لأدنى عامى فضلا من غيره إن دعاءك ليس بسبب ولا له فائدة لا نكر ذلك بفطرته الدينية التى فطره الله عليها ، لأنه يعلم أن ربه ليس بمعدوم ولا كالجمادات التى لا تسمع ولا تجيب من يدعوها . فكون الدعاء وسيلة من أعظم الوسائل أمر قد علم بالضرورة كما علم وجود الله سواء ، لأن جميع من أقر بالله وبأنه رب متصرف فى خلقه رحيم ودود عليم حكيم سميع مجيب فلا بد أن يدعوه ولا بد أن يعترف بأن الدعاء وسيلة وأن فيه أكبر الفوائد ، بخلاف من لا يعتقد ذلك كالملاحدة وعباد الطبائع لذاتها فانهم لا يدعون الله لأن الدعاء عندهم ليس بوسيلة وليس له من فائدة بل هو مفسدة وتعويق ، قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فأخبر انه لا أضل ممن دعا من لا يستجيب له ، ولا شك ان من ادعى ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة فقد حكم على الله بأنه جعل من دعاه ضالا فى غاية الضلال

ومما يجب أن يعلم أن الله سبحانه ذكر الاجابة بعد الدعاء ، والاجابة لا تتضمن اعطاء الشيء المطلوب من كل وجه ، فقوله تعالى ﴿ وإذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وغيرها من الآيات

انما دلت على الاجابة وهى أعم من إعطاء السؤال ، فان الداعى أعم من السائل ، وإجابة الداعى أعم من إعطاء السائل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسالنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » ففرق بين الداعى والسائل وبين الاجابة والاعطاء ، وهو فرق بالعموم والخصوص ، كما اتبع ذلك بالمستغفر فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص ، فاذا علم العباد أنه قريب مجيب يجيب دعوة الداعى ، وعلموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله ، وعلموا علمه ورحمته وقدرته دعوه دعاء العبادة فى حال ، ودعاء المسئلة فى حال ، وجمعوا بينهما فى حال ، اذ الدعاء يجمع العبادة والاستغاثة والاستعاذه ، فاجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء المسئول ، كما فسره النبى ﷺ فيما رواه مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها احدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنه من الشر مثلها . قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال الله أكثر » فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد فى الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا أو مثله من الخير مؤجلا أو يصرف عنه من السوء مثله . ثم انه من المعلوم عند جميع العقلاء بدون أدنى نزاع أنه ليس لأحد أن يحكم على كل الأشياء بحسب ما يراه ويسمعه ، فيدعو مثلا فلا يستجاب له ، فيأتى الى سبب اتفق الناس كلهم من جميع أهل الأديان على أنه سبب من أعظم الأسباب ثم ينكره بمجرد أنه لم يستجب له فيما يرى فى مسئلة أو مسائل لأجل موانع أو عوارض فيه وفى دعائه ، وكيف ينكر الانسان سببا مجمعا عليه من أهل الأديان ثم لا يسند إنكاره أيضا الى حجة ، وغاية ما يدعى أنه فعل ذلك فلم يحصل له مرة أو مرارا ، ثم ماذا يكون ، فهل يتحكم فى شرع الله بمجرد ذلك ، وكل عارف يعلم أن عدم العلم بالشىء ليس علما

بعدمه (١) وكيف ينكر المسلم الذى يدعى أنه مصدّق بما أنزل الله أن الله لا يجيب دعوة الداعى وهذه اجابته لعباده متواترة أكثر من أن تحصر وأظهر من أن تذكر ، وليس من شرط إجابته أن يفهمها وينظرها من طبع الله قلبه وكان فى شك من دينه ، وليس من شرط اجابة الدعاء أن تكون الاجابة إعطاء الانسان على ما يشاء هو ويشتهى ، فان الله سبحانه يفعل ما يشاء بعبده على ما تقتضيه رحمته وعدله وحكمته لا على ما يشتهيه عباده ويتمنون ، فانه سبحانه أعلم بمصالحهم وأعلم بعواقب الأمور ، كما انه ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته وأفعاله التى منها إجابته ، فليست إجابته كاجابة المخلوقين من كل وجه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

هذا وليعلم أن الدعاء ليس سببا مباشرا كالأسباب المادية من كل وجه ، بل هو سبب دينى أعلى ، وليست الأسباب المباشرة بأقوى من غيرها ، فهذه أسباب الدعاية ليست بسبب مباشر ، وجميع الدول تستعملها بقوة وبراعة ومهارة زائدة وتبذل فى سبيلها أموالا طائلة ، وقد تنجح وقد لا تنجح ، ولو أن انسانا كتب ونشر وادّعى أنها ليست بسبب وليس لها من فائدة بمجرد أنها لم تنفع فى بعض الأحيان أو أنها ليست بسبب مادّى لكذبه الناس وسفهوا رأيه ، هذا مع أنها قد تفيد وقد لا تفيد ، وليس فى الشرع نفى لها

---

(١) وها نحن نرى هؤلاء الأطباء وهذه المستشفيات ليس كل من دخلها وعالجه الأطباء يحصل له الشفاء مع أنه يسلم نفسه للعلاج وللطبيب تسليما كاملا ، ولو أن رجلا أو جماعات دخلوا مستشفى وعالجهم طبيبه فلم يؤثر ذلك فيهم فكتبوا ونادوا أن الطب لا فائدة فيه وليس بوسيلة الى الصحة لضج الاطباء وغيرهم وشتموهم وسبوهم وسفهوا رأيهم ، مع إقرارهم بأنه ليس كل من تداوى يحصل له الشفاء . ومعلوم أن عدم حصول الشفاء أكثر من عدم اجابة الدعاء لمن استعمله استعمال من يعالج . ثم ان المريض لا يعمل معه الطبيب إلا على ما يراه الطبيب نافعا له ، لا على ما يراه المريض بكل حال

أو اثبات بالاجمال ، فكيف بالسبب الذى هو روح الدين والذى عاش بوجوده الوجود أجمع . هذا وليعلم أيضا اننا لسنا نقول ان المشاكل التى شرعت لها الأسباب الدينية والمادية يكفى فيها الدعاء وحده ، فان الله سبحانه أرشد الى العمل كما أمر بالدعاء وبين أنه سبب لهذا الشىء ، فلا بد من وجود السبب المادى مع الدينى ، فالدينى هو السبب الأصلى والمادى فرع له فلا بد من وجود الاصل مع الفرع ، واذا بنى الفرع على غير أصل انهار على من بناه ، والله سبحانه بين مصالح الانسان وبين الطرق التى بها تستحصل هذه المصالح ، فمن أخذ بهذه الطرق استحصل على المصالح ومن تركها لم يصل اليها ، والطرق هى هذه الدينية والدنيوية ، فالجهل والبطالة ونحو ذلك تستحصل ازالته بالتعلم والتعليم وتيسير وسائل العمل ، ويستعمل مع ذلك الدعاء ، فان الدعاء للأعمال كلها كالروح والحياة التى تلهبها وتدفعها وتمنعها من الفساد ، واذا خلا العمل من الدعاء فقد خلا من القوة النافعة ، كالجسم اذا خـــلا من الروح كان عرضة للوحوش والحشرات وغيرها . وأما الجدب ونحوه فيستعمل فى ازالته الدعاء ونحوه من الاعمال الدينية كالصدقة لأنه من الأمور الغيبية ومن خزائنه الكبرى ، فان وجود المطر مفتاح لخيرات كثيرة ، وقد قال تعالى ﴿ وان من شىء الا عندنا خزائنه ﴾ اى فليطلب منا . فالحاصل أن الانسان يجب عليه فعل ما ينفعه دنيا ودينا بفعل الاسباب العادية التى فى طاقة البشر ، ويستعين بالله تعالى على انجاح قصده ومراده ، كما قال النبى ﷺ «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، فان أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » ففى هذا الحديث بيان أن الانسان يجب عليه الحرص عـــلى ما ينفعه بفعل الأسباب ، ويستعين الله تعالى فيدعوه ولا يعجز ويكسل ويصير الى البطالة ، وأن نجاحه تحت مشيئة الله ولكن الله سبحانه كريم رءوف رحيم يعين من استعان به صادقا مخلصا ، فلا يخيب من التجأ اليه باخلاص وصدق ابدا ، أما

رفض الدعاء والتكبر عنه فكفر صريح وهلاك وبلاء محتوم ، وأما رفض العمل وعدم فعل السبب فنقص فى العقل وسفه فى الرأى ، فانه تعالى أرشد الى فعل الأسباب المادية وفرض فعل الأسباب الدينية ، فمن اقتصر على احدهما فقد خالف سنته الدينية والكونية التى شرعها لعباده ، فاذا حصل له نقص فى عمله فلأنه قصر فيما أمر به فجاء به منقوصا فحصل له النقص بمقدار ما أتى من النقص فى الأمور المشروعة

فصل

ثم قال : « وبيان ذلك أن انسانا ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر أو أمة على أمة أخرى لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان والمنافسة والحقد صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة من الممكن أو من المؤكد أن تدفع ذلك الحانق الغاضب الى العمل والانتقام والبطش ، ولا محالة فى أن تدفع هذه القوة فى سبيل ما من سبل الانتقام ، والسبيل الطبيعى النافع لها أن تدفع فى سبيل الانتقام أو البطش أو العمل والانتاج ، أى ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق ويسبق منافسه الذى أضرم فى قلبه نار الغيظ ، ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفسا أو طريقا آخر غير هذا الطريق الطبيعى انطلقت فيه فألفت فى انطلاقها هذا تعويضا ومصرفا على الوجه الآخر ، هذا فى كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع » انتهى

قلت: قد تبين لك من هذا أن مستنده الى دعوى كون الدعاء ليس بوسيلة ولا له فائدة وأنه مصرف خبيث ومفسدة وملهاة الخ هو ما ادّعاه هنا فى هذه الجملة ، هذا هو برهانه ومستنده على انكار نفع الدعاء ، فاعتقد أن الدعاء يصير متنفسا للغضب والحقد الذى أضرمه حب المنافسة والاحقاد والمطامع ، وهذا الذى قاله هنا إنما يتأتى على ما ذكرناه من الحاده الصريح ، ولهذا فانه لم يذكر أن الذى أضرمه الاستعباد والكفر والظلم وسبّ الله ودينه وأنبيائه

وأن يكون الدين لله وحده فلا شيء من ذلك ، بل جرى على عادة السفهاء والنوكى والحمقى والملاحدة الأشقياء ، لأن كل هؤلاء إنما ينتقمون لأغراضهم وأنفسهم وشهواتهم لا للدين ولا للانسانية ، فلهذا كانوا ينهارون دائما اذا حصل ما يسد هذه الحاجات الشخصية ويقمع هذه الأغراض النفسية كالرشوة وغيرها ، فما ذكره من وجوب العمل على الشعوب الحانقة الغاضبة على أعدائها وكون العمل وحده هو النافع للقوى المندفعة بالضغط فهذا لا يصح ، وكل هذا التقرير الذى ادعاه فى هذه الجملة تقرير ساقط بالمرة ، وذلك أننا نقول إن الدعاء لا ينافى العمل ولا يضعف القوى بل يلهبها ويدفعها اذا كان العامل غير ملحد ، فان الدعاء هو الذى يقوى العمل ، فان حرارة الايمان الذى جزؤه الدعاء هى التى تقوى العامل وتنشطه وتنجح العمل وتكمله ، فان الدعاء دليل على قوة الايمان وقوة الاعتقاد ، وذلك دليل على شدة حرارة الايمان المحرك للعمل ، ومعلوم أن قوة الحركة بقدر قوة الحرارة التى يكون بها قوة العمل وضعفه ، فقوة العمل وضعفه نتيجة الأمل الكبير والايمان العظيم ، وكلما اشتد الايمان وعظم الأمل وقوى كثر الدعاء ، فهو كالحرارة الصاعدة التى تتصل بنار مضغوطة فلا بد للنار المضغوطة من متنفس مقدر ، وتنفسها هذا مما يقويها ويزيد حرارتها كالآلات الكبيرة فى المصانع العظيمة فانه لا بد أن يكون لحرارتها متنفس وإلا فسدت فطفئت أو خربت ، وبكثرة الدعاء يكون كثرة العمل وقوته ، فالدعاء عنوان على الحرارة المحركة للعمل والانتاج وهى الحرارة الايمانية والدافعة للفعل فبقدر قوة حرارة الإيمان يكون الدعاء والعمل والانتاج فى الكثرة ، وكلما ضعف الايمان قل الدعاء وضعفت الحركة فيضعف الانتاج ، فالدعاء عمل ظاهر قولى والايمان توجه حالى اعتقادى باطنى ، وحركة المؤمن عمل فعلى ، وكل هذه متصل بعضها ببعض ، لأن الدعاء عنوان على الحرارة الدالة على الحركة الدالة على الانتاج ، ومعلوم أن الانتاج انما يكون بقدر قوة الحركة واعتدال سيرها ، وقوة الحركة واعتدال

سيرها انما يكون بقدر الحرارة التى تدفعها ، وبقدر الوقود تكون الحرارة ، والوقود هو مشاهدة الأوامر الدينية وحب الله ودينه وكتابه وخوفه ورجاؤه ، فالاعمال الصالحة هى الوقود والدعاء هو الذى يلهبها ويذكيها ويضرمها ، وعظمته بمقدار عظمة الايمان ، فاذا اجتمعت هذه الشروط التى هى الدعاء والايمان والعمل حصل الانتاج الصحيح وحصل الاستمرار فيه ، واذا اختل الايمان أو الدعاء ضعفت الحركة وبضعفها يضعف الانتاج ولا سيما اذا ضعف الوقود فانها تطفأ وربما يستبدل بوقود غيره اذا كانت العوامل الحادية فيكون الوقود من شىء خبيث ضعيف كالروث فلا بد من فساد نتيجتها وانهيارها بحسب ما يعتريها من النقص والاختلال

فصل

ثم قال : « وقد كان المفروض فى هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما حتمى لتحطيم هذه الحواجز والقيود والاغلال والفروق الظاهرة المخزية تدفعها قوة الحنق أو قوة الحسد والمنافسة »

قلت : وهذا أيضا لا ينافى الدعاء ، لكن اذا كان الدافع هو الحنق والحسد والمنافسة ونحو ذلك من الامور النفسانية الدنيوية فقل أن يصحبه الدعاء الخالص النافع ، بل الحق أن يكون الدافع هو الايمان ، وأن تكون كلمة الله هى العليا ، واقامة العدل وازالة الظلم والاستعباد ، فان الدعاء على هذا الوجه يكون من أعظم المكملات لذلك ، وأما الحنق والحسد والمنافسة فتلك عوارض نفسانية يمكن إزالتها وافسادها وتبديدها وردها بالرشوة والوعود والمطامع الأخرى وهى كثيرة ، لأن هذا الدافع كدافع الحيوان الأعجم ، ثم ان هذا المعارض قد نقض هذه الدعوى فادعى أن الحنق والحسد يجلب شرورا كثيرة حيث قال فى المبحث الخامس فى مسئلة الزهد : « وأما الحديث

القائل : انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الانسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذى ويظلم المحسود المنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الامرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة » انتهى . فانظر كيف صرح وادعى هنا بان الحسد والمنافسة تجلب شرورا كثيرة شاملة وآفات اجتماعيه ويحث على التخفيف من حالتهما ، وفى هذا المبحث يدعى أنها أعظم سلاح للاستقلال وينهى عن التخفيف منهما حتى ولو بالدعاء على رأيه ، لان ذلك عنده يبطل قواهما ، ثم يحث على أن تكون هى العوامل على إثارة الأعمال التى بها يحصل الانتقام ، وقد استكبر وشمخ بأنفه عن أن يقول تدفعها قوة الايمان الصادق والاعتقاد الخالص فى إرادة وجه الله والدار الآخرة ومحبته ورضاه ، وأن يكون الدين كله له ، فان هذا هو الاعتقاد النافع الصحيح كما هو الدافع القوى الجبار الذى لا يقف أمامه شىء ، فاستكبر عن هذا وسلك طريقة النوكى والحمق وأشباههم ممن غرضه ودافعه الحسد والغيرة وأمثال ذلك ، وهذه هى دوافع الحيوانات المتقاتلة (١) ولهـذا كان أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا

ثم قال « ولكن هؤلاء (٢) سلكوا طريقا آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفسية ، انهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والاتهام وسائر ألوان الكلام فوجدوا فى ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوة المتولدة من احتراق الانفعالات والعواطف المختلفة »

قلت : من يكون إيمانه صادقا واعتقاده قويا فإنه لايجد راحة بهذه الأمور

---

(١) فان الديكة ونحوها انما تتقاتل من أجل الغيرة ونحوها

(٢) يعنى الداعين

التى هى السباب والاتهام ونحو ذلك ، بل لا بد أن يسلك طريقا يتوصل به الى مراده وهدفه فيجدّ فى العمل والنظر ، ويكثر من الدعاء الذى منه الاستعانة بالله القادر الجبار القاهر ، فيستعمل الدعاء ويكثر منه ، لان ذلك يلهب ايمانه ويدفعه الى العمل والاجتهاد ، وليس السباب والاتهام مثل الدعاء ، نخلط بعضها ببعض كخلط المسك بالرجيع والطيب بالخبيث ، وهذا الملحد قد تكرر كلامه فى خلط الدعاء بالسباب والاتهام ، نخلط عبادته بمعاصيه ، وجعل المعصية مثل الايمان ، فالمؤمن الداعى الصحيح الايمان لا يسلك طريق صاحب السباب والاتهام ، بل يسير فى طريقه حتى يبلغ إحدى الحسنيين : إما النجاح ، واما الشهادة . فإن الايمان الصادق يطلب ما يلائمه وينفر مما يضاده ، فبوجود المضاد يبقى دائما ملتهبا ، والدعاء يزيده التهابا وحرارة ، ولا يستريح صاحبه بسب ولا اتهام كما لا يستريح بشتم وقذف ورشوة وغيرها ، فالدعاء له شأن آخر غير شان السباب والاتهام ، لأن الدعاء جزء من الايمان فهو يزداد بزيادة الايمان وينقص بنقصانه ، بخلاف السب والاتهام فانه يكثر مع المعاصى ولا سيما الانانية فان صاحب الانانية شديد السب والاتهام لغيره كصاحب هذه الأغلال فانه شديد الاعجاب بنفسه يرى أنه دائما مظلوم لم يعط ما يستحقه ولا يريد أن يشاركه فى الخير أحد الا اذا كان له فى ذلك حظ يستفيد به فى أموره الشخصية ، فقرن السباب والاتهام بالدعاء جريمة كبرى من أعظم الجرائم بل هى كفر صريح ، فمن قرن ذكر الله وعبادته بالقذف والشتم وسائر أنواع السب وجعل حكمهما واحدا فلا شك فى كفره وردته ، ولو أن رجلا دعا فى صلاته لكان ذلك من الحسن ، ولو سب أحدا أو قذفه فيها بشىء من السب والاتهام لبطلت صلاته باجماع المسلمين ، ولكان ذلك ذنبا من الذنوب فكيف يجعل السباب مثل الدعاء . ومن حذقه فى الخبث أنه ذكر الدعاء مع السب والاتهام وجعل لفظ الدعاء بينهما ، مسكين والله مسكين ، كأنه يخاطب أغناما لا تفهم ، ثم دعواه أنهم يجدون راحة بالسباب والدعاء والاتهام كذب ظاهر ،

بل المؤمن لا يجد راحة بهذه الأمور ، فانه لا يستريح لشيء من اللغو كالسب والاتهام ، ولا يستريح بالدعاء بدون العمل ، لان الدعاء وعوامله الباعثة عليه لا بد أن تدفعه الى العمل بالضرورة ، لأن الدعاء يدور مع الايمان ، وأما السباب فانما يستريح به السفهاء وأهل الرقص والغناء والخلاعة وأمثالهم من سفهاء الأحلام ، وليس الكلام مع هؤلاء لان هؤلاء انما تدفعهم أمور دنيوية بسيطة متى حصلت زال ذلك الدافع ، بخلاف الايمان والعمل الصالح والعواطف الدينية فانها لا تندفع الا بحصول مقتضياتها من العدل وازالة الظلم وغير ذلك من الأمور الدينية الصحيحة ، فالدعاء قسم مستقل بنفسه ليس بينه وبين السباب أدنى علاقة كما تقدم توضيحه غير مرة

فصل

ثم قال : « انها فروض ثلاثة : إما أن تدفع هذه العواطف الى العمل ، وإما إلى الكلام ، وإما أن تبقى هما مخامرا وغيظا دفينا تحتبس نيرانه المتوهجة فى النفس » . فيقال : ان كانت العواطف المذكورة أهواء وشهوات وحقدا وحسدا ونحو ذلك فان غالبها يقع كذلك ومآلها الى الثانى أى السباب والاتهام ، وأكثر ما توجد هذه الأمور فى الملاحدة لأنهم لما خليت قلوبهم من العواطف الدينية عوضوا بالحقد والحسد والحسرات والهموم والغموم المتوهجة التى لا متنفس لها الا بالكلام والسب والاتهام غالبا ، وأما الدعاء فقد أوضحنا أنه لا يوجد الا مصحوبا بالايمان ، فالملحد لا يدعو الله بل يحقد ويحسد وينافس ، وكثيرا ما تتهادم هذه الأخلاق بعضها ببعض فتكون وبالا على صاحبها . وأما المؤمن المخلص فيدعو ويعمل بلا ريب ، لأن عواطفه الصحيحة النقية تدفعه الى ذلك ، وأما المؤمن الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا فيدعو بقدر إيمانه ، ويحقد ويحسد بقدر ما معه من الشهوات والشبهات ، فالدعاء فرض رابع مستقل ، فلا بد من تأثيره ، ولا بد أن يكون أثره طيبا ،

بخلاف السباب والاتهام فأكثر ما تكون آثارهما وبيلة ما حقة

ثم قال « اما العمل فهو ما يجب أن يكون أثرا لهذه العواطف ، وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والابداع ، وأما الكلام - اى السباب والدعاء والاتهام - فهو المصرف الخبيث لها والملهاة المفسدة المعوقة للبشر عن الانتاج والعمل النافع » انتهى

قلت : قد صرح هذا الملحد كما ترى بأن الدعاء مصرف خبيث وملهاة مفسدة معوقة للبشر ، فأى كفر أظهر من هذا ، وقد سبق كلامه أن الدعاء هو العبادة فكانت عبادة الله عنده مصرفا خبيثا وملهاة مفسدة نعوذ بالله من مكره .
وقد تقدم غير مرة أن العمل الذى عامله غير ايمان صحيح بل عواطف نفسانية مختلفة ليس بمحتوم له النجاح ولو بلغ ما بلغ ، لكن اذا صادف عملا أو نتيجة عمل من جنسه فقد يحصل الترجيح والمكافأة به ، وقد لا يحصل الا النكبة من الجانبين ، وكل هذا يرجع الى التوازن فى الأعمال غالبا ، فلا يصح حكمه على العواطف بالنجاح والنفع مطلقا ، فان عمل العواطف النفسانية لا يعمل الا فى مثله أو دونه أو فى ما يقاربه فى الجنس لأنه عمل قاصر لقصور مصدره عن العمل الفطرى الدينى ، فلا بد فيه من الضعف بالنسبة الى العمل الدينى الصحيح فانه لا بد أن يكون ناجحا لانه عمل طبيعى فطرى ولأن عامله يسير بفطرته الصحيحة بين داعى الجمال الكامل ودافع النفرة من القبح النهائى والذل الذى لا يطاق ، فما ذكره من التقرير فهو ساقط من أصله

أما دعواه فى هذه الطامة الكبرى بأن دعاء الله هو المصرف الخبيث والملهاة المفسدة عن العمل فهذه الدعوى قد تقدم الكلام عليها ، وان هذا القول انما صدر عن اعتقاد الالحاد ، ولا يمكن أن يصدر هذا القول ممن يحترم الأديان أو يرى أنه مسئول عن ذلك ، ولقد بلغ هذا الملحد من الفسق والفجور والكفر والجرأة على الأديان مبلغا لم يصل اليه أكثر الكفرة ، ومن يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام أو يلتبس عليه كلامه فأنى ينفع فيه

الاسهاب والاطناب فى ردّه ، بل كثير من هؤلاء الخبثاء الاشقياء يودون ويتمنون بجدع الأنف وبكل ما فى جهودهم أن لو ارتموا فى أحضان هؤلاء الملاحدة وتمكنوا فيما تمكنوا فيه وانغمسوا فيما انغمسوا فيه ، فهؤلاء ينفرون عن كل مالا يلائم أهواءهم وميولهم من الأمور الدينية الطيبة كما تنفر الحمر المستنفرة فهم لا يبصرون ولا يسمعون لأى داع يصدّهم عن هذه الغاية التى يريدونها ويتمنونها ، فهؤلاء من جنس أسلافهم الذين قال الله فيهم ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ الآية . فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالأدلة الدينية ، وقد قدمنا اعتراف هذا الملحد بأن الدعاء عبادة بالاجماع ، وزيادة على ما سبق من إقرار هذا الملحد بأنه عبادة لا ريب فيها ننقل عبارته فى ذلك من الصراع ص ٢٤٢ ج ١ قال «ولا ريب أن العبادة اذا ما ورد ذكرها فى القرآن أو فى السنة المطلقة كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وقوله ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ وقوله ﴿ فاعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله ﴿ عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ وقوله ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله ﴾ ، ﴿ والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ونظائر ذلك من آى الكتاب الحكيم ، فلا ريب أن العبادة اذا أطلقت كما أطلقت هذه الآيات تضمنت الدعاء وغيره من أنواع العبادة كالصلاة والصيام والحج والزكاة والنذور وسائر الأعمال والاقوال التى يزدلف بها المسلم الى الله ويلتمس بها رضاه ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات تخص معنى دون معنى من هذه المعانى ، فلا يمكن إلا أن يكون من ضمن العبادة المطلقة فى هذه الآيات الصلاة أو الصيام أو الاستغفار أو التضرع أو الخشية

أو الدعاء . كما لا يمكن إلا أن يكون من ضمنها النداء والمناجاة ، بل ذلك كله داخل فى معنى العبادة المطلوبة المأمور بها ، ولا يختلف المسلمون فى ذلك ولا يقول أحد منهم ان هذه العبادة المطلوبة فى القرآن ليس منها الدعاء والمناجاة ، بل علم الناس بأن هذه الأمور منها علم ضرورى لا يقبل الخلاف والنزاع ولا يختلف ان من دعا الله وأمعن فى دعائه وناداه وأكثر من ندائه فقد أطاع هذه الأوامر بعبادة الله بالجملة ، وان من لم يدع الله تعالى وان قام بجميع الفرائض وآمن به الايمان الصحيح البرىء فقد عصى هذه الأوامر بالجملة وترك نوعا من أنواع العبادة ، وهذا أمر لا يمشى اليه خلاف . فالعبادة فى الشرع أى فى القرآن والسنة وأقوال العلماء هى عند الاطلاق كل ما يحبه الله من الاقوال والافعال وما يقرب اليه تعالى كالمراقبة والخشية والخشوع والخضوع والخوف والرجاء ونظائر ذلك ، ولا يختلف الناس ان من دعا الله فقد قام بجزء من العبادة المأمور بها ، بل ولا يختلفون أن الدعاء من أفضل أجزاء العبادة كما جاء فى الحديث الذى ذكره الشيعى وهو قوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية « الدعاء هو العبادة » وذلك لشرفه وسمو منزلته حتى كأنه خلاصة العبادة وأطيبها ، ولا يختلف الناس أيضا أن الدعاء والنداء كانا من اجزاء عبادة المشركين للاصنام وأنه اذا ما قيل ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ أو قيل ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ أو قيل غير ذلك من الآيات والاخبار المصرحة بان المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله تناول دعوتهم الاصنام بلاخلاف ، وقد ينص القرآن والسنة نصا جليا على أن الدعاء عبادة وحينئذ ينحسم النزاع ، وكذلك قوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فان هذه الآية نص جلى على أن الدعاء عبادة وعلى أنه من أفضل أجزائها وأشرفها ، وكذلك الحديث القائل « الدعاء مخ العبادة » والقائل فى الرواية الاخرى « الدعاء هو العبادة »

انتهى كلامه بحروفه . فقد رأيت أنه صرح تصريحا لا إشكال فيه أن الدعاء من أجزاء العبادة بل هو من أشرفها وأطيبها ، ونقل الاجماع والضرورة على ذلك وأنه طاعة لله تعالى ، وحينئذ يقال له : وهل يشك مسلم يعرف دين الاسلام فى ان من ادعى فى جزء العبادة وأشرفها وأطيبها أنه مصرف خبيث فى أنه كافر خارج من الملة ، فمن ادعى أن الدعاء الذى هو أشرف جزء فى عبادة الله ليس بوسيلة فهو كافر كما أن من ادعى أنه لا فائدة فيه فهو كذلك كافر ، ومن ادعى أنه من جنس السباب والاتهام فهو كافر ، لانه جعل الطاعة معصية فقدح فيه ، ومن ادعى أنه مصرف خبيث فهو كافر ، وكذلك من ادعى أنه ملهاة ومفسدة وتعويق فهو كافر وهذا أمر مجمع عليه بين الأمة [1] لأن من ادعى فى جزء من اجزاء العبادة كهذه الدعوى فهو كافر ، وهو قد صرح بأن الدعاء من العبادة بالضرورة والاجماع ومما لا يقبل الاختلاف كما تقدم .

وقال فى الصراع ايضا ص ٢١٦ ما نصه « فان من قدح فى الاسلام أو فى الله أو الأنبياء حكم بكفره وردته بظاهر ما قال ، وان زعم أنه يريد غير ما يفهم الناس من قوله ، بل وان زعم أنه يحكى وينقل أو ذكر احتمالا من الاحتمالات فلا يمكن أن يقبل شىء من ذلك . وكذلك لو قال قائل ان القرآن ليس فيه ما يعرف العقيدة الصحيحة والدين الحق أو قال انه جاء بالباطل أو أنه يخالف العلوم والواقع أو قال انه متناقض متدافع أو زعم أنه جاء بالشر والفساد أو قال ان رسول الله جاهل مثلا ونظائر ذلك فمن قال شيئا من ذلك كفر وحكم عليه السامع بالردة وحكم عليه المسلمون بذلك ولم يسائلوا عن ضميره وعما عقده فى نفسه وعما ينويه ، بل ولم يشكوا أو يتوقفوا أو يختلفوا ، وبهذا ينتظم الامر ويقمع الزيغ ويوأد الالحاد فى صدور الملحدين ويضيق على الشر فلا يجد مناديح وفسحا فلا ينمو أو يشب أو ينتشر ، وبغير ذلك يختل النظام ويقلق

---

(١) والملحد جمع هذه الامور كلها

حبل الأمن ويجد الضلال المخـــارج والمواخ والمصادر والموارد ويبدى كل صفحته ويرفع كلّ عقيرته فيتنفس الملحد الحـاده والضال ضلالته ويقول كل ما شاء من الكلام الفاسد ومن سوء الأدب مع الله ومع الدين والمؤمنين والنبيين ويذهب بكل شيء من ذلك الى المجاز والتأويل ويفزع صاحبه ان أخذ الى ذلك فلا يستطاع أخذه أو مؤاخذته بقول من الأقوال وكلمة من الكلمات فتفسق النفوس وتشيع الفوضى الاعتقادية ولا محالة ، وهـذا ما حصل لبعض الناس الذاهبين هذا المذهب الفاسد حتى ان من قال « ما فى الجبة الا الله » ومن قال « سبحانى عز شانى » وجد من يؤوّل له كلامـه ويحمـل له المحمل الحسن ومن يحسن الظن به ، وكذلك قال قوم ان كلمة لااله الاالله فاسدة وان الانبياء لم يأتوا إلا بالشرك والشر وان القرآن كله تشبيه وتجسيم وان الأولياء أفضل من الرسل وقال أحدهم أنا أفضل من جميع الانبياء والمرسلين وقال بعض المنتسبين الى الاسلام أكثر من هذا وأشنع فوجد من أحسن الظن بهذه الاقوال ومن أولها وفسرها تفاسير جميلة أو مقاربة ومن صدق الدفاع والذياد عن أصحـاب هذه المقالات حتى رموا من عارضوا قائليها بفساد العقيدة وبالـكفر ، وهذا معلوم مدون فى كتب مطبوعة يحسن بها الظن اليوم وقد يحسن بها الى ما بعد اليوم الى ما شاء الله . وهذا البلاء دخل من هذا الباب باب التأويل المبنى على حسن الظن بمن ادعى الاسلام أو ولد من آباء مسلمين أو مدعـين للاسلام .

وكلامه فى نبذه السابقة فى تقرير كون الدعاء عبادة بل من أعظمها كثير جدا وفى الصراع الحـكم بتكفير تارك الصلاة لانها عبادة وقد ادعى أن الدعاء كالصلاة سواء فليفرض الانسان أنه قال الصلاة هى المصرف الخبيث والملهاة المفسدة المعوقة ولا فائدة فيها بل هو قد ذكر فيما يأتى أن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وأدنى رجل من المسلمين يعلم أن من سب الصلاة فقد سب الاسلام وكذلك من سب الدعاء فان الدعاء هو رأس العبادة كما اعترف بذلك ، واذا كان هو معترفا بلا ريب أن ترك الصلاة كفر فلا شك ان من دعا الى تركهـا

فقد دعا الى الكفر ، وكذلك من دعا الى ترك الدعاء فقد دعا الى الكفر ، ولا يشك المسلمون أن من دعا الى الكفر فهو كافر ، واذا فتح باب القدح فى الصلاة والقدح فى الدعاء وفى عبادة الله فأى شىء يبقى من الدين ، وما هو الدين إذن ، وهل يتصور أن يعبد الله بدون أن يدعى ويستغاث به ويستعان به ويلجأ اليه فى الضرورات والحاجات ، ويكفيك قوله تعالى ﴿قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ فهذا صريح بأنه لولا دعاؤنا إياه لم يعبأ بنا ، وصريح بأن الدعاء هو العبادة ومن قدح فيه فقد قدح فى العبادة التى هى رأس الاسلام والدين ، وهو واضح ولله الحمد ، لا يخفى الا على من لا يعرف حقيقة الاسلام والدين ، وليس لنا حاجة فى أن نتتبع كلامه كله فى كتبه السابقة لأنه قد أشار الى أنه قد خالف ما فيها مع كونه ادعى فيها أنها مبنية على براهين لا ريب فيها ، ولكنه بعد أن خاب أمله وحبط عمله بعد خروج أغلاله احتاج اليها فأخذ يحتج بها فى خداعه وتنصله ويدعى أنها غير مخالفة ، وأدنى عارف بدينه إذا طالعها عرف الفرق بينها وبين هذا الكتاب ، غير أنه لما صرع بين الجزء الثانى والثالث من الصراع فى نفس تلك المقدمه الهوجاء التى هى فى الحقيقة مقدمة لهذه الاغلال صارت تلك المقدمة فيها شىء كثير مما فى هذا ، بَيْدَ انه نافق فيها نفاقا كثيرا جدا وكان نفاقه فيها من الأسباب التى جعلت كثيرا من الناس يسكتون عنها ، لكن صار سكوتهم هذا سببا فى خروج هذا الوباء الخبيث . وقد احسن بعض الصلحاء حيث كتب له حين أخرج أغلاله هذه قائلا ما معناه : نحمد الله أن جعلك تنفث سمك مرة واحدة لئلا تدسه فى كتب أخرى فيغتر بها الناس لما يعرفون من كلامك الأول فيحسنون الظن بك . وبالجمله فكتبه الاولى كلها تناقض أغلاله هذه ، وهى السبب الذى جعل بعض الناس يشك فيه فى أول الأمر لانه انقلب انقلابا فاحشا لم يسبق له نظير . فدعواه هنا أن الدعاء مصرف خبيث وأنه ملهاة مفسدة ومعوقة عن الانتاج مع كون هذه الدعوى كفرا لا ريب فيه فهو فى نهاية السقوط ، بل

الملهاة هو السب والاتهام والقذف والشتم وأشباه ذلك من الأمور المحرمة الفارغة ، وذلك كله من شان الملاحدة والفساق وذوى الأنانية والاحقاد الدنيوية ، أما الدعاء فانه من نور الله ورحمته التى رحم بها عباده فأنعم بها عليهم ، فهو روح الحياة والعروة الوثقى التى لا انفصام لها والحبل المتصل بين الله وبين عباده ، فكيف يكون من جنس السب والاتهام ، ان هذا لظلم عظيم وبلاء مبين ، فان الدعاء أعظم دافع قوى ، فانه جزء الايمان الأكبر الذى يدفع الى العمل فكيف يكون جزء الدافع معوقا عن عمله فان جزءه منه يقوى بقوته ويضعف بضعفه فانه السبب الأكبر فى حصول المطالب العالية كلها فى الدنيا والآخرة ، وما نال الناس هذا الذل وهذا الضعف الا لما قصروا فيه وفى مقتضاه واعتمدوا على غيره ، وأما السباب والاتهام فتلك نتائج الأهواء والأغراض والضغائن والحسد التى ربما يكون أكثر بواعثها المعاصى ، فكيف يخلط الطيب بالخبيث والنور بالظلمة والحياة بالموت والأعلى بالأدنى ثم يحكم على الجميع حكما واحدا ، فان هذا كقياس الشىء على ضده ، ولكن من خسف الله بقلبه وأصمه وأعمى بصيرته فلا بد أن يكون هذا شأنه ، فان الاعمى المخبول يتخبط ولا يميز بين الأشياء المتضادة ولا سيما اذا كان يمشى فى ظلمات بعضها فوق بعض

ثم قال « وأما الهموم ودفن الاحقاد فى حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية ، غير أنه لا ريب فى أن هذه العواطف والانفعالات هى من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا ، فلا بد أن تنتهى بصاحبها الى أحد الأمرين العمل أو السباب أو التشفى الساذج ، فلنحذر الاخيرين لنصير الى الاول »

قلت : لا شك أن الغيرة على الدين ومقت الكفر والظلم والعسف والاستعباد وحب الله تعالى ودينه من العواطف أيضا ، بل هو العواطف الكبرى الدافعة الضاغطة ، بل هى أعظم القوى الاعتقادية ، واذن فلا بد أن

تنتهى الى العمل والدعاء ، لأن هذه الحرارة القوية لابد لها من حركة ولا بد لها من حرارة صاعدة تدل عليها وتتصل بها وتمدها بالقوة كالحرارة الصاعدة من احدى الآلات الكبرى فلا بد منها ، كما تقدم بيانه ، وكما تقدم أيضا الكلام على الاحقاد والحسد والمنافسة قريبا وأن هذه قد تدفع للعمل وقد يحصل لها التنفس بالسباب أو قمعها باحدى المطامع النفسانية فانها عوارض تعرض وتزول لاأساس لها ، بخلاف عواطف الدين القوية الثابتة فانها لا تزول إلا بما يلائمها ، وهذا ظاهر . على ان قوله « فلنحذر الاخيرين » يريد بذلك الدعاء والسباب ودفن الاحقاد ، وقد عبر عن الدعاء بالتشفى الساذج وقد علمت أن قرنهما جميعا باطل شرعا وعقلا وحسا ، فالتقسيم باطل من أصله قطعا ، لأن الدعاء نوع مستقل فإنه ان كان صدر من عاجز عن العمل فهو نوع مستقل فيكون نفعه بحسب حالة صاحبه الدينية فلا بد أن يثاب عليه لأنه عبادة ، بخلاف غيره من الاسباب فانها قد تنفع وقد تضر بل تقتل صاحبها ، أما الدعاء فهو خير محض فانه عبادة وطاعة لرب العالمين ، وطاعة الله الخالصة هى رأس كل خير فى الدنيا ومصدره بخلاف السباب والاتهام فقد بينا أنها عوارض نفسانية باعثها الأنانية والأهواء والشهوات ، وأكثر ما تقع محرمة ومعصية فتكون نتائجها كما ذكر تشفيا ساذجا أو تشفيا مضراً ، فلا حجة له فى ذلك مع تناقضه ، فقد تبين أن هذا التعليل الذى علل به عدم النفع تعليل ساقط جاء على حسب اعتقاده وعلى حسب العلة التى أصابت فؤاده فى أن الاخلاق الدينية لا نفع فيها . وقد كررنا الكلام فى هذه الفصول استرسالا مع تكريره ، لأن هذه المضايق كثيرا ما يلبس فيها ويحرص أشد الحرص على تعمية أصول الدين فيها بمثل هذا الهذيان المزخرف بالكذب والبهتان والتزوير ، فينبغى الحرص على إيضاح ذلك ايضاحا جليا ، وهذا إنما يحصل بالمناقشة ، وذلك ربما يؤدى الى تكرار بعض العبارات . والله الموفق

فصل

قال «ولعله مما يبالغ ويضاعف فى سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع فى مساجدنا بالدعاء عليهم وبلعنهم وقذفهم، لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله وان المثل الغربى القائل لا تلعنوا الظلام وأوقدوا الشمعة لخير ما يجب أن ينسج على نوله التربية والتوجيه العاطفى العقلى»

والجواب أن يقال: يا مسكين ليست أصول الدين مبنية على العناد وما تهوى الانفس، فان الدعاء ركن من أركان الشريعة المطهرة، فهو ركن العبادة الأعظم، فان كان حقا وصحيحا فى نفس الأمر وأنه عبادة لله فلا يضرنا سرورهم بذلك ولا غيظهم، فليس سرور الاعداء برهانا على بطلان عبادة الله كالدعاء والصلاة والخطب حتى تحتج بذلك، والله لم يأمرنا بأن نعبده بالعناد، بل شرع لنا شريعة نتبعها ولا نتبع أهواء الذين لا يعلمون سواء سرت هذه الشريعة الأغيار أو غاظتهم، فمن احتج على بطلان الدعاء بسرور الأعداء فهو مصاب فى دينه وعقله. مع أن هذه الدعوى أيضا غير مسلمة، بل الأخلاق الدينية هى التى تغيظهم لأنهم يعرفون شدة أهلها وجلدهم وصبرهم على الأعمال وشجاعتهم فى الحروب. ثم ان أكثر الأعداء الدائنين بالأديان الأخرى يستعملونه، وأكثر عقلائهم يعرفون نفعه، فهم يستعملونه ويخافون أهله، فادعاء أنه يسر الأعداء ليس بصحيح، بل ربما يسر الزنادقة الدهرية الذين يدخلون بين الناس لقصد الاضلال والافساد فقط، وهؤلاء هم شر الدواب عند الله، فلا يعتبر سرورهم ولا غيظهم. وقد كرر هذه الدعوى مرارا فهو يحاول ابطال الدين ورفضه بكل ما يملك من قوة وجهد حتى ولو بالعناد

أما ما ذكره من المثل الغربى فلا حجة له فيه، وليس مطابقا لما يقصده من تزييف الدعاء ونفى فائدته، فان قوله لا تلعنوا الظلام ليس فيه مناسبة لابطال الدعاء، بل نحن نقول به ونقول لا تلعنوا الظلام، وليس فى المثل انكم لا

تدعوا الله وأوقدوا الشمعة بل دعاء الله أعظم من ايقاد الشمعة ، بل هو نور الشمعة الحقيق الذى من سار عليه لم يتعثر ولم يكبُ ولن يضل ، أما اللعن والسباب والاتهام فاننا لا نراه ، بل نذمه وننهى عنه ، ونأمر بايقاد الشمعة التى معناها الدعاء والعمل الناجع ، مع أن فى النصوص الشرعية ما هو أحسن وأولى وأبدع من هذا المثل ، كقوله عليه الصلاة والسلام « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » الحديث ، وقوله تعالى ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة ، ولكن غرضه من هذا كله محاربة الدعاء لأنه يعلم أن ابطال الدعاء أعظم وسيلة الى رفض الدين لانه روح العبادات كلها ، فاذا حصل فقد حصل رفض الدين الذى وضع له هذه الاغلال الخبيثة

« شنشنة نعرفها من أخزم »

وقد سبق أن الدعاء لا يتنافى مع المدنية والحضارة والتربية العالية والتوجيه العاطفى والعقلى ، بل تعاليمه الصحيحة هى أساس النهضات العلمية والعملية كلها ، فلا حجة فيما ذكره على ما مرّ تقريره غير مرة

فصل

ثم أطال فى تعظيم الانسان ، وهجم على الرازى والزمخشرى وابن أبى الحديد والآمدى بزعمه مناقشا لهم على تلك الأبيات التى صدّر بها هذا المبحث ، فقال مناقشا للزمخشرى : « إن العلم لله وحده أماما سواه من المخلوقين فهم فى غمراتهم أو غفلاتهم يتقمقمون ، وليس لهم أن يطلبوا علما ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا ، وذلك لأنهم تراب خلقوا من التراب ومصيرهم التراب وما للتراب وللعلوم ، انما خلقوا ليعلموا وليعلم من سواهم أنهم غير قادرين على أن يتعلموا شيئا وأن يكونوا علماء ، وأن يفلتوا من أصناف الجهل ، ماللتراب وللعلوم ، وانما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ، فالانسان عند الزمخشرى ما خلق إلا

من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلا طبيعياً لا يمكنه التفلت منه ، وهذا بمثابة الحكم بالاعدام على المواهب الانسانية فى معانيها » . انتهى كلامه على على بيتى الزمخشرى

فلينظر المنصف الى هذا التحامل والمناقشة الباردة ، مع أن الزمخشرى إنما أثنى على الله تعالى ، ومثل هذا المقام لا بأس بنفى العلم عن المخلوقين فيه كما قال تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ فنفوا عن أنفسهم العلم - مع أنهم أعلم الناس على الاطلاق - تأدبا مع الله ، لأن علم المخلوق فى جانب علم الله كلا شىء ، كما فى حديث الخضر مع موسى لما جاء عصفور فنقر بمنقاره فى حافة السفينة من البحر قال الخضر ما نقص علمى وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من البحر ، ومعلوم أنه لم ينقص منه شيئا ، فاى ذنب للزمخشرى [1] حتى يحاسبه هذا الحساب العسير ويرميه بالعظائم ، وقد قال تعالى ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ فأمره تعالى أن يحصر العلم عند الله ، وقال تعالى ﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فاذا كان هذا التحامل كله من أجل حصر العلم فى الله ونفى العلم عن الانسان فايردّ على القرآن فانه صرح بأعظم مما قاله الزمخشرى ، فان القرآن أتى بصيغة الحصر ، وهذا الملحد قد ادعى فيما يأتى بأن الانسان لم يعجز عن شىء حيث قال « أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير » وسيأتى قوله « ان الانسان يعلم كل شىء » وتقدم دعواه أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، فهم الذين صنعوا هذه الحياة ، فالكفار هم الذين صنعوا حياتنا ، وأما الزمخشرى الذى حصر العلم فى رب العالمين فهو الذى حكم على الانسانية بالاعدام فغاظ صاحب الاغلال وأحرج صدره ووقع فى مشكلة كبرى وأصابته الحيرة ، كل ذلك من

---

(١) ان ثبتت هذه الأبيات عنه

أجل أن الزمخشرى حصر العلم فى رب العالمين ، وأما الذين صنعوا الحياة فهم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، والناس كلهم لم ينصفوا ولم يسلكوا طريق العدل ، لأجل ماذا ، لأجل أنهم لم يقدموه فى الامر [١] ، ولأجل أنهم ذهبوا يطلبون غيره ويرغبون الى سواه ، فمن أجل هذا كان هذا العالم على أفجر الفجور والظلم الذى لايطاق ، وكيف يطلبون غيره ويرغبون الى سواه وهو بينهم معروف مكانه لا يحول ولا يزول بسفر ولا غيره ، وكيف يذكرون غيره إذا ذكر الذكاء ، إن هذا على صريح ما يقول لظلم عظيم ، بل هذا هو الاصل فى جميع هذه الشرور ، لان أكثر شرور هذا العالم إنما تأتى من أجل ترك الانصاف والعدل ، كل هؤلاء الصحفيون وهؤلاء السياسيون جهلاء أغبياء لا يعرفون شيئا لأنهم ذهبوا كل مذهب يلتمسون الأسباب فى التأخر والضعف وأخطأوا المذهب الصحيح - على زعمه - وهو عدم تقديمه فى الامر فليقدموه فى الأمر وليطلبوه وحده لاشريك له وليرغبوا اليه ، واذا ذكر الذكاء حذار حذار أن يذكروا غيره ، فاذا حصل هذا حصل الانصاف الذى هو أساس العدل والنهوض ، وقد أكد هذا بقوله :

اذا قلت قولا أمّن الدهر واستحى وهاب مقالى أن ينازعه الدربا [٢]

فهو اذا قال قولا فالدهر يؤمن على قوله ويستحى من مخالفته ، فهو اذا أراد شيئا يقول الدهر كن فيكون كما هو صريح كلامه ، ولهذا قال مؤكداً لهذا القول [٣] :

اذا مشيت فكل الناس فى أثرى وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

فهو اذا مشى فجميع الناس يتبعونه مشدوهين فى أثره ، لان الدهر أمن

---

(١) كما صرح بذلك فى أبياته المتقدمة أول الكتاب

(٢) كذا قال فى قصيدة له فى أول (البروق)

(٣) وذلك فى آخر نبذته (شيوخ الازهر)

على قوله بالأجابة ، أما اذا وقف فما فى الناس من تسول له نفسه أن يخالفه فيقف فما فى الناس من يجرى ، فهو اذا وقف فمن هو الذى يستطيع أن يجرى والدهر قد أمن على قوله ، ولهذا فانه يقول :

نثرى شفاء للنفوس وللحجى   وردىء شعرى معجز الشعراء(١)

فقوله دواء وشفاء لنفوس المؤمنين ولعقولهم ، وأما شعره فانه معجز الشعراء ولهذا فان الامم العربية لم تبصر طريق العقل حتى ظهر كتابه الذى هو الحقائق الازلية الابدية تتركه أمة فتهوى نعوذ بالله ، وتأخذ به أمة فتنهض ، نسأل الله الكريم من فضله ، ولما ذا كان كذلك ، لأنه وافق الطبيعة ، فمن أجل هذا يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمه فانه لا يستغنى عنه مسلم واحد اذا اريدت له حياة صحيحة ، وهذا كله صريح كلامه (٢)

انه لمن العجب العجيب جدا أن يناقش هذا الملحد الزمخشرى على قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الخ وهو بهذه المثابة ، ولو أن له أدنى مسكة من حياء لوجد طرقا كثيرة فى تصحيح ما يدعيه من الحث على العمل دون التعرض للدين ولا حاجة الى مناقشة مثل الزمخشرى ، وكل ما يعتذر به هذا عن نفسه فالزمخشرى أولى به ، فان الزمخشرى صنف الكتب التى لا تعد ولا تحصى على ما فى ذلك من مذهب الاعتزال ، ولولا أن هذا الملحد ناقشه فى هذه المسئلة

---

(١) فى آخر (الفصل الحاسم)

(٢) وكيف يستغنى عنه مسلم واحد بين اربعمائة مليون مسلم وصاحبه بهذه المنزلة . الله اكبر الله اكبر « يا لشمس التى فى غير برجها » ، والمصيبة أنها فى غير برجها ، ولعلها انما كسفت لاجل انها فى غير برجها ، نعم انه الشمس التى فى غير برجها وهو الدر الذى فى لجج البحر ، ولكن يا أسفا على هذا الذى اخرجه فجعله أغلالا فى أعناق الكلاب

وان لسان المرء ما لم يكن له   حصاة على عوراته لدليل

التى ليس فيها شىء سوى الثناء على رب العالمين لم نناقشه ونبين خزيه أكثر مما بينه هو نفسه ، وكم للزمخشرى من أغـــلاط فى مسائل الصفات ولكنه لم يعارضه فيها بشىء وانما عارضه وحاربه من أجل الثناء على الله رب العالمـين .
وكذا اعتراضه على الرازى وابن أبى الحديد فهو من جنس اعتراضه عـــلى الزمخشرى بل أبعد وأشنع

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره عظيما وفى عينيه عن عيبـه عمــى

قال « وأما الشيخ الرازى فيرى أن أقصى خطوات العقل البشرى أن يعجز عجزا مطلقا وأن يقع فى عقل يمنعه التفكير والعمل والتقدم والتـأخر ، ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الاقدام فى مجالها ازدادت حيرة وضلالا وضعفا وجهـلا وعجزا عن المعرفة ، فمن الخير إذن أن تحجم وأن لا تقدم ، ومن الخير لها أن تبقى فى مكانها لا تبرحه لئلا تضل ولئلا تذهب بددا ، ثم لا ترجع ابدا »

فيقال : وهذا الاعتراض من جنس الذى قبله فى السقوط والفساد ، فانه خطل وضلال خارج عن نفس الدعوى ، فان الرازى لم يتكلم فى هذه الأبيات فيما يختص بعلوم المادة والصناعات ، وانما تكلم فى العلوم الالهية وفى صفات الله وفى أفعاله ، وحيث انه سلك فى ذلك طريقة فلاسفة اليونان وغـيرهم التى مشى عليها بعض الجهمية ومن حذا حذوهم من أئمـــة الكلام فى غالب بحوثه وترك طريقة الكـتاب والسنة من إجراء النصوص عـلى ظاهرها عـلى المعنى اللائق بالله تعالى ، بين فى هذه الأبيات حاصل ما وصل اليه فى ذلك ، وأنه لم يصل الى يقين يعتمد عليه فى مباحثه لأن هـذه أمور غيبية عظيمة لا تعرف إلا بطريق الوحى فقط ، فلهذا أنشد هذه الأبيات :

نهـــاية إقـدام العقول عقـــالُ وأكثر سعى العالمـــين ضـــلال
وأرواحنـا فى وحشة من جسومـنا وغاية دنيـــانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنـــا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال الرازى بعدها : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن : اقرأ فى الاثبات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ واقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ومن جرّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » . هذا كلام الرازى ، وهو أجنبى عن مراد الملحد ، ولقد أبعد النجعة فى الاعتراض عليه لأن كلامه فى المسائل الالهية لا الصناعية ونحوها من العلوم الدنيوية كما هو ظاهر ، وهذا الملحد يعرف ذلك لكن أراد أن يتجاهل ويغالط الأغبياء فلهذا جاء بها فى هذا الموضع ، ثم اعترض عليها . ولا شك أن هذا الصنيع خطأ واضح معلوم الفساد ، وهكذا يقال فى جوابه على أبيات ابن أبى الحديد فان اعتراضه عليه ـ كاعتراضه على الرازى ـ ثرثرة لا طائل تحتها ، لان كلامه فى المسائل الالهية لا المادية فانه قال :

فيك يا أغلوطة الفكر	حار أمرى وانقضى عمرى
سافرتْ فيك العقول فما	ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا	أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذى ذكروا	خارج عن طاقة البشر

فضمير الخطاب فى هذه الابيات راجع الى الله تعالى كما هو ظاهر . فقد علمت فساد ما قصده وما فهمه او تجاهل فى فهمه مما تقدم فان ابن أبى الحديد سلك مسلك الرازى فتبين له ما تبين له فلهذا اعترف بأنه لم يصل الى حقيقة ، وهذا صحيح فمن هو الذى يصل الى معرفة كنه ذات البارى سبحانه وتعالى ، بل ذلك خارج طاقة البشر ، فانه سبحانه لا تعرف صفاته وذاته بتحكم العقل ومجرد الرأى والتفكر ، بل حسب الانسان العاقل أن يتمسك بما جاء فى الوحى من كتاب الله العزيز وسنة الرسول ﷺ فى ذلك فيكتفى به ففى ذلك من الكفاية ما يسعد الانسان فيعرف من حيث الجملة أن كل ما وصف الله به

نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فهو حق على حقيقته وهو على ظاهره الذى يليق بجلال الله وعظمته لا على ما يليق بعباده ، فالقول فى الصفات كالقول فى الذات فكما أن له ذاتا حقيقة لا تشبه ذوات المخلوقين فصفاته كذلك لا تشبه صفات المخلوقين ، وهذه قاعدة مطردة فى جميع الصفات أنها تجرى على ظاهرها ويحرم تحريفها أو تأويلها عما يخالف ظاهرها بالتحكم والتخرص ، بل تجرى - كما قلنا - على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير زيادة ولا نقصان ، هذا هو الحق فى هذا الباب العظيم ، فالاعتراض على ابن أبى الحديد فى هذه الابيات اعتراض ساقط لا محل له ومناقشة له يجاب عليها بما ذكرناه على أبيات الزمخشرى . وكذلك إتيانه بالبيتين الأخيرين اللذين نقلهما وعزاهما الى الآمدى المتفلسف فان ذلك خطأ مركب ، فانه أخطأ فى عزوهما كما اخطأ فى الاعتراض عليهما ، وهو والعياذ بالله مبتلى بسوء الخاتمة حتى فى الجمل النقلية التى يقولها أو ينقلها فانها لا بد أن تكون أسوأ من غيرها ، ولهذا كان أخبث كلامه فى آخر كتابه ، كما أن آخر بحوثه هو أخبثها وهلم جرا . فالبيتان المذكوران ليسا للآمدى ، بل هما للشهرستانى كما ذكر ذلك العلماء الاجلاء منهم الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه النفيس (العقل والنقل) وفى كتابه (المنهاج) أيضا ، وكذلك ذكرهما شارح الطحاوية ، وموضوع البيتين المذكورين كموضوع أبيات الرازى وابن أبى الحديد سواء بسواء ، فانهما فى ما يتعلق بالأمور الدينية الالهية ، ولهذا ذكرهما شيخ الاسلام ابن تيمية فى (الحموية) وغيرها فى مسائل الكلام ، فلا علاقة لهذه الابيات كلها بالعلوم الدنيوية مطلقا ، فالاعتراض عليهما اعتراض باطل فى نهاية السقوط . ثم يقال لهذا الذى غلب على شعوره العجب والتيه : هؤلاء الشيوخ قد بينوا ما وصلوا اليه كما بين ذلك غيرهم ، فأى شىء فى هذا ، هؤلاء علماء المادة والهيئة غاية ما عند أحدهم أن يبين مقدار ما أدرك بعقله ، وكثيرا ما يقول انه لم يظهر له ما يقطع به ، فما بالك لم تعترض عليهم ،

ثم أنت ما هو الذى وصلت اليه فى هـذه العلوم أو غيرها ، هل وصلت الى شىء أعظم مما فى هذه الأغلال وما فيها من الهذيان والخبال ، بل أكثرهـــا كسراب بقيعة لا يشفى عليلا ولا يروى غليلا ، بل يورد الظمآن جحيما وعذابا أليما . ثم العجب كل العجب أنك ذهبت تشنع على هؤلاء الشيوخ بأنهم فى آخر أمرهم لم يصلوا الى حقيقة فى هذه الأمور بل وقعوا فى الحيرة والاشكال ثم سقطتَ فيما هو أشنع مما انتقدته عليهم ، فقـد ختمت أغلالك هذه التى أعجبت بها بمشكلة لم تحل الى اليوم بزعمـك ، وذكرت أن حاصل ما ذكرته فى هذه الأغلال هو هذه الفكرة ، ثم ذكرت أنها مشكلة لم يوجد لهـا حـل الى اليوم ، ثم ادعيت فى آخره ثانيا أنها لم تحل ، فكيف تشنع عليهم بهذه الشناعات المريرة بسبب وقوعهم فى الاشكال والحيرة ، ثم تسلك مسلـكهم مع أنهم فى الامور الالهية الغامضة الخفية ، وأما أنت فأشكل عليك أوضح شىء فى الدنيا كلها وهو الايمان بالله والعمل مع ذلك ، وأدنى عجوز جاهلة فضلا عن غيرها تؤمن بالله وتعمل مع ذلك ، فكيف بالعلماء ، أفلا يستحى من هذا مبلغه من العلم أن يتصدَّى لمعارضة أهل العلم والدين ويدّعى أنه العـارف بكل شىء ، المقدم فى كل أمر ، المؤتمن على قوله الدهر

ثم على فرض التنزل ، لو قدر أن فى هذه الابيات ما ينتقد ، لم يكن لنقلها ثم الاحتجاج بها فى هذا المحل وجه ، لأن مثل هؤلاء ليسوا بأئمـــة يقتدى المسلمون باقوالهم ، فان الزمخشرى وابن ابى الحديد من المعتزلة ومذهب المعتزلة غير معتبر عند جمهور المسلمين ، وأما الرازى والشهرستانى أو الآمدى فهم من أئمة أهل الكلام ، وقد عرف اضطرابهم فى الأصول ومخالفتهم للجمهور فى نظريات كثيرة فى هذا الباب ، فمجرد وجود قول لواحـد أو فرقة قليلة من علماء المسلمين فيه خطأ لا يوجب تخطئة جميع المسلمين والاحتجاج عليهم به ، ولا يفعل هذا الا مغرور متبع لهواه مدخول فى دينه وعقله ، وقد أقر هذا الملحد فى الصراع بأنه ليس المسلم بالذى يتتبع اخطاء المخطئين وأغـــلاط

الغالطين ، فكيف جاز له هنا أن يخالف الى ما ينهى عنه ، وهذا كله لو قدر أن ما قاله هؤلاء هنا خطأ ، كيف وهو عين الصواب الذى لا ريب فيه

فصل

ثم أطال فى تعظيم الانسان بزعمه بعبارات طويلة مؤداها أن فى الانسان استعدادات كامنة للكمال ومواهب نادرة ، وأن فى استطاعته أن يدرك كل أمل ، وأن يقدر على كل ما يحاوله ، وأن من ادعى أن استطاعته محدودة وأنه لا يصل الى كل ما يحاوله فقد كفر بالانسان ، فلا يمكنه الرقى أبدا ، وقد كرر هذا المعنى كما ستراه مع ما تقدم ، ثم قال :

« من الواجب أن نعرف من أين جاء الانسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته ، ولماذا كفر بهما . يلوح أنه كفر بهذا لأنه أراد أن يؤمن بالله الايمان الذى تصوره ، فقد تصور أن أساس الايمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق وبين الله وعباده ، فالله يجب أن يعتقد أنه كامل فى كل شىء قوى فى كل شىء ، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص فى كل شىء ضعيف فى كل شىء ، ثم تصور أنه كلما بالغ فى تنقيص الانسان والمخلوق وفى تضعيفه فقد بالغ فى تعظيم الله وفى الايمان بكمالاته » انتهى

قلت : غرضه من هذه الأكاذيب والفجور الظاهر هو الدعوة الى الكفر بالتفريق بين الخالق والمخلوق ، لأنه جعل العلة هى هذا التفريق بين الخالق وخلقه وأن ذلك كله بسبب تعظيم الله ، أى فيجب رفض ذلك ليحصل الايمان بالانسان ، وإلا فما دام مؤمنا بالله وحده ومعظما له وحده ومعتقدا فيه الكمال وحده فلا بد أن يجعل المخلوق دونه ناقصا ، واذا حصل اعتقاد النقص فى الانسان حصل التأخر ، لأن مناطه اعتقاد النقص فى الانسان ، واعتقاد الضعف فيه والنقص كفر به ، لأن معنى ذلك أن قدرته محدودة وعلمه محدود . هذا ما يرمى اليه من هذه الثرثرة الطويلة ، اذ من المعلوم أنه لا يمكن أن

يكون الخالق والمخلوق كاملين كما لا يمكن اعتقادهما ناقصين ، فلا بد من التفريق ، وهو لم يذكر للتفريق حدا بينا يدعو اليه حتى يقال انه يقصد كذا وكذا ، بل جعل أصل العلة التفريق ولكنه جرى على عادته فى الغمغمة وخلط الحق بالباطل ، ولهذا أشار بأن فى الانسان كفاءة تامة لاستحصال الكمال باستعداده ومواهبه ، أى فلأى شىء يقر بالخالق ويعظمه ويعتقد فيه الكمال ، لأن المقصود الكفاءة التامة وهى موجودة فى الانسان فلا حاجة الى غيره . وينبغى أن يعلم أن اعتقاد الكفاءة الذاتية فى الانسان ، وأن فيه استعداداً للقدرة على بلوغ مايريده وأن يعلم كل شىء ، أصل من أصول الملاحدة اللادينية ، فلهذ أخذه هذا الملحد وحاول دسه فى أصول المسلمين والتمويه عليهم من هذه المخادعات التى نافق بها فى هذا البحث وغيره ليجعل الروث مفضضا والكنيف مبيضا ، وهيهات ، إنما يخفى هذا على الانعام وأشباهها ممن لا بصيرة له فى دينه . ثم يقال لهذا الملحد : من أين وجدت هذه القاعدة التى ادعيتها هنا فى كون الانسان يعتقد أنه كلما اعتقد النقص والضعف فى المخلوق فقد عظم خالقه وأنه كلما بالغ فى تنقيصه فقد بالغ فى تعظيم الله ، فان هذا لا يوجد أبدا فى كتب المسلمين ممن يعتد بقوله (١) ومعلوم عند أكثر العارفين بدينهم انك ملحد من أعداء الاسلام لا يقبل قولك فيهم ولا فى دينهم ، فان الملحد والكافر لا يقبل قوله فى دين المسلمين ، فلا بد اذن من النقل من كتاب معروف او عن عالم معروف ، وكتبك السابقة كلها تكذب هذا فانها فى محاربة المغالين فى المخلوقات ، فما ذكرته هنا مجرد استهزاء وتهكم لا حاصل له

ثم قال « وصار من العقائد الثابته للخاصة والعامة أن الانسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الاشياء التافهة الحقيرة التى لا يرجى منها خير ولا علم ولا قوة »

---

(١) وفى الحديث « المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »

انتهى . فلينظر المنصف الى هذه المكابرات التى هى أوضح من الشمس ، ويكفيك دليلا على فساد دعواه هنا وتكذيبه فيها أن كتبه السابقة كلها فى موضوع الرد على الذين غلوا فى الانسان حتى ساووه برب العالمين وادعى فى هذه النبذ كلها بأن أكثر المسلمين غلوا فى بعض المخلوقات حتى جعلوهم أربابا وآلهة مع الله وأن هذا هو السبب فى تأخرهم ، فلما انقلب انقلبت مقالته فادعى هنا أن من العقائد الثابتة عند المسلمين أن الانسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة الى آخره ، فانظر الى هذا الانقلاب المنكر والتناقض الفاحش ، وظاهر هذا أنهم يرون جميع الانسان كذلك ، وهذا يشمل الأنبياء والصلحاء وسائر أصناف الانسان ، وقد قدمنا أن المسلمين فى النظر الى الانسان على صراط مستقيم ، فهم يرون أنبياء الله وأولياءه وحملة شريعته المطهرة فى أعلى المراتب التى يمكن أن يبلغها غيرهم ، وكل من هؤلاء له مقام معلوم ، وان كل خير فى هذا العالم انما جاء على أيديهم ، وأنهم فى العلم والقوة وجميع أنواع الخير قد حازوا قصب السبق بخلاف أعدائهم من الزنادقة والملاحدة والكفار فان هؤلاء قد حكم الله عليهم حكما صريحا لا مردّ له بأنهم كالانعام بل هم أضل ، وأنهم لا يعقلون ولا يعلمون ولا يفقهون ، وأنهم رجس وأنهم نجس الى غير ذلك من الأوصاف التى حكم الله عليهم بها ، مع علمه سبحانه بأن معهم علوما صناعية ومادية وتجارية كما قال تعالى ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ لأن غاية هذه المعرفة إنما هى تصور طرق المعيشة فقط ، وهذا أمر قد استحصل عليه البهائم والحشرات والوحوش وغيرها ، فان أكثرها معه من الدهاء والحيلة والمكر والشجاعة ودقة الفكر ما يعجز عنه كثير من بنى آدم ، ولكن كل ذلك انما هو فى استحصال هذه المعيشة فقط ، فمن جادل عن هؤلاء وعاند فى علمهم ومعرفتهم فلا يجادل علماء المسلمين بل يجادل رب العالمين ويعانده ، فانه هو الذى قال فيهم هذا القول ، ونحن لم نقل أكثر مما قال

القرآن ، بل كثير من الناس رفعهم عن هذه الأوصاف القرآنية بكثير . نعم هذه العـــلوم اذا أضيفت الى دين سماوى كانت نعمة أخرى ، وهى بالنية والقصد يكون الانسان مأجوراً عليها وتكون فضائل فى حق من عمل بها على هذا الوجه ، لأنها ليست مذمومة فى نفسها بل مذموم العامل الذى لوثها بالأخلاق النجسه ووضعها فى غير موضعها ، فكان هو المذموم من أجل أخلاقه الأخرى لا من أجلها هى بنفسها ، فانها من نعم الله التى أنعم بها على عباده ، ونحن لم نذمها بل نمدحها اذا كانت على وجه مستقيم ، وانما نذم من أفسدها ولم يقدرها حق قدرها ولم يضعها فيما خلقت له وشرعت من أجله ، والله سبحانه ذم أهلها من أجل أفعالهم لأنه سبحانه علم ما سيكون وعلم أنه سيظهر زنادقة وضعفاء عقول يغترون بأهلها من أجلها فبين أنهم ليسوا على شيء من العلم والعقل والمعرفة ، فسدّ سبحانه هذا الباب سدا محكما وقطع الشبهة من كل ملحد ومنافق

فصل

قال : « وصاروا اذا سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والخلقية والأدبية ، وسمعوا إمكان تغلب الانسان عليها وحله لها ونهوضه بها ، وسمعوا ماينتظر من وثوب الانسان بالعلوم وكل نواحى الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التى قد تفضى الى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنسانى ، صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئا منه اشمأزّوا منه ومن قائليه واتهموهم بفساد الاعتقاد والزندقة والالحاد ، إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه - أى الانسان - ترك غير محدود القوى الذهنية ، وأن له أن يشارك الله فى علمه ، وأن يخرج من نطاق الانسانية الضعيفة الواهنة الى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد ، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال ، ولكنهم لا يشمئزون الا شمئزاز البالغ

ولا يثورون الثورة الجامحة المجتاحة إلا اذا سمعوا أن علم الانسان قد يتوصل الى ما يظنونه غيبا ، فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الانسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحكمة وباشعته المختلفة القوية التى هتكت كل حجاب أن يعلم ما فى بطن الانثى أذكر هو أم انثى كما يعلم الامراض الباطنة ويراهـا رأى العين ويعلمها علم اليقين ، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التى كانت وراء المـادة ومن الاشياء الغيبية قبل صنع الميكرسكوبات وغيرهـا من الآلات ، وانه قد يستطيع التوصل الى جعل إخصاب المرأة كما يريد ان شاءه ذكـرا وإن شاءه أنثى كما توصل الى هذا فى كثير من النباتات والحيوانات ، بل كما قيل انهم صنعوه فى الانسان نفسه ـ نعم لو أقيمت لهم كل البراهين عـلى أن الانسان قد يستطيع هذا أو إنه قد استطاعه لما آمنوا ، ولو سمـعوا من يدعيه ويقوله لكان أقل ما يرمونه به التكفير » . قلت : أكثر ما ذكره فى هذه الجملة كذب ظاهر غرضه من هذا التهكم والاستهزاء والسخرية وأن المسلمين على غاية من الجهالة وضيق العقل وأنهم أناس مغفلون لا بصيرة لهم ولا معرفة ، وحينئذ يقال له : ان كنت تريد بذلك أهل العلم منهم ـ وهـذا هو مرادك ـ فليس بصحيح ، فلا يمكنك أن تنقل ما يصدّق هذه الدعوى عـلى هذا الوضع عن واحد منهم أبدا ، وان أردت بذلك العامة فالعامة لايحتج بآرائهم فى مثل هذه المسائل الا من هو أجهل منهم . ولا شك أن أكثر الملاحدة ينكرون ما هو أظهر من هذه الأمور بالحس والعقل والضرورة ويشمئزون منها ، فتوجيه هذا التهكم والسخرية الى المسلمين قحة وخبث لا حاصل تحته . وهذه الدعوى التى ادعاها هنا فيها ضروب من المجازفة والـكذب الظـاهر ، كدعواه أن فى امكان الانسان أن يقضى على الشقاء فى المستقبل قضاء تاما ، فهذا لا شك فى فساده ، فبأى دليل ساغ له أن يدعى هذه الدعوى ثم يحتج بهـا ثم يسفه رأى من يخالفه فى ذلك . أيريد أن الناس يصدقونه فى كل مايقوله وأن يقدموه فى كل أمر ، أم ماذا . يالله العجب ، يدعى هذا الملحد المحـال ثم يحتج به ثم

يستهزىء بمن خالفه ، ولا يرضى من الناس أن يعارضوه فى كل ما يقول .
وهل يصدق انسان له مسكة من عقل أن الانسان سيقضى على صنوف الشقاء فى هذه الدنيا قضاء تاما ، فان هذا يشمل الموت ويشمل كل حاجات الانسان الضرورية ، بل هذا صريح فى أنه سيبلغ الكمال فى هذه الدنيا ، وهذا هو الذى أشرنا اليه سابقا فى أنه يرمى الى أن الانسان سيبلغ فى هذه الدنيا باستمرار تطور المعارف الى حالة يصل فيها الى الكمال المطلق ، وهذا سخف ظاهر ، فان الله أخبر بأنه خلق الانسان فى كبد وأنهم مردودون الى أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فمحال أن يكون المردود فى أسفل السافلين له حظ من الكمال ، وأخبر تعالى أن هذه الحياة الدنيا متاع وأنها دار غرور وان كل نفس ذائقة الموت ، وأمثال ذلك كثير مما يدل على خلاف ما ادعاه ، فالدنيا مطبوعة على الشقاء والبلاء والعناء ، ولو كان فيها كمال لكان أحق الناس بذلك الأنبياء والرسل كما قال تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان متّ فهم الخالدون ﴾ ، بل ليس فى هذه الدنيا فرح وسرور وخير الا هو من آثار الأديان ، وآثار الأعمال الصالحة كالدعاء ، ولولا ذلك لما عاش على الارض أحد كما جاء فى الحديث الصحيح « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » لأنه حينئذ ينقطع نور السماء وخيرها عنها ويحل عليها الغضب ويزول منها أثر الرحمة التى هى مرآة كل خير فى هذه الدنيا ، واذا كان ذلك كذلك فمن المعلوم أن الشر يكثر والكفر يزداد ، فكلما ازداد الكفر ازداد الشقاء والبلاء ، لأنه معلول له فلا بد أن يدور مع علته ، فما دام الالحاد يزداد فلا شك أن الشر سيزداد ، وها نحن نرى هذه الدول التى حرصت كل الحرص بزعمها على فرض السلام والطمأنينة ما عملت فى ذلك الا نقيض ما قررته ، لأن ذلك لم يبن على أساس عدل ، وكيف يبنى على اساس عدل وقد أصبح العداء والموالاة والصداقة والشقاق راجعا الى العصبيات القومية والاحزاب المتحالفة ، والدين لا دخل له فى ذلك البتة ، ومن العجب أنهم فروا من التعصبات

الدينية من أجل ان يصلوا الى اتفاق وتفاهم صحيح فوقعوا فيما هو أضيق منها وهو التعصب الجنسى والوطنى ورفضوا المواصلة للدين بتاتا فكيف يحصل السلام وكل أمة تناضل عن نفسها وشخصيتها وجنسيتها لا لدينها مطلقا ولا للعدل ، فدعواه أنهم سيقضون على الشقاء دعوى ساقطة مرذولة ، ويكفيك دليلا على سقوطها أن أعظم الشقاء الموجود الآن انما تدور رحاه فى الأمم الممتازة فى معرفة وسائل الرقى والتقدم الصناعى حين رفضوا الدين ظانين أن الشقاء فى اتباعه فوقعوا فيما فروا منه ، مع أنهم قد حاولوا بهذه المعارف التى بها نالوا الشقاء ادراك القضاء على الشقاء فصاروا أشقى الأمم ، فلو كان ما ادعاه ممكنا لكان أبعد الناس عن الشقاء أعرفهم بهذه الأمور الصناعية التى دعا هذا الرجل الى رفض الدين من أجلها . نعم انه لو كان مع هذه المعارف علوم دينية صحيحة لحصل النفع المطلوب الممكن ، وقد قدمنا ان العلوم الدنيوية لاتذم لذاتها وانما منفعتها الصحيحة اذا اسست على دين صحيح . وبالجملة فالشقاء أثر الكفر ، فلا بد من وجوده عند وجود مؤثره حتما

ومن العجب أن الله سبحانه وتعالى أنزل الشفاء الذى هو أقصى غاية فى القضاء على الشقاء الممكن ازالته وبينه وفصله وسهله ودعا اليه فابى اكثر الناس الا كفورا ونفورا ، قال فى كتابه العزيز ﴿ يابنى آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر أن عدم الخوف والحزن منوط بالتقوى والصلاح ، فأبى أكثر الناس إلا الاستهزاء بهذا وتحقيره والادعاء بأن التقوى والصلاح لاتفيد الرقى قال سبحانه وتعالى ﴿ ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ فلقد علق الله سبحانه الحياة الصحيحة الطيبة بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فبين الله اوضح بيان بأن تقواه والايمان به والقيام بما يحب ويرضى

هو أصل كل فلاح ونجاح ، فأبى اكثر الناس الا ان يعاندوا ويتهموا ذلك ويشكوا فيه ، ولماذا شكوا فيه لانهم لم يفهموا حقيقته ، ولماذا لم يفهموا حقيقته ، لانهم لم يجتهدوا فى ذلك ولم يروا ان فى الدين كفاءة تامة لتقدمهم ونجاحهم . هذا الرجل العنيد المشاكس يقول فى نحو مائة موضع أو أكثر ان السبب كله فى التأخر أن الناس يشكون فى الاسباب الطبيعية المادية ، وأن سبب شكهم فيها هو عدم اعتقاد الكفاءة فيها ، ثم يقول لماذا لم يعتقدوا الكفاءة ، لأنهم يشكون فى قدرتهم واستعدادهم الذاتى ، فاذا كان هذا كلامه فى الأسباب مع أنه لا يمكن أن يجد نصا ولا معقولا صحيحا يؤيد دعواه هذه فنحن نعكسها فى الدين ونقول : من المعلوم الذى لا ريب فيه أن النصوص الصحيحة دلت على أن الفلاح والنجاح والرقى بل وحصول الثراء المالى كل ذلك مربوط بالأعمال الصالحة أعنى أنها سبب لهذه الامور ، لأنها لا توجد الا بها ، بل قد توجد لكن تضر ، ثم انه قد علم بالاستقراء والتجربة أن ذلك قد وقع على أكمل الوجوه ، فاتفق الشرع والعقل والضرورة على ربط هذا السبب بمسببه وأن ذلك سنة من سننه التى لا تحويل لها ولا تبديل . وحينئذ نقول له : ان السبب الوحيد كله لهذا التأخر هو الشك فى كفاءة هذا الدين للاستقلال والنهوض والمجد ، والبرهان على هذا ضعف أخذهم به واستعمالهم له ، اذ من المعلوم أن كل من أحب شيئا واعتمد عليه فانه يحافظ عليه ويرفعه ويجله ويحترمه احتراما كبيرا كمثل هذه المبادىء المعروفة ، فلهذا ضعف أخذهم به ، لضعف اعتقادهم فى كفاءته فى هذه القضية ، والله يعلم من فوق عرشه أنهم لم يعملوا بأسباب الدين ربع ما يعملون بالأسباب الدنيوية ، فانهم حافظوا عليها واحترموها ورفعوا أهلها فوق أهل الاسباب الدينية . فاذا كانت هذه الأسباب الدنيوية قد حبط أكثرها مع هذا الاجتهاد فيها والاحترام لها والحرص عليها والتعلق بها ، فكيف يقال ان الأسباب الدينية لم تنفع جدا مع هذا الاحتقار لها ، فهل عمل بها على وجهها وقدرت حق قدرها وحوفظ عليها

حق المحافظة . ومعلوم أن أبسط دواء لا يحصل مفعوله إلا إذا استعمل على وجهه ، فكيف بأشرف دواء وأجله وأجمله وأعظمه ، ثم لو نظرنا الى سبب عدم احترامها والشك فى كفاءتها لوجدنا ذلك بسبب غلبة الشهوات والشبهات على نفوس كثير من القادة والزعماء ونحوهم ، وقد يكون من اسباب ذلك سقوط أناس كانوا استعملوها على غير وجهها وحينئذ فالملاحدة الذين سقطوا بأسبابهم قد اجاب عنهم هـذا الملحد فى الأسباب المادية وقال انهم لم يستعملوها إلا ضعيفة أو غـير كامـلة ، ولو أعادوا الكرة لوصلوا الى ما يريدون ، وحينئذ نقول : كل سلاح صحيح قد عرف واشتهر وتواتر قوة فعله ثم اختل مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أكثر فانه يجب تقليب النظر فيه والاجتهاد فى ذلك وإعادته مرات ، ولا بد أن يبلغ أثره ، لأنه لا سلاح فوقه ، واذا ما نظرنا الى من استعملها ولم ينجح وجدناه قد أدخل فيها مالا يلائمها من الآراء الغريبة التى لا علاقة لها بها نخلط معها من غيرها ما يفسدها فلهذا لم تنجح ، وكل ذلك سببه شكهم فى أنفسهم بأن فيهم كفاءة بالله ، فالانسان فيه كفاءة بالله فعليه العمل معتمدا على الله ، فيجتهد من الجانبين : يجتهد فى عمله ، ويعتمد على الله . وهذه كفاءة عظيمة جهلها الانسان فى نفسه ، فهو عـلى ضعفه قوىٌّ بالله شديد بالله عظيم بالله شجاع بالله ، فهو قوى بالقوة العالية القاهرة الجبارة

أما هذا الرجل فانه جعل فيه كفاءة بذاته ، فسلك أسخف مسلك على وجه الارض ، وكيف يغالط العاقل الحقائق فيعتقد فى نفسه القـدرة وهو يرى عجزه الذاتى الذى لا شك فيه ، بخلاف من اعتقد أن فيه الـكفاءة بالله تعـالى فمتى اجتهد فى اعماله واعتمد عـلى الله فان الله سبحانه يوفقه ويعينه ويسخر له من الأسباب مالا يحسب له الحساب ، وهذا ظاهر مشاهد

أما ما ذكره فى الجنين والاطلاع عليه بالأشعة ونحو ذلك فهذا ـ ان قدر ثبوته ـ فليس من علم الغيب ، لان هذا شىء مشاهد بالعين بواسطة هذه الآلة ، وعلم الغيب هو معرفة ما هو غائب عن الانسان فـلا ينظره ببصره ولا يحسه

بشیء من حواسه ولا تظهر له علامات تدل عليه ، هذا هو علم الغيب أما الذى
يدرك بشیء من الحواس سواء كان ذلك بواسطة آلة أو بغير واسطة أو تظهر
له علامات وقرائن تدل عليه فليس هو من علم الغيب ، ولهذا فانه ليس فى
امكان هؤلاء معرفة هذه الامور بدون هذه الوسائط ، ومعرفة الشيء الغائب
بالوسائط أمر متقدم نوعه قبل هذه العصور كالامارات والعلامات ، بل
البينات ماهى الا قرائن تفيد العلم ، بل قد تفيد القطع بالعلم بالشيء الغائب ،
وانما توسعت دائرة هذه الاشياء الصناعية فقط أما علم الغيب فهو هو ، فمتى
أزيلت هذه الوسائط لم يحصل شيء من ذلك أبدا ، ولو أن رجلا شق بطن
أنثى ورأى مافى بطن رحمها بعينه وعلمه لم يكن هذا من علم الغيب لانه زال
الحجاب ، وإزالته بهذه الآلة كازالته بأشياء أخرى تمنع حيلولته ، لأنه حينئذ
يرى ظاهرا بحاسة البصر ، فلا يظن ظان أن قوله تعالى ﴿ ويعلم مافى الارحام ﴾
وما ذكر فى الحديث من انفراده سبحانه بعلم مافى الأرحام أنه ينفيه ما
وجد من هذه الأمور ، بل المراد أنه سبحانه مختص بعلم ما هو غائب فى
الأرحام ، وأما ما ظهر فليس داخلا فى ذلك فانه يعلمه ويعلم به خلقه ، فانه
ليس شيئا غيبيا ، فانه بوجود ما يزيل هذا الحجاب خرج من الغيب الى الظهور
كما لو سقط الى الأرض برحمه فانه يرى مشاهدا كسائر الاشياء البارزة .
والحاصل أن الله هو المختص بعلم الغيب ، والغيب ـ كما ذكرنا ـ هو ما لا يرى
ولا يحس بشيء من الحواس ولا يعرف بقرائن وأمارات ، وهذا لم يتغير شيء
منه ، فالناس فيه الآن وقبل آلاف السنين سواء ، غير أن الصناعات والوسائط
تنوعت وكثرت ، وهذه أسباب ، وهى لا تزال من أول الدنيا وهى تتغير
وتتقلب وتتجدد وتتحول بحسب ما تقتضيه الحكمة والعدل فى كل زمان
ومكان ، وكذلك اطلاعهم على بعض الأشياء الذرية الكامنة فى الجسم بالآلة
المذكورة فهو من هذا الباب ، فليس هو من علم الغيب ، وليس هو وراء المادة ،
بل هو مادة متصلة عادة كسائر الاشياء التى يكون بعضها تحت بعض أو فوقه

فهو شىء يرى بالحاسة ، والذى يرى بها لا يصح عقلا ولا شرعا أن يدعى فيه أنه من علم الغيب ، سواء كان ذلك الشىء مرئيا بواسطة أو بغير واسطة

أما ما ذكره فى اخصاب المرأة وجعل الولد ان شاء ذكرا وان شاء انثى فهذا لم يصح ، وهو لم يجزم بوقوعه مع أنه شديد التصديق بما يناسب هذه الأمور وان كان محالا فكيف لم يجزم به هنا ثم يحتج به ، وأما غير الانسان كالنبات فليس فى ذلك كبير أمر ، فان الله جعل لهذا أسبابا فى تغيير ذلك ، وكثير من عامة الفلاحين يعرف ذلك فى بعض الاشجار فى صغرها خاصة ، وهذا شىء معروف من قديم ، ولكن ذلك انما يكون فى الصغر ، وأما الحيوانات غير الانسان فهذا ايضا لم يثبت ثبوتا محققا ، ولو ثبت تغيير الاخصاب الذى هو موضع الحمل فان هذا لا يفعل الا باسباب توجب تغيره لا تغير الحمل المخلوق ، وذلك بأسباب مادية ، فانه يوجد أسباب كثيرة تقطع الحمل وتقطع الباه ، ولكن لا يوجد أسباب توجب الحمل فى العقم الطبيعى لأن قطع الحمل والباه من باب الا فساد وتغيير الشىء عن وضعه بالنقص ، بخلاف الاول فانه يوجب خلق مادة لم تخلق ، واياك ان تظن أن الحيوانات كالانسان فى هذا الباب ، فان الانسان اختصه الله بامور كثيرة كما اختصه بالنطق ومعرفة الدين ، وورد فى الحديث أنه ينزل اليه الملك فى الرحم ويقول يارب أذكر أم أنثى وشقى أو سعيد الخ ولم يرد ذلك فى البهائم ، ولا يظن أحد أن احدا من المخلوقين يقدر أن يغير الولد فى الرحم بعد خلقه وتكوينه فيجعله ان شاء ذكرا وان شاء أنثى - وكلام هذا الملحد يوهم هذا - فان هذا من المحال سواء كان فى البهائم أو فى الانسان ، غاية مافى ذلك أنه على ما يقال توضع فى الرحم أشياء من المواد التى تغير موضع اخصابه إما بحرارة أو برودة قبل وجود النطفة فيه وقبل تكوين الولد ، وهذا يذكر فى البهائم خاصة دون الانسان ، وأكثر المتكلمين فى هذه الامور أنكروا وجود هذا بتاتا قطعيا ، ومن ادعى وجوده فذكر أنه نادر فقد يوافق قضاء وقدرا فيكون فتنه للذين

فى قلوبهم مرض لا من أجل العمل ، وبكل حال فليس الانسان كالبهائم وليس هذا تحويل صورة الى صورة أخرى أو جنس الى جنس آخر بل هو تغيير لشكل طبيعى بالنقص فقط ، إلا أن الاخصاء مما يقدر عليه الانسان لانه قطع المادة بخلاف ردها فلو وجد خصيا لعجز الناس كلهم عن ايجاد هذه القوة فيه لان هذا من باب الخلق وذاك من باب الافساد والاعـــدام كالقتل ، فهم يقدرون على القتل بالاسباب ، لكن لا يقدرون على إحياء المقتول لا بأسباب ولا بغيرها ، ولا يقدرون على القتل أيضا بغير أسباب ، بل لا يقدرون على تغيير صورة من قبح الى حسن أو من شكل الى شكل آخر أو زيادة عمر أو بالعكس ، فدعوى هذا المعارض أن فى استطاعة الانسان أن يقضى على الشقاء قضاء تاما الى آخره كذب ظاهر معروف بطلانه بالحس والضرورة ، وقد علم أن أبغض شىء الى الانسان هذه المصائب والأمراض المتنوعة والموت ، فهل انقطعت الأمراض والمصائب لديهم ، أو هـل نجح كل من تداوى ودخـل المستشفيات على كثرتها وتنوعها وتوسع معلوماتها ، وهل قدرت أعظم أمـة منهم على كثرتها واتفاقها على انقاذ أكبر شىء وأعزه لديهم من الموت كرئيس أو غيره ، هذا مالا يكون أبدا ، وهذا غاية العجز

ثم ذكر الملحد ما قدمناه فى دعواه أن بعض المسيحيين ذكر أن القول فى ألوهية المسيح وإن كان باطلا فى نفسه إلا أنه مفيد فى نتيجته ، وقد تقـدم الكلام عـــلى ذلك

فصل

قال : « ومن الحسن أن يفهم القارىء أن هذه الفلسفة التى ذكروهـا فى ضعف الانسان فلسفة باطلة يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة »

فيقال : هذه الفلسفة التى ادعيتها ونسبتها الى المسلمين فى هـذا الـكتاب كذب وبهت اخترعته لنفسك وعلى شهوتك ، فلا أساس له ولا حاجـة الى

الرد عليه، لانك إنما تردّ على شيء لم يكن ولا أصل له. أما ضعف الانسان الذى يعتقده المسلمون فليس هو الذى تعنيه وتدّعيه، بل هو الذى فهمه السلف والمفسرون وأتباعهم ومضت عليه النصوص الشرعية، قال تعالى ﴿وخلق الانسان ضعيفا﴾ وقال تعالى ﴿ان الانسان خلق هلوعا، اذا مسّه الشرُّ جزوعا، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين﴾ فضعف الانسان وفقره أمر ظاهر بالشرع والضرورة والحسّ، فانه ضعيف من حيث ذاته، وضعيف من حيث نفسه، فانه لا يصبر على النعماء بل يطغى، ولا الضراء بل يجزع، كما حكى الله تعالى عنه فى الآية المتقدمة. ثم هو ضعيف من حيث اضطراره الى لباس وقوت خاص بعيد التناول، والى سلاح خارج عن ذاته يدافع به عن نفسه كثيرا من الحيوانات المعتدية، ومحتاج الى نفَس فى كل لحظة، والى استفراغ فى كل حين، وهذا ضعف ظاهر لا يقبل الجدال بلا شك، وهو الذى يعنيه الناس، وانما قوّته التى يقرّون بها انما هى بتفكيره وعقله، ثم عقله وتفكيره ان استعملهما فى طاعة الله تعالى وفيما ينفعه مما ابيح له من سائر المباحات فقد استقوى بذلك، وان استعملهما فى ضد ذلك لم ينتفع بقوّته نفعا صحيحا مستمرا، بل لو انتفع به قليلا فلا بد من أن تنهار قوته ويرجع الى الضعف وأن يرد الى أسفل سافلين، فلا حول للانسان ولا قوّة له الا بالله، والله لا يكون مع من عصاه وتمرد عليه أبدا، فان الانسان بالنظر الى مبدإه ضعيف، ولكن الله يعطيه قوة محدودة، فمنهم من يعرف قدر هذه القوة فيؤدّى حقها فيزداد قوة الى قوته، ومنهم من يكفر بها فلا بد من ذهاب قوته كما تقدم، ولهذا قال تعالى عن عبده هود انه قال لقومه ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾ فلما أن تولوا مجرمين لم يزدهم الله قوة الى قوتهم، بل لم ينتفعوا بالقوة التى كانت معهم، فعوقبوا بقوة أبادت قوتهم عن آخرها، وكم من قوة عظيمة جبارة بدّدها الله ودمرها لما عصت وكان أهلها من المعتدين

فهذا هو الرأى المعقول فى القوة والضعف ، لا على ما حكاه وزوّره فى مسألة ضعف الانسان على ما تقدم

فصل

ثم قال : « مستدلا بالنظر ، اذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك »

قلت : لا يخفى أنه يريد بالنظر هنا النظر الشرعى على مقتضى تعليله ، وحينئذ يقال له هذه مغالطة ، فإن الحاكمين على الانسان بكون قدرته غير كاملة بل ضعيفة لا يمكن أن تتجاوز حدودها المرسومة لها يقولون : لأن الله أعجزه عن مجاوزة ما وراء هذه الحدود كما أعجزه عن الاستغناء عن القوت والشرب والنفس لعدم صلاحيته لذلك واستحالته عليه لنقصه الذاتى ولانه مخلوق انسانا ولم يكن إلـٰها ، اذ لو كان كامل العلم والقدرة لكان إلـٰها ولم يكن انسانا ، والله سبحانه هو المختص بالقدرة الكاملة والعلم الكامل فلا يمكنهم أن يساووه فى صفاته التى اختص بها ، ولا شك بالبداهه ان هذا تعظيم له ، وأما من ادعى أن قدرة الانسان غير محدودة وأن فى استطاعته أن يصل الى كل شىء ويتحصل على كل شىء وان يتغلب على كل شىء فقد صرح بمساواة خلقه له فى صفة القدرة والعلم ، ولا شك أن من ساوى بينه وبين عباده فى صفة من صفاته ولا سيما القدرة والعلم اللذين هما من أعظم مظاهر الربوبية فقد سبه سبا صريحا وتنقصه تنقصا ظاهرا ونفى انفراده بالخلق والتدبير ، وهذا كفر صريح أعظم من كفر مشركى العرب فانهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير ، قال تعالى ﴿ أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ، أإله مع الله ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض أمَّن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وقال تعالى مخبرا عن المشركين أنهم يقولون لآلهتهم

وهم يعذبون ﴿ تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ﴾ ومعلوم أنهم انما سووا بين الله وآلهتهم فى العبادة التى هى الدعاء والتوكل والاعتماد والخوف ، وإلا فهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير والرزق وغير ذلك ، فكيف بمن ساوى بينه وبين خلقه فى خصائص الربوبية كالقدرة والعلم ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وتعظيم صنعة الله التى ادعيتها يحصل بدون أن نعظم الانسان حتى نجعله عالما بكل شىء قادرا على كل شىء وأن قدرته لا حدود لها ولا قيود ، فليس هذا من تعظيم الله فى شىء بل هو عين التنقيص والسب له ، وليست صنعة الله محصورة فى جنس الانسان ﴿ لخلقُ السموات والارض أكبر من خلق الناس ﴾ . ثم اذا كانت العلة فى تعظيم الانسان هو كونه صنعة الله فليس هذا من خصائص الانسان ، بل الحيوان والنبات والجماد كل ذلك من صنعة الله ، فاذن يجوز تعظيم الحشرات والنبات وغير ذلك كما عبدها المشركون ، فلا يجوز قتل شىء من ذلك ولا تعذيبه لأن تعظيمه واجب ، فان العلة واحدة فى الانسان وغيره ، والا فما الفرق ، ولو ثبت الفرق فما هو المسوّغ الشرعى لهذا دون ذاك . ثم ما هو التعظيم الذى تدعيه وما حدّه ، أتريد به كل تعظيم حتى الدعاء والسجود وغيره ، أم تريد به نوعا خاصا من التعظيم فلا بد من بيانه . ثم اننا ما رأيناك عظمت الانسان بل جعلت الانسان الأول دون طفل اليوم والقرون الأولى كالقردة بل أسوأ حالا منها ، ومع هذا هجمت على المسلمين كلهم وسفهت أحلامهم وطعنت فى آرائهم وجعلت جميع ما قاله فقهاؤهم فى كتبهم ليس له قيمة عقلية ولا علميه ولا دينية ، وان المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وان كان تعظيمك الذى تدعيه وتدعو اليه محصورا فى الملاحدة والزنادقة وأمثالهم فقط فهؤلاء لا يحل تعظيمهم ، وليسوا هم جنس الانسان خاصة ، ومن عظمهم واحتقر غيرهم فلا يقال انه عظم الانسان ، فبطلت هذه الدعوى على كل تقدير

ثم قال : « وانه ينقص اذا نقص الشىء الذى يفعله ويوجده ويذم بذلك »

فيقال : هذا مردود ، فاننا اذا نقصنا الشيء الناقص الذى أمر الله بتنقيصه فنحن بهذا التنقيص نقول الصدق والحق فنثنى على من خلقه على هذا الوضع فنكون معظمين له لاننا امتثلنا أمره ، وكونه فـعـلـه بمعـنى أوجده وابدعه لا ينافى ذلك لانه أوجد كثيرا من الاشياء الناقصة ، ولأنه أوجده لشيء مطلوب منه كالانسان فى العبادة فلم يوجد ما طلب منه من العبادة فكان ناقصا بتنقيصه لنفسه ، وقد سبق قوله « انه من الممكن للانسان أن يصير الى النقص والدمار لان ذلك فى يده » . ثم ان وصف الانسان بما يستحقه ليس تنقيصا له ، بل وضع له فى موضعه الذى يستحقه ، ومعلوم أنه لا يستحق الـكمال المطلق ، ولا يستحق أن يكون عالما بكل شيء وليس شيء فوق قدرته ، بل نقصه نقص مشاهد محسوس كما سبق ، فوصفنا له بما هو ثابت له متصف به ليس ظلما ولا تنقيصا له عما يستحقه ، واذا ثبت أن ذلك ليس تنقيصا له لم يكن ذلك تنقيصا لخالقه وذماً له على كل تقدير

وأيضا النقص الذى يخص الانسان نوعان : من ناحية علومه ، ومن ناحية ذاته . أما الأول فكما ذكرنا ، فانه من المعلوم بلا ريب أن هـذه المعارف والمعلومات انمـا استفادها استفادة ، فانه لبث جزءاً من عمره لم يعـلم شيئا فكانت علومه التى معه كلها إنمـــا استفادها من هذه المعلومات التى اكتسبها بحواسه وانطبعت فى نفسه ، ومعلوم أنها محدودة بحدود بينة ، فاننا لو قدرنا أن عالما كبيرا طال عمره فلا شك أن معلوماته تزيد ، وكلما طال عمره وهو على حالته المستوية فانه يزداد علوما كثيرة فلو عاش ألف سنة أو اكثر لكان علمه أكثر من علمه حين كان ابن ستين سنة ، فهذا يدل عـلى أن المـدة التى يعيشها الانسان إنما يكتسب فيها مقدارها من العـلم ، وهى محـدودة فالمقدار محدود ، فهو ناقص بالنسبة الى ما لو طال عمره ، وهذا يدل أيضا عـلى أنه لا يمكنه الاحاطة بالعلم مهما بلغ ما بلغ من الفهم والذكاء والعقل ، فاذا قلنا انه لا يعلم كل شيء وأن قدرته لا تتناول كل شيء فقد صدقنا ، ولا يكون صدقنـا

تنقيصا لخالقه ولا ذما له كما سبق . وأما نقصه من ناحية الصورة الجسمية فله اعتباران أحدهما أن يكون ناقصا عن جنسه كنقص الاكمه والخنثى ونحوه عن غيرهما ، وهذا لا نظنه يريده ، ولو أراده لم يفده شيئا ، لأنه نقص يدل على مظهر القدرة التى هى من أعلى صفات الكمال المقتضية للتعظيم ، والثانى النقص الوضعى كنقص جسم الانسان عن جسم البعير ونحوه ، فهذا ليس بنقص حقيق بالنظر الى كونه مخلوقا فانه بالنظر الى خلق الربوبية له ليس بنقص ، لان الحكمة العليا العالمة بحقيقة هذا المخلوق اقتضت أن يكون بهذا الوضع ، وكل وضع صدر عن حكمة واتقان كامل لا يكون نقصا ، فان النقص الحقيق فى المخلوق وجوده على خلاف ما ينبغى أن يوجد ، وهذا وجد على مقتضى ما ينبغى أن يوجد ، فانه وجد على أحسن تقويم ، والذى وجد على احسن تقويم ليس بناقص فى وضعه بل الناقص من رد الى أسفل سافلين . ومجرد تصور بعض الأفكار له بكونه ناقصا لا عبرة به ، لان الافكار تختلف فلا يعتد بتصور بعضها دون بعض بدون مرجح ، وهكذا سائر الحيوانات فان كل حيوان بالنظر الى خلقته المجملة وتقاطيعه المفصلة المتنوعة والى ما خلق له ليس بناقص فى وضعه ، وانما هو ناقص باعتبار آخر عارض خارجى إضافى وهو نقصه عن غيره فى صورة ما ، فاذا وصفنا الانسان بالوصف الذى طبع عليه من هذه الجهات المذكورة لم نكن منقصين له فلم يكن وصفنا هذا ذما لخالقه سبحانه وتعالى

فصل

ثم قال : « فعلى حسب الشىء تكون الآثار والافعال ، فالذى يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيما ، والذى يصنع الحقير التافه لا يستطيع غيره يكون تافها حقيرا ، وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها »

قلت : لكن هى - على تقدير صحتها - حجة عليك ، لانه اذا كانت عظمة

الآثار والأفعال تدل على عظمة فاعلها ومؤثرها فلا شك أن آثار رحمة الله وخلقه وفعله لهذا الكون العظيم الهائل الذى حارت فى تفاصيله العقول أعظم من آثار الانسان ، فان آثار الانسان بالنسبة الى آثار الله تافهة حقيرة ، بل هى بالنسبة اليها كلا شىء مع أنها داخلة فى آثاره تعالى فانها من آثار آثاره ، وحينئذ يكون تعظيمنا للانسان بقدر أثره وتعظيمنا لله بقدر أثره ، فلا يكون للانسان إلا أحقر التعظيم بالنسبة الى أثره بل يكون تعظيمه بحسب أثره ، ومعلوم اختلاف الانسان فى الأثر هذا الاختلاف المتباعد الاطراف ، وأنت جعلت الانسان بالنسبة الى استعداده وأثره سواء ، فدعواك اذن فيما يأتى أن الانسان عظيم وأنه لا يقال لشىء من الاشياء كائنا ما كان انه فوق قدرته وأنه يعلم كل شىء يناقض هذه القضية مناقضة صريحة فتكون حجة عليك ، فانها توجب عظمة الفرق بين الله تعالى وبين الانسان ، وأن الانسان فى غاية الحقارة بالنسبة الى الله لأن آثاره بالنسبة الى آثار الله كلا شىء . ثم ان هذه القضية إنما غايتها أن الانسان يكون عظيما إذا عظمت صنعته ، وهذا لا نزاع فيه – كما ذكرنا – ولكن عظمته بمقدار اثره من الصنعة ، ومعلوم أن صنعته فى غاية الضعف والصغر بالنسبة الى صنعة فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والانسان جنس من خلق لا يحصى عدده الا الله ، فعظمته الضئيلة داخلة ومستوجبة لعظمة الله بقدر ما لها من الأثر ، ولكن لا تستفاد عظمة الله من عظمة الانسان أبدا – وهذا هو مقصوده بهذه القضية – بل عظمته تعالى لا تستفاد من شىء من المخلوقات لا من وجود الانسان وعظمته ولا من غير ذلك ، فانه عظيم قبل أن يخلق الانسان ، وقبل أن يخلق جميع الخلق ، وليس فى العقلاء من يثبت من هذه القضية أو يفهم منها أن الله عظيم اذا عظم الانسان أو اذا عظمت صنعته ، وحقير اذا حقر الانسان وحقرت صنعته – اى صنعة الانسان – أبداً . وهذا هو قصده من القضية ، فهى حجة عليه ، لانه بها ثبتت حقارة الانسان بحقارة صنعته بجانب صنعة الله ، وهو قد عكس النتيجة وجعلها

غير ملائمة لهذه القضية فقال :

« فاذا أثنينا على الانسان الذى هو مخلوق لله فقد أثنينا على خالقه . واذا ذممناه فقد كدنا نذم خالقه أو فقد ذممناه من حيث لا ندرى ولا نريد » انتهى .

فهذه النتيجة الساقطة كما ترى لا تعلق لها بالقضية أصلا ، ثم هى نتيجة باطلة لم يسبق اليها ولم يتفوه بها أحد قبله لظهور هجنتها وقباحتها ، فبأى وجه يكون الثناء على الانسان ثناء على خالقه ، هل من كونه مخلوقا له أم من حيث كونه انسانا . فان عنى الأول الذى هو ظاهر كلامه لأنه قال « الذى هو مخلوق لله » فيلزم منه الثناء على الحيوانات كلها كالكلاب والحشرات وغيرها لانها مخلوقة لله . وأما الثانى فيلزم منه أن نثنى على الكفار وعلى من سرق وزنى وقطع الطريق كما نثنى على المسلمين بلا فرق فنعاكس الله فى ذمهم والنهى عن تعظيمهم ، لأن العلة هى الانسانية ، والثناء عليها ثناء على الله بزعمه ، وأن لا نذمهم لأن ذمهم ذم لخالقهم كما يقول ، وهذه كلها رعونات لا يخفى سقوطها ، وقد سبق البيان بأننا لا نذم الانسانية بل نمدح من حافظ على انسانيته ولم يفسدها ، والا فمن أفسد انسانيته وتحول الى طور الحيوانية الشريرة فكيف يستحق المدح ، ولو استحقه لم يكن ثم فرق بين المسلم والمجرم والمفسدين فى الارض والمتقين والفجـــار

فصل

ثم قال : « ولهذا فان الأديان كلها قد دأبت على لفت الانظار والتوجيه الى المخلوقات الكبيرة العظيمة ، كالشمس والقمر والنجوم والسموات والارض ، لما فى ذلك من التعظيم لله ، ومن الابانه عن سلطانه وعظمته ، ومن التدليل على أنه الكبير ، ولهذا أيضا فقد جعل المقرّبين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات الى الكمال وأعظمها علما وذكاء وقوة . والنظر اذن يرشدنا الى أنه يجب اذا أردنا تعظيم الله أن نعظم مخلوقاته وأن

تعتقد أنها مستعدة للكمال وأنها اذا لم تكمل فهى التى أبت لنفسها هذا الكمال الذى أراده لها خالقها ، اذ الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه »

فيقال : أما الاديان فانها لم ترشد الى النظر فى هذه المخلوقات الا للتفكر والاستدلال على قدرة الصانع ، لا على ما تدعيه من أنها مستعدة للكمال ، فان الأديان لم ترشد الى هذا أبدا . ومن تأمل جميع المواضع التى أمر الله فيها بالتفكر فى آياته العلوية والسفلية علم أن المقصود من ذلك الاستدلال على كمال الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وتعظيمه وجلاله وتوحيده ، فان الآيات الواردة فى هذا الشأن تأتى كثيرا فى الاحتجاج على المشركين بها وبما فيها من بديع الصنعة وباعترافهم بانها مخلوقة مربوبة ، أى فيجب تعظيم من خلقها وإفراده بالدعاء وجميع أنواع العبادة ، فكما أنه المنفرد بايجادها وتدبيرها فهو المستحق لأن يفرد بالطلب والرغبة والرهبة ، أما كونها مستعدة لكمال أو غير مستعدة فلا تعلق له بذلك أصلا ، وهذه التفاسير بأجمعها شاهدة على ذلك ، وكونه سبحانه جعل المقربين لديه كالملائكة والرسل أقرب الموجودات الى الكمال لا يدل على ما ادعاه ، بل يدل على عكسه ، فان هؤلاء انما نالوا هذه الأقربية والقوة والعلم وغير ذلك بعبادته ودعائه والقيام بأوامره والتقوى وجميع الأعمال الصالحة ، لا بالعلوم التى تدعو اليها حتى يصح لك الاستدلال . ثم انه لعمى قلبه وانطماس بصيرته جعل النظر الى هذه الأشياء دليلا على وجوب تعظيم المخلوق ، ثم لم يكفه هذا الضلال البعيد حتى ركب عليه ضلالا أبعد منه حيث قال « انه يجب اذا أردنا أن نعظم الله أن نعظم مخلوقاته » فعلى هذا اذا أردنا ان نعظم الله بالسجود والدعاء والخضوع فعلينا ان نقصد احدى المخلوقات فنسجد لها وندعوها ونخضع لها كما هو صريح كلامه ، وهذا كفر صريح لم يتجاسر كثير من الكفار على التفوه به ، ثم انه لعمق الهوة التى سقط فيها عمم المخلوقات فلم يخص الانسان ولا السموات والأرض بل اطلق المخلوقات »

وهو صريح فى جواز عبادة غير الله من سائر أصناف المخلوقات ، بل ذلك واجب ، لان تعظيم الله واجب فاذا اردنا ان نعظمه فلنعظم مخلوقاته وان نعتقد أنها مستعدة للكمال ، فتعظيم السنانير والحمير وسائر الحشرات تعظيم لله لانها مخلوقات له ، ولا سيما أننا يجب علينا مع هذا التعظيم أن نعتقد أنها مستعدة للكمال ، ثم أعجب من هذا وأكبر أنه ركب على هذه الضلالة أشنع منها حيث قال « وأن نعتقد أن هذه المخلوقات خلقت مستعدة للكمال ، وأنها اذا لم تكمل فهى التى أبت لنفسها هذا الكمال الذى أراده لها خالقها » فيابلعام زمانه ما أدق فطنتك وأغزر بحرك فى هذه الفلسفة ، هذه المخلوقات كلها مستعدة للكمال ، وانما هى أبت ذلك ، ماكان ينبغى لها أن تعاند هذا العناد وأن تكون بهذه الغفلة والنوم العميق عن هـــذه الفضائل الكامنة فيها ، فالنعجة والأرنب والدجاجة والضب والسمكة كل هذه وغيرها مستعدة للكمال إلا أنها لسوء حظها أبت ذلك الذى اراده لها خالقها ، ينبغى بل يجب أن تتبرع لها وأن تبنى لها المدارس وأن تعلمها وتلقنها حقائقك الأزلية الابدية لايقاظها من نومتها وتنبيهها من غفلتها وارشادها الى ما خلقت له ، فان أغلالك هذه لا تأخذ بها أمة الا نهضت ولا تتركها أمة إلا هوت ، فهى فتح كبير لهذه الحيوانات الغافلة المسكينة . ثم العجب الآخر تعليله أن الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ، فالمخلوقات إذن كلها كاملة لأن الله كامل وهى خلقه فيجب ان تكون كاملة ، وحيث ثبت كمالها فيجب أن يكون كل ما صنعوه كاملا لأنهم كاملون ، وهكذا يجب تسلسل الكمال فى الموجودات الحادثة فى المستقبل كما يجب فى الماضى لأن الكامل الاول لا يخلق إلا كاملا وأثره وخلقه كهو فى الكمال وهلم جرا . وإذن فمن أين جـــاء النقص الموجود بالشرع والعقل والضرورة والحس ، والنقص انما يكون فى الشىء القابل للنقص وفيه استعداد له ، فمن أين جاء النقص اذن ، فهل هذا إلا من أرذل الكلام وأفسده ، بل النقص هو ملازم لكل مخلوق لأن أصله من العدم فهو ناقص طبعا ، وانما

يكون فيه من الكمال بالقدر الذى يكتسبه من مصدر الكمال الأول وهو الدين وطاعة الله تعالى ، فان اكتسب شيئا من ذلك بقى معه بقدر ما اكتسبه وإلا انحط الى أصله الطبيعى الناقص المظلم ، والله سبحانه خلق الناقص وخلق الكامل الذى كماله مناسب له ، وجميع النقائص فى الدنيا فانها من آثار المخلوق الناقص لأن اثر الناقص بلا شك ناقص ، ولا بد أن يكون نقصه دون نقص مؤثره ولهذا كان البلاء والشقاء ومصائب الوجود كله إنما تأتى دائما من الالحاد والنفاق فقط ، فلا يوجد فى جميع العصور على طولها وكثرتها أن الطاعة والتقوى كان لها أثر فى بلاء أو عناء ، وهذا ظاهر لا خفاء به وأكثره لا يحتاج الى اطناب ولكن لقلة من يعرف الحقائق وكثرة الجهل احتجنا الى شرح مثل هذا لأن لكل ساقطة لاقطة ومن يضلل الله فما له من هاد

وقد انتهى استدلاله بطريق النظر فى الرد على القائلين بضعف الانسان بزعمه ثم شرع يرد عليهم بالنصوص ، وينبغى أن تلاحظ أنه انما يرد على شىء اخترعه هو بنفسه لا أصل له ، كما أنه يجب أن تلاحظ أنه لا يعتد بقول فى الآية يخالف رأيه ، بل يفسر الآية طبق هواه مهما كان الأمر ، وغرضه إفساد النصوص والتشكيك فيها ، وهو اذا أراد أن يستدل على شىء من إلحاده بآية من القرآن فانه لا يعسر عليه شىء من ذلك ، بل يتناول ما يراه من آية فيجعلها على طبق ما يريد ، لأنه يوجب على الناس أن يكون معنى الآية هو ما يفسرها به ، ولهذا فانه لا يتقيد أبدا بقول أحد من المفسرين كائنا من كان ، بل صرح فيما يأتى بأنه لا يلزم أن نأخذ بما قال الشيوخ والعلماء فى تفسير الآيات ، وجميع الآيات التى فسرها ليس فيها آية واحدة فسرها على وجهها أو على كلام أحد قبله من المفسرين بل على هواه ، لأن غرضه من ذلك النفاق بكونه يستدل بالقرآن لأجل التشكيك فيه كما سبق

قال « وأما من ناحية النصوص فلنذكر فى هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الانسان الأول اذ قال ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى

الارض خليفة ـ الى قوله ـ وعلم آدم الاسماء كلها ـ الى قوله ـ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ الآية . فأخبر تعالى عن الانسان أنه مستخلفه فى الارض ، ومعلوم أن الخليفة ينوب عمن استخلفه ، ولا يستخلف الحكيم العاقل الا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياما صحيحا لا يمنعه القيام بها كما يجب جهل ولا عجز ولا هوى . ولو كان الله يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذى لا يمكنه الخلاص منه لما اختاره خليفة له فى أرضه ، فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف ونهاية الكرم »

فيقال : ليس فى هذه الآيات الكريمات التى استدل بها هنا على مقصوده ما يفيده البته ، بل ألحد فى هذه الآيات إلحادا بينا من ناحيتين : احداهما أنه أبدل اسم آدم بالانسان ، والله سبحانه وتعالى لم يقل وعلم الانسان الاسماء كلها ، وليس اسم الانسان مرادفا لاسم آدم ، فان هذا اسم خاص وهذا اسم جنس فكيف يضعه بدله ، وانما قصد بهذا المغالطة ليصح له الاستدلال بالآيات التى ذكرها ، وهيهات له ، فانه ليس كل ما أعطيه آدم أعطيه بنوه ، فانه عليه السلام نبى وبنوه مختلفون فمنهم الصالح ومنهم دون ذلك . وينبغى أن يلاحظ تعبيره عن آدم بالانسان الاول هنا ، وسيأتى تصريحه بأن أطفال اليوم أحسن حالا من الانسان الأول هناك عندما يدخل ميدان الالحاد ، وأما الآن فهو فى ميدان المنافقة والخداع . وأما الالحاد الثانى فانه جعل آدم هنا خليفة عن الله تعالى حتى جعله خليفة كما يستخلف الانسان الخليفة فى مكانه يقوم مقامه فى كل شىء ، وقد صرح بهذا حيث قال « ومعلوم ان الخليفة فى العادة ينوب عمن استخلفه » وهذا من أعظم الضلال والكذب على الله تعالى وعلى كتابه ، فليس فى الآية ما يدل على هذا مطلقا ، فان الله سبحانه لم يقل انى جاعلك فى الارض خليفة عنى بل قال جاعل فى الارض خليفة يعنى خليفة عمن قبل آدم كما قال فى

الآية الاخرى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الارض ﴾ يعنى يخلف بعضكم بعضا ، فانه سبحانه أجل وأعظم وأكبر من أن يجعل فى الأرض خليفة ينوب عنه فى كل شيء فيتصرف فى عباده بالنيابة عنه ، فانه سبحانه شاهد لا يغيب ، وهو الحى القيوم القائم على كل نفس بما كسبت ، قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى(١) : وأما الرب سبحانه وتعالى فيمتنع أن يفعل أحد مثل فعله ، ويمتنع أن يستخلف أحدا يقوم مقامه فى فعله ، فانه سبحانه وتعالى خالق فعل ذلك الشخص ، وهو سبحانه شاهد لا يغيب . وهذا موضع غلط فيه طائفة من الناس فظنوا أنه سبحانه يستخلف أحدا عن نفسه ، وادعى بعضهم أن آدم خليفة عن الله فى الارض يقوم مقامه وأنه جمع له أسماءه الحسنى ، قالوا وهو معنى تعليمه الأسماء كلها ، وهذا قول أهل الحلول والاتحاد(٢) كابن عربى صاحب الفصوص وأمثاله من أهل الالحاد ، وهذا جهل وكفر ، فان الله تعالى هو الذى يخلق كل شيء ويدبر أمر السماء والأرض ، وهو خالق آدم كما هو خالق سائر المخلوقات ، وهو شاهد لا يغيب ، والمخلوق يستخلف مخلوقا عن نفسه لعجزه أو جهله أو مغيبه ، وأفعال الخليفة عن غيره يفعلها بنفسه لا يحدثها الذى استخلفه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء عليم ، وهو شاهد لا يغيب ، وهو الذى يخلف كل شيء فالعبد يستخلف ربه كما كان النبى ﷺ يقول اذا سافر « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الاهل . اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » فان المقيم عند أهله هو المدبر لأمر بيته فاذا سافر سأل الله أن يخلفه فيهم . وكما سمعوا يوم مات النبى ﷺ قائلا « ان فى الله عزاء من كل هالك ، وعوضا عن كل مصيبة ، وخلفا من كل ما فات . فبالله فثقوا ، واياه فارجوا ، فان المصاب من حرم الثواب ».

---

(١) فى الرد على البكرى ص ١٦٤

(٢) وهو قول هذا الملحد بعينه ، بل اعظم كما هو ظاهر

وكذلك العبد يخلف العبد فى أهله كما قال النبى ﷺ « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا » وقال ﷺ فى قصة ماعز « أو كلما نفرنا فى الغزو خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس[1] يمنح احداهن الـكثبة من اللبن ، ان الله امكننى من أحد منهم لأجعلنه نكالا » ومنه قوله تعالى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الارض ﴾ أى يخلف بعضكم بعضا ، وكما قال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ وداود جعله الله خليفة عمن كان قبله كما جاءت بذلك الآثار ، ومنه قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ وقد قيل ان (من) هنا للبدل أى بدلا منكم كما قالوا فى قوله ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ اى بدلا من الرحمن ، وأنشدوا :

فليت لنا من ماء زمزم شربة ... مبردة باتت على طهيات

وقالوا معناه بدلا من ماء زمزم . وفى حديث أبى سعيد الذى رواه مسلم فى صحيحه «ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » انتهى كلام شيخ الاسلام رضى الله عنه . وكذا قال الحافظ ابن كثير وغيره فى تفسير الآية . وقد علمت أن هذا الرجل سلك فى تفسير هذه الآية مسلك ملاحدة الاتحادية الصوفيه الذين كفرهم الشيخ ، بل كلامه أشنع لانه ألحد فيها من ناحيتين أما قول بعض الناس ان المراد به أنه خليفة عنه فى تنفيذ الأحكام الشرعية فهو قول باطل فهو لا يطرد فى ذريته فان فيهم المتسلطين الكفرة والمستبدين الفجرة فلا يجوز أن يكونوا خلفاء الله ، وأيضا فان أريد به الذرية لم يصح لما ذكرنا ، وان أريد به آدم نفسه لم

---

(١) نبيب التيس صوته عند السفاد

(٢) الـكثبة القليل فى اللبن . والـكثبة كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غيره

يصح له الاستدلال به لانه إنما استدل به من أجل جنس ذريته ، والذين قالوا انه خليفة فى تنفيذ الحدود اقتصروا على ذلك لم يدعوا كما ادعاه هذا الملحد وأسلافه من ملاحدة الصوفية الاتحادية ، فان هذا تجـــاوز الرسوم وتعدى الحدود ورفض كل ما قيل فى الآية من كونه خليفة عمن قبله وعن كونه ينفذ الأحكام خاصة ، فطبق الآية على الذرية ثم ادعى أن جنس الانسان مستخلفه الله عنه ثم ادعى أنه لا يستخلف من هو مطبوع على الجهل وقد علم بلا ريب أنه يوجد فى العصور القديمة والحاضرة رؤساء ومستبدون كفرة ومن هو فى غاية الجهل والغباء ، بل هو نفسه ادعى أن أهل العصور القديمة كانوا على غاية الجهل ، بل كانوا لا يستطيعون الكلام ولا يفقهون حديثا كما يأتى تصريحه بذلك فكيف يقول هنا « ان الحكيم العاقل لا يستخلف الا جديرا بالقيام بالخلافة قياما صحيحا » ومعلوم أن هذا لا يوجد الا نادرا فى اهل الدين ، وقد قال فيهم هذا الملحد انهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، ثم انه ركب على هذا الالحاد فجورا آخر فى قوله « ولو كان الله يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذى لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة » فركب على هذه الظلمات أن المسلمين يقولون إن الانسان مطبوع على الجهل الذى لا يمكن الخلاص منه مع أن سياق الآية فى آدم وليس فى المسلمين من يدعى هذه الدعوى ، بل هو قد صرح فيما يأتى بأن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما جاهلا ، وانما قصد بهذا كله المغالطة ، كما أن كلامه هنا فى آدم مداهنة ومداجاة وخداع سيأتى نقضه صريحا من كلامه مما يدل على أنه لا يعتقد أن هناك بشرا بهذه الصفة المذكورة فى القرآن ، بل جعل القرون الأولى كلها لا يستطيعون الكلام فضلا عن أن يكونوا عالمين بالأسماء كلها .

فصل

قال : « واما قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ فهو تصريح بعلم الانسان كل

شيء ، فقد وكده بقوله «كلها» فان من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى لعلمه ولا فائدة فيه ، والقصد المسميات لا الأسماء ، والأسماء لم توضع الا لمسمياتها ، فمن عرف اسم الشيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغوا ، وكان ذلك العرفان جهلا . على أن من عرف اسم أمر من الامور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفا بذلك ، فان المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء ، ولو أن انسانا علم لغة من اللغات أسماءها وأفعالها وحروفها ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل له انه يعلم اللغة ، وعلى كل حال فان من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلا بمسمياتها ، بل اذا علم هذه علم تلك

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى تحريف النصوص وصرفها الى ما يوافق هواه ، وقد أخذ فى هذه الآية كالتى قبلها ، فانه أبدل اسم آدم هنا باسم الانسان ليتسنى له غرضه من الاستدلال ، وهيهات ، فان الله لم يقل وعلم الانسان الاسماء كلها بل أخبرنا أنه علم آدم الاسماء كلها ، وقال فى آية اخرى فى الانسان ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ فهل يجوز أن يكون هذا هو ذلك ، وقال ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ فهل يصح أن يكون هذا هو ذلك أيضا أو يكون مراد فأله ، واذا كان آدم هو المختص بمعرفة الأسماء كلها وسواء كانت بمسمياتها أو لم تكن لم يلزم أن يكون ذلك فى ذريته فليس كل ما اختص به آدم يكون متسلسلا فى ذريته دائما ، فانه نبي وليست النبوة مستمرة فيهم فى كل زمان ، كما أن سجود الملائكة الذى اختص به لم يلزم أن يكون موجودا فى ذريته ، فقوله « فهو تصريح بعلم الانسان كل شيء » كذب وفجور ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يعلم الانسان كل شيء ، هذا لا يسوغ عقلا ولا شرعا ، فليس فى الآية تصريح ولا تلويح لذلك ولا إشادة ، وقد كان مقتضى استشهاده واستدلاله الباطل أن يقول « فهو تصريح بعلم آدم كل شيء » ولكنه أدخل الانسان مغالطة على من ضرب الله قلبه بالطبع والاقفال فكان خطأ مركبا . وأما ما ذكره من تلازم علم المسميات لعلم الأسماء وان الانسان علم

كل شيء وأن آدم أعطى من العلوم ما لا حد له وتطويله وتهويله فى ذلك فكله تملق ونفاق ظاهر ومداجاة مكشوفة ، فانه نقض هذا كله نقضا صريحا فيما يأتى فانه عبر فيما مضى عن آدم بالانسان الأول وقد قال فيما يأتى (ص ٤٧) وهذا لفظه « على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول ، لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والأجداد كله ، بخلاف الانسان الأول الذى جاء لا يحمل معه سوى ما ورث من منبته ان كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يجيء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة ولا دلالة على الكلام ، ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئا مما هو ضرورى لذلك ، فهو لا يعرف أن يبنى بيتا يسكنه ولا يأوى اليه اتقاء ما تأتى به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوبا يلبسه ولا نارا ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم » انتهى لفظه بحروفه وسيأتى بقية كلامه فى هذا الشأن من سب القرون الأولى وجعلهم أحط حالا من البهائم ، فكيف يدعى أنه يعلم كل شيء منافقة ويوجب فى الموضع الآخر أن نعتقد أن أطفال اليوم أحسن منه ويرميه بالعظائم والمقادح الانسانية فيجعله لا يعرف لغة ولا كتابة ولا اشارة ولا زراعة ولا صناعة ، بل جعله أجهل من كل جاهل ، وهل هذا إلا عين التلاعب والمراوغة المنكرة . وهذا الملحد قد تلوثت روحه بكل خبث فى سائر فرق العالم فنفث خلاصة ذلك فى هذه الأغلال الوبيلة ، ومع هذا فوصفها بوصف لا ينطبق إلا على الكتاب المجيد ، فسجل هذا المعتوه هذا العقوق المنكر والسب الظاهر لهذا الاب الكريم والنبى العظيم ، وإبليس مع كونه عدوه لم يتجاسر على هذه القحة فيدعى بمثل هذه الدعوى ، فهذا الملحد لم يقتصر على عقوق أمه الموجودة وهجرها وتكبره عليها ، بل تجاوز الى الأب الأعلى ، وأما ابوه الادنى فهو داخل فى المتدينين الذين هم عنده احط من البهائم كما يأتى لأنه متدين وقد مات وإلا

فلو كان حيا لم يكن بأبعد من أمه فى هذه المعاملة القبيحة ، وخليق بمن اجترأ على ربه الأعلى الذى أوجده من العدم ورباه بالنعم وأنجاه من بلاء كثير قد أحاط به حتى نسب اليه العظائم والسب الذى لم يوجد له نظير ، نعم خليق بمن هذا صنيعه أن يعق آباءه الأولين والآخرين ، وأن يقدح فى الانبياء وأتباعهم ، وأن يتخلق بأخلاق اليهود فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والبهت والجشع الشديد على الدنيا ، وبأخلاق الرافضة فى مسبة أولياء الله من السلف الصالح[١] ، وبأخلاق المنافقين فى الاستهزاء بأهل الدين ، وبأخلاق الزنادقة فى احتقار الدين وإهانته ، وبأخلاق المشركين فى التعلق على غير الله من الأسباب كالطبيعة وغيرها ، وبأخلاق كل مشرك وكافر ، فكأنه بارتكاب هذه الأخلاق يحاول أن يثبت لنفسه أن استعداداته ومواهبه الكفرية لا حدود لها ولا قيود . نحن لا نقول انه جاهل مغفل لا يدرى عن حالته هذه ، بل الذى نفهمه ونعتقده أنه ملحد ذو غل وحقد على الدين وأهله ، وقد كان معروفا لدى العارفين به أنه أنانى حقود حسود متهالك فى حب الدنيا ، وقد كان كل هذه المدة الطائلة يحاول استحصال شىء من المناصب ، وقد تعب فى ذلك حتى نفد صبره ، فلما خاب أمله ووجد ما يدفعه الى القدح فى الدين أفرغ ما فى صدره من غل وخبث وعداوة منكرة فى هذه الاغلال التى سيختنق بها وتكون غلا ثقيلا فى عنقه ان شاء الله فى الدنيا والآخرة ، والا فما ذا فعل معه حملة الشريعة المطهرة ، لقد تعب أناس كثير فى الكفاح عنه وتجاوزوا عن أغلاط كبرى فعلها[٢] فلماذا انقلب عليهم . ان من الاسباب التى عصفت به الى أن زلت قدمه بعد ثبوتها ـ ان كان لها ثبوت ـ شدة ولوعه بحب الدنيا ، وحب

---

(١) سيأتى قريبا أنه جعلهم لا يبعدون عن طور الحيوانية

(٢) كما فى نبذته (لماذا تأخر المسلمون) فان فيها اغلاطا لا تطاق ، ومع ذلك لم يستجبوا نبشها والبحث معه فيها

آراء الملاحدة الذين يدعون أن أصل الانسان متسلسل عن حيوان آخر اما قرد أو غيره ، وشدة محبته للرآسة والجاه ـ كما ذكرناه ـ فصار لهذا فى موقف متعوّج ، فأراد أن يحافظ على ما استحصل عليه من المادة والمنزلة التى استصغرها فى حقه ، وقد أيس من حصول غيرها ، وأراد أن يكون على آراء هؤلاء الملحدين الماديين فوقع فى هذا التناقض الفاحش ، لان هذه العوامل اضطرته الى هذا الموقف

ومما ينبغى ملاحظته هنا قوله « فهو تصريح بأن الانسان يعلم كل شيء » فقد فهمت أنه صرح تصريحا لا إشكال فيه أن الانسان يعلم كل شيء ، وعرفت أنه استنبط هذه الدعوى العريضة من الآية ، وعرفت أن الآية فى آدم لا فى الانسان ، فهذا هو مستنده فى أن الانسان يعلم كل شيء ، وبهذا وأمثاله يتبين لك أنه يبنى جميع قواعد دعايته على أوهام وشبهات لا حقيقة لها ، ثم يثبت الشيء ويعود اليه بعد هنيهة فينقضه ، وهكذا حاله فى جميع هذه الأغلال فانه فى شك مريب

فصل

ثم قال : « ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾ والمراد هنا بالتقويم الذى وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الانسان من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وصفا مبدعا يؤدى من حيث الأعمال والوظائف الى الابداع والاحكام ، فالمخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والآذان وكل ما ظهر وبطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكوينا هو الابداع والاحكام ، ولا يمكن ان يقال بصدق وحق أن شيئا من هذه الأشياء قد قوّم أحسن تقويم الا اذا كان يستطيع أن يؤدى وظيفته ويؤدّى

الغرض المنشود منه أحسن تأدية [1] سواء فى ذلك الموجودات الجامدة أو الموجودات الحية النامية ، فالانسان اذن من ناحية الفهم والعقل والشعور والادراك فيه وآلات العمل كلها قد جاءت فى أحسن تقويم وتكوين ، والانسان اذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وان كان هذا لا يحصل الا بالتدريج والبطء كما تقتضى نواميس التطور نحو الكمال والاستواء ، ذلك التطور الذى يبدو لنا أنه بطىء مسرف فى البطء وان كان بالنسبة لعمر العالم سريعا مسرفا فى السرعة ، وليس فى الممكن أن يكون الثناء على الانسان بحسن التقويم عائدا على صورته الظاهرة ومنظره الخارجى فقط لأن فى المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصور المجردة من الفضيلة كما فى آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ـ الى قوله ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ولأن الله قال بعد ذلك ﴿ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضا الى أسفل سافلين لو كان المراد بذلك الصور والمظاهر » انتهى

والجواب أن يقال : جميع كلامه على هذه الآية الكريمة ـ كما ترى ـ تخليط وخبط ومغالطة ظاهرة وكل ما ذكره عليها لا يفيد شيئا لأن النزاع بيننا وبينه ليس هو فى استطاعة الانسان تأدية وظيفته ولا فى حسن أخلاقه الظاهرة والباطنة وتفاصيلها حتى يسهب فى هذه الثرثرة ، انما النزاع بيننا وبينه هنا فى كون الانسان يعلم كل شىء وان فى استطاعته أن يحصل على كل شىء ويتغلب على كل شىء ، والسورة هذه لا تعلق له فيها بشىء من هذه الدعوى ، ولكن

---

(١) لكن الغرض المنشود منه هو عبادة الله كالدعاء وغيره ، وقد قلت ان ذلك هو المصرف الخبيث ، فاى شىء ينفعك من هذا التقرير

هذا دأبه متى أراد اثبات شيء كائنا ما كان تناول نصا من القرآن فطبقه على هواه وصادم ما يخالف ذلك بكل حال (لانه يرى نفسه انه المقدم فى الأمر) وتحريفه لهذه الآية كتحريف اليهود الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض ، ولانه كتحريف من فصل قوله تعالى ﴿فويل للمصلين﴾ من قوله ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ فهذا المعارض ذكر أول الآية وحذف ما يصدم قصده ويفسد مراده وهو قوله تعالى ﴿ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وأتى بها فى غير محلها ليعمى المعنى ويكتم المراد منها ، والآية الكريمة حجة ظاهرة عليه سواء كان حسنُ التقويم فى معنوية الانسان أو فى صورته الظاهرة أو فى كليهما ، لأن الله سبحانه خص بحسن التقويم الذين بقوا على انسانيتهم فآمنوا وعملوا الصالحات ، وأما من انحرف عن ذلك فان الله صرح بانه رده من حسن التقويم الى أسفل سافلين . ولا شك أن هذا المعارض ممن انحرف عن الايمان والعمل الصالح ، فلا يكون له حظ من حسن التقويم ، بل يكون مردودا الى أسفل سافلين ، ولهذا لما رد وارتد ظهرت عليه آثار هذه الردة فكان يتبع كل سافل وينحدر الى كل سفل ويهرب من كل رفيع جميل ، فكان من شدة ولعه بالذين هم فى أسفل سافلين أن ادعى فيهم أنهم هم الذين صنعوا الحياة ، ومن كراهته للمرتفعين الذين هم فى أحسن تقويم أن ادعى عليهم بأنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا . وهذا عكس ظاهر لمعنى السورة لأن الله جعل المتحللين من الأديان مردودين الى أسفل سافلين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وهؤلاء متدينون بلا خلاف فيكونون هم الذين يؤدون وظيفتهم وغرضهم المنشود منها وهو الايمان والاعمال الصالحة التى أمرهم الله بها وجعلها سببا لكل خير وفلاح ونجاح . ولو أن الله سبحانه قال ﴿لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم﴾ وسكت لقام من هنا ومن هناك من أصناف الملاحدة والمحامين عنهم من يحتجون بها فى الاستعدادات والكمالات ، ولكن الله سبحانه عليم بكل شيء وما كان ربك نسيا ، فأخرج

الملاحدة باستثناء قطعي كما استثنى الكفار فأخرجهم من هذه الصفة الجميلة وأخبر أنهم مردودون الى اسفل سافلين ، ثم استثنى القسم الناجي لكونه صنفا واحدا وحكم على غيره بالسقوط كما تقدم تفصيل هذا فى أول البحث ، وان الكفار وان زعموا أنهم وصلوا الى الكمال والى الغاية التى يريدونها فليس الامر كما ظنوا بل هم مردودون الى أسفل سافلين فى الدنيا والآخرة ، أما الدنيا فبالتنغيص والنكبات وفى الآخرة بالدركات الجهنمية اللائقة بصفاتهم المنحطة المظلمة . وأما قوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضا الى أسفل سافلين » فيقال هذا كذب ظاهر فبأى وجه يردون الى أسفل سافلين ، فليس الموت ولا الهرم ولا فناء الجسم أيضا يكون ردا الى أسفل سافلين ، بل الرد المذكور فى الآية هو السقوط المعنوى أو المعنوى والجسمى معاً لا الجسمى فقط ، فالرد هنا هو السقوط عن المرتبة الانسانية الصحيحة بحيث تفسد الفطرة فلا ينتفع الانسان بفطرته الدينية الفارقة بينه وبين الحيوانات الشريرة المعتدية فان الفطرة اذا لم تغذَّ بمادة علوم الدين المناسبة لها فسدت أو ذهبت وانعدمت لعدم ملائمتها لأخلاق الالحاد والفسوق والكفر ، فالاستثناء عام فى الانسانية المعنوية والصور والمظاهر ، فالمؤمنون لا يردون الى أسفل سافلين مطلقا ، ولم يفهم أحد من أهل العلم من الآية الصور والمظاهر فقط فلا معنى للمغالطة بهما هنا ، بل الصور والمظاهر تكون غالبا متصلة بالاخلاق الباطنة ، فان الاخلاق تؤثر فى الصور وتتجلى فيها كثيرا وكل إناء بما فيه ينضح ، قال تعالى ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ الآية

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ثم سلك فيها مسلك أمثالها فى التحريف على مقتضى مايوافق هواه

وهذا أصل كبير يجب التفطن له كما نبهنا عليه سابقا ، وهو أن كل قول فى تفسير أى آية لا يوافق هواه فهو قول باطل مضروب بـه عرض الحائط ولو أجمعت عليه الأمة ، فانه ادعى فى المبحث العاشر أن النـــاس على اختلاف مذاهبهم منذ عشرة قرون ضــالون فى تقديم السلف على الخلف كما يأتى ، فالتفسير المقبول المعقول عنده هو أن يكون معنى الآية على هواه ولو خالف اللغة وأصول التفسير كلها ، وكذلك الحديث أيضا على ماتقدم بيانه . وأعدنا هذا لانه مما يجب أن يلاحظ وأن يعلم لأنه من أعظم قواعده التى يدور عليها كلامه ، وقد قال فى هذه الآية المذكورة : « وقال تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ ففى الأرض وفى الانسان آيات للموقنين ، فما هى الآيات التى فى نفس الانسان والتى نعت الله الانسان الى نفسه من أجلها ودل عليها . أعظم الآيات فى النفس الانسانية هى القوى العلمية والادبية والخلقية ، والا لو كان القصد هو البناء المادى المنظور لما كان هناك مايميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت اليه خاصة[1] وان ينبه عليه وحده فى هذه الآية وهو مما فى الارض من هذه الناحية فلماذا ذكر تخصيصا بعد التعميم ان لم تكن الاشارة الى ميزاته الجليلة لا الى مايشاركه فيه كل شىء فى الارض من المخلوقات » انتهى

والجواب أن يقال : أولا هذه الآية حجة عليك فان الله ذكر أنها آيات للموقنين ، ولا يختلف المسلمون ان الملاحدة ليسوا من الموقنين المـذكورين هنا كما انهم لايختلفون فى أن المتحللين من الاديان هم الملاحدة ، وحينئذ فلا حجة لك فى الآية فبطل التقرير من أصله . ثانيا كل هذا الاسهاب والتخليط لا محل له ولا وجه للاستدلال به ، فان المسلمين لاينكرون ميزات الانسان الجليلة ولا ينكرون قواه العلمية والخلقية حتى تتفلسف وتتكلف هذا التكلف

---

(١) استعمل كلمة « يلفت » بدل « ينبه » هنا . وهو غلط لغوى قال تعالى ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ . أبو السمح

البارد ، بل انت ومن على شاكلتك من الملاحدة أنكرتم هذا فادعيت صريحا فيما يأتى قريبا أن القرون الأول لايعرفون شيئا أبدا حتى الكلام بل هم أضل من الانعام وأنهم مكثوا عصورا طويلة على هذا . ومعلوم أن هؤلاء من جنس الانسان بل هم انسان ازمنتهم ، فلأى ذنب أخرجتهم من هذه المزايا وانت لم تعرفهم وهم لم يعرفوك أفليس هذا من أشنع العدوان المطلق الذى وصفت به الملاحدة فيما يأتى وقد بينا غير مرة أن النزاع بيننا وبينه فى كونه قادرا على كل شيء ويعلم كل شيء ، وان الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم ماوهبوا الحياة شيئا جدا ، هذا وأمثاله أعظم مانناز عه فيه لأن هذا من أعظم أصول الالحاد ، بل ملاحدة هذه الأمم يقررون هذه الأصول ويعلمونها فى مدارسهم ، لكن هم معترفون بأنها تخالف دين الاسلام بل تخالف الشرائع كلها ، يصرحون بأن الأنبياء وأهل الايمان لم يأتوا بشيء كبير ينفع الناس فى هذه الحيـــاة لأن أكثرهم غير محتاج الى النفاق مثل هذا المغرور ولهذا يصرحون بالحقيقة ، ولكن هذا لما كان قد استمسك بخيوط تتصل بأهل الدين فنال بها شيئا من هذه المادة خشى من انقطاعها فاحتاج أن يجمع بين الضب والنون والخبيث والطيب فاحتج تارة بالنصوص الشرعية وتارة بالأصول الالحادية فوقع فى أفحش التناقض وسوء التصرف والخطل الذى لا أشنع منه . وأدنى عاقل يعرف أن هذه الآية التى استدل بها ليس فيها ماينفى ضعف الانســـان وأنه ليس عالما بكل شيء وكل ما استنبطه منها لامحل له ، ومعنى الآية على ماذكره المفسرون ودلت عليه قواعد اللغة يرجع الى أن فى تركيب الانســـان وما اعطاه الله من الصفات الذاتية والمعنوية آيات للموقنين بصدق الرسول وما جاء به فانها دالة دلالة ظاهرة على قدرة الله وانفراده بالخلق والتدبير وانه المستحق للعبادة والتوجه والقصد والدعاء . وقد تكلم ابن القيم على هذه الآية ونحوها كلاما طويلا ليس هذا موضع نقله لطوله ، ولا شك أن هذا الهيكل

العجيب الموضوع على هذا الاتقان والابداع لابد له من محـــدث خالق عالم مريد ، كما أنه يستحيل وجود بيت كامل منظم بدون محدث له وفاعل . فالمحدَث على هذا النسق الدقيق الموزون المحكم لابد له من محدِث بحـــكم الضرورة والوجدان ، لأن وضعه بهذه الصورة برهان على افتقاره الى موجد منفصل عنه ، ثم هذا الموجد له لابد أن يكون مخالفا له من كل وجـه ومن مخالفته له أن يكون غنيا لذاته لأننـا علمنا من وجوده الأول ووضعه افتقاره الذاتى الى غيره ، فيجب أن نعلم أن هذا الذى هو مفتقر اليه غنى لذاته كامل لذاته مخالف له فى جميع صفاته لينقطع التسلسل المستحيل بالاتفاق ، ولا يمكن انقطاعه الابهذا لانه صريح العقل وهو الذى دلت عليـه النصوص كما أشرنا الى هـذا سابقا ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾ فبين سبحانه أنه لا يمكن وجودهم من غير شىء فان افتقار الحدث والمحدث الى فاعل ضرورى فى طباع الخلق كلهم حتى الحيوان والحشرات فان البهيمة النائمة أو الغافلة فى موضع من المواضع لو رميت بحجر أو غيره التفتت الى الجهة التى جاء منها الحادث لتعرف حقيقة هذا الحادث وماذا يكون ، لانها تعلم ان هذا الحادث لابد له من محدث ومن العجب أن الملاحدة اذا وقف أحدهم على أثر من الآثار القديمة أو وقف على آلة كبيرة أو مصنع كبير أو بيت كبير فانه لايشك فى أن هذا الشىء لابد له من محدث وأن هذا الاثر لابد له من مؤثر ، فلو غالطه أحد وقال انه لم يصنع هذا أحد وأوجد من دون فاعل عالم مختار مريد لنسب هذا القائل الى ضعف العقل بل الى الجنون ، لانهم اعظم الناس ايمانا بالاسباب فلا يمكن ان يصدقوا بوجود شىء من هذا بدون مسببه الذى تقتضيه عقولهم ، ومع هذا كله تجدهم فيما يجب عليهم من التوحيد والاقرار بالخـالق أفسد عقولا من هـذه الحشرات اذ يذهبون الى الالحاد مع ما فى ذلك من السخف وفساد العقل ، ثم مع هذا ينسبون أنفسهم الى العلم والعقـل والمعرفة ، وبالجملة فكون المحدَث غير مفتقر الى محدِث لاتقبله الفطرة ولا العقل كما سلف ، واذا كان المحـدَث لابد له من محدِث فاما أن يكون هو بنفسه وهذا مستحيل كما سبق ، فان كون الشىء يوجد

نفسه بنفسه غير معقول وافتقاره الى غيره ينفي وجوده بنفسه فتعين الثالث في الآية وهو أنهم وجدوا بموجد كامل عالم مختار قادر منفصل عنهم ، وهو المطلوب . فالآية حجة عليه لا له لأنه ملحد ، والآية من أبلغ الحجج على الملاحدة ، ولهذا فانه أخذ يراوغ عن معناها الحقيقي ويعدل الى غيره ليفسد معناها لانها سلاح مشهور في وجهه

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ﴾ وهذا الاستدلال من جنس ما قبله في السقوط ، فليس في ظاهر الآية أن الانسان يعلم كل شيء وأنه لا شيء فوق قدرته إنما فيها أن الله خلق الانسان وعلمه البيان ، وليس البيان هو علم كل شيء ولا يفهم أحد هذا من الآية أبدا الا أن يكون ملحدا منافقا عقله كعقل هذا المغرور ، والبيان المذكور في الآية المراد به النطق والبيان عما في الضمير فان الله تعالى خص الانسان بالكلام من بين سائر الحيوان والآية سيقت لبيان امتنان الله على خلقه وتذكيرهم بنعمه عليهم ، ومعظم السورة في هذا الصدد في تذكير الجن والانس بنعم الله تعالى وآلائه ، ولهذا تكرر فيها قوله تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فأى نعمة من النعم تكذبون بها . وهذا الرجل لما كان معتقدا اعتقادا غريبا سلك فيها مسلكا غريبا أجنبيا عن معناها ، فاستدل بها على أن الانسان يعلم كل شيء فأى دليل فيها على هذا ، بل هى حجة قاصمة ظهره فان فيها أن الله علم الانسان البيان ، وهو قد ادعى فيما يأتى قريبا أن الانسان الأول بل القرون الأولى المتقدمة جدا لا يستطيعون النطق بالكلام بل ولا الاشارة ، والآية دلت دلالة صريحة على أن الله علم الانسان البيان ، ومعلوم أن الانسان الأول والأجيال القديمة كلها من نوع الانسان بل هى انسان أوقاتها ، فما الذى أخرجها من البيان الذى امتن الله به على عباده وكيف ساغ له أن يخرج أولئك منها ، ثم يريد أن

يطبقها على غيرهم بدون حجة ، ولو كان له عقل لتركها كما ترك غيرها لانها حجة عليه ، كما أن كل آية يحتج بها فانها حجة عليه ، لانه مبطل والقرآن كله فى دحض حجج المبطلين

فصل

قال : ومن الأحاديث التى يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسى هو قوله ﷺ حكاية لما قال الله (ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) ، ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله ـ وهذا بلا ريب على غير ظاهره ـ فلا بد أن يكون بصره نافذا وسمعه واعيا وعمله موفقا قويا ، ولا بد أن يكون له من القوى والاعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد أن لا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده اذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعا أن يصنع مايشبه أن يكون خارجا عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشىء من الاشياء كائنا ما كان أن هذا فوقها أو انه بعيد عن متناولها أو أنه ليس مما يدين لها »

والجواب أن يقال : الحمد لله حصل المطلوب يا نابغة زمانه يا مجهول القدر يا الدر الذى فى لجج البحر . هل الذى ادعيته وعلقته على هذا كله فى جنس الانسان أو فيمن يكون الله سمعه وبصره ويده ورجله كما هو صريح الحديث ، وحينئذ فهو سبحانه خص بهذه الفضيلة أولياءه الذين صرح بوصفهم باقامة الفرائض وتكميلها بالنوافل بالتقرب اليه ، وهؤلاء هم المتقون الابرار الورعون وأكبر عيب عندك هو التقوى والورع والدعاء ، فانك صرحت فيما مضى بأن الاخلاق الدينية المحض لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، وادعيت أيضا بأن

التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى اديانهم ومبادئهم هو العدل ، فكيف هنا تدعى أن هؤلاء الأبرار الاتقياء القائمين بالفرائض والمتقربين الى الله بالنوافل هم الذين يصلون الى هـذه المنزلة . ثم تنقلب فى نفس البحث فتستدل بذلك على جنس الانسان ، والحديث قد فرق بين ولى الله وعدوه وأنت جعلتهما سواء فعاكست الحديث أشد المعاكسة فحذفت أول الحديث الذى يبين المراد ويفضحك وهو قوله ﷺ فى حديث ابى هريرة « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الىّ عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لاعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره إساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى . فهذا الحديث من أوله الى آخره صريح فى أن هذه الفضيلة مهما كانت مما عظم إنما يختص بها المؤمن التقى دون الملحد والكافر فانه صرح بأنها تحصل للذى يتقرب الى الله بالفرائض والنوافل ويزداد من ذلك ، وكلما ازداد من هذه الاخلاق الدينية ازداد فى الفضيلة ، عكس ما قرره هذا المغرور سابقا ، فجميع ما قرره هنا كما أنه يناقض روح كتابه مناقضة صريحة فهو لو صح إنما يكون للمؤمن خاصة وأما الملحد والمنافق والكافر فهذا الحديث نفسه قد صرح بأنه لا ينال من هذه الفضائل الا الخيبة والرجوع والدمار ضد ما يحصل للمؤمن ، فان الحديث نص على ذلك ، قال أول الحديث من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، ومعلوم أن من آذنه الله بالمحاربة فقد خاب وخسر وأحاط به البلاء من كل جانب ، ولا والله لا نعلم أحدا فى هذا الوقت أعظم عداء وخبثا ومقتا للمؤمنين وأهل الدين من هذا الملحد ، وكفى بهذا الكتاب شاهدا عليه لانه هو غاية ما قدر عليه فى عدائهم ، ولو قدر على

شيء غيره لأهلك الحرث والنسل ، وانما اقتداره كاقتدار تلك الحشرة (١) الخبيثة التى أعانت على نفخ نار ابراهيم لأن ذلك هو غاية ما قدرت عليه. والعجب أن هذا الملحد المغرور عكس مدلول هذا الحديث عكسا صريحا فجعل ما خص الله به من تقرب اليه بعبادته وحافظ عليها لجنس الانسان ، ثم استدرج حتى جعله للملاحدة الذين حاربوا الله ورسوله ورفضوا الفرائض وغيرها من النوافل ، وجعل من تقرب الى الله بالنوافل والفرائض لم يحصل له الا التأخر والضعف ، فجعل التقرب الى الله بالدعاء والعبادة ملهاة ومصرفا خبيثا ومفسدة وتعويقا ، وادعى صريحا أن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وهذا هو غاية المحاربة لله ودينه ورسله وعباده المؤمنين ، فان هذا الحرب الذى فعله هو أقصى ما يقدر عليه كما تقدم « وكل اغتباب جهد من لا له جهد » . ومما يجب ملاحظته هنا قوله « ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متوثبة متجددة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان ان هذا فوقها أو انه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين لها » ينبغى ملاحظة هذا مع ما تقدم أول البحث فى معارضته للدجوى هناك وإلزامه الدجوى بأنه يدعى أن الانسان على كل شيء قدير ، وليوازن بين هذه العبارات ليعلم أن هذا الملحد يرى نفسه أنه ليس بين أناس عقلاء يعرفون ويفهمون ، وانما يتصور الناس على ما يقدّره هو ويقيسه بعقله ، وهذا الذى قاله أبلغ من دعوى أن الانسان على كل شيء قدير ، فانه صرح بانه « لا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان هذا فوق قدرة الانسان ومواهبه أو أنه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين لها » اللهم إنا نسئلك العفو والعافية . ثم انه بنى هذه الدعوى على الاستدلال بالحديث واعترف أنه على غير ظاهره ، والحديث كما ترى أيضا دل على أن

---

(١) هى الوزغة فانها كانت تنفخ النار على ابراهيم عليه السلام كما فى الحديث الصحيح

تلك الفضيلة للمتقين وهذا حملها على جنس الانسان ، مصائب فى مصائب فى مصائب ، وكل هذه المجازفات الجنونية ليس فيها شىء من الدعايات الصحيحة المستقيمة التى يجب النظر اليها بل هو جنون ووقاحة لا طائل تحتها ، ولو فسرت القدرة على كل شىء لم يكن لاحد أن يفسرها بأكثر من هذا ، أى لو أن قائلا قال ما معنى كون الله على كل شىء قدير ، لم يفسرها أحد بأكثر من هذا الذى ادعاه الملحد فى قدرة الانسان ، ونحن نعلم أن مرأده بذلك هو الدعوة الى رفض الدين ، لانه تصور بعقله الكاسد أنه اذا قرر أن الانسان قادر على كل شىء وعالم بكل شىء فلا حاجة الى رب يعبده ويستمد منه المعونة والتوفيق والسداد لأن هذا كامن فيه وفى طبعه فليطلبه من طبعه ومواهبه واستعداداته ، لا يطلبه من شىء خارج عنه ، وهــذا الملحد لما كان سابقا فى غاية الحاجة والفقر والذل وصنف تلك الكتب مزدلفا بها الى أهل الدين ما كان يتجاسر أن يتفوه بهذا القول بل كان يصرح بضده ، قال فى اول نبذة البروق :

يا طالب الميت ما قد ظلت تطلبه — وسائل الميت وقع الامر ترهبه

لو كان ذا قدرة ما كان مرتهنا — فى الترب للدود يبليه ويركبه

نعم لو كان ذا قدرة لم يمت ولم يمرض ولم يمت حبيبه وفلذة كبده ولم يعجز أن يدفع عن نفسه الذباب وأشباه الذباب ، فكيف يقال لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، انه لا يقال لشىء من الاشياء انه فوق قدرته ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وانه لمن أسفه السفه وأجن الجنون

فصل

قال « فالانسان اذن يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه ادراكا وفهما تامين صحيحين ، واذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود ، ولكن يجب أن يعلم أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الافراد فان معارف كل فرد محدودة مقدرة ومعارف الفرد دون معارف الجماعة

ومعارف الجميع »

فيقال : أولا قولك « ان الانسان يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه » فهذا غير مسلم ، بل ممنوع باطل ، بل هو تكليف مالا يطاق ، وكيف يفرض على الانسان أن يفهم هذا الوجود ويدرك كل ما فيه ادراكا وفهما تامين صحيحين ، كل هذا مجازفة وهذيان بارد ، فمن هو الذى يقدر على ذلك ، ان هذا الوصف لا يحيط به الا الله ، فهل أنت يا مغرور تستطيع هذا الذى ادعيته ، وهل تعرف أحدا استطاعه ، فاذكره لنا حتى نستفيد منه ويستريح العالم من هذه التخرصات وهذا الخطر المحيط ، واذا كنت لم تستطع هذا ولم تعلم أحدا يستطيعه فكيف تجود بهذه الدعاوى وتفرضها على المسلمين بدون عقل ولا حياء كانك تخاطب اغبياء لا يفهمون شيئا ولا يعقلون ، وما اشبه هذا المختال بعجوز حى شوهاء نحيفة قبيحة مخبولة لسنة وهذا الحى قد وطئهم الزمان واشتدت عليهم الحوادث حتى تبدد شملهم وضعفت قواهم من التعب والنصب والمكابدة ، فقامت عليهم هذه الشوهاء فى يوم عصيب فأخذت فى السباب والعتاب والاغراء والضجيج ، فتارة تأمر وحينا تنهى ووقتا تخبر وطورا ترشد قائلة ما لكم ما تقدمتم ما ارتفعتم ما حاربتم ما كسبتم ، أنتم نيام ، أنتم مغفلون ، أنتم ..... أنتم يجب ان تملكوا ، يجب أن تعلموا ، يجب أن تقدروا ، يجب أن تدركوا كل شىء ، يجب أن تقدروا على كل شىء ، الى امثال هذه الثرثرة والهذيان ، هكذا صفة هذا المغرور ، فانه يكلف الناس ويفرض عليهم أشياء بمجرد ما تخطر على باله ، مع استحالتها ومع أنه أجبن الناس وأقلهم وأعجزهم فى كل شىء ، فبينما نراه يتهدد الرافضة ذلك التهديد الهائل العظيم لم نشعر الا وهو موجه سهمه الى اولئك الجماعات الدينين الذين ذكرهم فجعلهم سبابة المتندم

أما ما ذكره أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الافراد الخ فليس هذا بصحيح ، فان معارف الجماعة أو معارف الجميع اذا كانت

كلها هيئة اجتماعية موصوفة من أفراد المعارف المحدودة المقدرة فلا شك أنها محدودة مقدرة ولها حدود وقيود ، لان هذه الافراد المحدودة المقدرة محدودة الطرفين فهى محدودة السلسلة فى الماضى والمستقبل ، ولا شك أن الافراد التى تكون محدودة سلسلتها فى الماضى والمستقبل وهى مقدرة أفرادها ومعارفها أنها ستكون محدودة بلا شك لا سيما وعلومها كلها اكتسابية باقرار الخصم ، فانه ذكر أنها خلقت خبيثة ظالمة شريرة جاهلة وأن ما معها من العلوم فهو مكتسب اكتسابا ، وقد صرح أيضا فيما يأتى قريبا أن أهل العصور القديمة جدا ليس معهم من العلوم شيء البتة ، فكيف يدعى مع هذا أن معارف الجملة التى هذه أفرادها لا حدود لها ولا قيود فان هذا باطل يفهمه كل عاقل . وقد بينا غير مرة أننا لا ننكر معارف الانسان ، وليس النزاع فى اثبات معارف الانسان ، فهذا لا نزاع فيه ، فلا جدال فى تقدمها فى الصناعات ونحوها ولا فى امكان رقيها الى حد بعيد وتطورها فى ذلك ، ولكن علم الوجود أوسع من ذلك كله ، ولو أنه اقتصر على هذا لم ننازعه فيه لكن لم يثلج صدره إلا بدعوى أن الانسان يعلم كل شيء وأنه لا شيء فوق قدرته وأمثال هذا الهذيان

إذا فهمت هذا فليس لنا حاجة فى تتبع هذيانه فى المغالاة فى معارف الانسان وإلى أنه سيبلغ الى الكمال والرشد ونحو ذلك ولكن يجب أن تفهم أن كل هذه المحاولة تدور على ما ذكرنا لك من توجيه النظر اليه دون الله تعالى ، فان الانسان اذا عرف أن فيه كفاءة ذاتية توصله الى كل ما يريد كائنا ما كان استكبر وأعرض عن الله وعن طلب اعانته ، ولهذا بنى عليه انكار منفعة الدعاء ، وغرضه أيضا التشنيع على المسلمين بأنهم ينكرون معارف الانسان وتطوره وأمثال ذلك على ما سبق بيانه

فصل

ثم شرع يعظم الانسان بزعمه ، ولكنه لشدة ما اعتراه من الغلو والحرص

والذهول انقلب دماغه فسبه غاية السب ، وانما مدح شرذمة قليلة من ملاحدة العصر فقال: « هل الانسان غير عظيم ، أو هل الانسان يساء به الظن[١] ويساء باستعداده الذاتى . إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ ، وانما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملموسة[٢] ان للانسان حدين من حيث وجوده ، حد هو وجوده الاول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض ، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا ، وما بين هذين الحدين والطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعية التى يمكن أن تكون له ، ويمكن أن تكون عليه ، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم أو أن تدل على أنه عظيم . لا محالة ان نتصور الانسان فى بداية وجوده عاريا من كل معرفة كما كان عاريا من كل لباس ، وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج الى عناء ولا بحث طويل[٣] فاننا لا نزال نشاهد الانسان بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم يأتى الى هذه الدنيا حينما يأتى عاريا من جميع المعارف ، جاء الى هذه الحياة الدنيا ولا مجال للجدال فى كيف جاء ، كما يجىء أطفال اليوم على أحسن تقدير ، على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والاجداد كله بخلاف الانسان الأول[٤] الذى جاء لا

---

(١) انت أسأت به الظن حيث جعلت عصورا طويله كلهم لم يفهموا شيئا ولا يعرفون الكلام ، فهل وراء اساءة الظن شىء أعظم من هذا

(٢) لكن الاجابة تحتاج الى ألفاظ ، بل أنت كتبت هذه الحروف لتؤدى بالالفاظ

(٣) بل هو تصور باطل بلا ريب . فبأى وجه يكون صحيحا ، هل بمجرد الدعوى أو بالبرهان . أما الدعوى فممنوعه والبرهان غير موجود ، بل البرهان قائم على تكذيب هذا كما فى سائر النصوص ومنها ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ الآية

(٤) هذا تصريح بأنه لا يعتقد أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه المقدسة فأين من نفخ الله فيه من روحه ممن يحمل تراث الآباء ـ الذى منه أنواع الخبائث والغل والحسد وغيره ـ ممن سلم من هذا كله ، فقياسه ساقط كما أنه كفر صريح

يحمل معه سوى ما ورث من منبته إن كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يجيء أطفـــال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئا مما هو ضرورى ، لذلك فهو لا يعرف أن يبنى بيتا يسكنه ويأوى اليـه اتقـاء ما تأتيه به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوبا يلبسه ولا نارا ينضج عليهـا ما يأكله وتوفر له الدّفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيـلة من وسائل التفاهم ، والتفاهم هو أول الخطوات ، فلا يدرى ما يجول بخـاطر من حوله ، بل لا يدرى أن لهم خواطر تجول بالمعانى والأفكار والخطرات ، لا يدرك شيئا مما يحيط به فيفزع من كل ظاهرة كونية ، يرى البرق فيفزع ويسمع الرعد فيطير لبه هلعا وتهب الريح فيقتسمه الخوف والرعب وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم ويرى جريان الانهار والمياه فيحسبها تجرى بالحيـــاة والارادة مثـله ويحسبها قادرة عـلى ايذائه ، بل يرى الظـلام فيظنه يتراقص بالاشباح المؤذية الهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر ، أما طلوع الشمس وغروبها وكذلك النجوم والـكواكب فأعظم ما يملأ جوانحه روعا ، وهكذا كان لا يعلم شيئا ولا يأمن شيئا » انتهى

قلت : فلينظر العاقل المنصف الغيور الى هذه المقادح الشنيعة فى الانسان الاول الذى هو آدم ، فانه نص عليه فى كلامـه السابق بأنه الانسان الاول ، وقد أكده هنا بأن المراد به آدم بقوله لا محالة أن نتصور الانسان فى بداية وجوده ، ومعلوم أنه لم يوجد انسان قبل آدم ، ونحن نعـلم بلا ريب أنه لا يعتقد – على مقتضى كلامه هذا – وجود آدم ولا حواء على ما جاء فى النصوص ولا سجود الملائكة ، ولا أن الله خلقه بيده ، بل لا يعتقد ربا ، وانما يخادع بنقل النصوص الدينية وتحريفها على ما يشاء ضرورة ونفـاقا ومكراً ليروج كلامه وليبقى على مكانته ، واذا كان يعتقد آدم وأنه علم أسماء كل شيء فكيف يكون الانسان الأول والقرون الأولى التى بعده على هذه الحالة ، أليس هو

أباهم وحواء أمهم ، فمن أين جاءهم هذا البكم والجهل العظيم ، فمن المحال الايمان بوجود آدم علــى ما جاء فى النصوص ، واعتقاد أن القرون الاولى لا يستطيعون الكلام ولا الأشارة ولا يفهمون شيئا البتة ، هذا من أمحل المحال ، لا يمكن الايمان بالنصوص السماوية والنظريات الالحادية ابدا

والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربان

ولم نعلم أحدا من الكافرين والمنافقين قبل هذا الملحد وأشباهه ادعى أن الانسان الأول عاجز عن الكلام عدة قرون لا يعلم عددها الا الله ، وأنه لا يعرف ولا يفهم شيئا مطلقا وحالته أحط حالا من أدنى الحيوانات . والعجب أنه تصورهم هـذا التصور المعكوس ثم أخـذ يخـبر عنهم كأنه واقف معهم مشاهد لأحوالهم ، بل أخذ يخبر عما يجول فى ضمائرهم ، فهو لم يكتف بالاخبار عنهم إخبار من هو سائر معهم فى الاكل والشرب والمباشرة وغيرها بل تجاوز الى أن أخـبر عمـا يجول فى صدورهم وتوسوس به نفوسهم وضمائرهم بدون استناد الى حجة أو أدنى شبهة . وهذه القحه والفجور والجسارة لا يقدم عليها إلا من انسلخ من العقل والدين والحياء جملة . نسأل الله التوفيق

ثم قال : « والخوف عادة وليد الجهل فان من يجهل الشىء يخافه [1] » ، وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهـل أن نمت فيه فكرة العبادة [2] لهـــذه الظواهر الكونية ولهذه الاشياء المتحركة المضطربة فان الخوف يحدث التفكير فى دفع ما يخافه وفى اتقائه ، والجاهل الضعيف انما يدفع عن نفسه ويتقى مـا يرهب بالملق ، والملق له صور كثيرة احدى هذه الصور البكاء والضراعة كما

---

(١) هذا غير مسلم ، بل قد يعلم الشىء فيخافه ويجهل الشىء فلا يخافه ولا يعبأ به ، وفى الحديث « من كان بالله أعرف كان له أخوف »

(٢) هذا من أبيات القصيدة المقصودة بالذات

يفعل الأطفال ، والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة [١] فراح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة [٢] فكان الانسان اذ ذاك يختص فى شيئين : بالجهل المطلق بكل شيء ، وفى عبادة كل شيء متقلب مضطرب . ونعود فنقول مرة أخرى ان أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمى وبدنى . والآن ننتقل نقلة فكرية ونرجع رجوعا سريعا خاطفا من تلك العهود الموغلة فى القدم ولنمر بتاريخ ثلثمائة ألف سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا من تاريخ هذا الانسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحله حتى نقف وقفة طويلة عميقة عند تاريخنا اليوم وعند الانسان فى القرن العشرين ، ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ، ولنجعله هو مجموع ما عمله الانسان بفكره او جسمه : إن أول نظرة الى صورتى الانسان فى عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب [٣] اعجابا بهذا الانسان الصغير البدن المحدود بالحدود المادية الضيقة ، ماذا نرى الآن فى هذه الحياة التى تموج بأعمال الانسان ، وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التى أوجدها هذا المخلوق وجعلها فى خدمته ملكا له حتى استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل الى هذا العصر ، وكيف استطاع الوصول اليه فى سيره المتعثر ، واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة فى

(١) أقول : ومن صور الملق صنيعك فى هذا الكتاب ، ثم اهداؤه للملك ، ثم مكاتباتك التى تقول فى احداها انى اضرع اليك ، فاذا كانت الضراعة أعظم مظاهر العبودية فقد عبدته باقرارك على نفسك حيث تملقت وتضرعت فتكون من جنس هؤلاء الذين تشنع عليهم لو قدر انهم وجدوا ، ونحن نعلم أن مرادك من هذا تركيز محض العبادة وأنها من أفعال الجهلاء الأولين

(٢) مقتضى هذا أن آدم يعبد الأوثان ، لأن كلامه كله فى الانسان الأول وما بعده من القرون القديمة

(٣) تملا عينك وقلبك خاصة لانها تناسبه

الظلام بدون أن يكون له هاد الا طبيعته ومرشد إلا حاجته [1] ونور يبصر به السبيل الا أمله وبدون أن يكون له قوة دافعة الا استعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل وتوقف . لقد بدأ فى ايجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والاعجاب معاً . فكر فى أنه محتاج الى أن يتفاهم أفراده ، وفى أن هناك حاجات مشتركة يود أن يعملها كل فرد ، أو على الأصح فهم كل فرد فى نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما فى نفسه وما عنده وما يضطرب فى جوانحه ، ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم ، فراح يحاول أن يخاطب وأن يتفاهم بالاصوات التى لا مقاطع ولا معانى لها كالاطفال سواء حينما يلجون فى طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذى هو تصويت فقط ، فظلت هذه وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزمانا يعجز التصور عن تحديدها تحديدا دقيقا [2] . ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم ، فذهب يتخاطب بالاشارات والحركات ، وهذه طبعا أفضل وأوضح من الوسيلة الاولى لأنها أدنى الى التحديد والافهام ، وان الاطفال يتبعون طريقة أسلافهم فى التنقل من وسيلة الى وسيلة أخرى محاولين الافهام والافصاح ، فانهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالاصوات المجردة يذهبون بعدها الى الاستعانة بالاشارات والحركات . ومن العجيب أن محاولة الافصاح عن الغرض بالاشارة والحركة والتمثيل البدنى لا تزال ملازمة

---

(١) هذا تصريح ظاهر منه بان الله لم يهد عباده ولم يخرجهم من الظلمات الى النور بانزال الكتب وارسال الرسل ، بل هدتهم الطبيعة وأرشدتهم الحاجة ودلهم الأمل

(٢) ما كان ينبغى لك أن تعترف بالعجز عن تحديدها ، فلو حددتها بما تشاء وتشتهى لكان من جنس هذه الثرثرة التى تدعيها هنا ، فليست هى فى العقل بأبعد منها كما أن الشرع دل على بطلان الجميع ، هذا مع دعواك أن الانسان يعلم كل شىء

الانسان اليوم ، ثم غبر أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحا متواصلا عنيفا ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج اثر النماذج مستعينا بوسيلتيه الأولين الاشارة والحركة حتى ظفر بما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة انسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة (١) . وهنا يجب أن يقال بحق وصدق : لقد استطاع الانسان أن يخرج بغنم عظيم ، وأن يمضى أشواطا هائلة فى أهدافه وفى طريق هذه الحضارة التى يتمتع الانسان اليوم بها ، اذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلا بين عهود الطفولة - أو الحيوانية على رأى آخرين - وبين العهود الاخرى (٢) ويجب أن يسمى هذا العهد اول تاريخ الانسانية (٣) وأول نقطة استطاعت الوثوب منها . ولو أن انسانا بقى عاجزا عن الظفر باللغة لبقى عاجزا عن بلوغ كل ما بلغه ولبقى عاجزا عن أن يصنع له تاريخا يفوق تاريخ الحيوان » انتهى كلامه فى الانسان الأول وما بعده الى تاريخ ما يقارب نحو ثلثمائة ألف سنة بزعمه . وقد علمت من هذا أن آدم فى عهد الطفولة

---

(١) هذا تصريح ظاهر فى تكذيب النصوص الواردة فى تعلم آدم الأسماء كلها ومخاطبته تعالى له ومخاطبته للملئكة وحواء فى الجنة ثم دعواته حين أخرج منها ، كما أنه تكذيب لقوله تعالى ﴿خلق الانسان علمه البيان﴾ فان هذه القرون كلها من الانسان ، بل هم انسان زمانهم ، وقال تعالى ﴿ وان من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ ومعلوم أن النذير انما يتمكن من ابلاغ الرسالة بالكلام ، وهذه أمم بلا شك

(٢) قد عرفت من هذا ومن تصريحه السابق فى الانسان الاول أن آدم ومن بعده من القرون القديمة كانوا فى عهد الطفولة أو الحيوانية فهم لا يستطيعون الكلام ولا غيره

(٣) هذا تصريح واضح كالشمس فى أن آدم ليس فى عهد تاريخ الانسانية بل هو فى عهد الحيوانية أو الطفولية ، وهو كفر صريح ، فقبح الله من يروج عليه هذا الهذيان

والحيوانية (١) فهو لا يستطيع الكلام ولا غيره بل هو كسائر الحيوان ، وقد بينا فيما سبق أنه لا يعتقد وجود آدم ولا وجود شيء مما جاءت به النصوص فى شأنه فى القرآن والسنة ، فانه من المستحيل الجمع بين الايمان بهذا الكلام وبين الايمان بما ذكر الله عنه فى النصوص الدينية . وهذه الفلسفة الجنونية الباطلة انما وجدها لبعض ملاحدة الدهريين الذين لا يرون النصوص شيئا معتبرا فنقلها وتصرف فيها ، وهى فلسفة باطلة بطلانا ظاهرا ، وانما يغتر بها إما جاهل غبى أحمق لا يعرف من الحقائق الدينية شيئا ، واما زنديق خبيث ملحد يتتبع ما وجد لاخوانه الملاحدة من النظريات المختلفة المختلقة فيصدق بما يجد منها سواء وافق حقا أو باطلا ، وليس كلامنا فى مثل هذه الامور مع هذا الملحد فى هذه المباحث وغيرها مع من لا يلتفت الى النصوص ولا يصدق بها رأسا ، فان الله سبحانه قد كفانا التكلف فى اقناع هذا الضرب حيث قال فى كتابه العزيز ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ فهذا الضرب كالميت أو كالجماد الذى لاتفيد فيه جميع وسائل الحياة . انما الكلام مع غير هؤلاء . ومعلوم أن جميع الشرائع الدينية والعقول الصحيحة تشهد ببطلان هذا الكلام من أوله الى آخره ، أما الشرائع السماوية فان الله سبحانه قد نص على أنه خلق آدم من تراب بيديه ثم نفخ فيه من روحه وخاطبه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته وعلمه أسماء كل شيء وخاطب الملائكة ثم خرج الى الجنة وقال ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾ الآية وتاب الى الله وأناب اليه وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وقد صح عن ابن عباس أنه قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، وقصص القرآن كثير جدا فى الامم

---

(١) لأنه جعل أول نقطة استطاعت الانسانية الوثوب منها حين عرفت الكلام ، وما قبل ذلك فهم فى عهد الطفولة ، ومعلوم أن آدم وحواء قبل ذلك

المتقدمة وكيف كانت حالهم مع رسلهم ومخاطبتهم لهم وردهم عليهم ، وقال تعالى ﴿ وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وهذه أمم ، وهذا أمر معروف من الدين بالضرورة . وأما العقل فنحن اذا تتبعنا تاريخ الانسان الصحيح لم نجد بين الانسان الأول فرقا صحيحا جليا يبرهن على وجود هذا التفاوت ، بل الجثث الموجودة منذ آلاف السنين ليس فيها نقص عن هذه الجثث الموجودة اليوم(١) ، واذا فرض أنه قد وجد فى فرد جثة ونحوها نقص فقد يكون هذا النقص مختصا بهذه الجثة نفسها ولا يلزم أن يكون هذا النقص شاملا لجميع جيلها ، فانه يوجد اليوم بعض أفراد فيهم نقص ذاتى ولم يلزم من هذا أن يكون الجيل كله مشمولا بهذا النقص وقد صح فى النصوص المتواترة أن الانسان الأول أكمل صورة من هذا الانسان وأطول عمرا ، فانه ورد فى الحديث الصحيح ان طول آدم سبعون ذراعا فى السماء ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ هذا ومن بديع عجائب القرآن وبلاغته وحكمة الله تعالى أن بين للانسان فى هذا القرآن كيفية

---

(١) ولا يظن الظان أن علماء النفس الذين قلدهم هذا الملحد متفقون على هذه النظرية بل كثير منهم مخالف لها ، ومن اشهر هؤلاء المدعو الدكتور شلر قال فى نظريته فى الانسان : والرجل الحديث ليس احسن من أسلافه القدامى فى جوهره وهو لاشك دون الرجل الاغريقى فى أحسنه . ان الرجل الحديث من حيث عقليته ومن حيث طباعه واخلاقه لايفترق كثيراً عن جده الذى اتخذ من الصفوان سكينا . انه لايزال فى جبلته كجده ذاك . وقال هلدين « ان دراسة النشوء والترقى بالتأكيد لاتكشف ان هناك ميلا عاما للتقدم فى أى جنس كان ، بل ان ظواهر التراجع فى الخلق اكثر من ظواهر التقدم وأشيع » انتهى . وكلامهم فى هذا كثير ، ونحن قد أغنانا الله بالنصوص ولكن ذكرنا هذا لبيان ان هذا الملحد انما تبع نظرية ساقطة من نظريات كثيرة مختلفة ليس عليها اثارة من علم

وجود آدم وما جرى له وبين مقدار عمر نوح لانه علم ماسيكون بسابق علمه أنه سيخرج فى هذه الامة وغيرها ملاحدة وزنادقة يدعون هذه الدعاوى الباطلة ـ التى ساقها هذا الملحد ـ فسد الله فى وجوههم هذه الأبواب الالحادية وبين بأوضح بيان أن الأمر على خلاف مارأوه وادعوه لكن أبى أكثر الناس الا كفورا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة وان الله لسميع عليم ، فأنزل كتبه وأرسل رسله لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل . ثم انه ينبغى أن يعلم أنه ليس لوجود الكتابة واللغة تاريخ صحيح فى جيل أو عصر معين ، وهذا يدل على أن ذلك من ضرورات حياة الانسان فكانتا موجودتين بوجوده ، أما اللغة فظاهر فى قصة آدم فهذا برهان قاطع على أن اللغة موجودة بوجود آدم ، وأما الكتابة فهى تابعة للغة وآدم نبى وكذلك ابنه شيث ، وقد ورد أنه أعطى صحفاً ، وبكل حال فالصحف موجودة بوجود الأنبياء ولم يثبت أنها موجودة فى غير وجودهم ، فالكتابة أثر من آثار الرسالة والنبوة فهى تابعة للوحى بالاتفاق ولهذا قال تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ﴾ ففرق بين تعليمه بالقلم وبين خلقه للانسان وتعليمه من العلوم مالم يعلم وفى هذا ايضا بيان انه هو الذى علمه ليس هو الذى علم من نفسه باستعداده ومواهبه كما يقتضيه كلام هذا الملحد ، ويكفيك دليلا عن بطلان قوله انه ساق هذه الدعوى العريضة المصادمة للنصوص غير مستند الى برهان يثبت مادعاه بل ساق هذه الدعوى بمجرد التخرص والقياس الباطل والظن الذى لايغنى من الحق شيئا مع كونه خلاف الظاهر ، فهو أولا مطالب بالبراهين الصريحة الصحيحة المعقولة على صدق ما ادعاه ، ومعلوم انه لايجد هذا بحال ، اذ لوكان عنده شىء من ذلك لأتى به فانه يتمسك دائما بما هو اوهى من خيط العنكبوت فى كل دعوى يدعيها ، وقد علمت ان البراهين دلت على خلافه والبراهين لاتتناقض ، وغاية ماقدر عليه قياس جملة الانسان على فرد الطفولة

وهذا قياس معلوم الفساد والسقوط لما بينهما من الفروق الكثيرة ، ولو صح القياس هنا لقسنا الانسان الاول بهذا الانسان وطفل الانسان الاول بطفل اليوم فان قياس الطفل على الطفل والرجل على الرجل اقرب من قياس الرجل على الطفل فان الطفل الاول حينئذ يحتاج الى قيـــاس على شيء آخر وهو لم يذكره فما هى حالة الأطفال الاولين إذن ، فمن المعلوم أنهم ان كانوا كالأطفال فلا بد أن يكونوا رجالا لا يبقون أطفالا على حالة واحدة ، وان لم يكونوا أطفالا فما هى حالتهم ، وان كان أولئك الرجال كانوا أطفالا من أول أعمارهم الى آخرها فهذا مناقض للمعلوم المعقول ، كما أنه مناقض لما يدعيه من التطور ومن الانتقال ، ومخالف لجميع نواميس الحيوانات كلها ، ويجب عليه أيضا أن يطرد هذا القياس فيدعى أن الاولين لا يتناكحون ولا يتوالدون لأن الاطفال الذين لا يبلغون سن الكلام وهو السن الذى قاس عليه كذلك ويطرد عدم وجود الانسان واللحى والشعور بل والمشى لان هذا كله من خصائص الاطفال ولا يقدرون على تناول الغذاء والهداية اليه ، ومعلوم أنه لو ترك أطفال اليوم صغارا فى سن عدم الكلام فى جزيرة ـ وان كان فيها شيء من الأمور المغذيةـ لماتوا ولم يعيشوا ، فالقياس الذى ذكره ساقط جدا ، هذا لو لم تأت النصوص القطعية على خلافه فكيف والنصوص قاطعة بتكذيبه . وبالجملة فان الطفل طبع عـــلى هذا منذ وجد الى الآن لم يختلف ، وسبب عجزه عن الكلام ليس هو الجهل بل هو النقص الذاتى لحكمة معرفة نعمة الله عليه ، والجهل أيضا ليس هو علة عدم النطق إلا فى رأى هذا الزنديق ، فالمعتوه والمجنون يتكلمان وقد يوجد أخرس وهو على غاية الذكاء والعقل والحكمة ومع هذا يعجز عن النطق ويدل على ضعف عقل هذا المغرور وخفته أنه بمجرد وجوده هـذا الظن أو الرأى الذى كان قد رآه بعض الملاحدة الدهريين اعتقده واستسلم له ونقله واحتج به على ما فيه من أباطيل لا تعد ولا تحصى ، ومع كونه قد عارضه كثير من الملاحدة وفيه من المناقشات والاضطراب بينهم مالا حدله ، وأعجب من هذا

وأظم أنه ساقه فى مقام تعظيم الانسان حيث قال أول البحث : هل الانسان عظيم أو هل الانسان يساء به الظن ، ثم ساق هذا الكلام الذى نقلنا ، وأنت ترى كيف احتقره ورماه بالمقادح التى لاتبقى ولا تذر وأساء به الظن إساءة لايعدلها شىء ، ولو أن هؤلاء من قوم الدجوى الذين أخرجوه من الأزهر وعاملوه تلك المعاملة لما فعل معهم هذا الفعل كله وأضاف اليهم هذه المقادح والبهت والزور بمجرد هواه ، ونبذ ما يخالف النصوص فى كرامة الانسان وتفضيله له على كثير من خلقه ، واذن فلا بد من مجاهدة هذا الملحد والدفاع الصارم الصادق عن الانسان الأول وعن أجدادنا الأولين ، قال تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ﴾ فأى تكريم لهم على مقتضى كلام هذا الملحد اذا كانوا أحط حالا من الحيوانات العجم كما ذكره وصرح به . نعم انه مدح طائفة خاصة من انسان هذا العصر وهم الملاحدة فقط لقصد معروف ، أما غيرهم من سائر بنى آدم وبخاصة أهل الدين فانهم على مايقول لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، وانما صنع الحياة المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، فالملاحدة هم الانسان عنده الذى يريد تعظيمه ، ولهذا فانه ما عظم أحدا غيرهم كما تقدم وكما يأتى

فصل

قال « والنفوس كنوز كما قلنا ، مدفونة كما دفنت جميع الكنوز تحتاج الى اخراج واستثمار ، والا بقيت فى مدافنها كأنها غير موجودة »

فيقال : يريد بالنفوس هنا الاستعداد والمواهب التى يدعيها ، وحينئذ يقال وهى كنوز أيضا فى معرفة الدين واستثمار علومه ومعارفه النفيسة التى لاتنفد ، وهى أيضا كنوز مختلفة فى العلوم والمعارف ، وقد ينقلب بعضها كنوزا خبيثة متى طغت على فطرتها السليمة أخلاق الشر والخبث كنفس هذا

الملحد ، ونحن قد قدمنا غير مرة أن فى فطرة الانسان استعدادا لقبول مايقومها ويقويها ويغذيها حتى تصل من العلوم والمعارف الى حد بعيد جدا ، وان هذه الاستعدادات شاملة للعلوم الدينية والمادية والصناعية وغيرها ،وليس فى علوم الدين حرف واحد يمنع من اطلاق العقل فى المعرفة والتفكير والنظر فى جميع العلوم النافعة أبدا ، وهذا هو نظرنا ، وليس فى المسلمين ممن يعتد بقوله من ينكر هذا ، وانما هو اخترع كذبا من كيسه وادعى أن المسلمين ينكرون معارف الانسان واستعداداته ومواهبه ، وهذا بهت وفجور لم يسبقه اليه أحد

لى حيلة فى من ينم وليس فى الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقول فحيلتى فيه قليله

ولو أن هذا الملحد أقتصر على كون الانسان مستعدا لمعرفة هذه العلوم الصناعية والمادية ونحوها ولم يتعرض للقدح فى الأديان لم نعارضه بشىء ، فاننا من أعظم الناس تقديرا للانسانية ووضعا لها فى موضعها الطبيعى اللائق بها كل بحسبه ، فلا حاجة الى التطويل والتهويل ورمى المسلمين بالجهالة والبلادة وعدم تقدير الانسانية

فصل

ثم جاء بنادرة عجيبة مدعياً أن الدول أو الأمم اذا ارتفعت فى الرقى والحضارة وسعة الملك فلا يمكن أن تنزل عن مكانتها ، فان ذلك من المستحيل ولو حاول العالم كله ذلك لم يقدروا عليه ، بل لو أرادت ذلك هى بنفسها لم تقدر عليه أيضا فقال وهذا لفظه :

« ومن هذه الأمم التى أصيبت مواهبها وألزمت بالانكماش والكمون الاغريق والرومان والعرب ، ويخشى على احتمال بعيد جدا أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية ، غير أن هذا الاحتمال بعيد جدا لان الأمم أو الامة اذا بلغت شأوا معينا من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن

المحتمل النزول عنه حتى لو أرادت هى بل لو أراد العالم كله لها ذلك ، اذ يكون مثلها فى رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب الى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلا عليه وعلى العالم كله أن ينزل به عن تلك المنطقة أو أن يزحزحه عنها ، ويجب أن يكون معلوما أن للمعانى مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس ، والعزة للأقوى الأغلب فى المعانى وفى المادة معاً » انتهى

فيقال : ماشاء الله يافيلسوف زمانه ماأغزر بحرك فى المهازل والمخازى المضحكة ، فمن هى الأمة التى ارتفعت وبقيت على ارتفاعها ولم تنزل ، فان هذا لم يوجد ، وجميع هذه الدول الكبرى انما تأسست على أنقاض دول قبلها ، وقد عرف ابتداء ملكها وتوسعه قريبا ، ثم هى فى غاية الحرص والحذر والشفقة على الاحتراز بقوتها وسياستها عما يزلزلها من أعدائها ، ولو كانت تعلم أن إنزالها أو ازالتها من المحال كما ادعيت لم تداهن وتعاهد وتنافق وتخادع وتماطل من أجل المحافظة على موقفها ، بل لو علمت ما تدعيه لا ستطالت على غيرها ممن هو مثلها من أعدائها وقضت شأنها منهم ولم تكترث بهم ، لأنه من المستحيل على العالم كله انزالها وازالتها ، ومعلوم أن أشد الناس خوفا واحترازا ومحافظة على السياسة هذه الدول الكبرى لعلمها بخطورة موقفها - كما ذكرنا - فما ادعاه كلام ساقط وفضول لا يتكلم به الا مخبل العقل ، وقد كان ينبغى له بل يجب عليه أن يبعث بهذا الكلام المعزز بهذا المثل العجيب اليهم ليكونوا فى طمأنينة ووثوق تام وفرح وسرور بهذه البشرى العظيمة التى توجب لهم الثقة واليأس من استيلاء اعدائهم وبقاء ملكهم أبد الآبدين ، فان هذا شىء عجزوا أو غفلوا عنه وظفر هو به بذكائه النادر لعله يفوز بجائزة عظيمة منهم أو يقدموه فى الامر فيقع ما حلم به . وأعجب من هذه الدعوى تشبيهها بالكوكب ، وقد علم أن الكوكب لا يزول عن مكانه بخلاف الدول ، وأعجب من ذلك ما ذكره استطرادا فى قوله ويجب أن يكون معلوما أن للمعانى مناطق

جذب وقوة ، فان هذا لا يطابق ما قبله ، إذ كلامه فى الأمم وهى ليست بمعانى ، ولو قال للامم بدل المعانى لكان هو الأولى ، إلا ان كان يريد أن المعانى كالأمم أيضا فتكون المعانى كالـكواكب أيضا ، ولعل هذا من متشابه حقائقه الأزلية الأبدية التى لا يعلم تأويلها إلا هو أو الراسخون فى علمه

فصل

قال « أما معارف الانسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الانسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خـــلاف وجدال . لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الانسان وعقله ، وكادت أوقد فعلت أن تضع فى يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب . أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب . لقد هاجم كل شىء فى معقله وغزاه فى مكمنه بانتصار مبين ساحق ، فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الانسانية بل وغير الانسانية من الحيوانات والنباتات وهو المرض فقهره ، لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذى لازم الانسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها ، عرف كيف نشأ ومم نشأ ، ثم عرف كيف يحاربه ويقضى عليه »

والجواب ان يقال : كل هذه مجازفات لا قيمة لها ، ولا يخفى بطلانها على أدنى عاقل . فقوله « لقد كادت الطبيعة أن تستسلم - الى قوله - وكادت أو قد فعلت أن تضع فى يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب ، فهذا كله كذب ومكابرة مخالف للعقل والحس ، فجميع الأشياء التى قدر الانسان عليها كحبة خردل فى جانب جبل بالنسبة الى مالم يقدر عليه ، هذا الموت أعظم عـــدو لهؤلاء الملاحدة والماديين وأمثالهم ممن عرفوا كثيرا من هذه الأمور ، ماذا عملوا فى الوقاية منه ، وكم من عالم بهذه الأسباب المادية لم يمت إلا بأسبابه التى علمها وعلم الوقاية منها ، فدعواه أنه يتصرف فى الطبيعة كيف شاء وكيف

أحب دعوى ساقطة من مأفون لا يبالى بعاقبة ما يقول . وقوله « أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب » يقال : كل شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وكفى بعجزه وقوعه فيما وقع فيه من المشاكل العظيمة التى أوقعته فى هذه الكوارث والنكبات والحروب الطاحنه والمنازعات الدائمة ، لقد عجز عن أن يدفع عن نفسه التى هى أحب شىء لديه وعن ولده وفلذة كبده هاجم الموت اذا جاءه وهو ينظره ولو لحظة واحدة ، لقد عجز عن أن يستغنى عن حمل الغائط والبول ومسه بيده وتلوثه به يوما واحدا ، وقد عجز عن ايجاد حاسة واحدة من حواسه المفقودة أو عضو من أعضائه أو تغيير صورته الى صورة أخرى أو أن يستقل بالوطن عن عدو يخافه ويداهنه ويصانعه ، لقد عجز عن أن يستغنى لحظة واحدة عن استنشاق الهواء ووجود الغذاء فى جسمه ، الى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى مما هو محتاج اليه من الأشياء الحقيرة التى هو مفتقر اليها بالذات ، ففقر الانسان الذاتى وعجزه الذاتى أمر مشاهد محسوس ملازم له لا ينفك عنه ولا يمكنه التخلص منه ولو أعطى من العلوم والمعارف مالا يعد ولا يحصى ، فانه انسان ليس بإله ولو بلغ ما بلغ ، ولو أنه كان لا يعجز عن شىء لم يكن انسانا بل يكون الها كما تقدمت الاشارة اليه فقولك أى شىء عجز عنه هذا المخلوق كلام ساقط يكذبه الشرع كما يكذبه العقل والحس والضرورة والوجدان ، فما عرفه بالنسبة الى ما جهله كلا شىء أو كقطرة من بحر . وكذلك دعواه أنه قهر المرض دعوى كاذبة خاطئة ، فان الأمراض المتنوعة لا أكثر منها وجودا فى كل زمان ومكان ، واذا قدر أنه هدى الى معرفة ما يضاد بعضها فهذا لا يقال فيه انه قهر المرض ، فان هذا من باب التطور فى التداوى ، وهو من العلوم القديمة التى تترقى شيئا فشيئا لانها مبنية على التجارب المتكررة [١] ، ثم هو يفيد وهو الاغاب فى بعض الصور ،

---

(١) لنسبة ضعف الانسان وخوفه

وقد لا يفيد مطلقا ، وكم من مرض لم يعرف له دواء الى الآن ، ثم أيضا قد يحل محل المرض مرض آخر ، وبكل حال فهو لم يقدر على قطع الامراض بل ولا أكثرها ، وانما خفف منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى عمل أسباباً للهلاك والموت أفظع منها ، كما أنه عمل أسبابا لجلبها وبثها . ولا شك ان النفوس البشرية التى ذهبت ضحايا هذه الحروب المنتهية التى من أسبابها إلقاء القنابل والصواريخ وغيرها أكثر عددا من النفوس التى تذهب بسبب الأمراض التى عرفت مقاومتها . ولا شك أن الامراض وإن بلغت ما بلغت على ما عرف من تأثيرها فى السنين السابقة فهى أقل خطراً على الانسانية من بعض هذه الصناعات الحديثه التى استخرجت وسيلة للسيطرة والتملك والدفاع كالطاقة الذرية فان العالم أصبح بسببها مهددا بالفناء والدمار العام ، بخلاف تلك الامراض ، فانسان هذا العصر لا شك أن الله قد هداه الى معرفة أمور جليلة من وسائل الراحة والهدوء واللذات ، ولكنه قد صنع ما يقابل هذه من وسائل الويلات والخراب ما ينيف على ذلك أو يكافئه ، واذا قيل ان هذه الأمور مما يدل على علمه قلنا وهى مما يدل على ضعفه وشدة حاجته ، فان حاجته وضعفه الشديد دفعه الى الحيلة والحيلة دفعته الى التعلم لمعرفة الوقاية من هذه الشرور والشقاء ، ولو لم يكن محتاجا وضعيفا لما وصل الى هذا . ثم ان هذه الوسائل الفظيعة كلما تقدم الزمان اشتدت وتطورت تبعا لتطور الفساد والبعد عن الدين ، ولهذا كان لا يأتى زمان الا والذى بعده شرٌّ منه كما ورد فى الحديث الصحيح . ثم كون الانسان عرف حقيقة مرض الوباء وأنه على ما قيل ميكروب يفتك فى جسم الانسان ، فهذا لا يدل على قدرة الانسان بل يدل على ضعفه لأنه حينئذ يكون كظرف لهذا المخلوق الذرى الصغير ، وأنه محتاج غاية الحاجة الى محاربة هذا الجند الجرثومى الضئيل الداخلى ، وانه مضطر الى ذلك غاية الاضطرار وإلا قضى على حياته ، فمن هو بهذه الحالة والوضع كيف يعتمد على نفسه وذاته ولا يدعو ربه الكامل العزيز الجبار ، وكونه

عرف مقاومة هـذا المرض أيضا لا يدل على كمال قدرته فان الله ما أنزل داء الا جعل له دواء فكانت معرفته للوقاية منه كمعرفته للوقاية من كثير من الأمراض الداخلية والخارجية التى كانت مبادئها متقدمة ، فهذا المغرور المعجب بنفسه مضطر الى محاربة هذا الصغير الضئيل وأمثاله وإلا أفسد عليه ذاته ونكد عليه حياته وكدر عليه لذّاته ، فمن هذه حالته كيف يقال فيه « أى شىء عجز عنه » ومن هذه حاله كيف يستنكف ويستكبر عن عبادة ربه العظيم المقدس الكبير المتعال القادر على كل شىء القائم على كل نفس بما كسبت الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، فهـذا هو الذى يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه وتستمد المعونة منـه ويدعى ويتضرع اليه ، وهو الكريم الجواد الذى لا يخيب من سأله بصدق واخلاص ، وأما اقتدار الانسان على استخراج هذه الصناعات المتنوعة الكثيرة المستخدمة فى قطع المسافات ونحوها ، فهذا لا يصح أن يكون دليلا عـلى أنه يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء وأن ناصية الوجود بيده كما يدعى ، فان هذه الأمور انما عرفها الانسان لأنهـا فى طاقته ليست فوق طاقته ، فانها أمور صناعية وجميع الامور الصناعية فى طاقة الانسانية ، بخلاف الامور الأخرى كاحيـاء الموتى وخلق الحيـــاة فى الحيوان والنبات ونحو ذلك فان الانسان عاجز عن ذلك وسيستمر عجزه أبدا لأن هذا من خصائص الألوهية . ثم ان هـذه المعارف لم تزل فى استطاعة الانسان ومواهبه قديمـا متركزة فيه منذ وجوده ولـكن الله يجددها بحسب حاجة الخلق لها فى الوقت الذى يناسب الحكمة والاتقان وهى كلها مؤلفة من جمادات متنوعة بالقياس على الحيوان وغيره ، وأصوله هذه الأمور قد عرفت من قديم ، وأكثرها مستمد من تعالـــيم الديانات كالكتابة وصنع السفن والنسيج وغيره ، ومعلوم أن الذهب والفضة والنحاس وغيرهـا قد عرف استخراجه من قديم الدهر ومعرفة استخراجه

من أرقى المعارف (١) والله سبحانه هو الذى هدى الى معرفة هذا كله واستخراجه فى الأوقات المناسبة لذلك كما هدى لمعرفة كثير من الأمور المعنوية التى اختص بابداعها أهل الدين كالنحو والصرف والعروض والقوافى والهندسة وأمثال ذلك ، ولا شك أن معرفة هذه لها دخل كبير فى معرفة أصول الصناعات وابداع المعانى أعظم من إبداع الصور لان ابداع الصور والاجسام متوقف على علم المعانى التى بها تستخرج هذه المعلومات ، وليست صنعة جنس (الراديو) بأعجب من صنعة جنس الكتاب ، فان الراديو وان كان آلة لجلب الاصوات والاقوال المتنوعة وهو يحمل مع الانسان فى كل مكان وزمان ، فكذلك الكتاب فانه ظرف بسيط لحفظ معانى وأقوال وعلوم لا تعد ولا تحصى ، وهو أمين حفيظ وأقل مئونة من (الراديو) ، وهو محمول فى كل مكان وزمان ، فان الانسان يأخذ هذا الشكل البسيط فى جيبه أو غيره فيفتحه فيطلع على علوم لها آلاف السنين ويجد فيه من علوم الدين والسياسة والأحكام وغير ذلك ما يدهش الانسان ويحير لبه وهو غنى عن (الراديو) وليس الراديو يغنى عنه ، ولولا الكتاب لم يستخرج الراديو ، ويستغنى كثير من الناس عن (الراديو) ولا يستغنى أحد عنه ، وهو من الصناعات المتقدمة التى ظهرت على يد المتدينين بالاجماع إما وحيا أو الهاما ، ولكن لما كان الكتاب متقدما صار مبتذلا لم يستغرب (والراديو) لما كان حدوثه متأخرا استغرب وجعل موضع عجب لكون النفس تستغرب الحادث الجديد المخالف للعادة أعظم من القديم المبتذل ولو كان أعجب وأبدع منه ، وبهذا يبطل تطويله وتهويله للصناعات الحادثة كلها لغرض الغلو فى الانسان ، وبنائه على ذلك أن الانسان غير عاجز عن شىء

---

(١) قال تعالى حاكيا عن فرعون ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ الآية ففيه دليل على أن الذهب كان موجودا من قديم ومعلوم أن استخراجه من أدق الصناعات

ومن الجائز أن يكون ذلك من أسباب خروج هذه الصناعات فى هذا الوقت ، وتعليل ذلك أنه لما ضعف أمر الاسلام فى السنين الاخيرة وانقطعت فتوحاته المستمرة وقلت العناية بنشره والقيام به وبثه فى أرجاء الأرض - وقد كان سبحانه وتعالى قد ختم النبوة بمحمد ﷺ فلا رسول بعده ، وأطراف الأرض متباعدة مملوءة بالسكان فهم فى حاجة شديدة إما الى رسول واما الى معرفة ما جاء به هذا الرسول الكريم من الدين والكتاب المبين الكافى لهداية الخلق ، أما بعث الرسول فغير ممكن لان حكمة الله اقتضت أن لا رسالة بعد محمد ﷺ لأن من لم يؤمن به وبما جاء به من الحق الواضح مع كمال شريعته ووضوح معجزاته وكفايتها واستمرارها فلا يمكن ان يؤمن بغيره ، لأن الحق واحد ، فتعين الثانى وهو معرفة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام ومعرفة الشريعة الكاملة الكافية التى جاء بها . ومعلوم أنه كالمستحيل معرفة ذلك على جميع أهل الأرض من أمريكانيين واستراليين ونحوهم مع وجود الأسباب التى ذكرنا ، وربما انه لو بلغهم ذلك لم يبلغهم على وجهه الصحيح - فكان (١) من الضرورى وجود ما به يحصل ابلاغهم لتقوم بذلك الحجة عليهم ، ويعلموا ما جاء به الرسول ، فهو سبحانه قد مكنهم من الأسباب فيجب عليهم الاجتهاد فى البحث والتنقيب والحرص الشديد ، لأن جميع مصلحة ذلك عائدة اليهم ، ولأنهم دائما يحرصون على البحث والتنقيب والتفكير فى كل ما من شأنه أن يفيدهم فى التقدم وينفعهم فى الدنيا كالمعادن وغيرها من مصادر الخيرات الخفية والبارزة . وعلى هذا فمن كان قصده الحق واتباعه وايثاره على نفسه وولده وماله فلا بد أن يبذل غاية جهده فى الحرص على معرفة هذا الدين وفهمه وتحققه ، ومن حرص كل الحرص وبذل جهده فى أمر ممكن كهذا الامر عرفه ولا بد ، لان الله يوفق من يريد الحق ، ومن كانت هذه حالته فهو الذى يمكن أن

(١) هذا جواب « لما ضعف أمر الاسلام »

يؤمن بالرسول لو وجد ، ومن لم يكن بهذه الحالة فهو لا يؤمن بالرسول لو وجد ، لان الايمان بالرسول ليس بالأمر الهيّن بل لا بد أن يكون هناك عوارض دنيوية تمنع كل من لم يؤمن به ايمانا خالصا صادقا ، وحينئذ فالانسان المخلص الصادق أو الأمة المخلصة الصادقة اذا بذلت جهدها فى معرفة ذلك أدركته ولا بد ، ومن كان له قصد غير هذا قامت عليه الحجة . وبكل حال فهذا كله انما يحصل بوجود هذه الأمور الصناعية المقربة للمسافات البعيدة إما بالنقل وإما بالسماع أو بكليهما ، وقد حصل السبب الاكمل لا بلاغ الحجة ، وكان من عناية الله ورحمته بخلقه أن هداهم لمعرفة هذه الامور فى الوقت المناسب لها للحاجة ، وقد ظهر أثر ذلك فكان وجود دين الاسلام معروفا متيسرا فى جميع بقاع الارض ، ومن جهله فلم يعرفه على وجهه منهم فلا بد أن يكون لتقصير فيه وتعصب على تقليد أو شىء من الهوى ، فان الله دعا عباده وكرر عليهم مرارا بانه سييسر الذكر لمن قصد التذكر واتباع الحق حيث قال ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ مرارا كثيرة ، ولعل السر فى تكرار هذه الآية لقطع العذر وبيان أن من طلب الحق وجده ، وقال ﴿ ولقد فصلنا لهم القول لعلهم يذكرون ﴾ فمن اجتهد فى اتباع الحق عرف الحق ولا بد . وبالجملة فلولا وجود هذه الامور المقربة ـ والله أعلم ـ لم يوجد تيسره ومعرفته فى هذه الأطراف النائية ، أو لم يعرف على هذا الوجه مع ضعف الاسباب ، وكان من حكمته تعالى أن جعل أكثر مبادىء هذه الاختراعات على أيدى هؤلاء النائين لان هذا من أسباب مصالحهم التى هم فى غاية الحاجة اليها ومن ذلك القدرة على الحج ، وليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم ، وقد كان من المشاهد أن أكثر الصناعات النافعة انما هى فى تقريب المسافات وأما غيرها فدخلت تبعا كسائر الامور الجليلة فانه بخروجها لا بد أن تخرج معها أمور اخرى لها علاقة بها ولو بعيدة ، والله اعلم

فصل

ثم استطرد فى معرفة الإنسان وتطوره فى الصناعات حتى ادعى أنه عرف أول هذا الكون الى هذا الوقت الحاضر ، بل صرح بأنه عرف متى تنقضى الدنيا وأنه يعرف عمر هذا العالم وأنه عرف جميع تغيرات هذا الكون وتطوراته فى الازمان الماضية السحيقة ، وقد كرر هذه الدعاوى فى كتابه مرارا كثيرة ، وقد تقدم تجهيله الانسان ، فانظر الى فقدان عقل هذا الرجل وشدة تخبطه واضطرابه ، وقد تقدم شيء من ذلك . وينبغى أن يعلم أن غرضه من هذا تركيز عظمة انسان هذا العصر فى أذهان الناس ليحصل الاقتداء به ورفض ما عليه السلف من أمور الدين لأنهم فى زعمه ليسوا على شيء من المعرفة فقال هنا : « لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسما سماعا ورؤية وانتقالا أى أنه صار يرى ويسمع ويتنقل بدون أن يكون للابعاد سلطان ، لقد هزمت الابعاد المكانية اذن [(١)] أما الابعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا غيرها من المعارك العلمية التى اقتحم الانسان غمارها روعة وانتصارا ، انه استطاع أن يطير على أجنحة العلم ، وأن يرجع الى الوراء الزمانى آلاف الملايين من السنين ، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد [(٢)] بما يفوت الاعداد أو يكاد ، انه راح يولد هـذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس ، ثم راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين ليحيطوا بها وليحفّوا من حولها يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الانفصال عنها أو الابتعاد ولا الاستغناء عن سلطان جذبها ، فكانت بينهم كأب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة

---

(١) هذا غير مسلم على هذا الاطلاق

(٢) كل هذا كذب

يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا ما يحب ويشتهى ، وراحت هى تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الايمان وقوة الرجولة . انظر انه مشهد من مشاهد العلم التى لا يقدر على إبصارها والاستمتاع بها الا هذا الانسان، فياله من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه [1]. ثم راح يحدّث كيف راحت هـذه الأتباع وكيف راحت الابناء تصير من الآباء ، فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات فكانت السنة واحدة لا تختلف فى الجماد كما هى فى النبات كما هى فى الحيوان . ثم رجع يشهد كل العصور التى مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والاحفاد وطفق يحكى حكاية العليم المستثبت الأدوار المتقلبة التى مرت بها والتطوّر البديع المنظم الذى ظل يسوقها ويدفعها الى الكمال ، ويحكى كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها ـ ان كان لها قبل [2] ـ الى حالة التكاثف والتكتل ، ومن حالة الاضطراب والقلق الى حالة الاستقرار والهدوء، ومن العصور الجلدية والنارية الى عصور الاعتدال ، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التى لا تمكن من سكناها ومن الانتفاع بها الى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذى جعل فيها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيروعنا منظرا ومخبرا ، وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة فى كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة فحضر بشغف واهتمام متزايدين هـذا الفصل الشائق من الرواية ـ وهو فصل

(١) نعم لكن أنت لم تستفد منه ، فانه ما خلق الخالق الا للاستدلال على علمه وحكمته وصفاته ، وليعبد وحده لا شريك له ، فأى شيء عملته من هذا

(٢) قولك «ان كان لها قبل» يفيد الشك ، وهو يناقض دعواك أنه علم أول هذا العالم

ظهور الحياة ـ وهى اللغز المعقد الذى لا يزال العلم الدائب واقفا أمامه حائرا دائبا على محاولة حله (١) فحضر وجود الانسان ووجود غيره من أنواع الاحياء ، فلزم هذه الموجودات الطريفة وعلى رأسها الانسان ، فتدرج معه ومعها وهو وهى يحبوان فى مدارج الحياة والوجود ، فوصف الانسان ووصف أيضا غيره منذ وجوده البدائى الشقى الى وجودنا هذا المتحضر المهذب السعيد ، فكتبه فصلا من أعجب الفصول يصف وصفا يكاد يكون تصويرا لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو ينتقل من طور الى طور ومن حالة الى حالة من حالات النعماء والبأساء حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التى منحت هذه الحياة هذه الالوان الزاهية (٢) من ألوان السعادة والترف والعيش الرخى . ثم لم يقف بعلمه عند هذا ، بل ذهب مسرعا يسابق هذا الوجود فيسبقه ، وذهب يخبرنا عما بقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود (٣) الذى سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه ، وعما بقى من عمر هذا الانسان وغيره من الأحياء ، ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لا تزال فى طريق الوجود والتى لا تزال تترقب لتثب وثبتها . يا للعجب انه قد فرغ من علم الارض وما فيها وما سيكون فيها (٤) ومن دراستها ودراستهم ثم رنا ببصره الحادّ الطموح الى ما هو أسمى وأعلى موضعا وأوسع وأكبر ، فخرج من كوكبه هذا الذى لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية الى رحاب الفضاء بآلته وأرصاده ورياضاته

---

(١) هذا يناقض دعواك أنه يعلم كل شىء

(٢) لا ندرى كيف أعمى الله قلبه عن تلك الألوان السود والويلات والدمار الفظيع والجوع والعرى فى هذه السنين الآخرة فى كثير من بقاع الارض بسبب الالحاد وأهله

(٣) هذا تصريح بأن الانسان يعلم متى الساعة ، بل هو تصريح بأنه علم ما كان وما سيكون ، وهو يناقض دعواه أنه سيقضى على الشقاء قضاء حاسماً

(٤) تأمل هذه العجائب

وخيـــاله يجوبه جوبا ويرود ما فيه رودا يعـدد ما فيـه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود ، بل يحللها حتى يعرف ما هى مركبة منه (١) وما هى عناصرها وما مادتها وما غير ذلك ، ثم لا يقضى هـذا كله وطره وشهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم ويعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهـذه السموات العلويات بالرسائل الكلاميـة اللاسلـكية ، أو بالانتقال اليها عـلى مـتن سفن سهمية تطلقها قوة العـلم (٢) وتوجهها حيث يريدون ـ نعم هم لم يصلوا حتى اليوم الى هذه الغاية ، لـكن من زعم أنهم لن يصلوا يوما ما فقد أساء الى نفسه » انتهى كلامه ، وفيه من التهور والمجازفة والتصديق بالمحال والجنون مالا يخفى على أدنى عاقل ، وغرضه من هذه الثرثرة الفارغة أن الانسان قد علم كل شيء ، فعـلم ماكان وسيكون ليثبت بذلك أنه يعلم كل شيء كما ادعاه ليحصل الايمـان باستعداداته ومواهبه التى فى إمكانها أن توصله الى الـكمال ، وأنه لا حاجة الى رب يدعوه ويعبده ويتوكل عليه ، لأن هذه الصفات الكمالية كلها موجودة فى الانسان فلا حاجـة الى الاعتماد على غيره ، وهذه عادته فى قبول هذه الاقاويل المدخولة بالاباطيل الواضحة ، فانه متى وجد بحثا لملحد من ملاحدة الماديين أو غيره قبله وصدق به واحتج به وشتم من خالفه ، فهو يقبله قبولا تاما أعمى ويصدق به تصديقـا جازما ، ولا يكتفى بذلك بل يجعله برهانا قاطعا وان كان هناك ملاحـــدة آخرون مخالفون له ، لان الشرط الذى هو موافقته لهواه موجود ، ولا يكون

---

(١) قبحك الله ما أرخص الـكذب عندك وأهون القحـة عليك كانك تخـاطب بهذا أنعاما لا تفهم

(٢) الأولى والأحسن أن تطلقها قوة حقائقك الأزلية الأبدية

موافقا لهواه الا اذا كان مصادما لعلماء الدين ، ففيه شبه قوى من الرافضة الذين يعرفون الباطل بكون أهل السنة يعملون به ويعرفون العكس بالعكس ، فكل ما يوافق هواه فهو الحجة والصدق والبرهان الذى لا ريب فيه ، وكل ما يخالف هواه فهو الكذب والباطل والمحال الذى لا شك فيه ، ذلك لأنه هو المقدم فى كل أمر كما زعم ، ولا حاجة الى تتبع كل مافى هذا النقل من الأباطيل ومصادمة الشرائع لأن الانسان الذى يصدق به لا يلتفت الى أى حجة ولا يصغى الى أى دليل كائنا ما كان ، فان مصادمة هذا النقل للنصوص الشرعية أمر ظاهر لا غبار عليه ومن يخفى عليه ذلك فهو إما جاهل غبي أحمق لا يفهم الحجة ، وإما زنديق لا يقبلها

فمن خبائثه فى هذه الجملة قوله « وذهب يخبرنا عن مابقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود » ولا شك أن انقضاء عمر العالم هو قيام الساعة فهو صريح بأن الانسان يعلم متى الساعة التى استأثر الله بعلمها ، وهـــذا كفر واضح لا يشك فيه . ومن عجائبه دعواه أن الانسان سيصل الى السموات إما باللاسلكى وإما بالانتقال ، وجزمه بذلك ، ثم حكمه على من أنكر هـــذا أنه مسىء الى نفسه ، وصادم قوله تعالى﴿ ان الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾ الآية ، ثم مع هذا يعترف بأنهم لم يصلوا الى ذلك فيعترف بعدم الوصول اليه والمعرفة به ثم يجزم بوقوعه فى المستقبل ثم يحكم بالاساءة على من أنكر ذلك ، فانظر الى هذه المهازل والمخازى المتتابعة وسفاهة العقل والطيش الذى لاحد له وفى الحديث « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » . ثم ان هذه الامور التى ذكرها ونقلها وجزم بها فى خلق هذا العالم وتفصيل حوادثه وتطوراته ليس هو من أهل المعرفة به وليس هذا الفن ماتعلمه وعرفه ، ومع هذا صدق به مع عدم احاطته بعلمه وقد قال تعالى ﴿ ولا تقفُ ماليس لك به علم ﴾ ولا سيما وهو تقليد فى أمر عظيم خطير وهذا هو عين الاساءة الى النفس بل هو عين الضلال

والاغلال ، وسيأتى كلامه قريبا وتصريحه بأن أقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية فهو لايقبل منهم قولا فى آية أو حديث أو مسئلة فقهية فليس لهم علم ولا عقل ولا دين ـ هذا مع أنه اضطر الى التملق لهم والمصانعة معهم والانتساب اليهم ـ أما الملاحدة فهم المتصفون بأكمل الاوصاف وأجملها ، فما قالوه فهو الصدق الذى لاشك فيه وما أنكروه فهو الكذب الذى لاريب فيه بشرط أن يوافق هواه . اللهم احشره تحت أقدامهم ووله ماتولى انك سميع الدعاء

ومن قبائحه المخزية فى هذا دعواه أن الانسان علم الحوادث المستقبلة وعلم ما سيكون ، فهذه المجاهرة بالقحة والمكابرة بالفجور مما يبين لك أنه يتكلم بكل مايخطر على باله ولو كان مما يدخل فى حد الجنون ، واذا كان الانسان يعلم هذا الذى يدعيه فما هذه المصائب والنكبات التى وقع فيها ، أفتظنه اختارها لنفسه أم غفل عنها ونسيها . ثم مابال هذه الدول كل منها محترس وخائف من المستقبل

وأما دعواه بعد هذا ان « من أراد لهذا الانسان أن لايستمر فى رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله أن لاتمضى فى سبيلها »

فيقال أولا : ليست سنة الله هى كون الانسان يصل الى السموات باللاسلكى وأن الملاحدة يدخلونها حتى يلزم هذا الذى ادعيته بل هو تشنيع بحت

ويقال ثانيا : من هو الذى أراد ماقلته ، فالمسلمون لم يقولوا هذا ولا يمكنك أن تنقل عن أحد منهم يعتمد قوله أنه ادعى بأن سنة الله لاتمضى فى سبيلها

ثالثا : لايلزم من استمرار الانسان فى علومه الكشفية وغيرها أن يعلم كل شىء ، ويقدر على كل شىء ، وان يصل الى السموات ، فان موضوعات العلم لايحصى عددها الا الله غير الوصول الى السموات والقدرة على كل شىء ، واستمراره انما يكون فى طاقته التى جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست فى

طاقته التى جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست فى طاقته ، ومن ادعى ذلك فقد كذب ، لان النصوص دلت على خلاف هذا وهى برهان صادق والبراهين الصادقة لايمكن نقضها

رابعا : نقول ومن أراد لهذا الانسان أن يبلغ الى مساواة الربوبية فى العلم والقدرة والابداع فقدجعله ربا وإلها ، وحاول تحويل سنة الله التى قد خلت فى عباده فكان من الكافرين

خامسا : نقول لهذا الملحد دعنا من هذه المراوغة والتملص والصياح والجنون والهراء الذى لاطائل تحته ، ها هنا شىء دون هذا كله هو الموت ، فالموت هل قدر الانسان على قهره ، يجب أن يجعل هذا هو أول خطوة فى أول السلم ، هذا الموت الذى أرغم أنوف هؤلاء الملاحدين ، وهذا الهرم الذى قطع ظهورهم ، لاحاجة يابلعام زمانه للوصول الى السموات وعلم ما كان وما سيكون وعلم خلق السموات والارض وخلق النفس وعمر العالم ونحو ذلك ، أعظم شىء هذا الموت الذى نكد عليهم الحياة ، الله أكبر عجزوا عن دفع الموت وعن ايجاد ذباب واحد ، بل رجل ذباب أو جناح ذباب عجزوا عن ايجاده ، ثم يعلمون بكل شىء ويقدرون على كل شىء ، **ما** أرخص الكذب عندك واخفه على لسانك

يا بلعام زمانه الانسان هو الانسان فى أخلاقه وصورته وأكله وشربه وبوله وغائطه وموبقاته وكذبه وفجوره لم يتغير عن انسانيته ، هو الانسان لم يزدد فى ذاته بشىء ، دعنا من المغالطة واللجاجة والخصومة الفارغة والثرثرة والجنون ، كل هذا الذى قلته خروج عن المقصود وتملص عن ملتقى المطرقة والسندان ولا بد من أن توضع بينهما

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به   فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وقد بينا مايتعلق بهذه الصناعات مع أن هذا الملحد معترف بأن التطور الموجود ليس الا تطورا صناعيا فقط حيث قال فى نبذته الثورة الوهابية

ص ١٣٩ « وأما الزعم أن النفوس الانسانيـة ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتدلى بطفرة من الجهة الخلقية تدليـــا لايمكن المماراة فيه ولا الخلاف فى بعد قراره ، وما يظن أنـه أتى على النـاس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخصبت مرتـع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرقى المزعوم هو رقى صناعى صرف لاحظ للأخلاق ولا للكمال فيـه ، والرقى الصنـاعى إن لم يصاحبـه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة على الانسانية وعلى الاخلاق وعلى الصناعة أيضا وعلى كل شىء وقائل غير هذا غاش أو جاهل ، وما ارتقت الانسانية فى عصر من عصورها ارتقاءها فى عصر الاسلام الاول » انتهى كلامه بحروفه . واذا كان هذا رأيه قد ادعى فيه أنه لايمكن المماراة فيه وأن قائل خلافه إما غاش أوجاهل لأنه قطعى فهنا يأتى فينقضه من أصله ويتلاعب بعقول الناس فيريد أن يصدقوه فى كل ما شاء من الأفكار المتضـادة ، فهذا هذيان وخبـال لايروج ويلتبس الا على من سفه نفسه وهان عليه عقله ودينه

فصل

ولمـا علم هذا المخذول أنه قد زلت قدمه فيما نقله وتفوه به فى خلق هـذا العالم وغيره وعلم أن الناس يستنكرون هذا القول فيرمونه بالـكفر والزندقة ، وكان قد تفرس فى كثير من أهل الغباء والجهالة العميـــاء أنهم سيصدقونه ويغترون بمخادعته متى استدل بآية أو حديث ، فأراد أن يصـدق على هؤلاء ظنه ـ ذهب يستدل بالآيات ليقال انه يصدّق بالقرآن ويحتج به ، وقد صدق على كثير من هؤلاء الاغبياء ظنه فكانوا فى أمر مريج من موقفـه والتوقف فى كفره ، وهؤلاء إنما أتوا من حيث بعدهم عن نور الدين وعدم معرفة دين الله الذى اختاره لعباده وعدم عظمته وجلالته فى قلوبهم ووجوب تعظيمـه واحترامه ، والا فلو قدروه حق قدره وعظموه حق تعظيمـه لمـا توقفوا فى

تكفير من هجم عليه وصادم نصوصه وادعى أن عبـــادة الله التى خلق الخلق لاجلها - وأعظمها الدعاء - ملهاة ومصرف خبيث ، الى غير ذلك مما أشرنا اليه فيما مضى وتأتى بقيته

ذهب هذا الملحد كعادته يؤيد ماذكره من تلك الترهات فى خلق السموات والارض وما جرى فيها من الحوادث من أول الدنيا وآخرها بقوله تعـالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾ قال بعد سياق هذه الآية « فالانسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لاالسماوية ولا الأرضية ولا خلق فرده الاول ، لأنه إنما وجد بعد ذلك اذ البيت يوجد قبل الساكن فيه (١) فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة ، ولكنـه لم يقـــل ما أعلمتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم بل اختار نفى الاشهاد على نفى الإعلام ، وكأنه انما أشار بهذا الاختيار الى أن الانســـان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السماوات والأرض وخلق نفسه بـل وخلق كل شيء (٢) كما علم بذلك سائر العلوم التى علمها والتى صارت حقائق مشهودة غير منظورة ، أما شهوده واشهاده لوجود العوالم التى خلقت قبله فغير ممكن ، والشهود والاشهاد غير العلم والاعلام ، فالاشهاد هنا يراد به الحضور ، ولو أن الله قال ماأعلمتهم خلق السموات والارض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون فى معارف الانسان وينكرونها عليه ويدّعون أن القرآن قد أنكرها (٣) فالشهود قد نفى بهذه الآية »

والجواب ان يقـــال أولا : ليس المراد بالضمـــير فى قوله تعـــالى

---

(١) هذا غير لازم فقد يوجد الساكن أيضا قبل وجود البيت

(٢) تأمل هذا ، فهو تصريح ظاهر بأن الانسان يعلم خلق كل شيء

(٣) نعم القرآن أنكر ماذكرته فأنه ذكر خلـق السموات والارض على غـــير ماذكرته

﴿ما أشهدتهم﴾ جنس الانسان حتى تستدل بالآية على اشهاد الانسان أو علمه بل الضمير عائد الى ابليس وذريته الذين اتخذهم الظالمون أولياء من دون الله ، لأن السياق فيهم ، فالضمير عائد اليهم فان الله تعالى قال ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ فهذه الضمائر المتسقة كلها فى ابليس وذريته ، وهو ظاهر الآية فان الله احتج على المشركين بذلك لكونهم اتخذوهم أولياء وهم فى الحقيقة عدو لهم فقال ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ما أشهدتهم خلق السموات والارض ﴾ أى حتى يكون لهم نوع شبهة فى اتخاذهم اولياء فان من يحضره الله أو يشهده خلق السموات والأرض فلا بد أن يكون له مكانة جليلة عنده ، ولا بد أن يكون له نوع إعانة اما بالرأى أو غيره ، ولكن الله انفرد بذلك فهو المستحق بأن يتخذ وليا وأن يدعى ويقصد ويعتمد عليه ويتوجه اليه . ثم قال ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ أى ما كنت متخذ إبليس وذريته - فإنهم رءوس المضلين - عضدا أى عونا لى ، بل هو سبحانه الغنى عما سواه الفقير اليه كل ما سواه فلا وجه لاتخاذهم أولياء . وهذا الرجل تبع اسلافه المشركين حيث اتخذ الملاحدة وأمثالهم من الضلال أتباع ابليس أولياء من دون الله ودعا اليهم والى علومهم الكفرية ، ورفض التوجه الى الله والاعتماد عليه ودعاءه والاستعانة به فكان له الحظ الوافر من المتابعة والشبه المطابق ، وهذا - أى كون الضمير عائداً الى ابليس - هو الذى فهمه جمهور المفسرين ، وحينئذ فلا حجة له فى الآية لا فى إشهاد ولا فى إعلام ولا غيره

ثانياً : لو قدر أن المراد بذلك جنس الانسان فهو قد قال فى آية ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ : ان من علم الاسماء علم المسميات والا فلا فائدة فى علمه ، فنكيل له بصاعه ونقول : المقصود من الاشهاد الاعلام ، وكل شهود بلا علم

فلا فائدة فيه ، بل قولنا هنا أولى من قوله ، فان الاشهاد بلا اعلام لا فائدة فيه ، لانه كشهود البهائم والمجانين والأطفال ، فالاشهاد الذى بمعنى الرؤية المجردة ليس فيه فائدة البته ، ويصان كلام الله عن أن يريد بذلك إشهاداً بلا اعلام ، فإن هذا هو شهود البهائم واشباهها كما تقدم

ويقال ثالثا : أنت صادمت الآية نصاً باللفظ ، فصرحت بأنهم شهدوا هذا العالم وأنهم حضروا خلق أنفسهم ، وهذا صريح لفظك المتقدم فصرحت بلفظ الاشهاد لا بلفظ الاعلام ، فدل على أن الاشهاد عندك هو الاعلام فكيف تخالف الى ما نهيت عنه ، فانك قلت « انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور الخ » ثم قلت بعد أسطر « ثم رجع يشهد كل العصور التى مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والاحفاد الخ » ثم قلت أيضا بعد قليل « فحضر وجود الانسان ووجود غيره من أنواع الأحياء » الى آخره فصرحت بلفظ الاشهاد والحضور بأن هؤلاء شهدوا وحضروا خلق هذا العالم وتوالده وخلق أنفسهم . فان قلت مرادى أنهم علموا ، قلنا : اذن اندحرت وهدمت اعتراضك بأن الإشهاد غير الاعلام بانك صرحت بالنص المصادم لنص الآية وألقمت الحجر . ثم استنباطك من الآية اثبات علم الانسان بخلق هذا العالم استنباط ساقط ، فالآية صريحة فى الدلالة على ضد دعواك ، فان الله تعالى لم يقل انى أعلمتهم خلق السموات والارض وخلق أنفسهم وليس فيها مايشير الى هذا كما أسلفناه فهو استدلال معكوس ، وأيضا فهذه الامور التى ذكرتها فى خلق السموات والارض أمور غيبية وعلم الغيب عند الله ليس عند احد من الخلق شيء منه الا مابينه الله تعالى لعباده ، ومثل هذه الأمور لاتعرف صحتها الا بالنص أو البرهان العقلى وكلاهما منتف ، أما النص فقد بين الله سبحانه خلق السموات والارض على خلاف ما تدعيه وليس بينه وبين ما تدعيه أدنى مناسبة ، وأما العقل فان هذه

الامور التى ذكرها فيها خلاف طويل عريض وكثير من الملاحدة أنفسهم يعارض فى هذا ، وليس قبول قول بعضهم بأولى من قبول قول الآخر ، فكيف بعلماء الدين ، فهى أمور مبنية على التخرص والظن ، والظن لايغنى من الحق شيئا ، وهم معترفون - أى علماء المادة - بأن هذه النظريات ليست بقطعية وكلامهم فى هذه الأمور كثير موجود ، وأكثره مخالف لما ذكره ، وقد وصف الله سبحانه خلقه للسموات والارض فى كتابه العزيز بأوضح عبارة وأجزلها فمن لم يقبل قلبه ماورد فى هذا فلا بد أنه مريض وفيه شيء من الشك والريب ، و « اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » قال جل من قائل ﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فهذه النصوص الدينية صريحة فى مناقضة ماقاله ، ومن المحال أن يجتمع فى القلب تصديق ما ادعاه الملحد والتصديق بهذه الآيات فليختر الانسان أيهما فقد تبين الرشد من الغى . وقد يقول من فى قلبه مرض ممن يريد أن يجمع بين المتضادات ويخلط الخبيث بالطيب : لا تنافى بينهما ، لأننا لا نعرف معنى الآيات ، فقد يكون لها احتمالات . فنقول : هذه دسيسة شيطانية . لِمَ عرفت معنى كلام هذا الرجس النجس المعقد وجهلت كلام الله الملك القدوس الذى هو فى أعلى درجات البلاغه والفصاحة ، انما الذى حجبك وغم على قلبك هو الشك فى تكذيب ما يخالف النص ، فكان هذا الريب هو الذى ران على قلبك فى الحيرة فاخذت تتبع المخارج البعيدة ، والا فماذا يضرك لو ضربت بكل قول يخالف النص عرض الحائط ، واستسلمت للنصوص استسلاما كاملا ، لأنك تدعى وتعتقد أنك مسلم مصدق لكل ما جاء به الرسول ﷺ ، فكيف تصدقه فى كل ما جاء به

وتعتقد أنه أعطى من الفصاحة والبلاغة والنصح ما لم يعطه غيره ثم مع هذا تشك فيما أخبر به وهل هذا إلا ضعف فى تصديقك والا فلو كان التصديق به والايمان خالصا قويا نقيا للزم وجود مقتضاه وهو الاستسلام الكامل ، ولو حصل منك الاستسلام الكامل لتبين لك نور الدين واليقين الذى لا شك فيه ، وأن كل ما يعارض هذه النصوص الدينية فاسد ، وأنها هى الحق الجلى الذى هو فى غاية الصحة كما عرفه الصحابة وأهل القرون المفضلة حيث لم يكن لديهم أدنى شك فيه فكانوا أقوياء أعزة سادة موفقين

فصل

قال الملحد « وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ فالرؤية هنا رؤية العلم ، أو الرؤية البصرية بواسطة العلم . وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية ، لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال أن الله سيريهم إياها ، وآيات الله فى الآفاق التى أخبر القرآن أنهم سيرونها هى هذه الكشوف والمخترعات ، أو الآيات الكونية التى يراها الانسان بوسائله العلمية والتى لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها ، فالجديد هو المرئى ، أو الرؤية هى الجديدة لأمور قديمة ، أو هما معا جديدان المرئيات والرؤيات . ولا بد من القول بأن الآية تشير - أو أن فيها إشارة - الى العلوم الحديثة والى آياتها ، والا لما كان لها معنى مفهوم بيسر »

والجواب أن يقال : قد فهمت أن هذا الرجل استدل بهذه الآية على أن الانسان يعلم خلق السموات والأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شىء كما تقدم كلامه هذا بحروفه ، وأنت ترى أن الآية بينها وبين الدلالة على هذه الدعوى كما بين السماء والأرض ، ولكنه - كما قلنا غير مرة - يريد أن يجعل القرآن دليلا له على كل ما يشاء ويشتهى ، والله سبحانه وتعالى لم يقل سنعلمهم خلق السموات والارض وخلق أنفسهم وخلق كل شىء ، بل قال سنريهم آياتنا

فى الآفاق وفى أنفسهم ، وليست الرؤية علما بكل حال ، وهذا الملحد مصاب بداء التناقض حتى فى الجمل القليلة ، فقد سبق قريبا قوله « والاشهاد غير العلم والاعلام » وهنا فسر الرؤية بالعلم كما ترى ، ومنع تفسير الاشهاد بالاعلام ، فتناقض فى ثلاثة أسطر هذا التناقض الفاحش ، فنعكس على هذا المعكوس قوله ونقول له كما قال فى الاشهاد سواء بسواء ، فانه إن دلت الرؤية على العلم سواء أكانت بواسطة البصر أو بدونه فكذلك الاشهاد يدل على العلم ، وقوله « وليس المراد رؤية البصر العادية لهذه الاشياء العادية » يقال وكذلك ليس المراد بالاشهاد مجرد الرؤية بالبصر العادى للاشياء العادية . ونحن لم نقل أن المراد مجرد الرؤية البصرية بدون علم وتفكير حتى يتكلف لهذا النفى ، والآية ليس فيها ذكر للسموات والارض ، بل قال ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ﴾ والآيات هى ما يحدثه الله من المظاهر العظيمة الدالة على قدرته وعلى إثبات النبوة ونزول القرآن ، لانه قال حتى يتبين لهم أنه الحق والمراد بذلك القرآن ، ومعلوم أن هذه الاشياء التى ذكرها فى خلق السموات والارض ليست برهانا للحق ، بل هى باطلة فكيف تكون برهانا على صدق القرآن وقريش لم يكونوا يعرفونها ، والخطاب موجه اليهم ثم الى من بعدهم ، ثم هى أمور لو قدر صحتها فلا يعرفها الا النادر فكيف تكون برهانا على الحق ، أما الكشوفات الحديثة فادخالها هنا مغالطة ، فانك قلت على الآية السابقة ان الانسان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السموات والارض وخلق نفسه بل وخلق كل شىء ، ونحن ننازعك هنا فى هذه الدعوى العريضة ، اما الكشوفات فهى مسئلة أخرى وليس بينها وبين هذه تلازم ، وليست الكشوفات العلمية هى خلق السموات والارض وخلق الأنفس وخلق كل شىء ، بل الكشوفات اخص من ذلك فلا معنى للمغالطة بها ، ولا شك أنها من آيات الله التى ظهرت أخيرا فى الآفاق وفى الانفس ، لكن ليس كل ما ادعى أنه من الكشوفات العلمية يجب التسليم له بمجرد الدعوى حتى يعلم تحققه ، وخلق السموات والارض على الصفة التى

ذكرها لا يصح أن يكون داخلا فى ذلك فهو لم يقم عليه دليلا ، مع كونه من علم الغيب ، وقد علمت أن استشهاده بهذه الآية باطل . ثم الكشوفات المحققة اذا كانت داخلة فى هذه الآية فهى حجة عليه ، لان الله يقول ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وهذا جعلها دليلا على تعمية الحق وطمسه واخفائه ، ولم يجعلها دليلا على بيانه . ولو أنه ممن هدى ورشد لاستدل بها على ثبوت النبوة ونزول القرآن واشتماله على خيرى الدنيا والآخرة ، ولاستدل بها أيضا على محاسن الاسلام ولم يستدل بها على تشويهه والدعاية الى خلعه ونبذه . ومن العجب أنه كلما توسع الالحاد والكفر ازداد ظهور الآيات فى الآفاق وفى الأنفس ليكون ذلك دليلا على صحة الدين ، ومع هذا عكس الملاحدة هذه النظرية وجعلوا ظهور هذه الكشوفات والآيات فى الآفاق وفى الانفس دليلا على ضد الحق من الالحاد ورفض الأديان والاغلال منها

وقوله : « ولا بد من أنها تشير — أو ان فيها إشارة — الى العلوم الحديثة والى آياتها والا لما كان لها معنى مفهوم بيسر » فيقال : أما أن فيها إشارة الى ما ذكرته فى خلق السموات والارض فباطل ، فليس فيها إشارة الى ذلك البتة ، وأما الكشوفات الحديثة فقد بينا أنها خارجة عن محل النزاع فلا حجة لك فيها . والآية قد نزلت قبل هذه الكشوفات ، وقد فسرها العلماء وفهموا معناها ولم يكن ذلك بعسير عليهم ، ولم تزل الآيات الدالة على أن القرآن حق تترى وتتجدد فى كل زمان ومكان منذ بعث النبي ﷺ الى هذا الوقت ، ولا شك أن الفتوحات العظيمة التى ظهرت فى زمانه عليه الصلاة والسلام وزمان خلفائه من أعظم الآيات فى الآفاق وفى الانفس ، وقد حدث انشقاق القمر وهو من أعظم آيات الله فى الآفاق ، وآيات الله فى الآفاق غير هذه الكشوفات من الامور الكونية لا يحصى عددها الى الله سبحانه وتعالى

ثم قال : « وأما الآيات فى الأنفس فهى الحقائق النفسية التى اكتشفها

العلم ، وهى أيضا الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التى انفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الانسانية مما كشف عنه العلم وأعان عليه وعالم يعلم الا أخيرا »

فيقال : كل هذا أيضا لا يصح دليلا على ما ذكرته فى خلق السموات والارض وخلق الانسان وخلق كل شىء ، فمعنى الآية الذى هو ظاهر مفهوم منها كما فهمه المفسرون يرجع الى أن الله سيريهم آياته فى الانفس من الابتلاء والامتحان كما قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ فهو سبحانه يبتلى عباده أولا بالبأساء والضراء لكى يرجعوا اليه فيتوبوا ، فمن رجع وتاب هدى وإلا ضرب على قلبه الطبع والاقفال والختم ، وقد يكون معنى قوله تعالى ﴿ وفى انفسهم ﴾ كمعنى قوله تعالى ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام عليها ولا تنافى بين القولين فكلاهما حق ، فان الآيات تشمل هذا وهذا ، فما ذكره على الآية تعسف بارد ، وهو لا يفيده شيئا ، فاننا لا ننكر تكوين الانسان وتشريحه ومبتكرات علمه وتطور علومه ومعارفه الصناعية ونحوها فان هذا كله حق ، وهو قد تناقض فيه ، انما الشأن فى تفصيل ذلك والحاقه بما ليس منه

فصل

ثم انه هجم على القرون المفضلة الذين رفعوا راية الاسلام وأبلوا بلاء حسنا فى نصره وعزه حتى فتح الله لهم مشارق الارض ومغاربهـا ، فرماهم بالجهل والبلادة والغباء وعدم العلم ، وادعى أنهم لا يعرفون شيئا من الحقائق بل كانت رؤيتهم ناقصة فلا يبعدون كثيرا عن طور الحيوانية ، وانما معرفة الحقائق عند هؤلاء المتأخرين من الملاحدة وأمثالهم ، وقد أطال فى الحط

الشديد على القرون المفضلة ومن فى عصرهم ، فبينما نراه يتهدد الرافضة ويتوعدهم بالويل والثبور ، اذا هو منقلب معهم بل زاد عليهم فى الخبث والشنآن ، وكأنه يريد أن يمنح كل قرن وطبقة من هذه الامة نصيبها مما اشتمل عليه من العداوة المنكرة والغيظ الذى لم يسبقه أحد الى جنسه

فقال « وصل الانسان وقت نزول القرآن الى طور معين فى التدرج نحو الحياة ، ونحو الرشد العقلى ، وكان هذا التطور لايعدو النظرة السطحية ، والالمام بظواهر الاشياء دون النفوذ الى باطنها ، فكان يرى رؤية قد يضبطها الاستقراء بعض الضبط ، وقد تفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب ، فكانت أحكامه على الأمور وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهرى الصادر عن الرؤية الناقصة . وكانت هذه المرحلة من وجود الانسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لايبعد جدا عن الطور الحيوانى الذى كانت وسائل ادراكه تنحصر فى الحواس الغليظة المجردة (١) مع شىء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذى له بعض القيمة ، فأنزل الله فى كتابه متحدثا عن هذا الطور قوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ فعلومهم كلها كانت ظاهرة يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية وسواها ، ولكن لايدرون لماذا هى ولا ما هى ، ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب (٢) يرون الشمس والقمر وغيرها معلقة فى الفضاء متحركة ذاهبة آتية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لاتختلف ولا تتخلف ويرونها تبعث بالحرارة والاشعة ولكن لايدرون لماذا ولا كيف هذا ، بل

---

(١) هذا تصريح ظاهر بأن من كان فى زمن الرسول من الصحابة وغيرهم لايبعدون فى اخلاقهم وآرائهم عن الحيوانات العجم ، فعلى هذا فهؤلاء لا يبعدون عن الوصول الى طور الملئكة لان قاعدته فى التطور تقتضى هذا

(٢) وهل انت عرفتها اذن فمالك لم تبينها ولم تشرحها لينتفع بها

لعلهم ما كانوا يفكرون فى هذه الظواهر والمشاهدات لماذا لاتقع علينا وعلى الارض ، ما الذى يمسكها ويمنعها من الوقوع ، ما الذى يديرهـا ويحركهـــا ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها ، ما الذى يمدها بهـذه الانوار والحرارة التى لاتنفد ، كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء ، وان سألوا فلا أجوبة صحيحـة (١) وكل ما يمكن أن يقولوا فى هـذا أو كل ما يمـكن أن يفهموا ان الإله (٢) أو الآلهة هى التى تفعل ذلك أو انهـــا أى الشموس والـكواكب هى التى تفعله بنفسها (٣) لأنها آلهة أو لأنها كائنة حية متحركه بالارادة والاختيار ، اذ قـد ظل الانسان أحقابا متمادية فى الطول يعتقد أن كل متحرك إما اله وإما حى عاقل ، فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبـة على حسب مايرى آلهـة فى أزمان عند أقوام وأحياء فى أزمان اخرى عند اقوام آخرين (٤) والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين ، والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسبوه حيا وحسبوا حركته وسيره بارادته وقصده مثل مايصنعون هم ، ولا تزال بقايا هذه الانسانيـة الظاهرية السطحية موجودة ، وكانت الانسانية منذ وجـدت ترى التفاحـة تسقط على الارض وترى كل مارأى مكتشف قانون الجاذبية ، ولـكنها لم تستطـع أن تفطن الى مافطن اليه (نيوتن) فى هذه المسئـــلة ، وكانت ترى كل مارآه

---

(١) نحن نسألك عن هذه فما هو جوابك عليها ، وكان من الواجب عليـك أن تجيب عنها لانك المقدم فى الأمر فيجب أن ترشد الناس

(٢) هذا الجواب لايكفى عنده بأن الله هو الذى يدبرها ولهذا قرنه بالآلهة فلم يفرق بين الله والأوثان

(٣) اذا كانت هى لاتفعله بنفسها وان الله لايفعل ذلك بها والآلهة فلماذا تحركت مع أنه قرر فى مواضع بأن العلم هو الذى يحكم نفسه بنفسه

(٤) كل هذا كذب لاصحة له فأين الدليل عليه

مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التى قلبت حياة الانسان (١) غير انها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير مايرى الاطفال من مظاهر الأشياء ، وهكذا كانوا أمام جميع مناظر الكون ، وكانوا أيضا يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئا كثيرا من أنواعها على حسب اختلاف أعراضها ولكنهم كانوا جميعا جاهلين بأسبابها ، جاهلين بما وراء الاعراض ، فلا يدرون من عوالم المكروبات شيئا ، فهم لذلك لايدرون من وسائل مقاومتها شيئا أيضا ، فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيبصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هى لانها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر ، فكانت دائما منتصرة عليهم وكانوا أبدا مهزومين أمامها بدون قتال (٢) . وكانوا أيضا يرون كل الظواهر التى تؤيد قانون الوراثة وتشرحه ، والتى تدل على ماكان عليه الانسان الأول من أخلاق وطبائع وحشية ، والتى تعطى مباحث علم النفس ماشاء من مواد لبنائه وتثبيته ووضع حدوده ، غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الاطفال الى القمر ، يرونه كل ليلة يجيء ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيي ويموت ويغمرهم بضيائه الباهر وهم فى بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئا سوى هذه المرائى » انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل فى السلف الصالح والقرون المفضلة وجميع من فى عهد نزول القرآن لافرق بين مسلم وكافر ، وأكثر هذه الأمور التى ذكرها فى مسائل نظرية رياضية وما يتعلق بها ، وقد قرر فيما مضى

---

(١) وقلبت قلبك ودماغك ودينك أيضا

(٢) مايزال يكرر مسئلة هذا المرض لأنه لم يجد شيئا جديدا عرفوه اكبر منها وقد بينا مافى ذلك فيما سلف

أن هذه الأمور يشترك فى حلها الكافر والمسلم سواء ، فهؤلاء جميعـــا عنده كالأطفال المساكين لا يعلمون شيئا إلا هذه الظواهر ، فهم فى غاية الغباء والتغفيل ولهذا صرح بأنهم لايبعدون جدّا عن الطور الحيوانى ، فهم قريبون جدا من طور الكلاب والحمير والخنازير والقرود وما أشبه ذلك ، فاذا كانت هـــذه حالهم وقت نزول القرآن فكيف بحال من فى وقت الخليل عليه السلام ، فكيف بوقت نوح عليه السلام ، فكيف بمن هو قريب من عهد آدم ، فلا تسأل عن حال أولئك وصريح كلامه يقتضى أن هؤلاء كلهم كالحيوان واذا كان ناموس التطور عنده لم يخرج الانسانية عن طور الحيوان حتى وقت نزول القرآن فحال أولئك كحال أدنى الحيوان . وقد تقدم له نحو هذا . ولا ندرى لماذا أنزل الله عليهم الكتب السابقة والرسل دون الحيوانات . واذا كان هو قد أقر بأن هؤلاء الذين فى وقت نزول القرآن قد وصلوا الى هذه المرحلة الانسانية فقد أخبر تعالى صريحا فى القرآن أن من كان قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الارض وأنهم عمروها أكثر مما عمروها ، وأنهم أحسن منهم أثاثا ورئيا ، وإنهم خاطبوا رسلهم وردّوا عليهم كما رد هؤلاء عـــلى رسولهم ، وفعلوا فى معارضتهم كما فعل هؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ مايقال لك إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ وقال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منـــكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا ﴾ الآية ، بل ربما ان الاولـــين أعز نفوسا وأقوى مناعة وأصح فكرة من الآخرين الذين عارضوا الرسل ، فان لوطا عليه السلام قال لقومه ﴿ أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ فدل على أن الأولين الذين كانوا قبلهم لم يصل بهم فسادالاخلاق والتدلى فيها الى هذه الدرجة النهائية من الخبث والشناعة ، وجميع كلام هذا الملحد هنـــا يصادم النصوص مصادمة ظاهرة ، ونحن نعلم أن مقصوده من هذا الهذيان هو مايحوم حوله من تأسيس كراهة كل قديم ، وتركيز عقيدة التطور فى كل شىء

فى أذهان الناس ليحصل له مايريد من كراهة السلف ورفض آرائهم واعتقادهم لان أولئك الجماعات الذين ذكر أقوالهم حصروا المجد فى الأخذ بالاخلاق الدينية السلفية فلهذا عاكسهم وأطال فيما يناقض هذا الأصل ، فكان غرضه وهدفه الذى يرمى اليه هو سب كل قديم بدعوى أن أهله على غاية الانحطاط والجهل والغباء ، وقد طرد هذا الاصل حتى ادعى أن هؤلاء المستعمرين خير من الصحابة كما تقدم كلام السيد قطب ، وهو كثيرا ما يتفوه بهذا عند من يجتمع به ويباحثه فى ذلك ، وان الذى يرتد يكون كالخنزير الذى يتتبع النجاسات بشغف زائد ويعرض عن الطيبات ولا يريدها وينفر منها ، فعند هذا الملحد أن آباءنا الاولين على اختلاف أجناسهم انما تمتعوا بهذه الدنيا كما تتمتع الاطفال ، بل كما تتمتع سائر البهائم من الحمير وغيرها ، ولهذا صرح بأن الطفل يعطى أبداً صورة كاملة لأولئك الاسلاف الماضين ، ثم لم يكفه ذلك حتى قال والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسبوه حيا وحسبوا حركته وسيره بارادته ، فالاسلاف الأولون ـ على ماذكر سابقا فى تشبيههم بالاطفال ـ اذا رأوا حبلا يسحبه أحد حسبوه حية وهربوا منه واذا رأوا جلدا كاملا تستاقه الرياح هربوا منه ، واذا رأوا حيوانا ميتا تحركه الريح حسبوه حيا فلا يميزون بين الحى والميت كما لايميزون بين الجماد وغيره بل هم أجهل من الاطفال فان الاطفال لايفعلون هذا كله فهم دائما يهربون من كل مايتحرك ـ فلاتسأل عن حالتهم أيام كثرة الرياح فان أكثر الاشياء تتراقص وتتحرك فلعلهم كانوا اذن يموجون موجا فلا يستقرون أيام الرياح ولا يهدأون أبدا وقل أن يمر يوم مافيه رياح ، فعلى هذا تكون حالتهم أحط من حالة البهائم والحشرات فانها تهدأ غالبا فى أوقات الرياح فى جحورها ومساكنها بل ولا تهرب من كل متحرك مع أنه ادّعى انهم يهربون من كل شىء يجهلونه كما تقدم ، لقد صدق الله العظيم فيما أخبر عن هؤلاء المعرضين عن الدين فى قوله تعالى ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام

بل هم أضل سبيلا ﴾

وهنا مشكلة وقع فيها من حيث لا يشعر ، وهى أنه قرر فى كلامه الماضى أن الانسان إذ ذاك يتلخص فى شيئين : فى الجهل المطلق ، وفى عبادة كل شىء متقلب مضطرب ، هذا كلامه بحروفه ، فالانسان الأول جاهل مطلقا وعابد لكل شىء مضطرب ، ثم شبهه بالطفل حيث قال ان أصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس على وبدنى ، وكذلك قال هنا ان الطفل -كما قلنا غير مرة- يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين الخ ، فالمشكلة هى أنه ادعى أن الانسان الأول جاهل مطلقا وأنه عابد لكل متحرك مضطرب ، ثم شبهه بالطفل وجعل الطفل يعطى صورة كاملة عنه فشبهه تشبيها مطابقا بزعمه ، ومعلوم عند ادنى عاقل أن الطفل لا يعبد كل شىء ، بل لا يعبد شيئا مطلقا ، فانتقض تمثيله وانهدمت دعواه من أصلها وهى التى يدور عليها وقد اطال تكرارها لأنه لم يطابق التشبيه وتناقض تناقضا فاحشا بينا ، فيطالب أولا ببيان السبب الذى اختص به الأولون بعبادة كل شىء لأن العبادة هذه كانت فارقة بينهم وبين الأطفال لكن مقصوده بدعوى العبادة فى الاولين وقرنها بالجهل المطلق محاولة إبطال العبادة ليقول انها من أخلاق الجهلاء الأولين ، ولكن يقال هذا حجة عليك لانك أولا تناقضت وشبهتهم بالاطفال والاطفال لا يعبدون شيئا ، وثانيا أنها تدل على عكس ما تريده ، وذلك أن العبادة تدل على العلم لان خلوها من الاطفال الذين هم فى غاية الجهالة وملازمتها للعقلاء والعلماء تدل على أنها من لوازم العلم والعقل ، أما عبادات المشركين فانهم لما كانت عقولهم فاسدة كانت عباداتهم كذلك لأن اكثرها تقاليد على أديان محرفة قد دخلتها الأغراض والأهواء والبغى فأفسدتها ، ولهذا كان أكثر أهل الحضارة فى القرون الوسطى وقبلها وبعدها متدينين ، بخلاف البعيدين عن الحضارة كالامم المتوحشه والبعيدين عن الكتب السماوية فانهم اباحية لا يعبدون شيئا كالأطفال فكانوا منحطين

فى جميع عصورهم ، فظهر من هذا أن التمثيل الذى ذكره فى الطفل جاء على عكس مراده ، وهو أن الملحد أشبه شىء بالطفل الذى قرر أن الأولين أشبه شىء به ونسبهم الى غاية الجهل ، فان الطفل لا يعبد شيئا ويرى أن الاشياء الحية المتحركة أنها تتحرك لذاتها وطبعها وأنها كاملة لذاتها فهو أعظم الناس إيمانا بالأسباب لانه يؤمن بها ايمانا صادقا بدون أن تتعلق بمشيئة خارجة عنها فيرى فيها الكفاءة الذاتية ، ولهذا فانه يطلب كل ما يشاؤه ويشتهيه من والديه لأنه يرى فيهما القدرة على كل شىء ولا يقبل أى عذر منهما مهما كان ، ولهذا فانه يؤكد تأكيدا لا مزيد عليه بشدة صراحة تحصيل مراده لانه يعلم أن الوسيلة الوحيدة لتحصيل حاجته هو الحث المتواصل والتأكيد عليهما بذلك ، ويرى أنهما إن لم يقضيا حاجته فهما لم يجتهدا فى العمل ، وقد عرف أنهما يستاآن من بكائه لمحبتهما اياه فيعطيانه حاجته ، فالملحد والطفل قرينان فى كل شىء ان لم يكن الطفل أحسن حالا ، فان الطفل لا يرى العبادات ولا يفهمها ويفهم سرها فى التقدم والتأخر لان عقله ناقص وكذلك الملحد ، والطفل لا يهمه الا ما يوافق شهوته وطبعه وكذلك الملحد ، والطفل يرى المخلوق يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء وكذلك الملحد ، والطفل يرى كشف السوءة والاباحية المطلقة وكذلك الملحد ، والطفل لا يفرق بين الرجل والمرأة فى شىء من الحقوق إلا فى الصورة الظاهرة الجسمية كالثديين والشعور ونحوها وكذلك الملحد ، والطفل لا تهمه الخطب ولا الاجتماع لها ولا يراها شيئا مفيدا فلا يعرف منافعها بل يقف متعجبا ضاحكا اذا رأى خطيبا ومصلين وكذلك الملحد ، والطفل اذا نابه شىء التفت الى الأسباب المادية واعتمد عليها ورأى فيها الكفاية ولهذا يبذل غاية جهده فى تصريفها فى غرضه وكذلك الملحد ، والطفل يرى أن لا شىء موجود وراء المادة المحسوسة يلجأ اليه فى كشف الكروب ويدعى ويستعان به وأن الأمور كلها بيديه وكذلك الملحد ، والطفل يرى الأشياء الحادثة الغريبة الجديدة فتذهب بعقله وتطير بلبه فيتبعها

ويعشقها ويتعلق عليهـا ويترك ما رآه من كل ما هو قبلهـا ولو كان أنفع له وكذلك الملحد ، والطفل يكره القدامى فلا ينظر الى الشيوخ والكهول فلا يراهم شيئا كبيرا ويخاف من جنسه ومن مثله ويجعلهم أعظم همه فيكره الكهول من أجل أنهم قدامى ويتعلق على الصغار لأنهم من جنسه وكذلك الملحـد ، والطفل يروج عليه الخداع والنفاق والمراوغة ولا يعرف الحقـائق ومقاصد الكلام وكذلك الملحد ، وبالجملة فأصدق صورة ترسم للملحد هو الطفل أو الحيوان ، أما المتدين فهو بعكس ذلك كله ، ولهذا لا تجـد المتدين يشبه شيئا من الحيوان والاطفال فى خصائصهم حتى فى الأكل والشرب وغـــير ذلك كالتخلى والنكاح ، فان معه فارقا فى هذا كالصوم والوضوء والتزويج ، أما الطفل والملحد وسائر الحيوانات فليسوا كذلك ، فالدين هو الحد الفاصل بين الطفل والحيوان ، والعقل ان لم يصحبه الدين فسد فلا يعتد به كما نص عليه القرآن ، وبعدم وجود الدين مع الانسان ينحط الى طور الطفولية ويرجع الى الوراء حتى يكون كالحيوان ، وعـــلومه الدنيوية ان كان الغرض منها الوصول الى الراحة والهدوء ورغد العيش فهذا قد يتحصل عليه الطفل المدلل المكفول فى الجمـلة كما يتحصل على ذلك الملحد فى الجمـلة [1] وأما السيطرة ان وجدت فقد شاركه فيها كثير من الحيوانات العادية المسيطرة على الحيوانات التى دونها ، ثم ان أكـثر هذه الأمور ليست لذّات لذاتها بل هى دفع آلام الحاجة والهموم والغموم ، وقل ملحد أن يسلم من ذلك ، بل كل وقته منغص مهدد معذب ، وهذا بخلاف علوم الدين وما يتبعها من علوم الدنيا من صناعات أو غـيرها المؤسسة على الدين فإنها دفع آلام ولذات محققة لأنها تتصل بالروح والنفس ، وهى علوم سماوية مقدسة تزكى الروح وتقويها وتقدسها وهى تبقى مستمرة لا يشوبها شىء من الخوف والوجل المفسد لجميع اللذات

---

(١) أى لافى الافراد فى كل من الطفل والملحد

وبهذا يتبين لك أن الملاحدة هم الذين يرجعون الى الوراء دائماً فى أخلاقهم السيئة ، وان المتدينين هم المحلقون فى سماء التألق كل بقدر ما معه من الدين ، فهم المتقدمون الى الأمام فى أخلاقهم وآرائهم وعلومهم وفى كل شىء وأن تقدم الملاحدة عليهم أحيانا كارتفاع الزبد وأمثال الزبد على الماء ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض﴾ . وكل ذى عقل يعلم أن هؤلاء الرجعيين الملاحدة الذين يدعون أنهم هم المجددون أبعد الناس عن التجديد الصحيح ، بل هم المجددون لأخلاق الحيوان والفساد والسقوط ، وأنت اذا تأملت كل خصلة خبيثة فى الاولين الذين قص الله علينا أقوالهم وأعمالهم ممن ذمهم الله عليها وجدتها كلها بأسرها فى الملاحدة الرجعيين ، وهذا صحيح لا غبار عليه ، فان الموبقات التى من أخلاق الأولين لا أكثر منها فى الملاحدة ، والاولون قالوا فى الكتب السماوية « هى أساطير الاولين » وهكذا قال هؤلاء الملاحدة ، والأولون قالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وكذلك الملاحدة ، والا ولون قالوا لرسلهم اننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب وكذلك قال الملاحدة ، والأولون اعتمدوا على الأسباب وادعوا أن فيها قدرة ذاتية وان فيهم كفاءة على قتال أعدائهم ولو كانوا مؤمنين فقاتلوهم وحاربوهم اعتمادا على أسبابهم وعلى أنفسهم وكذلك الملاحدة ، والاولون أعظم حجة عندهم على رد الحق ورد تعاليم الدين هو شىء واحد هى الحجة بان الكفار أكثر من المؤمنين وأغنى منهم وأوسع منهم ثراء فى التجارة والصناعة وغيرها ، وهذه هى أكبر حجة للملاحدة اليوم ، ولهذا قال الله تعالى عن الاولين ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾ فأخبر الله أنهم يعرضون عن الآيات التى فيها بيان الحقائق ويذهبون الى شىء آخر وهى الأوهام التى هى الاحتجاج بالتقدم والتأخر بأشياء مادية ، مع أن هذه الامور ليست بحجة لأنها شىء مقصود لغيره ، والناس فيها فى الجملة سواء

وكثيرا ما يكون الانسان فقيرا بعد أن كان غنيا وبالعكس ، وكذلك يكون صعلوكا بعد أن كان كبيرا ، ولو كانت حقائق ثابتة لم تتغير ، وانما ذلك فى آيات الله التى جعلها أسبابا للخير والنجاح التام فان أسباب الخير المطبوعة أسبابا له لابد أن تكون أسبابا للخير لأنها سنة الله وتلك هى الأخلاق الدينية كالدعاء فان هذه اسباب - من اول الدنيا الى آخرها - لكل فلاح ونجاح فلا توجد امة حافظت عليها الا كانت محتفظة بسيادتها ، فاذا أفسدتها وغيرتها فسدت سيادتها وتغيرت ، وأما الأسباب المادية فهى اذا لم تصحبها الاسباب الدينية عادت نكبة وبلاء إما عاجلا وإما آجلا ولا بد ، ولهذا لا توجد أمة ملحدة عاشت على الالحاد ما يقارب ستين سنة مقدار عمر الانسان المتوسط ولم تحل بها نكبات وكوارث ، وهذا ظاهر ، وبالجملة فجميع هذا الفساد الموجود فى ملاحدة هذا العصر هو خليط من فساد الأولين بعينه فجميع فساد الأولين المتنوع المختلف كله الآن مجتمع فى الملاحدة الموجودين الآن وهذا ظاهر لا يغالط فيه الامكابر

والمقصود أن جميع الصفات التى أسهب فى تطويلها وترديدها فى الأطفال والجهلاء محاولا الصاقها بالمتدينين ولا سيما السلف الصالح قد اتصف بها هو وسادته ومن على شاكلته من أصناف الملاحدة وأنه كما قيل فى المثل المتقدم « رمتنى بدائها وانسلت » ثم العجب من استدلاله بقوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ ثم حملها على القرون المفضلة الموجودة وقت نزول القرآن ، وهذا الملحد انما حمله على هذه القحة أنه رأى كثيرا من الناس حتى العامة يحتجون بهذه الآية على الملاحدة فى معرفتهم هذه الامور فأراد بعقله المعكوس أن يعاكسهم فى مدلولها فجعل هذا الملحد خير القرون وأرفعهم وأشجعهم وأنفعهم أعمالا ماكانوا يعرفون الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، أما حقائق هذه الظواهر فلا يعرفها الا سادته أما سادات المسلمين فلا يعرفون من هذه الحقائق شيئا ، ومن عمق خبثه وإلحاده أنه فصل ما أمر الله به أن يوصل

كعادته ، ولم يأت بالآية كما أمر الله لأنه خشى أن يفتضح لأنها فى الملاحدة الذين هم عن الآخرة هم غافلون فان الله تعالى يقول ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ فالآية صريحة بأن المراد بها الكفار لأنهم هم الغافلون عن الآخرة ، فانظر الى صنيع هذا الملحد كيف قلب هذه الآية الكريمة ، وكتابه كله على هذا الوضع ، فانه مقلوب الحقائق لانه صادر عن قلب منقلب ، والا فأدنى عاقل يعرف أن الآية دالة على الملاحدة فانهم لا أغفل منهم عن الآخرة ، وصاحب هذه الأغلال كل موضوع دعايته فى ما ينسى ويغفل عن الآخرة ويصدّ عن العمل لها ، بل جعل الايمان بها من العوامل التى تعوق عن التقدم . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أن هذا الذى علموه كله ظاهر من الحياة الدنيا ، فانه كله أشياء تدرك بالحواس الظاهرة اما بواسطة أو بغير واسطة فهو ظاهر بكل حال ، فالشىء الذى يدرك وتعرف حقيقته بالحواس ظاهر ليس بباطن ولا خفى ، فالظهور والبطون أمر نسبى إضافى ، فقد يكون الشىء ظاهرا عند قوم وباطنا عنه آخرين ، وذلك بحسب العلوم والادراكات والعلامات والأمارات ونحوها ، وهذه الأمور التى عرفوها كلها مدركة إدراكا ظاهريا حتى انهم لا يؤمنون الا بالظواهر ، وأمورهم كلها مبنية على الظواهر ، ولهذا كان أكثرهم يكفر بالملئكة والأرواح وكل مالم يكن ظاهرا لهم ، فهم يؤمنون بالظواهر من المادة كلها ويكفرون بما وراءها ، ومعلوم أن المادة كلها بانواعها أشياء ظاهرة محققة بالحواس ، فالآية حجة صريحة عليه وعلى سادته الذين اتخذهم أولياء من دون المؤمنين ، عامله الله بعدله

فكان كعنز السوء قامت بظلفها الى مدية تحت التراب تثيرها

أما ما ذكره فى مسئلة الأمراض والميكروسكوبات فقد تقدم الجواب عنه وبينا أن هذه الأشياء قد صارت ظاهرة تدرك بالحواس ، وانما كانت مختفية بعوارض وقد زالت ، أما الأمور التى ليست بظواهر كالارواح فانها لما كانت

من الأمور الغيبية وهى موجودة قريبة عجزوا عن معرفتها وأمثالها ، وأما الاجسام فانها ظواهر سواء كانت صغارا أو كبارا ، على أن فى مسئلة هذه الجراثيم التى كشفت بالميكرسكوبات تفصيلا لسنا بصدد شرحه ، وغاية مافى ذلك أن الأولين جهلوا شيئا موجودا خفيا وهذا ليس مما يقدح فى علومهم فقد علموا ما هو أنفع منه وهؤلاء قد جهلوا أشياء كثيرة نافعة لهم ، وقد خفى عليهم الآن أكثر مما علموا فجهلوا أشياء موجودة سيظهر وجودها بعد ، فاننا نرى كل سنة بل كل شهر يكشف عن أشياء لم تكن معلومة من قبل ، وهذه الأشياء التى وجدت شيئا بعد شيء كلها قد خفيت على كل من لا يعلمها ويراها ، فليس الجهل ببعض الأشياء الخفية من خصائص الانسان الموجود وقت نزول القرآن حتى يعاب بذلك ، هذا لا يقوله من يدرى ما يقول ، ثم ان جهل هذه الأمور وعدم المعرفة بها أحسن من المعرفة بأسباب الهلاك والدمار العام كالطاقة الذرية وما يقاربها ، فان المضرة التى تحصل من هذه على الانسانية أعظم من مضرة ذلك المرض ، وأيضا هؤلاء الذين جهلوا هذه الأمور قد عرفوا ما هو خير منها حالا ومآلا ، فانهم عرفوا أصول الدين وحقائقه النافعة فتسلحوا بهذا العلم ففتحوا به الفتوحات وسادوا به على غيرهم ونشروا العدل وأخرجوا الناس من الظلمات الى النور حتى ظهر نور الحق لكل صغير وكبير وفى كل مكان قريب وبعيد ، بخلاف هذه الأشياء فان أهلها جهلوا ما هو أهم منها من الأمور الدينية فحلت بهم المثلات وحاقت بهم النكبات وصاروا من محنة الى محنة ، وقد عملوا أيضا ما يقابلها من أسباب للأسقام والأمراض والغازات السامة والقنابل الذرية والأسلحة المدمرة ، فما عملوا مع الانسانية من أسباب الخير والراحة والهدوء إلا مثل ما هيأوه لها من الشر وأنواع البلاء والمحن ، ولقد كان معلوما أن كثيرا من هذه الدول قد عرفت هذه الأمور معرفة فائقه لا يمكن المماراة فيها ، فماذا عملت فى نفعهم حين جاءهم أسباب أخرى غيرها ، فقد ماتوا فى الطرق بأنواع الأمراض والأسقام

والجوع والعرى وغير ذلك ، فضلا عما أصابهم من صدمات الحرب ولهيب نارها ، ولو أنهم عرفوا أمور الدين الصحيح كمعرفتهم لهذه الامور لكان ضميناً لهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه بلا ريب ، فعاقبة الأخلاق الدينية لابد أن تكون حميدة ، ولهذا فانه لا تعرف أبدا أمة حافظت على دينها محافظة تامة ولم تغيره فنالها ضعف أو نكبة فظيعة ، والشأن كل الشأن فى العلوم التى تكون نتائجها طيبة صحيحة نافعة وعاقبتها حميدة ، أما العلوم التى نتائجها الوبال والعذاب والدمار الفظيع فلا خير فيها ، وإن نفعت حينا من الدهر فهو نفع تافه حقير بالنسبة الى ما بعده ، قال تعالى ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ . أما ما ادعاه من كون الاولين يرون الشمس والقمر وغيرهما من النجوم كما يرى الأطفال هذه الأشياء فهذا من كذب الجهال الذين لا يحسنون أن يكذبوا ولا يستحيون من ارتكاب المكابرات المخالفة للعيان والحس ، ويكفيك دليلا على كذبه أنه قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن خسوف الشمس وكسوف القمر قد عرف أسبابه الاولون وقد عرفوا نقص نور القمر بل قد عرفوا أوقات الكسوف والخسوف معرفة دقيقة بالتقريب حتى نسب هذا الى ارسطو وأتباعه ، وهم قبل نزول القرآن بل قبل المسيح بمئات السنين(١) فكيف يقال انهم ينظرون الى القمر كما ينظر الأطفال ، والمسلمون فى صدر الاسلام لم يكونوا يصرفون هممهم الى هذه الامور القليلة الفوائد ، بل جل هممهم فى نشر الاسلام وبث روحه فى العالم وتثبيت قواعد الدين ، وهذه هى الامور الكبيرة التى يجب الاهتمام لها وصرف الهمم اليها

أما ماذكره من الطباع والأخلاق الوحشية ونسبة ذلك الى الأولين فيقال

---

(١) كما ذكره الغزالى فى تهافت الفلاسفة

له كما قيل فى المثل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

أين أفعال هؤلاء فى التدمير والخراب والظلم والعسف وإهانة الفضائل من أفعال المتقدمين التى لا تأتى معشار معشارها ، فقتال يوم واحد فى الآخرين يوازى قتال أيام أو اشهر فى الأولين فى القتل والخراب والفظائع التى لا تعد ولا تحصى ، وقد قيل حبك الشيء يعمى ويصم ، ثم ان جميع ما وجد فى الزمن السابق كالقرون الأولى والقرون الوسطى وغيرها من الأخـــلاق الوحشية واثارة الحروب اذا بحث عن سببه ونقب عنـه وحقق وجـد أنه من مصدر إلحـادى دخل معه النفاق ، فالملاحدة والمنافقون هم مصادر البـلاء والشقاء والعناء كما تقدم

فصل

قال « انهم[1] رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الاطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الاخلاق وأظـــلم الطباع ، وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن اثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئا حسنا من أجل أنه حسن أو إن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن ، ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات أو الميل لفعل الحسنات والخـير لم يولد مع الاطفال وانمـا لقنوه تلقينا وارتاضوا عليه بحـكم التقليد والـتربية والمشاهدة والتعليـم بعد الولادة ، وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عنـدهم ، ولـكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال بطبيعتهم مجبولون على الخير ، وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يتفطنوا لواحدة منها ، من هذه الدلالات أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الانسان الأول كان كذلك فى كل عهوده وأن

---

(١) يعنى الانسان الأول الموجود وقت نزول القرآن

الاطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم عن أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار ، أما الخير والاحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التى يتصف بها الانسان والتى يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهى مكتسبة اكتسابا من الأديان ومن التربية التى كونها الانسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والانانية أيضا ، فان الخير تدفع اليه الأنانية أيضا كما سيجىء فى فصل مقبل » انتهى

والجواب أن يقال : أما كون الانسان الأول الموجود وقت نزول القرآن يرى كما يرى هذا المتخصص أن الاطفال يولدون وهم يحملون شر الاخلاق وأظلم الطباع ومع ذلك يرون أنهم ملائكة وانهم مجبولون مجبورون على الخير فهذا كله من الاكاذيب الباردة التى يستحى كثير من الكفار أن يتفوه بها لانها فجور مكشوف لا شك فيه ، فمن هو الذى قاله وادعاه قبل هذا الملحد ، وأين الدليل عليه والواقع يكذبه كما أن الشرع أيضا يكذبه ، وفى الحديث كل مولود يولد على الفطرة والفطرة هى قبول الخير كما يأتى ، ولكن هذا شأنه يكتب ما خطر على باله ولو خالف كل شىء من العقل والحس والضرورة

أما دعواه أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وان الانسان الأول كان كذلك فى كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من اولئك الآباء الأولين وأن الواقع أنهم شياطين أشرار فهذه الدعاوى مع كونها من الخبائث والمخازى والمهازل التى لا يتفوه بها إلا من بلغ فى القحة والفجور الغاية التى لا بعدها غاية فهى تنقض جميع ما أصله فى هذا المبحث وغيره ، فان دعواه قائمة – على ما يزعم – فى تعظيم الانسان والحط على من لم يعظمه ولا يؤمن به ، بل ادعى ان الايمان به أول ، وأنت ترى أنه سبه ورماه بأشنع المقادح وأفظعها ، فان هذه الاوصاف هى أصول الشر كله والرذيلة كلها ، ولو أن إنسانا قيل له صف الانسان بأقبح الاوصاف كلها لم يزد على هذا ، فينبغى أن يعطى هذه الاوصاف التى اعترف بها فى الانسان فيما يختص بنفسه حيث اختارها ، وأما غيره فهو مدعى عليه فلا يقبل قوله فيحكم عليه هو بذلك ،

وجميع ما يدعيه من الاوصاف التى تغاير هذه يطالب باثباتها فى نفسه ، وهذا الملحد يتلاعب كيف شاء بدون خجل أو حياء ، فهو أولا يقرر أن الانسان كنز من المواهب والاستعدادات الطيبة التى تدفع الى الكمال والسعادة ثم يجيء مرة أخرى فيقرر أنه ولد بطبيعته شريراً خبيثا شيطانا ظالما جاهلا ثم يقول يجب الايمان به ، ومعلوم عند كل من له عقل صحيح ان الذى طبع على الشر والخبث والظلم والجهل فانه يجب الكفر به ، لان هذه صفة الشيطان الذى امرنا أن نكفر به ، ومعلوم ايضا أنه لا يمكن أن يكون مستعدا للكمال بل يكون مستعدا للنقص ، لأن هذه الأمور نقائص لا كماليات ، وقد قدمنا أن هذا الرجل لا يرى فى تناقضه من بأس لأنه لشدة إعجابه بنفسه ورأيه فيها بأنه المفرد العلم الذى لا يعادله أحد فى امكانه أن يتخلص من التناقض ويرى أن الناس لا يفهمون التناقض ، وسبب هذا أنه رأى أناسا ممن ضرب الله قلوبهم بالموت والغباء والعماية الاصلية كانوا يجتمعون به فاذا عارضوه بشيء أخذ فى اللجاجة والمكر والخداع فيوافقونه على ذلك ، فمن أجل هذا ظن أن الناس كلهم مثل هؤلاء أودونهم ففرض عليهم أن يكون هو المقدم فى الامر ، فلا اعتراض على تناقضه فان له تأويلا قد لا يعلمه الا هو أو من رسخ فى علمه من فروخ الملاحدة وأشباههم فلا يسأل عما يكتب وهم يسألون

لقد كان من المعلوم أن الاستعدادات والمواهب هى التهيؤ لابراز العناصر الكامنة فى الشيء إما بورود شيء خارج عليها كمادة الحمل فى الرحم ، واما قبوله فيكون باعثا قويا على نشاطها فى الظهور والبروز كالفطرة الطيبة مع الاخلاق الدينية الصحيحة النقية ، واما بقوة مودعة فيها تظهر شيئا بعد شيء ، فان كل حيوان ونبات فيه استعداد لابراز مافى عنصره فان كان خبيثا فخبيث وان طيبا فطيب وان خيرا فخير وان شرا فشر ، فلو كان الانسان بهذه الطبائع التى ذكرها لكان يتقهقر الى الوراء ويتردَّى فى الهاوية السحيقة ، فان هذه الطباع هى أحط طباع فى الوجود ، لأنه حينئذ يتزايد فيه طبع الشر

والخبث شيئا فشيئا حتى يتطور ويدفع ما يرد عليه من الخير بالقوة الطبيعية فان الشر ضد الخير والخبث ضد الطيب والظلم ضد العدل ، فكيف تكون هذه الطباع قابلة لضدها . ثم قوله هذا يناقض أصوله الفاسدة التى هجم بها على الخطب فى المساجد وعلى أصول الدين من أن ذلك ملهاة ومصرف خبيث وأنه تخدير ، فانه هنا أقر بأن الانسان شيطان خبيث ظالم وان هذه الاخلاق الحسنة مكتسبة من الأديان فكان على مقتضى ما صرح به لو تركوا بدون تعاليم من دين لظلوا على طباعهم الخبيثة الظالمة ، ومعلوم أن الملاحدة لا يعرفون تعاليم الدين ولا يتعلمونها ، فتكون هذه الاوصاف ملازمة لهم منذ وجدوا ، وعلى هذا فلا بد من تعليم أصول الدين ولا بد من تكرر الخطب والمواعظ لتعقل هذه الطبائع العدوانية لئلا تنطلق فى ميادينها ، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور مصاب بداء التناقض والاضطراب والقلق الفكرى الذى لا مزيد عليه لأنه مسرف مرتاب ، وقد سبق قوله ونجد الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المنحرفون من الاديان المتحللون منها ، وهنا يدعى أن ما معه من الفضائل والاخلاق الحسنة مكتسب من الديانات الى آخره فسبحان من طبع على قلبه . ثم دعواه أنه مكتسب أيضا من التربية التى كونها لنفسه ومن الانانية ممنوع ولا يستقيم على هذه المقدمة ، فان المطبوع على الشر والخبث والظلم يمتنع أن يكوّن لنفسه تربية حسنة فان التربية الحسنة انما تنتج عن محل فيه قبول لها وعناصر قابلة لها من الخير ، وهى هنا مفقودة أو موجود ضدها ، ولماذا كانت الحيوانات الخبيثة خبيثة دائما فان غاية ما توصف به فى أخلاقها بهذه الاوصاف التى سجلها هذا المغرور على بنى آدم الذين أكرمهم الله فى قوله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ فبأى شىء كرمهم اذا كانوا مطبوعين على هذه الأوصاف والمتدينون منهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا والمتحللون من الاديان هم الذين صنعوا الحياة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، أما التعاليم الدينية فانها تنطبع فى الانسان لما كان فيه قبول لها بفطرته

الخيرية التى هى موضع قبول دواعى الخير والاحسان ويمتنع أن يكون موضع دواعى الخير والاحسان خبيثا شريرا شيطانا وهذا ظاهر ، وقد قلنا فيما سبق أن الانسان خلق حنيفيا فيه سرّ فطرى لقبول الدين الذى هو مادة الخيرات بأسرها ، ولسنا نقول انه مطبوع على الخير والعدل والظلم بل نقول فيه فطرة مودعة لقبول الخير وان كان بجانبها نقائص كثيرة ، فان البشر لابد من طبيعة النقص فيه لكن الله تفضل عليه بفطرة يمكنه بها أن يستمد حياته وسعادته من روح ونور الأديان السماوية التى هى الحياة الصحيحة ، والفطرة ليست هى نفس الخير بل هى تهيؤ وطبيعة قابلة لمادة الخير ، وهى محل لقبول ما يرد عليها من دواعى الخير ، لكن يجب أن يعلم أن الناس مختلفون فيها اختلافا كثيرا ، فمنهم من تكون فطرته ضعيفة جدا وتكون طباع النقص المجاورة لها قوية جدا كالكبر والعجب والظلم ونحو ذلك من الاخلاق الأخرى ، ويكون الداعى الذى يرد عليها ضعيفا ركيكا والداعى الذى يرد على تلك الخصال الاخرى قويا بسبب البيئة التى يعيش فيها الانسان ، فمثل هذه سرعان ما تفسد نهائيا كما يفسد اللبن الذى يتلوث بالنجاسات الغليظة فانها تطغى عليه حتى ينعدم الانتفاع به ، أو كما تفسد الحبة القابلة للنبات بورود قوة المعارض ولا سيما اذا كانت حياتها ضعيفة . ومنهم من تكون فطرته بالعكس فتكون قوية نشيطة سريعة القبول ، والداعى قوى ملائم لها ، ومضاداتها ضعيفة كما أن دواعى مضاداتها كذلك ضعيفة فتقوى هذه الطبيعة الخيرية وتكبر حتى تتلاشى فيها الطباع الأخرى . والناس مراتب على هذا التفصيل كل بحسب قوة فطرته وضعفها ، على أنه يجب أن يعرف أن للبيئات فى ذلك اثرا عظيما . ثم انه يجب أن يعلم أن علماء النفس من الأولين والآخرين مختلفون فى طبيعة الانسان اختلافا كثيراً فمنهم من يقول انه طبع على الشر والظلم ومنهم من يقول طبع على حب الخير والعدل كما أشار الى هذا صاحب كتاب (الوجود) السيد محمود

الفيضى وغيره ، والصحيح هو ما ذكرنا [١] ولكن يعرف أن الذين قالوا انه طبع على الشر والظلم لم يدّعوا فى الانسان مثل ما يدعى هذا المغرور فان أكثر الكفار ينزه نفسه ويستحى أن يتفوه بمثل ما تفوّه به هذا الذى جعلنا مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ولم يكتف بذلك حتى جعلنا شياطين ، فأى فرق بين الانسان والشيطان اذن إلا بالدين وهو قد ذم الآخذ به وادعى أن الذين تركوه هم الذين صنعوا للحياة فتكون الشياطين هى التى صنعت للحياة والمقصود ان هذا الذى ذكره لا حجة له فيه وانما هو حجة عليه سواء أكان الانسان مطبوعا على ما ذكر من الشر والخبث والظلم أو على الفطرة المستقيمة على ما مرّ تقريره

ثم قال : « وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت الى الوراء بقصد الاقتداء والاحتذاء ، وانما يجب الهروب دائما من الماضى والتطلع الى المستقبل الباسم »

فيقال : هذا لا يصلح أن يكون تفريعا على ما تقدم ، انما يصلح أن يقال فمن الجهل الفاضح التلفت الى ما يخالف الأديان لأن من خالفها ينشأ على الشر والخبث والظلم والعدوان المطلق لانك قررت أن ما مع الانسان من الاحسان انما هو مكتسب من الديانات ، ولو ترك على حاله لظل مصحوبا بهذه الطباع طول حياته ، فيجب أن تفرّع على هذا وجوب الحث على ما يضاد هذه الاخلاق ويطهرها ويذيبها ويذهبها وهى تعاليم الدين التى هى مصادر الحياة والخير والاحسان . ولا معنى لدعواك هنا فى منع التلفت الى الوراء والتطلع للمستقبل مادمت تعتقد أن الانسان مطبوع على هذه الخصال الخبيثة فانه اذا كان مطبوعا عليها فهى ملازمة له فى الماضى والمستقبل والصغر والكبر ما لم

---

(١) ويدل على ما ذكرناه اختلاف الاطفال المميزين فى الميول الى الخير والعدل والميول الى الشر والظلم والخبث ، والطفل من حين يميز تظهر عليه سجاياه وأخلاقه التى تصاحبه فى حياته غالبا

يعترضها دين فيعدلها بقدر قوته ، ولا شك أن آثار الديانات فى الماضى أجد وأكثر وأطهر ، وكلما بعد العهد من الديانات كثرت آثار هـذه الخصال لضعف مقاومتها ، فاذن يجب على هذا تتبع أثر الديانات الصحيحة وتحصيلها سواء كان من الماضى أو الحاضر أو المستقبل بلا فرق . والذى أوقعه فى هوة هذا التناقض والاضطراب والقلق الفاحش فى هذه الجمل التى نقلناها عنه فى طباع الانسان أنه لما وجد تقرير هـذا المتخصص من علماء النفس سحر به وكبر عليه مخالفته واستعظم ذلك استعظاما غلب على شعوره وعقله فلم يعبأ بالتناقض ، فألقى ما معه من القول الأول فى استعدادات الانسان ومواهبه الطيبة الى الكمال والرشد وغمض عينيه وتعلق بركاب هذا المتخصص مقلدا له أينما توجه وكيفما قال ، ولو أن هذا القول قاله فقيه من فقهاء الأمـة قد بلغ فى العلم والمعرفة ما بلغ لنبذه واستهزأ به وضحك منه ورماه بكل ما خطر على باله ، وهـذا هو الذى يليق بمن انسلخ من آيات الله واتبع هواه ، نسأل الله التوفيق بمنه وكرمه

فصل

قال : « ومن هذه الدلالات الايمان بأن الانسان يتقدم ولا يتأخر ، وأنه خلق متطورا من شر الى خير ومن نقص الى كمال »

فيقال : كل هذا كذب وكلام لا وجه له فيقابل بالمنع والرد ، لانه هذيان لا قيمة له كما لا يخفى . ثم قال : « ومن هذه الدلالات أيضا العلم بان ترك الاطفال لطبائعهم بدون تعلم ولا تربية انما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة فى كل ألوان العدوان وانهم يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات »

قلت : كل هذا على فرض تسليمه انما يدل على وجوب المحافظه على

الاخلاق الدينية لأنها هى التى تزيل هذه الأخلاق وتطهرها ، فهى الطريق الى الرشد والتخلص من هذه الطباع الخبيثة ، وتعاليم الدين تعاليم مقدسة طاهرة عالية زكية فهى الدواء الوحيد لها . وقوله « ان ترك الاطفال لطباعهم بدون تعليم ولا تربية » الخ ، يقال : وكذلك ترك غير الاطفال ممن نشأوا على هذه الطباع الخبيثة بلا تعليم دين وخطب تتكرر عليهم تعدل هذه الطبائع وتذهبها إنما هو بمنزلة تركهم للاباحية والفوضى والطبائع العدوانية ، لانك قررت أن ما معهم من الخير فهو مكتسب من الديانات ، فيجب عليك اذن الحث على معرفة هذا المعارض القوى والعمل به لمحو هذه الطباع وآثارها القاتلة

فصل

ولما كان قول المتخصص فى علم النفس له وقع عظيم فى نفسه وأنه شىء كبير عنده ولا يمكن أن يستهان به مهما كان الأمر - وهذا على تقدير ثبوت ما ذكر عنه ، وإلا فعلماء النفس لم يتفقوا على هذا الذى ادعاه - لهذا أخذ يعزز رأى هذا المتخصص حين وافقه بالاستدلال بالآيات على تصديق ما ادعاه ، وقد علمت مما مر أنه يوجب على الناس أن يكون معنى ما يستدل به من النصوص على طبق هواه بكل حال ولو خالف جميع المفسرين بل ولو خالف اللغة وقواعد الشرع ، ولهذا استدل بالنصوص على رأيه الأول ، ثم استدل بها على رأيه الآخر مع وضوح تناقضه فى الرأيين ، ومع هذا فانه لا يكتفى بدعوى أن الآية تدل على هذا وتشير اليه بل يدعى فى كل نص يستدل به أنه صريح فى ما يدعيه وان كان النص فى نفس الامر صريحا فى الدلالة على ضده فقال مستدلا على ما ادعاه فى طباع الانسان وهذا لفظه : « ويجب التنبيه هنا على أن الاسلام قد نبه على هذه القضايا كلها تنبيها صريحا ، فمن نصوصه الصريحة قوله تعالى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ﴾ أى لاتعلمون شيئا من هذه الاصول المعلومة فى الاخلاق وفى التربية وفى الأديان

وفى التعاليم المختلفة ، وهذه الأمور انما تعلم بالتعليم ، فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون شيئا وبقوا أشرارا ظالمين لانهم لا يعلمون الاصول المنافية للشر والظلم الناهية عنهما ، فالاطفال ذكورا أو اناثا يكبرون وتكبر معهم هذه الطبائع العدوانية ان لم يعلموا »

والجواب أن يقال : ليس فى الآية الكريمة ما يدل على ما ادعاه ولا ما يشير اليه ، ودعواه أنها نص صريح بهت ومكابرة ، فان الله لم يقل والله أخرجكم من بطون أمهاتكم اشراراً خبثاء ظلمة شياطين حتى يكون هذا نصا فيما ادعاه ، وانما قال « لا تعلمون شيئا » وليس كل من لم يعلم شيئا يكون شريرا خبيثا ظالما كالأصم الأعمى الأخرس ، فان مثل هذا الكلام لا يقدم عليه الا مجازف لا يفكر فيما يقول ويدعى ، بل الذى ثبت أنهم خلقوا حنفاء على الفطرة فطرة الدين ، وقد دلت الآيات على عكس ما يدعيه ، وذلك أنه تعالى غرس فيهم استعدادا كاملا لقبول التوحيد كما قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ وقد ذكر المفسرون أن الله سبحانه استخرج من ظهر آدم ذريته وأنه أشهدهم على أنفسهم بالتوحيد فشهدوا به ، وهذا هو فى معنى الفطرة ولم يرد قط أنه تعالى غرس فيهم أو فى طبعهم الشر والخبث والظلم فى شىء من الآثار مطلقا ، وقد ادعى هذا الملحد فيما سبق أن الله ذرأ فى خليقته بذور الكمال ، فكيف يذرأ فى خليقته بذور الكمال والرشد وهو خلقهم مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ومعلوم أن هذه الصفات نقائص لاخير فيها كما اعترف هو بذلك ، فكيف يكون من طبع على صفات النقائص مستعدا للكمال والرشد العقلى ويكون فيه بذور لذلك ، ثم كيف تتفق دعواه أن الاخلاق الخيرية مكتسبة من الديانات والتربية مع قوله فيما مضى اننا لا نحتاج الى مهماز ندفع به الانسان الى العمل ، بل هذا المهماز موجود فيه وفى طبعه ، فسبحان من أخزاه وجعل كلامه ينهار وينقض بعضه بعضا ، وهذه سنة الله فى كل مرتاب

ثم قال « ومن هذه النصوص قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ وقوله ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ وقوله ﴿ ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة »

فيقال : كل هذه الآيات ليس فيها دليل واحد يشير الى ما يدعيه ، وهو لم يبين وجه الدلالة كما فى التى قبلها حتى نجيب عنه ، وليس فى ظاهر هذه الآيات ما يفهم منه أن الانسان خلق مطبوعا على الشر والخبث والظلم حتى يستدل بها ، بل هى كلها حجة عليه ، أما قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ فليس فيها ذكر للاطفال وليست عامة جنس الانسان ، فان الله أخبر أنه عرض الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الانسان لجهله وقصور نظره أو لاجتهاده المخطىء ، وهو ظلوم فى تحمل هذه الأمانة لانه أضعف من السموات والارض ، وجهول بالعواقب ولهذا جرت عليه هذه الأمانة ما جرت ، ولكن الله سبحانه لم يسكت بعدها بل بين أن هذا الانسان الذى تحمل الأمانة منقسم الى ثلاثة أقسام [1] قسم نبذها وضيعها وخالفها ظاهراً وباطنا ، وقسم نبذها باطنا وادعى ظاهرا أنه متحملها ، وقسم اجتهد وأدى مافى استطاعته من حملها فحملها ، فالقسمان الاولان معذبان والثالث تصيبه الرحمة والمغفرة وهم الذين استثنى الله من جنس الانسان الظلوم الجهول لانهم آمنوا وعملوا الصالحات حيث قال بعد قوله ظلوما جهولا ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ . فهذه الآية كما فى سورة التين وسورة العصر ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ فالمراد بذلك الكافر ، فان الله وصفه بأنه لم يقض ما أمره

---

(١) كما فى أول سورة البقرة

الله به كما دل عليه سياق الآية بعدها فهى كقوله ﴿ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ﴾ فالآية حجة عليه لان عنده أن من قضى ما أمره الله به من الأعمال الصالحة وصدق بالبعث فانه لا يتقدم فى الحياة ، وكذلك قوله تعالى ﴿ كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ فهى حجة ظاهرة عليه ، لأنه أفرد فصلا كاملا طويلا فى الحث على الغنى ولم يعبأ بالطغيان ، والله لم يذم هنا إلا الانسان الطاغى ، لامن آمن وعمل صالحا ثم اهتدى فان الله قد مدحه ، فأى حجة له فى الآية حتى يحتج بها . وأما قوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ فلا ندرى من أين استنبط بفكره الدلالة منها على أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم شيطان ، فالآية بمعزل عن هذا فلا حجة فيما ذكره اصلا ، ودعواه أن هناك آيات كثيرة معلومة تدل على ما ادعاه كذب ، فليس هناك آيات لا معلومة ولا مجهولة ولا قليلة ولا كثيرة بل الآيات الكثيرة دلت على ضده كما سبق

فصل

قال « وفى الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم فى كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لانه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة . والمعنى الذى يجب ان يفهم هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى ، والفطرة الاولى معروفة وهو الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الانسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى ، فهم لا يعلمون شيئا من هذه التعاليم بسجاياهم وطباعهم لأنها طباع اكتساب وتلقين وانما يعلمونها اذا لقنوها وعلموها ، وكل طفل وما يلقن ويعلم ، أى انه يتجه على حسب التوجيه الذى يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه ، فان كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانيا جاء نصرانيا وان كان يهوديا جاء يهوديا وان كان مجوسيا فكذلك وان كان مسلما فلا بد أن يكون مسلما كما يشاهد فى كل زمان

ومكان ، ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة فى تعليم الاخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا فلم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين ، وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست ممدوحة وليست خيرا (١) واذا قيل الأمم الفطرية كان معنى ذلك تلك التى تركت بعيدة عن التعليم والتهذيب فهى جاهلة والفطرة مأخوذة من الفطر وهو الذى ترك لخلقته الاولى التى لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه ، والاسلام لا يقبل شهادة الاطفال ، ونحن نفهم أنه إنما ردّ شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، وأما قول بعض الفقهاء - أو قولهم كلهم - انه رد شهاداتهم لأمور أخرى ذكروها فهى من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب موجا من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية » .
انتهى كلامه على هذا الحديث

والجواب أن يقال : اولا قد حرف متن الحديث ، فانه حذف ما يبين المراد منه ويوضح معناه ، وهو مبتلى بهذه الحرفة اليهودية فى التحريف ، والغالب أنه يحرف اللفظ والمعنى جميعا فلا يكتفى باحدهما ، ولو أنه ساقه بكماله لظهر المعنى وظهر بطلان تقريره عليه ، ونحن نسوقه بجملته ، ففى الصحيحين عن أبى سلمة أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء . ثم يقول ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فهذا الحديث - كما ترى - فسر آخره أوله ، فبين أن المراد بالفطرة قبول الدين القيم ، يوضح هذا ما

---

(١) سيأتى أنه ينقض هذا من نفسه قريبا

رواه مسلم فى صحيحه عن عياض المجاشعى أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « ان ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا . كل مال نحلته عبادى حلال ، وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » الى آخر الحديث ، فهذا الخبر الصحيح صريح فى أن المراد بالفطرة الاستعداد والميل الى قبول الدين الذى هو أصل كل خير ، وأنها ممدوحة لا مذمومة . ثانيا : ليس فى هذا الحديث من الدلالة على ما يدعيه من أن الأطفال طبعوا على الشر والخبث والظلم ، وانما فيه « كل مولود يولد على الفطرة » وليست « الفطرة » هى الظلم والشر والخبث فى لغة العرب المعروفة إلا فى لغة هذا الملحد بعد أن ارتد ، وإلا فهو قد قرر أن الفطرة هى الخير كما يأتى قريبا ، وهذه كتب اللغة وكتب التفسير وغيرها موجودة فى كل مكان من المكاتب ونحوها ليس فيها شىء من ذلك ، بل الذى فهمه العلماء ودلت عليه النصوص أن الفطرة هى الاستعداد لقبول التوحيد والدين كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فالآية صريحة فى أن المراد بالفطرة التى خلق الناس عليها هى اقامة الوجه للدين ، فانه فسر إقامة الوجه للدين بالفطرة لأن الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام باقامة الوجه للدين حال كونه حنيفا أى مائلا عن كل ما سواه ، وهذه هى حقيقة التوحيد ، ولهذا كانت هذه الفطر مركوزة فى جميع بنى آدم ماعدا الملاحدة ومن ضارعهم من الجهمية الذين هم أصل كل ملاحدة هذه الأمة الذين ينكرون علو الله على العرش فوق العالم وينكرون كثيرا من الصفات كالكلام ، فان الخلق كلهم ـ عدا من ذكرنا ـ يقيمون الوجه للدين فيقبلونه مائلين اليه مقرين بالخالق بصفاته ، فتراهم اذا اشتدت بهم الضراء يرفعون أيديهم الى السماء متوجهين بقلوبهم ووجوههم اليها لعلمهم بان الله فوقها ، وقد نص النبى ﷺ فى حديث عياض المتقدم نصا

قاطعا بأنه سبحانه خلق عباده حنفاء كلهم فأن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن فطرتهم التى خلقوا عليها وأضلتهم عن دينهم الملائم للفطرة ، فالحديث نص قاطع فى المسئلة لا يقبل أى تأويل ، ومعلوم أن الاشرار الخبثاء الظلمة ليسوا هم الحنفاء ، كما أنه معلوم بالضرورة أن الشياطين لا تضلهم عن الشر والخبث والظلم ، ويدل على هذا أيضا أنه قال فى نفس الحديث « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ولم يقل فى الاسلام كما قال فى اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وهذا يدل دلالة صريحة على الفرق بين هذه الأديان وأن الاسلام بخلاف ذلك ، أى أنه الأصل الذى خلقوا له ، أى لو تركوا هم وفطرتهم لعرفوا الاسلام لما بهم من القبول والاستعداد الاصلى الملائم لتعاليمه ، ولهذا مثل النبى صلى الله عليه وسلم اليهودية والنصرانية والمجوسية بالجدع ومعلوم ان الجدع على خلاف الاصل فهو تغيير للخلقة الاصلية فقال « هل تحسون فيها من جدعاء » فتبين بهذا النص وغيره أن الاطفال خلقوا على الفطرة ، وان الفطرة هى الاستعداد لقبول الدين استعدادا كاملا بحيث أنها لو تركت لمالت اليه بالطبع مالم يعترضها معارض يصرفها عن وجهتها ، ولا يلزم أن يكون هذا الاستعداد متساويا فيهم ، كما أنه لا يلزم من القيام برزقهم وغيره تساويهم فى ذلك ، ولو وجب التساوى فى كل خير لم تظهر الحكمة وللزم من ذلك أن يكون الناس جميعا كالملائكة أو كالانبياء ، وحينئذ لا يعرف الخبيث من الطيب والهدى من الضلال والسعادة من الشقاء والنور من الظلمة وأين محل العفو والصفح والعقاب والعتاب والرحمة وغير ذلك . وقد قلنا غير مرة ان هذا المغرور يطبق النصوص على وفق هواه ، فتجده يأخذ النص فيحمله على شهوته وما يريد ، ثم اذا اختلف رأيه جاء الى هذا النص بعينه فقلبه واحتج به على ضد ما احتج به فى الرأى الأول . وقد يظن بعض الناس أننا نسرف فى هذا والله يعلم أننا لم نظلمه أو ننسب اليه مالم يره ولم يقله ، واليك شيئا من الشواهد على ما قلناه فى نفس هذا الحديث ، فانك قد رأيت هنا أنه صرح بأن الفطرة

ليست ممدوحة وليست خيرا ، وأنه استدل بهذا الحديث على ذلك بأنها غير ممدوحة وأنها شر وخبث ، وقد ادعى فى نبذته (الفصل الحاسم) أن الاجماع قائم على أن الفطرة ممدوحة وانها مثنىّ عليها بل هى ممدوحة بكل لسان ، وان تغييرها مذموم بكل لسان ، واليك عبارته بنصها (صحيفة ٥٩) فانه لما استدل بالفطرة على العلو قال « الاول الاخبار مثل قوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ فقد أمره بالبقاء على الفطرة ولزومها ، وأخبر أنها الدين القيم وأنها دين الناس ونهى عن تبديلها ، ومثل قوله ﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ فجعل البقاء على الفطرة هو الحق والايمان ، وجعل تبديلها باتباع الآباء هو الشرك والكفران . وقال رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » والحديث له روايات كثيرة تمدح الفطرة [1] وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال « قال الله تعالى : انى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » الى آخر الحديث ، وفى بعض رواياته : إنى خلقت عبادى حنفاء مسلمين . الامر الثانى اجتماع الكلمة على مدح الفطرة والثناء على ما جاء من طريقها ، فالفطرة ممدوحة بكل لسان وتغييرها مذموم بكل لسان » انتهى كلامه بحروفه ، فانظر الى هذا التناقض الفاحش والانقلاب المنكر فى استدلاله بالحديث على رأيه الاول ثم استدل به على رأيه الثانى مع تضاد النظريتين ، وهذا دأبه ، يتلاعب بالنصوص كيف شاء لانه يرى أنه لا يمكن لأحد أن يساميه

---

(١) تأمل قوله « تمدح الفطرة » مع قوله فيما سبق والفطرة ليست ممدوحة وليست خيرا

فى العلم ولا فى العقل ولا فى البراعة ولا فى جميع الفضائل ، فهو يقول ما يريد لا معقب لما يقوله ويحكم به ، فما أجمعها من كلمة حيث قال « لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر » ولكن الناس تساهلوا فى معناها وغضوا أبصارهم عنها ، وهذه الغفلة هى التى أوجبت هذا التطور أو التحول فيما تم عنه وتدل عليه حتى اتسع الخرق على الراقع

ثم إنه من المحال فى العقل والدين أن يكون المولود المطبوع على الشر والخبث والظلم فيه ميول واستعداد لقبول الدين الذى هو مصدر كل طهارة وزكاة وخيرات ، فان هذه الطباع تضاده من كل وجه ، فهذه هى أصول الشر كله والدين أصل الخير كله ونحن انما أطلنا فى هذا الموضوع الخطر لأن هذا الملحد رمى هذا الانسان الذى أكرمه الله وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا بأخبث الأوصاف وأشنعها فيجب جهاده والدفاع والنضال عن الانسان المكرم المفضل ، فهذا الأحمق تارة يذكر أن الانسان أحط رتبة من الحيوان لا يستطيع الكلام ولا يعرف شيئا مطلقا ويعبد كل شىء فهو جاهل بكل شىء عابد لكل متحرك مضطرب كما يقول ، وتارة يجعله شريرا خبيثا ظالما شيطانا ، وحينا يدعى أنه لم يعجز عن شىء وأنه لا يقال لشىء من الأشياء كائنا ما كان انه فوق قدرته وانه يعلم كل شىء ، وأحيانا يدعى أنه كنوز مملوءة بالمواهب والاستعدادات ، الى أمثال هذا الهذيان البارد ، مع أن كل ما قاله من التعظيم انما أضافه خاصة الى المتحللين من الأديان لأنهم كما يقول هم الذين صنعوا الحياة ، أما المتدينون على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم فانهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وبكل حال فلا نعلم أحدا من الاولين والآخرين سلك مسلكه فى مسئلة الانسان لان ذلك كله جنون وتلاعب يستحى كل ذى عقل من أن يتفوه به كما أننا أيضا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين سلك مسلكه فى الاديان وشدة العداوة لها ولاهلها مع تلبسه بالنفاق العميق والزندقة الزائدة

وقوله « وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم

فى كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقرر » فهذا تصريح منه بأن كل نص يقع بين أيديهم يكثرون الكلام عليه بلا فائدة ، وهو يرمى الى أنهم مختلفون فى كل شىء فيجب رفض كل ما عندهم لأن الحق لا يختلف ، وقد صرح هنا بان كل قول يقولونه على نص يقع بين أيديهم فانه لا يلفت اليه الا اذا كان قائما على أصول انسان اليوم ، يعنى كهذا المتخصص ، لانه قال والفطرة الاولى معروفة وهى الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الانسان ، يعنى فالتعاليم التى لا تكون موجودة اليوم عند الانسان مرفوضة ، فقيده بتعاليم اليوم والا لم يكن للقيد فائدة ، فكل معرفة أو شرح حديث أو تفسير لآية يخالف الاصول المقررة اليوم عند الانسان فلا التفات اليه ، وقد كرر هذا المعنى مرارا كثيرة ، ولهذا أكده مستطرداً فى شهادة الاطفال بأنها انما ردت لهذا المعنى ، ولما كان يعلم أن الفقهاء كلهم يخالفون له فى هذا الادّعاء وأنهم انما ردّوا شهادة الاطفال لعدم التكليف لان العقل شرط فى التكليف كما أنه شرط لصحة كل عبادة وعقد شرعى ولأن الصغير يسهو ويغفل وتشتبه عليه أمور كثيرة تخل بشهادته ، فلهذا سلك هذا الملحد غير سبيل المؤمنين ، فخالف أقوالهم التى أجمعوا عليها وادعى أن ذلك هو بسبب كونهم مطبوعين على الخبث والشر والظلم ، ثم لم يكفه هذا حتى رمى كل من خالفه من الفقهاء بعدم العلم والدين والعقل ، لأنه صرح أن أقوالهم التى تموج بها الكتب موجا ليس لها قيمة عقلية ولا علمية ولا دينية ، فهم لم يهبوا الحياة شيئا جدا ، وانما الذى صنع الحياة هم المتحللون من الاديان ، فلهذا قدم عليهم كلهم ما أشار اليه هذا المتخصص الذى ربما أنه لم يفهم كلامه فى ذلك أو كذب عليه ، فما أرخص علماء الأمة وأخف ميزانهم عنده ، وهو عندهم كذلك بلا ريب

وها هنا نكتة هامة يجب التفطن لها ، وهى أنه أثبت بهذا الكلام أن الملاحدة المتحللين من الاديان كالأطفال أشرار خبثاء ظلمة مشتملون على كل

عدوان مطلق بدون قيد ولا ضبط ، وهذه عبارته التى تقدمت بحروفها فتأملها فانه قال « ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا لم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا اسلامية لبقوا على فطرتهم مجردين من كل دين (١) وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط » انتهى . فتأمل هذه العبارة تجدها واضحة فى أن المجردين من الأديان يبقون على فطرتهم التى قرر أنها هى الجهل والخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، فكيف ينسبهم الى الجهل والشر والخبث وأنهم هم الذين صنعوا الحياة وأنهم هم أهل العلم ، ياليت من أحسن فيه فقطع لسانه ، لقد كان فضيحة على طلبة العلم فانا لله وانا اليه راجعون ، فقد رجع سهمه الذى رمى به جميع الفقهاء هنا على نفسه وعلى سادته من حيث لا يشعر ، وهو انما قال هذا ليمدح الملاحدة ولكنه ذمهم غاية الذم ، وفى المثل « اياك وصحبة الاحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك » وقد نقض فى هذه الجملة جميع ماتعب عليه من خلع كل وصف جميل على سادته من الملاحدة والزنادقة وأشباههم من المتحللين من الأديان ، فكيف يصنعون الحياة وهم مجردون من كل دين ، وقد قررت أن المجرد من الدين هو الباقى على خلقته من الجهل والخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وأطم من هذا وأدهى وأمر أنه ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وهو كما ترى قرر أن هذه التعاليم مأخوذة من الدين نفسه وأن المجرد من الأديان يبقى على فطرته من الخبث والجهل والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط . أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا أنفسكم من هذا المعتوه الذى كان فضيحة عليكم عند الأجانب ، فسبحان من خسف بقلبه

---

(١) تأمل هذا

وجعله بهذه الحالة التى يستعيذ منها كل عاقل

فصل

قال « وها هنا يجب أن يفطن القارىء أنه لا تناقض بين دعوتنا الى الايمان بالانسان ومواهبه العديدة ، وقولنا هنا على جبله على الظلم والعدوان ، فاننا نريد بالقولين معاً أن الانسان خلق ناقصا شريرا ظالما جاهلا (١) ولكن خلق الى جانب ذلك معدا للتطوّر وللسير نحو الكمال ونحو البلوغ العقلى ، فهو شر بالنسبة للماضى ، خير بالنسبة للآتى »

فيقال « وفسر الماء بعد الجهد بالماء » كما فى المثل ، وأدنى عاقل يعرف أن هذا الجمع فى غاية السقوط ، فانه فى بداهة العقل أن يكون الانسان مطبوعا على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وان يكون معدًّا للكمال والرشد العقلى والخلق ، فان هذا جمع بين النقيضين ، لانه انما يكون معدا للكمال والبلوغ العقلى اذا كان فيه بذور كامنة لهذا التطور الكمالى ، أما اذا كان مطبوعا على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق فلا يكون الا معدا للنقص والفساد الذهنى ، لان هذه الصفات نقائص ، وصفات النقائص تناقض صفات الكمال لأنها ضدها ، فكيف تكون هى أساسها وأصلها ، هذا لا يقوله من يدرى ما يقول (٢) ولكن السر الذى أولجك الى دخول هذا الضنك والمضيق العسر وأوقعك فى هذا التناقض الفاحش كونك لا تبالى بالتناقض فى جانب متابعة المتخصص فى علم النفس (٣) ، فمتابعته عندك وتقليده أمر فوق كل شىء سواء تناقضت أو لم تتناقض ، فأى سماء تظلك وأى أرض تقلك لو خالفت ملحدا

---

(١) كان من حقه أن يصفه بالخبث أيضا كما وصفه به أولا

(٢) وأخبث حيوان وأشره انما كان كذلك ، لأنه طبع شريرا خبيثا ظالما

(٣) أى الذى رأيته ملحدا

واحدا واتبعت متدينا واحدا وأنت قد قررت أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان فكيف تخالف واحدا من هؤلاء الذين ادعيت أنهم صنعوا الحياة التي منها حياؤك وتتبع واحـــدا من المتدينين الذين قررت وشهدت عليهم بأنهم جميعا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا، هذا لا ينبغي لك على هذا الاعتقاد، ولا عبرة لديك إذن بالتناقض فى مثل هذه الأشياء، فان أمر المخالفة أكبر وأطم وأعظم وأجل من أمر التناقض، لان المخالفة لديك هى المصيبة الكبرى والعثرة التي لا تقال. وقد بينا أنه حجة عليك ولو لم تتناقض

ثم انه استدرك على عادته فى المراوغة والخداع كما قال فيه السيد قطب يتوارى هنيهة فينكر ما تنطق به النصوص، فاستثنى الأنبياء وقال انهم غير داخلين فى هذا الاصل الذى خلق شريرا خبيثا ظالما، وانمـــا المراد بذلك الانسانية المتروكه لجهالتها. ولا يخفى مافى هذا الاستدراك من السقوط، لأن كلامه فى جنس الانسان الذين هم البشر، ومعلوم أن الانبياء من جنس البشر كما قال تعالى ﴿ قل انما أنا بشر مثلكم ﴾ فالمقدمة التي أصلها ساقطة، وهذا الاستدراك أسقط منها، لأن مقتضاه أن البشر خلقوا من عنصرين اثنين وهذا باطل، ولو صح هذا لكان حجة عليه أيضا لانه يقال له اذن فالانبياء من عنصر طيب فيكون من تبعهم من المتدينين لهم الحظ الكبير من هذا الخير كل بقدر متابعته، ويكون ضدهم من الملاحدة من المنافقين هم الباقين على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق، واذن كيف يصنعون الحياة وكيف تكون لهم آثار طيبة وعلوم صحيحة، فان هذا كله يناقض مذهبه مناقضة صريحة فيكون حجة عليه على كل تقدير

فصل

قال « وكانت الانسانية اذ ذاك (يعنى وقت نزول القرآن) تعلم وترى أن أمما تسقط وأمما أخرى تقوم، ولكنها ما كانت تعرف لماذا سقط من سقط

ولماذا ينهض ويسود من يسود ، وكل ما كان يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة أو الاله [١] قد غضب على الامم الساقطة الهاوية فحفر لها فأسقطها ورضى أو رضيت - أى الآلهة - على الأمم الاخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها ، أما الأسباب الاجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التى صارت اليوم معلومة مدروسة فى قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم ، وكانوا عنها بعيدين ، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى »

والجواب أن يقال : أما كون الأولين يعللون سقوط بعض الأمم ونهوضها بأن الله تعالى أسقط هذه وأقام هذه وأن أكثر الأمم الساقطة كان سقوطها بسبب ذنوبها التى أوجبت غضب الله عليها فهذا مما لا شك فيه ، وإنكار هذا كفر صريح ، فان الله سبحانه هو الذى يعز الأمم وهو الذى يذلها ، ومجرد وجود أسباب مادية لذلك لا ينفى هذا ، فانه يعزها ويذلها بهذه الأسباب . ومن بديع حكمته أنه كثيرا ما يعز الأمم بأسباب ، ثم يذلها ويدمرها بتلك الأسباب نفسها وموجباتها ، ليقيم الحجة بأنه المنفرد بالعز والاذلال وحده لا شريك له ، وانما تلك أسباب مصير منافعها ومضارها بيد مسببها وانها محكومة لا حاكمة ، وأما قيام الامم فقد تقوم برضا الله سبحانه وقد تقوم قياما ليس صحيحا وهى كافرة ولكن لا بد من سقوطها ليقيم الحجة عليها على ما أسلفناه سابقا ، أما سقوطها فلا يكون أبدا إلا بموجب سخط الله عليها ، فاذا أراد الله لأمة خيرا وفقها لطاعته وللأسباب المادية التى تكون سببا لنهوضها وتقدمها ، كما أنه اذا أراد بقوم سوءا فلا مرد له ، ولا بد أن تكون لذلك أسباب من الفسوق والمعاصى وذلك لعلمه سبحانه بأنهم قد فسدت

---

(١) انظر كيف قرن الرب الجليل العظيم مع الأوثان فى هذه النظرية ، فلم يفرق بين الله وخلقه وأعدائه كالشياطين

فطرهم ولا يكون لبقائهم فى الارض الا الشر والفساد كالوباء ، قال تعالى ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا ﴾ وقال عز من قائل ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فاذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا

فمن زعم أن سقوط الأمم ونهوضها ليس بارادة الله ، وأن الطاعة والمعاصى لا دخل لها فى ذلك وانما ذلك راجع الى الأسباب الطبيعية المادية ونواميسها فلا شك فى كفره ، بل ولا شك فى كفر من لم يكفره ، لان هذا تكذيب صريح للنصوص الصريحة الظاهرة ، ودعواه أن الأولين لا يعرفون الأسباب الاجتماعية والنفسية وغيرها مما يتعلق بالتقدم والتأخر فممنوع ، بل

هو كذب ظاهر يكذبه الشرع وجملة التاريخ المتواتر ، بل الأولون من الملاحدة والمشركين أعظم الناس مغالاة فى الايمان بالاسباب الاجتماعية والنفسية ، ولهذا قاتلوا الرسل وقاوموهم وحشدوا جيوشا عظيمة لقتالهم ، مع اعترافهم باطنا بصدقهم ، لانهم لا يرون للطاعات والمعاصى دخلا فى التقدم والتأخر فى الدنيا ، فهم معتمدون على هذه الأسباب اعتمادا لا مزيد عليه ، فالاعتماد على الأسباب هو الداء القديم فى الملاحدة والمشركين ، فان من المعلوم أن من أعظم الناس كفرا فرعون ، وقد بينا أنه من أعظم الناس تعلقا على الأسباب واعتمادا عليها ، فهو يرى فيها الكفاءة التامة ، ولا يرى للطاعات والمعاصى دخلا فى تقدم ولا تأخر ، ولهذا فانه عاند موسى وراوغ فى فهم كل آية حتى جمع أقصى مالديه من سبب فى ازالة آية موسى فعجز عن ذلك فجمع قومه وحثهم على قتال قوم موسى، وأفهمهم أن فيهم الكفاءة اللازمة للقضاء على موسى ، وخطب فيهم بذلك فقال ﴿ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون﴾ وقد أتى فى هذه الكلمات القليلة بجميع أصول الملاحدة فى هذا الموضوع ، فوجه نظرهم الى استعدادهم ومواهبهم اللازمة فأخبر أن قوم موسى شرذمة قليلون معنى هذا بيان أنه كان يعتقد أن الكثرة تغلب القلة ولا سيما اذا كانت فى شدة الغيظ والحذر [١] فالحذر والصبر والكثره هى غاية القوة النفسية فى الميادين الحربية . وقال فى ترتيبهم فى القتال ورسم الخطة لهم ﴿ ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى ﴾ وهذا عين ما يعتمده أكثر الملاحدة فى هذا العصر وهو روح ما يدعو اليه هذا بدون نظر الى أن هناك قوة غيبية قادرة على نصر من أطاعه وقهر من عصاه ، أما موسى فانه اخذ بالسبب الدينى أصلا ثم بالسبب

---

(١) وقد تقدم قوله تدفعها قوة الحسد وقوة الغيرة والغيظ

المادى فرعا ، فانه قال فيما قال لقومه ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ فحذرهم المعصية التى هى من أسباب الفشل والهزيمة وأمرهم بالصدق والاخلاص لانهما يوجبان الاعتماد على الله وحسن المعاملة معه وذلك هو سبب النصر ، وقال ايضا ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأمرهم بالاستعانة بالله واستمداد النصر منه بالدعاء ، وأمرهم مع ذلك بالصبر وبين أن هذا الشىء الذى بيد فرعون وبيد غيره ليس ملكا له بل هو ملك لله يؤتيه من يشاء من عباده فليطلب ذلك بطاعته فمن أطاعه فقد فعل السبب الذى به يستحصل ما ينفعه ، ومن عصاه فهو من الهالكين المسلوبين النعمة فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نفع موسى سببه وحصل له النصر والنجاح مع كونه أقل عددا وأضعف أسبابا مادية من فرعون فى قومه ، وأما فرعون فذهبت أسبابه وهلك وكان من الخاسرين . وقد كان من المعلوم أن الفرس والروم قاتلوا الصحابة ومن بعدهم بأقصى ما عندهم من الأسباب المادية معتمدين عليها ، وأن الصحابة قاتلوهم معتمدين على الله عاملين بالأسباب المادية معتمدين على ربهم ، فكان ذكر الله لا يفتر من أفواههم ، فهؤلاء الروم والفرس ما قاتلوهم بهذه الأسباب إلا لانهم يعتقدون الأسباب الاجتماعية النفسية ، ولو كان الأولون أى الموجودون وقت نزول القرآن أو من قبلهم لا يرون الاسباب الاجتماعية والنفسية شيئا فى التقدم والتأخر والسقوط والنهوض لما فعلوا ذلك بل لجلس المسلمون فى بيوتهم ينتظرون النصر من دون عمل ، وجلس المشركون فى مساكنهم ينتظرون التقديم بدون قتال ، فكيف يتجاسر من يدعى العقل أن يتفوه بهذا الهذيان بأن الأولين عازبة عنهم هذه الأمور وأنهم بعيدون عنها ثم يعلل ذلك بتعليل عليل وهو كونهم لم يبلغوا رشدهم ولم يبعدوا كثيرا عن طور الحيوانية على مقتضى ناموس التطور ، ثم انه مع هذا قد أقر أن انسان هذا العصر قد كاد أن يبلغ الرشد وهذه الأمم التى فى غاية الاستواء والنضج

فى هذه العلوم ـ كما يدعى ـ قد سقطوا ، ومن لم يسقط فهو مهدد بالسقوط وخائف منه

فصل

قال « هكذا كانت الانسانية يوم نزول القرآن : ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر كما جاء فى الكتاب الكريم ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ﴾ وما أجمل هذا النفى والاثبات مجتمعين ، وما أروعهما متوازيين ، وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم الى هذا المعنى فى آية أخرى أوضح وأجلى وهى قوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقد كان القرآن ناعيا على الانسان نقصه وحاله حينما قال ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ لان الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد ، وهذا لا يكون الا بعلم البواطن والنفوذ الى ادراك الحقائق ، أما الوقوف عند الظواهر فهو شان الطفولة ، والطفولة بلا ريب ليست هى القصد من الوجود [1] وليست غايته ، وانما هى طريقه وبدايته ، وجاء فى الكتاب فى سورة أخرى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [2] ولا يمر بالآيات مع الاعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوز الطور النظرى المجرد ، لان الحاسة العقلية عندهم التى تنفذ فى الاشياء متجاوزة بجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكونا يمنعها تأدية وظيفتها ، ويشترك فى هذا النظر الظاهرى ثلاثة أصناف على ثلاث درجات : الحيوان ، ثم الاطفال ، ثم الامم البدائية أو الأمم التى أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت »

---

(١) واذن فما بالك تدعو الى أخلاق الطفولة التى هى أخلاق الملاحدة كما مر تقريره

(٢) الآية صريحة فى المشركين ، فلا معنى للاتيان بها هنا

والجواب أن يقال : مقصوده بهذا التطويل والتهويل الفارغ والبهت المكشوف فى الحط على الانسان الموجود وقت نزول القرآن تصغير شأن الصحابة وكل من فى عصرهم والشك فيهم وفى علومهم وأنهم على جهالة وضلالة وعدم اطلاع على الحقائق، ولهذا ادعى فى المبحث العاشر أن الطريقة الوحيدة للشك فيهم وعدم الثقة بهم هو أن يعلم هؤلاء الكفر بهم والشك فيهم وأنهم ليسوا على ما يظن بهم . ولا تنس ايضا أننا قلنا فيما سبق إن هدفه الاكبر الذى هو موضع جميع السب والحط والقدح هم أولئك الجماعات الذين يقولون طريق المجد هو الأخذ بالأخلاق السلفية الدينية واتباع ما كان عليه السلف الصالح ، فأراد هذا المعكوس أن يعاكسهم فى هذه النظرية فأخذ يشوه سمعة السلف ويرميهم بالعظائم التى حاصلها الجهل والغباء والبلادة . ولما كان هذا الملحد يعلم أن تعظيم السلف فى قلوب الناس قد رسخ رسوخا عظيما أطال وأسهب فى إزالة هذا التعظيم ، وقد أكثر من تكرار ثبوت التطور حتى تجاوز به الغلو الى أن ادعى صريحا أن الانسان الأول لا يعرف الكلام ولا اللغة ولا الكتابة الخ ما ادعاه كما تقدم ، وادعى هنا أن الانسان الذى كان وقت نزول القرآن لا يبعد كثيرا عن طور الحيوانية ، لانه اذا قرر هذا الاصل بزعمه الذى هو السير الى سبيل الرشد والكمال سهل عليه الدعاية الى ان هؤلاء العصريين أكمل من الصحابة وأقرب الى الرشد ، لأن هذه على ما يزعم قاعدة التطور الذى أطار عقله ، هذا هو مقصوده من هذا الاسهاب والاطناب وإطالة الكتاب فى الحط على الأولين وتعظيم شأن المتأخرين ، فافهم هذا فانه مهم ، وبه تعرف مغزاه ومرماه فى جميع ما ادعاه فى هذا المبحث وغيره .

وليعلم أننا لا ننكر التطور المعقول فى نحو الصناعات ، فان الكلام فى مسئلة التطور طويل عريض ، وليس كل ما يدعيه فى التطور مسلم له بل كثير من العارفين بهذه الأمور المادية لا يقولون بقوله ، وقد قدمنا كلامه الذى ادعاه فى الثورة الوهابية وتصريحه بأن زعم التطور زعم كاذب بلا ريب ، وانما

التطور تطور صناعى فقط ، وأما الاخلاق فانها تتدلى تدليا لا يمكن المماراة فيه ولا فى بعد قراره ، وان قائل غير هذا إما غاش أو جاهل . هذا كلامه على ما تقدم ، فقد شهد على نفسه بأن القائل بالتطور فى غير الصناعات إما غاش واما جاهل ﴿ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ فهـــذا المسكين مصاب بالقلق والاضطراب والتناقض المنكر فى كل أقواله وآرائه ، وذلك نتيجة الريب والشك وانطماس البصيرة

اذا علمت هذا ففى هذا الكلام الذى علقه على هـذه الآيات من الخبائث والتحريف مالا يعد ولا يحصى ، والعجب أنه ألف كتابا فى الرد على الرافضة فى قدحهم فى السلف ، ثم انه توعدهم وتهددهم بأعظم الوعـيد والتهديد ، ثم أخرج هذه الاغلال التى شدها فى عنقه ويديه وخرّ لوجهـه ، فزاد عليهم فى هذه الخصلة ، بل وغيرها مما هو أعظم وأطم بلا شك على ما معهم من سخافة الرأى وسوء الاعتقـــاد

أما قوله « هكـذا كـانت الانسانية يوم نزول القرآن ، ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر » واستشهاده على ذلك بقوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليـك وهم لا يبصرون ﴾ فهذه الدعوى من أكذب الدعاوى وأفجرهـا ، فكيف يكون الصحابة ينظرون الى النبى ﷺ وهم لا يبصرونه فاذن هم كالأصنام بلا شك ، اذ هذه حالتها بلا فرق . ثم قوله « وما أجمل هـــذا النفى والاثبات » نقول : وما أقبح تشويه هذا الجميل بالتحريف والـكذب ووضعه فى غـــير موضعه ، فـكأن عليك عهدا أن لا تدع فى هذه الشريعة الغراء جميـــلا إلا شوهته ، ولا مستقيما إلا حرفته ، ولا صحيحا إلا أفسدته فى أغلالك التى هى عنوان خبالك . وهذه الآية فيها قولان : أحدهما أن المراد بالضمير فى قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ الأوثان المعبودة من دون الله تعالى ، فان الله سبحانه يقول ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم

ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ لأن فى هذه الأوثان التى هى رموز للمعبودين من المخلوقات ما هو مصور على صورة ذلك الانسان المعبود ، فهى تنظر ولا تبصر . والقول الثانى أن المراد بذلك الكفار ، لانهم ينظرون الى الرسول نظرا مجردا وهم لا يبصرون ما جاء به من النور والكتاب المبين ، والذى ينظر الى مجرد صورة الشيء ولا يعرف حقيقته ومعناه لا شك أنه جاهل به ، فنظره كنظر الأصنام أو نظر البهائم ، وهذا منطبق على الملاحدة ، فانهم ينظرون الى هذه الأخلاق الدينية والى أهلها ولا يبصرون ما عند اهلها وما فيها من المنافع العظيمة الجليلة التى لا تعد ولا تحصى ، ولهذا كانوا يسخرون منهم ومن عباداتهم وخطبهم ودعائهم ، لأنهم لا يبصرون ، فالكفار الأولون ينظرون الى النبي ﷺ والى أصحابه فى عباداتهم وأخلاقهم الدينية ولا يبصرون ما فى ذلك من الفوائد الجليلة بل يستهزئون بهم ، وهكذا كان ورثتهم من الملاحدة ينظرون الى أهل الدين كما تنظر البهائم والأصنام اليهم ، ولكن لا يبصرون ما عندهم وما فى هذه العبادات المقدسة من الفوائد العلمية والعملية . وهذا القول الأخير هو الراجح ، وهو لا ينافى الأول ، فهو شامل لكل من ينظر الى الرسول والى أتباعه وهو لا يبصر ما لديه من العلم والعمل ، ولهذا شبههم الله سبحانه وتعالى فى هــذه السورة نفسها بالانعام (١) وأما كون الصحابة داخلين فيها فهذا شيء لا يجرؤ عليه الا من هو فى غاية الزندقة والعدوان للدين وأهله ، بل الآية حجة عليه كما تقدم فانه ينظر ولكن لا يبصر الحق ، فهو ينظر الى القرآن والى أهله والى كتب الدين ولكن لا يبصر ما فيها من الآيات الكونية والعبر العظيمة ، وينظر أيضا الى هذا الوجود ولكن لا يبصر ما فيه من الدلالات الواضحة على قدرة الله وتغييره للأسباب والتحكم فى مسبباتها

---

(١) أى فى قوله تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ الى قوله ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾

ونتائجها ، فلا يعرف العبر الدالة على التوحيد والقصد والتوجه الى الله تعالى ودعائه والتضرع اليه وأنه هو المنفرد بحكم هذا العالم دون النواميس الطبيعية ودون المادة ، فهو الذى يحكم العالم بنفسه ويدبر الأمر من السماء الى الارض والنواميس تجرى بأمره وبمشيئته ، فهى محكومة لا حاكمة فى شىء مطلقا ، وهو الذى يعز من أطاعه وينصره ويؤيده ويعين من استعان به وصدق فى معاملته ولجأ اليه ، وهو ولى المؤمنين والمتقين ، وانه لنعم المولى ونعم النصير ، وهو المنتقم من أعدائه وهو المنكد المنغص عليهم الذى لا يرد بأسه ولا بطشه عن القوم المجرمين ، كل هذا لا ينظر اليه هذا المغلول المعكوس كما لا ينظر اليه الملاحدة المتمردون على أوامر الله تعالى ، فهذا ومن على شاكلته أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ، كما أنهم أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ وفى قوله ﴿ فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وهذا الملحد لم نعلم أحدا بلغ مبلغه فى العماية والانتكاس والمعاندة للحق ، فهو من أشد خلق الله تكبرا وتمردا واعراضا عن آيات الله كما يدل على هذا كلامه ومراميه

وكذلك استشهاده بقوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ فهى حجة عليه كما سبق ، فان العمى هنا هو عمى البصيرة ، وذلك هو الاعراض عن ذكر الله ، فان الاعراض عن ذكره هو أوضح برهان على عمى البصيرة كما قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وهذا المغرور لم يكتف بالاعراض عن الذكر إذ جاءه ، بل أعرض عنه وحرّفه وشوّه سمعته ثم دعا الى الاعراض عنه ورفضه ، فيكون ممن أعمى الله قلبه وأضله عن سواء السبيل

وأما دعواه أن النظر الظاهرى ثلاثة أصناف الى آخره ، فقد بينا بالدلائل الصادقة أنه هو وأمثاله من الملاحدة فى درجة الحيوان والاطفال ، لما ذكرنا من الاتفاق فى التشابه المطابق بين الملحد والطفل ، ويشترك فى ذلك الحيوان ، لا سيما اذا كان الملحد اشتراكيا لا يحصل له من المعيشة الا مقابل تعبه فانه يكون كالبهيمة بدون أدنى فرق ، ولهذا وصف الله الملاحدة والمشركين بأنهم شرّ الدواب وأنهم أضل من الأنعام بصريح النص ، ومسخ من راوغ واحتال ولم يتبع ظاهر النص فى النهى ـ قردة وخنازير ، وهذا هو الواقع المشاهد ، يعرف ذلك كل ذى عقل سليم ، بخلاف أهل الدين فان الله وجه خطابه كله اليهم فى قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلا فى آية واحدة من القرآن ، ولهذا قال فى آيات كثيرة جدا ﴿ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ ، ﴿يعقلون﴾ ، ﴿للمتقين﴾ ، ﴿للمؤمنين﴾ حتى جعلهم مع الملئكة والأنبياء داخلين فى الجملة على حسب أعمالهم ومراتبهم كما فى قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملئكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ ومعلوم أن الكفار والملاحدة غير داخلين فى ذلك فأدخل المؤمنين هنا مع الأنبياء فى هذه الشهادة وكفى بها فضيلة ، وأما المنافقون وأمثالهم من الكافرين فاخبر أنه لعنهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وأخبر أنهم ملعونون أينما ثقفوا ، وهذا ظاهر لا ريب فيه

فصل

ثم قال : « كان هذا الطور الذى بلغته الانسانية يوم نزول القرآن ، وقد عمل الاسلام [1] أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده

(١) هنا احتاج الى المخادعة ، وبعد هنيهة يرجع وينكر ما تنطق به النصوص ، وهكذا

اليوم ما هو معروف ، فقد خطت الانسانية بعد ذلك الطور الذى نعـــاه القرآن عليها خطوات فاتت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن »

قلت : هكذا حاله ، اذا أسرف فى الكذب والفجور والخروج من العقل والدين ، وظن أن الناس قد عرفوا مغزاه ومرماه لجأ الى الخداع والمراوغة والمكر ، لأنه قد عرف أن هناك حميراً تدخل هذه المداجاة عقولها ويروج هذا عليها لضعف عقولها وبصائرها . فنقول اذا كان الأمر كما ذكرت فيجب أن تبين هذه الأعمال التى عملها الاسلام بايضاح وتفصيل ، وتصرف همتك اليها وتحث على العمل بها . وما رأيناك فعلت من هذا شيئا ، بل جعلت همتك فى محاربة دعاء الله والذين يذكرونه ويسبحونه ويحمدونه على المنابر والذين يعبدونه فى المساجد ، وادعيت أن ذلك شر ما يؤدَّى ، فاذا كان هذا عمل الاسلام عندك فعلى عقلك العفاء وهو كذلك ، واذا كان أيضا دين الاسلام قد عمل أعمالا فى نقل الانسانية من ذلك الطور الى هذا الطور فى النضج البشرى المشاهد اليوم ، وأن هذا الاسلام قد خطا بالانسانية خطوات فاتت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن فكيف تدعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقه ، وأن الذين صنعوا لهذه الانسانية العلوم وصنعوا لها الحياة هم المتحللون من الاديان المنحرفون منها ، فما هذه المنافقة الظاهرة وما هذا الخـــداع الواضح وما هذا المكر السيء وما هذه المراوغات الثعلبية والتلونات الحربائية ، أفتظن أن الامة الاسلامية أنعام لا تفهم شيئا ولا تعقل شيئا حتى تلعب بعقولها وتموه على أبصارها وبصائرها ، بئسما سولت لك نفسك وبئسما ابتعت به دينك ، لقد كنت أشد الناس دخولا فيمن اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

فصل

ثم قال: « فالانسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمه الا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن ، انه لم يكتف بان يعلم كل نواميس هذه الطبيعة (١) بل ذهب يتحكم فى هذه الخلايا والعناصر والذرات ، انه لم يرض بأن تقدم له مائدة عليها ألوان الطعام الشهى الواهب للجسم كل ما يحتاج اليه (٢) بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التى يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها ، ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق فى جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية ، انه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه فى عناصر عينها وعددها ، فجاءت حوالى مئتين وتسعين عنصرا ، فكان هذا الانتصار فى معركة فاصلة ترتب عليه كل ما يترتب على الانتصار فى المعارك الفاصلة ، وقد طفق من أجل ذلك يشارك الطبيعة ويساميها فى كل أفعالها وعجائبها (٣) وصار من المعروف المألوف أن يقال هذا طبيعى وهذا صناعى أى طبيعى وانسانى ، وأصبح البترول الصناعى والمطاط الصناعى والخشب الصناعى وكل شيء صناعى لا يقل فى منظره ومخبره عن أخيه الطبيعى . واننا لنخشى أو نرجو ، وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن (٤) أن ياتى الزمان الذى يقال فيه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى ،

---

(١) هذا تصريح منه بأن الانسان اليوم قد علم نواميس الطبيعة كلها

(٢) كل هذا كذب ، فلماذا اذن يقع الموت

(٣) يعنى يسامى الله تعالى فى أفعاله ، ليت شعرى بأى شيء سامى الطبيعة وهو لم يفعل شيئا الا بها ومنها وفيها

(٤) لاشك أنك ترجو وان الرجاء أحسن لتصدق دعواك فى كون الانسان يقدر على كل شيء ، فهذا هو الاحسن لديك

وهذا مما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزا ، ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر فى الاستسلام للاخفاق ، بل ما فتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة . ومحاولة صنع المادة الحية أو ايجاد الحياة فى المادة لا يزال من المعارك الملتحمة التى لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها ، اذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التى لم يرفع عنها العلم الأستار ، ولكن الانسان يقول (١) انه قد انتصر فى نضال هو أشد من هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها ، وعلينا نحن أن ننتظر وان نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر »

والجواب أن يقال : لما فرغ هذا الملحد من سب الانسان الأول ، واضاف اليه ما شاء من التنقيص والاتهام ، ثم أعقبه بسب الصحابة ومن فى عصرهم وقت نزول القرآن ، وأنهم لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى ، وأنهم لا يعرفون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وأنهم ينظرون الى الرسول وهم لا يبصرون ، ورماهم بكل معانى الجهالة والضلالة ، شرع فى مدح إنسان هذا العصر لأنه هو المقصود بالذات فى الايمان به ، فقد عرفت من هذا الكلام من أوله الى آخره الدعاية الى رفض ما يدعو اليه أولئك الجماعات المذكورون فى صدر الكتاب من أن المجد ينحصر فى الأخلاق الدينية الأولى الخ والاعتماد على آراء ملاحدة هذا العصر ، وأن معنى الايمان بالانسان الايمان بملاحدة هذا العصر ، وإلا فجميع أناسى العصور المتقدمة قد كفر بهم كفرا عظيما شنيعاً ، وأضاف اليهم أخبث ضروب المقادح الانسانية كما سلف ، وقد تضمن هذا الكلام الذى ذكره هنا من الكذب والافتراء والمجازفة بل والكفر الفظيع ما لا يخفى على من له بصيرة فى دينه . ومن العجب أنه لشدة مجازفته فى الغلو فيه

---

(١) هذا من كيسك لم يقله أحد معروف ، فان كنت صادقا فأشر لنا عن واحد معروف قال بهذه الامور

لم يذكر عنه أكثر من معرفته لصنع الطعام ونحوه ، وقد حاول ارتكاب المكابرة فى مسئلة خلق الحياة فصدمته الحقيقة والواقع ، فأخذ يتخبط هذا التخبط الزائف ، فمن أكاذيبه وفجوره فى هذه الجملة دعواه أن الصنف الصناعى فى هذه الأمور التى ذكرها يفوق على الصنف الطبيعى وان ما عمله من المطاط والخشب والصوف واللؤلؤ لا يقل فى مخبره عن الصنف الطبيعى . فهذا الكذب البارد والفجور المكشوف لا يتكلم به إلا من يظن أنه يخاطب أغبياء جهلاء حمقى ، وإلا فأكثر الناس لا سيما من له دخل فى هذه الأشياء يعرف أن بينها فى المخبر وغيره فرقا بعيدا حتى انهم يجعلون خلطهما من الغش المردود ، وهذا اللؤلؤ الصناعى مع تطورهم فى دقة تشبيهه بالطبيعى عجزوا عن مساواته به من كل وجه بحيث يستحيل التمييز بينهما ، وكذلك الصوف والخشب وغيره ، وليس فى هذا كبير أمر فأصول الغش فى هذه المعادن وغيرها كالاحجار الكريمة موجودة من قديم فهذا الباد زهر[1] يغش ويصنع له جنس يقارب جنسه الطبيعى من قديم ، وكذلك غيره من الأحجار والعقاقير الكثيرة ، ولهذا كان كثير من العقاقير توجد مغشوشة فيوجد فيها الصناعى والطبيعى ، فأصول هذه الاشياء كانت موجودة من قديم وانما تطورت ، وإنشاء الأصل أعظم فى الدلالة على العلم وقوة التفكير من التفريع عليه والتوسع فيه ، فهؤلاء انما تطوروا فى معرفة هذه الامور لكثرة التجارب بخلاف الابداع الأول فانه يحتاج الى دقة تفكير وصحة قياس وقوة تطبيق ، ومن حكمته تعالى أنه جعل بينهما فرقا ولو غامضا لئلا يلتبس ما صنعه بقدرته الغيبية بما صنعه بقدرته على يد عباده ، فالله سبحانه هو الذى خلقهم وما يعملون فخلقهم وخلق عقولهم وآلاتهم وصنعتهم ، ولا يظن ذو عقل أن هذه الاشياء الصناعية تشابه خلق الله الذى اختص به ، أو أنهم قدروا أو سيقدرون على

---

(١) ويسمى الباكزه وهو حجر فيه خواص كثيرة للسموم وغيرها

ما يشابه خلق الله من كل وجه مما انفرد به ، فان هذا لا يمكن أبدا ، والله سبحانه وتعالى بين ما يمكن صناعته وبين مالا يقدر عليه الا هو وحده . وهذه الاشياء الصناعية ليس فى الشريعة نفى لقدرتهم عليها بل فى الشريعة نفى لقدرتهم على إحياء الموتى وخلق الحياة والنبات وأمثال ذلك ، وهذا لم يقدروا على أقل جزء منه . ولا شك أن الأمور الصناعية كلها ترجع الى مبادىء أساسية متقدمة والى أصول كامنة خفية موجودة خلقها الله سبحانه وتعالى وانما هدى هؤلاء الى أستخراجها فى أوقات تناسبها ، فان من سنة الله فى خلقه أن جعل آياته تتعاقب على هذا العالم فيبدل ما شاء ويغير ما شاء ويحول ما شاء ويرفع ما شاء كما قال تعالى ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ وقال تعالى ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ فكل جيل لا بدّ أن يظهر له ما يناسبه وتقوم عليه الحجة به من الآيات المتجددة المصدقة لآيات الله الثابتة الشرعية والكونية ، فآياته مناسبة لحكمته وحاجة خلقه ، ثم هى كلها ترجع الى شيئين الجمع والتفريق ، فالجمع ضم شىء الى شىء آخر مناسب له على قانون ونسق متناسب طبق ما يتصوره الذهن على مقتضى الحاجة المدفوعة بالفقر الذاتى ، فالحاجة الشديدة فى الانسان التى يتكون منها الخوف والرجاء هى التى تدفع الانسان الى الحيلة والحيلة تدفعه الى التفكير فى طلب الخلاص من الضرر ، والتفكير ينظر الى السبل والطرق التى يمكن بها الخلاص فيصورها بصور كثيرة صحيحة وفاسدة والفاسدة أكثر لكنها بعد تجربتها تلغى ويؤخذ بالصحيحة ، ثم تتكرر عليها الافكار بالتجديد ، وكل فكر يلقى عليها من التجديد أو التحويل ما فى مقدرته وا كثر استمدادها بالقياس أو بالوحى ، فالضّم هو نقل موجودات مخلوقات الى مثلها ، فليس هو اختراع فى الاصل انما هو اختراع فى التشكيل أى فى كيفية التأليف فيؤلف على حسب الغرض والقصد ، وأما التفريق فهو إزالة عوائق وعوارض غير مناسبة ، وذلك كجمع السفينة من عناصر مختلفة وتأليفها على قانون منظم ، وكبناء البيت فانه ضم عناصر مختلفة على قياس

منظم فهى تختلف فى ثلاثة أشياء : كثرة العناصر والمواد وقلتها ، وكبرهـا وصغرها ، واختلاف التركيب . فالسفينة شكل جمع من عنـاصر متنوعة كالخشب والحديد والحبال والقطن والزفت وغير ذلك ، وضم بعضها الى بعض على نسق موزون ، فباجتماع هذه الأمور صارت سفينة قابلة لأن تندفع بالهواء المنحصر ، فانها عرفت اولا بالقياس ، فان اللوح الواحد إذا ألقى فى الماء حمله الماء سواء كان كبيرا أو صغيرا ، فجمعت ألواح كثيرة وشد بعضها ببعض فصارت كاللوح الواحد ، وكذلك الطائرة فانهـا جمعت من عناصر مختلفة كلهـا أبدعها الله من العدم الى الوجود فركبت على قانون معين بالقياس على الطائر ، فان الطائر سواء كان كبيرا أو صغيرا انما يحمله الهواء المكون من حركته ولهذا لو كسر جناح الطائر سقط ولم يستطع الطيران ، وكذلك الطائرة فانهـا بهذا التركيب الهندسى صارت قابلة لأن تتماسك على ظهر الهواء القوى المنفعل عن قوة الحركة المكونة عن قوة الحرارة التى خالصها وروحها النور الذى هو أصل فى القوى كلها ، وكل من السفينة والطائرة فى امكان الانسان أن يهدمهما ويقلبهما شكلا أو أشكالا أخرى على صور متعددة ، وهذا بخلاف خلق الله الذى اختص به بقدرته الغيبيـة فانه خلق شكل بسيط متفاعـل يكبر ويصغر بارادة غيبية فوق الاسباب الكونية كلها ، وبالجملة فالصناعات كلهـا جمادات مؤلفة على أشكال كثيرة لا يعدها ولا يحصيها الا الله ، ولم تزل أصول هذه الأمور موجودة فى السابق من الانسان الأول ، وحيث انهـا تتجدد بكثرة التجارب ، واكثر التجارب تتجدد أيضا بسبب تجـدد الحاجات والضرورات والمصائب المتنوعة ، وبهذا صارت تتجدد شيئا فشيئا لتوارد العقول عليهـا وعلى موضوعاتها ، وكل عقل لا بد له من ميزة على غيره فى شىء ما ، ولا يلزم من تطور الأمور الصناعية تطوّر غيرها لعلمنا أن الأخـلاق بحالهـا ، كما أن الأكل والشرب والهضم والشهوة فى النـكاح وأمثال ذلك بحاله ، وبالجملة فالله سبحانه هو الذى انفرد بابداع أصول هـذه الأشياء وبتنميتها فأخرجهـا من

العدم الى الوجود وذرأها بين خلقه لينتفعوا بهـا ولتقوم عليهم الحجة باكمال نعمه عليهم ، ولهذا كان أكثر هذه الصناعات تأتى غالبا فى الاوقات المناسبة لمجيئها

والمقصود أن المخلوقات نوعان : نوع صناعى وهو مختص بالجمـــادات وحقيقته تأليف مواد جمادية على أشكال منظمة ، فهذا مما جعل الله فى الانسان القدرة عليه لحكم كثيرة منها الدلالة على أن المصنوعات تدل على وجوب وجود صانع لهـا ، ولأن فى ذلك نوع تكليف اذا حصل معه نية كان فى ذلك أجر للعامل كأمور الجهاد ونحوها ، ولأن فى ذلك أيضا اظهارا للفروق بالعـــلم والمعرفة وامتحان الخلق فيمن يعتمد على الأسباب ممن يعتمد على مسببها الى أمثال ذلك ، وقد أخبر الله سبحانه بأن هـذه الاموال والاولاد [١] فتنة ، وأخبر أن زهرة الحياة الدنيا فتنة ، فهذا كله فتنة ليتبين المطيع المخلص من المبطل الكاذب ، وقد أخبر سبحانه بأن هذا النوع فى قدرة الانسان عمله كما فى قوله تعالى ﴿ وأوحينا اليه أن اصنع الفـلك بأعيننا ﴾ وقال ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ . والنوع الثانى مما اختص الله سبحانه وتعـالى بابداعه وخلقه وتأليفه بقدرته الغيبية التى هى فوق جميـع الاسباب ، وذلك كابداع أصول المواد كلها وخلق السحاب والمطر وخلق الحيوان وخلق الحياة فيه وخلق بذور النبات واخراج الحب من القصب والثمرات من خشبها ، وخلق الأمور المعنوية كالذاكرة والفهم والعقل والشهوة وخلق الحواس كالقوة البـاصرة وقوة السمع وهداية القلوب وتقليبها وأمثال ذلك فهذا النوع لا يمكن بحـال من الأحوال أن يقدر عليه مخلوق ، كما أنه لا يمكن بحال أن يقدر مخلوق على أن يأتى بمثل معجزة واحدة من معجزات الانبياء ، وبهذا يتبين لك الفرق بين الصناعى والطبيعى ، فالصناعى ليس باكثر من تأليف المواد المخـــلوقة أو تفريقها على نظام مخصوص ، فهو نقل مخلوق لمخلوق من موضع الى موضع

---

(١) وهى داخلة فى الاموال

آخر ، والتفريق تمحيصه وتخليصه من شوائبه وعوارضه وما لا يلائمـــه ، فاستخراج البترول ليس هو خلق له بل هو بنفسه موجود سواء كان صناعيا أو طبيعيا ، فان الأشياء التى ليس فيها من هذه المادة شيء لا يمكن أن يستخرج منها شيء أبدا ، فهو كاستخراج دهن السمسم من بذوره لأنه موجود فيها فاستعمل له طريقة يستخرج بها ، وأما الاشجار والحبوب التى ليست فيها هذه المـادة فلا يستخرج منها شيء من جنسه ، وكـذلك الذهب والفضة والزئبق وغيرها فانها لا تستخرج إلا من المواضع الكامنة فيهـا ، بل آياته سبحانه التى يظهرها فى الجماد نفسه لا يمكن لأحد أن يقدر على الاتيان بمثلها كبساط سليمان عليه السلام فانه شكل من جنس أشكال كـثيرة مصنوعة لا يميز عليها بمـادة من المواد ولا بتركيب ، وهو جمـاد جعله الله يطير فى الهواء بسبب غيبي غـير مفهوم ولا معقول ولا محسوس ولا يمكن أن يفهم أو أن يدرك بحال ، وهو بخلاف الطائرة فانها شكل من أشكال كـثيرة ، فكل من عرف أسباب طيرانها أطارها من مسلم أو كافر كالمسئلة الرياضية ، والبساط ليس كـذلك فلو ركبـه غير سليمان لم يطر به ، فكان البساط معجزة لا يمكن أن يقدر على صنع مثلها أحد من العالمـين لأنه معجزة وسيبقى معجزة أبدا الآبدين ، فان معجزات الأنبياء لا يمكن أن يأتى بمثلها أحد مهـما بلغ ، سنة الله التى لا تبدل ولا تحول ، وأنت ترى على كـثرة هذه الصناعات وتطورها قد عجز اهلها كل العجز أن يأتوا بمثل معجزة من معجزات الأنبياء من كل وجه على كـثرتها كهذا البساط وهو فى شيء جماد فكيف بالحيوان الذى كان قطرة مائية تنقلب هيكلا بديعـا كـاملا فى معناه وهيئته الصورية يشبه مملـكة كـاملة منتظمة بملـكها ووزرائه وأمرائه وموظفيه وجميع ما يحتاج اليه فيها مدة قيامها ، ثم هذا الهيكل عـــلى عظمته فى دقة التركيب وحسنه وانسجامه وتناسبه مشتمل على عظام وأعصاب وعروق ولحوم ودماء وغيرهـا ومع هـذا يقبل ويدبر بنفسه ويمشى ويجلس ويضطجع ويفكر ويعـلم ويعقل ويخـــاف ويرجو ويشتهى ويحنو ويغضبه

ويوالى ويعادى ويعاند ويصادق ويحامى ويجتهد ويقلد ويدافع عن نفسه ويمكر ويحتال ويخادع وينافق ويلحد ويوحد ويشرك ويصدق وينصح ويغش ويجادل ويسمع ويبصر ويشير ويعبر عما يوسوس فى نفسه ويخالج ضميره لجنسه ولغير جنسه ، وله أبواب كل باب له وظيفة خاصة لا يصلح الا لها وفيه أنهار مختلفة الطعوم والروائح والألوان ، وهو بجملته على ألوان مختلفة من أبيض وأحمر وأسمر وأصفر وأسود ومختلط الى غـــير ذلك من الصفات التى هى فى غاية الاحكام والابداع فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأصل هـــذا كله قطرة ماء مشاهدة محسوسة ليست شيئا يذكر ، وكل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أن من عجز أن يمنع الموت من حلول جسم كامل التنظيم والمزاج ، ويعوضه حاسة واحدة مفقودة من حواسه أى نفس الحاسة المعنوية كالقوة الباصرة فأولى أن يعجز غاية العجز عن ايجاد أضعف حيوان . وهذه قضايا ثابتة ظاهرة لا يجادل فيها إلا مكابر مصاب فى دينه وعقله كهذا الرجل ، وبهـذا يبطل قوله « واننا لنخشى أو نرجو وقد تحقق الايام أى الامرين أحسن أن يأتى الزمان الذى يقال فيـه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى » . فلا يخش ولا يرج ، فلن تحقق الأيام هـــذا أبدا ، فان حكم الله حق لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته ، ونحن نعلم بالضرورة أن من عجز عن خلق حبة شعير تنبت أو حبة دخن أو أدنى حبـة من حبوب الأرض انه عاجز عن خلق ذباب ، فكيف بالانسان . وقد حكم الله سبحانه بعدم وجود ذلك وعدم قدرة المخلوق عليه قال تعالى ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ فاحتج سبحانه على المشركين بأن هؤلاء المعبودات على اختلاف أجناسها لا يمكنها أن تخلق شيئا يضاهى خلقه بحيث يتشابه الخلق عليهم ، ثم أخبر أنه هو الواحد القهار ، فهو المنفرد بالخلق الذى لا يشاركه أحد فى خصائص الألوهية التى منها الخلق والابداع ، اذ لو شاركه أحد فى هذه الخصائص لكان الها وهو ممتنع ، لأنه اذا كان مثله لم يكن واحدا

قهارا بل يكونان الـٰهين كل منهما قد قهر الآخر فهما مقهوران والمقهوران عاجزان والعاجز لا يصلح للربوبية ، وقال تعالى ﴿ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب﴾ فقوله تعالى ﴿تدعون من دون الله﴾ أى غيره ، وهذا شامل لجميع المخلوقات فان فى المشركين من يدعو الملئكة والانبياء والجن وغير ذلك ، فاذا كانت الملئكة على اختلاف أصنافها وعظمتها وقوتها وطهارتها عاجزة عن أن تخلق ذبابا فكيف بمن يبول الذباب على أنفه ، وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ انه قال « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة وليخلقوا شعيرة » وهذا تحد وتعجيز ظاهر لهم ، لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فقد علم أنهم لا يقدرون على شىء من ذلك مهما حاولوا وبلغوا ، وهكذا كان الواقع ، فان من عجز عن منع الروح من خروجها فى الجسم الكامل لا شك أنه عاجز عن ايجاد الروح فى الجسم أو ايجاد الروح والجسم معا ، وهذا أبعد ، بل جناح الذباب أو رجله لا يمكن لاى مخلوق أن يخترع عوضا عنها ويجعلها بدلا منها ، وكل هؤلاء الذى عملوا ما شاء الله من الصناعات المدهشة عجزوا غاية العجز عن إبداع حبة من سائر الحبوب تنبت فتكون كخلق الله تعالى ، ومن المحال فى العقل والدين ان يتحدى الله الناس بشىء وهو يعلم أنهم سيفعلونه ، فان هذا ينافى علمه بما سيكون ، وهذا كفر ظاهر ، وهذا الذى قاله هذا الملحد صريح فى أن خلق الحيوان غير مستحيل ، فان المستحيل لا يقال فيه نخشى أو نرجو بل يقال نيئس أو نحو ذلك من العبارات ، وانما يقال نخشى أو نرجو فى الشىء الممكن وقوعه الذى يتساوى فيه الوجود وعدمه ، وهذا ظاهر لا غبار عليه . اذا علم هذا فمن اعتقد أن مخلوقا يقدر على ايجاد شىء من الحيوان بعوضة فما فوقها أو من النبات حبة شعير فما فوقها فهو كافر خارج من ملة الاسلام ، لأنه صادم النصوص ، وأشرك بالله فجعل معه إلها يخلق كخلقه .

وفى قوله «وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن» يعنى الخشية والرجاء، وهذا تصريح مؤكد لما قبله فى تجويز ذلك، وبأن الأيام ستحققه أو يمكن أن تحققه ومعلوم ان الايام لا تحقق المستحيل أبدا، وهذا واضح، ولولا غربة الاسلام لم نحتج ان نطول الكلام على مثل هذا لوضوح بطلانه. وقوله «وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزا» فيقال: هـذا دليل على نقص عقـلك وخفته وعلى طيشك وجنونك اذ ادعيت مالم تحط به علما ولم يوجد، وهو من الأمور العظام التى تتعلق بأصل الدين، فلِمَ لم تسكت وتصبر وتلزم الحياد حتى يتبين لك ما تخشاه أو ترجوه، ولو كنت مع هذا الالحاد والنفاق والمخادعة عاقلا للزمت السكوت واعتصمت بالصبر حتى يظهر لك ما به يمكنك أن تقول به وتصول، ولـكن أبى الله إلا أن يفضح من تعرض لدينه واتبع هواه

فصل

ثم ذكر مسئلة تطور السفن وقاس عليها التطور فى الصناعات، وقد تقدم الكلام على هذا، ويكفيك اعترافه بأن التطور تطور صناعى فقط، والذى يقول غير هذا إما غاش أو جاهل كما تقدمت عبارته فى ذلك، فلا حاجة الى تكرار الجواب، وقد بنى على هذا أن الانسان عظيم

ثم قال: «إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننـا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات مؤكدين لنا بأن الانسان ما خلق ليكون عالمـا ولا ليكون شيئا كبـيرا ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله فى علمه وقوته [1] ولا ليخرج من طبيعته، وإنما خلق عبدا ضعيفا جاهلا ليبقى أبدا ضعيفا جاهلا، وانما خلق من التراب وسيبقى أبدا فى التراب، وانما خلق ليثبت له ويبـين أنه

---

(١) تأمل هذا الـكفر الفظيع

لن يستطيع ان يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضى على الأزمات ولا ليدخل التغيير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذى منحه الله نظامه (١) وان من السخف المبين أيضا أن نظل خاضعين لهـذه الثقافة الميتة علينا وعلى مواهبنا الانسانية بالاعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل فى نصها أو روحـها »

قلت : هذا الموضع من المواضع التى صرع فيها ، وتخبطه الشيطان من المس . ولولا أن المدارس الكبيرة الواسعة الطويلة العريضة والمكاتب التى لا تحصى والمعارف التى هى أشهر من نار على علم ومجالس التدريس التى لا تحصى كل ذلك أشهر من أن يذكر فى كل بلاد الاسلام لاحتجنا أن نطول الكلام فى تكذيبه وضلاله وعداوته للاسلام ، ولكن وجود هذه الامور وغيرها ورؤيتها وشهرتها تستغنى عن التطويل فى ذلك ، ويالله العجب كيف يدعى هذا الملحد على المسلمين من الخطباء والوعاظ ورجال الدين بل وغير رجال الدين (٢) كما يقول انهم يقولون إن الانسان ما خلق ليكون عالما ولا شيئا كبيرا وأنه سيبقى أبدا جاهلا وأنه انما خلق ليثبت له ويبين أنه لا يستطيع أن يكون عالما الخ : أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا انفسكم ، أما للدين رجال ، أما فى المسلمين رجال . نحن نناشد هذا المجنون المأفون : لماذا أسست الجمعيات فى جميع العلوم ولماذا بنيت المدارس ولماذا جعلت المعارف فى جميع البلدان الاسلامية ولماذا أنفقت الأموال الطائلة فى هذه السبل العلمية اذا كانوا كلهم يقولون ان الانسان ما خلق ليكون عالما وانه سيبقى أبدا جاهلا . أيها المسلمون ، أيها المسلمون ، ما كنا نظن أن دعيا ملحدا زنديقا يصرخ على رءوس الأشهاد فى وسط أمة

---

(١) احتاج هنا الى المخادعة

(٢) لا معنى للاتيان بغير رجال الدين هنا

عربية اسلامية يشتمها وينسب اليها أشنع ضروب المقادح فيدعى عليها أن خطباءها ووعاظها ورجال دينها يقذفونها بالخطب تلو الخطب وبالاناشيد تلو الاناشيد وبالمقالات إثر المقالات أن الانسان ما خلق ليكون عالما ، ويدعى أنهم يقولون ويعتقدون أن العلم حجاب وأن الجهالة ام الفضائل ، وأنهم يقولون فى وعظهم وفى خطبهم وأناشيدهم ان الانسان سيبقى أبدا جاهلا ، وأنه لن يستطيع أن يكون عالما ، وانه ما خلق ليكون عالما . أيها المسلمون ، ان ترك مثل هذا جناية كبرى على الدين وعلى الأمة وعلى الأدب وعلى التاريخ وعلى جميع الفضائل . أيها المسلمون ان كان هذا الرجل مجنونا حين رمى المسلمين بهذه المقادح التى لا تبقى ولا تذر فليعامل معاملة المجانين ، وان كان ملحداً زنديقا منافقا عدواً للاسلام وللعرب وللفضائل كلها فليعامل بما يعامل به جنسه . أيها المسلمون لو أن أكفر يهودى أو أعدى عدو للأمة الاسلامية رمى المسلمين بأن خطباءهم ووعاظهم ورجال دينهم يلقون اليهم فى كل مقالة وفى كل موعظة وخطبة أن الانسان ما خلق ليكون عالما وسيبقى أبدا جاهلا ، وان العلم حجاب ، وان الجهالة أم الفضائل هل تسكتون عنه أو هل يعامل بهذا السكوت والتقدير ، افرضوا أن يهوديا فعل هذا فقط فكيف وهذه خطيئة واحدة من فظائع هذه الأغلال . لا شك أنه لو تكلم بهذا يهودى لضج المسلمون من هذا القول ، ولعاملوا قائله بما أمكنهم من المعاملة الصارمة . ولعمرى لقد صدق على كثير من الناس ظنه اذ تصورهم حينما عمل هذه الأغلال والداء العضال لا يفهمون الحقائق وأنهم سيحسنون به الظن وأنهم سيقبلون كل ما يقوله من خداع ونفاق ومكر ، وهكذا كان الواقع ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا

يا صاحب الاغلال الوبيلة والقيود الثقيلة ، من هم هؤلاء الخطباء والوعاظ ورجال الدين وغيرهم ممن يعتد بأقوالهم فضلا عن علماء المسلمين كلهم وخطبائهم ورجال دينهم وغير رجال دينهم قال فى خطبه ووعظه أو مقالته إن الانسان

ما خلق ليكون عالما وسيبقى أبدا جاهلا . فإذا كنت صادقا فأشر الى طائفة مسلمة من هؤلاء الاصناف المذكورين فضلا عن جميع الوعاظ ورجال الدين وغيرهم ممن يعتد بقوله ، ولكنك تعرف أنك كاذب متلاعب ، وجدت جوا خاليا فأخذت تقول فيه ما تشاء ، وكيف تقرر فى صراعك صرعك الله أنه ليس المسلم هو الذى يتتبع أغلاط الغالطين وأخطاء المخطئين ، وهنا تجاوزت هذا الى اختراع البهت والكذب فى مسبة دين المسلمين وصفات رب العالمين ، بل الصدق الذى لا ريب فيه أن العلماء والوعاظ والخطباء ورجال الدين فى خطبهم ومواعظهم ومقالاتهم وغيرها يؤكدون للانسان أن الخير كل الخير فى العلم ، وأن الشر كل الشر فى الجهل ، ويبينون أنه يجب على الإنسان أن يتعلم ما ينفعه فى دينه ودنياه ، هذا أمر ظاهر يعرفه أدنى العامة ، فأدنى كتاب أو خطبة أو مقالة دينية أو ادبية يجد فيها الانسان دعاية الى هذا الامر ، وهذا شىء أشهر من الشمس ، ونحن نفهم أنه يشير الى أن جميع علوم الدين وما يتعلق بها من أمور الدنيا ليس من العلم فى شىء بل هو الجهل بعينه ، وانما العلم النافع هو علم الشطرنج والموسيقى والمنطق ونواميس الطبيعة ونحو ذلك كما يأتى تصريحه بذلك فى البحث الآتى . ومن أعظم المكابرة فى الكذب قوله فى هذه الجملة « وانما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين نقلنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات » فهذا كذب وفجور ظاهر ، ما قاله أحد من الشيوخ ولا نقله فى كتابه الاغلال أبدا بهذا اللفظ ، والذى نقله عن الزمخشرى والرازى وابن أبى الحديد والشهرستانى وغيرهم هو ما أثبتناه برمته ، وقد رأيت كلامهم وأنه ليس فيه حرف واحد من هذا الذى ادعاه البتة ، وكلامهم بمعزل عن هذا الذى يدعيه ، وبينه وبين ما يقصد كما بين السماء والارض كما اوضحناه سابقا بما فيه كفاية . والبلية والمصيبة كونه جعل من السخف المبين قول الخطباء والوعاظ ورجال الدين أنه لا يجوز أن ينازع الله فى علمه وقوته وقدرته ، فجعل هذا الزنديق هذا القول الذى هو

من أعظم أصول التوحيد سخفا مبينا ، ثم لم يكفه هذا الكفر حتى جعله ثقافة ميتة يجب التبديل فى نصها أو روحها فعنده أنه يجب وجوبا قطعيا أن ينازع الله فى علمه وقوته وقدرته ، لأن السخف المبين يجب اجتنابه ومضادته وجوبا لا مرية فيه ، وهل يخفى مافى هذا من الكفر الغليظ . ولكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا

فصل

ثم أخذ فى تقرير هذا الأصل الخبيث فى ايجاب هدم هذه الآراء التى يقولها الخطباء والوعاظ ورجال الدين بزعمه وأن تنشأ ثقافة بدلها . ولا شك أن تبديلها رفض الدين وخلعه ، لأنه ذكر أن عدم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين ، فلا بد إذن من تبديلها بأن ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، ومعنى هذا أنه ينازع فى ربوبيته والهيته ، لأن علمه وقدرته وقوته من أعظم خصائص الربوبية والألوهية ، فاذا نوزع فى ذلك فقد نوزع فى الربوبية . قاتله الله ما أجرأه وأفجره حيث قال « إن أقل ما يجب أن نفعله الآن أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة ، منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة » انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن هذه الثقافة التى منها تحريم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته ثقافة خبيثة قاتلة يجب رفضها وتبديلها ، أما نقله عن الخطباء وغيرهم تحريم التعليم ونحوه فقد بينا أنه كذب ، وإنما أدخل هذه المسئلة مع تلك المسائل مغالطة وتلبيسا ومخادعة . ثم دعواه أنه يجب أن ننشىء ثقافة جديدة بدلا عن هذه الثقافة دعوى قد بينا ما فيها ، وأنه يقصد بذلك رفض ثقافة كون الله لا ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، لأنه جعل ذلك من السخف المبين . ثم لو سلمت له هذه الدعوى فقد سد طرق الثقافات كلها سدًا محكما إلا طريقا واحدا وهو أن تكون هذه الثقافة الجديدة مبنية على الأخذ باغلاله التى يقول انها حقائق أزلية أبدية ، وقد صرح بأن النهوض

موقوف على الأخذ بها ، والسقوط موقوف على تركها ، وأنه لن يستغنى عنها مسلم ، فكيف نحاول انشاء ثقافة تتضمن ترك ما فى هذه الاغلال ، فان ذلك يفضى الى السقوط ، فمحاولة انشاء ثقافة غيره ضرب من العبث بل ضرب من الجنون والتهور وفساد العقل ، فان الذى يطلب ثقافة جديدة من غير الحقائق الازلية الأبدية ويتخطى ما النهوض معلق على الأخذ به والسقوط معلق على تركه لا شك أنه مجنون متهور فى غاية الحمق والجهالة ، ونعوذ بالله من ذلك

وأكبر من هذا وأطم قوله بعد هذا : وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح الإيمان بالانسان وبمواهبه التى لا تحصى ، ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها » . فقد رأيت أنه صرح بأن هذه الثقافة التى يريد انشاءها يجب أن تكون قواعدها مقامة على الايمان بالانسان وبمواهبه ، لأن الثقافة التى يريد ازالتها كانت مبنية قواعدها على الايمان بالله وقدرته الكاملة وعلمه الشامل وقوته التى لا مردّ لها ، فلا يمكن أن ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، فيجب ـ كما يقول ـ ابدال هذه الثقافة الدينية التى جعلها بخبثه ميتة بثقافة بدلها وهى إبدال الايمان بالخالق ايماننا بالمخلوق ، فيجب الكفر بالخالق ورفض دينه الذى هو الثقافة الأولى لأن الايمان بذلك صار سدا منيعا وحجابا كثيفا عن الايمان بالانسان واستخراج مواهبه ، فلا يمكن أن يجتمع فى القلب الايمان بالانسان المخلوق بانه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء والايمان بالخالق كذلك فلا بد من الترجيح لازالة التردد والشك والريب ، وهذا الترجيح بزعمه هو أن نرفض الايمان بالرب العظيم الكبير القهار المتعال المقدس ونؤمن بابن الحيض بأنه على كل شىء قدير وأنه بكل شىء عليم [1] ولذا قال « ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها » ، وهذا صريح فى أنه يرى أن الايمان بالله أعظم

---

(١) ولا سيما ملاحدة هذا العصر

مانع للاتجاه الى استغلال هذه المواهب ، فيجب ازالة هذا الحجاب بالايمان بالانسان فانه لا يزال إلا بذلك ، وهو تصريح ظاهر بأن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر كما نقله عن بعض الملاحدة كما يأتى ، فصار الايمان بالله على رأى هـذا الملحد هو الذى منعهم عن استغلال مواهبهم ، فلعنه الله كما لعن أصحاب السبت ما أجرأه على الله ودينه وعباده المؤمنين

وهذا التعليل الخبيث الذى علل به هذه الدعوى من أن الايمان بالانسان يوجب الاتجاه الى استغلال المواهب تعليل باطل مضروب به وجهه ، فاننا نقول قولا صحيحا معقولا لا شك فى صحته أنه لا يمكن بحـــال أن نتجه الى استغلال المواهب ما دمنا مؤمنين بالانسان وانه يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء ، فان هذا الايمان يوجب القلق والاضطراب والشك والريب ، فان كون الانسان يخاطب بما لا يعقله وبما لا تقبله فطرته أمر يوجب له هـذه الأمور ويوجب له الوهن العظيم ، فانه لا بد لهذا المخاطب من أمرين : اما أن يكون بليدا فربما يصدق بهذا ، ومعلوم أن البليد لا يظهر نتيجة صحيحة كبيرة[1] واما أن يكون ذكيا فلا يمكن أن يؤمن بأن الانسان يعلم كل شىء ويقدر عـلى كل شىء وهو يرى نفسه وجميع جنسه قد عجزوا عن أشياء فى نفوسهم وأبدانهم وأولادهم وأموالهم ونفوس غيرهم وأبدانهم وأولادهم وأموالهم لا تعد ولا تحصى ، كيف يؤمن الاعمى والأعرج والشيخ الـكبير وأمثالهم بقدرة الانسان على كل شىء وهو يرى ما هو فيه من العجز والضعف وعدم القدرة ، وكيف يؤمن الشاب الذكى الذى يتوقد ذكاء والهموم تشتعل اشتعالا فى قلبه فى طلب

---

(١) ثم انه لا بد ان يكون هـذا الايمان وبالا عليه من ناحية عمله ، فانه يبقى خائفا من عدوه لانه اعتقد أن الانسان على كل شىء قدير فربما يضره عدوه فى عقله أو صورته أو جسمه أو قلبه أو غير ذلك لانه صار معاديا لمن يقدر على كل شىء ويعلم بكل شىء وليس له رحمة ولا عدل يمنعه من ذلك

معشوق أو دنيا من مال أو جاه أو غير ذلك ، ومع ذلك قد عجز غاية العجز عن حصول شيء من ذلك ، وكل هؤلاء وأمثالهم قد علموا بالضرورة أنهم عاجزون عن ازالة كل ما يحصل لهم فى كل وقت وحين من مصائب الدنيا ، وعاجزون عن نيل كل ما يتمنونه ، فالايمان بالانسان على النحو الذى يدعو اليه أكثف حجاب وأعظم سدّ فى الحيلولة بين الاتجاه للعلم واستغلال المواهب ، والطريق الوحيد التى لا طريق سواها ولا شك فى نجاح الانسان بها فى الاتجاه للعمل واستغلال المواهب هو الايمان بالله سبحانه وتعالى بأنه قادر على كل شيء وأنه الكريم الجواد الذى لا يخيب من سأله واستعان به وصدق فى معاملته واستسلم لما أمر به وأنه خلق هذا المخلوق وسخر له مافى الارض ، وأنه فتح له الطريق فى كل ما يمكن من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، وأعطاه عقلا مطلقا يتصرف به كيف شاء فى هذا الميدان ، وأنه أمر بالعمل الدينى والدنيوى ووعد بالاجابة والاعانة ، وهو سبحانه يقدر على اعانته متى توجه اليه واعتمده ، فانه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فعلى الانسان أن يستحصل كل مافى حاجته بواسطة طاعته تعالى وامتثال أوامره ، فايمانه بهذا يلهب فى قلبه حرارة لا حد لها فى القوة والاستقامة على التسابق فى الأعمال والمصابرة عليها وتقليب الافكار والانظار فى التجربة والابداع ، ويورث من الشجاعة وثبات النفس والقوة ما لا حد له ، لأنه علق آماله العظام الطويلة القوية على رب عظيم قوى كريم رحيم له القدرة الكاملة والقوة الكاملة والكرم والجود والرحمة الكاملة . وأما الايمان بالانسان على المعنى الذى ذكره فهو وهم مرذول ساقط لا يقبله إلا مرذول ساقط ، وبهذا كان السقوط والدناءة وضعف الهمة ملازما للمؤمنين بالانسان ، والشجاعة والثبات والسمت القوى وصحة النظر والفكر ملازمة للمؤمنين بالله ايمانا صادقا مخلصا قويا ، فلا تجد أكثر المؤمنين بالانسان الا كل مشغول بخاصة نفسه وبما يوافق شهوته وهواه ، لأن ايمانه كان ضيقا محصورا فى المخلوق ، فيجب أن يسعى فيما يرضى هذا المخلوق

الذى آمن به ، فلا توجد الرشوة والخيانة والكذب والفجور والزندقة والالحاد ولا غير ذلك من الأخلاق الرديئة الوبيلة كالقيادة والدياثة وجميع الفواحش الا فى المؤمنين بالانسان وبمن يؤمن بهم ، ولا يوجد الورع والعفة والصيانة والصدق والنصح فى الأقوال والأعمال والثبات فيها والشجاعة والصرامة وجميع الاخلاق العالية النزيهة إلا فى المؤمنين بالله المعتمدين عليه ، وهذا أمر يعرف بالبداهة والواقع لا ينازع فيه إلا مكابر

ثم قال بعد هذا : « ثم أن نعد أن هؤلاء الذين يدعوننا الى الكفر بالانسان مجرمون ، لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادىء الهدامة »

فيقال : قد بينا أننا لا نكفر بالانسان ولا نؤمن به على المعنى الذى تريده وتدعو اليه بل ننزله فى منزله الطبيعى الذى وضعه الله فيه ، فقدرناه حق قدره وقلنا انه أكرم المخلوقات على الله ما دام معتصما به ، وانه خلق حنيفيا مستقيم الفطرة قابلا للكمال الممكن فى حقه ، وأنه أعطى من المواهب والاستعداد فيما يتعلق بالصناعات ونحوها ما لا يدخل تحت حصر ، ولكن لا يمكن بحال أن يساوى الله فى شىء من خصائصه ، هذا هو اعتقادنا فى الانسان ، وأما أنت فكفرت ببعض الانسان أشنع الكفر وأبشعه ، وآمنت ببعضه أفسد الايمان وأبطله ، فجمعت بين الكفر والايمان ، فكفرت بمن يستحقون الايمان المعقول من السلف الصالح الموجودين وقت نزول القرآن والتابعين لهم ، وآمنت بملاحدة العصر . وأما القرون الأولى فجعلتهم أدنى حالا من البهائم والحشرات بحيث انهم لا يستطيعون الكلام ولا الفهم ولا غيره ، بل يعبدون كل متحرك لذاته ، وهذا أكفر الكفر بالانسان . وهكذا عملت مع كل القرون الاولى الى هذا العصر فلم تؤمن ولا بعشر عشر معشار الانسان ، بل الانسان الذى آمنت به كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود بالنسبة الى من كفرت به بل أقل من ذلك ، ثم ادعيت مع هذا أن الواقع أن الانسان خبيث شرير

ظالم شيطان وليس وراء هذا الكفر بالانسان والقدح فيه كفر وقدح فكيف تدعى أنه فى الواقع شيطان وتدعو الى الايمان به ، فأنت إذن تدعو الى الايمان بالشياطين الخبثاء الأشرار الظلمة وتدعو الى الكفر بالمؤمنين الطيبين الخيرين العدول ، لأنك ادعيت أن المتدينين على اختلاف أجناسهم ما وهبوا الحياة شيئا جديدا ، ومن العجب أنك قررت أن المجرد من كل دين يبقى كذلك على الشر والخبث والظلم والجهل ، مع تقريرك بأن المتحلل من الأديان هو الذى صنع الحياة وصنع لها العلوم المبتكره ، فسبحان واهب العقول . وبالجملة فان حقيقه مذهبك واعتقادك بمقتضى كلامك هذا وغيره أنك كفرت بالانسان المؤمن بالله المتدين بدينه وآمنت بالكافر به وبدينه ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وبقيت على الكفر به ، فكفرت أولا بنوع وأمنت بنوع آخر ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وآمنت بمن كفرت به ثم رجعت فكفرت بالجميع كما أنك كفرت بالله كذلك فى عملية هذه الأغلال وغيرها ، فما أشبهك بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بان لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا ﴾ وهذا هو الواقع من حال هذا المبتلى ، فما ادعاه فهو حجة عليه ، فانه من اعظم الهدامين للمبادىء والاسس السليمة القوية ، عامله الله بعدله

فصل

ثم قال « انه لو اعتقد انسان اعتقادا قائما على الوهم أنه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقى قاعدا مستسلما لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير ، ولو اعتقد أنه لا يقدر على القيام لظل قاعدا ، ولو وضع فى مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه

بحيلة من الحيل لألزمه ذلك المكان والاغلاق الوهمى مكانه ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والافلات ، إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به ، وكذلك الجماعات والشعوب التى تعتقد خطأ بان قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الاوهام ما دامت خاضعة للايمان بها »

فيقال على وجه النقض : هذا رمى فى الهواء ومخاطبة للاشباح التى لا وجود لها ، فانه مبنى على أن المسلمين يقولون ان الانسان عاجز مقعد لا يمكن أن يعلم ولا يمكن أن يفهم أن يعمل ، وأنه لا يستطيع تعلم الصناعات ، وان عقله مقيد بقيود محدودة ليس فى امكانه ان يتجاوزها ، بل انه مبنى على أن الانسان لا يستطيع أن يعمل شيئا مطلقا كالمقعد والمقيد ، وكل هذا لم يقل به أحد من المسلمين ولا من المتدينين الذين يؤخذ بأقوالهم ، بل المسلمون يعلمون أن الانسان مأمور بالعلم ومأمور بالعمل ومأمور بان يطلق عقله اطلاقا كليا فى كل ما هو فى استطاعته وفى طوره ومقدرته ، أما اطلاقه فيما لا يمكن ولا يستطاع فهذا مما يوهنه ويقطع عليه الوقت بل ويضره ، فهو كاطلاق العامل فى محاولة مالا يطيقه ويعجز عنه ، فان ذلك ينهك قواه ويفوّت عليه امورا لا يمكن استدراكها ، وكل هذا الذى ادعاه قول زائف لا محل له البتة فهو — كما ذكرناه عنه غير مرة — يتوهم أوهاما على حسب ما يتمنى ويريد ، ثم يرمى بهذه الأوهام المسلمين ، ثم يدعى عليهم أنهم يقولونها ويعتقدونها كى يأخذ فى التحامل على هذه الأوهام والمحاربة لها ، فهو أشجع الشجعان فى محاربة أوهامه التى يتصورها على ما يشاؤه ويشتهيه

ونقول على وجه المعارضة انه لو اعتقد انسان اعتقادا جازما قائما على الوهم أن فى استطاعته أن يطير فى السماء بنفسه وأنه سيظل حيا دائما وأنه يمكنه أن يفنى هذا العالم كله أو يملك هذا العالم كله أو أنه يستطيع التغلب على الموت والخلاص منه أو أنه لا يمكن أن يحتاج لأكل وشرب أو انه لا يحتاج الى بول

واستفراغ وأنه لا شيء فوق قدرته وأنه يعلم بكل شيء - نقول انه لو اعتقد هذا كله أو بعضه أو شيئا منه - لم ينفعه هذا الاعتقاد ولم يثمر سعيه له بمجرد اعتقاده ولم ينفعه كل ما يحاوله فيما لا يقدر عليه كما لا ينفعه أن يحاول أن يكون جسمه اكبر من الجبل وأن يكون أقوى من الحديد ، وكل محاولة يحاولها الانسان فوق استطاعته المحدودة لا بد ان تحبط وأن لا يحصل له الا الخيبة والخسران ، ان محاولة كل مستحيل نقص ظاهر فى العقل ، ولو أن انسانا صدم صخرة برأسه معتقدا أن رأسه سيفلق الصخرة حتما لا نكسر رأسه وظهر دماغه مع أذنيه أو منخريه ولم ينفعه اعتقاده شيئا بل يضره غاية الضرر ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه من شاهق محاولا بوهمه أنه لن يضره ذلك لم ينفعه هذا الوهم والاعتقاد ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه فى نار بدون ما يقيه لم ينفعه ذلك ، بل كل هذا ربما يقضى على حياته ، ولذلك كان عاقبة الذين آمنوا بهذه الأوهام السخيفة - بدون قياس وفكر موزون - الدمار والسقوط والهلاك ، لأنهم آمنوا هذا الايمان الذى يدعيه فاعتقدوا أنهم سيحصلون على كل ما شاءوا وأن قدرتهم ستهبهم كل شيء وتوصلهم الى كل أمل . ان المسلمين لا يمنعون السعى وبذل الجهد فى سبيل وسائل المجد انما يمنعون كون اعتقاد الانسان وأمله فى كل شيء سيوصله اليه ولو كان مستحيلا ، فان هذا مخالف لضرورة العقل ، فالمستحيل مستحيل والممكن ممكن والواجب واجب والحقائق ثابتة فى نفسها ، فمن هو الذى يقدر أن يغير صورته الى صورة أخرى أو جسمه الى جسم آخر أو روحه أو عقله الى روح أو عقل آخر بل أن يغير صوته الى صوت آخر بحيث يلتبس به ، ولو أن انسانا وضع فى مكان مغلق محكم الاغلاق من كل وجه ثم حاول التخلص منه بحيلة واعتقد أنه سيخرج لا محالة لم ينفعه مجرد اعتقاده أبدا انما ينفعه فى النادر اذا فكر ثم رأى بفكره أن هذا الشيء غير مستحيل ثم سعى فى التخلص بكل ما يقدر عليه من حيث الجهة التى هى ممكنة فقط ، أما اذا كان المحل مغلقا والقفل محكما وليس عنده ولا لديه

أحد فلا يمكنه الخروج أبدا إلا أن يكون بخارق عادة ، وهذا انما يحصل بالطاعات وهى عنده لها نتائج أخرى هى الملهاة والمصرف الخبيث . ولو أن مقعدا حاول النهوض والمشى بمجرد وهمه واعتقاده أنه قادر على ذلك لم ينفعه اعتقاده ووهمه بل يبقى مقعدا على حالته وذهب اعتقاده ومحاولته هباء وبالجملة فمجرد اعتقاد الانسان بأنه يصل الى كل شيء وأنه يتغلب على كل شيء لا ينفع أبدا بل يوقع فى القلق والاضطراب وفساد الرأى ، وكذلك اليأس لا ينفع انما ينفع بذل الجهد فيما يمكن الوصول اليه ، وهذا هو قولنا ، فما ادعاه هنا وزخرفه بالتمويه والكذب والمجازفة كلام ساقط لا يعتد به كما هو ظاهر

فصل

ثم قال : « وأخيرا لقد زعم هؤلاء ان الرسول الكريم قال « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ثم زعموا أن معناه من عرف نفسه متصفة باضداد صفات البارى - أى بالجهل والغباء والحقارة والضآلة والضعف والافتقار والفقر وبكل الصفات المرذولة - فقد عرف ربه بالعلم والقوه والغنى وكل صفات الكمال »

والجواب أن يقال : (على نفسها تجنى براقش) هكذا زعم سادتك الملاحدة الذين دخلوا فى الاسلام كيدا له ولأهله ليشوهوا سمعته بذلك فان هذا لا يكاد يعرف فى كتاب من كتب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وانما يقال انه يوجد فى كتب الاتحادية الذى رموا بالالحاد والقدح فى الأديان ، فهؤلاء الملاحدة الاتحادية من الجهمية وغلاة الصوفيه انما دخل غلاتهم فى دين المسلمين متربصين بأهله الدوائر باذلين جهودهم فى تشويهه والايقاع بأهله ، واذا سئلوا عما كتبوه من الألفاظ الالحادية الكفرية فى كتبهم المزخرفة بالتمويه ودعوى أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر أجابوا بأن الناس لم يفهموا كلامهم وأن لهم اصطلاحا خاصا وأنهم محسودون عليها ، وذهبوا فى المراوغة

والنفاق والتأويل البعيد كل مذهب، وقالوا انما نعنى كذا وكذا، ولكن الناس لم يعلموا المراد الذى نقصده . فهؤلاء الزنادقة الهدامون وأمثالهم هم سادتك وأسلافك فى هذه الميادين الالحادية ، فانك اقتفيت آثارهم واتبعت آراءهم ، فما كان ينبغى لك أن تشنع على أئمتك وسادتك الذين مهدوا لك الطريق وسلكت سبيلهم فى هذا المضيق ، أما المسلمون فانهم لا يقولون هذا القول ولا يفسرون هذا الحديث بهذا التفسير ، فانهم يفسرونه على تقدير ثبوته بان المراد من عرف نفسه وما فيها من التركيب البديع العجيب والنظام المحكم عرف ربه ، فان المخلوق لا بد له من خالق فما فيه من الاحكام دل على العلم والقدرة والحكمة والإرادة ودل أيضا هذا الوضع على أنه سبحانه رحيم رءوف دائم الاحسان ، فمن عرف نفسه عرف ربه لما هو به من هذه النعمة العظيمة الدالة على الاحسان وعلى صفات الكمال ، فمعنى هذا الحديث كمعنى الآية المتقدمة ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه الآية . أما كون المسلمين يدعون أن معناه على ما ذكره فمراء ظاهر لا يشك فيه مسلم ، وقد كان من المعلوم عند المسلمين أنه قد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « ان الله كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، وانه جميل يحب الجمال » فهم يحبون الكرم والجود والجمال كما يحبون الرحمة والعدل والحكمة والاحسان والعلم وأمثال ذلك ، وكل هذه الصفات قد وصف الله بها نفسه على ما يليق به ويختص به لا على ما يليق بخلقه ويختص بهم ، فكيف يدعى هذا الملحد أنهم يوجبون على الانسان أن يتصف بضد صفاته تعالى على ما ذكره . أما التكبر والقهر والتعذيب بالنار ونحو ذلك فانهم لا يجيزون للانسان الاتصاف بها لأن ذلك مما ينافى العبودية المطلوبة منهم ولأن ذلك ليس لهم منه منفعة بل مضرة ، وهذا مع العلم بأن العلم والرحمة والحكمة ونحوها مما أمر الله تعالى بالاتصاف به ليست من جنس صفات الله تعالى التى اختص بها ، بل هى صفات تليق بهم بقدر حالتهم ، كما أن صفاته تعالى تليق به مع ثبوت حقائقها فى حقه تعالى وتقدس

ثم انه أخذ يتهور فى معنى هذا الحديث فحمله على ما يوافق هواه وشهوته فقال أيضا فى معناه : والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحا أن المراد من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة الخ

فيقال : لكن الشأن فى معرفة المقصود من المواهب والاستعداد ومعرفة الاستثمار ما هو ؟ والله سبحانه قد أوضح ذلك أيضاحا لا أبين منه ، فأخبر تعالى أن الحكمة فى خلق الجن والإنس والغاية المطلوبة منهم عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ أخبر أن الدعاء من أعظم أركان العبادة كما قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كفرتم فسوف يكون لزاما ﴾ وأنت جعلت هذا لا فائدة فيه ، وأخبر الله ان الفطرة التى فطر الناس عليها هى قبول الدين والعمل به ، وأنت جعلت الفطرة التى هى الاستعداد والمواهب خبثا وشرا وظلما وجهلا ، فكيف يمكن أن تستثمر من الخبث والشر والظلم الخيرات وطرق الرشد والكمال ، فانت لم تعرف ربك بهذا الاعتبار ولا بغيره أيضا لأنك سلكت فى هذه المواهب والاستعدادات مسلكا غير مسلك المسلمين ، بل سلكت مسلك الملحدين ، لانك دعوت الى خلع الدين ورفضه واتباع سبيل الملحدين وطريق المنافقين فكان المسلك الذى سلكته فى هذه المواهب مسلكا خبيثا ملتويا بعيدا مضلا ، لأن حقيقته كما قلنا رفض الدين وجعلت ذلك طريقا الى الترقى فى علوم الصناعات والتوسع فيها فصادمت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأخذت تتخبط فى ظلمات الشك والريب كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون

الكلام على المبحث الثالث

قال الملحد :

« العلم حجاب ـ الجهالة أم الفضائل ـ أكثر اهل الجنة البله ـ هكذا قالوا . روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغـــزل وسورة النور » ورووا أن على بن أبي طالب مرّ بامرأة تعلم الكتابة فقال « أفعى تسقى سما » ورووا أن النبى عليه السلام قال « ان البيان والبـذاء من النفاق ، وان العى والبذاذة من الايمان » وانه قال « ان الله يكره البليغ من الرجال »

والجواب أن يقـال : أما دعواه أن المسلمين (١) يقولون ويعتقدون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فيكفى فى رد هـذه الدعوى برهان الضرورة والمشاهدة والحس ، فان هذا أكبر برهان ، وهو وجود الكتب المتنوعة فى كل فن مما لا يعده ولا يحصيه الا الله تعالى ، فهذه الكتب قد ملأت المكاتب ونحوها من المجلات والجرائد وكلها مملوءة بمدح العلم وذم الجهل ، ولو قلت لأدنى عامى من المسلمين أنت جاهل لم يرض بذلك لأنه يرى الجهل عيبا والعلم فضيلة ، فوجود هذه الكتب والمجلات والجرائد ووجود المدارس منذ ثلاثة عشر قرنا فى هذه الأمة المحمدية وهذه المدارس فى جميع بلاد الاسلام من أكبر البيوت وأوسعها واطولها واحسنها كاف فى تكذيب هذه الدعوى . ولو أن الله أعمى عينيه كما أعمى قلبه وأصم اذنيه كما أصم قلبه لكان له نوع من العذر ، أما كونه يدخل المدارس ويخرج منها وينظرها وقد دخل الأزهر وطرد منه وحشا كتبه الأولى كلها مما يخالف هذا فلا حاجة الى الاطـالة فى جداله ونقض دعواه . وهذا الجواب وهذا البرهان الحقيق كاف فى ما لو أن

---

(١) لأن موضوع أغلاله فى الأسباب التى أخرت المسلمين خاصة على ما يزعم

أكفر يهودى وأعدى عدو للاسلام والعرب نشر وادعى أن المسلمين يرون العلم حجابا ويرون الجهالة أم الفضائل فلا يرد عليه فى تكذيب هذه الدعوى باكثر من هذا ، لأن المكابرة فى جحود هذه الحقائق سفسطة وهذيان وجنون

وليس يصح فى الاذهان شىء　　اذا احتاج النهار الى دليل

وأما الأحاديث التى ذكرها فالجواب عنها من وجهين مجمل ومفصل ، أما المجمل فنقول لا تخلو هذه الأحاديث من ثلاثة فروض اما أن تكون كلها صحيحة أو تكون ضعيفة أو يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح ، فان كان الاول ـ اى صحيحة كلها ـ فلا حاجة الى أن يرد على المسلمين العاملين بها ويشنع عليهم ـ ان كان قد عمل بها أحد ـ ويذمهم ، لانه حينئذ انما يرد على من قالها عليه السلام ، لأن التشنيع بها وجعلها حلقة من حلق أغلاله وسببا من أسباب التأخر دليل على ردها والاستهزاء بها ، واذا كان الأمر كذلك على هذا الافتراض فهو انما يرد على هذا الرسول الكريم لا على أتباعه من المسلمين ، لانه ساق الأحاديث نصاً ثم جعلها موضع الانتقاد ، واذا لجأ الى الخداع وادعى أن المسلمين لم يفهموا معناها لأنهم عنده لا يفهمون شيئا ولا يعقلون لان العلم حجاب عندهم قيل يجب عليك أولا أن تبين بالبراهين وجه دلالتها على مقتضى أصول اللغه والشرع ثم تبين فهم العلماء لها ثم تبين فهمك أنت لها وترد ما يعارضه ويخالفه بالبراهين والدلائل المعقولة فتفيض فى شرحها كما افضت فى شرح كلمة ذلك المتخصص فى علم النفس ، وكما أفضت فى شرح حالة وزارة التموين المصرية حيث لم تجب طلبك على الفور فى بيع الورق ، فى نحو خمس صحائف ، وكما أفضت فى شرح كلمة جستاف الذى نقلت عنه أنه يقول ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، وأخذت تمطط بهذه الكلمة وتعلق عليها ذلك التعليق المناسب لخبثك وعداوتك للاسلام ، فانت اذن لم تفعل شيئا مما ذكرنا على هذا الحديث . واذا كان الغرض الثانى وهو كونها غير صحيحة فعليك أن تبين قبل كل شىء من قال بها من الناس ، ثم تبين ضعفها

وضعف ما بنى عليها وذلك بذكر رجال اسانيدها وما قيل فيهم ، وتذكر كلام اهل المعرفة بهذا الفن فى بيان ضعفها وعدم الاعتماد عليها ، ولا يكفى مجرد الدعوى بالضعف ، وانت إذن لم تفعل شيئا من هذا . واذا كان الغرض الثالث فيجب عليك أن تميز الصحيح من الضعيف من الباطل وتعطى كل حديث منها حقه من ايضاح الدلالة ، وانت لم تفعل شيئا من هذا أيضا ، فسقط ايرادك لها من كل وجه . فرجل يريد أن يهجم على أمة عظيمة يدعى أن عددها يبلغ اربعمائة مليون نفس فينسب اليها أمورا باطلة ومقادح شنيعة ويطعن فى آرائها وعقائدها وعلومها ، ثم يأتى الى أحاديث مكتوبة فى بعض كتبها على ما يزعم فينقلها ، ثم يضيف الى ذلك رميها بالجهالة والغباوة والحمق بدون بيان أصول وقواعد ومقدمات صحيحة ثابتة يتمشى عليها فى مثل هذه الأحاديث وغيرها ، لا شك انه رجل مملوء بالحقد والمقت الشديد للاسلام وأهله ، ولا ريب أنه متلاعب مخادع عابث بالدين وباحترام أهله . هذا ما نقوله اجمالا على هذه الأحاديث

وأما ما نقوله فى الوجه الثانى المفصل ، فالحديث الأول لا حجة له فيه سواء كان صحيحا أو ضعيفا لأنه ليس فيه دلالة على ما يقصده من أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل عند المسلمين ، بل هو حجة عليه لانه تضمن الأمر بتعليم سورة النور ، ولا شك أن هذه السورة الكريمة العظيمة على مقتضى اسمها النور فانها مشتملة على أصول علوم لا حدّ لها ولا نهاية من التوحيد والآداب والعفة والفضائل والحث على العمل وغير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ولكنه استصغرها واحتقرها ورأى أنها ليست بشىء ، ولهذا جعلها موضع الانتقاد ، فمن علم سورة النور فهو على نور من ربه وبصيرة من أمره سواء كان رجلا أو امرأة ، مع أن الحديث لم يذكر فيه الا المرأة ، وهو استدل به على جنس الانسان ، فكيف مع هذا يستشهد به على أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وهو ينقض هذا الاستشهاد أعظم النقض ، وهل

هذا إلا عكس للحقائق الجليلة . وأما الكتابة فسيأتى الجواب عنها ، مع أن النهى هنا خاص بالنساء ، وفى الحديث أيضا ما يشير أنه لا مانع من العمل للنساء - بل وغيرهن بطريق الاولى - لأن المغزل من مبادىء الاعمال الصناعية الدقيقة ذات الأهمية ، اذ هو من مبادىء أصول النسج المناسب لذلك الوقت

وأما الحديث الثانى فهو اولا موقوف والموقوف لا حجة فيه ، وثانيا هو خاص بالكتابة ، وليس العلم كله فى الكتابة ، فان اكثر الناس يلحق علم الكتابة بالعلوم الصناعية ، فالكتابة نوع من أنواع العلم فهو أوسع منها ، فكم من عالم لم يكتب ولم يعرف الكتابة ، وقد قال تعالى ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ﴾ ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل البشر ، وما نقص من جلالته شىء لعدم معرفته الكتابة ، فالكتابة عمل جليل من ضرورات الدول والشعوب ، لكن كون العلم محصورا فيها غير صحيح ، بل هى نوع جليل من أنواع العلم ، وكثير من العلوم أهم منها ، وما رأيناك تحث على شىء منه بل تذمه غاية الذم كالدعاء وغيره . ثم ان هذا الذى حكاه رواية عن على ليس فيه ما يفيد العلوم ، ولعل هذه المرأة كانت تعلم كتابة خاصة فاسدة أو أنه تفرس فيها أن لها قصدا سيئا فى تعليمها ، فهى قضية عين لا عموم لها ، ويدل على هذا دلالة كالشمس أن عليا رضى الله عنه كان يدعو الى العلم والتعليم فقد ثبت عنه فى حديث صحيح أنه قال على منبر الكوفة وهو يخطب « سلونى قبل أن تفقدونى » وهذا غاية الحث على العلم والتعليم ، فهذا أصح وأصرح من تلك الرواية التى تضمنت الكتابه خاصة فى شخص معين ، فهل يسوغ فى العقل والدين أن يقال ان عدم تعليم امرأة من النساء الكتابة دليل على جهالة الامة كلها ، فالكتابة من الامور الصناعية الضرورية التى تكون فرضا على مجموع الامة لا على كل فرد منها ،

فانه يوجد كثير من الرجال الدهاة العظماء فى كثير من الشئون السياسية وغيرها وهم من أولى الضرر ، ولو أن رجلا حافظ على فروض دينه لم يسأل يوم القيمة عن عدم معرفة الكتابة وانما يسأل عن العلم النافع المنجى ، فليست الكتابة علما دينيا يتقرب به الى الله بذاته ، بل هى بحسب علاقتها بما يقارنها من العمل والقصد والنية فهى فرع على غيرها بالقصد لا بالذات

واما حديث « ان البيان والبذاء من النفاق وان العى والبذاذة من الايمان » فهذا الحديث على تقدير ثبوته ليس فيه شاهد لما يدعيه على أن العلم حجاب ، فان البذاء ليس بعلم بل هو خلق خبيث كما فى الحديث الآخر « ان الله يبغض الفاحش البذىء » فقرنه بالفحش ، ومعلوم أن الفحش ليس بعلم ، الا إن كان عند هذا الرجل فانه ادعى فيما ياتى أن علم الشطرنج من العلوم التى يجب تعلمها . وأما البيان فالمراد به البلاغة المذكورة فيما يأتى . وأما البذاذة فهى عدم التكلف فى بعض الأمور الدنيوية كالرثاثة فى الثياب ونحوها ، ومعلوم أن الانسان الذى يجعل همته فى خدمة جسمه وملبسه دون دينه وأمته أرعن قاصر النظر ضعيف الهمة لا خير فيه

وأما حديث « ان الله يكره البليغ من الرجال » فهو حديث صحيح ، ولكنه سلط عليه سلاحه فى الحرفة اليهودية ، فانها بضاعته فى هذه الاغلال ، فقطع نصفه الذى يقطع ظهره ، فان متن الحديث هكذا « ان الله يكره البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تخلل البقرة بلسانها » فبين فى هذا الحديث نفسه أن البيان المكروه من الرجال هو الموصوف بهذه الصفة المنكرة بانه الذى يصنع صاحبه كما تصنع البقرة بلسانها ، ومعلوم أن الرجل الذى يبلغ الى هذه الغاية على غاية من ضعف العقل وسوء الأدب لأنه تكلف فى نطقه بما لا فائدة فيه ، وهو ينافى حسن الخلق المأمور به شرعا ، فاى حجة له فى هذه الأحاديث حتى يأتى بها مستدلا بها على بهته للمسلمين بانهم يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل . فقد تبين لك من هذا أنه لا تعلق له بشىء من هذه الآثار البتة

والعجب أنه أعرض عن جميع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في الحث على العلم والأمر به والترغيب فيه وتعلق بهذه الآثار الضئيلة الغامضة التي هي عند التحقيق حجة عليه . وهذا من البراهين الظاهرة على أنه ممن زاغ قلبه فأخذ يتتبع المتشابه والغامض الذي لا حجة له فيه ، ولا عجب فالمضطر يأكل ما وجـــده

فصل

قال : ورووا انه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غيظا وقال « امتهوكون انتم » الحديث . ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والانجيل ويعاقب على ذلك ، وأنه كان يقول في كل كتاب يحاولون قراءته : أيوافق ما فيه القرآن ، ان كان يوافقه فان القرآن يغنينا ، ولا معنى حينئذ لقراءته ، وان كان يخالفه قال : لا خير في شيء يخالف القرآن . وهنالك الرواية المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسنا لها ومفتخرا بها منهم المقريزي ومن لا يقلون عنه وهي الرواية التي قيل فيها ان عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية قائلا ان كان مافي المكتبة موافقا للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا اليها ، وان كان مخالفا لها فلن نبقى على شيء يخالف القرآن ، وانها أحرقت ، وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا »

والجواب ان يقال : يتبين للقارىء من سياق هذا الرجل لهذه الروايات أن كتب أهل الذمة والملاحدة الأولين هي العلم الذي يراه المسلمون حجابا وأن عدم درسها ومعرفتها والعمل بها هو الجهل الذي هو أم الفضائل أو أبوها الذي عناه في عنوانه السابق . وهذه الروايات التي ذكرها هنا - مع عدم الافاضة في تمحيصها - لا حجة له فيها ، بل هي من أعظم الحجج عليه ،

ذلك لأنها كلها دلت على الحض على وجوب التمسك بالقرآن وعدم الالتفات الى ما يخالفه ، ولا شك أن سياقه لهذه الآثار يقتضى أنه لا يرى فى مخالفة القرآن من بأس بل يرى أن القرآن ليس فيه شىء من العلم النافع ، وحينئذ فليصرح بهذا هنا ليستريح ويهدأ وليتنازل عن نفاقه فى الاحتجاج به وافساد معانيه . وكل ذى عقل ودين يعلم أن قول عمر هذا ورأيه من أعظم الدعاية الى العلم النافع وسد الطرق التى تشوش عليه وتدخل الريب فيه ، فان الشىء الثابت الصحيح القطعى لا يسوغ لعاقل أن يسعى فيما يوجب الشك فيه والاضطراب فى مدلوله ولا سيما وأكثر الناس حدثاء عهد بكفر ، وقد لاحظ هذا الأصل العظيم امير المؤمنين فاروق هذه الامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بدهائه ونور بصيرته فمنع ورود هذه الجراثيم القاتله على هذا الدواء الجديد الطاهر النقى السماوى ، ورد هذه الشبهات والشكوك على هذا النور الواضح الجلى ، والحق الذى لا ريب فيه ، وأجاب من نازعه فى هذه النظرية الصحيحة بالجواب المسكت الموجز المذكور ، فأذعن له المنازع لما ظهرت عليه الحجة . فان قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » قول فى غاية الصحة ، فان من اعتقد صدق القرآن وأن فيه الكفاءة التامة يمتنع أن يذهب يتطلب الحق مما يخالفه [1] ومن شك فيه فهو كافر وهذا له شأن آخر . وهذا الملحد انتقد على هذا الخليفة الراشد قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » فمعنى هذا الانتقاد أن فيه خيرا ويجوز مخالفته ، والا فلماذا انتقده ، ومن أعجب العجب أن هذا الملحد ادّعى فيما تقدم أن أقوال الفقهاء تموج بها الكتب موجا من

---

(١) وينبغى أن يلاحظ قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » ولم يقل لا خير فى شىء غير القرآن ، فان المخالفة معناها المضادة ، ومعلوم أن من اتبع القرآن وصدق به يجب عليه أن يعتقد هذا ، بخلاف غير القرآن كالعلوم التى تتعلق به فهذه تكون تابعة له فيما صح منها لأنه أرشد الى ذلك

غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، وهذا قدح صريح فيها ، ثم زاد الطين بلة فى البحث العاشر كما يأتى وهجم على جميع كتب الدين الأولى وأدعى أنها ضرر كبير وأنها من أعظم العوامل فى التأخر ، فيقال لهذا الزنديق هلا جعلت هذه الكتب التى قيل انها احرقت من جنس كتب هؤلاء الفقهاء ونحوهم التى هجمت عليها هجوما عنيفا وادعيت أنها ضرر محض ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية كيف تنتقد على عمر الفاروق وتدعى أن يكون ايمانك مثل ايمانه ثم تهجم على كتب علماء المسلمين وتضيف اليها كل ما خطر على بالك من سب واتهام ، ووالله انك لو قدرت عليها لأحرقتها وذريتها فى يوم عاصف لمجرد مخالفتها رأيك وأغلالك ، ثم تنتقد على عمر فيما نسب اليه عن كتب لا يدرى ماذا اشتملت عليه من الكفر والشرك المنافى للقرآن . واكبر من هذا وأطم انك ادعيت أن الانسان الموجود وقت نزول القرآن لا يبعد كثيرا عن الطور الحيوانى فالذين قبله لا شك أنهم فى طور الحيوانية فلا بد أن تكون كتبهم مضرة بكل حال لأن نظرتهم قاصرة فلا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فهى بمقتضى قاعدتك فى التطور أشنع من كتب هؤلاء الفقهاء الذين هجمت على كتبهم كلها وجعلتها ليس لها قيمة فى العقل والدين والعلم ، أتريد أن تنتقد فاروق الامة خليفة رسولها فى العمل الجليل وتسوغ لنفسك ذلك الرأى الوبيل ، وقد ظهر الشر الذى خشى عمر وقوعه وهو أن كتب الأوائل هذه لما خرجت فى وقت المأمون واندفع الناس اليها وغيروا فى أصول القرآن صار ما صار على المسلمين وتحول الاسلام وقت ظهورها وتعريبها على يد هذا الخليفة ، ومن وقته الى هذا الوقت الحاضر والاسلام يتحول فنزل من تلك القمة الرفيعة فى وقته بسبب هذه الكتب التى جرت الى مذهب الجهمية والمعتزلة فكانت أعظم سبب فى هدم الاسلام ، وهذا مما يدل دلالة صريحة على صحة نظر عمر رضى الله عنه وأن فعله هذا لو صحت الحادثة يعد من محاسنه الكبرى ، ثم ان هذا الخليفة قد نصره الله وسدد

رأيه ، فكيف ينتقده فى هـذا العمل الجليل ، ثم يتجاهـل ويطعن فى الرواية الاخيرة بدون حجة . ويدلك أيضا دلالة صريحة صحيحة على أن هذا العمل من عمر من الاعمـال السديدة الموفقة أن عـــلوم الأوائل وكذلك التوراة والانجيل لا تخلو من قسمين اما أن تكون موافقة للقرآن وهذا نوعان أحدهما ان تكون موافقة له نصا أو ظاهرا كأكثر مسائل أصول الدين ، وثانيهما أن تكون موافقة له فى القاعدة والاصل والقياس كأكثر مسائل المعامـــلات والمباحات ويدخل فى ذلك الامور الصناعية والتجارية والاقتصادية والمـادية وأمثال ذلك ، وهذا لم ينه عنه عمر وانما نهى عما يخالف القرآن فقط وكونه منع هذه الـكتب لأن ضررها وقتئذ أكثر من نفعها والنـاس اذ ذاك ليسوا فى حاجة اليهـا لان النصوص الشرعية مفهومة لديهم فهما بينا صحيحا ، فانه ليس هناك مـلاحـدة بينهم ولا جهمية يحرفون الكلم عن مواضعه ولا سيما صفات الله تعالى كعلوه على عرشه فيدعى أن ظاهر القرآن لا يعتـد به أو لا يفيد اليقين بل لا بد من تحريفه الذى يسميه تأويلا بمجرد أن عقله المعكوس دله على هذا فعارض بعقله كلام الله مع أن عقله هذا فيما يزعم دله على صحة ما جاء به الرسول عليه الصلاة السلام وأنه لا يقول الا الحق وأنه أعطى كمال الفصاحه والبلاغة وكمال الصدق والنصح فى كل ما بلغ به كما هو دعوى الجهمية ومن دخل معهم فى هذا الباب

والمقصود أن فعل عمر هذا وقوله فى غاية السداد ، وها نحن نرى هـذه الدول التى تحافظ على مبادئها التى ليست من الدين فى شىء تشدد المراقبة على الـكتب والمجلات والجرائد التى تدخل بلادها فاذا وجدت شيئا يخالف مبادئها لم تسمح بدخوله مطلقا ، فما باله لا ينقد هؤلاء بل أعظم ما لديه من السب والقدح موجه دائما الى هؤلاء المسلمين ولا سيما أهل العلم والدين

والقسم الثانى أن يكون ما اشتملت عليه هذه الـكتب مخالفا للقرآن ، ولا شك عند كل مسلم أن ما خالف القرآن فى النص والظاهر بل والقاعدة فيجب

على كل مسلم اجتنابه لانه لا خير فيه بل هو الشر والخبث بعينه كما دل على ذلك خروج هذه الكتب أيام المأمون فكان ذلك برهانا قاطعا على صحة ما تقدم . وقوله وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا ، فيقال أنت من أعظم الطائرين بها فرحا ، فانك التقطتها وحفظتها وسجلتها فى أغلالك التى هى عندك الحقائق الازلية الابدية وجعلتها قاعدة لبحث مستقل فى القدح فى الاسلام وأن أهله يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل ، ولم يكفك ذلك حتى انتقدت على الخليفة الملهم رضى الله عنه صنيعه البديع الجليل الجميل فانه رضى الله عنه كان عارفا حكيما فى حماية الاسلام وحفظه وابعاد ما يمس طهارته وكرامته

فصل

قال« وقد تكلموا كثيرا فى تحريم المنطق والفلسفة وألفوا فى ذلك كتبا منها كتاب الاسيوطى المشهور أقوال اهل المشرق فى تحريم المنطق وقد حكى فى هذا الكتاب الاجماع أو شبه الاجماع على تحريمه ومن العبارات المشهورة عندهم فى هذا قولهم من تمنطق فقد تزندق وفى الكتب المدروسة :

(فابن الصلاح والنواوى حرما) [(١)]

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله فى الانتقاد الذى لا محل له ، وسياقه لهذه الجملة مما يدل على أنه يرى أن العلم أو اعظم فنون العلم علم المنطق ، وقد تقدم فى الجملة الاولى ما ذكره فى علوم الأوائل وكذلك التوراة والانجيل وسيأتى إدخاله علم الشطرنج والموسيقى ونحوهما فى العلوم التى يشنع على المسلمين بأنهم جهلوها ويدعى عنهم أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل أما القرآن وجميع كتب السنة فضرب عنها صفحا ونبذها وراءه ظهريا بل

---

(١) تمام البيت : وقال قوم ينبغى أن يعلما

صرح بأن كتب الفقه ليس لها قيمة علمية ولا عقليه ولا دينية وتعليم علم المنطق فيه خلاف مشهور وكثير منهم يرى جوازه ، وقد اعترف هذا الملحد أنه من الكتب المدروسة فى الازهر حيث استشهد لشطر البيت الذى فيه ذكر الخلاف ، وقد استعمل فيه الحرفة اليهودية فحرفه تحريفا منكرا حيث حذف ما ينقض كلامه مع أن الشطر الذى ذكره لم يذكر فيه غير اثنين من العلماء وهو ادعى أن المسلمين كلهم يحرمونه لانه أضاف اليهم التحريم ولم يذكر الخلاف ، ولو ذكر الأبيات المرتبطة بعضها ببعض لا فتضح ولم ينل لذة التحريف التى اعتادها ، والابيات هى :

فابن الصلاح والنواوى حرما وقال قوم ينبغى أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحه جوازها لكامل القريحه

فانظر الى ظهور تحريف هذا الملحد فى حذف ثلاثة أرباع الجملة المفيدة بوضعها واقتصاره على ربعها وهى مرتبطة بعضها ببعض تمويها على الناس بأن هذا الشعر المدروس يقتضى أن الناس يحرمونه وقد علمت من هذه الأبيات أن صاحبها ممن يجيز تعلمه ومع ذلك احتج به على عكس ما يراه الناظم وقد أقر بأنها مدروسة فى الازهر فكيف يدعى أنهم يحرمونه وهم يدرسونه فى الازهر جاعلين فى دروسهم هذه المنظومة ، وحينئذ يقال ان كان تعليم المنطق جائزا فهو قول لبعضهم أو لجمهورهم وما دام مدروسا فى الازهر فلا معنى للحث عليه ورميهم بالغباء والجهالة والحماقة بدعوى أنهم تركوه ، وان كان تعلمه حراما بطل اعتراضك وقد قال به بعضهم والذين قالوا بتحريمه قد بينوا وجه تحريمه فيجب عليك ان تبطل حجة من حرمه ولا تقتصر على التشنيع فقط فان هذا ليس فيه فائدة ، وقد قال بعض المحققين فى علم المنطق أن تعلمه ومعرفته لا تفيد البليد ، وجهله لا يضر الذكى ، وهذا هوا الصحيح ، فان كثيرا من أكابر العلماء والعظماء من أهل الصدر الأول ومن بعدهم لم يعرفوه ولم يضرهم ذلك شيئا ، وكثير من الأغبياء تعلموه وما نفعهم بشىء بل قطع

عليهم أوقاتا ثمينة لو صرفوها فى غيره من العلوم النافعة لكان خيرا لهم ، فلهذا كان الراجح عند المحققين المنع من تعلمه

فصل

قال « وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذى وجهوا عنايتهم الى تعريب كتب الاقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بنى العباس لأنهم فى زعمهم نقلوا الى المسلمين علم الكفار وساعدوا الزنادقة والالحاد على الانتشار »

فيقال : أما دعواه أن المسلمين شنعوا على الخلفاء العباسيين الخ فهذا كذب ظاهر على هذا الوضع ، لأنه يفهم منه أن الخلفاء العباسيين كلهم أو أكثرهم فعلوا ذلك ، والواقع ليس كذلك بل الواقع أن الذى فعل هذا هو الخليفة الضال المأمون فهو أول من وجه همته لهذه النظرية الخبيثة التى جرّت على الاسلام الويل والخراب والدمار الذى لم يحصل للمسلمين حياة صحيحة بعده ، فانه بسبب هذه العلوم كان أول من غير دين الله فى هذه الأمة الاسلامية فأنزلها من أعلى قمة وصل اليها وسعى فى هدم الاسلام حتى هدمه والناس ينظرون ، فانه لا خلاف بين العلماء كلهم بان أرفع ما وصل اليه الاسلام فى الدولة العباسية فى الرقى هو فى وقت الرشيد فلما تولى المأمون لم يتغير شىء من حالة الاسلام ، فلما سعى هذا الخليفه فى حبس العلماء وضربهم وتعذيبهم وقتلهم وجدّ فى بث الدعاية الى تحريف الصفات وانكار أن الله تكلم بالقرآن وأنه ليس على العرش فوق السموات وأنكر كثيرا من الصفات وسلك طريقة الجهمية والمعتزلة وقرّبهم منه وأبعد أئمة اهل الحديث كالامام احمد والبويطى الشافعى ومحمد بن نوح وغيرهم وعذبهم ونكل بهم فضرب الاسلام فى صميمه بهذه السهام الخبيثة وتحول الاسلام فى هذا الوقت نفسه فأخذ يتحول كلما زاد هذا الوباء فيه الى أن وصل الى هذه الحالة الحاضرة ، وقد قرب هذا الخليفة الضال ملاحدة المعتزلة كالمريسى وابن ابى دواد وغيرهما

واكرمهم ورفع منازلهم وشرد علماء الدين من أهل الحديث وغيرهم وسامهم سوء العذاب حتى أخذه الله فكيف لا يشنع ولا يرمى بالضلال والزيغ وسوء الاعتقاد من هذا صنيعه

ومما ينبغى ملاحظته أن هذا الملحد ادعى سابقا أن الأولين ليسوا على شيء من العلم والمعرفة حتى ادعى أن من فى وقت نزول القرآن لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى وأن تلك المرحلة هى المرحلة التى وصلت اليها الانسانية فى ذلك العهد ، فاذا كانت هذه حال هؤلاء الأوائل وأنهم ليسوا على شيء من العلم والمعرفة فكيف تشنع على من شنع على من أحيا كتبهم وعلمها وتعلمها واعتمدها وبدل بها قواعد الدين ، وكيف يعيب على المسلمين انتقادهم على المأمون الذى أخرج كتب هؤلاء الذين وصفهم بانهم لا يبعدون عن طور الحيوان بزعمه ، بل كتب الاوائل فى عهد طور الحيوان على مقتضى قاعدته وكلامه ، ومن قواعده رفض القديم والتعلق بالجديد ، فلماذا هدم قاعدته وتناقض . والعجب كل العجب أن هذا الملحد افرغ أقصى ما لديه من السب والاتهام على هؤلاء الذين يتعلمون هذه الكتب القديمة كما يأتى فى البحث العاشر وأطال واطنب وأسهب فى هذا الموضوع وجعل من فعل هذا لا عقل له ولا فهم لديه ، والمأمون قد فعل هذا الفعل نفسه فأخذ كتب الأوائل وعربها ودعا وقاتل عليها ، فلماذا حامى عنه هذه المحاماة ، ولكنه أراد أن يعاكس أئمة الدين فى كل شيء ولو تناقض ، كما أنه مبتلى بحب كل من أساء اليه وبغض كل من أحسن اليه لان نفسه نفس خبيثة تتطلب كل ما يناسبها من الخبث فى الاخلاق والاقوال والأعمال

فصل

ثم قال « وجاء فى كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جدا قال كل ما يسمى علما مما ليس فى الكتاب ولا فى السنة ومما

ليس من علوم المسلمين فهو لا يخلو من أحد احتمالين أحد الاحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ ، وثانيهما أن يكون علما حقيقة ولكنه علم ضار فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله »

والجواب أن يقال : هذا النقل أيضا لا يدل على ما ادعاه من أنهم يرون العلم حجابا ، ولا فيه ما يتعلق به أصلا ، بل هو حجة عليه ، فإن هذا القائل ذكر أن ما كان ضارا غير نافع مما ليس فى الكتاب والسنة ولا فى علوم المسلمين فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله ، وهذا هو عين الحق ، وكلام هذا القائل تضمن أن تعلم الصناعات والأمور الاقتصادية والتجارية والمادية جائز لانه قيد ما لا يجوز تعلمه بأن يكون ضارا غير نافع ، وهذه قد ثبت أنها نافعة اذا أجريت على وجهها الصحيح ، فان الكتاب والسنة دلا على أن ما كان نافعا غير ضار فهو مباح فعله واستعماله ، ودلا على أن الاصل فى هذه الأمور الاباحة والجواز الا ما دل الدليل على منعه ، وهو هنا لم يدل دليل على منع هذه الامور فى الجملة ولم يدع المسلمون أنه يوجد أدلة تمنعه وقد قدمنا أن من القواعد الاصولية أن مالا يتم الواجب الا به فهو واجب ، ومعلوم أن الجهاد والدفاع عن الاسلام من أوجب الأمور ، وهذا لا يتم الا بتعلم الوسائل العلمية المادية التى تعين على ذلك ، فأى وجه لانتقاده على هذا النقل الجليل الجميل ، ولكنه مصاب ببغض كل جميل وكراهته ومقته مبتلى بحب الخبائث وتتبعها فكلما كان القول أشد خبثا كان أشد حبا له وكلما كان القول احسن تحقيقا وافادة كان أشد كرها له ونفرة منه ، ولهذا كان روح كتابه بغض القرآن ، وهذا الملحد ادّعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث ومفسدة وتعويق ، فأبغض روح العبادة الذى هو الدعاء ، وقد حاسب الزمخشرى على قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره ، وشنع عليه ذلك التشنيع المرّ ونقل كلام جستاف الذى قال « ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر » واستشهد به وانشرح له صدره وعلق عليه وأخذ يشرحه ويدور حوله بل

كانت روح اغلاله هى معنى هذه الكلمة غير أن الفرق بينهما أن ذلك غير محتاج الى النفاق مثل هذا فزاد هذا عليه بما أدخله من النفاق بمقتضى الحاجة فكان أغلظ منه كفرا كما أنه أحط نفسا وأخبث عقيدة

فصل

ثم قال « وجاء فى الكتب الدينية المشهورة المحترمة جدا فى معرض تقسيم الأفكار فى الصناعات الدقيقة التى لا تنفع بل تضر كالفكر فى الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير والفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالا ولا شرا كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى وأكثر علوم الفلسفة التى لو بلغ الانسان غايتها لم يكمل ذلك ولم يزك نفسه - الى أن قال : فكل هذه الافكار مضرتها أرجح من منفعتها ، ويكفى فى مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلا وآجلا »

والجواب أن يقال : وهذا النقل أيضا من جنس ما قبله لا حجة له فيه أصلا ، مع أنه نقله ولم يبين من قال به ولا مصدره وقد حذف منه كما اشار اليه ، ومع هذا كله فهو حجة وفضيحة عليه ، فانه أنكر على هذا القائل أن علم الشطرنج والموسيقى وما فى معنى ذلك لا ينفع بل يضر ، وبهذا يتبين للقارىء تلك النتيجة التى يدعو اليها هذا الملحد من العلم والحث عليه كما يتبين له معنى الجهل الذى يرمى به المسلمين وهو أن هذا العلم هو علم الشطرنج والموسيقى وما فى معنى ذلك من دقائق المنطق والفلسفة وأن الجهل الذى يريده هو الجهل بهذا ، فما أشبه حال هذا المغرور بحال قوم لوط اذ قالوا أخرجو آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون . قال قتادة عابوهم بغير عيب . وهذا الملحد على شدة تعنته وعناده وكدحه الكدح الذى لا مزيد عليه عجز عن أن يجد ما يؤيد افتراءه على المسلمين والتنفير عن الاسلام من كون العلم عند أهله حجاب والجهالة أم الفضائل - الا بهذه الاقوال القليلة الضئيلة المجهولة مصادرها ، ومع

ذلك فهى حجة عليه لا له ، وقد تقدم الكلام على المنطق ، وأما الفلسفة فهذا القائل لم ينكر الا ما كان من دقائقها مما لا منفعة فيه مما يشغل الفكر بلا فائدة ، أما خلاف هذا فمفهوم كلامه أنه لا بأس به ، فأى حجة له فى هذا النقل حتى يحتج به

فصل

ثم قال : وكتب ابن عربى والشعرانى وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم ، ومن الأقوال المشهورة عندهم (العلم حجاب)

فيقال : قد علمت أيها القارىء المنصف أنه اعتمد فيما ادعاه على المسلمين وعنون به هذا المبحث على هذه الكلمة التى ذكرها عن كتب ابن عربى والشعرانى ولم يذكر قائلها ولا فى أى كتاب هى ، فلم يجد ما يؤيد هذه المقادح الا هذه الكلمة التى يدعى أنه وجدها فى كتبهم مع أن فى صحتها عنهم نظراً ولو صحت فهم يريدون بها معنى آخر على ما عرف من اصطلاحهم فهم يستعملونها فيما يتعلق بالالهيات لا فى ما يتعلق بغير ذلك ، وبهذا وأمثاله يتبين لك أن هذا الرجل يتذرع بكل وسيلة مهما بلغت فى البعد والخفاء والضعف والضآلة الى القدح فى الاسلام وأهله بدون خوف أو حياء ، ودعواه أنها من أقوالهم المشهورة كذب وفجور ظاهر ، بل أقوالهم المشهورة الحث على العلم والتعليم وكتب ابن عربى والشعرانى وأمثالها مملوءة بالدعاية الى العلم وهى موجودة مشهورة ، بل نفس تأليفهم للكتب يدل على الترغيب فيه والا فلماذا ألفوها وحثوا على مطالعتها والاستفادة منها ، وهذا كله لو قدر أن ابن عربى يعتقد بقوله ، والا فقد علم أن كثيرا من العلماء يكفرونه ويرمونه بالزيغ والالحاد والاتحاد حتى قال ابن المقرى من لم يكفر ابن عربى وطائفته أو شك فى كفرهم فهو كافر ، وما كان ينبغى لهذا الرجل أن ينتقد على ابن عربى وأمثاله فانه قد قلدهم فى كثير من الخصال الخبيثه فهم سلفه فيها ولهذا شابههم فى تلبيس الكلام

وتعمية القصد ودعوى أن الناس لم يفهموا مراده ، وكثير من هؤلاء الاتحادية إنما قصدوا بكتبهم وانتسابهم الى الاسلام هدم الدين وتشويه سمعته فأدخلوا فى كتبهم من النفاق والمخادعة وتعمية القصد ما يروج على جهلاء أزمانهم وديارهم ولهذا تبعهم هذا الملحد فى هذه الطريقة وسار عليها، غير أنه زاد عليهم بأنواع الكفر والضلال ، فهم لم يتجاسروا أن يدعوا أن دعاء الله خبيث وأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وأن المتدينين ما وهبوا الحياة شيئا جديدا وأن المساجد ادت شر ما يؤدى ، ومما يدلك على أن هذا الملحد موافق لابن عربي وأمثاله فيما يختص بالالحاد أنه لم ينقده فى شيء من كلامه فى الاتحاد ولا بلفظة واحدة ، ومعلوم أن فى كتب ابن عربى كثيراً من صرائح الالحاد وكان يجب على كل من يريد أن يتكلم فى تصحيح آراء المسلمين فى الأمور أن ينبه عليها ، ولكنه أغضى عن هذا كله وتعلق بكلمة مشتبهة غامضة وفى كتبهم مما يدل على خلافها ما لا يعد ولا يحصى ، وهل هذا إلا من أعظم الزيغ وأبعد الضلال

فصل

ثم قال « ومن البلاء حقا أنهم لم يقتصروا فى امتداح الجهالة ، بل قاموا ببلاهة كثيفة يمتدحون الجنون وَالبَـله والبُـله والمجانين »

فيقال : ان صح هذا فكله من أخلاق أئمتك فى سلوك طريقة الالحاد وخلطها بالنفاق ، فلا يحق لك أن تعيب المسلمين بأخلاقك وأخلاق سادتك ، يا صاحب الحقائق الازلية الابدية والدر الذى فى لجج البحر لا حاجة الى الخداع فقد علم أن كثيرا منهم انما أدخلوا فى كتبهم بعض النصوص منافقة ومخادعة ، وإلا فمقصودهم هدم الاسلام وتشويه سمعته ، ومن تأمل كتبهم علم يقينا أن بينها وبين أغلالك هذه أعظم المناسبة فى التعمية والتلبيس والنفاق ، غير أن أغلالك أخبث منها بكثير ، فما كان فى هؤلاء من المعايب

فأنت أولى به كما ذكرنا ، ومن عاب المسلمين بمجرد وجود قول لبعض الملاحدة فى كتبهم فهو كمن عابهم وقدح فيهم وادعى أنهم يسبون الصحابة لوجود كلام لبعض الرافضة فى كتبهم بمجرد انتسابهم الى الاسلام ، بل ما ذكره فى هذا أشنع وأبشع

ثم قال « فرووا أنه عليه السلام قال : أكثر أهل الجنة البُله »

فيقال : هذا الحديث قد رواه البزار فى مسنده وأشار السيوطى فى الجامع الصغير الى أنه ضعيف ، فعلى هذا فلا حجة له فيه ولا وجه لأيراده وجعله عنوانا لهذا البحث ، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه ما ينكر أصلا ، فليس فيه ترغيب وحث على البَله كما أنه قد ورد فى من عمى بصره أو مات ولده أو أصيب فى ماله أو حاله أحاديث كثيرة تتضمن الأجر والثواب ولم يكن ذلك عيبا فيمن تجرى عليه هذه الامور ، وليس فيه حث على العمى وقتل الاولاد فان هذه الاحاديث اخبار لا أمر ، ولما كان البَله نقصا طبيعيا يبتلى به بعض الناس كان من رحمة الله واحسانه وكرمه وافضاله بأنه رحم هؤلاء وعفا عنهم فيما جهلوا من الامور الجزئية ، وهذا من محاسن الشريعة الاسلامية ومظهر من مظاهر الرحمة ، فانه تعالى لما خلق عباده وجعل منهم اذكياء ومنهم متوسطين فى الذكاء ومنهم من به بله وجعل منهم مجانين كان من رحمته أن رحم هؤلاء الضعفاء من البله الذين أدّوا ما فى وسعهم ، وهذا غاية الكرم والاحسان ، فحماهم وعفا عنهم ورحمهم ، وهذا عين الافضال والاحسان ، وليس البله خلقا خبيثا كالنفاق والزندقة والالحاد حتى يعاقبوا عليه ، وانما يعاقب الانسان على الأوامر الشرعية والبله ليس من هذه الامور فلا يعد ذنبا ، ونحن نسأله هل البله ذنب أو غير ذنب ، فان كان ذنبا فأين الدليل عليه ، وإن كان غير ذنب فكيف يكون أهله من أهل النار من غير ذنب ، ومن الجائز أن يكون سبب كونهم أكثر اهل الجنة لانه يوجد فيهم من العفة وسلامة الصدور وعدم الحقد والخبث والبغض والنفاق والكبر والعجب والحسد أكثر مما يوجد فى

غيرهم ، وقلّ أن يوجد أبله معجبا بنفسه متكبرا مزهوّا ، والكبر والعجب هو الداء الوبيل الذى يقضى على صاحبه كما وقع لهذا الرجل ، ولهذا كان كثير من الاذكياء يعتمد على نفسه ويرى أن فيها الكفاءة الذاتيه والكمال ، فلذلك يصاب بالزيغ والضلال ، وهذا بخلاف البله ، والمسلمون لم يقولوا ان البُله أفضل من غيرهم ، لكن يقولون انهم مأجورون كما يثاب غيرهم ممن ابتلى بشىء من النقص فى حاله أو ماله أو ولده ، ولا يقولون ان الاعمال الجليلة تناط بهم وتسند اليهم ، وانما دل الحديث على اثابتهم فقط ، ولكن هذا الملحد أراد أن يحسدهم ويدخل بينهم وبين الله تعالى وينازع الله فى رحمته لهم ، فجعل كونهم من أهل الجنة لا ينبغى ولا يسوغ وليس من الموافق فلم تسمح بذلك نفسه ولم يسعه السكوت والتسليم (١) وإلا فلم يشنع بهذا التشنيع البارد ، والظاهر انه لم يكرههم هذه الكراهية ويمقتهم هذا المقت المنكر إلا من أجل أنهم لا يحسنون الشطرنج وعلوم المنطق ودقائق الفلسفة ، وهذا هو أكبر ذنب عنده ، كما تقدم تشنيعه على من أنكر ذلك فلهذ استغرب دخولهم الجنة جدا وهم جهلاء فى هذه الأمور عازبون عنها . وليس وجود البُله مضرا فى الدول والشعوب أصلا ، فلا يمكن وجود شعب أو دولة الا وفيها بله كثيرون ، فلو قدر أنهم يجهلون شيئا من الأمور الصناعية والمادية ونحوها فمن الممكن أن تنتفع بهم الدولة فى امور أو وظائف أخرى تليق بهم فان حاجات الأمم والشعوب فى الأمور الاقتصادية والزراعية وتنمية الاموال وغيرها أكثر من أن تحصى ، فهذا الحديث الذى جعله هذا الملحد مهزلة وشنع على المسلمين لوجوده فى كتاب من كتبهم - على تقدير ثبوته - ليس فيه ما ينكر ، بل هو عين العدل ، وهو حجة عليه كما هو ظاهر

---

(١) ولكنه وسعه السكوت عن أهل الفجور والفسوق وفساد الأخلاق التى لا تحصى

فصل

ثم قال : « وأنه قال : المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم »

فيقال : هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى والحاكم ، فان كان يعتقد صحة هذا الحديث فهو انما يردّ على من قاله ، وان كان لا يعتقده فعليه أن يبين وجه ضعفه ووجه الانتقاد عليه ، وهو لم يذكر شيئا من هذا بل جاء به فى موضع التهكم والاستهزاء فحسب ، والحديث ليس فيه ما يدل على ما ادعاه من كون المسلمين يذمون العلم ويمدحون الجهل ، ولعله استعظم كون المنافق خبا لئيما لان النفاق عنده أصل من أصول العلم كما ياتى ، فلهذا استنكر كون صاحبه موصوفا باللؤم ، وهذا الحديث انما فيه إخبار بان المؤمن غرّ كريم أى سليم الصدر من الخداع والنفاق فيحمل الناس على سجيته أحيانا فربما يغتر بمن ظاهره خلاف باطنه ، فأى دليل فى هذا الحديث على مدح الجنون والمجانين أو مدح الجهل وذم العلم كما ادعاه هذا الكاذب ، وهو أيضا إخبار لا أمر ، فان الله تعالى أمر بالحذر واخذ الحيطة التامة وإساءة الظن بمن ظهر منه شىء من أمارات الخبث والنفاق والخداع والكيد كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وفى حديث أنس مرفوعا « المؤمن كيس فطن حذر »[1] وفى الحديث الآخر « احترسوا من الناس بسوء الظن » رواه الطبرانى وغيره عن أنس رضى الله عنه ، وروى الامام أحمد مرفوعا « احذروا كل منافق عليم اللسان »

فصل

ثم قال « وانه قال : ان الله يدخل قوما الجنة كأن قلوبهم الطير ، أى فى السذاجة والسلامة من المكر والخبث ومن الدهاء والذكاء »

---

(١) رواه ابن منيع . اه . جامع صغير

والجواب أن يقال : كأن هذا الملحد يريد بهذه الترهات أن تكون الجنة ملكا له يدخل فيها من يشاء ويحرم منها من يشاء ، فيالله العجب ، أى شىء فى هذه الأحاديث التى يذكر فيها أن هؤلاء يدخـــلون الجنة ، أيريد أنهم لا يدخلونها وأن يلعنهم الله ويغضب عليهم ويطردهم من رحمته ، أم ماذا يريد ، فهل فيها الا الاخبار بأن من هذه صفتهم فان الله قد يرحمهم ويدخلهم الجنة ، ولم يقل ان الجنة لهم خاصة بل أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله يدخل قوما الجنة على هذه الحالة التى ذكرها من أن قلوبهم كأنها الطير ، فان كان يرى هذا كفرا فعليه أن يثبت أن من كان هذا حاله فهو كافر حتى يتبين أنه لا يستحق الجنة ، أما كونه يعمد الى حديث فيه اخبـار بان أناسا يدخـلون الجنـة ثم يعترض به ويشنع على المسلمين به ثم لا يتكلم فى سنده ولا فى معناه فهذا مما يدل على أنه خبيث متهكم بالشريعة الاسلامية وأهلها ، وهو انما يورد هـذا الانتقاد على الرسول ﷺ لأنه لم يبين ضعف الحديث ، بل هو انتقاد على الله تعالى اذ كيف يدخـل أقواما الجنـة وهم قد خليت قلوبهم من المـكر والخبث ومن الدهاء والذكاء كما هو صريح كلامه ، فهو يريد بهذا أن هؤلاء لا يدخلونها بل هم فى النار لأنهم حرموا من المـكر والخبث والدهاء والذكاء ، فالمـكر والدهاء عنده من أعظم الفضائل وأصل من أصول العلم ، ولهـذا اختارهما كما ترى وقرنهما مع الدهاء والذكاء من جميع الأخلاق وعمل لهما هذه الاغلال ، وهذا مما يدل دلالة صريحة واضحة على أن العلم الذى أطال وأطنب وأسهب فى الحث عليه هو المـكر والخبث ، وأن الجهالة التى عاند وجادل وغالط فى التحذير منها هى جهل أساليب المـكر والخبث ، فالمـكر والخبث هما جماع السياسة كلهـا والفضائل كلها وجماع كل تقدم فى هذه الدنيا ، وأما الصدق والنصح والثبات التى هى أضداد المـكر والخبث فانها عنده جهـالات وأوهـام مرذولة أضرت بالمسلمين وحملتهم المصائب ، ولهـذا جعل سلامة الصدر من المـكر والخبث أكبر عيب وأعظم مصيبة يصاب بها الانسان ، بل هى أعظم من الـكفر لأنه

لم ينتقد الكفر الذى لا يدخل أهله الجنة بل انتقد هذا الحديث الذى تضمن أن السلامة منهما سبب فى دخول الجنة ، ومن أجل هذا كان شديد التمسك بهذين الخلقين اللذين هما المكر والخبث فى كل كتابه ، فهو اذا أخذ فى الاطناب والاسهاب فى القدح فى الشرائع السماوية وشتمها وشتم أهلها وأوغل فى ذلك رجع هنيهة وجاء بملق واحتجاج يوهم ظاهره أنه لا يريد ما يفهم من ذلك الكلام الأول ، لأنه لما اعتقد أن المكر والخبث من أرفع الفضائل فلا بد أن يتمسك بهما ، ثم هو متى نوقش فى هذا الكتاب الذى هو الاغلال يدعى أن مراده ليس هو ما يفهم الناس منه بل له معنى آخر فيقول : ان الناس لم يفهموا كلامى ، وأنا لى قصد حسن فى تأليفه ، وانما أعنى كذا وكذا ، لأنه ما دام يعتقد أن المكر والخبث هو جماع العلم والعقل وأصل كل رقى وتقدم فانه سيلازم عليه ، لكن فاته ان ترك ذكر المكر والخبث هنا على الحديث من المكر والخبث ، لان قريحته المفتوحه أوقعته فى المكر والخبث لأنه مضطرب القلب منكوسه . والحاصل ان انتقاده على هذا الحديث مما يدل على رسوخه فى الغباء والجهالة العمياء ، اذ لو كان عنده أدنى مسكة من عقل لتجنب هذه الأمور وحث على العمل فحسب ، اذ لا طائل تحت هذا التهكم والاستهزاء والسخرية الفارغة ، ومعنى هذا الحديث كمعنى الحديثين اللذين قبله

فصل

ثم قال « وراحوا كالمصروعين ينشدون فى امتداح الجنون والمجانين :

مجانين إلا أن سرَّ جنونهم   عظيم على أبوابه يسجد العقل

فيقال ان كان قال هذا أحد من الاتحادية فهم أسلافك فى هذه الأمور ، فان قائل هذا القول اذا سئل عنه قال مرادى غير ما يفهم الناس منه ، هذا له معنى آخر هو كيت وكيت ، كما تقوله أنت سواء بسواء ، ولهذا شابهتهم فذهبت تمدح الخبث والمكر والنفاق والشطرنج والموسيقى بل والالحاد ،

ومعلوم أن مدح الجنون أسهل من مدح هذه الفنون

ثم قال « وجاء فى النهاية لابن الأثير مفسرا البُله الذين هم أكثر أهل الجنة : هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن لانهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر اهل الجنة ، وهكذا قال غير ابن الأثير » انتهى

فيقال : فعلى هذا يكون حاصل الكلام أنهم عالمون بدينهم جاهلون بحذق التصرف فى دنياهم ، فليسوا جاهلين بالدنيا انما هم جاهلون بالحذق فقط ، فأى شىء فى هذا ، وهل هذا يعد ذما للعلم ومدحا للجهل ، ومعلوم عند جميع الناس حاشا الملاحدة أن العالم بدينه الجاهل بدنياه أحسن عاقبة وخير عند الله وعند المؤمنين من خلقه من العالم بدنياه الجاهل بدينه ، ثم العلم بالدين كما ينبغى فى الجملة يستلزم العلم ببعض الوسائل التى بها يحصل النفع للدنيا وللاسلام من صناعة وغيرها ، وفحوى كلام الملحد يتضمن أن العالم بدينه الجاهل بدنياه لا يعد عالما بل جاهلا ، وانما العالم عنده هو عكسه العالم بدنياه الجاهل بدينه ، وهذا هو اللائق بحاله وأغلاله

فصل

قال « وفى النهاية لابن الاثير أيضا : المؤمن غرّ كريم ، أى ليس بذى نكر فهو ينخدع لانقياده ولينه ، وهو ضد الخبث ، يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه ، ومنه حديث قول الجنة : يدخلنى غرّة الناس أى البُله الذين لم يجربوا الامور فهم قليلو الشر ينقادون ، فان من آثر الخمول واصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غرا فيما قصد له ولا مذموما بنوع من الذم »

قلت : وهذا ايضا من جنس ما قبله من الانتقاد الذى لا وجه له فليس فى كلام ابن الاثير فى تفسير الغرّ ولا الأبله ما يفيده شيئا فانه قال : المؤمن غر

كريم اى ليس بذى نكر أى ليس بصاحب منكر وخبث ، فان النكر هو المنكر والخبث لما جبل عليه من السجايا الحميدة ، فأى انتقاد فى هذا ، ولكنه جرى على قاعدته أن المنكر والخبث أصل من أصول العــــلم ، وقوله فهو ينخدع لانقياده ولينه ليس فيه ما يتشبث به ، فانه لم يقل يخدع بل قال ينخدع ، وفرق ظاهر بين اللفظين ، فان الذى يخدع قليل الفطنه فربما يؤخذ من غير أن يشعر بخلاف الذى ينخدع فهو الذى يترك ما لنفسه من الاستحقاق فى بعض الأمور الشخصية من الاشياء التافهه من أمور الدنيا ، وهذا من باب السماحة والكرم وحسن الخلق ، وكل هذه أخلاق طيبة مخالفة لأخلاق المنافقين من الشح والهلع والجشع وسوء الملكة ، فالمؤمن ليس بذى جشع ولا هلع ولهث على الدنيا ، ولهذا قال : فهو ضد الخبث ، ومعلوم أن ضد الخبث هو الطيب والعلم والفطنة فان الخبث أصل البلادة والجهل والعلم النافع انما يكون فى الطيبين الطاهرين ، ولهذا كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أوسع الخلق معرفة وعلما وكذلك الملئكة ، وموضع الانتقاد الذى أحرج صدره قول ابن الأثير هو ضد الخبث فانه أعظم هذا وأكبره وضاق به ذرعا ، اذ كيف يكون المؤمن الغر ضد الخبث ، لأن الخبث عنده رأس الأمر كله فلهذا عمل أغلاله كلها على الخبث ، ولما أراد أن يؤمن بالانسان ونسبه الى القدرة على كل شىء والعلم بكل شىء ادعى أنه بطبعه خبيث شرير ظالم ، فالخبث عنده هو أكمل الأخلاق التى تقدم أهلها ، وهو عنده العلم الصحيح لا ريب فيه ، وقول ابن الأثير ونبذ أمور الدنيا لا تعلق أيضا للملحد فيه بشىء ، فان أمور الدنيا المحضة هى مما لا تعلق له بالدين كأمور الشهوات على اختلاف أنواعها مما لا يدخله القصد الدينى ولا فائدة فيها أما ما يجب اتخاذه فهذا واجب دينى بحسب النية والقصد ، ثم ان ابن الأثير ذكر أن مثل هذا ليس بمذموم بنوع من الذم ، وهذا الملحد جعله هو الهدف الاكبر الذم واللوم ، وقد تقدم الحديث الذى فيه « المؤمن كيس فطن حذر » وحديث « احترسوا من الناس بسوء الظن » وامثال هذه

الآثار والنصوص الكثيرة وقد أعرض عنها وتعلق بما يظن أنه مفيد فى قصده فى تشويه سمعة الاسلام وأهله

فصل

اذا علمت أن هذا هو حاصل ما لديه وغاية ما قدر عليه من الأمور التى اعتمد عليها فى تشويه سمعة الاسلام وأهله وأنهم يكرهون العلم ويدعون أنه حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فاعلم أن المسلمين كلهم قد حثوا على العلم ونشروا فضله ورغبوا فيه وأوجبوا تعلمه حتى جعلوا من أقسام الردّة والكفر الاعراض عن دين الله لا يعلمه ولا يتعلمه [1] كما قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ واى شىء أبلغ من هذا . وقد رغبوا فى جميع العلوم الدينية والدنيوية ، وما من فن من فنون العلم إلا وفيه مصنفات مشهورة معروفة ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين يتناوله الانسان يجده مملوءاً بما ذكرناه من الترغيب فى العلم والتحذير من الجهل فلا حاجة الى الاطناب فى الاستدلال على هذا الموضوع

أما استدلال هذا الملحد وأضرابه من الزنادقة بوجود أخطاء فى بعض الكتب لبعض الناس واستدلاله بذلك على تشويه سمعة الاسلام فهو استدلال ساقط لا يفعله إلا مفرط فى الجهل وسوء النية والقصد ، ويكفى فى ابطال هذه الدعوى ما قرره هو بنفسه حجة عليه الى يوم القيمه حيث قال فى كتابه الصراع ص ٣١٨ ج ٢ ما نصه « اننا قد قلنا مرات انه ليس كل ما كتب حجة على المسلم وقلنا أيضا مرات ان الضلال والخطأ يطبع وينشر ويقرأ ويحفل به الجماهير والخلق الكثير وان الشيخ الكبير والعالم من العلماء قد يقول ما لا علم له به وما يعجز أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله

---

(١) كما ذكر ذلك شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فى نواقض الاسلام العشرة

عند اهل الحق وأهله ان يجد الباطل من يقوله وأن يجد من يكتبه وينشره وأن يجد من يطبعه ، وماذا يجدى المخطىء أن يجد له سلفا فى الخطأ وشيعة فى الباطل ، وماذا يجديه أن يقلد فى هذا كله . لا يجدى شيئا ولكن الذى يجدى هو البرهان وان كان لا قائل به والحجة الظاهرة وان كانت قليلة الانصار والاعوان » انتهى

وقال أيضا ص ٣٢٠ « فالمسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتتبع اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه [1] ونصوص كتابه المبين » الى أن قال « ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فياخذ أحسنه ولا أحسن من قول الله ومن قول نبيه عليه الصلاة والسلام » الى ان قال « والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهبا من أغلاط الغالطين وأخطاء الخاطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ولعقيدته شر المذاهب ، لانه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطىء ويذهب مذهبا لم يشرعه الله ورسوله ، كما أنه يقل أن يسلم انسان من أن يقارف إحدى المخالفات ويلامس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم [2] ، فمن بنى مذهبه على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل [3] المفرق فى الامم والشعوب ومن أجهل وأنقص حظا ممن فعل ذلك [4] انتهى كلامه .
وقد فعل كل هذا الذى نهى عنه وانكب على وجهه فى هذه الأغلال كما ترى انقلابا كاملا فتتبع أدنى وأشنع شواذ الغلطات التى رويت عن بعض

---

(١) هو ذا أنت والله بلا شك

(٢) انظر كيف صرح بان الانسان مجبول على الضعف والنقص وهذا يناقض ما ادعاه فى المبحث السابق

(٣) سنكتب شهادتهم ويسئلون

(٤) هو ذا انت فعلته فى هذه الاغلال

الاتحادية فرمى بها المسلمين وأخذ يشنع عليهم بذلك مع ما أضافه اليه بالبهت والزور ، فلهذا قال بعد أن نقل تلك النقول التى أجبنا عليها :

« لقد تبين بهذا أن الفساد الفكرى عند هؤلاء فساد عام وكان فسادا أصيلا ، فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سياتى بل امتدحوا كما رأى القارىء الجهل والغباء ، ثم لم يكتفوا بهذا أيضا بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف فى الحياة » انتهى

فلينظر المسلم الى هذا البهت والفجور الزائد ، وقد قلنا فيما سبق ان أدنى كتاب من كتب المسلمين يتصفحه الانسان يجد فيه من مدح العلم والعمل وذم الجهل ما فيه كفاية ، ونحن نسأل هذا الملحد ما هو الذى يقرر فى هذه المدارس والجوامع والكتاتيب وغيرها ، هل هو علم أو جهل ، وما هو المقصود من تأسيس ذلك وانفاق الأموال الطائلة فى سبيله ، قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك ، فسقوط هذه الدعوى أظهر من أن يطنب فى ردها ، ولو ادعاها أكفر يهودى لم يحتج المسلمون الى ردها بأكثر من هذا أو ما هو معناه ، ولو أن أدنى عامى قيل له إنك مجنون جاهل غبي لم يرض بذلك فكيف بأمم يبلغ عددها على ما يقول اربعمائة مليون ترضى لنفسها ذلك وتراه فضيلة بل أم الفضائل ، وفى الحديث « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، وقد أطال هذا الملحد فى التشنيع على المسلمين بأنهم أحبوا الجهل وحاربوا العلم كعادته فى الاسهاب على ما يخترعه من الكذب والفجور ، وهو يشير الى أن الالحاد هو العلم الحقيقى وأنهم حاربوه ولكنه سماه علما ترويجا لباطله كما سمى الجهمية مذهبهم فى الصفات تنزيها وعباد القبور ما يفعلونه من الشرك عندها توسلا ، والأسماء لا تغير الحقائق ، وكل هؤلاء دونه فى ما انتحله من الزندقة والالحاد والنفاق

ثم ذكر أن أوربا لم تتقدم إلا بأن وجهت نظرها الى علوم الفلسفة والرياضة والطبيعة ، ونحن انما تأخرنا لجهلنا بذلك ، وياليت هذا الملحد يعرف

أننا ما ضربنا بهذا التأخر والذل إلا بسبب آثار علوم الفلسفة اليونانية وأمثالها مما يخالف أصول الدين ولا سيما ما يضاد صفات البارى سبحانه وتعالى ، فان الأمة الاسلامية ما زالت مستقيمة قوية عزيزة منيعة حتى دخلت فيها جراثيم هذه العلوم الخبيثة كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، أما علوم الطبيعة والفلسفة الصحيحة فقد بينا أنه ليس فى علماء المسلمين ممن يعتد بقوله من ينكرها أو ينهى عنها ، واكثر العلماء إنما نهى عن علوم الفلسفة فيما يتعلق بأصول الدين لأنها أمور مبنية على السمع ، أما غير ذلك مما يتعلق بالأمور الصناعية فقد رغب فيه المسلمون وكتب الطب والزراعة وغيرها موجودة بين المسلمين وهى مشتملة على كثير من أقوالهم وآرائهم ومدروسة فى كل مكان من المدارس ونحوها ولم ينكرها أحد من المسلمين ، وانما أنكروا ما يتعلق بأصول الدين ، ومعلوم أنه لا فائدة فيها من هذه الناحية ، فان الله أغنانا بكتابه العزيز وسنة نبيه المطهرة فيما يتعلق بصفاته وعبادته تعالى وتقدس ، فما ذكر فكذب وفجور واضح لا يخفى إلا على أحمق مدخول فى عقله ودينه ، هذا مع أنه يناقض دعواه فى نبذته التى سماها (كيف ذل المسلمون) فانه هناك اعترف بأن علوم أوربا الصناعية ونحوها انما أخذت عن المسلمين ، فكيف هنا يدعى أن المسلمين تركوها وأنها مأخوذة عن الفلاسفة . ومن العجب أنه ذكر أن المسلمين تحاموا كتب الفلاسفة المنتسبين الى الاسلام كابى بكر الرازى والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والكندى ، وهذا كذب ظاهر بل كلامهم فى الطب والكيمياء والرياضة ونحو ذلك موجود منقول فى الكتب المصنفة فى هذا الشأن بل رغبة كثير من أنصار المعتزلة ومن نحا نحوهم من الجهمية كالطوسى وغيره فيها أعظم من رغبتهم فى كتب التوحيد والحديث والتفسير ، وهذه كتب ابن سينا وأمثاله موجودة بكثرة مع أنه أقرب منهم الى الالحاد ، ولو أن هذا الملحد أراد أن يتكلم بالصدق لعلم أن الدولة التركية وكثيرا ممن تبع أكثر مذاهب الجهمية وغيرهم قد تحاموا كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وأمثاله

وهى الكنوز الذهبية والكبريت الأحمر وخليق بمن تحامى كتب هذا الامام أن يهوى من حالق وأن يصل الى هذه الحالة المشاهدة ، فأصل تأخر المسلمين لم يأت إلا من جهة أمرين أحدهما شيوع مذهب الجهمية والمعتزلة فى العقائد وفى الصفات حتى كان ذلك هو المشهور فى كثير من الأمصار بسبب سعى بعض الملوك والرؤساء فى تعزيز ذلك ونشره والدعاية اليه ، والأمر الثانى الغلوّ فى الأموات من الصالحين وغيرهم حتى عم ذلك غالب بلاد الاسلام ، فمصدر الأمر الاول علوم الفلسفة التى أدخلها المأمون بسبب الجهمية والمعتزلة فى أصل الدين ، ومصدر الثانى أى الغلو فى الأموات كان أصله من الرافضة ، وقد بين ذلك الاستاذ المحقق عبد العزيز المراغى فى ترجمة الامام ابن تيمية وحقق هذه الامور تحقيقا لا مزيد عليه وبين أن هذه من أعظم الأسباب التى أخرت المسلمين ، ولقد اجاد فى تلك الترجمة وأفاد ، وهذا الذى قاله صحيح بلا ريب ، فان المسلمين لم يتقدموا ويحصلوا هذا العز الا بروح الاسلام ، فالدولة الاسلامية كجسم نشأ على روح الدين الطاهرة القوية ، فكلما ضعفت الروح ضعف الجسم ، وكلما تأثرت تأثر الجسم وبقدر تأثر الروح يتأثر الجسم ، وان ذهبت ذهب الجسم كله ، وبهذا يعرف الفرق بين الدولة الاسلامية وغيرها من سائر الدول أو الحكومات الاخرى ، فان تلك الحكومات انما قامت دولها على تعاليم موجودة فيها اليوم وأنظمة معمول بها بجد واجتهاد ومحافظة زائدة ، فليست مؤسسة على أديان أهملت وضعف الأخذ بها ، وأما الدول الاسلامية فمنهم من ترك هذا المبدأ وليس معه إلا اسمه فقط ومنهم من ضعف أخذه به فمستقل من ذلك ومستكثر

فصل

ثم أطال فى التشنيع على الذين ينكرون علوم الفلسفة وذمهم غاية الذم وقد بينا التفصيل فى ذلك وأن المسلمين لا يذمون منها الا ما لا يمتّ الى

الاسلام بصلة بما هو مناقض لأصول الدين ، وأما غير ذلك فانهم لم يذموه بل كتبهم مشحونة به

ثم قال « ومن الأوهام العظيمة ايضا التى جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم التى لا تتصل بعلوم الدين والعبادات اعتقادهم أن الانسان انما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته فى العبادة ، أما ما سوى ذلك فالاشتغال به من الاشتغال بالباطل الذى يؤاخذ الله ويعاقب عليه ، واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التى تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل ، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها ، ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا وبعبادة نفسه من طريق الدنيا . فمن أعظم الضلال فى رأيهم انفاق شىء ما من القوة والأوقات والأعمال ـ التى انما وجدت تصرف كلها فى خدمة الله ـ فى خدمة الدنيا أو فى خدمة ما يخدم الدنيا ، لهذه الاوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل حتى صار الناس الذين قضى عليهم بقراءة كتبهم والايمان بها ينظرون الى العلوم نظرا هو الخشية والحذر » ثم أطال من هذا الهذيان ، وغرضه من هذا البهت والخبث والفجور الزائد هو تركيز كراهية علماء الدين فى نفوس الرؤساء الذين لا يعرفون حقيقة ما لدى هؤلاء العلماء من العلم والعقل والدين ، وفى نفوس الاجانب للقضاء عليهم والتنفير منهم ، وفى نفوس الجماهير الجهلاء من الفساق وأمثالهم الذين لا يعرفون الامور الدينية على وجهها ، وقد قدمنا لك أن هذه الأغلال دعاية خبيثة ملعونة ملتوية ضد روح الأديان وبخاصة روح الاسلام ، وأنها منابذة صريحة وعداوة منكرة لرجال الاسلام وعلمائه ، ونحن نتحدى هذا الزنديق بأن يبرز لنا كلاما لواحد من العلماء الذين يعتد بقولهم أنه قال أن من اشتغل بشىء من علوم الدنيا أو التى تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل أو أن أحدا منهم امتدح الجهالة والجنون ، ولو أن أكفر يهودى ادعى على

المسلمين أنهم يمدحون الجنون والجهل ويذمون العمل فماذا يصنع المسلمون ، فلا حول ولا قوة الا بالله كيف يخفى ما فى هـذا الكلام من الخبث العميق والعداوة المنكرة للاسلام وأهله ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

ومن العجائب بل من المصائب قوله « ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل لعبادة الدنيا أو لعبادة نفسه عن طريق الدنيا » فنقول نعم إنه لا أضل من هذا إلا من أنكر ضلاله وهو يشك فى ضلال من ترك عبادة الله وعبد الدنيا وعبد نفسه ، بل وهل يشك مسلم فى كفره ، وكيف يشك فى كفر من ترك عبادة الله واشتغل بعبادة الدنيا ، واذا كان هذا عندك ليس بضلال فما هو الكفر والضلال ، اذا كان ترك عبادة الله ليس بكفر كما هو صريح كلامه فهذا الملحد لا يرى أن ترك عبادة الله والاشتغال بعبادة الدنيا وعبادة النفس لأجل الدنيا كفر ، لانه جعل هذا من الأوهام العظيمة كما هو صريح أول الجملة ، وجعله من الأسباب المنكرة فى آخر الجملة ، فادعى هذا الملحد صريحا أن من الاوهام العظيمة والأسباب المنكرة عند المسلمين أنهم يرون أنه لا أضل من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا ، فهذه الجملة التى قالها صريحة فى كفره صراحة لا تقبل التأويل إلا تأويل اليهود الذى اتخذه له نفقا وملجأ يهرب اليه ، وفى هذه الدعاوى التى نقلناها هنا من الخلط والتخليط والفجور ما لا يخفى على أدنى عاقل ، ولا شك أن الله سبحانه خلق عباده ليعبدوه كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ولا ينافى عبادة الله الاشتغال بشىء من أمور الدنيا مما أباحه الله تعالى لعباده ، بل الانسان مأجور على عمله للدنيا اذا كان يقصد بذلك ما يتعلق بالطاعة كما تقدم ، وأما مدح الجنون والجهل فقد بينا أنه فجور لا يقدم عليه إلا من هو مثله ، والله سبحانه بين لعباده العبادة ،

ففرض فروضا وواجبات وعين صفاتها وأوقاتها وهى لا تستغرق من حياة
الانسان إلا أقل القليل، وبين سننا ومباحات، وبين أن العبد لا ينبغى له أن
ينسى نصيبه من الدنيا، ولا شك أن الأمور الصناعية والتجارية وما يتعلق
بذلك من أمور الجهاد والدفاع عن الدين تكون من الواجب عند الحاجة،
والمسلمون كلهم يفرقون بين الواجب والمستحب والمباح، وأدنى رجل من
المسلمين يعلم بلا أدنى ريب أن تأخر المسلمين ليس سببه كونهم عاكفين فى
المساجد منهمكين فى العبادة متابعين الصوم والصلاة قد رفضوا الدنيا وزهدوا
فيها وانه لا يوجد فيهم من يشتغل بشىء من أمور الدنيا كما صوّرهم هذا
الملحد بهذه الصورة عند من لم يعرف حالتهم فجعل مناط التأخر والذل وعدم
الاستقلال كله الأعمال الصالحة والذكر والدعاء والعبادة، فحمل جميع مصائب
الاسلام على عبادة الله، وهو يعلم أن الواقع الذى لا ريب فيه خلاف هذا،
ومن عمق خبثه والحاده وشدة عداوته للاسلام أنه لم يتعرض لهذه الجماهير
المشتغلة فى الفسوق بالرقص والغناء والفجور والدعارة والخلاعة والتلاصص
والنهب وغير ذلك من الامور القبيحة، فكل هذا أعرض عنه ولم يتكلم فيه
بكلمة واحدة كما أنه لم يتكلم فى الأمور الشركية وتحريف الصفات وأكل
أموال الناس بالباطل فى هذا السبيل وغيرها وهو يعلم أن هذه الأمور هى
أعظم العوامل التى تشغل عن العمل للجهاد والصناعة والتجارة وغير ذلك، بل
جعل همته محاربة هؤلاء الذين يدعون الى الله والى عبادته على ما هم فيه من
المحن والمصائب فى هذا الوقت العصيب، ثم لو سلم لهذا الملحد أن أحدا منهم
دعا الى عبادة الله ونهى عن الاشتغال بالدنيا فهو بكل حال أحسن حالا من
الملاحدة الذين يقولون يجب أن ننفق الجهود فى العمل للدنيا وأن الاشتغال
بعبادة الله لا نفع فيه بل هو ملهاة ومصرف خبيث ولا نسبة بين من دعا الى
الله وعمل صالحا ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، فان هذا كافر قائل غير
الحق ضار أمته بل ضار الانسانية كلها ولن يوفقه الله ابدا بل سيصيبه صغار

عند الله وعذاب شديد بسبب مكره ، وأما ذلك فانه اذا قال مثل هذا القول لم يضر شيئا فى دينه بل ولا فى دنياه فانه لا يطاع فى مثل هـذه الامور الدينية المحض الا فى دون واقل مما أمر به كما هو الواقع

فصل

قال « يجب أن تكون تعاليمنا وثقافتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع ، وأن كل شر انما يرجع الى الجهل ، وكل خير انما يصدر عن العلم ، والعلم هو العلم المطلق ، العلم بكل شيء ، واننا لا يمكن أن ننال بالجهل شيئا ولا أن يفوتنا بالعلم شيء ، وانه لارجاء فى الاخلاق ولا فى دين ولا فى شيء من الاشياء الجميلة الا بالمعرفة »

والجواب أن يقال : اما العلم المطلق الصحيح النافع الذى أثنى الله عليه وعلى أهله فهو علم الدين وما يتعلق به ، ولا يسمى علما مطلقا إلا علم الدين ، وأما العلوم التى ليس لها اتصال بعلوم الدين فلا تسمى علما الا بالاضافة الى موضوعاتها ولا يصح ان يطلق على أهلها اسم العلماء كما سيأتى بيانه مفصلا وقوله انه لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع ممنوع بل باطل ، وهو قد نقض هذه الدعوى بنفسه فقال فى نبذته (البروق) ما نصه ص ٣ « ولكن ما كل علم محمود ، فرب علم خير منه الجهل ، ويقظة خير منها المنام ، وتذكرة أحسن منها الغفلة ، وبصر أفضل منه العمى ، وذكاء أجمل منه الغباء ، فكم من علم هوى بصاحبه فى الهوان وأعقبه الذل والخسران وخلده فى العذاب والنيران وأغضب عليه الرحمن والانسان» هذا كلامه بحروفه وكأنها رؤيا رآها فكانت عمليته لهذه الاغلال تأويلا لها . قال « فاشرف العلوم على الاطلاق ما دل على الآخرة وبصر بالباقية التى الغبن فيها شر غبن والضلال فيها أقبح الضلال والزلل فى طريقها أقتل زلل والعمى عن سبيلها أصرع عمى لا يقبل فيها استقالة ولا تنفع وسيلة ولا شفاعة ، إما نار أبدا لآبدين أو جنة عوض العائضين ، فريق

فى الجنة وفريق فى السعير » انتهى . فاين هذه الروح من تلك ، ولكن لا حول ولا قوة الا بالله ، ومن طالع نبذته (كيف ذل المسلمون) ونظر آخرها واستنزاله لتلك اللعنات ثم نظر الى هذه الاغلال وخروجه بعدها عرف من أين جاءه البلاء نسئل الله السلامة بمنه وكرمه

ثم قال : « وان ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة لا يعود الى فساد فى الاخلاق ولا الى خلاف فى الرأى ولا الى شىء مما يحسبه الجاهلون ، وانما يعود الى شىء واحد فقط ، يعود الى الجهل بما به قوة الآخرين أى الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها »

والجواب أن يقال : لما فرغ من تهجين العبادة وتسفيه آراء الذين يرون أنهم خلقوا لها والتهكم بهم والاستهزاء بعقائدهم أخذ بمدح ما يقصده من عبادة الطبيعة والاعتماد عليها ، فحصر أسباب تأخرنا كلها فى شىء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فالرقى والتقدم والعز والتمكين كله منوط بمعرفة هذا الشىء الواحد الذى هو قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد صرح بأن فساد الاخلاق والاختلاف فى الرأى لا تأثير له فى ذلك ، ففساد الاخلاق من الكفر والفواحش والاستهتار بالشرائع والمجون والخلاعة وغير ذلك لا دخل له فى التأخر كما أن الخلاف فى الرأى الذى هو أساس التفريق والشحناء والبغضاء لا أثر له فى تأخرنا وعدم استقلالنا ، وأما الشىء الذى يحسبه الجاهلون فهو ما قاله علماء المسلمين أن ذلك هو سبب تقصيرنا فى الأخذ بالدين والعمل بالكتاب والسنة فهذا كله عنده ليس هو السبب فى التأخر انما السبب كله عائد الى هذا الشىء الواحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وقد تقدم كلامه أن الله خلق خلقه للكمال فيكون خلقهم لمعرفة قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد بين الوسيلة التى بها تعرف نواميسها فى المشكلة التى لم تحل وهى الاعتقاد بأن الأسباب آلية طبيعية ليس لله ولا لغيره أن يقف فى سبيلها أو أن يتحكم فى نهايتها وقرر فى بحث التوكل أن اعتقاد كون الله

يتصرف فى الاسباب فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء جعلها غير أسباب سفه وفوضى لا ضابط لها ، فمعرفة قوى الطبيعة ونواميسها موقوف على شيء واحد موقوف على الاعتقاد بأن الله لا يتصرف فى الأسباب فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، فلا يتحكم فى نهاياتها ولا تقف مشيئته فى سبيلها ، فلا بد من الكفر بالمشيئة العليا المتصرفة فى الكون بالقطع والوصل والعز والذل والرفع والخفض ، وما دام الانسان مؤمنا بهذه المشيئة وأنه كل يوم هو فى شان وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء فانه لا يعرف قوانين الطبيعة ونواميسها ، وحينئذ لا يحصل له التقدم بل لا بد أن يتأخر ويضعف ، فالايمان بالمشيئة هو أصل الضعف والتأخر وهو الجهل الذى أطال وأطنب وأسهب فى ذمه ، والعلم بقوى الطبيعة هو من أعظم العلم الذى أطنب فى مدحه وما سوى ذلك مما لا تعلق لهذا الاصل به من أمور العبادة فهو جهل وخرافات وأوهام ، ولهذا شن الغارة على حملة الشريعة المطهرة من أولهم الى آخرهم ، ورماهم بقوس واحدة بالجهل والبلادة والرجوع الى الوراء لانهم جهلوا قوانين الطبيعة ونواميسها الذى هو مادة الرقى كله ، كما أنهم جهلوا المكر والخبث وعلم الشطرنج والموسيقى الذى هو من توابع هذا الأصل عنده ومدح أعداء الله من الملاحدة والزنادقة وسائر الكفرة ممن لهم معرفة بهذه الامور وعمى عن جميع ما حل بأكثرهم من المثلات وأنواع المصائب والعقوبات التى لا تعد ولا تحصى ، ولو أن ربع هذه العقوبات حل بمن يعبد الله لجعل ذلك من أعظم البراهين على أن العبادة والدعاء لا ينفع ، فانه شنع على الدعاء مع تواتر نفعه وخلع على أهل المعرفة بقوى الطبيعة ونواميسها أحسن الالقاب وأفخم الثناء كما أن ما ناله أهل الدين والتقوى من العز والمجد والسيادة فى الدنيا لم يغير فكرته فى القدح فى العبادة والدعاء مع وضوح ذلك كله ثم انه حمل عهدة التأخر كله بأجمعه على رجال الدين ولم يلتفت الى ما معهم من الفضائل وما حصل بسببهم من النور والهدى والى ما حصل على يد غيرهم من هدم الاسلام

والتمثيل به وجر الويلات المتتابعة على الانسانية بل أخــذ أعمالهم الخبيثة واضافها الى رجال الدين ، وأخذ فضائل رجال الدين وأضافها الى الملاحدة ، وهذا غاية الخبث والزندقة والعداوة للاسلام ، وبالجملة فانه لم يلتفت الى علماء الدين ولم ينظر الى ما فعلوه من الأيادى الجليلة الجميلة فى سبيل حماية الأمة بل أعرض عن هذا كله وكفر به وجعلهم موضع السب واللوم والذم ، وأمـا أولئك الخبثاء من الملاحدة والمنافقين فانه لم يكتف بمدحهم بالدهاء والمعرفة بل منحهم اسم العلماء والعقلاء لأنهم عرفوا هــذا الشىء الذى ادعاه وغض طرفه عن كل ما فعلوه من أعمال فظيعة وفساد فى الاخـلاق وغـير ذلك فإن هذا كله مغفور لهم فى جانب توحيده الذى يدعو اليه من معرفة قوانين الطبيعة ونواميسها . ولا بد للمنافق أن تكون حالته هكذا وإلا فما هو النفاق اذن ، فلا يعرف النفاق بغير هذه الصورة ، كما لا تعرف الزندقة الا بها

ثم قال : « كيف نصبر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العــلوم الرياضية والطبيعية والـكيمائية والفلـكية والفلسفية »

فيقال اولا : ان علماء المسلمين لم يذموا العـلوم النافعـة من الفلسفة ولا الطب ولا الـكيمياء ولا الرياضية ولا الفلـكية ، بل كل ما فيه منفعة للاسلام من هذه العلوم أو منفعته راجحة على مضرته فقد أمروا بفعله فلا حاجة الى هذا الطيش والجنون واللجاجة الفارغة . ويقال ثانيا ها أنت لم تصبر عليهم بل وجهت اليهم والى دينهم أقصى ما لديك من ذم وسب واتهـام ، فرميتهم بالبلادة والجهالة والحماقة والغباوة والجنون وغير ذلك ، وهذا غاية ما تقدر عليه ، فانك لا تقدر عـلى غير هذا النباح والصياح انتقاما لآلهتك التى توجهت اليها واعتمدت عليها من قوانين الطبيعة ونواميسها ظنا منك أن هؤلاء يسبونها فما اشبه حالك بحال من قال الله فيهم ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ومن سب الدين واهله فقد سب الله تعالى ، ثم انك مع هذا صبرت غاية الصبر على الذين يذمون العلوم الدينية من التوحيـد

والحديث والتفسير والفقه ولم تدافع عنها بكلمة واحدة بل كنت اعظم عدو لهذه العلوم وأهلها وأعظم قادح فيها ومهجن لها من كل كافر . ويقال ثالثا : اذا أنت لم تصبر على ذم هذه العلوم مع كونها ليست مما أمر الله تعالى به بل غايتها أن تكون مباحة فى الاصل ، فكيف نصبر نحن على ملاحدة وزنادقة يذمون لنا العلوم الدينية من التوحيد والحديث والتفسير والأصول والفقه مع انها هى التى امر الله بها ، ويمدحون لنا الشطرنج والموسيقى والخبث والمكر وأمثال ذلك ، بل الواجب علينا أن نجاهد هؤلاء الجاحدين الخبثاء اعداء الله ورسوله ونعاملهم المعاملة اللائقة بهم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل﴾

فصل

قال : « ان الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع ، وحكمه هذا الحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، بالعلم وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره ، واننا نحن أبدا لن نحكمه أو نحكم شيئا فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وان أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها اذن الا بالعلم الطبيعى أى بعلمها من ناحيتها الطبيعية »

والجواب أن يقال : الله اكبر (يا الدرّ الذى فى لجج البحر) ما أحدّ ذهنك فى معرفة القياس وما أدق تحقيقك فى صحة الحكم ، ولعل هذه الجملة التى تكلفتها من أقصى دماغك من أبدع آيات حقائقك الازلية الابدية التى ألقيت فى روعك ، فبعداً لك ما أسخف عقلك ، ونحن نجيبك عن هذا الذى أعجبت به فنقول اولا : اطلاق كون الله انما نظم هذا العالم بعلمه به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره فيه من القصور وركاكة التعبير وسوء الأدب ما لا يخفى على قارىء بصير ، فان العلم بالشىء من جميع نواحيه لا يوجب حكمه ، بل لا بد من القدرة عليه وعدم المعارض لمن يحكمه ، وهذا مفقود فى بنى آدم

فانتقض القياس من أصله ، ولا يقال انه نظمه بعلمه بل نظمه بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه ، فلا بد من اسناد التنظيم الى الارادة أو المشيئة ، ولكن هذا ينفر من المشيئة كما تنفر الحمر من القسورة فلم يذكر المشيئة العليا فى كل أغلاله إلا على وجه الذم أو فى سياق الذم ، ويالله العجب كيف يقيس حكمه تعالى وتنظيمه لهذا العالم بحكم المخلوق ومعرفته لبعض نظام الطبيعة ، ثم كيف يريد منا أن نحكمه وهو يذكر أن الله قد حكمه ، فاما أن يريد أن يكون حكمنا تابعا لحكم الله فيبطل كلامه فى مضادة القدر ويكون الانسان لا يشاء الا ما يشاؤه الله ، وإما أن يريد أن يكون حكمنا مضادا لحكم الله وحينئذ يفتضح لان هذا تشريك فى التدبير واستقلال ببعض الملك ، فبطل كلامه على كلا التقديرين . وهذه المقدمة التى ذكرها عن الله فى تنظيم العالم انما أراد نتيجتها وهى قوله واننا لن نحكم هذا العالم أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وقد فسره بالعلم الطبيعى ، أما الدينى فله نتيجة أخرى فلا دخل له فى ذلك ، فالنتيجة الحقيقية فى رأيه أنه يجب اذن علينا أن نتعلم نواميس هذه الطبيعة وقوانينها لنكون مثل الله الذى حكم هذا العالم حين علم قوانينه ونواميسه ، وهذه النتيجة ساقطة جدا لانها مبنية على ان فى امكاننا أن نعلم كعلم الله وان نقدر كقدرته ونريد كارادته ، فكل هذه المقدمات التى يريدها منا باطلة لانها تقضى بتكليف ما لا يطاق ، ولأنها تقتضى مساواة العبد بالمعبود والخالق بالمخلوق وهو محال ، ولا تتمشى إلا على قواعده من أن الانسان يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء ، وهو مع كونه كفرا فهو تشبيه يقصد به التعطيل المحض ، ومعلوم أنه سبحانه علم العالم وعلم نظامه وما سيكون فيه قبل أن يخلقه بخلاف المخلوق الذى ما جاء الا بعد أن خلق ونظم بأبدع النظام التام كله . واذا كنت معترفا بأنه تعالى حكم هذا العالم المحكوم ونظمه بالعلم به فلا شك أننا جزء من هذا العالم المحكوم المبتكر فيمتنع فى بداهة العقول أن يكون الجزء الصغير المحكوم حاكما على الكل ، اذ معناه أن

ينقلب الجزء الصغير المحكوم جزءا كبيرا حاكما على كل الجملة ، وهذا قلب للحقائق وسفسطة ظاهرة ، وإذن فالحاكم الأول والجزء الأول هل يكون صغيرا أو عدما أو تساويا مع الأصغر المحكوم ، انما الصحيح على هذا أن يكون الجزء المحكوم حاكما على مافى دائرة جزئه فقط حكما مقيدا تابعا لحكم الجزء الأكبر لانه بحكم الوضع والمقدمات الصحيحة محكوم ، والمحكوم الذى هو جزء من مجموع محكومات لا بد أن يكون مقيدا ، ولا بد إذن من أن تكون دائرته صغيرة جدا ، إذ هو جنس واحد داخلا فى جنس واحد ، وكل جنس من هذا وهذا من أجناس لا يحصى عددها الا الله تعالى ففيها من هو أقوى منه وأعلم فى الجملة منه فتكون دائرته فى غاية الصغر والضآلة بالنسبة اليه كما ذكرنا ، ومع هذا الصغر النهائى لا بد أن تكون داخلة فى حكم الدائرة الكبرى تحت الحكم المطلق ، واذا ثبت هذا ـ وهو ثابت بلا ريب ـ انتكست نتيجته عليه ، لأنه يجب علينا اذن أن نتقيد بنظام الحاكم الاكبر الذى نحن تحت قبضته فاننا جزء محكوم لا يستحصل على شيء الا بأن يجرى على نظام الحاكم الذى فوقه فنعبد هذا الحكيم العالم الحاكم ونتوجه اليه وندعوه ونطلب منه أن يسخر لنا ما هو فى ملكه مما هو تحت قدرتنا المحكومة لاننا محكومون ، ومن الجسارة والخسارة السرمدية أن نتمرد على هذا الحاكم الأكبر الذى حكمنا وحكم الكل بنظامه وقدرته وعلمه ، فنخرج عن نظامه الذى شرعه لنا فنصادم نظامه ونعارضه وندعى سفها أن نظامه ملهاة ومصرف خبيث وأنه شر ما يؤدى ، فنكون مصادمين لهذا النظام والقانون والناموس لأن حركة كل دائرة صغرى لا بد أن تكون مربوطة بحركة دائرة كبرى لا بد فى سلامتها من الدمار وحصول نتيجتها أن تكون حركتها تابعة لحركة الدائرة الكبرى ونظامها غير معاكسة لها ، فانه لو عكست حركتها النظامية أو حاول محكوم أن يعكس حركتها الأصلية التابعة للحركة الكبرى بقوته الضئيلة لفسدت وخربت خرابا نهائيا ما لم يكن بها شيء باق على مجراه الاصلى فتكون حركتها

ضعيفة بمقدار اتباعها وانسجامها مع الحركة الكبرى ، وهكذا من استكبر عن عبادة الله تعالى وعارض شرعه المطهر الذى ربط به سير الكون وخرج عن نظامه مع اقراره بانه محكوم أو لم يقر - فانه فى الواقع محكوم حكما قهريا ، وانما جعل له بعض الاختيار المقيد فى دائرته كما تقدم - فانه حينئذ يكون مصادما لحاكمه معارضا له معاكسا لقانونه ، فلا بد من وقوع دماره وفساده ، فلا بد لمن يريد أن يحكم دائرته حكما منظما أن يكون نظامه موافقا وتابعا للنظام الذى شرعه ونص عليه الحاكم الأكبر الذى حكم الدائرة الكبرى التى هو داخل فيها لكى ينسجم نظامه الأصغر بالنظام الاكبر فيحصل التناسب الكلى وهذا عين النجاح ، فالقوانين العقلية والنواميس العقلية دلت دلالة صريحة على أن من خرج عن نظام الله وتمرد عليه وهو عبد محكوم مقهور فلا بد أن تكون نهايته الدمار والخراب والفساد والفوضى ، وبمقدار ما يكون معه من الاتباع لهذه القوانين والنواميس يكون مقداره من السلامة والحياة الصحيحة والاستقامة فمستقل من ذلك ومستكثر ، وما جاء الناس النقص ولا جاء الدمار ولا جاء الموت الشنيع ولا الفوضى الا بخروجهم عن متابعة هذا النظام العادل الجبار القهرى واتيانهم الأمور معكوسة معاكسة لهذا القانون ودخولهم فيها من غير أبوابها ، بل من الأبواب المقلوبة ، واذن فما ذكره وأعجب به فهو حجة عليه بالحقائق المعقولة الواضحة

فصل

ثم شرع يمدح العلم ، واستشهد بقوله تعالى ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ ولا حجة له فى ذلك . ومدح العلم أمر معروف عند الخاص والعام ، ليس العلم هو الذى يريده من الشطرنج والمكر والخبث والموسيقى ودقائق الفلسفة ، ولا هو تعلم الطبيعة ونواميسها ، وليس فى الآيات ما يدل على

هذا ، فمسئلة مدح العلم وذم الجهل مسئلة لا ينازع فيها أحد ، لكن الشان أن هذا الملحد جعل علوم الدين التى هى أساس الخيرات كلها هى الجهل ، فانه جعل ذكر الله على المنابر والصلاة فى المساجد شر ما يؤدى وجعل دعاءه ملهاة ومصرفا خبيثا وجعل العلم محصورا فى الأمور التى ذكرنا

ثم قال مستدلا على مدح العلم وهذا نص كلامه « بل حكى (١) فى موضع من مواضع الاشادة بالعلم قوله تعالى ﴿انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة ، وان من ليسوا علماء فلن يخشوه ، لان تركيب هذه الآية اللفظى يرجع الى (لا يخشى الله الا العلماء) والقرآن بالاجمال قائم على جملتين : الثناء على العقل والعلم ، وذم الجهل وضعف العقل » انتهى كلامه بحروفه . فقد رأيت أنه اعترف بأنه لا يخشى الله الا العلماء ، فقرر أن العلماء هم المتصفون بخشية الله تعالى ، ومن لم يخش الله فليس بعالم ، فيكون مقتضى هذا وصريحه أن الملاحدة ليسوا بعلماء وأنهم غير داخلين فى مسمى العلماء ، لأن الملاحدة بلا ريب لا يخشون الله مطلقا . فبهذه الآية وبهذا الاعتراف والتقرير الصريح الذى ادعاه انفلتت منه ثمرة كتابه انفلات الطائر من يد صائده ، فان ثمرته كله التى اجتهد وحاول تحصيلها أن الملاحدة هم العلماء ليكون من سواهم جهلاء ، لانه اذا ثبت هذا صح له أن يصحح دعواه أن المتحللين من الأديان هم أهل العلم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، وأنهم هم المخلوقات المتألقة فيجب تعظيمهم والاقتداء بهم وبغض ما يخالف ذلك من آراء السلف وأتباعهم المضادين لهم من كل وجه ، فكيف هنا يدعى أن العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، ويصرح فيما مضى بان المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة فكيف يتفق أن يكونوا موصوفين بخشية الله وموصوفين بالعلم المذكور فى الآية ويكونون مع

---

(١) يعنى الله تعالى

ذلك موصوفين بالتحلل من الدين وبالانحراف عنه ، فهل يتفق التحلل من الدين وخشية الله فى عقل أدنى عاقل ، وكيف يتفق أيضا دعوى أن العلماء الموصوفين بالعلم هم الذين يخشون الله مع دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وانبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، ومعلوم أن هؤلاء هم أهل خشية الله ، لأن هؤلاء هم ضد الملاحدة ، فالناس فى الجملة إما ملحد دهرى أو متدين فكيف هؤلاء العلماء أهل الخشية لم يهبوا الحياة شيئا جديدا وأنت تقرر أن الذين وهبوا الحياة الشىء الجديد هم العلماء ثم تقرر أن العلماء هم أهل خشية الله ثم تنكبّ على وجهك فتقرر أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان ، يا ويلك من علمك هذه القواعد المنطقية والحقائق الازلية الابدية ، فسبحان من أخزاك وجعلك بهذه الحالة التى يستعيذ كل عاقل منها . والعجب أنه لشدة كراهته ومقته لعلماء الدين ونفوره منهم وحبه ومتابعته للملاحدة أتى بهذه الآية مستدلا بها تمهيدا للنتيجة التى سيقررها قريبا وهى أن اسم العلماء انما يختص به الملاحدة ومن حذا حذوهم وانهم أولى بوصف العلم ، ولكنه لخطله وخطأه وعظم ما أصابه من الحرص غلب عليه الذهول حتى انقلب دماغه فانعكس قصده ومراده فأثبت لعلماء الدين أنهم هم المستحقون لوصف العلم الممدوح فى القرآن والسنة ونفى عن سادته وأوليائه الملحدين الذين لا يخشون الله هذا الاسم الجليل الجميل - كما ترى تقريره صريحا - وقد تقدم المثل « اياك وصحبة الاحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك » فتبين أن هذا الاسم الشريف الجليل الممدوح فى القرآن العزيز لا حظ للملاحدة فيه سواء كان هؤلاء الملاحدة من أهل المعرفة بالطبيعة ونواميسها أو من أهل التجارة والصناعة أو الاقتصاد أو الأدب أو غير ذلك ، لأن القيد الضابط للعلماء الممدوحين هو خشية الله فاذ انتفى هذا القيد انتفى موجبه ، وليس كل من عرف شيئا من علوم الطبيعة والمادة يكون ملحدا فان هذا موضع تفصيل ، فمن عرف شيئا من أمور الطبيعة على وجهها

الثابت فى نفس الأمر وعمل بواجبه الدينى فهو مثاب وهو من العلماء بقدر ما عرفه من أمر دينه وخشى الله به ، لانه حينئذ من أهل الخشية ، وليس علم الطبيعة إلحاداً ولكن الالحاد فيها هو اسناد الحوادث اليها دون مشيئة الله وقدرته ، فمن أسند حدوث الحوادث الى الطبيعة وتفاعلها واعتمد عليها أو قدم مارآه بعقله فيها على النصوص الدينية فهو ملحد ، ونحن لا نشك فى أنه ليس فى علم الطبيعة الثابت الصحيح ما يخالف النصوص أبدا وانما يحصل الغلط من تصور الفكر وجعل الشىء الموهوم حقيقة ثابتة ثم يعارض به ما دل عليه ظاهر النص الشرعى لأنه حينئذ يكون فى شك من صحة دلالة النصوص أو فى ريب من الدلالة الصريحة باعثه ـ أى الريب والشك ـ عدم الجزم والقطع ببطلان ما يخالف مدلول النص أو يكون باعثه ضعف ارادته فى نبذ ما صادم النص مهما كان من أى نظر أو تفكير ، فان الانسان متى علم واعتقد اعتقادا جازما صادقا خالصا بأن النصوص الدينية كافية فى بيان الحق والدلالة عليه هان عليه اذن نبذ ما يخالفها ، لأن البراهين العقلية الثابته لا تتناقض بحال ، فان الانسان اذا اعتقد صحة الشىء فلا بد أن يعتقد بطلان ما يضادّه فلا يصدق ببرهانين متناقضين أبدا ، ولكن اذا ضعف الاعتقاد نشأ عنه الشك فى الدلالة وأنها غير كافية فى ايضاح هذا الشىء فيقع فى التردد والحيرة والقلق فيتزايد ذلك حتى يفسد العقل ويفسد الدين ، ويقع فى التناقض بحسب ما فى القلب من القلق والشك والريب ، وكثيرا ما يقوى هذا فيكون نفاقا ، لأنه لا بد إن لم يصدق بأحد الأمرين [١] ستبقى معه بقية من الأمر الآخر فيحصل النفاق ، فمن الريب والشك تأتى النكبة ، فالشك والريب من أعظم أمراض القلوب التى ذكر الله سبحانه وتعالى وبين فى كتابه بأنه سبب فى حرمان النفع بما جاء من النور والكتاب المبين ، وانه سبب فى انقلاب القلب وفساد العقل وسبب فى

---

(١) أى تصديقا جازما قويا

كل ما يحصل على الانسان من بلاء ووباء . فقد عرفت من هذا أن النفاق هو التذبذب بين الشيئين المتضادين أو الاشياء المتضادة وهو اذا أطلق فى الشرع فى النفاق الاعتقادى فهو التذبذب بين الدين والكفر [١] ومنشأه القلق والاضطراب ومنشأهما الشك ، وسببه ضعف اليقين ، وباعث هذا عدم التصديق الجازم القاطع الثابت القوى الذى لا يتزعزع بما جاء فى النصوص

اما دعواه أن الله تعالى أثنى على العقل فهذا لا نزاع فيه ، كما لا حجة له فيه ، ونحن لم نقل قط ان الله ذم العقل بل العقل ممدوح كالعلم ، ولكن الشأن فى بيان العقل الممدوح من العقل المذموم ، ولا شك أن العقول تختلف اختلافا كثيرا لا ينضبط فهل يظن أن الله اثنى عليها كلها أم أثنى على الصحيح منها ، وحينئذ فالجدال معه فى الصحيح ، ونحن ولله الحمد وزنا العقل الصحيح بموافقته للنص ، فان النصوص فى غاية الصدق والصحة ، ومعلوم أن العقل المطابق للصحيح الصادق هو الصحيح الصادق لان مطابقته دليل على صحته وسلامة فطرته ، واذا خالفه دل على فساده ، وبغير هذا لا يمكن أن ينضبط العقل الصحيح ، فكل أحد فى إمكانه أن يدعى أن عقله أصح من عقل غيره ، فلا بد من الميزان الصادق ، لكن الأشياء التى لم يكن فيها نص فالدلالة على صحة العقل فيها مطابقته للواقع إما بالتصريح به واما باقامة البراهين الضرورية الحسية التى يكون إنكارها حجة او مكابرة ، ونحن انما ننازع فى المسائل الدينية وما يتعلق بها فاذا اخطأ العقل فى بعض الأمور المسائل الدنيوية فهو اهون من غيره لأنه لا بد من وجود من يبين هذا الخطأ ولا بد من وجود من ينشره ويشيعه ويحذر منه ، لان الناس مدفوعون دفعا عنيفا الى المحاماة عن سياساتهم وعن أخطائهم الدنيوية المحضة ، بخلاف الدين فان الدفاع عما يصادم روحه وأصوله ضعيف جدا ولا سيما فى هذه الازمنة الاخيرة التى فتحت فيها أبواب

---

(١) وهذا هو عين ما فعله هذا فى أغلاله

حرية الفكر حتى فى الالحاد ، وقد فصّل الله هذا الأمر الأخير أعظم التفصيل وأوضحه وأبينه وكرره فى القرآن بأنواع الأساليب الرائعة ، لانه سبحانه علم ما سيكون من تساهل الناس فى هذا الأمر وحرصهم على الأمر الأول

اذا تقرر هذا فنقول : ان الأدلة العقلية الصحيحة تفيد اليقين ، وليس فى الشريعة المحمدية حرف واحد يخالف صريح العقل أبدا كما تقدم إيضاحه فى مواضع كثيرة . وهذا الملحد وأشباهه أبعد الناس عن العقل الصحيح الذى أثنى الله عليه ، بل هم كما قال الله تعالى فى أسلافهم ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ فلا سمع لديهم ولا عقل لديهم ، فان السمع الذى هو العلوم الدينية هم أبعد الناس عنه فان هذا رفضه وانسلخ منه ، ويكفى شاهدا على فساد عقله أغلاله هذه ، ويكفى من أغلاله دعواه فى هذا المبحث نفسه أن تأخرنا ليس له علة إلا شىء واحـــد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها فقط ، وهو يرى أمما ودولا عظيمة الشأن عرفت من هذه الأمور ما لم يعرفه غيرها وقد صارت تحت أقدام أعدائهم ممن هم دونهم فى معرفة هذا الشىء الواحد الذى يدعيه ، ويكفى شاهدا من هذا البحث نفسه ما ادّعاه فى هذه الصحيفة نفسها أن العلم هو المعرفة من حيث هى ، أى من دون نظر الى متعلقها ، ثم بنى على هذا أن كل ذى معرفة يسمى عالما ، وان العلماء الممدوحين فى النصوص لا يختصون بعلماء الدين بل كل ذى معرفة من حيث هى فهو عالم ، فعلى هذا تكون الكلاب والحمير والقردة والخنازير علماء ، أو من العلماء الممدوحين ، لان كلا من هذه الحيوانات وأشباهها معه من المعرفة والحذق والدهاء مما يتعلق بحياته وشهواته ومعيشته مالا يقدر عليه كثير من بنى آدم ، فالقرد عالم والضب عالم والديك عالم على مقتضى قواعده الازلية ، هذا هو عقل هذا المختال الفخور ، فما ذكر الله سبحانه فى ذم الجهل وضعف العقل صحيح ولكن هو من أعظم الواقعين فى هذا الذم لأنه من الجهلاء ولا سيما فى ما يتعلق بأمر الدين ، وهذا هو الذى ذمه الله أعظم الذم ، كما أنه أيضا واقع فيما

هو أعظم من ذلك من النفاق والخداع وتولى الظالمين ، وكل ذم فى النصوص فهو موجه الى هذه الاخلاق وأهلها ، وكلها مجتمعة فيه فيكون نصيبه من الذم أوفر نصيب

فصل

قال : « ومن العبث محاولة اثبات هذه القضية (يعنى قضية مدح العلم وذم الجهل) بالشواهد ، فانها قضية مسلمة لا خلاف فيها ولا خفاء »

فيقال : قولك لا خلاف فيها ولا خفاء يناقض دعواك أول البحث أن المسلمين يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل وغير ذلك مما نسبته اليهم من كونهم يذمون العلم ويمدحون الجهل والجنون

ثم قال « ولكن الخلاف قد يقع فى المراد بالعلم حيثما يطلقه القرآن ، فقد يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شىء أن المراد به هو العلم الدينى فقط أى العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة هذا حلال وذاك حرام وهكذا ولكن لا ريب أن هذا المصير فى فهم العلم القرآنى خطأ »

فيقال : اذا كان خطأ فأنت اذن ممن انحرفوا عن فهم كل شىء وأخطأوا ، فانك قررت صريحا أن العلم الممدوح هو علم من يخشى الله فقط كما هو صريح كلامك الماضى ، ومعلوم أن العلم فى النصوص وشروح الشراح والحلال والحرام هو علم الذين يخشون الله لأنهم هم المتدينون فهم علماء الدين ، فيكون العلم الممدوح هو علمهم وهو العلم الدينى فقط على تعدد أنواعه ، وعلوم جميع الملاحدة ليست بعلم ممدوح لانك قررت أن الخشية شرط فى العلم الممدوح فتكون علوم الملاحدة كلها مذمومة لا سيما فيما اختصوا به فيكونون مذمومين هم وعلومهم فلا يمدحون ولا يثنى عليهم بها ، لأن العلم الذى يستحق المدح هو علم من يخشى الله كما هو صريح كلامك ، فتكون منحرفا عن فهم كل شىء ومخطئا خطأ فاضحا ، وهكذا كان الواقع فيك طبق ما قررته

ثم قال « بل المراد بالعلم حيث أطلق ما هو أعم وأشمل ، أى يراد به المعرفة من حيث هى بلا نظر الى موضوعها ، فكل معرفة علم ، و القرآن قد أطلق العلم ولم يقيده بالعلم الدينى ، ومن قيده فقد قيد اطلاق الله واطلاق كتابه ، بل ان سياق ألفاظ العلم فى الكتاب ووضعها فى مواضعها صريح فى أن المراد ما هو أعم وأشمل (١) »

فيقال اولا : ان الله سبحانه قيد العلم الذى أثنى على أهله بانه علم من يخشون الله تعالى ، وهذا قيد من الله لا من الناس ، فالله هو الذى قيده

وثانيا : انك أنت قيدته بقيدين متناقضين فقررت فيما سبق أن العلماء هم الذى يخشون الله ، فقيدت العلماء الممدوحين بأنهم هم الذين يخشون الله وهذا قيد صحيح قيدت به نفسك ، ثم قيدته فيما يأتى بعلم الملاحدة وأخرجت علماء الدين منه فكان غلا فى عنقك سقطت به وسقط كلامك حيث تناقضت فيه هذا التناقض المتباين ، فكان تقييدك الاول كمن ارتفع ليكون أشنع لسقوطه

ثالثا : قولك ان المراد بالعلم حيث أطلق أنه المعرفة من حيث هى معرفة من غير نظر الى موضوعها ، وان كل معرفة علم ، يقال لك أتريد أن كل ذى معرفة وعلم بشىء يسمى عالما وأن الجماعة من هذه الأفراد المتصفة بهذه المعرفة أو العلم تسمى علماء أو أهل علم ، أم تريد أنها ذات معرفة أو علم فى شئونها فقط ولا يطلق عليها اسم العلماء ولا أهل العلم ، فان عنيت الأول لزمك أن تدخل أكثر الحيوانات أو كلها فى هذا الاسم فتسمى الجماعات منها علماء أو أهل علم والفرد منها عالم فتسمى جماعة القردة والكلاب والسنانير أو غيرها علماء أو أهل علم ، لأن هذه الحيوانات لها معرفة بينة ودهاء ومكر وخبث فى كثير من شئونها وفى كثير من الأمور التى يعجز الانسان ولو كان من علماء

---

(١) لكن لو فرض هذا فانه لا يتناول الملاحدة ، لان الخشية التى هى شرط فى العلم الممدوح منتفية عنهم

الطبيعة ونواميسها عن معرفتها والوصول اليها ، فاذا كانت المعرفة من حيث هى بلا نظر الى موضوعها يكون صاحبها من العلماء وأهل العلم فيطلق عليه اسم عالم والجمع من أفرادها يطلق عليهم اسم العلماء أو أهل العلم لزم أن تكون الجماعات من هذه الحيوانات علماء أو من أهل العلم ولزم أن يكون كل من القرد والكلب والسنور والجرذ وغيرها عالما فما من حيوان يوجد الاوله معرفة خاصة وحذق فى أشياء كثيرة دقيقة ممـــا يتعلق بأمور حياته كأكله وشربه ومسكنه ومنكحه وخوفه ورجائه وهربه وطلبه ودفاعه عن نفسه وغير ذلك ، وكل علوم الملاحدة المعيشية راجعة الى هذه الأمور فقط ، وفيها أنواع كثيرة معه من المكر والخبث والدهاء [1] والمراوغة والخداع شىء كثير ، وهذا أمر معلوم ، وقد كتب العلماء فى هذا الموضوع كتبا خاصة ، واذا انهزم هذا المبتلى وحاول الانفلات من هذا الغل المشدود فى عنقه وادعى أن ليس كل ذى معرفة يسمى عالما وأنه لا يقال للجمع ممن معهم معرفة مطلقة انهم علماء ولا للفرد منهم انه عالم سقط استدلاله وكلامه الذى ادعاه فى الجملة المتقدمة من أصله فانه ما ساقها الا تمهيدا لما يريد أن يقوله بأن الملاحدة معهم معرفة فى شئونهم وان المعرفة هى العلم فيلزم أن يكونوا من العلماء ويتخلص من هذا القيد الثقيل الذى سيرده الى أسفل سافلين . فاذا عاند هذا الملحد وكابر وقال ان الحيوانات لا تدخل فى هذا سقط فى حفرة أخرى فى التناقض وهى أننا نقول له على فرض التسليم يلزمك على هذا أيضا أن تدعى أن بنى آدم كلهم علماء صغيرهم وكبيرهم كافرهم ومسلمهم لأنه ما من آدمى الاوله معرفة وعلم بشىء كثير ، بل كثير من العامة لهم معارف خاصة دقيقة غامضة وموضوعات العلوم الدنيوية لا يحصى عددها إلا الله وما من موضوع من الأعمال سواء أكان دينيا أو دنيويا مباحا كان أو محرما إلا وله أهل عالمون به فيلزم أن

---

(١) وهذه الامور عندك من أعظم أصول العلم كما تقدم

يكونوا كلهم علماء أو أهل علم فيجب أن يكون بنو آدم كلهم علماء ممدوحين في القرآن لأن المعرفة عندك هى العلم ، بلا نظر الى موضوعها ، وأن العلماء ليسوا مختصين بعلماء الدين ، واذن من هم الجهلاء المذمومون ومن هم الذين قال الله فيهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا ﴾ هل هم علماء الدين أو مخالفوهم ، يجب أن تجيب على هذا السؤال ، فانك لبست على ضعفاء البصائر بدعواك أن العلم هو المعرفة من حيث هى مطلقا ، وهذا تصريح واضح منك بان العلماء هم العارفون مطلقا من غير نظر الى موضوع علمهم ومعرفتهم ، فدخل بنو آدم كلهم فى تعريفك كما هو ظاهر . وقد قال تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ وأمثال ذلك كثير ، ومعلوم أن المراد بنفى العلم هنا عن هؤلاء انهم جهلوا أمور دينهم ، هذا مع أن هناك فرقا بين إطلاق العلم والمعرفة وأنه ليس كل موضع يطلق فيه العلم يراد به المعرفة ، ففى هذا مناقشات لا حاجة الى ذكرها ، لكن كل هذا على فرض التسليم على أن المعرفة هى العلم كما يقول . فظهر بهذا أن ما ادّعاه فى العلم والعلماء باطل بطلانا ظاهرا وأن هذا الملحد يتذرع بكل وسيلة مهما كانت من الضعف والغموض الى اثبات كون الملاحدة الذين عرفوا شيئا من هذه الصناعات ونحوها هم العلماء وأنهم هم أهل العلم الممدوحون فى القرآن وغيره ، فانه لما رأى هذا الاسم الجليل الجميل وهذه الفضيلة العالية حسد أهل الدين عليها فأراد أن يختلسها ويمنحها سادته بسخاء نادر حتى غار عليهم أن يشاركهم فيها أهل الدين ، وهذه حقيقة الانحياز والتولى ، وهذه النهبة أو الاختلاس أو السرقة المنكرة المبتكرة لم نعلم ملحداً سبقه اليها لظهور هجنتها وقباحتها وقبحها وخبثها ، ولما كان قلبه مناسبا لها فى القبح والخبث وهجنة الرأى حرص عليها لأن قلبه مضطر الى حصول ما يلائمه من الخبث من اعتقاد وسماع وغل وحسد وغير ذلك

اذا عرف هذا فاعلم أن الله سبحانه وتعالى بين فى كتابه العزيز بيانا كافيا شافيا بأوضح بيـــان وأصح برهان أن العلماء وأهل العلم الممدوحـين فى النصوص هم علماء الدين خـاصة وأن من سواهم فليسوا علماء ولا أهـل علم ممدوحين ، فالعلم الممدوح هو العلم الدينى واسم العلماء أو أهل العلم اذا أطلق فى النصوص وكتب الدين فالمراد به علماء الدين فقط ، بخلاف ما اذا قيد مضافا الى أهله فهذا شيء آخر فهو بحسب ما يضاف اليه ، فان كان مضافا الى ممدوح فهو ممدوح والا فهو مذموم ، قال الله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملئكة واولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحـكيم ﴾ ومعلوم عند كل عاقل أنه سبحانه انما أراد علماء الدين ، فانه من المحال فى العقل والدين أن يدخل الملاحـدة معه ومعه الملئكة فى هـذه الشهادة العظمى التى هى أصل الاصول فان الملاحدة أعداؤه وان بلغوا ما بلغوا فى المعرفة ، فكيف يدخل معه أعداءه فى هذا المقام العظيم ، وهو قد لعنهم وأعـد لهم جهنم وساءت مصيرا ، فان هذا من أمحل المحال ، ثم هم لا يشهدون هـــذه الشهادة لانهم ملاحدة ، وقد شمل هـذا اللفظ أى اطلاق العلم الرسل والانبياء وأتباعهم ، فلا يجوز فى العقل أن يقرن معهم أعداءه واعداءهم وإلا لزم أن يكون إبليس داخلا معهم لأن معه علما ومعرفة فى أمور كثيرة ، ولا شك أن أتباعـه من الملاحدة ونحوهم مثله فى ذلك ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وقال تعالى ﴿ إنمـا يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فانه أخـبر سبحانه أن العلماء هم الذين يخشونه ، وأن من لم يخشه فليس بعالم ، ومعلوم أن من كفر به فانه لم يخشه وان أبعـد الناس عن الخشية هم الملاحدة . وقال تعالى ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ومعلوم أنه إنما أراد الذين علموا القرآن أو الرسول ، وأنهم انما علموه بما عندهم من العلم الدينى الذى بين أيديهم فى التوراة والانجيـل ، وقال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ومعلوم أنه سبحانه قد أخبر أن من لم يؤمن ولم يعمل صالحـا فهو مردود الى أسفل

سافلين فكيف يكون المردود الى أسفل سافلين مرفوعا درجات فإن هذا قلب للحقائق ، وقال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط الحميد ﴾ فاخبر سبحانه أن الذين أوتوا العلم يرون أن ما أنزله الله من القرآن هو الحق ، فمن لم ير النصوص حقا فليس من أهل العلم بنص الآية ، ومعلوم أن الملاحدة لا يرون ذلك بل هـذا الملحد نفسه ادّعى أن المتدينين عـلى اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحيـــاة شيئا جديدا ، فهم لم يهبوا حقا ، وأخبر أن الاخلاق الدينية لها نتائج غـير نتائج المجـد ، وفسرها فى الموضع الآخر بأنها الملهاة والشر كما تقدم وجميع الآيات وجميع الأحاديث التى منها مدح العلم والعلماء فالمراد بذلك علماء الدين ، وجميع أئمة الاسلام اذا أطلقوا العلماء فانما يريدون بهم علماء الدين بخلاف مالو قالوا علماء كذا وكذا مضيفين العلم الى فن أو صنعة أو غير ذلك ، ونحن إنما نتكلم على العلم المطلق والعلماء وأهل العلم بالاطلاق لأن النصوص ليس فيها مـدح الا لهؤلاء وهو أمر أشهر من الشمس

وانما أخذ هذا المارق هذه الدسيسة الخسيسة عن بعض ملاحـدة العصر الذين يأخذون الأسماء الجليلة التى شاع مدح أهلها فيضعونها فى غير موضوعاتها الشرعية ويدّعون ان كل ممدوح بهذه الصفة فهو هـذا المسمى ترغيبـا لقبول دعايتهم الكاذبة ومذاهبهم وشيعهم البـاطلة ، ومن الأسف الشديد أننـا نرى من هنا ومن هناك ممن ينتسبون الى نصر السنة من اشتبه عليه هـذا الضلال ، فقد شغف أناس كثيرون بقبول مثل هـذه الدعايات المضلة أشباه هـذا ممن سحروا بما سحر به من اختيار العمى على الهدى فراج ذلك على من قل نصيبه من العقل والدين فلم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله من الأسماء والمسميات الشرعية فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل

فصل

ثم أخذ فى تقرير ما ادعاه من أن العلماء لا يخصون بعلماء الدين فقال :
« وهذا جلى عند من تتبع موارد الآيات ، ولينظر القارىء الى قوله تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ وليس من الممكن أن يدعى أن العلم هنا هو الدينى بل علم الاجتماع والنفس ، فهو الذى يدل على أن الحروب وان كانت فى ظاهرها وفى أوائلها القريبة شرا وبلاء إلا أنها قد تكون فى عواقبها ونتائجها الأخيرة خيرا إذ قد تقدم الانسان وتخدم المعارف والمخترعات التى تبقى فوائدها وقد تكون إصلاحا وتطهيراً لكثير من اخلاق المتحاربين وردعا لمطامعهم ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والاجتماع والتاريخ وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا [1] تنطوى على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تحصى ، وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحرب المقبلة [2] ومن هنا كان قوله تعالى ﴿ كتب عليكم ﴾ الآية .. من الناحية الاجتماعية العلمية فى غاية من السمو وصدق الدلالة ، وان مما يدخل فى دائرة الاعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية فى الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، فلا مفرّ من الاذعان لمنزله » . انتهى كلامه على هذه الآية ، وفيه من الهذيان والخبط والتخليط ما لا يخفى إلا على أعمى البصيرة وإنما سقنا كلامه كله على هذه الآية وان كان لا فائدة كبيرة فى نقله لتعلم أن جرأته على تحريف النصوص عن مواضعها أعظم من جرأة اليهود وأشنع من جرأة القرامطة

---

(١) هذا من الأدلة عليك على أن الشر يزيد ، فان الحروب الغير الدينية شر بلا ريب ، وهو يناقض دعاويه السابقة بأن الحروب فى عصور الجاهلية أكثر وأعظم

(٢) فاذن يجب متابعة الحروب لزيادة هذه العلوم كما تدعى

وملاحدة الباطنية الذين يحرفون النصوص على حسب أغراضهم وأهوائهم .
وجميع ما ذكره على الآية لا يفيده شيئا البتة ، أما أولا فلأن القتال المأمور به
فى الآية المراد به القتال الشرعى بالاجماع ، فانه هو المكتوب ليس كل قتال
مكتوبا ، فليس المراد به الكونى ، هذا لا يقوله أدنى عاقل ، وهو انما أراد
به هذا فيلزم على ارادته وجوب الحرب دائما وأن كل قتال فهو محمود العاقبة
وأن ترك القتال فى الناس يوجب تأخر المعارف . ثانيا أن العلم المذكور هنا
علم مطلق ، ونحن لم ننكر وجود لفظ العلم مطلقا فى القرآن على غير الدين ،
انما النزاع فى كونه ورد فى القرآن أو السنة مدح العلم الذى هو غير الدين ،
وقد قدمنا أنه ليس كل من علم شيئا يسمى عالما فلا وجه لاستشهاده بالآية ،
وتطويله وتهويله عليها مع بعدها عما قصده وما أراده ، وهذا ظاهر لا يحتاج
الى إطناب

فصل

قال : « ثم لينظر القارىء الى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم
المواريث ﴿ آباؤكم أو أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله
ان الله كان عليما حكيما ﴾ ولينظر القارىء ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا ،
وما المراد بالعلم المثبت لله ، لا شك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية
والعلم الدينيين »

فيقال : الجواب عن هذا هو الجواب عما قبله ، فاننا لا ننازع فى وجود
لفظ الدراية او لفظ العلم او المعرفة فى القرآن ، وقد بينا أنه ليس كل من علم
شيئا يسمى عالما ممدوحا فى الشرع ، وليس كل من درى شيئا من الأشياء يسمى
عالما مستحقا للثناء ، فان هدهد سليمان درى عن أشياء لم يطلع عليها كثير من
الناس فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ، فهل ترى أن الهدهد بهذه
الدراية يستحق أن يسمى عالما ، وهكذا كثير من الحيوانات بل بنو آدم

ليس فيهم أحد لا يدرى شيئا مطلقا ، فاطرد هذا الاصل وقل انهم كلهم علماء وانف الجهل عنهم مطلقا والا فلا حجة لك فى الآية بوجه من الوجوه

ثم قال « وقال تعالى انباء عن يوسف الصديق ﴿ قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ﴾ وعليم هنا لا يراد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية ولكن هو العليم بالشئون الاقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية ، بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين ولا الجهل فيه وانما يراد به شىء آخر »

فيقال : استدلاله بهذه الآية على غرضه من أعظم المكابرة والبهت المضاد للحقائق ، فمن أين له أن « عليم » هنا لا يقصد به العلم الدينى كالعلم بالحلال والحرام ونحو ذلك ، وهذا الملحد لم يحترم مقام النبوة بل جعل علم يوسف عليه السلام الذى ذكر فى هذه الآية ليس علما دينيا ، فهل يوجد أقبح من هذا البهت والمكابرة ، والآية صريحة جدا فى أن العلم هنا المراد به علم الدين فانه من المحال أن يخبر هذا النبى الكريم عن نفسه بانه عليم بأمور الدنيا خاصة من دون أن يعلم بأمور دينه ، ومعلوم أنه ما طلب ذلك الا تقربا الى الله بهذا العلم ليشكره به ، وعلوم الأنبياء بأمور الدنيا مربوطة بعلوم دينهم فهى فروع عنها ، لأنهم يتصرفون فيها بالوحى وبما فهموه بالوحى الذى أوحى اليهم من العلم الدينى ، فكيف يقال ان العلم هنا ليس هو العلم الدينى ولهذا قال ﴿ انى حفيظ عليم ﴾ فالحفظ احراز المال والعلم معرفة طرق جبايته وتفريقه فى مواضعه المشروعة ، ومعلوم أن أخذه وتفريقه يحتاج الى معرفة الحلال والحرام فليس كل جباية حلالا كما أنه ليس كل تفريق واعطاء حلالا ، وتصريف المال يتناول مقادير الزكاة التى هى أحد أركان الدين وكيفية أخذها ومعرفة مقدار ما تجب فيه وأجرة العامل والناقل والحافظ وغيرهم وكذلك

تفريقه ووضعه يحتاج الى معرفة المستحق ووجه الاستحقاق وغير ذلك ، وهذا هو عين فن الفقه الذى هو من أجل علوم الدين ، فكيف يدعى أن علم الصديق عليه السلام هنا ليس علما دينيا ولا يقصد به الحلال والحرام ، ولعل سبب ضلاله فى معرفة معنى هــذه الآية أنه ظن ان الشئون الاقتصادية والتجارية وتنمية موارد الثروة ونحو ذلك لا يدخل فيها حلال ولا حرام ولا يحتاج من يباشرها الى معرفة الحلال والحرام ثم ركب على هذا أنها لا يمكن أن تدخل تبعا للأمور الدينية ، وهذا مقدار عقله ، وإلا فمعلوم أن الشئون الاقتصادية والمالية ان كانت مباحة فهى محتاجة الى إجرائها على الوجه الشرعى من الحلال والحرام ، وهذا علم دينى ، وان لم تكن مباحة فالانبياء منزهون عن الدخول فيها وطلبها ، فما ذكره على هذه الآية هذيان وضــلال ظاهر ، والطامة قوله « بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين الخ »

فيقال له هذا يمكنك أن تقوله ، وهو سهل يسير عليك ، لان الذى يدعى أن النهوض موقوف على الأخذ بكتابه والسقوط موقوف على ترك كتابه لا يمكن أن يغلط بحال من الأحوال ولا ينبغى له أن يخشى الغلط ، فلا بد اذن من أن يقول هذا القول ولأنه من لوازم الخبث والمكر والنفاق وهى من أقسام العلم عندك ، ولكن الذى لا يمكنك هو تصحيحه على ما ادعيته ، وليس كل من جسر على قول ثم قاله يمكنه أن يصححه ، ولهذا كان قولك مجازفة مجردة لا أساس لها ، وانما كان أساسها كونك لم تخش الغلط ، والسبب فى كونك لم تخش الغلط عدم الخوف والحياء فيك فلهذا غلطت بل وسقطت ، ولو انك تستحى أو تخشى الغلط لما أقدمت على هذا الغلط وكذبت على الله وكتابه ودينه وعباده المؤمنين . والعجب من كذبك على القرآن مجاهرة بأن فيه ذكر البله ، ففى أى آية أو سورة وجدت ذكر البله ، بل ذكر البله هنــا

برهان على أن غلطك غلط ظاهر فاحش بل دسيسة خبيثة . ودعواك أن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين فى القرآن لا يراد بهما العلم والعقل فى الدين ، فيقال وهنا أيضا وقعت فى الغلط بل والبهت والزور فلا يمكنك بحال من الاحوال أن تصحح هذه الدعوى ، وغاية ما عندك هى هذه الاستدلالات الواهية وهى حجة عليك لو صحت ، وخليق بمن حاول أن ينزع اسم العلماء الممدوحين فى القرآن عن الانبياء وأتباعهم أن يسقط وأن يغلط وأن يفرط فى الغى والالحاد والكفر ، وقد ظهر لك مما مرّ من النصوص السابقة فى قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ الآية وما بعدها من الآيات أن العلماء الممدوحين فى القرآن والنصوص الدينية هم علماء الدين خاصة دون غيرهم ، وهى نصوص قطعية فلا حاجة الى اعادتها والاسهاب فى هذه المسائل ، وقد علمت أيضا أنه انعكس قصده وذهب يستدل على نفسه فوقع فى التناقض كما وقع فى التحريف وهتك حرمة النصوص المقدسة

فصل

قال « وما من ريب فى أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من غير حكمة . أيهما أحق بوصف العلم ، آلذى يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية والتجريبية والاستقرائية أم الذى يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهى »

فيقال : قولك وما من ريب الخ يقال كل الريب فيما ذكرته ، بل الذى يعلم تحريم هذه الأشياء بالنص أعلم من الذى يعلم تحريمها بالتجربة والطرق الصحية بلا أدنى ريب ، فإن من صدق الرسول تصديقا جازما واعتقد أنه لا

يقول إلا الحق فمن لازم ذلك أن يذعن وينقاد لما جاء به بدون قيد ولا شرط فلا يجد فى نفسه حرجا مما قاله ويسلم تسليما كاملا ، ومن توقف فى تصديقه فى تحريم شىء أو تحليله حتى يوافق قوله تجربة صحية أو نحوها فانه لم يصدقه تصديق ايمان واذعان بل انما صدقه لأجل شهادة الطبيب أو المادى أو غيره ، ومن كانت هذه حاله فلا يسمى مسلما فضلا عن أن يسمى عالما إلا على أصول هذا الملحد الذى لا يعبأ بالنصوص ، وأما على أصول الشرع فانه لا يكون الا منافقا زنديقا ، لأنه جعل قول الرسول غير معتبر حتى يشهد لصحة ما قاله طبيب أو غيره فيكون مقدما قول المادى أو الطبيب على قول الرسول عليه الصلاة والسلام . ونقول له أيضا إما أن يكون ورود النص كافيا فى تحريم الزنا مثلا أولا يكون كافيا ، فان كان كافيا فى إفادة التحريم حصل العلم بتحريمه بالنص وهو المطلوب ، وان لم يكن كافيا إلا بشهادة التمحيص والتجربة له فهذا ليس بعلم دينى ، بل يكون التحريم حينئذ ليس مستفادا من الشرع بل مستفادا من قانون أو غيره ، ومثل هذا لا دخل له فى الدين فلا يجب اتباعه تدينا ، فلا تكون المسئلة والعلم بها من العلم الدينى بل من أمور أخرى ، وهذا شىء خارج عن نفس النزاع هنا ، فانه فى العلم الممدوح فى القرآن ، أما العلوم التى ليست بشرعية فقد تقدم الكلام فيها وفى العالمين بها . ونقول أيضا : تحريم الزنا مثلا إما أن يعرف بطريق النص أو بطريق العقل أو بهما جميعا ، فهل العلم بتحريمه بطريق النص يوجب العلم بتحريمه مطلقا بدون توقف أولا يوجب ذلك ، فان قلت بالأول أفاد العلم بتحريمه وهو المطلوب ، وان قلت بالثانى قيل لك فبأى شىء يجب التحريم ، اذا كان بطريق العقل فهل علمنا بطريق العقل مستقل بتحريمه أو تابع لتحريمه بطريق النص ، فان قلت بالاستقلال قيل لك فهل هذا فى كل شىء ولو لم يات بتحريمه نص ، أو فى هذا وحده ، فان قلت بالأول لم يمكنك طرد هذه القاعدة ، لأنه حينئذ يكون مناط التحريم هو العقل فهو المحلل والمحرم وحده ، فاذن من هو عقله الذى يرجع

اليه فى هذا الأصل ، فان العقول تختلف اختلافا لا ينضبط ، وقل أن توجد مسئلة اتفقت العقول كلها على تحريمها ، بل لا يوجد شيء اتفقت العقول كلها على تحريمه بدون نظر الى دين ، فان هذا غير ممكن فلا يمكن القول به ، وان قلت بالأول وهو أن تحريمه تابع للنص فهو كالمسئلة الاولى التى يكتفى فيها بالنص ، وان قلت بالثالث ـ وهو موافقة العقل للنص والعمل بهما جميعاـ قيل لك متى ثبت الاتفاق فلا مانع من العمل به فاننا نكون حينئذ مستفيدين التحريم بالنص وقد وافقه العقل ، فكان فى ذلك زيادة علم وليس علما بأصل التحريم لان الأصل هو العلم بالنص لما تقدم من الترجيح ، وبهذا يبطل قوله ان العلم بالوسائل التجريبية أحق بوصف العلم ، فانه مردود لانه خلاف أصول الدين وخلاف أصول المعقولات الصحيحة ، فانه لا ينضبط ، ولأن الوسائل لا يتحصل عليها فى كل مكان ، وأصول الشرع كليات عامة والنص كاف فى ذلك ، ولو كانت التجارب هى المرجع لوجب الغاء الدين ولشاعت الفوضى التى لا ضابط لها ، لأن التجارب لم تزل من أول الدنيا ولم يقع اتفاق بسببها مع الحرص عليها ، وأما النصوص فانما وقع مخالفتها من أجل البغى واختيار العمى على الهدى كما قال تعالى ﴿ وما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ فى آيات كثيرة صريحة فى أن الشرائع كافية فى بيان الهدى ، وانما جاء الاختلاف بسبب البغى كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ، ان ربك يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والارض بالحق

ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . أفرأيت من اتخذا الـٰـه هواه وأضله الله على علم وختم عـلى سمعه وقلبه وجعل عـلى بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ فتأمل هذه الآيات وما فيها من النور والعـبر العظيمة ، فانه سبحانه أخـبر أنه آتى بنى اسرائيل الـكتاب والحكم والنبوة ، أى آتاهم ما فيه كفاية لارشادهم وحصولهم على الخير كله ورزقهم من الطيبات فأكمل لهم نعمة الدين ونعمة المادة مع شرف المنزلة ولـكنهم اختلفوا ، لماذا ، من أجل البغى لا من أجل قصور فيما جاءهم من الله من الحـــكم والنبوة أو غموض فى الدلالة بل بسبب البغى والاعتداء فكانت عاقبتهم ما كانت ، ثم بين سبحانه أنه أنزل على عبده محمد ﷺ هـذه الشريعة الكاملة الكافية الصحيحة العالية ثم أمره باتباعها ففيها الـكفاية التامة ، وهكذا وقع ، فانه لما عمل بها جاءت المكافأة التى أدهشت العالم كله ، فلما أن احتقرت وفرط فيها ولوثت بآراء الجهمية والزنادقة والملاحدة ضعفت كشأن كل قوى عظيم يدخل فيه ما يفسده ويغيره ، فأمره سبحانه أن يتبع هـــذه الشريعة الغراء ونهاه أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون لئلا تكون عاقبتهم عاقبة من قبلهم ، وهذا صريح فان من خالفها فانه من الذين لا يعلمون ، فان الذى ينحرف عن طريق الرشد والهوى ويختار طريقة الغواية والردى لا شك أنه لا يعلم ، ومجرد وجود شىء معه من العلم فيما يختص بمعيشته كمجرد وجود شىء من العلم مع كثير من البهائم فى أمور معيشتها . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يتبعون هذه الشريعة لا يعلمون ، وأنهم لن يغنوا عنه من الله شيئا ، لأنهم ليسوا منه ولا هو منهم ولأنهم ضعفاء مقهورون ومن كان كذلك فانه لن يغنى شيئا فلا داعى الى اتباع مالا يغنى شيئا ، ثم بين أن الظالمين بعضهم أوليـاء بعض لانهم من جنسهم ففيه بيان أن من لم يتبع هـذه الشريعة فلا بد أن يتبع أهواء الذين لايعلمون وانه لا يعلم ولا بد أن يكون ظالما وانه

سيتولى عليه ظالمون لانه اتبع أهواءهم واختارها على هذه الشريعة التى لا بد أن يتولى الله من اتبعها وان الظالمين مع ذلك لن يغنوا عنه من الله شيئا فلا ينفعونه لانهم ظالمون فلا ينال إلا عكس ما قصده من اتباع اهوائهم كقوانينهم ونحوها ، فلهذا قيل :

فما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

وقد بين سبحانه أنه ولى المتقين وكفى به وليا وكفى به نصيرا . فأين من وليه ظالم طاغ عاجز ممن وليه عادل رحيم قادر قهار رءوف رحيم لطيف خبير ونعم المولى ونعم النصير ، ومن التجأ الى غيره واعتمد على نفسه دونه فانه قد أساء به الظن ولم يرفيه الكفاية ولم ير انه نعم المولى ونعم النصير ، ثم بين سبحانه أن هذه الشريعة فيها كفاية تامة ونور تام فى الهداية تاكيدا لما قبله فقال ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ ، وهذه هى أصول الخير كله ، فالبصائر هى التى يبصر بها الانسان طريقه فى كل شيء من أموره ، والهدى هو الذى يهتدى به فيعصمه من الضلال ، والرحمة هى اللذة والسرور والروح والفرح والحياة الصحيحة ، ومن كان بهذه المنزلة فلا يخشى الا الله ، ولكن من ترك البصائر والهدى والرحمة فخليق أن يسير فى ظلمة وأن يضل وأن يشقى بلا ريب ، وبقدر تركه لذلك يحصل له من ذلك بمقدار ما تركه ، ثم أخبر سبحانه أنه ليس بصائر وهدى ورحمة لكل أحد من الناس ، لا بل ذلك انما يكون لقوم يوقنون ، وأما الذين فى قلوبهم شك وريب وقلق وضيق وعدم انشراح له فهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد لأن أولئك فى قلوبهم مرض ففيها أخلاط خبيثة من الشكوك والريب . فلا تقبل هذه البصائر ولا هذا الهدى ولا هذه الرحمة ، ثم بين سبحانه وتعالى ما يقطع ظهور جميع الملاحدة وجميع أهواء الذين لا يعلمون وجميع ما فى قلوب الذين لا يوقنون من الشك والريب بقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

فانه سبحانه علم أن هؤلاء الذين لا يعلمون ولا يؤمنون سيقولون إنه لا فرق بين من عمل الصالحات ومن عمل السيئات فى هذه الدنيا بل النتيجة واحدة هى هى سواء قام بحلها المسلم ام قام بحلها الكافر ، وأن الاعمال الصالحة لها نتائج أخرى غير التقدم فى الحياة ، وان التقدم منوط بالأسباب الطبيعية لا دخل للاسباب المادية فى ذلك ، فاخبر أن هذا الحكم الجائر الاهوج لا يليق بالله بل هو جور وظلم عظيم لا يليق بحكمة الله ، فكيف يجعل الذين آمنوا وصدقوا الله تصديقا جازما لا يداخله ريب ولا شك ، وعملوا الاعمال الصالحة التى أمروا بها ، كمن اجترحوا السيئات فاستكبروا عن الايمان به ، وشمخوا بأنوفهم عن اتباع هذه الشريعة والبصائر والهدى والرحمة ، واتبعوا أهواءهم وأغراضهم وشهواتهم فاجترحوا السيئات ، فان هذا لا يليق بحكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، لأن العدل قائم على مجازاة كل نفس بما كسبت ، فكل نفس تعطى حسابها جزاء وفاقا ، ليس هناك ظلم فى أدنى حبة من خردل ، فهو سبحانه قائم بالقسط ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى ، فلا يجعل من تمرّد عن طاعته وعن عبادته ودعائه كمن اتبع هواه وبدّل نعمة الله كفرا . ثم بين سبحانه أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، بل خلق بالحق ، وأن من الحق أن تجزى كل نفس بما كسبت ، وهذا صريح فى أنه سبحانه ربط سننه الدينية بسننه الكونية وجعل الكونية تدور على مقتضى الدينية فمن اتبع سننه الدينية وسار معها استثمر مصالح سننه الكونية وانتفع بهـا وصارت نتائجه صحيحة سليمة قوية مستمرة ، وأن من عاكسها وعاندها وصادمها وذهب يتخطى سنن الله الدينية ليأخذ مصالح لسننه الكونية فإنه لن ينتفع بذلك بل لا بد أن ينهار ولا بد من أن يتنكد وأن يتنغص وأن لا ينتفع بما استحصل عليه انتفاعا صحيحا قويا . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يعلمون وهؤلاء الذى لا يوقنون ممن أعرضوا عن هذه الشريعة التى هى البصائر والهدى والرحمة وجعلوا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كمن اجترح السيئات فى حكم

العدم قد عوقبوا بأشنع ضروب العقوبات القلبية اللائقة بهم ، فانهم أبوا الا المعاندة والعمى عن الهدى فقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ ففى هذا بيان أن كل من خالف الشريعة فانه لا يعلم شيئا بل هو على غاية الجهالة والضلالة وعمى القلب فلا حظ له من العلم البتة ، فان هذا لم يقبل شريعة الله وبصائره ، بل قبل شريعة هواه ، فانه لما لم يقبل الله إلهه وربه فلم يعتمد عليه ويرى فيه الكفاءة التامة اتخذ إلهه هواه فاعتمد على نفسه وراى أن فيها الاستعدادات والمواهب الكامنة الكاملة وأن فى ذاته استعدادا كاملا بأن يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء ويحصل على كل شىء ويتغلب على كل شىء فاتخذ هواه الهه الذى يعتمد عليه ، فان الاله هو الذى يعتمد عليه اعتمادا مطلقا وتصرف اليه الرغبة والرهبة مطلقا ، فهواه هو الهه الذى له يعادى وبه يأخذ ويعطى ويتبع ويأمر وينهى وينقاد ، فهو معبوده ، فأضله الله على علم به جل وعلا بانه ساقط خبيث مستحق للطرد والابعاد واللعنة ، لأنه لم يقبل الطيب بل هرب منه وانصاع الى ضده ، فلهذا ختم الله على حواسه الصحيحة لانها كانت مفتحة بفطرتها لقبول البصائر والهدى والرحمة التى خلقت لها ولم تقبل ذلك ، فجوزى بالختم عليها لأنه اختار هذا العمى على الهدى فختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . ثم أخبر سبحانه عن حالة هؤلاء بأنهم يقولون ﴿ ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحى ﴾ اى يموت أناس ويحيى بدلهم أناس آخرون ﴿ وما يهلكنا الا الدهر ﴾ أى بتعاقبه لانهم يقولون أسباب الموت وكذلك الحياة طبيعية فقط ، ثم قال تعالى ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ يستندون عليه سوى ما يرونه ويشاهدونه من الإحياء والاماتة ، وأما الحقائق الدينية التى تبين ذلك فانهم فى معزل عنها فليس معهم من العلم غير الظن والتخرص الذى أكثر ما يوجد فى الأوهام والأباطيل كما يتوهم الجاهل أن السراب ماء

فانه يظنه ماء ولا يعلم حقيقته لهذا يبنى على ظنه أنه حقائق ظاهرة وهذا ظاهر
والمقصود أن ما ذكره من أن العمدة على التجارب والطب من إفادة العلم
بالتحليل والتحريم إنما يتمشى على قواعد الملاحدة الذين لا يرون الشرائع
شيئا معتبرا يجب التزامه كما هو رأى هذا الرجل ، ثم قوله «أما الذى يعلم ذلك
من طريق النص بدون عقل » كلام ساقط ، فانه مبنى على رأى ساقط وهو
رفض النص حتى يشهد له العقل ، وهذا أيضا مبنى على أصل أسقط منه وهو
ثبوت وجود التعارض بين صريح العقل وصحيح النص وأن الشرع حرّم ما
يوجب العقل تحليله ، وهذا كله ممنوع بل باطل ، فالمسلمون يعلمون من حيث
الجملة أن ما حرمه الله ورسوله فهو موافق للعقل والفطرة ، فدعواه هنا ساقطة
كما هى مغالطة محضة . وقوله « أى الرجلين أقرب الى اجتناب هذه الخبائث
وتركها (لأنه مقتنع بخبثها) وأى الناس أولى بنعت العلم آلذين يتركون الشرك
وعبادة الاصنام والمخلوقين لانهم علموا فساد ذلك ومضارّه الاجتماعية
والنفسية والعقلية أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقينا مجرّدا من الادراك الحقيقى»
فيقال : أما عند العقلاء من المسلمين الذين يعلمون أن النصوص كافية فى
التحريم وأنه يجب اتباعها فانهم يعلمون أن الرجل الذى تركها لموجب النص
أعلم وأعقل ، وان الذى لم يتركها إلا لأجل علمه بالوسائل التجريبية ونحوها
أنه ليس بذى علم ولا عقل ولا دين ، لأنه لم يعمل بالنص فى نفس الأمر
وإنما عمل به من أجل شهادة التجربة ونحوها ، ومن لم يعمل بالنصوص ولا
سيما فى أصول الدين كترك الشرك وعبادة الأصنام إلا بشهادة التجارب
ونحوها لها فليس بعالم ولا عاقل ، بل هو جاهل ، بل زنديق كافر ، لأنه لم
يتبع الأصل الذى جاء به الرسول ﷺ ، ولم يؤمن به إيمانا صادقا جازما ،
ويقطع بان ما جاء به هو الحق ، وأنه لا يقول على الله الا الحق ، وأن أمره
بالشىء مصلحة لا شك فيها ، وأن اتباع أوامره الشرعية يتضمن الوسائل
التجريبية ويتضمن المصالح الاجتماعية والنفسية وغيرها ، فكل ما أمرنا به

فنحن نعلم أنه خير محض ، وكل ما نهانا عنه فلا شك أنه شر محض ، وكيف نصدق الطبيب الذى نعرف فساده فى نفسه وفى أكثر اموره ونثق بقوله فى أبسط دواء ونشك فى ربنا ومالكنا الذى أوجدنا من العدم على هذه الحالة التى هى أحسن التقويم ، وتابع علينا النعم التى لا تحصى ، وكيف نصدق الطبيب الذى يعجز عن اجتناب القاذورات مطلقا ونشك فى رب الطبيب الذى خلقه وخلق طبعه ، وكذلك غير الطبيب ممن هو مثله أو دونه ، فمن آمن بما جاء به الرسول بشرط أن توافق أقواله أقوال علماء النفس أو الاجتماع ونحوهم فهو مرتاب شاك وهذا لا شك فى كفره كما لا شك فى تكفير من لم يكفره ، فكل من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام ويصدق بما جاء به تصديقا جازما لا يخالجه شك ولا ريب فهو كافر ، لان هذا ليس بمؤمن باجماع المسلمين . ثم إن ما ذكره من الشرك وعبادة الأصنام ظاهر فى أنه لا ينكر ذلك بل لا بد من علم فساد ذلك ومضاره الاجتماعية والنفسية بالطرق الاجتماعية والنفسية من جهة أهلها ، والا فالنص لا يكفى عنده كما هو ظاهر كلامه ، فانه لم ير النص كافيا فى ذلك ، ومعلوم ان اقناع الناس بأن الشرك وعبادة الاصنام باطل بالوسائل التجريبية أو بأقوال أهل المعرفة بعلم النفس والاجتماع أمر لا يمكن ولا يحصل به نفع البتة ، وهذا الملحد بنفسه قد نقل عن سيده جستاف لوبون أن البشرية لم تتقدم الا فى عهد الوثنية وعبادة الأصنام كما يأتى ، ومعلوم أيضا أن أنصار هذه الأمور الشركية يدعون أن هذه الأعمال ليس فيها مضار ولا مفاسد بل هى النفع بعينه عندهم وأنها موافقة للعقول لأغراض وأهواء كثيرة لا تحصى . هذا ما نقوله عن عقلاء المسلمين وعلمائهم وأما الذين فى قلوبهم مرض فلا شك أنهم يرون أن الذى يتجنب الامور المحرمة لاجل شهادة الماديين ونحوهم بخبثها لا من أجل النص أولى بوصف العلم لأن النص عندهم ليس بعلم وليس شيئا معتبرا ، فان هذا هو مقتضى أصولهم الخبيثة ، ولهذا كان للجهمية حظ كبير من هذا الأصل فانهم يقدمون عقولهم على

بعض النصوص فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض فينكرون صفات الله سبحانه وتعالى كالعلو على العرش وكلامه سبحانه ونحو ذلك من الصفات المنصوص عليها من آيات وأحاديث لا تحصى بمجرد أن عقولهم المنكوسة دلت على خلافها فحكموا عقولهم فى صفاته تعالى ونبذوا كلام الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون

وقوله « وايهم أجدر بهذا الوصف الجميل (يعنى العلم) أقوم وهبهم الله عقولا كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها فى اختراع أشياء عظيمة أسعدت الانسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت، وقدمت اليها أمورا كانت محرومة منها أيضا منذ وجدت ، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية عكفوا على زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهذون ويكتبون وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة ، وراحوا يكتبون فى تكفير من يصنع كيت وكيت وفى تفسيق وتضليل من يأتى كذا وكذا وفى تقسيم الاحزاب والاوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعديدها »

فيقال فى جوابه :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل

أما لو كانت هذه الأوضاع والأوصاف الشرعية واللغوية فى يديك وتحت ملكك تعطى من تشاء وتمنع من تشاء فلا باس أن تجود بهذه الاسماء الجميلة الجليلة وهذه الالقاب العالية السامية لسادتك وأوليائك الملاحدة ، أما اذا كانت هذه الأوصاف والأوضاع لها أهل ولها قوانين وقواعد وقيود وحدود رسمها الله ورسوله فلا يمكن للملحد أن يتعداها ويتخطاها ، فلا شك ان الذين وهبهم الله عقولا عظيمة واسعة نيرة أناروا بها الطريق وأقاموا بها السبيل وأسعدوا بها الحياة فأرشدوا الى أكمل سعادة وأصح حياة فأخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن الجهل إلى العلم ومن الجور والظلم والفوضى

والمنازعات الخبيثة الى العدل والاحسان والأخوة الطيبة الكريمة وأخرجوهم مما كانوا يعانونه من البأساء والضراء الى النعماء والسراء ومن الشقاء والبلاء والجحيم والهموم والغموم الى الأفراح والسرور والهناء والنعيم فأقاموا ميزان العدل والقسط والنظام الصحيح كل ذلك بعلمهم وايمانهم وسيرهم على الشرائع السماوية والأخلاق الدينية - أولى بالعلم والعقل وكل وصف جميل جليل، فأين هؤلاء العلماء والكرماء العظماء من قوم لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم حتى ضرب بعضهم ببعض وخسف بقلوبهم حتى كانوا ذوى عقول خبيثة مظلمة ضيقة منحطة جرت على الانسانية بل وغير الانسانية من أصناف المخلوقات الأهوال والويلات والجوع والعرى والظلم والعسف والقهر المنكر والدمار الفظيع والمنازعات الدائمة وإماتة الفضائل والأخلاق السامية فصار العالم فى اضطراب مزعج وقلق دائم وفناء متوقع فلا سامع لضعيف ولا ناصر منهم لمظلوم ولا معارض لقوى، اسماء باسم العدالة ومسماها الظلم والاستعباد انما همّ أحدهم تقديم مصلحته وتنفيذ ارادته الشخصية ولو فنى فيها بعض العالم وما قدمت لها شيئا من وسائل الراحة واللذة الا اتبعته واضعافه من وسائل الخراب والدمار والازعاج والعذاب والبلاء والمحن، قدمت للانسانيه أشياء تافهة قد استغنت عنها عصور نيرة زاهرة منعمة وما ضرها فقدها، ولو أنها اقتصرت عليها فلربما كان فى ذلك نوع شبهة ولكنها قدمت لها خلال هذه فظائع وألوانا من العذاب كان سالمة آمنة منها منذ وجدت من القلاع الجوية والغازات السامة وأنواع الأسلحة الواسعة النطاق صارت أكثر أهدافها الأطفال والشيوخ والعجائز وغيرها من الطوائف الانسانية الضعيفة، فما كانت الانسانية الأولى فى عهد من عهود الدين الصحيح ترى فى السنين بعد السنين تئن تحت انقاض الهدم والخراب، وما كانت ترى تساق كما تساق البهائم بل كما تساق الحمير ويعمل بها أعمال لا تعملها البهائم والوحوش مع أجناسها الى غير ذلك من الاعمال الخبيثة التى مصدر خباثتها الكفر والالحاد والبعد

عن الأديان السماوية

فاى الفريقين أحق بوصف العلم والعقل ، لا شك عند كل ذى بصيرة من أمره أن علماء الدين هم أولى بوصف العلم والعقل وكل وصف كريم ، وأن الملاحدة أولى بوصف الجهل والغباء والخبث وكل وصف قبيح

أما مغالطته بأحوال بعض اتحادية الصوفية فقد بينا أنه هو أحق بكل ما فيهم من انتقاد ، فان الاتحاد ووحدة الوجود والتجهم وأمثال هذه الطرائق الخبيثة كلها من شعب الالحاد ، وهى متفرعة من أصله ، فما فيها من خبث فهو مستمدّ منه ، وعلماء هذه الطرائق ليسوا من علماء الدين بل هم كفار مرتدون كما تقدم بيانه ، وقد نقل الامام أحمد فى رسالته الى مسدد الاجماع على كفر الجهمية كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وعبد الله بن الامام أحمد فى كتاب السنة والدارمى وغيرهم ، فلا يجوز له ولا ينبغى أن يدخل سادته الملاحدة مع المسلمين فيشنع عليهم بما يوجد فيهم من عيوب إخوانه وأوليائه الملاحدة ، فان هذا لا يفعله الا من هو مثله منسلخ من الدين والعقل وكل فضيلة ، وأما أئمتنا وسادتنا فقد بينا أنهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وأئمة أهل القرون المفضلة المعروفون بالدراية والرواية والثبات ومكارم الاخلاق الذين رفعوا راية الاسلام والعدل وانتقموا من أنصار الجور والظلم ، وما كان اليهود لديهم الا كأخس طبقات الناس لأن هذا هو موضعهم اللائق بهم ، وأما فى عهد سادتك وأوليائك الذين أضفت اليهم اسم العلم فقد رأيت ما رأيت من الشرور والمظالم التى لا تحصى ، ونحن نعلم ونتيقن أن ما يصيب المسلمين من تقدم اليهود وأمثالهم لا يهمك بل يقر عينك ، فانك صرحت على رءوس الأشهاد بأن المسلمين ضالون فى قتالهم كما يأتى فهم عندك أولى من غيرهم فان شبيه الشىء منجذب اليه كما هو المعروف ، ولأنهم كما قلت أهل عقول كبيرة أسعدوا بها الانسانية ، وقد تقدم ما صرحت به عند الاستاذ قطب وغيره من أن هؤلاء الأجانب قوم مصلحون لا

مستعمرون ، وكل من يعرفك ينقل عنك ما هو أقبح من هذا ، وكفى بأغلالك هذه شاهدا على خبثك وعداوتك للاسلام والاديان السماوية كلها كما هو واضح

فصل

ثم قال « ومن الأحاديث الدالة على أن العلم فى اطلاق الشرع غير ما ذهب اليه هؤلاء قوله عليه السلام فى قصة تلقيح النخل « أنتم أعلم بأمر دنياكم » . فيقال ليس فى هذا ما يدل على ما ادعيته ، غاية ما فيه إطلاق لفظ العلم ، ونحن لم نمنع هذا ، انما نمنع أن يكون كل من علم شيئا يسمى عالما ممدوحا ، والعلم هنا علم مضاف الى الدنيا ، ولهذا لم يقل أنتم العلماء أو أهل العلم ، فدل على أنه يريد أنتم أعلم بهذا الامر الدنيوى ، كما يقال فلان أدرى من هذا وأعرف وأعلم بهذا الشىء ، واذا كنت تكتفى بمجرد إطلاق العلم فقد قال تعالى فى الكلاب ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ فدل على أنهن يعلمن ، اذ الذى لا يعلم لا يعلم ، فالتزم هذا وقل ان الكلب عالم وان الكلاب العالمات بالصيد علماء أو أهل العلم أو من الذين أوتوا العلم والا بطل احتجاجك وتطويلك وتهويلك ، وسيأتى الكلام على ما يتعلق بمعنى الحديث وانما جاء به هنا من أجل لفظ العلم وقد رأيت أنه لا حجة له فيه

فصل

قال « ومما يجب التنبيه اليه هنا - لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهية المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه - أن العلم (١) لا يمكن أن يكون شرا ولا أن يكون داعيا الى الشر والفساد والاجرام والطغيان »

والجواب أن يقال : هذا العلم الذى تريده وتقصده قد بينا أنه الجهل

---

(١) يريد بالعلم هنا علم الملاحدة كعادته

والظلام ، فقد صار شرا وجرّ الى الاجرام والفساد والطغيان كما وقع ذلك بالمشاهدة والحس وانكاره مكابرة ، لأنه فى الحقيقه ليس بعلم دينى نافع وانما هو جهل مبنى على الحقد والحسد والأخلاق البغيضة ، وتسميتك له بالعلم من باب قلب الحقائق والمسميات الى أضدادها ، وأغلالك هذه كلها مقلوبة تبعا لقلبك المنقلب ، والاسماء لا تغير الحقائق ، والعلم الذى لا يكون شرا ولا داعيا الى الشر وهو الخير المحض والحياة الصحيحة هو علم الدين ولوازمه وما يلتحق به ، وأما أضداد ذلك من العلوم فهو الشر والمصائب والبلاء والوباء كما وقع ذلك بالمشاهدة

ثم قال « وذلك أنهم هبوا وخاصة فى هذه الأيام التى تفاقمت فيها ويلات الحرب يصرخون منادين بسقوط العلم[1] زاعمين أنه هو الذى يشب الحروب وهو الذى يقدم لها الوقود ويزداد اضطرامها والتهابها ، وقد نادى كثير من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات فى هذه الايام بمقاطعة علم أوربا والبراءة منه وسألوا الله مخلصين على ما زعموا أن يخلص العالم والانسانية من هذا العلم ومن أهله ، ثم ختموا دعاءهم وادّعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع الى الدين ونبذ كل شىء سواه » [2]

والجواب أن يقال : يتبين للقارىء هنا بالبرهان الواضح أنه كان عدوا وخصما لهؤلاء الذين يطالبون المسلمين بالأخذ بالدين ونبذ كل شىء سواه كما هو صريح كلامـــه ، وبهذا وأمثاله عدوه عدواً للاسلام والمسلمين ، وهو أمر ظاهر لا شك فيه ، فرجل يردّ على علماء يطالبون بالأخذ بالدين ونبذ ما يخالفه لا شك أنه رجل كافر عدو للاسلام متربص به الدوائر ، وكيف

---

(١) يثبت لك من هذا أنه يريد علم الالحاد ، لانهم انما نادوا بسقوطه

(٢) يظهر هنا لنا أنه يريد به علوم البلشفة والالحـــاد ، لانها هى التى تودى بسقوطها اذ ذاك

ساغ لهذا الملحد أن يجاهر بالرد على هؤلاء العلماء وهم لم يقولوا الا خيرا وحقا ويسوق كلام جستاف لوبون الذى يقول ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ثم لا يرده ولا يعارضه بشيء بل يستشهد به بل يصف قائله بانه فيلسوف عظيم ، وأما سهل بن عبد الله التسترى فيدعى أنه صنم من أصنام الصوفية بل يردّ على الزمخشرى الذى يقول « العلم للرحمن جل جلاله » الخ . فلينظر المسلم الغيور على دينه الى هذا التحيز والعداوة المنكرة للدين وأهله والولاء الخالص للالحاد وأهله ، وهؤلاء العلماء العظماء لم يقولوا الا حقا لأنهم رأوا بالمشاهدة وعلموا بالضرورة ما فعلت هذه العلوم بأصحابها حين تركوا علوم الدين الأساسية وازدروا بها وأهلها ماذا أصابهم ، وأكثر هذه العلوم الالحادية هى ما يدعو اليه هذا الملحد من الاعتماد على النفس والعداوة للدعاء والخطب والصلاة وإنكار القضاء والقدر وكون الله لا يغير فى الأسباب وكون نواميس الطبيعة هى التى تحكم هذا العالم وأمثال هذا الهذيان ، فهذه كلها من أصول الالحاد ورفض الأديان ، وقد علم هؤلاء الراسخون فى العلم أن هذه العلوم الالحادية هى التى جرت على الانسانية هذه الفظائع الكبرى ، فلهذا دعوا وطالبوا المسلمين بنبذها والأخذ بطريقة الدين النيرة القوية الصحيحة الآمنة التى تفيد الانسان دينا ودنيا فانها تطلق العقل فى جميع العلوم الصناعية والمادية والتجارية والاقتصادية وتقوّى الأخلاق وتزكى النفس ، فعلوم الدين هى الأساس القوى الذى من بنى عليه أموره نجح بلا ريب ، فما انتقده هذا المخذول على هؤلاء العلماء الأجلاء انتقاد ساقط لا محل له

ثم قال « فكأن الدعاية [1] ضد العلم [2] لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول وكان هؤلاء الخطباء

(١) أى دعاية الأخذ بالدين ونبذ ما سواه
(٢) تقدم تصريحه بأنه علم أوربا فهو العلم عنده

والوعاظ هم الطرف الآخر لها »

فيقال : نعم إن هذه الدعاية الدينية ضد علم الالحاد ، وقد صرحت بانه علم أوربا فهو العلم عندك ، لا تزال قائمة متصلة الحلقات - منذ هبطت هذه الشريعة الطاهرة العالية الى أن يرث الله الارض ومن عليها - بهؤلاء الشيوخ العظماء الأمناء النبلاء بيض الله وجوههم ورفع منازلهم ، ولا تزال هذه الطائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . نعم إن هذه الدعاية الناجحة - من هؤلاء الشيوخ الفضلاء ضد الالحاد والمبادىء الهدامة - لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ الأولون هم الطرف الاول لهذه الحلقات المحكمة وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها . فلا تزال هذه السلسلة الجبارة المتصلة حلقها سلسلة وأغلالا مشدودة فى عنقك لا محيص ولا مخاص لك منها حتى تموت خنقا وحنقا وغيظا بنفاقك وإلحادك ان شاء الله تعالى لانك اخترت ذلك لنفسك ورضيته لها

فصل

قال « والذى يجب أن يقال وأن يعلم ردا على هؤلاء وبيانا للحقيقة أن العلم ليس هو الذى أوقد هذه الحروب ، ولا هو الذى أمر بها ، ولا هو الذى دعا الى إلقاء القنابل على المدن ولا على غيرها ، ولكن الذى أمر بذلك كله هى الاحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثه من عصور الجاهلية »

فيقال : هذا حجة عليك ونقض لكلامك الماضى فى دعواك أن هؤلاء هم الذين صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية كلها وأنجوها من ويلات كانت تعانيها فكيف يتفق أن يكون علماء كبيرة عقولهم صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية ومع هذا فقد أذاقوها الويلات والدمار الفظيع ومعهم هذه الخصال الخبيثة الموروثة من عصور الجاهلية من الاحقاد والمطامع والميول الشريرة ، فاين

العلم والحياة والسعادة والنور والصحة وغير ذلك من الأخلاق التى أضفتها اليهم زورا وفجورا ، فما أقبح هـذا التناقض ، بل السبب الوحيد أن هؤلاء أرادوا أن يستغنوا بهذه العلوم الالحادية عن علوم الدين فى رغد العيش والطمأنينة والراحة واستعظموا عبادة الله واستكبروا عنها ورأوا أنهـا لا تنفعهم بل تضرهم فانقلبت عليهم هذه العلوم بلاء وعذابا حيث طلبوا منهـا ضد ما وقع منها ، فلا نجاة للانسانية أبدا الا بوجود الدين السماوى الصحيح يسيرون على ضوئه ويعتمدون عليه ويرتبطون به فيسيروا عـلى نظامه ، فالدين هو العاصم الوحيد من ذلك فانه يحارب هـذه الاخـلاق الخبيثة من المطامع والانانية والاحقاد والميول الشريرة ، فلا دواء لهذه الادواء القاتلة ولا شفاء منهـا الا بالاعتماد عليه والاقتباس من ضوئه ونوره ، فان تعاليمـه الصحيحة المقـدسة تزيل هذه الاعراض الخبيثة وتبعدها وتبددها ، فتقضى بان يكون الناس كنفس واحـدة إخوانا وكالاعضاء فى الجسم اذا اشتـكى منه عضو تداعى له الجسد كله بالحمى والسهر ، ولا شك أن هذه الأدواء الخبيثة عنصرها الالحاد ، كما أن هذا الشفاء مصدره النور والروح السماوية ، وقد تقدمت دعواه أن الانسان خلق بطبعه شريرا خبيثا ظالما وأن ما معه من الأخـلاق الحسنة مقتبس من الديانات ، فكيف يتناقض هنا ويشنع عـلى العلماء الذين يطالبون المسلمين بالاخذ بالدين ونبذ ما سواه ، فهى موروثة عن الملاحدة واشباههم سواء كانوا فى عصور الجاهلية أو غيرها ، فالالحاد هو عـين الخبث ونقطة دائرته ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه

فصل

قال « ووظيفة العلم والعقل هو إناره الطريق وفتحه فحسب »

فيقال : هذا كلام غير صحيح ، فقد نقضته أيضا فى صحيفة ١٦٩ من هـذه الاغلال بقولك « ولـكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الاعمال كلها الاعتقاد

وأن العامل انمـا يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده » فهـذا تصريح منك بان الانسان انما يعمل على ما يوجبه معتقده ، ومعلوم أن المعتقد هو العلم الجازم المتيقن الذى يعتمده الانسان فيعقله ، فاذا كان هـذا العلم هو الذى يوجه ويسير ويعمل على مقتضاه فكيف تدعى هنا أنه ينـــير الطريق فحسب وأن الطباع هى التى تعين سلوكه [1] ومعلوم أن الانسان انما يتعلم ليعلم فيعمل لانه قد ثبت لديه أن العلم يوجب العمل ويدفع اليه ما لم يوجد معارض ، وكل عمل من مكلف إنما يصدر عن علمه الذى يعقله ويعتقده ، فانه اذا علم الشيء فاعتقده قصده ، والناس انما يتعلمون لاجل أن يعملوا وإلا فلا فائدة فى تعلمهم ، لأن المقصود من معرفة الخير اتباعه ومن علم الشر اجتنابه ، فالأعتقاد الجازم والأرادة الجـازمة والقدرة توجب وجود الفعل ما لم يمنع من ذلك مانع ، ولما كان علم هؤلاء ليس علما دينيا وانمـا هو علم مضاد لعـلوم الدين أساسه الاغراض والأهواء والمنافسة والحقـد والمـكر والنفـاق كانت عاقبته وثمرته هذه الفظائع والعذاب والدمار والخوف والجوع والعرى ، لأن كل ثمرة فانها تكون من جنس أصلها الذى تمخضت منه ، وأصول هـذه الثمرة هو هذه العلوم الخبيثة ، ولو كان الاصل هو العلوم الدينية لكانت ثمرتها الحياة السعيدة والعاقبة الحميـــدة

ثم قال « وهذا كقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى الطريقـين طريق الخير والشر ، وقوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقوله ﴿ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ والعلم والعقل لا يفعلان غـير ذلك وطباع الانسان هى التى تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : استشهاده بهذه الآيات على مراده هنا من أكبر الادلة على كثافة حجابه ، اذ قاس الله تعالى على أعراض تقوم بالانسان ، فكيف يقاس القائم

---

(١) سيأتى لفظه بهذا قريبا

بنفسه والقائم علـى كل نفس بمـا كسبت عـلى أعراض تقوم بغيرهـا من المخلوقات ، والآيات لادلالة فيها إلا على إنارة الطريق فقط، فان الهداية نوعان هداية بيان وإرشاد ، وهداية خلق فعل فى الانسان . فالأول كقوله تعالى ﴿ وانك لتهدى الى صراط مستقيم ﴾ والثانى كقوله تعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين ﴾ وجميع الآيات التى استدل بها هى من النوع الثانى ، فقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له وخلقنا فيه الهداية لهذا أو هذا ، وهذا يناقض دعواه فى العلم فانه عنده لا تأثير له مع أنه نقضه كما تقدم ، وكذلك قوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ففيه دليل على أنه سبحانه هو الذى خلق فيها الالهـام فانه أضافه الى نفسه الـكريمة فهى تعمل على مقتضى هذا الالهام المخلوق فيها من تقوى أو فجور ، وكذلك قوله تعـالى ﴿ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ فمعنـاه كمعنى آية ﴿ انا هديناه النجدين ﴾ فالله سبحانه هو الذى يخلق فى العبد الفعل كما يخلق فيـــه الاختيار فهو فاعل مختـار بمشيئة الله تعالى ، وليس خلق الفعل هو جـــبره واضطراره الى خلاف ما يريده وخلاف ما يناسب طبعه ويستحقه ، فالاجبار هو قسر الانسان على خـلاف ما يريده ويميل اليه ، وأما خلق الفعل فليس كذلك فانه خلق القدرة والارادة والاختيار ، فاذا كان الانسان خبيث الطبع قد فسدت فطرته فانه يميـل الى ما يناسبه من الشر ويليق به بمشيئة الله ، فلا يريد الخير ولا يميل اليه ولا يحبـه بل يكرهه وينفر منه ، فالله سبحانه أنزل كتبه وأرسل رسله وخلق فى الانسان فطرة قابلة لما أنزله وجعل فى الانسان طبيعة غريزية فى طلب ما يحبه والهرب مما يضره ، فاذا ترك الانسان قبول ما جاءه من الله كان تركه هذا دليلا على عدم رغبته وميوله الى الخير ، فلا يكون الله قد قسره على الشر وهو يريد الخير ، لـكن الله تعالى لو علم فيه خيرا لأعانه على نفسه ، ولـكنه ترك الانقياد وترك دعاء الله وطلبه واعانته ، فكان خاليا من قبول الخير فاذا ترك الحق كان تركه هذا باختياره من نفسه وايثاره الباطل

على الحق ، وكل عاقل يميز بين فعل المختار وبين فعل المجبر ، ولو أن رجلا ضرب تأديبا من أجل جريمة فعلها لشكر الناس من أدَّبه ، ولو ضرب من اجل لونه أو صورته لكان الذى ضربه ظالما عند جميع الناس من المقر بالقدر والمنكر له . فالتفريق بين الفعلين بديهى ، والجدال فى ذلك هوس ، وكل انسان يفرق بين من يحسن اليه ومن يسىء اليه وان كان يقر بالقدر ، وما دام كذلك فلن يسوغ له أن يجادل فيه ، وأكثر ما يجىء الخذلان من مخالفة النصوص والجدال فى ذلك كما قال تعالى ﴿ ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله ، فأحبط أعمالهم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ فتبين بهذا أنه سبحانه يخلق فعل العبد الاضلال والهداية ، ولكنه سبحانه لا يخلق الاضلال الا فى القلب القابل للاضلال المائل اليه المريد له ، لا يخلقه فيمن ليس كذلك ، ويخلق الهداية فى قلب من يطلبها ويريدها ويميل اليها . ويدلك دلالة صريحة على هذا الاصل العظيم وأن من يطلب الهداية بصدق واخلاص يعطاها قوله تعالى ﴿ ويهدى اليه من ينيب ﴾ ومعلوم أنه أمر بان تطلب منه وهو لم يأمر بذلك إلا ليعطيها من يطلبها بصدق واخلاص ، وأما من استكبر عنها وأعرض فقد فسد طبعه ، والله سبحانه عدل لا يضع الهداية إلا فى موضعها القابل لها ، فالقلب اذا كان صحيحا حيا كان فيه ميول الى الهداية لأن فطرته تميل الى ما يناسبها فلا بد أن يطلبها من مصدرها ولا بد أن يعطاها ، بخلاف من كان قلبه مملوءا بخليط من الشكوك والشبهات والشهوات والأهواء والأغراض فلا بد أن تكون هذه الامراض مؤثرة فى صحته وحياته فلا يكون فيه قبول فلا يميل بل يعرض فلا ينال شيئا من الهداية الا بقدر طلبه وميوله وحياته . فالله سبحانه أحكم الحاكمين فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها اللائقه بها كما قال

تعالى ﴿ لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فأخبر تعالى أنه ليس فيهم قبول للخير البتة وأنه لو كان فيهم قبول له لأعطاهم من هذا السمع الطيب الطاهر ما فيه كفاية، ولكن لو أعطاهم لتولوا ، فان موضع القبول قد فسد كالعود اليابس أو الجسم الفاسد الذى لا يقبل الدواء فلا ينبغى أن يجعل فيه ما ليس قابلا له لأنه وضع للأشياء فى غير مواضعها ، ومن كان طبعه غير مستقيم ولا قابل للحياة الصحيحة ولا المصادر الطيبة فلا بد أن يكون قابلا لضدها لانه لا بد أن يكون هابطا سفليا فلا بد له من قبول لما يناسبه من الأعمال والأخلاق والأقوال والافعال . وسيأتى تتمة لهذا فى مبحث القضاء والقدر ، ولكن يجب هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى كريم جواد رحيم ودود رءوف بالعباد ، فمن صدق معه وأخلص عمله وطلب الهداية صادقا مخلصا له لا بد أن يعطاها فلا يخيب من سأله ، أما من أعرض عنه واستكبر ورأى أن فى نفسه الكفاءة فقد يكله الى نفسه ويوليه ما تولى والله بصير بالعباد

وأما قوله « وطباع الانسان هى التى تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : قد تقدم الكلام على هذا ، وبينا أن تعاليم الانسان تؤثر فى طبعه الذى ينشأ عليه ويتربى عليه ، ولولا ذلك لما كان فى التعليم فائدة ، فالعلم لا بد أن يتبين أثره فى الأعمال التى تثيرها الغرائز والعواطف ، فاذا كان العلم صحيحا كعلم الدين بان أثره فى الهداية والصحة والنتائج الحسنة ، واذا كان بالعكس كان أثره بالعكس ، وهكذا كان الواقع ، فانه لما كان هذا العلم الذى يدعيه ليس هو فى الحقيقة بعلم بل هو الجهل - فانه آراء معكوسه مظلمة خبيثة مبناها على الاطماع والحقد والحسد لا على إقامة الدين والعدل والرحمة والحكمة - كانت نتائجها كذلك نتائج معكوسة خبيثة مظلمة ، فانهم مظلمون ظالمون فى ظلمات بعضها فوق بعض ، والظالمون بعضهم أولياء بعض ، ولهذا لما ذكر الله سبحانه أهل دينه وطاعته وبين ماهم فيه من الأنوار المتصلة بعضها

ببعض ذكر الملاحدة ومن شابههم وبين حالتهم وما هم فيه وأنهم فى ظلمات بعضها فوق بعض كما قال تعالى ﴿ الله نور السموات والارض ، مثل نوره ﴾ اى فى قلب المؤمن كما دل عليه السياق فى ضده من الظلمات ﴿ كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ﴾ لأن فطرته قوية صحيحة فى غاية القبول لمادة النور الذى هو الدين السماوى ﴿ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ﴾ أى نور فوق نور ، لأنه أبصر فطرته التى خلق الله فيها من الاستعداد التام لقبول مادة الخيرات كلها وهى معرفة الله تعالى وعبادته ، وقد تقدم أن الله سبحانه أفاض على خلقه أثرا من آثار رحمته التى هى من أعظم الأنوار الالهية ، ثم أنزل عليهم هذا النور الخاص العظيم ، فاذا صادف هذا النور ذلك النور الأول وقابله صار نورا على نور ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ممن هم أهل للهداية ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ ذكر الله البيوت التى هى المساجد وذكر ذكره ودعاءه وتسبيحه هنا بعد ذكر النور لكونها هى مهابط النور وهى مواضعه التى يقتبس فيها ويستمد منها ، فمن أراد النور فليحافظ على ذلك ، وهذا الخبيث جعل هذه البيوت أدت شر ما يؤدَّى كما يأتى تصريحه بذلك . ثم ذكر سبحانه أن أكثر من يستحصل على هذا من هذه صفتهم وهى عدم تقديم أمور دنياهم على دينهم ، ففى هذا بيان أن المنهى عنه هو الغفله والاعراض عن ذكر الله بسبب الدنيا لا تركها مطلقا فقال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ففى هذا بيان أهل هذا النور وأنهم من هذه صفتهم ، وفى هذا بيان أن من هو بهذه المنزلة فلا يخشى الفقر ولا الذل ، بل يزيده الله من فضله ويسخر له من الأسباب ما لا يعلمه ويهيء

له من أمره رشدا ، فلا بد أن يوفق أهل طاعته الى أسباب قوية ينالون بها العز والمجد والسعادة كما قال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالعزة لهؤلاء حكم الهى وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ، وذلك بقدر ما مع الانسان من الايمان ، لكن يجب أن يعرف هذا الايمان ويتبع . ثم بين سبحانه وتعالى حال أعمال أعدائه فقال ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ ففى هذا بيان أعمال هؤلاء المجرمين وأن الجاهلين الظمآنين — وما أكثرهم — يحسبون أعمالهم لها حقيقية كما يحسب الظمآن الى الماء أن السراب ماء ، فكل جاهل لا يشك أن السراب ماء ولا يظنه وهما بل يجزم بأنه حقائق لا شك فيها ، وهكذا كان حال هؤلاء المعجبين بهذه الأمور العصرية الالحادية يظنون أنهم على شيء ولكن أكثر هؤلاء لم يجدوا الا السراب فتقطعت أكبادهم عطشا ، واحترقت أفئدتهم تلهفا ، وهذا فى بيان أعمالهم ، ثم بين حال عقولهم وآرائهم فى مقابل حال أوليائه وما معهم من النور والهدى والبصائر فقال ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ وقد شبه هذا الموج المتلاطم بتلك التقلبات الفكرية والهيمان المتدافع فى الشكوك والشبهات ، وأخبر أن هؤلاء فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لان الظلمة الاصلية معهم ، فان الفطرة الصحيحة قد فسدت لتتابع الأخلاط الفاسدة والظلمات عليها فطفئت وفسدت فبقيت الظلمة الأصلية ثم جاءتهم الأهواء والشكوك فكانت ظلمة فوق ظلمة ، ثم ان أضيف الى ذلك الالحاد ونحوه تمت الخسارة وجاءت النكبة الكبرى . ثم بين سبحانه أن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، وفيه بيان أنه ليس فى الانسان استعداد ذاتى مستقل بالهداية والوصول الى الخير ، بل ان ذلك موقوف على هبة الله له ذلك ، فيجب طلبه منه ودعاؤه والاستعانة والاستغاثة

به وبدون ذلك لا يكون فيه كفـــاءة مطلقة بل الـكـفاءة الصحيحة القوية المستقيمة بالله تعالى ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾

ودعواه أن الطباع هى التى تعين سلوكه دعوى فاسدة ، فان الطباع غرائز كامنة لا بد لها من محرك يثيرها ، والمحرّك فعل لا بد له من فاعل . وأيضا الطباع قد ذكرت أنها الشر والخبث ، والعلم هو الاعتقاد الذى يوجه الانسان ، فاذا كان العـلم مناسبا للشر والخبث كان أعظم دافع الى الشر والخبث ، وان كانت علوما صحيحة قوية لزم أن تكون قاضية على الطباع الخبيثة مانعة لها عن الانطلاق الى ما يلائمهـا ان كانت هى التى تدفع الانسان ، وان كانت ضعيفة عاجزة عن مقاومتها بطل قولك أنهـا علوم صحيحة ناضجة وتعظيمها والثناء عليها ، ولا سيما مع تصريحك بأنهم علموا كل شىء ، فان هذا هو غاية العلم ، ثم دعواك أنها موروثة من عصور الجاهلية يناقض دعواك أنهـا أصيلة غريزية وأنهم يولدون بطبيعة الشر والخبث والظلم وإنما الخير مكتسب اكتسابا

ثم قال « بل هما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الاحقـاد والطبـاع الظالمة من شقاء وعذاب »

فيقال أما العلم والعقل اللذان تريدهما فدعواك هـــذه فيهما كذب ظاهر مخالف للواقع ، كيف يخففان ما تجره الاحقاد ونحوها وأنت تقرر أنه يجب أن يكون الدافع هو الحقد والمنافسة والحسد كما تقدم ، فعلومهم هذه مبنية على ما يوافق الاحقاد ، فان أكثرها مؤسس على تنفيذ ما توجبه هذه الاحقاد فيكونان هما اللذان هيجا الأحقاد وفعلا المظالم ، فانهما ليسا بعلم ولا عقـــل صحيحين بل هما جهل وفساد تصور وأوهام لا شك فيها

ثم قال « وكم للعـلم والعقل من وقاية وحمـاية وخدمات فى هـذه الحرب ، ولولا هما لكان الشر أعم وأتم ، فالعلم خير كله ، والجهل لا شىء منه خير »

فيقال : هذا انما يحصل للعلم والعقل الصحيحين ، بخلاف ما تدعو اليه من الجهل وفساد الرأى ، وليست الحماية والوقاية التى ذكرتها ـ ان كانت موجودة ـ

من العلم ، فانك ذكرت سابقا أنه أى العلم ينير الطريق فحسب ، وهنا أضفت اليه فعل هذه الامور ، فما أكثر تناقضك ، وانما هذه الأمور حصلت فى العقل الذى صار فيه بقية من بقايا تعاليم الأديان فيما يختص بالأمور الدنيوية فقط استمسك البشر بها بحكم ضرورة الحاجة اليها فى معاشه واجتماعه ، والا لما كان بينهم وبين البهائم أدنى فرق أى فى أمور المعاش فقط ، ولو أن العقل السليم سلم من هذا الجهل الذى تسميه علما لكانت وقايته أعظم وأجل ، ولكن هذا الجهل أضعفه وأفسد كثيرا من معنويته الصحيحة

وقوله « فالعلم خير كله والجهل لا شىء منه خير »

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ، وقد تقدم قولك « ما كل علم محمود ، فرب علم خير منه الجهل » الى آخره . وثانيا : قد ثبت بالدلائل القطعية أن هذا الذى تدعيه علما هو أشنع الجهل وأعظمه ، وأن هذا الذى تدعيه جهلا هو العلم الصحيح الذى لا ريب فيه ، فانك جعلت المكر والخبث والشطرنج ونحو ذلك من أصول العلم ، وجعلت دعاء الله وعبادته والخطب والصلوات وأخلاق الدين كلها جهلا ، وهذا عكس صريح للحقائق كما تقدم

وينبغى أن يعلم أن أولئك الشيوخ العلماء لم يذموا العلم الذى يصح أن يسمى علما وإنما يذمون علوم الالحاد التى من أصولها دعاية هذا الملحد فى أغلاله من الاعتماد على الانسان وانكار القضاء والقدر على الوجه الصحيح وانكار كون الله يغير فى الاسباب ، وما يذكره من الخبائث فى قضية المرأة وغير ذلك ، أما الأمور الصناعية ونحوها فانهم حثوا عليها ورغبوا فيها وكتبهم ومقالاتهم أكبر شاهد على ذلك

ثم قال « ولو كان العلم هو الذى يشب الحروب لما وجدت فى عصور الجهالة مع أنها فى تلك العصور أكثر »

فيقال : كل هذا حجة عليك ، لأن هـذا الجهل كان فى عصور الجـاهلية كثيراً جدا ، فان أولئك الذين شبوا الحروب فى عصور الجاهلية انمـا حمـل أكثرهم عليها اعتقادهم أن فيهم الـكفاءة الذاتية ولهـــذا حاربوا الرسل ولم يلتفتوا الى الدين ، وأيضا كانوا بعيدين عن الأديان التى هى العلوم الصحيحة القاضية بالتآخى والتصادق والتناصح والمودّة ، ولهذا كان هذا القياس مطردا فكلما كانوا أبعد عن الأديان كانوا أشد فوضى وهمجية وأكثر حروبا ، فكان هذا الجهـــل الذى تدعيه هو الذى يوقع فى المنازعات والاحقـاد والأنانية والعدوان المطلق ، وكل هذه هى أسباب الحروب ، على أن دعواك أن عصور الجاهلية أكثر غـير مسلم مطلقا ، ولو ثبت هـذا فالحروب الأخـيرة أفظع وأشنع وأعظم هلاكا ودمارا

الكلام على المبحث الرابع

وهو قضية تعليم المرأة وسفورها
عنوان هذا المبحث فى أغلاله (أإنسان أم سلعة)

واعلم أن هذا المبحث ليس هو من أهم مقاصد كتابنا هذا ، لأن قضية المرأة فيما يتعلق بتعلمها وسفورها ونحو ذلك قضية طويلة الذيول عريضة المسالك ، لا تزال المعارك فيها بين الكتاب والقراء وغيرهم حامية ، وأكثر الصحف اليومية والشهرية وغيرها لا تخلو من الكلام فيها . وأكثر كلامه هنا خلاصة مقالات أخذها عن غيره ، وقد قوبلت بما هو أصح وأكثر منها ، ولكنه جرى على عادته فى التحريف والتطفيف يذكر ماله وافيا ، ولا يبين ما عليه كما يجب . ثم ان كلامه فى هذه القضية كلام مجمل قد لبس فيه الحق بالباطل ، ولم يقصد الحق والصدق والعدل بل قصد الكذب والتلبس وتشويه سمعة الاسلام على عادته ، لأن الغرض الأكبر من هذه الأغلال هو القضاء التام على أصول الفضائل الدينية وعلى كل المقومات الانسانية وعلى كل عناصر الحياة الدينية والدنيوية ، ولهذا فانه أسهب فى هذا المبحث ، لانه يعلم أن العبث بالنساء وإخراجهن من صيانتهن أصل كبير فى فساد الأمة ، وقد هجم على المرأة فى المبحث وحث حثا متواصلا على إماتتها وقهرها وعسفها واهلاك كل شىء نفيس فيها حتى جعلها أدنى حالة من السلعة التى تباع وتشترى ، بل جعلها كالأتان التى يجب أن تعمل وتبرز وتفعل ما شاءت شهوتها ، فان الأتان هكذا يعمل ويخالط ذكوره إناثه فى كل شىء . وقد مشى على طريقته فى التزوير والكذب والاتيان بالدعاوى غالبا مجملة ملبسة بالحق والباطل ، فافترى على المسلمين بأنهم يحرمون على المرأة العلم ، وهذا من أفجر الدعاوى وأكذبها ، ولا نعلم شعبا ولا أمة موجودة من المسلمين حرمت على نسائها العلم والتعليم النافع ، ولكنه أراد بالعلم علمه الذى يدعو اليه وهو الالحاد وطرق الفساد ،

فان هذا الملحد لما أراد أن يرتد وينقلب ارتد وانقلب فى كل شىء بحيث انك لو عكست أكثر كلامه لكان هذا الاكثر هو الحق ، فانه تصور جميع أصول الحق باطلا وتصور أكثر أصول الباطل حقا فهو كمن يمشى مكبا على وجهه بعد أن كان يمشى سويا على صراط مستقيم . ونحن نتكلم على هذه القضية كلاما مختصرا مفيدا يناسب المقام ويأتى على جميع ما افتراه من القواعد الباطلة .
قال أول البحث :

(أإنسان أم سلعة)

فيقال : ما مرادك بهذا العنوان ، أتريد أنها ليست بسلعة وأن الناس جعلوها سلعة ، أم تريد أمرا آخر . فان أردت الأول فيقال لك : أنت الذى جعلتها سلعة ، فانك أعرضت عن كل ما شرعه لها ربها ورسولها من الحقوق الانسانية التى هى غاية العدل والاحسان ، من العفة والاحصان والصيانة والكرامة والتعليم الصحيح ، وسلكت فيها مسلك السلع المبتذلة فانكرت الزواج صريحا كما يأتى ، وأنكرت تعليم الدين ، وأنكرت إحصانها فى بيتها وخروجها منه لحاجتها ونزهتها المباحة ، وادعيت أنه يجب أن تعلم كل شىء من الموسيقى والرقص بل وكل شىء ، وقد تقدم ادعاؤك أن المكر والخبث داخل فى العلم فتعلم المكر والخبث ، وأن تكون كاحدى البهائم تمرح وتسرح وتجىء وتذهب كالسائمة المهملة كيفما شاءت شهواتها ، وهذا هو شأن بعض السلع البهيمية المبتذلة ، فالاخلاق الانسانية كلها قد جردتها منها تجريدا كاملا فلم تدع الى خصلة انسانية واحدة فى هذا المبحث فى حقوق المرأة البتة ، وانما غايتك أن تزور على المسلمين أنهم فعلوا بالمرأة كيت وكيت كذبا وفجورا غير مستند الى حجة ، ثم تجيب نفسك بنفسك فتدعى لنفسك ثم تشهد لها ثم تحكم لها ، وجميع ما تدعو اليه من تعليمها قد عرفنا مرادك منه ، كما صرحت به كما يأتى من الأخلاق الخبيثة ، أما الأخلاق الدينية وما يتعلق بها فقد علمت أن

المسلمين لا ينكرون ذلك ، وهذه كتب الفقه مملوءة بايجاب تعليم المرأة وتهذيبها وتأديبها ، ولكن كل أخلاق الدين عندك هى الجهل وهى الظلمات والشقاء والعذاب ، ثم انك مطالب ببيان الفرق بين الانسان والسلعة ، ثم اثبات كون المسلمين عاملوا المرأة كمعاملة السلعة ببراهين وأدلة صحيحة ، وأما مجرد الكذب والفجور فكل خبيث وساقط ومنسلخ من الدين لا يعجز عنه ولا يهابه ، بل هو غـــذاء قلبه وروحه

فصل

قال « أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهى من أغرب القضايا التى تمر بالتاريخ البشرى »

فيقال : اذا كان تحريم تعليم المرأة من أغرب القضايا فلماذا وقفت فى طريق تعليمها العلم النافع والأخلاق الطيبة وأطلت الجدال والعناد فى الدعاية الى حجابها عن العلم الصحيح والدعوة الى دفعها فى ظلمات الجهالة والغى والفضائح المخزية وأنت تعلم بلا ريب أن المسلمين لم يحرموا العلوم الدينية ولا العلوم الدنيوية النافعة كتعليمها أمر دينها من توحيد وصلاة وطهارة ونظافة وغير ذلك وكتعليمها أمور دنياها النافعة كعشرتها مع زوجها وقيامها بأولادها وتربيتهم تربية صحيحة وقيامها فيما يخص بيتها من الأمور الكثيرة المشروعة ، وكذلك تعليمها كل ما تحتاجه حاجة ضرورية أو قد تحتاج اليه من خياطة ونحوها ، فهذا كله لم يحرمه أحد من المسلمين على المرأة ، ولا يمكن بحال من الاحوال أن تثبته عن امام معتبر قوله أو طائفة معدودة من طوائف المسلمين حقا . وهذه الامور كلها لم تعبأ بها وليست هى علما عندك ، وقد أفصحت لنا عن العلم عندك فى البحث الماضى وهو الخبث والمكر وتعليم الموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك من أخلاق الغربيين والملحدين خاصة ، وهذا هو الذى تقصده وتريده من تعليمها ، فاذا كان الامر هو هذا كما ادعيته

فربما قاربت الصدق ، لأن أئمة المسلمين حرموا هذه الامور عليها ولا سيما الشطرنج والموسيقى والرقص والغناء والخلاعة والفجور والدعارة المنكرة والاستهتار الشنيع ، فلا غرابة اذن أن تشنع عليهم فى هذا التقصير وتنسب اليهم كل جهل وضلال ، لان الجهل والضلال عندك هى الاخلاق الدينية وما يتعلق بها

إن كل فرد من أفراد المسلمين يعلم حقيقة العلم أنه لا يوجد رجل ممن يعتد بقوله منع امرأة من تعلم ما ينفعها فى دينها ودنياها ، وهذه عقائد المسلمين يخاطب بها الرجل والمرأة ، وهذه كتب العلم من توحيد وتفسير وفقه وغير ذلك كلها صريحة فى الدلالة على وجوب تعليم المرأة ، وهذه المعارف كذلك ، فكيف يدعى هذا الزائغ أن الناس حرموا على المرأة التعليم ويجاهر بذلك بدون خجل ولا حياء ، والتعليم الدينى أو الدنيوى ليس محصورا فى طريقة واحدة محدودة حدا شرعيا ، بل كل وسيلة أو طريقة يتحصل عليها الانسان فتعينه دينا ودنيا فهى مشروعة ، لكن المفروض منها تعبدا معروف ، والمحرم نصا معروف ، أما ما سوى ذلك فالأصل فى الامور الدينية المحضة الاباحة ، ولا يستثنى من ذلك الا ما استثناه الشارع الحكيم ، هـــذا فى المقاصد ، أما الوسائل فهى تابعة لها ، فكل وسيلة يتوصل بها الى واجب أو مشروع فحكمها حكم مقصدها ، وعكسها كذلك حكمها حكم مقصدها ، فطرق التعليم على حسب الأفكار والانظار ، فما حصلت به الفائدة المطلوبة من العلم فهى كافية بحسب الحال والقدرة والحاجة ، وفوق كل ذى علم عليم

واعلم أن هذا الملحد صوّر المرأة فى هذا المبحث فى نظر المسلمين صورة مشوهة منكرة مزورة ، فادعى أنها عندهم كالسلعة تباع وتشترى ، وأنها مدفونة فى بيتها لا حقّ لها فى الخروج مطلقا ، وأن التعليم عليها حرام ، وأن كلامها مع الاجنبي ولو لحاجة حرام ، وأنها مع الرجل كالمملوكة مع المالك يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب على ما يقتضيه هواه وشهوته وأنانيته وغير ذلك ،

فهى مع الرجل مسلوبة الحقوق من كل ناحية . وهذه الدعوى لو أن أكفر يهودى ادعاها على شعب أو أمة فلا بد أن تعامله معاملة أعدى عدوّ لها

وقال « وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكما عجيبا ، وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية ، فكان له على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى وتوهب وتستوهب ، وأن يستمتع بها كيف أراد بالزنا القهرى أو التراضى عليه بالجعل (١) او الأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجا وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التى كلها إرغام » انتهى كلامه بحروفه

فانظر كيف صرح بانكار جميع الصور التى يفعلها الرجل مع المرأة سواء كان ذلك بزواج أو بما يسميه زواجا ولم يستثن من ذلك غير صورة واحدة ، فقد علمت أن هذا الرجل يدعو الى الاباحية المطلقة وذلك أنه لم يجوز للرجل أن يباشر المرأة أو يطأها الا فى صورة واحدة وهو أن يطأهـا بلا زواج بشرط أن لا يكون لها أجرة فان اختل شرط من هذا فانه غير جائز لديه بل هو ظلم لها ، فلو مثلا وطأها بزواج لم يجز لأنه صرح بذلك كما ترى ، ولو أنه وطئها بأجرة برضاها لم يجز - كما ترى - أووطئها قهرا بالزنا أو غيره لم يجز كما هو صريح كلامه ، فانه أنكر جميع الصور التى تكون بالإرغام ، فلم يبق من الصور التى لا تدخل فى صور الإرغام إلا ثلاث صور : إحداها الزواج وقد صرح تصريحا لا ريب فيه بعدم جوازه ، وفرق بينه وبين ما يسميه الانسان زواجا لان الزواج إما صحيح وإما باطل أو فاسد ، فالزواج الحقيقى أنكره وكذلك أنكر ما يسمى زواجا وليس له حقيقة ، والا لم يكن هنا فرق بين ما يسمى زواجا وزواجا حقيقيا فقد نفى الأمرين كلاهما ، وليس هناك صورة تسمى

---

(١) ذكره للزنا المتراضى عليه بالجعل هنا صريح فى بيان الحالات التى يسوغ فيها وطء المرأة من غيرها بالتفصيل بالرضا والاكراه

زواجا غير الزواج الحقيقي والزواج الذى يسمى بغير حقيقته ، وهو لم يبين كيفية الزواج الصحيح حتى يقال انه يريد زواجا آخر ، ومعلوم أن الزواج الصحيح هو الزواج المطلق فى عرف الناس فانه يطلق على الزواج الصحيح ، واذا قيل هناك زواج وهناك ما يسمى زواجا عرف الناس أن احدهما صحيح والآخر باطل لعدم وجود القسم الثالث ، ولا سيما اذا لم يذكر له صفة ، فلم يبق إلا صورتان من الصور التى ليست بارغام(١) وهما إما الزنا المتراضى عليه بالجعل والأجر ، وهذا قد صرح بانكاره تصريحا ظاهرا ، وإما الزنا المتراضى عليه بدون أجرة وهذا لم ينكره كما ترى . ومعلوم أنه لا ينكر وطء المرأة مطلقا ، واذا كان لا ينكر وطء المرأة مطلقا (٢) وجميع الصور التى يمكن أن توطأ بها المرأة قد صرح بانكارها ما عدا هذه الصورة ، فقد علمنا بلا شك أنه يجيزها ولا يجوّز غيرها ، وهذا صريح كلامه ، ولا يمكنه التملص والتخلص منه إلا بالرجوع والتنازل أو استعمال الحرفة اليهودية التى اعتادها وهى التحريف والمكابرة (٣) ولعل وجه اختياره لهذه الصورة هو أن الوطء على هذه الصورة لا يتأتى إلا من غرام وهيام شديد بالمرأة على هذا الشخص الواطىء ، لانها لا ترضى أن توطأ مجانا إلا اذا كانت بهذه الضرورة الملجئة ، وهذا من رقة تفكيره ودقة شعوره وعطفه الشديد عليها ورحمته بها ومحاماته

---

(١) والحاصل أنه لا يمكن أن يطأ الرجل المرأة إلا فى احدى حالتين إما كرها وهو الارغام وهذا قد أنكره كله ، واما بالرضا وله ثلاث صور اما الزواج واما الزنا بالرضا بالأجر وكلاهما قد أنكره واما بالزنا بدون أجر ، وهذه الصورة سكت عنها ومفهوم كلامه جوازها والا لزم تحريم وطء المرأة مطلقا وهو لا يراه ، فتعين تجويزه بضرورة التقسيم وهو واضح

(٢) ولو انكره فذلك أشنع وأعظم

(٣) المكابرة فى اليهود أمر معروف ، ولهذا قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ مع أن التوراة بين أيديهم

عنها ، ولعل هذا من العلوم المبتكره التى صنعها المتحللون من الأديان كما يقول ، فلهذا سجلها فى حقائقه الازلية الأبدية . وبهذا وأمثاله من الفضائح يتبين لك أنه عدو للفضائل كلها كما هو عدو للأديان السماوية . وهذا الملحد كما أنه سلك فى كل خلق أشنعه وأفظعه وأخبثه فهو كذلك يريد أن يسلك فى هذا الخلق أبشعه وأخبثه وأفظعه ، وإياك أن تستغرب هذا منه فان فى أغلاله من الفظائع والجرأة على مقام الربوبية والنبوة ما هو اعظم من هذا ، فانه لا يعلم كافر اجترأ على ما اجترأ عليه مع كونه مرتدا منافقا زنديقا متصفا بكل خصلة من خصال الكفر ، وهـذا ظاهر لا ينكره إلا بليد جاهل لا يفهم مغزاه ومرماه ، أو ذو هوى قد ضرب الله قلبه بالطبع والختم والاقفال والاغلال

ثم قال « وكان نظره اليها إجمالا وحكمه فيها مثل نظره الى ما يتحصل عليه بالبيع والشراء ، ومثل حكمه فيه ، وكان له أن يفعل كل ما يرضى غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع أو يحاكم أو يعاقب ، فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر وأن يوضع على عينيها حجابان كثيفان يحولان بينها وبين الابصار خيفة أن تنظر الى رجل آخر ، وهذا يغضب غيرة مالكها وسيدها [1] والحجاب الكثيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذلك الحجاب وكان أيضا من بعض أحكامه أن يضع رجليها فى القيود طول حياتها أو زمنا طويلا من حياتها وأن يمنعها الخروج مهما كانت الأغراض وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء وأن لا يباح لها

---

(١) اذا كان مناط المنع هو اغضاب مالكها وسيدها بزعمك فالزنا كذلك يغضبه فصرح باباحته هنا . أما الحجاب فليس المقصود منه منع إبصارها فانها ترى معه ولا يردها عن شيء مباح أصلا . وأيضا فهو منقوض بنساء كثير من البادية فانه لا يعرف عندهن الحجاب ويوجد أيضا من بعض النواحى من لا تحتجب المرأة عن الرجل أصلا ، ومع ذلك فالرجل متفوق عليها فى كل شيء

الـكلام ولا الملـكية أى ملـكية الأموال والعقارات [١] وأن يأبى عليها إبداء الرأى والتعليم وأن يقضى عليها بأنها ليست انسانا وأنهـــا ان كانت انسانا فليس لها روح »

والجواب أن يقال كل هذه الأمور التى ذكرهـا هنا كذب ظاهر وفجور لا شك فيه يقصد به تشويه سمعة الاسلام ، غير أن فى مسئلة تغطية الوجـه عن الاجنبى على صورة مخصوصة خلاف بين العلماء يأتى الكلام عليه ، على أن لنا أن نعارض بأن الملاحدة ولا سيما الاشتراكيون فعلوا بها أشنع من هذا فحرموها الملـكية مطلقا وجعلوها من جنس إحـدى البهائم التى يعمل عليهـا وتعطى علفا بمقدار تعبها وبمقدار ما يسد جوعهـا وعراها ، فكلفوها بأنواع الأعمال المرهقة وجعلوها موضعا لقضاء الحاجة فقهروها وعسفوها وأماتوا روحهـا وشرفها وانسانيتها بل جعلوها كاحدى الصور التى يفعل بها مـا شاء المالك بدون قيد ولا شرط ، بخلاف من صانوها واحـــترموها وقدروها وأنالوها شدة العطف والراحة والهدوء والطمأنينة التامة ، ومجرد إحصانها فى البيت لا يقضى بكونها كالسلعة فان السلع لا تختص بالاحراز فى البيوت بل أكثر السلع تعرض فى الأسواق والمجامع وفى كل مكان ، بل السلع التى تحرز أنفس من السلع التى تعرض فى كل محل ، وليس بمجرد المعاوضة يوجب التشبيه بالسلع ، فأكثر العمال على اختلاف اعمالهم الـكثيره المتنوعة يعملون بالأجرة بعقود معلومة الشروط ، وقد بينا أنه لم يجعل للسلعة حـدا معروفا يثبت به دخول المرأة فيه حتى يصح له ادعاء السلعة ، فما ذكره كلام ساقط لا محل له البتة ثم انه عاد الى سجيته فى الخداع فقال [٢] :

---

(١) انظر الى هذا الفجور المنكر فى هذه المسائل الواضحة عند أدنى عامى

(٢) أى لمـا عـلم أنه قد اسرف فى الـكذب والفجور فاحتاج الى الخـداع ، وهكذا دأبه

« وقد جاهد الاسلام جهاداً عظيما فى سبيل المرأة لانقاذها من هـذه المظالم والنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت ، ففرض لها حقوقا عظيمة ، ورفع عنها آصارا وأغلالا ، وعمل أعمالا جليلة لاعطائها النور والحياة الصحيحة ، وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة تتلى فى الصلوات وفى كل مكان وأمر بتعليمها وتعلمها ، ووجه اليها الخطاب والأمر والنهى كما وجه الى الرجل سواء ، ورفع عنها كل إكراه وقهر فى كل صلاتها فرفع عنها إكراه الأب والأخ والاقارب كما رفع اكـراه الزوج وأقارب الزوج ، وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل ، وأكثر من وصاياه بها ولها ، وقد صنع لها وفى سبيلها كل شىء جميل طيب ، وكان من النصوص القاضية الفاصلة فى هذه القضية قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ وليس هناك إنصاف وإنقاذ يخطر فى التصور أفضل وأكبر من هـذا الانصاف والانقاذ اللذين أنزلهما الله فى كتابه المقدس تخليدا لحقوق المرأة ووضعا لها فى موضعها الطبيعى »

فيقال : لكنك أبيت أن تقبل هذا الانصاف ، عارضت ذلك الجهاد الذى جاهده الاسلام فى سبيلها فلم تطب نفسك بكل حقوقها الشرعية بل رأيتها جوراً وظلما وحيفا كبيرا ، فجميع الحقوق التى فرضها الله لها وعليها لم تقبل منه حقا واحدا بل ضربت به عرض الحائط ، وذلك أن الله فرض عليها الواجبات الدينية قبل كل شىء كما فرض عليها دعاءه وطلبه والاستعانة به ، فأعرضتَ عن ذلك وادعيت أن الدعاء مصرف خبيث لا فائدة فيه ، واجتهدت فى الدعاية الى رفض الدين ، فاى حق دينى واحد ذكرته لها فى هذا المبحث كله بل فى الكتاب كله ، وقال تعالى فى حقها ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ فأخذت نصف هذه الجملة وضربت بنصفها عرض الحائط لانها لم توافق هواك ، ومعلوم أن هذا الانصاف لم تقبله بل جعلته جورا وظلما لانك رفضته ، ولو أن رجلا قال ﴿ فويل للمصلين ﴾ واستدل

بذلك على انكار الصلاة وترك قوله تعالى ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ لكان محرّفا للآية لم يقبل ما قاله الله ، فكذلك من استدل بقوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ وترك ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فأخبر تعالى أن للرجال عليهن درجة وأنت ساويتها به فزدت عليه بان تعليم المرأة أوجب من تعليم الرجل وادعيت أنها مثله فى كل شيء وقال تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ وأنت جعلتها مثله فى الحقوق صريحا فأين القبول وأين الانصاف ، وفرض الله لها نصف ميراث الرجل وأنت جعلتها مثله بل هى أحق منه ، وفرض على زوجها وأقاربها تأديبها فقال تعالى ﴿ فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ﴾ وقلت انه رفع الاكراه ولم تفصل ، وأمر أباها وأخاها وغيرهما من الأقارب بتأديبها والاخذ على يدها اذا ما أرادت أن تعمل ما يخل بدينها وشرفها فعاندت ذلك فذكرت أنه مرفوع عنها الاكراه ولم تفصل ، وفرض عليها الزواج وأنت أنكرته صريحا ، فجميع ما سجل الله لها من الحقوق الانسانية عمدت اليه فأفسدته وشوهته ، وجميع ما صنع فى سبيلها من الأشياء الجميلة كالفقه والصيانة والاكرام والاحترام حاولت تغييره وتبديله بالأمور القبيحة المنكرة ، فدعوتها الى المخالطة وهتك عرضها وجعلها كموضع الحاجة للرجال ، فما هى الخصلة الحسنة الدينية التى تنفع المرأة وافقت عليها ودعوت اليها ، فكل ما سجله الله من حقوق المرأة نبذته وقبلت ما سجله الملاحدة فى قوانينهم أعظم القبول وبالاستسلام الكامل وقدمته على كل شيء ، فدعنا من المخادعة

فصل

قال « لو ان قائلا قال ان تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكر ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلا ولما كان قائلا غير الحق ، ولو أن قائلا ان الأمة التى لا تتعلم نساؤها لا أمل فى نهوضها ووثوبها ، أو

قال إن الأمة التى لا تتعلم نساؤها لا رجاء فى أن يتعلم رجالهـــا تعلما صحيحا مجديا ، أو قال ان الأمة التى يتعلم نساؤهـا ـ ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر ـ فلا محالة أن تدفع رجالها الى التعليم ، وأن تعد شعبا متعلما ، أو قال ان من أظهر الأسباب فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجـزهم فى كل الميادين جهل المرأة ، أو قال إن الأمـــة التى يتعلم نساؤها دون رجالهـا لأفضل من الأمة التى يتعلم رجالها دون نسائها ، أو قال علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا ـ لو أن قائلا قال هـذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون أخطأت »

فيقال : ما شاء الله يا فيلسوف الزمان ، من أين تعلمت هـذه الفلسفة الدقيقة والسياسة العظيمة ، لقد كان الناس يؤلفون المجلدات الضخمة فى بيان السياسة وعوامل الرقى والتقدم والمجد ، وأنت اختصرت ذلك كله فقربت كل هذا البعيد وجمعت أطرافه كلها حتى أظهرت مخها وخالصها وروحهـا فى عشرة أسطر ونصف سطر ثم اختصرت هـذه الكلمات فى سطر واحـــد هو روح السياسة كلها وهو قولك « علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقه والامل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا » فأى فيلسوف فى الدنيا أو سياسى فى هذا الزمان قدر على مثل هذا الذى قدرت عليه ، ولعل هذا من آيات أغلالك ومعجزاته

(يالدر الذى فى لجج البحر) لو أن قائلا قال هـذا كله لما قال له العاقلون أخطأت ، نعم لا يقولون له أخطأت لأن أمره فوق الخطـــأ ، لانه شبيه بالهذيان والثرثرة الفارغة التى يستحى من أن يقولها من له عقل وحياء ، وكيف يقول العاقلون لقائل هذا أخطأت ، بل أقل ما يرد على قائله أن يبصق فى وجهه ، ولو أنك جعلت أقصى ما لديك فى هذه المسئلة معارضة بعض الـكتاب الذين عاكسوك فى هذا الرأى لكان أولى بك ، فقد قابلك كثيرون من الـكتاب وغيرهم بما يضاد رأيك هذا الذى ذكرته فى هذا المبحث كله ، وبينوا أن تعليمها التعليم الذى تريده هو أصل الفساد والشر كله ، وأنه ما من أمـة

تعلمت نساؤهم هذه الجهالات التى تدعو اليها إلا كانت عاقبتها الفشل والتقهقر .
ونحن ننقل جملة واحدة للدكتور زكى مبارك ونتحداك تحديا لا هوادة فيه أن تنقضها ان كنت صادقا ، قال فى مقالة له [١] « وانك كلما فتشت مشاكل الناس ومصائبهم وجدت امرأة خلف كل مشكلة ومصيبة ، فالجرائم ترتكب بسبب المرأة ، والبيوت تهدم والابناء تشرد بسبب المرأة ، بل ان العروش تسقط والأمم تنهار بسبب المرأة ، وإلا فمن كان يصدق أن فرنسا مهد الحرية وعنوان الحضارة تسقط بعد سبعة عشر يوما من الهجوم عليها فى خلال الحرب الأخيرة ، ولكن فرنسا كانت قد سقطت خلقيا قبل أن تسقط حربيا ، ولا عجب ونساؤها كن مضرب الأمثال فى الخلاعة والمجون والفجور . . . » [٢]
وكلام الكتاب فى هذا كثير جدا ، وهذا الأرعن الأنوك أذل وأصغر وأحقر من أن يبارى هؤلاء فى هذه الميادين أو غيرها أو ينقض كلامهم ، انما شجاعته كلها محصورة فى الأخلاق اليهودية وهى البهت والتحريف وسب الاسلام وأمثال ذلك . وينبغى ملاحظة قوله هنا فى المرأة وتصريحه بأن سبب تأخر المسلمين فى كل الميادين عدم تعليم المرأة وأننا اذا علمناها فلا نخشى شيئا ، وقد ذكر فى المبحث الماضى أن تأخرنا ليس سببه الا شىء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فانظر الى هذا التناقض والتلون الحربائى ، كما أنه ينبغى أن يلاحظ أنه ذكر فى المبحث الأول أن هناك أناسا يعللون تأخرنا بسفور المرأة ثم رد ذلك وشنع عليهم أعظم التشنيع ، فكيف يشنع عليهم حين عللوا ذلك بسفور المرأة وفسادها ويستصغره وهو هنا علق فلاح

---

(١) مسامرات الجيب العدد ٨٥ : ١٩٤٧

(٢) قد تبين من هذا الملحد ان شناعاته فى كتبه السابقة على زكى مبارك ليست دينا بل لأغراض نفسية ، فانه فى أغلاله هذه باح بجميع ما يكنه من الالحاد وعداوة الأديان

الأمة ونجاحها بل والوصول الى كل شىء بتعليم المرأة فقط ، وقد عرفناك عن تعليم المرأة ما هو ، إنه يريد بذلك إفسادها وقتلها بالخبث كله ، لانه يعلم انه اذا فتح هذا الباب المشئوم حصل الفساد العام والفوضى والسقوط المعنوى ، وهذا هو الغرض الذى وضعت له هذه الأغلال . ولو ان هذا الملحد اقتصر فى هذه المسئلة على نشر المقالات فى المجلات والجرائد ونحوها كما فعل بعض من يرى ذلك مع أن كل من تكلم فى هذه القضية ممن يرى السفور لم يتجاسر أن يصل الى ما وصل اليه هذا من الخبث والجنون والاسفاف المنكر ، ولكن حمله اعجابه بنفسه وحرصه على رفض الدين على ادخال هذه المسئلة فى هذه الاغلال لتكون حلقة منها ولتكون كاملة فى الخبائث ، ولأنه لما انهار خلقه الدينى انهارت أخلاقه فى كل فضيلة فاستحالت أخلاقه الى أخلاق فى غاية الخبث والنتن والقذارة والدناءة المتناهية ، لهذا سولت له نفسه المنحطة أن يحرض قومه على أن يهتكوا أعراضهم فيبرزوا نساءهم ويعلموهن طرائق الفجور والفسوق مؤملا أن يأخذ هو وأخدانه نصيبهم من كل خبث وفساد معهن ، فان ما عمله هنا فانه من موجبات مكره وخبثه ، ولا يحيق المكر السيء الا باهله

ثم ذكر أن اكثر اصابات الأطفال سببه جهل الأمهات وعدم التعليم ، وهذا غير مسلم ، وليس فيه ما يتعلق به ، ولو فرض على وجه الجدل وقوع بعض شيء منه فاننا فى الواقع نوجب تعلم المرأة وتربية اولادها ونحث على ذلك كما تقدم فلا حجة له فى ذلك

ثم ذكر أحاديث تتضمن أن المرأة كانت تكلم الرجال فى زمنه عليه الصلاة والسلام وأنها تخاطبهم أحيانا كالمرأة التى عرضت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم وذكر قصة ابنتى شعيب عليه الصلاة والسلام اللتين سقى لهما موسى عليه الصلاة والسلام وذكر قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ﴾ الآية وكل هذا الذى استدل به لا حجة له فيه

بل هو حجة قاطعة ظهره ، لان تخصيص هذه المخاطبات وهـذه الوقائع دليل على أن المرأة لا تكلم الرجال إلا فى مواضع مخصوصة للحاجة فقط ، وهذا هو قولنا كما تقدم شرحه ، فمن أين له أنها كانت كالرجـل فى ذلك الزمان تحضر المجالس كما يحضرها الرجال وتمـــتزج معهم وتكلمهم ويكلمونها فى كل حال ، وليس فى هذه الدلائل المذكورة ما يفيد هذا بل تفيد ما ذكرناه كما هو واضح ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يجعلهن صفوفا وحـدهن فى الصلاة ولم يكنّ يصلين بين الرجال فى صف واحد لا فى صلاة عيد ولا جمعة ولا غيرها ، ولم يكنّ يحضرن المجامع التى ليس فيها ذكر الله والشريعة وهكذا كانت جميـــع الوقائع التى كانت المرأة تجتمع مع الاجانب وتكلمهم فيها فانها تجىء وتتكلم بقدر الحاجة الماسة ، ثم ان الآية التى فى الممتحنة دليل على أن المرأة كانت تعلم هذه الاخـــلاق العالية وتبايع على ذلك وهى ترك الشرك والسرقة والزنا وقتـل الأولاد واتيان البهتان بالافتراء ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الآية جامعة لآداب المرأة وهى لا تتفق مع تعاليمه التى يدعو اليها بل تضادهـا غاية المضادة ، فان تعليم الموسيقى والشطرنج والمـكر والخبث والرقص والغناء ودقائق الفلسفة ونحو ذلك لا يتفق مع هذه الأخـلاق ، بل هذه التعاليم تثير الزنا والسرقة وترك التوحيد واقتراف البهت والافتراء ، ولا نجـــاة لها الا باجتناب هذه الأخلاق الفاسدة والاقتصار على تعاليم الدين وما يلتحق بذلك من تربية الأولاد وعشرة الزوج وأمثال ذلك . ولهـذا فانه لم تستطع أنامله نقل الآية كلها لأنها تهدم بناءه . بل نقل قوله تعالى ﴿ يا أيهـا النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك ... ﴾ فاقتصر على هذا ، وهذا من دقة إلحاده وحرصه على كـــتم الحق

فصل

قال « ولقد جهلت وهانت تلك الامـــة التى تحتاج إزاء الحقائق السافرة

الملموسة الى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها، واذا ما رأيت أمة تثير غبار الجدل الديني أمام ما يجدّ من مبتكرات العقل الانساني مجوزة أو مانعة محللة أو محرمة فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها »

والجواب أن يقال : لقد علمت أن النزاع بيننا وبينك في تقرير ما ادعيته حقائق سافرة ملموسة ، فان كانت هذه الحقائق السافرة التي ادعيتها مجمعا عليها معروفة بالضرورة أنها حقائق سافرة فهذا لا ننازعك فيه ولم ينازع فيه أحد من أهل الدين ، لان البراهين الدينية شاهدة لها غير مخالفة ، والمسلمون مقتنعون بها ، فلم يطالبك أحد باقامة البراهين عليها لا أنت ولا غيرك ، أما ان كانت هذه الحقائق التي ادعيت أنها سافرة ملموسة غير ظاهرة لغيرك ولا سافرة ، ومنازعك يطلب منك البراهين على تحقيق ما ادعيته فيها من الظهور ، فدعواك أن مطالبته هذه جهل وهوان هي الجهل والهوان ، بل والضلال والكفران ، فان الناس لا يجب عليهم أن يتبعوا كل من ادعى بدعوى في شيء لأن هذا الشيء من الحقائق السافرة الملموسة ، فلو ساغت هذه الدعوى لادعى كل انسان بأن ما ادعاه فيما يقصده في كل شيء من الحقائق السافرة الملموسة واكتفى بهذه الدعوى وقبلت منه ، قال الامام مالك « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاءنا به جبريل الى محمد ﷺ لجدل هؤلاء » وحينئذ يقال لك هذه الدعاوى التي تدعي أنها من الحقائق السافرة الملموسه لا نوافقك على صحتها ، فها أنت بنفسك معترف بأن لك فيها مخالفين وهم الاكثرون ، ومعلوم أن قولك ليس بأولى بالقبول من قول مخالفك ، فتكون المسئلة محتاجة الى اقامة البراهين عليها لثبوت الخلاف فيها ، ولأنها لم يصدق عليها أن تكون من الحقائق السافرة الملموسة فلا بد من إقامة الحجة عليها ، ولولا اقامة البراهين على كل ما تدعيه مما لك فيه منازع لم يتبعك على قولك أحد الا أن تريد أن الناس يصدقونك ويتبعونك في كل ما تدعيه ، وأن كل

ما تقوله فهو من الحقائق السافره والملموسة وأن تكون المقـدم فى كل أمر كما تقول وتدّعى ، والا فمعلوم عند الناس كلهم أن كل مدع بدعوى هى محل نزاع وخلاف لا يجوز له أن يقول لخصمه ان هذا الذى قلته حقائق سافرة ملموسة يجب على الناس قبولها وأن طلب البراهين عليها جهل وهوان وفشل ومرض فى العقل والتفكير . فتبين ان ما قاله هنا كلام ساقط لا يقوله من يدرى ما يقول ولا يقبله إلا كل مخذول

ودعواك بعد هذا « أن الجمود شأن من شئون الجماهير الجاهلة » ، فيقال لك : اذا صحت هذه الدعوى فانت أول الناس دخولا فيها ، فان كان الجمود هو الأخـذ بالقول حرفيا بدون مخالفة فلا شك على هـذا أنك جمدت أعظم الجمود ، فانك جمدت على قول بعض ملاحدة الطبائعيين وبعض أهل الهيئة فى أقوالهم فى خلق العالم وفى توالد الشموس والأقمار والنجوم وحدوث الأرض والجبال والنبات والحيوان مع أنهم مختلفون فى ذلك مضطربون فيه ، فأخذت بقول بعضهم وصدقت به حرفيا واعتقدته واحتججت به مع أنك لست من أهل المعرفة بهـذه الفنون العارفين بها ، فـكان تقليدك وجمودك تقليدا أعمى وجمودا لا حـدّ له ، ثم انك مع شدة هـذا الجمود تماع فى مخالفـة النصوص والتملص من دلالتها الواضحة وتصرفها على هواك ، وأما خصومك الذين ترميهم بالجمود فانهم ان كانوا جامدين فهم انما تمسكوا بما قاله ربهم تعالى وتقدس ونبيهم صلى الله عليه وسلم امتثالا لأمره ، وتسميتك لهذا جمودا لا يضرهم شيئا قال تعـالى ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعـالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقـين يصدون عنك صدودا ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا ممـا قضيت ويسلموا تسليما ﴾ والآيات فى هـذا أكثر من أن تحصى ، بل هـذا هو المقصود من الرسالة فاين تمسـك هـؤلاء

ـ ان كان هذا التمسك يسمى عندك جمودا ـ من جمودك وتقليدك الملاحدة الضالين الظالمين ومن حذا حذوهم ممن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

فصل

واعلم أنه أطال فى مسئلة تعليم المرأة ، وقد علمت ما هو التعليم فى اصطلاحه ، وهجم على المسلمين فى تقصيرهم فى تعليمها ، بل ادعى أنهم يحرمون عليها العلم وقد تقدم الجواب عن هذا كله ، وأما مسئلة السفور فيراد به أمران : أحدهما عدم تغطية وجه المرأة عن الأجنبى عند مواجهته للحاجة بدون خلوة وهذا فيه خلاف والجمهور على المنع منه ، والثانى اختلاط الرجال بالنساء وأن المرأة يجب أن تكون كالرجل فى كل شىء فى الخلوة معه والذهاب معه الى كل مكان ومشاركته فى كل عمل بدون أى فرق ، والزوج كالاجنبى فى ذلك ، وهذا هو الذى يريده ويسعى فى نصره وتأييده ، وهذا محرم وممنوع عند جميع المسلمين ، ويعرف منعه بالبراهين الصحيحة الواضحه من تأمل سيرة الصحابة والقرون المفضلة وأقوال أئمة الاسلام فى الكتب المعتمدة وهى كثيرة شهيرة لا حاجة الى نقلها كلها لأنها معلومة فى مظانها ، وهو لم يبين بالتفصيل الواضح الطرق التى تعلمها المرأة بدون تلبيس بل اطلق العلم هنا اطلاقا فقط ، وقد بين مراده بالعلم فى المبحث السابق ، وحيث انه لم يبين بالتفصيل الواضح بل جاء بالدعوى بجملة مغمغمة فليس لنا حاجة أن نطيل التفصيل بل نجيبه بما يناسب كلامه من الرد الصحيح المختصر ، ولكن نحن هنا ننقل شيئا من كلام بعض الكتاب المشاهير المعاصرين فى هذه المسئلة ، لان جميع ما قاله ونقله هو من بعض كتاب هذا العصر الذى شغفوا بعلوم الغربيين وسحروا بها ، ولكنهم لم يصلوا الى ما وصل اليه فى العداوة الظاهرة للاسلام ولم ينافقوا هذا النفاق المرذول . لهذا استحسنا أن نقابل نقوله الفاسدة بنقول أصح منها ، وقد

اقتصرنا على نقلين للكاتبين الشهيرين أحدهما عباس محمود العقاد والثانى مصطفى المنفلوطى . قال العقاد :

المرأة (١)

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة . . الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . للذكر مثل حظ الانثيين . . انه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ اليهن وأكنْ من الجاهلين ﴾

ميزان العدل الصحيح هو التسوية بين حقوق المرء وواجباته ، فليس من العدل أن تسوى بين اثنين مختلفين فى الحقوق والواجبات ، ذلك هو الظلم بعينه ، بل هو شر من الظلم أيًّا كانت العاقبة التى يؤدى اليها ، لانه هو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو الخطل والاختلال

والتسوية بين الحقوق والواجبات هو العدل الذى فرضته الفلسفة القرآنية للمرأة ، وهو وضع المرأة فى موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية ، فمن اللجاجة الفارغة أن يقال إن الرجل والمرأة سواء فى جميع الحقوق وجميع الواجبات لان الطبيعة لا تنشىء جنسين مختلفين لتكون لهما صفات الجنس الواحد ومؤهلاته وأعماله وغايات حياته ، وفى حكم التاريخ الطويل ما يغنى عن الاحتكام الى التقديرات والفروض فيما تتوخاه الطبيعة من الاختلاف بين الذكر والانثى فى نوع الانسان : فلم يكن جنس النساء سواء لجنس الرجال قط فى تاريخ أمة من الأمم التى عاشت فوق هذه الكرة الارضية على اختلاف البيئات والحضارات . وكل ما يقال فى تعليل ذلك يرجع الى علة واحدة وهى تفوّق الرجل على المرأة فى القدرة والتأثير على العموم ، فليست

---

(١) ص ٤٥ الفلسفة القرآنية ، وقد استعمل لفظ الفلسفة بدل الحكمة فى أكثر المواضع من كتابه

جهالة القرون الأولى سببا صالحا لتعليل هـــذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء فى جميع الأمم لان الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال ، ومن زعم أن الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته وأذعنت له فقد قال انه أقدر من المرأة وانه أحوج الى العلم وأحرص عليه منها . وليس الاستبداد فى القرون الأولى سببا صالحا لتعليل تلك الفوارق لأن استبداد الحكومات كان يصيب الرجل فى الحياة العامة قبل أن يصيب المرأة فى حياتها العامة أو حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين أن ينبغ فيهم العامل الصناع والشاعر اللبق والواعظ الحكيم والأديب الطريف

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل فى الاعمال العامة ناشئا عن قلة المزاولة لتلك الاعمال لانها زاولت أعمال البيت ألوف السنين ولا زال الرجل يبزها فى هذه الاعمال كلما اشتغل بصناعتها فهو أقدر منهـــا فى الطهو وفى تفصيل الثياب وفنون التجميل وتركيب الأثاث وكل ما يشتركان فيه من أعمـــال البيوت . وقد يرجع الأمر الى الخصائص النفسية فيحتفظ الرجل فيها بتفوقه على الرغم من استعداد المرأة بتلك الخصائص من أقدم عصور التـــاريخ ، فالنواح على الموتى عادة تفرغت لها المرأة منذ عرف الناس الحداد عـــلى الاموات ، ولكن الآداب النسوية لم تخرج لنا يوما قصيدة من قصائد الرثاء تضارع ما نظمه الشعراء الرجال سواء منهم الاميون أو المتعلمون ، وقد كان أكثر الشعراء فى العهود القديمة من الاميين . بل هناك خاصة نفسية لا تتوقف على العلم ولا على الحرية ولا نوع العمل أو الوظيفة فى المجتمعات أو البيوت وهى خاصة الفكاهة وخلق الصور الهزلية والنكات التى يلجأ اليهـا الناس حين يحال بينهم وبين التعبير الصريح ، وربما كان الاستبداد والضغط الاجتماعى من دواعى تنشيط هذا السلاح النفسى فى قرائح المستعبدين والمغلوبين ، لانه السلاح الذى ينتقم به المغلوب لضعفه والمنفذ الذى يفرج به عن ضيقه

وخوفه ، وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقا أن يغريهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة والانتقام للحرية المسلوبة ، ولكن الآداب فى النوادر لم تسجل لنا فكاهة واحدة أطلقها النساء على الرجال كما فعل الرجال المغلوبون فى الأمم الحاكمة أو المحكومة على السواء ، أو كما فعلوا فى تصوير رياء المرأة واحتيالها على إخفاء رغباتها وتزويق علاقاتها بالرجال . وهذه الملكة - ملكة الفكاهة - خاصة نفسية لم يقتلعها من طبائع الرجال ظلم ولا جهل ولا فاقة ولا عجز عن العمل فى ميدان الحياة . فمن اللجاجة أن يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق وهى أثبت من كل ما يثبته العلم والعلماء ، وما كان للعلم أن يوجد شيئا لم يكن له وجود فى الوقائع وفى تفكير العقول ، وانما هو أبدا فى مقام التسجيل أو مقام التفسير ، وقد أقام القرآن الفارق بين الجنسين على الأساسين اللذين يقيمانه ويقيمان كل فارق عادل من نوعه وهما أساس الاستعداد الطبيعى وأساس التكاليف الاجتماعية ﴿ الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة البيتية : فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ولو كانت مثله فى القدرة العقلية والجسدية ، لانها تنصرف عن هذا الكفاح قسرا فى فترة الحمل والرضاعة . وهو الكفيل بتدبير معاشها وتوفير الوقت لها فى المنزل لتربية الأبناء وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية ، وكلاهما فارق ضرورى تقضى به وظائف الجنسين ويقضى به توزيع العمل فى البيئة الانسانية كلما تقدم الانسان واتسعت فى نفسه وفى مجتمعه عوامل العطف وملكات العقل وخصائص المزاج ، ويقضى به اختلاف الحقوق والواجبات ، ذلك اختلاف لم يخلق لالغاء الفوارق بل للاعتراف بها وتوجيهها الى وجهتها المعقولة . ولا نحسب أن المجتمع الانسانى يفرغ من مشكلاته المعقدة فى سياسة الامة وسياسة البيت وسياسة الحياة الفردية حتى يثوب الى

هـذا التقسيم الطبيعى الذى لا محيص عنه فيعمل الرجال عمـل الرجال ويعمل النساء عمل النساء ، وتقام دولة المرأة فى البيت ودولة الرجل فى معترك الحياة فالمجتمع الذى يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد فى المصانع والأسواق لن يكون مجتمعا صالحـا مستقيما عـلى سواء الفطرة مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار بين بنيه وبناته لأنه مجتمع يبذر جهوده تبـذير السرف والخطل على غـير طائل ، ويختل فيه نظام المعمل والسوق كما يختل فيه نظـام الأسرة والبيت ، فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة والقدرة على فهمها وافهامها والسهر على رعايتها فى أطوارهـا الأولى لتهجر البيت وتلقى بنفسها فى غمار الاسواق والدكاكين . وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا ولا بأخطر عاقبة من سياسة البيت لانهما عدلان متقابلان : عالم العراك والجهاد يقابله عالم السكينة والاطمئنان ، وتدبير الجيل الحاضر يقابله تدبير الجيل المقبل ، وكلاهما فى اللزوم وجلالة الخطر سواء . وانما الآفة كلها من حب المحاكاة بغير نظر الى معنى المحاكاة ، فان المرأة يخيل اليها أنها لا ترفع الضعة عن نفسها إلا اذا عملت عمل الرجال وطالبت بحقوق الرجال وقيل إن النساء والرجال سواء فى جميـع الاعمـــال والاحوال ، ولولا مركب النقص لكان للمرأة فخر بمملكة البيت وتنشئة المستقبل فيه لا يقل عن فخر الرجال بسياسة الحاضر وحسن القيام على مشكلات المجتمع التى تحتاج الى الجهد والـكفاح ، وهى لو رجعت الى سليقتها لأحست ان زهوها بالامومة أعـــلى لديها وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحـكم ورآسه الديوان ، فليس فى العواطف الانسانية شعور يمـلأ فراغ قلب المرأة كما يمـلأه الشعور بالتوفيق فى الزواج والتوفيق فى انماء البنين الصالحـين والبنات الصالحات . وقد لوحظ هـذا الاعتبار فى تقسيم الميراث بين الذكور والاناث فأعطى الرجل مثـل حظ الانثيين وبنيت هذه القسمة قبـل كل شىء عـلى اعتبار واحـد وهو أن الرجـل يتكـفل بمعيشة المرأة وهى مشغولة بأمر البيت ورعاية الأسرة وأنه هو الذى يجمع الثروة ويكدح فى طلب المال ، فمن

العدل أن يعطى منه نصيبين : على قدر سعيه فى تحصيله ، وعلى قدر حاجاته التى تشتمل على حاجات النساء ومن يعولهم من الزوجات والابناء . ووصف القرآن المرأة بالكيد العظيم ، وهو وصف لا يناقض رجحان الرجال عليها فى العقل والتدبير ، لان سلاحها فى هذا الكيد من أسلحة الطبيعة التى تستميل بها الرجل اليها وتغرس فى نفسه حب الاجابة لغوايتها ، ولم تزل الحيلة عوضا عن القدرة ودليلا على نقصها فى ناحية من نواحيها ، ومن المشاهدات المحسوسة أن المرأة تصر على طلبتها وتلح فى إصرارها ، لأنها تعجز عن صرف الفكرة من رأسها اذا خطرت لها وهجست فى ضميرها ، فهى تطرد الفكرة من هنا فتعاودها من هناك ، وهى تعالج الخلاص منها فلا تفلح فى علاجها ولا تزال فريسة لهواجسها فى يقظتها ومنامها حتى تستريح منها بالانجاز والتنفيذ ، فهى تثابر على الطلب لأنها عاجزة عن الخلاص من الحاجة والتغلب على معاودته ومراجعاته ، وهى تستمد القوة من هذا الضعف الذى يتعقبها فلا يرحمها ولا يريحها فتبدو كالمطاردة وهى طريدة وتتراءى كالغالبة وهى مغلوبة ، فتجمع بين الضعف العظيم وتعتمد على غواية الطبيعة فى نجاح كيدها حين يخذلها الضعف ويسلمها للنزوة الملحة والوسواس المقيم ، على أن هذه التفرقه بين الجنسين لا تتعدى تكاليف المعيشة وعلاقات المجتمع الى تكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق ومطالب الروح ، لأن المرأة تخاطب فى القرآن الكريم كما يخاطب الرجل فى هذه الأمور ، وتندب لكل ما يندب له من الفرائض والأخلاق التى تجمل بذوى الخير والصلاح ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما ﴾ ولهذا كانت المرأة تشهد الصلاة الجامعة فى المساجد

وتؤدى فريضة الحج سافرة غير مقنعة وتبايع النبى عليه السلام كما بايعه الرجال
اما الحجاب الذى كثر فيه اللغط فالقرآن لم يتعرض له الا بمقدار ما يحق لكل
مجتمع سليم أن يتعرض لحياطة الأخلاق والأعراض ، لان شهوات الجنس
أخطر من كثير من الاضرار التى تحتاط لها الجماعات البشرية بالحد من الحرية
فى بعض الأحوال ، وقد سمحت القوانين بالحد من الحرية فى سبيل تأمين
الأموال وحراسة الطرق والمواصلات ووقاية السابلة من أخطار المركبات
والسيارات ، فمن السخف أن يقال ان الفرد يحظر عليه الانطلاق على هواه
فى شئون كهذه ويباح له أن ينطلق فى أهواء الشهوة الجنسية بغير ضابط من
قبيل الحيطة والرقابة التى لا تعوقه عن مباح ، واذا رجعنا الى نصوص القرآن
لم نرفيها ما يحرم على المرأة شيئا لا يجب على القانون أن يحرمه فى أحدث
المجتمعات ، فلا يجوز للمرأة أن تتبرج تبرّج الجاهلية الاولى ، وفصلت آيات
الحجاب ذلك فى سورة النور فجاء فيها ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن
على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن او آباء بعولتهن أو
ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى اخوانهن أو نسائهن أو ما
ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم
يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن
وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وفحوى ذلك أن المرأة
لا يجوز لها بزينة جسدها التصدى للغواية بين الغرباء ، وهى فى حل بعد ذلك
أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الأسرة من الرجال أو النساء . وما
من عقل سليم يرى أن الشرائع تتخطى حدودها حين تعرض لمنع التبذل
والغواية على هذا النحو الصريح ، وما من عقل سليم يبدو له أن حراسة
الأعراض والأخلاق بمثل هذه الحيطة فضول من الشرائع والقوانين أو
تصرّف لا نظير له فى المجتمعات البشرية التى تتكفل بحراسة الاموال

والارواح . فلا فائدة للرجل ولا للمرأة ولا للأمة فى جملتها من هذا الرياء الذى يجزم باستحالة الاخطار الشهوانية حين تستثار بغواية الزينة المكشوفة، وهو فى الوقت نفسه لا ينزه النفس البشرية من سرقة الدراهم والسلع اذا عرضت بغير حيطة لكل من يمد اليها يده، ومن حاول التفرقه بين الأمرين بالتفرقة بين الطمع فى الجماد والطمع فى مخلوق إنسانى يؤكد ضرورة الحيطة هنا من حيث يريد أن يبطلها أو يضعفها هناك ، لأن الخطر الذى تتلقى فيه الرغبة من الجانبين أولى بالحيطة من خطر مقصور على رغبة السارق دون الجماد والمسروق ، ولعل الغربيين قد لمسوا من أضرار الاباحة المطلقة فى مقابلة الجنسين ما يحور بهم الى الصواب فى مسئلة (الحجاب) فيفهمون الحكمة فى الاعتدال بين الاباحة المطلقة والقسر الشديد فى هذه المسئلة التى لا يغنى فيها الرياء عن الحقيقة ، ويدركون أن أخطار الشهوات الجنسية شىء يحسب له حساب فى الشرائع والآداب ، لانه حساب الاعراض والانساب ، وخير ما يطلب من الشريعة عدل وصحة تقدير ، ونحن لا نلتزم العدل ولا صحة التقدير حين نتجاوز بالكائن الى طبيعته فى حقوقه وواجباته أو حين نطلب من الطبيعة مالا يستطاع .

* * *

وقال الكاتب المنفلوطى فى مقال له فى مسئلة الحجاب [1] :

ذهب فلان الى أوربا وما ننكر من أمره شيئا ، فلبث فيها بضع سنين ثم عاد وما بقى مما كنا نعرف منه شىء : ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقى طاهر يأنس بالعفو ويستريح الى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها وعلى السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى

---

(١) العبرات ص ٤٩

كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئا فوقها ولا تلق نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب بنفس مملوءة حكمة ورأيا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملأه الا الهواء المتردد . وذهب وما على الأرض أحب اليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر فى عينيه منهما . وكنت أرى ان هذه الصور الغريبة التى يتراءى بها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار الى أوطانهم انما هى أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغا لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تنصل وتتطاير ذراتها فى أجواء السماء ، وأن مكان المدنية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة اذا انحرف عنها زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ، فلبسته على علاته ، وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر ، متحملا فى سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره مالا طاقة لمثلى احتمال مثله ، حتى جاء فى ذات ليلة بداهية الدواهى ومصيبة المصائب فكانت آخر عهدى به . دخلت عليه فرأيته واجما مكتئبا ، فحييته فأومأ الى بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة فى عناء لا أعرف السبيل الى الخلاص منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه . قلت وأى امرأة تريد . قال تلك التى يسميها الناس زوجتى ، وانا أسميها الصخرة العاتية فى طريق مطالبى وآمالى . قلت انك كثير الآمال يا سيدى ففى أى آمالك تحدث ، قال ليس لى فى الحياة الا أمل واحد وهو أن اغمض عينى ثم أفتحها فلا أرى برقعا على وجه امرأة فى هذا البلد . قلت ذلك مالا تملكه ولا رأى لك فيه . قال ان كثيرا من الناس يرون فى الحجاب رأيى ويتمنون فى أمره ما أتمنى ولا يحول بين نزعه عن وجوه نسائهم وابرازهن الى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهم الى بعض الا العجز والضعف والهيبة التى لا تزال تلم بنفس الشرقى كلما حاول الاقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى[1] القديم الذى وقف سدادون

(١) اى القديم ، نسبة الى عاد

سعادة الأمة وارتقائها دهرا طويلا ، وأن يتم على يدى ما لم يتم على يد أحد غيرى من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتى فأكبرته وأعظمته وخيل اليها أنى جئتها باحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت للرجال فانها لا تستطيع أن تبرز الى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلا ، ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجمود والذل الذى ضربه الله على هؤلياء النساء فى هذا البلد أن يعشن فى قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينقلهن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لى أن أبلغ أمنيتى وأن أعالج هذا الرأس القاسى المتحجر علاجا ينتهى باحدى الحسنيين إما بكسره وإما بشفائه . فورد على من حديثه ما ملأ نفسى هما وحزنا ، ونظرت اليه نظرة الراحم الراثى وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول . قال نعم أقول الحقيقة التى أعتقدها وأدين نفسى بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعا حيث وقعت . قلت هل تأذن لى أن أقول لك انك عشت فترة طويلة فى ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوما من الأيام وأنت فيهم بالطمع فى شىء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ، قال ربما وقع لى شىء من ذلك ، فماذا تريد . قلت أريد أن أقول لك انى أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم باعراض الناس منك . قال ان المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال وهى من شرفها وعفتها فى حصن حصين لا تمتد اليه المطامع . فداخلنى ما لم أملك نفسى معه وقلت له تلك هى الخدعة التى يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التى يعثر بها فى زوايا رءوسكم فينحدر منها الى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها إلا فى قواميس اللغة ومعاجمها ، فان أردنا أن نفتش عنها فى قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الانسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيا رائقا حتى يسقط فيه حجر فاذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من الوان

النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . قال أتنكر وجود العفة بين الناس ، قلت لا أنكرها لأنى أعلم أنها موجودة بين البله والضعفاء والمتكلفين ، ولكننى أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقه المترفقة اذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه . فى أى جوّ من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم : أفى جوّ المتعلمين وفيهم من سئل مرة لم لم يتزوج فأجاب نساء البلد جميعا نسائى ، ام فى جوّ الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه حياء وخجلا إن خلت محفظته يوما من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو اقفرت من رسائل الحب والغرام ، أم فى جوّ الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادما ذليلا ويخرج صهرا كريما . وبعد فما هذا الولع بقصة المرأة والتمطق [١] بحديثها والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم فى أنفسكم فلم يبق الا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم ، هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فان عجزتم عن الرجال فانتم عن النساء أعجز . أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصدا ، فانكم ان فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلا عظيما وشقاء طويلا . أرونى رجلا واحدا منكم يستطيع أن يزعم فى نفسه أنه يملك هواه بين يدى امرأة يرضاها فأصدّق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدى رجل ترضاه . انكم تكلفون المرأة ما تعلمون انكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فانتم تخاطرون بها فى معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم الا خاسرين . ما شكت المرأة اليكم ظلما ، ولا تقدمت اليكم فى أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ، وما تمضغكم

---

(١) التمطق التصويت باللسان عند استطابة الطعام

ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها . انها لا تشكو الا فضولكم وإسفافكم ومضايقتكم لها ووقوفكم فى وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا الا أن تسجن نفسها بنفسها فى بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها وأسبلت أستارها تبرما بكم وفرارا من فضولكم . فواعجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها . انكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها فى ديار يسيل جوها تبرجا وسفورا ويتدفق خلاعة واستهتارا ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذى خلفتموه هناك . لقد كنا وكانت العفة فى سقاء من الحجاب موكوء ، فما زلتم به تثقبون فى جوانبه كل يوم ثقبا ، والعفة تسيل منه قطرة قطرة ، حتى تقبض وتكرش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة . عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة فى بيتها راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة فى واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدى ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها الى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف فى خضوعها لابيها وائتمارها بأمر زوجها ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فان رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هى أن الزواج أساس الحب ، فقلتم لها ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا باوفر منك عقلا ولا أفضل رأيا ولا أقدر على النظر لك من النظر لنفسك ، فلا حق لهم فى هذا السلطان الذى يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذى كان بالأمس عرسا من الاعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ولا يخبو أوارها . وقلتم لها لا بد لك أن تختارى زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة

مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها عن يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الاليم ، وقلتم لهـــا ان الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيهـا فى وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فغنيت به عنه ، وقلتم لها ان سعادة المرأة فى حياتهـا أن يكون زوجها عشيقها وما كانت تعرف الا أن الزوج غير العشيق فاصبحت كل يوم زوجا جديدا يحيى من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فـلا قديما استبقت ولا جديدا أفادت ، وقلتم لهـا لا بد أن تتعلمى لتحسنى تربية ولدك والقيام على شئون بيتك فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها والقيام عـلى شئون بيتها ، وقلتم لها نحن لا نتزوج من النساء الا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائـكم ومباهج أنظاركم لتتجمل لـكم بمـا تحبون ، فراجعت فهرس حياتـكم صفحة صفحة فلم ترفيه غـــير أسماء الخليعات المستهترات والضاحـكات اللاعبات والاعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن فتخلعت واستهترت لتبـلغ رضاكم وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليـكم عرضا كما تعرض الأمـة نفسها فى سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم عنها وقلتم لها إنا لا نتزوج النساء العـاهرات كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعا ساقطات اذا سلمت لـكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع وترفع عنها المحتشم ، فلم تجـد بين يديها غـير باب السقوط فسقطت . وكذلك انتشرت الريبة فى نفوس الأمة جميعا وتمشت الظنون بين رجالهـا ونسائهـا فتعاجز الفريقان وأظـــلم الفضاء بينهما وأصبحت البيوت كالأديرة (١) لا يرى فيها الرائى الا رجالا مترهبين ونساء عانسات

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليهـا .

---

(١) الأديرة جميع دير

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة فى حاجة الى العلم ، فليهذبها أبوها وأخوها ، فالتهذيب أنفع لهـــا من العلم(١) والى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم ، والى النور والهواء تبرز اليهما وتتمتع فيهما برؤية الحياة فيأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم فى غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفا عليها من الذئاب ، فان عجزنا أن نأخذ الآباء والاخوة والازواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعا نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على اصلاح نفسها من الرجل على إصلاحهـــا

أعجب ما أعجب له من شئونكم أنكم تعلمتم كل شىء إلا شيئا واحدا هو أدنى الى مداركـكم أن تعلموه قبل كل شىء وهو أن لكل تربة نباتا ينبت فيهـا ، ولكل نبات زمنا ينمو فيه . رأيتم العلماء فى أوربا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم فى أمة لا يزال سوادهـا الأعظم فى حاجة الى معرفة حروف الهجاء . . ورأيتم الرجل الأوربى حرًّا مطلقا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لانه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل الى حدود الحرية التى رسمهـــا لنفسه فلا يتخطاها ، فرأيتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلا ضعيف الارادة والعزيمة يعيش فى حياته الأدبية فى رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردَّى فى قرارتهـــا ، ورأيتم الزوج الأوربى الذى أطفأت بيئته غـــيرته وزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء وتصاحب من تشاء وتخلو بمن تشاء فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم من الرجل الشرقى الغيور المتلهب أن يقف موقفه ويستمسك استمساكه ، ورأيتم المرأة

---

(١) يعنى علم ما لم يكن ضروريا كما بيناه فيما سبق

الأوربية الجريئة المتفتية تستطيع فى كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها وتحتفظ بنفسها احتفاظها ، وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه أو فى ساعة غير ساعته إما أن تأباه الارض فتلفظه وإما أن يستنبت فيها فيفسدها

انا نضرع اليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية ان تتركوا تلك البقية من نساء الأمة آمنات مطمئنات فى بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فان أبيتم إلا أن تفعلوا فانظروا بانفسكم قليلا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغـــيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين

فما زاد الفتى أن ابتسم فى وجهى ابتسامة الهزء والسخرية وقال تلك حماقات ما جئنا الا لنعالجها فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا وبينها . فقلت له لك أمرك فى نفسك وأهلك فاصنع بهما ما تشاء وائذن لى أن أقول لك انى لا أستطيع أن أختلف الى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى لأن الساعة التى ينفرج لى فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلنى حياء وخجلا . ثم انصرفت وكان هذا فراق ما بينى وبينه

وما هى إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانا هتك الستر فى منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيا لا تزال النعال خافقة ببابه . فذرفت عينى دمعة لا أعلم هل هى دمعة الغيرة على العرض المذال أو الحزن على الصديق المفقود

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره ولا يزورنى ولا ألقاه فى طريقه إلا قليلا فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ، ثم أنطلق فى سبيلى

وإنى لعائد الى منزلى ليلة أمس - وقد مضى الشطر الأول من الليل - اذ رأيته خارجا من منزله يمشى مشية الذاهل الحائر ، وبجانبه جندى من جنود الشرطة كانما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمنى أمره ، ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال لا علم لى بشىء سوى أن هذا الجندى قد طرق الساعة بابى يدعونى الى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة فى مثل هذه الساعة سببا ، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل استطيع أن أرجوك يا صديقى بعد الذى كان بينى وبينك أن تصحبنى الليلة فى وجهى علنى أحتاج الى بعض المعونة فيما قد يعرض لى هناك من الشئون . قلت لا أحبَّ الى من ذلك . ومشيت معه صامتا لا أحدثه ولا يقول لى شيئا . ثم شعرت كأنه يزوّر فى نفسه كلاما يريد أن يفضى به الى فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له ألا تستطيع أن تذكر لهذه الدعوة سببا . فنظر الى نظرة حائرة وقال إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتى الليلة حادث ، فقد رابنى من أمرها أنها لم تعد الى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت أما كان يصحبها أحد ، قال لا ، قلت ألا تعلم المكان الذى ذهبت اليه ، قال لا ، قلت وبم تخاف عليها ، قال لا أخاف شيئا سوى أنى أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث فى طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرهما الى مخفر الشرطة . وكنا قد وصلنا الى المخفر فاقتادنا الجندى الى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه فأشار الى جندى أمامه إشارة لم نفهمها ثم استدنى الفتى اليه وقال له : يسوءنى أن أقول لك يا سيدى إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة فى مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة فى حال غير صالحة ، فاقتادوهما الى المخفر ، فزعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة فى أمرها ، فان كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك اكراما لك وإبقاء على شرفك ، والا فهى امرأة عاهر لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندى قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه

فاذا المرأة زوجته ، واذا الرجل أحد اصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونا وآذانا ، ثم سقط مكانه مغشيا عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة الى منزل أبيها ففعل ، وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى فى مركبة الى منزله

ثم ذكر السيد المنفلوطى رحمه الله آخر القصة ، وحاصلها أن الفتى مات كمدا وحسرة من هذه الفضيحة التى اختتم بها حياته

☆

ومن عجائب هذا الملحد قوله فى آخر هذا المبحث ما نصه « وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتى : هل العلم خير وفضيلة أم شر ورذيلة ، فان كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة ، وان كان الحق هو الثانى فلماذا يباح للرجل ، ولا جواب عن هذا » انتهى

فيقال له بل الجواب عن هذا أسهل من الردة عليك ، وهو أن يقال : لا نسلم أن ما تدعو اليه علم وفضيلة ، بل هو جهل ورذيلة ، والعلم الصحيح قد بينا ايجاب تعليمها إياه . وان أبيت الا أن يكون علما فأنت قد قررت بانه ما كل علم محمود ورب علم خير منه الجهل كما تقدمت عبارتك بنصها فاذا كنت مقرا بانه ما كل علم محمود ، وأنه رب علم خير منه الجهل ، فهذا منه ، واذا كان هو شراً ورذيلة فنحن لم نجز للرجل أن يتعلم ما تدعو اليه حتى يلزم ما ذكرته ، فان هذا كله مبنى على مقدمات باطلة احداها أن الرجل يجب أن يكون كالمرأة فى كل شىء وهذا باطل شرعا وحسا وعقلا قال تعالى ﴿ وليس الذكر كالانثى ﴾ فانه لو كان الرجل مثل الانثى لكان أنثى مثلها أو لكانت هى رجلا فلما كانت مختصة بالانوثة وأنها ليست مثله فى كل شىء من طبيعتها لزم أن لا تكون مثله فى جميع الأحكام من كل وجه ، فان التسوية بين المختلفين من أكبر الظلم وأعظم الفساد فى العقول ، وقد قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ،

وللرجال عليهن درجة ﴾ وهذا نص فى التفريق . والثانية أن هذا الذى تدعو اليه علم ، وهذا باطل أيضا . والثالثة أن كل علم نافع ، وهذا باطل كذلك ، فان تعليم السحر وطرق المعاصى مضر ، وأنت معترف بأنه ليس كل علم محموداً فهذه الدعوى ساقطة قطعا ، بل عليك أن تقرر أن هذا الذى تدعو اليه علم بالمعنى الصحيح ثم تقرر أن كل علم نافع ثم تبين هذا العلم الذى تدعو اليه وتصرح بحقيقته ، ثم تقيم البراهين على أنه نافع وأنه داخل فى العلم النافع ، ثم بعد هذا تقيم الأدلة على إيجاب تسوية الرجل بالمرأة فى كل شىء وإلا فليس كل علم نافع للرجل تستحقه المرأة مطلقا ، وأنت لم تفعل شيئا من هذا بل ادعيت ايجاب تعليمها وايجاب مساواتها بالرجل فى كل شىء ، وهذه الدعوى لا يعسر على أدنى جاهل أن يدعيها لأنها دعوى مجردة فيكتفى فى منعها بأن يقال قد أوجبنا تعليمها النافع ولا يجب مساواتها بالرجل فى كل شىء لثبوت الفارق المعنوى والصورى ، وهذا ظاهر والله اعلم

الكلام على المبحث الخامس

عنوانه فى كتابه :

(كراهة الحياة الدنيا ـ امتداح الجوع والفقر والمرض ـ الدعاية الواسعة للزهد المخدر ـ هل جاء الدين لمحاربة العمران)

وقد اشتمل كلامه هذا على أربعة أمور : أحدها أن المسلمين كلهم رغبوا فى كراهة الحياة الدنيا ، والثانى أنهم امتدحوا الجوع والفقر والمرض ، والثالث أنهم وسعوا الدعاية للزهد المخدر ، والرابع أنهم نسبوا الى الدين أنه جاء لمحاربة العمران

فهذه الأمور الأربعة التى خلط فيها الحق بالباطل قد رمى المسلمين بها ، وأوهم الأجانب وأعداء الاسلام أن المسلمين يدينون بها ، وأنها من أصول الاسلام لديهم عاملين بها بدون فرق ، وأنهم على هذه الحالة مستمرين بها وأنها من الأسباب التى أخرتهم . وقد قلنا غير مرة ان موضوع هذه الأغلال هو الدعاية ضد الاسلام وتشويه سمعته والتنفير منه ، وغرضه من هذا البهت أن الدين قد فسد ، وهذا الاسلام ليس بدين يقدم أهله ، فهو يتذرع بكل وسيلة الى رفضه والتحذير من الدخول فيه

ونحن نتكلم عن كل أمر من هذه الأمور التى ذكرها كلاما مجملا ، ثم نذكر ما اعتمده فى هذه الدعوى ، ونجيب عنه مفصلا كما وعدنا بذلك سابقا :

أما الأمر الأول ـ وهو دعواه أن المسلمين أوجبوا كراهة الحياة الدنيا ـ فإما أن يريد أنهم كرهوها وعملوا بالكراهية فرفضوها ولم يسعوا فى طلبها ، وإما أن يريد أنهم كرهوها ولم يعملوا بالكراهة . فان أراد الأول فيكفى فى تكذيبه الواقع والمشاهدة ، ولا أبين من برهان الحس والمشاهدة ، فان هذا يقتضى أنهم رفضوها وجلسوا عاكفين فى المساجد والمعابد وعطلوا معايشهم

وملاهيهم وجميع ما فيها من لذة مباحة وغير مباحة ، فان هذه حال من كره الدنيا ومقتها ولم يعمل بها ، ومعلوم أن هذا خـــلاف الواقع فى كل مكان وزمان من ظهور الاسلام الى هذا الوقت ، وأدنى عاقل يعلم أن الناس اليوم متهالكون على الدنيا منهمكون فى محبتها انهماكا شديدا ، وأكثرهم يقدمها على كل شيء من خلق ودين . ومن العجب أن هذا الملحد لمـــا رأى الناس أشد حاجة الى التمسك بالدين حين فسدت أخلاقهم بترك أكثر آدابه وأخلاقه أخذ فى التنفير منه والدعوة الى ضده ، وقد كانوا أشد حاجة الى إخراجهم من هذه الوهدة التى وأدت شرفهم وقضت على عفتهم وقتلت كرامتهم ورجولتهم فى محبة الدنيا . وهذا أخذ فى تحذيرهم عن الخروج منها والدعاية الى ارتكاسهم فى ذلتها وحسرتها ، وما مثله فى هذه الدعوى إلا كمثل من أتى الى قوم قد أصيبوا بأنواع الامراض والأسقام والأوجاع فى أجسادهم وعقولهم من شدة الجشع وكثرة الخلط وتناول الأغذية الكثيرة المتنوعة عند الشهوات ومطالعات الافكار والآراء والمذاهب والمعتقدات المختلفة ـ فلما رآهم وفكر فيهم قال لهم ما علتكم الا من أشياء قليلة هى شدة الجوع وعـــدم الأكل ومتابعة الصيام والاقتصار على طعام واحد وعدم التفكر والنظر فى العلوم والآداب والفلسفة فلو أنكم أكثرتم الأكل واجتهدتم فى ذلك ووسعتم دائرة علومكم فى الفلسفة والنظريات ولم تقتصروا على أكل واحد وعلم واحد لكان ذلك هو شفاءكم الذى ليس لكم شفاء غيره ، فهكذا كانت نظرية هذا المغرور فى هذه الأغلال ، فانها مقلوبة منعكسة

وان أراد الثانى وهو أنهم كرهوها ولم يعملوا بهذه الكراهة ، بل عضوا عليها بالنواجذ وتقاتلوا عليها وتشاتموا وتقاطعوا الارحام وعمـــلوا كل ما أمكنهم من الاحتيال على اقتناصها من كل وجه وبكل وسيلة كما هو الواقع ، فقد خالفوا الكراهة وصارت هذه وجودها كعدمها ، فان القول اذا لم يكن له اثر من العمل فوجوده كعدمه ، وان أراد أن بعضهم كرهها وبعضهم لم

يكرهها بل أحبها حبا جما ، قلنا أنت لم تفصل فعممت الدعوى وذكرت ما لم تحط به علما ، ولو قدر ثبوت هذا فانه لا أثر له فى تأخر ، فما من أمة أو شعب إلا ويوجد فيهم من هذا الاختلاف شيء كثير فى طلب المعيشة وغيرها ، وجميع الناس يعلمون أن جانب الزهد وكراهة الدنيا فى النصارى أظهر منه فى جانب اليهود منذ العصور القديمة ، ومعلوم الفرق بين تقدم هؤلاء وتأخر هؤلاء من آلاف السنين الطويلة ، فلم يكن حب اليهود للدنيا مفيدا لهم الملك والسلطان بل أفادهم الذل والمسكنة ولم يكن التقصير فى ذلك مؤثرا فى تقدم النصارى عليهم . وليس الجشع والجنون على الدنيا طريقا للتقدم عند جميع العقلاء ، بل هو طريق الذل والمسكنة ، لأن طالبها لا بد أن يضطر الى الملق والنفاق والضراعة والتذلل والمكر والخبث وأكل السحت للكذب والتحريف للكلم عن مواضعه ، وهذه هى علل التأخر كلها ، وليس من الممكن أن يتقدم فرد أو شعب أو أمة فيها هذه الخصال أو أكثرها ، بل بقدر ما معها من هذه الخصال سيكون نصيبها من الذل والمسكنة ، فان العزة كتبها الله للمؤمنين ، وهذه الأخلاق المرذولة تضاد أخلاق الايمان من كل وجه كما هو الواقع

أما الأمر الثانى . وهو دعواه أن المسلمين امتدحوا الجوع والفقر والمرض . فهذه الدعوى كسابقتها التى قبلها فى البهت والفجور والمكابرة ، فليس فى المسلمين ممن يعتدّ بقوله من مدح هذه الأمور أبدا ، ولا يمكنه أن يثبت هذه الدعوى على طائفة من المسلمين إلا أن يريد أن يدخل أسلافه من الاتحادية وأضرابهم فى المسلمين ، فقد يدّعى هذا المشاكس المعاكس أنه يوجد فى بعض أقوال الاتحادية الصوفية شيء من ذلك ، ولكن يقال له قد قلت انه ليس المسلم هو الذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط المغالطين . وأيضا لا نسلم أن من قال شيئا من ذلك هو ممن يعتدّ بقوله ، فعليك أن تثبت أن الذى ادعى بمثل ما قلت من المسلمين وأنه يعتد بقوله وأنه لم يذكر كلاما يخالفه ، وهذا لا يمكنك أن تجده أبدا . وأيضا فانه يوجد فى كتب الصوفية من الحثّ على

الدنيا والاستغناء عما فى أيدى الناس أكثر مما يوجد فيها من الزهد فلا يجوز لك أن تأخذ منها ما فيه شبهة لك وتترك ما هو حجة عليك . وأيضا فكتب الصوفية فيها كثير من الشرك وتعطيل الصفات وتحريف الكلم عن مواضعه وتقرير الاتحاد وغير ذلك ، ومعلوم أن هذا أضر على الاسلام وعلى الأمة من كلامهم فى الزهد ، لأن هذا قدح فى روح الدين ، وذاك كلام لا يتابعهم عليه إلا أقل القليل وهو فى أمور فرعية ، فما بالك أعرضت عن ذلك كله وتمسكت بهذه الخصلة اليهودية . أما ما يوجد فى كتب بعض الفقهاء من الآثار ونحوها فى مدح الفقر خاصة دون الجوع والمرض فليس المراد ما يفهمه هذا الملحد وأضرابه ممن أعمى الله بصائرهم من أنه كراهة المال ومقته ونبذه وتبذيره وعداوته بالكلية ، فان هذا لا يقوله ولا يريده أحد من المسلمين ، بل المراد من ذلك هو الصبر عليه والاحتساب والطمأنينة والثقة بالله تعالى والجد والاجتهاد والثبات والتبصر والنظر فيما يزيله ، والبراهين على هذا كثيرة جدا ، منها أن هؤلاء الذين يمدحون الصبر على الفقر فى كتبهم يذكرون فى هذه الكتب نفسها الترغيب فى الاكتساب والعفاف والجود والكرم والصدقة وإعانة الضعيف والملهوف ، ومن المعلوم أن هذه الأمور لا توجد مع نبذ المال ورفضه وترك الدنيا وكراهيتها بحال ، ولهذا تجدهم يذكرون فى هذه الكتب نفسها النهى عن اضاعة المال وتبذيره والخروج منه بالكلية ، ويوجبون الاكتساب ويجعلونه فرضا واجبا يحرم على الانسان تركه . ولما أراد سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن يوصى بماله كله أمره النبى ﷺ بالثلث فقط وقال « الثلث والثلث كثير » وقد أمر بالاكتساب ونهى عن إضاعة المال نهيا شديدا ، وكذلك كان الفقهاء فى كتبهم وأهل العلم ، ولو كان المراد بالفقر هو الاعدام من المال بالكلية لأمروا الناس أن يحرقوا أموالهم ويبذروها فى القفار والبحور ويفسدوها بجميع أنواع الافساد ، ولا حاجة حينئذ الى كتب الأحكام التى فيها من كتاب البيوع الى كتاب الاقرار أو كتاب الميراث .

وهـذا الملحد يأتى الى أشياء أوضح من الشمس فيغالط فيهـا ، وإلا فحرص الناس عـــلى الدنيا أمر لا يحتاج الى أن يطنب فى الاستدلال عليه ، وليس حرصهم عليها كحرصهم عـلى الدين ولا عشر معشاره ، ومع ذلك شنع عليهم بالعمل بالعبـادة والدعاء وغـيره من أمور الدين ، وشنع عليهم بتقصيرهم فى الحرص على الدنيا ، ونحن نعلم مراده بذلك كلـه ، وهو أنه يريد أن يقول شيئا فتمنعه الجرأة والخوف والنفاق من التصريح به مرة واحدة بدون مغالطة : يريد أن يقول ان الناس لم يعبدوا الدنيـا ويكـفروا بالآخرة ويرفضوا الدين رفضا باتا ، هذا هو مراده ، ولـكنه هاب ذلك ولا معنى لهذه الهيبة فان أصحابه وجميره الذين تفرس فيهم الغباء والبلادة لو قال هذا لوجدوا له عذرا ، وأما غير أصحابه ممن يعرف مغزاه ومرماه فانه يعرف أن هذا هو مراده فلا يخاف ولا يحزن ، فقد وجد جوا خاليا فليبض فيه وليصفر وليقل مـا يريد . ولو أن قائلا قال له فما هذا البيع والشراء والوظائف والاجارات والدكاكين والمعاملات التى لا تعد ولا تحصى لأى شىء هذه هل هى دالة على كراهة الدنيا أو على غير ذلك لم يكن له جواب على هـــذا الا المكابرة وأن يقول انهم لم يحرصوا عليها ، ولو قيل له أثبت لنا كيفية الحرص الذى تريده بحـدوده حتى نعرف وجهه وهل هم داخلون فيه أم خارجون عنه لم يكن له جواب غـير ما ذكرنا من عبادتها والـكفر بكل ما يخالف ذلك . وهذا الملحد يأتى بالطامات التى لا تطاق : تارة يدعى أن المسلمين يحرمون العلم ويرونه شركا فى الربوبية ، وتارة يدعى أنهم يكرهون الدنيـا ويمقتونها وهو يرى الملاعنة والمحاكمـــة والمشاتمه والمقاتلة عليها ، فالى اى حدّ يذهبون فى محبتهـا . وكذلك العلم قد بينا أن أدنى جاهل لو قلت له انك تكره العلم لم يرض بذلك فكيف بأمـــة عظيمة يقول انها تبلغ اربعمائة مليون ، وقد بينا ان هذه هى طريقته فى أغلاله هذه كلها ، فانه يخـــترع الـكذب ثم يرمى به المسلمين ثم يجيب نفسه بنفسه . وكون العلماء رضى الله عنهم أثنوا عـلى الاكتساب وأثنوا مع ذلك عـــلى

الاحتساب للفقر والصبر عليه مع بذل الجهد فى ابتغاء الرزق ممـــا يدل على محاسن هذه الشريعة الغراء وصحة نظر علمائها ، فان الانسان إذا عمـل ما فى وسعه فى طلب الرزق فقد يوفق وربما تعترضه عوارض وموانع لا قبل له بها فـلا يوفق فتصيبه مصائب تؤدى به الى الحاجـة والفقر كما هو الواقع ، فان الدنيا مطبوعة على التغير والتكدر وتقلب الاحوال ، فهى ممزوجة خـــيراتها بشرورها وسراؤها بضرائها ، فلا بد للانسان أن يناله شىء من مصائبهـا من الفقر والمرض والجوع ، فكان من رحمة الله ومحاسن شريعته المطهرة أن رغب فى الصبر على هذه المصائب والاحتساب عند الله تعالى لأجرها ، وإن لم يكن المرء مأمورا بدخوله فيها ، بل اذا أصابه شىء من ذلك فعليه أن يحتسب أجره عند الله وينزل فاقته وحاجته بربه مع التماس المخرج مما هو فيـه ان كان لذلك مخرج ، ويستعين الله عـلى ذلك فيحصل له أجر الصابرين كما يحصل للأغنياء أجر الشاكرين ، فيكون ما عمله من الصبر والاحتساب مثمرا له ثمرة يستعيض بها عما فاته من المصيبة ، فينقلب حينئذ المصاب فيه خيرا وتكون تلك المصيبة خيرا له ، كما ورد « عجبا للمؤمن ، كل أمره خـير له ، ان أصابته سراء فشكر كان خـيرا له ، وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وكل هـــذا من آثار رحمته تبارك وتعالى ولطفه بعباده وأنه بهم رءوف رحيم ، ولو أن الله سبحانه جعل الفقر والمصائب ذنبا وجرما كما عدّه هذا المارق لاحترق المؤمن حزنا وأسفا وأساء الظن بربه ورأى انه مكلف مالا يطيق . وهكذا القـــول فى الجوع والمرض ، فان الذى مدح الجوع لم يمدح نفس الجوع الذى هو الألم وانما مدح الصبر عليه والاحتساب عند الله اذا وقع . ولهذا كان هؤلاء الذين يمدحون لا يذكرون فضل الجوع بل يذكرون فضل الصبر والاحتساب ونحو ذلك ، ولو حذفوا المضاف فهو جائز أيضا لانهم لم يخاطبوا الزنادقة والمنافقين وانمـا يخاطبون من هو مثلهم ممن يعرف كلامهم ومرامهم ، لانهم قد ذكروا تحريم الاضرار بالبدن والنفس بالجوع أو غيره ، وفى حـديث سلمان « ان

لنفسك عليك حقا ولزوجك عليك حقا » والأخبار فى هذا كثيرة . أما ما ذكره عن المرض وادخاله مع الفقر والجوع فهو من دسائسه الخبيثة التى اعتادها فى مضائق كلامه ، والا فهو يرى أن المستشفيات والاطباء وما اليهم فى جميع مدن الاسلام أكثر من أن تحصر ، وهو يعلم أن الحكومات الاسلامية تنفق على ذلك الأموال الطائلة وتحرص على ذلك غاية الحرص ، وهو يعلم أيضا أن الكتب مشحونة بالأمر بالتداوى ووجوب اجتناب ما يضر حتى جعلوا من أصول الأشياء المحرمة كون هذا الشىء يضر بالبدن ، فاذا ثبت أنه مضر فيكون محرما بهذا الاعتبار ، وهذا غاية النهى عن اجتناب وسائل الأمراض ، ولم نعلم أحدا من المسلمين مدح المرض بالمعنى الذى يريده ، وانما مدحوا الصبر والاحتساب على وقوعه قهرا مع فعل ما يخففه أو يزيله كما أنهم أمروا بالصبر والاحتساب عند موت الأبناء والآباء ، ولم يكن ذلك ترغيبا فى قتلهم ، وكما أمروا بالصبر على فقد البصر أو غيره من المصائب البدنية ولم يكن ذلك ترغيبا فى العمى ولا أمراً بالعمى ، وأمثال ذلك كثير فكل المصائب التى يصاب بها الانسان بدون اختياره يرغبون فى الصبر عليها والاحتساب لأجرها مع كونهم لا يأمرون بفعل الوسائل التى تقرب منها كما قال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أوجب كثير من العلماء التداوى واستحبه بعضهم ولم يحرمه أحد من أهل العلم ، فكيف يقال انهم امتدحوا المرض ، ولكن مقصوده هو ما ذكرناه فى الأمر الذى قبله وهو كون هذا الدين يأمر بالمرض فهو فاسد ، هذا مقصود هذا المغرور المسكين المحتال العنيد

فصل

قال « كراهة الحياة الدنيا - امتداح الجوع والفقر والمرض - الدعاية الواسعة للزهد المخدر - هل جاء الدين لمحاربة العمران

اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقل ماله وولده وحبب اليه لقاءك وعجل اليه القضاء ، ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فاكثر ماله وولده وأطل عمره (زعموه حديثا نبويا صحيحا) (١)

نزل علىَّ جبريل بأحسن ماكان يأتينى فى صورة فقال ان السلام يقرؤك السلام يا محمد ويقول إنى أوحيت الى الدنيا أن تمردى وتنكدى وتضيق وتشددى على أوليائى حتى يحبوا لقائى ، وتوسعى وتسهلى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى ، فانى جعلتها سجنا لأوليائى وجنة لاعدائى (زعموه حديثا نبويا)

جاء رجل فقال يا رسول الله إنى لاحبك (ثلاث مرات) فقال ان كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فان الفقر أسرع الى من يحبنى من السيل الى منتهاه . وعن أنس قال : جاء رجل النبى فقال : انى أحبك . فقال : استعد للفاقة . وفى حديث آخر اصبر يا أبا سعيد فان الفقر الى من يحبنى منكم أسرع من السيل من اعلى الوادى ومن أعلى الجبل الى أسفله (زعموها أحاديث نبوية)

والجواب أن يقال : قد صدر هذا المبحث بهذه الروايات مستدلا بها على تصحيح دعواه بان المسلمين كرهوا الحياة الدنيا وامتدحوا الفقر والجوع والمرض ، وبهذا وبغيره من جميع نصوص أغلاله بل وبروحه أيضا تعرف أنه شديد الولع بتتبع كل ما فيه شبهة الى القدح فى الدين ، وأنه يتوسل بكل مافى وسعه وبكل مافى قدرته من وسيلة - مهما كانت حالتها من الضعف والنكارة - الى التنفير عن الاسلام وسبه وشتمه وإضافة كل قدح وذم اليه

وهذه الروايات التى استشهد بها لا تفيده شيئا البتة ، فانه إما أن يريد بالاستشهاد بها أن المسلمين رووها وصححوها وعملوا بها ، واما أن يريد أنهم رووها ولم يصححوها ولم يعملوا بها . فان أراد الأول فقد كذب وادعى

---

(١) هذا تهكم بالمسلمين ، فمن هو الذى زعمه صحيحا

زورا وفجورا ظاهرا ، وهو لم يستدل على صحة هذه الدعوى إلا بمجرد سياق الروايات على وجه التهكم والاستهزاء ، فتكون دعوى مجردة فتقابل بالمنع والرد ، فعليه أن يقرر أن المسلمين رووها فى كتبهم المعتمدة وصححوها ثم عملوا بها . فلا بد من هذه المقدمات الثلاث حتى تصح دعواه هذه التى قدح فى المسلمين بها . والمقدمات الثلاث كلها باطلة فلا يمكنه ان يثبتها وهو لم يذكر الا روايتها على وجه الاستهزاء والسخرية ، وهذا لا يكفى ، فليس كل ما يروى من حديث فى كتاب من الكتب يكون صحيحا ، وهو معترف بهذا فى صراعه الذى صرع فيه ، بل ولا يكون معمولا به أيضا ، بل قد توجد أحاديث صحيحة لم يعمل بها ، بل هو نفسه قد كذب بأحاديث صحيحة فى أغلاله هذه ، فليجعل هذه الروايات على الأقل مثلها

والحديث الاول الذى ذكر أنهم زعموا أنه صحيح كذب وفجور ، بل أكثر اهل العلم على أنه ضعيف لا تقوم به حجة ، فلم يروه إلا ابن ماجه بسند ضعيف ، وكذلك سائر الروايات من جنسه . وهذا الملحد يعلم أنه توجد روايات كثيرة فيها الحث على الشرك والقدح فى الصحابة وغير ذلك فلم عدل عنها وجاء بهذه الروايات وتلك أعظم ضررا وأشد خطرا ، واذا كان يراها صحيحة وأنهم عملوا بها فليس ايراده لها ورده عليها - بهذا الوجه المنكر من السخرية والاستهزاء - ردًّا على المسلمين ، بل هو رد على مَن قالها وهو الرسول ﷺ ، فلا حاجة الى الرد على المسلمين لانهم مأمورون بالامتثال والسمع والطاعة . وان اراد الثانى وهو أنهم عملوا بها وهى غير صحيحة فهذا أيضا بهتان ظاهر ومكابرة للحس والضرورة على ما شرحناه من قبل ، فان المسلمين قد حثوا على طلب الرزق كما قال تعالى ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وأدنى رجل عامى يرى الناس كلهم ساعين جادّين فى طلب أرزاقهم ، وكلهم يحبون الله ورسوله ، وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم قد كان فيهم أغنياء وهم يحبون الرسول محبة تفوق محبة النفس والولد والمال . وان أراد الثالث

وهو أنهم رووها ولم يعملوا بها فلا وجه لايرادها واستشهاده بها ، لأن الروايات التى لم يعمل بها وجودها كعدمها . فتبين أن استشهاده بهذه الروايات على القدح فى المسلمين محاولة منكرة خبيثة لا حجة له فيها على كل تقدير

وهذا الملحد يعلم أن الله سبحانه أمر بطلب الرزق وأباح لعباده من الطيبات مالا يدخل تحت حصر ، وكل ذلك أعرض عنه للقصد الذى ذكرناه ، قال الله تعالى وتقدس ﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ الآية . وهذه الآية أصل عظيم فى هذه المسئلة ، فقد بين سبحانه وتعالى أنه أخرج الطيبات من الرزق لعباده المؤمنين وبين أن ذلك لهم فى الدنيا ، فيكون غيرهم انما دخل تبعا ، ولهذا اذا خلت الأرض من المؤمنين قامت القيمة كما فى الحديث « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » لان موجبات الرحمة وآثارها قد انعدمت فلا يكون هناك رحمة البتة ، ومتى زال أثر الرحمة حل البلاء والدمار الفظيع . وقد بين الله سبحانه فى هذه الآية أنها - أى الطيبات والزينة - خالصة للمؤمنين يوم القيمة لأنها أثر من آثار الرحمة فتتبع مواضعها المتحدة ، لانهم حينئذ يكونون خالصين من مخالطة الكفار فى الدار كما أن أولئك اختصوا بما يليق بهم من الظلمة والطرد والابعاد ، لانهم عبدوا الطبيعة المظلمة العاتية فكانوا فى الظلمات والشرور ، لان جميع الشرور سلبية من مقتضيات الطبيعة كما قال عليه الصلاة والسلام والشر ليس اليك ، فكل اختص بما يناسبه فالذين اتبعوا النور والرحمة وآمنوا بالنور والرحمة كانوا فى نور ورحمة ، وأولئك الذى استكبروا وكانت أعينهم فى غطاء عن النور والرحمة وانحرفوا الى ظلمة الطبيعة فعبدوها واعتمدوها كانوا فى ظلماتها وشرورها . وهذا عين العدل والقيام بالقسط . فالآية تقتضى أن المؤمنين هم أهل هذه الحياة الدنيا بما فيها من زينة وجمال وطيبات ، وانما دخل غير المؤمنين تبعا كما أن كثيرا من الحيوانات يحصل لها أكثر مما يحصل للانسان من الراحة ورغد

العيش الذى لا يعدو أن يكون شهوات نفسانية فقط

وينبغى أن يعلم أن الله سبحانه لم يذم الحياة الدنيا مطلقا ولم يمدحها مطلقا ، بل ذم من قدمها على الآخرة واستحبها عليها كما هو رأى هذا الضال ، ومدح من أخذ نصيبه منها ولم ينس نصيبه من الآخرة : قال الله تعالى ﴿ ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين . قال انما أوتيته على علم عندى ﴾ يعنى بما فىَّ من الاستعداد والمواهب التى مكنتنى من معرفة طرق المكاسب والتجارة بل بقدرتى الذاتية فلن ينالنى شىء . فانه جواب على كلام أولئك النصحاء . قال الله ردا عليه ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ أى فلا القوة ولا الجمع يغنى عن صاحبه شيئا فلا ينفعه غير طاعة الله تعالى فانها العروة الوثقى كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ فلا ينفع شىء من القوة مهما كانت دون الله سبحانه وتعالى وقال تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة والله لا يهدى القوم الظالمين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ وما أخلق هذا الملحد بالدخول فى هذه الآيات ، فانه ارتد مستحبا الحياة الدنيا على الآخرة . نسئل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال « كانت العرب فى جاهليتهم ولا سيما قريش تنظر الى الحياة الدنيا بعين المشوق المتيم ، وكانوا يحبون المال حبا جما ، ويأكلون التراث أكلا لما ، كما أخبر القرآن عنهم . وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الاستمتاع به منها . وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك . وكانوا يمقتون الفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروءة . ومن أمثالهم السائرة فى هذا «القبر ولا الفقر» وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية الاستمتاعية تجارا كلهم ولا سيما أشرافهم وساداتهم ، وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ، ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف والسيادة . وفى دلائل النبوة : كانت قريش قوما تجارا ، ومن لم يكن تاجرا لديهم فليس بشىء ، حتى لقد قيل : ان كلمة قريش معناها التاجر »

والجواب أن يقال : اضطرت الحال هذا المخذول الى أن احتج على مقصوده فى مدح الحياة الدنيا بأفعال كفار العرب وقريش فى جاهليتهم ، وهذا برهان على أنه جاهل المذهب والنظر والتفكير ، وقد نسى المسكين قوله فيما سبق ان الانسانية كانت فى وقت نزول القرآن لا تبعد جدا عن طور الحيوان ، وانهم ما كانوا يعرفون الحقائق انما كانوا يعرفون الظواهر ويحكمون على الالمام الظاهرى فلا غرابة فى كثرة تقلباته وتناقضه واضطرابه فانه منافق مرتاب . ولو أن هذا المارق أضاف الى هذه الدعاوى التى ذكرها ما كانت عليه العرب وقريش فى جاهليتها من الخصال الأخرى المذمومة لكان من جنس احتجاجه هذا سواء ، فلو قال وكانت أيضا تاكل الميتة وتقتل البنات وكانت شديدة المحبة لعبادة الاصنام والمحاماة عنها ، وكان الفوضى والهمجية والتقليد الأعمى كل ذلك قد ساد وانتشر فى زمانها وذكر نحو هذه الخصال مما هو كثير

لكان قد أدى الحقيقة . أما اقتصاره على كونهم يحبون التجارة فهو خلل ظاهر واحتجاج ساقط ، فان افعالهم ليست من الحجة فى شىء وأفعالهم الأخرى كعبادة الأوثان وأكل الميتة ووأد النبات أبرز وأظهر من أعمالهم فى التجارة ، فان التجارة ليست من خصائصهم ، أو لو أنه عدل عن الاحتجاج بأفعال العرب فى التجارة فى جاهليتهم الى أفعال اليهود فى التجارة فانهم فى هذه الخصلة أمهر وأحذق وأقدر ، ولا ندرى كيف صرف هذا المخذول عن الاحتجاج بالآيات البينات ونصوص السنة التى لا تحصى فى فضل الغنى والتكسب وإباحة الطيبات كما أشرنا الى ذلك وذهب يحتج بأفعال الجاهلية ، ولكن هذا هو اللائق بالقلب المقلوب ، فلا بد أن يكون تفكيره ونظريته مقلوبة ، ولو لم يعلم المسلمون أن اكتساب المال والغنى مما أمرت به الشريعة المطهرة لكان فعل الجاهلية هذا دليلا على كراهته أو تحريمه ، فاننا مأمورون بمخالفة أخلاق الجاهلية فيما اختصوا به ، ولكن المسلمين ولله الحمد أغنياء فى هذه المسئلة وغيرها عن أن يحتجوا بأفعال الجاهلية فيها ، ومن لم يكن له دليل الا أفعال الجاهلية فقد خاب وخسر

ويقال له أيضا اذا كانت العرب ولا سيما قريش كما زعمتَ تجارا وفيهم حرص شديد على جمع التجارة ، فأى شىء نفعهم ذلك ، وهل كان ذلك سببا لتقدمهم على غيرهم ، فقد مكثوا سنين متطاولة على هذه التجارة وما نالوا ملكا وسلطانا بهـا ، غاية مافى ذلك أنهم بقوا على مكانتهم وحرمتهم لا بسبب التجارة بل بسبب البيت الحرام . وقد علم أن الصحابة الذين قاتلوهم يوم بدر وغيره كانوا أقل منهم مالا ومع ذلك تقدموا عليهم وقهروهم ، وقد كانت الأمم المجاورة لهم أوسع تجارة وأعرف بكثير من هذه الأمور التجارية والاقتصادية والصناعية فكيف تقتصر على تجارة قريش فى هذا الاحتجاج الساقط . ولقد كان من المعلوم بالضرورة من دين الاسلام ان هذا التقدم الذى ناله العرب وقريش انما كان بسبب الدين العظيم والقيام به ، وان التجارة لادخل لها فى

ذلك البتة ، فإن الامم التى حاربتهم أعظم منهم تجارة وأكثر عدة وعددا ، وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يغزون بعض الغزوات مع النبى ﷺ فى حالة معروفة من الفقر والعوز فقد غزوا غزوة تبوك وكان أحدهم لا يناله فى هذه الغزوة فى اليوم إلا تمرة واحدة ، وقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ كان يأخذ الشهر والشهرين لا يوقد فى بيته نار ، ومن تتبع ما عليه الصحابة من أول وقت النبوة علم يقينا ما هم عليه من عدم التجارة وضيق العيش ، وأنهم انما نالوا ما نالوه من العزّ والتمكين والتقدم على غيرهم بايمانهم القوى وعزيمتهم الصادقه وتزودهم بزاد التقوى ، ليس ذلك بسبب التجارة ، فان الكفار الذين قاتلوهم وأخذوا مما لكهم كانوا أوسع تجارة واحسن أثاثا ورياشا . ولو أن قائلا عارض هذا المخذول واحتج على فضل الفقر بما جرى للصحابة من التقدم والتمكين مع ما هم عليه لم يكن احتجاجه بأضعف من احتجاج هذا الزائغ

ونحن نقول ان الواجب بذل الجهد فى تحصيل الأسباب الدينية والدنيوية واستعمال جميع الوسائل التى بها عزّ الاسلام والمسلمين ، وأن يؤخذ لكل زمان وحال ما تحتاجه الامة فى قوام دينها ودنياها . ثم انه أخذ يوسع الكلام كعادته فى كون قريش والعرب حريصين على جمع التجارة وجمع الأموال والاستمتاع بها ، وقد عرفناك سقوط هذه الحجة ، وأنه لا يحتج بها إلا أعمى البصيرة ، وقد عرفت أن ذلك لم يقدمهم على غيرهم ، وانما قدمهم الايمان والاعمال الصالحة ، وعرفت أيضا أن هذا الى القدح فى التجارة أقرب من المدح لها ، واننا لم نمدح الاكتساب ولا الاستغناء باعمال الجاهلية ، بل بالدلائل السمعية والعقلية

فصل

ثم شرع يستدل على حب الجمال والتوسع فى الاستمتاع به فقال :

«وقد كان حب الجمال دائما هو مبدأ حب الحياة ، ومن الممكن أن يقال

على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال فأنت صادق إن قلت أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت أحب الحياة فأحب الجمال ، وقد بلغ العرب فى أيام الجاهلية [1] فى حب الجمال مبلغا جعلهم يكادون يصيرونه أى الجمال ويصيرون التغنى به موضوع شعرهم وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق» ثم أطال فى توسيع هذا المعنى بان العرب كانوا يحبون الجمال ، وأسهب فى الاستدلال عليه ، ولا حاجة الى ذلك فان المسلمين لم ينكروا حبّ الجمال بل حثوا عليه ورغبوا فيه وأوجبوا حبه ، ولكن الشأن فى معرفة هذا الجمال ، فانه جعل الالحاد وانواع الاخلاق الخبيثة القبيحة هى الجمال ، وجعل الجمال البديع الحقيق الذى أعلاه عبادة الله ودعاؤه وذكره واتباع شريعته المطهرة وما تتضمنه من العدل والتزكية والتربية العالية كل ذلك عنده ليس من الجمال ، بل جعله خبيثا وقبيحا قبحه الله ، فانه جعل الدعاء مصرفا خبيثا وجعل المنابر والمساجد أدت شرّ ما يؤدى حيث قال « فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والظلام » الى آخره فجعل التسبيح والتقديس ومصدر كل جمال شرا وقبحا . وهذه هى عادته فى عكس الحقائق ، ولهذا فانه استدل بأفعال الجاهلية وأعرض عن الكتاب والسنة وكلام أئمة المسلمين فى حب الجمال والزينه وبيانهما ، والمسلمون ولله الحمد على صراط مستقيم فى حب الجمال وغيره ، فهم يحبون الجمال الذى هو الجمال حقيقة كما يحبون الطيبات التى هى الطيبات حقيقة ، فيحبون ما أعطاهم الله من فضله وأباحه لهم من النساء والبنين والأنعام والحرث والأثاث وجميع المتاع ونحو ذلك الحب المشروع المعقول ويبغضون ما يناقض ذلك مما يدعى كل زنديق أنه جمال ، وهو فى الحقيقة ليس بجمال بل هو القبح بعينه كأنواع المحرمات من الفواحش وذرائعها كالرقص وسائر الملاهى والخمر وأنواع المسكرات وأمثال ذلك ، فمن ادعى أن المسلمين يكرهون الجمال

---

(١) نسى المسكين دعواه أنهم لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى

مطلقا فقد كابر وباهت ، ويكفى فى تكذيبه هذه الأمور المشاهدة فى أخلاقهم ولباسهم ومساكنهم وفرشهم وجميع أمتعتهم وغيرها ، ومن ادعى أن كل ما يراه بعقله جمالا فهو جمال من فواحش وغيرها فقد ضل وتناقض ، ولا يمكنه بحال أن تقبل دعواه ، لأن آراء الناس وأذواقهم تختلف وليس كل جمال عند انسان يكون جمالا عند سائر الناس ، بل الجمال الحقيقى هو ما يلائم النفس مما أباحه الله ورسوله من الزينة والطيبات ، والقبح ما يخالف ذلك . قال تعالى ﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أن الجمال كله والطيبات كلها للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وأنها خالصة لهم يوم القيمة ، وتضمنت أن الملاحدة والمنسلخين من الدين ليس لهم نصيب من الزينه والطيبات مطلقا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فان ما معهم منه فهو كعارية مستردة أخذوها بسبب المجاورة للمؤمنين لا بالأصالة . ولا شك أنه سيكون حظهم منها على هذا تافها ظاهريا فقط ، فهذا الرجل أبعد الناس عن الجمال والطيبات لانه ملحد منسلخ لا نصيب له فى الايمان فلا نصيب له فى الجمال ، فان كان قد نال منه شيئا فان ذلك بسبب ادعائه ومجاورته المؤمنين كالحيوانات التى تدخل تبعا لغيرها فقد يحصل لها شىء من اللذة فى الاكل والشرب وغير ذلك ، فالجمال الحقيقى هو أبعد الخلق منه فلا يسوغ له فى العقل والدين أن يدعى حب الجمال كما لا يجوز له أن يتشبع بما لم يعطه فالمتشبع بما لم يعطه كلابس ثوبى زور ، ولا يحل لنا أن نقره ونقبل دعواه هذه لمصادمتها للحقائق ، فلا ينبغى السكوت عن هذا الادعاء المنكر فانه قد ثبت ثبوتا كالشمس ما هو عليه فى آرائه وافكاره الباطنة والظاهرة

فصل

ومن عجيب أمره أنه ترك جميع ما ورد فى فضل الجمال وحب الزينة المباحة

واستدل على ما ادعاه من فضل المال وفضل الكسب بقول خديجة رضى الله عنها للنبى صلى الله عليه وسلم « انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » وذكر أن رجلا مشركا قال لابى بكر مثل ذلك [١] قال « والشاهد فى الروايتين قوله تكسب المعدوم أى تكسب الشىء المعدوم الذى لا يستطيع أحد سواك أن يكسبه لبعد مناله ، ولان كسبه يحتاج لوسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هى القوة والمهارة ونفس متوثبة طموح ، وهذا يساوى أن يقال : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لرجل تاجر ماهر ، وأن يقال ان مثلك لا يخرج ولا يخرجه الناس [٢] لانك رجل تفوق الرجال جميعا فى القدرة على كسب المال وعلى النجاح فى التجارات ، وهذا آية فى أن قريشا كانت ترى القدرة على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة »

والجواب أن يقال قد تقدم الكلام عن مثل هذا ، وأن المسلمين يرون كسب المال وانفاقه فى موضوعاته المشروعة من أفضل الأعمال . ثم كلامه هنا على هذا الحديث غير مستقيم ، فان دعواه فى قولها تكسب المعدوم أنك تاجر ماهر تفوق الرجال فى القدرة على التجارة دعوى باطلة ، فلم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه المنزلة حين قالت له خديجة ذلك ، وقد صانه الله عن أن يكون همه وبذل جهده هو جمع التجارة والمهارة والتفوق فيها ، وكذلك أبو بكر فانه لم يكن معروفا بهذه الخصلة ، وسيرته مشهورة . ثم كلامه يتضمن أن كل من هو متفوق فى التجارة والقدرة عليها لا يخزيه الله أبدا ، وقد قرر هذا

---

(١) لم يقتصر على قول خديجة حتى أضاف اليه قول هذا المشرك ليكون أقوى له عنده

(٢) ليس فى الحديث نفى للخروج ، وانما فيه نفى الخزى ، ولكنه يتخبط تخبط الأعمى

المخذول فى أغلاله هذه أن اليهود أمهر الناس فى معرفة التجارة وأقدرهم على تحصيلها فعلى هذا لا يخزيهم الله أبدا ، ومعلوم أن الله قد أخزاهم خزيا عظيما ، فهذا الذى ادعاه كما أنه باطل فهو لم يقع وليست المهارة فى التجارة ممدوحة مطلقا ولا مذمومة مطلقا ، بل ان كان المطلوب من التجارة العفة والتقوى على طاعة الله وصرفها فى وجوهها المشروعة فهى ممدوحة ، وان كان المراد بذلك عكس هذا كالمفاخرة والرياء والسمعة وانفاقها فى المحرمات فهى مذمومة ، وليس المراد بكسب المعدوم فى الحديث المهارة فى التجارة والتفوق فى طلبها - كما زعم - فالحديث لم يدل على هذا ولا أشار اليه ، انما فيه الثناء على كسب المعدوم ثم انفاقه فى وجوهه المشروعة ، والكسب يوجد بدون مهارة فالمهارة كسب خاص ، ولو كانت خديجة تريد ذلك لوصفت هذا الكسب بالمهارة أو التفوق ونحو ذلك ، ثم ان خديجة لم تقتصر على نعته بكونه يكسب المعدوم فقط بل ذكرت هذه الاوصاف كلها فباجتماعها توجد نتيجتها ، أما مجرد كسب المعدوم فقط فليس فى الحديث ما يدل عليه ، ولا فضيلة فيه إلا بقرينة مشروعة ، وإلا فكم من كاسب معاقب ومأزور ، فالسارق واللص ونحوهما يكسبون المعدوم وهم مذمومون . وهذا الرجل اقتصر على ما ظنه موافقا لهواه وترك الخصال الاخرى التى تضادّ رأيه ودعايته ، فاى حجة له فى هذا على ما يقصد ، بل هو حجة عليه ، لأن دعايته ترمى الى الجشع الشديد والحرص على كسبه من كل وجه ثم البخل به مطلقا كما هى سجيته المعروفة فيه ، وهذا ينافى مقتضى الحديث ، لأن فيه الاعانة على نوائب الحق وصلة الرحم وهذا هو الذى دعى اليه المسلمون من الحث على كسبه وانفاقه فى وجوهه النافعة ، وهذا هو العدل . ثم الحديث أيضا حجة عليه من ناحية اخرى لان فيه الترغيب على صلة الرحم ولا يعرف احد أشد من هذا الرجل بعدا عن صلة الرحم ، وقد قدمنا أن له والدة موجودة الآن قد غاب عنها ما ينيف عن ثلاثين سنة ولم يعرفها بشىء من الصلة لا رسالة ولا نفقة ولا غيرها وأما أبوه فقد مات فى

صغره ، ولهذا أخزى الله هذا الرجل خزيا ليس وراءه خزى وجعله بالحالة التى ظهر بها فى أغلاله

فصل

ثم أطال فى مدح اكتساب المال وحب الجمال وأن قريشا كانت حريصة على الكسب وتنمية التجارة ، وتقدم الجواب عن هذا ، ثم ذكر أن العرب كانوا فى استعداد تام بسبب التجارة عند ظهور النبوة ، وأن الاماكن المجاورة للجزيرة قد أثقلتها الاديان المحرفة وانهم فى حالة سوء ولذلك وصلوا الى ما وصلوا اليه ، وكل هذا كذب وفجور ، وهو يرمى الى قصد خبيث وهو أن العرب انما تقدموا على غيرهم لاستعدادهم فى التجارة وفساد ديانة مجاوريهم ، لم يتقدموا بسبب الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، ولا أشد جرأة وخبثا وإلحادا وعنادا من هذه الدعوى نعوذ بالله من الخذلان . وقد سبق الكلام على مثل هذا أول الكتاب وفى مواضع أخر . ثم أخذ فى التشنيع على المؤلفين الأولين وادعى أنهم لم يؤلفوا كتبا نافعة وأنهم أكثروا من تأليف الكتب المشتملة على امتداح الآلام والعذاب والأمراض والأسقام والجهل والغباء والجنون والخبل ، وقد تقدم الجواب عن هذا كله وبينا أنه تشنيع بحت يقصد به اشانة الملة الاسلامية الغراء وتكريه بعض العلماء فى قلوب الرؤساء وقلوب الجاهلين بأحوالهم ، وقد أكثر من هذه الدعاية الخبيثة فى نبذته العجفاء التى سماها (كيف ذل المسلمون) وفيها من الجنون والتخليط والخبط والتشكيك فى الدين ما يطول وصفه ، ولا تصلح تلك النبذة مقدمة للصراع بل هى مقدمة للصراع الذى صرع فيه فى هذه الاغلال وان هذا هو اللائق بها ، وقد بينا أنه ان كان يريد ان جميع المسلمين صنفوا فى هذه الآراء التى ادعاها فقد كذب ، فان الكتب المصنفة فى الآداب والتوحيد والطب والنظافة وفضل الاكتساب أكثر من أن تحصر . وان كان يريد أن فى المنتسبين الى المسلمين من صنف فى

ذلك فيقال وفيهم أيضا من صنف فى الالحاد وفى الشرك وعبادة الأصنام وعبادة القبور والصالحين وتعطيل صفات رب العالمين وفى السحر والمجون وأنواع الملاهى ، فما بالك أعرضت عن هذا كله وهو أشد ضررا فلم تذكر شيئا من هذه الكتب ولم تشنع على أهلها بل ضربت صفحا عنها ، فما سبب هذا الاعراض والسكوت ، وقد كان الواجب عليك فى مثل هذه الامور أن تبين من دعا الى هذه الامور التى أنكرتها ثم تبين حجته ثم تبين مخالفته ثم تذكر ما يعتمد عليه ، أما مجرد مجازفتك ورميك المسلمين بهذه المقادح بمجرد الدعوى فهذا مما يدل على سوء سريرتك وخبث طويتك ، وهذا هو الواقع الذى لا ريب فيه ، وما أحسن ما قال الامام أبو الوفاء بن عقيل فى هؤلاء الذين جعلوا أقصى ما لديهم هو التحسر على الدنيا والغفلة عن الدين وعدم المبالاة بتضييعه حيث قال [1] « من عجيب ما نقدت أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خراب الديار وموت الاقارب والاسلاف والتحسر على الأرزاق بذم الزمان وأهله وذكر نكد العيش فيه ، وقد رأوا من انهدام الاسلام وتشعث الاديان وموت السنن وظهور البدع وارتكاب المعاصى وتقضى العمر فى الفارغ الذى لا يجدى ، فلا أحد منهم ناح على دينه ولا بكى على فارط عمره ولا تأسى على فائت دهره ، ولا لذلك سبب إلا قلة مبالاتهم بالاديان ، وعظم الدنيا فى عيونهم ضد ما كان عليه السلف الصالح يرضون بالبلاغ وينوحون على الدين » انتهى

ثم قال « وانى استطيع أن أقول هنا ، ولست أشك فى صدق ما أريد أن أقول ، اننا لو حشدنا جميع المؤلفات التى تركها هؤلاء (يعنى المؤلفين) ثم جهدنا أن نخرج منها كتابا واحدا أو رسالة واحدة لا تمدح الفقر والشقاء ولا تذم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب ، ولما وجدنا تلك الرسالة . وقد

---

(١) الآداب الشرعية ج ٢ ص ٢٥٦

اطالوا الكلام جدا ولونوا الحجج والأساليب فى الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها
ـ أعنى الفقر ـ وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوى تحت هذه اللفظة وأنه
ـ أى الفقر ـ كل شيء »

والجواب أن يقال أولا قولك « ولا أشك فى صدق ما أريد أن أقول »
يقال ونحن لا نشك فى كذب ما قلته ، واذا كنت لا تشك فى صدق نفسك
فهل تريد أن تدعو الناس الى أن يأتموا بك فى ذلك ، أم تريد أن تجعل الناس
كالانعام « إذا مشيت فكلهم فى أثرك ، وان وقفت فما فى الناس من يجرى » كما
تقول . فما هذه الفضول والرعونات الفارغة ، وسواء كنت صادقا فيما ادعيته
من أنك لا تشك فى صدق نفسك أو كاذبا فليس بواجب على أحـــد من
الناس أن يقبل قولك بمجرد دعواك أنك لا تشك فى صدق ما تقول ، كيف
وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن بعض خلقه أنهم عملوا أعمالا معتقدين أنهم
على هدى فيها وكانوا على أبعد الضلال ، فقال تعـــالى ﴿ قل هل أنبئكم
بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا ﴾ ، وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخـــذوا
الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ أفرأيت
من زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فان الله يضل من يشاء ويهـدى من يشاء ،
فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن
نقيض له شيطانـا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم
مهتدون ﴾ الى أمثال ذلك من النصوص الـكـثيرة الصريحة الدالة على أنه ليس
الـكـفر والضلال محصورا فى معرفة الحق وتركه عنادا ، بل من أعرض عن
طلب الحق ورضى بما هو عليه من الرأى أو قدم آراء أسلافه أو غيرهم واتبع
هواه أو أنـكر ما عـرف بالضرورة من دين الاسلام فى أصول الدين فهو
كـافر سواء كـان ذلك جهلا أو عناداً ، فمن بلغته الحجة بلاغا يمكـنه فهمه
بحيث يفهمها جنسه فأعرض عنها ولم يلتفت اليها ، أو فهمها وأعرض عنها فلا

شك فى كفره ، ومن رد ما علم بالضرورة من دين الاسلام فهو كافر ، وإلا لساغ لكل كافر أن يدعى فى كل حجة أنها لم تظهر له ، وأصول الدين واضحة كالشمس ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية [١] «كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر ، سواء اعتقد كذبه ، أو استكبر عن الايمان به ، أو اعرض عنه اتباعا لما يهواه ، أو ارتاب فيما جاء به . فكل مكذب بما جاء به فهو كافر ، وقد يكون كافرا من لا يكذبه اذا لم يؤمن به ، ولهذا أخبر فى غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله ، وان كان له نظر جدل واجتهاد فى عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين » انتهى . وذلك لان المقصود من الرسالة أمران أحدهما التصديق الخالص ، والثانى المتابعة والانقياد ، وهو أمر مجمع عليه عند المسلمين كلهم ، فان من صدق الرسول ولم يتابعه ويذعن لما جاء به فهو كافر ، فان فرعون مصدق برسالة موسى ولكنه أبى أن يتابعه استكبارا كما قال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر ، وانى لاظنك يا فرعون مثبورا ﴾ ومحال أن يقسم موسى على شىء لم يثبت وقال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وكذلك كان أكثر كفار قريش أو كلهم علموا صدق الرسول ﷺ فتركوا متابعته اتباعا لاهوائهم كما قال تعالى ﴿ قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ فهؤلاء كلهم مصدقون بالرسالة ولكنهم كفار لانهم لم ينقادوا لما جاء به ، فاذا لم تحصل المتابعة لم يحصل الايمان ، سواء كان ذلك عنادا أو اعراضا عن طلب الهدى ، وأصول الدين كلها واضحة كالشمس ، كما قال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » وكل ذى عقل يعلم

---

(١) فى كتاب العقل والنقل ص ٢٢٩ ج ١

أن من قصد اتباع الحق واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد والحرص فلا بد أن يتبين له الحق بيانا واضحا جليا، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ فمن أناب الى الله هداه اليه والى ذكره بلا شك، فالذى يريد الهداية فليسلك طريق الانابة، والانابة هى الرجوع الى الله وقصده وطلب توفيقه، وطريق الضلال عدم الانابة عن استكبار وتمرد واتباع للهوى والاسلاف ونحو ذلك . وقد وجد المنافقون والزنادقة ـ كهذا الملحد ـ طريقة الخداع والمكر ظلا باردا يلجئون اليه ويستريحون فيه متى عوتبوا على ما يصدر منهم من الأمور الكفرية فان هذا الملحد كثيرا ما يقول لمجالسيه ومعارضيه وفى كل مكاتبة لمن يخافهم ويرهبهم : انى ما قصدت إلا الحق والاحسان، ولكن الناس لم يفهموا كلامى . وقد أضل بهذه الأعذار البسيطة من طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم، فاخذ بعضهم يعتذر عنه ويقول : قد يكون له قصد حسن، وما درى هؤلاء أن هذا الاعتذار هو عين اعتذار المنافقين الأولين الذين ذكر الله عنهم أنهم فى الدرك الأسفل من النار، ان كثيرا من الكفار أيضا يعتذرون بهذه الأعذار نفسها، حتى فرعون فانه قال لقومه ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾، وقال تعالى عن المنافقين ﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون، ألا انهم هم المفسدون ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا، واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا، أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا، وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله، ولو أنهم اذ ظلموا

انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . فليتأمل العاقل مافى هذه الآيات من العبر العظيمة ، وليزنْ نفسه ودينه بها ليكون على بصيرة من أمره ، فقد بين الله فيها صفة المنافقين بيانا أوضح من الشمس ، وبين فيها حالة المؤمنين حقا . وقال تعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا الا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون ﴾ ولو أن المسلمين أطاعوا كل من تزندق وقدح فى الاسلام والمسلمين وادعى أنه يريد الاصلاح لفسد الدين ولسادت الفوضى فيه وعبث به ولعب كل من شاء من أصناف بنى آدم ، فان الله جعل لكل شىء قدرا فجعل للصادق دلالة على صدقه والكاذب كذلك جعل له علامة على كذبه فمن هجم على دين الاسلام وأهله وأضاف اليه واليهم كل ما خطر على باله من المقادح التى لا تبقى ولا تذر ثم ادعى أنه مجتهد وأنه يريد الاحسان فلا شك أن من صدقه فهو مصاب فى دينه وعقله ، فعليه أن يبكى على نفسه ، وليعالج عقله ، وليعلم أنه لم يعرف دين الاسلام الذى يدين به ربه بحدوده الشرعية ، فان أكفر يهودى أو غير يهودى لا يعجزه أن يفعل هذا ويقضى غرضه من العداء والمكر والخبث ويدعى كهذه الدعوى ، ونحن لا نشك فى أن هذا الملحد يعلم حقيقة العلم أن ما صنعه فى هذه الأغلال مضاد لشريعة الاسلام وغيرها من الأديان مضادة لا ريب فيها ، ولكنه اضطر الى النفاق والمخادعة لأمور مفهومة يعرفها أكثر الناس ، وما ذكرناه فهو على فرض أنه لا يعلم جدلا ، والا فنحن نباهله على أنه لا يعلم ذلك ونعوذ بالله أن تبلغ بنا الجهالة والحماقة وفساد العقل الى أن نصدقه فى خداعه ومكره ، فان هذا من أعظم الضلالة والعماية والغواية عن سواء السبيل . أما دعواه أنه لو حشد جميع المؤلفات « لم يجد كتابا واحدا ولا رسالة واحدة خالية من مدح الفقر والشقاء

وذُم الحياة والجمال ، فيقال له ان أردت أن كتب أهل العلم من أهل السنة المعمول بها موجود فيها هذه الأشياء فاياك أن تحشدها فانك لا تجد فى واحد منها شيئا مما ذكرته على ما تريده أبدا بل ولا كلمة ولا نصف كلمة ، وان أردت بالمؤلفات مؤلفات أسلافك من الاتحادية وأضرابهم فالمسلمون مخالفون لك ولهم فى كل ما تقولونه فى أصول الدين وقواعد الاسلام وفروعه ، مع أن فى كتب هؤلاء أشياء أخرى تضادّ ما ادعيته ، فلا يصح توجيه هذا البهت الى المسلمين على كل تقدير . وياليتنا نعلم فى أى كتاب من كتب أهل السنة وجدت مدح الشقاء ، وان كلمة الفقر تنطوى تحتها أعمال الخير ، وان كلمة الفقر هى كل شيء ، لو تكلم بهذا الكلام صبى يسيل لعابه على صدره لا ستكثر الناس منه ذلك فكيف بصاحب الحقائق الأزلية الابدية التى تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض واذا مشى فكل الناس فى أثره واذا وقف فما فى الناس من يجرى

فصل

ثم ذكر روايات يزعم أنها فى ذم الغنى ومدح الفقر ولم يعزها الى شيء من الكتب ، وليس فيها ما يدل على مراده أبدا ، ومع هذا فادعى أنها مزورة ، واذا كان مدعيا تزويرها فالجواب عنها كالجواب عن الروايات التى أوردها فى أول البحث ، لكن فى هذه أحاديث حرّفها كقوله عليه السلام « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » فادعى أن المساكين هم الفقراء البائسون اليائسون ، وادعى أن القرآن يدل على هذا ، وهذا كذب وفجور على اللغة وعلى الشرع ، بل المساكين هم من يجدون بعض كفايتهم المعيشية فقط كما قرر ذلك الفقهاء ، وهذا لا علاقة له ببؤس ولا يأس ، فكم من فقير أشجع وأنشط وأدين وأثبت وأعقل وأعلم من مائة غنى أو أكثر ، وهل ضر الصحابة الذين غزوا الروم وهم على تلك الحالة المعروفة ما أصابهم

من القلة ، وهل يقال انهم بائسون يائسون ، فالشجاعة والنشاط والدين والهمة العالية ليست مربوطة بالدرهم والدينار ، وانما هي مربوطة بالقلوب والأديان ، والدرهم والدينار مادة واحدة ضعيفة من مواد كثيرة فى حياة الانسان وقوته وصحته ونشاطه ، ولا يلزم من ضعف هذه المادة الواحدة ضعف حياة الانسان ، فان مادة الدين ودعاء الله وعبادته أعظم مادة للقلوب وحياتها الصحيحة ، والفقر من هذا هو الفقر المدقع المميت ، وانما التجارة سبب من الاسباب اذا استعملت على وجهها نفعت ، وإلا فقد تكون سببا للموت .

وكذلك انتقاده على حديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» فقد حرّفه كعادته فانه حذف آخره الذى يبين المراد من الدنيا الملعونة وأنه ليس جميع ما فيها ملعون فانه قال « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، الا ذكر الله تعالى وما والاه ، أو عالم أو متعلم » وليس فى هذا ما ينتقد ، فان الامور المباحة والمشروعة اذا استعملت على وجهها داخلة فى قوله عليه السلام « وما والاه » وأما الامور المحرمة فلا شك أنها ملعونة وملعون أهلها وملعون من احبها ودعا اليها . ومن العجب انتقاده حديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » وهو حديث صحيح متفق عليه ، ولعله استغرب واستشكل كونها بهذا الرخص عند الله مع كونها غالية عنده وعند اليهود ، فكيف تكون الى هذا الحد فى الرخص عند الله بحيث تكون أرخص من جناح البعوضة ، فان هذا رخص عظيم جدا لا تطيقه نفسه ولا يمكن أن يدخل عقله ، وكيف يبخل عن والدته الشفيقة بادنى رسالة وتكون الدنيا كلها من أولها الى آخرها عند الله أرخص من جناح بعوضة مع صغر جناح البعوضة وضآلته وضعفه وحقارته ، وياليته لاحظ رخص الآخرة بل والدين وأهله فى عينه مع عظم هذه الأمور وجلالتها ليكون على بصيرة ، ولهذا فانه أورد هذا الحديث فى التشنيع على المسلمين ظنا منه أنهم يحبونها كحبه لها ، هذا مع كون الحديث لا علاقة له بأمر ولا نهى وانما فيه اخبار من الله لئلا

يغتروا بها ويركنوا اليها ، وليس فيه انكم ايها المسلمون اجعلوا الدنيا عندكم كذلك ، ثم انه عليه السلام برهن على ذلك بقوله ما سقى كافرا منها شربة ماء ، وهذا برهان قاطع اذ كونه سبحانه يعطى أعداءه منها عطاء موفورا مع محاربتهم له ومبارزته بالعظائم دليل على أنها ليست بشيء لديه ، وفيه تسلية عظيمة للمؤمن ، وليس فيه منع للتكسب ولا للاجتهاد فى العمل والتجارة ، فان الاكتساب للعفة والاستغناء غير الاكتساب للرياء والفجور ، فالمؤمن ربما انه اذا رأى الكافر غنيا مع ما هو عليه من المعاصى والكفر يستغرب هذا ، فأخبر بان الدنيا ليست عند الله بشيء ، إنما الشيء العظيم هو الدين والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ وكما قال تعالى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وقد انتقد أيضا حديث «ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» رواه أحمد وصححه الترمذى ، وقد أورده هذا الرجل بلفظ ماذئبان ضاريان أرسلا فى غنم بأسرع فسادا فيها من امرىء فى دينه يحب الشرف والمال وهذا اللفظ الذى أورده خلاف اللفظ المشهور ، وهو لم يعزه الى شيء من الكتب بل أورده كعادته على وجه التهكم ، وفيه تحريف بشع ، لان الفرق بين هذه الرواية التى ذكرها وبين الرواية التى ذكرناها فرق واضح ، لان الرواية الاولى فيها لفظ الحرص وهذه فيها لفظ الحب وفرق ظاهر بين الحب والحرص فليس كل من أحب شيئا حرص عليه ، وهذا الحديث الذى انتقده المعارض من جوامع الكلم الذى أوتيه صلوات الله وسلامه عليه ، فان هذا الحديث العظيم اشتمل على أمرين عظيمين وهما التحذير من الحرص على الشرف وعلى المال ، وشبه حرص الانسان عليهما بالذئبين الجائعين ، لأن الحرص على المال يوقع فى الجشع والخيانة والرشوة وابتذال العرض والسرقة وشهادة الزور ، كما يوقع فى الذل والخضوع ودناءة النفس وسقوط المروءة ، بل ربما يوصل

الى الكفر ، ولا شك أن هذا يفسد الدين . فهو كالذئب الضارى ، لأن اندفاع الانسان استرسالا مع هذا الحرص كاندفاع الذئب الضارى لهذه الغنم التى تغتنم وينتفع بها الانسان باحسن الانتفاع ، فهى كاعمال الدين . وأما الحرص على الشرف فهو يوقع فى الفتن وسفك الدماء والفوضى والكبر والاعجاب وغمط الحق والمكر والاحتيال وكذلك الأعمال التى يوجبها الحرص على المال فأكثرها مشترك بين الحرص على هذا وهذا . وهذان الخلقان هما اللذان ذكر الله سبحانه عن اليهود فى قوله ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ فالاول فى الحرص على الشرف والثانى الحرص على المال ، وهذا جماع الحرص على حب الشهوات ، كما أن تحريف الكلام هو جماع الانقياد للشبهات ، ومتى اجتمع حب الشهوات واتباع الشبهات تمت الخسارة وحلت موجباتها ، ولهذا كان اليهود من أشد الناس تعلقا بهذين الخلقين ، وقد كان لهذا الملحد الحظ الأكبر من ذلك مع زيادة الردة وعداوة الأديان . ومن لطف الله أنه لم يقدره على شىء بل ولم يمكنه من أدنى وظيفة والله بعباده خبير بصير . ولا شك أن الحرص الشديد على حب الشرف ربما يؤدى الى الكفر كما فعل جبلة بن الأيهم وغيره كما قال عليه السلام « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ولا شك أن هذا الحرص كالذئب الضارى الذى يفسد الغنم فان هذه الاخلاق تفسد الدين أعظم من فساد الذئب للغنم ، فالنبى ﷺ لم ينكر طلب المال من وجهه واكتسابه من وجهه ، بل رغب فى ذلك وأمر به ، وإنما نهى عن الحرص والجشع الذى يفسد النفس ويذهب المعنوية الانسانية ، فلا وجه لانتقاده ، مع أنه كان من الواجب عليه اذا أراد أن يعارض فى مثل هذه الأمور أن يتكلم فى صحة الحديث أو ضعفه ، ثم يبين ما اشتمل عليه من المعانى ، ثم يبين مخالفته لما ينبغى ، وهو لم يفعل شيئا من ذلك ، وما ذكرناه على الحديث زيادة فائدة ، وإلا فمجرد مطالبته ببيان وجه الانتقاد كاف فى رده ، وهو انما يهمه انتقاد الأحاديث فقط ، وسواء

كانت صحيحة أو ضعيفة انما يهمه نصرة رأيه من غير نظر الى هتك حرمة الأحاديث ومعاندة من قالها ، فهو يكتب فى أغلاله كل ما خطر على باله مما يوافق هواه ولا يبالى ، لأن غرضه الذى يقصده لا يتم فى رأيه الا بذلك ، وقد فقد الخوف والدين والحياء فلم يبق لديه مانع من الفجور والقحة يحجزه ، لأن هذه الموانع قد زالت وحل محلها الاستهتار والقحة وعدم الدين

واعلم أن جميع ما ينتقده على الاحاديث الصحيحة هو من جنس انتقاده هذا ، فنكتفى بمطالبته فى كل حديث يورده على وجه الانتقاد بيان صحته أو ضعفه وبيان معناه وأن المسلمين عملوا به ، وإلا فايراده والاحتجاج به ممنوع ومضروب به وجهه ، لأنه تهكم واستهزاء لا طائل تحته ، وليس من التحقيق والعلم فى شىء لأنه يدل على سوء طوية وقد أعرض عن الأحاديث الكثيرة الصحيحة فى مدح التكسب والاستغناء وتحريم البطالة والسؤال لغير حاجة وتمسك بما لادلالة فيه

اذا عرف هذا فاعلم أن الأحاديث الضعيفة التى يوردها وكذلك ما ينقله عن كتب الصوفية ونحوهم لا تعلق له فيه بشىء ، لأنه لا يرد على المسلمين فان حكم الحديث الضعيف عندهم معروف وهو عدم الاحتجاج به ، وأما كتب الصوفية أو الاتحادية فقد أجمعوا على عدم العمل بها ومن حسن الظن بهم فانه يقول لا يجوز الأخذ بظاهرها ، فكان عدم العمل بها متفقا عليه ، وبهذا يندفع جميع ما بناه على هذه الروايات والنقول الصوفية ، على أن ما نقله قليل جدا بالنسبة الى ما افتراه وزوره ، فان أكثر كلامه اختراع أوهام لا حقيقة لها ، يخترعها ثم يشرع فى الرد عليها بعد أن يرمى بها المسلمين البرآء منها ، ومعلوم أن هذا لا يفعله إلا من أصيب فى دينه وعقله جميعا ، وهذا هو الواقع فى هذا الرجل المسكين المخذول المستكبر

فصل

ثم أخذ على النووى أنه أنشد ثلاثة أبيات فى أول كتابه رياض الصالحين فى الزهد ، وانتقده وحط عليه وشنع غاية التشنيع من أجلها لأنها فى القناعة ولا وجه لانتقاده وتشنيعه لأنها مع كونها ليس فيها مدح للشقاء والجوع ، وأن الخير كله منطو تحت كلمة الفقر فقد ذكر فى نفس الكتاب المذكور بابا فى فضل الاكتساب ، وساق فيه أحاديث فى ذكر فضل الاستغناء كذلك ، فما باله أعرض عن ذلك وتمسك بالابيات ، والنووى كغيره لم يرد ما عناه هذا الرجل أن الزهد هو التجرد من الدنيا ومن أسباب المعيشة ونحوها ، انما أراد ما أراده غيره من العلماء على ما شرحناه فيما سبق . وياليت هذا المخذول وازن بين أبيات النووى وبين أبياته التى سقناها فى مطلع هذا الكتاب ليعرف الفرق ، ولو أنه وازن بينه وبين أبيات كثيرة للاتحادية وأمثالهم فى تحريف الصفات والترغيب فى الشرك وغيره من الفجور والفسوق والاستهتار بالديانات لعلم الفرق ولعلم ما ينشأ عن ذلك من الأضرار العظيمة المضرة بالاسلام وأهله ، ولكنه لا يهمه ذلك لانه لا يرى لفساد الأخلاق دخلا فى تقدم ولا تأخر . ثم ذكر أن ابن أبى الدنيا وضع كتابا فى هذا الغرض فى ذم الدنيا فقال « وقد وجدنا كتبا كاملة قد وضعت لهذه الأغراض ، فوجدنا ابن ابى الدنيا وهو أحد الحادين بالفقراء يؤلف كتابا يسميه من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئا (١) فى ذم الدنيا ووجدنا كتبا كثيرة تسمى كتاب الزهد (٢) وهذا كله معلوم لا فائدة فى الاطناب فيه »

فيقال : لا حاجة لك فى تتبع ابن ابى الدنيا والامام أحمد والنووى

---

(١) انما يعد مخطئا عندك وعند الملاحدة كما انك تعد مخطئا بل ومرتدأ بما فعلته فى هذا

(٢) يشير الى كتاب الزهد للامام احمد الذى طبع حديثا

وغيرهم فى تخطئتهم فى ذم الدنيا فانها اذا كانت الدنيا عندك هى الغاية الغالية وكنت كالمحامى عنها فوجه اللوم اذن الى القرآن الكريم فان الله تعالى ذمها وهؤلاء لم يقولوا فى ذمها أعظم مما ورد فى النصوص القرآنية والاحاديث النبوية قال الله تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ وقال تعالى ﴿ما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ وقال تعالى ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ وقال تعالى ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدى الظالمين﴾ وقال تعالى ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ وقال تعالى ﴿انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار﴾ الى أمثال ذلك من الآيات التى لا تحصى مما فيه ذم الحياة الدنيا وتقديمها على الآخرة كصنيع هذا الملحد فانه رفض الآخرة رفضا باتا بل ادعى أن الايمان بها عامل تأخر كما يأتى ، وهذا عكس لدعاية القرآن ، كما أن أغلاله كلها كذلك ، وهذا الزائغ يذم ابن ابى الدنيا حين وضع كتابا يحذِّر فيه من الاغترار بالدنيا ويذكر فيه النصوص الدينية وهو قد صنع هذه الأغلال فى ذم الدين والدعوة الى نبذ الآخرة مستدلا على ذلك بأقوال الملاحدة والزنادقة ، فأين من ذم الاغترار بالدنيا ممن ذم الدين والآخرة فيكون هو من الحادين بالملاحدة اذا كان ابن أبي الدنيا من الحادين بالفقراء ، واذا كان هذا المخذول معترضا على ابن ابى الدنيا وغيره كالإمام أحمد حيث صنف كتاب الزهد المشهور وجعل سهل بن عبد الله التسترى أحد أصنام الزهاد فسماه صنما ، فليس هذا كله بعجيب ممن حارب الله ورسوله ودينه ، فان من فعل هذا فلا بد أن يفعل كل ما فيه مضادة للاسلام وأهله . والعجب أنه جعل سهلا التسترى صنما بمجرد تحذيره من الاغترار بالدنيا وجعل جستاف لوبون فيلسوفا عظيما وهو الذى ادعى أن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فانظر الى هذه العداوة المنكرة لعلماء الدين وشدة الولاء للملاحدة وأضرابهم ، وهذا الملحد قد أعرض عن جميع ما لأئمة المسلمين من

الفضائل العديدة والمواقف الحميدة فى نصر الاسلام والجهاد فى ذات الله ولم يعترف لهم بحبة خردل من فضيلة ، بل أخذ يتتبع ما وجد لهم من سهو وأخطاء تافهة لا يسلم منها إلا الأنبياء فيأخذ فى التشنيع الطويل العريض عليهم ويرميهم بالمقادح السيئة ، ثم مع هذا لم ينتقد ملحداً واحدا ولا زنديقا ولا أنكر عليهم قولا واحدا مع كثرة ما ينشرونه من القدح فى الديانات والاستهزاء والتهكم بها ، بل حمدهم على ذلك وعظمهم واعتمد أقوالهم وتمسك بها بكلتا يديه وجعلها حججا يحتج بها فى القدح فى دين المسلمين . ثم انه أعجب جدا بكلمة نسبها الى عمرو بن العاص وهى « اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا » وهذه الكلمة ان صحت عن عمرو بن العاص فليست مما يمدح عليه ، فان قول النبى ﷺ لعبد الله بن عمر « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، واذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك » الحديث — خير من قول عمرو بن العاص وأحسن أثرا وأعظم فائدة . وقد يظن من عميت بصيرته أن حديث ابن عمر هذا يوجب الاعراض عما يجب من الدنيا ، وأنه يوجب التأخر ، وهذا ظن معكوس ، بل هذا الحديث يدل على الحزم والعزم ومواصلة السير فى العمل للأمور النافعة فى الدنيا والآخرة ، فانه يفيد أن الانسان يجب عليه أن لا يثق بالدنيا ولا يغتر بها فان ذلك يوجب الغفله والتساهل فى الاخلاد الى الذل والمسكنة وعدم الأخذ بالحيطة والحذر التام لما ينفعه فى دينه ودنياه ، ومعلوم أن الغريب يكون على غاية من الحذر من الناس وعدم الوثوق بمن يجهله ويستعد بما فى وسعه بما يقيم حاله ويثق بمن يعرفه ممن هو جنسه ، ولهذا أكده بقوله « وخذ من صحتك لسقمك » وهذا غاية الحث على العمل للدين والدنيا والبعد عن العجز والكسل ، وكذلك قوله « ومن حياتك لموتك » فيكون الانسان قويا نشيطا حازما يقظا ، وأين هذا من هذه القولة التى نقلها عن عمرو بن العاص ان صحت عنه وهى قوله « اعمل الدنيا كأنك تعيش أبدا »

فان هذا قول ساقط فان الذى يرى أنه يعيش أبدا لا يعمل للآخرة بل يرفضها ولا يعمل للدنيا عملا كبيرا بل ينسجم فى الراحة والكسل ويتراخى فى العمل لأنه يسوف نفسه بالعمل من وقت الى وقت آخر لانه يرى الزمان ممتـــدا أمامه ، ففى إمكانه أن يقضى أمله متى شاء ، ويستمتع بشهواته فينغمس فى الملاهى والخـــلاعة ويقضى شهواته ، وهكذا تذهب به الايام لأنه يرى أنه سيعيش أبدا فلا يعمل عملا كبيرا ، ولهذا كان أكثر المنغمسين فى شهوات أنفسهم لبطونهم وفروجهم هم من أولئك الذين لا يفكرون فى الآخرة والموت وما بعده من الحساب والعقاب ، بخلاف المؤمنين الذين يستعدون للآخرة ويأخذون من صحتهم لسقمهم ومن حياتهم لموتهم فانهم أقوى نفوسا وأثبت أفئدة وأكبر وأكثر أعمالا وأصح آراء وأوسع عقولا ، فلهذا حافظوا على كلتا المصلحتين الدينية والدنيوية فاغتنموا أوقاتهم النفيسة الفاضلة

فصل

ثم أطال فى التشنيع على المسلمين بأنهم مدحوا الفقر والجوع والأمراض ، واخترع ما شاءت شهوته وهواه ، فأخذ يطعن فى الهواء ويحارب الأوهام ويخاطب الاحلام ثم قال «ولقد تطورت هذه الأعراض الجنونية عند هؤلاء تطورا مخيفا فذهبوا مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض كل مذهب من طرق السخف والعماية » وأطال من هـــذا الهذيان والقدح فى الاسلام وأهله ، وكل هذا قد تقدم الجواب عنه وأنه فجور وزور وبهتان لا ريب فيه ، وأن الغرض المقصود منه أن الاسلام قد فسد فارفضوه ، وقد تقدم ما نقلناه عنه من الصراع أنه قال « وليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين » الخ وقد بينا أن العلماء صنفوا فى الطهارة والنظافة وحب العمـــل والاجتهاد والتكسب ، وحرّموا الاضرار بالنفس والبدن فى كتب أكثر من أن تحصى ، وهى مجلدات معروفة قد ملأت المكاتب ، وقل أن نجد كتابا

ليس فيه النهى عن الاضرار بالنفس أو يخلو من الحث على الطهارة والنظافة ،
وهذا كتاب (فضل السعى والحركة) مجلد مستقل مطبوع كله فى الحث على
العمل ، وأمثاله أكثر من أن يحصر

ثم ذكر عنهم أنهم لم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك
وقاموا يمدحون الأمراض والأسقام ، وأطال من هذا ، ثم ذكر عن كتاب
(الاحياء) للغزالى أنه نقل فيه قال : جاءت امرأة الى الرسول فقالت يا رسول
الله ان عندى فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة ، فقال قبلتها . ثم قالت :
يارسول الله الا أنها لم تمرض . فقال عليه السلام : اذن لا حاجة لى بها ، ثم
ساق روايات من هذا الجنس ، وذكر أن السيوطى صنف كتابا فى هذا
الموضوع . والعجب أنه كثيرا ما ينقل الروايات ثم يقدح فيها ثم يشنع على
المسلمين بوجودها فى كتبهم مع علمه بأنهم لم يعملوا بها ، ومع علمه بأنهم لا
يعتقدون أن أهلها معصومون من الخطأ ، ومع علمه بأنه قد يوجد فى هذه
الكتب من الشرك ونفى الصفات وغيرها أضعاف أضعاف ما يوجد فيها مما
ذكره ، ولكن هذا الملحد سريع الانطلاق الى نقل كل ما يجد فيه رائحة من
القدح فى الدين ، والا فهو يعلم حقيقة العلم أن مثل كتب الغزالى وابن عربى
وغيرهم لا يعتمد على كل ما فيها ، بل يعلم أن فيها بدعا تنافى الدين ، وقد كان
من الواجب عليه لو كان يريد الحق انتقادها من هذه الناحية ، وهو يعلم أيضا
أن كتاب الاحياء هذا قد قدح فيه كثير من العلماء ويكفى ما حشاه فيه من
الأحاديث الموضوعة والضعيفة من دون أن ينبه عليها ، وقد جرى احراقه
فى المغرب برأى جمع عظيم من علماء المسلمين فكيف يتتبع هذا الملحد أغلاطه
ويجعلها سهاما يرمى بها الاسلام مع أن فيه من الثناء على النظافة وتجنب
الامراض والأسقام وحب الاكتساب شيئا كثيرا ، ولو أن هذا الملحد وجه
هذا التشنيع الذى شنع به على الغزالى الى جنس السبكى وابنه وابن حجر
الهيتمى وأمثالهم من المتعصبين له المغالين فيه لكان أولى به ، أما توجيه التشنيع

بما فيه هو وأمثاله على المسلمين مع انكارهم له فلا يفعله الا خبيث السريرة مطموس البصيرة ، والله سبحانه قد بين لنا فى كتابه العزيز وجوب تجنب المضار وسؤاله العافية فقال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أمر عباده أن يقولوا ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ وقد قال ﷺ « اللهم انا نسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » وأمر بذلك وقال عليه السلام « اسئلوا الله العافية » وأمر بشيء من مبادىء الطب ، وأباح للمريض والمسافر والمرضع الفطر رفقا بهم ، وقال « يسروا ولا تعسروا » وكتب المسلمين فيها مالا يعد ولا يحصى من بيان الادوية واستحبابها ، وذهب كثير الى وجوب التداوى ، فما هـذا الارجاف والصياح والجنون والتحامل المنكر فى الدعاية بأن المسلمين يمدحون الاسقام والأمراض والجوع والشقاء ، قبحه الله ما أجرأه وأفجره

فصل

وكذلك دعواه أن المسلمين يحرمون أو يكرهون البناء والعمران ، وأنهم ينسبون الى الدين أنه جاء بذلك ، كذب وبهت ظاهر بهذا الاطلاق ، وقد حاول أن يؤيد هـذه الدعوى الكاذبة المرذولة بأن نقل بعض روايات فيها النهى عن البناء ، مع أنه اعترف بانها لم تصح ، فلا ندرى أهـذا الملحد يشنع على المسلمين بروايتها أو بالعمل بها ، فان كلامه متهافت متناقض ، وأدنى رجل من العامة فضلا عن غيره يعلم أن المسلمين لا يحرمون البناء ولا يكرهونه وهذه كتب الفقه وغيرها من جميع المذاهب مملوءة بذكر البناء وحكم الجوار وأحكام بيع البيوت والدكاكين وغيرها ، فالحس والمشاهدة بالحواس كل ذلك يكذبه ، فان مدن الاسلام وقراه كثيرة معروفة

وليس يصح فى الاذهان شيء ... اذا احتاج النهار الى دليل

وأى فجور أعظم من الادعاء على المسلمين أنهم يكرهون العمران

ويحاربونه ، وهو يرى المسلمين كلهم من أهل القرى حالين فى البناء يدخلونه ويخرجون منه ويصلون فيه فى كل وقت وحين ، ومن بلغ به الفجور الى هذا الحد فقد بلغ الغاية فى الخبث والمكابرة وسوء الاعتقاد . ثم ان هذا الملحد لم يكتف بهذه الدعاوى الخبيثة بل تمادى به البلاء والشقاء وسوء القضاء الى أن أضاف الى المسلمين أنهم يمدحون القذارة والوساخة ونقل بعض روايات مجهولة لا تكاد تعرف وليست عن امام معروف مستدلا بها على هذا التزوير ، وضرب صفحا عن جميع ما قاله ونقله علماء الملة فى كتبهم من وجوب الطهارة والنظافة وتحريم مباشرة الأقذار والاوساخ ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين موجود هذا فيه ، فأعرض عن هذا كله وتتبع ما فى كتب الاتحادية من الصوفية ونحوهم ، فكأن عليه عهدا وثيقا بينه وبين الملاحدة أن لا يجد رواية أو خصلة فى رجل من مجموع من ينسب نفسه للاسلام فيها شىء من النقد والعيب إلا ذكرها وأضافها الى المسلمين ، وقد بينا أن الغرض من وضع هذه الأغلال هو تشويه سمعة الاسلام ، وهيهات وما كيد الكافرين إلا فى ضلال . وقد ألجأته الضرورة هذا المخذول الى أن احتج بأنه يوجد فى تذكرة الانطاكى شىء من هذا ، وادعى أنه كثيرا ما يوصى بأكل القمل والحشرات ، وهذا غاية ما قدر عليه هذا الزائغ ، ونسى أن فى تذكرة الانطاكى صريح الشرك الأكبر ومخاطبة النجوم ودعاءها ، وهو يعلم أن المسلمين يكفرون من فعل هذا مع أن الانطاكى هذا نفسه ذكر فى تذكرته هذه الحث على استعمال النظافة واجتناب الاوساخ أكثر مما ذكر عنه ، مع ان هذا النقل كذب بهذا الاطلاق - ثم أطال فى ذم الفقر والمرض والجهل على عادته فى تكرار العبارات والاسهاب فى المعنى الواحد ، وقد سبق الكلام عن هذا مرارا فلا حاجة الى اعادته

وذكر أن الجمال يجب أن يحب ، وقد تقدم الكلام عن هذا أيضا . ثم انه ذهب فى تفسير الجمال الى غير ما ذكره أهل العلم حيث تكلم على حديث ان الله جميل يحب الجمال فقال « من الأحاديث الطيبة الجميلة فى هذا الباب أن رجلا

سأل النبي الكريم قال : ان أحدنا يحب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل فى هذا باس أو كبر ، فقال عليه السلام « ان الله جميل يحب الجمال » كلمة تقوم على معناها الحضارة الانسانية كلها ، بل التاريخ أجمع بل الوجود كله . ان جميع ما كتبه علماء الاجتماع والفلسفة وغيرهم فى تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الانسان لا يبلغ مبلغ هذا الحديث فى القوة وفى الحث والتحريض ، لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية ما يرى منها بالعين المجردة ومالا يرى منها الا بالآلات الدقيقة المقربة ومالا يرى منها البتة[1] ، لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال ، ولماذا خلق الله الليل الجميل والنهار الجميل والألوان الجميلة والأصوات الجميلة والمناظر الجميلة والانسان الجميل والحيوان الجميل وكل هذا الوجود الجميل ، خلقه كذلك لانه يحب الجمال ، ولماذا يحب الجمال ، يحبه لانه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلا » . ثم اطال من هذه الثرثرة التى يستحى العاقل من حكايتها ، وقد جعل الوجود كله جميلا ثم جعل الجمال يحبه الله من أجل أنه جميل ، ثم ركب على هذا بأن الجميل يحب ان يكون كل شيء جميلا ، فعلى هذا فليس فى الوجود شيء قبيح ، وقد قال تعالى ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين ﴾ فأخبر عن هؤلاء الملاحدة المعاندين لرسوله أنه أتبعهم فى الدنيا لعنة وأنهم فى الآخرة من المقبوحين ، ومعلوم أنهم من هذا الوجود ومن خلق الله ، ولكن لما كانوا ملاحدة كانوا مقبوحين بسبب ما عملوه من القبائح المضادة لمصادر الجمال التى هى الأعمال الصالحة . وكل ما ذكره على هذا الحديث تهور مركب ليس عليه أثارة من علم وهو تكلم فى ذات الله وصفاته بلا دليل بل جرأة على الله ، وليس فى الحديث ما يشير الى هذا الذى ادعاه بل الحديث يدل على خلافه فانه قال عليه الصلاة

---

(١) الذى لا يرى البتة من الذى أخبرك به

والسلام «ان الله جميل يحب الجمال» ولم يقل يحب الوجود لانه جميل بل خص الجمال بالمحبة وحده ، ومعلوم أن الكفر والنفاق والالحاد ليس من الجمال فى شىء ، بل هو القبح بعينه ، وكل قبح فى الدنيا فانه منه فالله لا يحبه لانه قبيح قال الله تعالى ﴿ والله لا يحب كل خوّان كفور ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ ومعلوم أن هذا الذى أسخط الله هو الكفر بأنواعه ، وقال تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ فاذا كان سبحانه يحب الجمال فمعلوم أنه انما يحب ما أمر به من الأعمال الصالحة ويكره ما يضاد ذلك من الفواحش وأنواع الكفر فيكون أولى الناس دخولا فى هذا الحديث هم أهل الدين الصحيح وأن الملاحدة ليس لهم حظ منه ، وقد فهم الصحابى أن الله لا يحب الوجود كله ، والا لو فهم ذلك لم يسأل ، لأنه لا فرق إذن بين أن تكون نعله حسنة أو غير حسنة وكذلك ثوبه لانه كله محبوب فانه كله من الوجود ، وأدنى عاقل يعلم أن الله سبحانه جعل هذا الوجود من ضدين متباينين من جمال وقبح ونور وظلمة وكفر وايمان ، فالايمان كله وجميع فروعه ومتعلقاته وشعبه جميل ، فالله سبحانه يحبه ويحب أهله ، والكفر بجميع أصوله وفروعه ومتعلقاته قبيح فالله يكرهه ويكره أهله كما أخبر بذلك كما تقدم فاذا كان سبحانه يحب المؤمن وايمانه ويكره الكافر وكفره فكيف يدعى أن الوجود كله جميل ثم يذكر النجوم والليل والنهار فأى علاقة لهذا بهذا ، وان الشموس منها شىء يرى وشىء لا يرى وأمثال هذا الهذيان ، فمن أين له أن الله يحب هذه الاشياء كلها وأن كل ما خلقه فهو يحبه فان هذا ممنوع شرعا وعقلا ، فكل ما فى الوجود من ذوات وأقوال وافعال فهى خلقه ، ومع ذلك فهو يحب صالحها ويكره طالحها . ثم انه لعظم شقائه فسر الجمال المذكور فى الحديث بالجمال المادى فتناقض لان كلامه فيما تقدم شامل للجميع فقال « وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو المادى ، وذلك

لانه ذكر فى جواب السؤال عن جمال النعل والثوب ، فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شىء » هكذا قال ، وهو برهان على شدة جرأة على الله ، والكلام فى ذاته بما لا علم له به ، وهو مما يدل على عدم مبالاته بمقام الربوبية والنبوة . فهذا الاطلاق الذى ذكره غير صحيح ولا مقبول ولا معقول ، فان الله سبحانه لا يحب مظاهر هذه الاشياء المادية أعنى صورها وذاتها ، وليس فى الحديث دلالة على هذا ، فمن ادعى أن الله تعالى يحب مظاهر هذه الأشياء فقد اجترأ على مقام الربوبية وهو كفر صريح ، وكيف يحب سبحانه مظاهر الصناعات بما فيها من مكاين وأدوات وساعات وسكاكين وإبر وحبال وأقفال وأدهان وزيوت وغير ذلك ، وكيف يحب مظهر جمال الزراعة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وكذلك الثياب ، بل هذا الرجل عمم حب جمال كل شىء ، فمن أين له أن الله يحب مادة جمال كل شىء والرسول ﷺ لم يذكر جمال كل شىء ، وفى الصحيح « ان رسول الله ﷺ قال : ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » وهذا الحديث نص صريح مفيد بمنطوقه أنه سبحانه لا يحب مظاهر هذه الصور المادية كلها ولا ينظر اليها ، وهو شامل لجميع الاموال من الصناعة والزراعة والمأكل والملبس وغير ذلك ، كما أنه شامل لجميع الصور من الآدميين ، والملحد بنى تقريره على ما فهمه بفهمه المعكوس فى الحديث المتقدم بأن ذلك مفهوم الحديث ، وهذا الخبر الصحيح أفاد بالمنطوق نفى ما فهمه مطلقا ، ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم بالاتفاق . فالذى أفاده حديث « ان الله جميل يحب الجمال » ليس هو ما فهمه الخصم ، بل أفاد أنه سبحانه يحب المتخلق بهذا الخلق الذى هو الجمال ، لا يحب نفس الشىء المتجمل به أى المادة التى يتجمل بها كما فهمه الزائغ ، فانه قرر أن المراد بالجمال الجمال المادّى ، وليس كذلك ، بل الجمال هنا هو الجمال الفعلى الخلقى ، فان الصحابى

سأله عن استعمال هذه الأمور ومحبته لهذا الاستعمال ، فاجابه بذلك الجواب ، فدل على أن المراد بالمحبوب هو نفس الخلق ، وذلك كالصدقة فانها تطلق على المال الذى يتصدق به وتطلق على نفس فعل المتصدق ، فالله سبحانه يحب نفس هذا الفعل الذى يبتغى به وجهه ، لا نفس المال المتصدق به . وهو سبحانه يحب الستر وهو نفس الفعل لا الآلة التى يستتر بها ، ويحب الجمال الذى هو نفس التجمل وليس هو الاشياء المادية التى يتجمل بها ، فانه لو أخذها عاص فلبسها فهى بحالتها لا محبوبة ولا مكروهة لذاتها كما تقدم . وبالجملة فحديث « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبهم وأعمالكم » صريح فى الدلالة على ما ذكرنا ، فان الجمال الذى هو التجمل من الأعمال التى ينظر الله اليها بحسب نيات القلوب ، وهذا الحديث دل بمنطوقه أن الذى ينظر الله اليه الأعمال وما يتعلق بالقلوب لا الى الصور المادية ، ثم من أين له أنه يحب الزراعة والصناعة وجمال كل شىء وليس فى الحديث ذكر لهذا ، فهل هذا إلا من مجاوزة الحدود ، وقد سبق قوله « وكل هذا الوجود الجميل » فعلى هذا فكل هذه المخلوقات يحبها الله من حيوان ونبات وجماد . والبلية استدلاله على ذلك بالحديث ، فجمع بين الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله عليه الصلاة والسلام بهذا الهذيان البارد ، والرسول ﷺ لم يقل للصحابى الذى سأله عن لبسه للنعل الحسن والثوب الحسن ان الله يحب النعال أو الثياب الحسنة أو يحب هذه الاشياء الحسنة ، بل قال « ان الله جميل يحب الجمال » لانه عليه الصلاة والسلام فهم أن مقصود الصحابى التجمل بلبسها كما هو ظاهر كلامه فى سؤاله ، والجمال الدينى نوعان : جمال الباطن بالعمل الصالح والتقوى ، وجمال الظاهر بالنظافة واللباس المباح الجميل الذى يستره ، فالجمال الباطنى هو المقصود والظاهر تبع له ، فالله سبحانه يحب من الانسان أن يتجمل بظاهره وباطنه ، ولهذا ورد فى الحديث « الطهور شطر الايمان » لانه جمال الظاهر ، كما ورد فى الحديث الآخر فضل من قال « أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمداً

رسول الله . اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من عبادك المتطهرين ، فى آخر الوضوء ليجتمع للانسان جمال الظاهر بالطهارة وجمال الباطن بالشهادة والدعاء المتضمن للتوحيـــد ، فكون الانسان يتجمل باللبـاس والخلق الحسن أمام الناس ولا سيما فى المجـــامع من الأمور المحبوبة . ولا شك أن جمال الظاهر كالسمت الحسن يدل عـلى جمال الباطن غالبا ، وهو وسيلة اليه ، واذا اعتاد الانسان التجمل بأحـدهما اعتاد الآخر ، فتجمل الظـاهر لا بد أن يكون له علاقة بتجمل الباطن ، ولا بد أن يكون بينهما مناسبة وإلا كان رياء فلا بد أن يفضح صاحبه ، وليس كل جميل فى لغة قوم وعرفهم يكون جميـلا فى الشرع ولا كل جميل عند طائفة يكون جميلا عند كل الناس ، بل الجمـــال الممدوح يجب أن يـكون له ضابط يفهم به ، وهو ما شرعه الله ورسوله وما كان متعلقا بذلك ، ولـكن يجب أن يفهم أن جميع المحرمات وشعب الـكفر كلها قبائح ليست من الجمال الممدوح فى شيء وان سماها أهلهـا جمالا فان ذلك يفضى الى أن كل الاشياء جميلة ممدوحـة وهو خـــلاف الشرع والعقـل والضرورة ولا قائل به ، فما ادعاه على هذا الحديث من الهذيان والثرثرة الفارغة فهو من مهازله التى أعتادها فى الخـداع والبهرجة والتمويه على الغوغاء وضعفاء البصائر

اذا عرفت هذا عرفت سقوط كلامه كله فى توسيع العبارات فى الجمال وأنه تهور لا حاصل له ، ولم ينكر أحد من المسلمين حب الجمال ، فما ادعاه كلام لا محل له البتة . ولا ينبغى لمثـله التكلم فى الجمال والدخول فى موضوعه ، فانه مقبوح باطنا وظاهرا فدخوله فى ميدان الجمال والتكلم فيه من أكبر الاغلاط التى وقع فيها فانه دخل فيما هو أجنبى عنه ، ولهذا كان كلامه فيه متهافتا متناقضا منعكسا لأنه دخل فى شيء لا يعرفه ولا يفهمه كشأن كل داخل فـيما لا يعرفه ولا يفهمه ، فتجب مجاهدته ودفاعه والحيولة بينه وبين هذه المباحث الجليـلة الجميلة لـكيلا يلوثها بقذارته وقبحه بما يعلقه عليها من هـذه الافكار الخبيثة

فصل

ثم رجع واطال فى ذم الفقر والوساخة والبؤس وأكثر من الاستدلال على حب الجمال والنظافة ، وكل هذا لا محل له ولا وجه للاطالة فيه ، لان المسلمين لم ينكروا حب الجمال واجتناب الأوساخ وحب العلم والعمل ، وتقدم الكلام عن مثل هذا مرارا . ثم انه بعد أن فرغ من هذه اللجاجة فيما علقه على حب الجمال من كونه تعالى يحب الجمال المادى - كما يقول - أخذ يتفلسف فى تحليل خلواته ﷺ بربه وعبادته له ، فجمع بين الجرأه على الله ورسوله فقال « ويشهد لذهابه (يعنى النبى عليه السلام) فى حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائما يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها . ها إننى أراه الآن عليه السلام متسللا من مخدعه نصف الليل أو بعده قليلا أو قبله قليلا بعد أن عقد الكرى على الأجفان ، وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله ، وها هو ذا مسرع الى الخروج من المدينة تاركا وراءه المبانى والبيوت ميمما البقيع أو غيره ، ثم هو ذا شاخص ببصره النافذ الى السماء الصافية والى ما انتظم على صفحتها من نجوم متـــلألئة تبعث الهدوء والاشراق الى العقل والى القلب . انه واقف فى الظلام الرائع ، ان النسيم الخفيف اللطيف ليمر على وجهه المشرق بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء . انه فى الصحراء . انه يناجى السكون والظلام والنسيم والسماء (١) انه يخاطب ما حوله بلغة فوق الحروف والألفاظ (٢) . انها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف . انه يرى كل شىء جميلا لانه هو جميل . انه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه

---

(١) من الذى أخبرك أنه يناجى السكون والظلام والنسيم الى آخره

(٢) من الذى علمك اياها حتى درستها وفهمتها ثم ترجمت عنها ، فان مثل هذا لا يعرف الا بالوحى ، فهل أوحى اليك بذلك

ومزاجه . انه لا يرى هناك قبيحا لان نفسه ليس فيها قبيح والمرء انما يرى الاشياء بنفسه وطبعه ، فكن جميلا تر الوجود جميـــلا . انه يرى فى الـكواكب فوقه الاشراق والارتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الـكبيرة بهذه المعانى ويذهب تصوره لها الى أن رسالته يجب أن تشرق اشراقها وترتفع ارتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم انتظامها . انه يغمره من هـــذا الاشراق والارتفاع والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والموانع . انه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقدا أنه لا شىء يستطيع أن يقف فى طريق الجمال الذى تزوّد به ما شهد ورأى والذى قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه الى الوجود . انه رأى قمرا واحدا وسع نوره الـكون وشهد سمـــاء واحدة قد أظلت الوجود ، وانه الآن ليرى قلبا واحـدا يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة . انه يشاهد انسانا واحدا يقدر أن يحمل هذا القلب . ها هو ذا قافل وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هى على الدنيا . انه لا يستطيع فراق الطبيعة [١] لأنه لا يستطيع فراق الجمال ، ان كل شىء فيها يروعه جمالا ، وان الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والـكواكب والنجوم والـكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبـال والسهول والأنهـــار [٢] والغدران وكل النبـات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك ، ان كل شىء من هذا ليأخذ بلبه وببصره [٣]

---

(١) هنا وصل الهدف ، فالجمال الذى يدعو اليه ويمدحه جمال الطبيعة اى جمـال المادة والا فجمال الايمان والاعمال ليس عنده بشىء

(٢) ليس فى الحجاز ولا فى المواضع التى أتاها عليه السلام أنهار البتة

(٣) اذن فالرسول كالطفل دائما فى روعة ودهشة ، اذا كانت هذه الموجودات كلها تروعه فليس فى الزمان لحظة واحدة تخلو من هذه المظاهر الطبيعية . وقد تقدم ما ذكره عن الانسان الأول أنه يهرب من كل متحرك مضطرب ، ويعبد كل متحرك مضطرب ، وهنا ادعى أنه عليه السلام دائما فى روعة ودهشة مأخوذ بلبه وببصره بسبب هذه المظاهر ، أما التوجه الى الله فانه أعرض عنه ولم يلتفت اليه

ويلهمه الجمال ، لقد وسعت روحه الوجود كله »

والجواب ان يقال : ليتأمل المسلم العاقل هـذا الكلام من أوله الى آخره ولينظر الى هذه القحة والجسارة المرذولة التى لم يسبق اليها ، وحسبك دليلا على بطلانها أن كلامه هذا تضمن أن هذا الرجل علم مافى نفس الرسول ﷺ وما يخطر على باله وما يخالج ضميره وما توسوس به نفسه ، لأنه أخبر عما تكنه الضمائر وما يجرى فى الخواطر ، فان هذه الأمور مما لا يطلع عليه الا الله كقوله « انه كان دائما يحتضن الطبيعة ويحنو عليها » فأين دليله على هـذه القولة الكاذبة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا . ولم نعلم أحدا من كفرة الأولين والآخرين اجترأ على هذه الدعوى فادعى أنه عليه السلام كان يحتضن الطبيعة وأنه لا يستطيع الخروج عنها وأنه يحبها لأنه يحب الجمال ، وكقوله « فيخفق قلبه بالسرور والرضا » وكقوله « انه يرى كل شىء جميلا لأنه هو جميل ، انه يدرك جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه ، لانه لا يرى هناك قبيحا » وكقوله « ان كل شىء فيها يروعه » الى قوله « وكل شىء يأخذ بلبه وببصره » فكل هذا بهت للرسول عليه السلام وجرأة على مقامه الكريم ووقاحة زائدة وفضول لا يتكلم به من له أدنى مسكة من عقل . وقد عاتب الله الذى يرفعون أصواتهم فوق صوته وأخبر أن ذلك من أسباب حبوط العمل لأن ذلك دليل على عدم هيبته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه واحترامه ، فكيف بمن يترجم عما فى ضميره ويدّعى عليه بأنه يحتضن الطبيعة وأن كل شىء يروعه ويأخذ بلبه ولا يستطيع فراق الطبيعة ، يقول ذلك بمجرد ظنونه الخاطئة وأفكاره الفاسدة ، وكل هـذا الكلام الذى ذكره هنا يتضمن أنه عليه الصلاة والسلام كان يعبد الطبيعة ويتعشق مظاهرها ويهيم بها فى خلواته وأنه دائما موجه فكرته اليها معلق آماله عليها ، ولهذا قال فيما يأتى « انه بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها » الخ وهذا كله صريح الكفر بل خلواته ﷺ هى فى التفكير فى آيات الله والأنس بربه وذكره وتسبيحه

وتقديسه والتوجه اليه ومناجاته ودعائه والتضرع اليه سبحانه وتعالى كما دلت على ذلك الاحاديث الصحيحة فى الأذكار وغيرها . وهذه المقالة انما يذهب الى بعضها ملاحدة الاتحادية وأمثالهم من زنادقة الفلاسفة ، وانما اتصلت اليه من طريقهم . والعجب أنه ترك ذكر صلاته فى جوف الليل ودعائه وتضرعه الى الله ، مع أن قيامه وصلاته ودعاءه بالليل كان معتادا ، بخلاف خروجه الى الصحراء . ولكن لما كانت هذه العبادات تناقض دعوته أعرض عنها وذهب يتفلسف ذلك التفلسف الفارغ لاجل أن يظن أنه بهذا على شيء من التحقيق

فصل

ثم قال « لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء ، وختمها بمناجاتها أيضا وهو فى حجرة عائشة بينما كان يجود بانفاسه ، فلقد كان فى تلك الساعة شاخصا ببصره الى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ، ويقول : اللهم فى الرفيق الأعلى »

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى البهت والكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان يصرف آماله ويوجه همته دائما الى الطبيعة ، وكل هذا دعاية صريحة الى التعلق على الطبيعة وعبادتها ، فلم يكتف بالدعوة اليها حتى تجاوز الى نسبة الرسول عليه السلام الى كونه لا يستطيع فراقها وأنه دائما يناجيها ويخاطبها ويتعشقها وأنها تروعه وتأخذ بلبه وتلهمه الجمال . وهنا صرح بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يخلو بربه ولا ابتدأ رسالته بمناجاته ولا كان يناجيه بالدعاء والذكر والتسبيح والتكبير والتحميد والاستغفار ، وانما كان كالفيلسوف الطبيعى الذى قصر همته على التفكير فى الطبيعة ومظاهرها ، فهو يناجى الطبيعة ويخلو بها ، وهذا يتضمن أنه كان يعبدها ، لأن العبادة ليست بأكثر من التوجه والمناجاة والخلوة وتعليق الآمال ونحو ذلك ، فهذا هو روح العبادة ، وليس وراء هذا القول كفر وزندقة . ثم العجب من

دعواه أنه ختم رسالته بمناجاة الطبيعة أيضا ، واستشهاده على ذلك بقوله « اللهم فى الرفيق الأعلى » فهل قال « يا الطبيعة فى الرفيق الأعلى » حتى يكون شاهدا لما ادعاه . بل هذا يتضمن أن الله تعالى هو الطبيعة بمقتضى استشهاده . ثم من أين لهذا الملحد أن نبى الله ﷺ كان يناجى الطبيعة ، فان هذا لا يخبر به إلا من حضره وشاهده ورافقه فى خلواته أو ثبت ذلك بطرق متواترة فان ادعاء مثل هذا أمر كبير عظيم فى الأمور الدينية لا يجترىء عليه إلا من لا يعبأ بالديانة ولا يحترمها كهذا الملحد ، فكيف يجوز له أن يتفوه به بمجرد أن خطر على باله بدون نظر الى ما وراء ذلك من الخطيئة الكبرى دينا ودنيا . ثم قوله « فوق غار حراء » خطأ آخر مركب على ما قبله ، فالمعروف فى الصحاح وغيرها فى غار حراء لا فوقه ، وفرق بين هذا وهذا ، وبطلان مثل هذا أشهر من أن يطنب فى رده .

فصل

ثم رجع الى مدح الجمال المادى وذم الفقر والمرض والجوع لأنه وجد هذه القشور المنبوذة تراثا رخيصا فى إمكانه أن يحشو كتابه الذى هو أغلاه من هذه البضاعة ، لهذا أخذ يلعب فى هذا الميدان الواسع كيفما أراد ، وقد نقل هنا عبارات للصوفية أكثرها لم يبين قائلها ، وقد وجد كتب الصوفية ملجأ مستطابا له يلجأ اليه اذا احتاج الى شبهة يرمى بها الاسلام ، وقد بينا مرارا فيما سبق أن المسلمين برآء من كل ما تقوله الاتحادية وأنه هو أولى بهم ، ولو أن يهوديا احتج علينا بكلام هذا الملحد فى الاسلام والمسلمين واستدل به لكان احتجاجه من جنس احتجاج هذا الملحد بكلام الاتحادية بمجرد أن كلا منهما يدعى نفاقا أنه مسلم ، لكن الاتحادية أحسن حالا من هذا بكثير كما نبهنا على هذا فيما تقدم ، واذا كان ناقما على هؤلاء الصوفية فى دعايتهم هذه ، فمن الواجب عليه أن يفرد لهم تأليفا منفردا ويوجه اليهم الذم ويرد عليهم

بالأدلة الصحيحة لا بمجرد الاستهزاء والتهكم ، ولـكن هو أحقر وأصغر من أن يرد عليهم ، فانهم أكبر عقولا وأصح آراء منه ومن أمثاله ، وانما غايته أن يشابههم فى حثالة فكرة من أفكارهم ، وهم لم يتجاسروا أن يتفوهوا بمثل ما تفوه به ، فان غاية ما يعارضهم به أن يثبت ضرر الجوع وهم فى امكانهم أن يثبتوا ضرر التخمة وكثرة الخلط . وكذلك الفقر فى امـكانهم أن يثبتوا ضرر الجشع والطمع والشح على الدنيا والتخبط فيها وأخذها على غير وجهها وأن يستدلوا بالنصوص والاضرار العظيمة التى حصلت بسبب ذلك . وأما المرض فلم يمدحه أحد وفى إمكانهم أن يعارضوه بأنه حث على أسباب الأمراض المعنوية والمادية فان كتابه هذا كله فى الحث على الأمراض ولا سيما أمراض القلوب لأن مرضها من أعظم أسباب مرض الأبدان ومرضها هو الضرر الحقيقى وهو الداء العضال ، ونحن قد سلكنا المسلك الأوسط فى هذه الأمور على ما بيناه فيما سبق

ثم ذكر أن التعاليم الفاسدة أو الصحيحة إذا تعلمها الصغير فانها تنتقل الى خزانة العقل الباطن وتنطبع انطباعا شديدا جـدا فتظل مهيمنة عليه بحيث يكون كالمستحيل عليه الخروج منها ، وهذه الدعوى باطله على هذا الاطلاق ، فان الله سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لجميع النـاس صغيرهم وكبيرهم ، فلو كانت التعاليم على حسب ما ذكر لم يستجب للرسل أحـد من الكبار والشيوخ وأمثالهم ، وهذا خلاف الواقع ، فقد علم بلا أدنى شك أنهم قد استجاب لهم أناس كثيرون من سائر أصناف بنى آدم من صغير وكبير إلا من حق عليه القول ، وكذلك الدعايات فانهـا تؤثر فى الكبار كثيرا والتائبون من الكبار لا يعدهم ولا يحصيهم الا الله ، وكذلك المرتدون - وهذا الملحد منهم - أكثر من أن يحصوا ، وهـذا الرجل مكث ماشاء الله على ما يدعى من أنه تعلم الدين الصحيح فى صغره ومكث مدة طويلة ثم انقلب على وجهه هذا الانقلاب المفاجىء المنكر الذى لم نعلم أحدا من العالمين سبقه

الى مثله ، فانه يوجد من ينقلب من بدعة الى بدعة أو من حق الى بدعة أو من ملة الى ملة أخرى كاليهودية والنصرانية ، ويوجد أيضا من يرتد مطلقا ولكن لا يتعرض للأديان ، أما هذا فانه تجاوز هذه الحدود كلها فلم يقتنع بالردة من دين الى آخر ولا بالردة مطلقا بل كفر ونافق وألحد وحارب الله ورسوله والمؤمنين بمحاربة الاديان كلها حربا لم يعمله أحد فيما نعلم من الملحدين الهدامين ، ولهذا كان عند أولى العلم من أعداء الأديان الباذلين ما فى وسعهم لازالتها وإماتتها وهدمها ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

وبالجملة فما ذكره من تأثير التعاليم فى حالة الصغر وأن الصغير لا يقدر أن يتخلص بعد ذلك من تعاليمه غير مقبول ولا معقول لما ذكرنا . ونحن لا ننكر تأثير التعاليم فى الصغر فى نفس الانسان فى الجملة ، لكن ننكر حكمه على أن الخروج منها مستحيل او كالمستحيل اقتداء بما زعمه أن سادته علماء النفس قرروا ذلك فقدم قولهم - لو صدق - على الشرع والعقل والحس والضرورة ، وهذا واضح ولله الحمد

فصل

ثم ذكر شيئا عن حالته السابقة قبل أن يعمل أغلاله التى خنق بها ، وقصده وغرضه من هذا تصوير حالة المؤمن القانع بما آتاه الله ، ليوهم الأجانب ومن لم يعرف الدين أن المؤمنين هذه هى حالتهم ليكرهوا الايمان وينفروا منه ويمقتوا أهله ، فهو يتوسل بكل ما يقدر عليه فى التنفير عن الاسلام والقدح فيه وفى أهله ولو بالحكاية عن نفسه والقدح فيها فقال :

« ان ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة (١) تعاودنى كلما مرّ بخاطرى عصر مشئوم قضيته مسحورا بهذه الآراء ، كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة

(١) الآن ذقت المرارة والحسرة والخسارة

الحياة . لقد كنت لا أجد ما يحملني عـــلى أن أرفع قدمي لو علمت أني اذا رفعتها تكشف ما تحتها عن أعز ما عليه يتقاتل الاحياء ، وقد ضاعت على من أجل ذلك فرص كان يمكن الافادة منها لا يمكن استرجاعهـــا . كان الغرور الديني (١) قد افسد عـلى كل شعور بالوجود وبجماله ، وكنت مؤمنا بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمـال كلهـا ولمـا وجد العالم بدا من أن يخرب (٢) كنت أنظر الى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلهـا بعين أقل ما فيهـا الاحتقار والاستصغار ، وكنت لا أبالي بأحد مهما كان عظيما ومهما كان قادرا على النفع والضر ، وما كنت أفكر في أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو الاتصال به (٣) وكنت لا أخالق إنسانا رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله ، وكان شعاري في تلك الفترة قول ذلك المغرور المخدوع مثلي :

اذا صح منك الودّ فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب
فليتك تحـــلو والحيـاة مريرة   وليتك ترضى والأنـام غضاب
وليت الذي بيني وبينـك عامر   وبيني وبـين العالمـــين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين وأن جميع ما فوق التراب وما في العـالم من جمال وطيبات وحاجات ومن أقوام وأمم وشعوب تراب ، وكنت لا أبالي أن يحـلو شيء من ذلك أو يمـر ولا أن يرضى ويغضب ولا أن يعمر ويخـرب كما يقول هـذا الشاعر المسكـين ، وكنت أرى أني بذلك أرضى الله وأني اذا أرضيته فلن يضرني شيء ، وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير

---

(١) هنا اعترف بان حالته الأولى كانت على غرور ديني

(٢) لعلك انما تحللت من دينك لتعمر العالم ولتصنع الحياة كما تدعى أن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة

(٣) هذا مجاهره بالكذب ، فانه في تلك السنين كان يعمل في التملق والتردد على أبواب الاغنياء وذوى السلطة دائما من أجل أغراضه الدنيوية

أن أدور معها أو أحس دورانها ، وكان يخيل الى والى غرورى الدينى الأعمى أنه لا قوة كقوتى لأن الله معى واهب القوى (١) فليقو العالم كما شاء وليجمع من الأسباب ما طاب له وليحاول من أجل نفسه ما يحاول ، فان ذلك كله لا قيمة له ولا خطر بالنسبة الى قوة من استقوى بطاعة الله ، ومن ترك الأسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها ، وكان يبدو لى أنه بقدر ايمان الانسان بذلك وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والانسانية كلها وبقدر استصغاره لها واحتقاره اياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها بل سبها ولعنها يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه ، وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط بى وتعلو وتجعل لى وجودا خاصا وعالما خاصا ودنيا خاصة تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضا ، واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب له على حسب ما يظن كل ما يريد ، ولو كان فى جملة ما يريد اعزاز الأمم واذلالها » انتهى

والجواب أن يقال أولا : ان أكثر ما ذكره هنا عن حالته السابقة كذب ظاهر تكذبه أفعاله وأقواله الصادرة منه فى ذلك الحين ، وانما قصد بهذا تشويه حالة المؤمن القانع عند من لم يعرف الايمان والقناعة ، وحسبك دليلا على فجوره فى هذه الدعوى سيرته مع أمه وعقوقه لها وعدم صلتها بشىء لا قليل ولا كثير بل ولا رسالة واحدة ما ينيف عن ثلاثين سنة مع أنه أخذ مدة طويلة وهو يستلم رواتب وغيرها بل كان مشغوفا متهالكا على حب المادة

---

(١) ولكن الآن يخيل اليك والى غرورك الالحادى المعكوس أن لا قوة كقوتك ، لانك قررت بأن فى الانسان استعداداً ذاتيا فى إمكانه أن يصل به الى كل شىء وأن يتغلب على كل شىء كما تقدم ، فغرورك معك انما بدلت متعلقه وهو الدين كما تزعم بالالحاد . ولعل هذا الخيال مما حدا بك الى تأليف هذا الكتاب لتتخذ زعيما على الأقل للعروبة

الى حد بعيد عند كل من عرفه ، بل كان معروفا عند كثير من المطلعين على حالته بانه كان يؤجر نفسه فى انشاء المقالات يعرض بها للناس بالنقد والسباب وقد اشتهر ما عمله قبل ردته بسنة حين وصوله الى الحجاز من اللجاج والتملق والمصانعة الزائدة واستعمال ما أمكنه من الوسائل فى التوسط له بادخاله احدى الوظائف العلمية ، فلما أخفق عمله عمل مافى وسعه فى طلب زيادة راتب فعمل من المزاحمة والملق والتذلل مالا يحتاج الى شرح طويل فان شهرته فى ذلك تغنى عن التطويل

ثانيا : على فرض التنزل معه نقول أظهر ما ذكر عن نفسه فى هذه الجملة القناعة فقط ، ولكنها مدخولة بشىء كثير من العجب وفساد الاعتقاد والزهو . وهذه الآفات كثيرا ما تظهر فى ملامح كتبه ومقالاته كلها ، وقد ازدادت هذه السجايا فى نفسه حتى انفجرت عن هذا البركان الذى تلوثت به ثيابه اللامعة وصحابه وجميع من حوله ومن اتصل به ، فهذه الأغلال هى ثمرة هذه السجايا الكامنة العريقة فيه ، ولا شك أن نظريته التى ذكرها عن نفسه فى زهده نظرية باطلة فالمؤمن القوى الايمان يجب أن يكون على حذر من مكر الله ، ويجب عليه أن لا يعتمد إلا على الله سبحانه وتعالى ، وأن يعلم أنه مأمور بفعل الأسباب التى تقيم دينه ودنياه ، وأن يعلم أن الله تعالى سيعينه متى صحح نيته وأخلص عمله ما لم يكن هناك مانع من جهة العبد ، أما أنه يشتم الدنيا ويلعنها ويعتقد أن فى وسعه أن يفعل الله له فى هذه الدنيا كما يريد ولو كان من ذلك إعزاز الأمم وإذلالها فهذا لا يعتقده إلا جاهل مغرور مثله ، ولهذا كان مصحوبا بالغرور فى حياته كلها ، فهذا الغرور الذى انتقده على نفسه هو معه الآن ، وانما ألقى الأخلاق الدينية فقط (١) وأبدلها بأخلاق إلحادية ، فتلك الاخلاق انعدمت حين لوثتها قذارة الغرور والكبر والاعجاب ، وكانت تلك

---

(١) أى إن كان ثم شىء

الأخلاق الضئيلة المدخوله ممسكة له عن السقوط ، فلما ذهبت أثقلت دماغه هذه الاخلاق الباقية معه فسقط منكسا على أم رأسه فى هذه الهاوية السحيقة والعياذ بالله . وكذلك ما ذكره أيضا من القناعة ورضاه بالعيش والطمأنينة والراحة - لو صح - فهو لأن نفسه كانت مرتفعة بقدر ما معها من الايمان ، فلما ذهب ذلك الايمان انحط وأخلد الى الارض فأصابه ما أصاب الذى يلهث على الدنيا بهذه الشدة الغريبة والجشع الفظيع ، فاستعاض عن الايمان بالالحاد ، وعن القناعة باللهث والجشع ، وبقيت معه طبائعه القديمة من الغرور والعجب واسفاف النفس وفساد الاعتقاد ، فازداد رجسا الى رجسه نسأل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال « وكانت الخطب الاسبوعية التى أسمعها والعظات الأخرى المتجددة المتكرره المستمرة والكتب التى أقرأها لا تدع فرصة لى لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة (١) فى أعماق النفس وفى ثنايا الوجود الانسانى التى تدفع الى العمل والى حب الحياة ، وكانت تلك الغرائز والطبائع والمعانى الانسانية عندى معقلة لا تستطيع الانبعاث ولا الانطلاق ولا العمل ، كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات (٢) وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تخديرها مستمرا مضمونا متجددا ، فالطبيعة الانسانية تأبى الشقاء والبؤس وتأبى أن تبقى مستذلة راضية (٣) مستسلمة لذلك إلا اذا أمكن أن تعقد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو

---

(١) قد ذكر أنها شريرة خبيثة كما تقدم

(٢) تأمل هذا ، فهل اجترأ أكفر كافر على مثل هذا القول

(٣) نسى دعواه أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم شيطان جاهل

تنويم صناعى أو شىء آخر من تلك العمليات المبيدة . وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية لانها لتكررها لا تترك فرصة لانطلاق معنى طيب من معانى الانسانية » انتهى

قلت قد تقدم له شىء من الكلام فى سب الخطب ، ولكنه لم يشف غيظه فأعاده هنا بما به من قلق الخبث والحقد على الدين وأهله ، وقد أطال الكلام فى سب هذا المظهر الأعظم الاسلامى ، وأفرغ جميع ما يحمله فى صدره من القبيح والعداوة المنكرة ، وهذا الملحد مصاب - كما قلنا غير مرة - بانقلاب القلب والفكر والرأى والقول والعمل ، ولهذا فانه يأتى الى الأمور التى هى أوضح من الشمس ضحوا فى نصف النهار فينكرها ويكابر فى جحودها ، كمثل ما ذكره فى هذه الجملة الخبيثة من ان الخطب فى المساجد تخدر عن العمل ، وقد علم بالضرورة والمشاهدة أنها هى التى توقظ الطبائع وتنفخ فيها روح القوة والنشاط والحماسة الحادة ، فهؤلاء الذين يصلون الجمعة ويستمعون الخطب أعظم الناس شجاعة وقوة وثباتا وقياما بالأعمال وأشدهم مكافحة للأسباب القائمة ضد أعمالهم ، وان أولئك الاباحية الذين لا يحضرون الخطب أيام الجمع هم أعجز الناس وأكسلهم وأوهنهم ، فلا تجدهم الا فى مواضع الرقص والخلاعة وأنواع الملاهى ، فلا يعملون أعمالا دينية إلا مدفوعين اليها دفعا ولو تركوا لما عملوا أعمالا نافعة أبدا ، ولهذا لا يوجد التخنث والجبن والوهن والكسل إلا فيهم ، واذا أردت تحقيق ذلك فانظر الى الذين يعتادون المساجد والى الذين يعتادون مواضع اللهو وانظر الى أيهما أنشط وأقوى قلوبا وأعز أنفسا . ومن أعجب العجب أن هذا الزنديق قد أبصر ورأى هؤلاء الذين يشربون الخمور وأنواع المسكرات والمخدرات فى الفنادق ومواضع اللهو والغناء فلم يتكلم فيهم بشىء ، بل أشار الى الرضا عنهم مع كثرتهم وفسادهم وعموم ضررهم ، وعمد الى هؤلاء الأقوياء النصحاء الأقلين الذين يصلون الجمع ويستمعون الخطب التى تشتمل على ذكر الله ودعائه

وتقديسه تعالى فتوقظ حرارة الايمان وتلهبها وتبعث القوى النفسية فادعى أنها تخدر، مع أن هؤلاء هم الذين ينفعون الأمة دائما فى جميع مواقفها، فهو ينظر الى الخمر والمخدرات فيسكت عنها ويعمد الى ضدها فيدعى أنها تخدر، ولا عجب فليس ينتظر من الملحد الاباحى أن يقول: هؤلاء المسلمون الذين هم أعظم الناس حضورا للخطب والاستماع لها هم أشد الناس مناعة وقوة فى جميع الأعمال التى يباشرونها، بخلاف المارقين فانهم أسأم الناس وأخونهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم. ثم ما هو وجه التخدير وما كيفيته، هل هو السكوت لاستماع الخطب، فالسكوت لا بد منه سواء كانت الخطب دينية او دنيوية فى الجمعة أو غيرها، بل لا بد لكل سامع كلام من الانصات وإلا فلا فائدة لكلام المتكلم، أو هو شىء آخر فلِمَ لم تبينه، وإنما مرادك التنفير والتشويه. واذا كان هذا الملحد قد عرف هذا من نفسه وأن مواعظ الشرع فى منابر المساجد تخدره لان نفسه سريعة الانحدار الى ما يلائم أخلاقها، والخطب تخدر أحاسيس الشر والغرور والاعجاب والزهو، فليس له أن يقيس الناس على طبعه، فان الناس لو كانوا مثله لكانوا زنادقة ملاحدة إباحية، ولا شك أن هذه الاخلاق الخبيثة لا تلائم الخطب بل تمنعها وتعقلها وتمسكها عن التدهور بصاحبها، وهذا كما يفعل الصبى الذى ينطاق أمام شهواته فيمنعه أبوه أو ناصح له فيظن أنه يعقله ويمنعه عن شىء مستحسن، وهو انما يمنعه عن الشر والسقوط ويدفعه الى العمل النافع والآداب الصحيحة

وقوله «كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات» هكذا ادعى الملحد مجاهرة على رءوس الأشهاد فى وسط هذه الامم التى تقدس هذا المظهر الذى هو أعظم مظهر دينى إسلامى أسبوعى، فجعله إحدى النكبات بدون جمجمة ولا تكتم ولا خوف ولا حياء، فواغوثاه

حقا لقد هزلت وقام يسومها ... نذل غـبى غافـل متغال

وهل هذا إلا من أعظم الأسباب التى أوصلت المسلمين الى هذه الحالة،

وأى كفر فى الدنيا أظهر من هـــذا الكفر . ولا شك أن الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات عليه وعلى أمثاله من الملاحدة ، فانها هى التى أحرجت صدورهم وأذاقتهم عظيم البلاء ومرارة العناء لانها ضد اعتقادهم وضد مقاصدهم بل هى حربهم ، فان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، ويحبون الانطلاق فى ميادين الاباحية المطلقة والصد عن سبيل الله ، وهذه الأمور لا تتفق مع الخطب فهى إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، ولهذا كانت حربا مستمرا متجددا مضمونا لهؤلاء الأغبياء والأشقياء الهدامين لانها تحذر عن الاباحية وتحافظ على تقويم الفطرة وتصفيتها وصقلها وتحذر عن الشهوات واتباع الهوى ، فهى الدواء الوحيد لهذه الادواء القاتلة ، ولهذا شرعها الله تعالى فى كل أسبوع لطفا وحفظا لعباده وحماية لهم عن السقوط فى دركات الخبائث والرذائل التى يحاول كل زنديق ملحد أن يدفع كل ضعيف فى هاويتها . وحاصل ما ذكره عن التخدير ، وتطويله فى ذلك ، أن الخطب تمنع اندفاع الطبيعة عن قضاء وطرها من عمل وشهوة ، وقد سبق كلامه أن الانسان خلق شريرا خبيثا ظالما وأنه ان لم يعلم نشأ على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، وأن ما به من الخير والاحسان فهو مكتسب من الأديان ، وأن المجردين من الأديان ينشأون على الشر والخبث ، وهنا يدعى أن الخطب تخدر عن انبعاث الطبيعة على العمل ، فانظر الى هذا التناقض المنكر . وقد بينا فيما سلف أن الانسان له طبيعتان طبيعة عقلية فطرية حنيفية وثابة تطلب العمل النافع والنشاط فيه ، وتمنع ما يعوقه عن ذلك من العجز والكسل والشهوات البهيمية التى هى أسباب الوهن والفتور وضعف الهمة ، فهذه الفطرة موافقة للخطب وهى لها بمنزلة المادة الصحيحة التى تمدها عن الفتور وتنشطها وتلهبها وتدفعها الى الأعمال النافعة الناجحة البارعة القوية ، وأما الطبيعة الثـــانية فهى مكتسبة منحطة سببها حب الشهوات والتعلق بالشبهات ، وهى تبعث على المفاسد وحب الراحة والعجز والكسل والجبن

والفتور وقضاء الشهوات النفسانية ، وهى تضاد الطبيعة الأولى وتضاد مقاصد الخطب فلا تتفق معها فهى مسلطة عليها وهى أعظم أعدائها فانها تعقلها وتصادمها وتمنعها عن مقاصدها فهى إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، وخليق بأهل هذه الطبيعة أن يعادوا الخطب ويعادوا أهلها ومن قام بها ، لأن التباين والتضاد فى المقاصد والآراء وغيرها هو أصل المنافرة والمعاداة فى كل شىء

فصل

قال « ان القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة فى خفية وعلى حذر ، ولكنها تبيح تخدير الآلاف بل مئات الملايين فى المساجد والجمعات كل أسبوع بل كل يوم أحيانا ، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا بل وتجازيهم وتوظفهم وتقطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية [١] وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها » انتهى

والجواب أن نقول : اذا كان الحال ما ذكرت فنحن ننبئك بما هو أعجب مما ذكرته ، ذلك أن القوانين تعاقب أشد العقوبات من يحاول العبث بنظامها ودستورها الذى تمضى عليه أحكامها وتنزل به أفدح العقوبات اذا حاول قلبه رأسا لعقب ، وتعاقب أيضا أشد العقوبات من يقف ازاء مبادئها الأساسية المحترمة ، وتعاقب كذلك من يشتم أديانها ويطعن مجاهرة فيها ، ومع هذا كله فقد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن هذه الأمور كلها قد اجتمعت فيك وصدرت منك مجاهرة على رءوس الاشهاد ، ومع هذا كله تركتك وأهملتك وغضت الطرف عنك وعاملتك بخلاف أوضاع قوانينها ودستورها الذى تجرى

---

(١) هذا برهان على أنها ليست من التخدير فى شىء ، وأنه لم يرها تخديرا غيرك ، وان هذا برهان على ضلالك

أحكامها عليه ، فان كانت فى إكرامها لهؤلاء الذين يذكرون الله ويدعونه على المنابر فى بيوته التى أذن أن ترفع ويصلون له فيها ويعبدونه مناقضة مع أنهم أحق الناس كلهم بمال الله الذى تفضل به على عباده فانه انما أعطاهم ليعبدوه فهى - أى القوانين فى ترك من حارب الله ورسوله والمسلمين وشن الغارة على هذه المبادىء المقدسة - أعظم تناقضا ، وان لم تكن متناقضة بطلت دعواك .

ونحن لا نشك كما لا يشك غيرنا من المسلمين أن المقصود من كلامك هذا هو الحث على محاربة هذه العبادات ومطاردة أهلها ، وان مغزى هذه الدعوى هو مغزى قول الذين قالوا لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا قال تعالى ﴿ ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ والمسلمون كلهم على اختلاف مذاهبهم من أولهم الى آخرهم يعلمون ويعتقدون أن خطب يوم الجمعة من أعظم واجبات الدين كالصلاة بلا فرق وهى من أعظم شعائره وانها فرض لازم من فروضه وأركانه اللازمة ، فمن قدح فى الخطب والخطباء وطلب ازالتها وطرد أهلها وجعلها بمنزلة الخمر أو الحشيش فقد صرح بأنه يجب رفض الدين ومجاهدة أهله وتعذيبهم ، فان هذا من أعظم مظاهره ولا سيما مع ما تقدم من دعواه أن الدعاء مصرف خبيث ، ومعلوم أن الخطب تحميد وتشهد وصلاة على النبى ﷺ ومواعظ من القرآن والسنة وما يتضمن ذلك ، وهذا كله موجود فى القرآن وفى الصلاة وفى جميع العبادات ، وهذه المصاحف قد ملأت اكثر الأمكنة فليطلب تحريقها اذن ، فان من قدح فى هذه المظاهر فلا شك أنه قادح فى الاسلام مجاهرة ، وكلامه من أول اغلاله الى آخرها يدور على هذا القصد الملعون ، وليت شعرى كيف تجاهل هذا الخبيث مافى مواضع اللهو من الغناء والاستهتار والفجور والخلاعة وما فى بيوت السينما من هذه الأمور التى لا تعد ولا تحصى وما تنشره المجلات والجرائد اليومية والشهرية والاسبوعية من الحث المتواصل على الفسوق والفجور وضروب المفاسد التى تفوت الحصر بصورها ومقالاتها ، لِمَ لم يدع

فيها مثل هذه الدعوى وهو يعلم حقيقة العلم أن الذين شغفوا بهذه الامور أكثر من أهل المساجد والمنابر وأن هذه تستغرق الوقت كله بدون نتيجة مثمرة [١] ـ نعم ان سكوته عنها بل ترغيبه فيها وتحامله على أهل المساجد والمنابر من أعظم البراهين على خبث طويته وأنه أعدى عدو للاسلام وأهله وأنه عمل هذه الاغلال خدمة لاعداء الدين واتباعا لهواه وشهوته وانخراطا فى سلك الملحدين الهدامين المعتدين

فصل

ثم قال « لقد أريد أن تؤدى المنابر والمساجد أعظم المنافع للانسانية ، فأدت شر ما يؤدّى ، أريد منها أن تحي فأماتت ، وأن تعز فأذلت ، وأن تهدى فأضلت ، وأن تبعث على العمل فبعثت على الكسل ، وأن تمدح الحياة فامتدحت الموت ، وأن ترفع من شأن الجمال وتحببه فرفعت من شأن الدمامة وحببتها اليها [٢] وأن تملأ النفوس بالحقائق فملأتها بالأوهام ، وأن تخلق شعوبا متوثبة فخلقت شعوبا خاملة عاجزة تنتظر وجودها وحياتها من خارجها لا من أنفسها ، معلقة أبصارها دائما بالسماء ، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل ، ولا تنظر الى نفسها والى طبيعتها [٣] فاقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل »

فيقال : ايه ، كل هذا عندك ، كل هذا أنت مضمره من هذه السنين الطويلة ، لقد تكلفت أمرا كبيرا ، وكيف ضم صدرك هذا القيح كله فى هذه

---

(١) بل تميت أخلاق الرجولة والكرامة والحياة موتا لاحياة بعده صحيحة

(٢) قد علمت مما مر أن الدمامة والجهل والموت هى عنده علوم الدين ، فقبح الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

(٣) قد تقدم قوله ان الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما ، فهل يريد أن تنظر الى هذه الغرائز . فقبحه الله ما أقذر كلامه

المدة ، فلا عجب اذن ان ذكرت فيما سبق أنك مكثت ست سنين كشبه مريض تشفى اذا حدثت فيها وتمرض اذا سكت عنها ، فلا بد اذن من إخراج هذا البلاء المضغوط الذى أكل صدرك وقلبك والا قتلك ، لقد خاب سعيك ولطم وجهك وساءت لك العقبى وأصبحت من الخاسرين ، لقد قذفت من حالق وتدهورت فى أشنع المزالق فلم يشف لك فؤاد ، بل زادك عذابا فوق العذاب ، حتى كنت أحقر من قمامة وأقذر من نخامة ، وازددت بذلك رجسا الى رجسك وبلاء على بلائك ، وما أخلقك بدخولك فيمن قال الله فيهم ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ﴾ وقد زاد فى هذه الجملة الحط على المساجد علاوة على المنابر فادعى أنها أدت شر ما يودّى . ومعلوم أن المساجد لا تؤدى الا الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى ، فانها لم تبن الا لذلك ، وكذلك المنابر فانها لم توضع الا لحمد الله والثناء عليه وتحميده وتمجيده وتقديسه والأمر بتقواه ، فهذا هو شر ما يؤدى عنده ، أما ما يجرى فى مواضع الملاهى من الغناء والرقص وشتم الدين والاستهانة بحرماته والفسوق والفواحش ونحو ذلك فهذا لا باس به أو هو خير مايؤدى لأنه أشار فيما سبق الى انتقاد من أنكر علم الشطرنج والموسيقى ، ولانه فيما يزعم فى مقام الدعاية فى مقاومة كل معطل عن العمل فلو كان فى ذلك أدنى شرّ لذكره أو اشار اليه ، وقد تقدمت دعواه أن تأخرنا ليس لفساد فى الاخلاق ، ومعلوم أن استغراق الأوقات فى هذه الأمور أعظم من استغراق أوقات ضئيلة على المنابر وفى المساجد ، وقد بينا فيما سبق أنه يريد بالموت والذل والضلال والكسل والدمامة والاوهام - الاخلاق الدينية ويريد بالحياة والعزّ والحقائق والعلم والجمال الانغماس فى قضاء الشهوات والانطلاق فى الاباحية وعبادة الطبيعة والمادة ، وخليق بمن هذا معتقده أن يحمل على الخطب فى المساجد هذه الحملات الجنونية لانها ضد دعايته وارادته وأفكاره فى أغلاله ، وقد ظن أنه بهذه الترهات والقحة الزائدة سيغير الخطب أو يزيلها ويشفى

غيظه منها وأهلها ، وهيهات وما كيد الكافرين الا فى ضلال

وهل حط قدر البدر عند طلوعه ‏ اذا ما كلاب أنكرته فهرت
وما ان يضر البحر ان قام احمق ‏ على شطه يرمى اليه بصخرة

وقد بين فى هذا وجه انتقاده على المسلمين فى خطبهم ، ذلك بأنهم يتوجهون الى الله تعالى ويلجئون اليه فى دعائهم ، ومعلوم أن هذا شامل الخطب الدينية كلها ، وقد أكد هذا بقوله ينتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لا من أنفسها وطبيعتها ، فكل من لم يطلب حاجته من نفسه وطبيعته فهو مؤد شر ما يؤدى وفعل ما ذكر من الشناعات ، وقد صدق فانهم فى الخطب والمساجد لا يعبدون أنفسهم ويسبحونها ويقدسونها ويصلون لها ، وانما يطلب المسلمون ذلك من الله ، وقد نسى هذا الملحد دعواه فيما سبق أن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما وأنه شيطان وأنه اذا تركها بدون تعليم ينشأ على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، فهو يريد بهذه الدعاية الخبيثة أن ينظروا فى خطبهم ومساجدهم الى أنفسهم وطبيعتهم التى صرح بأنها شريرة خبيثة ظالمة مطبوعة على العدوان المطلق فيطلبون منها الخير والوجود[1] وكل ما يؤمل ، ويعرضوا عن التوجه الى الله الذى له الكمال المطلق الرحيم الرءوف القدوس الجواد الكريم . فواغوثاه كم تضمن هذا الكلام من الخبث والكفر العظيم والدعاية الملتوية التى حقيقتها الدعاية الى الموت والدمار العاجل ، وهذه هى عادته يوجه أحدّ سهم لديه الى روح الدين وقلبه ، فهو دائما يصادم ويحارب الدعاء والتوجه والافتقار الى الله والاستعانة والاستغاثة به ، وهذا هو روح الدين ، ومع ذلك يصرف كل عنايته الى التوجه الى مالا يغنى شيئا مع تقريره أنه شيطان شرير خبيث ظالم فسبحان من قلب قلبه وجعله بهذه الحالة الممسوخة خبثا وقبحا . وياليت هذا الملحد صدق

---

(١) ما ندرى ما هذا الوجود

فى جملة الناس وأنهم جميعا على هذه الحالة فى الاعتماد والتوجه الى الله تعالى والاستعانة به فى كل أمورهم محققين ذلك قولا وعملا ، فانهم لو فعلوا ذلك لبلغوا آمالهم ، وانما جاءهم هذا البلاء من أجل ترك غالبهم تحقيق هذا التوجه الى السماء وتقصيرهم فى إخلاصه والمحافظة عليه ، اذ تفرقوا شيعا فبعض منهم قصد بحاجاته مخلوقات عاجزة عن دفع أضعف شيء عنها ، وقصد بعض آخر نفسه وطبيعته واعتمد عليها اغترارا بأمثال هذه الآراء السخيفة فترك الخطب والمساجد ، وانماع فى الملاهى وغيرها ، وظن المسكين أن توجهه الى خالقه وفاطره الذى بيده ملكوت كل شيء لا ينفعه ولا يجديه شيئا فاستصغر هذا الامر العظيم واحتقره ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . وهذا حال كثير من فروخ الملاحدة العصريين الذين شمخوا بأنوفهم عن التقيد بالتعاليم السماوية فكانت عاقبة هؤلاء أن لعنوا فى الدنيا والآخرة ولم يحصلوا شيئا مما راموه ، بل كانوا على أسوأ حالة وأخسر نتيجة وضل عنهم ما كانوا يفـــترون

وقوله « فأقبح بها من منابر ، أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل »

فيقال : اخسأ يا عدو الله ، ولن تعدو قدرك ، هذه نفثة مقهور وأنة معثور ، موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ، فان هذه المنابر المنيرة لتكونن شجى فى حلقـــك وقذى فى عينك وريبة فى قلبك الى أن يقطع الله دابرك . فيالله ويا للمسلمين من هذا الوقح الزنديق كيف يقبح أبرز مظهر دينى أسبوعى من مظاهر الأمة الاسلامية فى عباداتها مجاهرة ثم لا يرجم كما يرجم أمثاله من المعتدين . تالله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وتالله لقد اصبحنا بسبب ترك مثل هذا الوزغ شماتة للعدى ، فانا لله وانا اليه راجعون

فصل

ثم قال الملحد « كم ارثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما

أراهم يوم الجمعة وآذانهم مرهفة وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذى عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان ، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية وأن يبنى لهم المنازل الجميلة وأن يقضى لهم كل حاجة ورغبة وأن يقدم لهم الاستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة ، وأن يدخلهم أخـــيرا مع النبيين والصديقين والشهداء فى صنوف الأبرار المقربين ، والثمن لذلك كله لا يعدو كليمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمتمون بها ، وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضا وغاية ، وكم أرثى لهم وأبكى وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب ويهزون رءوسهم الفارغــــة ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة كلما سمعوا وعدا أو وعيدا وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى اليهم والأهوال المذهلة تصب عليهم »

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله تشنيع واستهزاء بحت وتهكم بمظاهر الأديان السماوية ومحاربة لها بدون حجة ، وقد ادعى - على وجه المغالطة - أنهم يطلبون هذه الأمور كلها من الخطيب ، فمرة يقول يطلبونها من السماء وحينا يطلبونهـا من الخطيب ، وادعى أيضا أن المستمعين ينتظرون الاجابة من الخطيب (١) وكل هذا تهكم ونباح مرذول لا يتكلم به الا مخبول ، وقد بلغت الوقاحة بهـذا الملحد مبلغا لم يصل اليـه قبله ملحد ولا بشر كافر ، فقوله كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الى قوله كم أرثى لهم وأبكى فيقال له ان كنت ترثى لهم وتبكى سخرية بهم فهم يحمدون الله الذى عافاهم مما ابتلاك به ويرثون لك ويقولون ﴿ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ وقد سبقك من هو

---

(١) يفهم من كلامه أن الخطيب يأتى كل يوم جمعة بخبز وعمائم وأقمشة يقسمها على المصلين ، فانظر الى هذه القحة والفجور الزائد

على شاكلتك بهذه السخرية والاستهزاء بذكر الله وعبادته كما قال تعالى ﴿ وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ وكما قال تعالى عن المنافقين انهم يقولون لمن آمن مع النبي ﷺ ﴿ غرّ هؤلاء دينهم ﴾ وقال تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ وقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ فكان عاقبة كل من هؤلاء وهؤلاء ما ذكره الله تعالى بقوله ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ فانقلبت الحال وأصبح المستهزىء هو المستهزأ به ، وأضحى الساخر هو الذى يسخر منه ، ونحن نقول لهذا المبتلى وما أرسلت على هؤلاء المستمعين حافظا ومسيطرا ورقيبا ، ومجرد ما ذكرته هنا تهكما واستهزاء لا فائدة فيه ولا طائل تحته ، ولو أنك ناصح فعليك أن تذكر فعلهم وحجتهم ثم تبين خطأهم وترد حجتهم ثم تثبت طريق الرشد فحسب ، أما هذا التهكم والسخرية بهم فهو برهان على أنك ذو هوى وعداوة لهم ، لأن هذه الدعاية ليست بطريق نصح بل طريق عداوة فخطؤك واعتداؤك عليهم ثابت بمجرد هذه الدعوى ونحوها من أقوالك وافعالك ، فكان ما تدعيه عليهم باطلا بكل حال لان ذلك دعوى عدو على عدوه بدون حجة ، مع أن أكثر هؤلاء المستمعين أكبر منك وأعلى منزلة دينا ودنيا ، وكثير من هؤلاء تقبل يديه وقدميه وتعمل معه من الملق والذل والضراعة كما شوهد ذلك وعرف ، فكيف تستهزىء بهم وأنت معهم بهذه الحالة ، ولعل هذا من علم الخبث والمكر الذى مدحته فى ما سبق

وقولك « والثمن لذلك كله كلمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمتمون بها » فيقال : قد علم المسلمون أن الخطب مشتملة على حمد الله والشهادتين والصلاة على النبي ﷺ والأمر بتقوى الله وطاعته ، فاذا كانت هذه لا تجدى

شيئا ولا نفع فيها وقد كان عليه الصلاة والسلام ثم أصحابه بعده والمسلمون الى هذا الوقت يفعلونها ولا تغنى شيئا غير التعب والنصب وأغلالك هذه هى التى يبصر بهـــا طريق العقل فقد ضل هؤلاء كلهم وكانوا سفهاء وأصبت أنت وحدك ورثيت لهؤلاء من أجل هـذا الخطأ ، مع أنك ذكرت فى حـــاصل أغلالك مشكلة لم يوجد لها حل الى اليوم ، فلا عجب ممن هذه حاله أن يستهزىء بعقول رجال الأمة جميعا من أولهم الى آخرهم . ويقال لك أيضا : ان كان هذا التصغير والتحقير للخطب ، وانكار النفع فيها فى قولك « انهـــا كليمات خفيفات مبهمات » من حيث ما هيتها وكونها كليمات أى ألفاظا مشتملة على أصوات وحروف ذات مقاطع ، فيقـال لك : هكذا جميع الـكلام [1] حتى أغلالك هذه التى جعلت السيادة كلها معلقة بها هى كذلك ، وهل شب الحروب الا الكلام ، ولم تطرد سابقا من الأزهر الا بالكليمات ، وهل نافقت وحصلت على بعض الشىء من مقاصدك الدنيوية التافهة الا بالكليمات ، وهل حط قدرك وجعلك مشتوما فى كل ناد ومحفل الا بالكليمات ، ولم يستحل أبوك أمك الا بالكليمات ، والنكاح والطلاق والعقود والعهود وتعلم نواميس الطبيعة والموسيقى والمـكر والخبث والفلسفة كل ذلك لا يمكن علمه الا بالكليمات ، بل الحياة قائمة بين الناس بالكليمات والحركات ، فالعلة فى هذه الأمور واحدة ، فمـــا الذى خصص ذكر الله وعبادته بعدم الفائدة من أجل أنها كليمات وحركات ، وغيرها كذلك وكل الفائدة فيه . فتشنيعك هذا تشنيع ساقط بالمرة . وان كنت تريد بذلك أنها لا فائدة فيها فقط ، عاد النزاع بيننا وبينك الى نفس الفـائدة وهو موضوع البحث ، فيكون تصغيرك وتحقيرك لهـا حينئذ كفرا وضلالا لأنه

---

(١) ومعلوم أن سادتك من الملاحدة من أعظم الناس استعمالا للدعاية واعتمادا عليها معتقدين أنها سبب عظيم من أسباب التقدم والنصر ، وهى كلمات فقط ، فلم لم تعترض عليها فى ذلك

تهكم واستهزاء بالفاظ دينية محضة ، واذن نقول لك دعواك أنه لا فائدة فيها دعوى مضروب بها وجهك ، وانما يفيدك ذلك لو أقمت الأدلة على ما ادعيته ، وانت لم تفعل شيئا من ذلك وانما غايتك فى هذه الدعوى أنك شنعت بالتهكم والاستهزاء المجرد ، فنحن نعارضك بمثل دعواك أو أصح منها ونقول : لا فائدة فى كل كلماتك . ويكفينا دليلا على أنها كلمات ساقطة أنك لم تسبق اليها ولا لك فيها سلف ، وأنت مقر ومعترف بأن هذا الذى تدعيه مخالف لما كنت معتقده من قبل مع ادعائك فى اعتقادك الأول أنه على براهين وأدلة صحيحة ، ومعلوم أن البراهين لا تتناقض ، ومجموع هذه الامور وغيرها برهان على أنك مريب مضطرب فى رأيك فلا يعتد به . ونقول : انه منذ ظهر فجر النبوة الى هذا الوقت وهذه الخطب العالية تتلى على المنابر على رءوس الاشهاد من الملايين وملايين الملايين من سادات البشر وغيرهم وما عارض فيها أحد بلفظة واحدة من جميع أهل الملل بل عظموها وقدسوها . وهذه الصلاة تؤدى فى المساجد كل يوم مرارا معروفة من ظهور الاسلام الى هذا الوقت وجميع اهل الاديان يعظمونها ويحترمونها ، وكل هذه المظاهر الدينية مشتملة على أذكار مشروعة كالتحميد والشهادتين وقراءة القرآن والصلاة على النبى ﷺ ، فادنى عقل سليم يعلم بان الفائدة الحاصلة من كلمات الخطباء أعظم وأجل وأكبر من الفائدة الحاصلة من كلمات أغلالك هذه أو غيرها - هذا لو قدر أن فيها فائدة ، كيف وهى الخسارة الأبدية - فبطل كلامك على كل تقدير ، وصار هذا البكاء والرثاء الذى صدر منك - كما تقول - بكاء ورثاء كبكاء الاطفال والمعتوهين والمجانين الذى لا معنى له ، وصارت حالك أحط حالة من البائسين والمساكين ، فالأولى أن تنعى على نفسك ما نعيته على غيرك فانك أولى بذلك

وقوله « وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح » يعنى أن الصلاة كالخطبة حركات لا معنى لها وأنه يرثى لأهلها ، فعبر عن الصلاة بالصفة لا بالاسم ، فكأنه هاب قليلا ، ولا معنى لهذه الهيبة ، فان من عرف

الدين لا تشكل عليه هذه الغمغمة مع صرائح الكفر فى غيرها . ومن طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته فلن يتأثر من ذلك ولو صرح به ، فلو عبر عن الصلاة بالاسم الصريح لاستراح من هذه العقدة النفسية فيما يكنه من هذا الرأى الخبيث المضر ، ولا شك أن من قدح فى الخطب قدح فى الصلاة ، والخشوع فى الصلاة أظهر من السكوت فى الخطبة ، وقد صرح بأن المساجد أدت شر ما يؤدى . ثم القول فيما ادعاه فى الصلاة من كونها حركات يمثلونها أو تمثل بهم كالقول فى الكليمات سواء على ما مرّ ، لأن أعمال الناس كلهم حركات من خير وشر ، فلا معنى لتخصيص الصلاة بالقدح وعدم الفائدة من أجل ذلك ، فان هذه العلة يشترك فيها سائر الأعمال ، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما

فصل

قال الملحد « لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة أو تنبعث عاصفة من الطاقة الانسانية الأبدية الكامنة فى أعماقهم فتضىء لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم من هذا المكان الذليل لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدرين ، ولكن هذا الاجتماع الاسبوعى مفروض فرضا ، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضا ، فاين النجاة وأين الفرار »

فيقال كيف تنطلق من أعماقهم شرارة تضىء لهم الطريق وأنت قد قررت ان أعماقهم مطبوعة على الخبث والشر والظلم والجهل ، وانهم إن لم يعلموا بقوا على الاخلاق الوحشية وبقوا على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط كما تقدم ، فلما أن قام هؤلاء العلماء يضيئون لهم الطريق بالانوار السماوية ويبعثون فى قلوبهم الحرارة الايمانية الفطرية ويرشدونهم الى سلوك الطريق النافعة الدينية والدنيوية ادعيت أنهم يخدرونهم ، وانما حملك على هذا البغض والمقت لهم لاغراض أردتها معروفة ، وما دعايتك هذه الا دفعا لهم

فى الوهدة المظلمة السحيقة واضلالا لهم عن معرفة الحقيقة ، وكل هذه الدعوى سب صريح لله تعالى ولاديانه وللدائنين بها ، فانك معترف بان هذا الاجتماع مفروض فرضا وهذه الخطب كذلك مفروضة فرضا ، فادعيت فى هذا الذى فرضه الله على عباده أنه لا فائدة فيـه سوى التخدير والتعويق ومنـع اضاءة الطريق ، وأنه شر وخبث ، وتركت ما فرضه الملاحدة وأعداء الملل من الـكفر والفجور والفسوق والغناء وإماتة الأرواح المعنوية فى الشعوب كلها ، وقد علمت أن الذى فرض الخطب والاجتماع لها هو الله رب العالمين عـــلى ألسنة رسله عليهم الصـلاة والسلام ، وأن الذين عمـلوا مواضع الفجور هم أصناف الملحدين الظالمين فجعلت هؤلاء الذين أخرجوا النـاس من الظلمات الى النور هم الذين وقفوا للناس فى طريق الخلاص والنجاة والنجاح وصدوهم عن ذلك وحالوا بينهم وبين السعادة والحياة فخدروهم وعقلوهم وصبوا عليهم الذلة والمسكنة وصفدوهم بالأغلال والقيود ، ولذلك ادعيت أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وانبيائهم ما وهبوا الحياة شيئا جديدا ، وادعيت أن الذين صنعوا الحيـاة هم المتحللون من الاديان المنحرفون عنها ، فأى طعن فى الله وشرعه وأنبيائه أعظم من هذا الطعن ، بل لم نعلم أحدا من الأولين والآخرين من جميع الطواغيت وأعداء الديانات تجاسر على هذا وبلغ هذا المبلغ ، فلعن الله من قال هذا الكلام ولعن من رضى به أو راج عليه . وقد بينا فيما سبق أنه لولا هـذه الأذكار والخطب النـيرة والدعوات الدينية التى هى وقود حرارة الايمان فى قلوب الناس لما عاش على وجه الأرض أحـــد ولسقط الناس فى الهلاك والدمار والفناء السرمدى ، ولهذا قال النبى ﷺ « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » ، وهذا دليل على أنه اذا خليت الأرض من ذكر الله حل عليها الغضب واللعنة الماحقة النهائية لزوال موجبات الرحمة ، فالاذكار هى مادة حياة القلوب وحياة الأرواح وسرورها ونعيمها ، وانك لا تكاد تجد رجلا خاليا من ذكر الله وطاعته الا وهو منكد العيش منغص الحيـــاة قد

ضاقت عليه الارض بما رحبت كما قال تعالى ﴿ ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فالأذكار الدينية هى الاستمداد من مصدر النور والحياة والقوة ، وبقدر هذا الاستمداد يكون مقدار النور والحياة والقوة من زيادة ونقص . وقد بينا فيما سبق أن مادة الدعاء والذكر والعبادة هى التى تبعث القوى الكامنة فى أعماق الفطرة ، وهى الدافع القوى للطاقة الانسانية وأعظم ملهب لها ومنير لها الطريق ، وأكبر مصادم للكسل والوهن وضعف الهمة ومضايقات النفس ، فان ما تتضمنه من الترغيب والترهيب والحث المتواصل على إقامة العدل والانصاف وتحديد شدة الجشع والهاع ومقت الظلم والاستعباد والجور والعسف والارهاق وأمثال ذلك هو أصل الوسائل التى تتركز عليها جميع خطب الخطباء وحماسة المتحمسين ، ولهذا لا يوجد أشد حماسة وأعظم غيرة وقوة شكيمة ولا أقوى رجولة ولا أشد حبا للعدل والانصاف والاحسان ممن نشأوا فى هذه البيئات الدينية وطبعوا بطابع هذه التربية العالية النقية ، وهذا بخلاف أولئك الذين عاشوا فى تربية الفجور والالحاد والنفاق وحب الملاهى فلا يوجد أحط أنفسا ولا أسخف آراء ولا أظهر فهاهة منهم ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، ولولا غربة الدين لما احتاج الانسان أن ينبه على كلامه فى هذه الأمور لمصادمته الشرائع السماوية مصادمة لا أظهر منها . وهذا الملحد لما كان منكوس القلب معكوس الرأى مطموس البصيرة مركوس السريرة رأى الأشياء كلها على عكس حقائقها كالمريض الذى فسد مزاجه فانه يحس الاشياء على خلاف طبائعها ، قال الشاعر :

وما على العنبر الفواح من حرج   أن مات من شمه الزبال والجعل

فهو كالجعل الذى اعتاد الخبائث فهو يندفع اليها ويسقط عليها وينفر غاية النفرة أو يموت من الروائح الطيبة ، فانه ملحد خبيث قد ملىء بغضا للاسلام من مفرق رأسه الى قدمه ، فماذا فعل معه الخطباء وأهل الدين الذين يعبدون

الله فى مساجدهم حتى يوجه اليهم سهام الذم والحط الشديد عليهم ويجعلهم هدفه فى كل ما خطر على باله من سباب واتهام وشتم وعداوة على غـير ما جرم فعلوه ، بل ما نقم منهم الا أن رفعوه وحموه ونصروه لما حاط به البلاء من كل جانب وطرد من الازهر ولم يجد من يؤويه ، ولـكن نفسه نفس خبيثة وفى الحكمة المتقدمة « أبت النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا الا وقد أساءت الى من أحسن اليها » كما أشرنا الى هذا فيما سبق ، ولعل هذا الزنديق ان استراح من هذه الخطب بهـذا الشهيق والنهيق مما يجد فى قلبه من العـداوة والحريق ، فما ضر الا نفسه ولا ازداد الا رجسا الى رجسه ، وما مثله فى هذا إلا كمثل ذبابة تطن فى أذن فيل ، أو بعوضة تعد فى التماثيل ، ولا استفاد من هـذا الاعتداء والمكر والافتراء الا الصغار والعـذاب والبـلاء ، قال الله تعالى ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾

فصل

قال الملحد « قد يجوز أن يختلف المصلحون فى كثير من طرق إصلاحهم ، ولـكن ليس مما يجوز الاختـلاف فيه أن الواجب الدينى والوطنى والانسانى يلزم باصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب ، واما الحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وإما شىء آخر »

فيقال : أنت لم تبـين وجـه ذنبهم وضرر خطبهم حـتى تعرف طـرق اصلاحها ، ولم تبين وجه الاصلاح هنا الا بمجرد دعواك أنهم يخدرون بها تعنى أنهم يسكتون عند سماع الخطيب . ومعلوم أن السكوت لا بد منه عـند كل خطيب وواعظ ومتكلم بحق أو بباطل ، وهـذا لا يمكن اصلاحه بحـال . وأما ذنبهم فلم تذكر له وجها الا بمجرد دعواك أنهم يطلبون حاجاتهم من السماء لا من أنفسهم وطبيعتهم ، وهـذا شامل لجـميع الخطب الدينية بجميع أنواعها ، فانها كلها فى التوجه الى الله والطلب منه لا من النفس والطبيعة عـلى

المنابر ، فان المنابر لم توضع للاعمال انما وضعت للدعاء والذكر والأمر بتقوى الله ، هـذه هى خطب الدين الاسلامى عـلى المنـابر ، وليس من المشروع فى خطب الاسلام من عهد الرسالة الى هذا العهـد أن المسلمين يطلبون حاجاتهم من أنفسهم وطبيعتهم أتريد منهم أن يردوا أيديهم فى أفواههم أو يعدوها الى أنفسهم وطبيعتهم التى قررتَ أنها خبيثة ظالمة شريرة ، أم تريد أنهم يطلبونك أنت وحدك كما ادعيت ذلك حيث قلت :

لو أنصفوا كنتُ المقدمَ فى الأمر (١)

ولم يطلبوا غيرى لدى الحـادث النكر

الى آخر أبياتك القذرة . وحاصل هذا الانتقاد كله أنهم يطلبون من الله حاجاتهم لا يطلبونها من أنفسهم ، فهم يعبدون الله ويدعونه ، لأن التوجه القولى والفعلى هو روح العبادة ولبها ، ولما كنت معتقدا الالحاد أنكرت هذا لأن العبادة على مقتضى أصلك لا محل لها أو أنه سبحانه لا يستحقها فلا ينفع احدا بطاعته ، فصار مرادك بهذا الاصلاح هو رفض التوجه الى الله والاعتماد إما عليك واما على طبعهم فيصلحون الخطب بالحث على رفض التوجه الى الله وفعل الأعمـال الدينية لان لهـا عندك نتائج أخرى هى الملهـــاة والمصرف الخبيث ، فيعتمدون على الطبيعة وحدهــــا ويصرفون كل هممهم الى الطبيعة ونواميسها ، ومعرفة هذا تتوقف عـلى الـكفر بتصرف الله فى ملكه وتدبيره له بقطع السبب عن مسببه أحيانا والتحكم فى النتائج والنهايات ، لان الانسان لا يكون سببيـا محضا الا بذلك ، وليس النجاح مكتوبا الا للسببى المحض كما صرحت بذلك فيما يأتى (٢) ، وهـذا لا يمكن الوصول اليه الا بالـكفر بالله ،

---

(١) الشطر الاول مزحوف فى التفعيلة الأولى وهو قبيح باجماع العروضيين ، فاجتمع فيه القبح فى وزنه ومعناه ولفظه

(٢) أى فى المشكلة

لأنك قررت بأنه لا اله بلا فعـــل ، ثم قررت أن الاقرار بالفعل يوجب الاقرار بتغير الأسباب وهذا يوجب التأخر وهو خلاف المطلوب ، ثم ذكرت أن هذه الطريق لا يوصل اليها إلا بشيء واحـد وهو مقابلة الطبيعة الكامـلة بطبيعتها الكاملة ، ثم ان هذا عندك شيء عزيز الوجود جدا فلا يمكن الوصول اليه أيضا الا من طريق واحدة لا طريق سواها وهو التمسك بأغلالك هذه ، التمسك بالحقائق الازلية الابدية ، التمسك بهذه الافكار التى لن يستغنى عنهـا مسلم واحد بين أربعمائة مليون مسلم ، التمسك بهـا والاعتصام بها لانك قلت تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ، فاذا عرج الانسان الى سمـاواتك هذه التى اخترعتها ووصل الى ملكوت حقائقك الأزلية الأبدية استخرج كنوز نواميس الطبيعة وقوانينها منها ، أما بدون ذلك فويل له ثم ويل له ثم ويل له ، لأنك أغلقت الأبواب كلها فى وجهه فقلت صريحـا « تتركه أمـة فتهوى » فلو حاد عن طريق هذه الأغلال هوى ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولـكنه اذا تمسك واعتصم ولم يحد فانه ينهض ، وكل الأمم والافراد تطلب النهوض ، فها هو ذا ، فعلى جميع الناس أن يصلحوا خطبهم بابدالها بهذه الأغـــلال فيخطب بها على المنابر ، لأن اصلاحهم كله معقود بناصية الاعتصام بها ، ولان أربعمائة المليون المسلم لن يستغنوا عن معرفته والأخذ به ، وهو حديث عهد فلا يمكن إفاضة تعاليمه على هذه الملايين المتقطعة فى الارض أمما إلا بأن يُنْشر ويخطب به على المنابر لتحصل الافادة العامـة بذلك ، وبذلك يحصل المقصود وهو الحيلولة بين الناس وبين التوجه الى ربهم ، كما يحصل تقديمك فى الأمر واتخاذك إلها ، أو على الأقل تكون مـنزلتك فى برزخ فويق الرسول ودون المولى . فلقد تحجرت واسعا وطولت الطريق فى طلب ما تتمناه ، فلهذا كانت عاقبتك أشنع عاقبة : لقد كان من الواجب المحتم على كل عاقل يريد أن يتكلم فى مسألة فرعية من فروع الأحكام فى الفقه فيقدح فيها فيشوهها ويتهكم بهـا وبأهلها ، عليه فى ذلك شرعا وعقلا ونظرا أن يذكر المسألة بصورتها الواقعية ،

ثم يذكر دليل من فعلها ، ثم يذكر انتقاده عليها ، ثم يذكر دليل انتقاده ، ثم يجيب عن دليلها ويعرضه على الناس بدون تهكم ولا استهزاء احتراما للدين ولأهله ، فكيف بمن يهجم على أبرز مظهر من مظاهر الدين الحنيف فى كل أسبوع ، وكله يشتمل على أصل الدين وروحه وركنه الأكبر ، فيقدح فيه بكل ما خطر على باله من سباب واتهام ، ويقدح فى أهله ويتهكم ويستهزىء بهم ويسفههم تسفيها لا يقدم عليه من له أدنى عقل وحياء ، فهل هذا كله إلا من الجرأه على الله وعلى أديانه وعلى الأمم التى تدين به ، وهل السكوت عنه إلا من ضعف الدين وإدباره ، وذهاب عظمته واحترامه وتقديسه من قلوب الناس ، وأن أكثرهم نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عنه فولاهم ما تولوه ، وان الظالمين بعضهم أولياء بعض . وهذه المواضع الجنونية التى حط فيها على الخطب والصلاة والمساجد والمنابر هى من المواضع التى افترسه فيها الشيطان وتخبطه من المس ، فزاده رجسا الى رجسه وعلة الى علته كما اختار لنفسه ذلك ، عافانا الله مما ابتلى به

فصل

ثم قال « وقد أراد جماعة من المتأخرين أن يجددوا فى معنى الزهد وأن يجعلوه عصريا فقالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، يعنون أن القلب هو الذى يجب أن يزهد فى الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، أما اليد فلا باس بأن تجمع وتعمل ، وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تطلبه الحياة من عمل ونشاط »

قلت : ما نسبه الى هؤلاء العلماء فى قولهم ان الزهد محله القلب صحيح ، ولكن تفسيره لكلامهم باطل وضلال ، فانهم قالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، وهو فسره بغير ما يريدون ، فانه قال يعنون أن القلب هو الذى يجب أن يزهد فى الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، وهذا تفسير غير مطابق ولا

وجه له ولا يفهم أصلا من كلامهم ، فلم يعنوه ، ولا فى لفظهم ما يدل عليه ، فهم لم يقولوا ان الزهد بغض القلب للدنيا وكراهته لها وإعراضه عنها ، وانما قالوا محله القلب لا اليد ، وفرق ظاهر بين قولهم محله القلب وبين ما يدعيه من الكراهة والاعراض ، بل مقصودهم من القول هنا هو اطمئنان القلب فيما حصل له من الدنيا بدون جشع ولهف عليها ، هذا مقصودهم وهذا هو الزهد الحقيق لا ما ادعاه ، فاعتراضه اعتراض ساقط لا وجه له البته . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى مسألة الزهد فى المال [١] : « اذا سلم فيه القلب من الهلع واليد من العدوان كان صاحبه محمودا وان كان معه مال عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهدا أزهد من فقير هلوع » انتهى . وكلام الأئمة فى مسألة الزهد على هذا المعنى ، فالزهد طمأنينة قلب الانسان بما آتاه الله من الدنيا بعد فعل ما يجب استحصاله مما هو من ضرورات الحياة ، وهذا شامل للعمل والنشاط فيه ، لأنه متى كانت الأمة محتاجة الى ذلك وجب السعى فيه لأنه من المصالح الدينية الضرورية ، والاجتهاد فى العمل النافع لا ينافى الطمأنينة ، فان الطمأنينة اذا كان المقصود بها أمر دينى فهى موجودة مع العمل والنشاط فيه ، وأما اذا كان العمل مقصودا به منافسة وحقد فهذا لا يحصل فيه طمأنينة قلب سواء اجتهد أو لم يجتهد ، فكم من عاجز كسلان ياكل أنامله غيظا وكمدا على عدوه بدون عمل ، وكم من هادىء ثابت الجأش جاد فى عمله سائر فى طريقه باهتمام واخلاص وقوة ، فليس بين حب الدنيا والهلع عليها والاجتهاد فى العمل ملازمة ، بل قوة العمل والملازمة عليه يرجع الى العوامل الباعثة له ، فان كانت دينية صادرة عن ايمان صادق واعتقاد قوىَ العمل ودام النشاط فيه واستمر استمرارا صحيحا ، وان كانت العوامل والبواعث دنيوية محضة فهو بحسب تلك العوامل فى القوة والضعف ، فقد يكون قويا وقد يكون ضعيفا

---

(١) الآداب الشرعية ص ٢٥٣

وهو الأغلب ، ولكن اذا قوى فلا بد أن تكون قوته دون قوة العمل الذى باعثه عوامل دينية صرفة ، وأكثر ما يكون ضعيفا اذا كان إجباريا أو كان لمصالح شخصية مؤقتة ، وهذا هو الغالب

ثم قال « وفات هؤلاء أن هذه الفكرة مستحيلة متناقضة ، وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه أو لا يحبها بقلبه ثم يعمل لها باهتمام مصابرا على مشقات الطلب والعمل »

قلت : ما فاتهم هذا الذى ذكرته ، ولكنك فهمت من كلامهم ما لم يقصدوه ، وفاتك أن هذا الذى قررته واعترضت به انما يصح على أصلك الذى فسرت به الزهد القلبى ، أما على أصلهم فلا يرد هذا الذى ادعيته عليه ابدا ، فانك اصلت أصلا من كيسك ، وفرّعت عليه على حسب ما تريده وتهواه ، وببطلان الأصل يبطل التفريع عليه

ثم قال « لأن الذى يبعث على ذلك هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها ، والا لما قام بعمل شاق الا أن يكره إكراها »

فيقال : اذا كان الذى يبعث الانسان هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها فهذا الباعث لا يوجد على أكمل الوجوه إلا فى التقوى والعمل الصالح ، لأن ذلك يتضمن طلب حصول نتيجة العمل وهو سعادة الدارين ، فلا أكبر ولا أجل من هذا الأمل الدنيوى الأخروى ، فان الله تعالى يقول ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون ﴾ فالعمل اذن تابع لحب هذه النتيجة العظيمة ، وبقدر محبتها فى القلب يكون العمل فى الضعف والقوة ، وهذا فى الأعمال الاختيارية لانها المقصودة هنا ، بخلاف الإجبار ، وقد يكون لذلك شأن آخر . ثم ان هذا الامل العظيم انما يحركه وينميه ويبعثه ويقويه مادته الدينية ، وأعظم هذه المادة هى تكرر الخطب فى الجمع والوعظ فى الجماعات ، فتكون الخطب لذلك هى التى تنير الطريق وتنفخ روح القوة والنشاط والاستمرار فيه ، والتوجه

الى الله وعبادته هو نور وهو الروح ، ومعلوم ان كل نتيجة فهى بقدر العمل ، وكل عمل فهو بقدر العلم ، وكل علم فهو بقدر صحة التصور ، وانما يحصل ذلك بتحرير النفس والعقل وطرد كل المؤثرات الفاسدة من الشهوات والشبهات التى تحول بينه وبين ادراك الحقائق ، ولا يمكن أن تحرر النفس والعقل بدون فهم النصوص الدينية والانقياد لها ، لأن من أعرض عن ذلك فلا بد أن يعتنق نصوصا غيرها ولا بد أن تكون فاسدة أو أكثرها فاسد ، وحينئذ إما أن تحصل الحيرة والقلق والاشكالات ويرجع الانسان الى حيث ابتدأ ، واما أن يقف فى عرض الطريق بدون الحصول على حقيقة ، واما أن يضطر الى تقليد فكرة غيره على غير براهين صادقة ، وكل هذه الأمور الثلاثة لا ينشأ عنها الا الضرر المحض ، أما النصوص الدينية فانها وفق الفطرة ، وهى تنير القلب والعقل ، فتمنع النفس والعقل عن الخروج الى سبل الأوهام والخرافات وتطلقه فى السبل الصحيحة الموصلة للحقائق ، فليس فى النصوص حرف واحد يمنع عن الأعمال النافعة والتفكير فى كل ما به نفع للبشرية . لكن هناك أمور لامعة كالسراب قد يظن الجاهل أنها ماء فتمنع عنها لكونها ضررا محضا ، أو لأن ضررها أكثر من نفعها (١) . وهذا كله مع من يصدّق بالنصوص ، أما من هو خلاف هذا فله شأن آخر ، وقد قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ فعلق النجاة والنجاح على التوجه الصحيح والعمل الصحيح ، فمتى حصل التناسب بين التوجه الذى هو طريق العلم ، والعمل المصدق له وهو التوجه الفعلى ، حصل النجاح فى الأعمال الأخرى التى لا تتنافى مع هذا ، فالغفلة عن الذكر

---

(١) ويدلك على هذا أنك تجد كل من خالف النصوص من فحول النظار وغيرهم على كثرتهم ليس فيهم الا من هو معترف بالحيرة والشك والقلق ، مع ما فى كلامهم من التناقض ، ومع ادّعائهم أنهم أهل المعقولات الصحيحة

والدعاء والعبادة هو المرض الذى لا بد أن يؤدى الى الموت الذى لا حياة صحيحة بعده

ثم قال « بل الذى يمكن فى هذه المسألة هو العكس ، أى إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده ، فمن الواقع المشاهد أن تكون محبا للدنيا وللمال جدا بدون أن يمنعك هذا الحب من الانفاق وصرف مافى اليد رجاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة ، وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع »

قلت : هذا خروج عن المقصود ، فانه فى التوفيق بين الزهد والعمل للانتاج المادى ، ليس هو فى التوفيق بين الزهد والانفاق . وكلامك هنا فى الثانى والمقصود هو الأول ، فانك اذا عكست المسألة - كما تزعم - فعليك أن تقرر أن الزهد فى اليد وحب المال فى القلب يبعث على العمل بالقوة والنشاط عكس الادعاء الأول ، وهذا لا يمكنك أبدا ، ولهذا لما أعجزك عدلت الى المغالطة بأمر آخر وهو وجود الانفاق مع حب المال ، وأولئك العلماء لم يتعرضوا لهذا حتى تدعيه ، انما ادعوا أن حب المال فى القلب لا ينافى الزهد فليس الزهد عندهم هو بغض القلب للمال وكراهيته - كما تدعى - بل الزهد هو ما ذكرنا تعريفه فيما تقدم ، فالاعتراض هنا ساقط لا محل له

ثم قال « وقد أشار القرآن الى هذا فى قوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ولكن البر من آمن بالله - الى قوله - وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ وقوله ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وهذه الآيات صريحة فى أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال »

فيقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، بل هو حجة عليك ، لان الآيات الكريمات ليس فيها دليل على أن حب المال بالقلب والزهد باليد باعث على العمل ، لأن هذا هو مقتضى ما ادعيته آنفا ، والآيات انما أفادت بيان حال هؤلاء المنفقين

أموالهم فى هذه الأمور الجليلة مع حبهم لها ، وهذا شاهد لقولنا الذى قررناه من أن الزهد ليس هو بغض المال بل حبه لأجل وضعه فى موضعه النافع ، فحبه لأجل وضعه فى طرقه لا ينافى الزهد ، وانما الذى ينافى الزهد هو الحرص والشح كاجتلابه من غير طرقه أو تقديم محبته على واجب دينى ، ثم منع حقوقه أو منعه عن مستحقه . وهذه الآيات فيها مدح هؤلاء لكونهم قدموا محبة الله ودينه واتباع أوامره على محبة المال ، فهذا دليل على أن محبتهم للدين راجحة على محبة المال ، ومعلوم أنه متى تزاحم محبوبان فى القلب فلا بد من ميل القلب الى الأكبر الأقوى ، وهذا بخلاف الجشع والحرص الشديد مع إهمال عمل اليد فانه لا يحصل به شيء من الانفاق الخيرى ، وكثيرا ما يقدم على فعل الطاعة الواجبة وهذا يتنافى مع الزهد

ودعواه أن هؤلاء المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال ، فهذه الدعوى فجور صريح وبهت للقرآن العزيز ومغالطة خبيثة ، فليس فى القرآن آية واحدة فيها الثناء على الذين يحبون المال مطلقا ، وإنما أثنى على هؤلاء من أجل تقديم حب الطاعة على حب المال وإنفاقهم فى طاعة الله مع حبهم لهذه النفقة لا من أجل حب المال ، فذكر حب المال هنا غير مقصود ، بل بيان لكونهم قدموا هذا العمل الدينى المالى مع محبتهم لمالهم ، لان هذا يدل على صدق الايمان والاخلاص وحسن الظن بالله ، وكل هذا يناقض أصوله ، ولهذا رام التخلص بالانحراف الى تحريف النص والمغالطة فى ذلك ، فحب المال بدون إنفاق مشروع ليس ممدوحا فى الشرع أبدا

ثم قال « أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة ، فالمرء اذن قد يحب المال ثم ينفقه ولكنه ان يكرهه ثم يعمل له »

فيقال : أما أن « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فهو حديث رواه البيهقى ، والواقع يصدقه ، وانما الذى يمنعه من أن يكون رأس كل خطيئة اذا عمل فيه

بما يوجبه الامر الشرعى ، وحينئذ لا يكون خطيئة لأن العمل به فى الوجوه الشرعية أخرج صاحبه عن أن يكون مخطئا مفتونا به مقدما له على طاعة الله ، فأصل فرض الزكاة وجميع النفقات الواجبة والمستحبة انما شرعت لامتحان العبد بماذا يفعل بهذا المال الذى حل بيده فضلا من الله ونعمة ، فقد خرج العبد الى الدنيا مجردا من كل شىء منها ، ثم خول هذا المال الذى هو مادة الحياة وأكثر اللذات كما قال تعالى ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فمن الخلق من تصل محبته للمال الى سويداء قلبه ، فان عمل بما أوجب الله عليه فيه فقد قدم طاعة الله على محبته لماله ، وخرج عن أن يكون عبدا للدرهم والدينار ، وكان فى دعوى الايمان صادقا ، وان قدم محبة المال علم أن دعواه فى الايمان غير صحيحة بل مدخولة وانما ذلك إما رياء أو لقصد آخر لا ايمانا صادقا خالصا ، فلا يمكن اجتماع الايمان الصادق الخالص ومنع الزكاة أبدا ، كما لا يمكن ذلك مع ترك الصلاة والصوم ، لان الاعمال البدنية والمالية والنفسية تابعة لاعتقاد القلب من صحة وفساد .

وقوله « فالمرء اذن قد يحب المال ثم ينفقه » فنقول : قد يكون ذلك ، ثم ماذا ، فليس فى ذلك حجة لك ، فان خصومك لا ينكرون هذا ، ثم الانفاق نوعان شرعى وغير شرعى ، فالمحبة الراجحة على حب المال هى التى تدفع الى إنفاقه ، إما الى هذا وإما الى ذاك ، فصاحب المال الذى يحبه لا بد أن ينفق منه شيئا ولا بد أن تكون نفقته له تابعة لجاذبية المحبة الراجحة على محبته إما طاعة واما معصية

وقوله « ولكنه لن يكرهه ويعمل له » يقال أولا هذا ادعاء لا محل له ، وخصومك لم يتعرضوا له فى مسألة الزهد ألبتة فلا وجه لا يراده . ثانيا ليس من الممتنع أن يكرهه ويعمل له من أجل أمر آخر قد يكون دافعه أرجح من عامل الكراهة ، فان كثيرا من الناس يكره المعاصى ويعمل لها بل يسلك طرق المخاطرات فيها مع كراهته لها ، وقد يكره ظلم شخص فيدفعه الطمع

وحب الدنيا الى ظلمه أو قتله لان هذا العامل الأقوى ترجح على هذا العامل الأضعف ، وأمثال هذا كثير

فصل

ثم عاودته سجيته فى التناقض ، فذكر هنا كلاما طويلا هدم به جميع ما ذكره فى صدر هذا المبحث فى محاربة الزهد والقناعة ، ووجه فيه نظرية الزهد والقناعه وحسن تأثيرهما ، ننقله هنا لتعلم أن هذا الرجل من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين قال : « غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجها ، أو إنه هو الوجه الصحيح ، ذلك أن فى القضايا المتفق عليها أن الاختلاف بين الناس فى وضعهم الاجتماعى وفى تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر والصحة والمرض والقوة والضعف والعز والذل وغير هذه الأمور لا يمكن أن يقضى عليه ، بل يوجد الى جانب الغنىّ الواحد عشرات الفقراء أو مئاتهم أو آلافهم ولو فقراء نسبيا ، كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم يهتفون بحياته وباسمه اذا بدا ويخضعون لأوامره اذا غاب ، وهكذا القول فى كل ناحية من نواحى هذه الحياة المحكمة التعقيد . وحينئذ فالمسألة ذات فرضين : أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحرّ المطلق الذى لا حدود له ولا قيود ، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم فى غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبونا محروما ، ووجب عليه أن لا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفى على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذى ورده الآخرون السابقون وأسلحته فى ذلك اتلاف جسمه وارهاق نفسه . وثانى الفرضين أن الأمر دون ذلك كله ، وأن الدنيا ما هى الا حاجة قليلة يكفى منها ما أمسك الحياة ، وأن التفاوت فى مظهرها مثل التفاوت فى مظهر الموت : يحمل عليها وليس

منها، ويكون بها ولكن لا يكونها. وان القميص الحريرى يلبسه الحى بالنسبة الى القميص القطنى أو لما دونه هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه، وان المرء ليس الا عقله وفكره وأخلاقه، أى ليس الا ذاته المعنوية، وليس هو ما يتصل به اتصالا مما ليس فيه ذاتيا. اما الفرض الاول فمما لا شك فى عنفه على البشرية وقسوته عليها، فان البشر لا يستغنون فى حال من الأحوال عن القرار والرضا كله أو بعضه بما هم فيه والا هلكوا أو عصفت بهم الحسرات، وما الرضا والقرار فى هذه الحياة الا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس المحرقة، وإن البقاء فى هذه الحياة بدون هذين الأمرين - الرضا والقرار - مستحيل استحالة الحياة فى هذه الصحراء بدون الماء والظل والخصب. ولا شك أن هذا الفرض فى الحياة ينتزع منها أسبابها، ولن يوجد شىء اذا لم توجد أسبابه، فاذا قامت الفكرة الانسانية العامة على ان وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة وأن سعادته وشقاءه منوطان بها، فلا شك أنها - أى الانسانية - ستحرم حينئذ حرمانا باتا من السعادة والهدوء والاستقرار، فان كل انسان بالغا ما بلغ سيجد أمام عينيه من هو فوقه فى شىء أو فى أشياء كثيرة، وسيجد مجال التطلع والتشوق شاسعا واسعا دائما، وسيشقيه هذا الفرق وهذه الفروق، وسيمر عليه أحلى مافى حياته من طيبات، وسيبقى من هذه الناحية ولاجل هذا الوجه وإن نال أقصى ما يتطلع اليه أكثر النفوس مثل من حرم الحرمان كله، لأن كلا منهما يرى من هو فوقه ومن ميز عليه فى أمر من الأمور، ويبصر ما قعدت به عنه قواه ويداه، وسوف يظل هذا الشعور والاعتبار مبعث آلام لا تنتهى، ومصدر اعتداءات لا ضابط لها. فان أكثر العدوان الذى يقع بين البشر دائما انما يقع بالايمان العميق بالمادية، ولا شىء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر فى كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر الى الحياة

والى حقيقة الانسان ، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية . وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة ، ولا بد من الايمان بالافتراض الثانى ، وفيه وحده شفاء الانسانية المضمون من داء الجشع الذى أشقاها وأشقى معها الوجود كله . ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الايمان بالمادية والانقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها ، ولو أنها نهنهت من هذا الايمان وكفكفت من غلوائه لكان فى ذلك بعض النجاة أو كلها . ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الافتراض ، وأمعنت فى تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة اليه ، وجاء فى الحديث النهى عن أن ينظر المرء الى من فضل عليه فى الدنيا ، وأمر بان ينظر الى من هو دونه لهذا الغرض نفسه ، وفى الكتاب ﴿ لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ . هما رجلان أحدهما طالعة طمعة ممدودة عيناه وقلبه وآماله الى أبعد الآمال والآماد والى مالا تستطيع قواه البشرية أن توصله اليه ، يريد كل ما يرى بل وما لا يرى مما قد يخطر بباله ، ويحسد كل مجدود ويتأوه غيظا وحسرة ويفور حقدا وألما كلما أبصر نعمة نالها انسان ، وكلما أبصر من هو فوقه فى شىء من الأشياء . وسيبقى هكذا حياته جميعها ولا قرار ولا رضا ولا سرور ولا سعادة ولا غبطة ولا التذاذ بشىء مما يلتذ به الناس ، فأى انسان هذا ، وأية حياة هذه التى يحياها هذا الرجل . ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله ، ويعمل لحياته لا لأطماعه ، فلا يطلب الا ما طلبته الحياة ، ولا يحتاج الى غير ما يمنحه البقاء والوجود ، مثله كمثل الأزهار أو الأطيار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة المبرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يغصها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات ويجلد أعصابها جلدا متواصلا حتى تصاب بما يعز الشفاء منه ويقضى عليها بان تشب هذه الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا انسانية إجابة لآمالها وأطماعها ، وتسعد كما تسعد هذه الأزهار والأطيار والمخلوقات الأخرى الجميلة ويقر قرارها ويهدأ هدوءها ويتناول الحياة مثل

تناولها هى - أى يتناولها بقدر ما يقول له وجوده وبقاؤه تناول ، لا بقدر ما تقول له أطماعه ذلك . فيعيش هو ومن حوله فى سلام أبدى ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا ينتهى . وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة وذموا الحرص والجشع والتهالك انما قصدوا هذه المعانى الطاهرة الخيرية ، وقد أرادوا أن يسموا بالانسانية على أطماعها المادية ، وأن يقربوها فى معانيها واخلاقها من الملائكة ، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التى يسببها حب المادة والاسراف فى طلب المادة وما يتصل به . وأرادوا أيضا أن يعزّوها - والانسانية قد تستغنى عن أشياء كثيرة ، ولكن شيئا واحدا لن تجد ما يغنيها عنه ، هذا الشىء هو العزاء الذى يخلق لها الرضا . وقد وجد أناس كثيرون فى ثنايا التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيوا بهذه المعانى وأن يجدوا فيها لذتهم وحاجتهم متأثرين بهذه الدعوة الطيبة متقمصين هذه الروح الخيرة ، فكانوا ملائكة انسانيين ، وكانوا منارا يأوى اليه كل من ضلت سفينته الخلقية فى خضم المطامع والأهواء المفسدة ، وكانوا هدى يجذب كل من جارت به ضلالاته فعمى عن الطريق » انتهى

والجواب أن يقال : ما ذكره هنا فى توجيه فكرة الزهد حجة عليه ، وأكثره مقتضب من بعض المقالات المؤيدة لهذه الفكرة ، وقد أدخل فيه بعض المجازفات من الجانبين كعادته ، ومع هذا فقد أقر بصحة أكثره رغم تحامله على ضده . ثم انه بعدُ أخذ يناقش فى بعض أشياء منه ، وقد سبق لك بيان نظريتنا التى هى نظرية المسلمين فى هذه المسألة فى صدر هذا المبحث وغيره ، وان ماذهبنا اليه خلاف ما فهمه وخلاف ما أراده ، فارجع اليه ، فمناقشته لما ذكره هو بنفسه فى هذه الجملة غير واردة على قولنا انما ترد على ما ادعاه لنفسه بنفسه لا على ما أصلناه نحن ، فهى مناقشة ساقطة لا محل لها البتة

وقال بعد سياق كلامه الآنف الذكر « كل هذا يمكن أن يقال ، وكثير منه

صحيح ، ولكن لا تكون نتيجته اثبات فضيلة الفقر [١] والقناعة ، ولن يدل بمجموعه على ذلك ، وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية »

قلت : قد سبق الكلام فى تعريف فضيلة الفقر وبيان المراد به عند من أطلق هذا اللفظ ، وكذلك القناعة ، فلا معنى لاعتراضه هنا البتة . وقوله وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية ، يقال قد بينا ما اعتمد عليه هنالك وأجبنا عليه بما فيه كفاية

فصل

ثم أخذ يناقش كلامُه السابق فى فضيلة الزهد والقناعة ، ولكنه يؤديه أحيانا كعادته فى القلق والتناقض فقال « أما أن الانسان لن يستغنى فى حياته عن العزاء الذى يهبه الرضا فمسألة تجل عن الخلاف ، ولو أن انسانا مّا فقد هذا العنصر النفسى فقدا تاما بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزيه أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليلا من العزاء لهلك لا محالة إما انتحارا واما أسى وحسرة ، وكل انسان إنما يعيش بقدر ما له فى وجوده من آمال صادقة أو كاذبة تفيض على نفسه المتلهفة ألوانا مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الانسانية »

فيقال : هذا موافق لقولنا لكنك خالفته فيما تقدم ، فان العزاء الذى يهبه الرضا هو نفس القناعة كما سبق

ثم قال « ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء »

قلت : هذه مراوغة وخروج عن موضوع البحث ، فقد تقدم تعريفنا للفقر ، وهو يرجع الى الرضا والعزاء الذى مدحته ، وأما البؤس والشقاء

---

(١) لو قال الزهد والقناعة لكان أصوب ، لأن بحثه فى الزهد لافى الفقر ، فلا حاجة الى هذه المغالطة

فادخالها هنا مغالطة ظاهرة ، فاننا لم نمدحهما قط ، فالاعتراض ساقط من أصله ، بل كان يجب عليك هنا أن تقول ليس طريق ذلك هو الزهد والقناعة ، لأن البحث فى هذا ، لكن انحرفت عنه لكونه ينقض أصلك

ثم قال « وانما طرقه أشياء أخرى ، منها رياضة المرء عاطفيا وعقليا على الشعور بالسعادة وعلى الاحتمال الجميل وتلقى المكروه بالصبر والابتسام ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الاستسلام ، وأن يكون مثله مثل الجندى المغوار يشج الموت ويدفعه باليمين والشمال وهو يهزج أهازيج الحياة »

فيقال : وهذا أيضا موافق لما ذهبنا اليه فى تعريف الزهد والقناعة وبيان الفقر ، وهو يناقض ما ذهب اليه ، وهو من جنس ما ادعاه قريبا ، وانما غير العبارة فقط . وليست العبارات هى المقصودة بل المقصود فى مثل هذه الامور هى المعانى لا الألفاظ

فصل

قال « ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوى السوى ، فان الاكتئاب واليأس انحراف فى الطبع ، وانحراف الطبع نتيجة طبيعية لانحراف الصحة »

فيقال : وهذا أيضا غير وارد ، فقد سبق قولنا فى تحريم التعرض للأمراض وانهاك القوى الجسمية وأن المسلمين لم يمدحوا الأمراض والأسقام بل أمروا بالتداوى والمحافظة على الصحة بكل ممكن . ثم كرر الكلام فى مدح الصحة وذم المرض ، وقد سبق الكلام على هذا مرارا فلا فائدة فى اعادته

ثم قال « ثم ان الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا ، بل هى سائرة وهم سائرون فى الطريق شئنا ذلك أم أبيناه ، فاذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيبا فان الآخرين لن يرضوا لانفسهم هذا الذى رضيناه بل سيسيرون فى الطريق الآخر وحينئذ لن يدعونا فى هدوئنا وقرارنا وسعادتنا النفسية الخالية »

فيقال : وهذا أيضا ليس بوارد علينا ، لاننا لم نقل ان القناعة هى السكوت والراحة فقط وترك ما يجب القيام به من أمور الدنيا والدين ، بل قد عرفنا أن القناعة هى الرضا بالقضاء باطمئنان وثبات ، وفعل ما يجب فعله مما فيه قوام الدنيا والدين ، ونحن انما أنكرنا الجشع والهلع على الدنيا ، هذا هو مقصودنا من الاطمئنان والثبات ، وهذا هو المسلك الوسط بين التفريط والافراط ، وحينئذ فلا يرد ما ذكره على ما أردناه

فصل

قال « وأما القول بأن الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشرور والعدوان بين الناس ، فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق ، غير أنه لا مراء فى أن الفقر أو خوف الفقر وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والاعتداءات »

فيقال : قد اعترف هنا — كما ترى — بان الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشرور ، ولكن ذكر أن الفقر أو خوف الحاجة يوقعان فى ذلك أيضا ، وهذا قول مدخول متدافع ، فان خوف الفقر أو خوف الحاجة غير الفقر والحاجة ، بل هو كثيرا ما يكون ضربا من الجشع ، فان الجشع ضرورة عدوانية مبدأها اللجاجة والضراوة فى الاعتداء وعدم الصبر والثبات ، ونحن فسرنا الفقر الذى عناه العلماء بغير الاعدام وبغير الحاجة التى يدعيها كما تقدم ، فعلى هذا لا يرد ما ذكره ، فان الفقر ان صحبه أمر دينى حجزه عن الوقوع فى الشرور والحروب ، ووجهه الى جهة أخرى لدفع الحاجة والضرورة ، وإن لم يصحبه دين فهو سبب مع غيره من أسباب وعوامل الشر والظلم ، وكثيرا ما ينقلب الى الجشع والعدوان اذا لم يصحبه دين

ثم قال « واللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام وأكثرهم — ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم — من المفلسين المفلوكين ، وان الحروب

تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء »

فيقال : هذا شاهد لقولنا ، فان الدافع للصوص وأضرابهم على التلصص وغير التلصص ليس هو الفقر ، وانما هو الجشع ، فكم من فقير لم يتلصص ، وأما الجشع فلا بد أن يحمل صاحبه على التلصص أو السرقة أو قطع الطريق ونحو ذلك من طريق العدوان من السلب والنهب ، وقوله « ان الحرب قد تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء » يقال : هـذا خروج عن البحث ، فانه فى الجشع والقناعة لا فى الفقر والغنى ، وعلى فرض التسليم فى هذا نقول : اذا كانت تقع بين الفقراء والاغنياء فانما تقع لا لأجل الفقر والغنى بل لأجل الجشع فى الفقير والطمع المفرط فى الغنى ، وكثيرا ما تأتى من ناحية الطمع ، فان الاعتداء غالبا انما يكون من ناحية القوى ، فالطمع ضرب من الهلع واللهف الذى تصاب به القلوب ، ولهذا كانت الحروب العظيمة تأتى من جانب الدول الكبار ، مع كونها ليست فقيرة ، وهذا بالنظر الى عدم وجود دين معهما ، أما اذا وجد الايمان الدينى الصحيح فى أحدهما أو كليهما فانه لا يكاد يقع بينهما حرب ولا شرّ فيما يختص بالمادة ، بل انما يقع لاجل المبدأ ونحوه ، فنظام الدين العادل يرفع المشاكل التى تنتج الحروب أو يخفف من ذلك بحسب قوته فى القلوب وضعفه ، وبالجملة فكل خلق ـ سواء اكان فقرا أو غنى أو سعادة أو شقاء أو غير ذلك ـ يخلو من الاخلاق الدينية فلا بد أن يوقع صاحبه فى اعتداء وعداوة لا حدّ لهـا ، فقد تقدم أن الدين هو الفيصل بين البهائم والانسان ، فاذا فقد غلبت عليه الطبيعة الحيوانية فكان كالوحوش ونحوها التى لا تفتأ تتقاتل وتتصادم فى أكثر حياتها . فالاخلاق الدينية هى العاصم الوحيد للشرور كلها ، وفقدانها هو الدخول فى المشاكل المتولدة عنها الظلم والظلمات التى من دخلها كان من الهالكين . وهذا المغرور أخذ فى تحليل البحث بدون استقامة فكر ، فلم ينظر الى الدين مطلقا ، فضل وأضل ، ولو جعل الدين معه فى كل خلق لعلم أنه هو الذى يهذب الخلق ويمنعه عن خروجه عن حده

المعتدل الفطرى ، ولكنه نبذه وراءه ظهريا ، والعجب من قوله بعد هذا :

« بل ان عهود القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأفظع مما تشبه عهود المادية المالية الجشعة ، وكل هذا صحيح لا ريب فى صحته »

فيقال : بل هو باطل ، ولا شك فى بطلانه ، بل هو من المهازل والمضحكات التى لا يتكلم بها إلا مسلوب العقل ، فهذه الدعوى مكابرة ظاهرة ، فما هى عهود القناعة والزهادة الدينية التى شبت الحروب على نطاق أوسع وافظع مما تشبه عهود المادية الجشعة ، وفى أى وقت صار هذا ، وأين وجد ، فلا يمكن لأحد أن يثبت هذا أبدا ، فان الحروب التى فى القرون الوسطى والتى قبلها وبعدها ليس منشأها القناعة والزهد ، بل منشأها الجشع والتكالب على الدنيا والمزاحمة فى الرئاسات ، فأى قناعة فى هذا ، وأى زهد . وكونها وقعت فى عهد توجد فيه القناعة لا يغنى شيئا ، إنما الكلام فى كون القناعة والزهد هى الأسباب فى إثارتها ، ويكفيك دليلا على فساد هذه الدعوى وجود هذه الحروب الاخيرة فلا أوسع ولا أفظع ولا أشنع منها ، ولا شك أن الذى شبها هو الجشع المادى المالى الذى هو ضد القناعة والزهد ، وهذا أمر معلوم بالضرورة والحس ، فدعواه هذه من أقبح الفجور وأسمج الكذب ، وقد تقدم قوله ان هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أفظع منها ، فهذا تناقض ظاهر .

وقوله « فالدعوة الى القناعة والزهادة لا تعطى الخير المرجو منها ، ولكنها تجلب الشر المخشى منها فقط »

فيقال : بل القناعة والزهادة على الوجه الذى شرحناه تعطى الخير المرجو منها كما يجب ، وانما الذى يجلب الشر ولا يعطى الخير هو الدعوة الى الجشع والطمع الجنونى الذى هو ضد الزهد والقناعة ، وقد وقع أثر هذا بالعيان واليقين ثم قال « فان الانسان مدفوع مسير بغرائز معينة أصيلة فيه ، فاذا صادفت

دعوات دينية أو غير دينية تكافح فى ظاهرها هذه الغرائز الطبيعية كانت النتيجة أن تختفى هذه الغرائز عينها تحت مظاهر أخرى قد تكون أعظم فتكا وإيقاعا بالانسانية وبأصحابها »

فيقال هذا كلام ساقط مرذول لا يقوله من يدرى ما يقول ، فما هى هذه الغرائز المعينة الاصيلة فيه ، فان الغرائز تختلف اختلافا كثيرا متباينا ، فان أردت أن هذه الغرائز فطرية طبيعية خيرية فلا نسلم أن الدعوات الدينية تضغطها حتى تختفى تحتها ، بل تكون الدعوات الدينية عونا لها وإمدادا لها فيتفق الداعى الخارجى والغريزة الداخلية فيحصل الخير والعدل والاستقامة التى هى أضداد الشر ، وان كانت الغرائز خبيثة شريرة كانت الدعوات الدينية تعديلا لها وتخفيفا من آثارها وتلطيفا لها ، وذلك بحسب القوة والضعف من الجانبين ، وهذا مطلوب أيضا بحسب الإمكان ، وان كانت الدعوات غير دينية والغرائز كذلك حصل الشر المخشى وتوسعت دائرة الظلم والشرور فكان ما ذكره حجة عليه لانه لم يجعل للدعوات الدينية تأثيرا فى الغرائز مطلقا بل جعلها مضادة للغرائز الاصيلة من كل وجه ، وهذا فى نهاية السقوط كما هو ظاهر

فصل

قال « وأما الحديث القائل (انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الانسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذى ويظلم المحسود والمنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة »

فيقال : هذا الكلام مع كونه موافقا لقولنا فى مسألة الزهد والقناعة فهو أيضا يبطل ما ذكره فى ص ٢٩ فى تشنيعه الأول على الخطباء ودعائهم على

أعدائهم الظالمين حيث قال « حتى تفيض ألسنتهم[1] بالسوء والسباب ، وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين والحسد لهم » ثم قال فى ص ٣٠ « وقد كان المفروض فى هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن يقوموا بعمل مّا مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والاغلال والفروق الظاهرة المخزية تدفعهـــا قوة الحنق وقوة الحسد والمنافسة » انتهى فكيف يشنع هنالك على الخطباء ويأمرهم برفض الخطب والقيام على عدوهم بدافع قوة الحسد والغيرة والحنق ، وهنا يدعى أن الغيرة والحسد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر . ويدعى هنا أيضا أن هذا الحديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ومعلوم أن قوة الحقد والحسد والغـيرة حالة نفسية طاغية ، وانما النافع القوى الذى ليس بحالة نفسية طاغية هو دافع الايمان وحب الدين ، وقد تقدم كلامه هناك فى الحث على إلهاب هذه الحـالة النفسية الطاغيـة وهى الحسد والغيرة والحقد حـتى سب الدعاء وجعله مصرفا خبيثا من أجلها ، وها هنا انعكس كلامه وادعاؤه كله كما ترى ، ولا عجب فهذا ديدنه فى أغلاله كلها ، ونحن ولله الحمد على صراط مستقيم نقول انه لا يمكن لنا بحال من الأحوال أن ندرك استقلالنا التام الا اذا بنينا أعمالنا كلها على الايمان الصادق والاعتقاد القوى الصحيح ، وذلك لا يحصل إلا بالاخذ فى الاخلاق الدينية الصحيحة على ما تقدم شرحه مرارا

فصل

قال « ويمكن تصور هذه الاحتمالات مـتى فكرنا فى شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلى غيظا عـلى من هو أرفع منه فى شأن من الشئون ، ثم فكرنـا أن هذا الغيظ قد يتطوّر الى محاولة الـكيد والايقاع ما أمكن ، وأقل ما لهـــذه

---

(١) اى ألسنة المسلمين

الحالة من احتمال أن يفقد الاخلاص والتعاون والحب والانسجام بين أفراد هذا الشعب ، وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الانحلال العام الذى لا ريب فيه ، فكان لا بد من وضع عـــلاج لهـذا ، وكان من المعـلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فانهم يتلاشى بعضهم ببعض وتخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور « اذا عمت المصيبة هانت » أما الانفراد بالألم وبالظلم الاجتماعى وبالمصيبة فهذا مما لا يطيقه الانسان ، فكان من الصواب إذن أن يلفت (١) المصاب الى المصابين ويدل المتألم على مكان المتألمـين ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن احساسه بالبلوى ، فارشد الى أن ينظر الى من هم أشد منه هولا وخطبا ورزءا »

فيقال : وهذا أيضا مع ما فيه من الاسهاب الفارغ لا حجة له فيه ولا تعلق للحديث به ، وهو فى الجملة موافق لما ذكرناه فى الزهد والقناعة كما تقدم ، فهو يناقض ما شنع به على أهل الزهد والقناعة فيما سبق كما هو ظاهر

فصل

قال « وأما قوله تعالى ﴿ ولا تمـدن عينيك الى ما متعنا به أزواجـا منهم زهرة الحياة للدنيا ﴾ فهو فى موضع النهى عن الحسد (٢) وعن التطلع الى مـا هو فى حوزة الآخرين ، فان هذا صنيع الأطفال والنساء العاجزات ، وهو صنيع لا يوصل الى غير الألم والغيظ والحـقد ، ولـكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحيـاة الدنيا وغيرهـا (٣) بدون أن ياكل أنامله ونفسه تشوقا الى ما متع به

(١) تقدم له نحو هذه العبارة فى استعمال « يلفت » فى غير محلها

(٢) تقدم تحريضه عـلى الحسد ومنافسة الآخرين فى المبحث الثانى ، فانظر الى كلامه هنا كيف نقض به ذاك

(٣) ما ندرى ما المراد من غيرها

غيره من عباد الله »

قلت : كلامه هذا من جنس ما تقدم ، وقد عرفت ما فيه ، غير أنه ألحد في الآية الحادا بينا - كعادته - فانه حذف منها ما يفسد تقريره ، وهو قوله ﴿ لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ فآخر الآية يبطل دعواه من أنه يجب على العاقل أن يبلغ نفسه آماله إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها ، فهذا يناقض فحوى الآية ، فان الله بين أن ذلك فتنة وابتلاء لا لأجل أن يبلغ الانسان كل آمال نفسه منها ومن غيرها ان استطاع ، ولهذا قال ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ ، أي فيجب أن يطلب الذى هو خير وأبقى منها . ومن مدّ عينيه الى مالغيره من زهرة الحياة الدنيا وطلب إعطاء النفس آمالها فقد عصى الله ، فان الله نهى عن أن يمد الانسان عينيه الى هذه الزهرة ، وبين أن ذلك فتنة ، وأن الأولى للانسان أن يمد عينيه الى الآخرة التى هى خير وأبقى كما قال فى الآية الآخرى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ ومعلوم أن ما قاله يتضمن أن الاهتمام بها أعظم من الاهتمام بالآخرة ، وهو خلاف أمر القرآن المتضمن النهى عن مدّ العين الى ما متع الله به الكفرة من زهرة الحياة الدنيا ، لأن الله انما أعطاهم إياها فتنة ، والا فرزقه سبحانه خير من هذه الزهرة التى هى فتنة ومتاع الى حين فلا يغبط عليها إلا من هو منقوص العقل والدين كما هو الواقع

ثم قال « فالآية فى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهود والأعمال والانتاج الانسانى ، فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها ، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل « زيادة المرء فى دنياه نقصان » وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة « انها هى القدرة على العمل » نعم ان السعادة هى القدرة على العمل ، وليست هى العمل بدون القدرة عليه ، وليست أيضا هى البطالة والكسل ذهابا وراء ذلك المخدر القديم الشنيع : الزهادة والقناعة »

فيقال : بل الآية فى معنى الزهد والقناعة بالمعنى الذى قرره المسلمون كما ذكرناه ، لا على ما فسرته بمقتضى شهوتك وارادتك ، فانك عدو للاسلام فلا يقبل ادعاؤك عليه وعلى أهله ، فانك فسرت ذلك بما يهبط الهمم والجهود لقصد التنفير ، واذن فالواجب أن نضرب بثقافتك هذه عرض الحائط ونشيد الثقافة على حب الآخرة والى ما يقرب منها من أمور الدنيا من مشروع أو مباح ، فنشيدها على حب الدين وحب العمل به وما يعزه ويجله ويحترمه فنعيش فى ظله سعداء آمنين بخلاف من شيد ثقافته على حب الدنيا دون الآخرة ، فانه يصبح خوانا كفورا كالكلب دائما يلهث على الدنيا متراخيا فى أعماله كلها إلا فى شهوته وهواه ، لأنه مدفوع بهما ، فهو دائما يتطلب ما يرضى شخصيته ونفسه من هذه الحياة ولو أوقد بالبشرية كلها لانضاج خبزته . فتعاليم الدين هى تعاليم الحياة الصحيحة ، وما خالفها وضادّها فهو الموت بعينه كما تقدم تقريره

وأما اعتراضه على قول القائل وهو أبو الفتح البستى « زيادة المرء فى دنياه نقصان » وتسفيهه له فهو من جنس اعتراضاته الأخرى التى لا وجه لها ، لأن مقصود القائل أن زيادة المرء من هذه الدنيا نقص فى الحقيقة ، لان الانسان دائما ينقص إلا فى طاعة الله كما قال تعالى ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ السورة . فأخبر تعالى أن الانسان فى خسارة إلا من آمن وعمل صالحا ، ومعلوم أن الخسارة بمعنى النقص ، وهذا القائل الحكيم ذكر أن الانسان فى نقص إلا من ازداد من الخير ، فانه قال :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ۞ وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لاثبات له ۞ فان معناه فى التحقيق فقدان

فهذا القائل استثنى من يكسب فى دنياه الخير ، ومعلوم أن الايمان والعمل الصالح هو رأس الخير ، فمعنى كلام هذا القائل فيه من معنى سورة العصر التى قال فيها الامام الشافعى « لو ما أنزل الله حجة على خلقه الا هذه السورة لكفتهم » لانها أخبرت عن الخاسر من الرابح فى نوع الانسان ، وبينت

طريقة الربح كما بينت طريق الخسارة ، وهى المخالفة لطرق الربح على ما بينه فى هذه السورة وسورة التين ، ولهذا عد العلماء هذا القول من الحكم ، وجعلوه فى الأبواب والكتب التى يذكرون فيها الحكم ، حتى جاء هذا المعكوس فأراد أن يعاكسهم ، وهيهات ، فان البيت فى غاية الصحة والحكمة والبراعة الفائقة

وقوله « وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة انها هى القدرة على العمل » فيقال : هذا ليس بشىء ، فهو قول مجمل ليس فيه جمال ولا جدّة وليس فيه تعريف للسعادة فلا يجب الايمان به ، فالقدرة على العمل ليست بسعادة ولا شقاوة ، انما السعادة هى تحصيل نتيجة العمل المقدور عليه على الوجه المطلوب الصحيح ، هذه هى السعادة ، والا فالقدرة على العمل وسيلة للسعادة وللشقاء ايضا ، وقد تكون ناجحة فى عمل مثمر صحيح فتحصل السعادة ، وقد تكون ناجحة فى عمل غير صحيح فتكون وبالا على صاحبها ، وقد لا تنجح مطلقا فتكون فاشلة وعملها حابط فيورث الحسرة والندامة فتكون شقاء أيضا ، فكثير من الناس يقدر على العمل لكن ليس له من قدرته على عمله الا التعب والنصب ، كالاسير الذى يعمل لغيره ، وكالأفراد الكثيرة فى الشعوب الاشتراكية المضغوطة التى لا يحصل لها من أعمالها إلا كما يحصل للبهيمة مقابل عملها أو دونه ، وثمرته الناضجة لغيرها . فالسعادة تناط بنتيجة العمل فقط . على أنه أيضا لا يلزم من القدرة على العمل وجود العمل ، فليست القدرة هى الفعل ، ولا بد من العلم بوضعية العمل فليس من قدر على شىء يعلمه ، ولا بد من الارادة الجازمة معها ، ولا بد من انتفاء المعارض . فالقدرة سبب واحد من أسباب نتيجة واحدة من نتائج كثيرة ، فأين السعادة . فقولك « نعم ان السعادة هى القدرة على العمل » نقول : لا بل السعادة حصول النتيجة الصحيحة من الأمر المطلوب ، والقدرة لا تكفى فى ذلك . وقولك : وليست هى الغمل بدون القدرة عليه ، يقال : لا يوجد عمل بدون القدرة عليه ، فهذه ثرثرة باردة ، وكأنك تريد أن تقول وليست هى ترك العمل مع القدرة

فخانتك القريحة المقبوحة على مقتضى تفريعك على القناعة ، أما نفى السعادة عن العمل بدون القدرة عليه فلا يصح على هـذا القول الذى قلته ، اللهم الا أن يكون من متشابه حقائقك الازلية الابدية التى لا يعلمها الا أنت أو الراسخة أقدامهم فى أوحـال علمك ، وأما غـــيرهم فلا معنى له عندهم البتة . وقوله « وليست أيضا هى البطالة والـكسل ذهابا وراء ذلك المخدر » فيقال : وليست هى أيضا ذلك اللهث والجشع والتهالك وراء تلك المجازفات الجنونية الطائشة ، وليس هذا الادعاء وارداً على قولنا فى الزهد والقناعة على معناهما الشرعى عند المسلمين ، فانمـا يتأتى على ما اخـترعه هو ، ويكفى أنه أنكر لفظ الزهد مطلقا مع اقرار أئمة المسلمين كالامام أحمد والشافعى وغيرهم حتى صنف الامام أحمد فى ذلك كتابا يعرف بهذا الاسم ، ونقل فيه أقوال أئمة المسلمين ، فشمخ هذا الملحد بانفه عن هؤلاء الأئمة وعن رأيهم وعقائدهم ، ولـكنه أرغم هذا الأنف الذى شمخ به فى نجاسات الملاحدة وخبائثهم ، وطاب له ذلك وهـدأت عليه نفسه وغذيت به روحه لانه يناسبها

فصل

ثم قال « كان الرسول عليه السلام يتعوّذ ويـقول فى تعوّذه : اللهم انى أعوذ بك من الفقر والـكفر ، فقالوا : يارسول الله وهل يكون الفقر عدل الـكفر — أى مثله — فقال : هما عدلان . حديث صحيح »

فيقال : بل هو حديث غـير صحيح ، بل باطل بهذا اللفظ ، لم يقل النبى ﷺ ان الفقر عدل للـكفر ، وهذا الرجل لا يتحاشى فى الـكذب على الرسول ﷺ ولا يبالى فى ذلك ، ويسوق الحديث ولا يعزوه الى شىء من الـكتب ، ثم يصححه بمجرد هواه ، ولم يسبقه أحد من أهل العلم الى دعواه ففى اى كتاب وجد أن النبى ﷺ جعل الفقر عدل الـكفر ، وقد أجمع المسلمون أنه لو مات فقير ورثه أقاربه من المسلمين ولو مات كافر لم يرثه أقاربه من المسلمين ، وليس

للكفر عدل من الذنوب ، مع أن الفقر ليس بذنب البتة فكيف يكون عدل الكفر ، هذا لا يسوغ فى عقل ولا دين ، قال تعالى ﴿ ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ فأخبر تعالى أن الكفار شر الدواب عند الله ، وليس الفقراء هم شر الدواب عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ﴾ الى قوله ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ فأثنى عليهم مع أنه نعتهم بأنهم فقراء ، فكيف يثنى عليهم وهم كالكفار على مقتضى قول هذا الملحد ، وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ الآية فأثنى عليهم مع وصفهم بالفقر ، بل من ادعى أن الفقر كالكفر عند الله فلا شك أنه كافر فان الكفر جريمة اختيارية بخلاف الفقر ، وقد فرق الله بينهما فى كتابه العزيز وأجمع المسلمون على ذلك ، وهذا الملحد يأتى بالطامات التى لا تطاق من الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه والمؤمنين فيجعلها أصولا ، ثم يشرع فى التفريع عليها . فمن ذلك أنه يأتى الى الأحاديث الباطلة فيقول فى بعضها « حديث صحيح » ويأتى الى الاحاديث الصحيحة المتفق عليها أو المروية فى الصحاح فيقول « هذه مزورة أو كذب » كما فعل فى حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » ونحوه من الأحاديث المروية فى الصحيحين وغيرها .
فهو يريد أن يفرض على المسلمين أن يكون هو المقدم فى كل أمر ، هو المقدم فى علم الحديث وعلم الفقه والفلسفة والتفسير واللغة والشعر والهيئة وكل العلم ، بل يريد أن يكون العلم كله له فلا يطلب من غيره ولا يرغب الى سواه ، وهو المقدم فى أمور الدين والدنيا : جنون وغباوة لا حد لها . وقد سبق الكلام فى بيان الفقر عند المسلمين فى أول هذا البحث ، فاذا عرفت أن هذا الحديث غير صحيح وأن النبى ﷺ لم يجعل الفقر عدلا للكفر بطل ما فرّعه على الحديث لانه مبنى على أصل باطل كعادته فى التفريع على أوهامه التى يخترعها ويرمى بها الاسلام ثم يطيل التفريع عليها ، فهو يدعى لنفسه ويشهد لها ويحكم لها ،

ومجرد قرن الفقر بالكفر فى الاستعاذة لا يفيد مساواته به وأن يكون عدلا له ، فانه قرن معه الكسل والجبن والبخل وليست هذه الاخلاق كفرا عند جميع المسلمين

فصل

ومن عجائب تناقضه ومخازيه ما قاله فى معرض هذا المبحث لما أسرف فى بهت المسلمين بأنهم رفضوا الدنيا وكرهوا المال والجمال واعتنقوا الزهد وعرف أن الناس سيعلمون بهته وكذبه وفساد دعواه فقد أورد على نفسه اعتراضا أهوج وأجاب عنه بكلام ساقط ، وقد بينا لك فيما تقدم أنه يرى فى نفسه القدرة التامة على الخروج من كل تناقض يقوله أو يدعيه ، ولهذا فانه لا يعبأ بما يرد على كلامه من كفر وتناقض وزور وفجور ، لأنه يرى أنه أوتى من العلم والمعرفة والدهاء والمكر والخبث مالم يؤته أحد غيره فيمكنه بذلك ان يخرج من كل تناقض كما أخبر بذلك عن نفسه فى أبياته الكثيرة المتقدمة ولا سيما قوله :

ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

وقوله :

اذا قلت قولا أمن الدهر واستحى وهاب مقالى أن ينازعه الدربا

الى غير ذلك مما أسلفناه من الشواهد ، فمن تكون هذه منزلته كيف يجوز عليه التناقض أم كيف يليق به الغلط أو الخطأ ، هذا مما لا يكون على زعمه أبدا ، فقال :

« فاذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول إنه — وان كان رأيهم وقولهم فى الحياة وفى طلب المادة والمال كما ذكر — الا أن هذه الآراء والاقوال لا تأثير لها فى انحطاطهم وعجزهم وضعفهم ، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة فى أن يكون زاهدا وعملا [1] بأقاويل هؤلاء

---

(١) كذا بأصله

الشيوخ الغابرين ، بل انهم كلهم كما شاهدنا يعبدون المال والمادة ويحاولون كسبها بكل الطرق ـ حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة ـ وبكل الوسائل ، فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة فى تلك الكتب الميتة ، كتب أولئك الميتين ، فى حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة » انتهى

فبالله عليك انظر الى هذا الايراد الأهوج الذى صنعه لنفسه على ما أحب ، كيف يكون رأى المسلمين فى الحياة وفى طلب المادة كما ذكره من الزهد ، ومع هذا يعبدون المال والمادة ، هذا من أمحل المحال ، اذ كيف يزهد الانسان فى المال دينا ومع هذا يعبده ، لكن هذا الملحد مبتلى بالتناقض . حتى فى الايرادات التى يوردها على نفسه ، وقد بينا فيما سبق نظرية أئمة المسلمين فى الاكتساب والزهد وحب الحياة فى أول البحث

ثم قال مجيبا نفسه بنفسه على هذا الايراد « اذا قال قائل هذا واعترض هذا الاعتراض ، قيل فى الجواب : ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا ، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها » ، هذا كلامه ، فاعتبروا يا أولى الابصار وأنصفونا : كيف يترجم أول البحث بكراهة الدنيا والزهد المخدر ، ثم يقول هنا ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا الخ . هناك يدعى أنهم كرهوها ووسعوا الدعاية فى الزهد ثم يأخذ فى الاستدلال على ذلك حتى صورهم عاكفين فى المساجد تاركين الدنيا بالكلية ، وهنا يدعى أنهم يحبونها ويحاولون ويتمنون نيلها بكل الطرق حتى المحرمة ، وأن ذلك ما فيه شك . هذا القائل المستكبر يظن أن الناس كلهم دجويون أو أن المسلمين قوم مغفلون فهو يريد أن يخاطبهم كلهم بمخاطباته للدجوى تلك المخاطبات الساذجة الوقحة التى لا يتكلم بها من له عقل وحياء

يا بلعام زمانه ، نظنك رأيت بعضا من الناس يمدحون هذيانك وثرثرتك الفارغة فى بعض نبذك الهوجاء فظننت أن المسلمين هم أولئك الذين لعبوا

بعقلك وأغروك على الجنون النهائى . يا بلعام زمانه ، ما ندرى من علمك هذا الهذيان والسخافات الجنونية التى ليس وراءها سخف وجنون

يا بلعام زمانه ، ما وجدت من الاعتراضات إلا هذا الاعتراض السخيف ثم هذه الاجابة الهوجاء تأتى فتقول على رءوس الاشهاد انهم كرهوا الحياة واشتغلوا بالزهد والقناعة حتى اثر ذلك فيهم هذا الاندحار العظيم ، ثم تنتكس رأسا لعقب فتقول ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون الدنيا والمال ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها . لو أصابك الله بالخرس لكان أستر لك ، فلقد والله فضحت نفسك ولوثت العلم ، فوا أسفى على سمعة العلم والدين من أمثال هذا المختال المسكين

ثم انه لعظم شقائه أراد أن يفسر الماء بالماء لانه لغزارة بحره قادر على أن يجمع بين متضادات أفكاره وآرائه فقال « ولكن يجب تدبر المسألة جيدا وفهمها من كل وجوهها »

فيقال : نعم اذا صار دماغ الانسان فى العظمة مثل دماغك ، وكان عقله مثل عقلك ، أمكنه حينئذ أن يتدبرها . أما والناس بهذه الحالة :

« اذا مشيت فكل الناس فى أثرك   وان وقفت فما فى الناس من يجرى »

فكيف ـ والحالة هذه ـ يمكننا أن نتدبرها ونفهمها من كل وجوهها المظلمة

أو لعلك انما تريد بهذا الخطاب أولئك الذين أغروك وغروك واغتروا بك ، فان كنت تريد هؤلاء فهؤلاء لا يحتاجون الى تدبر مطلقا ، بل هم قد عرفوا سبيلهم معك ، لانهم ماداموا راضين عنك فسيحملون كل ما تقوله على الوجه الأحسن مهما كان الأمر ، وان كرهوك من أجل أمر دنيوى فانهم سينبذون كلامك نبذ النواة مهما كانت حالته ، لان هؤلاء لا يتبعون الحق والحقيقة معك وانما يتبعون أهواءهم ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

ثم قال الدر الذى فى لجج البحر « ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم ، ولكنهم يكرهونها ويذمونها بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم (١)، فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه وبالاعتقاد والدين والعقل والرأى يرفضونه وينكرونه ، فتتعارض القوى والعوامل فيهم فاذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع (٢) بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة ، وهذا فى الاغلب ، واذا وجدوها بعيدة المنال محوجة الى الجدّ والدأب ـ وهى كذلك فى الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ ـ تعلقوا باعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل : ان الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية ، والقائل لهم أيضا : ان الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية فيكسلون ويكلون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد فى سبيل ذلك ، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التى تؤخذ بالوسائل المحرمة لانها حينئذ تكون فى الغالب سهلة قليلة الاعنات والعناء بعيدين عنها زاهدين فيها اذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة ، وهذا أعجب شىء ، على أنه هو الواقع الحاصل المشهود » انتهى حله لهذا الايراد

ونحن لا ندرى هل هذا من محكم حقائقه أو من متشابهها ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا أول البحث ، ولكن نزيد هنا بما يمحقه عن آخره ، وذلك من وجوه :

أحدها أن ما ادعيته من كونهم يحبونها بغرائزهم ويكرهونها باعتقادهم دعوى فى غاية البطلان ، ولعلك نسيت دعواك فى صحيفة ١٦٩ فى قولك

---

(١) كذا بالأصل

(٢) كذا بالأصل

« ولكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الأعمال كلها الاعتقادات ، وأن العامل انما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده » وكذلك قولك فيما تقدم ان الذى يشب الحروب هى الغرائز والميول الشريرة ، ومعلوم أنها لا تشبها إلا رغبة فى المادة ، وعوامل الزهد هنا إن كانت دينية قوية منعت الغرائز المضادة لها ولم يكن ثم حب ولا تمن ولا حرص شديد يوجب أخذها بطرق الحرام ، وان كانت عوامل الزهد ضعيفة فحصول ما يضادها كاف فى تحصيلها وأخذها بالجد والاجتهاد

الوجه الثانى أن كلامك هذا مجمل ملبس ليس كافيا فى الإجابة على السؤال ، فاننا نتحداك تحديا لا هوادة فيه أن تبين لنا الطريق المفيد فى تحصيلها ثم تثبت أن المسلمين تركوا هذا الطريق وأنهم لم يعملوا به من أجل زهدهم وقناعتهم لا لعجزهم ، وهذا لا يمكنك أبدا

الوجه الثالث أنه لا يوجد فى الدنيا طريق واحد سواء كان ذلك الطريق مشروعا أو مباحا أو محرما يمكن تحصيل الدنيا به الا وقد سلكه طوائف من هذه الأمم الاسلامية كما سلكه غيرهم من الدول الأخرى ، ولكن التوفيق بيد الله ، وحيث انهم أطاعوا أكثر دينهم لم ينفعهم ذلك ، وأما غيرهم فقد بينا الفارق والسبب فيهم فيما تقدم

الوجه الرابع أن قولك « فاذا وجدوا الدنيا سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها » قول ساقط ، فانهم لم يخصوا هذا الطريق بالاكتساب ، بل أراقوا دماءهم ، ومنهم من خرج من دينه ، ومنهم من غامر بحياته فى هذا السبيل وفى غير ذلك من الأعمال الشاقة ، فمنهم من حصل بعض مقصوده ، ومنهم من عجز عن ذلك . فدعواك أنهم لا يأخذونها إلا بالطرق القريبة كذب ظاهر لا يخفى عن أدنى عاقل

الوجه الخامس أن قولك « واذا وجدوها بعيدة المنال محوجة الى الجد والدأب ـ الى قولك ـ تعلقوا باعتقادهم ورأيهم » قول أسقط من الذى قبله ،

فما هو الطريق الذى يرونه بعيد المنال فلم يأتوه بل تركوه من أجل الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، أليس انهم من زمان الخلفاء الى هذا الوقت وهم يتقاتلون عليها ويتشاتمون ويتلاعنون ويتقاطعون ، فما هى أسباب الفتن وانقسام المسلمين على أنفسهم هذا الانقسام المتباين ، هل هذا كله من الرغبة فى الآخرة أو أكثره من أجل حب الدنيا ، بل كل هذه الفتن وهذه الخيانات وهذا الجلاد والجهاد والمجالدة والمجاهدة والمعاندة والمعارك المتصلة حلقها كلها من أجل الدنيا ، فدعواك أنهم يتركونها إذا وجدوها محوجة الى الجد والدأب دعوى فى نهاية السقوط ، وهى أوضح فى بطلانها من أن يسهب فيها

الوجه السادس أن الزهد الحقيق الآن وقبل الآن من مئات السنين لا يوجد الا اسمه فى بطون الكتب فقط ، وأنت تعلم ذلك ، وانما أتيت به هنا تشويها لسمعة المسلمين ، وإلا فبين لنا حكومة واحدة اعتمدت هذا الزهد واعتنقته واتخذته لها دستورا تسير عليه أو دينا تتعبد به ، بل الزهد والقناعة والصبر على الفقر قد كان أكثر فى زمان التابعين والصحابة ، وكانوا فى غاية العزة والتقدم ، وما ضرهم وجود الزهد فيهم ، وليس بلاء المسلمين الزهد ولا كراهة الحياة الدنيا ، فان هذا لا يوجد أبدا ، وكل ما قلته من أول البحث الى آخره فى محاربة الزهد والقناعة والحث على الدنيا وأن الناس كرهوها كله لا أصل له ، وإسهابك هذا وإطنابك كله لكونك تدور على شىء واحد وهو أنهم لم يكفروا بالآخرة ويرفضوها ، فجعلت عدم كفرهم بالآخرة هو كراهة الدنيا والزهد فيها . فهذه العقدة النفسية هى التى طوحت بك فى هذا الميدان الى هذا التطويل والتهويل والدوران المتعاكس الذى لا طائل تحته

الوجه السابع أن اعتراضك هذا ثم اجابتك عنه ـ على ما فيه من سخافة وغثاثة ورثاثة ـ كاف فى بطلان جميع ما قررته فى هذا المبحث ، لأنك جعلت المسلمين مجردين من العمل والاحتساب والاخذ للدنيا مطلقا وتركها مطلقا ، وهنا اعترفت صريحا بانهم يحبون المال والدنيا ، وأنهم يحاولون ويتمنون

كسبها ونيلها والاستزادة منها ، ثم قلت صريحا ان هذا (بكل الطرق حتى المحرمة منها) ، وهذا تناقض واضح . ثم ان ما يوجد فى بعض المسلمين من الفروق والتفاوت فى الحرص عليها يوجد مثله فى الشعوب الراقية الاخرى ، بل الزهد فى النصارى أكثر ، فان حرصهم دون حرص اليهود بكثير باتفاق الناس ، ومع هذا تقدموا عليهم ، بل تكاد تكون الشعوب النصرانية أقل الشعوب فى الحرص على كسب المادة من كل وجوهها منذ القرون الطويلة ، ومع هذا فقد تقدموا على غيرهم هذا التقدم العظيم . وقد بينا فيما مضى أن الحرص الشديد على الدنيا والتهالك عليها هو أساس الضعف والانحلال لأنه يوقع فى الذلة والخيانة وترك الجهاد والجلاد ويجعل صاحبه مخلدا الى الارض راضيا بالارغام والذلة والمسكنة وفساد الخلق والدين ، لانه اذا كان قصده الحقيقى هو المادة والدنيا لم يتطلب ما وراء ذلك مما قد يكون سببا فى فقره وإفلاسه ، فما ذكره هنا على هذا الاعتراض ليس بشىء ، وانما لجأ اليه خشية افتضاحه فيما زوره من الكذب فى الزهد والقناعة ، فأراد أن يموّه به على من قل نصيبه من العقل والفهم والدين ، وهيهات وما أحسن ما قيل فى مثله :

ولقد أقول لمن تحرش للهوى   عرّضتَ نفسك للبلا فاستهدف

واعلم أن مناقشته فى مثل هذا الهذيان الكثير والرعونات الساقطة توجب التطويل والإسهاب وضياع الوقت بدون فائدة كبيرة ، لأن كلامه كله من هذا النمط ، وحسبنا أن نتتبع جميع ما يعتمده من أصول كلامه فى مضادة الأديان والهجوم عليها ، لان ذلك هو ما قصدناه ، مع أن أكثر كلامه مكرر ، كما نبهنا على هذا مرارا ، والله لا يصلح عمل المفسدين

﴿ تم الجزء الاول ﴾

ويليه الجزء الثانى أوله « الكلام على المبحث السادس » عنوان فى كتابه (هل فى سنن الله محاباة) الخ

فهرس

صفحة

صفحة

بيان الهدى من الضلال

في الرد على صاحب الاغلال

تأليف

العلامة المحقق فضيلة الشيخ

ابراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي

قاضي المقاطعة الشمالية

الجزء الثاني

١٣٦٩

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح * بجزيرة الروضة (القاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

الكلام على المبحث السادس
نواميس الطبيعة

عنوانه فى كتابه :

(هل فى سنن الله محاباة)

(الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم)

(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ومقصوده بهذا العنوان تقرير ما ذكره وكرّره مرارا فى أن التقدم كله منوط بالأسباب المادية فقط ، أى ليس لمشيئة الله تعالى وإرادته أثر فى الأسباب والمسببات والوسائل والنتائج البتة ، بل هذه الحوادث كلها على اختلاف أنواعها هى نتائج تفاعل الطبيعة المستمرّ ، وقد تذرّع بخبثه العميق الى إبطال خصائص الإيمان والتقوى والعمل الصالح بتسمية ذلك (محاباة) ، فجعل تفضل الله على من شاء من عباده وجزاءه على الإيمان والتقوى محاباة وتشويشا وفوضى واضطرابا ، ورفض جميع ما علم بالضرورة من دين الاسلام من أنه سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ويختص برحمته من يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، وأنه يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه مع المؤمنين ومع المتقين ومع المحسنين ، وأنه برىء من المشركين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور ، والآيات فى اثبات هذه الأصول كثيرة معلومة يأتى الكلام عليها

واعلم أن المحاباة يراد بها أمور : أحدها الاختصاص الذى يختص الله به من يشاء من عباده من التوفيق والهداية والنصر والإعانة وغير ذلك ، وهذه ثابتة بالشرع والعقل والضرورة ، وإنكارها مكابرة للعقول وقدح فى الأديان ، وكل أحد من الناس مضطر الى الإقرار بها ، فان تفاوت الناس - بل المخلوقات - فى الخصائص والخصال المتنوعة - كالقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والعقل والبصيرة ، والبلادة والذكاء ، والغنى والفقر ، والجمال والقبح وأمثال ذلك - أمر معلوم بالحس لا يقبل الجدال ، ولقد كان كثير من المشركين يلجأون الى هذه الشبهة - أى إنكار الاختصاص - عند ما تخنقهم الحجج ولو بالمكابرة ، كما قال تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ وقال تعالى حاكيا عنهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون ﴾ وقال تعالى مخبرا عنهم إنهم قالوا لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ فبعض المشركين كانوا ينكرون هذا الاختصاص لانه عندهم محاباة ، فخلف من بعدهم ورثتهم من الملاحدة والمنافقين فسموا فضل الله تعالى بالاعانة والتأييد (محاباة) توسلا منهم الى نفى أصل الدين ، فانه اذا انتفى هذا بطل الدعاء وبطلت العبادة بأنواعها ، ويكون حينئذ ولى الله كعدوه سواء ، فقد علمت أن هذا الأمر فى الاختصاص الذى يسميه هو وأمثاله (محاباة) ثابت شرعا وعقلا وحسا ، وهناك أمر آخر قد يسميه بعضهم محاباة وهو إكرام من لا يستحق الكرامة فى الحكمة الالهية ، بل يكرمه الله مراعاة لكريم عليه ، فهذه المحاباة - بحسب اصطلاحهم على هذه التسمية - باطلة ، فالله

سبحانه لا يكرم أحدا الا بعمله أو بما شرعه من الامور التى يستحق عليها الإكرام ، فلا يكرم أبدا من يستحق العقوبة المحتومة مراعاة لكريم عليه من خلقه كائنا من كان ، فلا يكرمه مخالفة لسنته فى إهانة العاصى وإكرام المطيع ، ولا يشفع عنده أحد الا باذنه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لفاطمة رضى الله عنها « يا فاطمة بنت محمد ، سلينى من مالى ما شئت ، لا أملك لك من الله شيئا » وقال لعمه أبى طالب « يا عم ، قل لا اله الا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله » ومع ذلك فلم يقلها ومات على دينه . وكان خليل الرحمن ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد حرص كل الحرص على إسلام أبيه فنصحه ودعاه الى التوحيد بل واستغفر له ، ومع ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد قال تعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ فهذه المحاباة ـ على حسب هذا الاصطلاح ـ منفية عن الله تعالى ، وليست من شرعه . وقد روى الامام أحمد والحاكم وصححه عن أبى بكر مرفوعا من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر أحدا محاباة فعليه لعنة الله والملئكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » وعن ابن عباس مرفوعا « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » رواه الحاكم وصححه ، فى هذا بيان أن المحاباة وهى إعطاء الأنسان مالا يستحقه كتولية من ليس فيه كفاءة للولاية لا ساءته ، أما اذا كان محسنا وكان كفؤا للولاية فتوليته ليست محاباة [1]. ومن يقول إن المسىء كالمحسن وإن الإحسان والاساءة لا أثر لهما فقد قال بالمحاباة باللزوم ، فان إعطاء المسىء ما ليس يستحقه وحرمان المحسن ما هو حق له محاباة صريحة . فهذا الملحد وأضرابه هم القائلون بمقتضى أصولهم بالمحاباة كما هو ظاهر ، وقد أكثر هذا المغرور من

---

(١) اذ لو كانت محاباة لانسد باب الولاية مطلقا ، فان الناس بالنسبة الى الخلق والعنصر سواء

التعبير بمثل هذه الألفاظ المشتبهة المجملة فى كثير من كلامه ، ولا سيما فى المضايق الخبيثة ، وغرضه من ذلك جعلها قابلة لتأويله وتحريفه متى احتاج الى التخلص مما يرد عليه من الألفاظ التى ظاهرها الكفر والالحاد ، وهو هنا توسل بنفى المحاباة بجملة لقصد ما أشرنا اليه فى الامر الأول من التخصيص الذى ثبت بالشرع ، فانه أطال فى انكار تدخل العبادات أو آثارها وسخط الله ورضاه فى شيء من الأسباب والنتائج أو التقدم أو التأخر كما سياتى . قال المغرور

(هل فى سنن الله محاباة) ، (الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم)

(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ينشىء رجل مسلم متجراً أو مصنعا فى مكان مّا ، ويعرض فيه أنواعا من أنواع المصنوعات ، فيقضى له سوء تفكيره وتقديره بالكساد ، فيظل يموت جزءا جزءا حتى يودع آخر أنفاسه ، أو يبقى عاجزا عن الموت وعن الحياة بدون أن يحاول فى الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص ، فاذا ما زرته أو عدته قبل نهايته أو فطنت لحالته وقلت له : لماذا أنت هكذا ، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين ، ولماذا تصبر على هذا الموت البطىء المحقق ، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق ، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض . ومن المعلوم أن الاسباب الطبيعية للكساد الصناعى أو التجارى ثلاثة أمور : مكان العرض ، فقد يكون اختيار المكان خطأ . ونوع المعروض ، فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب ، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة . اذا ما وجهت هذه الاسئلة أو بعضها الى ذلك الجاهل بسنن الحيــاة ونظام الكون ، الجاهل بالله ، قال لك وكله ثقة وايمان بما قال : ان الرزق والنجاح ليسا بالشطارة ولا بالجدارة ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض ، انما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر ، والمقضىّ المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هربا منه »

بل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه ، فلا معنى إذن للتغيير والتبديل ، ولا معنى للنقلة والارتحال ، ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضا عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر فتطويه كما طوت الملايين قبله ، وكما ستطوى الملايين بعده (١) »

فيقال : قد صدَّر هذا المبحث بهذه الجملة المنكرة المشتملة على هذا التهور والفساد الذى لا يخفى على أدنى عاقل ، ولا ندرى ماذا يقصد من هذه الجملة ، أهو يريد أن كل رجل من المسلمين يعمل هذا العمل ، أم يريد أن هذا قد يفعله بعضهم ، أم يريد شيئا قدّره بذهنه أنه كان أو سيكون ، ثم فرَّع عليه ما شاء ، أم يريد أمرا وراء هذا كله . فان أراد أن أكثر المسلمين على هذه الحالة التى ذكرها فقد جاهر بالكذب والزور ، فان الناس مختلفون فى هذه الأمور اختلافا لا يمكن بحال من الأحوال ضبطه ، ولو فرض وجود مثل هذا فى بعض العامة فهل يسوغ فى العقل والدين أن يذكره ويجعله قاعدة عامة ينبنى عليها كل ما لديه من زيغ وضلال فى القدح فى الاسلام وأهله ، وانما يفيده هذا التشنيع لو أقام البراهين ونقل من عقائد المسلمين المجمع على العمل بها ما يصدق دعواه ، أما أنه يتخيل شيئا أو توسوس به نفسه أو يحلم به فى نومة الضحى أو فى وقت آخر ثم يسجله وينسبه الى المسلمين ويعده قدحا وعيبا فيهم ثم يأخذ فى التشنيع والرد عليهم به ، فهذا سخف وسفاهة ظاهرة

ومن عجيب كذبه فى هذه الجملة دعواه بأنهم يقولون « والمقضى المكتوب لك يأتيك » الى قوله « ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه » مع قوله « ينشىء رجل مسلم متجراً » الى آخره . فلم ذا أنشأ هذا المتجر وتعب فى جلب

---

(١) وقد طوت أيضا من عرف سنن الطبيعة طيا أشنع من غيره فى الأكثرين ، وستطوى أمثالهم أيضا ، فالطى هذا سنة عامة شاملة

هذه الأشياء واستعمل البيع والشراء واجتهد فى تحصيل ذلك اذا كان يرى ذلك الرأى ويقول ذلك القول ، بل المقصود من احتجاج بعض الناس بالقدر على الوجه المعروف أن إهلاك النفس بالهم والغم والحسرات بعد بذل الجهد وعمل السبب سفه وعذاب ، فان الرزق مقدر بقضاء وقدر ، فالانسان مأمور بفعل السبب وكل ميسر لما خلق له ، فاذا فعله فتحصيل النتيجة على الوجه المطلوب من عند الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فمن أنكر أن تكون الأرزاق بمشيئة الله وقدره وقضائه فقد صادم النصوص الشرعية مصادمة ظاهرة ، وجعل أرزاق العباد بيد الطبيعة ونواميسها ، قال تعالى ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾ فما قدر الله تعالى للانسان من الرزق فانه سيأتيه ، لكنه سبحانه سيدفعه الى أسبابه ويهيء له طرقه ويزين ذلك فى قلبه ويهوّن طريقه عليه فلا يجعله يهرب منه ويحاول رده ، بل يجعله يطلبه ويحرص عليه وهو تعالى يدل عليه . ثم دعواه بأنه يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضا عينيه الى آخره هل يريد أن يصادم هذه السنة وهو يدعى أن من عارض هذه السنن هلك ولا محالة ومن سار معها بلا اصطدام نال ما يبغى ، فهذا تناقض منه . أم يريد أن يعاكس هذه السنة ويغالبها ويجعلها على هواه ، فهذا غير ممكن ، فمن هو الذى قدر على ذلك من جميع الخلق

فصل

ثم قال : ومن الطرائف المخزية فى هذا الموضوع أنى عاملت مرة إنسانا من هؤلاء ، فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية ، فقلت له : كأنك لست حريصا على أن يعاملوك ، وكأنك لا تريد النجاح ولا الفوز ، فان هذه المعاملة مما يعد الذين ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك . فتعجب من قولى ورآه جدّ باطل ، بل رآنى بهذا قد كفرت أو كدت ، لأنى اعتقدت ان الأرزاق والنجاح

بالأسباب والمعامـــلات لا بالاقدار والأقضية ، وأخذ يسرد علىَّ روايات وفصولا يزعم أنه فعلها بالناس ، وذكر لى فيما ذكر أنه مرة ضرب إنسانا كبيرا جدا عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب ووجه اليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق ثم قال لى : ما تظن أن هذا الانسان الكبير قد صنع بعد هذا الهوان المرير . قلت أظنه ذهب ثم لم يرجع . قال انه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء الىّ متلطفا متخضعا طالبا الغفران والنسيان كانه المجرم الآثم وكأنى المظلوم المغبون . ثم أردف معلقا : أرأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشىء مما تدّعى وتحكى . فغمرنى بجهـــله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكراً فى عاقبة الجهـل والضلال ، ومتعجبا من استعداد الانسان لأن يكون أضل من الانعام »

والجواب أن يقال : ذكره لهذه الحكاية أسخف مما ذكره فى الجملة السابقة ، فانه لا يخلو من أحد أمرين إمّا أن يكون هذا الانسان الذى حاوره عالما أو يكون جاهلا ، فان كان عالما فما الذى منعه من أن يتم البحث معه وينهى المناظرة حتى يعرف ظهور الحجة إما له وإما عليه ، فيذكر حجته وإجابته ، فان مقاطعة الحديث وخروجه من عنده قبـل استماع آخر الحجة دليل واضح عـلى طيشه وحمقه ، وأنه يريد من الناس كلهم أن يتابعوه ولو خالف الحق والواقع . وهذا الرجل انمـا تكلم بشىء قد عرفه من نفسه فوقع له وشاهـده ومارسه وباشره ، فكان من الواجب على هذا المغرور أن يطلب منه الدليل على ما أخـبر به إن كان شاكا فى صدقه أو يتحقق ذلك ، وإما أن يجيب على كلامه بكلام صحيح معقول ويكمل البحث ، وهو لم يفعل شيئا من هذا على مقتضى كلامـــه ، بل اشمأزَّ ونفر كما تنفر الحمر المستنفرة وأخذته العزَّة بالاثم ، لما أسند هذا الرجل رزقه الى ربه قاطعه الحـديث وخرج غـير مكترث بالدين والعقل والأدب ، وهذا غاية الجهل والحمق والضلال والاستعداد لان يكون أضل من الأنعـام ،

وان كان ذلك الرجل المخاطب جاهلا فما هو الذى حمله على محاورة الجهلاء أولا ، ثم ما الذى سوّغ له أن يذكر محاورته فى أغلاله ويجعلها قاعدة لبحث مستقل ثم يحتج بها على المسلمين ثم يأخذ فى التشنيع عليهم ، فهذا هو غاية ما قدر عليه فى تشويه سمعة الاسلام فيما يتعلق برأى المسلمين فى القضاء والقدر فى معاملة البيع والشراء ، فسبحان من أخزاه

ثم قوله « بل رآنى بهذا قد كفرت » يقال : ان كان رآك بهذا قد كفرت فقد أصاب ، فانه لا يشك مسلم فى أن من جعل الأرزاق ليست بمشيئة الله وارادته وإنما هى بالطبيعة وبقدرة الانسان فقط ، فهو كافر خارج عن حظيرة الاسلام ، بل الرزق بالاسباب التى أعطى الله عباده ومكنهم من استعمالها ، فهو مسبب الأسباب الذى يرزق بها ويتصرف فيها بما شاء وأراد ، وأما الأسباب بنفسها فهى من جماد وغيره ناقص خاضع لإرادة الله غير مستقل باعطاء شىء أو منعه أو وصل شىء أو قطعه . وهذا الرجل الذى ذكره - إن صدق فى دعواه - رجل عاقل بين له أولا أنه فعل ما أمكنه ، فلما لم يقتنع بين له الشىء الذى باشره وشاهده ، فلما كذبه وجحد مالم يحط به علما وحصر الرزق فى الأسباب بدون تعلق قضاء الله وقدره بها علم أنه زنديق ملحد خبيث الطوية فلا مانع من تكفيره ، والمسلمون مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاء من رزق فلا بد أن يكون ، ومالم يشأ فلن يكون أبدا

ومن العجب أنه ذكر محاورته لهذا الانسان ، وقد عجز غاية العجز عن الرد عليه ، وإنما أخذ فى التهكم والاستهزاء فقط . ومعلوم أن هذا ليس بحجة ، وهذا الذى ذكره هذا الانسان ليس من المحال ، فان غاية ما انتقده فيه أنه عامل انسانا معاملة سيئة ثم رجع ذلك الذى أسىء اليه واعتذر منه ، وهذا يقع كثيرا فليس مستغربا ، بل هذا المغرور نفسه قد وقع منه ما هو أشنع من هذا ، فانه قد كان أولا بينه وبين كثير من معطلة الجهمية وعباد القبور عداوة

ومشاحنات وسباب واتهام كثير ، وبينه وبين السلفيين ائتلاف وصداقة حسبما يتظاهر به ، ثم بعد هذا كله انقلب على وجهه وعمل مع أعدائه الذين عاملوه باشنع المعاملات القاسية ما لو تمنوه وبذلوا كثيرا من أموالهم فيه لم يحصلوا عليه ، ولقد أقر فى كتبه السابقة(١) أن هؤلاء المستعمرين قد أرهقوا العرب وظلموهم واستعمروهم وسلبوهم كل شىء وأطال فى ذمهم ، ثم رجع عن هذا كله وأثنى عليهم فى هذه الأغلال ولا سيما فى المبحث العاشر ، وقد التجأ أخيرا الى كل أعدائه المعروفين الذين رماهم قبل ذلك بالزندقة والإلحاد وسقط تحت أقدامهم ، كما قاطع أصدقاءه الذين نفعوه وقاموا معه فى أحرج الأوقات فأضاف الى هؤلاء أقذع السب والاتهام والتجهيل وغير ذلك ، فكيف يستغرب هذا وهو قد وقع فيما هو نظيره بل أشنع منه ، مع أن هذه هى سجية كل لئيم - وما أكثر اللئام - فان اللئيم لا بد أن يعادى من صنع اليه إحسانا وأن يصاحب ويوالى من عامله بالسوء ، ونحن قد شاهدنا كما شاهد غيرنا أناسا كثيرين جدا قد عملوا مع من أحسن اليهم أعمالا شنيعة فظيعة ، وعملوا مع من أساء اليهم أعمالا طيبة حسنة ، ولو ذهبنا نسرد ما اطلعنا عليه من ذلك وشاهدناه وذكره غيرنا ممن يعتبر قوله لطال الكتاب ، فان هذا أمر معروف ، وحسبك أن تعلم أن هذا الرب العظيم الكريم الرءوف الرحيم الذى أفاض على كل الخليقة خيره ورحمته ونعمه المتنوعة قد كفر به وعاداه اكثر الخلق ، فبدلوا نعمته كفرا ، وعبدوا الشيطان الذى هو أعدى عدو لهم ، وقد قال تعالى ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ وقال تعالى ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾

ومن عجيب أمر هذا المغرور أنه ذكر فى هذا المبحث نفسه حكاية شنيعة مضحكة ، وهى تبطل معارضته لهذا الانسان فى هذه الجملة التى ذكرها من

---

(١) انظر مقدمة الجزء الثانى من (الصراع)

أصلها فقال ص ٢٠٨ « وقد كنت أعرف شيخا يكاد يعد من الناحية العلمية فى غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية والأدبية والسلوكية فى زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو فى كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع - أو لا يكاد يستطيع - أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونفثها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد ، وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، انه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدى الغاسلين لا يتحرك منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا فى حضرته خشوع الصالحين العابدين فى صلواتهم أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرض الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه التى زوّرتها يداه [(١)] ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا [(٢)] وقد امتثلوا هذا كله [(٣)] ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فما سر هذه القوة فى هذا المخلوق ، إنها أسرار عديدة وإن أقواها أو من أقواها ما فى نظراته وعينيه من سحر خبيث » انتهى

---

(١) ليس هو بأشنع من أغلالك هذه ، ولا طلبه من الناس بأشنع من طلبك لنفسك منهم

(٢) وهكذا صنعت أنت . فادعيت أنه لا يستغنى عن أغلالك مسلم

(٣) لعل هذا هو الذى جرأك على هذا الفعل الشنيع ، إذ ظننت أن الناس سيكونون معك مثل أولئك مع أستاذهم

فبالله عليك أيها المنصف ، وازن بين ما ادعاه هـذا المغرور هنا فى هـذا الشيخ وبين ما انتقده على ذلك الرجل الذى حاوره فيما فعـل ترى العجب من التناقض . ولو أن قائلا قال له لعل هذا الرجل الذى حاورته فيه سرّ دقيق من هذه الأسرار العديدة التى ادعيتها فى هذا الشيخ إما فى نظراته أو عينيه وأنهـا فيه بكل حالٍ لألقمه الحجر ، وهذا شأن هـذا المسكين يأتى الى أشياء واضحة معقولة فينكرها ولا يقبل فيها أدنى دليل ، ويأتى الى أمور مستحيلة فيدّعيهـا ويوجب على الناس تصديقه فيها وقبولها وحدها والعمل بهـا ، فما ذكره من الانتقاد على ذلك الانسان انتقاد ساقط سقوطا بينا

وقوله « فغمرنى بجهـله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، فقطعت عليه الحـديث وخرجت من عنده مفكرا فى عاقبة الجهل والضلال » فيقال : فعلك هذا وقولك دليل على نقص عقلك وسوء أدبك ، بل خنقك بالحجة وأفحمك بالدليل ، فانه أخبرك بشىء واقع شاهـده وباشره بنفسه فأنكرت عليه وكذبته بمجرد كونه لم يوافق رأيك ، ونسبته الى ما اتصفت به من الجهل والضلال ، ولو ساغ لكل من تقوم عليه الحجة أن يقول فى جوابه فلان غمرنى بجهـله العميم لـكان من السهل لكل من اتقام عليه الحجة أن يقول ذلك ويكون جوابا كافيا فى ردهـا ، فكيف يفتخر هذا المغرور بهذا الفعل الذى هو نقص فيه وحجـة عليه . قال بعض الأدباء فى وصف المغرور : هو الذى لا يرى إلا ما يراه ، ولا يعتقـد إلا ما يعتقده ، ويظن أن الدنيا كلها تصدقه وتعجب به وتطريه . وهكذا كانت (الشمس التى فى غير برجها)

فصل

ثم قال « وليست هذه الحكاية فريدة فى هـذا الموضوع ، بل سمعنا وسمع القراء المئات والألوف من أمثالها : يقولون كما يقول هذا الرجل ، ويرون كما يرى ، ويفكرون فيما فكر ، ويعاملون معاملته »

فيقال أولا : قد بينا أنك ادعيت من جنسها مما هو أشنع منها فيما ذكرته عن ذلك الشيخ الذى يعامل أصحابه بالاهانة وهم يعبدونه مع ذلك ، فان كان فى كلام هذا الرجل وعمله بعد أو استحالة فقد ادعيت ما هو أبعد فى العقل منه ، وان لم يكن بعيدا بطل اعتراضك

ويقال ثانيا : ان عنيت أن القراء سمعوا أمثال هذه الحكاية أى طبقها فى كل شىء فكذب وبهت ، فلم يسمع من واحد من الناس ممن يعتد بقوله فضلا عن المئات أو الآلاف ، وأنت لم تنقل إلا عن واحد فقط مع أنك أكذب من سجاح [١] ، فلو أن القراء سمعوا مثلها أى طبقها لذكروه ونشروه ، وإن عنيت أن الناس أو القراء يسمعون مثلها فيما يتعلق بالقضاء والقدر خاصة أى يدعون ويرون أن الرزق بقضاء الله وقدره ومشيئته وعلمه ، وأنه هو مسبب الأسباب وموصل نتائجها ، وأن الأسباب غير مستقلة عنه تعالى بالرزق ، فهذا صحيح وهو اعتقاد المسلمين ، ولكن أنت خالفت هذا الصحيح وذهبت الى الأول ، لأنك انتقدت عليه لما ذكر القضاء والقدر ، مع أنك قد رأيته قد فعل السبب حيث جلب بضاعته وعرضها واستعمل البيع والشراء ولم يعتكف فى مسجده أو يجلس فى بيته ينتظر الرزق . ولا شك أن القـــراء من المسلمين ينكرون استقلال الأسباب من دون الله بالأرزاق وغيرها .

وأما قولك هذا رأى الجاهل بالحياة وهذا عمله ، يقال بل هذا رأى الرجل العاقل العالم بالحياة ، لأنه فعل السبب واعتقد أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء ، وأنه تعالى يرزق عبده بالأسباب ، فانه اشترى بضاعة وعرضها فى دكانه ففعل السبب واعتمد على الله فى ايصال نتائجه ، وهذا هو مقتضى الشرع والعقل . وأما هذا المغرور فانه اعتقد اعتقاد الاطفال الجهلاء الذين يرون آن الأسباب

---

(١) سجاح اسم امرأة مسيلمة التى ادعت النبوة معه

هى التى تفعل بذاتها بدون قوة غيبية تدبرها وتسيطر عليها ، ولهـــذا فانهم يعتمدون على الأسباب المادية اعتمادا كليا لجهلهم بقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته

ثم قال « وأما الرجل الآخر الذى عرف سنن الحيـــاة فانه اذا ما أنشأ مصنعا أو متجرا أو قام بعمل من الأعمال فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمـل فانه يعلم كيف يتلافى أمره ، وكيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلا ان المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر ، ثم لا يلبث أن يخرج منتصرا ، وأن ينجو مما ظنه خطرا مبيدا »

فيقال : هذا كلام مجمل غير مسلم بهـــذا الاطلاق ، فان أردت أن هذا الرجل الآخر وهو الذى يكفر بالقضاء والقدر ويعتمد على نفسه ـ كما هو ظاهر كلامك ومقتضى أصلك ـ لا بد أن ينتصر وأن ينجو فهذا كذب ظاهر مخالف لما عـــلم بالحس والواقع ، فان كثيرا من النـاس يجتهدون ومعهم من الدهاء والمعرفة بهذه الامور ما لم يعرفه كثير ممن نجحوا ومع هذا فلم يحصلوا على ما ذكرته ، وهل هؤلاء الذين سقطوا فى هذه الحروب وغيرها قصروا فى معرفة هذه الأمور ، بل هم أعرف الناس بالعلوم المادية والسنن الطبيعية ، وقد علـم أيضا أن كثيرا من الناس يعرفون طرق التجارة وقد أهلكوا انفسهم فى طلبها وما نالوا اكثر مما ناله من هم دونهم فى المعرفة . وإن أردت أن الواجب على الانسان أن يفعـل الأسباب التى تقيه من الخطر ويستعمل الوسائل التى تروج سلعته أو غيرها مع اعتقاده أنه لا نجاة له مما قدر الله تعالى وقضاه وأن الرزق بيد الله ولـكن الله أمره أن يطلب الرزق بالأسباب التى شرعها ، فهـــذا هو اعتقاد المسلمين فلا حاجة الى التشنيع عليهم فى أمر يرونه ويعتقدونه ويعملون به ـ ولـكن ليس هذا هو مرادك ـ والدليل عـلى أن هـذا هو معتقدهم أنهم يعملون مافى وسعهم من الحيل والدهـاء مقلبين أسبابهم عـلى كل الوجوه التى يرونها نافعة ، فهذه الاعلانات الـكثيرة فى الجرائد والمجـــلات والأسواق

والدعايات الواسعة كلها تدل أعظم دلالة على أنهم مجتهدون غاية الاجتهاد فى تحصيل التجارة وغيرها ، ولكنهم يختلفون فى ذلك كما يختلفون فى أفكارهم وقواهم وعلومهم وصورهم وغيرها ، فلا يمكن أن يكون الناس أمة واحدة متساوين فى كل شىء من الأشياء ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ فلا بد من وجود الاختلاف الذى هو من سنن الله الكونية فى خلقه

ثم قال « واذا تصورنا هذا المثل صحيحا وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية الرجلين اللذين ضربناهما مثلا لم يعسر علينا كثيرا أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيرا متأخرا ضعيفا صغيرا فى كل أمر يتعاطاه ، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنيا قويا كبيرا فى كل شىء يتناوله » .

فيقال : كل هذا مبنى على أصلك الفاسد ، وهو أن الانسان بطبعه واستعداده فى امكانه أن يتغلب على كل شىء فيكون تاجرا ماهرا فى التجارة ، وغنيا بقدرته الذاتية ، وفى إمكانه أن لا يخسر ولا يفتقر أبدا ، بل فى إمكانه أن يكون سلطانا وأن يقضى على كل شقاء وبؤس ، فليس لمشيئة الله تعالى تدخل فى أمره فى رفع وخفض وإحاطة وحفظ ، ولا غير ذلك . وقد مرَّ فساد هذا الأصل وأنه باطل ، وكل هذه الأصول الآتية فى إبطاله ، لانه دائر على إنكار تصرّف الله فى خلقه ، وأن الأسباب الطبيعية مستقلة بتدبير أمر الكون ، وهذا هو اعتقاد الالحاد المحض

فصل

ثم قال :

« يعطى ويمنع لا عقلا ولا سفها لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر فى آخر :

ما زال يعبث بالمكارم جاهدا حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هـذا الشعر أن ذلك الانسان الذى عنـاه بشعره يتصرّف فيما يملك تصرفا ليس دائنا لقانون ولا قائما على حكمة ولا على استحقاق ، فيعطى من يعطى ويمنع من يمنع ويعزّ من يعز ويذل من يذل ويكرم من يكرم ويهين من يهين ، يفعل ذلك لا لأن أحدا من هؤلاء خليق بما صنع ،ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله ، ولـكن لأن مشيئته العليا المطلقة رأت أن تفعل ذلك ، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحبت أن تصنع ما صنعت ، ولأنه قادر ، وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هـذا التصرف الذى قيل فيه حتى ظننا أنه مجنون ، وقيل لانهـا خطرات من وساوسه . وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون فى أفعاله وفى تصرفه فى خليقته مثل رأى هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم ، فيرون أنه تعالى لم يضع نظامـا دقيقا لا فرار منه يلقى كل جزاءه على مقتضاه ، ويأخـــذ كل على حسب ما يعطى ، ويحصد كل انسان ما زرع ، وينجح كل اذا درس وفهم ، ويسقط اذا هو لم يفهم ذلك ، ويرون أن هذا العالم فى يد الله كلعبة فى يد صبى يقذف بهـا ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير »

والجواب أن يقال : أنت من أخبث هؤلاء الجاهلين بالله وبحكمته الذين يرون هذا الرأى الممقوت ، فانك أسندت تدبير العـالم الى نواميس الطبيعة ، وصرحت تصريحـــا لا مرية فيه بأن هذه الموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، وأن النواميس هى التى تحكم هذه الكائنات الحية وهى موروثة من أصلها الذى هو المـــادة ، وهذا غاية التصريح فى أنك جعلت تدبير هذه الكائنات الحية منوطا بنواميس الطبيعة أى تفاعلها ، فكان هذا العالم بمقتضى صريح كلامك موكولا الى الطبيعة ونواميسها ، ومعـلوم أن الطبيعة ليس لها عقل ولا علم ولا حكمة ، بل تعطى وتمنع لا عقـلا ولا سفها ،

بل بمجرد المصادفات ، كالخطرات التى توسوس فى صدر من لا عقل له ، فهذا الكون العظيم عندك كالكرة فى يد السفيه الذى يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بصريح كلامك ، لأن الصبى كالطبيعة إن لم يكن أحسن حالا منها ، لأنه لا عقل له ولا رأى ولا علم ولا تفكير ، وهكذا الطبيعة بهذه الصفة ، وكل من الصبى والطبيعة يجرى فعله بحسب المصادفة والدوافع الاضطرارية لا الاختيارية ، فكما أن الصبى لا يفرق بين المحسن والمسىء والمفسد والمصلح والمتقين والفجار فكذلك الطبيعة لا تفرق بين هؤلاء وانما يفرق العدل الحكيم العليم الرحيم اللطيف الخبير ، وهذا التفريق انما يعتقده من يؤمن بالله بصفات كماله ونعوت جلاله ، لا من كفر بالله وقدره وقضائه ومشيئته العامة ورحمته فاعتقد أن العالم متروك فوضى ومحكوم بالفوضى ، وكما أن المجنون لا يفرق بين من يطيعه ومن يعصيه والموافق والمخالف ، ولا يحب ولا يبغض ولا ينتقم ولا يثيب على ذلك بل أموره كلها تجرى على حسب المصادفات وحسب الدوافع الاضطرارية فهكذا الطبيعة وأسبابها ، فكل ملحد أو زنديق فانه معتقد الفوضى فى العالم والكون ، وأما من اعتقد أنه يجرى بمشيئة الله العليم الحكيم الرءوف الرحيم ﴿ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين﴾ وكل عامل يجازى بقدر عمله ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ فلا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ، ولا يجعل المتقين كالفجار ابدا ، فلا بد أن يعتقد أن العالم محكوم بأعظم نظام وأكمله وأحسنه وأفضله . فهذا المغرور لم تطب نفسه بالحكم الالهى ولا بالنظام الالهى ، بل كرهه ومقته وجعله فوضى وسفها ، فجعل من دعا الله وعبده لم يحصل له الا الخيبة والشر والتعب والنصب ، وجعل من اتبع أفكاره هو وآراءه فلا بد أن ينهض وأن يتقدم ، ومن خالفه فلا بد أن يهوى ، فجعل أفكاره هى النظام الموصل الى النتيجة ، وأما شرع الله ونظامه فبذل جهده واستعمل فكره ومكره

فى إزالته وتشويهه ورفضه ومحاربته ، وهذا عين المحادّة والمشاقة الظاهرة لله تعالى ولأديانه والدائنين بها من جميع العالمين

ثم قال : « فعندهم أن الانسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو شروط الصحة اللازمة لأن يكون إنسانا محترما ناجحا فى الحياة ، ثم لا يدرك شيئا منها ، بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر ، وذلك أنهم يرون أن القاعد العاجز قد يبلغ كل ما يؤمله من الفوز والنجاح ، بينما يهوى الجاد الحازم »

فيقال : قف ، هكذا الامر عندك (على نفسها تجنى براقش) ، فانك صرحت باعتقاد هذا الأمر الذى أنكرته فجعلت العقل من أسباب الفقر ، والجهل من أسباب الرئاسة ، بل ذكرت أن الانسان كلما ازداد فى الجهل والكفر ازداد فى النعيم والغبطة والجاه ، والعكس بالعكس ، وذكرت أن هذا أمر واقع لا ريب فيه ، فمن ذلك ما ذكرته فى قصيدتك الركيكة التى أولها :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكر

فقلت فيها :

ورغبنى فى الجهل أنى رأيتنا يسود لدينا كل من لم يكن يدرى
نوائب دهر تترك الحرَّ حائرا وليس بمظلوم لديه سوى الحر

فقد اسندت هذا الأمر الى نوائب الدهر وجعلتها لا تظلم سوى الحر ، وصادمت حديث « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » فان الله هو الذى يصرفه وهو الذى يصرف الليل والنهار وما فيهما . ثم قلت :

يرى الجاهل المأفون فيه منعما له الفلك المسعود يجرى بما يجرى
له الناس والدنيا جميعا خوادم فهذا له عبد وهذا له مطرى

فالناس كلهم خوادم للجاهل المأفون ، بل وكذلك الدنيا تخدم من يكون بهذه الصفة كما هو صريح كلامك . ثم قلت :

يزاد نعيما كلما زاد جوره ويكبر شأنا كلما زاد من كفر
أطاعت له الايام حتى لو انه تأبى طلوع الشمس ماطلعت تجرى

هكذا يكون الجاهل المأفون عندك يزداد فى النعيم ويكبر فى الشأن كلما زاد فى الكفر ، ولعلك ما كفرت وازددت فى الكفر الا ليكبر شأنك وتزداد نعيما وتخدمك الناس والدنيا جميعا وتطيعك الأيام ، بل الشمس لا تطلع لو منعها هذا الذى يزداد فى الكفر والجهل ، فانها لا تطلع أبدا ويكون الليل سرمدا الى يوم القيمة ، ولكن قد تنوب عنها الشمس التى فى غير برجها والدر الذى فى لجج البحر بلمعانه وضيائه ان أمكن ذلك . ثم قلت :

متى شئت ان تلق جهولا مرأسا وجدت كثيرا ذا جلال وذا يسر

وهذا صريح فى أن الجهل من أعظم الأسباب لنيل الرئاسة واليسر ، وأن العلم بالعكس وإلا لم يكن ثم فارق . الى أن قال :

اذا ماسألت الدهر حق يقول لى تنحَّ فما للحر حق لدى الدهر
وان قلت سالمنى على الجور قال لى غلطت فما سالمت مذ كنت من حرّ

وهذا كالذى قبله صريح فى سبّ الدهر ، ثم قال :

وان قلت سالمنى على الجور والغنى يقل لى بنكران الفضائل والحجر
تشك الى ما منه أشكو ومفزع الى ظالمى كيف الخلاص من الأمر (١)
اذا ما نظرت الناس والرزق بينهم تيقنت أن العقل ضرب من الفقر

فالعقل ضرب من الفقر ، فيجب أن ينفر منه ويعادى كما يعادى الفقر لأنه ضرب منه ، وينصاع الانسان الى الجنون فالجنون والجهل هما من أسباب

---

(١) تأمل هذا البيت الخبيث ، وخليق من هذه حالته مع الله أن تكون هذه عاقبته . هذا مع أنه قال فى معرض هذه القصيدة :

بلغت بعلمى ما يرام من العلى فما ضرنى فقد الصوارم والسمر

فلم إذن هذا التشكى

الغنى . وهـذه الابيات صريحة جـدا فى أنه يرى أن الانسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو الشروط اللازمـة لان يكون انسانا محـترما ناجحا ولـكن لا ينال إلا عكس ما اقتضته هذه الشروط ، وأن الجـادّ الحازم الحر يهوى بجده وحزمه ، وان الجاهل ولا سيما اذا كان كافراً فانه ينال الغنى والعز والسيادة . وهذه حقيقة الفوضى ، بل الفوضى أحسن ، فان لم يكن هذا الرأى الذى رآه فوضى ودعاية صريحـــة الى الفوضى فلا نـدرى ما هى الفوضى والدعاية الى الفوضى ، ولا سـيما وهو هنا أسند ذلك الى الدهر ونوائبه وهو يعـلم أن الله نهى عن سب الدهر لأن الدهر لا فعل له البتة وانما الفعل للذى يتصرف فيه ويقلبه وهو الله تعالى الذى يقلب الليل والنهار ، انه يدعى أنه يحامى عن الدين ويدافع عنه ويدعو الى أخلاقه ، فما ذكره هنـا من تشويه رأى المسلمين من كونهم يرون أن الجاد الحـازم يهوى وأن الذى يفعل الأسباب الموصـلة الى النجاح لا ينجح كذب على هـذا الاطلاق ، وانما هو رأيه وعقيدته ، وهـذا شأنه يحمل كل ما فيه وفى إخوانه من الملاحدة من خصلة قبيحة على المسلمين ، ويصف نفسه بالخصال الحميدة الموجودة فيهم

ولا يصح اعتذاره بأن المقصود به المبالغة أو نحو ذلك ، فان مثـل هـذه الإطلاقات فى سبّ الدهر والتسخط والمجـازفة محرم شرعا ، ثم هو قد ناقش المسلمين وشنع عليهم بأبيات الزمخشرى وابن أبى الحـديد والرازى والآمـدى وابن زريق وكعب بن زهـير ، مع أنه ليس فى أبياتهم شىء ينكر ، وقد بنى عليها أمورا عظيمة ألزم المسلمين بها مع بعد دلالتها عما ادعاه ، بل قد ناقشهم بقول ابن هانىء الاندلسى والبحترى مع علمه أنهم لا يجيزون مثل تلك الأقاويل التى نقلها عنهم ، ثم ان هذه الأبيات التي ادعاها هى متضمنة لما ورد فى أغلاله ، فان الجميع يدور على أن مناط التقدم والتأخر إنما هى نواميس الطبيعة حيث قرر فيما يأتى أن نواميس الطبيعة هى التى تحكم العالم ، ومعلوم أنها ليست باكثر من المصادفات القسرية الاضطرارية ، وهـــذا هو عين الفوضى ، فان كل فعل

يصدر عن غير عدل حكيم مختار فلا بد أن يكون مشتملا على فوضى وفساد ، وحركات الطبيعة لذاتها هى كذلك

فصل

قال : « ولقد زعم هؤلاء حينما توالت انتصارات ألمانيا فى بداءة هـذه الحرب أن هذه الانتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا ، لا أن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها . ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت فى الخاتمة الهزيمة النهائية رجعوا يزعمون أن المسألة راجعة الى مجرى القضاء والقـدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغيير الأسباب واختلافها ، وقد ألقيت فى هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقـالات ، وهكذا يحكمون فى كل قضية »

والجواب أن يقال : وهذا أيضا مما يدل على أنه لا يرى لمشيئة الله سبحانه تدخلا فى تدبير العالم ، ولا فى النصر والهزيمـة ، بل كل ذلك منوط عنده بالأسباب المادية فقط ، ولهذا أنكر غاية الانكار عـلى هؤلاء الذين اعترفوا بأن المشيئة لها تدخل فى هزيمة ألمانيا وانتصارها ، فكما أن الاصنام لا تدخل لها فى هذه الهزائم ولا هذه الانتصارات فكذلك الرب العظـيم تعالى وتقدس لا تدخل له فى ذلك على رأيه ، وهذه هى قاعدته فى كل أغلاله . ومعلوم أن المسلمين الذين تكلموا فى هذه الانتصارات وألقوا الخطب والمحاضرات ليس فيهم من يقول ان وجود هذه الأسباب وعدمها سواء ، ولم يقولوا انها هزمت من غير أسباب ، ولا يوجد عنهم فى ذلك كلمة واحدة ، وقد بينـا أن مذهب جماهير المسلمين أن الله سبحانه يفعل بالأسباب فى النصر والهزيمة ، فهو يهزم بها وينصر بها ، فان شاء أضعفها بأن أدخل عليها أسبابا أقوى منها تعارضها ، أو أضعفها بذاتها ، وان شاء قوّاها كما قال تعالى ﴿قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ وقال تعالى ﴿ولو شاء الله لانتصر منهم ولـكن ليبلو

بعضكم ببعض ﴾ فأخبر سبحانه أنه يعذب هؤلاء بهؤلاء ، فهو سبحانه أمر بفعل الأسباب ، وأمر بأن يدعى ويستعان به ، لأن الأسباب مفعولة له خاضعة لارادته فلا تستقل بنصر ولا هزيمة ، وهو سبحانه ينصر بها ويخذل بها . وكون ألمانيا انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا ليس فيه كبير أمر فأكثر الحروب هكذا ، فليس هذا خاصا بهذه الحرب وحدها حتى يجعل ذلك برهانا على استقلال الأسباب بالتدبير ، وقد ذكر تعالى فى وقعة أحد النصر أولا والهزيمة أخيرا ، وقد أسند ذلك كله الى مشيئته وقدرته ، مع كون ذلك له أسباب مادية ودينية ، فانه لما حصل مقتضى النصر حصل النصر ولما حصل ما يوجب الهزيمة حصل موجبها كما قال تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بإذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فقوله تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ يعنى بالنصر فان المسلمين هزموا المشركين هزيمة ظاهرة كما تواترت بذلك الروايات الصحيحة ﴿ اذ تحسونهم باذنه ﴾ أى بمشيئته ، وهذا صريح فى أن النصر حصل بالمشيئة ، مع أن هناك أسبابا مادية ، وقوله تعالى ﴿ حتى اذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فهذا كله دليل على أن هذا الصرف أى الفشل وقع بالمشيئة ، وأن لذلك اسبابا معنوية ومادية ، فانهم لما عصوا وتنازعوا وتركوا بعض الأمر الذى أمروا به حصل ما حصل من الفشل ، وقد أسند صرفهم اليه تعالى صريحا ، لان ذلك وقع بارادته ، كما أن النصر وقع بارادته ، وقد جعل لذلك أسبابا مادية ومعنوية ، فكل نصر وهزيمة فلا بد له من أسباب مادية ومعنوية ، ومشيئة الرب تعالى هى التى تصرف هذه الأسباب ، فيجب على الانسان أن يستعينه ويلتجىء اليه ويعمل ما أمر به من الأسباب ، وهذا هو المطلوب فى حق كل أحد ، ولم يحصل قط فشل الا بحصول خلل فى

أحد هذين الأمرين أو فيهما جميعا ، وهـــذا المغرور صفق وطقطق وجعل حصول النصر ثم الهزيمة فى ألمانيا برهانا على كون الأسباب مستقلة بالتدبير ، ونسى أن الله سبحانه هو الذى يصرّف الأسباب كيف يشاء ، وأنه لا يجرى فى ملكه مالا يريد ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ فانه تعالى لما أراد هزيمتها صرف قلوب زعمائها وآراءهم حتى وقعوا فى تلك الاغلاط التى قضت عليهم بالهزيمة ، وزين فى قلوب أعدائها دخولهم فى الحرب للقضاء عليها . وكونها انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا فيه حكم كثيرة ، فان وقوع هذه الحرب عقوبة محضة وانتقام ظاهر ، فلو هزمت فى أول الأمر الى النهاية لم تدخل ايطاليا ولا روسيا الحرب ، ولم يحصل ذلك الشقاء الطويل والعذاب المهين على تلك الصفة ، ولو حصل النصر لها لـكان فى ضمن ذلك حصول النصر لايطاليـــا واشتداد الحـرب فى الشرق الأوسط ولتحكمت ايطاليا فيه ، وفى ذلك من المفاسد العظيمة ما لا يخفى ، ولـكن وقع على الوجه الذى يحصل به اشد الانتقام ، فكان تكرر النصر ثم الهزيمة حينا بعد حين كالمد والجزر يتضمن أشنع العقوبة وافظع العذاب عـلى هـذه المواضع الالحادية ، لأنه تعالى صبّ قوّتها على رأسها ، وفى ذلك أيضا مضاعفة الحقد والبغضاء بين المتحاربين ، وطول الحسرات والعذاب بهذه الأسباب التى عصوا الله بها كما قال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم وأولادهم ، انما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

وبالجملة فلا حجة له فى هذا البتة ، فلا معنى للتبجح وجعل هذا من الحقائق الأزلية ، فليس فى هذا أكثر من كونه حصل تقدم لهـــا ثم حصل تأخر ، وأكثر الحروب يقع على هذه الصفة ، فالله سبحانه هو الذى خلق الأسباب وخلق مصادرها من الآراء والتفكير وتقليب القلوب ، فخلقهـا وخلق العاملين بها ولها ، وهذا كله يرجع مصدره إلى القدرة الربانية والمشيئة الإلهية ، كما تقدم تقرير هذا فى البحث الأول وفى غيره

فصل

قال « ومن الأمثلة للجهل بسنة الحياة أو بسنة الله فى الحياة أن الناس يريدون – وهم يعتقدون أنهم سيصلون الى ما يريدون – أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية ، فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا فى الامتحان وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم وأن يدركوا كل ما يبغونه ، بماذا ، إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرّد تارة وبالبكاء والضراعة تارة وبالصلاة تارات وبالصيام أخريات وبالايمان حينا بلا عمل وبالتقوى أحيانا وبقراءة القرآن أو بترتيب الاذكار والأوراد والاحزاب ، ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة ، والدين والقرآن بريئان مما يزعمون »

والجواب أن يقال : هذا من المواضع التى نبهنا عليها فى الملاحظة الثالثة ، وغرضه من هذا الهراء أن الذى منع الناس من التقدم اشتغالهم بالأخلاق الدينية ، وهو يعلم حقيقة العلم أن أكثر الناس قد أضاعوا هذه الأخلاق وتركوها واشتغلوا عن هذه الأعمال وغيرها بالأمور المحرمة التى تصدّ عن الدين والدنيا ، وهذا الملحد له حظ وافر من أخلاق اليهود فى المكابرة والبهت ، ولهذا فانه صرح هنا مكابرة على رءوس الأشهاد بأن المسلمين يطلبون الأولاد بمجرد الدعاء ونحوه من العبادات بدون تزويج ، فانه صرح بانهم يطلبون الأولاد بهذه الأمور المجردة بدون الأسباب الطبيعية ، وليس وراء هذا البهت والمكابرة بهت ومكابرة ، ونحن اذ نعرض هذا على كل مسلم غيور يعز عليه مبدأه ودينه نستغنى عن الاسهاب فى ابطاله والتعليق عليه ، ولو أن يهوديا ادعى على المسلمين مجاهرة بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة ونحو ذلك بمجرد

العبادات من دون فعل أسبابها الطبيعية لعرف كيف يجيبه المسلمون على هذا الادعاء العاطل المفضوح . وقد نبهنا فيما سبق على أن هذا الرجل يكذب ويبهت ويحرف ثم يأخذ من كذبه وبهتانه وتحريفه براهين وحججاً له يحتج بها على المسلمين فى ذمهم وذم دينهم ، فهو كما ترى لا يكتفى بأن يأتى الى الأمم الاسلامية فيدعى عليهم بأنهم يكرهون العلم بل يحرمونه ويدعون أنه حجاب ، وأن التعليم خروج من الملة وشرك فى الربوبية ، وأن العلم كذلك منازعة لله فى ملكه ، حتى يركب على ذلك بأن يدعى عليهم بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة وأمثال ذلك بالأخلاق الدينية فقط ، وغرضه من هذا الجنون والهراء والخبال الساقط تركيز بعض الأخلاق الدينية فى نفوس المسلمين ولو بالبهت والمكابرة ، وقد ضرب صفحا وتعامى بل وباهت فيما علم بالضرورة والحس من التزويج والزراعات والمعارف والقتال والثورات وغير ذلك ، وصورهم عاكفين فى المساجد زاهدين فى الدنيا قد نبذوها ورفضوها فلا بيع لديهم ولا شراء ولا تزويج ولا صناعة ولا زراعة ولا مدارس ولا كتب ولا علم ولا تعليم ولا نزاع ولا قتال ولا شىء من ذلك كله ، دع الامور الكفرية والفواحش والمحرمات والتهالك على الدنيا والتكالب عليها ونحو ذلك ، بل جعل كل واحد منهم صائما الليل قائما النهار يقرأ القرآن ويدعو ربه ويتضرع اليه ويبكى طمعا فى الجنة وخوفا من النار وقد رفض الدنيا كلها . لقد سئمنا وأيم الحق من تطويل الاستدلال على فساد هذه الرعونات وتفنيد ادعاء هذه الوصمات ، فوالله انه لم يتجاسر كثير من المبشرين واليهود واكثر الكفار المعادين للاسلام أن يتفوهوا بهذه الامور وينسبوها الى المسلمين ، لان مثل هذا الادعاء خروج عن العقل والحياء ، ومكابرة واضحة

لقد بلغت القحة والاستهتار والتلاعب بدين الاسلام وأهله بهذا الزنديق مبلغا لم يصل اليه أكفر ملحد ولا شر كافر يحارب الاسلام ، أما كان له سمع يسمع به وبصر يبصر به هذه الكتب التى يدعى أنها كالجبال وهذه المجلات

والجرائد وغيرها فى التزويج ووجوبه ، وهذه الأعمال كلها وشروطها ، وهذه كتب الفقه التى يدعى أنها تموج موجا كلها فى الأحكام التى هى أعمال المسلمين فى معاملاتهم وأنكحتهم وزراعاتهم وصناعاتهم وجهادهم وتعليمهم وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، وأكبر من هذه وأطم قوله « ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة »

فيابلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذى زعم أن الدين والقرآن دلا على أن الولد يطلب بالدعاء أو بهذه العبادات المجردة من غير سببه الطبيعى ، فانك صرحت بأنهم يطلبون ذلك بدون أسبابها الطبيعية (١) . قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك ، لقد وجدت جوا خاليا فأصفرت فيه بكل ما خطر على بالك ، وقد كان من الواجب عليك أن تبين مستند ادعائك عليهم واستدلالهم بالقرآن والدين الذى ادعيته ثم ترد ذلك بالبرهان ولا تكتفى بالادعاء فقط ثم الرد عليهم بقولك والدين والقرآن براء من ذلك ، فكل هذا هذيان وترهات مركب بعضها على بعض

ثم انه لشدة شغفه بحب المعاكسة وتأييد خبائثه حاول تصديق ادعائه هذا بعبارة نقلها ـ حسبما زعم ـ عن الغزالى فى كتابه (منهاج العارفين) ذكر فى هذه العبارة أن المؤمن يعيش بعبادة الله من غير طعام ولا شراب ، ثم ذكر أن السيوطى قال فى بعض كتبه ان الصوفية يلهمون معرفة الطب ، وهذا غاية ما قدر عليه وهذا مع كونه ليس من الحجة فى شىء البتة وانه قد ردّه بنفسه حيث

---

(١) والمسلمون وان قالوا ان الطاعات وامتثال أمر الله تعالى لها سبب عظيم فى حصول البركات ودفع الشرور كما دلت على ذلك النصوص ، لكن لا يقولون ان حصول ذلك بترك الأسباب الطبيعية التى شرعها الله وأمر بها ، بل اتباع أوامره فى الاخذ بالاسباب هو من الطاعات التى هى من أسباب الخيرات كما وضحنا ذلك مرارا

ادّعى أنه ليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين واغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ، فهو أيضا لا يفيد ما ادعاه ، فليس فى كلام الغزالى ولا السيوطى ان الولد يطلب بمجرد الدعاء وأن المعارف والزراعات تطلب بالاخلاق الدينية المجردة من دون أسبابها الطبيعية ، فان هذا الادعاء بهت للغزالى والسيوطى وكذب عليهما ، وكتبهما فى الفقه والاحكام مشهورة كلها تردّ هذا ردا صريحا ، وهما وان كانا من المغالين فى التصوف لكنهما لا يدعيان مثل هذا الهذيان المنكر ، وقد تقدم قول هذا المغرور فى صراعه (١) ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم الخ ، فكيف جاز له أن يحتج بما ليس حجة

فصل

قال « ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا وسمع كثير من القراء بلا شك خطبا تتلى فى المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات يندد فيها بجهل من يلجئون حين الغارات الى المخابىء مزعوما فيها أن المخابىء والملاجىء لا تعصم من الموت ، وأن الفرار اليها نقص فى اليقين وجرح فى الايمان بالله ، لان الذى يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة اليه والخلاص من الذنوب »

فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله فى أنه لا يرى للمشيئة العليا تدخلا فى أمور العالم ، فلا يرى للعبادة والذكر والتوبة والخلاص من الذنوب أثرا فى الوقاية ، فمن ذكر الله تعالى ودعاه وتاب إليه كمن لم يذكره ولا يدعوه ولا يتوب اليه فى العصمة من الهلاك وأسبابه ، وهذه هى قاعدته ، ولهذا أنكر على هؤلاء الذين يرون للمشيئة العليا تدخلا فى الوقاية وعدمها ، هذا مع أنه تناقض فى هذه الدعوى فزعم فيما تقدم أن من يلجأ الى الفرار من هذه الغارات والقنابل وغيرها من الظواهر فهو جاهل ممعن فى الغباء والجهل حيث قال فى الصحيفة

---

(١) ص ٣١٨ ج ٢

١١٠ « ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذى ترمى به الأنهار ومن خطر الامطار التى تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعنا فى الجهل والغباء ، وهو كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التى توجد فيها هذه المخازن ، والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب من ظواهر هذا الكون : من البروق والرعود والعواصف والقواصف والأعداء المغيرين [١] ومن اللصوص وغيرهم ومن اختلاط النساء بالرجال ، لا تجد حيلة سوى هذا ، أما الشعوب والافراد المتعلمون فانهم لا يفرون أمام شىء من هذا ، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة » انتهى

فكيف يشنع هنا على الذين ينهون عن الهروب ويرشدون الى طاعة الله تعالى ، ويشنع هنا لك على الذين يهربون من هـــذه الظواهر التى منها إغارة الأعداء والقنابل وسائر المتفجرات ويتقونها وينهى عن ذلك ، مع أنه شنع على الذين ينهون عن ذلك ، وأبشع من هذا وأشد نكارة دعواه أن المتعلمين يقفون أمام هذه الظواهر من البروق والرعود والعواصف والقواصف لا يفرون منها بل يروضونها ويصرفونها على وفق المصلحة والفائدة ، وليته استطرد فبين كيفية تصريف البروق والرعود والصواعق والقواصف ، وكيفية الوقوف أمامها والاستفادة من مصالحها لينتفع الناس بذلك . وأعجب من ذلك أنه خلط هذه الأمور باختلاط الرجال بالنساء ، فعلى عقله العفاء والسلام

كلام أكثر من ترى ومنظره   مما يشق على الآذان والحدق

ثم ذكر أن من أظهر وأكبر أعمال النبى ﷺ التاريخية أنه حينما اضطر الى الخروج بدينه من مكة وخاف مطاردة أعدائه المشركين لجأ الى غار ثور التاريخى المشهور هو وصاحبه الصديق

---

(١) هنا الشاهد

فيقال : هـــذا يبطل دعواك السابقة التى نقلناها فى قولك ان الشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد سبيلا الى النجاة مما تخاف وترهب الا بالهرب ، الى قولك ومن الاعـداء المغيرين ، فجعلت النبى ﷺ وصاحبه رضى الله عنه من الافراد البدائية الجاهلة لانك جعلت الذين يهربون من الأعداء المغيرين ـ سواء كانوا أفرادا أو شعوبا ـ بدائيين جاهلين ، ومعلوم أنهما لم يقفا لاغارة الاعداء ويصرفاها فى المصلحة والفائدة بل خرجا حتى لجـآ الى غار ثور واخذا فى الدعاء والتوكل على الله ، فكيف تستدل بهذا وهو حجة عليك ، ثم ادّعى أن النبى ﷺ لم يأخذ هو وصاحبه فى الدعاء بل أخذا فى سنة الحياة

فيقال : هـذه دعوى كاذبة بل المتواتر فى الصحاح والمسانيد وغيرها أنه دعا الله تعالى وأكثر من ذلك حتى انه دعا على ذلك المشرك الذى لحقه عـلى فرس حتى رسخت قوائمها فى الارض ، فهو ﷺ اعتصم بالدعاء الذى هو رأس الوسائل الدينية كما أنه فعل مافى وسعه من الأسباب الطبيعية وهو الدخول فى الغار ونحوه ، ولولا إحاطة الله تعـالى له بالوسائل الدينية لم تنفعه الأسباب المادية ، فان غار ثور صغير جدا ، ومع ذلك وصل اليه المشركون حتى وقفوا على فم الغار وصرف الله أبصارهم وبصائرهم عن دخوله أو النظر فيه ، وهذه معجزة ظاهرة خارقة للأسباب العادية ودليل ظاهر عـلى أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب المادية وأعظم منها ، بل الأسباب المادية تابعة لها ، فانه لو كان مجرد دخول الغار والوصول اليه مفيدا فى النجاة لرآهما كفار قريش ، فانه من البعيد جدا إن لم يكن من المستحيل فى العادة أن يصل الأعـداء المغيرون العارفون بطرق النجاة يلتمسون من هو أعدى عدوّ لهم وقد حرصوا نهـاية الحرص عليه ثم يقفون على هذا الغار البسيط ويعجز أحـــدهم أن ينظر فيه ليلتمسه فيه ولا سيما مع قلة الملاجىء هنالك . ثم ان مقتضى كلامه فيما سبق أنه يجب أن يقف ولا يلجأ الى الغار ولا غيره ليصرف هـذه الاغارة ويروضهـا على ما تقتضيه المصلحة والفائدة كما تقدم تصريحه بذلك

ثم ادعى بعد هذا أنه عليه السلام فعل ذلك هو وخلفاؤه وأصحـابه فى حياتهم ولهذا نجحوا ، قال « ولو انهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولم يبلغوا من أمرهم شيئا »

فيقال : هذا بهت صريح فانه قد كان من المعلوم الذى لا جدال فيه أنه عليه السلام وأصحابه من أعظم الخلق اعتمادا على الأسباب الدينية ، فهم أعظم الخلق دعاء وتضرعا وصلاة وصياما ، وانه تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، فهو أتقى الخلق ، وهم أتقى الخلق بعد الأنبياء ، هذا أمر لا يشك فيه مسلم كما لا يشك مسلم أنهم لم يعتمدوا عـلى الأسباب الطبيعية بل استعملوا مافى امكانهم واعتمدوا على الله وحده فى الفوز والنجاح . ثم ان هذا الكلام تناقض منه كما تقدم ، فانه تارة ينكر على من لم يقف للاعداء وتارة ينكر على من ينكر عليهم ، وهؤلاء الخطباء لم يدعوا إلا الحق ، فانهم أرشدوا الى الدعاء الذى هو من أعظم الأسباب والى الاخلاص والى التوبة من الذنوب فان الذنوب هى البلاء وهى اسباب المصائب كلها فبزوال السبب يزول المسبب وبفعل الوسيلة تحصل النتيجة ، وليس فى الدنيا كلها أعظم وسيلة - للنجاة والحياة والخلاص من كل شرّ - من طاعة الله تعالى وتقواه والالتجاء اليه والتوكل عليه ، فمن عمل بطاعة الله تعالى فلا بد أن يوفق للأخذ بالأسباب المادية وتيسر له الامور ، ومن عاكس الله ورفض أسبابه الدينية وذهب يطلب مراده من الاسباب المادية وحدها لم يستحصل ذلك غالبا ولو حصل له شىء فى النادر فلا بد أن يعذب به وتصيبه النكبة فيه ويذوق وبال أمره كما وقع ذلك بالعيان على ما تقدم تقريره

فصل

ثم أخذ يتكلم فى الأرواح ، وذكر أن الناس يظنون أن السحاب إنما تسوقه الملئكة ، وأن النبات إنما ينبت بقوتها ، وأن البرق والرعد عملان من أعمال

الملئكة ، وأطال من هذا الكلام وأكثر فيه من التهكم والاستهزاء ، ولقد كان من واجبه أن يذكر أن هـــذه الأمور من عقائدهم التى لا بد منهـا ، ويذكر كلامهم فيها من العقائد ، ويذكر أدلتهم ثم يبطلها ، وهو لم يفعل من ذلك شيئا بل أخذ فى التهكم والاستهزاء ، وهذا ليس من الحجة فى شيء فنكتفى بمنع الدعوى

ثم ذكر الشياطين والجن ، وأطال فى انكار دخول الشياطين أو الجان بدن الانسان ، وذكر أن ملايين المسلمين يزعمون وقوع ذلك ، ثم ذكر أنه جرى بينه وبين أناس محاورات فى هذه الأمور ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، فعليه أن يبين كيفية اعتقاداتهم من عقائدهم المعتمدة ثم يذكر دليلهم ثم ينقضه بحجج معقولة ، وحيث انه لم يفعل شيئا من ذلك فلا حاجة الى الاطالة فى هــــذه الامور ، لأن الكلام فيها مشهور فى كتب العلماء ، وكلامــه يدور عــلى انكار وجود الملئكة والشياطين ليتسنى له القول بان الحوادث كلها من تفاعل الطبيعة وتطوراتها اعتمادا على هذا الاصل الخبيث . وليس انكاره للملئكة والشياطين باقبح من انــكاره للقضاء والقدر وكون الدعاء وسيلة ، ومعـــاداته للصلوات والخطب والمساجد وامثال ذلك فان من اعتقد الالحاد فلا بدان يرى هذا الرأى

ثم ذكر مسئلة إحضار الارواح المشهورة ، وذكر أن فى صحتها خـــلافا ، وادعى أن فريقا من المحققين ـ ولا ندرى من هؤلاء المحققون عنده ـ ينكرون إحضارها ، ثم ذكر حكايات عن شيخ مجهول لم يذكر اسمه فى هـذا الموضوع . هكذا تكون حججه فى القدح فى أصول الدين ، مع أنه يقـدح فى الروايات التى فى صحيح البخارى اذا لم توافق رأيه . وحيث ان كلامه كله فى هذه الأمور تهـكم واستهزاء وحـكايات من عند نفسه فنكتفى فى رده بالمنع . ثم بعد أن أسرف فى انكار هذه الأمور لف ودار الى الخداع فادعى أنه مؤمن بالملئـكة (إنها كلمة هو قائلها) فهى كافية باقناع حميره فاى مضرة عليه بالاتيان بها وهى تمنعه عندهم من الاضلال والتكفير

فصل

قال « ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الاصابة بالعين أو بالنظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد ، فان الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة . ومسألة الاصابة بالعين مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية ، ولاعتقادها أثر جسيم فى حياة الكثيرين وفى عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام » . ثم أخذ يسرد أشياء من اعتقادات العامة فى الاصابة بالعين ، ثم ذكر أنهم ينسبون أشياء من هذه الخرافات الى الدين ، وذكر حديث : اكثر من يموت من أمتى بعد قضاء الله وقدره بالعين ، ونصف ما يحفر لامتى من القبور بالعين ، والعين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وذكر أشياء من هذا القبيل على عادته فى تتبع مهازل العامة والمخرّفين والآثار الساقطة ليجعل من ذلك سلاحا للطعن فى صميم الدين وأهله ، فهو يتناول ما تيسر مما شاء من حكاية أو أثر مهما كان فى الضعف والسقوط ، ثم يكبر ذلك ويعظمه ويزيده بما شاء ، ثم ينسبه الى الاسلام وأهله ويصول فى رده ويجول . وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا ، على أن دعواه هنا أن لذلك أثرا فى حياة الكثيرين وفى عقولهم الخ دعوى مردودة ، فاننا نقول نحن لا نثبت الا ما كان حقا وله حقيقة فقط ، وما كان محققا فانكاره مكابرة وجحود للحقائق ، فانكاره أعظم أثرا فى إفساد العقول والحياة من نفيه ، فان العقول اذا تمرّنت على المكابرة وجحد الحقائق فسدت . هذا فى غير الامور الشرعية ، أما فيها فهو تكذيب للنصوص الدينية وجحد لها وهذا ينافى الاسلام . وأيضا أنت قررت بأن الانسان يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ، وليس فى الدنيا أضر على الحياة وعلى العقل من هذا الاعتقاد ، فان الانسان اذا اعتقد أن عدوه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء أثر ذلك فى عقله وروحه وحياته فى الفساد والرعونة والوهن وسوء العمل ، وسيأتى كلامه بأنه يوجد فى الناس من يستطيع أن يخضع من حوله ويستعبدهم

ويصيرون كالأموات بين يديه بمجرد نظرة يرسلها اليهم ، ومعلوم أن اعتقاد هذا أكبر ضررا وأسوأ عاقبة فى حياة الكثيرين وعقولهم وتفكيرهم وتصرفهم العـام . ثم ذكر أنهم يعلقون التمائم والاحجبة المتنوعة من طلاسم وألغاز وحروف مقطعة ويحملون النجاسات وقاية عن العين ، وكل هذا كذب ظاهر إن أراد أن أئمة المسلمين يرونه ويأمرون به ، وإن أراد أن بعض جهـلاء العامة يفعلون هذا فهم يفعلون أشياء أعظم ضررا منه كالأمور الشركية وغيرها ، وأئمة المسلمين ينهونهم عن هذا وهذا ، وليس الكلام فى أفعال بعض العامـة . وهذا المغرور يعلم حقيقة العلم أن كتب الأصول والفقه مملوءة بالنهى عن هذا ما عدا التمائم التى من القرآن والسنة ففيها خـلاف . وأما حمل النجاسات فهم مجمعون على تحريم ذلك وأنه يبطل الصلاة ما عـدا حالات ضرورية ففى ذلك نزاع . وأكثر من أدخل هذه الأمور عـلى الاسلام هم أسلافه من ملاحـدة الجهمية ومن نحا نحوهم ، فان أكثر ما توجد هذه الأمور فى كتب الطب ، وقد أثنى عـلى هؤلاء الفلاسفة الذين أدخـلوا هذه الأمور كالحسن بن الهيـثم والكندى وأبى بكر الرازى وأمثالهم ، ثم مجرد وجودهـا منقولة فى بعض الكتب ليس فيه حجة ، فانها لا تنقل فى العقائد المعتبرة وانما توجد فى الكتب التى يوجد فيها تحريف الصفات والالحاد فى معانيها والدعوة الى الشرك . ولهذا لا توجد فى الكتب الصحيحة النقيـة ككتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وكتب السلف وأتباعهم ، وقد تقدم كلام هـذا الزائغ أنه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، وأن الكتب يوجد فيها أخطاء كثيرة ، ولو كان لهذا المغرور أدنى غـيرة على الاسلام وأهله لم يحتجّ ببعض أفعال جهـلة العامة وأمثالهم على المسلمين وينشر ذلك بين أمم فى غاية العداوة للاسلام وأهله تشترى كل ما تجد فيه أدنى شبهة فى تشويهه واشانته وإشانة أهله باغـلى ثمن . وقد علم أن كتب الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة المعتمدة تحرّم ذلك ما عدا التمائم المشتملة على النصوص الشرعية فعلى التفصيل الذى ذكرناه

ثم قال « نعم جاء في الأحاديث التي رواها المحدثون الثقات أن العين حق ، وأنه لو كان شيء سابقا لسبقته العين ، ولكن هل هذه الاحاديث في سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين ، وفي صدد مما قالوا . كلا فان كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفا وغاية مما يتوهمون »

فيقال : ولم لا يصير كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفا وغاية مما قلته أنت وتوهمته ، ولا سيما مع شهادتك على نفسك بانك جاهل وأنك أسفه من كل سفيه (١) وأما علماء الدين فان الله تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها وأهلها ، ومن كلمة التقوى فهم النصوص الشرعية وتطبيقها على مدلولاتها ، ومعلوم أن ما فهموه فكله مخالف لما ادعيته ولم يقل بقولك هذا أحد من علماء المسلمين

فقولك بعد هذا « فالعين حق ، فان الانسان الشرير يرى بعينه فيحقد ، ويحسد بقلبه ثم يصيب بأعماله » قول ساقط فليس هذا معنى الحديث ولا هدفه ولا غايته ، بل أسمى وأضخم من ذلك ، فالرسول ﷺ لم يقل العمل حق بل قال « العين حق » الحديث . فلو كان المراد العمل لم يكن للعين اختصاص ، فان الانسان قد يسمع أيضا فيحقد ويحسد ثم يصيب بأعماله ، والشم واللمس كذلك ، ولم يكن أحد يشك في أن الانسان ينظر أو يسمع ثم يحسد ثم يعمل ، ولو أن رجلا رأى امرأة جميلة ثم راودها عن نفسها حتى عجز عنها ثم قتلها حسدا لم يصح أن يقال إنه أصابها بالعين ، وكذا لو رأى مالا لعدوه فحسده فعمل على اتلافه لا يقال انه أصابه بعينه ، بل الاصابه بالعين على الوجه المعروف عند الناس أمر قد كان موجودا في زمن النبي ﷺ وقبله ، ولهذا

---

(١) كما تقدم - وكما سيأتي - في ادعائه بأن أسفه السفه دعوى كون الانسان يقدر على كل شيء

قال المفسرون عند قوله تعالى ﴿وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ أن المراد به الاصابة بالعين ، وكذا قالوا عند قوله تعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام انه قال ﴿يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ الآية انه خاف عليهم من العين أى انه خاف عليهم ان يصيبهم أحد بعينه لا أنه ينظر اليهم أحد ثم يحسدهم ثم يكيدهم فيضربهم أو يقتلهم ، ولا يقال لاحد رأى أحدا فأعجبه ثم حسده فذهب يسرقه أو يضربه أو يقتله انه أصابه بالعين والاصابة بالعين فى كلام أهل اللغة كلهم والمفسرين وغيرهم ليس هذا معناها ، بل كان معناها هو هذا الذى يعرفه الناس ، ولهذا كان لكثرة وقوعه ومعرفة الناس به وكونه قضية مفروغا منها لم يختلف العلماء فى تفسير معناه ، فلما جاء هذا الملحد تخالفهم فى الاعتقاد اضطر الى مخالفتهم فى المعنى فحرف الحديث وحمله على مقتضى اعتقاده ، وهذا مكابرة وجحود للحقائق الثابتة بالحس والضرورة والشرع والعقل ، وقد أوضحت الأحاديث الكثيرة معنى هذا الحديث وأنه على مقتضى ما يفهمه الناس ، فمن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال « العين حق ، واذا استغسلتم فاغسلوا » فهذا الحديث نص صريح فى الدلالة على خلاف ما ذهب اليه ، فالاستغسال لا يجرى فى الاصابة بالعمل وانما يجرى على الوجه الذى يفهمه الناس من الإصابة بالعين . وعن ابى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة ، فما لبث أن لبط به ، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له أدرك سهلا صريعا ، فقال : من تتهمون به ، قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : علام يقتل أحدكم أخاه ، اذا رأى احدكم من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة . ثم دعا بماء فأمر عامرا ان يتوضأ فيغسل وجهه ويديه الى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه . قال سفيان قال معمر عن الزهرى : وأمر أن يكفأ الاناء من خلفه . رواه النسائى وابن ماجه باسناد صحيح . وهو نص صريح فى المسألة . والأحاديث فى هذا

كثيرة مشهورة ، وهو أمر معروف قد شاهدنا وقوعه كما شاهده غـــيرنا فانكاره جحود للحقائق الثابتة بالشرع والعقل والحس ، ثم هو لم يأت بحجـة على إنكاره ، واذا كان هو لا يعلم ذلك فليس عدم علمه علما بالعدم والمثبت مقدم على النافى . قال العلامـة ابن القيم (١) أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين وقالو انما ذلك أوهام لاحقيقه لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ومن أعظمهم حجابا وأكثفهم طباعا وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . ثم ذكر كلاما طويلا رد به على من أنكر ذلك ، فليراجعه من أراده

فصل

ثم قال « والعـين حق ، فان فى كثير من العيون قوة آمرة ناهيـة بل قاتلة آسرة ، وان الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحيانا الى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ، ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع ، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد مـــا يرجو ، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته ، فيصبح بينهم الآمر الناهى المتصرّف ، ويصير فيهم الزعـيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه (٢) اننا أحيانا ليأخذنا العجب من استعباد شخص لأمة فنذهب نلتمس الأسباب والعلل بعيدا أو قريبا ، مع أن الأسباب قد تكون فى عـــين ذلك الشخص المعبود ونظراته ، وقد تكون فى مظهره ، وقد تكون فى صوته ونغمته ، انها

---

(١) فى زاد المعاد ص ١١٧ ج ٣ طبعة المصرى

(٢) لو قلت بل هو المقدم فى الامر لقاربت الصدق ، فان عمليتك لهذه الأغلال كلها دليل على أنك تريد أن تصل الى هذه المنزلة كما ادعيت ذلك لنفسك ، ولـكن هيهات دون ذلك خرط القتاد

فيه على كل حال ، وان سلطانه معه فى ذاته ، فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات ، وهذه العيون الآسرات القاهرات ، وهنيئا لهم السيادة الظاهرة والباطنة »

فيقال : وهنيئا لك أيضا معرفة هذه الترهات ، ونشر هذه المخازى المضحكات - لو أن الغزالى أو السيوطى أو غيرهما من علماء المسلمين ذكروا هذا الذى ادعيته لنسبتهم الى كل سخف وجهل وضلال . ومن العجب - وكل أمره عجائب - أنه ينكر تأثير الدعاء والصلاة وسائر العبادات ثم مع هذا يدعى أن بعض الناس فى إمكانه أن يبلغ من نفوس الناس الذين حوله بأن يعبدوه فيكون فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكيره بمجرد نظراته ، الى آخر هذيانه . وقوله « فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات وهذه العيون » فنقول : وطوبى لك لو أرشدتنا الى عشرة أشخاص من جنس هذا الشخص لنكوّن منهم أعظم جيش للدفاع عن المسلمين . بشرى لكم أيها المسلمون لا تخافوا ولا تحزنوا ، هذا عالم الشرق الأوسط ، هذا نابغة الزمان ، هذا الدر الذى فى لجج البحر ، هذا الشمس التى فى غير برجها ، هذا الذى بلغ ما يريد من العلى كما يقول قد وجد لكم ما هو أعظم من الطاقه الذرية وأعظم من كل سلاح مادّى ، فما هى الطاقة الذرية بل وما هى الأسلحة كلها وأين أمريكا وأين أوربا وأين علماء الطبيعة والمادة وأمثالهم فى جانب هؤلاء الذين وهبوا هذا السرّ الغيبى ، السر الذى لا يعلم كيفيته الذاتية الا الله تعالى ، هذا من كنوز الحقائق الأزلية الأبدية ، فقد عرف صاحبها أناسا يستطيعون أن يفعلوا بنظراتهم أو غير نظراتهم من الخواص التى هى فيهم ، هى فيهم بكل حال - إما بنظراتهم وإما بغيرها من الخصائص النفسية والمواهب الذاتية - إخضاع من حولهم من الناس بمجرد النظر أو غيره وأن يبلغوا من نفوسهم أقصى ما يريدون وأبعد ما يرجون فيصبحوا طوع مشيئتهم ورهن إشارتهم . لقد نجح العرب بل نجح المسلمون بهذا السلاح البسيط بجيش النظر أو بجيش النغمة أو

الصوت ، هم ناجحون بكل حال ، وها هو ذا قد أخبرنا بشيخ واحد يعرفه من هؤلاء الشيوخ الذين هم بهذه الصفة فقال :

« وكنت أعرف شيخا يكاد يعد من الناحية العلمية فى غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية الادبية السلوكية فى زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو فى كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أولا يكاد يستطيع أن ينجو منها أو يفلت من عقدها ونفثها انسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، انه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، انه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدى الغاسلين لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا فى حضرته خشوع الصالحين العابدين فى صلواتهم ، أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، ألزمهم أن يجعلوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه التى زوّرتها يداه ، ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وان يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا ، وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فما سر هذه القوة فى هذا المخلوق (١) انها أسرار عديدة ، وان أقواها ما فى نظراته وعينيه من سحر خبيث » انتهى ما ذكره عن هذا الشيخ المجهول ، وليته تفضل على العرب والمسلمين ليبصروا طريق العقل

---

(١) لو صح شيء من هذا فليس السر فيه هو ، بل السر فيهم هم ، لانهم ابتلوا بما ابتليت به من الطبع على القلب والعمى فى البصيرة ، فليس تعظيمهم لهذا الشيخ بدون تعظيمك لملاحدة الطبائعيين وأمثالهم

فصرح باسمه وبين مكانه ، فان ذكر مثل هذا والتعريف به من أفضل ما يفعله المرء فيحل عقدة من هذه العقد المضروبة علـــى قومه ولا سيما فى مثل هذا المقام الذى يحث فيه على التقدم ، اللهم إلا أن يكون هـذا من الأسرار التى لا يباح بها فى هذا الموضوع ، بل يخبر بها أناس دون أناس بطرق سرية

ثم الكلام عليها من وجوه : أحدها أنها حكاية عن مجهول عــلى صورة بعيدة ان لم تكن مستحيلة فلا تقبل فى مقام الجدال والاحتجاج

الثانى أنه لو فرض على وجه الجدل وجودها فهى حجة عليه ، لأنها تناقض ما ذكره فى صحيفة ١٩٢ من أغـــلاله فى محاورته مع ذلك الرجل الذى أشار عليه فيما يزعم بالرفق فى معاملة الناس فى البيع والشراء ، ثم احتج عليه الرجـل بالقضاء والقدر ، وبين له ما وقع له من ذلك أنه عامل إنسانا بالإهانة ولم تمنعه تلك الاهانة من الابتعاد عنه فلما احتج عليه ذلك الرجل بما عمله بنفسه ورآه وشاهده قال هذا المغرور « فغمرنى بجهـــله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، حتى خرجت من عنده مفكرا » الخ . فكيف يشنع على ذلك الرجل فيما ادعاه مما هو معقول ، وهنا يثبت ما هو أقرب فى الاستحالة ممـــا انتقده ومع ذلك يرمى المخبر المباشر بالسخف والجهل فيكون هو على هذا من أجهل الخلق وأسخفهم رأيـا

الثالث أنه لو ثبت ما ادعاه فهو ينقض كل ما ادعاه ويجتثه من أصـله من الغلو فى الأسباب المادية وانكار تأثير الأرواح ونحوها

الرابع أن يقال : والعين حق أيضا فى إصابتها على الوجه المعروف عنـد الناس بتكييف نظراتها الخبيثة ، وهذه النظرة أقرب الى أدنى عقل سليم ممـا ذكره ، فمن صدق بدعواه هـــذه مع بعدها أو استحالتها فهو بتصديق وقوع الإصابة بالعين عـلى ما يفهمه الناس أقرب ، ومن أنكر ذلك فهو لمـا يدعيه أشد إنكارا

الخامس أننا بينا فيما تقدم أن ما يخشى من الخوف من تأثير الأوهام فى اعتقاد العين هو أسهل مما ذكره من وقوع هذه الأمور الفظيعة ، فان القائلين باصابة العين لا يقولون انها تسحر الانسان وتفعل به هذا الفعل ، غاية ما فى ذلك أنها تؤثر ألما فى الجسم أو ضررا فى المال ونحوه ، أما أن تصل الى افساد العقل والدين والتفكير وتوقع فى الشرك وعبادة غير الله وتغل الانسان وتقيده وتصفده ـ على ما زعم ـ فهذا لم يقل به أحد ممن يعتدّ به ولا يوجد فى كتب المسلمين المعتمدة ، هذا مع أنهم يقولون أن إصابتها لا يمكن أن تجرى إلا بالقضاء والقدر ، وأن فى إمكان الانسان غالبا أن يتقى هذا بالاستعاذة بالله والدعاء والتوكل والعمل الصالح ، وبذلك يزول الضرر المخشى من الوهم الذى تدعيه ، فكان ما ذكرته أشد ضررا وأوخم عاقبة ، هذا لو قدر وقوعه ، فكيف وهو سخف وهذيان لا يخفى إلا على أشباه الانعام

ثم قال « والعين حق أيضا ، فان الانسان ينظر بعينيه فيشتهى بقلبه فيهلك بعمله وسعيه ان لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوى غالب ، ولهذا جاء فى حديث نبوى : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، وليس هناك أحق من تلك العيون التى يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالانسان وسخرته وأذلت كبرياءه وساقته الى الخير حينا والى الشر أحيانا وظلت ذات النفوذ الذى لا يقاوم والسلطان الذى لا ينازع ولا ينزع »

فيقال : وهذا من جنس ما قبله ، والجواب عنه كالجواب عما قبله ، وما المانع من أن يقال والاصابة بالعين على الوجه المعروف عند الناس حق ففعلها هذا أثر من آثار هذه القوة التى ادعيتها فيها ، فان أبيت الا العناد والمكابرة فلخصمك أن يمنع ما ذكرته استنباطا من هذا الحديث ، لان الاصابة بها على الوجه المعروف عند الناس هو موضوع الحديث كما اتفق على ذلك جميع أهل اللغة والتفسير والشروح وغيرهم من علماء الدين ، ولم يخالف فى ذلك سوى

بعض ملاحدة الفلاسفة ، ولهذا قال « ولو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين »
ومعلوم أن هذا اختصاص عن العمل الحسى وعن نظرة الحب ، لانها لشدة
مفعولها فى الضرر وسرعته تكاد تسبق القدر ، ولكن القدر قوة ربانية لا
يسبقه شيء ، والناس يعبرون بهذا التعبير الشرعى فيقولون فلان أصيب بالعين
وأصابته العين ، فهو شيء معروف متواتر معناه ، وقد تقدمت النصوص
الدالة على ذلك ، بخلاف نظرة الحب ونحوها فان ذلك غير خاص بالعين بل
الصوت والنغمة تعمل من جنس عمل النظرة ، كما أن هذا أمر آخر لم ينكره
منكر والنصوص دلت على خلافه فان حديث أبي امامة نص فى المسألة لا
يقبل التأويل بحال كما تقدم

فصل

قال « وها هنا مسألة كبرى نشأت أيضا من الجهل بسنة الله وسنة الحياة
وبان العالم ليس محكوما بالنواميس والقوانين ، ذلك أن الناس ظلوا مئات
السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا لأن دينهم حق والحق يجب أن يكون
أهله منتصرين أبدا وإن قصروا وأهملوا ونسوا انفسهم »

فيقال : هذه الدعوى كذب ظاهر وبهت عظيم ، فليس فى المسلمين من
يدعى أنهم اذا قصروا ونسوا أنفسهم ينصرون أبدا ، ولا يوجد فى كتاب
من كتب المسلمين المعتمدة أنهم لابد أن ينصروا ولو قصروا وأهملوا أنفسهم ،
فهذه الدعوى بهت واضح ، وأما اعتقادهم بأنهم لن يغلبوا لأن دينهم حق
وأصحاب الحق هم الغالبون فهذا صحيح لكن اذا قصروا ونسوا أنفسهم لا
يكونون أصحاب حق فلا يكونون غالبين . وهذا المغرور نفسه قد ادّعى بأن
المسلمين على دين محرف ، وأن الدين الصحيح لا يكاد يوجد ، فقولهم انهم لن
يغلبوا لأن دينهم حق صحيح ولم يأت ما ينقضه ، لكن الشأن فى كونهم لم
يقصروا ولم ينسوا انفسهم ، ومعلوم أن غربة الاسلام اليوم وعدم العمل

بنصوصه أمر ظاهر فى الأكثرين

وقوله بعد هذا عنهم « وان الاسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى » صحيح ، فهل جاء ما ينقض هذا ، لا شك أنه لم يأت ما ينقضه ، وهذا المغرور نفسه معترف بأن الناس على غير دين صحيح ، بل على دين محرف لا يمكن البقاء عليه ، وجميع أئمة الاسلام يقولون ان تقدم المسلمين وانتصارهم بقدر محافظتهم على العمل بدينهم ، فان تمسكوا به وحافظوا عليه عزّوا وتقدموا ، وان فرّطوا وقصروا نالهم من التأخر والتقهقر بقدر ما قصروا فيه . وكلامهم فى هذا كثير جـــدا كما نبه عليه صاحب المنار فى التفسير والوحى المحمدى وغيره . ومن المعلوم أنه كلما تغير الدين وبعد الناس منه وتطرفوا فيه تأخروا وانحطوا بقدر بعدهم وتطرفهم منه ، وهذا أمر معروف بالضرورة والمشاهدة ، لأن الأصل الذى قامت عليه الامم الاسلامية والعربية هو الدين ، فبقدر ما يختل الأصل يختل ما قام عليه ، وهذا بخلاف الاديان الباطلة فانها نقائص لم يقم أهلها على حق حتى يقال انها غيرت دينها وتقدمت كما يأتى توضيحه قريبا . وأكثر الناس فى هذه السنين الأخيرة نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون ، واتبعوا التقاليد الافرنجية ونحوها وعشقوها وشغفوا بها ، واعتقد كثير منهم بأنهم أهـــدى من الذين آمنوا سبيلا ، فان كثيرا من الأنظمة الموجودة الآن التى يعمل بها ويتحاكم اليها فى بعض الأمصار مأخوذة من النظام الافرنسى وهو مأخوذ من النظام الرومانى ، ومعلوم أن الرومان أمة منكسة مقهورة ، ومع ذلك فهذا النظام الذى قلدوه وتقلدوه قديم جـــدا وموضوع فى ظروف ليس لها أدنى علاقة بهذه الظروف الحاضرة ، ومع هذا اختاروه على نظام الله ، هذا مع ادّعائهم أنهم مجددون وأنهم يكرهون القديم وأن الأخـــذ بالقديم رجوع الى الوراء وان الذين ياخـــذون بالقديم هم الرجعيون ، فكانوا هم الرجعيين حقا بمقتضى قولهم وفعلهم ، فكيف يبدل نظام رب العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين بآراء قوم ضالين ظالمين منحطين

ثم مع ذلك يرجى منه تعالى أن ينصر ويؤيد من هذا فعله مع عدله وحكمته . قال بعض العلماء ان الله أغير على نفسه من أن يسعد قوما يزدرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا فيستكبرون عن اتباع كلامه وكلام رسله ، ويخضعون لكلام أعدائه ويعظمون آراءهم الخبيثة وينقادون لها غاية الانقياد . ولقد فشا هذا الوباء العضال والداء الخبيث المنذر بوقوع آثاره ونتائجه الوبيلة الماحقة التى لا بد منها ان لم يتدارك بالأخذ بالأسباب الدينية الحكيمة والاعتصام بها ، ولكن محبة الدنيا والاغراق فى عبادة الاهواء أعمت عن ذلك . وخليق بمن بدل نعمة الله كفرا وأحل قومه دار البوار أن يبدل الله عزه ذلا وتقدمه تأخرا وأن يضرب بالذلة والمسكنة حيث أخذ بأسباب الذلة والمسكنة وأن يعاقب بالهوان كما اختار أسباب الهوان حتى يغير ما بنفسه وعقيدته المقلوبة ، لانه فى الحقيقة إنما يعاند الله ويحارب الله ويسب الله لأنه لم يثق بالله ولا بدينه ولا بكتابه ولا بطاعته بل احتقر ذلك وازدراه وكذب على الله بانه متبع دينه مستحق لاعانته ، وكيف يعاند الله ويريد مع هذا أن ينصره على عدوه

ولهذا لما استيقظ كثير من المسلمين فى هذه الأوقات الاخيرة وقام جماعات دينية ينشرون الدين الصحيح فى الكتب والمجلات وغيرها صارت تتقشع عنهم هذه الظلمات شيئا فشيئا ، ولكن أبت النفوس المظلمة الظالمة الا أن تسعى حثيثا فى إطفاء نور الله وإخفائه بانواع الحيل والخبث والمكر ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، والله لا يهدى كيد الخائنين ﴾

فصل

ثم ذكر أنه انتشر فى الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة ينادون بالأخذ بالاخلاق الدينية الأولى ، ثم أخذ يهجن رأيهم هذا ويشنع عليهم فيه بنحو كلامه السابق فى المبحث الاول ، وقد مر بطلانه . ثم قال فى هؤلاء « ولا يجب أن نعجب اذا وجدنا مخبولا يهذى ويمنى بالمستحيلات

قد نجح وأخذ برقاب الآلاف والملايين من هذه القطعان البشرية يقودها حيث شاء ، فانه قد هاجم أضعف جانب فيهم وهو جانب الرجاء والأمل فانتصر عليهم بدون عناء »

فيقال هذا كلامك الأول بعينه (١) وقد تقدم الجواب عنه ، وبينا أن هذا هو حقيقة حالك ، فانك صرحت بأن تأخرنا ليس من أجل اختلاف فى الرأى ولا لفساد فى الاخلاق وانما هو لأجل شىء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها . ثم فسرت هذا فى الموضع الآخر بان تعليم المرأة هو الذى يضمن التقدم ، فادعيت أن علينا أن نعلم المرأة علم الشطرنج والموسيقى ودقائق الفلسفة ثم لا نخشى شيئا بعد ذلك ، لانك فسرت العلم بهذا فكان النجاح كله فى هذا الشىء البسيط الذى ذكرته ، ثم رجعت الى هذا فنقضته وجعلت السبب الوحيد للتقدم هو الاعتقاد بان الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وأن الله لا يغير فى الأسباب ولا يتصرف فيها فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، فان ذلك هو الفوضى . ثم رجعت الى هذا فنقضته وادعيت أن التقدم كله مربوط بشىء واحد هو التمسك بأفكارك فمن تركها هوى ومن أخذ بها نهض . ثم رجعت الى هذا فنقضته حينما أصابتك الحيرة فادعيت أن حاصل ما ادعيته فى هذه الاغلال مشكلة لم تحل الى اليوم . وهكذا تبنى وتنقض (لا عقلا ولا خجلا) فما أوقعك فى هذا الخبال والهذيان الذى سجلته على نفسك إلا ظنك بأنك اذا وعدت المسلمين بهذه المستحيلات ولوحت لهم بهذه الخيالات يحصل لك النجاح فتأخذ برقاب الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية ، وما حملك على هذه الدعوى المرذولة إلا اعتقادك بأن جانب الرجاء والامل كان ضعيفا فيهم فأردت - بخيالك هذا أو غيره - ان تنتصر عليهم بدون عناء ، وان تأخذ

---

(١) اى فى قوله « يقال ان الدعاة الدينيين ينجحون كثيرا » الخ

برقابهم فتقودهم كيفما شئت (إن الأماني والأحلام تضليل) ولولا أن هذا هو اعتقادك وأنه قد رسخ في ذهنك حتى غلب على شعورك لما كتبت على أغلالك ما ذكرناه بانه «سيقول مؤرخو الفكر العربي انه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل» فهذا صريح في أنك كنت ترى الأمم العربية في طور الحيوانية البهيمية أو هم كالحيوانات التي تتبع قائدها بالتلويح بدون عناء، إذ أنها لا تبصر طريق العقل ، فالأمم العربية من جنسها بنص كلامك حتى تغلّ بهذه الأغلال ، فاذا غلت بها فانها تقفز من هذا الطور الحيواني الى طور الانسانية ، وحينئذ - حينئذ تبصر طريق العقل ، ولهذا حكمت فيما تقدم أن من تركه هوى ومن أخذ به نهض . ولا شك أن من لم يبصر طريق العقل من بني آدم فانه يهوى ، فلا نجاة له إلا بأن يلتمس الطريق المنير الذي يبصر به طريق العقل ، وقد حصرته في سبيل هذه الأغلال ، فعليه أن يقدمك في الأمر ، ويتضرع اليك فيطلب رغبته ونجاته عند الحادث النكر منك كما ادعيت ، وليس العجب منك في التجاسر على هذه الترهات والفضائح الواضحة ، فانك ما قصرت في إظهار خبالك وكفرك ونفاقك وخبث سريرتك وعداوتك للعرب والمسلمين وتلاعبك بعقول الغوغاء والمغفلين ، انما العجب كل العجب ممن أوضحت له هذا كله فأبى الا المعاندة والمكابرة في أمرك واتهامك بخلاف ما جاهرت به وصرحت به ، وأعظم من هذا وأطم أن فظائعك هذه لم تصغر في أعين البعض من الناس إلا من حيث أسرفت فيها وعظمتها وكبرتها ، لأنك حينما فعلت هذه الفحشاء وارتكبت هذه الحالة النكراء لم تقتصر على نسبة ما فعلته الى شخص دون شخص أو أمة دون أمة أو مذهب دون مذهب ، بل وجهت هذا الشتم والسب والاتهام والبهت الى جميع الأديان السماوية والى كل الدائنين بها جميعا من الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وسائر الطبقات من الخواص والعوام ، حتى صرحت على رءوس الأشهاد بأنه قد «عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم

عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » ، وهذا واضح جلى فى أن أهل الأديان منحطون ، وان الرسل وأتباعهم لم ينفعوا البشر بشىء ، ولا أخرجوهم من الظلمات الى النور ، بل عاقوهم عن التقدم ، وحالوا بينهم وبين الحياة الصحيحة ، ولهذا صرحت بان الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها . فأى شىء أصرح من هذا فى القدح فى الأديان وأهلها والثناء على الالحاد وأهله ، فعلى قولك ان الزنوج وأهل مجاهل افريقيا وغيرهم من الأمم التى لا تعرف عن الأديان شيئا أرقى وأعلم من المسلمين والمسيحيين واليهود ممن لهم أصل عريق فى الديانات ، وهذا هو اللائق بعقلك المنكوس . ولقد أكدت هذه الإطلاقات الخبيثة تأكيدا بعد تأكيد فقلت « عجز المتدينون » فأطلقت هذا اللفظ الشامل للمتدينين كلهم ، ثم أكدته تاكيدا صريحا بأنك تقصدهم كلهم لا أحدا دون أحد فقلت « على اختلاف ديارهم » ثم أكدت تاكيدا ثانيا لئلا يظن ظان أنك تريد أهل زمن دون زمن فيكون هذا غير كاف فى التأكيد فقلت « وأزمانهم » ثم أكدت تأكيدا ثالثا خوفا من أن يظن بك أنك لا تريد أهل الدين كلهم فيكون هذا غير كاف فى التصريح فقلت « وأنبيائهم » فصرحت بأن الأنبياء داخلون فى ذلك دفعا لما تخشاه من أن أحدا يستبعد منك أنك لا تريد الانبياء وأنهم لا يدخلون فى هذا الاطلاق ، لانك تعلم أنه يوجد حمير تذهب بهم الأوهام الى حسن الظن بك فيستبعدون جدا أنك لا تريد الأنبياء فى هذا الاطلاق فنفيت هذا الوهم الخاطىء ، ولم تكتف بذلك حتى عطفت على هذا التأكيد الرابع بتأكيد خامس فقلت « وأمزجتهم » دفعا لما يظنه من طبع الله على قلبه حتى كان أبلد من الحمار ، فربما يظن أنك تريد قوما دون آخرين من هذه الأجناس المختلفة أمزجتها فنفيت هذا وأعقبته بتأكيد سادس فقلت « وأجناسهم » لئلا يكون هنا ذو خيال سخيف يظن أنك تريد جنسا دون جنس ، وهنا وصلت السكين الى العظم ، فليس هناك

تأكيد يمكن الإتيان به حتى تأتى به ، وليس وراء هـذا النص والتصريح نص أوضح منه فى تعميم أهل الأديان بهـذا السب والشتم الصريح ، لأنه ليس فى الدنيا أصرح من هذا التعبير فى إرادة العموم ونفى التخصيص ، فقد أطلقت ثم أكدت الاطلاقات بأقصى ما يوجـد من التأكيـدات التى تنفى إرادة التخصيص ، لأن فائده التأكيدات هى نفى الاحتمالات ، وإلا لم يكن لها فائدة ولا معنى . لقد بلغت حـــدا لم يصل اليه غيرك من الـكفر والزندقة وشتم الأديان ومـدح ضدها ، ولـكننا - والحق يقـال - إذا لاحظنا قولك هـذا وقرناه بقولك « إنه بهذا الـكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » علمنا واستنتجنا انك ما أطلقت هـذه الاطلاقات ثم ذهبت تراوغ عنهـا بعد ذلك إلا فى أمة قد تصورتها على هذه الصورة التى ذكرتها فاعتقدت أنهـــا لم تبصر طريق العقل الصحيح ، وإلا فلو أبصرته لم تسمع لدعى غبى ساقط يشتمها ويشتم دينها وقومهـا على رءوس الأشهـاد فتغضى عنه وتتساهل فى أمره ولا توقع به أقصى العقوبات وتنكل به اقسى التنكيل

فصل

قال « أعلن منذ سنة ونصف تقريبا فى الصحف عن خطاب سيلقيه أحـد الخطباء فى إحدى الجمعيات الـكبرى المحترمـة ، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله) ، فذهبت الى تلك الجمعيـة فى اليوم الموعود فوجدت الحشود هائلة ، فقام الخطيب يلقى خطابه ، فكانت خـلاصته أن فى أيدى المسلمين أمرا سهلا قريبا يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجـدوا به جميع ما فقدوا ، وهو أمر لا يكلفهم شيئا ، هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالاجابة ، فانهم اذا دعوا الله وأيقنوا أنه يجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل [1] . ثم ألقى عـــلى نفسه اعتراضا مشهودا

(١) قوله « وبدون عمل » كذب وزيادة من كيسه

مشهورا وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله تعالى ويسألونه النصر والقوة والاستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير ، ومع هذا كله فانهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور ، فأجاب عن هذا الاعتراض قائلا انهم دعوا الله ولم يوقنوا بالاجابة ، ومن ثمة منعوا وحرموا » ثم قال هذا الملحد معترضا على ما ذكره هذا الخطيب تهكما واستهزاء : « فليجمعوا بين الأمرين ، ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم ، انه حينئذ سيهبهم كل شيء ، وسيهلك لهم أعداءهم ، وسيقدم لهم صك الاستقلال ملفوفا بحرير مصنوع فى السماء تحت اشراف الملائكة » . هكذا قال مستهزئا بدعاء الله واجابته . ثم قال « ثم أخذ - يعنى الخطيب - فى تلاوة تلك الآيات والأحاديث التى زعمها مصدّقة لظنه » ثم قال « هذا مجمل تلك المحاضرة التى ألقيت فى تلك الجمعية المحترمة ، وقد كان رئيس الجمعية وهو انسان ذكى خير حاضراً فسمع المحاضرة كلها ، وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا ، واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الاعجاب ، وحسبوا الخطيب قد ارتفع بهم الى احد الكنوز السماوية فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا »

والجواب أن يقال : قد سبق غير مرة أن لهذا الملحد حظا وافرا من الخصال اليهودية فى البهت والتحريف ، فهو يخترع ما شاء لنفسه بنفسه ويجيب نفسه بنفسه . فقد تصور بفكره المعكوس أن المسلمين والعرب أمم برابرة همجية لا يعلمون من الحقائق شيئا ، ولهذا فانه أضاف اليهم ما شاء وأجابهم بما شاء بدون أدنى مبالاة . ونحن نجيبه عن هذا الكلام من وجوه :

أحدها أن هذه الجمعية - على تقدير ثبوتها [١] - جمعية محـــترمة لها شأن

---

(١) الظاهر من سياق هذه الدعوى أنها مخترعة لا أصل لها ، ويكفيك ما تراه فى تضاعيف هذا الكتاب من الأكاذيب التى جاءت بهتا مكشوفا لا أساس له من الصحة مطلقا . وكيف يقوم خطيب ويدعو الناس الى ترك العمل وأن يقتصروا على الدعاء ويوافقونه كلهم على ذلك

كبير ، فيكون الكلام الملقى فيها له شأن كبير أيضا ، ولا سيما وهو معترف بان جميع الحاضرين قد رضوها وسرّوا بها ، فلا بد إذن من ذكر الكلام الملقى فيها بحروفه فلا يكتفى بذكر خلاصته ، لانه لم يذكر أنه موجود فى كتاب أو مجلة أو جريدة حتى يمكن مراجعته عند الشك فى نقله وحكايته ، فتحليله ونقده لا يمكن والحال هذه إلا بالوقوف على صورته ، ولا سيما وهو العدو المبين المتهم الظنين للخطيب وللمستمعين جميعهم ، فانه تهكم واستهزأ بهم ونسبهم الى ضعف العقل مع أنه عجز عن أن يرد عليهم ، بل اقتصر على السخرية والتشنيع فقط ، وهذا ليس بشىء ، فلا بد من نقل الكلام الملقى فى المحاضرة ، وذكر موضع النقد ، والاجابة عليه . ثم ما المانع له من نقلها بحروفها لينظر فيها وتدرس ويحاط بمراميها ، وهو قد أسهب وأطنب فى مسبة وزارة التموين المصرية بثرثرة طويلة لا طائل تحتها بمجرد أنها لم تسرع فى اجابة طلبه فى بيع ورق ، فلا داعى اذن لذكر خلاصة هذه الخطبة التى أعلن عنها وحضرها جمع غفير - على ما يزعم - وترك نصها الذى هو موضوع المناقشة ، هذا مع أنه هو بنفسه لا يرضى بمثل هذا وينكره غاية الانكار ، مع أنه يفعله دائما فى معارضاته فى الكتب والرسائل كفعله فى معارضته للدجوى فى (البروق) وكفعله فى (الصراع) فلا جرم أنه يريد أن يكون المقدم فى كل أمر

الجواب الثانى أن يقال لهذا المتبجح المتمين فخرا واختيالا : قد وقعت فى مثل ما ذكرته عن هذا الخطيب فى الأسباب المادية ، فانك ادعيت فى أغلالك هذه أن فعل الأسباب المادية واعتقاد كونها فاعلة لذاتها حتما يوجب النجاح قطعا ، ثم أجبت عن الأسباب الكثيرة التى تفعل ولا ينجح أهلها قائلا إن اهلها فعلوها شاكين فى حصول النجاح فيها ، وإلا فلو فعلوها معتمدين عليها جازمين بالنجاح فيها لنجحوا وتقدموا قطعا ، وقد أكثرت من تكرار هذا الاصل ، فهذا الذى ادعيته هو من جنس ما ادعاه الخطيب فى دعاء رب العالمين ،

انما الفرق بينك وبينه أنه أسند حصول النتيجة الى الرب العظيم القادر جل جلاله وجعل الدعاء من أقوى الأسباب ، وأنت أسندت ذلك الى الأسباب المخلوقة وجعلت ذلك منوطا بها فكان كل منكما تكلم بمقتضى اعتقاده ، فانه لما كان مؤمنا بالله وحده وأنه المتصرف فى خلقه المدبر للأمر كله جاءت محاضرته التى ألقاها على مقتضى اعتقاده . وأنت لما كنت وثنيا ملحدا معتمدا على الأسباب وحدها معاكسا له فى اعتقاده كل المعاكسة جاءت دعايتك على مقتضى اعتقادك ، فجعلت مناط التقدم عكس ما جعله أصله ومناطه ، فأسندت ذلك الى المخلوق كما أسنده هو الى الخالق ، وحينئذ يقول لك المعارض عن الخطيب : فما دمت تعتقد أن النجاح منوط بالأسباب المادية ، وأن فعلها والاعتماد عليها يوجب النجاح ، فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع لهم الشيطان أو تصنع لهم الطبيعة . انهم سيتحصلون على صك يتضمن الحصول على كل شيء والتغلب على كل شيء والعلم بكل شيء ملفوفا بديباج من ديباج المادة تحت إشراف الشياطين ، فلا أسهل من كون الانسان يعمل ويجزم بان فيه الكفاية أو فى أسبابه المادية الكفاية . ولعل هزيمة ألمانيا وإيطاليا وأمثالها وعدم حصولهم على هذا الصك من أجل أنهم لم يعملوا جازمين بالنجاح شاكين فى أنفسهم وفى أسبابهم لأن أكثر هؤلاء لا يعرفون الدعاء ولا يعملون بالعبادات الدينية الصحيحة . وأدنى عاقل يعرف أن هذه الدول التى سقطت فى ميادين أسبابها بل وكثير من الأفراد الذين سقطوا ما حاربوا وقاوموا وقاتلوا إلا لأنهم جازمون بحصول النجاح وأن جزمهم ليس بدون جزم إخوانهم الذين هزموهم فلم يحصل لهم ما أرادوا ، بل أكثرهم حصل له ضد ما طلب بخلاف الداعين فانه لا يحصل لهم من نفس الدعاء ضد أبدا ، فما باله لم يشنع على هؤلاء الوثنيين الماديين كما شنع على أعدائه المؤمنين فمدح أولئك على فعلهم بل بروه ودعا اليه ، وذم هؤلاء الموحدين على طاعتهم ووجه اليهم غاية اللوم والذم ، وكل ما يجاب عنه من الموانع والعوارض فى

الأسباب المادية يحاب عنه فى الدعاء كما تقدم ، بل قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أكل الحرام مانع من إجابة الدعاء (١) فكيف بالشرك وتحريف الصفات وترك الصلوات وإضاعة أوامر الله تعالى

الجواب الثالث أن دعواه أن الله لم يجب هؤلاء الداعين ولم يعطهم شيئا مما طلبوا دعوى لا يخفى ما فيها من الكذب والفجور والجرأة على الله تعالى والهجوم على الغيب بل والمكابرة فى الحسيات ، فمن الذى أعطاهم هذه الخيرات المتواصلة والنعم الضافية ودفع عنهم الشرور العظيمة مع ماهم فيه من المعاصى ، بينما أن كثيرا ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا وعدة وعددا لم ينالوا مثل ما نالوا ، وكل عاقل يعلم أن حالة أكثر الأمم الاسلامية قد تحسنت تحسنا بينا ، ولقد صرف الله عنهم شرورا كثيرة فى هذه الحروب الأخيرة ، وزادهم الله خيرا الى خير بدون حول منهم ولا قوة . ويعرف هذا الفضل متى تصور الانسان حالتهم قبل الحرب وبعدها على ما مع الناس من الموانع والعوارض والذنوب التى لا تعد ولا تحصى والتقصير الذى لا شك فيه

الجواب الرابع أن مجرد وجود خطيب واحد يلقى خطبة واحدة فى مجتمع واحد أو فى مجامع لا يسوغ لعاقل أن يحتج بفعله على كل المسلمين ، ولا يفعل هذا إلا مفرط فى الجهل والهوى ، فان مثل هذا لا يدل على أن المسلمين كلهم كذلك ، بل هم يعتقدون أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام ، وليس كل خطبة يجب اعتقاد ما فيها باجماع المسلمين ، وقد تقدم قول هذا المغرور انه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، هذا لو قدر أن فيها خطأ فكيف وهى حق لا ريب فيه

---

(١) وذلك لأن خبث الحرام يؤثر فى الروح والجسم المغذى به . والدعاء الصاعد من ذلك الجسم لا بد أن يكون ملوثا بالخبث ، والله طيب لا يقبل إلا طيبا ولا يصعد اليه إلا طيب

الجواب الخامس أن المصائب نوعان أحدهما مالا قدرة لأحد على دفعه واتقائه وتلافيه عادة من الأسباب التى فى طاقة البشر كالحوادث السماوية ، والثانى ما كان فى قدرة البشر اتقاؤه ودفعه مما جعل الله للانسان قدرة على استحصاله أو درئه . فالنوع الأول يعالج بالدعاء والتضرع والتوبة والخلاص من الذنوب ، ولا بد أن يفيد ذلك ما لم تستحكم موجباته ، والنوع الثانى يكون الواجب فيه فعل ما فى النوع الاول من الدعاء والاستعانة بالله ، ويجب فيه أيضا بذل الجهد فى عمل الأسباب المادية المشروعة لجلبه أو دفعه ، فالعمل تستمد فيه القوة من الله تعالى بالدعاء ونحو ذلك من العبادات ، فلا بد من وجود السبب الدينى مع السبب الطبيعى ، لأن السبب الدينى هو الأصل والطبيعى فرع عنه ، فان الله إن لم يشأ حصوله لم يحصل أبدا ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى ﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ وفى الحديث « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » الحديث . وقال تعالى ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ فأخبر أن الكنوز المخبوءة فى الارض هو الذى يخرجها أى بالأسباب التى هى طوع ارادته ، وقرن إخراجها بعبادته تعالى كما قرن السر والعلن والاخراج والخبء لانها أمور مرتبطة بعضها ببعض ، فان من لم يعبد الله بها ويصرفها فى طاعة الله وعبادته لم ينتفع بذلك انتفاعا صحيحا بل قد تكون ضررا ونكبة عليه . فجميع مافى السموات والأرض من المنافع إنما خلق لعبادة الله وطاعته ، فالعبادة هى الاصل فى جلب الخيرات كلها وهى مادة الخيرات كلها كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ وقال تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ﴾ فحصول الانتفاع الصحيح بالخيرات المخبوءة

والظاهرة إنما هو بالطاعة والعمل الصالح . ويجب أن يعلم الفرق بين الاستحصال وبين الانتفاع ، فكم من مستحصل شيئا لم ينتفع به بل قد يكون ضررا عليه ، فالانتفاع ثمرة الاستحصال ، ولا يظن ظان أن خطيبا مسلما من عقلاء المسلمين يلقى محاضرة فى مثل هذه المجامع المحترمة فينهى الناس فيها عن العمل فيحثهم على الدعاء وعلى ترك العمل ويستحسن المجتمع كلامه ، فان مثل هذا الكلام لو نقله الينا مستور الحال لم نصدقه ، فكيف اذا كان الناقل أكفر زنديق ومرتد وأعدى عدو للاسلام وللاديان كلها ، وهو مع ذلك لم يذكر الكلام بنصه ، والواقع والعادة يكذّبانه أظهر تكذيب

الجواب السادس أن قول القائل ان المسلمين ما زالوا يدعون ويسألون النصر والاستقلال ونحو ذلك ، ولم يحصل لهم شىء من هذا ، دعوى فى نهاية السقوط ، فهى مع كونها جرأة على الله ومجازفة واضحة ، هى كقول القائل ان المسلمين بل وغير المسلمين من الأمم المستعمرة ما زالوا يبذلون أسبابا مادية لا تعد ولا تحصى من الثورات والمنازعات والمعارضات والمفاوضات والنضال والكفاح الشديد ومع ذلك لم يستحصلوا على شىء من هذه الأمور التى أرادوها . وكل عاقل لا يرتاب فى أن ما يبذلونه من الأسباب المادية أعظم وأكبر وأضخم مما يبذلونه من الأسباب الدينية من كل وجه ، فكم من ثورات قاموا بها وكم من محاولات لا تحصى فعلوها فما نجح من ذلك شىء ، فلو أن قائلا قال ان الثورات والمنازعات والمعارضات وجميع الأسباب المادية لا تنفع لأن هؤلاء جرّبوها فما نفعتهم ، لم يكن قوله أولى بالبطلان من قول القائل انهم يدعون فلا يحصل لهم شىء مما طلبوا ، لأن الدعاء لم ياتوا به ويجتهدوا فى مقتضاه عشر معشار اجتهادهم فى هذه الأسباب المادية ، ولا ياتون به على وجهه فى الصدق والاخلاص وحفظه عن مضاده من الشرك وتحريف الصفات والشك والريب فيه كما يأتون بالأسباب المادية مستقيمة مكبرة معظمة وضخمة محترمة قد بذلت فيها الأموال الطائلة والمهج الغالية ، فأين هذا من هذا ، فما بال

هـذا الأحمق المنكود شديد العداء والمضادة لدعاء الله تعالى وطاعته وتقواه ، شديد الغلو في الأسباب المادية واحترامها مع وضوح حبوطها كثيرا واعترافه بذلك . ولـكن غرضه الأكبر من هذا كله هو محاربة رب العالمين وتشويه سمعة دينه وعبادته لاغراضه الخبيثة ، ولهذا فانه جعل هدف اسبابه واتهامـه دعاء الله ، لأنه يعرف أنه روح العبادة ولبها كما قرر ذلك ، وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا تبعا لتكرار سبه وهجومه على هذا الأصل العظيم

فصل

ثم ذكر عن شيخ من العلماء ولم يسمه أنه ذكر أن النصارى لا يدخـلون دمشق ، وأنه استدل على ذلك بأنهـا معقل الاسلام عند الملاحم ، وأن في الحـديث « اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » ، ثم ادعى أن الواقع قد أكذب هـذا الشيخ ، فذكر أن جيوش فرنسا والانجلـيز دخلته ، ثم ذكر أن أسباب هذا هو الجهل بنواميس الطبيعة ، وأطال من هذا الهذيان ، فجعل خطأ هـذا الشيخ ـ لو ثبت ـ حجة على المسلمين ، فهو لم يذكر هـذا الشيخ باسمه [١] ، ولم يذكر كلامه ولا في أي موضع وجده ، بل اقتصر على أنه محدّث ، وكأنه يرى أن كل محدّث معصوم عند المسلمين ، وقد نسي قوله الصريح فيما تقدم أن الشيخ الـكبير قد يغلط ، ثم اذا ثبت هذا فهو دليل على أن أسباب هـذا هو

---

(١) لعله يشير الى الحافظ ابن كثير ، فان كان هو المقصود بهذا الانتقاد فليعلم أن ابن كثير ذكر في تاريخه ص ١٨٤ ج ١٢ سنة ٥٩٣ أن الافرنج ملـكوا مدينة حلب ، قال « وفيها سارت الفرنج الى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملـكوها » الخ . فان كان ذكر ما نقله الملحد فلعل ابن كثير أراد أنها لا تكون لهم وطنا ولا تستقر لهم مستعمرة اذ من المستبعد أن ينكر ما ذكره وقرره ، وانما أراد ما ذكرنا . وهـذا لم يقع فلا حجة لهذا الملحد فيه ، فانها الآن مستقلة ، وهي وطن عربي ، واستيلاء العدو عليها برهة عقوبة لا ينافي الحديث أصلا

الجهل بدين الله وطاعته ، لأن هؤلاء الذين استولوا على دمشق وغيرها انما قدروا على ذلك لما ضعف أمر الدين هنالك ، وفرّط الناس فى اتباع سلفهم الصالح ، فانه من المعلوم عند المسلمين أن من فرط فى دينه واستكبر عن أمر ربه لا بد أن يكون عرضة للعدو ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وقال « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » وهذا يدل على عموم الكفر فى الشام وغيره ، وليس فى حديث « اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » ما يدل على أن دمشق لا يدخلها الكفار حتى تقوم الساعة ، بل قد ثبت أن يأجوج ومأجوج يبلغ شبه جزيرة العرب وما حولها ، وهم أعدى من اليهود وأمثالهم ، وقد استولى النصارى على بيت المقدس فى وقت صلاح الدين الأيوبى ، وانما المراد من الحديث أنه ما دام الاسلام قائما هناك باستقامة أهله فانه لن يرجع اليهم قيصر ، أما اذا انحرفوا وغيروا فقد بين الله سنته فى الأولين أنه لا بد أن يعاقب من غير دينه ، ويسلط عليه عدوّه ، كما تقدم شرح هذا مرارا

فصل

قال المغرور « قال أحد القواد العبقريين الذى عركتهم الحروب وعركوها : اذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما . وهذه قولة إذا نظرنا اليها بشق واحد من عقولنا (١) ولكنها فى الواقع عميقة (٢) منبئة عن حقيقة كبرى فى حكمة الله ، واذا استمعنا الى قول الله فى كتابه ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ استطعنا أن ندرك ما فى قول هذا القائل من حق وصدق ، فان هذه الآية قد

---

(١) قد يكون هذا الشق هو الذى كنت تنظر به أولا فى كتبك السابقة ، ولكن أصابه الفالج الذى أصاب الثانى

(٢) نعم عميقة فى الكفر والالحاد

جعلت نصر الله لنا إنمـــا ياتى بعد نصرنا له ، ونصرنا له تعـالى هو نصرنا لأنفسنا ، واذن فالله لا ينصرنا إلا اذا نصرنا أنفسنا ، ولا يمكن أن ننصر أنفسنا إلا اذا كنا أقوياء (١) ، وإذن فالله مع الناصر لنفسه ، والناصر لنفسه هو الأقوى وإذن فالله مع أقواهما »

والجواب أن يقال : أنت قد قررت أن اليهود أقوى منا فاذن فالله تعالى مـع اليهود لا مع المسلمين ، ومع الروس والانجليز والامريكان وليس مـع المسلمين ولا مع المتقين والمحسنين ، لانهم بلا شك أقوى منهم ، فالله تعـالى وتقدس مع هذه الامم الباغية والطاغية ـ على نص كلامه ـ فلا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نحاربهم ، بل يجب علينا أن نواليهم ونحبهم ونكرمهم ، ولا سيما اليهود فانك أطلت فى تعظيم قوّتهم وأنهم أقوى منا بلا شك ، فمحاربتنا لهم كفر وخطأ واضح ، لاننا إنما نحارب الله اذا حاربناهم وحاولنا معارضتهم ، فاذا نازعنا هؤلاء فقد آذنا بحرب من الله ورسوله ، فالله جل وعلا ـ على صريح كلام هذا الزنديق ـ مع الكافرين والملحدين ، لا مع المتقين والمؤمنين . فقبحه الله وقبح من جادل عنه . وقد قرر أن المتدينين متأخرون فى الحياة دون من سواهم ، فالله إذن لا يكون معهم ، وانما يكون مع أعدائهم فلا يكون الا مـع من حاربه . ولا شك أن الصنم خير من اله هذا شأنه ، ولم نعلم أحدا من جميع الـكفار من أولهم الى آخرهم تجاسر على أن يجعل رب العـالمين بهذه الصفة . ولا شك أن الأصنام غاية ما فيها فى الدنيا أنهـا لا تنفع ولا تضر وأما هـذا الاله الذى هذه صفته فانه يضر المتقين والمؤمنين اذا كانوا ضعفاء فينحاز الى

---

(١) لـكنك تقول : لا نكون أقوياء الا اذا اعتقدنا أن دعاء الله ملهاة ومصرف خبيث ، وأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة ، فهذا هو نصرنا لانفسنا عندك

الكفار الأقوياء ، ولا شك أن هذا شر من الأصنام . فلعنة الله على هــذا الزنديق ما أجرأه ، وكيف استطاع أن يتجاسر على هذا الرب الكريم العظيم ويسبه هذا السب الذى لم يسبق له نظير فيما نعلم . فان الملاحدة المصرحين بالالحاد لا يقولون بهذا ، والمتدينون يكفّرون من يقول به . ولكنه لعظم كفره وعمق زندقته أراد أن يخلط الحق بالباطل ، وأن يلبس على من طبع الله على قلبه فذهب يروج هذه الدعوى باعانة الله أهل القوة فسب الله تعالى ودينه أقبح سب وأشنعه

دسائس لا تدرى اليهود بعشرها دعاه اليها الخبث والسوء والمكر

وأكثر العقلاء يعرفون مغزاه ومرماه من هذه الدسائس الكفرية بأنه يجب موالاة هؤلاء وأن لا ينازعوا ولا يطالبوا ، بل يوالون ويحبون ، فهذه اعانة ودعاية لأوليائه بان الله معهم لا مع المسلمين . ولم يكفه هذا الزعاف حتى استدل على هذه الدعوى المرذولة بالآية الكريمة المقدسة وهى قوله ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وجعلها دليلا له ، فكابر بالبهت ، وقلب الآية واستدل بها على ضد مدلولها ، ففسر نصرنا الله بنصر أنفسنا ، ومعلوم أن الله لم يقل إن تنصروا أنفسكم ينصركم الله أو إن تنصروا نواميس الطبيعة ينصركم الله ، بل قال ﴿ يا أيها الذين آمنو ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ، ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فالآيتان المتسقتان نص صريح فى ردّ دعواه ، فانهما نص فى أن الله مع المؤمنين إذا نصروه ، فالخطاب موجه اليهم . ثم قال فى الكافرين ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فهم ضد أولئك ، فانه تعالى لا ينصرهم ولا يثبت أقدامهم ، بل حظهم التعاسة أى العثرة التى هى ضد ثبوت القدم ، والضلال الذى هو سبب الهلاك المضاد للنصر والتأييد على المؤمنين ، فقرن تعالى بين المؤمنين والكافرين فى الذكر ، وبين حالة كل من هؤلاء وهؤلاء ، وقد بين سبحانه وتعالى لنا كيفية نصرنا له الذى هو نتيجة نصره لنا بيانا أوضح من الشمس فى نصف

النهار فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ﴾ فبين تعالى نصرنا له بأنه الاتيان بهذه الاخلاق الدينية الظاهرة لأنها هى الاصل ، فمتى صحت واستقامت تفرع عنها كل موجباتها من النشاط والقوة المتواصلة على العمل . وهذا الملحد عاكس هذه الاخلاق التى هى نصرنا لله ، فادعى أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، بل جعل الدعاء الذى هو روح الأخلاق الدينية لا فائده فيه ، وجعل المساجد التى تؤدَّى فيها الصلاة ونحوها أدَّت شر ما يؤدَّى . وهذا عين المعاندة للآية ولنصر الله ، فكابر هذا الملحد وباهت فعكسها وطبقها على ضد مدلولها وعلى مقتضى إلحاده ، مع كونها تقطع ظهره بالبرهان الصريح ، وكما أنه صادمها فقد صادم أصل الدين كله فان الله مع المؤمنين دون الكافرين فى جميع الأديان السماوية ، كما قال تعالى ﴿ ان الله مع المتقين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، إن الله برىء من المشركين ، إن الله لا يحب الكافرين ، والله لا يحب الظالمين ، فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ فاخبر أنه ينتقم من المجرمين وأنه ينصر المؤمنين ، والمؤمنون الصادقون هم الذين يعظمون دينه ونظامه ويحكمونه فى كل أمورهم دون ما سواه ، وكيف يسوغ فى العقل أن يكون الرب الكريم الرحيم العليم الحكيم مع أعدائه مع أنه أعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا ، فقبح الله من يروج عليه هذا الكفر ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾

ان هى الا دسيسة خبيثة يراد من ورائها تثبيط المسلمين عن طلب النهوض والاستقلال ، فان من أكبر الذنوب أن نحارب الله ونتقوى عليه لأنه - على ما زعم - مع هؤلاء الأقوياء الذين استولوا على هؤلاء الضعفاء . ولهذا صرح بعد أن قرر أن اليهود أقوى من المسلمين بأن المسلمين والعرب ضالون فى الدفاع عن فلسطين ومقاومة اليهود ، لأنهم أقوى منهم كما يأتى . ولا ندرى

كيف يقول هذا الزنديق فيما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « انما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » وقد كان ﷺ يستسق بصعاليك الصحابة أخرجاه فى الصحيحين[1] وذلك لأن رحمة أرحم الراحمين أقرب الى الضعفاء الأتقياء لما يقوم بقلوبهم من الخشية والخشوع والتعبد الخالص ، بخلاف الفاجر القوى المختال المستكبر فان الله لا يحبه بل يبغضه ، فهو قمين بالطرد واللعن والابعاد كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقد قال تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فأخبر انه معه هو وصاحبه دون الكفار ، ومعلوم أنهم أقوى منهما أسبابا مادية كما قال تعالى لموسى وهرون ﴿ اننى معكما أسمع وأرى ﴾ ومعلوم أن فرعون وقومه أقوى من موسى وهرون فى الأسباب المادية ، وهذا مما علم بالضرورة من دين الاسلام بأن الله سبحانه لا يكون إلا مع المؤمنين فلا يكون مع الكفار أبدا

وليت هذا الزنديق اقتصر على النظر بالشق الواحد الذى نظر به من عقله - كما يقول - ولم ينظر بالشق الآخر الذى أصابه الفالج والموت من قديم ، فلهذا سرى الى شقه الآخر ، نسال الله العافية بمنه وكرمه

ثم قال « فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ؛ ومن هلك بهما فلا ناصر له »

هكذا قال ، فعنده أن من هلك بمقاومة هؤلاء المستعمرين الأقوياء مطالبا باستقلال بلاده والدفاع عنها فانما هلك بالحق والعدل ، فجميع قتلى

---

(١) هذا وأمثاله مما يدل على كرم الله وجوده ورأفته ورحمته ، وأن الضعفاء الاتقياء يدفع الله بهم بلاء وشرورا كثيرة ، وأنهم ليسوا كما يتوهم الزنادقة أنهم بلاء ومحنة ، بل هم خير من الفجار الأقوياء ، وإن كان الأتقياء الاقوياء خيرا منهم ، كما قال عليه السلام « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير »

فلسطين وثوار مصر والعراق وسوريا وأمثالهم قتلوا بالحق والعدل ، والذين قتلوهم من الانجليز والفرنسيين وغيرهم إنما قتلوهم بالحق والعدل ، فهم محقون فى ذلك عادلون لم يتجاوزوا الحق والعدل ، لأن هؤلاء الثائرين لحقهم وأوطانهم ضعفاء بالنسبة اليهم ، وهم أقوياء ، والله مع الأقوياء ، ولهذا أكده بقوله « فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك به فلا ناصر له » فسبحان الله كيف تذهب العقول ، وأين الغيرة على الدين أو الجنس أو الوطن ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

فصل

ثم شرع يذكر قضية فلسطين ، وادعى إفكا وزورا على المسلمين أنهم يزعمون أنه لن يكون لليهود صولة ولا دولة ولا ملك ولا وطن خاص أبدا ولو فرط المسلمون فى دينهم وأضاعوه . وقد أطال فى تعظيم أمر اليهود وتحقير شأن المسلمين . فقال :

« هذا ما كان يقوله المسلمون فى العصور الخالية فى سيادة النصارى وانتصارهم عليهم (١) أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون هذا الوهم فى خطر اليهود وفى ملكهم ومحاولتهم اعادة وطن قومى لهم ، فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لا خطر ذاتى لهم وأنهم لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الاسلامية ، لا على فلسطين ولا على غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع اليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك ولن يكون لهم وطن خاص . ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه وراحوا يتلون الآيات منزّليها فى غير موضعها »

---

(١) يعنى ما ادعاه عليهم زورا فيما تقدم أنهم يقولون لن يغلبوا ولو قصروا ونسوا أنفسهم

فيقال : عن هذا أجوبة . أحدها أن قد تقدم الجواب عما ذكرته عن المسلمين فى رأيهم فى النصارى ، وبينا أن تلك الدعوى كذب ظاهر وبهتان لا أصل له

الجواب الثانى أن دعواك أنهم بدلوا هذا الوهم بوهم آخر حل محله كذب ظاهر مركب على الزور الذى قبله ، وقد تقدم فساده

الجواب الثالث أن هذا الذى حكيته عن المسلمين فى أمر اليهود على هذا الوضع ليس بصحيح ، ولا يخفى بطلانه على عاقل . فان كنت تريد أن علماء المسلمين المعتبرين - كما هو ظاهر كلامك - يدعون هذه الدعوى فهذا بهت واضح ، ولا يمكنك إثباته . وان كنت تريد أن بعض العامة يدعى ذلك فمعلوم أن هذا ليس من الحجة فى شىء . وان كنت تريد أن بعض من ينتسب الى العلم ادعى هذا فقد تقدم قولك أن الشيخ الكبير قد يقول مالا علم له به ، وأنه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ، وأنت إنما أردت الأول لأنك قلت هذا ما كان يقوله المسلمون بهذا الاطلاق

الجواب الرابع أن الفرق ثابت بين اليهود والنصارى شرعا وعقلا فى أنهم ليسوا سواء فى الوسائل والأخلاق التى تكون أسبابا للتقدم والتأخر ، وأنت جعلتهما سواء ، والله قد فرق بينهما . قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنو الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ وهذا التفريق الثابت يقتضى التباين العظيم الذى لا بد من وجود أثره . وقال تعالى ﴿ وإذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيمة ﴾ الآية . وقال تعالى فى اليهود ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ الى غير ذلك من الآيات . وليس فى القرآن أو السنة ما ينفى

تملك النصارى وقيام دول لهم وانتصارهم على الكفار أو من ضيع دينه أو احتقره وقصر فيه ، فانهم كانوا فى وقت النبي ﷺ وخلفائه وقبلهم وبعدهم الى هذا الوقت لهم حكومات ودول قائمة . وقد عرفت سيرتهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وقد استولوا فى القرون الوسطى سنين معلومة على القدس وفيه سكان مسلمون فعاشوا معهم ، وهذا بخلاف اليهود ، فانه منذ زمن داود النبي عليه السلام وبنيه الى هذا الوقت لم يثبت لهم ملك ولا حكم ولا دولة مستقلة استقلالا تاما كاستقلال غيرهم ، وذلك لما انطووا عليه من الخبث والمكر وسقوط الاخلاق ، فانهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويكفرون بآيات الله ، وهم سماعون للكذب أكالون للسحت . ومعلوم أن من اتصف بهذه الأخلاق المسخطة لا يمكن أن يتقدم . والنصارى لم يذكر عنهم فى النصوص ولا فى التاريخ المتواتر ما ذكر عن اليهود ، فالفرق بينهما ثابت حسا وشرعا وعقلا ، فقياس أحدهما على الآخر قياس فى غاية البطلان لوجود الفروق التى هى فى غاية الوضوح

الجواب السادس أن المسلمين لم يتهموا كتاب الله تعالى بوجود هذا العهد الذى يدعيه ، بل هم يقولون ان الله تعالى قد ضرب على اليهود الذلة والمسكنة كما ورد ، ولا يمكن أن يتقدموا على المسلمين المحافظين على دينهم أبدا ، أما اذا أضيع الدين ونبذ أهله نصوص الكتاب والسنة واستعاضوا عنها تقاليد اليهود وأمثال اليهود من الرومان وغيرهم ، فمن الجائز أن يعاقبوا وأن تبدل حالتهم الحسنة بحالة سيئة ، حيث بدلوا نعمة الله كفرا واستعاضوا عن نوره ورحمته ظلمة وشرا ، بأن يسلط عليهم اليهود أو غير اليهود ممن يتولاهم ويستولى عليهم ، فأى وطن من الاوطان يشتم فيه الدين على رءوس الأشهاد ولا يتمعر فيه وجه أحد ، وان تلك البلاد يوجد فيها أكثرية تنظر الى الأديان السماوية والى أهلها نظرة المحتقر المزدرى المتهكم ، ولا يوجد فيها إلا ما ندر من يغار ويغضب لله ولدينه وشرعه ، حرىّ أن يعاقبوا باستيلاء العدوّ عليهم

ولا سيما اذا انضم الى ذلك ضعف سلاحهم المادى ، فاذا انتفى السلاح الدينى والسلاح المادى فأى مانع لمن هذه حالته من أن يكون عرضة لطمع الطامعين واعتداء المعتدين ، وسواء كانت هذه البلاد التى هذه حالها فى مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ثبت فى الصحيح أن يأجوج ومأجوج - وهم أمة من بنى آدم كفار أكفر من اليهود - سيظهرون ويتغلبون على أكثر هذه الأقطار زمنا قليلا ، فاذا كان هؤلاء مع كونهم كفارا ملاحدة سيتغلبون على هذه الأقطار على حين مزاولة العمل بالشرائع الدينية فيها فكيف لا يكون من الجائز أن تتغلب اليهود على بلاد قد فرط أهلها فى دينهم ولم يعملوا بشرائعه ، لان العاصم من ذلك هو الدين الصحيح ، فمتى زال زال مقتضاه . أما اذا وجد على الوجه الصحيح فلن تقدر اليهود ولا غير اليهود من الكفار على الحصول عليه وجعله وطنا خاصا لهم أبدا . ثم لو فرض وجود إقامة ملك لهم فى وطن قومى مهما كانت العوامل فهذا لا ينفى ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، فان هناك حكومات لأقوام لهم أوطان قومية وهم على غاية من الذلة والمسكنة لأمور أخرى ، ولا يمكن أن يقوم لهم ملك أو دولة إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، فاذا لم يحصل شيء من هذا فمن المحال أن يستحصلوا على شيء من ذلك ، كما أنه من المحال أن يستحصلوا على وطن تقام فيه شعائر الإسلام إقامة صحيحة . فاذا تمسك المسلمون بدينهم الحقيقى ولم يغيروه وأخذوا بما أمر به ووصى به من الاسباب الدينية والدنيوية فلن يتقدم عليهم اليهود ولن يتغلبوا عليهم ، كما أنهم لم يتقدموا عليهم فى تلك القرون الماضية بل قهروهم غاية القهر ، اما اذا أخذ المسلمون قوانين اليهود بل أغلال اليهود التى أعظمها قولهم للكفار ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ (١) وحرفوا الكلم

---

(١) وسواء قالوا ذلك بلسان النطق أو بلسان الحال فان اختيار قوانينهم واحترامها دون نظام الله وشرعه دليل على أنهم يرون أنها أهدى سبيلا من غيرها

عن مواضعه كتحريف الصفات والحدود وغيرها وانماعوا فى أكل السحت والتسمع للكذب وعصوا الله وتمردوا عن اتباع كتابه واستكبروا عن الأخذ به وشمخوا بأنوفهم عن العمل به ورأوا أنه ليس فى اتباعه كفاية وأن التقوى والصلاح خمول وانحطاط وأمثال ذلك ، نقول ان الذى يأخذ أغلال اليهود فى نبذ النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه والخيانة فى أكل السحت والفوضى بالتسمع للكذب فيجعل هذه الأغلال فى عنقه ويديه ثم يريد مع ذلك أن يقهر اليهود وأن يكافح اليهود وينتصر عليهم وقد صفد نفسه بأغلالهم فقد رجا مالا يستحقه لأنه إذن مثلهم بل دونهم ، لانه انتسب الى دين وناقضه وأفسده بتخلقه بأخلاق أعداء ذلك الدين ، بخلاف الكافر الأصلى . ومن هذه حاله فلا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، وبقدر ما يأخذ الفرد أو الجماعة من خصال اليهود يكون له من الذلة والمسكنة نصيب غير منقوص

والحاصل أن قيام دولة لليهود برهة من الزمان على هذا الوضع الراهن ، وعلى هذه الصفة الموجودة الآن ، لا ينافى ما دلت عليه النصوص ، فالنصوص ليس فيها تعرض لقيام دولة كهذه ، وانما دلت على ضرب الذلة عليهم وعلى من فعل فعلهم . وهذه الدولة المزعومة إنمـــا قامت على أغراض وأهواء متناقضة متعاكسة ، ففرضت فرضا بالقوة والإرهاب والقهر ، لا بالعدل والنظر الصحيح كالشأن فى الدول الكثيرة الاخرى ، والذين فرضوها إنما فرضوها لأغراضهم الخاصة لا لمنفعتها هى ، وهى إنما رضيت بذلك من أجل ما لقيته من الإهانات المتلاحقة والاضطهاد المرير . ثم هى مع هذا إنما قامت لما ضعف أمر الدين فى نفوس الأكثرين وأصبح الدين لا قيمة له فى قلوب أكثر الناس ، بل سحروا بحب المادة والشهوات البهيمية ، فكانت نوعا من أنواع العقوبات . فأمة هذا شأنها وهذا موقفها كيف يصح أن ينفى عنها ضرب الذلة والمسكنة ، بل نفس قيامها بهذا الوضع دليل على صدق هذه النصوص ،

فانها لو لم ينلها هذا الذل والمسكنة لما احتاجت الى أن تقف هذا الموقف الخطير، ولكانت كغيرها ممن لم ينله ما نالها

ان المشكلة الكبرى بل المصيبة العظمى التى أعمت بصائر الأكثرين أنك تنظر الى بعض الشعوب فتجد الشعب كله - إلا من شاء الله - منغمسا فى أخلاق اليهود وفى أخلاق المنافقين فى تحريف النصوص وإخراج معانيها عن ظاهرها، ثم رفض العمل بها، ثم رؤيتها بعين الاستصغار والاحتقار، ثم مع هذا تجد هذا الشعب مصابا ببلاء فوق هذا أفظع وأشنع، ذلك أنه يعتقد أو يرى أن السياسة قسيمة الدين السماوى، بل قد يرى أنها هى الاصل والعمدة، فيجعلها أول كل شىء وفوق كل شىء، فما وافقها من نص عمل به - لانه وافقها، لا لأنه تنزيل من حكيم حميد - وإن خالفها رفض رفضا باتا، إما بدعوى أنه مشتبه أو بدعوى استحالة العمل به لمصادمته فيما يظن للسياسة، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله إلا من شاء الله مبتلى بوباء آخر فوق هذا وهو وباء حبّ المادة والتهالك عليها وعبادتها حبا يغلب على كل معانى الحياة فيه، وذلك هو أكل السحت، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله مضروبا ببلاء آخر هو المحنة باتباع الهوى فهو يصدق ويستمع لكل ما يريده ويهواه، وان خالف الحقائق وكان كذبا لا ريب فيه، ويرد ويبغض كل ما يكره ويخالف هواه وان كان صدقا وحقيقة لا شك فيها، فيمدح للحب ويذم للبغض لأى شىء لأجل هواه فى كل ما يسمع ويرى، فهو سماع للكذب فى غاية الصمم عن الصدق لما به من الانانية المستحكمة على مسالك شعوره، ثم لا يكتفى هذا الشعب كله بهذه القيود والأغلال اليهودية التى ضربها على نفسه حتى يضم اليها أصفادا وأغلالا أخرى، فتجده فى مجلسه وملبسه ومأكله ومشربه وفى ذهابه وإيابه وفى كل عاداته مقتديا باليهود وأمثال اليهود فى كل ذلك، ثم لا يكتفى هذا الشعب بذلك كله حتى يذهب الى أمر أمرّ فيرتمى به عقله المعكوس وقلبه

المطموس الى أن يتهم الله تعالى ودينه فيكذب على الله فيدعى أنه مؤمن مسلم مستحق لما يستحقه المؤمنون من النصر والتأييد والعز والمجد والسيادة والاعانة والتوفيق ، بل ربما يتهم دين الله ويظن أنه إنما اتته المصيبة من أجل اتباعه الدين وطاعته لرب العالمين.

ان الله جلت عظمته أجل وأعظم من ان يتلاعب بدينه المتلاعبون أو أن يخدعه المخدوعون ، فهو أغير على نفسه من ذلك[1] . قال أيوب السختيانى يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، ولو أتوا الامر عيانا كان أهون . ان الله تعالى وتقدس قد أنزل شريعة كافية كافلة لمن أخذ بها واعتمدها ، فجعلها نورا وبصائر وهدى ورحمة ، وحكم حكما صارما بأن من اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى ، وأن من أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنكا وسيحشره يوم القيمة أعمى ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم

أعجب ما يعجب منه المسلم أن يرى إنسانا يكره قوما ويبغضهم ويلعنهم ويمقتهم ثم يختار آراءهم وأخلاقهم على كلام الله ونظامه ورحمته ، وعلى أخلاق سلفه السادة الأقوياء الطيبين الطاهرين ، مع دعواه محبة هؤلاء والاقتداء بهم ، فيتعاكس حبه وانقياده وبغضه ومخالفته ، ثم يريد أن يكون مستقيما فى كل أحواله وأعماله ، مستحصلا على أغراضه وآماله ، فيالله العجب كيف يحارب قوما ولا يحارب آراءهم واخلاقهم قبل صورهم وأجسامهم ، كيف يصاحب أخلاقهم ويحارب صورهم ، أخلاقهم المضادة لأخلاق الدين لا أخلاق القوة والعمل ، فان هذه هو الأحق بها وأهلها . كيف يدعى محبة الله

---

(١) أغير على نفسه من أن يجعل دينه وكتابه ونوره وهداه تبعا لسياسة الناس وأهوائهم فما وافقهم قبلوه وما خالفهم ردوه ثم يعين من فعل ذلك ويوفقه ويحميه ويتولاه

ويحارب نظامه ، وكيف يحترم أسلافه ويدعى تعظيمهم والاقتداء بهم وقد ضرب بأخلاقهم الدينية عرض الحائط وأساء الظن بها واحتقرها . فهؤلاء إنما يعادون صورهم وأجسامهم فقط ، وأما أخلاقهم وآراؤهم المضادة للدين فهى لديهم مكرمة مرفوعة محترمة

ومن العجب أن هؤلاء الذين يتسللون من الأديان ويمرقون منها جماعات وأفرادا - مؤملين الوصول الى أهدافهم ، طامعين فى الحصول على اللحاق باخوانهم ممن عشقوا مبادئهم وقلدوهم فيها وغبطوهم عليها - لم ينالوا إلا عكس ما قصدوا ونقيض ما أرادوا ، وكلما حاولوا الخروج من هذه الوهاد زلت أقدامهم وهبطوا فى دركاتهم ، وكلما ارادوا أن يتخلصوا من غم أعيدوا فيه

فالحقائق السافرة والوقائع الصادقة تناديهم بلسان حالها : قد جربتم وعملتم كل ما قدرتم عليه من احتقار الأديان وأهلها وكراهتها وكراهة أهلها واحترام ما يناقضها من القوانين أو الآراء واحترام أهلها وإكرامها واكرام أهلها وما نلتم مما رمتم شيئا بل كانت عاقبة امركم البلاء والوبال وكان بعدكم عما أردتموه مقدار بعدكم مما عاديتموه واحتقرتموه - وهم أمام هذا النداء الصريح والبيان الصحيح جاعلون أصابعهم فى آذانهم قد لجوا فى طغيانهم يعمهون

فالعبر لا تنظر ، والمواعظ لا تنفع ، والقوارع لا تسمع ، وكل برهان يأتى يذهب سدى ويمر كما جاء ، ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون - وما يؤمن أحدهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾

* * *

وههنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن أئمة الدين قالوا : ان المسلمين إنما تأخروا لما ضعف أمر الدين فيهم ، فانهم لما بعدوا عن دينهم الصحيح وغيروه

تأخروا . وهذه قاعدة وأصل معروف عندهم . وهو قول صحيح لا ريب فى صحته

وقد أورد بعض الزنادقة وضعفاء البصائر على هذا القول اعتراضا باطلا فقالوا : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا الاعتراض قد أورده هذا المغرور فى نبذته العجفاء (كيف ذل المسلمون[١]) ثم ادعى أنه اعتراض صحيح ظاهر بلا شك .

ونحن نقول له : بل هو اعتراض ساقط مرذول ليس بشىء ، ويدل على بطلانه وجوه :

أحدها أن قول أئمة المسلمين إن ضعف الدين يوجب التأخر ، وأنهم لم يتأخروا إلا بسبب ضعف دينهم لا يفهم منه أنه لا يتقدم أحد غيرهم من الكفار على من هو مثله أبدا ، بل مقصودهم أن الله تعالى قد أعز أهل هذا الدين بما أنزل عليهم من النور والهدى والبينات والبصائر ، فكثرهم بعد القلة وأعزهم بعد الذلة وقواهم بعد الضعف وقدمهم بعد التأخر ، فلما أن غيروا دينهم هذا بالبدع المتنوعة واستصغره بعضهم وحرفه واختلفوا وتخالفوا بغيا بينهم ، فضعف هذا السبب الذى به حصل لهم هذا التقدم وهذا العز وهذا المجد ضعفوا . ومعلوم بالضرورة أن ضعف السبب يوجب ضعف المسبب ، فان كل من تقوى بمادة أو بسلاح وانتصر به وتحصن به فلا بد أن تضعف قوته التى قامت على تلك المادة أو ذلك السلاح بضعفه ، فضعف النتيجة لازم

---

(١) ذكره فى ص ١١٤ منها وهذا لفظه : « وبعض الناس يجمل هذه الأسباب فى عبارة موجزة قليلة فيقول : ان المسلمين تأخروا لأنهم بعدوا عن دينهم وأهملوه . ولكن يبقى على هذا سؤال : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا سؤال ولا شك صحيح ظاهر ، لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والنفوس »

لضعف الوسيلة بلا ريب ، وهذه كلها حقائق معقولة لا يمكن المماراة فيها ، فان من اعتقد أن عز العرب والمسلمين إنما قام أساسه على هذا الدين فلا بد له من الاعتراف بأن ضعفهم تابع لضعف دينهم طرداً لهذه القاعدة مع قطع النظر عن تقدم ضدهم فان ذلك له شأن آخر

الوجه الثانى أن قولك ولِمَ لمْ يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك قول باطل ، فهل تريد ذلك قبل ظهور فجر الاسلام أم بعده . فان أردت الأول ـ ولا تظنك تريده ـ فغير مسلم ، بل كل الأمم التى قام تقدمها ومجدها على أديان سماوية كبنى إسرائيل وغيرهم تضعضعت وتأخرت لما أن ضعف دينها كالأمم الاسلامية سواء كما أثبت ذلك حملة التاريخ المتواتر . وان أردت الثانى وهو مرادك فهو ممنوع ، فليس هناك دين صحيح غير الاسلام ، فلما أن تأخر وخلعه أهله تقدموا على المسلمين ، أما تقدمهم على من هو مثلهم فهو عبارة عن تقدم مبدأ على جنسه أى تقدم كفر على مثله ، وهذا غير وارد على السؤال ، فان تقدم الكفر على جنسه أو نفسه لا ينازع فيه أحد لأن حقيقته أنه يهدم بعضه بعضا والله سبحانه وتعالى قد ذكر أنه يولى بعض الظالمين بعضا ، وهذا يقتضى استيلاء بعضه على بعض

الوجه الثالث أن هذا الاعتراض مبنى على مقدمة باطلة ، وهو قياس دين الاسلام على غيره من الأديان الماضية المنسوخة ، وحقيقة هذا أنه قياس الاسلام على الكفر ، ومعلوم أن هذا من قياس الشىء على ضده وهو بديهى البطلان ، فاذا كانت هذه المقدمة المبنىّ عليها هذا الاعتراض باطلة بطلت نتيجتها ، لان قول القائل ولِمَ لم يتأخر غيرهم لما بعدوا عن دينهم وغيروه يوهم أن دينهم الذى بعدوا عنه وغيروه مثل الاسلام ، وكلاهما سواء ، وهذا لا يخفى فساده ، لانه يقال فى جوابه : ان هؤلاء بعدوا عن دين باطل الى دين باطل وغيروا دينا باطلا بدين باطل ، وأما المسلمون فانهم بعدوا عن الدين

الصحيح الى دين باطل واستبدل أكثرهم دينا صحيحا بدين باطل ، وبعضهم قصر فى دينه الصحيح ، فأين هذا من هذا . وهذه فروق فى غاية الصحة والوضوح ، فلا بد من ظهور أثرها . فقياس بعضها على بعض مع ظهور التضاد قياس فى نهاية السقوط

ووجه آخر وهو أنه تعالى امتنّ على هذه الامة العربية ببعث هذا النبى الكريم الذى هو خاتم الأنبياء وأفضلهم منهم ، وجعل شريعته أكمل الشرائع وأعظمها بعد أن كانوا على اشنع الحالات وأحطها ، فأخرجهم من الظلمات الى النور ومن الموت الى الحياة ومن الذلة الى العز ، كما قال تعالى ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ فأعطاهم هذه النعمة العظمى وبوأهم هذه القمة العليا وتفضل عليهم بهذا السلاح الجبار الذى أدركوا به كل غايتهم لما استعملوه على وجهه . فاذا جحدوا هذه النعمة واستصغروها واحتقروها وعبثوا بهذا السلاح ورجعوا القهقرى وانحرفوا الى ورى كان معنى هذا أنهم لم يقبلوا ما آتاهم الله من الهدى والنور والروح والقوة بل استبدلوا بذلك ما يضاده وينافيه من قوانين أعداء الله وأعدائهم من اليهود والرومان وأمثالهم ورجعوا الى عبادة الأوثان كالتعلق على الأسباب الطبيعية بأىّ مظهر كان من مظاهرها ، لا شك أنهم إذا فعلوا ذلك أو فعله أكثرهم أنهم يكونون أولى باستحقاق العقوبة من غيرهم وأولى بالتأخر من غيرهم كما قال موسى لقومه لما اختاروا الثوم والبصل على المن والسلوى ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا ﴾ الى قوله ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الآية . فاذا كانت هذه عقوبة من هذا فعله فكيف بمن اختار الظلمة على النور والموت على الحياة والكفر على الإيمان . وكذلك المسلمون الذين أقروا بدين الاسلام فى الجملة والتزموا حكم الشهادتين ولم يعملوا بمقتضاهما ، بل اتخذوا دينهم لهوا

ولعبا وحرفوا الكلم عن مواضعه فى الصفات وغيرها وعملوا بما يضاد الدين من القوانين ورأوا ان ذلك هو طريق المجد وأنه هو الذى يلائم السياسة والدهاء والحكمة، لاشك أن من عمل ذلك فلا بد أن يعاقب بعكس ما قصده، وتكون عقوبته أولى من عقوبة من جاهر بالكفر، أو كان مستمسكا بدين فاسد قبل الاسلام ولم يعترف بالدين ظاهرا ويخالفه باطنا، ويكون نصيبه من الذل والتأخر بقدر نصيبه من النفاق واحتقار الدين والإعراض عنه، وهذا ظاهر لا خفاء به. وبهذه الفروق يعرف أن عقوبة من خالف الدين الصحيح أو فرط فيه بعد ما عقله أولى من عقوبة غيره

الوجه الرابع أن نسبة الدين الصحيح الى الدين الباطل أو الاسلام الى الكفر كنسبة النور الى الظلمة والصحة أو العافية الى المرض أو الموت أو الهدى الى الضلال أو الضياء الى الظلام، فهما ضدان متقابلان تقابل السلب والايجاب، فزيادة أحدهما نقص فى الثانى وارتفاع أحدهما هبوط فى الآخر ككفتى الميزان اذا هبطت إحداهما فلا بد أن ترتفع الأخرى، وضعف احدهما بلا ريب يوجب قوة مضادة، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه فهو كقولنا انهم لما بعدوا عن النور دخلوا فى الظلمة وبقدر بعدهم عن النور يكون دخولهم فى الظلمة، ولما انحرفوا عن الهدى وقعوا فى الضلال، ولما أن اختلت صحتهم وقعوا فى الأمراض، ونسبة شعب الكفر فى التفاوت والدركات كنسبة دركات الضلال والظلام وأنواع الأمراض. ومعلوم أن من ضعفت صحته فلا بد أن يكون مريضا فان النفس وكذا الجسم لا بد لأحدهما من أحد الأمرين فى هذه الدنيا، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه كقولنا وهنوا ومرضوا لما ضعفت صحتهم، أو ضلوا لما انحرفوا عن طريق هداهم ونحو ذلك. وحينئذ لا يصح أن يقال لِمَ لم يضل غيرهم لما ضلوا ويمرض غيرهم لما مرضوا ونحو ذلك، إذ حقيقة الدعوى

أن تغير غيرهم عن حالته كانتقال مريض من مرض الى مرض آخر أو من ضلالة الى ضلالة أو من ظلام الى ظلام ، فان علة القياس منتفية فالاعتراض به باطل بطلانا ظاهرا ، فأين من انتقل من نور الى ظلمة ممن انتقل من ظلمة الى ظلمة أو من ضلال الى ضلال

الوجه الخامس أن الله تعالى بين الدين الصحيح وبين حكم من اتبعه وتمسك به كما بين حكم من خالفه وأعرض عنه فى الدنيا والآخرة بيانا واضحا كالشمس ، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فتأمل قوله فى الحياة الدنيا تجد الآية نصا صريحا فى أن الايمان والعمل الصالح ينفع فى الدنيا كما ينفع فى الآخرة ، وأن نتيجته الطيبة فى النصر وغيره لا بد أن تظهر فى الدنيا مع ثواب الآخرة ، وهذا يبطل قول الملاحدة ومنهم هذا المغرور فى أن الايمان والعمل الصالح لا ينفع فى الدنيا كما صرح بذلك فى مواضع ولا سيما فى مقدمته (كيف ذل المسلمون) وكذا قوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ نص قاطع على عدم تساوى المسىء والمحسن والمؤمن والمجرم فى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ الى أمثال ذلك . وهذه براهين صريحة تنص على أن أهل الدين الصحيح لا بد أن يتقدموا فى الدنيا وأن ينصروا على أعدائهم ، فكل من تمسك بالدين والايمان الصحيح ـ لا الايمان الكاذب الملوث بالنفاق

واحتقار الأديان وجعل السياسات قسيمة لها ـ فلا بدّ أن ينصر حتما كما وعد الله بذلك ، فان الله لا بد أن يسدّد أهله ويوفقهم ويهديهم الى الأسباب القوية ويفتح لهم السبل التى بها يتحقق ما وعدهم به ، فان الدين بتعاليمه القوية يدفع الى العمل القوى النافع الصحيح ، وحينئذ فالاعتراض على ذلك السؤال إنما هو اعتراض على النصوص الصريحة التى ذكرنا فى هذا الأصل ، واعتراض على ما دلت عليه . فان كان المعـــارض ممن يدعى الاسلام فقد تناقض وسقط اعتراضه ، وان كان مجاهرا بالالحاد كافرا بالأديان انتقل النزاع معه حينئذ الى أمر وراء ذلك ، وهو فى أصل الأديان وصحتها وفساد ضدها ، وهذا مسلك آخر فالاعتراض ساقط على كل احتمال

الوجه السادس أن مسألة التقدم من أجـــل الدين فى الدنيا ليست هى الثمرة المقصودة والنتيجة المطلوبة من الدخول فيه ، بل ذلك أمر آخر تابع للنتيجة وللغاية غالبا فى الجملة ، وحينئذ نقول : إما أن يكون الانسان داخلا فى الإسلام راغبا فيه حبا وإخلاصا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، لا لأجل أن يتقدم فى الدنيا وينال منها مالا أو جاها ، بل هـذا يرجوه تبعا لرضى الله لا غاية ومقصودا ، فالمسلم بهذا المعنى لا يمكنه أن يغير التقدم والتأخر عقيدته ، ولا يكون تأخره حجة عليه ، بل غايته أن يفعل ما أمر به من فعـل الطاعات وأخذ بالأسباب المأمور بها شرعا من الجهاد وما يتعلق به ، فيأخذ بالأسباب الدينية والدنيوية ويسأل الله الاعانة والتوفيق ، فان وفق فذاك ، وإلا فلن يضيع له أجرا حسنا أبدا . واما إن كان لم يدخـل الدين الا لقصد التقدم فى الدنيا ونيل الثراء والحياة ونحو ذلك فيدخل الدين لهذه الغاية أو لهذه وللآخرة ويجعل الآخرة تبعا ويجعلها مقصودة مع الدنيـا سواء فان حصل له شىء من الدنيا والا فلن يرضى أو يكون معه شك أو ريب ، فهذا فى الحقيقة ليس بمسلم بل هو منافق ، فلا يكون مسلما صحيحـا إسلامه حتى يدخـل الدين راضيا به

مبتغيا وجه الله لا مقدما عليه ما سواه كما فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا » وفيه أيضا « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ فكل من لم يدخل الاسلام مستسلما لله مخلصا صادقا فى إسلامه مبتغيا وجه الله والدار الآخرة مبغضا الكفر كارها له كما يكره أن يلقى فى النار فليس بمسلم إسلاما صحيحا

وعلى كلا الأمرين فلا يرد السؤال المذكور ، لأنه مبنى على أن التقدم فى الدنيا غاية لا بد منها على كل حال لكل مسلم وان كان إسلامه مدخولا . ومعلوم أن أئمة الدين لا يرون هذا ، فان الله تعالى جعل الابتلاء فى الدنيا أحيانا لا بد منه لخلقه ، إذ لو كان أهل الدين مطلقا يتقدمون دائما ولو قصروا وبعدوا عن دينهم لدخل الدين أناس كثيرون جدا لقصد الدنيا ، ولخفى كثير من الزنادقة والمنافقين ، ولفاتت العبودية والصدق والاخلاص المطلوب من الدخول فى الدين ، بل هو الثمرة المقصودة منه ، ولصار المقصود من الدين هو الدنيا فقط لا رضاء الله والرغبة فيما عنده . وهذا يتنافى مع الغاية المطلوبة من الدين ، ولكن الابتلاء والامتحان أحيانا - لا سيما فى الأمم المدخولة بالمنافقين ومن فى قلوبهم مرض - أمر لا بد منه ، فانه يمحص هؤلاء فيميز الكاذب من الصادق والمخلص من الغاش والخبيث من الطيب كما قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ وقال تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ وامثالها من الآيات . ولولا هذا الابتلاء والامتحان لم يقل المنافقون للمؤمنين ﴿ غرَّ هؤلاء دينهم ﴾ ، ولم يستهزئوا بهم ويظهروا ما يكنونه من البغض والاحتقار ،

ولما استبان صدق المخلصين فى إيمانهم وصبرهم ومصابرتهم فى السراء والضراء فان الاسلام والدين مبناه على العبودية والصدق والاخلاص ، ولا يظهر هذا إلا فى السراء والضراء ، وفى ذلك ايضا ما يوقظ غفلتهم ويبين غلطتهم فيعرفون كيف يتلافون أخطاءهم وأغلاطهم التى ارتكبوها ويعرفون كيف يعالجون الأمراض التى وقعوا فيها ، فكم فى التأخر أحيانا - ابتلاء وامتحانا - من فوائد لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الوجه السابع أننا بينا أن الفرق واضح بين المسلمين وغيرهم ، فالتأخر وإن أصاب بعض المسلمين أحيانا فلا بد أن تكون العاقبة الحميدة لهم ، بخلاف أعدائهم فانهم وان تقدموا أحيانا فلا بد من الدمار المحتوم كما اخبر الله بذلك وعلم بالاستقراء التام ، فأين هؤلاء من هؤلاء ، والله سبحانه وتعالى قد فصل فى كتابه العزيز كيف تكون حالة هؤلاء وكيف تكون حالة أولئك ، فبين أنه قد يقع التأخر فى المؤمنين أحيانا قليلة امتحانا وأن العاقبة الحسنة لهم ، وبين أن الكافرين قد يتقدمون أحيانا فى الدنيا وتكون عاقبة السوء لهم فيهلكون ويدمرون وتحل بهم المصيبة القاضية عليهم ، وكفى بهذه الآيات حكما فاصلا فيهم وهى قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ فقد بين الله فى هذه الآيات الكريمة حالة الأمم المخالفة للرسل فى الدنيا ومآلهم فيها ، وهكذا كان الواقع ، فان الله تعالى لما بين لهم الحق جعل يقلب عليهم الآيات والعبر فيمتحنهم أولا بالبأساء

والضراء - أى المصائب المتنوعة - لأنها تمحص مافى القلوب من الحياة والموت ، فالحياة لا بد أن تظهر معها والموت لا يفيد معه شىء ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ أى يرجعون الى الله تعالى ويقلعون عما كانوا فيه من التعلق بغيره من المخلوقات ، فلما لم يحصل ذلك منهم بل قست قلوبهم فلم تؤثر فيها مواعظ الرسل وآياتهم وهذه العبر من البأساء والضراء المتتابعة عليهم بدل الله لهم مكان تلك السيئة أى الابتلاء والامتحان بالبأساء والضراء الحسنة أى النعمة والترف والرفاهية لتقوم عليهم الحجة باكمال النعمة كما قامت عليهم الحجة بابلاغ الرسالة فتكون الحجة قائمة عليهم من كل وجه ﴿ حتى عفوا ﴾ أى انغمسوا فى النعم وغفلوا عن وقوع ما يزيلها وينزعها عنهم ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى قالوا إن حصول الشر تارة والخير تارة وتعاقبهما ليس هو من فعل الله بل هى سنة أو نواميس من نواميس الحياة أو الطبيعة تارة خيرا وتارة شرا ، وهذا قد حصل لآبائنا الأولين فليست هى عبرا ولا آيات فلا دخل للأمور الدينية فيها ، قد مس آباءنا الضراء والسراء فهى عادة الدهر المستمرة فليس لما جاء به الرسل تأثير فى ذلك ولا لما فعلنا من مخالفة الرسل تأثير فى ذلك فليس لفساد الاخلاق تأثير فى ذلك قال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾ وهذا صريح جلى فى أن الكفار قد يتقدم بعضهم فى الدنيا ويحصل على ثراء وخير كثير وقوة عظيمة ، ولكن كل ذلك عند ما يقرب زواله وانقلابه عليهم ﴿ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ﴾ أى انقلب مآلهم وانعكس قصدهم وتقطعت بهم الأسباب التى اعتمدوها واتخذوها آلهة من دون الله ﴿ وحيل بينهم بين ما يشتهون ﴾ فدمرهم الله وكانت عاقبتهم شر عاقبة

وهذا بخلاف أهل الدين فانه لا توجد أبدا أمة متدينة بدين صحيح أهلكها الله أو أصابها بما يصيب به الأمم الكافرة كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وكل الفترات التى حصل للإسلام فيها شىء من التأخر هى بالنسبة الى ما حصل لغيرهم من التأخر والعذاب والتدمير فى السنين السابقة منذ طلع فجر الاسلام لا يعد شيئا مذكورا ، فان الاسلام تقدم قرونا طويلة ، وكان على غاية من العزّ وضخامة الشأن ، بخلاف هذه الأمم فان تقدمها هذا جاء طفرة واحدة ، وكثير منهم طاش برهة وسقط سقوطا فظيعا مدمرا ، وأكثرهم قد تخلل تقدمه القصير نكبات ومحن عظيمة ، وهذا المستقبل المظلم ينذر بشر أدهى وأمرّ

الوجه الثامن أن الله تعالى قد أنعم على عباده بما أنزله اليهم من الهدى والبينات ، وكفل لهم السعادة والسيادة متى اعتصموا بهداه وحافظوا عليه ، وأخبرهم أن من أعرض عنه فقد دخل فى أسباب الشقاء والهلاك ، وقد صدق هذا الذى وعد به بالاستقراء الجلى الطويل ، ولم يذكر قط أن الكافر لا يقدَّم على مثله أولا يتقدم أحيانا على من فرط فى دينه ، فهو تعالى أعطى عباده هذا الدواء الناجح وبين أن من استعمله فقد استحصل على الصحة والسلامة ومن أعرض عنه فقد تعرض للهلاك والعطب ، ولو أن طبيبا عظيما مخلصا صادقا ماهرا أعطى إنسانا دواء وأخبره أن شفاءه فيه وأنه ان تركه فقد تعرض للعطب وأكد عليه بأن يجتهد فى استعماله على وجه مخصوص وحذره عن الوقوع فى أشياء بينها له غاية البيان فأخذ هذا الانسان هذا الدواء بوهن وكسل وبغير همة واستعمله على غير وجهه وتناول ما نهى عنه أو كثيرا منه فضعفت لذلك صحته وازداد به المرض حتى أصبح ضعيفا مستضعفا ، فلو أن لائما لامه على صنيعه هذا وتفريطه فى أمره باستعمال هذا الدواء فاعترض عليه هذا الضعيف أو غيره مدعيا أن بعض الناس قد عوفى من غير أن يستعمل هذا الدواء وأنه استعمل أشياء مما نهى عنها وقد حصل له الشفاء والعافية لعد

هذا المعارض من أحمق الناس وأجهلهم ولكانت معارضته هذه معارضة باطلة بلا شك عند جميع العقلاء

وكذا لو أن انسانا وصف له طريق واحد وبين له الواصف الناصح غاية البيان أن سلامته ووصوله الى المطلوب مضمون فى سلوك هذه الطريق وحدها وكان هنالك طرق كثيرة غيرها فخالف وسلك طريقا غيرها فتلف أو مرض فلو لامه لائم فعارضه بأنه قد وجد من خالف هذه الطريق فسلم لكانت هذه المعارضة باطلة بلا ريب

فشُعَب الكفر وطرائقه كثيرة جدا ، والقليل النادر منها قد يحصل فيه شىء من التقدم برهة من الزمن امتحانا وابتلاء وعقوبة على آخرين ، وليس هذا التقدم معلوما فى طريقة واحدة معينة ولا فى طرائق معدودة ، لأن التقدم الذى قد يوجد فى شىء منها ليس تقدماً بأصالته وانما هو تقدم عارض لأمور تعرض لأهله أو تعرض لمقابليهم . وأما الدين الصحيح فهو طريقة واحدة ، وتقدمه بالاصالة ، وهو - أى التقدم - من لوازمه الثابتة فيه ، فلا بد من حصولها ما لم يمنع من ذلك مانع كوقوع التقصير ودخول النفاق ونحوه ، فان الله سبحانه وعد من آمن به وعمل صالحا بذلك فى الجملة كما قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا [١] ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ وهذه خاصة فى الدين لازمة له فلا بد من وجودها ما لم يمنع من ذلك مانع ، فان كان هذا المانع ضعيفا فلا بد من زواله فيزول موجبه ، وان كان قويا

---

(١) يلاحظ هذا الشرط العظيم وهو قوله تعالى ﴿يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾ فهذا شرط فى استخلافهم وتمكينهم وإبدال خوفهم أمنا

وازداد زال اسم الدين فلا يبقى هنالك موضع لقبول التقدم بل يحل محله ضده وقد بينا حكم ضده ، وهذا ظاهر . وأصل هذا أن قياس الاسلام على غيره من باب قياس الشيء على مضاده فالاعتراض بما يحصل فى ضده على ما يحصل فيه مبنى على هذا القياس وهو باطل عند جميع من أقر بالدين ، وأما من لم يقرّ به فالكلام معه فى أصل الأديان لا فيما يلزم منها ومن ضدها ، فالاعتراض ساقط سقوطا بينا على كل تقدير

ومن أخبث الخبث قوله بعد إيراد هذا الاعتراض « لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والتقوى » فهذه الدعوى التى ادعاها قائمة على وهمين : أحدهما أن الأخذ بالأسباب ليس من الدين ، وظن أن الدين والتقوى شيء وأن الأخذ بالأسباب المادية شيء آخر لا يتفق معه ، فيكفى فى دحره أن يقال له : ليس من الدين والتقوى رفض الأسباب المادية مطلقا ، ولا يمكنك أن تثبت أن أحدا من علماء المسلمين المعتبرين ادعى وجود الدين والتقوى فى أمة بدون أخذ بالأسباب المادية التى أمر الله بمباشرتها واستعمالها والعمل بها . وأما الوهم الثانى فهو اعتقاده أن التقدم قائم على الأخذ بالأسباب المادية فقط ، فمن أخذ بها تقدم بدون دين وتقوى ، ومن لم يأخذ بها تأخر ، أى أن التقدم منوط بها على كل حال . ومعلوم أن هذا باطل يعرف بطلانه مما سبق ، فان الله تعالى قد بين غاية البيان أن من أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنكا ، وأن عاقبته الدمار وإن تقدم برهة استدراجا وامتحانا ، والله سبحانه قد أخبر أن من تمسك بدينه فلا بد أن يتقدم وينصر فى الجملة كما تقدمت الشواهد على ذلك من القرآن العزيز كقوله تعالى ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون . من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر

عنكم من سيئاتكم ﴾ وأمثال ذلك كثير . أما استدلاله بأن بعض الأنبياء والصلحاء قتل فسيأتى جوابه آخر الكتاب فى المشكلة التى لم تحل ، وكذلك ما ذكره من تقدم معاوية على علىّ . وأما ما ذكره بأن أوربا استطاعت أن تتغلب على الشرق مع أن الشرق أقرب الى الله من الغرب وأكثر إيمانا به فهذا من عجائبه فى التناقض ، فهو هنا أثبت أن الشرق أقرب الى الله ، ومعلوم أنه يريد المسلمين ، فاذا كان الأمر كما يقول فكيف يدعى أن المسلمين أضل أهل الارض ، وهاك عبارته فى ص ١٤٠ (١) : « انه لا يوجد عند أهل ملة فى الأرض من الخرافات والجهالات المنسوبة الى الدين مثل ما عند هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون ، فلا يوجد عند النصارى ولا عند اليهود بل ولا عند الوثنيين العابدين للأوثان والأصنام من هذه الخرافات كالذى عند المسلمين ، بل لم يكن عند المشركين الأولين الذين جاءهم الاسلام لانقاذهم من شركهم مثل ما عند هؤلاء المسلمين . ووجه ذلك أن هؤلاء المشركين الضالين كلهم انما ضلوا فى ناحية واحدة من نواحيهم أو فى نواح عدة ، أما المسلمون فانهم قد ضلوا وجهلوا وجمعوا جميع الخرافات وسائر صنوف الجهالات ، وما من قبح وفساد وشرك وغى كان عند أهل ملة من أهل الملل الضالين إلا وهو عند هؤلاء المسلمين بأقبح صوره ومعانيه ومظاهره » (٢) ثم أطال الكلام والسب

---

(١) أى مقدمته كيف ذل المسلمين

(٢) كل ما ذكره من الخرافات التى يدعى وجودها فى المسلمين إنما جاءت من الملاحدة والمنافقين الذين يمدحهم ويثنى عليهم ، فالبدع والخرافات كلها وليدة الالحاد ورفض الأديان ، فلا يمكنه أن يثنى على الأصل ويذم الفرع ، وكل ما ذكره من ذم الخرافات وتأثيرها فى العقول وغيرها موجود فى الالحاد والزندقة ، فان الالحاد هو أعظم الكفر ومحادة الله ، واذا كان ذمه لها لا من أجل الكفر وعداوة الله لم تكن دعايته دعاية دينية إسلامية بل دعاية إلحادية فتكون مناقضة لما يدعى ويقول ، فيقع فيما نهى عنه ، ويسقط كلامه من أصله اذ تكون دعايته ملتوية مغشوشة ليست على وجهها

وجعلهم شراً من جميع أهل الأرض ، فكيف يقول هذا القول ويدعى هذه الدعوى ويزعم قائلا « انهم أقرب الى الله من أهل الغرب وأكثر إيمانا به وأنأى عن ركوب معاصيه واقتحام محارمه ، وهذا لا ريب فيه » وهذه هى عادته فى الخبائث والتناقض وإلقاء الدعاوى بمجازفة بدون تقدير وحساب ، والاسترسال معه فى كل خبائثه التى يبثها فى كتبه أمر يطول ويضيع الوقت بدون فائدة كبرى ، بل حسبنا أن ننبه على أصول كلامه وبخاصة ما يتعلق بأصل الدين ، فان هذا المجنون المأفون قد ذهب به غروره الى حد لم يصل اليه أحد مثله ، ويكفيك ما ذكرناه من جعله كتابه بمنزلة القرآن العزيز فى الوصف على ما أوضحناه ، ولم يرد الله أن أطلع على هذه المقدمة الملوثة بهذه النجاسات قبل أن أطلع على أغلاله الخبيثة والا لبينا له جنونه وغروره فيها نصب عينه.

ولقد كان ظهور مقدمته هذه وإعراض كثير من الناس عنها وسكوت الآخرين عما جاء فيها من الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب على هذا الصنيع الفظيع ، اذ ظن أن خداعه فيه سيقبل كما قبل خداعه فيها ونفاقه ، وهو انما وضعها تجربة لهذا الكتاب ومقدمة له ، إذ من أبطل الباطل أن تجعل مقدمة للصراع الذى هو رد على الرافضى ، فانه لا مناسبة بينها وبينه مطلقا ، ولم يتكلم على الرافضة فيها بشىء ، ومن تدبرها علم يقينا أنها مقدمة لهذه الأغلال ، وقد أعجب بها كعادته فى نبذه الأولى حتى ذهب يكتب تحت عنوانها ما نصه « وأنا أرجو كل مصاب بمرض الضعف أو مرض اليأس أو مرض الركود والجمود وكل من ليس معدا للسير معنا فى هذه السبيل الشاقة أن لا يكلف نفسه قراءتها » هكذا ادعى هذا الاحمق . يكتب ما يكتب فى شتم الاسلام وسبه ويفعل ما يفعل ويحكم على كل من يخالفه أنه جاهل جامد مريض ، فهو لم يترك نبذة واحدة كتبها من أن ينبه القارىء على مدى غروره

فيها ، وقد بينا فيما سبق ما كتبه على نبذه الأولى ، فهو لا يكتفى بعرض نظره وتحكيم عقول العقلاء فيه ، بل يفرض قبول قوله وكتابه قبل قراءته والاطلاع عليه

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نورا ويعمى اعين الخفاش

فصل

ثم قال « والآيات التى استدلوا بها والتى يمكن أن يستدلوا بها هى قوله فى سورة البقرة ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ثم قوله من آل عمران ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ ثم قوله من سورة المائدة ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ ثم قوله فى الأعراف ﴿ واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ انتهى

هكذا ساق هذه الآيات مدعيا أن المسلمين يحتجون بها على ما ذكره .. ثم أخذ يحرفها كعادته فقال :

« وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع فى أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة »

فيقال : قد كذب فى دعواه على المسلمين بأنهم حسبوا أن هذه الآيات تفيد بأنه لن يكون لهم صولة ، فان الصولة لا تنافى الذلة والمسكنة ، فقد يصول الفرد أو الشعب لما هو فيه من الذلة والمسكنة فيكون ذلك سببا فى ضعفه أو فى ارتكاسه فى شقائه وذلته ومسكنته ، فادخال الصولة هنا بهت ظاهر

أما الدولة فان أراد أنهم يدّعون أنه لن يكون لهم دولة متحدة مربوطة بحبل من الناس غير مستولية على دولة غيرها فهذا لم يدعه المسلمون ، والآيات ليست نصا فى نفيه بالدلالة القطعية ، فان الله يقول ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من النـاس [١] ﴾ وامـا أن يريد أنهم يدعون أنه لن يكون لهم دولة مستقلة استقلالا تامـا على أساس صحيح كغيرهـا من الدول الحقيقية بدون حبل من الناس فهذا حق ولم يأت ما ينقضه ، ولم يقل أحد من المسلمين ممن يعتد بقوله ان الناس اذا فرطوا فى دينهم واحتقروه لا يمكن أن يتقدم عليهم اليهود ولن يقاتلوهم على أوطانهم حتى يكون لهم دولة ، فان هذا مخـالف لسنة الله التى قد خلت فى عباده.

ثم قال « ولـكن هذا غير صحيح ، لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله . أما سنة الله فانها قد علمتنا بأن من أخـــذ بأسباب الملك ناله ، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالاسباب ، أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك ، فان هنالك شعوبا أقل منهم عديدا ومع قلتهم ملـكوا واستعمروا شعوبا كبيرة ، والمستقبل فى هذا العصر ليس للعدد وانما هو للعلم ، فان الحروب اليوم وغيرها ، من الوسائل التى يستولى بها على الحياة ، علمية »

قلت : قوله « لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله » يفهم منه أنه ليس بينهما تلازم ، وهذا خطأ تقدم الكلام عليه . ثم يقال له : ان

---

(١) ولا شك أن هـــذه الجرثومة المزعومة مربوطة بحبال متوترة من الناس ، ولولا هذه الحبال لم تستقم ساعة واحدة ، ولا بد أن تتقطع هذه الحبال يوما من الأيام . فليفرض الانسان أن هذه الدول الطاغية الظالمة نقلت حيوانات غير انسانية كالقرود مثلا وفرضتها حكومة بالقوة والضغط والقهر لمصالحها الخاصة ، فهل تخرج هذه الحيوانات عن حقيقتها ومنزلتها وطبيعتها فى نفس الأمر ، وهل يغير هذا الفعل ما حكم به على هذه الحيوانات طبعا وشرعا وقدرا

كانت سنة الله علمتك هذا فلا نسلم بأن اليهود آخذون بهذه السنة ، فان معهم من الخصال الخبيثة الممقوتة ما يقضى على ما معهم من الأعمال الأخرى المادية ، ومعلوم أن الأخـــلاق هى الأصل ، ولم تنل حكومة قط تقدما إلا بقدر أخلاقها القوية وانسجامها مع أسبابها المادية . أما إذا فسدت الاخلاق فلا بد من انهيارها ، واليهود ليس معهم من الأسباب غير الثراء المادى ، وهذا السبب لم يزل معهم من قديم ولم ينـالوا به ما طلبوا منذ قرون طويلة ، فلو كان كافيا لحصلوا به ما اجتهدوا فى طلبه من قديم . ثم إن سنة الله فى كل من تخلق بخلق اليهود أنه لا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، فانك لا تكاد تجـــد أكثر فى الخبث والشر والظلم والانانية والحقد والحسد والتهالك على الدنيـا من اليهود ، وسنة الله فيمن هذا طبعه أن يضرب بالذلة والمسكـنة ، وأكـثر النفاق والخبث والمـكر والزندقة وأمثال ذلك مستمد منهم ، ولهذا شاركهم فى ذلهم واضطهادهم كل من شاركهم فى خصالهم ، فان الحكم يدور مع علته ، وهذه العلل هى علل البلاء والشقاء منذ كانت الدنيا ، وأكـثر النـاس يعرف الفرق بين اليهودى والمسيحى فى الطبع والخلق ، وقد استطاع كـثير من المسلمين ان يعيشوا مـع النصارى ، بخلاف اليهود فلا يمكن أن يعيش تحت سيطرتهم من فيه أدنى حياة معنوية ، الا أن يكون قد أصابه من البلاء مثل ما أصابهم ، ولهذا لما حصل لهم أدنى شىء مما أرادوا فعلوا من الوحشية والفظائع والنذالة مالم تفعله أخبث أمة على وجه الأرض ، فكيف لو وجدوا لهم متنفسا وفضاء واسعا ينفثون فيه سمومهم وخباثتهم المضغوطة من قديم

وأما قلتهم فنعم هى من أعظم الموانع ، ليست هى المانع كله[١] . وقولك « فان هناك شعوبا أقل منهم عديدا ، ومع قلتهم ملـــكوا ، بل واستعمروا

---

(١) وأنت إنما احتججت على انهزام ألمانيا بقلتها وقلة قوتها عن غيرها .

شعوبا كثيرة » يقال أولا : هذا نادر جدا ، وفيمن ليسوا على دين صحيح ، وانما يوجد مثل هذا غالبا فيمن كانوا على دين صحيح كالعرب فى أول الاسلام وبنى اسرائيل حين هلاك فرعون ، وأمثال هؤلاء وهؤلاء انما يتقدمون بالاخلاق الدينية الصحيحة لا بغيرها

ويقال ثانيا : ان هذه الدول التى وجدت بهذه الصفة ليس فيها دولة واحدة متخلقة بأخلاق اليهود ولا بالالحاد المحض ، فلا يوجد دولة صغيرة استولت على شعوب كبيرة وتلك الدولة ملحدة إلحادا صريحا أو كانت يهودية ، وتلك الشعوب متدينة ولو بأديان فاسدة

ويقال ثالثا : من المعلوم أن هذه الدول الصغيرة التى توجد فى النادر قد استعمرت شعوبا كبيرة هى (اى هذه الدول) فى أمورها الصناعية والتجارية دون اليهود فى ذلك (كهولاندة) ومع ذلك فقد استحصلت على هذا التقدم مع أن اليهود أعرف منهم بهذه الأسباب منذ آلاف السنين ، وقد بذلوا أقصى ما لديهم ولم يستحصلوا على شىء من ذلك ، وكلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيه . فعلم بهذا أن سنة الله التى ينال بها سعة الملك والاستقلال التام والتقدم لم تأخذ بها اليهود ، وإنما اعجبوك وملأوا عينك لأنك شابهتهم فى أخلاقهم الخبيثة ، وفى المثل شبيه الشىء منجذب اليه

وأما قولك « والمستقبل فى هذا العصر ليس للعدد وانما هو للعلم »

يقال : لكن الشأن فى تحقيق هذا . فقد بينا اننا لا نسلم أن ما معهم من العلم الصحيح النافع هو ما به يحصل التقدم والاستقلال التام ، بل الذى معهم من العلم مغمور بما معهم من الجهل والظلم والخبث وغير ذلك من الأخلاق الوبيلة

ثم قال « وأما كتاب الله فان هذه الآيات ليست صريحة فى صدق هذه الدعوى : أما ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ فى الآيات كلها فان الذلة عند أكثر

المفسرين هى الجزية ، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات ، بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم »

قلت : دعواه أن الذلة هى الجزية عند أكثر المفسرين دعوى غير صحيحة ، بل ذلك عند بعض المفسرين ، والأكثرون على خلاف ذلك ، وهو قول مرجوح ، فأكثر المفسرين على أن المراد بذلك الذل والهوان كما رجحه البغوى ، أى أن الذل والهوان مضروب عليهم . قال البغوى : وضربت عليهم جعلت عليهم وألزموا الذلة والهوان . وقيل الجزية . انتهى . ومن فسرها بالجزية فلا ينافى تفسيره ما ذكر البغوى ، لان السلف كثيرا ما يفسرون الشىء بلازمه أو ببعض لوازمه ، وانتفاء بعض اللوازم لا ينفى وجود الملزوم . وأيضا فلو كان المراد بذلك الجزية لم يختص بها اليهود ، وهى مقرونة بقتل الأنبياء الصادر من اليهود ، كما أنها فى سياق الكلام فيهم ، فان النصارى والمجوس تؤخذ منهم الجزية ولم يذكر عنهم قتل الأنبياء ، كما أنه لم يذكر عنهم كل ما ذكر عن اليهود من الأخلاق الأخرى ، وهى التحريف وأكل السحت والتسمع للكذب وأمثال ذلك ، ومن العجب قوله « ان الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم »

فما أكثر التلبيس فى هذه الجملة ، فانه عبر عن الضرب بالفرض أول الجملة ثم قال آخرها مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ، والمقام يقتضى التعبير إما بالضرب وإما بالفرض فى هذه المواضع ، فلو قال مع صدق القرآن بأنها قد فرضت عليهم لطابق التعبير الأول ، ولكنه قصد المغالطة وتعمية الحق .

ثم انه ذكر أنه لا يلزم من فرضها وقت نزول القرآن أن تكون مفروضة عليهم دائما ، فجعل فرض الجزية ليس دائما عليهم ، وهذا مصادم للنص والاجماع . واذا كان يريد أن أخذها اليوم لم يوجد فهذا أقبح وأشنع ، فانه حينئذ يكون معنى الضرب هو معنى الفرض ، ثم يكون معنى الفرض هو معنى الأخـذ ، فيكون ضرب الذلة قد ارتفع عنهم لارتفاع الأخذ ، وهو انما يقصد هذا لكن هاب المجاهرة به دون تلبيس . ثم انه جعل عدم الأخذ يغير الفرض ويغير حكم الله فتكون اليهود على هذا فى هذا الوقت غير مضروب عليهم ذلة ولا مسكنة وحكم الله هذا قد بطل ، وهذا من دسائسه الخبيثة

فقد تجاهل ما قد كان يعلمه   عمدا وباح بسرّ كان يكتمه

ولو طولب هذا الملحد ببيان الذلة والمسكنة ما هى وما حدّها ليخرج اليهود منها لم يقدر على ذلك إلا بأن يلجأ الى هذا التلبيس والمراوغة المنكرة ، وهل أظهر من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود شىء ، وهل طلبوا الاستقلال وإنشاء وطن قومى لهم ، وبذلوا دماءهم وأموالهم من أجل ذلك إلا مما لا قوه وكابدوه من الاضطهاد الشديد وسوء العذاب فى سائر بقاع الأرض ، وقد علم ما عملته حكومات أوربا فى السنين الماضية بل منذ أزمان معهم من التقتيل والطرد والعذاب المتنوّع مع كونهم لا يأخذون منهم الجزية على الوجه المعروف ، فعلم أن عدم أخذها لا ينافى ضربها ، كما أن فرضها ليس هو نفس ضرب الذلة فانها مضروبة عليهم منذ آلاف السنين حتى قبل الاسلام ، ولفظ الذلة مبالغة فى الذل ، فان الذلة شدة الذل والهوان ، والمسكنة زيادة استكانة وذل أيضا وهوان على وجه أعظم ، ومن ضربه الله بهذا كيف يقال فيه ان معنى ذلك هو أخذ الجزية وأنها الآن مرفوعة عنهم ومع ذلك يقول مع صدق القرآن بانها قد ضربت عليهم . نعم صدق القرآن هو على ما هو عليه ، وهل خالطتهم وعرفت ما هم عليه حتى تنفى عنهم شيئا لم تعلمه . ثم لو قدر أن أحدا

شاركهم فى شىء من أخلاقهم فضربت عليه الذلة والمسكنة فإن ذلك لا ينافى ما حكم الله به عليهم ، فليس مساواتهم لمن ساواهم فى اخلاقهم رافعا عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، كما أنه لو قدر أن أناسا مضروبون بأنواع من الأمراض والأسقام ، وشاركهم فى هذه الأمراض أناس آخرون قلوا أو كثروا ، فان وجود هذه المشاركة لا يكون رافعا عنهم ما بهم من ذلك البلاء الذى اصيبوا به بما قدمت أيديهم ، فصدقُ القرآن هو على ما هو عليه ، ولو تقدموا زمنا أو فترة قصيرة على وجه الامتحان والاختبار لم يكن ذلك نافيا لضرب الذلة والمسكنة عند كل ذى عقل سليم . وهل أبين من ضرب الذلة والمسكنة عليهم آلاف السنين وهم مشردون مبددون فى كل مكان ، وقد عجزوا غاية العجز طوال هذه المدة فلم يستحصلوا على وجود أرض تقوم بحالهم ويستقيمون بها ويستقلون فيها استقلالا تاما هادئا كغيرهم على ما معهم من المعرفة والبراعه فى التجارة والصناعة والتفوق فى كثير من وسائل الحياة المادية ، وهذه خاصة لم توجد فى غيرهم من سائر البشر ، وكيف تعادل هذه اللحظة القليلة المضطربة آلاف السنين التى ذاقوا فيها أنواع العذاب والبلاء والشقاء ، ولكن القلوب السخيفة ضعيفة التصور سريعة الانقلاب لضعف إيمانها وإدراكها

ثم قال « واذا قدّر أن المراد بالذلة فى الآيات هو المعنى الأول السابق الى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم ، وذلك لأن إخبار القرآن بأن اليهود أذلة فى وقت نزوله لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين كذلك »

فيقال : هذا بهت وكذب على القرآن ، فانه لم يخبر بأنهم أذلة فى وقت نزوله ، بل أخبر بأن الذلة والمسكنة مضروبة على اليهود ، وهذا بمثابة الحكم عليهم بالذلة والمسكنة الدائمة ، فهذا الاطلاق الصريح لا يجوز تقييده بوقت نزوله ، وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الله ، وليس فى النصوص أن هذا خاص بوقت دون وقت ، وقد قال هذا المغرور فيما تقدم انه لا يجوز تقييد ما أطلقه

الله ، ثم هنا قيده بوقت نزول القرآن ونفى استمرار ضرب الذلة والمسكنة ، وهذه محاماة صريحة عنهم حشره الله تحت أقدامهم . ومعلوم أن قضاء الله الكونى لا يبدل ولا يغير ، فانه من سنته التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وهذا هو الواقع ، والله سبحانه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة بسبب أخلاقهم التى حذر عنها ، وأخبر مع ذلك بحلول الغضب عليهم حيث قال ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ فما دامت تلك الأخلاق ملازمة لهم وغضبه تعالى ملازم لهم فلا شك أن ضرب الذلة والمسكنة ملازم لهم ، فلا يمكن دعوى رفع هذه الصفات عنهم ما داموا على يهوديتهم وأخلاقهم ، كما لا يمكن دعوى رفع الغضب عنهم وهم كذلك ، لأن هذه كلها من آثار ذلك الغضب الذى سببه هذه الاخلاق فهذا الأثر تابع لذلك المؤثر ، بل كلما اشتدت هذه الخصال واستحكمت فيهم ازدادت مقتضياتها ، وهم قد ازدادوا فى الإيغال فى تلك الأخلاق ، بل سلك كثير منهم مسلك الملاحدة زيادة على ما فيهم من تلك الخصال الخبيثة ، فكيف يقال انه لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين أذلة ، فهل هذا إلا معاكسة للنصوص

ثم يقال لهذا المغرور : لماذا خصصت وقت نزول القرآن بالذلة دون غيره ، ونفيت استمرارها عليهم أبد الآبدين ، ومعلوم أنهم مستمرون على يهوديتهم ، بل وقد ضموا اليها أخبث منها من خصال النفاق والإلحاد ، فهل ترى إلحادهم وزيادة النفاق الخبيث يرفع عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، أم تريد أنهم فى وقت نزوله أعظم فى الكفر من هذا الزمان ، أم تريد غير ذلك ، فلا بد من بيان العلة النافية لعدم تابيد الذلة والمسكنة ، وانما خفيت الذلة والمسكنة فيهم فى هذه السنوات الأخيرة عند بعض الناس لأن هؤلاء لم يعرفوا معنى الذلة والمسكنة الحقيق ، ولأنهم لما كان لهم صولة على بعض من فرط فى دينه تمحيصا وامتحانا ، وحصل ما حصل من تأييد بعض الحكومات الكبرى لهم لأغراض سياسية قد دفع اليهود ثمنها نقدا وهم مهددون بعواقبها الوخيمة ظن

بعض الناس أن ذلك ينفى أو يخفف عنهم ضرب الذلة والمسكنة وليس الأمر كذلك ، فمن سبر حالتهم وتحقق أمرهم وعلم ما أصابهم فى كل الأزمنة المتتابعة ثم رأى حبوط أعمالهم وآمالهم وفشلها علم معنى الذلة والمسكنة التى ضربت عليهم وألزموها . وقد كتب العلماء على اختلاف مذاهبهم فى أمر اليهود كلاما كثيرا ، وبينوا كيف كانت معاملة الشعوب الأوربية والأمريكية وغيرها لهم واحتقارهم واضطهادهم قديما وحديثا مما لا يتسع هذا الموضع لنقله[١]

ثم قال : « وما من أمة إلا وقد مرت بها عصور ذلة وضعف ، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة »

فيقال : لكن هذه الامم التى بهذه الصفة أى التى تقدمت بعد تأخرها أو كانت عزيزة بعد ذلها وضعفها ليس فيها أمة واحدة أخبرنا الله عنها بأنه ضرب عليها الذلة والمسكنة حتى يصح القياس ، فان هذا النص فارق بينها وبين غيرها ، فلا بد من ظهور أثره وصدق دلالته

ثم قال : وفى الكتاب ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

فيقال : هذا من مهازل الاحتجاج ، فان هذا الاحتجاج عكس صريح للحجة ومدلولها ، فان الله تعالى أخبر أنه نصر هؤلاء بعد أن كانوا أذلة ، فأخبر أنه أعطاهم نصرا بعد ذل ، فأين هذا ممن أخبر الله عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنه سيبعث عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، فهو سبحانه أخبر عن نصر وقع بعد ذل فقد زال الذل وحصل العز ، وهذا بخلاف من أخبر عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنهم

---

(١) نقل الهلال عدد ١٠٣ شعبان سنة ١٣٦٧ مقالا طويلا عميقا لبعض الباحثين المطلعين ، وبين فيه كيف كانت معاملة سائر الدول لهم ، تلك المعاملة السيئة الى اليوم . وأمثال هذا كثير جدا

باءوا بغضب من الله ، وأنهم كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، فمن قاس هذا على هذا فهو مصاب فى دينه وعقله ، كما أن من قاس اليهود على الصحابة فهو كذلك

ثم قال : « وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة [١] مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ، ولكن لا يمكن الزعم بانهم سيبقون أذلة أبدا »

فيقال : عن هذا أجوبة أحدها أن قولك « وكل الناس يعلمون » كذب واضح ، فهذا لا يعلمه من الناس إلا أنت أو من هو على رأيك ، وكيف يعلم عاقل أن المسلمين الذين يستحقون أن يكونوا مسلمين مثل اليهود فى ضرب الذلة والمسكنة ، فدعواك أن المسلمين مضروبة عليهم الذلة دعوى مضروب بها وجهك ، لأن ذلك مكابرة فى الحسيات ومباهتة فى الضروريات . أين أمة مشردة مبددة فى العالم قد خسرت دماءها وأموالها منذ مئات السنين فى الاستحصال على أقل موضع تثبت فيه أقدامها وتلجأ اليه من بلائها وشقائها فلم تحصل على ذلك على ما أرادت وتمنت ، بعد أن تعلقت بحبال طويلة مختلفة من الناس - من حكومات عظيمة ذات سيادة وجاه خطير ومكان مرموق وممالك قائمة على أسسها القوية ومستقل أكثرها استقلالا تاما ، وعدم وجود استقلال تام فى بعض حكوماتها لا يقتضى أن يطلق عليها ضرب الذلة والمسكنة ، فما هى الدول التى لم تحالف دولا أخرى وتضطر الى مساعدتها ماديا ومعنويا ، فقياس اليهود على المسلمين قياس فى نهاية السقوط

---

(١) لا ندرى لم اقتصر على الذلة دون المسكنة ، ولا ندرى كيف عبر عن الضعف فى كل هذا البحث بالذلة ، فهو لا يفرق بين الضعف والذلة ، فكل ضعيف عنده مضروب بالذلة بناء على اعتقاده فى أن المادة هى أساس القوة بل هى القوة كلها ، والا فكل عاقل يعرف أنه ليس كل ضعف ذلة ، فالذلة شىء والضعف شىء آخر ، فكم من قوى مضروب بالذلة وكم من ضعيف على غاية من العزة

الجواب الثانى أن دعوى المدعى أن الذلة والمسكنة مضروبة على المسلمين بأوسع نطاق وأحكمه دعوى يستحق قائلها أن يحاكم ويطالب بتحقيق هذه الدعوى وبيان الأمور التى بها ساووا اليهود حتى استحقوا أن يوصفوا جميعا بما وصف الله به اليهود ، بل هذا القائل جعلهم أدنى حالا من اليهود فى ضرب الذلة ، لأنه ادعى أن ذلك على أوسع نطاق وأحكمه ، ولم نعلم أحدا من الزنادقة قبل هـذا ادعى أن المسلمين كاليهود قد ضربت عليهم الذلة ، ولو كان لهذا مسكة من عقل أو حياء لم يتكلم بهذا الهراء الذى لا يخفى فساده إلا على أشباه الانعام .

الجواب الثالث أن ما يوجد فى بعض البلاد التى تدعى الاسلام من الاضطهاد وضغط العدو ليس موجودا فى كل بلدان المسلمين ، فكيف ساغ له أن يطلق على المسلمين الحكم بضرب الذلة عليهم بأوسع نطاق وأحكمه مع شناعة هذا الاطلاق وفيهم حكومات مستقلة استقلالا حقيقيا من جميع الوجوه ولها من السيادة والعز والتقدم ما ساوت به كثيرا من الحكومات الأخرى التى يمدحها ويثنى عليها ويسبح بحمدها بكل تعظيم واحترام

الجواب الرابع أن ما وجد فى بعض البلدان من بعض الضعف والهوان فان ذلك لما فى أهلها من الخصال اليهودية ، وبمقدار ما يوجد فى كل حكومة وأمـة من الخصال اليهودية - التى هى تحريف الكلم عن مواضعه كتحريف نصوص الصفات عن ظواهرها والخيانة وأكل السحت وفساد الرابطة التى هى من أعظمها القسمع للكذب والكفر بآيات الله بعدم التزام الايمان بها كالتحاكم الى الطاغوت ورفض النصوص الشرعية - يكون ضرب الذلة والمسكنة ، ولهذا كانت الرافضة وعباد القبور والجهمية محرفة الصفات أكثر الناس نصيبا من الذلة والمسكنة لأنهم أكثرهم نصيبا من الخصال اليهودية ، ومن كان أبعد منهم من هذه الخصال كان أبعد عن مقتضياتها ، وهذا ظاهر لمن

تأمله ، وذلك لان الله سبحانه لم يضرب على اليهود الذلة والمسكنة من أجل عنصرهم ونسبهم ، تعالى الله وتقدس عن ذلك ، فانهم هم وغيرهم من حيث التكاليف الشرعية عند الله سواء ، كما قال تعالى ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ وانما ضرب عليهم الذلة والمسكنة من أجل ما اختصوا به من الخصائص التى اعتادوها وتغلغلت فى طباعهم وطال عليهم الأمد حتى لزمتهم والتزموها ، فكانت هذه الطباع السيئة التى ذكرها الله عنهم كما أشرنا اليها هى السبب فى ضرب الذلة والمسكنة وقد حذرنا الله من ذلك وبين أنه فعل بهم ذلك عقوبة لهم على هذه الخصال كما قال فى آخر الآية ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وأمثالها من الآيات . فمن شاركهم فى خصالهم هذه وزاحمهم فيها أصيب بالداء الذى أصيبوا به بقدر مشاركته لهم ، ومن باينهم وتباعد من خصالهم حصل له الوقاية من آثارها ومعلولاتها التى منها الذلة والمسكنة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر تعالى أن من آمن منهم وعمل صالحا فهو كغيره من الناس ممن آمن وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهو سبحانه العدل القائم على كل نفس بما كسبت يجازى كل عامل بعمله لا يظلم مثقال ذرة وان تكن حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما

ثم قال : « واما المسكنة عند أشهر المفسرين فهى الفقر ، والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال ، وقد قال الشاعر :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وذلك لان الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه ، فاذا لم يسعده كان كالفقر المشق . وقيل ان المسكنة هى ضرب الجزية ، وقيل الخراج ، وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا »

ونحن نقول : وهذه التفسيرات التى ذكرتها لا تنافى ضرب الذلة والمسكنة التى هى الذل والهوان ، لأن هذه من لوازم ذلك ، ولا ينافى ذلك أن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا على من رفض دين الله أو قصر فيه واستكبر عن اتباع شرعه ورأى قوانين الذين كفروا أهدى من نصوص الدين سبيلا ، فمن فعل ذلك فقد تعرض لغضب الله ومقته وعقوبته بأن يسلط عليه من عشق قوانينه ويوليه ما تولى وأن يضرب بالذلة والمسكنة لانه اختار ذلك لنفسه باتباع هواه وانقياده لجهله وعماه ، وأما من حافظ على دين الله واعتمد على ربه وبذل ما فى وسعه من الأسباب فلن يكون اليهود يوما ما خطرا عليه ابدا بل يكون فى حصن حصين عنهم وعن غيرهم ، ﴿ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

ثم قال « اما قوله ﴿ كلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التى حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب ، وأنهم هزموا فى كل حروبهم التى شبوها مريدين القضاء على الاسلام ، وهذا لا ينافى أن يكونوا خطرا فى المستقبل »

فيقال : أولا من المعلوم أن مكايدهم الأولى التى حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول ﷺ وعلى دعوته إنما مزقت وذهبت كلها أدراج الرياح بالأخلاق الدينية ، فمكايدهم هى فيهم والأخلاق الدينية هى هى ،

فانها حقائق لا تتغير فى ذاتها وإن تغيرت العوارض الطارئة عليها[١] فهى لم تتغير فى نفسها ، فمن حافظ على هذه الأخلاق الدينية قضى على كل مكايدهم ، فان الحق فى ذاته يقهر الباطل فى ذاته ، سنة لا تبديل لها ولا تحويل ، ومن أضاع هذه الأخلاق أو قصر فيها أو لوثها بامور غريبة خبيثة لا تلائمها فقد أضاع سلاحه أو أفسده أو قصر فى استعماله ، ومن فعل ذلك فقد جرّد نفسه من القوّة التى بها ظفر على عدوه ، وحينئذ فقد جعل نفسه عرضة لاستيلاء عدوه عليه وقهره وتحكمه فيه

ثانيا : هذه الدعوى حجة عليك ، فان اليهود ما فعلوا هذه المكايد وحاكوها باستمرار وإحكام إلا لأنهم رأوا كما رأيت أن الأخلاق الدينية لا أثر لها أمام الأسباب المادية ، بل لها نتائج أخرى ، ورأوا أن فيهم الكفاءة الذاتية للقضاء على كل قوة حتى قوة الدين ، ولهذا فانهم بذلوا غاية جهدهم فى استعمال أسبابهم وقواهم فيما قصدوه من القضاء على هذا الدين ، غير مكترثين بالرسول ولا بما معه من الأسباب الدينية من الإيمان والتقوى ، ومع ذلك كانت النتيجة عكس ما ظنوه واعتقدوه ، فقضى عليهم جانب الدين والتقوى قضاء حاسما ، وما أغنى عنهم كيدهم شيئا وباءوا بالخيبة والخسران

ويقال ثالثا : هذه الدعوى كالتى قبلها حاصلها أنك تريد أن تجعل جميع ما ورد فى اليهود إنما هو فى وقت خاص ، أى فى وقت نزول القرآن فقط ، وأما بعد ذلك فلن تتناوله هذه الآيات ، وهذا يقتضى إبطال القرآن كله ، فان هذا يفتح الباب لكل زنديق فيدعى فى كل حجة شرعية ترد عليه أن ذلك خاص بوقت نزول القرآن ، وهذا مسلك قد سلكه كثير من زنادقة هذا العصر ،

---

(١) لأن الحق فى نفسه حق ، والباطل فى نفسه باطل ، وإنما تختلف طرقه ، وإلا فهما ضدان متقابلان دائما

وهذا إبطال للدين من أصله . ثم إن مثل هذا التفسير باطل بالبداهة ، فانه تعالى يقول ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وهذا يفيد الاستمرار ، قال الشاعر :

أو كلما وردتْ عـكاظ قبيلة   بعثوا الىَّ عريفهم يتوســم

مع أن الواقع المتواتر يصدّق هذا ، أما كون هذا لا ينفى أن يكون لهم خطر فى المستقبل فقد بينا أن هـذا صحيح ، لـكن إذا فرط الناس فى دينهم ، واستعاضوا عنه قوانين الغربيين ، ورأوا أنها أصلح وأحسن من شريعة رب العالمـــين ، وانهمكوا مع ذلك فى الفواحش والمنكرات واتباع الشهوات ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة

ثم قال « وأما بعث الله عليهم من يعذّبهم الى يوم القيمة فانه لا ينافى الملك أيضا ، لأنه اذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فان فى هذا أشد أنواع العـــذاب وأشد سوم لهم بالعذاب ، ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب »

فيقال : اذن فالصحابة ومن بعدهم من المسلمين ممن حاربوا الـكفار حربا متواصلا قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيمة ، فلا فرق بينهم إذن وبين اليهود ، فليس لليهود فى هذا ذم ولا اختصاص ، وهذه قرمطة ظاهرة ، فان هذا المغرور يحاول بأقصى جهـده أن يطبق خصال اليهود وما ذموا به على المسلمين . وانظر الى دقة خبثه فى حذف سياق الآية وعدم إيرادها بلفظها كما أورد الآيات التى قبلها لظهور منافاتها لما ادعاه فى تفسيرها ، والآية صريحة فى أن هذا العذاب الذى وعدوا به سيبقى مستمرا عليهم الى يوم القيمة وكذلك من شابههم ، كما أنها صريحة فى هدم جميع ما أوله فى حمل الآيات التى قبلها على زمن الرسول ﷺ خاصة ، وكل مسلم يعـلم أن الحروب لم تزل بين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من المسلمين والكافرين وغيرهم ، ولم يدَّع

أحد أن كل دولة من هذه الدول سيبعث الله عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، بل هذا الذى ادعاه يقتضى أن البشر كلهم من مسلم وكافر قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيمة ، لأن الدنيا لا تنفك عن القتال بين الناس ، ولم تزل الحروب متواصلة حلقاتها فى أنحاء الارض ، وهذا كله قرمطة صريحة فى القرآن ، ولهذا أجمع المفسرون على أن المراد بذلك اليهود كما دل عليه سياق الآية ونصها ، قال ابن عباس : تأذن قال ربك . وقال عطاء : حكم ربك . ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم . قال ابن كثير : « وكان (يعنى موسى) أول من ضرب عليهم الخراج ، ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكلدانيين ، ثم صاروا الى قهر النصارى واذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية » انتهى . ولكن لما تأخر الاسلام فى السنين الأخيرة وكثرت عبادة القبور وتحريف الصفات وسلوك مذهب الجهمية واستبدل كثير من الناس قوانين النصارى سلط الله عليهم من اختاروا قوانينهم حتى أرهقوهم وأفسدوا أخلاقهم وأذلوهم عقوبة لهم لينتبهوا ويرجعوا الى أصل دينهم ويعضوا عليه بالنواجذ ، فان الدول الاسلامية ولا سيما الأمم العربية لم يقم عزها ومجدها إلا على أساس هذا الدين ، فهو أصلها وقوتها وروحها ، فمتى ضعف ضعفت ومتى قوى قويت ، وهذا بخلاف الأمم الكافرة فانها أمم قامت على أصول أخرى وروح أخرى ، وقد حل بها من العقوبات والكوارث والنكبات ما هو معروف ، فلا خلاص ولا نجاة إلا بالتمسك بهذا الحبل المتين والسير على ضوء هذا الضياء المستبين

ثم قال « وهذا أيضا لا ينافى أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطرا على من ربطوا عقولهم بالأوهام ، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام »

فيقال : لا شك أنهم هم وغيرهم خطر عظيم على من نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واحتقروه ورأوا أنه ليس فيه كفاية وأن التقوى والصلاح خمول وضعف ، وأن التمرد على الدين والزندقة والالحاد وتحكيم قوانين أعداء الله رقى وتقدم ودهاء وسياسة ، فمن ربط نفسه بهذه الأغلال فقد استحق المقت والغضب والنكال ، ولا شك أن من أخذ أغلال اليهود وأمثال اليهود وجعلها فى عنقه ويديه ومكن نفسه من عدوه باحتقاره نصوص الدين وطاعة رب العالمين لا شك أنه قد اختار لنفسه البلاء والشقاء والعناء ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾

فصل

قال « فالقرآن لم يقدم لنا صكا فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكى الغنى الماكر ، بل قدم لنا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونتيقظ ونقف »

فيقال : لكن أنت لم تقبل الأوامر التى قدمها لنا القرآن ، بل جعلتها آلة ضعف وانحطاط ، وجعلت نتائجها غير نتائج المجد ، بل جعلتها ملهاة وشرا وضلالا وظلاما ، والله سبحانه لم يخلقنا عبثا ولم يتركنا سدى ، بل بين لنا غاية البيان الطريق النير الواضح الذى يؤدى الى السلامة والعز والتقدم والسيادة العظيمة فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، أنزل الينا هذا الكتاب وقال لنا ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضلّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ وقال ﴿ يا بنى آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [1] والذين

(١) وأى ضمان أظهر من هذا الضمان أو أوثق منه ، ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فقد بين الله سبحانه طريق النجاة وطريق القوة والسيادة بأوضح بيان ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ أبى الناس ان يقبلوا صك القرآن قبولا تاما صادقا مخلصا ، بل أكثرهم كذّب وبعضهم شك وارتاب وقليل صدقوا وعملوا صالحا قال تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾

لقد أكثر الله من الحض على التمسك بكتابه المبين والوصية بتقواه ، وضمن لمن فعل ذلك بأن ينصره وأن يؤيده ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ فهل أوضح من هذا البيان بيان ، وهل أظهر من هذا البرهان برهان . فكل هذه الأمور لم تقبلها بل جعلت النهوض كله والتقدم كله فى تعليم المرأة أو فى معرفة نواميس الطبيعة ، وجعلت الأخلاق الدينية لا دخل لها فى التقدم أصلا

فالصك الذى قدمه لنا القرآن لم تقبله ولم تطب به نفسك ، وإنما قبلت ما صك الله به وجهك وطمس به بصيرتك من الإلحاد والأفكار التى قررها الملاحدة وأولياء الشيطان من الكفر بالله ومحاربة أديانه والدائنين بها

ثم قال « وجاءت الأحاديث الصحاح بأن حروبا عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود ، وقد يكون فى هذا ما يعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعا عنها [1] »

فيقال : وقد يكون فى هذا أيضا ما يعطى بأنه قد يكثر فى هذه الأمة آخر الزمان زنادقة وملاحدة يفسدون الأديان ويعادون أهلها ويدّعون الاسلام نفاقا وخداعا حتى تضعف فى الأمة قوة الدين وتدخلهم الذلة فتطمع فيهم

---

(١) كذا بالاصل

اليهود فتقع الحرب بينهم وبين المسلمين كما جاء فى الحديث الصحيح « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وقال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حَذوَ القذّة بالقذّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » ومعلوم أن قوة اليهود فى البلاد الشرقية وطمعهم فيها إنما يكون بمقدار ما يحدث من تأخر المسلمين والعرب وضعفهم ، وهذا إنما يقع بقدر ضعفهم بالتمسك بالأخلاق الدينية كما علم ذلك بالاستقراء التام والنصوص الصحيحة المتواترة ، فلا حجة فى هذه الدعوى بوجه من الوجوه . ثم الاحاديث الواردة فى وقوع القتال بينهم لا تدل إلا على وقوع القتال ، ومعلوم أن القتال يقع بدون وجود دولة بل يقع بين العصابات والأفراد والأحزاب وغيرها

ثم قال « وإن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذى كتبنا فى هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحى حتى قضى القضاء ، وحينئذ لا يجدى الندم كما لم يجد فيما فرغ منه . وقد لاحظنا أن هذا الغرور ـ وهو خليق بان يسمى غرورا ـ مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر الذين يكاد يحاط بهم [1] فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود ـ جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء ـ لكانت الغلبة لهم وان فقدوا هم كل شىء من هذه الامور التى من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شىء له »

فيقال : أنت فى الحقيقة لم تكتب شيئا ينفع لا فى هذه المسألة ولا غيرها ، وأكثر ما ادعيته هنا تشنيع ومحاماة عن اليهود فقط ، فقد زدت

---

(١) كذا بالاصل

الطين بلة ، لأن كلامك هذا تخذيل للمسلمين ، وتعظيم لشأن اليهود ، وتطبيق للنصوص الواردة فيهم على من تقدم منهم فى وقت نزول القرآن فقط ، فكأن هؤلاء عندك ليسوا من اليهود ، ولو أنك تريد تنبيه المسلمين وحثهم على العمل الذى يصد مكايد اليهود عنهم لعرفت الطريق أين هو ، ولم تتجاهل وتكتب ما كتبته ، فكل من له عقل يعرف أن ليس فى كلامك هذا أدنى فائدة ، بل هو ضرر محض ، فحاصله بيان كون المسلمين ضعفاء جهلاء مخدوعين مضللين فى مقاومة اليهود ومنازعتهم ، لأنهم مجردون من كل قوة ، قد ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأن اليهود أهل العلم والمكر والدهاء والبراعة الفائقه فى كل وسائل الحياة . فأى نفع فى هذا ؟ ثم انك مع هذا عمدت الى الآيات التى فى اليهود وحرفتها عن ظاهرها ومدلولها حتى لم تجعل فيها أدنى ذم لهم

فكان حاصل كلامك أن المسلمين أخطأوا غاية الخطأ فى منازعة اليهود وقتالهم ، لأنه ليس معهم ما يعتمدون عليه لا شرعا ولا عقلا فى مقاومة اليهود ، أما الشرع فقد ادعيت أنه لا دليل لهم على ذلك فى هذه الآيات بل هم الذين ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأما العقل فصرحت بأنهم أقوى من المسلمين فى جميع وسائل القوة كما يأتى نص كلامك ، فأى تخذيل وإرجاف أظهر من هذا . ثم تشبيهك اليهود بالنصارى ضلال آخر قد تقدم الكلام عليه

ودعواك بأن المسلمين يعتقدون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود لكانت الغلبة عليهم بكل حال -ولو لم يعمل المسلمون- فجور فوق فجور لا يستريب فيه عاقل فان كنت تريد بالمسلمين بعض العامة فهذا تلبيس ولا حجة لك فيه وان كنت تريد به العلماء وأئمة الدين ومن يعتد بقوله فهذا بهت ظاهر لا يخفى إلا على أشباه الأنعام

ثم قال : « ومما يجب الالتفات اليه ههنا أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن

القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك فى عصر من العصور ، فاننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون فى ذلك شيء من توجيه الاتهام الى القرآن ونصوصه وقضاياه »

فيقال : يا مسكين إننا لو حكمنا هذا الحكم الذى تدعيه لم يكن هذا حكما من القرآن ، فان القرآن لم يحكم به نصا ، وما كان ربك نسيّا ، بل إنما يكون هذا ـ لو حكمنا به ـ حكما بما يفهمه بعضنا من القرآن لا أنه نص صريح منه ، فان النص هو ضرب الذلة والمسكنة عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس الى آخر الآيات المتقدّمة ، وهذه النصوص هى على ما هى عليه ، ومدلولها واضح كالشمس ، فاذا قدر أن أحدا شارك اليهود فى خصالهم فأنكر صفات الرب وحرفها وسماها حوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث وسماها أغراضا وأعراضا وقال هو منزّه عن الأعراض والأغراض فتحيل على نفيها بقلب أسمائها ، وتحاكم الى الطاغوت وادعى أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلا واستكبر عن عبادة الله وطاعته ورآها ضعفا وأغلالا ، وأمثال ذلك من خصالهم الخبيثة ـ فمن شاركهم فى هذه الخصال أو أكثرها فتقدموا عليه أو انتصروا عليه فانما ذلك لمشاركته ومزاحمته لهم فى أخلاقهم وأغلالهم التى استحقوا من أجلها ضرب الذلة عليهم والمسكنة ، فلا بد حينئذ أن يصيبه ما أصابهم فيضرب بالذلة والمسكنة كما تقدم تقرير هذا ، فانه تعالى أخبرنا بأفعالهم ، ثم أخبرنا بما عاقبهم به من أجل هذه الأفعال ، لئلا نحتذى حذوهم ونتشبه بهم ، فاذا قدر أن بعضا ممن يدعى الاسلام قد ضربت عليه ذلة ومسكنة فذلك من جراء أفعاله التى هى من مقتضيات الذلة والمسكنة ، وفى حديث ثوبان عن النبى ﷺ قال « يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل : فمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،

وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن . قال : حبُّ الدنيا وكراهة الموت (١) » . وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » . فدل هذا الحديث على أن بعضا عن يدّعى الاسلام سيتبع سنن اليهود فيحل به ما حل بهم كما سبق تقريره

ثم لو قدر أن الله سبحانه حكم فى القرآن بأنه لن يكون لهم دولة ، فلن يكون لهم دولة أبدا ، فان حكم القرآن لا تغيره الأيام ، لأنه حق ، والحق ثابت لا يتغير ، بل لابد أن تصدّقه الأيام حتما ، أما وجود هذه الجرثومة الخبيثة المزعومة فانه لا يصح أن يطلق عليها « دولة » بالمعنى الصحيح لأمور كثيرة ، فانها آلة صنعها غيرها لنفسه لأغراضه هو ، ولم تصنع هى نفسها على أساس ثابت مستقر ، وقد ربطت استقرارها بحبال متعاكسة متخالفة من الناس ، فوجود الاضطراب فى متعلق هذه الحبال . ولو أن الذى فعل معها هذا الفعل فعله مع حيوانات أخرى بهذه القوة نفسها لكانت مثلها ، لأنها لم يكن وضعها وضعا أساسيا عادلا كسائر الدول الأخرى ، بل هى وسيلة موضوعة لغيرها ، وستدفع الثمن المطلوب منها مضاعفا عند الحاجة اليه .
وينبغى أن يعلم أن وجود مثلها فى بعض الأزمنة القليلة فى ظروف خاصة لا يعد شيئا معتبرا يبنى عليه فى مثل هذه الأمور ، ولا يعد تقدما إلا عند الأغبياء ومن لا يعرف من الحقائق شيئا ، فلا يوجه الاتهام الى القرآن إلا زنديق شاك فيه ، أو من فى قلبه مرض ، وأما من آمن به إيمانا صادقا مخلصا فلا يمكن أن يتهمه ، بل يتهم نفسه وفهمه ، فالقرآن حق وبرهان لا بد من وجود صدقه ، لكن الزنديق والمنافق يقدر أشياء بفكره وذهنه ويلزم بها القرآن

---

(١) أخرجه أبو داود والبيهقى وغيرهما ، فتأمل هذا الحديث العظيم وطبقه على حالة الناس تجده هو عين الواقع

فيظن أنها هى مدلوله ومعناه ، ثم يبنى على هذا الظن أمورا ليس لها علاقة بالقرآن ، فاذا جاء الأمر على خلاف ما ظن حصل له ريبة وشك لضعف إيمانه كما قال تعالى ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين ﴾ وهذا الضرب من الناس هم ممن قال الله فيهم ﴿ وهو عليهم عمى وأولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وإلا فالمؤمن الصحيح الايمان الصادق المخلص يعلم حقيقة العلم أن ما أخبر به القرآن والرسول فهو حق على حقيقته ومدلول الحق حق بلا ريب ، فيجب الايمان بذلك وإن لم نفهمه او نعقله فى بعض الاحيان ، لأننا قد صدقنا وآمنا واعتقدنا بأنه صدق وبرهان ، فاذا رددناه أو شككنا فيه فقد تناقضنا وكذبنا عقولنا التى صدقت به وآمنت به ، إذ من فساد العقل أن نصدق به ثم نكذب مدلوله أو نشك فيه فان هذا تناقض . فهؤلاء الذين بقوا مذبذبين بين التصديق به تارة والشك فيه أخرى ولم يتهموا أفهامهم التى قد علموا خطأها كثيرا هم قوم لم يؤمنوا حقيقة الايمان ، بل آمنوا إيمانا مريضا مبنيا على الشك والريب ، ومن آمن هذا الايمان المريض المبنى على الشك فهو كافر لانه مرتاب فى إيمانه فلا يعد إيمانا معتبرا كما قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وحينئذ فلا معنى للاعتذار الذى ادعاه

ويقال أيضا : كلامك على هذه النصوص إن كان تفسيرا صحيحا حقيقيا فيما ترى وتعتقد فلا حاجة الى هذا الاعتذار ، فانه يفهم منه أنك فسرت الآيات على خلاف ظاهرها وما يفهم منها ، وإن كان تفسيرك هذا لها تحريفا أو تأويلا بعيداً لقصد إبعاد التهمة فهذا لا ينفعك شيئا ، لأن ذلك جرأة على الله وكتابه وهو ضرر محض ، والقرآن حق فى نفس الأمر وليس هو محتاجا الى أن يصرف عن ظاهره ونصه محاماة عنه ، فانه فى الواقع صدق حق وان لم يؤمن

به أحد من البشر ، والله غنى عن العالمين كلهم وعن إيمانهم وعبادتهم ، ولو كفروا كلهم لم يضروه شيئا

فالمحاماة عن القرآن هى إقامة البراهين على ايضاح دلالته ودفع الشبهات الباطلة التى ترد عليه ، أما تحريفه وتغيير معناه فهذا إفساد له لا محاماة عنه ، فما فعلته اذن هنا فهو ذنب مستقل ، فلا تدفع التهمة بجريمة أقبح منها ، ولكن سجيتك دائما سجية من قيل فيها :

كمطعمة الأيتام من كد فرجها ... لك الويل لا تزنى ولا تتصدق

هذا هو المناسب لقاعدتك ، فانك بخلت على والدتك الشفيقة الضعيفة المتلهفة على رؤيتك أو كلامك برسالة تتضمن السلام عليها فقط ، وادعيت أنك مكثت سنين فى معالجة هذه الأفكار التى سجلتها فى هذه الأغلال لقصد ارشاد المسلمين لاكتساب المجد القومى ، فارتكبت العقوق الذى هو من أكبر الكبائر وعملت هذه الفضائح التى لا تستر لقصد الشهرة والسمعة ، فما حصلت على ما قصدته ، ولم تسلم من ذنب ما ارتكبته

فصل

ثم أخذ يتكلم فى خطر اليهود وأطال فى تعظيم أمرهم وأن لديهم من العلم والمكر والدهاء والتجارة والصناعة ما ليس عند المسلمين ، وأطال من هذا الهذيان ، ولا غرابة فهم اولياؤه كما قال تعالى فى إخوانه ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ وقال تعالى ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين﴾ قال المفسرون يخوف أولياءه أى يخوفكم أولياءه ، فاليهود هم أولياء المنافقين فى قديم الدهر وحديثه ، ولهذا شاركوهم فى ضرب الذلة والمسكنة ، بل كانوا أحط حالا منهم ، وهذا الملحد نفسه قام بهذا الدور لتمثيل أخلاق أسلافه الأولين فى كل هذه الميادين الخبيثة فى

التخذيل والإرجاف والاعتماد على الأسباب المادية والنفور من الأخلاق الدينية وأهلها ومعاداتها ومعاداة أهلها وما كيد الكافرين إلا فى ضلال

ثم قال وهو حاصل ما أطـــال فيه : « نؤمل اليوم ان تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق مع أنهما هما الخصمان ، إننا نخدع أنفسنا ونضللها حينما نظن أن فى حولنا - لو تخلت هاتان الدولتان - أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية ، أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك » انتهى كلامه قطع لسانه

فاذن لا حاجة الى منازعة الصهيونية ، لان ذلك ضرب من العبث ، فانهم سيظفرون بما أرادوا لا محالة ، ما داموا كذلك ونحن بهذه الحالة ، ولا سيما وهو قد جعل النصر منوطا بالأسباب المادية ، وهذا صريح فى أنهم سيهزموننا ويتغلبون علينا بلا شك ، إلا إذا تمسكنا واحتفظنا ببقاء الانجليز والامريكان للحماية منهم ، أما إذا تمسكنا بالمحافظة على ديننا وكتاب ربنا فان ذلك لا ينفعنا ، بل له نتائج أخرى هى الملهاة والمصرف الخبيث . وهذا مع كونه معلوم الفساد فهو ينم عن خبث عميق لا يخفى على فطن

فهذه حقيقة حال هـذا الذى يدعى أنه يحث على العمل ، فسبحان واهب العقول

وقد تقدم ما علقه السيد قطب على هذه الجملة من كونه يريد أن نحافظ على بقاء هاتين الدولتين حتى نستعد لليهود ، ثم متى نستعد ما داموا هم بهذه الحالة ونحن بالحالة التى وصفها من الضعف والانحطاط

ثم أخذ يتكهن بماذا تفعله بريطانيا فى فلسطين إزاء اليهود فقال : « يحسن ان نستطرد هنا ونتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا فى هذه القضية - قضية فلسطين والصهيونية : يخيل إلى أن هذه الدولة لن تسمح بحال من

الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربى إطلاقا لليهود لأمرين اثنين : أحدهما خشيتها من اليهود فى المستقبل »

ثم أطال فى التخرص بما قد أبطلته وكذبته الأيام . وذكر الأمر الثانى وهو كالأول ، وحاصله أن انجلترا تخشى أن اليهود تقوى فى فلسطين حتى تكون خطرا عليهم هم ، فلأجل هذا فهم لا يسمحون باطلاق فلسطين لليهود . ثم قال فى حاصل كلامه « من أجل ما ذكر ، ومن أجل غيره أيضا ، فاننا نرجح أن السياسة الانجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودى فى فلسطين موقف المانع المعارض على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها » انتهى

قلت : قد أسفرت الأيام عن غير ما تنبأ به تماما ، فانه لم يتنبأ بأن الانجليز ستلغى انتدابها وتنسحب عن فلسطين وتترك حبلها على غاربها تأييدا لليهود لامساعدة للعرب ، فقد أخلف الله ظنه وأبطل ما تنبأ به ، ولو جاء الأمر على وفق ما تنبأ به لطقطق وصفق زهوا وإعجابا وطار فرحا وعد ذلك من معجزات حقائقه الأزلية الأبدية

إذا تبين لك ما ذكره فى مسألة فلسطين وأنه لم يأت بتحقيق مقبول بل أتى بسخف وهذيان مرذول ، فليس لنا حاجة فى الإطناب فى تحليل هذه المسألة لان الكلام فيها كثير قد تناولته أقلام العلماء والكتاب وأحاط به القراء على اختلاف أصنافهم ، وإنما الذى يهمنا هنا هو ما يتعلق بأصل المسألة من الناحية الدينية ، وبالأخص ما يتعلق بالآيات التى حرفها ونفى عن اليهود الذم الشديد فيها وبالغ فى تعظيم أمرهم كما بالغ فى تحقير المسلمين وتحقير شأنهم وما فى تضاعيف ذلك من الدسائس الخبيثة . وقد تقدم الكلام فى التنبيه على وجوب الأخذ بالأسباب القوية الدينية والدنيوية وأخذ الحيطة التامة والاستعداد لمكافحة اليهود . وان الذى يجب اعتقاده فى هذه القضية وهو السبيل الوحيدة التى لا سبيل سواها للنصر والعز والتقدم وإخفاق مكايد العدو هو التمسك

بأصل الدين والتمسك بالأخلاق الدينية السلفية القوية وهى بتعاليمها ومقتضياتها تجر للأخذ بالأسباب المادية ، فان الله سبحانه وعد من آمن به واتقاه النصر والتمكين والعز والتوفيق فى الدنيا والآخرة ، وتوعد من خالف أمره واستكبر عن طاعته بالذل والشقاء والخذلان وسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة وما حصل الذى حصل من هذه الفتنة اليهودية فى هذا الوطن العربى إلا بعد أن ضعف أمر الدين فى ذلك الوطن وفى غيره ، ورغب الناس عن العمل بالكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وافتتن أكثرهم بالتقاليد الغربية التى لا تمت إلى الاسلام بصلة وسحروا بها وظنوا أنها ستوصلهم إلى آمالهم المطلوبة فأراهم الله كيف كانت آثارها وعواقبها تأديبا لهم ليعتبروا وينتهوا عما هم فيه ، وإلا فمعلوم أن هؤلاء الدخلاء الخبثاء الذين لفظتهم الأرض من كل جوانبها ما دخلوا عليهم وأفسدوا ما أفسدوا إلا بعد أن حرصوا هم وأعوانهم على أن يدخلوا على عقولهم وأفكارهم وعقائدهم ما يفسدها ويميت حياتها المعنوية فما حلت أجسامهم وصورهم الخبيثة بهذا الوطن إلا بعد أن تبوأت أفكارهم وأخلاقهم وأنظمتهم مكانها فى ربوعه ، فتجب مجاهدة أفكارهم وأخلاقهم المعنوية كما تجب مجاهدة صورهم وأجسامهم المادية ، فليس ضرر أخلاقهم بأقل من ضرر أجسامهم ، أما من يريد أن يفرق بين الأخلاق والأجسام فقد طلب مالا يكون ، وطمع فيما هو مستحيل الحصول

فصل

ثم عاد فأخذ فى تكرار أصله الخبيث الذى يدور عليه فى نواميس الطبيعة وقوانينها ، وجعل ذلك هو مناط جميع الحوادث العالمية ، وقد اجترأ على المقام الاقدس فجعله تعالى متخليا عن خليقته قد وكلهم إلى هذه الطبيعة تحكمهم على أساس التسوية بين المسىء والمحسن بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم كما

تقدم كلامه ، ومعلوم عند كل مسلم أن من وكل الناس الى الطبيعة المخلوقة العاجزة ، وجعل تقدمهم وتأخرهم محصورا فى استخدامها والتوجه اليها والاعتماد عليها فقد وكلهم الى أوثان يعبدونها ويطلبون منها العز والنصر والجاه والحياة والرزق وغيره ، وهذا كله مصادم غاية المصادمة لدين الرسل كلهم ، فانه تعالى أسند الإعطاء والمنع والخفض والرفع والعز والذل والنجاة والهلاك إليه وحده ، وأمر باتخاذ الأسباب المادية دون الاعتماد عليها ، بل جعل الاعتماد والتوجه والوثوق اليه تعالى دون خلقه كما قال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ وقال تعالى ﴿ وابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة جدا فهو سبحانه الذى يدبر جميع أمور الخلق بالأسباب التى وضعها لهم ، فالأسباب طوع إرادته ، وقد أمر باستعمالها ، وهو يفعل بها ، وهو قادر على ان يفعل بغيرها ، لكن هى بكل نتائجها طوع إرادته ومشيئته ، فليس لها من الحق ما يوجب الالتفات اليها ، وإنما تعتبر لأنها أسباب مقصودة نتائجها ، وهى مقهورة تحت القدرة الكاملة الربانية

وقد توسل هذا المغرور الى ابطال هذا الأصل العظيم - الذى تدور عليه الأديان من التفريق بين المسلم والكافر والمحسن والمسىء ، وأنه سبحانه يجازى المحسن بالإحسان والمسىء بالسوء ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت - بأن سمى هذا الاصل (محاباة) وقد قدمنا تفسير المحاباة فى أول هذا المبحث ، وأن المحاباة المنكرة الممنوعة شرعا هى إعطاء الخير لمن لا يستحقه دينا من أجل

إرضاء شخص آخر . ولا شك أن الله سبحانه منزه عن ذلك ، فهو سبحانه غنيّ عن خلقه . أما مكافأة الانسان على عمله المحسن بالاحسان والمسيء بالسوء فهذا ليس من المحاباة فى شيء ولا يسمى محاباة إلا أن يكون ذلك فى لغة الزنادقة الذين يريدون إبطال الشرائع ، وإلا فان هذا شرعا فضل الله يؤتيه من يشاء ، كما قال تعالى ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولو كان الخلق كلهم سواء فى كل شيء لم يتبين قدر الضر من النفع والخير من الشر وتظهر آثار الأسماء الحسنى كالعفو والمغفرة والرحمة ونحو ذلك ، ولم يعرف الكفر من الإيمان والنور من الظلمة والعلم من الجهل ، ولم تظهر هذه المخلوقات العظيمة المتفاوتة من حيوان ونبات وجماد ، ولم تظهر الأخلاق المتفاوتة وآثارها كالصناعات المختلفة وتفاوت العلم فيها ، الى غير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ، وتفضيل الله بعض الناس على بعض أمر محسوس بالشرع والحس والضرورة ، وانكاره مكابرة فى الحسيات ، فان الناس فيهم القوى والضعيف والغنى والفقير والمؤمن والكافر والظالم والعادل والذكى والبليد والحسن والقبيح ، وهذه فروق ظاهرة محسوسة يمتنع أن تكون مستندة الى الطبيعة ، فان أصول الكائنات وحقائقها هى هى لا تختلف فى ذاتها ، فلو كانت النتائج المتمخضة عنها هى معلولة لها وهى علة كاملة لكانت سواء كالدراهم الخارجة من مصنع واحد فانها لا تختلف لاتحاد المصدر الذى انطبعت فيه ، بخلاف الإخوة ونحوهم الخارجين من رحم واحد وصلب واحد فلا بد من وجود الاختلاف بينهم فى الصورة والخلق وتجد الآلاف من البشر لا يتفق منهم اثنان فى صورة واحدة وخلق واحد بحيث لا يمكن التمييز بينهم فى شيء من ذلك ، فقد جعل الله لكل مخلوق ميزة عن غيره فى صورته وفى فعله أيضا (١) ثم إننا نرى أناسا

---

(١) لقد جعل الله لكل جنس ميزة على غيره من أجناس المخلوقات ، ولكل فرد ميزة عن غيره فى كل الافراد

كثيرين فيهم بلادة وغباوة عظيمة ويعملون أعمالا دون أعمال الأذكياء ، ومع ذلك فقد نالوا أكثر مما ناله الأذكياء . ومن العجب أنك تجد الانسان فى غاية الفطنة والذكاء والدهاء والعقل ثم تجده مع ذلك مطبوعا على قلبه أبلد من الحمار فيما يختص بدينه وتجد آخر دون ذلك فى المعرفة والذكاء والفطنة ولكنه على غاية من المعرفة والذكاء فى أمر دينه ، وتجد آخر ذكيا للغاية فى أشياء خفية بليدا للغاية فى أشياء ظاهرة ، وتجد آخر عكسه ، وتجد آخرين أغبياء فى أكثر الأمور وآخرين عكسهم فكل مخلوق لا بد أن يناله نصيبه من النقص الطبيعى ، ويكون له نصيب من فيض الرحمة العامة إما فى دينه وإما فى دنياه ، وإما فى شىء أو أشياء دون أشياء أخرى . وهذا أمر ظاهر لا يخفى فهمه على كثير من الناس ، فاذا كان الاختصاص ظاهرا موجودا بلا ريب فى هذه الصور والمظاهر العامة فى الأجسام والعقول وآثارها من المعارف والصناعات وغيرها ، فكيف ينكر وجوده فى التقدم فى الرزق والجاه والنصر والتوفيق وسائر ميادين الحياة

ثم إن هذا المغرور لشدة حرصه على لبس الحق بالباطل خلط المحاباة بالنسب ، وادعى أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين خلقه ، وهو يعلم أنه ليس فى المسلمين من يدعى أن بين الله وبين أحد من خلقه نسبا حتى يتكلف لهذه الدعوى ، وانما قصد الايهام بان المحاباة التى يحاول نفيها من جنس النسب فى الشناعة ، فيجب نفيها ، وهو يريد بذلك إختصاص المسلم بالاعانة دون الكافر كما تقدم

قال « والذى نريد أن نقوله هنا انه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغى ، ومن عارضها وحاول

الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه »

قلت : هذا هو الذى يريد أن يقول ، ولكن الذى نريد أن نقوله نحن قبل نقض ما ادعاه : ان الله سبحانه هو المنفرد بالتصرف فى خلقه ، المنفرد بتدبير ملكه فى كل أمور السموات والأرض ، وبيده ملكوت كل شيء ، وقد وضع شريعة كاملة كافية كافلة لمن اتبعها وأخذ بها أن لا يضل ولا يشقى ، وخلق هذا العالم على أتقن نظام وأحكمه ، ثم ربط نظامه الكونى بنظامه الدينى وجعل الكونى يدور على مقتضى الدينى ، فهما كنظام واحد ، فمن سار على نظامه الدينى استثمر منافع النظام الكونى ، ووفق اليه والى العمل به ، ونال ما يبغى بما يمكن فى حقه ، واستحصل على النجاة والنجاح والحياة الصحيحة المستمرة . ومن تمرّد وشمخ بأنفه وأبى إلا المعاكسة والمشاكسة ، فأراد أن يفرق بين نظام الله الدينى ونظامه الكونى ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ، ويأتى الأمر مقلوبا معكوسا ، ويصادم السنة الربانية لم ينل الا الخيبة وانعكاس القصد إما عاجلا أو آجلا ، وإلا تمتع قليلا تمتعا منغصا منكدا وحل به البلاء والدمار ولا بد كما هو الواقع

وقد أدخل هذا المغرور فى هذه الجملة من الخبث والكفر الفظيع ما لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فقد صرح هنا بأن الله تعالى ليس هو الذى يحكم هذا العالم وإنما يحكمه الإنسان باستخدام نواميس الطبيعة ، فهو يدبره على مقدار ما معه من المعرفة والملكة ، ولهذا جعل مناط عزه وتقدمه ونيله ما يبغى بهذا الاستخدام ، وجعل عكس ذلك بيده بهذا الاستخدام نفسه ، فأين فعل الله اذن ، وأين مشيئته وإرادته . وهذا صريح الالحاد . وقد سبق ما نقلناه من تصريحه بأن المادة المولودة عن الطبيعة هى التى تحكم هذه الكائنات الحية ، وهنا صرح بأن النواميس هى التى تحكم العالم باستخدام

الانسان لها لا بتدبير الله لها ، ولم يستطع أن يقول ان الله هو الذى يحكم العالم بمشيئته وتصرفه فيه وتدبيره لهذا النظام الكونى ، بل جعل ذلك بيد الانسان الذى يستخدم هذه النواميس ، ومعلوم أن النواميس هى حركات الكون ، فهو جعلها تسير وتستحصل ثمراتها بمقدرة الانسان ، والله سبحانه قد أخبر بأنه هو الذى يدبر أمر خلقه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وان الخير كله بيده ، وان الناس لا يشاءون إلا أن يشاء هو ، وهذا المغرور جعل هذا العالم فى غاية الفوضى ، فانه اذا كان تحصيل منافعه ومضاره بمجرد استخدام الانسان ، فقد صار عرضة ونهبة بين المخلوقات ، فمن عرف نواميس الطبيعة واستخدمها فى أغراضه فانه يحصل على ما يريد ، ومن عبد الله تعالى وصلى وصام وكان على غاية من التقوى والصلاح لم يحصل له إلا الخيبة فى هذه الدنيا ، لأن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى . ثم من هو الذى يحيط بمعرفة أمور هذا الكون ويقدر على تصريفه على ما يشاء حتى ينال ما يبغى . ومعلوم أن دولا عظيمة من أعرف الناس بالسنن وهم أخسرهم الآن فى هذه الحياة . ولا شك أن من اعتقد هذا أو اغتر به فهو لا يعرف دين الاسلام ، فان هذا القول كله مداره على الالحاد المحض ، وأن الله تعالى وتقدس - على هذا الزعم - كالوثن بلا فرق ، لأن الأوثان لا تنفع من أطاعها ولا تضر من عصاها ولا تدبر شيئا من أمر هذا الكون . فانظر ما تحت هذه العبارات من الالحاد الصريح والكفر الذى لا نهاية له

وقوله «فمن وفق لاستخدام هذه النواميس» الى قوله «نال ما يبغى» صريح فى أن استخدام الطبيعة والسير معها ملازم لادراك الغاية ، سواء فى ذلك المحسن والمسىء . وهذا مع كونه كفرا واضحا فهو كذب ، فلم يحصل لأحد من بنى آدم لا من أفرادهم ولا من شعوبهم ، فمن هو الذى استخدم نواميس الكون ونال ما يبغى واستمر على ذلك

وقوله « ومن عاند هذه النواميس » الى قوله « هلك ولا محالة » تأكيد لما قبله فى إناطة الحوادث بالطبيعة وتفاعلها . وقد علمت أن هذا الملحد عاند النواميس والسنن الدينية معاندة لم يسبق لها نظير ولم يخف الهلاك ، فجعل عبادة الله لا فائدة فيها ، والمساجد أدت شر ما يؤدى ، فصار الخروج عن هذه السنن عنده أمراً لا بد منه ، بل هو الواجب المحتوم ، لانه جعله معوقا للبشر كما تقدم . وأما معاندة نواميس الطبيعة عنده والخروج عليها فهو الهلاك لا محالة ، فعلى هذا يجب على الناس أن يعبدوا هذه النواميس ويكفروا بما وراءها ، لأنه علق النجاة بالسير معها والهلاك بمخالفتها ، ولهذا صرح فيما يأتى بأن اوربا لم تصعد بالحياة إلا لما جعلت صناعتها هى آلهتها التى وجدتها وأبت الاشتراك بها ، ولهذا أكد هذا المغزى الخبيث بقوله « ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه » فهذا تأكيد فوق تأكيد بأن طاعة الله وعبادته لا خير فيها فيجب رفضها والانصراف الى معرفة نواميس الطبيعة التى هى مناط العز والذل ، كما ادعى فيما تقدم أن تأخرنا يعود الى شىء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل هذه الفروع الطويلة الكثيرة المتدلية منحدرة عن أصل الإلحاد المحض والزندقة التى لا ريب فيها

ثم انه لعظم شقائه اراد أن يؤيد هذه الدعوى الشنيعة بدعوى سخيفة مضحكة وهى قوله « كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدى من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة زاعما أنه مسلم وأن المسلم معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الربانية »

فيقال : هذا التشبيه غير صحيح ، بل هو حجة عليه ، فان من ترك الطعام والشراب فقد خالف سنة الله الدينية والكونية ، لأنه فعل فعلا غير مشروع فى الدين ، بل ارتكب ذنبا مستقلا ، فيكون مستحقا للهلاك والعقوبة بسبب مخالفة هذه السنة ، فاذا ترك الانسان الأكل والشرب فلا يكون بهذا متبعا

للسنن الدينية ، على أن هناك أمرا آخر ، وهو أن الله جعل هـذه الأسباب المادية التى منها الأكل والشرب سببا فى حيـاة الجسم المادى ، وجعل ما أنزله من البينات والهدى والرحمة والبصائر سببا لحياة القلوب والنفوس واستقامتها ، فنسبة هذه الأمور الغذائية للأجسام المادية كنسبة هـذه النفحات الروحية الربانية المعنوية للنفوس والقلوب الزكية ، فانه لا خلاف بين أهل البصائر أن القلوب والنفوس تستمد حياتها وقوتها من الأمور المعنوية كما تتغذى الأجسام بالمواد الغذائية . فاذا كانت الأجسام لا يمكن أن تحيا بدون غذائهـا المـادى فكذلك القلوب لا يمكن أن تحيا حياة صحيحة إلا بوجود ما يلائم فطرتهـا الأولى من المواد الالهية الربانية ، وهـذا أمر يعرفه كل ذى عقل وبصيرة ، فان المؤمن يشتاق ويرتاح ويأنس بالطاعة ويجد بها من التغذيه والحلاوة فى قلبه أعظم مما يجد لجسمه من اللذة والحلاوة فى تناول غذائه المادى [١] . ولهذا كانت النفوس مضطرة الى أن تتغذى بالأمور المعنوية ، فهى أن لم تتغـذ بالطـاعات والأمور الدينية فلا بد أن تتغذى بالمعاصى واتباع الشهوات والموسيقى ومزاولة مظـاهر الشرور والخبث وتلتذ بها وتتداوى بهـا (كما يتداوى شارب الخمر بالخمر) فتكون عاقبتها الهلاك ولا بد ، لأنها أمور عارضة خبيثة مظلمة منحطة بخلاف الآثار السماوية وتأثيرها فى النفوس والارواح . وقد بينا فيما سبق أنه سبحانه ربط سننه الدينية بالسنن الكونيـة فمن سار على السنن الدينية فلا بد حتما أن يوفق الى ما به يحيـا حياة سعيدة ، كما قال تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ فاى حجة

---

(١) لا شك أن المؤمن تتعطش روحـه وتتلهف على حصول الطاعات ، ويجد لفقدها أعظم مما يجد لفقد الطعام والشراب . فالطاعات قرة عينه وروحه ، ولهذا قال النبى ﷺ « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أى لما فيهـا من الفيض الالهى ، والاتصال بمصادر الرحمة والهدى والكمال والبصائر

لهذا المغرور فى هذا الهذيان حتى يدعيه ، فان من هلك بترك الأكل والشرب فهو كمن هلك بترك تغذية روحه من الطاعات وفيض الآثار الربانية ، فان الانسان ليس ببهيمة أو حشرة غير مكلفة بأمور دينية بل مقصورة حياتها الروحية والجسمية على الغذاء المادى فقط ، والله سبحانه وتعالى أمر الانسان بأن لا يلقى بنفسه الى التهلكة ، وحرم عليه أن يقتل نفسه ، فاذا عاند وخالف أمر الله كان من الهالكين

وقوله « زاعما أن المؤمن معصوم . . الخ » كذب وفجور لا يخفى إلا على من أعمى الله قلبه ، فان المسلمين لا يعتقدون أن كل مسلم معصوم ، بل بينهم خلاف فى عصمة الأنبياء فى غير ما يبلغونه عن الله ، فكيف بالمسلم ، ولكن ما حمله على الالتجاء الى هذه الخصلة اليهودية الا لما خنقته الحجة الظاهرة ، وقد علم أن النبى ﷺ كان يحرس حتى نزل عليه قوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فدل على أنه ليس أحد من بنى آدم معصوم من شر الحوادث الطبيعية إلا من ورد فيه نص خاص وقد قال تعالى ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾

فهذه الدعوى فى عصمة المسلم كذب وفرية ظاهرة ، ولولا هذه الحرفة اليهودية التى يلجأ اليها دائما عند الحاجة لما استطاع أن يكتب صحيفة واحدة قائمة على شىء من الصدق والحقيقة ، ولكنه جعلها هى عمدته ونفقه الذى يلجأ إليه

فصل

قال « اخرج الى السماء (١) فى ليلة صافية ، ثم انظر الى تلك المخلوقات المتلألئة التى تملأ الفضاء ، والتى تواجهك أينما توجهت ، والتى تكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ، ولكن شيئا من ذلك لا يحدث ، والتى تكاد تزخرف بساطا من حبات اللؤلؤ ذات الاشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية ، ثم استسلم الى عقلك وعلمك وخيالك قائلا : كم يمكن ان يكون قد مرّ بهذه المخلوقات الجميلة من الاحقاب وهى محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم ، ثم سل ما الذى يمسكها هكذا كل هذه الدهور - تجب بأن الذى أمسكها ويمسكها هو النظام الالهى المفروض عليها (٢) . ثم سل ثانيا قائلا : أرأيت لو أن الجن والانس والملئكة وكل الخلائق أولين وآخرين وقفوا فى صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه ، أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء »

فيقال : كل هذا هراء مرذول ، وثرثرة فارغة يقصد من ورائها إبطال تأثير الدعاء والعبادة . وتقدم امثاله مرارا . وهذا المثل لا تعلق له بخضراء ولا غبراء ، ولا مناسبة فيه للبحث أصلا

أما أولا فقد قدمنا أن من سأل الله تعالى وتعدّى فى سؤاله فقد صادم أوامره الدينية فلا يحصل على طائل ، ولا شك أن من سأله خراب العالم فانه معتد فى سؤاله . ولو أن قائلا عارضه وقال : أنت تمدح الاسباب المادية ، بل تدعو الى ما يتضمن عبادتها ، فهل تظن أن الخلق كلهم لو اجتمعوا يقدرون

---

(١) تامل هذه وأمثالها كثير جدا ، ولسنا بصدد المناقشة فى مثل هذا

(٢) هذا السؤال جعله تمهيدا للثانى ، ولهذا نافق فيه

على تغيير العالم كله بأسبابهم التى غلوت فيها ودعوت الى ما يتضمن عبادتها ، فاذا كان مناط عدم النفع هو عدم تغيير العالم وتخريبه فالأسباب الدينية والمادية فى ذلك سواء ، بل ربما كانت الأسباب الدينية أقوى كما ورد فى أن الساعة تقوم إذا خلت الارض من ذكر الله وعبادته

وأيضا لقائل أن يعارض من وجه آخر فيقول فهل الجن والانس والملئكة وكل الخلائق يقدرون بذاتهم أو سؤا لهم أن يغيروا شريعة الله ويبدلوا كلامه ، وهل يمكن أن يجاب دعاء من دعا الله وطلب ذلك ، فالقول فى السنن الدينية هنا كالقول فى السنن الكونية ، فان الله تعالى نهانا ان ندعوه بما لا مصلحة لنا فيه ، وهذا الدعاء الذى ذكره ونحوه مما لم يذكره اعتداء محض وجرأة على مقام الربوبية ولا مصلحة للداعى فيه . ولو أن رجلا طلب من ملكه أن يفسد حكومته ويدمرها ويعبث فيها بلا ضرورة ولا حكمة لعد من أحمق الناس وكان معتديا فى هذا السؤال ، نخليق بأن يعاقب ويجازى بالطرد والحرمان دون قبول سؤاله ، واذا كان قبح هذا مستقرا فى العقول عند ملوك الدنيا وسوقتهم — ولله المثل الاعلى — فكيف يجوز ذلك بالنسبة الى الرب تعالى

وأما ثانيا فهذا الذى ادعاه تقدير مفروض ، وهو لا يخلو من أمرين إما أن يكون هذا الدعاء مشروعا أو غير مشروع ، فان كان مشروعا فما المانع من إجابة الداعى به اذ من المحال أن يشرع الله شيئا ويأمر به عباده وهم لا طاقة لهم به ولا يمكن حصوله . وان كان غير مشروع وهو محرم فالله سبحانه قد نزه ملئكته ومؤمنى خلقه عن مثل هذا فلا معنى للاتيان به فكيف يسوغ لمؤمن أن يدعو الله أن يفسد نظامه ويتخلى عن ملكه ، هذه جرأة عليه وكفر ظاهر ، فكيف يستجاب لمن فعله ، وهو كمن دعاه أن لا يبعث رسلا أو لا يفرض على خلقه عبادة ولا دعاء ولا يخلق جنة ولا نارا وأمثال ذلك ، فمن عاند السنن الدينية حبط عمله ولم يحصل على طائل

فلا حجة لهذا المغرور فى هذا الهذيان الفارغ، ويكتفى معارضه بأن يقول له قولا أقرب مما تقدم وهو : أرأيت لو أن الجن والانس وما شئت من المخلوقات بمن فيهم من علماء الطبيعة ونواميسها أجمعوا أمرهم وبذلوا كل ما فى وسعهم ، هل فى إمكانهم أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة تنبت أو يقلبوها الى ذرة أو حبة أخرى بجميع ما لديهم من الأسباب والقوى ، فاذا كانوا عاجزين عن هذا الشىء الصغير الحقير بجميع أسبابهم ، فلم تغلو فيها وتحارب الدعاء بمجرد أنك فرضت شيئا بذهنك وادعيت أنه لا يؤثر فيه ، وهل هذا إلا تحامل عظيم على دعاء الله وعبادته ، ودعوة الى الوثنية المحضة وهى عبادة الطبيعة وأسبابها

فصل

قال « ويجب أن يعلم أن الخلاف الذى قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو فى أمر واحد تحته أمور كثيرة ، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة الى النظام ، والنظام فى كل شىء : فى الاتصال بالخالق ، والاتصال بالمخلوق ، والاتصال بكل شىء ، والى الايمان بهذا النظام »

ونحن نقول : وكذلك الخلاف الذى قام بيننا وبينك هو من أجل هذا النظام ، فانك لم تقبل النظام الذى جاء به الانبياء وقام به المصلحون ، بل ورثت خصوم الانبياء - وبخاصة المنافقين منهم - فذهبت الى اعتقاد أخبث ضروب الفوضى فى هذا العالم اذ صرحت على رءوس الأشهاد بأن هذه الكائنات الموصوفة بالحية محكومة بالنواميس المولودة من المادة ، وقررت بأن من استخدم هذه النواميس نال ما يبغى ، فصار العالم محكوماً بالنواميس التى يستخدمها الانسان ، وحصول النتائج موقوف على استخدام المستخدمين على اختلاف أفكارهم وآرائهم وعقولهم ، وهذا عين الفوضى ، ولهذا صرحت بان

المساجد أدت شر ما يؤدى ، وأن إنكار منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين وتربية خبيثة ، وأضفت الى هذا ان رضا الله وسخطه لا دخل لهما فى الأسباب ومسبباتها ، فساويت بينه تعالى - لو كنت مقرا بوجوده - وبين الأصنام ، فكان حاصل كلامك أن العالم يحكم نفسه بنفسه فتحكمه الطبيعة التى لا تعلم ولا ترحم ولا تغضب ولا ترضى ، فتجرى حوادثها على مقتضى طبعها لا عقلا ولا سفها بل مصادفة واضطرارا . أما نحن فاننا دعونا الى نظام الله الدينى المطابق لنظامه الكونى الذى أنزله من فوق عرشه مع أفضل ملئكته على أفضل نفس بشرية ، وعلمنا أن نظامه الدينى مربوط بنظامه الكونى ربطا وثيقا ، فاتبعناه ودعونا اليه ، وعلمنا واعتقدنا أن الذى يدبر أمر الكون هو الله وحده لا شريك له ، هو ربه الذى خلقه ، فهو المتصرف فيه بمقتضى علمه ورحمته وعدله وحكمته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . هذا هو اعتقادنا وهو النظام الذى جاء به الانبياء ، فقد عاديته وحاربته وجعلته أغلالا وأصفادا ، والله سبحانه قد بين رأس هذا النظام بأنه عبادته وحده لا شريك له ، وبين رسوله ﷺ بأن الدعاء هو العبادة وأنه مخها ، وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فقد كانت دعوة كل نبي لأمته أن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت ، والطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ، مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد[1] فمن عبد غير الله فقد جاوز به حده ، وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ وهذا صريح فى أن الدعاء أشرف أنواع العبادة بل هو مخها

---

(١) قد قرر هذا الملحد كما يأتى بأن أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن وحدت تجارتها وصناعتها وأبت الاشراك بها ، فجعل عبادة الصناعة والتجارة هى سبب التقدم ، فالوثنية هى أسباب التقدم وهذا عكس ظاهر لدعوة جميع الانبياء

وروحها ، لأنه يتأتى فى كل أنواعها ، فقد كبر على المشركين ومن حذا حذوهم من الملحدين والمنافقين اتباع هذا النظام الجبار والأخذ به كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ ولا تزال هذه الفكرة الخبيثة الممقوته المنذرة بشر العواقب موجودة حتى الآن بشيوع مدهش وانتشار هائل فى كل نفس ضيقة نجسة ، فتجد هـــذه النفس المصابة بهذا البلاء تنكمش وتستكبر وتنفر ويحصل لها انزعاج واشمئزاز وتضايق متى خوطبت بأنها خلقت لعبادة الله وحده لا شريك له وقصده والتوجه اليـه والاعتماد الكلى عليه . تجد هـذه النفس المظلمة تستعظم هذا الأمر السماوى ويكبر عليها القيام الصادق به ، بل ترى أن هذا خمول وانحطاط ورجوع الى الوراء ، ولـكنها مع ذلك لا تأنف — فى اتباع أهوائها — من مباشرة أحط الأخـلاق وأقذرها وأسقطها ، كما لا تستنكف عن أن تخضع أشنع الخضوع وأن تكون على غاية من الذله والهوان والدخول تحت أقدام شر خلق الله وأقذرهم - وقد أثبت التاريخ أنه لا يوجـد فرد أو شعب استكبر وابتعد عن عبادة الله إلا عوقب بعبادة أخبث المخلوقات وأسقطها ، إما فى رؤسائه بحيث يعبد بعضهم بعضا ، وإما بعبادة شهواته وأهوائه وأغراضه التى تقذف به فى أعماق الجحيم ، وفى عبادة أقذر شخص . وقد تقدم تعريف العبادة التى ندعو اليها فى مقدمة هذا الـكتاب

لقد كبر على المشركين اتباع هذا النظام الجبار الالهى ، واستعمال هـــذا السلاح القوى الذى لا يغلب ولا يقهر من أول الدنيا الى آخرها ، فالاستكبار عن طاعة الله وتقواه والتمرد عن ذلك هو خلق جميع الأولـــين المعارضين للرسل ، فالمتبعون لهم هم الرجعيون الذين استمسكوا بخيوط هـذا القـديم المرذول الذى حارب به الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم ، والرجعيون هم هؤلاء الذين اتبعوا أسلافهم فى هذه الأخلاق القديمة المشئومة واسترسلوا فى الانقياد

لها . كبر على المشركين ومن سار خلفهم ما دعاهم اليه المرسلون من عبادة الله تعالى وإقامة الوجه له والاعتصام بحبله والاعتماد عليه ، ولكن صغر عليهم اتباع قوانين أكفر خلق الله وأفجرهم وأقبحهم والتعبد بها وجعلها أغلالا فى أعناقهم وقيودا فى أرجلهم . صغر ذلك عليهم لان نفوسهم المنحطة انحطت الى هذا الدرك السحيق فهان عليها الهبوط والقنوط بعد أن كبر عليها النجاح والنجاة . فعبادة الله تعالى وحده والاعتماد عليه واتباع نظامه هو أساس كل لذة فرح وحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا المغرور لما كان من أعظم المشاكسين لهذا النظام الالهى حرص كل الحرص وبذل جهده فى إحياء آثار المشركين الأولين وتحسين أخلاقهم فى رفض الأديان والتخلص منها فهو رجعى خبيث صريح الى حدّ بعيد ، فلهذا حرج صدره من هذه العبادات التى أمرت الشرائع الإلهيه بها ، ولا سيما روحها وأصلها وهو الدعاء الذى دعت اليه جميع الرسل ، وسفه رأى من فعله ومن جاء به . ضاق صدره بذلك وتضايق منه حتى ادعى مجاهرة بأنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأنه مصرف خبيث ، بعد أن قـــرر أنه أشرف أنواع العبادة ، وأن كونه عبادة مما لا خلاف فيه ، ولا يقبل فيه جدال ، فقد ضاق صدره وكبر عليه ما دعت اليه الرسل من اتباع ذلك النظام العظيم فلهذا سخطه ومقته وكرهه أعظم الكراهة والسخط والمقت ، فقام الخلاف بيننا وبينه فى ذلك أعظم القيام ، فما أشبه حاله بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الامر والله يعلم أسرارهم فكيف إذا توفتهم الملئكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم ابتغوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فان هذا المغرور ارتد وكره ما أنزل الله

وعاداه وحاربه وصدّ عنه واتبع ما أسخط الله من الإلحاد والنفاق وكره رضوانه من الدين والإيمان ، وقد حبط عمله الذى سعى فيه وأخرج ضغينته فى بغض الاسلام ومقت أهله ، فكانت دعايته معاكسة لدعاية جميع المرسلين وأتباعهم من المصلحين ، ثم هو مع هذا فى غاية الطاعة العمياء والخضوع المرذول للملاحدة واليهود ومن سلك سبيلهم من المنافقين الذين يرون الحوادث كلها منوطة بنواميس الطبيعة ، وأن مشيئة الله وإرادته تعالى لا دخل لها فى شىء من ذلك ، ولهذا فانه هجر المشيئة العليا هجرا قبيحا فلم يسند اليها شيئا من الحوادث الخيرية مطلقا ، ولم يذكرها إلا فى معرض الذم فى أغلاله كلها

وبالجملة فجميع ما قرره هو عين ما جادل به خصوم الأنبياء والمصلحين ، وانه هو الذى تبعهم واقتفى آثارهم ، ولكل قوم وارث

فصل

قال « فالناس بل الخلائق كلها فى حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء ، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها »

فيقال هذا كلام مجمل قد عرّفنا مغزاه فيما شرحناه قريبا ، ومقتضى هذا أن بنى آدم والكلاب والحمير والحشرات وغيرها سواء فى هذه الأحكام ، لانه عمم الخلائق كلها بصريح كلامه ، وقد سبق الكلام فى معنى المحاباة ، وأما الوساطة فهو لم يبين مراده بها ، فانها تطلق على ما يقصده المشركون من عبادة الأوثان والقبور والصالحين ، فان عنى هذا فهو حجة عليه ، لان خصومه لا يجوّزون هذا ، وهو قد ذهب اليه حينما فارق الاسلام ، لأنه جوّز التوكل والاعتماد على الأسباب المادية ودعا الى ذلك وادعى أن كل ما فى الوجود هو من هذه الأسباب المادية كما يأتى ، ولأنه ادعى فيما سبق بأننا إذا أردنا أن نعظم الله فعلينا أن نعظم مخلوقاته وتعظيمها تعظيم له ، ولأن المشركين ما عبدوا هذه الأسباب المادية إلا لأنهم رأوا فيها مثل رأى هذا فيها بأنها أسباب توصل الى

نتائجها فتوكلوا عليها وعلقوا عليها كل آمالهم إما باعتقاد وساطتها أو لذاتهـا ، فهم توجهوا اليها واعتمدوا عليها وهذا هو روح عبادتها . وان عنى أنه لاوساطة بين الخلق والخالق فى الرسالة والتبليغ فليصرح به ولا يخادع أحيانا فى نفيه ، وحينئذ يعرف جوابه . وأما الشفاعة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة المتواترة شفاعة النبى ﷺ يوم القيمة فى الموقف العظيم ، وكذلك قد صح فى الأخبار أن الانبياء والمؤمنين يشفعون لأهل التوحيد ، وكذلك ثبت شفاعة الأطفال ، وبالجملة فجميع ما يفعله المشركون من خرافات ـ كالاعتماد على الأسباب المادية على اختلاف أنواعها من حيوانات وجمادات ، والتوجه اليها ، وتعليق التمائم والطلاسم ونحو ذلك ـ فانه عين ما يدعو اليه ، ولهذا ادعى فيما يأتى فى بحث التوكل أن معناه أى التوكل شرعا هو الاعتماد على الأسباب وطلب العز والمجد من مواهبها واستعدادها ، ومعلوم أن المشركين الذين يلجأون الى المخلوقات ويعبدونها لم يفعلوا ذلك عبثا فانهم قاتلوا عنها وأراقوا دماءهم وأتلفوا أموالهم من أجلها ، وانما فعلوا ما فعلوه من الاعتماد عليها وعبادتها من أجل اعتقادهم فى مواهبها واستعداداتها وأن بهـا قوى ومواهب توصل الى النتائج المطلوبة منها ، إما لذاتها وإما بوساطتها كما تقدم ، وسيأتى قوله بان « كل ما فى هذا الوجود هو من أسباب الله ، والشاكون فيها هم فى الحقيقة شاكون فى الله الخ » فصارت هذه الطلاسم والتمائم وغيرها من الأسباب ، ومن شك فيها فقد شك فى الله على ما يقول ، ولا سيما فان هؤلاء الذين يستعملون هـــذه الأمور يدعون أنهم قد جربوها وعرفوا فائدتها ومنفعتها ، فكان اعتمادهم مبنيا على التجارب الطبيعية لا على الدين ، وهكذا كل أفعال الملاحدة فى الأسباب المادية هو مبنى على التجارب ، والانسان مجبول على التوجه والطلب من غيره ، إما إلى خالق وإما الى مخلوق ، لضرورة افتقاره . والمخلوق بلا ريب مفتقر مثله ، فلا بد من الانتهاء الى الخالق الغنى عن كل ما سواه ، فالمتوجه الى الخالق هو الموحد والمتوجه الى المخلوق هو المشرك والملحد ومن فى معنـاه ، فان

الملحد وثنى لانه عبد الأسباب الطبيعية وكل هذا يضاد جميع ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم فى قولهم لقومهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وأمثالها من الآيات

فصل

قال « وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصا قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ نفى أن تبدل السنة ، فأمكن أن يقول قائل انها وان كانت لا تبدل - والتبديل هو التغيير - إلا أنها تحول عن طريقها ، والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة ، فنفى هذه أيضا فهى لا تتغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبدا ، ولا تصرف عن سبيلها بل تمضى فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا »

فيقال : هذا حجة عليك أيضا ، لأنك لم ترض بسنة الله هذه التى لن تبدل ولن تحول ، ولم تطلب نفسك بهذه السنة ولم تقطع خلافك ، بل بذلت كل ما فى وسعك فى الحصول على تبديلها وتحويلها ، ولكن لن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، فان الكتاب العزيز قد نص على هذه المسألة نصا قطع لسان كل معاند ومعاكس للدين ، ولكنك أبيت أن تقبل ذلك فأثرت غبار الجدل والعناد والمشاكسة والمعاكسة فى تبديلها وتحويلها ، فان سنة الله التى قد خلت فى عباده أنه تعالى لا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ولا يجعل المتقين كالفجار ، وأنت عاكست هذه السنة التى هى أوضح من الشمس ، فادعيت جهارا أن عدل الله هو التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وأن حل نتائج هذا الكون يستوى فيه المسلم والكافر ، وأنه كالمسألة الرياضية ، وأنه اذا تحارب اثنان فالله مع أقواهما ، ومن سنة الله التى خلت فى عباده أن التقوى والعمل الصالح سبب فى نيل العز والمجد والتقدم والنصر والسيادة كما قال تعالى ﴿ ولو

أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وقال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ ولكن أبيت أن تقبل ذلك فأردت تبديل هذه السنة وتحويلها ، وادعيت أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد وأنها ليست سببا فى التقدم فى الدنيا بل هى ضعف وانحطاط ، ومن سنة الله التى لا تبدل ولا تحول أن الدعاء وعبادة الله والمحافظة على الصلوات فى المساجد وذكره تعالى كل ذلك له أعظم الأثر فى الحصول على خيرات الدنيا والآخرة ، فكرهت ذلك ومقته وسخطته وضاقت به نفسك فادعيت أن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن المساجد والمنابر أدت شر ما يؤدى ، وأن رضاء الله وسخطه لا دخل لهما فى الأسباب والمسببات أصلا ، إلى غير ذلك من المعاندة لسنة الله التى لن تبدل ولن تحول

وينبغى أن يعلم أنه ليس المراد بهذه الآية وأمثالها فى السنن التى لا تبدل أنها الأسباب الطبيعية المادية ، فان تحويل هذه وتبديلها أمر معلوم بالشرع والعقل والحس والضرورة ، فما التطور والزيادة والنقص وانقلاب العناصر الى عناصر أخرى إلا تحول فى الأسباب ، وحديث تأبير النخل صريح واضح فى أن علاقه الأسباب بمسبباتها ليست سنة حتمية بل من الجائز أن تبدل وأن تحول ، ولهذا قال عليه السلام « ما أظن ذلك يغنى شيئا » فتركوا التلقيح ، فدل هذا على أن هذه الأسباب ليست من السنن التى لا تبديل لها ولا تحويل ، بل إن وقوع ذلك جائز لا محتم ، إذ من المحال أن يخفى على النبى ﷺ حكم هذه السنة بأنها لا تبديل لها ثم يجوّز تبديلها وتحويلها ويوافقه هؤلاء الصحابة ، ثم لما ظهر الأمر بخلاف الظن لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار ، بل دل ذلك على أن وقوع هذا جائز لا واجب ، والجائز يمكن وجوده وعدمه ، فلهذا وقع أحد الطرفين وهو عدم التخلف ، ووقوع أحد الطرفين لا يقتضى استحالة وقوع

الطرف الآخر ، فعلة الترجيح ليست حتمية ، فكثير من الأشجار لا يؤثر فيه التلقيح ، بل يوجد فى النخل نفسه مالا يؤثر فيه التلقيح أصلا كما شاهدناه ، فالوقوع دل على الجواز فقط ، ولكن الذى يجب أن يعلم هو أن المراد بالسنن التى لا تبديل لها ولا تحويل هو أصل نظامه الدينى وما يترتب عليه من النظام الكونى ككون العقوبات لا بد أن تحل بأهل الكفر والمعاصى ، وأن العواقب الحميدة لأهل الدين والتقوى ومجازاة المحسن بالإحسان والمسيء بالسوء ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا كالمفسدين فى الأرض ، وأن المتقين ليسوا كالفجار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل لا بد أن يظهر جزاء هؤلاء وهؤلاء فى الدنيا كما يظهر جزاؤهم فى الآخرة ، وهذا ظاهر جدا من سياق هذه الآية ونظائرها ، فان الله تعالى يذكر هذه السنن بعد ذكره لعقوبة العاصى واثابة المطيع كما قال تعالى فى سورة فاطر فى هذه الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا باهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ فتأمل هذا السياق فانه تعالى بين أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه السلام استكبروا عن اتباعه بعد أن أقسموا أيمانا مؤكدة إن جاءهم نذير ليتبعونه وينقادون له انقيادا تاما ، فلما أن حصل لهم ما أقسموا عليه نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى الدين ونفروا واستكبروا وعملوا ضده مكرا سيئا ، ولكن عاد مكرهم عليهم لأنهم فعلوا كما فعل أسلافهم من أعداء الرسل فى الاستكبار والنفور والمكر ، كما قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولكن هؤلاء ما ينظرون بعد هذا المكر الذى يريدون به إزالة الحق واطفاء نوره إلا سنة الأولين وهى حلول النقمة بالمكذبين ، وان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله فينقلب عليهم مكرهم ، وان هذه السنة فى الأولين ستجرى فى الآخرين الى يوم القيمة لأنها سنة لا تبديل لها ولا

تحويل . وكذلك قال فى سورة غافر ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ فتأمل هذا السياق فانه تعالى أخبر أن خصوم الرسل لما جاءتهم رسلهم بالبينات أى البراهين الظاهرة على صدق رسالتهم استكبروا عن اتباعهم وعن قبول البينات التى جاءوا بها . لماذا . لأنهم عرفوا شيئا من أمور الدنيا فاعجبوا بهذا العلم والمعرفة التى حصلوا عليها وظنوا أن مواهبهم وأسبابهم المادية ستوصلهم الى كل ما يريدون . وردوا بينات الرسل لأنهم رأوها تتعارض مع ما عندهم من العلم ، وأنها لا توصلهم الى آمالهم ، وهذا عين ما عليه ملاحدة اليوم وفروخهم ونظراؤهم الذين أعجبوا بهم وبآرائهم المخالفة للأديان معتقدين أنها أكبر وأعظم وأقوى من علوم الدين ، والآية صريحة جدا فى أن أعداء الرسل معهم شىء من العلم وأنهم مع هذا ليسوا علماء بل يطلق عليهم القول بأنهم لا يعلمون كما أطلقه الله ورسوله وأولو العلم من خلقه ، ولهذا بين أن علمهم هذا لم ينفعهم بل هو كالجهل بل أضر ، وقد قيد الله هذا العلم باضافته اليهم ، فقوله « بما عندهم من العلم » بمنزلة فرحوا بعلمهم أى بهذه المعرفة التى عندهم ، وهى علوم دنيوية محضة ، وفى هذا أيضا دليل على أن من العلم ما هو ضرر (١) وأنه ليس كل علم نافعا ، بل العلم شىء والانتفاع به شىء آخر ، وقوله تعالى ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ برهان قاطع على أن أعداء الانبياء كانوا يحتقرون الأمور الدينية وأهلها ويستهزئون بها ويضحكون منها ويرون أنها خمول وضعف وأن أهلها ضعفاء عقول وآراء وأفكار ، وهذا عين ما يفعله زنادقة هذا العصر .

---

(١) وهو يبطل ما ادعاه فيما سبق مراراً من أنه لا يوجد علم ضار بل كل علم نافع كما تقدم

وملاحدتهم الذين شمخوا بأنوفهم المرغمة عن التعاليم السماوية واحتقروها ورأوا أنها ليس فيها كفاية للقيام بجميع المصالح الدينية والدنيوية، ولهذا حاق بالمستهزئين بالدين ما كانوا به يستهزئون، كما حاق بأسلافهم استهزاؤهم الوبيل.

وقوله تعالى ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ الى آخر الآية فيه دليل واضح على أن هؤلاء الذين خالفوا الرسول لم يؤمنوا بالله وحده إيمانا صادقا خالصا، بل آمنوا بمخلوقات معه ـ من أسباب مادية وغير مادية ـ فاعتمدوا عليها وتوجهوا اليها وتحاكموا اليها، وهذه كقوله تعالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا. فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ فهؤلاء لما أصابتهم المصيبة الماحقة بما قدمت أيديهم من التحاكم الى الطاغوت وعدم الإيمان بالله وحده ـ إذ الايمان به وحده يستلزم تحكيم شرعه وحده ـ قالوا حينما مسهم العذاب ورأوا أن القوة لله جميعا متنصلين من علمهم واستهزائهم ﴿ آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أى تبرأنا من هذا الإشراك به والاستهزاء الذى صدر منا لأنهم علموا أن ذلك العلم الذى كان عندهم هو الذى حملهم على عدم الايمان بالله وحده، وحملهم على الاستهزاء بدينه وشرعه، لأنهم كانوا معجبين به ظانين أن فيه الكفاية، وأنه حقائق لا بد من التمسك بها. قال تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ هذا لأنه فات وقته ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾ أى هذا الذى أصاب هؤلاء من الانتقام بسبب الاستهزاء وعدم قبول الايمان بعد حلول العذاب سنة الله التى فرضها على عباده، فلا تبديل لها ولا تحويل ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ فكان ذلك العلم الذى فرحوا به وظنو أن فيه التقدم والعز والرقى والمجد ما حصل منه سوى نقيض ما ظنوه فيه فكان موجبا للخسارة السرمدية والعذاب المقيم

وقال تعالى فى سورة الاحزاب ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابا أليما . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا . يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ فتأمل هذه الآيات حق التأمل من أولها لآخرها تجدها فى النظام الدينى ، وهى الأخبار بأنه تعالى لا بد أن ينتقم من المنافقين والزنادقة الذين يحادون الله ورسوله ويؤذون المؤمنين بانواع الأذى ويرجفون بهم ويخذلونهم ، فهولاء المنافقون الذين على هذه الحالة قد حكم الله عليهم بأنهم ملعونون أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . وان هذه اللعنة وهذا العقاب الذى حكم به على هؤلاء المنافقين الذين يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى - كالاستهزاء والسخرية والبهت والتزوير وغير ذلك - سنة الله المطردة فى الذين خلوا من قبل فلا بد أن تتناول هؤلاء لأنها سنة ماضية لا تبدل ولا تحول ، وأثر هذه السنة القاهرة ظاهر يعرفه كل ذى بصيرة من دينه فلا تجد منافقا - ونعنى بالنفاق هنا النفاق الدينى الاعتقادى (١) - إلا ظهرت عليه آثار هذه اللعنة

---

(١) ان النفاق الاعتقادى هو الذى نذمه فى هذا الكتاب كما هنا ، فأصل الشر والفساد هو المنافق مع الله ، كأن يتظاهر الانسان بالاسلام ولكنه يزدرى تعاليم الدين وأهلها ، ويرى أنها ليس فيها كفاءة ، وأن من أخذ بها كان ناقصا ضعيفا ، وأن التحاكم الى القوانين المضادة للدين أقرب الى السياسة وأحسن للمجتمع ، وأمثال هذا ، فهذا شر النفاق لأنه اتهام لله ودينه ، ومحادة ظاهرة لما أنزله وأمر باتباعه ، وهو ضد الصدق والاخلاص فى معاملة الله تعالى ومحبته ومحبة دينه وما يقرب اليه

فتجده قد قمعه الله وأحبط آماله وأعماله وطمع فيه أعدى عدو له ، فتجده يلتمس وليا ونصيرا فلا يجد وليا ولا نصيرا لانه أساء الظن بالله وسبه غاية السب ، اذ جعل ظاهر كلامه لا يفيد اليقين ، وحرف صفاته التى وصف بها نفسه ، وسماها حوادث وأعراضا ، فتحيل عليها بقلب أسمائها من الصفات الى الحوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث أى منزه عن الصفات ، فنفى كلامه وعلوه على عرشه وحكمته ورحمته وغضبه وغير ذلك ، ثم أساء الظن به فذهب يعبد معه غيره ، فلم ير أنه أرحم الراحمين : أرحم من الوالدة بولدها ، بل ذهب يدعو غيره ويستغيث به فى الشدائد التى لا يقدر عليها إلا هو ، ويلجأ الى مخلوقاته فى إغاثة اللهفات وسد الحاجات ، ثم ازدرى كتابه الذى جعله نورا وروحا وهدى ورحمة وبصائر واحتقره فرآه ظلمة وخمولا وضعفا وضلالا بحيث لو اتبعه وانقاد له لكان ضعيفا خاملا متأخرا منحطا لا يمكن أن يبلغ المجد . لا شك أن من هذه حاله فهو كالجسم الذى أصيب بأنواع الأمراض والقروح والجروح وسائر الأسقام المستعصية ، فجسم هذه حاله كيف يستطيع أن يدفع عن نفسه عدوه ، وكيف ينال القوة . وهذه الأسقام قد وقفت فى وجه القوة . جسم هذه حاله أنى له الحياة وأنى له النجاة ، لأن هذه الأمراض كلها بأسباب الأخلاط والطوارىء الغريبة التى لا تلائم ذلك الجسم الذى نبت على تلك الروح الطاهرة التى لا يغذى جسمها ويقويه إلا ما يناسب تلك الروح التى نبت عليها ذلك الجسم ، فهؤلاء المنافقون الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا لا بد أن يسلط الله عليهم من هو أقوى منهم وأقدر فيستضعفهم ويؤذيهم ويضع لهم العراقيل فى كل مطالبهم وآمالهم فلا يستحصلون الا على ضد ما قصدوه ، وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ وقد بين سبحانه أن سنته فى الأولين هى هلاك كل من خالف الرسل واستكبر عن طاعة الله تعالى كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم

بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فأخبر أن النصر لا بد أن يستصحب المؤمنين ، وأن الهزيمة لا بد أن تكون للكافرين ، وأن هذه سنة الله التى قد خلت من قبل وأنها لا تبدل ولا تغير ، ولكن الشأن فى تحقيق الايمان وتخليصه من شوائب النفاق وشعب الكفر التى انغمس فيها أكثر الناس ، فالآية صريحة فى عدم مساواة المؤمنين والكافرين ، وأن النصر لا بد أن يكون مع الدين والتقوى كما قال ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فتأمل هذه الآيات كلها وما فى معناها هل فيها ما يدل على مسألة الأسباب المادية وأنها لا تبدل ولا تغير حتى يستدل بها على مقصوده ، وانما هى كلها حجة عليه كما هو ظاهر ، ولكن هذه هى عادته فى قلب الحقائق والخداع والتمويه فى الاستدلال بها ، وهيهات أنى يتفق الايمان والكفر

شتان بين الحالتين فمن يرد   جمعا فما الضدان يجتمعان

فصل

ثم ذكر الكسوف وقوله ﷺ « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » ثم قال بعد سياق الحديث : « وهذا رد صريح قوى للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب اهل الارض من خير وشر ، وبما يحدث لهم وبما يحدثون هم »

فنقول : هذا ممنوع بل باطل ، فان النبى ﷺ لم ينف فى الحديث إلا التعليل بالموت والحياة فقط ، وليس الموت والحياة كالكفر والمعاصى ، فلا يصح قياس أحدهما على الآخر ، وانت عممت الدعوى فجعلت الحوادث كلها لا أثر لحوادث الخلق فيها من خير وشر ، وهذا كذب على الحديث ورد

لنصوص السنة الكثيرة ، قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ومعلوم بالضرورة فى دين الاسلام أن العقوبات التى حلت بالأمم التى أخبر الله عنها أنها بأسباب ذنوبهم كما قال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وذلك كالعقوبات التى أصابت قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم ممن ذكر الله فى كتابه ، فان تلك العقوبات كلها حوادث كونية سببها مخالفة الأسباب الدينية وعدم الأخذ بها . وقال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ الى غير ذلك من النصوص التى لا تحصى . وكذلك الطاعات لها أثر كبير فى البركات وحصول الخيرات كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة . وقد شرع الله صلاة الاستسقاء سببا لنزول المطر ، ولا يزال أثرها ظاهرا عند كل من لم تعم الشكوك والشبهات قلبه . وكذلك شرع الدعاء والصدقة والصلاة وغيرها وجعلها أسبابا لخيرات كثيرة . ولا يرتاب فى ذلك إلا من يرتاب فى دينه

ولعل وجه ضلال هذا المسكين هنا هو أنه ظن أن معرفة سبب الكسوف على الوجه المعروف فى علم الهيئة ينفى أن يكون معللا بذنوب ونحوها ، وما علم المغرور أن معرفة سبب حدوث الشىء لا يمنع أن يكون حدوث ذلك الشىء منذرا بوقوع بلاء ، فان المطر يعرف أنه مخلوق فى السحاب وقد تعرف مادة السحاب التى يخلق منها ، ومع هذا فقد يقع عقوبة ، لكن من أين يعرف

مقدار ذلك السحاب وكيفية نزوله وكيفية الحوادث المترتبة عليه ، فلا يمتنع من أن يكون حدوث الحوادث المهلكة بسبب الذنوب ، لأن غاية ما لدى من ينكر هذا هو ادعاؤه معرفة المادة التى خلق منها فقط ، لكن من أين يعرف سبب المادة وسبب سببها بالاحاطة التامة ، فان هذا غير ممكن . وعقوبات المعاصى أنواع ، منها ما يقع بغتة ، ومنها ما يكون لوقوعه علامات وأمارات ظاهرة أو خفية ، وهذا يشمل أنواعا كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، وقد نص النبى ﷺ فى هذا الحديث الذى فى الكسوف بأنه من المظاهر التى يخوف الله بها عباده فقال عليه السلام « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة » وقال فيه « يخوف الله بهما عباده » ثم قال : انه لا أحد أغير من الله أيزنى عبده أو تزنى أمته . يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . . الحديث . وهذا صريح فى أن للكسوف أثرا فى الحوادث ، اذ لو لم يكن له علاقة بعقوبة ونحوها لم يكن للتخويف هنا والوعظ والأمر بالتوبة والفزع الى الصلاة والذكر والدعاء معنى . وقد ذكر العلماء كلهم من جميع المذاهب أن ذلك مظهر من مظاهر التخويف التى تنذر بحلول عقوبة . وذكر بعض المحققين أن ذكر الزنا فى هذا الحديث لخاصة فيه وهو أنه يكسف نور البصيرة ويكون سببا لظلمة القلب ، وهذا صحيح بالاستقراء ، ويعرف صدق هذا من كراهة صاحب الزنا لمهابط الوحى وسماع القرآن ونفوره من مجالس الطاعات والأمور الدينية كالصلاة والذكر والتسبيح والتحميد ، لأن هذه هى مصادر الأنوار والقوة الروحية ، فظلمة القلب تضادها ، قال تعالى ﴿ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ولهذا تجد صاحب هذه الفاحشة شديد الميل الى حب الملاهى والمنكرات والفواحش فهو يأنس بها ويرتاح اليها ويجد فيها سروره وشفاءه وراحة ضميره ، فنور الأمور الدينية لا يتفق مع ظلمة هذه الذنوب وظلمة

قلب صاحبها . فهذا المغرور اقتصر على ذكر الموت والحياة فى ذكر الحديث وترك ذكر التخويف وذكر الزنا وما بعده ، لانه يناقض مقصوده ، وهذه هى عادته كما سبق مرارا

والمقصود أن معرفة سبب حدوث شىء من الأمور الكونية لا ينفى أن يكون حدوث ذلك الشىء عقوبة أو رحمة كما تقدم فى السحاب وهو يقع رحمة وقد يقع عقوبة وسببه الذى يتكون منه واحد ، وكذلك الريح وغير ذلك ، بل أكثر الأسباب المادية مشتملة على الخير والشر ، ولا يخفى على مسلم أن غرضه من هذا كله هو جعل الحوادث كلها مستندة الى الطبيعة لا دخل للمشيئة الربانية فيها كما تقدم

ثم قال « وقد اذكرنى هذا الموقف النبوى الخالد بصديق تقى يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التى تحدث فى بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم ، قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الاسلامية . فقلت له : هذا يشبه الزعم أن جدب بعض البلاد وشدة الحر والبرد فى جهات أخرى وغير ذلك من الفياضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض »

فيقال : لكن لم تذكر ما أجابك به هذا الصديق التقى - إن صدقت - ولم تذكر أنه سكت ، ولعله لما علم أنك زنديق أحمق وأن هذه المعارضة التى ذكرتها هراء لا قيمة له خطر على باله قول القائل :

ما كل نطق له جواب   جواب ما يكره السكوت

ففضل جانب السكوت لهذا المعنى ، وإلا ففى إمكانه أن يلقمك الحجر ويقول لك على وجه المعارضة : وزعمك أنت أيضا هذا يشبه الزعم بأن الريح العقيم التى أصابت قوم هود والغرق الذى أصاب قوم نوح ، والصيحة التى أصابت قوم صالح ، والخسف الذى أصاب قوم لوط ، وقارون وماله ،

والغرق الذى هلك به فرعون وقومه ، والسجيل الذى أصاب أصحاب الفيل ، وأمثال ذلك ليس هو بسبب كفرهم وفسقهم ومعصية رسلهم ، وان المعاصى لا أثر لها فى ذلك ، وانما هى حوادث طبيعية ، فان كذبت بوقوع هذه الحوادث الكبرى الشهيرة كابرت وكفرت جهرا وخسرت النفاق والخداع والزندقة وهى بضاعتك التى تعيش بها وتلجأ اليها ، وانقطعت حجتك فى ادعائك الاسلام ، وإن أقررت بصدق وقوعها بطل اعتراضك والقمت الحجر وهو أحسن شىء تلقم به

وفى إمكانه أيضا أن يدحرك ويبطل اعتراضك على وجه النقض فيقول : تشبيهك الزلازل بالجدب باطل ، كما أن تشبيهك الزلازل والجدب بالكسوف أبطل منه ، وأبطل من الجميع تشبيهك هذه الأمور بالحر والبرد فى بعض المواضع ، فكل هذا سخف وهذيان بارد ، ولو كان سفيها مثله لأمكنه أيضا أن يغرقه بسخف وهذيان أكثر منه ، لأن مثل هذا القول لا يعجز عنه كل سفيه ترك العقل جانبا ، فان الزلازل والجدب والصواعق ونحوها حوادث لا تنضبط أوقاتها وآثارها الناتجه عنها ، وهى تصيب مباشرة ، بخلاف الكسوف ، وأما حصول الحر والبرد فى أماكنهما الطبيعية فلا يقال لهما حوادث كبرى إلا اذا وجد شىء من ذلك بخلاف العادة المطردة فتكون حوادث نسبية ، فان الأقاليم الباردة وكذلك المناطق الحارة كالمناطق التى يطول فيها الليل ويقصر فيها النهار على سنة مطردة أو تكون معدومة الثبات لأسباب طبيعية معروفة فمن جعل حوادث الكون سواء فهو مصاب فى عقله

وأما الجدب والزلازل الحادثة وإصابة الصواعق ونحو ذلك فهذه مع كونها حوادث تقع غالبا من غير أن يشعر بقرب وقتها أحد فتهلك أمما وأناسا كثيرا ممن فسقوا وطغوا ، وقد علم ذلك علما قطعيا لا ريب فيه ، إذ لو كانت هذه الحوادث مما تعلم أوقات حدوثها لهرب الناس من مواضعها ولم

تقع غالبا فجأة . وقد نص القرآن على أن الله قد أوقع هذه الأمور عقوبة على المعاصى كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ وقال تعالى ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وهذه نصوص واضحة

ولعل ضلاله هنا كضلاله السابق ، وهو أنه ظن أن الزلازل اذا كانت لها أسباب معروفة كانحصار الابخرة النارية فى الارض فهذا يمنع من أن تكون سببا من أسباب المعاصى ، وهذا مما يدل على طمس قلبه ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا ، فان أكثر المصائب والعقوبات لها أسباب معروفة بالمشاهدة ، ولكن الله يعاقب بالأسباب ويعاقب بمسبباتها فيخلق المصيبة بأسبابها ويعذب بها من يشاء [(١)] ومعلوم أن الدول التى تصاب بالتدمير والتقتيل والجوع والعرى من أعدائها هى معاقبة بسبب ذنوبها التى منها افتتانهم بهذه الأسباب التى عذبوا بها [(٢)] ولا يقال ولم لم تصب الدول الكافرة التى عذبت غيرها من جنس ما أصيبت به المعذبة ، فانا نقول هذا السؤال يفضى الى أن يقال ولم لا يقطع الله

---

(١) كما أن الموت يحدث بوجود قطع الحلقوم ، أو إفساد الجسم ، فيحدث بذلك فراق الروح ، وهذا لا يمنع أن يكون هذا الموت مقدرا من الله ، وأن لهذا القتل أسبابا خلقية هى أسبابها الاولية ، فان الانسان قد يعصى الله فيسلط عليه من يعذبه أو يقتله ويسلبه ماله ونحو ذلك . ووجود هذا السبب المادى لا يمنع أن يكون مسببا عن معصية ، فان المعاصى أشر جميع الشرور فى الدنيا

(٢) كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك اموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

الكفر من الأرض ويفنيه منها ، وهذا سؤال باطل ، فان وجود الكفر أمر لا بد منه ، وقد قال تعالى ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ وقال ﴿ وان الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ فلا بد من وقوع تصديق هذه الآيات ولأن معاقبة المنحرف باستيلاء الكافر عليه أعظم وأشنع ، لأن فى ذلك تعذيبا له بجنس الأسباب التى فتن بها عن دينه ، فان أكثر الكفار إنما كفروا بسبب الأسباب التى أخذوها عن هؤلاء الكفار الذين عذبوا بهم فان أكثرهم قدموا آراءهم وأفكارهم على دين الله ونظامه وأطاعوهم واتبعوا أمرهم وعصوا الله وخالفوا أمره ، ولان استيلاءهم عليهم أعظم شناعة من استيلاء المؤمنين لكونهم أبعد عن الرحمة والعدل فيهم ولان ذلك مما يجلب البغضاء والعداوة والإحن الطويلة كما قال تعالى ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة ﴾ وقد أخبر الله سبحانه أنه سلط بخت نصر على بنى إسرائيل لما أفسدوا فى الأرض وأنه سبحانه هو الذى بعثه عليهم بسبب فسقهم مع كونه من أكفر الكفار عقوبة لهم ، وهو سبحانه وإن سلط بعض الكافرين على بعض فلا بد أن ينتقم منهم جميعا وكثيرا ما يديل الأمر عليهم فيجعل الغالب مغلوبا ويذيق بعضهم بأس بعض . وبالجملة فالعقوبات بأنواعها لا يحيط بعلمها الا الله تعالى ، كما أن شعب الكفر والفسوق كذلك متنوعة أنواعا لا تنضبط ، فمن أين لهذا الزائغ أن الأبخرة المنحصرة التى قد يحدث منها بعض الزلازل أن الله تعالى لم يخلقها ليعذب بها من شاء ، ومن أين له أنه سبحانه اذا شاء حبسها عن قوم وأطلقها على آخرين ، وإن شاء خففها وإن شاء جعلها نقمة على قوم بأن يهلك بها عدوهم ويجعلها نقمة على آخرين ، فغاية ما لديه أن بعض الناس يعرف سببها المادى فقط ، فأى شىء فيها ، فالقتل والحروب تعرف أسبابها المادية ، وكذلك الجوع وكثير من المصائب ، فمعرفة السبب شىء ومعرفة كونها قد تقع عقوبة شىء آخر ، ولو أن انسانا ظلم إنسانا آخر فدعا عليه المظلوم فسلط الله على الظالم من يعذبه ويقتله بافعال صدرت منه لم يكن علم هذا

السبب نافيا لأن يكون ما حل بهذا الظالم عقوبة له ، وقد علم بالضرورة والتاريخ الصادق أن الله تعالى لم يعذب أمة صالحة تقية قط ، ولم يعرف ذلك على كثرة المصائب والقرون الطويلة ، لا بزلزال ولا غيره كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وهذا بخلاف الأمم الكافرة فان المصائب متتابعة عليهم من أول الدنيا الى آخرها فلا يخرجون من عقوبة الا ليدخلوا فى عقوبة ، لأنهم لا يخرجون من ظلمة من ظلمات الكفر إلا دخلوا فى ظلمة كفر آخر ، فهم فى ريبهم وكفرهم يترددون

فما ذكره هذا المغرور فى هذا الاعتراض الأهوج على هذا الصديق التقى — كما يقول — إيراد ساقط ، ولو كان عاقلا لتأدب مع صديقه هذا ولم يقابله بهذه القحة والبذاءة ، مع أنه لم يقل إلا الحق مستندا إلى نصوص شرعية ، فهو لم يطلب منه الدليل بل عارضه بهذا الهذيان المنكر ، فهو مبتلى بالمشاكسة والمعاكسة ولا سيما مع أصدقائه ، وأما أعداؤه فهو أطوع لهم من الكلب المعلم . وكل هذه الدعاوى مبنية على أصله الخبيث من أن الطاعات والمعاصى لا أثر لها فى الحوادث كلها ، وهو مبنى على أصل الالحاد ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا مرارا ويأتى الكلام على بقية ما يتعلق به

فصل

قال ومن اللفتات اللطيفة الصريحة الى هذه النواميس قصة تلقيح النخل ، وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال « ما أظن ذلك يغنى شيئا » فتركوا التلقيح ففسد الثمر ، فأخبر ، فأمرهم بالرجوع الى ما كانوا يفعلون . ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقا ، ولئلا يوجه اليه الخطأ فى مسئلة كهذه »

والجواب أن يقال : قد ذكر هذا المغرور قصة تلقيح النخل فى كتابه فى عدة مواضع ، وغرضه من ذلك الحث على رفض ما جاء به النبى ﷺ ، إذ ظن بعقله الفاسد أن هذا الحديث يفيد أنه عليه السلام لا يعرف سنن الله فى خلقه . وهذا الحديث من أبلغ الحجج عليه ، ولو سكت عنه لكان أستر له ، وذلك من وجوه :

أحدها أن هذا المغرور قرر فيما يأتى فى صحيفة ٢٧٩ من أغلاله أن الشاك فى أسباب الله هو فى الحقيقة شاك فى الله ، فقال وهـذا لفظه « والشاكون فى أسباب الله ـ وكل مافى هذه الدنيا هو من أسباب الله ـ هم فى الحقيقة شاكون فى الله ، فان هذا الشك معناه الشك فى قدرته تعالى أن يجعلهـا أسبابا موصلة مبلغة » انتهى . فهذا تصريح جلى منه بأن من شك فى سبب من هذه الأسباب الموجودة فى هذا الوجود فقد شك فى الله ، ولا شك أن الشك فى الله كفر وخروج عن حظيرة الاسلام ، وحينئذ يقال لهذا الملحد : إما أن يكون الرسول ﷺ عارفا بسنة الله فى خلقه فى مثل هذا وأن التلقيح سبب فى صلاح الثمرة أو لا يكون عارفا بذلك ، فان كان عارفا بأن هـذا سبب وسنة من سنن الله فقد جوّز كون السبب المادى يتخلف عن نتيجته ، وأن هذا ليس هو من سنن الله التى لا تبديل لهـا ولا تحويل ، فهو يرى تغيير هـذا السبب جائزا فى سنة الله ، وأن الأسباب الطبيعية ليست هى سنن الله التى لا تبديل لهـــا ولا تحويل ، وحينئذ فلا حجة لك فى كون الأسباب مربوطة بنتائجها ربطا حتميا يستحيل انقطاعه . وان كان يرى أن ذلك واجب وأنه لا يجوز الاعتقاد بأن الأسباب قد تتخلف عن نتائجهـا وأن الشك فى ذلك شك فى الله فقد طعنت فى الرسول عليه السلام وأصحابه الذين وافقوه وجعلتهم شاكين فى الله ، ولا ريب أن هذا كفر ظاهر . ثم هو لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار لما وقع الأمر على خلاف ما ظنوا ، بل الحديث صريح فى أن الشك فى الأسباب المادية ليس

فيه شيء أصلا بل هو مباح فى مثل هذا . ومن أعجب العجب وأكفر الكفر أن يأتى هذا الملحد الى أكبر سبب فى الدنيا - وهو الدعاء وعبادة الله - فينفى سببيته وفائدته ، فلا يكتفى بالشك بل يجزم بعدم السببية ، ثم يعمد الى الأسباب المادية بجملتها ويجعل الشك فى شيء منها شكا فى الله وقدرته . فيابلعام زمانه هل تظن أن الرسول عليه السلام شاك فى ربه وقدرته تعالى وتقدس حتى قال لا أظن أن ذلك يغنى شيئا . واذا قيل انه يجهل ذلك قيل اذن هو جاهل فى الله وقدرته والجهل أعظم من الشك ، ثم اذا كان مثله يجهله فكيف يشنع على غيره وينسبهم الى الضلال وفساد العقل . واذا قيل قد وقع الأمر على خلاف ظنه قيل هذا حجة عليك لان وقوعه دليل على أن ذلك من الجائز الذى يمكن وقوعه ويمكن عدم وقوعه ، فان الظن أكثر ما يتأتى فى الجائز ، إذ لو وقع على ما ظن لعد ذلك معجزة فلا يكون ذلك ممكنا إلا بطريق المعجزة ، فعلمنا أن عدم وقوعه مع ظن الرسول عليه السلام فى حيز الامكان لا فى حيز الواجب ولا المستحيل ، وهذا ظاهر لاخفاء به كما تقدم التنبيه عليه

الوجه الثانى أنك قررت فيما مضى أن ضعف المسلمين وتأخرهم راجع الى شيء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فاذا كان هذا هو علة التأخر عندك فعلى كلامك هذا أن الرسول وأصحابه جهلوا نواميس الطبيعة فى هذا الشيء الظاهر فى تلقيح النخل ، فكيف بما هو أدق منه . وقد علم أنه هو وأصحابه لم يتأخروا بل تقدموا على من سواهم ممن هم أعلم منهم فى بعض هذه الأمور الطبيعية والمادية فيكون الحديث حجة عليك لان الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ليس هو علة التأخر

الوجه الثالث أن الحديث نص صريح قاطع فى أن الرسول عليه السلام كان يرى أن الأسباب الطبيعية كلها تحت المشيئة والقدرة ، وأن النتيجة ليست لازمة للوسيلة لزوما حتميا ولا أن السبب لازم لسببه لزوما حتميا يستحيل

تخلفه ، اذ لو كان يرى رأى بعض ملاحدة الطبائعيين الذين يرون أن ربط الأسباب بمسبباتها لازما ليس فى الامكان تخلفه وانفكاكه لم يظن هذا الظن إذ هو صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يظن بربه ما هو محال فى حقه تعالى ، فلو كان دخول المشيئة العليا بين السبب ومسببه محالا لم يخف على الرسول عليه السلام ذلك فيظن بالله مالا يليق به ، وكون ذلك خالف ظنه دليل واضح على الجواز لان مثل الظن انما يقع على الجائز فوقوعه على خلاف ما ظن مما يبرهن على جوازه وهو المطلوب كما تقدم بيانه

الوجه الرابع أن الرسول ﷺ لم يأمرهم أمرا قطعيا ، إذ لو أمرهم بذلك أمرا شرعيا لوقع الأمر على ما أمر ، فانه لا يوجد فى الشريعة أنه أمرهم أمرا قطعيا فعملوا به واستقر فكانت النتيجة على خلاف ما أمرهم ، بخلاف الظن أو الرأى الذى ينص على أنه ظن أو رأى منه كما فى قصة الصلح الذى أراد أن يعقده فى وقعة الاحزاب فقال : انه رأى منى . وفرق ظاهر بين الأمر وبين الظن ، فان كلا منهما له حكم يترتب عليه أثره

الوجه الخامس أن الذين رووا هذا الحديث هم من الذين رووا أحاديث كثير من المعجزات وخوارق العادات كانشقاق القمر وحنين الجذع ونبع الماء بين أصابع النبي ﷺ حتى أروى الجموع الكثيرة من إناء واحد ونحو ذلك من الروايات الكثيرة الصحيحة مما فيه تغير الأسباب العادية وقطعها عن مسبباتها ، وكذلك رووا حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » فمن أراد أن يكفر ببعض هذه الروايات تبعا لهواه ويؤمن بما شاء منها انقيادا لغرضه وشهوته فلا شك أنه متلاعب بالدين ، وأنه يريد أن يكون شرع الله على وفق أغراضه وهواه ، وأن يكون هو المقدم فى الأمر دون الشارع الحكيم ، ومثل هذا لا تقبل دعواه ولا يلتفت اليها مطلقا

وينبغى أن يعلم ها هنا أن كثيرا من الزنادقة حينما يحاولون التملص من

نظام الشرع وتحكيمه فى الأمور الدينية التى وردت فيها النصوص يجعلون هذا الحديث عـــذرا لهم فى التخلص منها فيقول قائلهم حينما تخنقه الحجة الشرعية ويتضايق من مدلولها بالنص : قد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وهذا الاحتجاج من جنس من يحتج على جواز تزويج المعتدة وغيرها ممن يحرم تزويجها بقوله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ويعرض عن النصوص الأخرى ، ومثل من يحتج على أكل الربا بقوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع ﴾ ويقول هـذا بيع ، ومثل من يحتج على تعذيب بعض الحيوانات المستضعفة والعبث بها مما تشمئز منه النفوس وتنكره الفطرة بأنه قد أبيح قتلها (١) ويعرض كل من هؤلاء عن النصوص الأخرى التى تنص على تحريم تزويج المحرمات وعلى تحريم الربا وعلى تعذيب الحيوان بغير ما شرع فى النصوص الدينية

فقول النبى ﷺ « أنتم أعلم بأمر دنياكم » مقصود به الشىء الذى ليس فيه نص ، فان النص لا ينقض النص ، بل يجب العمل بالنصين جميعا مهما وجدنا لذلك سبيلا ، ففى هـــذا الحديث بيان أصل كبير وهو أن الأمور الدنيوية

---

(١) ان من أعظم البلاء ما يفعله كثير من الجهلاء فى تعذيب الحيوانات سواء كانت صغيرة أو كبيرة من المواشى أو الطيور أو غـــيرها فى أغراضهم وشهواتهم المطلقة ، فان الله سبحانه لم يبح قتل حيوان ولا استعماله إلا على وجه مخصوص ، لا على ما يشتهى الانسان ويريد ، فمن تجاوز ما أمر به فقد تعدى حدود الله ، ومن يتعد حـــدود الله فأولئك هم الظالمون . ومن أعظم مظاهر الوحشية والهمجية وضعف الشعور والاحساس أن يتسلط الانسان على ذى روح محترم مستضعف بغير ما أمر الله به ، وفى الحـديث الصحيح « من قتل عصفورا من غير حاجة عج الى الله تعالى وقال : يا رب سل هذا لم قتلنى » وفيه أيضا أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها ، لا هى أطعمتهـا ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وقال : رأيتهـا وهى تعذب فى النار

الأصل فيها الاباحة والعدل المطلق ، هذا هو مفاد الحديث ، لئلا يقول قائل فى كل أمر دنيوى لا بد من دليل على جوازه ، فهذا الحديث نص على أن الأصل فى ذلك الاباحة ، لكن ما وردت فيه النصوص الخاصة يجب العمل بها ، اذ لو كان الحديث يفيد عموم أمور الدنيا كلها لصار هذا الحديث ناسخا لنصوص القرآن والسنة فى كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، وهذا خلاف ما علم بالضرورة من دين الاسلام ، وخلاف ما أجمعت عليه الامة . وعن المقدام بن معد يكرب الكندى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدَّث بحديث من حديثى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وان ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » أخرجه الترمذى وابن ماجه ، ويا ليت هؤلاء الذين يحتجون بهذا الحديث أحيانا مقصودهم الانقياد لمدلوله والعمل به ، ولكنهم إنما يحتجون به تخلصا واعتذارا ومخادعة لله فى نفس الأمر ، وأكبر برهان على هذا أنهم اذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى ما جاء عن الرسول مما هو أصح من هذا الحديث ومما يقيد مطلق هذا الحديث أعرضوا عن ذلك وشمخوا بأنوفهم وأبوا أن يقبلوا هذا الذى يدعون اليه ، وهؤلاء فى الحقيقة هم من جنس أولئك الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . قال تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وقال تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ قال الامام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته يذهبون الى رأى سفيان ، والله يقول ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ ، أتدرى ما الفتنة ، الفتنة هى الشرك ، لعله اذا رد قوله يقع فى

قلبه شيء من الزيغ فيهلك . وقال ابن عباس : يوشك أن تقع عليكم حجارة من السماء ، أقول « قال رسول الله » وتقولون « قال أبو بكر وعمر »

فهذا قول ابن عباس والامام احمد فيمن أخذ بقول ابى بكر وعمر وسفيان ونحوهم وترك النص ، فكيف بمن أخذ بقوانين الرومان والأفرنج الذين قد أخبرنا الله عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأنهم أعداؤه ، وترك نصوص الدين ، ثم ادعى مع ذلك أنه مستحق لأن ينصر وأن يؤيد من العناية الربانية ، ويستنكر المصائب التى أحاطت به من كل جانب ، واذا خفيت العلة وعظمت فكيف العلاج والصحة وكيف الحياة والنجاة

وقوله « ولئلا يوجه اليه الخطأ فى مسألة كهذه »

يقال : هذا مما يدل على ضعف عقلك ، فان الرسول ﷺ قد ثبتت رسالته بالبراهين التى هى أوضح من الشمس ، فكل من آمن به إيمانا صادقا فانه لا يمكن أن يوجه اليه شيئا من الخطأ لا فى مثل هذه المسألة ولا غيرها ، فان توجيه الخطأ اليه يتنافى مع الايمان بالرسالة ، وليس فى هذه المسألة خطأ أصلا كما شرحناه ، فانه لم يأمر بترك التلقيح ، بل قال « أظن » ، والظن غير الأمر ، ولأن الظن إنما يتأتى فيما يجوز وقوعه وعدمه ، فلو قدر أنه وجد فى مثل هذا خطأ لم يكن من الأمور التى أمر بفعلها ولا التى استقرت فى الشريعة ، فتوجيه الخطأ اليه فى هذا هو الذى يتنافى مع التصديق برسالته وكونه رسولا ، ولهذا فان أصحابه الذين سمعوا منه هذا وكذا غيرهم ممن اتصلت اليهم هذه الرواية وكانوا مؤمنين به حقا لم يؤثر هذا فى إيمانهم شيئا ، وأما من كان فى قلبه مرض من الريب والشك فقد يكون وقوع مثل هذا فى حقه فتنة وامتحانا ، وقد قال تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ فمن أثر وقوع مثل هذا الأمر فى قلبه فلا شك أن قلبه مريض بالزندقة والنفاق ، فلم يك منقادا لكل

ما جاء به الرسول ﷺ ، بل قد يحمله زيغه وضلاله على أن يوجه اليه الخطأ في هـــذه المسألة ، ولا بد إذن أن يوجه اليه الخطأ فى غيرها ، فان الشكوك والشبهات الواردة على القلوب المقفلة لا حدّ لها ، والايمان فى القلب مثل الصحة فى الجسم ، فمتى كان الجسم عليلا عسر علاج الجروح التى فيه ، فاذا كان صحيحا قويا قابلا للشفاء صار ما يصادفه من جروح تافهة قابلة للعلاج الصحيح فينفعها وتشتفى به ، فالشبهات القوية الواردة عـــلى القلب كالعوارض والامراض التى تعرض للجسم من العدوى ونحوها ، فاذا كان قويا مؤمنا إيمانا صادقا خالصا لم تعلق فيه الشبهات بل يقاومها وتزول عنه ويبرأ مما علق به منها سريعا اذا عالجها بالمواد الروحية القوية ، واذا كان الايمان ضعيفا فى القلب أثرت فيه الشبهات تأثيرا بليغا بقدر ما فيه من الضعف والقوة ، فان كان ضعيفا جدا فلا بد أن تستولى عليه حتى تهلكه وتذهب قواه المقاومة لها . وقد علم أن الانسان متى كان معه شك وتردد فى شىء من الأشياء الواضحة فانه إما أن يكون قلقا مضطربا ، وإما أن يقع فى الوسواس أو الخبل ، وحينئذ تعظم المصيبة فينسلخ إما من العقل أو من الدين أو كليهما ، فالشك فى القطعيات فساد فى العقل ، كما أن عدم استقامة الحواس فساد فى الجسم وكلاهما مآله الهلاك غالبا

فصل

قال « ولن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ والفوضى فى الحساب أعظم مخذل لقوى الانسان ، وأعظم واقف فى سبيله »

فيقال : اذا كان الحال كما ذكرت فلم جعلت المسىء كالمحسن ، والذين آمنوا وعمـــلوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، حيث ذكرت أن عدل الله هو التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وجعلت

المساجد أدت شر ما يؤدى ، وان من دعا الله لا يحصل له فائدة من دعائه ، ومعلوم أنه لن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وانت عمدت الى هذه الأصول التى اشتملت عليها هذه الآيات فبذلت جهدك فى هدمها ونقضها ، فجعلت الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج الجد ، ومعلوم أن الله يقول ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فجعلت من يعمل مثقال جبل أو أكبر من ذلك من الدعاء والتقوى والأعمال الصالحة وغيرها من الأخلاق الدينية لا يحصل له غير الخيبة ، وهذا عين المناقضة للأديان وكيف يستطيع الانسان أن يتصور أن فى إسناد الحوادث الى الطبيعة ونواميسها شيئا من العدل ، بل إنما يتصور ذلك اذا كانت الأمور كلها تجرى بارادة الحى القيوم العليم الحكيم الرحيم الكريم القائم على كل نفس بما كسبت ، هذا هو العدل والحكمة ، وكيف يستطيع الزارع أن يزرع والصانع أن يصنع والتاجر أن يسعى فى تجارته والمتعلم أن يوالى درسه وهو يعلم أن ناصيته ومصيره عند الطبيعة العاتية ونواميسها ، فان هذا هو الفوضى والشر والظلم الذى لا ريب فيه

ان كل مسلم على بينة من أمره يعلم أن هذا الاستشهاد والاستدلال نفاق مكشوف وخداع مفضوح فلا يعجز كل من أراد أن يفسد دين الاسلام أن يقول الكفر ويفعل الكفر ثم يخادع من جنس هذا الخداع اذا كان يتصور أن المسلمين ليس لهم قلوب يفقهون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها وانهم كالانعام ، وإلا فرجل يجاهر بالكفر وسب الأديان ، وأن رضا الله وسخطه لا دخل لهما فى الأسباب ومسبباتها ، وأن نواميس الطبيعة تحكم العالم باستخدام الانسان لها ، وأمثال ذلك مما أوضحناه ثم يدعى مع ذلك أنه

لا أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ الى آخر الآية ، لا شك أنه رجل ماجن مستهتر متلاعب لم يتصور فى الناس من يعرف الحق من الباطل ، ولا من يميز الصدق من النفاق ، والنصح من المكر والخداع . وقد سبق الكلام عن مثل هذا مرارا

ثم ذكر أن أكثر الناس صاروا يرون أن الجزاء والمكافئة ليست على قدر الكفاية وانما يرجع ذلك الى الوساطات والشفاعات والقرابات والى أمور أخرى ، وذكر أن سبب هذا هو الايمان بالفوضى

ونحن نقول له : نعم سبب هذا هو الايمان بالفوضى التى تدعو اليها ، والإعراض عن الاخلاق الدينية الطاهرة . والبرهان على ذلك أن أكثر هؤلاء الذين يقعون فى هذه الأمور لا يتخرجون من معاهد دينية نزيهة ، بل أكثرهم يتخرجون من كليات ومعاهد قد تأثرت بهذا الوباء الذى تدعو اليه من فساد الأخلاق كالغلو فى حب المادة وكراهة الأخلاق الدينية المحض (١) وكتلقينهم ان مستند التقدم والرقى أمر يرجع الى الطبيعة ونواميسها لا على حسب أعمال الخير والشر ومعاملة الله تعالى بالصدق والاخلاص ، وأن الأمور كلها تحت مشيئته وارادته ، وأنه يجازى كل عامل بعمله ، ولهذا تجد أعظم المجتمعات فسادا أكثرها زندقة وإلحادا ، وأقواها وأشدها تماسكا أقربها الى الأخلاق الدينية كالصدق والعفاف والفطنة والذكاء والأمانة القوية ونحو ذلك

---

(١) فانهم لما اعتقدوا أن الصلاح والتقوى وخشية الله والاستقامة فى الدين خمول وضعف وانحطاط ، وأن الفجور والخبث والمكر دهاء وسياسة ولا يؤثر فى التأخر شيئا عملوا بمقتضى هذا الاعتقاد ، فكانوا خبثاء فجارا متهالكين على المادة لانهم رأوا اكثر الناس يعبدونها

ثم أخذ يستطرد فى أن أصل فسادنا هو إيماننا بالفوضى ، وقد بينا لك أن معنى الفوضى عنده هو الايمان بمشيئة الله وارادته ، وأن العالم يجرى كله على مقتضى علمه وحكمته ورحمته ، وبينا لك أن العدل عنده هو كونه يجرى بمقتضى الطبيعة ونواميسها باستخدام الانسان لها ، فلاحظ هذا ليزول عنك كثير من خداعه ونفاقه الذى موه به على ضعفاء البصائر والعقول . ولهذا فانه أوضح هنا الفوضى التى يريدها وبين أن الاعتقاد بأن القضاء والقدر وأن ارادة الله أو رضاه وغضبه وحبه وبغضه له دخل فى الأسباب والمسببات أو الوسائل والنتائج يوقع فى الفوضى ، فمتى اعتقد الانسان هـــذا الاعتقاد فقد اعتقد الفوضى ، أما اذا اعتقد فى الله تعالى أنه ليس لغضبه ولا لرضاه ولا لحبه ولا لبغضه تدخل فى الأسباب ومسبباتها وكذا الوسائل ونتائجهـــا فانه يكون معتقدا العدالة المطلقة ، ولهذا قال وهذا لفظه :

« فالذين يرون أن القضاء والقدر ، أو أن الحظ ، أو أن الشفاعة والوساطة ، أو أن الارادة المطلقة أو أن رضا الله وغضبه وحبه وبغضه : ان شيئا من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة - أى يرون أن هذه الأشياء تدخل فى مصير الانسان وتحول بينه وبين النتيجة التى يجب أن يوصله اليها عمله - هم قوم لن يجدوا فى أنفسهم ما يعينهم على الاندفاع الى الأعمال الصالحة ، وعلى الانطلاق فى سبيل الحياة القوية » انتهى

فقد رأيت معنى الفوضى عنده ، فمن آمن بأن القضاء والقدر أو إرادة الله المطلقة أو غضبه ورضاه وحبه وبغضه يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه أو بين الوسيلة والنتيجة فقد آمن بالفوضى وصار من الذين لا يجدون ما يعينهم على العمل ، فالله لا يعينهم اذا آمنوا بأن إرادته أو غضبه أو حبه وبغضه يدخل بين المرء وعمله ، وانما يعانون اذا كفروا بهذا الاعتقاد ، فاذا

كفروا به واعتقدوا أن رضاه وغضبه وارادته وحبه وبغضه وجوده وعدمه سواء ، ولهذا قال فيما تقدم اننا لا نحتاج أن نلتمس مهمازا يندفع به الانسان بل مهمازه فيه وفى طبعه . وقد جرى على عادته فى هذه الجملة فى التلبيس ، فأدخل الوساطة والشفاعة مع الحب والبغض ، وجعل الحكم واحدا [١] ، وهذا من المسائل التى نبهنا عليها فى الملاحظه الثالثة فى أول الكتاب ، فتأمل هذه المواضع تعلم حقيقه نفاقه العميق وخبثه الذى لا حد له فى تلبيسه فى دعوى الفوضى التى طالما رمى أعداءه بها . ولهذا أدخل الأعمال الصالحة ومراده المادية ، لأن الأعمال الصالحة الدينية قد تقدم قوله فيها بأن لها نتائج أخرى ، ولأنها هى التى لا يدفعها سوى الاعتقاد بأن غضب الله ورضاه وحبه وبغضه له تدخل فى ذلك

أما النظام والعدالة التى يدعو اليها فهو عكس ما ذكره هنا ، وهو الكفر بالتفريق بين الأيمان والكفر وبين غضب الله ورضاه وحبه وبغضه والكفر بكونه يغدق على من أحبه وينتقم ممن سخط عليه ، ولهذا فانه أخرج هذا الخبث والكفر الغليظ فى قالب العدل فقال وهذا لفظه :

« فالمجتمع الذى يرتجى له التبريز فى ميدان الأعمال هو الذى يؤمن بالعدالة المطلقة ، فى السماء وفى الأرض ، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التى لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ولا بالاغداق للحب » انتهى

فهذا هو النظام عنده ، فهو أن يؤمن الانسان بالعدالة المطلقة ، وقد تقدم تفسيره لها بأنها التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فالأديان لا دخل لها فى تقدم ولا تأخر ، فالذين آمنوا وعملوا

---

(١) كما أدخل الدعاء مع السباب والاتهام كما سبق

الصالحات كالمفسدين فى الأرض فلا فرق بينهم فى الجزاء فى الدنيا ، فمتى آمن الانسان بان غضب الله ورضاه وحبه وبغضه لا دخل له فى الأسباب ومسبباتها ولم يعترف بالتفريق بين الحب والبغض والرضا والغضب فلا ينتقم من أحد لغضبه عليه ولا يرفع أحدا لرضاه عليه فلا يغدق على أحد خيراً من أجل حبه له كالمؤمنين مثلا ولا ينتقم من أحد من أجل غضبه أو بغضه له كالمفسدين مثلا ، متى آمن الانسان بهذا فقد آمن بالنظام والعدالة . وحاصل هذا أنه اذا ساوى بين الله وبين الأصنام فى عدم الافضال والانتقام فقد آمن بالنظام ، أما اذا اعترف بالتفريق بين المسىء والمحسن والمطيع والعاصى وأن الله فرق بينهما فيجازى المحسن بالاحسان فى الدنيا والآخرة فيغدق على المؤمن لايمانه وينتقم من الظالم لظلمه فى الدنيا والآخرة فقد كفر بهذا النظام ، وهذا هو روح دعايته الملتوية الخبيثة ، ولا ريب أن حقيقتها هى الدعوة الى الالحاد المحض وإنكار جميع مظاهر الربوبية . وقد حرص كعادته فى مثل هذه المضايق على لبس الحق بالباطل

وقوله « فى السماء وفى الارض » كلام ساقط لا محل له هنا ، فأى علاقة للعدالة فى السماء هنا ، والكلام هو فى الأسباب المادية ، ولهذا قال صريحاً فى بيان العدالة بأن يؤمن الانسان « بالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة » ، ثم بينها بقوله « التى لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ، يعنى الغضب سماه حقدا تشويها لمسماه [١] » ولا بالاغداق للحب » وكأنه لم يجد عبارة تنوب عن عبارة الحب أحيانا ليبدلها بها كما بدل لفظ الغضب بالحقد ، فقد عرفت أن القوانين العادلة العامة التى طالما دعا اليها

---

(١) وليس غضب الله كغضب أحد من خلقه حتى يبدل الغضب بالحقد ، فالله تعالى ليس كمثله شىء لا فى غضبه ورضاه ولا فى حبه وبغضه ، هذا اعتقاد المسلمين

هى عدم الاعــــتراف بالتفريق ، أى الكفر بالتفريق ، ومعلوم أنه يريد بالتفريق هنا بين الأديان والمبادىء والمذاهب كما فسره فى الموضع الآخـر الذى ذكرناه بقوله فى العدل هو التسوية بين الآخـذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وهنا بين التفريق الذى يريد عدم الاعتراف به وهو الكفر باعتقاد كونه تعالى ينتقم للغضب (١) أو يغدق للحب ، فكما أنه بين أن الفوضى هى اعتقاد أن رضى الله وغضبه وحبه وبغضه لا تدخل فى الأسباب والمسببات والوسائل والنتائج فقد بين أن اعتقاد ضد هذا هو النظام ، وهو التفريق المذكور بين موجبات الغضب والرضا والحب والبغض (٢) ولهــــذا ذكر الحقد فى مقابلة الغضب وترك الحب بلفظه ، وبين أنه لا بد من نفى هذا التفريق الذى يوجب الانتقام والاغداق ، فانه اذا انتفى التفريق انتفى اعتقاد الاغداق والانتقام ، واذا نفينا هذا حصل الايمان بان هـذه الصفات التى هى الحب والبغض والرضا والغضب لا تدخل بين الأسباب والمسببات (٣) وهو صريح فى غاية الوضوح فى أنه ينكر كون الله يغدق عـلى من أحبه وينتقم ممن غضب عليه . ثم انه لخبثه وشدة حرصه على لبس الحق بالباطل أدخل العدالة فى السماء وأدخل الوساطة والشفاعة هنا ولا محل لذلك ، أما الوساطة والشفاعة فقد تقدم الكلام عليهما ، وأما السماء فلا مناسبة لادخالها هنا البتة كما سبق

---

(١) وعبر عنه بالحقد

(٢) وقد سبق ادعاؤه بأن فساد الأخلاق لا دخل له فى تأخرنا ، لأن غضب الله المرتب عليه لا أثر له

(٣) وحينئذ يكون مستند الحوادث هى نواميس الطبيعة التى لا تفرق بين المحسن والمسىء ، وليس لها غضب ولا رضا ولا حب ولا بغض ، بل هى تفاعل قسرى مستمر نتائجه المصادفة والاضطرار بحسب تصريف الانسان له

والحاصل أن هذا الزنديق شبه الله تعالى بالأصنام العاجزة التى لا تتدخل فى أعمال الناس ، لا بارادة ولا قضاء ولا قدر ، فلا تنفع ولا تضر ولا تغدق ولا تنتقم . وهذه القاعدة المنكرة لها نظائر كثيرة جدا ، وهى فى أغلاله كالأصول والقواعد التى يدور عليها ، ولهذا أنكر المحاباة لزعمه أن الإثابة والانتقام محاباة ، وهجم على الأخلاق الدينية كلها ولم يستثن منها خلقا واحدا ، لأنه لما اعتقد أنه لا ثواب لها فلا إغداق لمن أحبه الله ولا أثر لسخطه ورضاه ، فأى فائدة فيها ، ولهذا جعلها ملهاة وتعويقا ونحو ذلك ، وقد تقدم قوله بأن من استخدم هذه النواميس أى نواميس الطبيعة وسار معها بلا اصطدام نال ما يبغى فصار النفع والضر وتصريف الأمور كلها تجرى بالطبع ، فالانسان هو الذى يستخدم هذا النواميس وهى تجرى باستخدامه ، فينال منها مقدار ما فى ملكته من الاقتدار على الاستخدام ، لا على ما يريده الله ويقضيه ويقدره له بمقتضى علمه وحكمته ورحمته وبما يقوم به الانسان من الايمان والدين واتباع أمر الله وأخذه بالأسباب الدينية والمادية التى أمر الله بها . ويجب أن يعلم أن هذا الأصل الذى ادعاه واجتهد فى تقريره هو من أعظم أصول الكفر ، وأكثر ملاحدة العصر توسلوا به الى هدم الأديان ، وهو مناقض لجميع الأديان السماوية ، ومصادم أعظم المصادمة للنصوص التى لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وقال تعالى ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم

من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وكذلك قال فى صالح وقومه وشعيب وقومه ، وقال تعالى ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ والآيات فى هذا أكثر من أن تحصر ، فمن جحد هذا الأصل فقد ساوى بينه تعالى وبين المخلوقات العاجزة بل المعدومات ، فأى ربوبية لمن لا تدخل لارادته فى مخلوقاته ولا أثر لحبه وبغضه ورضاه وسخطه ، وجميع الأمم الذين قص الله علينا ما فعل بهم انما عاقبهم الله لأجل غضبه عليهم ، وكذلك الأمم التى نصرها الله وأيدها وأنجاها من الهلاك إنما فعل بها ذلك لأجل رضاه تعالى عنها . وانما قص علينا قصصهم لنعتبر بهم ، وقد كان من المعلوم أن فرعون لم يهلك ويحل به الدمار إلا من أجل معصيته وغضب الله عليه ، وأن موسى لم ينتصر هو وقومه ويكونوا خلفاء الأرض من بعد فرعون وقومه إلا من أجل طاعة الله تعالى ورضاه ومحبته . وكذلك جميع الرسل مع أممهم ، وقد قال تعالى ﴿ انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ فبين تعالى أنه أرسل الينا رسولا فان آمنا به واتبعناه كنا كمن أطاع هذا الرسول الذى أرسل الى فرعون وقومه ففاز من أطاعه ونصر وحصل له التأييد

والتمكين والنجاح ، وان عصيناه كنا كمن عصى ذلك الرسول فلا بد من العقوبة ، ولهذا كان عاقبة هؤلاء الذين عصوا هذا الرسول وادعوا اتباعه كعاقبة الذين عصوا موسى وادعوا اتباعه بأن سلط على كل من هؤلاء وهؤلاء أعداءهم كلا على قدر معصيته ، وفى الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » متفق عليه

فالايمان بعدم التفريق بين ما يوجب محبة الله ورضاه وما يوجب غضبه وسخطه فى التقدم والتأخر يصادم نصوص الدين أعظم المصادمة ويقضى بابطال الربوبية وهو كفر أعظم من كفر مشركى الجاهلية ، فانهم مقرون باسناد الخلق والتدبير لله تعالى لوضوح ذلك ، وإنما كفروا لأنهم اعتمدوا على بعض المخلوقات وتوكلوا عليها معتقدين أن فيها مواهب واستعدادات تستطيع بها إيصال النفع والضر اليهم إما بذاتها وإما بواسطتها كما أوضحناه ، ومجرد الاقرار بأن الله خالق العالمين لا يدخل فى الاسلام كما اعترف بذلك هو فى نبذته فى (الفصل الحاسم[١]) وغيرها

ولا شك أن أعظم مفسد للعقل ومثبط للقوى وواقف فى سبيلها هو الاعتقاد بان المسىء كالمحسن والظالم كالعادل والمفسد كالمصلح فى استحصال النتائج ، وأن ذلك كله منوط باستخدام الانسان لنواميس الطبيعة لا باعماله التى يلقى عليها جزاءه إن خيرا فخير وان شرا فشر ، فمتى علم أن فساد الأخلاق وصلاحها لا تأثير له البتة فى تقدم ولا تأخر فكيف يعمل الاحسان وينتهى عن عمل السوء ، بل أكثر من يعتقد هذا الاعتقاد يكون مائعا فى اتباع الشهوات ، منهمكا فى الغى والبطالة مغتنما هذا العمر القصير لأنه هو رأس ماله

---

(١) ذكره فى ص ١٠١ منها

فى رأيه فلا حساب ولا عقاب وليس مكلفا — بدافع ضميره — أن يهلك قواه فى مصالح غيره ، وهذا بخلاف من يعتقد أنه إنما يعمل لنفسه وأمته امتثالا لأمر ربه الكريم الرحيم العليم الحكيم القائم على كل نفس بما كسبت الذى له الكمال المطلق من كل وجه ، وأنه هو الذى يعز ويذل ويعين من أطاعه ويؤيده وينصره ، ويخذل من عانده واستكبر عن طاعته ، فيعمل بهذا الاعتقاد ، ان مات مات شهيدا حميدا ، وإن عاش عاش سعيدا حميدا ، وكل خطوة وكل وقت يعمل فيه لله فهو مكتوب له حسنات ومحو عنه سيئات فلا يذهب عمره سدى ولا عمله هباء ، والانسان فى هذه الدنيا إنما أعطى هذا العمر القصير عارية ولا بد أن تؤخذ منه طوعا أو كرها وانما له منه ما استفاده وربحه فى استعمال هذا العمر فمن استعمله فيما ينفعه بقى معه هذا الربح وهو رأس ماله الذى فيه سعادته ومن استعمله فيما يضره أخذت منه العارية وكان ما استفاده من هذه العارية وبالا عليه ونكبة وغلا فى عنقه لا ينفك عنه أبدا ، قال تعالى ﴿وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيمة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ الى آخر الخمس الآيات

فصل

ثم ذكر ما جرى بينه وبين وزارة التموين المصرية التى ذكر أنه كان يتولى الاشراف عليها طه السباعى باشا وزملاؤه حينما أراد منها شراء ورق لطبع أغلاله ، فحصل منها تلكؤ وأناة فى اجابة طلبه الأهوج ، وقد أطنب فى الاقذاع فى سبها واتهامها حتى نسبها الى ما يتضمن الكفر والخروج من الملة ، وغرضه من هذه القحة الزائدة شفاء غيظه منها وتخويف غيرها من لسانه اذا

لم تحصل له مطالبه ، والعجب أنه ادعى أن هذه الوزارة من المسلمين ثم مع ذلك أطنب وأسهب فى ذمها والقدح فيها حتى نسب اليها ما يتضمن كفرها ، ثم ذكر أنه تولى بعدها رئيس مسيحى فأنجز طلبه فمدحه وأطال فى الثناء عليه. وهذا مما يبين لك أن دينه فى الدرهم والدينار وأنهما قد استعبداه ، فقد سولت لهذا المغرور نفسه وزين له شيطانه ودفعه زهوه واختياله الى فرض طاعته وقضاء طلبه على كل أحد وعلى كل حال ، وهذا مما يفسر قوله :

لو أنصفوا كنت المقدم فى الأمر .. الى آخره

فقال « ونثبت هنا شيئا يعده النـــاس مخزاة خلقية ، ونحن نعده مخزاة اعتقادية فكرية ، لأن إثباتها هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذى نرمى اليه ، ذلك أننا تقدمنا فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريبا الى وزارة التموين نطلب اليها أن تبيع لنا ورقا لطبع هذا الكتاب ، وقد ابتدأ هذا الطلب خط سيره هكذا : مرّ بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى اختصاص بهذه المسألة — مسألة الورق — ثم بعد أن انتهى الى آخر مطاف يمكن أن ينتهى اليه كرّ راجعا الى حيث ابتدأ أولا متخذا الطريق نفسه نازلا من أعلى الى أسفل أو صاعدا من أسفل الى أعلى سالكا خطا وهميا دائريا ... وقد ضل فى هذا الخط وعجز عن أن يجد له نهاية ينتهى عندها أو بداية يصدر عنها . . . ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلا بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقية »

قلت : أما أولا فقد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن هذا المغرور لا يقبل قوله فى مثل هذا الادعاء المجرد ، فانه تكلم بعد ما أقر — بمقتضى تحامله — بأنه عدو لهذه الوزارة وأنها مسألة شخصية له حظ فيها فالدعوى ساقطة لا يلتفت اليها

---

(١) نعم لكنها فيك لا فى خصمك لو شعرت بذلك (ربما مريد ضره ضر نفسه)

ثانيا ليس فيما ادعاه وانتقده على هذه الوزارة كبير أمر حتى يسوغ له أن يبدى ما أبدى ويجن جنونه ، غاية ما فى ذلك أن إجابة طلبه تأخرت قليلا ، ومعلوم أن مثل هذا يقع كثيرا اذا كان الطلب مشتبها أو كان هناك عوارض من ريب أو شك أو غير ذلك ، وكونها لم تبين له وجه عدم انجاز طلبه لا يدل على أن هذا مماطلة ، فقد يكون لعوارض لا يسوغ بيانها لمثله ، ومعلوم أنه ليس بواجب على كل دائرة أن تبين لكل طالب سبب تأخر طلبه ، ولا يخفى على فطن أن هذا المغرور كان مزهوا ونخورا الى أقصى حد . فلا يستبعد منه أن يكون قد أبدى من التطاول ما أخر طلبه ريثما يتحقق أمره ، واذا دار الأمر بين اتهامه بالتطاول وبين اتهام الوزارة بالمماطلة ونحوها فلا شك أن اتهامه أولى وأرجح ، فان القائم بأعمال هذه الوزارة ورجاله لم يصلوا الى هذه الرتبة إلا نتيجة لحصولهم على شهادات وثقة أمتهم بهم ، ولما هم عليه من مقدرة وكفاية وأهلية للعمل ، وأما هو فهو زنديق مرتد معروف بما يحققه عند كل من له بصيرة

ثالثا يقال : لا حاجة الى أن تتعب فى التماس حل مشكلتك هذه ، فان فعلك هذا وطلبك وقصدك كل ذلك فعل وقصد لكتاب خبيث والله تعالى يقول ﴿ والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ فلا ينبغى لك أن تستغرب هذا العمل من هذه الوزارة وانت بنفسك قد اعترفت بأنك مكثت ست سنين فى مكابدة هذا البلاء الذى ارفض عنه صدرك ، مع أن حاصله مشكلة لم تحل ، فأنت باعترافك هذا لم تستطع أن تحل هذه الوسيلة ولا هذه النتيجة ، فكما أن هذه الخبائث المعقدة المستعصية لم تخرج من صدرك الا نكدا فكذلك لا يمكن ان تخرج فى عالم الطباعة إلا نكدة أيضا ، ولا بد أن يتناولها هذا الناموس الشامل . ولهذا لما خرج بعد طبعه سرت رائحته الخبيثة فسرّت به نفوس قذرة طبعت على حب الخبائث وتهافتت عليه تهافت آكلات الجيف على

الجيف ، بخلاف الأرواح الطيبة فانها تتأذى من رائحته وأغراضه المنتنة .
ولقد أتاح لنا فرصة لا بأس بها فى معرفة حشرات كانت مجهولة حالها وكانت كامنة مختفية فى جحورها المظلمة القصية

ثم قال « وقد أعيا رجال وزارة التموين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه إما رفضا واما اجابة . وقد شبهت الوزارة ورجالها وهم يدورون ويتحركون فى المسألة بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع ، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقا مطبوعا عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقا مخرقا ممزقا أو مطموسا بالسواد الذى لا يستبان له وجه ولا غرض »

فيقال : هذا التشبيه منعكس عليك ، فان آلة الطباعة إنما تطبع ما جعل فيها على وفق طبعها ونظامها الذى ركبت عليه ، وحيث أن طلبك الذى قدمته اليها كان فاسدا أهوج لا يستبان له وجه صحيح ، فهو كالورق الفاسد الملوث بالسواد وغيره فلا بد أن تعمل فيه ما تعمل الآلة على مقتضى ما يتحمله ويستحقه ، فمثل هذا الورق الردىء الفاسد الملوث لا بد اذا دخل الآلة - مهما كانت فى الجودة والاستقامة - أن يخرج مخرقا ممزقا مطموسا بالسواد وغيره ، فلا لوم على آلة الطباعة اذن ، فان النظام الذى ركبت عليه يقتضى هذا ولو كانت فى غاية الاعتدال والصحة ، وانما اللوم على الذى أدخل فيها هذا الورق الفاسد وطلب منها خلاف نظامها الصحيح ، فانه بطلبه وادخاله يعد أحمق جاهلا لا يعرف الطريق التى بها يستحصل على غرضه ناجحا ، بل يريد من آلة الطباعة أن تجرى على هواه فتخرج له ما يريده ويشتهيه ولو كان مخالفا لنظامها الذى صنعت له

ثم أطال فى كلامه على هذه الوزارة فادعى بأن الذى حملها على هذا هو إيمانها بالفوضى ، ولكن الحقيقة هى أن الذى يريد منها خلاف نظامها هو الذى يؤمن بالفوضى . وأطال فى ذلك ، ثم أخذ يلتمس العلة ، ثم ادعى أنه

وجد ذلك بعد أن ادعى أنه لم يجد لها حلا فقال :

« قد يظن أنه ليس فى الوزارة ورق ، أو أن رجال الوزارة لا يحبون أنفسهم ، ثم أجاب بأن الورق موجود فيها ، وأن رجال الوزارة يحبون أنفسهم ، وأن هذه ليست هى العقدة ثم قال :

« ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين (يعنى الاجانب والمسلمين[١]) هو أن قومنا ومنهم وزارة التموين بما فيها من رجال وأعمال[٢] لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازما طبيعيا ، وأن بين الوسيلة والنتيجة ارتباطا حقيقيا ، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكا أزليا أبديا ، فلا يؤمنون بأن عمل السوء يؤدى لا محاله الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير سوف يؤدى بلا ريب الى نتيجة سارة ، وأن المراوغة فى هذه المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم فى النهاية على الفضيحة والخزى والعار والسمعة القاصمة ، وأن ذلك كله يؤدى بهم بدوره الى الخيبة والى العقاب الصارم وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال . انهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهذه الأعمال ، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب ، لأنهم ليسوا فقراء من حب النفس والذات ولكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر[٣] ، ولكن لماذا لا يؤمنون هذا

---

(١) وذلك أنه ذكر أن الوزاره تغيرت وأنه جاء فيها وزير مسيحى فساعده على بيع ورق وأعطاه طلبه

(٢) انظر كيف عمهم بالمسبة مع أنه قد يكون بعضهم لا حيلة له فى تقديم ولا تأخير فى طلبه

(٣) ولكنهم أغنى منك دينا ودنيا . واذا كنت تعتقد هذا الاعتقاد فماذا نفعك . ومعلوم أن كثيرا من الملاحدة يعتقدون هذا الاعتقاد وقد ماتوا فقرا وجوعا وعريا

الايمان . إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا (١) أو الأحداث الكونية الغالبة هى المهيمنة على كل شىء : على الوسائل والنتائج ، وعلى الأسباب والمسببات ، هيمنة عمياء باطشة ، فهى لا تسير سيرا حرا طبيعيا فى طريقها ، ولا تدع تلازمها وتماسكها أمرا مضمونا محققا ، ويرون أن الايمان بذلك هو الايمان بكمال الله وبحرية تصرفه » انتهى

وإنما نقلنا كلامه هنا وان كان قليل الفائدة لتعلم أن هذا الرجل قد بلغ به الغرور والفجور الى أقصى حده ، فهو لا يكتفى بمسبة كل من لم يوافقه على هواه ، بل يتجاوز الى أن يجعل الذنب كله إنما جاء بسبب الدين واعتقاد تصرف الله المطلق ، ولا ندرى كيف سكت عنه رجال هذه الوزارة فلم يطلبوا محاكمته على ما نسبه اليهم من أنهم لا يؤمنون بأن عمل السوء لا يؤدى الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير لا يؤدى الى نتيجة سارة ، وكيف لا يطالبونه باثبات ما نسبه اليهم من أنهم يعتقدون أن المشيئة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة على كل شىء هى المهيمنة على كل شىء هيمنة عمياء باطشة . ومن المعلوم أن المسلمين كلهم ليس فيهم من يعتقد أن مشيئة الله مشيئة عمياء باطشة ، فقبح الله من نسب ذلك اليهم بل هم يعتقدون أن من اعتقد ذلك فهو كافر بالله خارج من الملة ، فكيف يدعى أن هذا هو اعتقادهم . ثم أى علاقة بين اجابة طلبه فورا فى بيع الورق وبين هذا الاعتقاد ، بل ظاهر الحال يكذبه ، فانهم لو كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد الذى ذكره لم يتعلموا فى المدارس ويدأبوا جهدهم فى ذلك ثم يحملون شهادات معهم ثم ينخرطون فى سلك الموظفين ، فانهم لم يعملوا هذه الأعمال إلا لعلمهم بأنها وسائل ضرورية طبيعية لا بد أن تكون نتائجها طيبة ، وأن العلم يؤدى الى نتيجة حسنة ، كل ذلك تحت

---

(١) هذا دأبه ، يجعل كل مصيبة فى الدنيا هو الايمان بمشيئة الله تعالى

مشيئة الله وارادته ، بل نفس معاملتهم لهـذا المغرور هـذه المعامـلة الحسنة النزيهة دليـل على أنهم يؤمنون بالعدل والحكمة ويكفرون بالفوضى ، لأن طلبه الأهوج كان جورا وظلما مع أنهم يعرفون وقاحته وقباحته وقـذارة لسانه ، فلو كانوا قوما فوضويين ماديين لأجابوا طلبه خوفا من لسانه ومداهنة معه وتركوا نظام العدل والأمانة الذى يقضى برفض طلبه حيث انه لم يكـن له وجه مقبول

ثم ان هذا الادعاء قدح فيه ، لأنه اذا كان يعلم بأنها تؤمن هذا الايمان فما الذى حمله على طلب الورق منها ثم على مسبتها لما لم تجب طلبه فورا ، فاذا كان عالما بأن هذا معتقدها فقد دخل معها على بصيرة فيما ستفعله به ، لأنها ستعامله بمقتضى اعتقادها — كما يقول — فيجب عليه اذن أن يصبر عـلى ما تعامله به ولا يلومها لأنها اتبعت ما تعتقده واتباع العقائد من النظام المتبوع ، ولا يصح له أن يدعى أنه لم يعلم بذلك الا بعد أن طلب منها لأنه ذكر فيما سيأتى قريبا أن هذا الاعتقاد يشاركهم فيه جميع رجال الامة

ويقال أيضا : ان هذا الايمان الذى ادعاه وهذه الفوضى التى يدعيها هى معتقده بلا ريب . وقد تقدمت الأدلة على ذلك فى مواضع كثيرة ، مع أن هذه دعوى لا مستند لها ، ومعلوم أنه لا يعسر عـلى من قل حياؤه وأبغض شخصا أو دائرة لم يحصل منها مقصوده أن يدعى بمثل هذه الدعوى وبمثل هذا الهذيـان

ثم قال : وقد يحتجون لهذا بمثل قوله تعالى ﴿كل يوم هو فى شان﴾

فيقال : نعم هم يحتجون بهذا وأمثاله ، ونعم الحجة . وأما أنت فتحتج بقول غوستاف لوبون وأمثاله ، أو تحرف القرآن ولا تلتزم بقول أحد من المفسرين كائنا من كان ، ولهذا ادعيت فى نفس هذه الصحيفة أن طوائف الأمة تشارك هذه الوزارة فى هذا المعتقد فيكونون إذن هم أعداءك ، فكل من

أسند حوادث الكون ونتائجه الى مشيئة الله تعالى فهو معتقد الفوضى عندك ، أما اذا أسندها الى نواميس الطبيعة باستخدام الانسان لها فقد اعتقد النظام ، وحقيقة هذا أن الكفر هو النظام والدين والاسلام هو الفوضى ، ولو أنك جاهرت بالالحاد وخلعت عنك أغلال الخداع والنفاق لأرحت ضميرك من هذا البلاء المضغوط فيه ، فلا خوف عليك مما تحذره ، فهذا زمانك وأوانك

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ولما أن فرغ ونفث ما فى صدره من غل وعلة على هذه الوزارة المصرية قال « نتمنى أن لو منحنا الله سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم اذا كان فى الامكان إصلاحهم »

فيقال : اخسأ يا عدو الله ، ان الله لا يولى الفأر ملكا أبدا ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، فلطالما تأوهت وتحسرت وسال لعابك على أى رتبة أو لقب لتنال به شيئا من الرياسة ، ولكن خاب أملك وحبط عملك وساءت عقباك فغلك الله عنها بهذه الأغلال وقيدك بقيود أخرى فلم تصل الى شيء من ذلك ، وهو سبحانه العليم بذات الصدور

ثم انه أراد أن يهون على هذه الوزارة ما نسبه اليها بأن شارك معها جميع رجال الامة فقال :

« وما شكوناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع رجال الأمة » ، هكذا ادعى ، فجميع رجال الأمة من جنس وزارة التموين المصرية يعتقدون ما ذكره عنها فى المشيئة ، ويرون أن عمل السوء لا يؤدى الى نتيجة ضارة وأن عمل الخير لا يؤدى الى نتيجة سارة ، وانه ليس بين الأسباب ومسبباتها ترابط الى آخر الهذيان ، وهذا كله كذب على طوائف الأمة وكلامهم فى الاسباب وترابطها بمسبباتها معروف ، وليس فيهم من يقول ان العالم محكوم بالفوضى ،

بل جمـــاهير أهل العلم على أن بين الأسباب ومسبباتها ترابطا وثيقا ، وان السبب مربوط بنتيجة تحت المشيئة والقدرة ليس خارجا عنها ، فمن ادعى أن مشيئة الله قد قهرتهـا الأسباب ومسبباتها فقد جـاهر بالـكفر وعزل الله عن ملكه ، ومن نفى تأثير الأسباب فهو يكفر من يدعى الفوضى ويذهب اليها .

قال الامام العلامة ابن القيم فى (شفاء العليل) : انه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا ، وجعـل الأسباب محل حكمته فى أمره الدينى والشرعى وأمره الـكونى القدرى ومحل ملكه وتصرفه ، فانكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح فى العقول والفطر ومـكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء ، فقد جعل سبحانه مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحـدود والـكفارات والأوامر والنواهى والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جار عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر ، والقرآن مملوء من اثبات الأسباب كقوله تعالى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ، ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ ، ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ ، ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وسرد آيات كثيرة الى أن قال : وهـــذا أكثر من أن يستوعب ، وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء ، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لـكم فرقانا ﴾ وقوله ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ وكل موضع رتب فيه الحـكم عـلى ما قبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم ، وكل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب ، وكل موضع صرح فيه بان كذا جزاء لـكذا أفاد التسبب ، فان العلة الغائية علة للعلل الفـاعلية ، ولو تتبعنا ما يفيد إثبـات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ، ويكفى

شهادة الحس والعقل والفطر ، ولهذا قال من قال من اهل العلم : تكلم قوم فى إنكار الأسباب فأضحكوا ذوى العقول على عقولهم وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب ونعوت كماله وعلوّه على خلقه واستواءه على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لملئكته وعباده ، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فما أفادهم إلا تكذيب الله ورسله وتنزيهه عن كل كمال ووصفه بصفات المعدوم والمستحيل ، ونظير من نزه الله فى أفعاله وأن يقوم به فعل البتة وظن أنه ينصر بذلك حدوث العالم وكونه مخلوقا بعد أن لم يكن ، وقد أنكر أصل الفعل والخلق جملة . ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد إيهام الناس أن التوحيد لا يتم إلا بانكار الأسباب فاذا رأى العقلاء أنه لا يمكن إثبات توحيد الرب سبحانه إلا بابطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به ، وأنت لا تجد كتابا من الكتب أعظم إثباتا للاسباب من القرآن . ويالله العجب اذا كان الله خالق السبب والمسبب ، وهو الذى جعل هذا سببا لهذا ، والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته ، منقادة لحكمه ان شاء أن يبطل سببية الشىء أبطلها كما أبطل إحراق النار عن خليله ابراهيم وإغراق الماء على كليمه وقومه ، وان شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها ، وان شاء خلى بينها وبين اقتضائه لآثارها ، فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا ، فأى قدح يوجب ذلك فى التوحيد ، وأى شرك يترتب على ذلك بوجه من الوجوه ، ولكن ضعفاء العقول اذا سمعوا أن النار لا تحرق والماء لا يغرق والخبز لا يشبع والسيف لا يقطع ولا تأثير لشىء من ذلك البتة ولا هو سبب لهذا الأثر وليس فيه قوة ، وانما الخالق المختار يشاء حصول كل أثر من هذه الآثار عند ملاقاة كذا لكذا ، قالت هذا هو التوحيد وإفراد الرب بالخلق والتأثير ، ولم يدر هذا القائل أن هذا إساءة ظن بالتوحيد وتسليط لأعداء الرسل على ما جاءوا به كما تراه عيانا فى كتبهم ينفرون به الناس عن الايمان ، ولا ريب أن الصديق الجاهل قد يضر مالا

يضره العدو العاقل ، قال تعالى عن ذى القرنين ﴿ وآتيناه من كل شىء سببا ﴾
ثم ذكر تفسير الآية . انتهى ما نقله عنه الآلوسى فى غاية الامانى ص ٣٤١ ج ٢

وأصل بلاء هؤلاء المنافقين أنهم ظنوا أن الاقرار بالمشيئة العليا والقضاء والقدر ينافى تأثير الأسباب ، ولو عقلوا حقيقة الأمر لعلموا أن ما فروا منه قد وقعوا فيما هو شر منه ، فانهم فروا من الاقرار بالمشيئة ظانين أنه يلزم من ذلك القول بالجبر ونفى تأثير الاسباب والقوى الذى هو فى غاية الظهور ، وقد وقعوا فى القول بالجبر ونفى قوى الانسان واختياره من حيث جعلوا الانسان مسيرا بدافع قوى الطبيعة ونواميسها المختلفة اضطرارا ، ولهذا تجدهم دائما إذا ما حزبهم الامر فى معرفة سبب الشىء جعلوا ذلك من فلتات الطبيعة وقواها التى لا ترد[1] . وقد هدى الذين آمنوا لما اختلف هؤلاء فيه فاعتقدوا أن الله سبحانه خلق فى الانسان قوة وقدرة على العمل فهو قادر مختار بالقوة والقدرة التى خلقها الله فيه ولا ينافى هذا كون فعله واقعا بمشيئة الله تعالى وقضائه وقدره ، فانه هو وما فيه من قوة وقدرة وعمله ايضا مخلوق لله فلا يشاء شيئا والله لم يشأ فعله أبدا فلا يمكن أن يوقع فعلا قهرا على الله أو لا يشاؤه الله ، وهو سبحانه يفعل بالاسباب كما يأتى توضيح ذلك فى بحث القضاء والقدر والأسباب مفصلا

---

(١) من أعجب أمور هؤلاء أنهم اذا خفى عليهم سبب شىء جعلوا وقوعه إما مصادفة واما من فلتات الطبيعة ، مع ادعائهم أنهم اهل العلم ، ومعلوم أن اعتراف الانسان بالعجز كهذه الدعوى سواء

الكلام على المبحث السابع
القضاء والقدر

عنوانه فى أغلاله :

(كيف فهما وكيف يجب أن يفهما)
(وكيف قررا مصاير الشعوب)

يعنى بهما القضاء والقدر ، وحقيقة ما قرره فى هذا المبحث هو حاصل ما ذكره فى تلك المباحث السابقة من الحث على قطع العلائق الدينية المتصلة بين الله تعالى وبين عباده ، فلا مشيئة ولا إرادة ولا قدر ولا قضاء ، وإنما العالم محكوم بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل تقدم أو تأخر فهو راجع الى قوة استخدام الانسان لهذه القوى أو ضعفه ، فالعالم يجرى على هذا الناموس الذى ذكره ، ولا علاقة لمشيئة الله به ، فالدعاء والاستعانة وسائر العبادات لا أثر لها البتة ، لأنه إنما يكون لها أثر اذا كان العالم إنما يجرى بمشيئة الله وقدرته وارادته وتصرفه فيه بمقتضى نظامه الدينى الشرعى الذى من اتبعه تقدم ونجح لا محالة ، ومن خالفه عوقب ودمر ولا محالة ، وقد تقدم ادعاؤه أنه ليس لارادة الله ولا لقدره وقضائه وحبه وبغضه ورضاه وسخطه تدخل فى الأسباب ومسبباتها الخ وهذا عين الالحاد الذى لا شك فيه ، وتقدم قوله أيضا اننا لا نحتاج الى مهماز ندفع به الانسان ، بل مهمازه فيه وفى طبعه ، وهـــذا صريح فى أن الله لا يعين من استعان به ولا يؤيده ولا ينفع أحدا من خلقه فى هذه الدنيا بطاعته وامتثال أمره

وقد أسهب وأطنب كعادته فى اختراع البهت والفجور فى تشويه سمعة الاسلام ، فذكر أكاذيب ونسبها الى المسلمين وادعى انها هى اعتقادهم فى القضاء

والقدر ، ثم أخذ يرد عليها ، ثم علق عليها بأنها هى سبب التأخر ، فهو لا يكتفى بالكذب على المسلمين ثم الرد عليهم لذلك ، بل لا بد أن يجعل كل مصيبة انما جاءت بسبب اعتقادهم كون الله يدبر ملكه ويتصرف فيه . وهذا الملحد لما كان يعتقد الالحاد ولا يستطيع أن يجاهر به بدون خداع أضاف كل شر وكل بلاء فيما ينافيه من التوحيد ليجعل ذلك ذريعة الى كراهته ليحصل مضاده . وسيأتى الكلام مفصلا ان شاء الله تعالى عما ادعاه على المسلمين من اعتقاد الجبر ، وأنهم تركوا الأعمال اعتمادا على القضاء والقدر

قال المغرور :

« كيف فهما ، وكيف يجب أن يفهما ، وكيف قررا مصاير الشعوب »

والسعى للرزق-والأرزاقُ قد قسمت- بغىٌ . ألا إن بغى المرء يصرعه
(ابن زريق)

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
(أحدهم)

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
(منسوب لكعب بن زهير)

فيقال فى جوابه : ليفهم المسلمون هـــذا ، وليعرفوا أن ابن زريق و (أحدهم) وكعب بن زهير هم أئمتهم فى أصول الدين كعقيدة القضاء والقدر ، فان هذا المغرور جاء بأبياتهم هذه وجعلها قاعدة يعتمد عليها فيما نسبه اليهم فى اعتقاد القضاء والقدر اللذين هما من أصول الدين ، أمـــا عقائد المسلمين الكثيرة المعتمدة فانه ضرب عنها صفحا وتجاهلها وكذلك كتبهم الشهيرة تركها لانه يعلم أنها تكذبه فيما ادعاه ، فلهذا اضطر الى الاحتجاج بهذه الأبيات وجعلها هى عمدته ، حتى قال بعدها :

« هكذا فهموا القضاء والقدر ، وهكذا اعتقدوا فى أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وانما تحرك ولا تتصرف وانما يتصرف فيها ، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها ان تنتظر حتى تكون محلا وظرفا لأعمال الآخرين ، وهكذا فقدوا كل ثقة فى أنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية »

فيقال : قد رأيت أيها المنصف أنه صور المسلمين بهذه الصورة التى ذكرها معتمدا فى هذه الدعوى العريضة على تلك الأبيات الثلاثة التى نقلها عن ابن زريق وأحـدهم (أى مجهول) وكعب بن زهير فادعى على المسلمين بأنهم يعتقدون أنهم مخلوقات جامدة لا تتحرك وانما تحرك ، الى قوله : وانها محل وظرف لأعمال الآخرين . هكذا جاهر وكابر على أمة قد ملأت الكتب على اختلاف أصنافها بالحث على العلم النافع بأنواعه والعمل النافع بأنواعه ، وقد عملت بما علمته من دنياها فى كل ناحية وفى كل شأن

تجاهل هذا المغرور كل هذه المعارف وكل هذه الثورات وكل هـذه الأسواق المزدحمة بكل من انواع التجارات والصناعات وغيرها ، كل ذلك لم يعبأ به ولم يرفع به رأسا ، بل غمض عينيه ولم يفتحها الا أمام ثلاثة أبيات لثلاثة من الشعراء ، ولا نظن أن أكفر يهودى يحاول الطعن فى الاسلام يستطيع أن يصل الى هذا الحد فى البهت والعداوة للاسلام وأهله

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـرح بميت إيلام

ثم قال « ليس من الممكن أن يقدم الانسان على العمل إقداما يمكنه من الأخذ بناصيته ومن قهره لارادته حتى يعلم علما ليس بالظن أنه قادر عليه كقوله ، وأن له قدرة تتركز فى ذاته يفعل بها متى شاء ويترك اذا شاء »

فيقال : هذا رمى فى الهواء وتحصيل حاصل ، فان المسلمين كلهم يعتقدون أن الله تعالى جعل فى الانسان قدرة على فعله ، فكل أحد يأكل ويشرب ويلبس

وينام ويقوم ويقعد ويمشى ويتكلم ويعلم أن فيه قدرة على أفعاله ، وما رأينا أحدا ولا سمعنا عن أحد منهم أنه ترك الأكل والشرب والقيام والقعود وجميع أفعاله الاختيارية مدعيا أنه ليس فيه قدرة على الفعل والترك ، فما ذكره سفسطة وهذيان بارد وهراء لا يقوله إلا معاند

ثم قال « وحتى يعلم علما ليس بالظن أيضا أنه ليس هناك قوة خفية (١) مسلطة على منعه مكلفة بان تضع العقبات فى طريقه تتحكم فيه تحكم القوى الجاهل فى الضعيف العاجز دائبة على معاندته كلما حاول أن يقدم وكلما هم أن يحجم منتظرته أحيانا حتى يحرث ويزرع ، فاذا ما أوشك أن يجنى ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر بجناه ، وتركته محسورا متبورا »

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بل هو كلام ساقط مرذول خبيث لا محل له البتة ، يقصد من ورائه بغض مشيئة الله وإرادته وتصرفه فى خلقه ، وابطال رحمته واحسانه وعفوه وافضاله ، حيث صور المشيئة الربانية عدوة للانسان ، ولم يفرق بين الفاجر والتقى والمحسن والمسىء ، وقد كذب وافترى لعنه الله على مشيئة رب العالمين وأرحم الراحمين ، فهو يريد أن يجعل كل مصيبة أصابت الناس بمجرد إيمانهم بربهم تعالى ، ويريد أن يجعل المصائب فيما يرون — على ما يدعى — صادرة عن القدرة والمشيئة فقط ، ومعلوم أن الشر ليس الى الله تعالى بل الشر سببه الذنوب التى هى عدم امتثال أوامر الله تعالى والاعتصام بنوره وطاعته والتحصن بهما من كل سوء ، فكل مصيبة فى الدنيا يصاب بها الانسان ما هى إلا نتيجة بعده عن مهابط الرحمة والنور والهدى والبصائر ، وتفريطه فيما أمر به ، فالشر ليس الى الله ، والخير كله بيديه ،

---

(١) يعنى رب العالمين بمشيئته وإرادته ولو قال « وحتى يكفر بالقضاء » لكان أخصر وأريح لضميره

والمعاصى كلهـا سلوب ونقائص يصاب بها الانسان من حيث فساد فطرته وبعده عما يلائمها من مصادر الحياة والصحة التى هى طاعته لله تعالى واستمداد السعادة منه

يا بلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذى يعتقد هـذا الاعتقاد الخبيث الذى ذكرته ، وأنه هو اعتقاد القضاء والقدر ، فأشر لنا عن عقيدة واحدة معتبرة من عقائد المسلمين ذكرت هذا عنهم أو أشارت اليه ، وحاصل هـذه الدعوى الخبيثة أن بين الانسان وبين الله تعالى عداوة ، وأنه يتحكم فيه تحكم القوى الجاهل فى الضعيف العاجز مطلقا . قاتلك الله ، أين وجدت أنه تعالى قوى جاهل ، وأن قدرته دائبة على معاندة الانسان كلما أراد أن يعمل شيئا وقفت فى سبيله . . الخ . ألا قاتلك الله ما أعظم جرأتك على مقـام الربوبية العظيم . وهذا القول لا يمكن أن يصدر ممن يؤمن بالله أبدا ، وكل عاقل يعلم أن أكثر الناس قد عبثوا بدين ربهم وضربوا به عرض الحائط وقابلوه فى كل لحظة وكل فترة بالفجور والمعاصى والسب والقدح ، ثم هو يدعوهم الى التوبة والى الاستغفار ، ويتحبب اليهم بالنعم ، ويفيض عليهم الخيرات التى يعصونه بها ، ويمهلهم ، ويقيم عليها الحجة ، ويبين لهم الطريق ، وهو مع هذا غنى عنهم وعن عبادتهم ، ولو شاء لا نتقم منهم جميعا فى لحظة ، ولـكنه لا ينتقم إلا من بعد أن يقيم الحجة ، وقد قال تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ فهؤلاء قد ادعوا عليه أعظم الفرية حتى ساووا بينه وبين عبدين من عباده ، ثم هو يدعوهم الى التوبة والاستغفار ، وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله : يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » رواه البخارى . وكل عاقـل يعرف أنه لو طبقت نعم الله وآلاؤه

الموجودة اليوم على أعمال الناس ومعاصيهم وعبثهم بسياج الشرائع وإفسادها واتباع أهوائهم وفسقهم لتبين أن الناس انما عاشوا فى ظل عفو الله ورحمته بعباده ، وإلا فهم لا يستحقون إلا الهلاك والانتقام العاجل ، ان كل مؤمن يعتقد من صميم فؤاده أن ربه عليم حكيم رءوف رحيم ، وقد شمل حلمه من عانده وسبه وحرّف صفاته ، بل وأنكر وجوده ، فكيف بمن أطاعه واتبع رضاه ، وقد بين على لسان رسوله ﷺ أنه اذا تقرب اليه العبد شبرا تقرب ذراعا ، وان أتاه يمشى أتى اليه هرولة ، واذا استعان به أعانه ، وأنه مع المتقين ومع المحسنين ومع الصادقين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور ، وقال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴾ فكيف يضع العقبات فى سبيل من أحسن عملا ، واذا قدر أنه يبتلى بعض عباده بشىء من مصائب الدنيا فان هذا لا ينافى رحمته به ، فان نسبة ابتلائه فى جانب اللذة والفرح والحياة والسعادة التى قد حصلت له وستحصل له كلا شىء ، واذا ما نظر الى هذا البلاء ونسبته الى ما جاءه من العافية فى عمره كله فى نفسه وأعضائه وعيشه وغير ذلك صار هذا الابتلاء ضئيلا جدا ، فكيف اذا كانت عاقبة ذلك البلاء السعادة الكبرى التى لا يعادلها شىء ، ثم ان النقص أمر طبيعى لا بد للانسان منه ، وكونه يناله شىء من البلاء الطفيف فى قليل من ماله أو حاله أسهل من أن يناله فى دينه أو عقله أو نفسه ، وعقله ونفسه أهون من دينه ، وفى الابتلاء من ذل العبودية والافتقار ومعرفة قدر النعمة والعافية من الفوائد مالا يعد ولا يحصى لمن قدر ذلك وعرفه . ومعلوم أن أعظم الناس حنانا على ولده وأرحمهم وأشفقهم به لا بد أن يؤدبه ويربيه ليحصل بذلك ما فيه نفع له يتضاءل فى جانبه ضرر ذلك التأديب ، ولا يعد هذا عداوة ومضارة فكيف بالخالق العليم الحكيم الرءوف الرحيم ، ولولا الابتلاء والامتحان لم تظهر

أكثر مظاهر السعادة واللذات والفرح وامثال ذلك

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الاجساد بالعلل

فصل

ثم قال «وليس من المستطاع الجمع بين اعتقاد المرء فى نفسه أنه عاجز عجزا ذاتيا لازما عن إتيان العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال ، وبين نجاحه فى الحياة وإتيانه بالأعمال باهرة . وان الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه ، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه »

فيقال : كل هذا هراء منه ورمى فى الهواء ، فليس فى المؤمنين بل ولا فى عقلاء المتدينين من يعتقد أنه عاجز عجزاً ذاتيا لازما عن العمل الخ . وهل رأيت أو رأى أحد من الناس أن انسانا من المسلمين ترك الأكل والشرب وسائر الأعمال الضرورية من أجل اعتقاد القضاء والقدر حتى الغلاة فى القضاء والقدر كالجهمية لم يتركوا شيئا من الأعمال التى يستطيع أن يعملها غيرهم من جنسهم ، بل أكثر الناس الذين يعتقدون القضاء والقدر قد تجاوزوا الى فعل المعاصى ، بل هلك كثير منهم بسبب الحرص وتحمل ما فوق طاقته من الأعمال فالدعوى ساقطة لا محل لها البتة

وكثير من هؤلاء الذين يعملون فى الأمور الصناعية أو المادية أو الاقتصادية أو التجارية من المسلمين يعتقدون القضاء والقدر ، وربما تكون الدائرة الصناعية أو غيرها فيها جهمى واشعرى ومعتزلى وغيرهم ولا يوجد بينهم فرق فى العمل من ناحية الاعتقاد ، والمسلمون وان اعتقدوا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهم يعلمون أن الله قد أمر عباده بالعمل ، وجعل فيهم قوة وقدرة واختيارا على أعمالهم ، وأن كلا ميسر لما خلق له . ويكفى فى

بطلان هذه الدعوى الواقع والمشاهدة ، فان الناس كلهم استطاعوا أن يعملوا وفيهم من أهلك نفسه من الحرص على العمل مع اعتقادهم القضاء والقدر ، وهذا برهان قاطع على أنهم يرون أنفسهم غير عاجزين عن الأعمال التى فى طاقتهم اتيانها ، وأن الايمان بهما لا يقتضى اعتقاد العجز ، بل بالعكس فان المسلم يرى أن الله أمره بالعمل والاستعانة به ، ووعده بأن يعينه متى أخلص فى عمله وصدق فى معاملته ، ومعلوم أن الله لم يأمره بما هو عاجز عنه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وهذا واضح جلى ، فما ادعاه فهو غير وارد ، لأنه ادعاء فى غاية الفساد

وقوله « وان الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه الخ » فهذا كالذى قبله ، بل هو حجة عليه ، فان الحيوان يقتحم ما يرى أن فيه قدرة على اقتحامه وقد يأبى أن يقتحم ما فيه قدرة على اقتحامه لمانع أو عارض ، كالحيوانات الجافلة التى تتخيل الشىء ضارا وهو غير ضار وقد يقتحم الشىء الذى فيه تلفه وهلاكه لقصور نظره وشهوته ، وأما الأشياء الواضحة التى يرى الحيوان أنه عاجز عنها وأن فيها تلفه لو جازف فيها فانه لا يقتحمها كالتردى من شاهق ونحوه ، وبهذا يكون أحسن حالا من الملحد الذى يرى أن فى امكانه أن يصل الى كل شىء ويتغلب على كل شىء ، ففكر الحيوان لا يحتج به فى مثل هذا الأصل فان مسألة القضاء والقدر من أصول الدين التى مناطها التكليف الشرعى فلا محل لهذا الاستدلال ، وقد بينا أن المسلم يرى أن الاقدام على كل أمر ممكن غير ممنوع أصلا ما لم تكن مضرته راجحة على منفعته

فصل

قال « وأصول التربية الحديثة الموضوعة بارشاد النفس والاستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الايحاء الذاتى ، وعلى العمل به ، أى على إفهام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمله ، وعلى أنه يستطيع

أن ياتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل انه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الانسانية ، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب ، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له . وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال — اذا أحسن استخدام مواهبه وأحسن شحذها — لا يقف عند غاية ، ولا يعجز عن بلوغ نهاية . وعلى إفهامه أنه خلق معدًّا مهيئا لأن يتغلب على كل شيء ، وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه ، وأن يسمو حتى يلاحق الخيال ، لا بل حتى يسبق الخيال ، وعلى إفهامه الاستقلال فى العمل ، وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج اليه وحده دون عون[1] ودون رعاية ، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له ... وهذا ما يسمونه التربية الاستقلالية وهذه التربية هى اعظم تربية[2] والأمة التى تصل اليها وتقدر عليها تضحى أقوى أمة وأعظم أمة »

والجواب أن يقال : هذا الكلام الذى ذكره فى هذه الجملة هو من أعظم أصوله التى يدعو اليها ويدور عليها كلامه ، وقد تقدم كثير من معانيها فى المبحث الأول ، ومتى فهمها المؤمن وأحاط بها علما ثم فكر فيمن عمل بها وكيف كانت عاقبته وما حل به من الكوارث والنكبات التى لم يسبق لها نظير علم أنها أخبث تربية وأقذرها ، والأمة التى تأخذ بها لا بد أن تصبح امة

---

(١) هذا تصريح ظاهر بأنه غير محتاج الى اعانة الله ، فلا يقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ لأنه غير محتاج الى ذلك ، فيكون هذا القول ملهاة وتعويقا لا فائدة فيه

(٢) أى انها أعظم من تربية القرآن الذى أرشد الى الطلب من الله الاعانة والتوفيق ، وأن الانسان ضعيف وعاجز ما لم يوفقه الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ﴾

مضروبا عليها نطاق الذل والقهر والصغار والنكال ، ولا بد أن يريها الله قوتها واستكبارها وتمردها حتى يضعها تحت أعدى عدو لها ، وحقيقة هذه التربية الملعونة هى إفهام الانسان الكفر بقضاء الله وقدره ومشيئته العامـــة وانه مستغن عن الله غير محتاج الى اعانته ورعايته وتوفيقه وهدايته ، فلا حاجة لأن يعبده ويدعوه ويتضرع اليه ، وخليق بمن نشأ على هذه التربية أن تحل به اللعنة الماحقة والغضب العاجل ، وأن يضع الله أنفه الذى شمخ به عن طاعة ربه وخالقه تحت قدم أخبث خلقه ، ليعرّفه كيف قدرته الذاتية وكيف غناه عنه . وقد أرى الله سبحانه كثيرا ممن نشأوا على هذه التربية أو أكثرها كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . وهذه التربية الجنونية هى التى طاشت بإيطاليا وأمثالها حتى أدخلتهم المجازر والآلام والشقاء والعذاب الطويل

ثم الكلام على هذه التربية من وجوه :

أولا انها تربية مخالفة لتربية القرآن بالنص ، فان تربية القرآن تنص على وجوب الاعتماد على الله والتوكل عليه والاستعانة والاستغاثة به والتضرع اليه ، وأن العبد فقير اليه كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾ وفى الفاتحة المفروضة قراءتها فى الصلوات الخمس ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبد مفتقر فى كل لحظة الى استمرار الاستمداد من مصادر الكمال والنور والرحمة ، فقطع هذه الاستمدادات عنه وقذفه فى ظلمات الطبيعة يوجب له الهلاك لا محالة ، فقطب الدين وروح العبادة هو الاستمداد من الله الاعانة والتوفيق والهداية والانابة ، فاذا انقطع مدده من هذا فأى حياة تبقى له ، وحينئذ يقال له : ان أصل كلامنا معك فى هذا الموضوع فى بيان كون هذه التربية ليست من الدين ، وأنها مضادة له من كل وجه . وأما نفعها وضررها فذاك شىء آخر ، ولو أنك أدعيت أنها أولى من تربية القرآن بالتصريح الظاهر أو ادعيت أنها مخالفة للدين وهى نافعة مـــع ذلك مجاهرة

بدون خداع لكان لنا معك شأن آخر ، انما البلية أنك أخذت تربية أكفر موجود على وجه الأرض ودعوت اليها وذكرت أنك وفقت بين روح الدين وروح العمل وأنك أنت الذى فهمت الدين الصحيح ، فان كنت تدعى أن هذه التربية مطابقة لتربية القرآن كابرت جهارا وصار معنى هـذا أن الدول الملحدة التى أخذت بها اتبعت القرآن وأنها على الدين وأن المسلمين الذين استعانوا بالله وادعوا أنهم كانوا محتاجين اليه مخطئون فى ذلك ، وقد ادعيت قريبا فيما يأتى أن هذه الدول المتحاربة قد أخذتها واعتمدتها ونحن تركناها ، فتكون هى التى على الدين والمسلمون على خلافهم ، وان ادعيت أنها مخالفة لتربية القرآن ولكنها نافعة — وهذا هو فى الحقيقة مرادك — فقد اخترتها على تربية القرآن وعظمتها ودعوت اليها ورفضت تربية القرآن واستصغرتها وادعيت مع ذلك أنك مؤمن بالله واليوم الآخر فتكون بهذا زنديقا منافقا لا ريب فيك ، لانك كفرت بالله وكتبه باطنا ، ورااءيت بادعاء الايمان ظاهرا ، ثم لو تنزلنا معك وفرضنا جدلا أنها نفعت مرتين أو ثلاثا أو مرات كثيرة — وهى خلاف القرآن وخلاف الدين — فهل يسوغ لنا بصفتنا مسلمين أن نأخذ بها ونرفض ديننا . وما أشبه حال هـذا الملحد بمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ فهذا وأمثاله ممن أوتوا نصيبا من الكتاب وان كان قليلا بمعنى أنهم عرفوا دعوته وأقروا باتباعه ، ولكنهم فى الحقيقة استنكفوا واستكبروا عنه وعن العمل به ، وآمنوا بالتعاليم المضادة له التى هى من الجبت والطاغوت ، ولا خلاف بأن كل من آمن بما يخالف الدين فقد آمن بالجبت والطاغوت . ثم ان هذا الملحد ادعى بأن هـذه التربية الملعونة ونظائرها التى تتضمن الايمان بالجبت والطاغوت وأهلها أهدى من الذين آمنوا سبيلا

ويقال ثانيا : كل ذى عقل سليم يعلم أن هذه التربية تربية ساقطة مرذولة بالمرة شرعا وعقلا ، فانها مبنية على الطيش والجنون والمجازفة بدون حساب ، والتهور والتصديق بالمحال والمغالطة فى الحقائق . وكل من تنطبع فى نفسه هذه الأمور لا بد أن يكون مدفوعا الى مالا قدرة له عليه فلا بد أن يقع فى الحروب والمنازعات والاشتباكات ، وان كان لا قبل له بها ، وهذا يؤدى بلا ريب الى دماره .

ويقال ثالثا : قولك « انها قائمة على إفهام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمله » الى قولك « وعلى إفهامه أنه خلق معدا مهيئا لان يتغلب على كل شىء ، وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه » الى قولك « وهذه التربية أعظم تربية » كل هذا صريح واضح بأن الانسان قوى قادر على كل شىء وعلى أن يتغلب على كل شىء . فهذا مع كونه كفرا صريحا فهو هذيان وهراء ومكابرة للحس والضرورة ، ها هو ذا أنت قد ادعيت أنك المستحق لأن تكون أنت المقدم فى الأمر ، وأنك المستحق لأن تفرد بالطلب والرغبة ، وأن الدهر يؤمن على كل ما تقول ، وقد بلغت ما يرام من العلا ، فاذا كان الأمر كله كما قلت فأصلح عينك الأخرى فقط ، فان هذا أشد محنة فى الدنيا عليك لما بك من الاستكبار والغطرسة وحب المظاهر ، فقد وسمك بهذه السمة المضادة لما تدعيه ، وما كان ينبغى الك أن تدعى هذه الدعوى العريضة مع وضوح ذلك فيك ، وكيف ساغ لك أن تنتقد خصمك الأليوسف الدجوى فيما تقدم فيما نقلناه ، إذ قلت فيه « زعم أن البشر قادرون على كل شىء حتى على أن يقلبوه فرسا أو سبعا أو ما شاء من المخلوقات » . وهاك عبارته (١) : « على أن لنا أن نقول ان كل شىء مقدور للبشر بالدعاء فما لا يقدر عليه البشر بالذات

---

(١) أى الدجوى

يستطيعه بالدعاء » . فلما أن قال هذه الكلمات ألزمته بأن يدعى أن البشر قادرون على كل شيء ، ثم ألزمته هو بأنه قادر على كل شيء ، مع أنه لم يدع كدعواك ولم يدع لنفسه ما ادعيته لنفسك ، ثم سخرت منه واستهزأت به غاية السخرية والاستهزاء اذ قلت بعد سياق عبارته هذه : الله أكبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ، هل رأيتم أعجب من قوله ان البشر على كل شيء قادرون ، نعوذ بالله ، أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو يستطيع أن يقلب السماء أرضا والأرض سمـــاء ـ الى آخر هذيانك الطويل المرذول . فعلى هذا يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، يكون الدجوى قادرا على أن يقلبك فرسا أو خنزيرا ، لأن ذلك أحسن عندك وأطيب ، لأنك اخترت لنفسك منزلته فى النفور من الطيبات والسقوط على الخبائث . ثم مع ذلك ادعيت فى صحيفة ١١٦ من نبذتك (الفصل الحاسم) أن أسفه السفه هو ادعاء الانسان بأن البشر على كل شيء مقتدرون ، بل جعلت هذا سفها ليس فوقه سفه فقلت « أو ليس السفه الذى ليس فوقه سفه الادعاء بأن البشر على كل شيء مقتدرون » هذا كلامك بحروفه ، فقد شهدت على نفسك بأنك أسفه من كل سفيه ، وهكذا كان الواقع

ومن العجب أن كل خصلة انتقدها هذا الملحد على خصومه الأولين ورماهم بها قد اقترفها وزاد عليها كخصال الرافضة والجهمية وغيرهم ، وفى الحديث « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » وهذا مما يدل على أن أكثر مجادلاته فى تلك النبذ ليست مبنية على إخلاص دينى متين ، بل الغرض الأكبر منها تشفٍ ولاغراض نفسية ، ولهذا فانه قدح فى زكى مبارك قدحا طويلا فى مقدمته (١) ومدح فيها جستاف لوبون الذى قدح فى النبي ﷺ وادعى أن

---

(١) أى (كيف ذل المسلمون)

الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ووصفه بالبراعة الفائقة كما يظهر من كلامه (١) فلأى شىء تشدق بتعظيم شأن هذا الملحد وقدح فى زكى مبارك اذا كان قدحه فيه من أجل الدين ، وإنما هى سريرة هوى يظنها لا تعلم

ويقال رابعا : قولك « وعلى أنه يستطيع أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الانسانية الخ » قول فى غاية المعاندة للأديان ، فهو تكذيب صريح للمعجزات وأنها ليست بخوارق إلهية يختص الله بها من يشاء بمحض الإفضال لا بمحض الاكتساب والصناعات المقدورة للبشر ، ففى دعواه أن فى إمكان الناس أن يأتوا بمثلها ، إذ لا معجزات أمام قوتهم ، أى ففى قدرة الانسان أن يخترع من جنسها فلا تكون معجزة ، إذ المعجزة هى التى تعجز كل من أراد أن يأتى بمثلها من النوع الانسانى وتتحداه ، وهذا كله ادعاء مجرد وثرثرة فارغة ومكابرة للحس والضرورة ، فهذه معجزات الانبياء لا تعد ولا تحصى على اختلاف أجناسها ، وقد ترقى الناس فى العلوم الصناعية المادية والطبيعية وغيرها رقيا أخذ بعقلك حتى أذهبه ، فهل قدروا أن يأتوا بمثل واحدة منها من كل وجه ، بل هذا القرآن الكريم قد مضى على نزوله ما ينيف على ثلاثة عشر قرنا وقد عاداه ملايين الملايين من الخلق وحرص كثير منهم على الاتيان بمثله وفيهم من البراعة والبلاغه والفصاحه والتفوق فى كل فن من فنون الأدب مالا يمكن جحده فهل قدر واحد منهم على الإتيان بمثله فى هذه المدة الطويلة ثلاثة عشر قرنا ، مع أنه كلام ، وقد حاول كثير من الفصحاء أن يأتوا بشىء من مثله فارتبكوا ، وكان ما أتوا به ضحكة للعقول ، فرجعوا خاسئين

ويقال خامسا : قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه بالاستقراء التام أن كل أمة

---

(١) وسيأتى أيضا دعواه فيه أنه فيلسوف عظيم

اعتمدت هذه التربية وارتاضت عليها أصبحت فاشلة هابطة بل مدمرة تدميرا شنيعا ، فان أكثر الأمم من الأولين والآخرين الذين اعتدوا وحاربوا فهزموا ودمروا اذا سبرت أسباب اعتدائهم ثم هزيمتهم وتدميرهم وجدت أن ذلك من هذه التربية أو أكثرها ويكفى برهانا على ذلك أنها هى تربية ملاحدة أعداء الرسل من أولهم الى آخرهم ، فانهم ما كفروا واستكبروا عن عبادة الله وحده واتباع رسله إلا لأنهم اعتقدوا أنهم غير محتاجين الى الله فى الاعانة والرعاية ، وأن فى مواهبهم من القدرة والاستعداد ما يكفيهم عن اتباع الدين ، ولهذا قال قوم هود ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وقالوا متحدّين له ﴿ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾

ومعلوم أنهم ما قاتلوا الرسل إلا لأنهم يرون أن فيهم قدرة ذاتية فى إمكانها أن تتغلب على كل شىء حتى على القوة الدينية وتقضى عليها ، وأنها صالحة لذلك جديرة به ، وأن الأخلاق الدينية عندهم لا قيمة لها ، ولهذا قال إمامهم فرعون[1] ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وهذا صريح فى أنه كان يرى أن فى امكانه التغلب على موسى وقومه ، وأن القوة الدينية فى عينه ليست بالشىء الكبير الذى يهتم له ، فانه لما قال له الملأ على وجه الإغراء ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾ أجابهم بقوله ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ ونحوى هذا أننا سننتصر عليهم لا محالة ونفعل بهم ما شئنا من الاستخدام والتعذيب والتقتيل وغيره ، وأما تربية موسى فانها بعكس هذه التربية ، فانه قال لقومه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأخبرهم بأنهم محتاجون الى الله بالاعانة والتوفيق والنصر ، فعليهم

---

(١) أى لقومه متوعدا بنى إسرائيل

أن يستمسكوا بهذا الحبل الدينى ، وأن يستعينوا بالله ويدعوه ويتقوه ويصبروا فيجمعوا بين أصل السبب الدينى والمادى ، وقدم الدينى لأنه العمدة ، وأخبرهم أن هذا الملك الذى يفتخر به فرعون ليس هو له بل هو لله الذى يستعان به القادر على ما يريد ، فهو الذى يؤتيه من يشاء ، ومن أعظم الأسباب التى يعطى بها الانسان هى التقوى والاستعانة والدعاء وما يتضمن ذلك والصبر والثبات ، فلما بين لهم ذلك قالوا ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ وهذا يدل على شىء من ضعف اليقين فيهم لأنهم استبعدوا هلاك فرعون وتدمير قوته لانها هائلة عظيمة فى نظرهم وليس معهم من الأسباب المادية ما يكافئها ، وأعظم قوة معهم هى القوة الدينية ، فخافوا أن لا ينصروا عليه فيعودوا الى الحالة الأولى فتكون نكبتهم أعظم من أجل العداوة المتجددة ، فأقنعهم موسى بقوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وهذا تحقيق لكلامه الأول الذى فيه بيان السبب الذى به يستحصل النصر والعاقبة الحميدة ، وهذا فيه بيان وقوع هذا الشىء الذى يتمنونه من خالص أفئدتهم ، فوعدهم بالمآل المحقق ليطمئنوا بذلك ويوقنوا به . قال بعض العلماء (عسى) من الله واجب ، ولهذا وقع ما أخبر به موسى صلوات الله وسلامه عليه كما قال فى نفس سياق هذه القصة ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ فانظر بين هذه التربية العالية القوية الوثابة العظيمة تربية كليم الله عليه الصلاة والسلام ومن اتبعه وبين تلك التربية المرذولة الخبيثة الملعونة تربية فرعون ومن حذا حذوه من الملاحدة وفروخهم ، مع أن هذه التربية قد ضم اليها هذا الملحد خبثا الى خبثها الوبيل كمثل ما ذكره فى بحث المرأة والقدح فى المشيئة العليا ونحو ذلك ، فهى تربية كل ساقط مجنون مستهتر ، وقد أشرنا فى مقدمة الكتاب الى عظم تربية القرآن وأنها هى التربية

الاساسية الكبرى التى قامت عليها النهضات العلمية والعملية وأن الحضارة الراقية كلها إنما اكتسبت عناصرها الأصلية من تعاليمه القوية المقدسة، وان الامة التى تقوم قوتها على هذه التربية السامية لا يمكن بحال أن تغلب أو تسبق ما لم تغير أو يبدل فيها، ولا سيما فيما يناقضها ويعاكسها من كل وجه

فصل

قال « ونحن فى هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون فى تقوية هذا الايحاء أشد مباراة، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التى لا تغلب، وإقناعه أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف فى طريقه، ويحطم كل العقبات والمشكلات والازمات »

فيقال : هذا هو برهانه الساطع ودليله القاطع على صحة تلك التربية، فاعتبروا يا أولى الأبصار فى هذه الخبائث المتسلسلة، فهل يجب على المسلمين أن يبنوا عقائدهم على تربية دليلها فعل هؤلاء القادة الطغاة، مع أن منهم فريقا انتصر وفريقا اندحر، وعقيدتهم على ما يقول واحدة. لا ندرى كيف سوغ لهذا المغرور عقله بأن يدعو المسلمين الى أن يجعلوا قادة هؤلاء المتحاربين هم أئمتهم وقدوتهم فى هذه الأصول العظيمة التى هى أساس الدين [١] ويتركوا عقائد قادة الصحابة وخير القرون كالخلفاء الاربعة وسعد بن أبى وقاص وخالد ابن الوليد وغيرهم من الصحابة ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة الذين هدوا صروح الأمم العظيمة التى هى أكثر منهم عدة وعددا بتربية الدين والتقوى، بتربية القرآن والسنة، تلك التربية الجبارة القاهرة، فان كانت هذه التربية التى

---

(١) مع معرفتهم بعداوتهم لهم ولدينهم

دعا اليها قد عرف صحتها من انتصار البعض فقد عرف فسادهـــا من اندحار الفريق الآخر ، بخلاف تربية الصحابة وأتباعهم فانه لم يوجد فيها من جنس هذا الذى وجد فى هؤلاء ، هذا لو لم تكن هذه التربية مصادمة للدين وقدحا فى رب العالمين ، فكيف وهى الكفر الذى ليس وراءه كفر ، وبطلانها واضح شرعا وعقلا ، وإقناع الشعوب الراقية ليس هو كله بهذه الأمانى العاطلة التى هى أشبه شىء بالأحلام ، بل إقناعها بتشجيعها بالطرق الصحيحة فى الحث على العمل واستعمال الصبر والتروّى فى الأمور ، وأن يحسب لكل شىء حسابه بالتفكير وتقليب الرأى وغير ذلك من الطرق المعروفة ، وكل أحد يعلم أن الدعايات وطرق الاقناعات فى بعض هذه الشعوب المتحاربة كانت واحدة ، ومع ذلك اختلفت النتيجة اختلافا بعيدا متباينا ، فعلم أن إقناع الشعب بهذه الدعايات والتربية الزائفة لا يجدى شيئا ، لأن النتائج أدل دليل على وسائلها فى الصحة والفساد ، ولو كان لهذا الزائغ أدنى مسكة من عقل لم يخرج للمسلمين كتابا يسميه أغلالا ويتكلم فى أصول الدين كالقضاء والقدر ثم يستدل على صحة ما يقول بآراء قادة هذه الحرب من الطليان والألمان وغيرهم ويرفض حكم قادة الاسلام الصحيح الذين كانت لهم المواقف المشكورة ثم لا يملأ أحد منهم عينه ولا يراه شيئا يذكر فيعمى عن الشمس وينظر الى السهى ، وما كنا نعلم عن هذه التربية الخبيثة ثم الاستدلال عليها لولا أن هذا الغراب الأبقع اجتهد فى نشر هذه الخبائث المدفونة فى أماكنها القذرة فأبرزها بين المسلمين مفتخرا بها ومعارضا بها دينهم

ومن يكن الغراب له دليلا يمـــر به على جيف الكلاب

ثم قال « وقد كان رئيس الحكومة البريطانية فى هذه الحرب من أقدر الرجال وأعظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناعه نفسه وإقناع الشعوب البريطانية بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الاعداء »

فيقال : هذه الدعوى كالتى قبلها فى السقوط ، وهذه البصبصة لأن تكون قدحا أقرب من أن تكون مدحا ، فان هذا الرئيس لم يظفر بالنصر بمجرد هذا الاقناع ، ولو كان لاقناعه هذا أثر كبير لكان أثره فى الشعب الألمانى والايطالى أكبر ، فليس هتلر ولا موسولينى بدونه فى معرفة إلقاء هـذا الاقناع على شعبيهما ، بل ربما كان هتلر أبرع وشعبه له أطوع زيادة على ذلك ، ولهذا زج بهم فى هذا التيار الملتطم مستمسكا بخيوط هذه العقيدة الواهية التى لقى وبالها وتبين مآلها ، ولو سلم من هذه العقيدة وحسب لكل شىء حسابه لكان أولى به ، ولكن شيطان هذه النزعة نزغ به كما نزغ بايطاليا وغيرها فآلوا الى نتيجة ما اعتقدوه فى هذه التربية المدخولة

والحاصل أن الايحاء الذى يلقيه أكثر هؤلاء القادة انما يقصد به التشجيع والاطمئنان ، وإلا فهم يعلمون أن أثره ليس بكبير بالنسبة الى الأمور الحربية الكبرى ، ونحن لا ننكر أثر التشجيع والحث على الصبر والثبات وحسن العاقبة ، وانما ننكر ما يدعيه من هذه التربية الخبيثة والاستدلال عليها بهذا الايحاء وتعليق النصر به ، فان هذا ادعاء فى غاية الفساد

فصل

قال « ولا شك أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم ، وعبأت قواها الضئيلة المحدودة لهذه الحرب بايمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجابا ودهشا وفرقا ، وانها إنما وقفت — وقد ضربت عليها الحلقة باحكام وتضييق من كل جانب تناضل مواد بشرية وغير بشرية تفوق موادها البشرية وغيرها عشرات المرات نضالا هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال انه انتحار الاحرار الأبطال — بهذه الثقة نفسها وبهذا الايمان نفسه »

فيقال هذا المغرور يريد أن يمدح كل من لم يؤمن بالدين سواء كان مهزوما أو منصورا ، أما المسلمون من أولهم الى آخرهم فلم يثن عليهم فى شىء قط ، مع ما جرى لهم من الصبر والثبات ومكافحة المصائب العظيمة التى لا تطاق والنصر الذى لم يسبق له نظير ، فهذا كله ليس بشىء فى عينه ، أما هذه الدول الأخرى فانه أثنى على كل واحدة منها سواء كانت ظافرة أو خاسرة ، ولهذا أثنى على ألمانيا فى طيشها ومجازفتها هذه ، كما أثنى على اليابان فى آخر الكتاب أيضا ، ثم هو مع ثنائه عليها ادعى أن قوتها محدودة ضئيلة ، فيقال له : اذا كانت قواها محدودة ضئيلة وأنها فى دخولها هذه الحرب انما تحارب العالم كله فهل تكون محمودة فى هذه المخاطرة ويثنى عليها بهذا الفعل ذو دين وفكرة وعقل ، مع أنها ليست مضطرة الى دخول الحرب بل دخلتها مختارة ذلك ، أفليس الذى دفعها الى هذا كله هو إيمانها بأصل هذه التربية الطائشة بأن فى إمكانها أن تتغلب على كل شىء ، وأن قدرتها لا حدود لها ولا قيود ، وأنها غير محتاجة الى عون ورعاية وأن قدرتها صالحة وجديرة لأن تملك بها الدنيا ، فايمانها بهذه الثقة هو الذى أوثق فى عنقها حبلا من مسد ربطت به نفسها وجعلته فى يد غيرها ، والا فاذا كانت تفهم أنها انما تحارب العالم كله أو أكثره وأن قوتها محدودة ضئيلة بالنسبة الى من ستحاربه فكيف تدخل هذا المأزق الحرج . لا شك أن عمى هذه الثقة وشيطان هذه التربية هو الذى صدها عن السبيل ، ودفعها الى هذا العذاب الوبيل ، حتى جعلت عدوها يضرب عليها الحلقة بتضييق ليس له مثيل ، ولو أنها ثبتت على مناعتها وجدت واجتهدت فى مضاعفة التسليح الذى فاقت به غيرها ووازنت بين قواها وقوى غيرها وصبرت سنوات قليلة حتى تأتى لها الفرصة لكان من المحتمل أن تدرك مطلوبها ولم تدمر نفسها هذا التدمير الذى جعلها فى قيود الأعداء بسبب هذه التربية الفاسدة ، ولا شك ان المجازفة والتهور يفسدان البطولة والشجاعة ويذهبان بثمرتها المقصودة ولا يحصل بهما إلا الخيبة والخسران كما قيل :

الرأى قبـل شجاعـة الشجعان هو أول وهى المحـــل الثانى

وكذلك القول فى إيطاليا وغيرها كالقول فى ألمانيا ، لكن إيطاليا أقرب الى هذه التربية ولهذا كانت أحط درجة فى أخلاقها ، وكل أمة تنشأ على هـذه التربية فلا بد أن تكون أمة طائشة مجازفة بقوتها بدون حساب فلا بد أن تصبح ذليلة خاسرة ، وكل أمـة آمنت بهذه التربية قد سقطت ولم ينفعها هـذا الايمان لما رأت بأس الله الذى صبه عليها بأيدى أخدانها وأعوانها على الكفر وأعدائها على المادة ، ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾

ثم أخذ فى مدح هذه التربية مكررا هذا المعنى . وقد عرفت ما فيه ، وذكر أن المسلمين يرون أنهم لا قدرة لهم عـلى الفعل والعمل ، وأنهم عاجزون ، وأنهم محل لأعمال الآخرين ، وقد عرفت أن هذا كله كذب وفجور وبهتان لا يخفى على عاقل

فصل

ثم شرع بعد هذا ينقل عن المسلمين اعتقادهم فى القضاء والقـدر . فنقل عنهم ما شاءت شهوته من الكذب والفجور ، وضرب صفحا عن عقـائدهم المعتبرة المشهورة وكتبهم المعتمدة التى لا تعد ولا تحصى . ولقد كان من الواجب المفروض عليه أن ينقل كلامهم الذى يعتمدونه فى هـذا الأصل من عقائدهم وكتبهم المعمول بها ، ولـكنه يعلم أنه لو فعل هذا لم تساعده النقول على ما يشاء ويشتهى ، بل تكذبه تكـذيبا صريحا وتصادم دعايته ولا يمكن أن يستقيم له قدح فى هذا الأصل العظيم ، فلهذا حاد عنه ولجأ الى الحرفة اليهودية وهى البهت والفجور والتحريف المنكر .

فقال : « ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين ، زاعمين لهم أنها مما يوجبه الايمان بهما ؟ يقولون ان معنى القضاء والقدر أشياء : أولها أن الله سبحانه سجل على الانسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطا لا انفكاك منه ، بحيث لا يجدى معه الارشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج »

قلت : هذا الذى ادّعاه على المسلمين فى تفسير القضاء والقدر كذب وفجور ظاهر ، فالمسلمون لا يدّعون هـذا ، فلا يقولون فى معناهما ان الله ربط الانسان هذا الربط الذى لا يجدى معه الارشاد والنصح ومحاولة الخروج ، ففى أى كتاب وجد هذا التفسير عنهم على هـذه الصورة التى ادعاهـا ؟ ويكفى فى تكذيبه أنهم يعلمون أن الله أنزل الكتب وأرسل الرسل لهداية الخلق وان الارشاد والنصح اللذين اشتملا عليهما قد أثرا فى كثير من الخلق حتى خرجوا من الظلمات الى النور ، فهذه الدعوى التى ذكرها عنهم بهذه الصفة كذب وزور لا ريب فيـه ، ولو كانوا يعتقدون ذلك لم يوجبوا الارشاد والنصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعقوبات والتعزيرات بأنواعها ، وهـذا كله معروف بالمشاهدة والحس ، فانكاره مكابرة ، وكونه سبحانه علم ما الخلق عاملون وكتب ذلك لا يدل على أنه ربطهم ، فليس العلم بالشىء الذى سيقع ربطا له ، فالربط شىء والعلم به شىء آخر ، فاذا علم الانسان بأمور ستقع من أقوام فلا يقال انه ربط أولئك الأقوام بأفعالهم ربطا لا محيص لهم عنه

ثم قال « ثانيها ـ أن الله أوجد فى الانسان الذى يعمل الشر الاستعداد للشر فى أصل خلقته وطبيعته دون الذى يعمل الخير ، فانه تعالى خلق فيـه الاستعداد للخير دون الشر ، فقد فرق بينهما فى أصل الخلقة والطبيعة . فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعدا له ، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيرا أو بذر الشعير أن يخرج قمحا »

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور كالذى قبله ، فما حكاه هنا على هذه الصورة على المسلمين ليس بصحيح ، ففى أى عقيدة معتمدة وجده ، فان حاصل هذه الدعوى أنهم يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق من عنصرين متضادين لا يقبل أحدهما ما يقبله الثانى حين مثل ذلك بالقمح والشعير ، فالقمح لا يقبل طبيعة الشعير فلا ينبت شعيرا ، كما لا ينبت الشعير قمحا . وهذا كله من الكذب البارد ، فان المسلمين يعلمون أن الله تعالى خلق بنى آدم من نفس واحدة وخلقهم حنفاء قابلين بفطرتهم لتعاليم الخير ، ولكن منهم من تفسد فطرته بسبب إعراض صاحبها عما يغذيها من تعاليم الدين ، ومنهم من تزكو فطرته كما تقدم الكلام على حديث الفطرة ، وهم يعلمون أن الله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، فيخرج الكافر من المسلم والمسلم من الكافر ، وقد يسلم الكافر فيكون من المتقين ، وقد يرتد المسلم وينسلخ من الدين فيكون من الكافرين أو الملحدين ، وأما القمح والشعير فليس كذلك ، فلا يخرج القمح إلا قمحا ولا الشعير إلا شعيرا ولا ينقلب أحدهما الى طبيعة الثانى ، وكونهم يقولون ان فيهم الكافر والمسلم لا يقتضى أن يكونوا على ما ذكره ، فان القمح قد يخرج فيه فاسد بالمرة ويخرج منه ما هو طيب صحيح وما هو متوسط ، وكذلك الشعير ، ولكن لا ينتقل أحدهما الى طبع الآخر ، فالدعوى كذب ظاهر لا ريب فيه

ثم قال « ثالثها - أن الله قد أرصد بطرق خفية غامضة فى سبيل كل انسان ما يوجهه بالقوة الى الأعمال التى يعملها ، أو التى تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح ، بأسباب خفية [١] وبدون أسباب ، فالجبان العاجز الضعيف مسوق

---

(١) كثيرا ما يعبر عن المشيئة العليا بالأسباب الخفية إذا أراد أن يقدح فيها ويشوهها ، فليلاحظ ذلك

الى جبنه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها ، والشجاع القوى الجرىء مسوق أيضا بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة ، وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق »

فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله بهت وفجور ليس له نصيب من الصحة ، فمن هو الذى ادعى هذا على هذه الصفة ، بل المسلمون يقولون ان الله خلق فى العبد قدرة واختيارا وارادة بها يفعل ويترك ، فان شاء فعل وان شاء ترك ، وهو حرّ فى فعله وتركه غير مجبور ، كما سيأتى كلامهم بهذا النص ، ولكن نحن اذا اخترنا التعبير الصحيح قلنا : هذا هو عين ما تدعيه أنت فى قدرة الانسان وفعله ، فانك قلت فيما تقدم « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها ـ أى تحكم الكائنات الحية ـ إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة ، فلا غرابة اذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد » هذا كلامك بحروفه ، وهو صريح فى أن النواميس المولودة من المادة الجامدة هى التى تحكم الانسان وغيره من الكائنات الحية ، فهو مربوط ربطا قويا وثيقا بتحكمها لا خلاص له منه أبدا ، فهو إنما يجرى ويعمل ويفعل بحسب ما توجهه اليه قواها الخفية ، لأنها حاكمته حكما طبيعيا فلا بد أن يكون سيره منسجما مع توجيهها القاسر بالضرورة الطبيعية ، فهو يعمل مضطرا مقسورا على فعله ، فهذا الذى ادعيته بهتانا وزورا على المسلمين هو مقتضى نظريتك واعتقادك ودعايتك ، فكيف ترميهم بدائك وتصفهم بعماك ، فعلى دعواك هذه فى نواميس الطبيعة لا بد أن يكون صاحب الشر مربوطا بقوى شريرة ، وصاحب الخير كذلك ، بدون اختيار ، بل بالاضطرار الذى لا حيلة له فى دفعه

ثم قال « رابعها ـ أن الانسان الذى يريد الخير أو الشر لا يريد شيئا منهما بنفسه ، وانما الله الغلاب هو الذى يخلق إحدى الارادتين فيه لأسباب غير

معلومة (١) أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق ! فاذا خلق هذه الارادة الشريرة فى نفس انسان لم يستطع أن يعمل غير الشر ، فيندفع الى الأعمال الشريرة بهذه الارادة ، فيصير شريرا ولا بد »

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بهت وزور لا صحة له البتة كما يدعى . وانظر الى السر الخبيث فى حذفه مقابل ما ادعاه فى الضلال ، فان المقام يقتضى أن يقول « واذا أراد أن يهدى بعض الناس فيدخلهم الجنة برحمته خلق هذه الارادة الخيرية » الى آخره ، فلم يذكر هذا ، بل اقتصر على قسم الضلال تشويها لسمعة القضاء ، مع أن ما ادعاه فى هذه الارادة على هذا الوجه كذب وفجور فان المسلمين مجمعون على أن الشر ليس الى الله بل الشر طبيعى سلبى ، معناه عدم وجود أثر الخير ، فالانسان من حيث طبعه ووجوده غير مهتد وغير مستحصل على خير لولا ما خلق الله فيه من بذور الفطرة الطيبة التى هى موضع قبول الخير ، فمتى أعرض ولم يقبل ما به تقوى فطرته وتستنير من مصادر الكمال والقوة والنور كان شريرا ، فلا يمكن أن يريد بطبعه الخير ويريد الله منه الشر أبدا ، بل اذا قدر الله له الاضلال فلا بد أن يكون هو مريدا الضلال (٢) فلا تكون إرادة العبد متضادة مع ارادة الله بأن يمنعه الهداية اذا أرادها أبدا بل هو برحمته يعين العبد على الهداية والإنابة والتوفيق ، ويفرح بتوبة التائب كما وردت بذلك النصوص

وانظر الى فجور هذا الملحد فى ادعائه بأنهم يقولون انه يريد أن يضل

---

(١) بدل قولهم « لحكمة لا يعلمها إلا هو » بقوله « لأسباب غير معلومة » قاتله الله ما أحرصه على غمط الحقائق

(٢) كما حققه شيخ الاسلام ابن تيمية فى مواضع ، راجع ص ٤٤ العقل والنقل

بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد انه خالق قادر ، ألا قبحك الله ما أحرصك على الفجور واختلاق الزور ، فيابلعام زمانه من هو الذى قال ان الله يضل بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد كونه خالقا قادرا ، فانه لو كان هذا هو السبب لكان الناس فى الحكم سواء فان نسبة الخلق الى الخالقية والارادة سواء، والله سبحانه قد بين بأوضح بيان أن دخول النار سببه المعاصى والكفر لا بسبب القدرة والخلق ، فلم عدلت عن كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم فى تعليل ذلك وذهبت تخترع فجورا من رأسك لم تسبق اليه ثم تحمله على المسلمين حرصا على إشانة دينهم الذى أنعم الله عليهم به وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون

ثم قال « خامسها ـ أن الانسان ليس عاملا ولا فاعلا فى الحقيقة ، وليس له القدرة على العمل بل على شىء ما ، والانسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلا لأعمال الخلاق ، فكل الأعمال الخيرة والشريرة التى يعملها الانسان فى الظاهر أو تعمل فيه انما هى أعمال الله وصنعه وحده ، والعبد ليس له فيها الا المحلية ، أى كونه محلا لها »

فيقال : قبحك الله وقبح من يغتر بكلامك ما أرخص الكذب عندك وأشد عداوتك للدين وأهله . فياعدو الله من أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن الانسان ليس إلا محلا وظرفا لأفعال الله ، وأن الأعمال التى تعمل فى العبد ما هى الا أعمال الله وصنعه وحده (١) ففى أى عقيدة معتبرة وجدت هذا ، ولا عجب فان الزنديق المرتد المملوء قلبه حقدا على الاسلام وأهله لا بد أن يقول هذا ونحوه ، قال تعالى فى المنافقين ﴿هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله

---

(١) فاذن كل فجور يعمله الانسان أو يعمل فيه فهم ينسبونه اليه تعالى ، قاتلك الله ما أعظم عداءك للاسلام

أنى يؤفكون ﴾ وليس فى المسلمين من يشك فى أن من ادعى أن كل أفعال تعمل فى الانسان فهى فعل الله ليس للعبد فيها صنع وانما هو ظرف لها أنه كافر خارج من الدين ، فكيف يكون هذا هو اعتقادهم ، وهم لا يشكون فى كفر من اعتقده ، وسيأتى كلام شيخ الاسلام ونقله الاجماع على أن العبد فاعل حقيقة باختياره ، وسيأتى قول أئمة الأشاعرة كصاحب العقائد النسفية فانه ذكر فيها أن العبد فاعل مختار حيث قال « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها » الخ

ثم الطامة الأخرى قوله بعد هذا « وقد زعموا أن من اعتقد أن الانسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو المشرك » انتهى ، فهكذا تصنع الزندقة والعداوة المنكرة للاسلام وأهله بصاحبها ، وكل عاقل يعلم أن جماهير أهل السنة على أن الانسان فاعل حقيقة كما نقله شيخ الاسلام فى (العقيدة الواسطية) عن أهل السنة والجماعة حيث قال ص٢٣ « والعباد فاعلون حقيقة » هذا لفظه وسيأتى كلامه كله ونقله الامام ابن القيم فى (شفاء العليل) عن أهل السنة ، ونقله شارح الطحاوية وغيرهم ، وأما كون الانسان محل لاعمال الله وظرف لها فهذا لم يقل به أحد من المسلمين ، بل كلهم يكفرون من يدعى ذلك ، وانما ينسب القول بالجبر الى الجهمية وقد كفرهم أئمة السلف كما نقله شيخ الاسلام ، ونقل الاجماع على كفرهم الامام أحمد فى رسالته لمسدد[1] ونقله الامام الدارمى فى الرد على المريسى ، ونقله عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة حتى نقل عن الحسن بن عيسى أنه قال : ومن يشك فى كفر الجهمية ، وتكفير الجهمية أمر مشهور . فكيف ينقل هذا الملحد عن المسلمين أنهم يكفرون من يقول ان العبد فاعل مع أنهم يكفرون من يقول بالجبر المحض والأئمة

---

(١) مختصر طبقات الحنابلة ، وهى أيضا فى المدخل

نقلوا الاجماع على أن العبد فاعل وفى القرآن والسنة من إسناد الافعال الى الانسان مالا يعد ولا يحصى من النصوص ، وبعض الأشعرية الذين يعدونهم مغالين فى القدر لا يقولون ان الانسان محل وظرف لأفعال الله بل يقولون ان للعبد كسبا حقيقة ويمنعون فى إطلاق كونه محلا أو ظرفا ، بل يعدون ذلك مروقا من الدين ، ولهذا قال النسفى كما مر « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها » فلينظر العاقل إلى كلام هذا الملحد والى أقوال أئمة الاسلام ليعرف أن هذا الملحد لا يبالى بما يفتريه على الدين وأهله من بهت وسب وبغى

ثم قال « وقد كفر فريق منهم المعتزلة ، وقال المعتدلون منهم انهم ضلال فقط ، لذهابهم الى أن الانسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا . . . وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان بالقدرية اى المعطين للانسان قدرة ذاتية »

فيقال : كأنه يخاطب بهذا الهذيان أمة أجنبية عن معرفة دين الاسلام ومذاهب أهله ، ولهذا قال وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان القدرية أى المعطين للانسان قدرة ذاتية . فمن هو الذى توجه اليه هـذا القول المزور المكذوب الذى لا يخفى فساده على أدنى مسلم، وكيف يكفر المسلمون المعتزلة بقولهم ان فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا ، وهم يجمعون على هـذا كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية فى (العقيدة الواسطية) وغيرها ، والذين كفروا المعتزلة لم يكفروهم من أجل نسبة الفعل اليهم حقيقة ، وانما كفروهم لأنهم جعلوا أفعال العباد غير مخلوقة لله أى خارجة عن مخلوقاته ، وبعضهم أنكر كونه يعلمها وأنه لا يهدى ضالا ولا يقدر على ذلك مع تحريفهم للصفات كانكار العلو على العرش وانكار السمع والبصر وادعائهم بأن كلامه تعالى مخلوق ونحو ذلك ، وأما اعتقاد أن العبد فاعل حقيقة لا مجازا وله قدرة على فعله حقيقة فهـذا هو قول أهل السنة ، لكن المعتزلة يدعون أنه فاعل بدون المشيئة ،

وحقيقة قولهم أنه يعصى قهرا عنه ، فهـــذا هو الذى أنكره المسلمون عليهم لا نسبة الفعل الى العبد حقيقة ، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور أسند أفعال العباد الى الطبيعة ونواميسها ، وصرح بأنها هى التى تحكم العالم ، فعلى هذا فالعبد ليس فاعلا لأفعاله حقيقة بل مجبور عليها بحكم قوانين الطبيعة ، فهى التى تدفعه اضطرارا الى الفعل ، وهو محل وظرف لأفعالها وأحكامها ، وليس له اختيار وخروج عن مقتضى هـــذه النواميس الطبيعية . وقد صرح بأن من حاول الخروج عنها هلك ولا محالة ولن ينفعه أن يقول انه مسلم ، ومعلوم أن الطبيعة ليس لها عقل ولا عدل ولا رحمـة ولا حكمة ، بل عملهـا تفاعل اضطرارى قسرى ، فما الظن بمن يتصرف فيه من هذه حقيقته ، فصار هذا الملحد أكفر من غلاة الجهمية وأكفر من المشركين كلهم القائلين بالجبر ، لأن أولئك الذين ادعوا الجبر جعلوا الله هو الفاعل ، وأما هذا فقد جعل الطبيعة هى الفـاعلة وهى التى تجبر الناس على أفعالهم ، وأما رب العالمين فهو عنده معزول عزلا تاما عن ملكه ، ولهذا لم يسند اليه شيئا من التصرف فى هذا الكون فى كل أغلاله ، غله الله بها الى يوم يلقاه

ثم قال « ومن قول إحـدى العقائد المنظومة المدروسة فى الأزهر الذى يملى عقائده على أربعمائة مليون مسلم ـ أو الذى يحاول هذا الاملاء ويسلمه له الملايين ـ من قول إحدى هذه العقائد فى تجريد الانسان من قواه :

ومن يقل بالقوة المودعة   فذاك بـدعى فـــلا تلتفت

أى من يقل بأن فى الانسان قوة على أعمـاله أودعها الله فيه فهو مبتدع فى الاسلام لا يلتفت اليه ، هذا هو فهمهم للقضاء والقدر ، وهذه هى منزلة الانسان لديهم »

فيقال : كل هذه الدعاوى فى سائر هذه الأقسام كذب وفجور لا يخفى على من له أدنى إلمام بمعرفة مذاهب المسلمين فى هـذه المسألة ، وحاصل ما ذكره

عنهم أنهم يقولون بالجبر بل أشنع من الجبر، حيث جعلهم يدّعون أن الانسان كالظرف والمحل لعمل غيره ، وانما طوّل هذه الاقاويل ونوّعها ليوهم أن المسألة فيها اضطراب واختلاف ونزاع فيجب طرحه ، ومن عمق خبثه وحبه لكتم الحق وغمط الحقيقة أنه ذكر قول غلاة الجبرية من الجهمية وقول المعتزلة فقط ، وتجاهل ما عليه جماهير المسلمين الذين كان يدعى سابقا أنهم أهل العلم والدراية وأهل البصيرة فى الدين وأنهم أتباع السلف ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الصريح الواضح المدون فى كتبهم المقررة قراءته فى كثير من أنحاء المسلمين ، فترك هذا الواضح الجلى وضرب عنه صفحا ، وهو أن العبد فاعل فعله حقيقة لا مجازا وله قدرة وإرادة واختيار على الفعل والترك ، ولكنه لا يفعل شيئا قهرا على الله ، بل باذنه . هذا المذهب أعرض عنه كما يأتى كلام أئمة المسلمين فى تقريره ، ولو أن هذا الملحد لم يعرف كتب أهل السنة ويقرأ كثيرا منها لكان له شيء من العذر ، ولكنه لا يريد بيان الحق ، وإنما يريد اتباع هواه ، فلهذا عمد الى أشنع قول قيل فى هذه المسألة فادعى أن هذا هو اعتقاد المسلمين فى هذه المسألة الاصولية ليشوه سمعتها بقصد رفضها ، لأن المقصد الحقيقى هو الرفض فتوسل اليه بالتشويه ، فلو ذكر الحق لم يستقم له ما يريد ، ولهذا انحدر سريعا الى الاستشهاد بهذا البيت واستدل به على الأقوال التى ذكرها بأن الانسان ظرف ومحل لأعمال غيره ، وأنه ليس بفاعل . ومعلوم أن البيت ليس فيه أدنى شاهد لهذه الدعوى ، وليس فى البيت ما يدل على أن من ادعى أن العبد فاعل حقيقة فهو كافر كما زعم ، غاية ما فيه أن صاحبه أنكر أن تكون الأشياء فاعلة بطبعها لذاتها أو بقوة فيها ، ولم يتعرض للانسان بل كلامه فى القوى التى فى الأشياء ، والا فالناظم يعلم أن للانسان اختياراً فى أفعاله ، فقد أثبت أن للانسان كسبا وذكر فى المنظومة نفسها كثيرا من الواجبات والمحرمات ونهى وأمر ، ولو كان يرى أن الانسان كالظرف ولا قدرة له لم يؤلف العقيدة ويدعو اليها ، فان الظروف والجمادات

والاشجار والحيوانات العجم لا تخاطب بهذه التكاليف ، وما ذاك إلا لأنها لا قدرة لها على هذه الأفعال وفهمها ، فهذا البيت ليس فيه دليل على ما ادعاه بوجه من الوجوه ، هذا لو سلم أن العمل عليه وأن الملايين الذين ذكرهم يعتقدونه ، وإلا فأدنى عاقل يعلم أن هذه العقيدة فضلا عن هذا البيت من جنس غيرها من العقائد التى يدرسها بعض الطوائف المنتسبة الى السنة وان كان فيها انحراف عن طريقة السلف بل كثير من العلماء المحققين كالحنابلة وغيرهم من أتباع السلف يعلمون أن هذه العقيدة فيها بدع لا يصح الاعتماد عليها ، وجماهير أهل السنة مخالفون لكثير منها ، فان الأسباب عندهم تؤثر بالقوة المودعة فيها ، والعبد فاعل مؤثر بالقوة المودعة فيه كما صرح بذلك الامام ابن القيم وغيره كما يأتى (١) وهذه العقيدة وأمثالها هى من أسباب ضلال بعض المتطرفين الذين يقرؤنها هى وأمثالها فيظنون أنها هى عقيدة المسلمين وأن أصل الاسلام هو ما اشتملت عليه ، فاذا قرأ هؤلاء مثل انكار الجهة لقصد إنكار العلو فوق العرش وانكار تأثير القوى ظن أن هذا دين الاسلام ولم يعلم أن الحق عكس ما ادعاه صاحب المنظومة ، حتى ان صاحب العقائد النسفية وهو من أصحاب صاحب هذه المنظومة صرح بأن للعباد أفعالا اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، فالالتجاء الى هذا البيت فى الاحتجاج دليل على زيغ هذا الملحد واتباعه لهواه ، ودعواه أن هذا البيت يدرس فى الأزهر لا يدل على أن المسلمين يعملون بمقتضاه ، فان الأزهر يدرس فيه عقائد كثيرة ، حتى أن هذا الزائغ يدعى أن عقائد الرافضة والزيدية تدرس فيه ، فليس وجود عقيدة واحدة تدرس فى جانب من جوانب الأزهر أحيانا دليلا على أنها هى عمدة المسلمين ، واذا كان الأزهر يريد إملاء عقائده على ملايين المسلمين كما

---

(١) وتقدم أيضا تصريحه بذلك آخر البحث السابق

يدعى فليس إملاؤه هو هذه العقيدة ، بل هو يملى عليهم عقائد كثيرة (١) وبعض الأقطار الاسلامية لا يجيزون إملاء هذا البيت ولا القول به لأنه باطل بلا شك مع كونه لا يدل على ما ادعاه البتة

ثم أخذ فى الاستهزاء بالأشعرية والسخرية بهم مضيفا اليهم ما لم يقولوا به فقال : « فالانسان ليس فاعلا وليست له قدرة على الفعل ، ثم اختلفوا بعد هذا (٢) هل يسمى كاسبا أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف . قالت طوائف لا يسمى كاسبا وانما هو الجبر البحت والظرفية البحت (٣) والاضطرار المطلق فى الظاهر والباطن . وقالت الطائفة التى تدرس آراؤها وعقائدها فى سائر المعاهد الاسلامية (٤) وهى الطائفة المحسوبة على الأشعرى المنسوبة اليه المسماة بأهل السنة (٥) قالت هذه الطائفة بل نسميه كاسبا ، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل فى معنى الكسب والكاسب فردته الى الجبر المحض الذى لا غبار عليه ، فقد قيل لها : هل العبد فاعل حقيقة . قالت لا . قيل لها

---

(١) وهذا المغرور نفسه قد صنف نبذة سماها (شيوخ الازهر والزيادة فى الاسلام) فادعى أن شيوخ الأزهر زائدين فى الاسلام مبتدعين فيه ، وضللهم فى ذلك وادعى أنهم مخالفون لأئمة المسلمين فى هذه البدع ، فكيف هنا يحتج بوجود بيت فى قصيدة واحدة قد يقرأها بعض الناس فى الأزهر كأنها هى التى يعتمد عليها فيه وحدها

(٢) هذا صريح فى أنهم اتفقوا على أن الانسان ليس بفاعل وليس له قدرة ، لانه قال « ثم اختلفوا بعد هذا »

(٣) من هم هؤلاء الطوائف من المسلمين القائلون بالجبر البحت والظرفية البحت الخ ، قاتلك الله ما أجرأك على الكذب

(٤) هذا كذب وفجور ، بل اكثر المعاهد الاسلامية لا تدرس هذا

(٥) لكن أهل السنة عند الاطلاق ليس هم الأشعرية وحدهم بل أهل السنة هم أتباع السلف وأصحاب الحديث كما فى الواسطية

هل هو شريك فى الفعل مشاركة حقيقية فقالت لا . فقيل لها هل هو سبب حقيق فى وجود الفعل الواقع فيه . فقالت لا . فقيل لها هل هو موجد له . فقالت لا . فقيل لها فهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال ، أى هل هو مختار فى حدوث الأفعال الواقعة فيه وفى عدم حدوثها . فقالت لا . فقيل لها ما معنى كونه غير مجبور . فقالت هو أنه كاسب . فقيل لها وما معنى كاسب . قالت هو كونه كاسبا . فقيل لها هذا له خىء . قالت معناه ليست لنا عقول[١] . فالكسب عند الأشعرية هو الجبر فى المعنى عند الجبرية ، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها ، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب » انتهى

وكل هذا ثرثرة وهذيان لا طائل تحته ، فانه اخترع ما شاء ، وخاطب نفسه بنفسه ، وقدر أشياء بعقله وادعاها وأجاب عليها ، فهو مطالب ببيان الجبرية من هم ، وهل هم من المسلمين حتى يحتج على الناس بأقوالهم ، ثم هو مطالب بما نقله عن الأشعرية فى تفسير الكسب وهو لم يبين شيئا من هذا بل ادعى ان الأشعرية يقولون بالجبر إلزاما لهم مع أنهم نفوه صريحا[٢] وهو من أعظم الناس مشاقة ومعاكسة ومعاندة لمن ألزمه بصريح قوله ، بل ألزم الأشاعرة هنا بأنهم يدعون أن لا عقول لهم ، وقد أفصح فى هذا وغيره عن

---

(١) هكذا ادعى ان الأشعرية يذكرون عن أنفسهم أنه ليس لهم عقول . سلاسل خبيثة يتعب الانسان فى نقلها والتنبيه عليها

(٢) وذكر أن الكسب لا معنى له فاكتفى بقوله لا معنى له عن إقامة البرهان على رده ، ولولا كراهة التطويل لنقلنا تحامله وتهكمه واستهزاءه بالدجوى فى نبذة (البروق) حينما ادعى الدجوى فى كلام ذكره أنه « لا معنى له » فتهكم به هذا وذكر أن كلمة « لا معنى له » لا تكفى ، وأن كل أحد يقدر على أن يقول مثلها وأطال فى ذلك ، ولكنه سقط على أم رأسه واضطر هنا اليها والى أمثالها مما رمى به اعداءه

السرّ الذى طرد من الأزهر بسببه من جنس هذه المخازى ، وفتح للناس باب العذر فى أعدائه الذين فصلوه وطردوه بما أباح به فى هذه الاغلال وغيرها

ويكفى القارىء أن يرجع الى كتب الأشعرية التى لا تعد ولا تحصى فيجد تكذيب هذا القول الذى عزاه اليهم صريحا ، فانهم صرحوا بان للانسان فعلا اختياريا وقدرة على فعله وأنه غير مجبور ، وهذا ادعى عليهم الجبر وأن الانسان ليس له قدرة على عمله . ولا ريب أن من أشهر ما يعتمد عليه الأشاعرة فى العقائد هى (العقيدة النسفية) قال مؤلفها فيها « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، والحسن منها يرضى الله تعالى ، والقبيح منها ليس يرضاه تعالى ، والاستطاعة مع الفعل ، وهى حقيقة القدرة التى يكون بها الفعل ، ويقع هذا الاسم على سلامة الأسباب والآلات والجوارح ، وصحة التكليف تعتمد هذه الاستطاعة ، ولا يكلف العبد ما ليس فى وسعه » انتهى . فانظر كيف صرح بأن العباد لهم أفعال اختيارية ، ومعلوم أن المجبر غير مختار ، وكلامهم فى هذا الأصل معروف مشهور وكله يقضى بتكذيبه

ثم ذكر أن هذا الذى قاله عن الأشعرية فى معنى الكسب « من المذاهب التى تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى »

فيقال له : لكن عجزت عن الرد عليهم ، وحقيقه كلامك هذا كله سخرية واستهزاء فقط ، وقد كان من الواجب عليك اذا كنت تريد تفنيد رأيهم أن تنقل كلامهم وترده بكلام صحيح معقول بدون تهكم واستهزاء ، وأنت لم تفعل شيئا من هذا ، فنكتفى بمنع ما ادعيته والمطالبة بتصحيح ما نقلته ثم بيان فساده

والعجب كل العجب أنه أطال فى ذم الأشعرية وصار يدور على مذهبهم ، وأعرض عن مذهب جماهير أهل السنة الذى نقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن أهل السنة والجماعة ونقله ابن القيم وغيرهما ، وهو يعلم أن عقيدتهم صريحة فى أن الانسان فاعل مختار له قدرة وارادة وتاثير فى عمله كما سيأتى ، فاقتصر

على ذكر مذهب الجبرية والمعتزلة وترك غيرهم ، وهذا عين لبس الحق بالباطل وكتم الحق مع العلم به

ثم قال مشنعا على أهل السنة بزعمه بعد كلامه المتقدم : « فأعظم معانى القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الانسان ليس فاعلا ولا عاملا ، وانما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شىء ، والانسان لا يعدو أن يكون محلا لما يسمى أفعالا له . والقضاء هو الفراغ من ذلك . فالعبد عندهم مجرد من كل شىء سوى الظرفية ، فهو عاجز عجزا تاما ، والله لم يخلق له قوة يفعل بها ، ومن قال بهذا فهو كافر فى رأيهم ، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط »

فيقال لهذا الملحد : لا يعجز أكفر يهودى أن يدّعى على المسلمين هذه الدعاوى الخبيثة كذبا وفجورا ، فانه اذا كان مجرد ادعاء الانسان على عدوه بدون نقل وبدون دين وحياء يقبل فما الفرق بينك وبين اليهودى ، ولقد تذكرت بهذا ما ذكره بعض المطلعين على حقيقة أمر هذا المغرور قال : جرى بينى وبينه مناقشة فى مواضع من كتابه ، فقلت له : قد ذكرت أمورا كثيرة فى كتابك وعزوتها الى المسلمين مما ليس له أصل ، بل قد يكفرون من يقول بها وأنت تعرف أن العلماء وكثيرا من الطلبة يعرف مذاهب الناس وآراءهم ، وهذا يقضى بتكذيبك ورد الكتاب كله وربما قاموا عليك . قال فأجاب قائلا : كل الذى قلته فى كتابى فى إمكانى أن أخرّج له معنى ولو بعيدا ، والتأويل غير ممنوع ، وأنا لم أصنف الكتاب للعلماء والطلبة [1] بل للزعماء والرؤساء ، وهؤلاء أكثرهم لا يعرف حقيقة هذه الأمور ولا حقيقة مذاهب الناس فيها ، وهم الذين بأيديهم أزمة الامور ، وهم اذا شاءوا تفنيده لا يمكنهم جمع العلماء وسؤالهم لأن ذلك ضدهم ، وقد يختلفون بينهم فيكون ما قلته موافقا عليه

---

(١) اى الذين يعرفون مذاهب الناس

بعضهم على الأقل ، لأنه لا يمكن أن يقوم أحد منهم بمناقشتى فى هـذا ، وقد تيقنت أن من هنا أناسا موافقين لى فى هذا . وذكر كلاما طويلا هذا معناه .
ولا شك أن ما ادعاه هنا يؤيد ما ذكر عنه تاييدا ظـاهرا ، فانه يأتى الى أمور واضحة قد صرح علماء الاسلام بأنها كفر فيدعى أنها مذهبهم وأنهم يكفرون من فعلها ، ولهذا نسب الأشعرية الى الجـبر المحض وأنهم يقولون ان العبد ليس إلا ظرفا لأعمال الآخرين ، وأنه مجرد من كل شىء سوى الظرفية ، وأنه عاجز عجزا تامـا ، وأنهم يكفرون من يقول ان الله خلق فى العبد قوة يفعل بها ويفسقونه . ومعلوم أن الأشعرية ينكرون هذا وأكثرهم يكفر الجـبرية المحضة الذين يدعون أن العبد ظرف لأفعال الله وأعمال الآخرين لا قدرة له عـــلى فعله

وقريب من كذبه هذا وبهته ما نقله ونسبه الى فقهـــاء الشافعية بأنهم يوجبون على الانسان أن يتوضأ بالبول اذا كان الماء قليـلا لا يكفى للوضوء حيث قال فى ص ١٤٦ وهذا لفظه « ومما يقرب من هذا وان كان ليس منـه ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا اذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه » انتهى لفظه بحروفه ، فنسب هذا الفجور الى فقهاء الشافعية ولم يذكر مصدره ، وقد علم الخـــاص والعام أن الشافعية يحكمون بنجاسة المـاء اذا كان دون القلتين بمجرد ملاقاة النجـاسة وان كان لا يدركها الطرف وأنه يحرم استعماله فى الوضوء وغـيره ، وكلامهم مشهور فى ردّ هذا البهت فى أدنى كتاب من كتبهم الفقهية (١)

---

(١) وتقدم ادعاؤه على المسلمين بأنهم يرون الجهـالة أم الفضائل ، مع ان شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ذكر فى كتاب الكبائر أن الجهالة من الكبائر واستدل عليها بالنصوص ، وأمثال هذا كثير جدا

ثم قال « وقد اشتدت المبـــارزة في العصور الأولى إبـان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه ، ولـكن كانت الغلبة فى النهاية لمن يسمون أهل السنة ، فاندحرت جيوش الاعتزال بل قضى عليها حـتى لم يبق لهم اليوم باقيـة معروفة ، واختفت كتبهم وانقرضت وصارت عقـائدهم لا تعرف فى الغالب إلا من كتب خصومهم عند ما يذكرونها لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم » فاصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهـل السنة أى من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم فى كل شيء [١] » .

فيقال : كل هذا حجة عليك ، فانك عللت بأن القول بهذا المذهب يوجب الضعف والتأخر ، وأن مذهب الاعتزال عندك فى هذه المسألة أصح ، فلمَ لمْ ينفعهم هذا الاعتقاد وقد مكثوا مئات السنين على كثرتهم ولم تقم لهم قائمـة ، بل غلبهم هؤلاء الذين تشنع عليهم وتدعى أن مذهبهم فى القضاء والقـدر لا يمكن أن تتقدم به أمة . ثم دعواك بأن الناس على هذا المذهب دعوى كاذبة ، فقد علم أن القائلين بخلاف مذهب الأشعرية فى القدر والقضاء أمم لا يعدهم ولا يحصيهم إلا الله ، بل قد يكونون أكثر منهم فى سائر الاقطار الاسلامية ، وقد بينا أن مذهب أهل السنة والجماعة هو خلاف مذهب المعتزلة وأقرب الى الاثبـات من مـذهب الأشعرية كما يأتى فى كلام شيخ الاسلام حيث قال فى (العقيدة الواسطية) التى ذكر أنها عقيدة أهل السنة والجماعة ، فقال فى مسألة القضاء والقدر « والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالقهم وخالق أفعالهم ، والعبد

---

(١) قبحك الله ما أسرع انحرافك ، وقد ذكرت فى كتبك الأولى أن أئمة المسلمين من أهل السنة وأتباع السلف كلهم مخالفون لأكثر أصول الأشعرية ، وهنـا تدعى أنهم إخوانهم مشابهون لهم فى كل شيء ، فهل هم مشابهون لهم فى هذه المسألة والكلام والتحسين والتقبيح وكثير من الصفات الخبرية وغيرها

هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق ارادتهم » فانظر كيف صرح بان للعباد قدرة على أعمالهم وإرادة وأنهم فاعلون حقيقة ، فاعتقاد قدرتهم وإرادتهم واختيارهم فى إيقاع أفعالهم لا ينافى كون الله خالقهم وخالق أفعالهم . فالله سبحانه هو الذى خلق العبد وخلق جوارحه وقدرته ومشيئته ، فكله بجسمه وروحه وعقله وإرادته ورأيه مخلوق ، فافعاله من أجل هذا مخلوقة لله ، لا أنها فعل لله ، فيجب أن يعرف الفرق بين الفعل والمفعول ، فالعبد هو الآكل الشارب المصلى ، وأكله وشربه وصلاته مخلوقة من مخلوقات الله ، لا أن الله سبحانه هو الذى فعلها بل العبد هو الذى فعلها حقيقة لا مجازا ، وسيأتى توضيح هذا ، فخلق الشيء المختار المريد ليس دفعا له على فعل ما لم يرده بل يريد نقيضه ، فالخلق شيء وإرادة المختار المريد شيء آخر ، وليس الغرض تقرير هذه المسألة ببراهينها وأدلتها الطويلة فان هذا موضعه كتب الأصول المطولة ، وانما المقصود بيان كذبه وأن ما ادعاه على المسلمين على هذا الوجه كذب ظاهر وبرهان على عداوته لهم وأنه يحاول به ايقاع العداوة بين الزعماء والعلماء وإثارة الفتن لأغراض قد نبهنا عليها فيما سبق

ثم لما فرغ من نقل هذه الأقوال وأضاف اليها ما شاء من البهت والفجور أخذ فى التشنيع وحمل التأخر والضعف عليها وعلى العلماء القائلين بها على عادته فى محاربة أوهامه التى يتصورها على غير حقيقة ، وقد بينا لك أن ما ادعاه كذب ، وإذا بطل الاصل عرف بطلان الفرع وعرف أن سبب التأخر غير ما يدعى ، ولو لم يكن من ذلك الا أن المعتزلة لا يرونه ومع هذا صاروا أعظم فى التأخر من المثبتين له ، فسبب التأخر هو التقصير فى العمل بالكتاب والسنة ، فهو التقصير بالاستضاءة من نور الله وأخذ القوة من روح الكتاب العزيز الذى جعله الله هدى ونورا وشفاء ورحمة وبصائر لمن آمن به وعمل به

وعمىً على كل من أعرض عنه وابتغى الهداية من غيره

فصل

قال « ناد فى جموع المسلمين منكرا عليهم اختصاصهم بالذل والاستعباد دون العالمين ، فانهم سيجيبونك انه القضاء والقدر . قل لتاجر أو صانع أو زارع : لماذا أنت صغير فقير ، وفلان من الاجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والاموال العظيمة (١) ؟ فسيجيبك أيضا انه القضاء والقدر . كلم من شئت لما شئت منكرا أو معاتبا أو مستفهما (٢) فستسمع الجواب أيضا انه القضاء والقدر ، فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، وهما السبب الظاهر المعقول فى كل فشل وفى كل هوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس »

فيقال : كل هذا كذب وبهتان ، وليس له أساس من الصحة ، ونحن نكتفى فى دحر هذه الدعوى بأن نتحدّاه فنقول له : ان كنت صادقا فى دعواك هذه فادخل أنت فى جموع المسلمين وناد بهذا النــداء ، فان أجابوك بهذا فأنت صادق ، ولكنك لا تظفر بهذه الإجابة أبدا ، ولا تسمع عاقلا واحدا يجيبك بهذا الزعم الذى تدعيه . وياليتك تجرب هذا لتظفر بالصفع واللعن والبصاق فى وجهك وتقع فى ورطة لا مخلص لك منها

يا بلعام زمانه ، لو ناديت بهذا النداء لأذاقوك أنواع العذاب والنكال وقالوا لك بعد الفعل بك ما تستحقه : انها الذنوب والمعاصى والإعراض عن الدين والتفرق والاختلاف وفساد الاخلاق وتحكيم الطواغيت فى شرع الله . انك لو ناديت ألف مرة أو أكثر فانهم لا يجيبونك إلا بهذا أو ما هو معناه .

---

(١) يفهم من هذا أن كل مسلم صغير فقير ، وكل كافر كبير تاجر عظيم كما ترى .

(٢) فعلى هذا لو لام أحد أحدا على الزنا والسرقة لأجاب أنه القضاء والقدر . هكذا تكون المجاهرة بالقحة .

يدل على هذا دلالة واضحة جلية ما هو منشور مشهور فى الكتب والمجلات والجرائد المعتدلة وغيرها ، فانها ليس فيها كلها ما تدعيه ، فليس منهم أحد يقتصر اذا ما بحث فى أسباب التأخر على القضاء والقدر ، ولا يعرف عاقل تفوه بهذا ، بل كل منهم يتكلم ويعلل بما يراه من الأسباب الأخرى التى حاصلها التفريط والتقصير فى الأمور الدينية والدنيوية ، أما أن أحدا منهم — يا بلعام زمانه — يحمل عهدة كل مصيبة على القضاء فقط كما تدعى فغير صحيح ، بل هو من الكذب البارد والهذيان المرذول . ولو أنهم يرون هذا الرأى الذى تدعيه لنشروه واعتمدوه وكان معروفا مشهورا لدى الخاص والعام ، فاذا كان الأمر خلاف هذا فكيف يجيبون من ينادى بهذا النداء بخلاف ما قالوه وكتبوا وصرحوا بخلافه ، فما هذه الثورات والمنازعات والأعمال التى تبذل فى سبيل كل مصيبة ، فهل تظن أنهم يثورون وينازعون ويقاومون القضاء والقدر إذا كانوا يحصرون العلة فى ذلك كما تقول وتدعى بدون عقل ولا حياء . يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، قل لتاجر أو صانع أو زارع عاقل مؤمن : لماذا أنت صغير فقير فى هذه الأمور دون بعض الكفار ، فانه سيجيبك بان ذلك بسبب تفريطى وتقصيرى فى طاعة ربى ، ولجهلى بمعرفة هذه الأمور . فلو قلت له : فلماذا كان الأجنبى أكثر منك ضياعا وأعظم تجارة وهو أشد تفريطا فى الطاعة بل لاطاعة له ، فسيقول لك : ليس كل أجنبى أكثر منى ضياعا وأكبر تجارة ، بل يوجد فى الأجانب ملايين لا تحصى أقل منى تجارة وضياعا مع ما هم فيه من المصائب المتنوعة ، واذا وجد فيهم من هو أكثر منى ففى المسلمين من هو أكثر منه ومن كان مثلى منهم ، فما أعطانى الله من حلاوة الايمان ونشاط الروح وقوة القلب وعزة النفس والأنس به تعالى خير مما أعطاه الله من الزيادة بالنسبة إلى ، ونقصى فى التجارة أسهل من نقصه فى الدين ، وقد حصلت المساواة بينى وبينه فى لوازم الحياة الضرورية ، وأما ما زاد عن ذلك فان يكن زاد على فى نوع واحد كالتجارة فقد زدت عليه فى أنواع أخرى من ضروب

الحياة ، فبين لى واحدا منهم زاد على فى كل شىء حتى اقنعك أننى قد زدت عليه من ناحية أخرى ، ولو لم يكن من ذلك إلا عزة الايمان وراحة الضمير ، وغاية ما عندك أن تدعى أن فيهم من قد زاد على فى التجارة ، وليست اللذة كلها محصورة فى التجارة فقط بل كم فى الدنيا من تجارة مريرة قد أهلكت صاحبها ، فأسباب اللذة والنعيم والراحة كثيرة جدا ، والتجارة سبب واحد منها ، فلا يسوغ لى أن أبيع رأس مالى من دينى وغيره من أسباب الملاذ الأخرى بتجارة غير محققة منافعها ولذتها[1] كما لا يسوغ لك أن تتجاهل وتتعامى عما لدى من فضل الله ورحمته والفرح بذلك وتجعله شيئا صغيرا وتعظم أمر التجارة وتجعل الخير كل الخير فيها ، وأنا أرى غير رأيك وأعرف من نفسى مالا تعرفه أنت . هذا هو الذى سيجيبك به كل مؤمن عاقل ، أو ما هذا معناه ، أما أنه سيحمل مصيبته على القضاء والقدر فقط فهذا لا يفعله مؤمن أبدا ، بل لا يفعله إلا من هو من إخوانك المنافقين الشاكين فى الله ودينه ، فيحتجون بالقضاء والقدر اتباعا لأهوائهم لا إيمانا بهما كما قالوا ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين﴾ والمسلم اذا ذكر القضاء والقدر أحيانا عند المصائب فانه يقرن ذلك بتعليل معقول صحيح ، فلا يذكرهما مجردين ويجعلهما هما المصيبة أو هما سبب المصيبة لا لاجل ذنب ونحوه . والعجب من جرأته فى قوله « فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول » الخ ، فلا ندرى هل هذه رؤيا رآها ، أو وحى من الشيطان أدخله فى روعه ، أم شىء هذى به ولم يعرف معناه ويخشى تبعته ويراقب نتيجته ، أفلا أبصرت عيناه أو عينه وطرق سمعه هذا الكفاح المتواصل والمنازعات الدائمة والثورات المتتابعة ، وكيف لم ير هذه الأعمال المختلفة المتنوعة التى يقوم

---

(١) أو محقق وجودها على ترك الدين

بها المسلمون من المعارف والعساكر والزراعات والتجارات والصناعات وغير ذلك ، فلأى شىء وضعت ، ولأى شىء بذلت إذا كان القضاء والقدر هما العذر المقبول ، أفلا يستحى قدر مبلغه من العلم أن يتفوه بهذه الترهات المخزية والفضائح المكشوفة . ثم دعواه على المسلمين بأنهم مختصون بالذل والاستعباد دون العالمين زيادة رجس الى رجس وإضافة خبث الى خبث ، متى كان المسلمون مختصين بالذل والاستعباد دون العالمين ، وأنت ترى أمما كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها تتمنى باقصى ما لديها أن لو حصل لها من العز والسيادة مثل ما حصل للمسلمين ، مع أنهم ينكرون القضاء والقدر وقد لا يعرفونهما كما يعرفهما المسلمون . وقد تقدم ادعاؤك أول الكتاب أن هذا الاستعباد لم يختص به المسلمون بل اجتاح غيرهم ، فكيف تدعى هنا أنهم اختصوا به من دون العالمين ، وكل مسلم بل كل عاقل يعلم أن الفترات التى فقد المسلمون فيها عزهم العظيم ومجدهم الكبير أقل من الفترات التى ضرب بها هؤلاء الغربيون بالذل والاستعباد ، فان أولئك مكثوا آلاف السنين فى أضعف حالة وأذل استعباد ، بخلاف المسلمين فانهم نالوا نهاية المجد وضخامة الشأن وعلو السيادة فوق ألف سنة ، ولم يفقدوا إلا بعض عزهم فى فترات قصيرة بسبب إعراضهم وتقصيرهم فى اتباع القرآن والسنة اللذين قامت عليهما حياتهم ونجاتهم وعزهم ومجدهم الأصيل

والعجب الآخر من خبثه العميق فى قوله « وهما العذر الواضح المقبول فى كل فشل وهوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس » وسكت عن ضد ذلك ، وكان عليه أن يقول : وهما الحجة فى كل نصر وعز وتمكين وقوة وغنى وثروة ، فانه من المعلوم أن من يحتج بالقضاء والقدر فى شىء من أموره فانه يحتج بهما فى الخير والشر سواء ، ونحن نعرف النكتة فى ذلك وهو إشانة هذا الأصل الدينى بكل وسيلة ، وأن الايمان بهما يجر الى الشر دون الخير

ثم رجع فأخذ فى تكرير ما سبق بأن المسلمين يرون أن الانسان ليس بفاعل وأنه لا قدرة له على الفعل ، وقد سبق الجواب عن هذا مرارا كثيرة

ثم إنه أورد على نفسه اعتراضا أخذ منه بالمخنق ، فذكر « انه لا يصح أن يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر ، ولا أن تحمل كل هذه الأعباء ، لأننا نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا ، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر ، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا - وإن كانت باطلة - إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات »

هكذا أورد هذا السؤال الركيك ، وهو وإن كان قد أورده وصاغه على حسب هواه وشهوته لا على حسب الواقع فهو يبطل دعواه من أصلها وينقضها نقضا بينا . ثم انه أجاب عليه جوابا ساقطا خبيثا متهافتا حاصله أنهم لم يعملوا جازمين بالنجاح ، بل حقيقة جوابه أنهم لم يعملوا كافرين بالقضاء والقدر والمشيئة ، ولو فعلوا ذلك لنجحوا ، فقال :

« إذا قيل هذا قيل فى الجواب : ما أعظم ما تخفى على الانسان نفسه وتخفى عليه حقيقته (١) . أجل ، ان المسلمين يأتون شيئا كثيرا من الأعمال الصغيرة ، تدفعهم اليها فى الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى ، أو يدفعهم اليها الفكر القلق المشوش (٢) أو يندفعون اليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبدا وتكليفا فقط (٣) كما كلفوا بالصلوات والدعوات ، لا لأنها تفيد بذاتها ، أو

---

(١) يقال هو ذا أنت ، فانها خفيت عليك لما بك من العجب والتيه والكبر ، فلم تعرف قدرها فوقعت فيما وقعت فيه

(٢) هذا منقوض بأن الفكر نفسه لا يدفع أحدا ، بل الدافع متعلق الفكر ، فلا بد من بيانه

(٣) هذا منقوض بالأفعال الدنيوية المحض ، ومعلوم أن أكثر الناس لا يفعلها تعبدا ، ثم لو فعلوها تعبدا حقيقيا لكان أقوى

يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة [١] . ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم ، أو تفقرهم وتغنيهم اعتقادا جادا ، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون فيما يأتون ويذرون ، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا ، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة [٢] ، أو أن فيهم قوة ذاتية ، أو أنه ليس هناك قوة خفية ـ وهو ما يدعونه بسر القدر ـ تعمل أبدا على توجيههم غير الجهة التى يقصدون ويريدون ، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون ، وأنها هى ـ أى العوامل [٣] ـ قادرة قوية ، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتى على قدر الوسيلة دائما جزاء وفاقا . هل اعتقدوا شيئا من هذا أو هذا كله اعتقادا صحيحا لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب . كلا إنهم لم يعتقدوا شيئا من هذا ، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالا تفضى بهم إلى النجاح والظفر المبين »

قلت : فلينظر المسلم المنصف الغيور على دينه إلى مافى هذا الجواب من القلق والاضطراب والبهت والكفر والخبائث التى لا تحصى . والذى أوجبه الى هذا الفجور والطيش والبهتان العظيم محاولة التخلص من هذا الايراد الذى هو كالغل الذى خنق به نفسه فطاش طيشه ، ولولا أن الله تعالى ذكر عن أعدائه ما نسبوه إليه من العظائم فى محكم التنزيل لما استطاعت أناملنا أن تنقل من هذه الكفريات والجرأة العظيمة على مقام الربوبية شيئا

---

(١) من أين له أن الأغراض التى تدفعهم صغيرة ، هذه دعوى مجردة ألقاها مجازفة

(٢) قبحك الله على هذا الهذيان ، ففيم هذه الأعمال إذن ، هل اطلعت على قلوبهم . لو أنك قلت « هل عملوا كافرين بالقدر » لاختصرت الكلام واسترحت من هذا التطويح والتلويح المرير

(٣) لينظر المسلم الغيور الى هذا الكفر الفظيع ، فهل أحد سب الله تعالى وقدح فى مشيئته وقدره مثل هذا الزنديق الملحد . أين الغيرة الدينية على الاسلام . فلعن الله من قال هذا ورضى به

فقوله «ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم أو تشقيهم» الى قوله «انهم فاعلون عاملون حقيقة» يقال فى جوابه :

وليس يصح فى الأذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

فلاى شىء عملوا هذه الأعمال ، أتراهم عملوها مصادفة وجنونا وتغفيلا . وهؤلاء الذين هلكوا وقتلوا فى ثوراتهم وغيرها أتراهم قصروا فيما فعلوا . لا شك أنهم ما عملوا تلك الأعمال إلا لطلب نتائجها من السعادة والشقاوة ، معتقدين أنهم فاعلون حقيقة ، فأنت لو تسأل أدنى انسان لم يشك فى أن فعله ليس مجازاً بل هو حقيقة ، بل كل من لم يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز لا يشك فى نفسه أنه فاعل ، فكان يجب عليك أن تبين أن افعالهم مجاز ، لأن الأصل الحقيقة وأنت مدّع خلافها . ولكن نحن نعلم أن مرادك أنهم لم يعملوا كافرين بالقدر ، فنقول حينئذ : لا شك أن أكثرهم لم يعمل كافرا بمشيئة الله وقدره ، فان كان لا بد من وجود هذا الشرط عندك فى النجاح - كما صرحت به فى المواضع الأخرى - فهناك أمم مستعبدة قد عملت من غير أن تعتقد القضاء والقدر كما اعتقده المسلمون وقد تردت فى هاويتها السحيقة وما خرجت عنها . وما كان ينبغى لمثلك ممن هو على عقيدتك فى الالحاد أن يتكبد هذه الحسرات ، ويشد نفسه بهذه الأغلال النفاقية ، فيأتى بهذه الدعاوى طويلة ملتوية ، ومعناها مفهوم عند كل عاقل . وقد بينا أن ائمة المسلمين من أهل السنة والجماعة مجمعون على أن العبد فاعل وكاسب غير مجبر ، وأنه فاعل حقيقة كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى (منهاج السنة) ص ١٢٧ ج ١ «وأما سائر أهل السنة فيقولون : إن أفعال العباد فعل لهم حقيقة» وتقدم قوله فى (العقيدة الواسطية) : والعباد فاعلون حقيقة . الى قوله «وللعباد قدرة على أعمالهم وإرادة» وتقدم قول النسفى فى عقيدته المعتمده عند الاشاعرة «وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها» الى آخره وهذه العقيدة تدرس ويعتمد

عليها أهل هذا المذهب المتبوع ، فكان ما أدعيته علىَّ المسلمين كذبا وبهتا معلوم الفساد

وقوله « أو أن فيهم قدرة ذاتية » يقال هذا مكرر مع ما قبله ، فان عنيت أن فيهم قدرة بالطبع يفعلون بها بدون قدر وقضاء ومشيئة وإرادة ، بل لو شاء الله منهم فعلا وشاءوا هم فعلا آخر غلبت مشيئتهم مشيئة الله - فهذا لم يعتقدوه ، وقد اعتقده بعض الملاحدة فما نفعهم . وان أردت أنهم فاعلون بالقوة المودعة فيهم أى فاعلون حقيقة بالمشيئة العليا فقد بينا أن هذا قول أئمة المسلمين فلا حجة لك فيه .

وقوله « أو اعتقدوا أنه ليس هناك عوامل خفية - وهو ما يدعونه بسر القدر - تعمل أبدا على توجيههم غير الجهة التى يقصدون إلخ »

يقال : نعم فالمسلمون لم يعتقدوا أن هناك عوامل خفية بهذه الصفة ، وانما اعتقدوا أن هناك مشيئة عليا مهيمنة على كل الوجود ليس لأحد قدرة على قهرها ومعاداتها والانتصار عليها ، فاعتقدوا أن أعمالهم التى أقدرهم الله على فعلها تحت مشيئة الله العامة ، وأنه سبحانه البر الرحيم الرءوف الذى هو أرحم بعبده المطيع من الوالدة بولدها ، العليم الحكيم الكريم الذى وسعت رحمته كل شىء فشمل فضله وإنعامه حتى الملحدين الذين بارزوه بالسب والقدح وهم يسرحون ويمرحون فى نعمائه الضافية ، فكل هذه الخيرات واللذات الموجودة فى الدنيا التى تتقلب فيها هذه الخلائق المتمردة العاتية إلا القليل فيها أثر رحمته وكرمه وإحسانه . نعم هم علموا أن فوقهم مشيئة الله الذى رضوا به ربا ومولى ، فنعم المولى ونعم النصير ، ولكنهم لم يعملوا عالمين بعوامل خفية موصوفة بالصفة التى أدعيتها ، اللهم إلا أن يكون هنالك منافقون يرون هذا وأنك منهم ، فهذا هو الذى يطابقه ما تدعيه وتدعو اليه

يا بلعام زمانه ، أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن بينهم وبين الله

عداوة ، وأن سر القدر يعمل أبدا على توجيههم لغير الجهة التى يقصدون ، وأنه يحرمهم ثمرة زرعهم الذى زرعوه الى آخر ما هذيت به . ولعلك كنت تعتقد هذا فيما سبق فصار من الأسباب التى أوقعتك فى الردة والالحاد ، وقد تقدمت أبياتك التى تدعى فيها أن الانسان يزداد نعيما كلما ازداد جوره وكفره ، وأن الناس والدنيا خوادم لمن كفر وجار ، لا شك أن من اعتقد هذا فقمين أن يعتقد الفوضى وأن يرتد بعـــد اسلامه ، ولا سيما إذا ضم إلى ذلك أخبث اعتقاد على وجه الأرض وهو الكفر بالقضاء والقدر الذى يحكم العالم

ثم انه زاد خبثا الى خبثه فى قوله « بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون وأنها - أى العوامل - قادرة قوية » فجعل هذا الملحد كل عقوبة وبلاء بسبب ضعف الانسان وقوة الله ، وضرب صفحا عن هذا الكفر الغليظ ومبارزة الله ليلا ونهارا بالمعاصى والعداوة ، فلم يجعل العقوبات أثراً لذلك ، بل جعلها بسبب القدر وضعف الانسان ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وقد نسى هذا الملحد أنه أسند هذا إلى نواميس الطبيعة ، فهى عنده التى تحكم العالم ، وهى العوامل التى تفعل هذه الأفاعيل بمجرد قدرتها ، لأنها لا رحمة لها ولا علم ولا حكمة ، والانسان ضعيف لا قدرة له على مصادقتها وهى لا تسمع ولا تجيب ، وهذا عين الفوضى . وكل مسلم عاقل يعرف أن غرضه من هذا السب والقدح هو تشوية سمعة الأديان ، والتنفير عنها وعن أصولها كالقضاء والقدر ، وانه تعالى لا يتصرف فى ملكه ، فأين الرحمة وأين العدل وأين الحكمة على مقتضى كلامه ، فلم يذكر لله رحمة ولا فضلا على عباده فى أغلاله كلها ، بل جعلها كلها بفحواها معاداة لله ، فأنكر دعاءه وتسبيحه وتحميده وتقديسه على المنـــابر وعبادته فى المساجد ، وجعل ذلك شرما يؤدى ومصرفا خبيثا ، ومشيئته جعلها قوى خفية معادية للانسان ، وفى موضع آخر يأتى وصفها بالخبث . ثم قصد إلى التوكل فافسده وقلب معناه فجعل الشرك الصريح توكلا ، الى غير ذلك من الفظائع التى لا تعد ولا تحصى

وحاصل كلامه برمته فى الجواب على هذا السؤال الذى أخذ منه بالمخنق أنهم لم يعلموا جازمين أن نواميس الطبيعة هى التى تحكم العالم ، لا دخل لقضاء وقدر ومشيئة فى سيرها وتفاعلها ، وأنها هى التى تسعد وتشقى وتعز وتذل وتقدم وتؤخر ، لذاتها ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . وقد علمت أنه جواب فى نهاية السقوط ، فانه يوجد شعوب كثيرة ملحدة مضروب عليها أعظم الذل وهى لا تعتقد بقدر ولا بقضاء ، وما نفعها هذا الاعتقاد بشىء ، وأقرب الناس إلى هذه الأمة هم المعتزلة فى نفى القضاء والقدر وهم أذلها وأرذلها فلم يتقدموا فى وقت من الأوقات على غيرهم من القائلين بالقضاء والقدر ، فعلم أن اعتقاد القضاء والقدر ليس له أدنى علاقة فى التأخر الذى يدعيه

وقد سبق كلام هذا المغرور واستهزاؤه بذلك الخطيب الذى حث الناس فى خطبته على الدعاء ، وأن الناس لو دعوا موقنين بالاجابة لأجيبوا ولكنهم دعوا غير موقنين بالاجابة فلم يجابوا ، فاستهزأ به على هذا وتهكم بكلامه غاية التهكم كما سبق . وهنا لما اعترض عليه بأن الناس يعملون أعمالا عظيمة متواصلة ومع ذلك لم ينجحوا أجاب بهذا الكلام الذى حاصله أنهم لم يعملوا كافرين بالقدر جازمين بالنجاح ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . فانظر كيف انقلب على رأسه وافتضح وتناقض ، فانه من المعلوم الذى لا يستريب فيه عاقل أن أعمال الناس فى دنياهم واجتهادهم فى إتقانها والحرص عليها والمحافظة عليها وتوجيه الهمة اليها أعظم بكثير من اجتهادهم فى الدعاء والصدق والاخلاص فيه والبعد عما يضاده وينافيه ، وأن تناولهم لأعمالهم الدنيوية أعظم من تأديتهم لأعمالهم الدينية بكثير ، بل لا نسبة بين هذا وهذا عند عامة الناس إلا القليل ، فاذا كانوا لم ينجحوا فى الأعمال الدنيوية وقد بذلوا مهجهم فيها وأعطوها العناية التامة ، فكيف يسىء الظن بأعمالهم الدينية كالدعاء ويدعى أنه لم يحصل منه نتيجة مع ظهور النتائج الكثيرة ومع كونهم لم يجتهدوا فيها هذا الاجتهاد ويخلصوا فيها هذا الاخلاص ويأتوا بها على أحسن وجوهها ، فبعضهم يدعو من لا يستطيع أن يقدم نفسه أو يؤخرها

ولا يملك لها موتا ولا حياة ولا نشورا ، وبعضهم يحرف صفات الله ويتحيل على قلب مسمياتها ، وبعضهم منغمس فى غيه واتباع هواه وشهوة نفسه فيجمع بين التقصير فى هذه الأعمال الدينية ثم فى الكذب عليها وعلى نتائجها الحسنة ، ولا شك أن أعظم أصول النظام السماوى هو الايمان بأن الجزاء من جنس العمل ، وأنه تعالى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل من كرمه وإحسانه أنه يجزى الحسنة بعشر أمثالها والسيئة مثلها أو يعفو ، وهـذا غاية الكرم والاحسان . أما كون الانسان يقصر فى حق ربه أو يؤديه بفتور وكسل وضعف همة قد أحاطت به الشكوك والشبهات والشهوات من كل جانب ثم يحرص كل الحرص على حق نفسه وحق جنسه مما قد يكون له فيه مصلحة دنيوية طفيفة فيتقنه ويخلص فيه نهاية الاخلاص ثم يريدون اليه أن ينصره ويؤيده على غيره ويعطيه السيادة والسعادة لأنه مستحق لذلك بمجرد انتسابه الى الدين ، لا للعمل ومطابقة الحقيقة ، فهذا غير معقول ـ لاشرعا ولاعقلا ـ كما تقدم التنبيه على هذا اذ كلامه يدور على هذه الأصول فلا بد أن يكون الجواب دائرا معه

ثم نقل كلاما عن كتاب لم يبين اسمه فى الاعتماد على القضاء والقدر ، وأن صاحب الكتاب قال فيه يجب على الانسان أن يفوض أموره الى الله تعالى ، ولا يتكلف فى إرهاق نفسه فى طلب ما لم يكتب له ، وأن المختار للانسان أن يحسن الظن بالله ويفوض أموره اليه . وقد ترك اسم مؤلف الكتاب وقال : « طويت اسمه عن هذا المقام »

فيقال : اذا طويت اسم هذا المؤلف واسم كتابه طوينا الإجابة عنه ، وكان لا بد من بيان اسم القائل ووجه الدلالة من كلامه ، مع أنه لا حجة لك فيما استشهدت به عند المناقشة كما هو ظاهر ، فليس فيه حث على ترك العمل ،

وانما فيه إيجاب حسن الظن بالله ، وكراهية ارهاق النفس فيما لا يجب ، فان كان هذا الذنب كبيراً عندك - كما هو اللائق بقلبك الخبيث - فان هذا هو الحق الذى لا شك فيه . ولكن لا حاجة لنا فى مناقشتك هنا فان هذا الأصل العظيم الذى خالفت فيه الأمة كلها لا يكفى فيه الاستدلال بقول مجمل عن كتاب مجهول عن مصنف مجهول ، فان كثيرا من الكتب فيها كفر وشرك وتعطيل للصفات واعتماد على الأسباب وتوكل عليها ودعاية واسعة للفواحش والسحر وغير ذلك ، وقد تقدم قولك : انه ليس كل ما يقال وينقل حجة على المسلم ، وانه ليس المسلم الصحيح الاسلام هو الذى يتتبع اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ، فما الذى سوّغ ذلك الاحتجاج بما ليس من الحجة فى شىء ، والمخالفة الى ما نهيت عنه . ولكن لو جعلنا قولك :

« لو انصفوا كنت المقدم فى الأمر »

بين أعيننا وعند أذهاننا لعرفنا به كل مقصود ومراد فى مطاوى هذه الأغلال المظلمة كلها

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن عقيدة القضاء والقدر ثابتة فى الكتاب والسنة ثبوتا واضحا كالشمس ، وأنها من عقائد المسلمين الراسخة التى لا يمكن جحدها ولا زحزحتها من قلوبهم ما داموا يدينون بالاسلام إذ هى من أركان الايمان - بذل جهده وصرف همته الى تحريف معناهما لأنه اتخذ النصوص كالصائل عليه يدفعه بالأسهل فالأسهل ، فان أمكنه جحد اللفظ والمعنى جحده كما جحد كثيرا من الأحاديث الصحيحة ، وان عجز جحد المعنى وحده وحرف الدليل على ما يوافق هواه ، ولو خالف الناس كلهم . وقد طرد هذا الأصل

الخبيث هنا فسفه آراء جميع ما قاله أئمة المسلمين فى هذه الأصول فجعل معنى القدر شيئا واحدا وهو خلق هذه المخلوقات المحسوسة على هذا المقدار المشاهد ، فصار معنى القدر عنده هو خلق الاشياء على مقاديرها فى الكم والكيف على هذا الشكل الموجود بدون أن تكون الحوادث متعلقة بالمشيئة والقدرة . وقد أسهب فى تطويل المعاكسة والعناد فى تقرير ما يدعيه ، وعجز عن أن ينقل نقلا واحدا عن إمام واحد من أئمة المسلمين أو عقيدة من عقائدهم ـ على كثرتها وتنوعها ـ ما يصح دعواه ، سوى أنه نقل أثرا عن عمر رضى الله عنه لا علاقة له بما يدعيه كما يأتى ، ثم هو مع هذا أطال فى التشدق والهذيان الفارغ وسوء الادب مع القرآن فى هذا المعنى ، فقال فى أول استدلاله على أن القدر هو خلق العالم على هذه المقدار المشاهد :

« أما القدر فهو فى مادته مأخوذ من التقدير ، أى جعل الشىء ذا مقادير ، أى ذا حدود . يقال هذا الشىء قدر هذا ، أى محدود بحدوده ، كما قال ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ وقال ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ وقال ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ وقال ﴿ انا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ وقال ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ وقال ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ وقال ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ وقال ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ ويقال : قدرت الثوب أى جعلته على مقياس الجسم ، أى مثله ، أى محدودا بحدوده . ويقال : قدر كذا ، كما قال ﴿ إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ﴾ ويراد به التفكير والتروّى فى الأمر ، وهو راجع أيضا الى جعل الحدود للشىء ، ولكنها قد تكون حدودا مادية ، وقد تكون معنوية ـ أى قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديدها فكريا بحيث تجىء وفاق الأمر المادى . وقد يكون المراد تصوّر الشىء بمقاييسه المادية وجعله مقدورا ذا مثل وغايات معلومة . وقال ﴿ تعرج الملئكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف

سنة ﴾ وقال ﴿ وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم [١] ﴾ وقال جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

اى كانت الخلافة له كفوا وكان هو لها كفوا أيضا ، أى إن الأوصاف الموجودة فيه هى الاوصاف التى تشترط فى الخليفة وتوجد فى الخلافة الحقة ، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخلافة فهو خليق بها وهى به خليقة ، كما قال الآخر فى هذا المعنى :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وكذلك مجىء موسى ربه أى على مثل ووفاق فى المعانى والصفات [٢] وفى هذا المعنى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وليس المراد أن الخلافة جاءت الممدوح بمجرد القدر أى بمجرد المشيئة والقدرة [٣] من غير استحقاق [٤] ولا أوصاف خاصة ، فانه حينئذ يكون أقرب الى الذم منه الى المدح ، ولكن المقام هنا مقام مدح ، وقال شاعر آخر :

---

(١) انتقل من الاستدلال بالآيات الى كلام الشعراء ، وترك الاحاديث جانبا لأنها صريحة فى رد ما يدعيه

(٢) هذا التفسير باطل

(٣) لكن ليس فيه ما ينفى أنها جاءت بالمشيئة والقدرة ، بل فيه ما يؤكد ذلك فانه قد شاء الله له ذلك لانه كفؤ لها ، وقد علمت من هذا أنه صرح بأن القدر المشيئة والقدرة ، وعلمت قدحه فيما مضى فى هذا المعنى وأنه صرح به هنا ولم يقل « قوى خفية » لأن المقام لا يحتاج الى خداع ونفاق

(٤) ومن هو الذى قال لك ان المشيئة والقدرة تجرى لمن لا يستحق ذلك حتى تبنى هذا الهراء على الهواء

تقفون والفلك المدبر سائر   وتقدّرون فتضحك الأقدار

أى تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدودا وأزمانا ، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة ، وتقلب عليكم الأمر ، لأن الأقدار هى نظام الوجود وهى سر الحياة ، وأنتم لا تقدرون ان تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم »

قلت : هكذا ساق هذه الآيات واستشهد بهذه الاستشهادات تمهيدا لما سيقرره فى معنى القدر على ما يذهب هو اليه ، فقال بعد هذا الاستدلال :

« فالقدر بجملته وجملة استعمالاته يراد به التقدير ، أى جعل الشىء ذا مقادير معلومة ، أى يراد به جعل الشىء منظما فى كمه وكيفه . . . فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته [١] قد أوجد هذا الوجود : السماويات منه والأرضيات ، مقدرا بمقادير محكمة هى أدق فى ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيمائى قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيمائيين ، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التى يبدع فى وضعها أبرع عقل . فما من شىء فى هذا الوجود سواء أكان معنويا أدبيا [٢] أو ماديا إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه . وهذا الضبط فى التقدير جاء فى الأشياء بالنظر اليها مستقلة وبالنظر اليها متصلة بغيرها ـ أى إن ضبطها أجرى عليها على اعتبارها وحدة مستقلة وعلى اعتبارها جزءا من العالم . فضبطت هى فى نفسها ، وضبطت

(١) يلاحظ أن مثل هذه الكلمة كثيرا ما يستعملها إذا أراد أن يقرر أصلا خبيثا ضد أصل الدين ، ليجعلها خدعة للغوغاء وضعفاء البصائر . ولهذا قل أن تجدها فى غير هذه المضايق . وهذا الصنيع كصنيع من يستعمل شيئا لذيذا اذا أراد أن يجرع احدا سما أو شيئا كريها ، فيجعل ذلك سبيلا لاستساغته

(٢) ينظر ما مقصوده من تقييد المعنوى بالأدبى خاصة

مع سواها ، أى إنها مضبوطة مستقلة ومضبوطه مشتركة مع غيرها . ولهذا جاء هذا العالم منظما صالحا للانتفاع وللحياة وللاستقرار فيه وعليه . ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحا لذلك » انتهى كلامه فى تعريف القدر فسبحان واهب العقول .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فأى مناسبة لما ساقه من الآيات والشواهد على ما ادعاه هنا ، وكأنه ظن أن المسلمين يرون أن هذا العالم لم يخلق على أتقن صنعة وأحكمها فلهذا أطال فيما هو خارج عن المقصود ، لان الكلام فى أعمال الخلق لافى تركيب العالم وضبطه بنسبه وحدوده ، فان هذا لا خلاف فيه ، وفى كلامه من الظلمة والقلق والاجمال والالتباس مالا يخفى على فطن ، وسيأتى هدمه قريبا . ثم شرح هذه الجملة المظلمة التى ادعاها فى معنى القدر فقال :

« وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشىء الكثير ، وكل شىء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسبا ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التى أخذها غيره ، ومن هنا حصل الاختلاف والتباين المقصود المفيد . وهذه النسب والمقادير التى أخذها أو التى أعطيها روعى فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذى أريد منها . ثم هذا الشىء فى نفسه قد روعى فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون اجتماعه مع غيره ممكنا ومفيدا . ولنجعل ثمرة البرتقال مثلا فنقول : لهذه الثمرة ناحيتان : ناحية الكيف وناحية الكم . أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعيينا متقنا . وبهذا كانت برتقالا ، وكانت شهية لذيذة مستساغة ، وبهذا كانت أيضا نافعة مغذية . ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التى جمعت . فالقدر هنا هو الذى جعلها بهذا الكيف المحكم . وأما الكم فانها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من

التعيين ، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً ، لكانت غير متناسبة مع شجرتها التى تحملها ، ولا مقدرة بطاقة عيدانها التى تمسكها ، ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها ، فتهوى بها حينئذ الى الارض . ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت باسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب . أما النخلة فانها لما كانت قوية فان ثمرها كان ثقيلا فكان التناسب صحيحاً والتقدير مضبوطا . وأما البطيخ فانه لما خلق متمدداً ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله (١) وهكذا يقال فى كل شىء يقع تحت بصرنا وعلمنا

والجواب أن يقال : هذا التقرير الذى ادعاه فى معنى القدر ليس بصحيح ، بل هو باطل بهذا المعنى ، فان القضاء والقدر لهما مراتب : علمه تعالى بهذه المخلوقات كلها قبل خلقها ، وكتابته لها ، ومشيئته ، وخلقه لها . وهو اقتصر على

---

(١) التمثيل الذى ذكره فى البرتقالة والنخلة والبطيخ غير مطابق لما ادعاه ولا صحيح فى نفسه ، فانه جعل لذته وكونه برتقالا نافعا من أجل تناسبه . وهذا باطل لأن الحنظل متناسب أيضا ، وكل شجرة متناسبة وقد اختلف طعمها . ولكن الحق أن لذتها من أجل مناسبتها لمزاج الانسان مع تناسبها فى نفسها . وأما حملها وكثرته وثقله فانه من أجل المنفعة المبذولة لحياتها ووجودها لتكافئها وتزيد عليها قليلا لاجل حياتها ، وإلا فشجر البادية من جنسها ومع ذلك حمله تافه أو معدوم لأنه غير محتاج الى تربية مثلها . وأما النخلة فان حملها يعطى صورة عن شكلها ، فان العذق كنخلة مستقلة صغيرة ، فنسبة البلح فى الشمراخ فى العذق كنسبة الخوص فى الجريدة فى الساق . وهكذا كل شجرة ، لأن ثمرة البرتقالة تعطى صورة أوراق ملتفة فى رأس غصن ، وأما البطيخ فلأجل تفاهته كان ضخما وغير قوى كشجرته فى الضعف والتفاهة ، عكس النخلة فانها قوية وحملها كذلك مشتمل على مواد قوية (فيتامينات) وهو يناسب العمل الذى يعيش به . وليس الغرض شرح هذه الأمور وإنما ننبه على فساد تشبيهه هذا

مرتبة الخلق فقط ، وتهور فيها ، ولم يتكلم عن الحوادث المتعاقبة ، بل اقتصر على ذكر المخلوقات المادية فى كمها وكيفها بكلام مدخول مخيل غير مستقيم

ونبين بطلان ما ذكره من وجوه :

أولا : قد علم أن النزاع بينه وبين خصومه من المؤمنين بالقدر إنما هو فى أعمال العباد وأفعالهم ، لا فى خلق السموات والأرض والأشجار ونحو ذلك ، فليس لذكر هذه المخلوقات المادية هنا مناسبة أصلا فهل ادعى خصومه أو أحد من الكفار أن المخلوقات خلقت على غير نظام ، أو أن خلقها غير متناسب ، أو أنها غير صالحة على هذه الهيئة ، حتى يسهب فى التكليف فى هذا التعريف الاجنبى عن هذا المقام ويطنب فيه ، وهل كان المعتزلة والقدرية الموجودون فى آخر عهد الصحابة والقرون المفضلة يجادلون فى اتقان خلق هذه الأشياء حتى يتكلم الصحابة ومن بعدهم فى القضاء والقدر ويضللوا أولئك ومن اقتدى بهم ، وانما قصده التجاهل والتماص من النصوص الصريحة فى تقرير هذا الأصل فعدل الى المراوغة وهيهات

ويقال ثانيا : لا مناسبة بين سياقك للآيات والشواهد الأخرى وبين تعريفك للقدر ، فان الآيات التى استشهدت بها حجة عليك ، فان الله تعالى يقول ﴿قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾ وقال تعالى ﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ وقال تعالى ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ فأخبر سبحانه بأصرح بيان وأوضحه أنه خلق كل الاشياء بقدر ، وأنها عنده بمقدار ، وأنت عاندت هذه النصوص فأخرجت أكثر الأشياء من خلقه وتصرفه ، فان الأعمال والحوادث والمعانى وغيرها كلها داخلة فى هذه المخلوقات بلا ريب ، فأنفس الاشياء بل أنفس مافى العالم أعمال الرسل والأنبياء والملئكة والمؤمنين ، وأنت تريد إخراجها من أن تكون واقعة بمشيئة الله وقدره ، فتجعلها غير مخلوقة ، فلا يهدى من يستهديه ولا يعين من يستعين

به ، فكيف تستدل بالآيات وهى حجة عليك

ويقال ثالثا : دعنا من هذه المراوغة والالتجاء الى الاشجـــار كالبرتقال والبطيخ والنخل ، فمحل النزاع شيء آخر غير هذا الذى هربت اليه ، وهو أعمال الخلائق كلها خيرها وشرها . أخبرنا هل تعترف بأنها من مخلوقاته تعالى التى خلقها ، أم خارجة عنها . فان قلت خارجة عنها فقد صرحت للناس بأنك مجوسى ، مع كونك ملحدا منافقا حيث أثبت لهذا العالم خالقين خالق للاعمال وخالق لغيرها . وان قلت بل هى من مخلوقاته رجعت الى قولنا رغم أنفك وسقط اعتراضك من أساسه ، فانه من المعلوم أنه تعالى لا يخلق شيئا إلا بعلمه وقدرته مشيئته . فان قلت انه خلق فيهم قوة يقدرون بها على الفعل والترك اختيارا فان شاءوا فعلوا وان شاءوا تركوا ، قلنا : هل فعلهم الذى يفعلونه بهذه القوة المخلوقة فيهم يقع قهرا عليه تعالى ومن غير علمه أو باذنه . فان قلت بل فعلهم يقع قهرا عليه ومن غير علمه أو قهرا عليه بعلمه فقد أظهرت للناس أنك شر من المجوس لأنك حكمت على الله بان عبده قهره ، وأنه أحدث فى ملكه مالا يريده ، وأن ارادته غلبت ارادة الله . فان قلت بل فعله بعلم من الله وإذنه قلنا لك : هذا قولنا الذى عاديته ، وبطل اعتراضك من أصله

ويقال رابعا : من المعلوم أن كل موجود ـ سواء أكان ماديا أو معنويا ، أدبيا او غير أدبى ـ كائن بعد أن لم يكن . والعبد ـ بصفاته كلها ـ من هذه المخلوقات ، فهو سبحانه الذى خلق العبد سميعا بصيرا متحركا فاعلا مختارا عاقلا ، وكونه يفعل بالقوة التى خلقها الله فيه لا ينفى أن يكون فعله مخلوقا لله ، كما أن ثمرة البرتقال الخارجة من شجرتها مخلوقة لله ، فان خروجها باذن الله ولو شاء الله عدم خروجها لم تخرج ، وفعل العبد وقع باذنه ولو شاء الله عدم فعله للأشياء لم يفعل ، قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك مافعلوه ﴾ ، ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ ، ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ فالشجرة بثمرتها

والانسان بعمله من مخلوقات الله ، فالأعمال والنتائج والأسباب والمسببات - سواء اكانت مادية أومعنوية وسواء أكانت اختيارية أواضطرارية - كلها من مخلوقات الله تعالى ، فالذى يريد أن يجعل فى هذه المخلوقات ما هو مخلوق لله وما هو مخلوق لغيره بلا إذنه فهو مجوسى أو شر منه قال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فان كانت (ما) هنا مصدرية فظاهر ، وإن كانت موصولة فهى دليل أيضا بأن عملهم مخلوق ، فان التأليف والصنعة فعلهم بلا ريب ، بخلاف المادة الأصلية فانهم لم يعملوها فصار عملهم مخلوقا كما قال تعالى ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ ، ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾

ويجب هنا أن يعلم الفرق بين فعل الله ومفعوله وخلقه ومخلوقه ، وأنه ليس الخلق الذى هو نفس الفعل هو المخلوق الذى هو أثره ، فالأشياء المخلوقة إنما وجدت بفعله لا أنها هى فعله ، فالتكوين شىء والمكون شىء آخر ، هو أثر التكوين ، كما قال تعالى ﴿ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فلا يجوز وصفه تعالى بشىء من مخلوقاته الحادثة فى غيره ، فانه اذا خلق فعلا فى محل عاد حكم ذلك الفعل الى ذلك المحل ، فالصلاة فعل قائم بالعبد والعبد هو المصلى وهى مفعولة له بمعنى أنه تعالى هو الذى جعل العبد المصلى ، فهى صفة لغيره ، وهى من مفعولاته التى هى أثر فعله ، لأنه هو الذى خلق الارادة والقدرة والاختيار فى العبد حتى جعله مصليا ، فالفرق بين الفعل والمفعول ثابت ، بل نقل البغوى الاجماع من أهل السنة على أنه ليس الفعل هو عين المفعول كما يأتى تقريره

ويقال خامسا : كما أنك ادعيت أن الأشياء المادية فى كل أفرادها مقدرة بمقادير ونسب وحدود فهكذا نقول : والاعمال والأقوال مقدرة أيضا بمقادير ونسب وحدود ، إما تقديراً شرعيا أو كونيا أو شرعيا وكونيا معاً ، فالصلاة وهى أفعال وأقوال مقدرة تقديرا شرعيا من ناحية الكم والكيف ، بل كل

ركن فيها قوليا أو فعليا - مقدر تقديرا فى غاية الضبط والاتقان والمناسبة لحال المصلى والزمان والمكان بصفة لا تقبل الزيادة والنقص ولا التبديل ولا التحويل ، وكذلك يقال فى الزكاة والصيام والحج ، فالوقوف بعرفة والطواف كل ذلك مقدر بمقادير لا يمكن لأحد تبديلها وتحويلها ، وكذلك الأفعال الشرعية الأخرى كعقود النكاح والطلاق والجنايات والحدود والفرائض وغيرها ، وهكذا الأمور العادية من الأكل والشرب والوطء ونحو ذلك مقدرة تقديرا مضبوطا متناسبا مع متعلقه من كل حيوان ، فهذه الامور كلها مقدرة بحدود وقيود ونسب ، فما هو الذى أخرجها عن خاق الله ومشيئته وقدرته ، وإن كنت تعترف بهذا فلا حاجة الى المغالطة واللجاجة الفارغة

ويقال سادسا : تقدير الله تعالى لهذه المخلوقات على هذه الصفات والحدود والهيئات والتكافؤ والتناسب والانسجام برهان واضح على علمه بها وقدرته عليها ويمتنع بداهة أن تصدر بغير مشيئته وإرادته ، وهو عالم بها قادر عليها ، فعلمه بها وقدرته عليها ومشيئته لها متقدمة على خاقها ، اذ يمتنع أيضا وجودها على هذا الضبط التام والأحكام الدقيق بدون هذه الأمور ، وفى حديث عبد الله بن عمرو « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم وغيره ، وإذا كانت كلها إنما وجدت بالمشيئة والقدرة والارادة بمقتضى علمه بها وكتابته لها فهذا هو القدر الذى يؤمن به الناس ، فانهم يؤمنون بأن هذه الأمور قدرها عليهم أى أجراها وخلقها بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه وحكمته ، وكتابته لهذه المقادير برهان واضح على أنها فى غاية الضبط والأحكام وعدم الفوضى التى يعتقدها الملاحدة وأضرابهم حيث أسندوا أمور العالم إلى نواميس الطبيعة ، فلا علم ولا إرادة ولا كتابة ولا غير ذلك ، بل تفاعل وحوادث قسرية تجرى على حسب المصادفات وملكة تصرف الانسان ، وهذا هو عين الفوضى ، بخلاف الأمور التى تجرى على ما ذكر فى النصوص فانها غاية النظام المحكم ،

قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب فأتاه ناس من بنى تميم فقال « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين . ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، اذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . وقالوا : جئنا لنسألك عن هذا الأمر . قال : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض » فنادى منـــاد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فاذا هى ينقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أنى كنت تركتها ولم أقم . وفى حديث عبادة بن الصامت « ان أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقال : يارب وما أكتب . قال : أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » رواه أبو داود والنصوص فى هذا كثيرة ، فدل على أن هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث كلها صغيرها وكبيرها خيرها وشرها مقدرة بالعلم والكتابة والقدرة والمشيئة ، كما أنها مقدرة فى كمها وكيفها . فلماذا اعرضت عن هذا كله مع دلالة النصوص الكثيرة عليه ، وهو النظام الباهر ، فالذين آمنوا بالقدر بهذا المعنى هم الذين فى الحقيقة آمنوا بنظام الله فى شرعه على ألسنة رسله ، بخلاف الزنادقة ومن شاكلهم حيث كفروا بهـــذا وآمنوا بالفوضى ، فمن كفر بمشيئة الله وعلمه وقدرته على هذه الحوادث فكيف يكون مؤمنا بنظام العالم

ويقال سابعا : قد تضافرت النصوص التى لا تعد ولا تحصى بأن حوادث العالم بما فى ذلك من أعمال العباد كلها من غير استثناء صادرة عن مشيئة الله

وإرادته وقدرته ، ولم يصدر منها شيء قهرا عليه وخارجا عن علمه وقدرته وإرادته ، والأدلة فى ذلك أكثر من أن تحصر ، وقد عدل هذا المغرور عنها وذهب يتفلسف فى خلق السموات والأرض والأشجار ، مع علمه بأن المشركين مقرون بذلك ، وأنه لا حاجة إلى بيان ما ادعاه ، فانهم مقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه هو الخالق الرازق ، وقد حكاه القرآن عنهم ، وإنما كان الكلام فى أمر القدر فى أفعال الخلائق بخلاف ذواتها فقرر الكتاب هذا الأصل ، قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ وقال تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ، ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ والآيات فى هذا المعنى أكثر من أن تحصر وهى فى غاية الصراحة فى أن أعمال العباد واقعة بمشيئة الله وإرادته وأنه لا يمكن أن يجرى شيء من هذه الأعمال فى ملكه بخلاف مشيئته وإرادته الكونية ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأن كلا ميسر لما خلق له ، قال

الإمام ابن القيم فى شفاء العليل (١) الباب الثالث عشر فى المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهى مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها : وهذا أمر متفق عليه بين الرسل ، وعليه اتفقت جميع الكتب الالهية والفطر والعقول والاعتبار ، وخالف فى ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وهى أشرف ما فى العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته ، بل جعلوهم هم الخالقين لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته ، وكذلك قالوا فى جميع أفعال الحيوانات الاختيارية ، فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتديا ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً والكافر كافراً والمصلى مصلياً وانما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا بجعله تعالى ، وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية والسنة وأدلة التوحيد وصاح بهم أهل العلم والايمان من أقطار الأرض ، وصنف حزب الاسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف فى الرد عليهم ، وهى أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى ، ولم تزل أيدى السلف وأئمة السنة فى أقفيتهم ونواصيهم تحت أرجلهم ، إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض ودعتهم بالسنة والسنة لا يقوم لها شىء فكانوا معهم كأهل الذمة مع المسلمين ، إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها ، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه ، وقالوا : العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له فى وجودها ولا هى واقعة بارادته واختياره ، وغلا غلاتهم فقالوا بل هى عين أفعال الله ولا تنسب لهم إلا على المجاز ، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده فى النار على ما لم يكن له فيه صنع ولا هو فعله ، بل هو محض فعل الله ، وهذا قول الجبرية ، وهو وان لم يكن شرا من القدرية فليس هو بدونه فى البطلان ، وجماع الرسل واتفاق الكتب الالهية وأدلة العقول والفطر والعيان تكذب هذا القول وترده ، والطائفتان فى عمى

---

(١) صحيفة ٤٩

عن الحق القويم والصراط المستقيم . ثم اندفع ابن القيم فى الكلام على معنى القدرة والاستطاعة والتأثير وذكر أقوال الطوائف ، ثم ذكر القول المختار الصحيح الذى هو قول أهل السنة والجماعة فقال عنهم : « فانهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة ، وينزهونه عن أن يكون فى ملكه مالا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ماقدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تخصيص عندهم فى هاتين القضيتين بوجه من الوجوه ، والقدر عندهم قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه ، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة اذا قالها غيرهم على المجاز اذ العالم علويه وسفليه وكل حى يفعل فعلا فان فعله بقوة فيه على الفعل ، وهو فى حول من ترك إلى فعل ومن فعل الى ترك ومن فعل إلى فعل ، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد . ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه هو الذى يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلى مصليا والمتحرك متحركا ، وهو الذى يسير عبده فى البر والبحر ، فهو المسير وعبده السائر ، وهو المحرك والعبد المتحرك ، وهو المقيم وعبده القائم ، وهو الهادى والعبد المهتدى ، وانه المطعم والعبد الطاعم ، وهو المحيي المميت والعبد الذى يحيىٰ ويموت . ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وارادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازا ، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوى وغيره . فحركاتهم واعتقاداتهم أفعالهم حقيقة ، وهى مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذى قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه ، والذى قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم ، فهم المسلمون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه المقدر لهم ذلك القادر عليه الذى شاءه منهم وخلقه لهم ، ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته ، فما يشاءون إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا أن يشاء الله » انتهى

وقال فى شرح الطحاوية (١) فى العقيدة السلفية ص ٣٦٥ : اختلف الناس فى أفعال العباد ، فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذى أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار ، وإضافتها الى الخلق مجاز وهى على حسب ما يضاف الشيء إلى محله ، وقابلهم المعتزلة فقالوا : ان جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعالى ، واختلفوا فيما بينهم أن الله يقدر على أفعال العباد أم لا ، وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهى مخلوقة لله ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلا كما عملت المشبهة فى إثبات الصفات فشبهوا ، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين وهم أثبتوا خالقين . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا

---

(١) حقق الفاضل النبيل الشيخ محمد نصيف : أن شارح الطحاوية هو العلامة على ابن على بن محمد ابن أبى العز الأذرعى الحنفى ، وله ترجمة حافلة فى (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) لابن تغرى بردى مخطوط فى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة . قال الشيخ محمد نصيف : وقد نقل الزبيدى شارح الاحياء فى الجزء الثانى صفحة ١٤٦ سطر ١١ فى مبحث كلام الله فصلا من شرح الطحاوية ص ١١٣ و ١١٤ ، ومنه تأكدت نسبة الشرح الى ابن أبى العز الاذرعى لأن النسخة المطبوعة فى المطبعة السلفية بمكة كانت خالية من ذكر اسم الشارح

يدل على أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فانما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة ، وأن إضافته ونسبته اليه إضافة حق ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى ، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فاذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الأخرى فانما يدل ذلك على مادل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم ، وهذا هو الواقع فى نفس الأمر ، فان أدلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضا » انتهى

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية [١] : وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره . والايمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين : فالدرجة (الأولى) الايمان بأن الله علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلائق ، فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب . قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، كما قال تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم مافى السموات والأرض ان ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى

---

(١) أى فى (العقيدة الواسطية)

مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء واذا خلق حينئذ الجنين قبل نفخ الروح فيه يبعث اليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد ونحو ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكروه اليوم قليل . وأما (الدرجة الثانية) فهى مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة والايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما فى السموات والأرض من حركة وسكون إلا بمشيئة الله تعالى لا يكون فى ملكه ما لا يريد ، وأنه سبحانه على كل شىء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوقات فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ، وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبى ﷺ مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الاثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها » انتهى . وتقدم قول النسفى « وللعباد أفعال اختيارية يثابون عليها ويعاقبون عليها » الخ . وكلام أهل العلم فى ذلك أكثر من أن يحصر ، فكلهم مجمعون على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها فعلهم ، فكونها فعلهم لا يقتضى أن تكون خارجة عن مخلوقاته تعالى ، فانه سبحانه لا يعصى قهرا أبدا ، وهل يظن مسلم أن الله يريد شيئا والعبد يريد شيئا آخر وأن إرادة العبد قهرت إرادة الله فوقع مراد العبد ، فان هذا أكفر الكفر ، بل

الله إذا أراد من العبد شيئا فلا بد أن يكون العبد مريداً له مائلا اليه ، فلا يشاء الله شيئا إلا والعبد قد أراده ، فلا تتعاكس إرادة الله وإرادة العبد فى فعل ما ، غير أن الطاعات يعان عليها العبد ، وإن كان مائلا إلى المعاصى بطبعه ولكنه يكرهها بدينه فيعينه الله ويصرفها عنه إذا علم منه الاخلاص فى كراهيتها وحب الله تعالى ودينه كما فى الحديث « ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » فلولا إعانة الله تعالى لعجز الانسان عن حجز نفسه الأمارة بالسوء عن السوء ، والانسان يجتمع فيه الميل إلى الشىء مع كراهيته للوقوع فيه ، وشهوته له مع حبه لعدم إتيانه ، لتضاد اتباع الهوى واتباع الدين .

وينبغى أن يلاحظ فى هذا المقام أن إرادة الله نوعان : إرادة قدرية كونية خلقية ، وإرادة دينية أمرية شرعية ، وهذه الاخيرة هى المتضمنة للمحبة والرضا ، وأما الكونية فهى المشيئة العامة لجميع الحوادث ، فهذه كقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ . وأما الارادة الشرعية الدينية فكقوله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ الى قوله ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فاذا إراد الفاعل أن يفعل فعلا فان هذه الارادة متعلقة بفعله ، واذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الارادة متعلقة بفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والأمر الشرعى يستلزم الارادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد اعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك بل يبين له الرشد فحسب ، فهو سبحانه أمر الخلق على ألسنة

رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وأوضح لهم الطريق وبين لهم الأسباب التى بها تحصل النجاة والعطب ، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله بأن يعينه فيجعله فاعلا لما أمر به باعانته له وتوفيقه ، ومنهم من خلق فيه الاستطاعة على الفعل ولم يخلق فعله ، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها غير جهة أمره للعبد على جهة الارشاد والبيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة ، وهو تعالى اذا أمر فرعون مثلا بالايمان كان قد بين له ما ينفعه ويصلحه اذا فعله وقد خلق فيه الاستطاعه على الفعل والترك ، ولا يلزم إذا أمره بهذا وبين له طريق السعادة أن يعينه ، فانه قد يكون غير مستحق للاعانة لما قد يترتب على ذلك من مفاسد وفوات مصالح أخرى من حيث كون الاعانة فعلا له تعالى واعانة لا من حيث كونه أمرا وارشادا ، فانه سبحانه يخلق ما يخلق لحكمة ويأمر بما يأمر به لحكمة أخرى ، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور اذا فعله أن يكون مصلحة للآمر اذا فعله هو أو جعل الآخر فاعلا له باعانته ، فجهة الخلق غير جهة الأمر ، فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه موضحا له طريق السعادة مريدا النصيحة والبيان لما ينفعه وان كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل لما قد يترتب على الاعانة من المفاسد من ناحية أخرى من حيث الاعانة لا من حيث الأمر والنصح والبيان ، اذ ليس كل ما كان مصلحتك فى أن تأمر به غيرك وتنصحه يكون مصلحة لك فى أن تعينه أنت عليه ، بل قد تكون المصلحة فى إرادة ما يضاده أو وقوع ما يضاد ما أمرته به ، فجهة أمر الانسان لغيره نصحا وارشادا وبيانا غير جهة فعله لنفسه ، واذا أمكن الفرق فى حق المخلوقين فهو فى حق الله أولى بالامكان مع ثبوت عدل الله وحكمته ورحمته وإحسانه ، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره ، أنشأه خلقا ومحبة ، فكان مرادا بجهة الخلق ومرادا بجهة الأمر ، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق

به أمره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، إما لعدم قبول المحل أو لفوات حصول الحكمة المقتضية لخلق ضده أو لهذا وهذا ، ولا شك أن خلق أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر ، فان خلق المرض ينافى العافية ، كما أن خلق الهداية ينافى وجود ضدها ، ووجود التضاد أمر لا بد منه لما فى ذلك من مظاهر الربوبية والاسماء والصفات ومعرفة الشر والخير والبلوى والعافية والعلم والجهل وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، إذ لو كان الناس أمة واحدة لاختفى وجهل أمور عظيمة فى هذا العالم وجهل قدرها .

فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الأشياء

وليس غرضنا هنا بيان وجوه الحكمة فى التفاوت والافاضة فى بسط هذا الأصل العظيم فان ذلك يستدعى تطويلا خارجا عن موضوع الكتاب ، وقد بسط الكلام عليه العلامة ابن القيم فى شفاء العليل ، فمن أراد ذلك فليراجعه ، ويكفى المسلم العاقل أن يعلم أن الله سبحانه رب كل شىء ومليكه وأنه العليم الحكيم الذى له الغاية فى العلم والحكمة ، وليس من شرط وجود حكمة الله أن يطلع الناس عليها كلها ، والله سبحانه جعل فى العبد قدرة واختيارا على الفعل والترك ، وأنه ينفر مما يكرهه ويضر به ويحب ويميل الى ما ينفعه ، وانه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأنه يعين من يحب طاعته ويميل اليها ويدعوه بتضرع وصدق وإخلاص ويهديه وييسر له أموره . وأن من تمرد عليه وشمخ بأنفه عن طاعته واتباع رضاه وكله إلى نفسه وخلى بينه وبينها حتى يضل فيطبع على قلبه ، وليس العاقل بمكلف أن يدخل بين الله وبين عباده فيشغل نفسه بما لا يعنيه فى مثل هذه الأمور الغيبية فيقول مثلا : لم كان كذا وكذا ، وإذا كان كذا كان كذا وكذا ، فى أمور القدر ، فانه يمتنع أن يكون الانسان محسنا الظن بالله ويعتقد من صميم قلبه أنه عليم حكيم وأنه رءوف رحيم ثم يذهب يتعنت فى أمور القدر متجاوزا الألفاظ الشرعية ، والفرق واضح لمن

نور الله بصيرته بين قولنا ان الله خالق فيه قدرة واختيارا على الفعل والترك وقولنا ان الله خالق فعله وان فعله مخلوق لله وانه لا يفعل إلا ما شاء الله أن يفعله ، فقد بينا أن الخلق ليس هو عين المخلوق ، وأن الفعل ليس هو عين المفعول بل هو أثره ، فأفعال الانسان من حيث كونها مفعولة لله داخلة فى خلقه لا أنها فعله ، فهى فعل الانسان ، كما أن الأكل والشرب والقيام والقعود والصلاة والصيام أفعال للانسان باختياره مضافة اليه حقيقة لا مجازا ، وهى مفعولة لله بمعنى أنها وقعت باذنه ومشيئته لا قهرا عليه وخفاء عليه ، لكن الطاعات لا بد أن يكون فيها إعانه من الله تعالى لعبده ، بخلاف المعاصى فان الله يكرهها ويمقتها ولا يعين عليها ، ولا يلزم من خلق القدرة والاختيار والارادة فى الانسان وجود الفعل مطلقا ، فان الاستطاعة التى هى مناط التكليف فى الأمر والنهى لا يلزم أن تكون مقارنة للفعل ، وأما الاستطاعة التى يجب معها وجود الفعل فهى مقارنة له ، فالأولى كقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾ وقول النبى ﷺ لعمران بن حصين « صل قائما ، فان لم تستطع فقاعدا ، فان لم تستطع فعلى جنب » ومعلوم أن الحج والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل أو لم يفعل ، فهذه لا يجب أن تكون مقارنة للفعل ، وأما الثانية فكقوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ ، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ وهذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة واتباعها واشتغل بضدها ، فهو لاشتغاله عنها بضدها وكراهيته لها لايستطيع ذلك ، وهذه الاستطاعة هى المقارنة للفعل الموجبة له كما قرره الشيخ تقى الدين وابن القيم وغيرهما [١]

---

(١) راجع ص ٢١ و ٢٢ ج ١ (العقل والنقل)

فصل

ثم انه أطال فى تقرير كون هذه الموجودات المادية مقدرة من ناحية الكم والكيف ، وكرر الكلام فى ذلك ، وقد بينا لك أن هذا خارج عن محل النزاع ، واستدل بقوله تعالى ﴿ قل انكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ثم قال : فقوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ وقوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يراد به القدر الذى ضل فيه الناس وصيروه عامل ركود وانحطاط مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط ، والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق ، وختام الآيات بقوله ﴿ العزيز العليم ﴾ هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء فى مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده [١] فان العزيز هو القوى الغالب والعليم هو الذى يفعل ذلك ويقدر عليه [٢] لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزا وإما أن يكون

---

(١) يوهم أن المسلمين يقولون ان هذه المخلوقات غير متكافئة وغير متناسبة وأنه تعالى لا يضع الأشياء فى مواضعها ولا يعطى كل شيء ما يستحقه ، وقد بينا لك ان هذا الذى يحاول رمى المسلمين به هو مذهب الملاحدة الذين يسندون الامور الى الطبيعة

(٢) يوهم أن المسلمين يقولون ان الله لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه ، وأنه ليس بقوى ولا غالب ، وإلا فأى داع الى التكلف فيما هو معروف عند كل عاقل من المسلمين

جهلا ، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لانه العزيز العليم (١) ولو كان التقدير ما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال فى اختتام الآية ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير (٢) تعالى الله عن ذلك وقوله ﴿ وبارك فيها ﴾ إشارة الى سر القدر ولبابه وغايته (٣) وقوله ﴿ ائتياطوعا أو كرها ﴾ اشارة الى فائدته والى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل . وقوله ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾ اشارة الى قانون الجاذبية العام فانه هو الذى يحفظ هذه المخلوقات من الهوى والتصادم ، وهذا هو الحفظ والتزيين . والرواسى هى الجبال ، يعنى أنها ثابتة فى أماكنها لا تتمايل ولا تتطاير مع دوران الارض ودورانها هى معها ، وكل هذا يرجع الى قانون الجاذبية »

هذا كلامه بحروفه ، فهو يفسر القرآن كيفما شاءت شهوته وهواه ، لانه المقدم فى الأمر كما يقول ، وقد سكت عن تفسير اليومين لأنه يضاد ما ذكره فى خلقها وأنها مكثت ملايين السنين كما يأتى ، ولو شاء لحرف اليومين وجعلهما سنين أو أشهرا أو أياما أو غيرها كفعله فى غيرها . وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الكلام على هذه الأيام الستة (ص ٨٩ القسم الثالث مجموعة رسائل ابن تيمية طبعة المنار) : والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان

---

(١) لكن سيأتى كلامك أنه حد لنفسه حدودا لا يتعداها وحواجز لا يخرقها ، الى غير ذلك ، وأنه لا يتصرف فى الاسباب بقطع ووصل ، وهذا تصريح بعجزه عن تغيير نواميس الطبيعة

(٢) فعلى هذا كل تصرف يفعله الله فى خلقه وهو يخالف رأيك فى نواميس الطبيعة فهو ظلم وشر وسفه . ولو كنت تعتقد أن كل أفعاله تعالى قائمة على العدل والحكمة لم تدع هذا . والعامة الذين تشير اليهم قد أبنت عن اعتقادهم بان الله عندهم يتصرف فى الأسباب كيف شاء ، فهل هذا عندك هو السفه والظلم والشر

(٣) هذا هو سر القدر عنده

الذى هو مقدار حركتها مع إخبارها بأنها خلقت من مادة قبل ذلك وفى زمان قبل هذا الزمان ، فانه سبحانه أخبر أنه خلق السموات فى ستة أيام ، وسواء قيل ان تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدرة بطلوع الشمس وغروبها أو قيل إنها أكبر منها كما قال بعضهم ان كل يوم قدره ألف سنة فلا ريب أن تلك الأيام غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وتلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض » انتهى .

والحاصل أن ما ذكره هذا المغرور فكله يدور على أن التقدير المذكور فى هذه الآية هو القدر ، وقد رفض جميع الأحاديث الصريحة التى تخالف ما ادعاه ، وقد عرفت بطلان كلامه فيما سبق .

فصل

قال « وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه ، فمما جاء فى ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد اليها ، وقد استشار عمر الناس فى الرجوع فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضى ، فاختار بفطنته الثاقبة وبصيرته النافذة الرجوع ، فقيل له : أفرارا من قدر الله ؟ فقال — وأعجب بما قال — : نفرّ من قدر الله إلى قدر الله . ثم قال للمعترض : أرأيت لو هبطت واديا فيه مكان مخصب ومكان مجدب ، فان رعيت المخصب رعيته بقدر الله ، وان رعيت المجدب رعيته بقدر الله . ثم حُدث عن نهى الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك » ثم أخذ يفرع على هذا الأثر على عادته ويتحكم فيه على هواه فقال « وهذا صريح فى أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون » الى آخره

فيقال أولا : قد ذكرت فيما يأتى قريبا الحديث الناص على أن عمر تبرأ من نسبة هذا اليه ، وردك للحديث مع تصحيح العلماء له مضروب به وجهك لأنه مبنى على أنك المقدم فى كل أمر ، وحينئذ فلا يسوغ لك الاحتجاج بهذا الحديث أصلا

ويقال ثانياً : قد تقدم ما ذكرته أن عمر كان يمنع من كتب الأوائل والتوراة والانجيل ويعاقب على ذلك ، ثم جعلت هـذا الفعل من المقـادح العظيمة فى تأخر المسلمين ، فبصيرته النافذه وفطنته الثاقبة لم تقبلها هناك مع ثبوت ذلك عنه ، وهنا احتججت بما يثبت أنه قد تبرأ منه

ويقال ثالثاً : على فرض ثبوت هذا وأنه لم يتبرأ منه هو فى غاية الصراحة فى الرد عليك ، فانه فى رد جميع ما قررته فى تفسير القدر ، لأن حاصـل كلامك أن الحوادث المستجدة وأفعال العباد ليست مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وقدرته ، اذ لو كنت تقر بذلك لم تنازع المسلمين المعتقدين هذا ، فان عمر رضى الله عنه أثبت أن وقوع الوباء فى هذا المكان دون ذلك المكان من قدر الله ، ومعلوم أن وقوع الوباء أمر حادث من الحوادث الكونيـة ، فهو دليل على أنه تعالى هو الذى أنزله فى هذا المكان ، وأن كون الانسان يأتى اليه من قدر الله وكونه يفر منه من قـدر الله ، ومعـلوم أن الاتيان والفـرار أفعال حادثة فهى من قدر الله . ويوضح هذا أنه مثل الاتيان والفرار بالمرعى فى المكان المخصب والمكان المجدب ، ومعلوم أن رعى الأرض فعل حادث فسماه عمر قدراً ، فأين هـذا من كلامك الماضى والآتى فى قولك فى تعـريف القدر والقضاء أن معناهما « أن الله قد أوجـد هـذا العـالم مقـــدراً بمقادير مضبوطة محكوما بسنن لا تقبل التغيير ، وأنه تعالى قـد فـرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان » فهذا صريح فى أن الحوادث لا تصدر عن مشيئة الله وارادته وقدرته ، بل هو خلق هذا العـالم وتركه

يتفاعل بنفسه ، وعمر رضى الله عنه أثبت أن فعله من الفرار واتيان الأرض كرعى الأرض وسمى ذلك قدرا فتبين أن أفعال العباد من الفرار والاتيان والرعى وجميع الأعمال كلها من قدر الله ، كما أن الأسباب المادية ومسبباتها كلها من قدر الله لا تصدر إلا بارادته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقد قلنا فيما مضى : إما أن تلتزم بأن هذه الحوادث كلها من أسباب ومسببات من الأجسام والأقوال والأفعال تجرى بمشيئة الله وقدرته وإرادته . وإما أن تدعى أنها خارجة عن مشيئته وقدرته وإرادته . فان التزمت بالأول فلا معنى للمشاكسة والمعاكسة والعناد الطويل كما سبق ، وان ادعيت الثانى فقد أنكرت تصرف الله فى ملكه وتدبيره له وجعله معزولا عنه ، وهذا أعظم الكفر ، ولا حاجة الى هذا الخداع والتلبيس والمنافقة الظاهرة .

ولو أن رجلا فر من الطاعون فمات هل تظن أن الناس المقرين بالقدر يقولون أنه مات من غير قدر ، وهل تظن أنهم يوجبون على الانسان أن يلقى بنفسه الى التهلكة ويقولون هذا هو الايمان بالقدر حتى تستدل بهذا ، بل هم يوجبون على الانسان أن يفعل ما فيه صلاحه وفلاحه وينهونه عما فيه هلاكه ودماره ، ويقولون كل من الصلاح والفلاح والوصول الى ذلك من القدر ، وكذلك الهلاك ، كما فى الحديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وكما قال تعالى ﴿ والذى قدّر فهدى ﴾ فهو سبحانه إذا قدر للعبد شيئا فلا بد أن يهديه لأسبابه التى توصله الى ما قدر له . وقال تعالى ﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ فهذا نص فى أنه أعطى الانسان خلقه وهداه لما قدر له كما فى الآية المتقدمة فخلق الانسان على صفته بمقداره وحدوده وهيئته ثم أعطى خلقه من أقوال وأفعال ومعلومات كلها مقدرة عليه مخلوقة لله تعالى ليس لأحد فيها خلق البتة

ثم قال « فذكر ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى قال : أخرج

الطحاوى باسناد صحيح أن عمر قال : اللهم إن الناس نحلونى ثلاثا أنا أبرأ اليك منهن ، زعموا أنى فررت من الطاعون وأنا أبرأ اليك من ذلك . وساق بقية الثلاثة . وهذا يجب أن لا يكون صحيحاً ، اذ كيف يبرأ عمر من شىء أمر به الرسول ، ومن شىء فعله ووافقت الصحابة عليه واحتج له ذلك الاحتجاج المسكت »

قلت : هكذا ساق الحديث واكتفى فى رده بما ترى فى قوله « يجب أن لا يكون صحيحاً » بناء على أنه اذا قال قولا أمن الدهر لقوله ، وأنه هو المقدم فى كل أمر . وحيث أن موافقة الحديث لهواه شرط من شروط صحته فمتى وافق هواه فهو صحيح بلا ريب ، ومتى خالفه فهو كذب بلا شك ، فكان هذا الحديث غير صحيح لعدم وجود شرطه فيجب أن لا يكون صحيحاً ، وكيف يكون صحيحاً وهو لم يوافق هواه الذى استوجب أن يكون المقدم فى الأمر وأن يفرد بالطلب والرغبة والرهبة ، هذا لا يكون على مقتضى قاعدته أبدا ، وإلا فرجل يذكر حديثا مخرجا باسناد صحيح قد صححه أهل العلم يرده بقوله يجب أن لا يكون صحيحاً ولا يذكر العلل التى بها كان غير صحيح ، لا شك أنه يرى لنفسه الحق فى إبطال الأحاديث وتصحيحها بمجرد تحكمه فى شريعة الله ونظامه ، ولو أنه ذكر أن أحداً ضعفه أو أنكره أو جعل فى صحته نظراً ونحو ذلك لكان أسهل ، أما إيجاب عدم صحته هكذا فطيش وجنون ومجازفة ظاهرة

ثم ذكر الحديث الذى فيه أنهم سألوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئا . قال : هى من قدر الله . ثم قال : وقدر الله فى الحديث هو ما شرحنا

فيقال : قد تقدم الكلام على ما شرحه وانه لا حجة له فيه ، بل هذا الحديث يؤيد ما يعتقده المسلمون ، فان التداوى أفعال والأدوية أكثرها

معمولة مصنوعة حادثة [١] فإذا كان النبي ﷺ قد جعلها من قدر الله فقد دل على أن أفعال العباد وأعمالهم كلها مما قدر الله ، وأنها كلها من تصرف الله في المتجدد المستمر في ملكه بقدرته ومشيئته ، وهو دليل على أن الأسباب ومسبباتها كلها من القدر الذي هو مربوط بالمشيئة والارادة ، ومعلوم أن بعض الأدوية لا تنفع بل فيها ما يضر ، فالله تعالى هو الذي قدرها أدوية للأمراض ، كما أنه هو الذي قدر الأمراض . وبالجملة فقد بينا لك فيما سبق أن جميع ما في الكون هو تحت قدرة الله وإرادته ومشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فمن ادعى أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه فقد عاند الله جهاراً ، فلا حاجة إلى أن يدعى الاسلام ويتحمل عذاب النفاق وذلة الخداع .

فصل

ثم ذكر بيتين للبحترى وشنع عليه في رأيه في القدر ، ثم ذكر بيت ابن هانىء الذي يقول فيه :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم قال « انه ذهب كما ذهب الجميع الى أن الأقدار هي القوى الخفية الخبيثة الظالمة التي أرسلت على هذا الانسان تسوسه شر سياسة ، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقى غوثا ، وتذوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الاستمتاع بمواهبه وأعماله [٢]

---

(١) كما قال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾

(٢) قاتلك الله ، من الذي جعل الأقدار بهذا الوصف ، ومن الذي أعطاه المواهب يستمتع بها ثم ذاده عنها

فلينظر المنصف الى هذا الملحد كيف استدل بهذا البيت ثم ركب عليه هذا الخبث وجعل المسلمين يرون أن القدر هو القوى الخفية الخبيثة ، فجعلها قوى خفية خبيثة حيث ذكر أن الجميع ذهبوا الى هذا ـ ولا بدع فيمن عادى الله ورسوله والمؤمنين ومن اجترأ على المقام الأقدس أن يتكلم بهذا . ولو قيل لهذا الزنديق : بين لنا من هم الجميع الذين ذهبوا الى أن القدر قوى خبيثة لم يجد من المسلمين نفراً واحداً يدعى هذا ، اللهم إلا أن يجد زنديقاً مثله يسميه مسلماً فقد يكون ، والغرض الحقيقى من هذا هو تشويه سمعة هذا الأصل الدينى وتركيز كراهيته فى النفوس ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يشكون فى كفر من اعتقد هذا فى مشيئة الله تعالى وقدرته وقضائه وقدره ، فالله ينتقم منه إنه عزيز ذو انتقام .

فصل

ثم سلك فى تفسير القضاء مسلكه فى تفسير القدر سواء بسواء ، فادعى أن معناه أن هذه المخلوقات قد قضى من خلقها على هذا التكوين الطبيعى ، فكان معنى القضاء والقدر سواء وهو خلق الأشياء المادية وايجادها على هذا التكوين المحكم ، وقد علمت مما سبق أن مسألة اعتقاد خالق العالم على ما هو عليه من الاتقان والإحكام أمر لا ينازع فيه أحد من المسلمين ، بل المشركون مقرون بهذا كما تقدم بيانه ، وانما الكلام فى الحوادث المشهودة من الأعمال والأفعال وغيرها ، فالمسلمون يقولون كل ذلك بقضاء الله وقدره ومشيئته لها ، والدهرية والملاحدة ومن سلك سبيلهم يدعون أن ذلك مصادفات من تفاعل الطبيعة لا تعلق للارادة والمشيئة العليا به . وكلام هذا الملحد يقرر هذا فى الحقيقة ، وإلا فلا معنى لاعتراضه ونزاعه ، فقال وهو حاصل كلامه فى القضاء والقدر :

« فالقضاء والقدر معناهما أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير

مضبوطة ، محكوما بسنن لا تقبل التغيير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان ، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء ، وتعالى الله عن ذلك »

فيقال له : ما معنى التبديل والتعديل والزيادة والنقصان هنا ، أتريد أنه تعالى لما فرغ من خلق العالم عزل نفسه عن التصرف ، وأن هذه الحوادث المشهودة لا تعلق لها بمشيئته وقدرته وإرادته ، أم تريد أنه فرغ من ذلك وكل ما فى العالم يجرى على مقتضى خلقه وأمره ، أم تريد أمراً آخر ، فان أردت الأول فقد جاهرت بالكفر وجعلت يده تعالى مغلولة عن التصرف فى ملكه وأنه معزول عنه ، وان أردت الثانى فهو قول المسلمين فلا معنى لعداوتهم ورد رأيهم . ونحن نعلم أن هذا ليس هو مرادك ، ولكن هذا على فرض التنزل . وان أردت غير ذلك فلا بد من بيانه فانك خادعت هنا كثيراً ـ كعادتك فى كثير من هذه الأمور ـ من أجل الخوف والرهبة وإلا فمقصودك معروف . ثم انكارك التبديل مضاد لقوله تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ وكل الحوادث المستجدة ما هى إلا بدل عن حوادث ذاهبة . وأما التعديل فلا بد من بيان معناه ، وحينئذ يظهر الجواب عنه ، وقد علم أن المسلمين لا يقولون إن العالم محتاج إلى تعديل ، وأما الزيادة فأنت قررت أن العالم كان كتلة واحدة ثم انفجر فتوقا فكان شموساً ، ثم ولدت الشموس السيارات ، وولدت السيارات الأقمار على ما مرّ فى كلامك ، وهذا كله زيادة فى أصول العالم ، وقد أطلت فى تقرير التطور ، ومعلوم أنه زيادة بلا شك . فان كانت الزيادة التى أنكرتها من هذا الباب فقد تناقضت ، وإن كانت من غيره فلا بد من بيانه ، وكذلك النقص فانك لم تبين حقيقته هل هو فى الكليات أو فى الأفراد أو فى غير ذلك ، وقد قال تعالى ﴿ أو لم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾

والتحول المشاهد فى أفراد كثير من المخلوقات وأنواعها نقص عكس التطور . والحاصل أن كلامك هذا هذيان ليس من التحقيق فى شىء ، ومقصودك منه إبطال للقضاء والقدر الذى يعتقده المسلمون ، وإلا فقد بينا أنه لا بد لك من أمرين إما الاقرار بتعلق المشيئة بجميع الموجودات ، وإما انكارها ، وحينئذ ينكشف خداعك ونفاقك . أما التطويل والتهويل والذبذبة فى خلق العالم فهو تملص لا ينفعك ولا يغنى من الحق شيئا

ودعواك أن هذا شأن الضعفاء والجهلاء والسفهاء

يقال : قد تحكمت على الله فى القدر ، فان هذه أمور غيبية ، فمن أين لك أن تصرف الله فى ملكه على مقتضى علمه وحكمته هو شأن هؤلاء ، ولا يلزم من عدم اطلاع الخلق على حكمة الله أن يكون ذلك سفها وجهلا تعالى وتقدس ، بل مقتضى تأصيلك وتقريرك أنه تعالى بهذا الوصف ، فانك جعلته قد وكل عبيده الى الطبيعة ونواميسها تتحكم فيهم كما أرادت ، فهو لعجزه تركه لغيره يتصرف فيه بما شاء ، ولأنه لا يعرف كلياتها وجزئياتها ، ولأنه لعدم رحمته وحكمته لا يبالى بما يصيبهم ، ولا يفرق بين من أطاعه واتقاه وبين من عصاه وتمرد عليه ، فالمحسن كالمسىء سواء ، أما من إعتقد أن الله غفور رحيم عدل حكيم قائم على كل نفس بما كسبت قائم بالقسط فلا يجعل من كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ، بل حكم بأنهم لا يستوون وأنه يدبر الأمر ، وبيده الملك ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير ، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه كل يوم هو فى شأن ـ من اعتقد هذا فليس معتقدا إلا ما دل عليه نظام الله وشرعه وكتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

وقد قال هذا الملحد فى البحث العاشر الآتى « وجاء فى النصوص أن الوجود كله فى تغير وتغيير مستمرين فى طريق الكمال الخ » فكيف هنا يقول

ان العالم محكوم بسنن لا تقبل التغيير وان ذلك هو شأن الضعفاء إلخ . وهذا شأنه فى القلق والاضطراب

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء

وتارة تنتحى نجدا وآونة شعب العوير وطورا قصر تيماء

الكلام على المبحث الثامن - فى التوكل

عنوانه فى أغلاله هكذا :

(التوكل — أخطاء الناس فيه — كيف يجب أن يفهم)

هذا هو عنوان هذا المبحث . ولما كان هذا الملحد مؤسسا كتابه على هدم أصول الدين وقواعده الأساسية ، موجها سهامه إلى روحه وقلبه ، وعلم أن أصل الدين وقاعدته هو توجه الانسان بقلبه وقالبه إلى ربه تبارك وتعالى واعتماده عليه وإنزال الفاقة اليه والاستعانة به فى كل مهمة وقصد ، وهذه الأصول كلها تدور على الدعاء والتوكل وملاحظة القضاء والقدر - فهى أصول العبادة - جعل لكل واحد من هذه الأصول وما يتعلق بها من الخطب والصلاة معولا وسلاحا يجتثه من أصله ، ليقطع العلائق الدينية بين الله تعالى وبين عباده ، وبانقطاعها بزعمه يحصل التوجه إلى الطبيعة ونواميسها ، لأن معرفة ذلك فى رأيه لا يتفق مع الايمان بالله واليوم الآخر وهذه الأصول أبدا . فاجتهد فى إزالة هذه الأصول وإبعادها عن طريق دعايته الإلحادية ، فأفرد للتوكل هذا المبحث ، وسلك فيه مسلك نظائره من أصول الدين التى حاول هدمها . وقد أوهم الناس من أضداد الاسلام وغيرهم من الجهلاء أن المسلمين يعتقدون أن التوكل هو ترك العمل بتاتا ، والعجز والنوم والكسل ، وترك القيام بكل ما ينفعهم فى معاشهم ودنياهم ، وأنهم فعلوا ذلك فكانوا عاجزين متأخرين . وغرضه من هذا الافتراء هو حمل عهدة كل مصيبة على

الدين وأصوله كالتوكل ، على عادته فى حمل المصائب على الدين وأهله كما تقدم وكل مسلم عاقل يعرف دينه يعلم حقيقة العلم أن هذا الذى ادعاه بهت وفجور ومكابرة واضحة وتزوير على المسلمين ، فلا يمكن له بحال أن يجد ما يصدقه فى كتاب من كتبهم المعتمدة وعقائدهم المعتبرة ، وأن التوكل هو هذا الذى ادعاه . والواقع المشاهد من أحوال الناس خاصتهم وعامتهم خلاف ما ادعاه ، فان معاملاتهم وسيرهم وراء رغباتهم الكثيرة المختلفة سيرا حثيثا يناقض ما ادعاه ، فالناس إنما أتوا من حيث تركوا التوكل لا من حيث فعلوه ، كما يأتى توضيح ذلك . قال الملحد :

« التوكل ـ أخطأ الناس فيه ـ كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى أن يدخل النظام الجديد الغربى على الجيوش العثمانية ، فهاج الشعب وهاج الانكشارية ، يؤيدهم شيخ الاسلام والصدر الأعظم قائلين : انه لا يجوز أن تكون عساكر الاسلام متشبهة بالكفار ، فأحدثوا شغبا عظيما فى العاصمة وغيرها ، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون النظام الجديد ويريدون إفساد طهارة الايمان بأفعالهم الشنيعة ، ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عظماء الدولة الذين يطالبون بقتلهم ، وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الاسلام عطاء الله أفندى ، فجدوا فى ذلك حتى قتلوهم ، ثم خرجوا فى الطرقات ينادون : أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضا عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى يبدد فى دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة أردت أن تشبه الاسلام بالكفار ، وأغضبت الله ، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحاميا عن الدين ، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك ، والمملكة أضحت مضطربة ، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شىء شرف الايمان

وسلامة الاسلام ثم أصدروا استفتاء فيه : السلطان الذى يخالف القرآن هل يترك على تخت السلطنة . فكانت الفتوى : كلا . ثم صاحوا : قد صار معلوما عندكم أنه يتحتم عزل السلطان ، فما قولكم الآن ، هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالاسلام . فصاحت العساكر : كلا كلا ، لا نقبله سلطانا ، فليعزل . وفى نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذى أريد إدخاله على جيوش الدولة » (مصادر التاريخ الاسلامية)

ثم قال « هذه حادثة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التى سقط الناس فيها من جراء فهمهم التوكل ، بحيث صار أحد الأمراض الاجتماعية النفسية الاعتقادية التى تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة »

والجواب أن يقال : ونحن إنما نقلنا ما سقته لنبين به مقدار الهوة العميقة التى سقطت فيها من حيث لا تشعر من جراء فهمك لهذه الأصول ، حتى صار الجهل العريض والرسوخ فى الغباوة المحققة خلقا طبيعيا ملازما لك ، فما أشبه حالك فى استشهادك بهذه الحادثة بما شبهناك به سابقا بحال إخوانك فى الإباحية حين قالوا ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال بعض السلف عابوهم بغير عيب . وهذا الملحد لما كان يرى أن مخالفة القرآن أمر لا باس به ، بل ربما يجب ، استدل بهذه القصة ، فنقم على هؤلاء الذين نقموا على هذا السلطان الذى خالف القرآن فى إدخال النظام الجديد الذى خالف فيه القرآن ، ولهذا لم يجبهم سلطانهم بأنه غير مخالف له بل سياق القصة دليل على أنه معترف بذلك ، ولكنه رأى كما رأى بعض المنكودين المنكوبين أن مخالفة القرآن فى الأمور السياسية لا بأس بها ، بل يسمون المتقيد بأحكام القرآن جامدا خاملا ، ولهذا ضربوا بالجمود والخمول تحت أعدائهم والارتكاس الفظيع ، فهذا الملحد عاب على هذا الشيخ وانتقده هو وشعبه الهائجين على هذا النظام الخبيث الغريب الغربى وعدم استسلامهم له مع اعتقادهم أنه مخالف للقرآن .

ثم ان هـذا الفعل ليس بمجرد رأى رأوه بل هو باستفتاء وفتوى صادرة من أهلها ، ومعلوم أن هذه الدول الملحدة التى قد وهبها هذا الزائغ كل ما قدر عليه من إجـلال وثناء وتعظيم وتبجيل لو حاول أحد رؤسائها ادخال نظام غريب عليها بمجرد رأى رآه بدون موافقة أولى الرأى أو الشعب لهاج الشعب كلـه ولبطشوا بالرئيس أو غيره مهما كان الأمر ، هذا مع كونهم لا يرون أن هذا النظام الذى يراد تبديله منزّل من عند الله الحكيم العليم الرحيم ، وكم حاكمت هذه الدول من وزير أو كبير أراد تحويل أمر واحد من أمورها بمجرد رأيه فقتلته أو حبسته حبسا مؤبدا فضلا عن عزله وطرده ، وما من دولة من هذه الدول الملحدة إلا وقد حاكمت زعيما من زعمائها او اكثر ، وأوقعت به أشد العقوبات من أجل هذا الأمر مع كون هذا الذى يراد إبدا له كفرا مخالفـا للأديان ، ومع ذلك فقد أثنى عليها كلها أعظم الثناء وسبح بحمدها وقدسها أعظم التقديس ، بل رفعها إلى حد أن جعلها شريكة لله تعـالى فى أخص صفاته وهو العلم بكل شيء والتغلب على كل شيء ، فلما ان حصلت هذه الحادثة التى مضمونها إنكار ما يخالف القرآن والقيام على من حاول ذلك حرج صدره وضاقت عليه الأرض بما رحبت وجعل ذلك مشكلة كبرى ومصيبة عظمى ومرضا اجتماعيـا نفسانيا اعتقاديا قد ألب على الناس حتى سلبهم الحول والقوة فصار من الذنوب التى لا تغفر ، بل جعله حجة يحتج بها على المسلمين فى أغـــلاله المشدودة فى عنقه . يا لله العجب ، كيف يعيب عـلى دولة تدعى أنها على مبـدأ الاسلام والقرآن يأتى اليها أعداؤها بدسائس ملعونة فيروّجونها على رئيس من رؤسائها ثم يريد هذا الرئيس أن يقلب نظامها ومبدأها الذى تتعبد الله به ثم لا تعزله أو تقتله . وهذا الزنديق قد مدح مصطفى كمال لما غير دينها واختار أن تكون لا دينية ، وقد أعجب به وبرأيه (١) هذا الذى يضاد القرآن ، وليس هذا بكثير

---

(١) ذكره فى نبذته (كيف ذل المسلمون) ، وسيأتى مدحه له هنا أيضا

من مثله ، فان الزنديق لا بد أن يكون هذا مبدأه ، ولا بد أن يؤمن بالجبت والطاغوت ويقول للذين كفروا ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ .
ثم أى عيب فى قولهم أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم - وهى التعاليم المخالفة للقرآن - نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم الذى يبدد فى الدقيقة الواحدة الجيوش الكثيرة . فان هذا كله صحيح ولعله استكثر أن يبدد الله فى دقيقه واحدة الجيوش الكثيرة وعد هذا مجازفة منهم ولم يعتبر بما فعل بالأمم الماضية المكذبة للرسل كيف أهلكها الله وبددها ، بل ولم يستكثر ذلك فى الطاقة الذرية التى أخرجها الله على أيدى عباده فى وقت رفض الأديان وشيوع الزندقة والالحاد ، فهذا هو الوقت الملائم لها ، لينتقم بها من أعدائه ومن نصرهم وأعجب بهم ، أو لعل موضع انتقاده قولهم « وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم » يعنى لم قالوا هذا القول لأن الذى يتكل على الله ويتمسك بالقرآن ويترك النظام الجديد الذى يضاده هو عنده جاهل رجعى متقهقر بناء على أصله أن الديانة لها نتائج أخرى هى الملهاة والتعويق . فاذا كان هذا هو الذى خطر على باله فليعلم أنهم لما ردوا هذا النظام تقدموا تقدما عظيما باهرا ولم يصبهم تأخر ، وانما أصابهم ما أصابهم حين عادوا فأدخلوا النظام الجديد وأمثاله فغيروا فغير الله عليهم سنة الله التى قد خلت فى عباده أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، هذا مع ما هم فيه من المخالفة فى أمور أخرى كشيوع مذاهب الجهمية المنكرين لعلو الله على عرشه وعبادة قبور الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد والغلو فى كثير من نظريات الصوفية الباطلة

والمقصود أن سياقه لهذه الحادثة مستفتحا بها هذا المبحث منتقدا بها على المسلمين مما يدل على كثافة حجابه ، لأنه لم ينقم منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض ﴾ وانما ألجأه الى ارتكاب هذه الجهالة العمياء محنته الشديدة وولوعه الأعمى فى حب الأنظمة الجديدة ولا سيما

اذا كانت إلحادية محضة ، ومقته للأخلاق الدينية الأولى ، فانه مطبوع على تتبع الخبائث وكراهة الطيبات ومقتها والبعد عنها ، وطبعه هذا هو الذى أعماه عما به يستدل ، وهذا كله تنازلا على تقدير ثبوت هذه الحادثة على الصورة التى ذكرها ، والا فالمعروف أنهم قاموا عليه لما أراد مخالفة القرآن صريحا . ثم انه صاغ الدعوى على حسب ما تقتضيه شهوته وإرادته ، واحتج بها فجعل الدعوى هى الحجة ثم بنى عليها هذيانه ، وهذا خطأ مستقل ، ثم هى مع هذا كله برمتها تناقض أيضا ما ادعاه على المسلمين فى التوكل كما يأتى أنه الاستسلام والكسل وترك العمل . والحادثة تضمنت الجد والقيام والجهاد وحشد الجيوش فلو كان الأمر كما ذكر لم تجعل لها جيوشا محاربة وأسلحة وعددا عظيمة ، بل استسلمت وطلبت من الله ما شاءت واشتهت - على زعمك - بدون جيوش ، ولكنه مبتلى بعمى القلب والبصيرة فى كل ناحية من آرائه وأفكاره حتى مللنا من التنبيه على كثرة تناقضه وتهادم كلامه فى كل جملة وصحيفة الا ما ندر

فصل

ثم شرع يبين معنى التوكل الذى يعتقده المسلمون ، ولكنه صنع فيه كما صنع فى معنى القضاء والقدر ، فلم يذكر ما يفهمه المسلمون على وجهه من كونه الاعتماد على الله فى جميع الأفعال والأقوال المشروعة من الأسباب الدينية والدنيوية ، بل عكس المعنى لأنه يريد أن يطبق أصول الدين على ضده من قواعد الالحاد ، فيعكس المدلول فيجعل الشرك توحيدا والتوحيد شركا كما جعل العلم جهلا والجهل علما ، فادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب وهذا غاية البهت والمكابرة ، فجعل عبادة الله هى عبادة الأوثان ، فانه لا يختلف المسلمون أن التوكل من أنواع العبادة وأن من توكل على سبب فقد عبده ، كما نقل فى الاقناع وشرحه الاجماع على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفر إجماعا ، وبرهنوا على هذا الأصل بأن ذلك

كفعل عابدى الأوثان قائلين ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى ﴾ فجعلوا التوكل من العبادة ، بل هو نفسه قد صرح فى كتبه السابقة أن التوكل من أنواع العبادة (١) فكيف يبيح صرف هذه العبادة لغير الله ، ولا شك أن الأسباب كلها مخلوقة لله لا تجوز عبادتها ، فمن عبد غير الله كفر ، وسيأتى تصريح شيخ الاسلام بأن الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، ولم نعلم أحداً من جميع الكفار والمستهترين بالأديان ادعى أن التوكل على الله هو التوكل على الأسباب سوى دجال هذا العصر هذا الزنديق ، وهذا مع كونه استهتاراً واضحاً بالشرائع السماوية فهو قحة سافرة لا تخفى إلا على بليد كالأنعام

وقد زين له شيطانه أن يتقول على الفقهاء أقوالا لا أساس لها من الصحة ثم يستدل بأقوال مجهولة لبعض الصوفية ليخلط الحق بالباطل وليصدق دعواه فيما عزاه إلى المسلمين ، وقد ترك أئمة الاسلام فى معنى التوكل ككلام ابن القيم فى شرح المنازل وغيره كما ترك كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين فى عقائدهم وكتبهم المعتمدة ، وفسره بما خطر على باله مع مخالفته لكتب الدين كلها واللغة والنحو وغير ذلك ، فان أدنى كتاب من هذه الكتب يراجعه الانسان يجد فيه أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه أو الاستسلام له والوثوق به . أما كونه يجد التوكل عليه هو هو الاعتماد على خلقه من أسباب فهذا لا يمكن أن يوجد أبداً لأنه يتضاد مع معناه مضادة صريحة فقال :

«وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء كعادتهم فى تحديد معنى التوكل

(١) قد نقلنا شيئا من كلامه فى المبحث الأول ، وسيأتى نص كلامه بأن التوكل ركن من أركان الدين

اختلافا كبيراً [١] وكتبوا فيه كلاما كثيراً وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الاصطلاحى لا يمكن حصرها ، ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة أو كلمات :

فعندهم أن من اهتم لشيء فى هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئا فيها يوصل إلى شيء آخر أو أن شيئا من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها أو أن أحدا كائنا ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره أو أن أمرا متوقف وجوده على أمر آخر أو أن أمراً معلل بأمر فقد خرج عن جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه »

فيقال : هذا التلخيص الذى ذكره بهت وفجور ظاهر ترده كتب المسلمين المعتمدة كلها كما يرده الحس والضروة والعيان ، فليس فى المسلمين من يدعى أن هذا هو معنى التوكل ، فلا يمكنه بحال أن يستشهد بنقل عن أحد يعتد بقوله ، وإن كان قال هذا اتحادى أو من لا يعبأ بقوله فلا يجوز له أن ينسب قوله إلى المسلمين ، مع ادعائه أنه ليس المسلم هو الذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين . ثم أقوال اتحادية الصوفية والجهمية ونحوهم لا تعد من أقوال المسلمين ، ولو أن يهوديا ادعى على المسلمين بما تفعله الرافضة من سب الصحابة وكلامهم فى المنتظر بمجرد كون الرافضة تنسب نفسها للاسلام لكان دعوى هذا اليهودى من جنس دعوى هذا الزنديق سواء ، وقد كان يجب عليه

---

(١) غرضه من ذكر الاختلاف أنه شيء غير منضبط فيجب رفضه ، وقد كذب ، ليس فى أصله اختلاف ، واختلاف التعبير فى حدوده لا يوجب الاختلاف فى أصله ، كالحب فان الناس يعرفونه وان اختلفوا فى حده ، وكذلك البغض ، فالتوكل يعرفه أدنى عامى فضلا عن غيره ، فانه يقول توكلت على الله أى اعتمدت عليه ، واذا قيل له اعتمد على الله أو توكل عليه فهم من العبارتين معنى واحدا

فى مثل هذه الأمور أن ينقل كلام أئمة الدين فى معنى التوكل من عقائدهم أو كتبهم المشهورة ثم يجيب عنه ، ولكنه أصغر وأحقر من أن يسلك هذا الطريق الصحيح ، وإنما غايته أن يلجأ الى الخصلة اليهودية ، فهو اذا اضطر الى ذلك وحز به الأمر وأعوزته الحجة استعمل البهت والتحريف ولبس الحق بالباطل شأن كل منافق هدام . ولكن يجب أن يلاحظ قوله « أو اعتقد أن شيئا فيها يوصل إلى شيء آخر ، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها ، إلخ فانه يقصد باذن الله ، إذ هذا نظر المسلمين ، أما اذا اعتقد حصول ذلك استقلالا من دون الله ومشيئته فليس هذا خارجا عن حدود التوكل بل خارج عن حظيرة الاسلام ، فان من اعتقد أن نفسه أو غيره مستقلة عن مشيئة الله وقدرته ، وأنه يقدر أن يوصل لنفسه نفعا أو ضراً قهراً على الله فهو كافر ، أما إذا اعتقد أنه قادر على ذلك بالأسباب التى وضعها الله لذلك باذنه تعالى ومشيئته فهذا حق وهو الذى يعتقده المسلمون ، قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾

ثم قال : « وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله ، مسلما نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهنى والجسدى ، معتقدا أن الله سيفعل كل شيء بأسباب يوجدها هو أو بلا أسباب »

فيقال : وهذا أيضا بهت ظاهر ، فهو مطالب ببيان الآخذ والمأخوذ عنه الذى قال هذا القول ، وإلا فهى دعوى عدو على عدوه ، بل دعوى زنديق على مؤمن ، فيجب طرحها نهائيا كنظائرها

ثم قال : « ومن رأيهم أنهم كلما غالوا فى هذا الاستسلام وهذا التخلى عن

العمل والتفكير فى المصير والعاقبة لله التفت الله اليهم وسارع الى قضاء حاجتهم وإعطائهم ما يشاءون ، وأن ايمان المرء وإسلامه مقيسان مقدران بهذا الاستسلام والتخلى ، فكلما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسدادا ورشادا ، وعلى حسب اهتمامهم والتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم ، وعلى قدر تخلى الله تكون المصيبة والخسران »

فيقال : الجواب عن هذا كالذى قبله ، فانها كلها خبائث اخترعها زنديق ورمى بها المسلمين وطلب من الناس أن يصدقوه فيها بمجرد ادعائه بدون برهان ولا حجة ، فيطالب بالبرهان والا فمضروب بها وجهه ، ويكفى فى تكذيبها أن أدنى كتاب من كتب المسلمين يحرم البطالة ويوجب العمل ، وأعمال الناس المنظورة بالعيان لا تخفى ، مع أنهم يعتقدون التوكل على الله ، ولكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا

فصل

ثم قال « وقد ذهبوا الى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس ، وهى أن الموكل يذهب الى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير فى تدبير ما وكل اليه ، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الاهتمام بالتفكير فى شأنه معتمدا على وكيله وعلى إخلاصه وعمله واجتهاده كان ذلك التنحى أدعى الى رضا الوكيل والى اخلاصه »

فيقال : ومن قال لك ان التوكل على الله هو بمعنى توكيل الناس بعضهم لبعض ، لا بد من اثبات هذا ، مع أنك لما أردت أن تقرر معنى التوكل عندك فسرته بما يقارب هذا التفسير كما يأتى . ثم إن الوكيل لا يقضى حاجة موكله بدون عمل من الموكل وطاعة له واتباعا لكل ما تحتاجه الوكالة ، ولو أن إنسانا عادى إنسانا وعانده ثم طلب منه أن يكون وكيلا عنه فى كل ما يحتاجه

أو فى أمر من الأمور لم يحصل له ذلك ولكان هـذا الموكل إما سفيها وإما مجنونا ، ولا سيما إذا كان الوكيل عظيما ، فليس كل توكيل مقبولا حتى فى الانسان ، فالقياس باطل مع كون الدعوى باطلة من أصلها

ثم قال « ونحن هنا نثبت ما ذكروا من عبارات . فرأى بعضهم أن المتوكل لا يكون متوكلا حتى يفقد التميز »

فيقال : من هو هذا البعض الذى قال هذا القول ، فما أسفه رأيك ، فهلا سميته حتى تعرف حالته ومكانته العلمية من العلم والدين والامانة ، وحتى يكون لك فى ذلك شيء من الحجة . فالذى يريد أن يطعن فى أمم يدعى أنها تبلغ أربعمائة مليون ويدعى أن دينها محرف ، لا يكفيه أن يستدل بقوله قال بعضهم وقال أحدهم وهكذا ، بل لعل عقلاء كثير من الكفار يتحاشون من التفوه بهذا الادعاء ، لأن هذا من السخافات والترهات التى هى أوهى من بيت العنكبوت

ثم ساق أقوالا ساقطة كلها يقول منها : وقال بعضهم ، ورأى بعضهم ، ومن رأى فريق ، ومن قول طائفة اخرى ، وقال أحدهم ونحو ذلك . ومعلوم أن من يريد أن يخلع جلباب الحياء ويرفض العقل والدين فى إمكانه أن يكتب مجلدات على هذا النحو والهذيان البارد ، ثم تداركه الشقاء فنقل عن أبى يزيد وذى النون المصرى وأبى عبد الله القرشى ـ وكلهم من الصوفية ـ اقوالا غير منسوبة الى كتاب ، ولا شك أن حكم هذه كحكم قوله « قال بعضهم » ، ثم أدركه البلاء فنقل عن أبى يعقوب الزيات وعبد الله بن الجلاء [1] أن المتوكل

---

(١) ومن هو أبو يعقوب الزيات وعبد الله بن الجلاء فى علماء المسلمين . ثم كل هؤلاء قد شرطوا للتوكل شروطا كثيرة معروفة كما قرره الغزالى فى الاحياء وغيره فكيف أعرض عنها

لا يدخر شيئا ، ونسب ذلك الى الاحياء للغزالى ، وهكذا تكون حال من انسلخ من الدين واتبع هواه ، ثم انقلب على وجهه فنقل عن أبى سليمان الدارانى وذى النون وسفيان بن عيينة وعزا ذلك الى (تلبيس إبليس) ، وهو يعلم أن ابن الجوزى الذى نقل كلامه رده ورد أمثاله ، فرفض كلام ابن الجوزى فى القدح فيما عزى اليهم وهو استدل بها ، فانظر الى هذه المخازى والفضائح المتتابعة .

والعجب أنه نقل عن ابن الأثير أنه قال فى شرح غريب الحديث « معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد . وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول اليه » هكذا نقل عن ابن الأثير ، وهو حق وصحيح ، قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية ، فهذا الملحد يناقش ابن الأثير فى كون الله قائما بأرزاق عباده ، واذن فلينازع القرآن ، قال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ الآية ، وهذا كله لا ينافى الأسباب ، فان الله أمر بفعلها ، وما رأينا أحدا ترك رزقه اعتمادا على القدر أو التوكل ، وهل يظن عاقل أن أمة أو طائفة من الناس تركوا أرزاقهم أو غيرها توكلا على الله أو اعتمادا على القدر من دون فعل الأسباب ، انه لا يمكن لعاقل أن يدعى هذه الدعوى أبدا لأنها قحة ومكابرة لا شك فيها . وليس فى كلام ابن الأثير حث على ترك الأسباب حتى يستدل به . ثم إنه فسره بخلاف ما ادعاه الملحد من أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ، فقد تبين لك مما ذكرناه أنه لم يجد ما يصدق دعواه فيما عزاه الى المسلمين ، فانه لم يظفر بقول واحد ممن يعتبر قوله يشهد لما ادعاه ، وكتب العلماء مشحونة فى الحث على العمل وطلب الرزق مع كونهم يوجبون التوكل لأنهم يعلمون أن التوكل لا ينافيه أبدا ، بل العمل مع التوكل هو العمل القوى الناجح الصحيح ، بخلاف العمل مع الالحاد والزندقة فانه عمل قاصر ،

فأكثر الشعوب الملحدة انما يدفع عمالها الى العمل دفعا قهريا ، واذا حصلت نتائجها فأكثرها تكون وبالا على أهلها أو على من هم على مبدإهم كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال « وفى قواميس اللغة : توكل على الله واتكل استسلم (١) »

فيقال : وهل فى هذا ما يستنكر أو ما يؤيد ما تدعيه فى معنى التوكل كما يأتى ، فليس فى هذا إلا بيان معنى التوكل وأنه الاستسلام لله ولعلك تريد أن يكون التوكل معاندة الله ، فان الاستسلام لله هو الاسلام ، فقد شهدت على نفسك أن قواميس اللغة فسرت التوكل بالاستسلام الى الله كما هو صريح فى قواميس اللغة وغيرها ، فانهم قالوا : توكل على الله واتكل استسلم له . فهل قالوا توكل على الله اعتمد على الأسباب كما ادعيته ، أو هل فى هذا نفى للعمل ، فانه لا يفيد بمفهومه نفى العمل ، وانما يفيد نفى العمل المستلزم نفى الاستسلام ، وعلى هذا فكل الأمور المشروعة والمباحة لا تنافى الاستسلام ، فانها استسلام بمعنى أنها امتثال لأمر الله وعمل بما أباحه ، فان الله لا يبيح ما ينافى التوكل الذى هو استسلام له ، فلا يبيح معاندته : ولا شك أن البطالة وترك العمل أو ترك الأكل والشرب مخلّ بالاستسلام لأن ذلك مخالفة لما أمر الله به من الأعمال المشروعة . وهذا المغرور استغرب الاستسلام لله واستكثره ، فلهذا ساق هذا الكلام فى معرض الانتقاد ، فعلى هذا فهو يريد بالتوكل معاندة الله والخضوع للأسباب المادية ، فقد تقدم ادعاؤه بأن من حاول الخروج عن نواميس الطبيعة هلك ولا محالة ، ومن سار معها نال ما يبغى ، كما تقدم ادعاؤه

---

(١) الذى فى قواميس اللغة : استسلم اليه . وقد حذف « اليه » تحريفا وتعمية للمراد

بأنه يجب منازعة الله فى عمله وقوته وقدرته الخ فمعاندة الله والخضوع للاسباب هى التوكل عنده كما تراه ظاهرا من كلامه ، ولا شك أن من اعتمد على الأسباب وحدها من دون الله فقد عاند الله ولم يره كفوا لإعانة اوليائه وخذلان أعدائه ، بل الأصنام هى التى لا تنفع من اعتمد عليها ، ولا تفرق بين الناصح والغاش والمؤمن والجاحد . وسبب غلطه هذا هو أنه فهم بفهمه الجامد أن الاستسلام يفيد ترك العمل مطلقا ، وهذا من كثافة حجابه ، ولو لزم هذا للزم بطلان الأعمال الدينية والدنيوية المشروعة ، وقد بينا أن الأمور الصناعية ونحوها كلها من الأمور التى أمر الله تعالى بها عباده بحسب الحاجة والقصد ، فلا تنافى التوكل ، وانما ينافيه التمرد على الله وعصيانه والاعتماد على النفس والغير من كل الأسباب ، لان هذا كله ليس باستسلام لله واتكال عليه بل هو اتكال على غيره ، فما ذكره حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم انه بعد أن ذكر هذه الأقوال التى قد عرفت ما فيها ، شرع يطعن فى الهواء ويحارب الخيال ويجادل الشهر والدهر ، وقد أطال وأطنب فى التشنيع على المسلمين بأنهم يعتقدون هذه الاعتقادات ، وأنهم يلقون بها بين الناس وأنها تطايرت فى الكتب ومرنوا عليها ، فأصبحوا متأخرين ، فلا يمكن أن يتقدموا وهم قد اعتادوها ولقنوها . وأطال من هذا الهراء واللجاجة الفارغة .

وقد عرفناك فيما سبق ما عليه المسلمون فى هذا الأصل وغيره فى التوكل على الله ، وأنه غير ما اخترعه وادعاه ، فهو انما يرد على الهواء والخيالات التى لا وجود لها أصلا ، فالاطناب فى تطويل الرد عليه تكرار لا طائل تحته ، لأنه بناء على غير أصل ، وهو إنما يقصد به رفض التوكل وقطع العلائق بين الله تعالى وبين عباده الضعفاء ، قطع الله عنه علائق الرحمة عند حاجته اليها ، حيث صدّ عن سبيل الله وابتغاها عوجا . فجميع ما ادعاه هنا إنما يرد على

إخوانه من الملاحدة أو من أخلد الى العجز والكسل وقطع أوقاته فى مواضع اللهو والرقص والخلاعة والفجور لا يعرف صلاة ولا صياما ولا غير ذلك من الأعمال الدينية كما لا يسعى فى عمل دنيوى فيما ينفع امته ونفسه ، فان هؤلاء هم الذين على غاية من الكسل والبطالة وفساد الأخلاق ، وهم لا يعرفون التوكل ولا يرونه شيئا ، فانهم لما جهلوا خالقهم وتعاليم دينهم ولم يرفعوا بذلك رأسا تركوا التوكل وتركوا الدعاء وغفلوا عن ملاحظة القضاء والقدر فقطعوا صلتهم بالله تعالى واستعاضوا عنها صلة البغايا وأمثالهن وانغمسوا فى شهوات أنفسهم والفساد والفوضى والسرقة والتلصص وأكل اموال الناس بالباطل من الحيل المتنوعة والرشوة وغير ذلك . ومعلوم أن أهل هذه الأخلاق هم أبعد الناس عن التوكل كما أنهم أبعد الناس عن الأعمال الصحيحة النافعة ، وانك لتجد أخبث الناس نفسا واكثرهم خيانة وأكسلهم وأعجزهم هم البعداء عن الدعاء والتوكل وملاحظة القضاء والقدر وأمثال ذلك من أصول الدين ، وهذا أمر معروف بالحس والعيان ، بل لا توجد الفوضى والاضطربات إلا فى المواضع التى تفقد منها هذه الأصول أو تضعف فيها ضعفا كثيرا . فمذهب المسلمين الذى ننصره هنا وهو المذهب الحق فى التوكل هو اعتماد الانسان على ربه تبارك وتعالى فى جميع أعماله المشروعة والمباحة التى يعملها لمعاشه ومعاده ، فيعمل بصدق وإخلاص معتمدا على الله تعالى متوكلا عليه مستعينا به على قصده وإرادته معتقدا أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

فالاتكال على الله هو الاستسلام لله تعالى فى المصائب التى يبتلى بها الانسان ولا حيلة له فى دفعها فيحتسب ويدعو الله ويسأله العفو والعافية ونحو ذلك . هذا فى المصائب ، وأما فى الأعمال فيعتمد على الله فى ايصال النتائج صحيحة نافعة ، ويجد فى العمل بمباشرة الأسباب ويطلب المعونة والتسديد فى عمله كله ، فالتوكل فى استعمال الأسباب والأعمال كلها كمادة الحياة فى الأشياء الحية والنامية ، فهو النور والروح ، فمتى دخلت الحياة الأجسام القابلة لها نفعت

بحسب استعمالها ومتى فقدت تلك الروح صارت ميتة أو ضعيفة حياتها . وقد بينا فيما مضى أن الأعمال أنواع : أحدها ما يخص الأمور الغيبية الكونية كتخلف المطر وحصول العاهات الأخرى ، فالاتكال على الله فى مثل هذه الأمور أن يستعين بالله ويدعو بما شاء فى قضاء حاجته ويستغفره ويتوب اليه وأمثال ذلك ، ويسلم للواقع ، ويعلم أن الله سبحانه حكيم عليم رءوف رحيم بعباده ، وأن ما فعله فى خلقه فهو بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنهم مستحقون لما هو أعظم من ذلك ، فهو الحكيم العليم العدل الغنى الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ومهما أصاب الانسان من بلاء فلو قرنه بما أصابه من السراء والنعمة والفرح والعافية لم يجد الا أقل القليل مع كثرة الذنوب والخطايا . والنوع الثانى الأمور الدنيوية وهى كثيرة ، مثل أن يظلمه إنسان وهو غير قادر على مقاومته وليست مقاومته واجبة شرعا ، فيتكل على الله ويسلم له ، فان شاء دعا عليه وإن شاء ترك ، والله لا يضيع حق أحد على أحد فى الدنيا والآخرة . والنوع الثالث الأعمال التى يعملها مثل الجهاد والصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك ، فالتوكل على الله فى مثل هذه الأمور أن يقصد الإنسان الطريقة المباحة فيتوكل على الله فى عمله فيها ويستمد منه الاعانة والتوفيق ويعمل بجد واجتهاد بحسب الحاجة والقدرة ، ويعتمد على الله فى بلوغ النجاح ، ويحسن الظن به فى تبليغ مقصوده وتقوية عمله ، ويعلم أنه إن حصل له قصور أو تعويق فى هذا العمل فانما ذلك لخلل فى عمله أو لذنوب اقترفها ، فيجمع الانسان بين العلم والعمل ، فالعلم هو الدين والاستعانة بالله ، والعمل هو مباشرة الأعمال على وجه صحيح ، فهذا هو أصل التوكل الشرعى (١) فمتى عمل به الانسان فانه لن يخيب عمله أبدا ، وانما يؤتى الانسان من ناحيتين إما من ضعف التوكل

---

(١) كما قال النبى ﷺ « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن » الحديث

والاعجاب بالنفس والعلم والعقل وسوء الظن بالله تعالى ، وإما أن يكون له ذنوب إما فى عمله هذا ـ وهذا أشد خطرا ـ وإما فى غيره . وأما ما كرره الملحد من دعوى كون النجاح فى تلقين الانسان أنه هو الذى يوجد عمله بدون معين [1] ، وأنه موكول الى نفسه ، فهذا مع كونه كفرا وباطلا فليس فيه نجاح ، بل هو عين الوهن ، وقد بينا ذلك فيما سبق فلا حاجة الى اعادته مرارا

فصل

قال « ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ الى حقائق علم النفس الكبرى طفلا يولد فى بيئة من البيئات ، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شىء ، وأن هذه القوة على استعداد لأن تهبه كل ما يشتهى فى كل وقت وفى كل مكان بدون عناء وبدون عمل ودون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها ـ ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيمانا خالصا ـ ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ الى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل : كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة ؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شىء ؟ ثم ليعلم أن شرا من ذلك الطفل أو الرجل الذى يعلم هذه التعاليم الاتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للاستسلام والانتظار »

والجواب أن يقال على وجه النقض : كلامك هذا متناقض فى نفسه ، فقولك بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها قول ينقض أوله آخره ، فمن قال لك أن الاستسلام والركون والاتكال والوثوق على وجهه الصحيح ليس بثمن وليس فيه عناء . أتريد أن يكون هذا مجرد اعتقادات بدون أعمال مطلقا ، أم تريد أن

---

(١) أى إعانة الله

الأعمال الدينية ليست بثمن - وهذا هو مرادك - ولو أردت الأول قيل لك هذا ممتنع الوجود على الوجه الصحيح ، فان الاستسلام والركون والوثوق الحقيقى متى قام بقلب فلا بد أن يدفع صاحبه للعمل الذى لا أقوى منه شىء ، ولا بد أن يتناول الأسباب المشروعة تناولا صحيحا ، ولا بد أن تكون نتائجه صحيحة مثمرة لأن الاستسلام هو الاذعان واتباع الأوامر ، وإن أردت أن هذه الأعمال والاعتقادات من الاستسلام والاتكال والوثوق لا تنتج خيرا ولا تقوى على شىء ، قيل لك هذا مصادرة ، فقد جعلت نفس دعواك دليلا لك ، فصارت دعوى ودليلا معا ، فهل النزاع بيننا وبينك إلا فى هذه الأصول .

فان حاصل كلامك أن الاستسلام والتوكل على هذه القوة العزيزة الغالبة والوثوق بها غير نافع ولا مفيد ولا يقوى على شىء ، وهذا ادعاء محض قد تبين فساده ، ويكفى أن يقال لك هنا إذا كانت هذه القوة الغالبة العزيزة ، أى الله القاهر كل الوجود وكله تحت قبضته ومشيئته ، وقد وعد من آمن به وتوكل عليه ووثق به وركن إليه واستسلم له على الوجه الصحيح بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأى مانع لمن فعل هذا أن يؤيده الله ويحفظه وينصره ويسخر له من الأسباب ما لم يحسب له حسابا وهو بيده ملكوت كل شىء ، فهل فى الدنيا أمة وثقت بالله واستسلمت له وركنت اليه وتوكلت عليه بالمعنى الذى أمر به فلم تأت بخير ولم تقو على شىء وأنه حصل لها شر ، بل نحن نعلم أن الذين هربوا من هذا الاستسلام والركون والاتكال والوثوق ظانين بالله ظن السوء محتقرين هذه الأصول شامخين بأنوفهم عنها قد تردوا فى دركات سحيقة ودارت عليهم دائرة السوء وعوملوا بالاهانة والذلة فلم يحصلو أخيرا ولم يصلوا إلى ما أرادوا ، ونحن نرى هذه الدول الاسلامية كل من كان منها أقرب الى الوثوق بالله والاستسلام له والركون اليه على المعنى الصحيح صار أعز وأعظم استقلالا ، وكل من كان أشدّ بعدا من هذا صار أعظم ذلة

وإهانة ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، فدعواك أن الطفل الذى يلقن هذا التلقين لا يصنع خيرا ولا يقوى على شىء قول فى نهاية السقوط . واذا قلت أنا لا أعنى بالاتكال الوثوق على وجهه الصحيح سقط كلامك من أصله ، اذ يكون الادعاء لا محل له ، فاننا لم نقل أن ترك العمل مطلوب شرعا . يوضح هـــذا ما نقوله على وجه المعارضة وهو أن يقال ليتصور الانسان العاقل طفلا يولد فى بيئة من البيئات الخبيثة تأخذ هذه البيئة فى تلقين هذا الطفل بأنه ليس فوقه قدرة أو رب عزيز قاهر جبار له ملك السموات والأرض عليم حكيم رءوف رحيم وليس أمامه جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب وانما أموره كلها فى حكم الطبيعة المظلمة العاتية ، فهى التى تعزه وتذله وتقدمه وتؤخره وأن كل ما فى الوجود هو من العوامل الطبيعية من آلام ولذات وأفراح ومصائب وغـير ذلك ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم فيعمل فى قلبه كما يعمل الجذام فى جسمه ، ليتصور الانسان هذا جيدا ثم ليتصور كيف يخرج هذا الطفل وكيف تـكون حالته وكيف تـكون نتائجه ، هل من الجائز أن يصدر من هذا المجذوم الخبيث الا الوباء ، وأن كل من قرب منه من ضعيف المزاج فلا بد أن تصيبه العدوى والمرض القاتل ، وهل من الجائز أن يصدر من هذا خير أو أن تقبل نفسه الخير ، بل لا بد أن يخرج أرعن خبيثاً زنديقا لا يصدر منه غـــير الفساد والفواحش منغمسا فى الشهوات واللذات فى هذه الحياة التى اعتقد أن لا حياة له غيرها ، فأصدق صورة لهذا الطفل أن يكون كالـكلب الذى غايته أن يلهث ويندفع بحرارة الى قضاء شهواته الحـاضرة وان كان قد ينفع صـاحبه فقـط لاضطراره ، وإذا قيل قد وجـد من خرجوا على غـير هذه الحالة مع هذا التلقين ، قيل هذا ممنوع ، فلا بد لمن خرج على خلاف هذا أن يكون فى تلقينه شىء من الأخلاق الحسنة الطيبة التى هى من آثار الأنبياء وأهل الدين ، ولهذا كان أكثر الاباحية والفواحش ونحوها فى الملاحدة المحض ، ولو قدر خروج نادر فيمكن المعارضة بالآلاف والملايين الذين خرجوا وتقدموا وصاروا على

غاية من العز والسيادة بالوثوق والركون والاتكال بمعانيها الصحيحة ، ولكن يجب أن يعلم أن شرا من هذا الطفل الذى بهذه الصورة وأخبث منه هو ذلك الرجل الذى بقى منحسرا على جانبى الرجل الدينى المخلص والرجل الملحد المجاهر الصريح فصار مذبذبا بين هذا وذاك ، ويزداد هذا الرجل خبثا وشرا فيما اذا كان يأخذ معانى الحقائق الصحيحة المقدسة فيقلبها الى المعانى الخبيثة الباطلة ثم ينقل معانى الباطل والخبث الى معانى الحق والنور ، ويأخذ نصوص الانبياء والأنوار السماوية فيحتج بها حاشا مع اعتناق ظلمات الزندقة والالحاد ، ويأخذ أخلاق أكفر خلق الله فيضيفها الى المسلمين ، ويأخذ أخلاق أولياء الله فيدعيها للملاحدة والمنافقين ، لا شك أن هذا هو شر الثلاثة بل شر العالمين

أما على قولنا واعتقادنا فى التوكل فليتصور المسلم العاقل طفلا يولد فى بيئة من البيئات تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل وتمرينه بأن ربه الله هو الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه المتصف بكمال العلم والحكمة والرحمة والقدرة والرأفة واللطف المهيمن على كل مافى السموات والارض ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، قد أمره هذا الرب الكريم الجبار والقهار بأوامر عالية أخبره بها ونهاه عن أمور أخرى بينها له ، فقد علم أن ربه أعلم منه بمصالحه ومضاره علما لا يخالجه شك ، وبين له بأن ما أمره به مصلحة محضة عائدة اليه وما نهاه عنه شر محض عائد ضرره اليه ، وأنه غنى عنه وعن عبادته ، وانما أمره بذلك من أجل أن عمله هذا هو الطريقة الوحيدة لتزكية نفسه وتطهيرها وتنويرها من نقائص طبيعتها الاهلية وظلمتها وجهالتها ، لأن حقيقة هذه الاعمال اتصال واستمداد من مصادر الكمال المطلق والروح والنور اللذين هما مادة الحياة ونورها ، فأخبره بأنه ان امتثل ذلك فانه سيؤيده وينصره ويعينه ، وإن خالفه فانه سيخلى بينه وبين نفسه وسينقطع عنه هذا السبب الذى به حياته الصحيحة ونوره المستمر ويكون عرضة للطرد والابعاد وسوء العاقبة ، وان تساهل فى

الأخـذ بهذا النظام الذى فيه أوامره ونواهيه والعمل به جوزى بقدر طاعته ومعصيته ، فبمقدار ما يقوم به من هذا النظام تكون إعـانته ونصره وتوفيقه وتسديده ، وبمقدار إضاعته له وتقصيره فيه يكون طرده وإبعاده ، وان شك فى هذا النظام أو احتقره واستبدل به غيره فقد أساء الظن به وبمن أنزله ، فلا يمكن أن ينتفع به بحال ، ثم انه سبحانه أمره بأسباب كثيرة خلقها له وعينها وفصلها ، بل من أعظم القواعد التى جاء بها هذا النور تحرير العقـل وإطلاقه إطلاقا حرا كاملا من الجهالات الموروثة والتقليد الأعمى[1] وقد أخبره أنه إذا أخذ بهذه الأسباب أخذا قويا صادقا بجـد واجتهاد واستعان به أعين ونصر وأيد ، وإن رفض هـذه الأسباب أو استعملها على غير وجهها لحرىّ أن لا يحصل على مقصوده ، وإن قصر فيها أو أخذ بها أخذا ضعيفا فربما يكون نجاحه ضعيفا . ثم ان هذا الطفل إن نشأ على هذه التربية السامية والايمان بها إيمانـا قويا ليتصور الانسان العاقل هذا الطفل وكيف تكون حاله ، هل من الجائز أن يظهر هذا الطفل خبيثا أو خائنا فى أماناته كلهـــا زنديقا أو لصا أو سارقا أو

---

(١) ليس فى الدين حرف واحد يمنع حرية الفكر والنظر الصحيح فى كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية النافعة ، ولـكنه يمنع الفوضى فى الاعتقادات الدينية لانها من عالم الغيب التى يستحيل على العقل إدراكها والاحاطة بها على وجهها المطلوب ، وكل مـا حرمه الشارع فضرره أكثر من نفعه بل غالبه ضرر محض . ثم إنه لا يوجد فى الدنيا كلها نظام واحد لا يحرم شيئا ولا يحظر على أهله شيئا ، وأكثر الملاحـدة جامدون مقلدون لرؤسائهم ، والطفل الذى ينشأ فى معاهد الإلحاد يرى أشياء كثيرة لا يسيغها العقل ، ولـكنه يضطر الى قبولها ، لأنه اذا عارض فيها وتضجر منها نسب الى البلادة والبله والرجوع الى الوراء ، فيقبل ذلك على مضض لئلا تنحط منزلته بين التلاميذ بالشذوذ وسوء الفهم ، فأمور الالحاد والزندقة كلها جهالات عتيقة قد تخلق بهـــا أعداء الانبياء الأولون وورثها عنهم خلفاؤهم المتأخرون

خائنــا أو كسلانا أو جبانا أو سفيها أو ردىء أخــلاق أو يظهر على غاية من الدهاء والفطنة والرجولة والعقل والمروءة وحب العدل والاحسان والشجاعة والصرامة محـافظا على كرامته وانسانيته ودينه ووطنه وقومه وكل مـا يتعلق به ، فتربية الدين أعظم تربية وصلت اليها الانسانية على اختلاف أطوارهـا ، وأنت ترى الشيع والنحل والمبادىء الفاسدة لا تعدّ ولا تحصى تظهر وتطيش وتزول ولا تثبت زمنا كثيرا بل لا تبرح حتى تقوم مكانها مبـادىء أخرى ، بخـلاف مبادىء أصول الدين من عبادة الله والتوكل عليـه والوثوق به والاستسلام له فان هذا المبدأ هو من أول الدنيا الى آخرها لا يزال موجودا ولا تزال أكثر البشرية معترفة بقوته وعظمته وأنه هو الاصلح للبشرية فلهذا كان هو الملجأ الوحيد عند الشدائد وعند انهيار غيره

ومن أعجـب العجب أنه استصغر الوثوق بالله والاستسلام له والتوكل والاعتماد عليه ، وجعل ذلك ثمنـا ليس بكبير ولا يوصل الى غاية عظيمة كما يدل عليه كلامه ، وما علم المسكين أن الاتيان بهذا الشيء أكبر شيء وأثقله على أكثر البشرية كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ﴾ ومعلوم أنه قال ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ومعلوم أن هذه الأصول تتضمن غاية الاستسلام والوثوق والركون ، فان الاستسلام هو القبول والاذعان التام لكل مـا أمر الله به فالتمرد ينافى الاستسلام ، وقال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهـه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبـة الامور ﴾ ولو فتش ذو فكر سليم وجد أن العـــلة التى أصابت أكثر البشرية هى عـدم الاستسلام والركون والوثوق بالله أو النقص من ذلك ، وهذا الملحد نفسه إنما كفر وخلع ربقة الاسلام من عنقه لأنه ضـاق به ذرعا وثقل عليـه الاستسلام والركون والوثوق ، وإلا فلو كان واثقا بالله راكنا اليه متوكلا عليه مستسلما لنظـام الله

لكان له شان آخر ، فالرسل كلهم دعوا الناس الى هذا الثمن فابى أكثر الناس إلا كفورا ، فما أثقل هذا الثمن وما أعظمه على أكثر النفوس ، وما أنفسه وأجله وأجمل أثره لو جيء به على الوجه المطلوب . ان كل شر وشرك بل والمعاصى بجميع أنواعها إنما هى نقص فى الاستسلام لله والركون اليه والوثوق به والاتكال عليه

ثم هل هؤلاء الذين تركوا هذا الاستسلام والركون والتوكل والوثوق استحصلوا على مقاصدهم ومآربهم . لا شك أن أكثرهم باء بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة وسوء أثره فى الأكثر الأغلب كاف فى فساده ، بخلاف من حقق هذه الأصول واعتمدها فانه ظفر بالحياة الصحيحة فى الدنيا والآخرة كما نجا من الهلاك والدمار كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾

وبهذا يتبين لك أى ما ادعاه فى جميع هذا المبحث الذى يدور كله على هذه الجملة كلام ساقط لا محل له ، مع ما فيه من التلبيس وفساد العقيدة ، لأنه يرمى الى الحث على الالحاد ورفض الاديان

فصل

ولما كان هذا المخذول يعلم أن التوكل ركن من أركان الدين ، وأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية صريحة جلية فى الأمر به فلا يمكنه جحده وكتمه وإنكاره لجأ الى الحرفة اليهودية فاستعملها فى تحريف معناه ، فان هذه الحرفة هى سلاحه عند المضايق فعمل فيه عملا لم يسبقه اليه أكفر كافر فى الدنيا - مع كونه عملا مضحكا مبكيا - ولو أنكره مجاهرة لكان أستر له ، إذ أنه فسر التوكل على الله بالاعتماد على الأسباب ، ففسر التوكل على الله بقطع النظر الى الله ، وحقيقة هذا أن عبادة الأسباب هى عبادة الله ، فلو أن انسانا له كلب صيد فاعتمد على كلبه فى الصيد من دون الله فقد توكل على الله ، لأن الكلب

سبب فى صيد الأرنب ونحوه ، ولو أنه طرد هذا الأصل وقال صريحا والصلاة للأسباب صلاة لله لكان من جنسه ، فان التوكل الدينى الاعتقادى عبادة كالصلاة بلا خلاف ، فمن توكل على الاسباب فاعتمد عليها من دون الله فقد عبدها ، وقد تقدمت دعواه أننا إذا أردنا أن نعظم الله فنعظم مخلوقاته وتعظيمنا مخلوقاته تعظيم له ، وبالجملة فادنى عامى فضلا عن غيره يدرك قبح هذا التفسير وخبثه وسقوطه وأنه مكابرة وعكس ظاهر لمعناه الشرعى والعرفى ، وقد خالف جميع قوانين اللغة كما خالف جميع كتب الدين فى هذا التفسير ، لأنه المقدم فى الأمر فقال : « نعم ، التوكل جاء فى أكثر سور القرآن مكررا ، وجاءت الأديان كلها آمرة به ، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم . وليس الخلاف فى حسنه ووجوبه ، ولكن فى تفسيره ومعناه . فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذى قدمناه فكانت عاقبتهم وبيلة »

فيقال : قد سبق أن ما ذكره هناك ونسبه إلى الخاصة والعامة كذب ظاهر وبهت مكشوف ، افتراه ونسبه اليهم وعجز غاية العجز أن ينسبه إلى فقيه من أئمة المسلمين أو إلى عقيدة واحدة من عقائدهم على كثرتها ، فلا يعتد بما ادعاه وما نقله عن قواميس اللغة ، فقد بينا أنه حجة عليه لأنه خالف نظريته . وقد بينا أنه الاعتماد على الله وتفويض الأمر اليه والاستسلام والركون اليه مع فعل الأسباب المشروعة التى أمر بالأخذ بها . فعلى الانسان أن يأخذ بالأسباب ويعتمد على الله فى بلوغ نتائجها ومسبباتها (١) ، ففعل الأسباب لا ينافى التوكل باتفاق المسلمين كما هو مقرر فى كتب الدين المعتمدة

اذا تبين هذا فقد رأيت أيها المنصف أن هذا الرجل اعترف بأن التوكل

---

(١) فانه تعالى أمر بالأخذ بالأسباب ، وأمر بالاعتماد عليه ، فلا بد من الاتيان بالأمرين جميعا

من أركان الدين ، وأنه قد جاءت الأديان آمرة به . ومعلوم أن من المحال فى العقل والدين أن يخفى هذا الركن العظيم على جميع الأمة فى هذه القرون الطويلة ولا يعرف معناه أحد منهم غير هذا الملحد ، فتلغى جميع كتب اللغة والتفسير والأصول وغيرها ثم يخترع هو من رأسه المصدوع معنى هو ضد ما قرره هؤلاء كلهم فيفسره به ثم يوجب على الناس اتباعه . ولهذا عجز غاية العجز أن ينسب هذا الرأى الذى رآه الى عالم من علماء الأمة كلهم من أولهم الى آخرهم ، ونحن نتحداه غاية التحدى أن يوجد لنا عالماً واحداً ادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ، فان هذا لن يجده أبدا . وسنوضح فساد قوله ودلائله التى يدعيها

قال : « أما معناه ـ على حسب ما رأينا ، وعلى حسب الدلائل المختلفة ـ فهو ما سنذكره »

قلت : فقد رأيت أنه صرح هنا أن ما سيقوله فى معنى التوكل إنما هو على حسب رأيه ، وهذا غريب منه فى ترك الفجور والمكابرة . ومعلوم أنه إنما لجأ الى رأيه فى هذا الركن العظيم لعدم وجود ما يؤيده وأن المسلمين على خلافه ، إذ من غير المعقول أن يكون معنى ركن الدين غير معروف عند غيره ولكن لما رأى أن رأيه لا يوافق آراء أهل الدين كلهم فى معناه تبع رأيه وحده وحق له ذلك ، فانه من غير المعقول أن يطابق رأى الزنديق الملحد رأى الاتقياء وأئمة الدين من السلف والخلف ، فلهذا حمل معناه على رأيه الخبيث [١] فقال :

« اذا وكلت وكيلا لينوب عنك فى أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضا مطلقا واعتمدت عليه اعتمادا تاما بلا شك منك ولا تردد فى عمله ، فمعنى هذا

---

(١) سيأتى خلاصة ما يقرره فى قوله « ان الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى نجاحها » هذا لفظه بحروفه . فجعل الاعتماد على الوسائل والأخذ بها هو التوكل ، لا الاعتماد على الله والاخذ بالوسائل

أنك معتقد بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يصنع من وسائل لانجاح الغاية التى يراد إنجاحها ، أعمال مؤدية الى الغاية ، وأسباب موصلة الى المسببات ، ووسائل مقربة الى النتائج . وكلما ازددت اعتقادا بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها الى أهدافها ازددت عليه توكلا وبوكالته غبطة ، وازداد هو ـ أى وكيلك ـ رضا عنك وسرورا بايمانك بوكالته ...

فيقال : ما شاء الله (ياالشمس التى فى غير برجها) من علمك هذا التفسير الغريب العجيب ـ ولعله من كنوز حقائقك الأزلية الأبدية ـ أن هذا التوكل على الله أو هو معنى الوكالة ، والناس كلهم إلا من شاء الله يوكل بعضهم بعضا ولا يفهمون هذا ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعرفونه لبينوه ، فهـــذه وكالات الناس على اختلاف مذاهبهم وتنوع وكالاتهم يوكل بعضهم بعضا ولم يقـــل أحد فى توكيله لوكيله لا بد من معرفة ربط الأسباب بالمسببات ، والوسائل بالنتائج ، وهذه فرق كثيرة تدعى أن الله يفعل عند الأسباب لا بها ، أفتبطل وكالاتهم حيث لم يعتقدوا هذا . والعجب أن الله أعماه فذهب يفسر الوكالة لا التوكل ، وقد تقدم كلامه فى قوله وقد ذهبوا الى أن التوكل مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس إلخ . ثم شنع عليهم فى هذا المأخذ ، وهنا أخذ يفسر التوكيل بمعنى الوكالة فتناقض وركب خطأ على أخطاء لا تحصى ، ففسر الوكالة دون التوكيل ، ولعله قد خانته محنته فى حب المعاكسة وتحريف النصوص فطفح كيله فى المجازفة فراح يفسر الوكالة ليفسر التوكيل ، فسبحان من طبع على قلبه ، وقد علم الخاص والعام ـ من عالم وعامى وبليد ـ أن الناس يوكل بعضهم بعضا ، بمعنى أن الموكل يفعل السبب الذى به تحصل الوكالة ويفوض الوكيل فى الأمر الذى وكله فيه اذا عرف كفاءته للوكالة ، فيوكله مفوضا أمره اليه بأن يعمل هذا العمل من غير أن ينظر إلى تعلق الوسائل بالنتائج والأسباب بالمسببات هل هى لذاتها وطبعها أو لقوة فيها أو أن الله يفعل عندها لا بها . ولو ان رجلا وكل وكيلا وذهب يتعنت عليه فى تعلق

الأسباب التى معه وربطها بمسبباتها ويتحكم عليه بأن لا يتصرف فيما تحت يده وفى ملكه ولا يغير فيه شيئا بعلمه وحكمته بل تكون الأسباب حاكمة عليه بطبعها لا حاكما هو عليها بقدرته وقهره وحكمته وعلمه ، لكان هذا الموكل قد طعن فى الوكيل طعنا ظاهرا وأساء الظن به واحتقره ونسبه إلى الضعف والقصور وعدم الكفاءة ، ولكان هذا الموكل معدودا من الحمقى والنوكى والأغبياء الذين لا يعلمون . والعجب الآخر أن هذا الملحد نفسه قد نقل عن كتب قواميس اللغة معنى التوكل وهو الاستسلام ، ثم تراه هنا صادمها كلها ، فان ما ذكره ليس باستسلام للوكيل بل تعنت عليه بل اتهام له ، وانما هو استسلام للأسباب والمسببات أو الوسائل ونتائجها فقط . ولا شك أن الذى يتوكل على الله كهذا التوكل الذى ذكره ليس متوكلا عليه بل متوكل على الأسباب ومسبباتها ، وإلا فلو كان يعتقد فى الله القدرة الكاملة والتصرف المطلق والعزة فى إيصال النتائج وقطعها وأنه يعين من أطاعه واتقاه وركن اليه وحافظ على نظامه ويعاقب من عانده وحاربه واستهزأ به وتهكم بنظامه وجعل حكم الطاغوت أحسن من حكمه ـ لما اعتمد على أسباب فقيرة الى غيرها وركن اليها واستسلم لها وتوجه اليها وأعرض عن خالقها ، فأى تفويض واعتماد على الله تعالى ممن اعتمد على الأسباب وحدها وجعلها هى الفاعلة بطبعها بدون تعلق مشيئة الله وقدرته بها وأن الله لا يقدر على صرفها وخلق أضداد تبطلها وتعوقها وتصرفها عن وجهتها . وقد بينا فيما سبق أن التوكل على الله تفويض الأمر اليه مع التزام ما أمر به من استعمال الأسباب الدينية والدنيوية بقوة وايمان صادق ، فعلى الانسان أن يؤمن إيمانا صادقا بشرع الله ونظامه ويستعين الله بجد واجتهاد والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً

ثم قال « أما اذا شككت فى الوسائل والأسباب والأعمال التى يؤديها ، أو شككت فى إيصالها المطلوب ، فان توكلك عليه يضعف ، وايمانك يهن »

فيقال : هذا مردود ، بل إنما يضعف توكلي اذ شككت في إعانته لي وكفاءته للوكالة وقدرته على الأسباب ومسبباتها الخاصة له ونظرت الى الأسباب فقط ، فانه — والحال هذه — يضعف توكلي عليه . أما اذا أحسنت الظن به واعتقدت فيه الكفاءة مع النصح معه فان توكلي يقوى ولا يهن ، وانما يضعف ويهن اذا صرفت وجهي الى من دونه ومن هو في قبضته وعلقت آمالي على ذلك دونه واتهمته في عدم القدرة على التصرف فيما تقتضيه رحمته ولم أره كفؤا لأن يعتمد عليه بل الكفؤ هي الأسباب ومسبباتها ، فهذا هو الذي يوجب الوهن والضعف ، بل هذا اساءة ظن بالوكيل ونسبته إلى العجز فالتوكيل على هذا الوجه توكيل ساقط فاسد ، فما ذكره هذيان عار من التحقيق والنتيجة المطلوبة

ثم قال « وهكذا لننظر إلى التوكل على الله ، فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة في أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هي أسباب ووسائل مؤدية الى مسبباتها ونتائجها بلا تخوف »

فيقال : نعم ، هذا هو التوكل الصحيح في اعتقاد الزنادقة الذين يريدون أن يجمعوا بين الكفر والايمان ، وأن يجعلوا معنى التوكل على الله هو الايمان بالأسباب والاعتماد عليها فيكون معنى الاعتماد على الله هو معنى الاعتماد على الأسباب فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية في نفس الأمر ، وسيأتي كلام هذا الملحد في قوله « ان الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحها » وكذلك قوله قريبا « فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود ، وان تعتقد بأن الخالق قد وضع لها سننا لا اضطراب فيها ولا محاباة ، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات » انتهى . فالانسان اذا عمل عملا واعتمد على الله في إيصال نتيجته فليس بمتوكل على الله في رأيه ، فانه ادعى أن معنى الاتكال الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها ، وهذا عين ما يفعله

الملاحدة وعين ما فعله جميع أعداء الرسل الذين حاربوهم وقاتلوهم ، فجميع الكفار خصوصا الملاحدة الدهريين يكونون هم أعظم الناس توكلا على الله لأنهم يأخذون بالوسائل ويعتمدون عليها ويجعلونها مربوطة بنتائجها ربطا لا يمكن انفكاكه. أما الأشعرية ومن يرى رأيهم ممن يدعى أن الأسباب ليست عللا لمعلولاتها ، وانما الله يفعل عندها لا بها ، فهؤلاء عنده شر من الكفار من هذه الناحية فلم يأتوا بركن الدين الذى هو التوكل ، لأنه قرر أن التوكل ركن من أركان الدين ، فهم لم يتوكلوا على الله لأنهم لم يؤمنوا بأن بين العلل والمعلولات ربطا ذاتيا آليا طبيعيا ، وأن كل سبب مؤد الى مسببه بلا تخلف . وحقيقة هذه الدعوى ومغزاها أن التوكل على الله هو الكفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فمن كفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فقد توكل عليه ، أى من آمن بالطبيعة ونواميسها وأنها هى المسيطرة على الوجود وهى التى تحكمه باستخدام الانسان لها بمقدرته الذاتية فقد توكل عليه تعالى ، ومن آمن به على أنه مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وأنه لن يجعل المسلمين كالمجرمين ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ولا المتقين كالفجار ، فانه ـ على مقتضى دعواه ـ لم يكن متوكلا ، بل يكون فوضويا قد اعتقد الاضطراب والمحاباة والتشويش ، لأن تصرف الله فى ملكه على ما تقتضيه حكمته وعلمه ورحمته عند الزنادقة والملاحدة تشويش ومحاباة واضطراب كما كرر هذا الأصل مرارا ، وهو واضح لا غبار عليه وانما يقرره بألوان من الخداع وضروب من النفاق لما قام بقلبه من عوامل الخوف على منزلته وشغفه بالمبادىء الالحادية ، فأراد أن يجمع بين هذا وهذا كما تقدم بيانه

فان هذا الملحد تبع سلفه الزنادقة من اليهود وأمثالهم فى التحيل على إبطال

الحقائق بقلب مسمياتها وتحريفها عن مواضعها، وقد علم أن الله سبحانه وتعالى قد مسخ من احتال على صيد السمك قردة وخنازير ، فكيف بمن احتال على قلب أعظم مظهر للربوبية وهو تدبير الله للعالم وتصرفه فيه بما تقتضيه مشيئته وحكمته فسماه تشويشا واضطرابا ومحاباة . قال الامام أيوب السختياني فى أصحاب الحيل « يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، فلو أتوا الامر عيانا كان أهون » ولهذا تجد هذا الملحد فيه شبه قوى من الخنزير فانه شديد النفرة من الأشياء الطيبة والمقدسة منصاع الى حد بعيد الى الخبائث وأهلها من الملاحدة والزنادقة وأتباعهم ، يعرف ذلك كل من تدبر كلامه وعرف حاله ، فانه فى هذا أراد أن يجمع بين الالحاد والتدين فلم يقدر أن يقول غير هذا الهراء ، لأنه كان مضطرا الى الزندقة التى لولاها لفطم عن ثديه الذى كان يعيش به بدعوى الدين .

تكلمت فى إبطال شرع مقدس رمى الله منك الثغر بالحجر الصلد

ثم انه شرح هذا التوكل الصحيح عنده فقال :

« فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض — وهو سبب من الاسباب — مؤد بلا ريب الى الشفاء . ووضع البذر الصحيح السليم فى التربة السليمة الصالحة لانبات ذلك البذر ، مؤد بلا ريب الى الإنبات ، ثم الى الإثمار اذا ما سقى وحفظ من الآفات . واختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالانوثة القادرة كذلك مؤد الى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية . وسلوكك فى الحياة سلوكا سليما من العثار والزلل مؤد بك الى النجاح إلا أن يكون هناك عقبة طبيعية . وهكذا القول فى كل ما يدعى أسبابا ووسائل . فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب [1] التى جعلها الله كذلك ازددت

(١) لم يقل : كلما ازددت ثقة بالله الذى يسببها ازددت توكلا ، بل جعل الثقة بها نفسها ثقة بالله

توكلا عليه وثقة به وباعماله وتصديقا باخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة الى غاياتها » انتهى

وكأنه ظن هذا البعر تمرا فأكثر منه ، وكلامه - كما ترى - فى التمثيل فى الأسباب المادية ، أما الأسباب الدينية فقد علمت مما مرّ أنه كفر بها وحاربها وشتمها فجعلها نكبات وشرا وملهاة وخبثا وتعويقا . فيعارض هنا بان يقال له : والدعاء من القلب المخلص الصادق مستجاب كما دلت عليه صرائح النصوص والتجارب ، إلا أن يكون هناك موانع وعوارض دينية . فلم كفرت بهذا وأنكرته وجعلت نتيجته الخبث والتعويق والملهاة . فاذن أنت كافر بالتوكل اذا كنت تقرر أن الايمان بكون الأسباب مربوطة بنتائجها بلا تخلف هو التوكل . ومعلوم أنه ليس فى النصوص حرف واحد يدل على ما ادعيته ، بخلاف الدعاء والذكر والصلوات فان النصوص السماوية وأخبار الله تعالى التى لا تحصر دلت على أن ذلك سبب للاجابة والتوفيق . وكذلك التقوى وسائر العبادات من أعظم الأسباب فى حصول الخيرات ودرء العقوبات والمحن فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ فهذا نص صريح فى أن الايمان والتقوى سبب لفتح البركات فى الدنيا كما هى سبب لها فى الآخرة ، وأن الكفر سبب للانتقام والهلاك ، وأمثال هذه الآية كثير جدا ؛ فلم عاكست هذه النصوص وحاربتها ورفضتها ولجأت الى إخصاب المرأة وأمثاله من الأمور المادية ، وقد علم أن خصومك لم ينكروا هذا قط وأنت أنكرت ما علم بالضرورة من دين الاسلام مع اعترافك به من قبل ، وقد علم أن الكفار والمسلمين يعلمون أن البذر فى الأرض ينبت اذا كانت الأرض قابلة والبذر صالحا وحصلت الشروط وانتفت الموانع ، فالناس اذن كلهم متوكلون على الله بهذا المعنى فلا فرق بين مسلم وكافر ، فأى تخصيص للمسلم

به ، وبأى شىء يكون هذا ركنا من أركان الدين ، بل كثير ممن ينكر الدين والتوكل يؤمنون بهذا أيضا ، بل ربما كانوا أعظم الناس إيمانا بهذا ، فهم إذن أعظم الناس توكلا ، وقد تقدم الكلام فى قضية تأبير النخل ، فيكون إذن هؤلاء الكفار أعظم من الرسول وأصحابه توكلا لأنهم أشد اعتمادا على هذه الأسباب ومغالاة فى ربطها بنتائجها بدون تخلف ، فهل هذا إلا من الهذيان الذى يستحى كثير من الكفار من التفوه به لظهور هجنته وقبحه ونكارته

ثم قال « وإذا شككت فى الأسباب والطرق التى جعلها الله ، وجوزت أن لا توصل الى شىء فقد نقص توكلك على الله وايمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين »

فيقال : أما أولا فقد بينا أنك كفرت بالأسباب الدينية فأنكرت أن تكون أسبابا ووسائل ، وأنكرت وجود نتائجها على ما تقدم .

وثانيا هذا منقوض مما ذكرته من الرواية فى تأبير النخل ، فان الرسول عليه السلام ظن أن التأبير لا ينفع وأنه يوصل الى شىء ، وقد تركه الصحابة وظنوا أنه سبب لا يوصل الى مسببه ولا الى نتيجته ، فيكون عليه السلام هو وأصحابه إما شاكون فى الأسباب وإما جاهلون بها فيكونون شاكين فى الله لأنهم شاكون فى أسبابه كما تدعى فيما يأتى أو جاهلون به وقد أصيب يقينهم بأخباره فلم يعرفوا أخبار الله تعالى لأنك جعلت الشك فى الأسباب والتجويز بأنها لا توصل الى شىء مصيبة فى اليقين بأخباره تعالى ، وهذا قدح صريح فى الرسول عليه السلام وأصحابه وأن توكلهم ناقص وإيمانهم بنظام الله غير قوى ويقينهم بأخباره قد أصيب فكانوا من الشاكين غير المتوكلين لانهم جوزوا صلاح التمر بدون تأبير ، ومع هذا فلم يأمرهم الرسول عليه السلام بالتوبة من هذا الذنب الذى هو الشك وضعف اليقين وعدم الايمان بالله حين ظهر الأمر بخلاف ما ظنوا وكان الملاحدة ونظراؤهم ومن اقتفى آثارهم من هؤلاء

الزنادقة أعظم منهم توكلا وأقوى منهم يقينا وأعظم إيمانا بنظام الله لأنهم لم يشكوا فى الأسباب ولم يجوزوا أن لا توصل الى شىء كما ادعيت بل اعتقدوا فيها أعظم اعتقاد وأعطوها غاية الثقة واعتمدوا عليها غاية الاعتماد، وهذا هو حقيقة ما يقوله هذا الملحد كما هو ظاهر

ويقال ثالثا: ليس فى الشك فى الأسباب المادية وكونها مربوطة بنتائجها كبير أمر فى الدين، والخلاف فى ربطها معروف يأتى الكلام عليه، وكل ذى علم بدينه يعلم أن الرجل اذا التزم شرائع الاسلام وعاش عمرا طويلا ولم يعرف الربط بين هذه الأسباب ومسبباتها ومات على ذلك أنه لا ينقص من إسلامه شىء، ولم ينقل عن النبى ﷺ أنه علم الناس كيفية الربط بين الأسباب والمسببات أو نفى عدم تخلف النتائج عن وسائلها الطبيعية، ولو كان ذلك من عظائم الأمور الدينية وأنه نقص فى التوكل ونقص فى الايمان بنظام الله وضعف يقين بأخباره وأنه ينافى التوكل لأخبر به قطعا (١) وكيف لم يبين لهم هذا الركن الذى هو من أركان الدين بهذه الصفة ويعرفه الملاحدة والكفرة دون المؤمنين، وهذا بخلاف الأسباب الدينية ومسبباتها ووسائلها ونتائجها وأن كل سبب فهو مربوط بنتيجته، فالقرآن كله فى هذا الاصل كما قال تعالى ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾، ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ وقد تقدم كثير من النصوص والبراهين الدالة على ذلك

ثم قال: «ولا شك أنك إذا وكلت الى مهندس تصميم منزلك ووكلت الى بناء القيام بذلك المنزل فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما، أما لو ارتبت

---

(١) وهل يشك عاقل فى أن الشك فى كون الكلب يصيد الأرنب أو الثعلب اذا علم يقدح فى الايمان وأمثال هذا، ولكن هذا المخذول لا يستحى ولا يبالى بما يقول

فيها وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت اليهما أمر منزلك ، ولما أمكن أن تكون متوكلا عليهما . ولو جوزت أن لا يكون البيت صالحا فى النهاية للسكن وجوزت أن يخر بعد الفراغ منه إما لخطأ فى هندسته وتصميمه وإما لضعف فى مواد بنائه لما عددت مؤمنا بهما ولا متوكلا عليهما ولا واكلا اليهما الأمر وكالة صحيحة »

فيقال : وهذا كالذى قبله هذيان بارد ، فقوله فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما كلام فى نهاية السقوط ، بل اذا اعتمدت على عملهما كنت معتمدا على الصفات التى قامت بهما من القدرة والعلم والحكمة ، وهذا بخلاف ما لو اعتمدت على الأسباب التى هى موضوع العمل كالآلات ونحوها فاننى لا أكون إذن معتمدا عليهما بل متهما لهما بالعجز وأنهما غير قادرين على الخروج عن طبيعة الأسباب ولا تغييرها ، اذ من الممتنع أن أعتمد على أسبابهما وهى تحت تصرفهما ، وإنما أكون معتمدا عليهما وعلى عملهما وحكمتهما فى التصرف اذا فوضت أمرى اليهما واعتقدت فيهما الكفاءة والقدرة التامة والنصح وأن الأسباب التى تحتهما رهن مشيئتهما يتصرفان فيها كيفما أرادا بما يقتضيه علمهما وحكمتهما . وهذه حقيقة الاتكال والوكالة . ثم إن البحث فى التوكل عليهما لا على أسبابهما ، وحينئذ يقال : هل الانسان يتوكل على الله مفوضا أمره اليه ، أو على فعل الله الذى يسميه بعض الناس عمله ، أو على أسبابه المخلوقة الموضوعة تحت مشيئته وقدرته وتصرفه وإرادته ، فكم نفعت من أقوام وأضرت بآخرين ، وكم أضرت بمن قد نفعتهم ونفعت من أضرت بهم أحيانا اخرى ، وتلك الأيام نداولها بين الناس

وكلام هذا الملحد ـ كما نرى ـ قد أدخل فيه من التلبيس ما لا يخفى ، فهو على ما فيه من ركاكة وخداع متناقض ، فانه مثل باثنين[1] ولا داعى الى التمثيل

---

(١) أى مهندس وبناء

باثنين ، فان المسلمين لم يتوكلوا على الهين كل منهما له عمل ، فان المهندس والبناء كل منهما له عمل ، ثم المثل كله معكوس عليه أيضا ، فان الوكيل على البناء اذا وكلته على بناء منزلك معناه فوضت اليه أمر البناء حينما أخذت بأسباب الوكالة فيما تريده فى هذا المنزل فاعتقدت بأنه سينجزه على الوجه المطلوب ، فاذا اعتمدت عليه على هذا الوجه كنت متوكلا عليه اتكالا صحيحا ، أما اذا صرفت همتك واعتقادك الى الوسائل والأسباب من الآلات والعمال والخشب والجص والآجر أو الطين مثلا وبحثت عن كيفية ارتباط كل سبب بمسببه هل هو بطبيعته أم لا وذهبت تتعنت فى معرفة أكل العمال وشربهم وكيف يعملون وكيف يكون ضرب المسامير فى الخشب أو الجدر وعن أسباب ذلك ونتائجه وأمثال ذلك — فانك غير متكل عليه ، بل متهم له مستهزىء بعمله ظان به ظن السوء ، ولكان فعلك هذا واعتقادك دليلا على ضعف عقلك وأنك سفيه احمق ، ولكان هذا الوكيل حريا بأن لا ينفعك ولا يقضى لك أمرا بل يكلك الى ما وجهت همتك اليه لحمقك وجهالتك وسفاهتك ، فما ذكره من التمثيل غير مطابق لما يريده ، بل هو حجة عليه بلا ريب

ثم قال « وكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق ، وجوزت أن تتخلف النتيجة وأن لا تكون الأسباب موصله ، لكنت من المرتابين فى الله وفى أعماله وفى كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى ما لها من قيمة »

فيقال : فما الذى حملك إذن على معاندة أنبياء الله ومعاكستهم فيما جاءوا به وأجمعوا على أنه من أعظم الوسائل والأسباب التى لا أكبر من قيمتها ، فأعظم سبب جاءوا به هو الدعاء وحمد الله والثناء عليه وعبادة الله كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فجعلت هذه العبادة التى جاءوا بها ملهاة ومصرفا خبيثا وانها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة فصرحت على رءوس الاشهاد بأنه لا فائدة فيها بعد أن قررت أن الدعاء هو العبادة بلا

خلاف وعمدت الى أعظم مظهر من مظاهر الايمان بالله والثناء عليه وتقديسه وهو خطب يوم الجمعة فجعلته من النكبات ، ثم عمدت الى بيوت الله[١] التى اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) فجعلتها أدت شرما يؤدى وجعلت الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، فحاربت كتب الله وأنبياءه الدالين على هذه الأسباب التى لا يقدر قيمتها إلا الله تعالى ، بل الحياة كلها فى الدنيا والآخرة دون قيمتها فجعلتها كلها لا قيمة لها لا قليلة ولا كثيرة ، ولم تكتف بذلك بل جعلت قيمتها الشر والخبث والتعويق وجعلت المتدينين كلهم على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا ، فجعلت هؤلاء لا قيمة لأسبابهم ، أما المتحللون من الأديان فصرحت بأنهم هم الذين وهبوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، فأى محاربة لكتب الله وأنبيائه أعظم من هذه المحاربة ، فان حقيقة هذا أنهم ما جاءوا إلا بالشر لهذا العالم ، ولم يكفك هذا حتى ذهبت تتبع كل مقالة خبيثة لأخبث زنادقة العالم وملاحدتهم والى الكتب المملوءة بمسبة الله وأديانه وأنبيائه[٢] فسلبت تلك المقالات وسرقت أصول هذه الكتب وركبت من الجميع قواعد هذه الأغلال وادعيت بأن النجاح موقوف على الأخذ بها والدمار موقوف على تركها ، ولم تكتف بذلك أيضا حتى طلبت تحكيمك فى الأمر وإفرادك بالرغبة والرهبة ، وهذا عين الجنون والهراء والهذيان ، هذا مع أن كثيرا من الناس يعرفون فهرس حياتك صفحة صفحة مكانا وزمانا ، فدعنا من التمويه والتلاعب والتشبع بما لم تعطه (فعند التناهى يقصر المتطاول)

ثم قال : «أما غير المتوكلين حقا فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من

---

(١) أى المساجد

(٢) ككتاب الآراء والمعتقدات

سنن الله ولا بناموس من نواميسه ، فيجوزون عليهما الاختلاف زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ، ولا حدود ولا رسوم يجريان عليها ولا يخرجان عنها »

فيقال : الجواب عن هذا قد تقدم فى أمثاله ، فمن هم هؤلاء الذين هم بهذه الصفة ، أما سنة الله الدينية فقد تقدم الجواب عنها فى مواضع كثيرة ، وبينا أنك خالفت جميع أهل الدين فيها ، وأما سنن الطبيعة المادية فقد بينا جوابه فيما ذكرنا على حديث تأبير النخل فيلزم مما ذكرته تجهيل الرسول وأصحابه ، وعليه فلا يكونون متوكلين على الله ، وقد أكثر من التطويل والتهويل فى هذا الأصل الخبيث فى مسألة النواميس والقوانين والنظام والتمويه فى ذلك ، وكل عارف بدينه يعلم مقصوده من ذلك وهو توجيه النظر الى الطبيعة ونواميسها دون الله ومشيئته ورحمته والتوجه اليه ، وقد بينا فيما تقدم أن أعرف الناس بهذه الأمور قد عوقبوا ودمروا تدميرا لم يسبق له نظير ، وأن هـذا العلم لم يغن عنهم من الله من شىء لما أعرضوا عن الله واعتمدوا على أنفسهم من دونه ، بل لا بد فى كل أمر من الأمور الصناعية والمادية وغيرها من فعل الأسباب والاعتماد على الله والتوكل عليه ، وقد بينا أيضا أننـا لا ننكر الترابط بين الأسباب والمسببات والوسائل ونتائجها وأن فعل الأسباب أمر لا بد منه ، ولكن كل هذا لا ينفع نفعا صحيحا مستمرا ما لم يكن مؤسسا على دين الله وطاعته والتوجه والاعتماد عليه ، فهو الذى خلق الأسباب ومسبباتها والوسائل ونتائجها ، وهو الذى ربط بعضها ببعض ، وهو الذى يقلبها أحيانا ويقطع ترابطها أحيانا أخرى ، وقطع ترابطها من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل فانه أخبر بذلك فما أخبر به فهو من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وهذا الاكل والشرب من أعظم الاسباب لحياة البدن ، وقد يكون سببا فى موت بعض الناس ، وقد يشرق الانسان بالماء البارد ، وهذا المال قد يكون سببا فى نيل الجاه والشرف ، وقد يكون سببا فى قتل صاحبه وعذابه ، ويكون سببا فى مرضه أو سجنه أيضا . وقد يأخذ الانسان سلاحا للمدافعة فيقتل به . وهذا

العلم من أعظم الاسباب فى نيل رضا الرب تعالى والشرف فى الدنيا وقد يكون سببا فى الشقاء والذل فى الحياة الدنيا وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ الآية وفى حكمة الشعر :

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وهذا برهان على أن الله تعالى هو المنفرد بتصريف الأمور فهو الذى يعطى الخير ويدفع الشر وأن كل سبب محكوم مقهور لا يمكن أن يؤثر إلا بشروط وموانع ، والشروط والموانع لا يقدر على حكمها حكما صارما الا الله تعالى

وقد تقدمت أبيات هذا الملحد التى ادعى فيها صريحا أن الجهل سبب للسيادة والسعادة ، وأن الناس والدنيا جميعا تخدم صاحب الجهل ، وان الانسان يزداد كلما زاد جوره ويكبر شأنا كلما زاد كفره ، بل وان الانسان كلما أنكر الفضائل ازداد فى نيل الجاه ، وأن العقل ضرب من الفقر ، كل هذا صرح به فى أبياته المتقدمة ، فهل فى الدنيا أحد دعا الى الفوضى أعظم مما دعا اليها هذا الملحد فى هذه الابيات ، وهل هذا الاعين قلب سنن الله فى خلقه ومحاولة تبديلها وتحويلها ، ولكن هو هذا دأبه ، يرمى الناس بدائه ويفتخر بما ليس له

فصل

قال « وقال عليه السلام : من استرقى أو اكتوى برىء من التوكل رواه الترمذى . وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب ، قيل من هم يارسول الله ، قال الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون رواه مسلم . وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية فكان الاعتماد عليها رجوعا إلى

فصل

ثم أنه جاء بداهية دهياء فقال :

« لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها (١) فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها » انتهى

هكذا صرح هذا الملحد بدون مبالاة بأن السفه والفوضى التى لا ضابط لها هى أن يأخذ الانسان بالأسباب معتقد أنها تحت تصرف الله ومشيئته إن شاء جعلها أسبابا مبلغة إلى غاياتها ، وإن شاء جعلها غير أسباب . فقد عرفت أيها القارىء العزيز أن هذا الملحد لا يقتنع بالأخذ بالأسباب واستعمالها مع الاعتماد على الله والاعتقاد بأنه له التصرف فيها بكل ما شاء ، بل لا بد عنده من الأخذ بها والكفر بمشيئة الله وتصرفه فيها والاعتقاد بأنها آلية طبيعية سائرة الى نهاياتها ليس لله أن يتصرف فيها بل قوتها فوق كل قوة ، فهذا عنده هو التوكل الذى أطال فى تقريره وتحريفه ، فما خالف هذا الذى قاله ـ كأن يعتقد الانسان أن لله قدرة على الأسباب وتصرفا فيها اذا أخذ بها ـ فهذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها ، وكذلك أيضا لو اعتقد انسان أنه تعالى يفعل بغير أسباب فان ذلك سفه وفوضى لا ضابط لهـــا أيضا ، فلا هو تعالى وتقدس وجلت عظمته يفعل من غير أسباب ولا هو يتصرف فى الأسباب ، فعطله عن ملكه تعطيلا كاملا وجعله بمنزلة الصنم بل الصنم خير من إله لا يتصرف فى ملكه فلا ينفع من أطاعه ولا يضر من عصاه ، وهذا الملحد لا يعترف فى نفس الأمر

---

(١) قوله « يدخل » يعنى يتصرف أبدل لفظ يتصرف بيدخل تشويها لسمعة تدبير الله لخالقه

بالربوبية ، وانما يلجأ أكثر الأحيان الى هذه المخادعات ترويجا لدعايته ، وإنما نتكلم معه مجاراة لظاهر كلامه لبيان بطلانه ، وغاية ما يدعيه فى هذه المخادعات أحيانا كونه تعالى خالق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس معترف بهذا ، وكذلك سائر الكفار حتى فرعون فانه فى الباطن معترف بذلك كما قال تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ وهذا الملحد جحد تصرف الله فى ملكه الذى أقر به كثير من الكفار فضلا عن المسلمين ، بل لم نعلم أحدا من الكافرين جحد تصرف الله فى ملكه سوى ما يذكر عن الملاحدة المحض ، فالمسلمون اليوم وقبل اليوم وكذلك أهل الأديان السماوية وكل من يقر بالصانع ويعترف بتصرف الرب تعالى فى ملكه بما شاء كل هؤلاء كفار أعداء الله لأنهم نسبوه الى السفه والفوضى التى لا ضابط لها — على رأيه — فاعتقدوا أنه يتصرف فى الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، وكفر هذا أعظم من كفر مشركى العرب وغيرهم من أعداء الرسل ، فان أولئك كانوا مقرين بأنه تعالى هو الخالق الرازق المدبر للأمر وإن عبدوا بعض المخلوقات معتقدين أن فيها قدرة ذاتية على الوساطة فى تحصيل الشفاعة ونحوها ، وكثير منهم تعلق على الأسباب المادية وتوجه اليها واعتمد عليها وهذا كفر صريح ، فكل من اعتمد اعتمادا كليا على غير الله فقد عبده ، فان الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليتوجه اليه ويدعى ويستغاث به وتصرف اليه الرغبات والرهبات ، وهذه حقيقة العبودية التى خلق الله الخلق لأجلها

وهذا الملحد جحد اعظم مظاهر الربوبية وكفر به وهو تصرف الله فى ملكه بمشيئته العامة ، ولم يكفه ذلك حتى وسمها بالفوضى والسفه قبحه الله ، وهذا أعظم فى الشناعة من كفر من قالوا يد الله مغلولة غلت أيديهم ، فان هذا جعلها مغلولة عن التصرف فى ملكه فلا ﴿ يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ﴾

ولا ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ ، ولا ﴿ كل يوم هو فى شان ﴾ الى غير ذلك كما هو صريح كلامه ، وقد بين فى هذه الجملة السفه والفوضى التى لا ضابط لها وهو تصرف الله فى ملكه ، وبهذا يتبين لك معنى السفه والفوضى التى طالما كررها ورددها وحذر عنها بان ذلك هو تدبير الله لملكه بما تقتضيه مشيئته العليا وإرادته الكاملة ، تعالى وتقدس عما يقول الظالمون والملحدون علوا كبيرا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى المنهاج صحيفة ٩٢ ج ٢ « هو (أى الله) مسبب الأسباب وخالق كل شىء بسبب منه ، لكن الاسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهما : الالتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل معنى يلتئم من التوحيد والعقل والشرع ، فالموحد المتوكل لا يلتفت الى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن اليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها ، فانه ليس فى الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر الى أمور أخرى تضم اليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سبب مستقل بالأحداث إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء خلقه بالأسباب التى يحدثها ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل الا عليه كما قال تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ـ الى ان قال ـ والعلل التى تنفى نوعان أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها وهذا شرك محرم الخ » وسياتى بقية كلامه

ثم قال : « ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدبر وكالته على هذا النحو لكنت راجيا المحال والظلم »

فيقال : بل لو رجوت من وكيلى أن يتصرف فى الأسباب التى فى قبضته وفق مصلحتى حيث وعدنى بذلك ويعيننى فى عملى ويقضى طلبى رحمة منه وكرما

وإحسانا لرجوت منه الرحمة والاحسان وكنت محسنا الظن به وهو أهل لذلك ، بل لو اعتمدت على الأسباب التى فى قبضته من دونه واعتقدت بأنه عاجز عن التصرف فيها أو أنه لا يمكن أن يغيرها بل يجعلها لى كما جعلها لعدوه وعدوى لكنت قادحا فيه ومشبها له بالأصنام التى لا تفرق بين الآخذين بالأسباب فى أديانهم ومذاهبهم فلا تملك لهم نفعا ولا ضرا . اننى لو اعتقدت هذا فى وكيلى بانه مكفوف اليد عما فى ملكه لكنت معتقدا السفه والفوضى التى لا ضابط لها ، هذا مع أن تعليله هذا وقياسه فيه ما فيه ، لأنه تشبيه للخالق بالمخلوق والوكالة بالتوكل ، ومع هذا فهو حجة عليه . ثم ان الله زاده رجسا الى رجسه وعمى الى عماه ففسر قدرة الله بالعجز عن تغيير الأسباب ، وفسر العدل بمساواة المسىء بالمحسن والذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين فى الأرض ، وفسر الحكمة بما فسر به العدل أيضا ، وفسر الايمان بالاخبار بالايمان بالاسباب ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المبحث الأول مبسوطا فراجعه ان شئت لان أكثر كلامه مكرر ، فاننا نقلنا هناك عبارته بحروفها وأجبناه عليها وهى قوله « ولكن التوكل هو الايمان بقدرة الله وبعدله وحكمته وبأخباره الخ » فقد بينا هنالك أنه فسر هذه الأمور بضد تفسيرها الحقيقى لأنه حاول تطبيقها على مبدأ الإلحاد بكون الأسباب هى المتصرفه بذاتها ، وأنه لا فرق بين الناس فى ذلك فلا تأثير للطاعات ولا دخل لرضا الله ولا لغضبه فى ذلك أبدا ، وقد بينا لك أن هذا هو اعتقاد جميع أعداء الرسل وأنهم ما قاتلوا أنبياء الله وحاربوهم إلا لانهم اعتقدوا أن ما معهم من الاخلاق الدينية لا تأثير لها فى تقدم ولا تأخر ، وحقيقة أغلاله التى فرح بها إنما هى جهالات المشركين الاولين كانت مختفية تحت أنوار العلم والدين وأفرغ هذا الملحد غاية جهده فى نبشها وتوجيه الناس اليها ، وهذا هو غاية التقهقر والرجوع الى الوثنية المحض

فصل

ثم قال « ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل [1] فى الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها : فيجعلها حينا أسبابا لانه راض عن الآخذ بها ، ويجعلها أحيانا أخرى غير أسباب لانه غاضب على الآخذ بها ، ويجعلها فى يد فلان أسبابا وفى يد فلان ليست أسبابا ، ويعطى أحيانا بها ويعطى أحيانا بدونها ، وقد يمنع أحيانا أخرى بها ، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله ، ويأخذ بها إنسان آخر ثم لا يبلغ شيئا من آماله [2] وهكذا يتصرف نقضا وبناء فى نواميسه وخلائقه - على حسب رضاه وسخطه وكراهيته ، وعلى حسب اختلاف الاديان والمذاهب ، وعلى حسب تغيير مشيئته - نعم إن الاعتقاد بان الله هكذا يصنع ينافى التوكل على كل احتمال » انتهى

فيقال : اذا كان هذا كله ينافى التوكل فما معنى تدبير الله لملكه وتحكمه فيه وكونه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويوتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وبيده الخير ، وما معنى ربوبيته وكون عباده لا يشاءون شيئا إلا من بعد مشيئته ، وما هو الذى تريد أن يفعله الله بخلقه اذا كان غضبه لا أثر له فى الاسباب ورضاه لا أثر له أيضا ، فأى فرق بينه وبين الوثن الذى لا يملك لمن عبده ضرا ولا نفعا ، وما هى أفعاله تعالى وتقدس التى تطابق التوكل ، فانك لم تجعل له فعلا البتة سوى ما تدعيه أحيانا مخادعة أنه خلق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس وأعداء الرسل لم ينكروا ذلك ، ولكن هذا كله تقرير لما تدعيه من أنهم متروكون لنواميس الطبيعة وقوانينها تتحكم فيهم ، فهى التى تعز وتذل وتدبر أمر هذا العالم على ما سبق من كلامك ، وهذا إنما يتأتى على أصل

---

(١) تقدم معنى هذا ، وأنه أبدل لفظ يتصرف بيدخل نفاقا

(٢) هذه الجملة الأخيرة أدخلها مغالطة ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يقولون بها

الالحاد المحض . وهذا الزنديق الملحد قد بلغت به الجراءة والوقاحة الزائدة الى أن قام ينازع الله فى تدبيره لملكه ويقول إنه سفه وفوضى ، وان ذلك ينافى التوكل ، مع أن النصوص الدينية كلها قد قررت ما نفاه كما تقدمت شواهد ذلك غير مرة كما قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ فبين تعالى أنه لا يجعل هؤلاء كهؤلاء لا فى المحيا ولا فى الممات أيضا ، وهذا صريح فى أن ثواب الأعمال الصالحة ليس مقصورا على جزاء الآخرة ، بل حتى فى الدنيا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ وهذا الزائغ جعلهم سواء حيث قال فى تفسير الايمان بعدل الله « والايمان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الأسباب التى لا تتصل بذلك ، وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا ، تلك هى العدالة الشاملة » انتهى . فهذه العدالة الشاملة هى التسوية بين الآخذين بالأسباب يعنى المادية لما علمت فيما سبق أن الدعاء عنده ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد . فالعدالة هى التسوية بين المسلمين والمجرمين والمنافقين والمتقين والمؤمنين والفاسقين ، فمن أخذ من هؤلاء بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا دخل لإعانته وتسديده وتوفيقه ، ولا ينصر من نصر دينه كما لا يخذل من خذله وخذل دينه ، إنما هى طبيعة من أخذ بها حصل على النتيجة وإلا فلا . والمصيبة أنه جعل هذا هو عدل الله فلم يقتصر على كونه رأيا محضا بل جعله دينا يدان الله به ، فالطاعة لا دخل لها فى الأسباب ، وكذلك المعصية ، وهذا هو محور كلامه ، وهو دعاية صريحة ضد الشعوب الاسلامية التى تدين بالحق وتثبيط لهممهم وعزائمهم ، لأنه إذا صار العز والذل والتقدم والتأخر عند الأسباب المادية فلا شك أن هؤلاء المستعمرين أكثر سلاحا وأقوى فلا فائدة فى الثورة عليهم والقيام ضدهم ،

لأن الله مع الأقوى كما يدعى فيما سبق ، أى فلا ينفع هؤلاء إيمانهم ولا هم ينصرون

والحاصل أن هذا الملحد لم يقتصر على أن يطلب لنفسه أن يكون هو المقدم فى الأمر بين الناس بل تجاوز الى أن أراد أن يكون هو المقدم حتى فى تدبير العالم ، فهو يريد أن يتصرف اللهُ على وفق هواه ومشيئته كما ترى كلامه فتأمله فلعنه الله حيا وميتا ما أجرأه وأفجره . ومعلوم أن الرب الذى لا يدبر ملكه ويتصرف فيه بمشيئته وقدرته فينصر من أطاعه ويذل من عصاه على وفق ما تقتضيه مشيئته ورحمته غير مكترث بالأسباب ومسبباتها لهو رب عاجز ناقص كالمخلوق ، فأى عاقل يرضى لنفسه أن يكون إلهه ومليكه بهذه الصفة ، فالرب الذى له الكمال المطلق هو القادر القهار المتصرف المدبر لأمور خلقه بالإعطاء والمنع والوصل والقطع والعز والذل ، الذى يثيب من أخلص له عمله ونصح وصدق معه فى معاملاته ، وينتقم ممن عصاه وتمرد عليه ، المطلع على السرائر وما تكنه الضمائر ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الذى له العلم الشامل والحكمة البالغة التى لا يطلع عليها أحد إلا بما شاء لمن شاء ، ومن ساوى بين عدوه الظالم الخبيث المفسد المتمرد المبالغ فى محاربته وعداوته الصاد عن سبيله القاطع الطريق الذى يحاول قلب نظامه وبين وليه المخلص الصادق فى معاملته الداعى الى سبيله المبالغ فى تنزيهه وتقديسه والدعوة الى سبيله فلا شك أن المخلوق الذى يفعل هذا ليس بعادل ولا حكيم ، فكيف الرب العظيم الذى أنكر غاية الانكار على من جعله يساوى بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المتقين والفجار ، والله جل وعلا قائم بالقسط بين عباده يوفى كل نفس بما كسبت ويعطى كل مخلوق ما يستحقه ويناسبه جزاء وفاقا بلا سفه ولا فوضى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها كرما منه وإحسانا ، وهو الرءوف الرحيم بعباده ، الحكيم العليم فى أفعاله وصنعه ، لا يعزب عنه مثقال ذرة من ملكه . وهذا الملحد سلك أخبث مسلك

على وجه الارض فيما لا يعد ولا يحصى من كلامه ، ولهذا ذهب فى أبياته السابقة الى أشنع ضروب الفوضى ، فادعى أن الجهل هو سبب العز والتقدم ، وأنه بمقدار ما يكون الانسان من الجهالة والغباء تكون حالته فى الرياسة والجاه والعز والثراء ، وبمقدار ما يكون من العلم تكون حاله من البؤس والشقاء والذلة ، بل العقل عنده ضرب من الفقر ، فتأمل أبياته السابقة فى المبحث الخامس تجد أنه على غاية من سوء الظن بالله تعالى وأنه فوضوى خبيث الى حد بعيد ، فقبح الله من صد عن سبيله وصدف عنها وابتغاها عوجا وجعله عبرة لعباده المؤمنين

ثم قال «وان حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم ، لأنها تفرق بينهم فى الحب والبغض ، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادىء والاشياء الأخرى - إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات ، وهى حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الايمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة » انتهى

فيقال : هذه الجملة لا تصلح تفريعا على الجملة التى قبلها لما فيها من التناقض فى نفسها ومع ما قبلها ، وقد جاء بها مشبها بها تدبير الله لخلقه جرأة على الله تعالى وتسهيلا لرفض دينه ، ثم غالط فى آخرها بقوله فكيف يسوغ للعاقل إلخ ، مع أنه هو الذى وصف الله تعالى بها ثم قال فكيف يسوغ للعاقل . فانظر الى هذه المغالطة والتلاعب المنكر ، فمن هو الذى ادعاها قبله حتى يقول هذا القول . وكل عارف يعلم أنه انما اتى بها تعريضا بأنه تعالى يحكم العالم كهذا الحكم على حد سواء ، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية . ولو كان يعتقد الربوبية حقا لم يتجاسر على مثل هذا القدح الفظيع فيه تعالى ، هذا مع كونه قاسه مخادعة على خلقه فأوجب عليه ما لم يوجبه على نفسه ، وهو تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو سبحانه إنما أوجب على نفسه نصره للمؤمنين كما قال تعالى

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

على أن للقائل أن يعكس هذه الدعوى عليه بالمعارضة فيقول : وإن حكومة تعامل شعبها بالتسوية بين المصلح والمفسد والثقة والخائن والمجاهد فى سبيلها والمحارب لها والمتبع لأمرها والمتمرد عليها والمخلص الصادق فى اتباع نظامها وأوامرها وبين المخالف لها الشاتم لها المفسد لنظامها الباذل جهده فى جحد حقوقها وبين الحامد لها المثنى عليها الداعى اليها وبين المنفّر عنها الكايد لها - لهى حكومة تعد من شر الحكومات ، ولا يمكن أن تستقر هذه الحكومة أو يرضى عنها أحد ، بل هى حكومة فوضوية طاغية سفيهة ، وهذا الملحد قد وصفه تعالى بهذه الحكومة ، فهو يريد أن لا تفرق هذه الحكومة بين الأسباب والمسببات من أجل التفريق بين الحب والبغض ، فكيف لا تفرق بين من أحبته ومن أبغضته وبين من وافقها وبين من خالفها ، وهل هذا الا من أفسد ما يقال . ذلك مع أنه أثنى على هذه الحكومات الطاغية الكافرة وهو يراها تفرق بين رعاياها فى الحب والبغض والموافقه والمخالفة ، بل يراهم يحاكمون من يخل أو يخالف ما تقتضيه أنظمتهم بل ويشنقون ويسجنون ويطردون كل من آنسوا منه فعل ما يخالف نظمهم ومبادئهم الأساسية ويغدقون ويرفعون كل من سعى فى صلاحهم وإصلاح قوانينهم ، فهذا كله فعله مع هؤلاء ورآه أحسن شيء ، وأما الرب الكريم فانه جعل إثابته للمطيع ومحبته له دون العاصى فوضى وسفها ، قبحه الله ما أكثر خبائثه

فصل

قال « ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر « حسبي الله ونعم الوكيل » فقال عليه السلام « ان الله يلوم على العجز ، ولكن

عليك الكيس ، فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » . وعن ابى أمامة قال قال رسول الله « ان الله يلوم على العجز ، فابذل من نفسك الجهد فان غلبت فقل توكلت على الله » وعن انس بن مالك قال : جاء رجل الى النبي وترك ناقته على باب المسجد ، فسأله الرسول عنها فقال : اطلقتها وتوكلت على الله ، فقال عليه السلام « اعقلها وتوكل » انتهى

قلت : هكذا ساق هذه الروايات محتجا بها ، وهو لم يعزها ، مع أنه لايقبل ما فى الصحيحين إذا لم يوافق هواه ، ومع أنه قد اتخذ التحريف ذريعة فى دفع النصوص القائمة فى وجهه فشرع فى تحريف هذه الروايات ولواها الى ما يوافق هواه ، وهو بهذه العملية فى إمكانه أن يجعل نصوص القرآن والسنة شاهدة لكل ما يقوله ، لأنه يتناول ماشاء من آية أوحديث أو قول عالم فيحرفه على هواه ويوجب على الناس اتباع قوله ويسفه رأى كل من خالفه كائنا ما كان بل ولو خالف اللغة ، وبهذا تكون دلائل النصوص شواهد على كل ما يريد ويشتهى ، فقال فى تحريف هذه الروايات التى ذكرها :

« فقول الرجل : حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته فى القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلا أنه يتصرف ويقضى على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم ، لا على مقتضى الأسباب والنواميس التى وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لاراد له »

فيقال له : من أين لك أن الرجل فهم هذا ، بل أو أن أحدا من المسلمين خاصتهم أو عامتهم ممن له عقل يفهم أن الله يتصرف على مقتضى أهواء الناس وما يريدون لأنفسهم ، وليس فى الحديث أيضا ما يدل على ما فهمته أنت من أنه تعالى يشير إلى هذا ، وحاشا أن يكون الله سبحانه محكوما بالنواميس والقوانين لا يتحكم هو فيها ويجريها على مقتضى مشيئته وحكمته ، فانه لو كان يتصرف على مقتضى الأسباب لكانت هى الحاكمة عليه لا سيما وهو قد ادعى

فيما سبق أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس والقوانين ويصرفها على مقتضى ما به من القدرة والملكة وهى التى تحكم العالم ، فجعل الانسان هو الذى يتصرف فيها ، وهنا قيد الله تعالى بالتصرف إلا على مقتضاها ، والله أعظم وأجل من ذلك ، بل هى محكومة خاضعة لمشيئته وقدرته وحكمتـــه ، فهو يتصرف فيها بما شاء ، وهى محكومة طوع المشيئة فى القطع والوصل والاعطاء والمنع وحكمته وعدله وقدرته كلها من صفاته المقدسة الداخلة فى مسمى اسمه بخلاف الأسباب المخلوقة فانها ضعيفة أصلها العدم ، وكل ما فيها من قوة انما هو فيض من آثار رحمته التى وسعت كل شىء ، فالأسباب محكومة طائعـــة للمشيئة والارادة ، فمن استعمل الوسائل الدينية فقد استعمل الأسباب القوية التى وعد الله بالنصر من استعملها ، وهو الكريم الذى لا يخلف الميعاد ، ومن رفضها واعتمد على الأسباب المادية دونها وعاند الله وعاكس واحتقر دينه لم ينل إلا عكس مقصوده ولا بد ، ولا سيما إذا كان منافقا يدعى الدين وهو فى نفس الأمر يحتقر دين الله ويرى أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلا

ثم قال : « فأرشده مرشد الانسانية إلى خطئه وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيلا أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا انفكاك ، فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك [1] والأخذ به والاعتماد عليه ، وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات ، محطما الحواجز ، خارقا النواميس متجاوزا الحدود التى حدها هو »

فيقال : فعلى هذا فقد جعل بينه وبين الأسباب والمسببات حواجـــز وحدودا لا يمكن أن يخرقهـــا أو يحطمها أو يتعداها . قبحك الله ما أخبث

---

(١) أى الى الربط وعدم الانفكاك ، هكذا فسره

كلامك ، فهل الأسباب إلا مخلوقات عاجـــزة ضعيفة تجرى طوع المشيئة والارادة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو الواحد القهار . ثم هل فى الحديث ما يشير إلى هذا الهذيان والثرثرة الفارغة التى نزه الله عنهـا نبيـه الكريم ، وهل هذا إلا جرأة ظاهرة على مقام النبوة وتقويل له بما لم يقله ولا يدل عليه كلامه البتة . ولا عجب فلا للملحد الذى يريد إفساد دين الاسلام قول غير هذا وما فى معناه ، ومن أين له أنه أفهمه أن معنى كونه وكيلا أنه وضع الأسباب والمسببات وربَط بينهما فلا انفكاك ، وأن التوكل عليه يجب أن يكون معنـاه الالتفات إلى ذلك أى الربط ، وأنه الأخذ به والاعتماد عليه ، فعلى هذا يكون الرسول هو وأصحابه فى قصة تأبير النخل قد خالفوا التوكل وضلوا فيه ضلالا بعيدا بحيث لم يلتفتوا إلى هذا الربط ولم يأخذوا به ولم يعتمدوا عليـه ، ومع هذا فلم ينقل عنهم أنهم استغفروا من ذلك وتابوا منه ، فكيف يفهم الرسول عليه السلام هذا الانسان بأن التوكل هو الربط بين الأسباب الذى لا انفكاك منه ، وأنه الاعتماد على ذلك والأخذ به ، مع أنه رآه وأخبر أصحابه بذلك فهو إذن قد ترك ركن الدين الذى هو التوكل ، أو كان جاهلا فيه هـذا الركن لا يعرفه على زعم هذا ، بل الناس فى هذا الأمر على ثلاثة أقوال منهم من يقول ان بينهما ربطا وثيقا ولكن الله تعالى اذا شاء قطع ما بينهما كما وقع ذلك ، ومنهم من يقول بل الفعل لله تعالى وإنما السبب علامة للمسبب فقط ، وليس بينهما ربط بقوة مؤثرة كما يقوله الأشاعرة وغيرهم ، ومنهم من يقول بل بينهما ربط لا ينفك أبدا بل ربط طبيعى أزلى ، وهـذا قول الدهـــرية والملاحدة المحض ، ولكن هؤلاء لا يدعون الاسلام بل يصرحون بالكفر المحض ، وهذا الملحد أراد أن يجمع بين مـذهبهم وبين الاسـلام فيدعى فى الظاهر الاسلام ، ويقرر مقتضى ما يعتقده فى الباطن فيجعل الأسباب تفعـل بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهـاياتها ، وقـد

تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية [١] فى أن « الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ، والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل يلتئم من التوحيد والعقل والشرع ، فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن اليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها ، فانه ليس فى الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم اليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سبب مستقل بالأحداث الا مشيئة الله وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاءه خلقه بالأسباب التى يحدثها ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل إلا عليه كما قال تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وما سبق من علمه وحكمه فهو حق ، وقد علم وحكم بأن الشىء الفلانى يحدثه هو سبحانه بالسبب الفلانى ، فمن نظر الى علمه وحكمه فليشهد الحدوث بما أحدثه ، واذا نظر الى الحدوث بلا سبب منه لم يكن شهوده مطابقا لعلمه وحكمه ، فمن شهد أن الله تعالى خلق الولد لا من أبوين لسبق علمه وحكمه فهذا شهوده عمى بل يشهد أن الله تبارك وتعالى سبق علمه وحكمه بأن يخلق الولد من الأبوين والأبوان سبب فى وجوده ، فكيف يجوز أن يقال أنه سبق علمه وحكمه بحدوثه بلا سبب ، واذا كان علمه وحكمه قد أثبت السبب فكيف أشهد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه ، والعلل التى تنفى نوعان : أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها ، وهذا شرك محرم ، والثانى أن تترك ما أمرت به من الأسباب وهذا أيضا محرم ، بل عليك أن تعبده بفعل ما أمرك به من الأسباب ، وعليك أن تتوكل عليه فى أن يعينك على ما أمرك به وأن يفعل هو ما لا تقدر أنت عليه بدون سبب منك » انتهى كلام شيخ

---

(١) ص ٩٢ مجلد ٢ (منهاج السنة)

الاسلام . وانظر الى تصريحه بأن الاعتماد على الاسباب شرك محرم ، وهذا الملحد جعل ذلك هو التوكل وادعى أنه ركن الدين وكلام العلماء وأئمة المسلمين كلهم على هذا ، ومن أراد ذلك فليراجع كتب اللغة والتفسير وغير ذلك من كتب الأمة الاسلامية ، وأى عاقل فانه يعلم أنه لا علاقة بين ما قرر من التعليق على هذا الحديث وبين نص الحديث ، وأن الرسول ﷺ لم يفهم الرجل هذا الربط ولا الالتفات والأخذ والاعتماد على الأسباب ، بل قال له : « ان الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فاذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » فاين هذا القول الكريم من هذا التعليق الخبيث بل هو عكس له ومضادة لمعناه ، فانه عليه السلام أمره بالكيس ، ونهاه عن العجز ، ومعلوم أن أبعد الناس عن الاتكال هم أكثر الناس عجزا ، فهؤلاء الذين ذهبت أعمارهم فرطا فى مواضع اللهو وعشق الصور وغيرها ، أتراهم فعلوا ذلك اتكالا أم فعلوه عجزا واتباعا لأهوائهم وشهواتهم واعتقادا بأن الاسباب المادية هى مناط الامور فلا حساب ولا عقاب ، ثم انه أمره عليه السلام بأنه إذا غلب فليقل : « حسبى الله ونعم الوكيل » ففيه حجة لنا على قولنا بوجوب الاخذ بالاسباب المادية والاعتماد على الله فى إنجاحها ، فانه المتصرف فيه بمشيئته وقوته وقدرته القاهرة فيجب طلب الاعانة والتوفيق والسداد ، إذ لو لم يكن له تصرف فيها وقدرة قاهرة عليها لم تطلب منه الاعانة والتسديد والهداية والتوكل عليه فيها ، لانها لا بد أن تجرى بطبعها حتما فلا يحصل بمجرد الالتفات اليه والتوجه اليه الا التعويق والملهاة فلهذا بنى على هذا الاصل جميع جنته وزندقته ، لانه لما اعتقد الالحاد واحتاج الى الانتساب الى الدين لامر معروف لم يسعه غير الدخول فى الزندقة والنفاق الاكبر فكان كذلك بل بلغ فى ذلك الى أقصى حده

وكل مؤمن يعلم أن الاخذ بالوسائل والاستعانة به تعالى يوجب الايمان

به وحبه وتعظيمه وإجلاله لانه هو المتصرف فيها المهيمن عليها ، وهذا يوجب أيضا القوة والشجاعة والمواصلة فى السير والعمل ، فلو كان انفكاكها مستحيلا عليه تعالى لكان ذلك خارجا عن قدرته وهو عاجز عنها ، فلا معنى إذن لقوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » وانما يكون الكافى الحسيب اذا كان قادرا عليها قاهرا لها وهى خاضعة لمشيئته وقدرته فيكون حينئذ معنى « حسبى الله » أى كافينى « ونعم الوكيل » أى المعتمد لانه القهار العزيز الغالب على كل شىء ففيه الكفاية فى إعانتى أو تعويضى عما يفوتنى على ما اقتضاه علمه وحكمته ورحمته

ودعواه أنه أرشده الى خطئه كذب ظاهر ، فلم يرشده الى خطأ أصلا ، ولا أنكر عليه ذلك ، فلم يقل له أخطأت ولم ينهه عما فعل ولم يقل : لم قلت « حسبى الله ونعم الوكيل » وكونه طلبه ورده لا يدل على انكاره بل يدل على أنه استحسن ذلك منه فأراد أن يزيده فائدة أخرى فأوضح له الفائدة فى النص نفسه فى تقريره لما قال فى نفس الحديث كما هو ظاهر

وقوله « فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات الى ذلك والاخذ به والاعتماد عليه »

يقال : هذا كذب ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يكون الشرك هو التوكل ، فهذه جرأة عظيمة على الله ورسوله ، فليس فى الحديث ما يدل على هذا بل فيه ما يدل دلالة صريحة على نقيضه كما تقدم ، وكيف يكون التوكل هو الالتفات الى الاسباب وربطها بمسبباتها ربطا لا ينفك وقد علم أن الملاحدة والمشركين الجاحدين للمعجزات إنما جحدوها إيمانا بهذا الربط ، فالمعجزات تناقض الربط المستحيل الانفكاك ، ولهذا كان المشركون والملاحدة ينكرونها ، ومحال أن الرسول ﷺ بعث لتقرير كفر المشركين وجحد المعجزات والتوكل على الاسباب ، فانه بعث لتقرير التوحيد الذى أساسه التوجه إلى الله قولا وفعلا ، والاعتصام به والالتجاء اليه فى كل حال فى استعمال الأسباب وغيرها

وقوله « وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات محطما الحواجز خارقا النواميس متجاوزا الحدود التى حدها هو »

فيقال : وهذا كله فجور ظاهر لا علاقة للحديث به أصلا ، وليس فيه ما يدل على أن الصحابى كان يتوهم هذا ، ثم هذا يبين أن الملحد لا يرى أن الله يفعل الخوارق والمعجزات ، وهذا إنكار صريح للمعجزات التى اختص بها من شاء من عباده من الانبياء والمرسلين ، وكذلك الكرامات التى خص بها أتباعهم . وقوله « محطما الحواجز » تصريح بأن هناك حواجز حجز بها نفسه من الأسباب لا يمكنه أن يتجاوزها . فانظر الى هذا الفجور الظاهر

وقوله « خارقا النواميس » تصريح بأن خالق النواميس لا يمكن أن يخرقها ، وما علم المغرور أن نفس أفعاله وتصرفاته فى خلقه على مقتضى علمه وحكمته ورحمته هى النواميس ، وإنما أراد أن يجعل تصرف العالم موكولا الى نواميس الطبيعة والله محجور عليه فلا يتصرف فيها ولا يغير شيئا عن طبيعته ، فجعل النواميس حاكمة عليه قاهرة له لا أنه المتصرف فيها المهيمن عليها الذى يدبرها كيف شاء فهو الفعال لما يريد

وقوله « متجاوزا الحدود التى حدها هو » تصريح آخر بأنه خلق حدودا لنفسه لا يتجاوزها (١) ، وما علم هذا المبتلى أن خلقه كله بما فيه من حدود وقيود ورسوم كله تحت مشيئته وإرادته المطلقة ، فهو الذى يحكم ما يشاء

---

(١) تقدم تصريح هذا الزائغ مرارا كثيرة بأن قدرة الانسان ليس لها حدود وأنها غير محدودة ، وأن مواهبه لا يمكن أن يكون لها حدود أو قيود ، هكذا صرح ، وهنا ادعى أن رب العالمين محدود بحدود لا يمكن أن يتجاوزها وحواجز لا يمكن أن يحطمها ونواميس لا يمكن أن يخرقها ، فرب العالمين عنده مقيد بحدود وحواجز ، وأما ابن الحيض فهو الذى له التصرف المطلق الذى ليس له قيد ولا حد . هكذا يقول الزنديق الملحد ، ولكن من يسمع

ويفعل ما يريد ، ثم من أين علم أن الله حد حدودا وحواجز ونواميس لا يمكن أن يتعداها هو ولا يتجاوزها ، فان حقيقة هذا أنه خلق مخلوقات قاهرة له حاكمة عليه ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وهذا بخلاف قوله تعالى كتب على نفسه الرحمة وكان حقا علينا نصر المؤمنين فان هذه صفات له ليست مخلوقة وهي حق أوجبه على نفسه قد عرف بالنص[1] حيث أخبرنا به ولم يخبرنا قط أنه حد لنفسه حدودا لا يتجاوزها أو نواميس لا يخرقها أو حواجز لا يحطمها ، فان هذا قول عليه بلا علم ، بل هو كفر صريح لا يرتاب فيه من عرف دين الاسلام

ثم قال « وقوله عليه السلام « فاذا غلبك أمْر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » معناه اذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك انما غلبت بالحق وبالقوانين التي لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون اليها ، واذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وان كان غلبا وهزيمة لأنه عدل ، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضي وان كان قضاؤه عليك لا لك ، لأنه عادل غير محاب ، ولانه عالم غير جاهل ، ووجب ان تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو الى اللوم بعجز أو تقصير ، وهذا بمثابة قولك : نعم القاضي هذا مشيرا الى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه انما قضى عليك بالحق »[2]

---

(١) اى فلا مجال للعقل فيه

(٢) لكن الذى يكلني الى نواميس الطبيعة المضلة العاتية التى لا تعلم ولا تعقل وتتحكم فى بمجرد تفاعلها لم يقض على بالحق ولم يحكم فى بالرحمة والعدل والاحسان ، فكيف ارضى بحكمه الظالم الجائر وإنما أرضى به اذا تحاكمت الى نظامه الذى شرعه بنفسه أو على ألسنة رسله ولأنه حينئذ قد حكم على بالحق ، وأما على تلك الصفة فالتى حكمت فى أوثان طبيعية خبيثة

قلت : فهذا تعليقه على هذا الحديث فكأنه يخاطب غوغاء وبرابرة لا يعلمون شيئا ولا يعقلون ، ولا نظن مسلما يخفى عليه ما فى هذا التفسير من البشاعة وفساد القصد وأنه ليس فيه مناسبة لنص الحديث أصلا ، فأى مناسبة بين قول حسبي الله ونعم الوكيل وبين قوله انما غلبت بالحق وبالقوانين التى لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون اليها ، فان المناسب لهذا التفسير أن يقول « حسبي القوانين » لأنها هى التى حكمت عليه على هذا ، ومشيئة الله وارادته لا علاقة لها بذلك ، فان هذا الملحد صرح بأن القوانين هى التى تحكم العالم باستخدام الانسان لها حيث قال فيما مضى : فمن وفق لاستخدام هذه النواميس - إلى قوله - نال ما يبغى ، فصارت النواميس تجرى على مقتضى إرادة المستخدمين لها لا على مقتضى مشيئة الله وإرادته ، ولهذا ادعى هنا أنها لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها فانها لا تفرق بين المسىء والمحسن وولى الله وعدوه ، كالمسائل الرياضية بالنسبة للمسىء والمحسن وكالآلة المستخدمة التى هى تجرى على حسب إرادة مستخدميها لا على إرادة نفسها هى لأنها طبيعة عاتية مجردة . وحقيقة هذا أن العالم هو الذى يحكم نفسه بنفسه ، والا فالله سبحانه وتعالى قد نص على أنه يفرق بين المسىء والمحسن فى الحكم فلا يجعل المسلم كالمجرم فى الجزاء بل كل منهم يجازى بمقتضى عمله ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وكما قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ فأخبر أن هذا الحكم لا يجوز نسبته اليه ولا يليق به بل لا بد من التفريق بينهما ، وكيف يناسب هذا القول الذى ادعاه قوله « حسبي الله ونعم الوكيل » انما يناسبه إذا كان الله سبحانه هو المتصرف فى خلقه الكريم الرءوف الرحيم الذى هو حسب من يثق به ويلجأ اليه ويعتمد عليه ويستعمل من الأسباب التى شرعها ما فى وسعه ، فقوله ، ان غلبك أمر فقل حسبي الله ، يعنى إنك اذا استعملت الأسباب على وجهها بما فى وسعك ثم غلبت فقل « حسبي الله » أى أنه كافينى ونعم الكافى ،

أى كافينى عن الأسباب التى فاتتنى ثمرتها فلا بد أن يعوضنى عنها أو يبدلها لى بغيرها ويجبر مصيبتى . فهذه الرواية كالرواية التى فيها « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، فان أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » الحديث . ولينظر العاقل إلى قوله تعالى ﴿ فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ هل فى معنى هذا اعتماد على نواميس الطبيعة وما يشير إلى ما ادعاه ، بل معنى الآية يتضمن الاعتماد على الله والوثوق بوعده فى نصرة رسله والذين آمنوا ، فان معناها فان تولوا أى تعرضوا عن قبول رسالة ربى فالله كافينى وهو المتولى أمرى ، فانى رسوله وهو القادر على تأييد رسوله القادر على اتمام نوره الذى جئت به رحمة للعالمين ، وعليه توكلت أى اعتمدت فى تبليغ ما أمرت به وفى شئونى كلها لأنه هو القادر القهار المتولى من توكل واعتمد عليه ، وانما أنا رسول مبلغ ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، وما على الرسول إلا البلاغ . هذا حاصل ما ذكره المفسرون ، وهو ظاهر ، فأى دخل لنواميس الطبيعة وقوانينها فى مثل هذه الأمور . وفى الصحيح عن ابن عباس قال : حسبى الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قيل له ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ ولا شك أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار لم يعمل أسبابا مادية أصلا فضلا عن أن يعتمد عليها ، بل استعمل أعظم سبب فى الوجود وهو الاخلاص فى التوجه الى الله تعالى بالدعاء والتوكل الذى تضمنه « حسبى الله ونعم الوكيل » ولهذا كان لهذا السبب الأثر الأكبر فى قلب النار الى ضدها ، لأنه استعمل هذا السبب الأعظم كاملا من كل وجه . وكذلك نوح لما دعا على قومه فى قوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ الآية صار لدعائه أعظم الأثر فأغرقهم الله كلهم إلا من آمن معه فكان لهذا السبب المستعمل على وجهه الكامل أكبر الأثر ، وكذلك ذو النون لما استعمله

خرج من ظلمات بطن الحوت والبحر لأنه استعمله على الوجه الكامل وأمثال ذلك كثير ، ومعلوم عند كل عاقل أن تأثير كل سبب بحسب استعماله على وجهه سواء أكان ذلك السبب ماديا أو معنويا ، فأكبر سبب مادى لا يؤثر إلا بقدر استعماله على وجهه ، ولكن لا يمكن بحال أن يبلغ مبلغ السبب الدينى لأنه دونه ولأنه تابع له ، وهذا مما يبين لك أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب الطبيعية وأن الطبيعية تابعة لا متبوعة ، فمن استعمل الدينية فلا بد أن يوفق لما به تحصل سعادته ونجاته ، ومن عاكس نظام الله وشرعه والتجأ إلى الأسباب الطبيعية واعتمد عليها وتوكل عليها عكس الله قصده وسلط عليه أسبابه أو أمثالها ودمرته وأذاقته وبال أمره (١) كما وقع ذلك للنبى ﷺ لما قيل له ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ اعتمد على الله واستعمل الدعاء والتوكل الذى تضمنه ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ولم يقل قد جمعنا لهم كما جمعوا لنا أو ما هذا معناه ، بل استعمل ما فى وسعه من الأسباب المادية واعتمد على الله واجتهد فى استعمال الأسباب الدينية من التوحيد الذى تتضمنه المتابعة ، ولذلك حصل النجاح التام والسيادة التى لم يحصل لها نظير قط

فصل

قال « وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت ، فانه يذهب فى هذا القول وهذا العمل الى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيطه والعقل ، مؤملا أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل فى يد أحدهما خطام وفى الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب ، فرد عليه الرسول هذا قائلا « اعقلها وتوكل » مبينا له أن الاتكال معناه الأخذ

---

(١) قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ الآية

بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجاحها ، لأنها من خلق الله وشرعه ، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا الى النجاح »

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى الجرأة على تحريف النصوص وهتك حرمتها ، ولا ندرى من أين علم مافى ضمير هذا الصحابى حيث ادعى عليه ما لعله لم يخطر بباله بأنه كان مؤملا أن ينزل جبريل وميكائيل فى يد أحدهما خطام وفى الآخر عقال ليحفظا له الناقة ، ولم يبين من هو الذى فى يده الخطام ممن فى يده العقال منهما ، وكان من حقه إذ دخل فى هذه الفضول أن يبين ذلك لتكميل هذيانه ، فان من علم مافى ضمير الصحابى فلا بد أن يعلم ذلك أيضا ، ولعل هذه الفضول والهذيان من وحى الحقائق الازلية الأبدية أو هى رؤيا رآها آخر الليل ، اذ لو كان له مسكة من عقل أو حياء لاستحيا من التفوه بهذه القحه والفضول التى لا يتكلم بها الا مخذول ، وكيف يتفق أن يكون معنى قول النبى ﷺ « اعقلها وتوكل » أن ذلك هو الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحها لا على الله وحده ، فلو كان هذا هو المراد من الحديث لقال : اعقلها وعقلك لها هو التوكل ، أو لقال : اعقلها وتوكل على عقلك لها ، لكنه أمره بالعقل والتوكل على الله ففيه بيان أن العقل وحده ليس بكاف بدون الاعتماد على الله . ثم كيف يمكن أن يكون التوكل على الله هو التوكل على الوسائل فان هذا بعينه فعل المشركين فانهم يتوكلون على الوسائل ويعتمدون عليها غاية الاعتماد ، ولهذا توجهوا اليها وعلقوا عليها آمالهم فدعوها والتجأوا اليها على اختلاف أنواعها من أرواح وأشباح وغير ذلك ، وهذا هو شركهم الذى كفرهم الله به ، كما نقل شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من العلماء الاجماع على ذلك ، قال فى (الفروع) و (الاقناع) وغيرهما : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم كفر إجماعا لأن هذا كفعل عابدى الأوثان . وهذا الملحد نفسه قد ذكر فيما يأتى أن أوربا جعلت صناعتها هى

آلهتها التى وحدتها وأبت الاشراك بها، فلذلك صعدت هذا الصعود. فعنده أن تأليه الصناعة ونحوها من الأسباب المادية هو السبب فى النجاح بخلاف توحيد رب العالمين، ولينظر المسلم العاقل الى قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون ﴾ فهل يظن ذو عقل أن معنى قوله ﴿فعلى الله توكلت﴾ اعتمدت على الأسباب وعلى إنجاحها، بل الآية صريحة فى أنه اعتمد على الله وحده، وقال تعالى عن عبده هود عليه السلام ﴿قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون، انى توكلت على الله ربى وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم﴾ فهل يظن عاقل أنه يريد بقوله ﴿انى توكلت على الله ربى وربكم﴾ اعتمدت على الوسائل المادية وعلى إنجاحها، بل الآية صريحة فى أنه اعتمد على الله الذى هو ربه ورب قومه ورب كل شىء الذى هو آخذ بناصية كل دابة، فهذا تصريح بان كل الأسباب طوع مشيئته وإرادته، فمن هذه صفته هو الذى يجب أن يعتمد عليه ويدعى ويلجأ اليه، فالخير كل الخير فى طاعته والشر كل الشر فى معصيته ومخالفة أمره والاعراض عنه والاعتماد على غيره، وتأمل قوله تعالى عن عبده موسى عليه السلام فى قوله ﴿يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ فهل فى هذا ما يدل على أن التوكل هو الاعتماد على الوسائل المادية، أم هو صريح فى نقض ما ادعاه، فانه ادعى أن التوكل هو الايمان بالأسباب، وهنا ادعى أن الاتكال هو الاعتماد على الوسائل وعلى انجاحها، وموسى عليه السلام يقول ﴿ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين، فقالوا على الله توكلنا﴾ فهو صريح فى أن التوكل هو الاعتماد على الله وحده، وهذا أمر واضح كالشمس، قد أجمعت عليه كتب اللغة والتفسير، بل العامة تعرفه، ولولا غربة الاسلام وفساد التصور فى كثير

من الناس لما احتجنا الى هـذا الايضاح كله ، فان أدنى كتاب من كتب اللغـة يتناوله الانسان يجـد فيه التصريح بأن التوكل على الشيء هو الاعـتماد عليه والاستسلام له ، وما ادعاه عكس ظاهر للغـة وكلام العلماء كلهم ، بل عكس صريح لموضوع الدين ، فكيف يكون الاتكال على الشيء هو الاعتماد على غيره ، وكيف يكون المتوكل عـلى الله هو المعتمد عـلى الوسائل التى هى من خلقه ، وكيف تكون خلقه وهى شرعه ، ومعلوم أن الأسباب المادية ليست بشرعه بل شرعه هو عبادته التى أشرفها دعاؤه والتوجه اليه ، وهو قد جعله لا فائدة فيه ، فما أنزله من النظام السماوى هو شرعه ، وكله يتضمن طاعته ، أمـــا الأسباب المادية فانمـا شرع استعمالها على الوجـه الصحيح غير المخالف لشرعه الدينى ، فليست شرعا هى بل هى اذا استعملت على مقتضى الشرع يكون استعمالها مشروعا بالاضافة لا شرعا هى بالاستقـلال بل هى شر بالاستقـلال خير باستعمالها على نظام الله وشرعه ، وانما أدخل هذه الدعوى مغالطة والا فقد تقدم دعواه بان المنابر والمساجد ادت شر ما يؤدى ، فهذا هو أعظم مظهر مقدس لشرعه فقد جعله شرا وجهـلا وظلاما وخرافات ، وجعـل نواميس الطبيعة هى الحاكمة للعالم ، وهذا قلب صريح للدين ومحاربة لرب العالمين ، وقد نص العلماء على أن التوكل على الشيء دون الله عبادة له كما تقدم ، فمـن توكل على الوسائل وعلى انجاحها دون الله فهو مشرك كافر بالنص والاجماع ، والملحد نفسه قد اعترف بأن التوكل ركن من أركان الدين ، فكيف يصرفه للاسباب ، وقد تقدم كلام شيخ الاسلام بان الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، فالحديث حجة واضحـة فى الدلالة عـلى نقيض دعواه فانه تضمن الأخـذ بالأسباب ، والاعتماد على الله لا عليها ، فلو كان الأخذ بالأسباب كافيا لم يحتج الى الاعتماد على الله لان ذلك يكون ملهاة وتعويقا لا فائدة فيه ، وفيه بيان وجوب الأخذ بالأسباب ، وأن التوكل المجرد لا ينبغى فان الله لم يأمر بذلك كما قررناه سابقا ، وتقدم أن معنى التوكل هو الاعتماد على الله وأن الاعـتماد عليه تعالى لا ينافى

الأخذ بالأسباب بل يحض على ذلك ، لأن الأسباب مخلوقة مطيعة لأمره وهو بيده ملكوت كل شيء يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، وهو العليم الحكيم العزيز القهار الجبار لاراد لأمره ولا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

ثم قال « ومبينا له (١) أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن ، وأن لا يخشى من وراء الأسباب جورا وعدوانا كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفى من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو يضيعها أو يحل عقالها كما يظن ضحايا الأرواح ، أو كان الله يصنع بناقته بعض الأشياء التى يزعمون أنه يصنعها خروجا على السنن والأسباب والعادات بقصد الامتحان أو الابتلاء أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كما يزعمون ، وهذا ما يشير اليه قوله « وتوكل » أى اطمئن وثق بالنتيجة اذا ما أخذت بالحيطة الكاملة »

قلت : هذا آخر تفسيره وتعليقه على حديث « اعقلها وتوكل » ولا يخفى على ذى عقل ما اشتمل عليه هذا التعليق من المعاكسة لمعنى الحديث والبهت والفجور وسوء الأدب واتهام الصحابى بما لعله لم يخطر بباله ، وفيه من ضروب المصائب والمعايب مالا يتسع هذا الموضع لمناقشته ، وقد قدمنا الكلام فى السنن وأنه يريد بذلك نواميس الطبيعة أى تفاعلها على ما مر تفصيله ، وقد بينا لك أن سنن الله هى نظامه الذى هو أمره ونهيه وتقديره وتدبيره ، فأوامره وأقداره الكونية والشرعية كلها سننه ، فقوله خروجا على السنن كلام ساقط ، فان أفعاله وأقواله هى السنن ، فكيف يخرج عليها ، والأسباب ملكه يتصرف فيها كيف شاء بمقتضى علمه وحكمته فانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد كما بين ذلك فى كتابه ، فكيف لا يتصرف فى ملكه ويدبره على ما يريد . وقوله بقصد

---

(١) أى لصاحب الناقة

الامتحان والابتلاء لانه يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كلام ليس بصحيح ، بل من يقول هذا يقول لكنه من الجائز أن يبتلى الله عباده ويمتحنهم لينظر كيف يعملون ، وليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين كما دلت على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الى غير ذلك من النصوص التى لا تحصى ، فالابتلاء فى الدنيا أمر لا بد منه للمؤمن والكافر أيضا ، فالمؤمن يزداد إيمانا مع إيمانه وتطهر عبوديته ويتطهر من خطاياه وذنوبه [1] وأما الكافر فقد يبتلى أولا ليتعظ ويتذكر ، ثم قد يستدرج ويوسع له ثم يصاب بالنكبة التى لا عافية بعدها كما قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وهؤلاء المسلمون لم يقولوا ان المؤمن المحبوب مقصود بالأذى ، فان هذا كذب ، بل يقولون ان حبه لعبده لا ينافى

---

(١) تقدم أن المصائب من حيث هى مسلوبة ونقائص طبيعية ، وأضدادها أسباب وجودية وفضل من الله ورحمة ، فكل مافى العالم من لذة وفرح وسرور فهو فضل من الله ورحمة ، وما سوى ذلك فسبب البعد من هذا المصدر الالهى ، وأعظم مبعد عنه هى الذنوب أو عدم الطاعات ، والشر ليس الى الله ، والخير بيديه

أن يصيبه بشيء من الاذى فى دنياه لرفع درجته ولما يحدث له من التوبة والانابة والاستغفار الذى هو من موجبات الرحمة وتكفير الذنوب ، فيكون ما يحصل له بهذا الخير العظيم أضعاف أضعاف ما يصيبه من الأذى التافه الضئيل بالنسبة اليه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجساد بالعلل

أما كونه يتقصد عبده المحبوب بالأذى دون غيره من أجل المحبة فقط كما يدل عليه كلام هذا المستهزىء فبهت ظاهر ، ولا ندرى كيف يقول هذا المغرور فى المصائب والأذى الذى نال الرسل هل ينكرها ويجعل ذلك من مقتضيات نواميس الطبيعة والمادة أم ينكر الرسالة أصلا ، وهذا هو الذى يدل عليه روح كلامه ونصوصه الكثيرة بلا شك

ثم قال « واذا ما فهم التوكل كهذا الذى ذكرنا ، كان قوة من أعظم القوى » وكان مهمازا يسوق الانسانية أعنف سوق الى العمل والى فراغ الجهد كله »

والجواب أن يقال أولا : ليس لنا أن نفهم معنى لركن من أركان الدين فهما يضاد معناه الشرعى اللغوى ، ثم نطبقه على فهمنا ونلغى المعانى الشرعية اللغوية ، فانه لو فتح هذا الباب لجاء أناس يفهمون الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك على غير موضوعاتها الشرعية ، ثم يطبقونها على مافهموه فينسخون بذلك أحكام الدين كلها . ومعلوم أن الحقائق الشرعية ثابتة فى نفسها ولوازمها الصحيحة ثابتة معها ، فان لازم الحق حق أبدا ولازم الباطل باطل أبدا فلا يغير فهم الشيء على خلاف معناه فهم أحد كائنا ماكان ، فالفهم الذى يطابق الحقيقة صحيح وصواب ، والفهم المخالف للحقيقة خطأ وضلال بكل حال ، وهذا مطرد فى كل دليل ومدلوله ، وخلاف هذا يوقع فى الفوضى فى فهم الدلائل والمدلولات ، وكل أحد يمكنه أن يدعى فهما ويحصر الحق فيه ثم يحمل الناس عليه ويلغى كل أفهامهم وهذا عين الفوضى

ونقول ثانيا : لا نسلم أن فهم التوكل على ما ادعيته يكون قوة ومهمازا للعمل ، بل لا نسلم أن يكون فيه أدنى باعث على العمل ، بل نحن نعلم علما ضروريا لا ريب فيه أننا لو فهمنا التوكل على النحو الذى فهمته وقررته وادعيته لكان مآلنا الدمار المحقق الذى لا ريب فيه ولصرنا مضرب الأمثال فى الفوضى والهمجية والعجز والكسل والانهيار الخلق ، وهذا صحيح لا شك فيه ، فان الانسان لن يجتهد فى العمل ولن يعطيه كل ما فى وسعه اذا كان عالما بأنه محكوم بقوة النواميس الفوضوية التى هى مجرد مصادفات ومجرد أعمال يعملها الناس ، فان هذا قد صرح بأن الناس هم الذين يستخدمون النواميس فهى تجرى على استخدامهم ، ومعلوم أن أفكارهم وآراءهم وشهواتهم وأهواءهم مضطربة متعاكسة فيلزم أن تكون النتائج على وفقها ، وهذا يوجب الحيرة والارتياب فيها والقلق والاضطراب وعدم الاطمئنان إلى العمل والى النتيجة فالأسباب مخلوقة معلوم فقرها وضعفها ، وأن كل سبب فيها قد قهره سبب آخر وافتقر الى سبب آخر ينضم اليه ، وكل أحد من بنى آدم معه شىء من الأسباب ليست محصورة عند أحد حتى يتصرف فيها كيف شاء ، بل مامن سبب إلا وقد اشترك فيه ملايين الناس ، فكيف يستطيع العامل أن يعمل سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا أو غيرهم وهو على هذه العقيدة الفاسدة ، فلو عمل وهو على هذا المبدأ لكان عمله فى غاية الفتور والضعف إلا أن يدفع اليه دفعا عنيفا ، ولا يخفى ما فى العمل الاجبارى من القصور ، وهذا بخلاف من أخذ بالأسباب معتمدا على خالقها المهيمن عليها الذى أمره بالأخذ بها والاستعانة به والاعتماد عليه ووعده بالاجابة والاعانة والتأييد والنصر اذا أخلص معه وصدق فى معاملته وأنه رءوف بعباده رحيم لطيف بهم له الغاية فى الكمال المطلق من كل وجه ، معتقدا أنه كلما أخذ بالأسباب واجتهد فى الأخذ بها والعمل بها واستعان بالله أعين وأيد ونصر ، وأنه اذا ترك الأسباب واستهان بها فقد فرط فى أمره ، بل لا بد من الأخذ بها والاجتهاد فى عملها

والاعتماد على الله والنصح والاخلاص له فى عمله هذا ولا سيما إذا لاحظ مع ذلك أنه اذا عاند نظام الله وتمرد عليه أنه سيتعرض للخذلان والمقت والانتقام ، ولا شك أن العقول السليمة تميز بين الدافعين وما يلزمهما من النتائج ، وما أصاب الناس هذا الوهن وهذا الكسل إلا حينما تركوا التوكل واعتمدوا على أنفسهم واتبعوا آراءهم وأهواءهم فى الأسباب وغيرها

ثم قال « والتوكل بهذا المعنى روح الانسانية ، ومتى زايلها فقد حانت وفاتها . وهو بهذا المعنى أيضا روح الأديان وروح الاسلام (١) . ولهذا جاء ذكره فى أكثر سور القرآن مأمورا به ومخبرا عنه ، وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التى قدمت للعرب مفاتيح البلدان ، وأخضعت لهم الممالك ، وقهرت بهم الأديان ، ووضعت فى أيديهم مقاليد الدنيا - الدنيا التى تعوزها هذه الروح ، والتى كانت اذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصور المسلمون اليوم الجمود والاستسلام ورجاء ما لا يكون » (٢) انتهى

والجواب أن يقال : قد بينا معنى التوكل الصحيح الشرعى الذى هو ركن الأديان الذى به حصل النجاح وبه يعرف أن تأخر المسلمين اليوم هو تقصيرهم فيه ، وإلا فلو كان الأمر كما يقول فلا أعظم من اجتهاد الناس اليوم فى الاعتماد على الأسباب الدنيوية ولا أقل من اعتمادهم على الأسباب الدينية وما زادهم هذا الا خسارا . فبالله عليك - يا بلعام زمانه - من هى الدولة الاسلامية التى تركت التقدم والعمل اعتمادا على التوكل ، بل أى حزب أو جماعة تركت أعمالها وتقدمها اعتمادا على التوكل ، فالتوكل والاعتماد على الله ليس له من الأثر أدنى شىء فى ترك العمل ، بل كل من ترك العمل فانما تركه

---

(١) قبحك الله ما أجرأك كيف تكون عبادة الطبيعة روح الأديان وروح الاسلام

(٢) هذا آخر مبحث التوكل فى كتابه

لمعنى لا بد أن يكون فيه ما ينافى التوكل ، فالتوكل الصحيح والاعتماد على الله هو روح العمل ، فانه يلهب القوة والحرص على استعمال الأسباب على وجهها والعمل بها والاجتهاد فيها . ومعلوم أن الصدر الأول الذين فتحوا الممالك العظيمة لم يكونوا يعتمدون على الأسباب ويرون النصر والهزيمة عندها وأن الله مع الأقوياء ، فان اجتهادهم فى الأسباب الدينية أعظم من اجتهادهم فى الأسباب المادية ، وتمسكهم بالقرآن والسنة أعظم من تمسكهم بنواميس الطبيعة - لو قدر أن هناك أدنى تمسك - فأفعالهم عكس أفعال الآخرين اليوم ، فان تمسك هؤلاء بالأسباب المادية أعظم من تمسكهم بالأسباب الدينية ، فهم عكس الصدر الأول ، ولهذا كان مآلهم على عكس مآل أولئك فما حصلوا على طائل ولن يحصلوا إلا الخزى والدمار ان لم يتمسكوا بالأخلاق الدينية الصحيحة أخلاق السنة والقرآن أخلاق السلف الصالح . ثم أن أدنى كتاب من كتب اللغة والتفسير والحديث شاهد بأن التوكل على الله هو الاعتماد عليه لا الاعتماد على الأسباب ، فان ذلك شرك محرم كما تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ، بل معرفة هذا أمر مفروغ منه ، ولبيانه ووضوحه لم يتجاسر أحد أن يخالفه قبل هذا الملحد الذى عكس معناه عكسا صريحا واضحا ، فان أدنى عامى فضلا عن غيره يعرف أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، بل الكفار يعرفون هذا وينكرون أن يكون معنى الاتكال على الله هو الاعتماد على خلقه ، فهم إما عارف معناه تارك له أصلا ، وإما مقر به مقر بمخالفته ، فأما قلبه وعكسه الى ضده فهو شىء لم يسبق هذا الزنديق اليه أحد من العالمين إلا أن يكون زنديقا مثله ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجد أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب المخلوقة (١) أو الايمان بها ، فان هذا

---

(١) تقدم كلامه بأن كل مافى الوجود فهو من أسباب الله

توكل عليها بلا ريب لا توكل على الله ، ثم ما هى العبارة التى تفيد الاعتماد على الله بمعنى التوكل عليه ، فان هـذا يقتضى أن يكون الاعتماد على الله أيضا هو الاعتماد على الأسباب والاستسلام لله هو الاستسلام للأسباب وهكذا ، وهذا هو قلب الدين ومضادته . والبلية أنه ادعى أن روح الأديان والاسلام على المعنى الذى ادعاه فقبحه الله ما أجرأه ، فيكون معنى روح الأديان هو الاعتماد على الأسباب والايمان بها ، وهذا كله إنما يجرى على قاعدة الالحاد المحض وأنه يجب على الناس أن يتوجهوا الى الطبيعة ونواميسها ويرفضوا أخلاق الدين ، كما قال فيما سبق : ان تأخرنا هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فهذه هى روح الاديان والاسلام عنده ، فسبحان الله كيف تذهب العقول وسبحانه تعالى ما أوسع علمه وحلمه

فصل

خلاصة هذا المبحث أنه فسر التوكل على الله بضد معناه اللغوى والشرعى كعادته فى قلب المسميات الشرعية فى أصول الدين ، فانه فسر التوكل على الله بالاتكال على غيره من الوسائل المادية . ومعلوم أن هذا التفسير قلب صريح لمدلول اسم التوكل لغة وشرعا ، ولو أعرض عنه لكان أستر له من هذه الفضيحة المكشوفة ، فان التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، كما أن التوكل على الأسباب هو الاعتماد عليها . ثم اذا كان التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب – كما زعم – فما معنى التوكل على الأسباب إذن أهو الاعتماد عليها أو على الله أو معناهما سواء وعين أحدهما هو عين الآخر كما هو مذهب اتحادية الصوفية . ومن خلع جلباب الحياء واستهتر بالتلاعب بالنصوص فلا حيلة فيه . والذى اضطر هذا المخذول الى هذه القحة السافرة أنه لم يجد للتوكل معنى مشتركا يمكنه حمل ما يريده عليه ولو بالتأويل البعيد الغامض ، وكان لابد

له من ازالة هذا الأصل العظيم الذى وقف سدا فى طريق دعايته الى الالحاد ، فمن أجل هذا لجأ الى هذه القرمطة المفضوحة

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

قال الامام ابن القيم فى معنى قوله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ : « جعل التوكل على الله شرطا فى الايمان فدل على انتفاء الايمان عند انتفائه ، وفى الآية الاخرى قال موسى ﴿ يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ، واذا ضعف الايمان ضعف التوكل » انتهى . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله « وما رجا أحد مخلوقا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » فكل من توكل على غير الله فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا هو فهو كافر مشرك لأنه صرف نوعا من العبادة لغير الله تعالى

ولا ريب أن حاجة نفس العبد وقلبه الى التوكل على الله أعظم من حاجته الى الطعام والشراب لأن التوكل مادة الايمان الذى هو مادة حياة القلب ونعيمه وسعادته الأبدية ، كما أن الطعام والشراب مادة حياة البدن . ولا شك أن حياة القلب التى بها يحصل فرحه ونشاطه وعزته أعظم من حياة البدن ولذته ـ وان كانت حياة البدن هى فى الحقيقة تابعة لحياة القلب ـ ولهذا إذا استحكم موت القلب كان مآل البدن الى التلف لا محالة ، واذا مرض فلا بد أن يمرض البدن ، وهذا عام فى الأفراد والجماعات ، وكل الشعوب الاسلامية المريضة إنما مرضت لفساد غذائها الدينى المعنوى لما به من الأخلاط الفاسدة الدخيلة عليه فان أكثرها خلط إيمانه الدينى الصحيح بمبادىء إلحادية خبيثة كتحريف الصفات وعبادة الأموات وتحكيم القوانين المظلمة والظالمة ،

نخلطها هذا هو الذى أمرضها هذا المرض المشاهد ، ولهذا فان البدن الذى يتغذى بالخبث المحض يكون أمثل من البدن الذى يتغذى بأخلاط متضادة متناقضة ولكنه ينهار أو يموت فجأة غالبا ، وأما البدن الذى يتغذى بالغذاء الصحيح السليم القوى فلا بد أن يكون صحيحا قويا نشيطا .

وليس فى الدنيا أضر على الانسان من اعتماده على نفسه أو على غيره من دون الله ، فان اعتماده هذا هو قطع الصلة بينه وبين ربه تبارك وتعالى ، ومن انقطعت صلته عن الله فانى له الحياة والنجاة . فالاعتماد على النفس من دون الله هو الداء القديم العضال ، وهو الذى هدم الامم الملحدة السابقة واللاحقة — وان أطنب الجهلاء فى تجميله والدعوة إليه ، وجعلوه علامة للدهاء والسياسة [١] — فان هذا من الاغلاط الكبرى التى وقع فيها من وقع بسبب التقاليد الغربية المنافية للدين . فان الله سبحانه وتعالى امر الانسان فى أعظم موقف يقفه بين يديه أن يقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فيقول ذلك فى كل صلواته ، وان يعترف باطنا وظاهرا بان لا حول له ولا قوة إلا بالله فيستمد فى كل عمل يعمله من هذا الإيمان الحارّ الجبار . والعبادات كلها توجه قولى وفعلى واعتقادى ، واستمداد من الله الإعانة والتوفيق والهداية ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وفى الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » الحديث ، وفى الدعاء المشهور « اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله » ، ولهذا لا تكاد تجد أحدا ـ سواء أكان فردا أو شعبا ـ اعتمد على نفسه أو على جنسه من المخلوقات دون الله إلا قد خيب الله أمله وأحبط

---

(١) فانهم انما قالوا هذا لقلة معرفتهم بحقيقة الدين وتوحيد الله الذى هو المطلوب منهم . فان الثقة بالنفس مطلقا تنافى الثقة بالله والاعتماد عليه

عمله وعومل بنقيض قصده حتما ولا بد أن الله يريه كيف عاقبة اعتماده على غيره تعالى ، فانه اعتمد على الطبيعة المظلمة المنحطة وما يتعلق بها ، وأعرض عن الله الحى القيوم القهار الرءوف الرحيم . ولهذا تجد الكثرة الساحقة فى الشعوب الملحدة إلحادا محضا مع رؤسائها أشبه شىء بالحيوانات العجم تساق كما تساق القطعان ، بل هم كالآلات الصماء التى يفعل بها العمال كيف شاءوا . وكلما كانت الأمة أشد إلحادا كان رؤساؤها لأفرادها أشد عذابا ، وهذا أمر معروف لا يمترى فيه إلا جاهل بليد لا يعرف حقائق الأمور . ويكفيك عبرة ما وقع فى هذه الدول التى اعتمدت على نفسها وجنسها من دون الله كيف أنزل الله بها بأسه ودمرها بالكوارث والنكبات بأيديها وأيدى جنسها وبأسبابها التى اعتمدت عليها ، فدمر الله الملحدين بعضهم ببعض وأذاق بعضهم بأس بعض ، وفى الاثر الذى رواه الإمام أحمد عن وهب بن منبه قال : أوحى الله الى داود عليه السلام « يا داود أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات السبع والارضون السبع إلا جعلت له من بينهن مخرجا . أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبيدى بمخلوق دونى أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من يديه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأى واد هلك » وشواهد هذا الأثر كثيرة كقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ أى فلا يرجى له خلاص البتة .

والمقصود أن التوكل على الله وحده والاعتصام به هو الطريق الوحيد الأعظم لحصول المقاصد وإدراك النتائج المحمودة ، فهو الذى يمد حرارة الايمان بالوقود القوى المستمر ، فيدفع الى العمل دفعا عنيفا ، فيلهب القوى

البدنية ويحبب اليها العمل كما أنه ينشط الروح ويركز فى الطاقة الانسانية قوة الى قوتها بتقدم ثابت واستمرار صحيح . ولا شك أن كل من يعمل عملا فلا بدَّ له من استمداد قوة فى الصبر والثبات عليه من أمور خارجة عنه وعن من هو فى حكمه ، وذلك لا يحصل — بحق — إلا فى الايمان بالله والاتكال عليه والاستعانة به وأمل ثوابه وخوف عقابه ، وكل عامل إنما يقصد من عمله ثمرته التى هى نتيجته ، وهى - أى نتيجته - إنما تكون بقدر قوة العمل ، وقوة العمل بقدر قوة الداعى والدافع ، وهذا انما يكون فى القلب وعمل البدن تابع لما يقوم بالقلب من القوة والضعف اللذين مناطهما الحياة والمرض . وقد بينا أن حياة البدن موقوفة على الغذاء المادى ، فان كان مناسبا له صحيحا قويا صار البدن به صحيحا قويا وإلا ضعف بقدر ضعف غذائه المادى ، بل إنه إن لم يحصل له غذاء موافق له اضطر الى التغذى بالمواد الخبيثة القذرة وحينئذ يأول الى الهلاك حتما ، وهكذا الروح أو القلب غـــذاؤه الأمور الدينية كالذكر والقراءة والطاعات ، فان حرم من هـذا أو انحرف عنه اضطر الى التغـذية باضداد ذلك من الخبائث المعنوية كالمعاصى والملاهى والفسوق والفجور ، واذا طال عليه الأمـد ارتاض على ذلك حتى لا يستطيع فراقه إلى أن يشاء الله ، فنسبة غذاء الأبدان الى المادة طيبا وخبثا كنسبة غـذاء القلوب والأرواح الى الامور المعنوية طيبا وخبثا ، ولهـذا ورد فى الحديث الصحيح « ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس » لان هـذا الذكر المقـدس القوى الطاهر ملائم لتلك النفوس الطاهرة القوية المقدسة ، فتتغذى به فتبقى قوتها مستمرة مخلدة فى النعيم المقيم

فقد تبين لك من هذا أن النتائج تابعة للأعمال فى العظمة والتفاهـة والقوة والضعف ، وأن الاعمال تابعة لما يقوم بالقـلوب من القوة والضعف ، وأن القلوب لها غذاء ضرورى كغذاء الأبدان من حيث توقف الحيـــاة والصحة

عليه ، وأن الطاعات لها الأثر الأكبر فى الأعمال البدنية [١] من قوة وضعف وبهذا أيضا يتبين لك سقوط دعوى بعض الملاحدة [٢] أنه اذا كان الله غنيا عن الطاعة فلا فائدة فيها وان الله لا حاجة له الى أعمال الخلق ، فان هذا تلبيس وزندقة ، فان كون الله تعالى غنيا عن الطاعة لا يقتضى أن يكون الانسان غنيا عنها كما أنه تعالى غنى عما يعمله الانسان فى تغذية بدنه ومع ذلك فلم يتركه الانسان ، والله سبحانه غنى عن خلق الانسان بل وخلق السموات والأرض ومع ذلك خلق هذا كله ، فليست علة مشروعية العمل حاجته تعالى اليه ، بل هو شرع ما شرع لحكم كثيرة منها رحمته بعبده ، فان الطاعة هى السبيل الوحيدة التى لا سبيل سواها إلى سعادة العبد ووصوله إلى غايته ، فهو جعل الطاعة سبيلا الى الحصول على السعادة الأبدية كما جعل الأكل والشرب ونحو ذلك سبيلا الى التمتع بهذه الحياة البدنية ، وليس هو تعالى محتاجا الى هذا ولا الى هذا ، فقول القائل لا أفعل الطاعة لأنه غير محتاج اليها كقوله لا آكل ولا أشرب أو أكتسى لأنه غير محتاج الى ذلك . فعمل العبد مصلحة محضة عائدة الى العبد من الجهتين ، فتركه لها أو إحداهما ضرر عائد اليه . وها نحن نرى هؤلاء الملاحدة يتكلفون غاية التكلف فى تحسين غذائهم المادى ويصبرون على المشقة - أيا كانت - فى تنقيته مما يلوثه مما لا يلائمه ، ويقطعون أوقاتا طويلة فى شأنه خوفا من علة تأتى فى أجسامهم بسببه ، لأنهم يرون أن صحة البدن متوقفة عليه ، فهلا فعلوا معشار هذا فى غذاء قلوبهم وأرواحهم من الأمور الدينية

---

(١) فما ذكره هذا الملحد فيما مضى أن الأمور الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى غير نتائج الجد فى نهاية السقوط ، فان الاعتقادات هى عوامل الأعمال التى هى أصول النتائج ، فتكون نتائج أعمال الدين فى غاية القوة تبعا لقوة دوافعها

(٢) اى فى تضليل العامة والتلبيس عليهم فى الطاعات وتشكيكهم فى الدين ، فقد كثر مثل هذه الدعاوى فى هذه الأزمنة الفاسدة من دعاة الملاحدة المشككين فى الأديان

حتى يروا حسن عاقبة ذلك ، وكيف يدعون أنها لم تنفعهم وهم لم يعملوها إما مطلقا وإما على وجهها الصحيح المستقيم كما فعلوا فى أمورهم المادية الطبيعية .

وصرف الانسان همته كلها الى شهوات النفس ورغباتها إنما هو خلق خاص بالبهائم والأطفال ، فمتى كان الانسان بهذه الحالة فهو فى حكم هؤلاء أو هذه فان البهائم لا يهمها الا ما ادخلته بطونها وقضت به شهواتها كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ ولهذا وصفهم تعالى فى كتابه العزيز فى غير ما آية بهذا ، بل حكم عليهم بأنهم أضل سبيلا

وينبغى أن يعلم أن هذا الملحد سلك فى هذه الأغلال مسلك غلاة الملاحدة وزنادقتهم ، فانه - من حيث أصوله - أسسه على الكفر بالله وكتبه ورسله وملئكته واليوم الآخر والقضاء والقدر ، لأن هذه الأصول هى الأسباب المتصلة بين الله وبين خلقه ، وهى الموصلة اليه ، فلهذا بذل غاية جهده فى أن يجتثها من أصولها لأنها هى الحد الفاصل بين المتدينين والملحدين فى الجملة فمتى أزال هذا الحد الأكبر حصل له مقصوده وهو اعتناق الالحاد ورفض الدين(١) . ولما كان زنديقا مرتابا خائفا صار تعبيره فى محاربة هذه الأصول مناسبا لحاله ، فأتى به مجملا ملبسا (٢) ليكون أقبل له ، وليتسنى له التخلص من ظاهر معناه بالتحريف عند الحاجة اليه كعادته فى مضايق قواعده الخبيثة . وقد وضع لكل أصل من هذه الأصول التى ذكرنا بحثا خاصا لهدمه وإزالته ، فوضع

---

(١) والشعوب الملحدة إلحادا محضا تقرر الكفر بهذه الأصول وتعلمه شبابها ، لكن تصرح أنه مضاد للأديان السماوية كلها

(٢) لأن حالة الزنديق المنافق لا بد أن يكون فيها شىء اللبس والتمويه قد تخفى على من يجهل حاله

لأصل الايمان بالله تعالى البحث الثانى [١] وهو الايمان بالانسان وعبر عنه بقوله (لقد كفروا بالانسان . الايمان به أول) ، يعنى أن الايمان بالله يقتضى الكفر بالانسان لأن الايمان بالله مبنى على أنه المتصرف فى الكون كله وأن الكون محكوم بارادة قهارة وأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، والايمان بالانسان بأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء أو أنه ليس فوق قدرته شىء يصادم هذا ، اذ من المحال أن يجمع الانسان بين الايمان بالخالق والمخلوق بأنهما متساويان فى التصرف والعلم والقدرة ، فلا بد من التفريق وهو يقتضى اختصاص الخالق بذلك دون المخلوق ، وهذا التفريق الذى أوجب الاختصاص - على أصله - أوجب الكفر بالانسان بكونه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء وليس لعلمه ولا قدرته حدود ولا قيود ، وقد اجتهد غاية الاجتهاد فى إلغاء هذا التفريق [٢] وأطال البحث من أجل ذلك [٣] وجعل الايمان بالله كفرا بالأنسان ، ولهذا أكده بقوله (الايمان به أول) أى قبل كل شىء ، فاذا حصل الاعتقاد بان الايمان به أول حصل الكفر بما ينافيه وهو الكفر بالله ، وهذا ظاهر لا يخفى إلا على أعمى البصيرة .

وأما الكفر بكتبه تعالى ورسله فانه وضع لذلك المبحث الثالث والرابع ، ولهذا أطال فى بهت المسلمين فيهما بأنهم كرهوا العلم وحاربوه وأحبوا الجهالة والخرافات والأوهام ونحو ذلك ، حتى ادعى أنهم حجبوا المرأة عن العلم . ثم انه فسر هذا العلم بفهم قوانين الطبيعة ونواميسها والموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك ، وغرضه من هذا أن كتب الدين كلها تسند الامور كلها الى الله لا الى قوانين الطبيعة ونواميسها ، بل جميع الكتب ونصوص الرسل فى محاربة

---

(١) وهو الأول فى الحقيقة ، وما قبله كالمقدمة كما لا يخفى

(٢) ولهذا صرح بأن عدم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين

(٣) لأنه أصل الأصول ، فجعل بحثه والإسهاب فيه أطول بحوثه فى أغلاله كلها

هذا الأصل أى التوجه الى الطبيعة والاعتماد عليها ، بل هى محكومة لا حاكمة تجرى على مقتضى مشيئة الله وإرادته ، كما أن كتب الله ورسله تنص على محاربة فساد الأخلاق التى منها الفواحش والدعارة والفجور ، وأكثر هذه متعلقة بالمرأة اذا أطلقت فى ميدان الفسق والاستهتار والإباحية وأشباه ذلك ، فكان مقتضى ما يحاوله أنه لا يمكن التوجه الى الطبيعة ونواميسها والانهماك فى ذلك والانكباب عليه والانطلاق فى ميدان الشهوات على اختلاف أنواعها المحرمة إلا بالكفر بما يضاد هذه الأمور وهى الأمور الدينية التى جاءت بها الكتب السماوية وأجمع عليها الرسل ، وحيث انه سمى ما يدعو اليه من الإلحاد والخبائث علما لزم من ذلك أن يسمى ما يضاده جهلا ، كما أنه حين حرص كل الحرص على الدعوة الى الايمان بما يدعو إليه فقد حرص كل الحرص على الكفر بما يضاده من كتب الله ورسله ، وهذا ظاهر ، وقد عرفت مما سبق هنالك معنى العلم والجهالة عنده

وأما الكفر باليوم الآخر فانه وضع له المبحث الخامس ، فعبر عن عدم الكفر بالآخرة (بكراهة الدنيا) يعنى أن إيمان الناس بالآخرة هى كراهة الدنيا ، فجعل كل من آمن بالآخرة فقد كره الدنيا ، وإلا فهو يعلم حقيقة العلم أن الناس لم يكرهوا الدنيا بل صرح بأنهم يحبونها حبا عظيما ويريدون تحصيلها بكل الطرق حتى بالمحرمة منها ، ولكن النقطة هى أنهم لم يكفروا بالآخرة ، فلو كفروا بها لكان كفرهم هو حب الدنيا ، ولهذا أطال فى تمطيط هذا المعنى فى ذلك البحث من أجل هذين العاملين اللذين تنازعاه وهما الخوف من التصريح بهذا اللفظ أى الكفر بالآخرة وحب الإلحاد والحرص على الدعوة اليه

وأما الكفر بالملئكة فانه وضع له البحث السادس وفيه أن (الجهل بنواميس الطبيعة مانع من التقدم) وقد تبين فى هذا البحث أن نواميس الطبيعة

هى التى تحكم هذا العالم ، فصرح بذلك تصريحا لا إشكال فيه ، وقد أطال فى إنكار ما يرد على ذلك من اعتقاد تأثير الدعاء والطاعات وإنكار الأرواح ، وأطنب فى إنكار الارواح ليتسنى له انكار الملائكة ، وهذا ظاهر لمن تأمل هذا البحث كله

وأما الكفر بالقضاء والقدر فظاهر فى البحث السابع فانه فسر الايمان بالقضاء والقدر بالايمان بالأسباب المادية بأنها مربوطة بنتائجها وأنه تعالى لا يتصرف فيها ، وهذا هو عين إيمان الكفار بالأسباب ، والنتائج كما تقدم

ولما كان التوكل على الله تعالى من أعظم أصول الدين وأنه صلة بين العبد وبين ربه ، وهو يتضمن تلك الاصول كلها ، وضع له هذا الملحد بحثا خاصا واجتهد غاية الاجتهاد فى إفساده وازالته وتشويهه حتى حرف معناه جهارا ، فلهذا أطلنا فى إيضاح هذا الأصل وابطال كلامه

وأما المباحث الآتية فانها زيادة تأكيد وتأييد لما قرره فى المباحث الأولى ، لأن حقيقتها الحث على التوجه الى الطبيعة ونواميسها ومحاربة كتب الدين وعلمائها ، لأن ذلك يعارض ما يدعو إليه . ثم انه ـ لحاه الله ـ لم يكتف بتقرير هذه الشناعات والكفريات الواضحة حتى حول أصول الدين فجعلها هى عين أصول الملاحدة ، ففسر الايمان بعدل الله وعلمه وحكمته واخباره بالايمان بتفاعل الطبيعة وأن النواميس هى التى تحكم هذا العالم وأن الله لا يتصرف فى الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، بل هذا هو السفه والفوضى ، فجعل ايمان الملاحدة بكون الطبيعة بتفاعلها هى التى تحكم العالم ـ هو عدل الله وعلمه وحكمته واخباره كما أوضحنا هذا فيما سبق ، ولهذا أكد هذا التقرير الخبيث بأنه هو الدين الصحيح حيث ادعى بأن كتابه هو محاولة فهم الدين وأنه وفق بين روح الدين وروح العمل وجعل ما يضاد هذا الذى ادعاه دينا باطلا وأنه هو أصل المزالق ، فالدين الباطل عنده الذى لا يمكن ان يقدم

صاحبه هو ما يخالف ما قرره فى هذه الأغلال . وهذه الآراء الشنيعة أكثرها مستمد من ملاحدة القرن الماضى مثل غوستاف لوبون وأمثاله فان غوستاف هذا قرر كثيرا من هذه النظريات لكنه معترف بانها مصادمة لنظريات الأديان لأنه غير محتاج الى النفاق والزندقة كحاجة هذا ، فقد قرر غوستاف أن الكون يجرى على مقتضى تفاعل طبيعى ليس لله تدخل فى أسبابه ونهاياته ، وادعى على علماء الدين - إما جهلا أو تجاهلا - أنهم ينكرون أن يكون بين الأسباب ومسبباتها ترابط مطلقا حيث قال ص ١٤٧ (الآراء المعتقدات) : « لا أهمية لارتباط الاشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولى النفوس الدينية فالارتباط المذكور فى نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات علوية تعانى عزائمها فقط » (١) وقد كذب فى هذه الدعوى فقد ذكرنا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم فى نقلها القول بربط الأسباب بمسبباتها وأن الأسباب تؤثر بالقوة المودعة فيها بقدرة الله تعالى وان ذلك هو قول جماهير

---

(١) ان غوستاف لوبون قد يكون له شىء من العذر فى مسألة ترابط الأسباب فقط وان كان ملحدا خبيثا لأنه بين أناس خرافيين من مسيحيين ووثنيين وعباد قبور وجهمية ، فهو يظن أن الدين هو ما يعرفه هؤلاء الخرافيون الذين حوله ، وهذا من أسباب ضلال كثير من الناس اذ يرون أناسا من الجهمية الذين ينكرون علو الله على عرشه وكلامه وكثيرا من صفاته وينكرون أن يكون بين الأسباب ونتائجها ترابط ويدعون الأموات ونحو هذا ، فاذا رآهم هؤلاء الضلال ظنوا ان الدين هو ما عليه هؤلاء ، ولا شك أن هؤلاء فتنة للذين كفروا ، فاذا رأوهم ازدروا الدين واحتقروه وازدروا أهله واحتقروهم ورموهم بالغباء والجهالة جميعا ، لأنهم يحسبون أن هؤلاء هم أهل الدين . ولكن هذا المعارض الملحد قد عرف كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما التى تشتمل على الدين الصحيح وفيها من نور المعارف ما فيه كفاية لمن أراد الاطلاع على الدين الحق ، فليس هو مثل متبوعه لوبون ، بل هو يعرف الحق معرفة واضحة ، ولكنه كفر استكبارا وعنادا ورغبة فى تحصيل أمور أخرى

علماء المسلمين لم يخالف فى ذلك إلا طائفة من طوائف الأشعرية ، بل عدم تأثير الأسباب هو فى الأصل قول الجهمية الذين كفرهم السلف بسبب انكار الصفات ، وقد نقل ابن رشد الحفيد القول بترابطها عن الجمهور أيضا . وربط الأسباب بمسبباتها لا ينفى تصرف الله فيها ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب لأن الاسباب مختلفة ومتضادة فيدمر بعضها ببعض ويقوم بعضها ببعض ويكمل بعضها ببعض فهو سبحانه إذا شاء بطلان أسباب سلط عليها أسبابا من جنسها إما أكبر منها أو مضادة لها فى الطبع أو غير فكرة أهلها حتى يوقعهم فى الأغلاط التى تفسدها وتبطلها ، فهو سبحانه الحاكم عليها فيغيرها بنفسها تارة وبنتائجها تارات وبأيدى أهلها أحيانا ، فربطها من تصرفه فيها ، كما أن خلق أضداها من تصرفه فيها أيضا ، وتقليب قلوب أهلها التى هى من أعظم العوامل فيها من تصرفه فيها ، فالعوامل التى تبطل الأسباب لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، كما أن كثيرا من الاسباب العظيمة - فضلا عما هو دونها - قد شوهد بطلانها فى كل حال وزمان ، بل وشواهد إضرارها بأهلها فى كل حال ومكان وزمان

وكذلك قول الملحد غوستاف ص ١٤٨ « لعل أهم ثورة ظهرت فى عالم الفكر هى الثورة التى أدى اليها العلم باثباته أن الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة [١] الخ » فان هذا الكلام مبنى على جهله بالدين وبأهله وقد بينا لك أن فحول علماء الدين كالامام ابن تيمية وابن القيم والذهبى وغيرهم صرحوا بأن الأسباب مربوطة بأسبابها وأنها مؤثرة فيها بالقوة المودعة فيها ، بل نقل ابن القيم هذا عن جماهير المسلمين [٢] كما قرره أيضا ابن

---

(١) هذه الجملة والتى قبلها من كلام جستاف لوبون هى من النقط العامة التى اعتمدها صاحب (الاغلال) وبنى عليها أكثر كلامه فى الأسباب ، فهذا هو مشربه ومذهبه

(٢) فى كتابه (شفاء العليل) وغيره

رشد ونقله عن الأئمة ورده - كما ردوا - على من خالف ذلك . فاذا كانت هذه الثورة التى أعجب بها وجعلها أهم ثورة هى التى كانت سببا فى الظفر بالعلم المادى والحضارة فقد سبق علماء الدين وأئمة المسلمين اليها غيرهم ، وإن غيرهم من علماء الغرب إنما أخذوها عنهم ، فكيف جازله أن ينقل عنهم نقيضها ، وإن كان المقصود من هذا هو أن الله تعالى لا يدبر هذه الأسباب ولا يتصرف فيها مطلقا فهذا لم يقل به إلا الملاحدة المنكرون للأديان جملة والكلام مع هؤلاء له شان آخر ، ويكفى فى بطلان كلامهم مشاهدة بطلان الأسباب القوية قهرا على أهلها وتعذيبهم بها دون من هو دونهم ، كما أنه يكفى فى فساد عقولهم إثباتهم جملة الأسباب بدون مسبب أول وأن الحوادث المنظمة المحكمة تحدث بدون محدث عالم حكيم مريد وايمانهم بالجزئيات فى هذا دون الكليات مع أن الكليات أعظم وأبدع

ومن أوغل الكفر والمكابرة ما قاله فى هذا المبحث « ان الانسانية بمجموعها هى التى أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها دون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك » انتهى فهل أظهر من هذا الكفر كفر حيث صرح بأن الذى أوجد هذه الحياة والمجتمع وسخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله (١) فجرد الله تعالى من تصرفه فى ملكه بل جرده من إيجاد هذه الحياة . وانظر كيف صرح تصريحا لا إشكال فيه بأن الذى سخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله ، ولا ندرى كيف يجتمع الايمان بهذا القول والايمان بقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم مافى الارض ﴾ وقوله تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعا منه ﴾ الى أمثال ذلك من الآيات . وهذا الملحد يقول : ان الذى سخر هذه الطبيعة وأوجد

---

(١) قد فسر هذا الانسان فيما تقدم بأنه المنحرف عن الدين المتحلل منه حيث قال : ونجد الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها

الحياة والمجتمع هو الانسان . ثم أكد هذا بان ذلك كله بعقله وكاهله ونفى أن يكون لله تعالى إعانة فى ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ﴾ ، ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ وفى الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » الى آخر الحديث . وهذا الملحد يقول : ان الانسانية هى التى أوجدت هذه الحياة والمجتمع ، بل وسخرت هذه الطبيعة بدون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك . فض الله فاه ما أجرأه على الزور والفجور ، ثم هو مع كونه كفرا صريحا فهو مكابرة فى الحسيات ومباهتة فى الضروريات وسفسطة فى المعقولات ، فانه من المعلوم بالضرورة والوجدان الذى لا يستريب فيه أحد من الناس أن هذه الانسانية كلها إنما تعيش فى هذه الأرض بالأكل والشرب والحر والبرد والهواء ونحو ذلك ، فنقول لهذا الزنديق : من الذى خلق الماء فأنزل من السماء ماء وفجر الارض عيونا وأنهارا ومن الذى خلق الحيوان والنباتات التى خلق منها الحبوب واللحوم والألبان والادهان ومن الذى خلق العناصر الأصلية كالهواء والتراب والحرارة والبرودة وغير ذلك كالليل والنهار ، هل هو الانسان أو الله رب العالمين ، فاى حبة خردل أوجدها الانسان من هذه الكليات والجزئيات التى قامت عليها الحياة والمجتمع ، فضلا عن أن يكون هو الذى أوجدها وحده بدون إعانة معين أو مشاركة مشارك ، غاية مافى ذلك أن يكون كالعامل الذى أدخل مملكة أو دارا واسعة

قد جهزها صاحبها بجميع الأجهزة اللازمة التى تحتاجها ، فأمر هذا العامل أن يعمل فيها بآلاتها الكاملة فيها ، ويعيش من عمله فيها ، فهل يسوغ فى العقل أن يقال ان هذا العامل هو الذى أوجد هذه المملكة أو الدار بما فيها من حياة بدون أن يعينه معين أو يشاركه مشارك ، وهل هذا إلا هراء لا يقوله من يدرى ما يقول ، وخليق بعقل تنجس بقاذورات الالحاد أن ينحط الى هذه الدرجة النهائية من الزندقة والنفاق ، فان هذا الملحد لما عزم على الكفر اختار أقصى حد يوجد فيه فاعتنقه ، وحيث أن الزندقة وعداوة الأديان وقلب أصول الدين أصولا للكفر هو أقصى حد فى الكفر فإنه اختاره واعتنقه واطمأن به ودعا اليه [1] نسأل الله العافية بمنه وكرمه

وكل تقريره فى هذه الأصول هو من هذا النمط فى السفسطة والمكابرة والبهت والنفاق ، ولهذا لم يخف على ذوى البصائر كفره ومحاربته للدين كما أشرنا الى هذا فيما سبق

وقد اشتهر ما كتبه شيخنا المحقق العلامة محمد بن ابراهيم لما اطلع على أغلاله فكتب فى شأنه بأنه حرب صريح للاسلام ودعاية ضده ، وقد سمعته غير مرة يقول فيه إنه ملحد وكفره ظاهر . وقد قدمنا فى المبحث الأول بعضا مما يتعلق بهذا . وجميع علماء المسلمين العارفين بدينهم لا يشكون فى زندقته ومروقه من الاسلام ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم فى تكفير هذا الملحد لطال

(١) ولعمق مافى قلبه من جذور النفاق وعداوة الأديان انه شديد الولع والمحبة لكل من كان أشد كفرا ، ولهذا تجده اذا ذكر اليهود والبلاشفة ونحوهم انحدر كالسيل فى كيل المديح لهم فيأتى بأضخم عبارات المدح والتعظيم فيكيلها لهم جزافا ، فاذا ذكر المسلمين ولا سيما أهل القرون المفضلة وأهل الحديث انقلب كالكلب العقور وأطال فى اللجاجة والشتم والسب والتهكم والازدراء والقحة المتناهية

الكتاب جدا كما قال مشايخنا الأجلاء عبد الله بن عبد العزيز العنقرى ورئيس القضاة عبد الله بن حسن وأخوه عمر - كيف يشك مسلم فى كفره ومحاربته للدين ، حتى قال رئيس القضاة : أصول دعايته كلها مناقضة لأصول دعاية القرآن مناقضة صريحة . وكلام جميع علماء الدين العارفين بدينهم يرون فيه هذا الرأى [١] كما شرحناه فيما سلف . وليعذرنا القارىء فيما يرى من تكرار بعض العبارات ، فان هذا أمر لا بد منه ، لأن كلامه مكرر معناه ، وانما يختلف فى التعبير فقط ، ولابد أن يكون الجواب مناسبا لكلامه . على أن كل موضع فيه شىء من التكرار لا بد أن فيه زيادة فائدة ، كما أن التكرار فى موضع لا بد فيه منه لا باس به لايضاحه أو تاكيده ، وكتب الرد على أهل الباطل لا تخلو من هذا ولا سيما فى الأصول كما يعلم من تتبعها وكما يعلم من أسلوب الكتاب العزيز وصنيع أئمة الدين مثل البخارى وأحمد وابن خزيمة وابن تيمية وابن القيم وغيرهم والله اعلم

---

(١) وقد طبع مجموعة من القصائد النجدية فى الرد عليه كتب عليها الشيخ عبد العزيز بن باز تقريظا حسنا وبين أن كفره ظاهر لا ريب فيه

الكلام على المبحث التاسع – فى الاسباب

عنوانه فى أغلاله هكذا :

(الأسباب – أوهام الناس فيها – كيف يجب أن تفهم)

وحقيقة هـــذا المبحث هو نفس ما قرره فى المباحث السابقة فى الطبيعة ونواميسها لا يختلف عنهـا فى شىء سوى زيادة التكرار والمجـازفة وتحريف النصوص الدينية . وقد سبق الكلام فى نواميس الطبيعة وأسبابهـا فى مواضع كثيرة جدا حتى مللنا من تكرارهـا ، ولـكن نذكر هنا بعض ما يتعلق بهـذا البحث زيادة للايضاح ، ودحضا لباطله الذى شغف به . وقد تقدم كلام شيخ الاسلام فى وجوب مراعاة الأسباب شرعا وعقـلا وأن الاعتماد عليها شرك محرم ، كما أن عدم الأخذ بها وتركها رأسا محرم أيضا

قال الملحد بعد ذكر العنوان المذكور :

« اقصد الى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإنماء ، وادفن فيها البذر الصحيح القوى فى الوقت المناسب ، ثم اسقها بالمـاء وفاق أصول الرى العلمية الصحيحة ، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة ، وكيف يجىء نباتها . انها سوف تنبت وان نباتهـــا سوف يخرج جيدا إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية . فاذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قويا صحيحا فلا ريب فى وجود مانع إما فى الارض وإما فى البذر وإما فى طريقة الرى واما فى المناخ وأما فى أحد الاشياء المعروفة . أما أن تجتمع هذه الأمور وتنتفى هذه الموانع ثم لا يخرج النبات ـ أو يخرج ولا يكون صحيحا ـ فمحال »

فيقال : هذا ليس من الحجة فى شىء ، بل هو حجة عليه ، فان كلامه هنـا تضمن أن خروج النبات من البذر صحيحا متوقف على اجتماع هـذه الأسباب وانتفاء الموانع والعوارض ، فتضمن هذا أن الاسباب كلها ضعيفه لأن كل

واحد منها عاجز عن الاستقلال بالإنبات ، بل لا بد من أن تتعاون ولا بد من أن تكون صحيحة ولا بد أيضا من أن تكون مرتبة ترتيبا طبيعيا على وفق خلق الله لا على ما يريده الانسان . ثم إذا حصل هذا كله فلا بد أيضا من أن تنضم الى ذلك أمور أخرى وهى انتفاء الموانع والعوارض ، ومعلوم أن الموانع لا يعدها ولا يحصى أنواعها إلا الله تعالى ، وهى أسباب أخرى تضاد هذه الأسباب المذكورة وتقهرها وتغلبها ، وهى تتأتى فى التربة وفى المناخ وفى الرى ، وتأتى فى جميع الأطوار التى يقطعها النبات . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أنه ليس فى استطاعة أحد من بنى آدم - بل ولا بنى آدم كلهم - أن يمنعوا جميع الموانع والعوارض ويوجدوا جميع الأسباب بقدرتهم الذاتية . ومن العجب أنه جعل من الموانع الأشياء المعروفة ، وكل عاقل يعرف أن الأشياء المعروفة عند الناس هى الآفات وأكثرها ليس فى قدرة الانسان منعه وإنما ذلك راجع الى المشيئة العليا والقدرة الربانية ، فاذا أراد الله قطع المنفعة من هذا النبات سلط عليه آفة وسببا من هذه الأسباب الكثيرة التى تحت قهره وطوع مشيئته كأن يتلفها بحيوانات او برَد أو برْد أو صاعقة ، ويسلط عليها حيوانات أرضية من السوس أو غيره ، فصارت الأسباب كلها لا تستقل بوجود النتيجة بل لا بد من مراعاة القدرة والمشيئة الربانية ، فالأسباب قاصرة ضعيفة لا تستقل بوجود النتيجة فكيف يجوز أن تعبد وان يصرف الانسان وجهته اليها من دون الله ، بل عليه أن يستعملها على وجهها باجتهاد ويعتمد ويتوكل على خالقها ويستعين به ، وإعانته تعالى هى التى تكملها وتزكيها وتنميها ويحصل منها الانتفاع على الوجه الأكمل المطلوب

وينبغى أن يلاحظ أن النزاع بيننا وبينه ليس هو فى تأثير الأسباب بالقوة المودعة فيها بمشيئة الله وقدرته ، انما النزاع بيننا وبينه فى استقلالها بايجاد نتائجها بدون مشيئته تعالى وإرادته ، وأنه تعالى لا يقدر على تغييرها وقطع سبب عن مسببه ، فافهم هذا جدا لكى يزول عنك تلبيسه ، فان خداعه فى هذا المبحث

يوهم أننا لا نعتبر الأسباب شيئا وأننا ننفى تأثيرها أو ارتباطها بنتائجها وأن وجودها كعدمها ، وهذا لم نقل به ، ولكنه ممتحن بمجادلة الأوهام التى يصورها هو على ما يريد . ويقال له أيضا : من الذى خلق التربة وخلق الرى وخلق البذر والمناخ والعامل ورتب ذلك على هذا الترتيب الذى لا يستطيع أحد من الخلق تغييره أو تبديله ، ثم خلق لذلك موانع وعوارض أيضا لا تنضبط أنواعها ، أفليس ذلك هو الله وحده ، فلم لا يتصرف فيها وهى ملكه وطوع إرادته ، فان شاء أصلحها وهذا هو الغالب فان رحمته غلبت غضبه ، مع أن الذنوب أكثر من الطاعات ، وإن شاء أتلفها عدلا منه وحكمة ، كما ان هذا يقع بالحس والمشاهدة أيضا

وقد تقدم فى المبحث الأول قاعدة فى الأسباب ونتائجها وبينا أن كل نتيجة فلا بد من أن يتوقف حصولها على أمر غيبى ، فارجع اليها إن شئت فما ذكره هنا حجة عليه

فصل

قال « ثم اقصد الى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذرا ، أو صالحة للإنبات ثم لا تسقها بعد وضع البذر فيها مع امتناع الماء عنها ، أو إلى أرض صالحة للانبات واسقها بالماء راجيا أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر ، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الارض مهما دعوت ورجوت »

فيقال : هذا أيضا كالذى قبله ليس من الحجة فى شىء ، فان الله وضع لكل شىء قدرا ونظاما بشروط وأركان معينة ليس لأحد من خلقه قدرة على تغييرها وجعل وجود النتيجة متوقفا على ما وضعه هو وجعل الحصول عليها والانتفاع بها ليس محققا يقينا ، وفرق بين الوجود والحصول والانتفاع ، وذلك أن عمل الزراعة عمل مستقل قد وضع الله له سنة مستقله انفرد بها فلا يمكن لمخلوق

تبديلها ، وهذا من أعظم الحجج على هذا الملحد الذى يدعى أن فى إمكان الانسان أن يقدر على كل شىء ويتغلب على كل شىء ، وأنه ليس شىء من الأشياء كائنا ما كان فوق قدرته ، فما باله عجز عن تغيير هذا الترتيب أو تبديل شرط من هذه الشروط ، فما ذكره فى الجملة الأولى هو الوضع الذى تكون به الزراعة ، وما ذكره هنا ليس بزراعة ، فان سقى الأرض عن غير وجود بذر فيها ليس بزراعة ولا يسمى زراعة ، اللهم إلا أن يكون فى لغة الزنادقة . وكذلك وضع البذر بدون سقى فان هذا محاولة لتبديل وضع الله ، ففيه بيان عجـــز الانسان وضعفه وأنه لا يقدر على تغيير هذا الوضع ، فالله سبحانه وضع هذه الأصول والشروط والأركان لهذا العمل الزراعى ، فمن جاء به على هذا الوضع الذى وضعه الله عليه وجد مسببه وكان وجوده مراعى تحت المشيئة والارادة ، ولهذا فان الزرع وان نبت فهو عرضة للتلف ، وان سلم فهو عرضة لتلف آخر بأن لا يحصله الزارع ، ثم إذا حصله فهو فى معرض تلف آخر وهو الحيلولة بينه وبين الانتفاع به فكم من زارع لم يستحصل على ثمرة زرعه وكم من مستحصل عليها لم ينتفع بها ، وهذا شىء ظاهر معروف ، ومثل هذه الأوضاع الأوضاعُ الدينية ، فان الحج مثلا فرض دينى أى من السنن الدينية فلا يسمى حجا إلا بوجود أركانه وشروطه وانتفاء الموانع والمبطلات ، فبوجود هذا كله يسمى حجا ويرجى منه حصول النتيجة المرتبة عليه ، ولكن الحصول على النتيجة ثم الانتفاع بها أمر وراء ذلك كله ، ولو أن رجلا وقف بعرفات وسعى بين الصفا والمروة ولم يطف لم يحصل له الحج الدينى مهما دعا ورجا ، فلا بد من الإتيان بالحج على الوضع الدينى . كما أنه لا بد من الأركان والشروط فى مسألة الزراعة ، فكل عمل سواء أكان دينيا أو ماديا قد وضع الله له سنة متحدة ولولا ذلك لاختلطت الأعمال وشاعت الفوضى فيها ، فنسبة الأعمال المادية لنتائجها كنسبة الأعمال الدينية لنتائجها ، وذلك أن الله تعالى وضع السنن المادية وسائل للسنن الدينية ، فان الله سخر لعباده ما فى الأرض جميعـــا ليعبدوه ويعرفوه

ويتقوه، فالسنن الدينية هى الغاية الموصلة للسعادة الكبرى فى الدنيا والآخرة، وسنة الطبيعة وسيلة لها فمن نفى فوائد الأسباب الدينية وأبطل نتائجها فهو أشنع ممن نفى فوائد الأسباب المادية ونتائجها ، ومن رجا وجود زرع بدون أرض أو بذر أو سقى فهو كمن رجا فائدة حج أو صلاة أو صيام بترك بعض أركانه فلا ينفعه رجاؤه هذا ولو دعا هنا لكان دعاؤه دعاء اعتداء قد صادم به سننه الدينية وقد أخبر تعالى أنه لا يحب المعتدين فقال ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين﴾ فينبغى أن يعرف أن أصول الأعمال ثابتة لا تتغير ولكن نتائجها والحصول عليها تتغير دائما بحسب نية الانسان وقصده وعمله ، لأن هذه الأمور هى التى يقع عليها الجزاء والثواب والعقاب ، وكلام شيخ الاسلام صريح فى أن الأسباب تراعى شرعا وعقلا ، أى تعتبر عوامل وموضوعات للنتائج ، وذكر أن التوجه اليها قدح فى التوحيد وأن الاعتماد عليها شرك ، وذلك لأنها لا تستقل بحصول النتيجة وحدها بل بمشيئة الله تعالى ، فهو المسخر لها فيجب الاعتماد عليه ، وهو المتفرد بالتدبير وحده وإنما وضع الأسباب محدودة مقدره بحدودها ومقاديرها لطفا بعباده وامتحانا لهم ودليلا على قدرته وكماله ليهتدوا بها واليها فى تحصيل حاجاتهم ، اذ لو كانت الأسباب مختلطة غير محدودة ومقدرة لتاهوا فيها ولكثر العبث بها ولسادت الفوضى ، فما ذكره حجة عليه ، فانه اذا كان يرى أن العلة فى الاعتماد على الأسباب هو ما ذكره فكذلك جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، واذا كان لا يحكم إلا على المحسوسات فلينكر وجود الأرواح وأمثالها من الروحانيات وهذا مكابرة

فصل

قال « أو اقصد الى كائن حى وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التى لا تكون الحياة بدونه ، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حيا ، أو وفر لهذا الكائن الحى ما يلزم له من طعام وشراب

وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حيا »

فيقال : هذا المسكين يحاول نصر رأيه فى هذه الأصول العظيمة بهذه السخافات المضحكة والهذيان البارد ، وهى كلها حجة عليه كالمسائل المتقدمة . وهنا طفق يزخرف تمويهه فى هذه المسألة فزلت قدمه فى قوله وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة . يا مسكين من هو الذى يحيط بالآفات وما تكون به الوفاة ويقدر على ضبطها ودفعها غير الله ، وهل أحد من الخلق يمكنه ذلك ، فهؤلاء سادتك من الماديين وغيرهم من الملاحدة قد درسوا كثيرا من معرفة هذه الآفات فهل أحصوها وعرفوها وهل قدروا على ما عرفوه فضلا عما لم يعرفوه . فوجود الطعام والشراب والهواء ليس كافيا فى الحياة ، بل لا بد من وجود أمور أخرى ، ولا بد من انتفاء الموانع والعوارض . ثم لو كان وجود هذه الأمور وانتفاء موانعها مضبوطة مقدورا عليها من كل وجه لاستمرت الحياة ، والا فالهرم لا ينفع معه وجود هذه الشروط وانتفاء الموانع لحلول علل أخرى لا طاقة لأحد بتبديلها وتحويلها ، وهذا كاف فى بطلان كلامه

ثم إنه شرع فى الطعن فى الهواء كعادته بناء على هذه الجمل التى ساقها وقد علمت ما فيها ، فذكر أن الأسباب اذا وجدت وافية وجدت المسببات وإلا فلا . وقد سبق الكلام فى هذا مرارا . ثم شرع فى تشويه سمعة المسلمين بأنهم تركوا الأسباب ولم يروها شيئا ، وأن ذلك من أسباب تأخرهم فقال :

« أساء المسلمون الظن بالأسباب ، وأكثروا من القول فى تقليل قيمتها وأثرها ، بل فى تجريدها من كل قيمة وأثر ، وملأوا الكتب والمنابر والنوادى والمجالس كتابة وخطابة بان تحصيل السبب وافيا ليس معناه تحصيل المطلوب ، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب »

فيقال : أنت أسأت الظن بالأسباب الدينية بل شتمتها وحاربتها وعاكستها وأكثرت من القول فى تقليل قيمتها وأثرها ، بل لم تجعل لها قيمة وأثرا بل

جعلتها ضررا محضا حيث قررت أنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث وشر ما يؤذى ، وملأت الأوراق وأتعبت نفسك فى اللجاجة والخصومة فيها فى الأندية والمجالس والمخاطبات ، وأما المنابر الدينية فقد صانها الله منك مدعيا بأن العمل بالسبب الدينى ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، والله يعلم أن أغلالك هذه كلها فى هذا الشان . ومعلوم أن الكتب السماوية كلها وجميع الرسل انما كانت زبدة رسالتهم هى الحث على الأسباب الدينية والقرآن كله من أوله الى آخره قد علق الفلاح والصلاح والنجاح على الأسباب الدينية ، ولهذا تجد القرآن قد حصر المجد وجميع الخير فى التقوى والايمان والعمل الصالح ، وكذلك السنة ، وليس فيه من الحث على الأسباب المادية سوى شيء يسير جدا مجملا ، بخلاف الايمان والأعمال الصالحة فانه كرر الآيات فيها وفصلها وعظمها وبينها غاية البيان وعلق النجاح والسعادة الدائمه عليها (١) فما بالك عدلت الى ما عظمه الله تعالى وعلق الخير كله عليه فصادمته وحاربته وعاندته فجعلته ملهاة وشرا وتخديرا وجهلا وضلالا إلى غير ذلك من السب والشتم الذى لا يحصى وذهبت الى الأسباب المادية التى أشار اليها إشارة مجملة ومحذرا عن الاعتماد عليها فعاكست الله ورسله وأنبياءه وعباده المؤمنين أعظم معاكسة ، فأهلكت نفسك فى الحث على الاعتماد عليها حثا أخرجك الى حد الجنون ، هذا مع أنك تعلم أن الناس لا يحتاجون الى مثل هذا الحث على ما هم فيه من الدافع الطبيعى ، بخلاف الأعمال الدينية فانهم فى أعظم الحاجة الى ذلك فان الناس فى الأسباب المادية لم يقصروا فى الأخذ بها واستعمالها فقد جن بعضهم وقتل بعضهم وسجن بعضهم وضرب بعضهم وكفر بعضهم كله من أجل الأخذ بها والاعتماد عليها ، والقليل النادر فيهم الذى فى غاية الكسل عنها قد اتخذ له وسيلة مباحة فى

---

(١) وذلك لعلمه سبحانه بما سيكون ، فان حث الناس وتاكيد الأمر عليهم فى هذا أعظم من الأمور المادية ، لأن الشهوات والحاجات كافية فى سوقهم اليها كما هو الواقع

تحصيل ما يقوم بكفايته . ثم إنك تعلم أنه لو قدر أن أحدا منهم فرط فيها وتساهل فليس ذلك من أجل اشتغاله بالعبادة بل من أجل اتباع هواه وإصابته بوباء النفاق أو الالحاد لا من أجل الدين . ثم انك تعلم أيضا حقيقة العلم أن الأسباب الدينية قد أهملت وضيعت وتركت ورفضت إلا أقل القليل ، وهذه مواضع اللهو مملوءة كل وقت والمساجد فارغة إلا أقل الأوقات ، واذا قيست مواضع اللهو بمواضع العبادات بأنواعها ومقالات الالحاد والاستهتار بمقالات الدين وكتب الالحاد والكفر والشرك بكتب الدين ومجلات الكفر والنفاق والزندقة بمجلات الدين وأمثال ذلك لتبين الفرق الواضح الجلى بين الرغبة فى هذا والنفرة من الآخر ، فما بالك عمدت الى أنفس نفيس فى الدنيا متروك مهمل مزهود فيه وادعيت أن الناس منهمكون فيه وذهبت الى مضاده وهو التساهل فى الدين ونحوه من الأمور التى قد انهمكوا بها وهلكوا فيها فادعيت أنهم تركوه وقصروا فيه وأساءوا الظن به ، أليس هذا كله من قلب الحقائق ومن معاندة الله ودينه وعباده المؤمنين ، فالله يجازيك بعدله انه سميع مجيب حيث صددت عن سبيله وسعيت حثيثا فى إضلال عباده

فصل

قال « وقد صار الناس فى هذه المسألة طائفتين : إحداهما أكبر من الأخرى ضلالا (١) ، طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة وتنكر أن يكون لها شىء من الأثر وتطعن فى دين من يأخذ بها ومن يراها شيئا ، وزعماء هذه الطائفة كثيرون ، منهم الغزالى فى كتاب منهاج العابدين » ثم ذكر كلاما له ولناس من غلاة الصوفية كما هو دأبه فى غزو الاسلام بكلام بعض الصوفية

---

(١) لو قدر أن فى هذا ضلال فأين ضلال من أنكر الأسباب المادية والاخذ بها من ضلال من أنكر الأسباب الدينية وادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة

أما مـا نسبه الى الغزالى [١] فليس بصحيح بل تقدم كلام شيخ الاسلام ونقله عنه بأن إنكار الأسباب عن أن تكون أسبابا قدح فى الشرع ، وكتبه كلهـــا شاهدة فى الحث على الاسباب . أما غلاة الصوفية فقد بينا أنه أقرب لهم فى الشبه من المسلمين ، فان كثيرا منهم مـلاحدة فعلوا ما فعلوه لأجـل إضلال المسلمين بدعوى أنهم مسلمون ، وقد تقدم الكلام فى كتبهم وأن إجماع المسلمين منعقد على عدم الأخذ بظاهرها حتى عند الموافقين لهم ، لأنهم يقولون : لهم اصطلاح لا يفهمه إلا من دخـل معهم فـيما هم فيه من التصوف ، وكثير من أهل العلم يخرجون غلاتهم من الملة ، فكيف يحتج بأقوالهم ويجعلها سهاما يرمى بها الاسلام مع أنه يرى رد العلماء عليهم فى كتب أئمة المسلمين مما لا يعد ولا يحصى ككتب شيخ الاسلام وتلميذه ابن القـيم ، ولـكن مقصوده من هـذا معروف وهو التوسل بكل ما أمكنه الى إشانة الاسلام والتنفير منـه ليقول ان أهله على فساد من الرأى فيجب رفض كتبهم وعقائدهم وإبدا لهـــا بآراء الملاحدة التى قررها فى أغلاله غلت بها عنقه ويداه وكان من الخاسرين

ثم ذكر الطائفة الاخرى فقال :

« وأما الطائفة الأخرى فانها لم تنكر الأسباب جملة ، ولـكن جردتهـا من التأثير ، وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الانسان ، لأن الله أمر بتأديتها ، ولأن الطبيعة البشرية تطمئن اليها لا لأنها تؤثر أو توصل »

فيقال : هذا كذب ظاهر على هذه الصورة التى ادعاها ، والتقسيم باطل من أصله ، فان التقسيم الصحيح ما نذكره قريبا من أن الناس ثلاثة أقسام

ثم قال : « وقد ذكروا فى توجيه المسألة احتمالين كلاهما عندهم كفر »

---

(١) أى التساهل فى الأسباب

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور لا شك فيه مع أنه تفريع لا يلتئم مع ما قبله . ثم ذكر الاحتمالين فقال :

« أحدهما الزعم أن الأشياء توصل الى نتائجها بطبيعتها ، وأن الأسباب تؤدى الى مسبباتها بقوتها . وثانيهما الزعم أنها علل تترتب عليها المعلولات . وكلا الامرين عندهم كفر ، فمن اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروى كذلك وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة وأن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل الى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق ، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها فهو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا »

والجواب أن يقال : ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا . وقد قدمنا أن هذا الملحد فيه شبه قوى من اليهود فى البهت والمكابرة والتحريف ومقت الفضائل وغمطها والتنفير منها ، ولم نعلم أحدا حارب المسلمين ودينهم بالزور والفجور والأكاذيب والبهتان مثل هذا الملحد ، فمن أعظم البهت وأفجر الفجور دعواه على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها أنه كافر زنديق مشرك بالله ، وكذلك ما ذكره فى الشبع بالطعام والرى بالشراب فان هذا من أفجر الفجور ، وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم عن جماهير اهل السنة من المسلمين أنهم يرون هذا الرأى أى أن السيف يقطع بطبعه والنار تحرق بطبعها أى بالقوة التى خلقها الله فيها ، وكذلك الطعام والماء كل منهما يشبع ويروى بالقوة التى جعلها الله فيه ، فكيف يدعى هذا الزنديق أن ذلك عندهم كفر وشرك وزندقة ، قاتله الله ما أرخص الكذب عنده ، وسيأتى كلام ابن تيمية وابن القيم قريبا فى هذا

ومن المعلوم أن الناس فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال كما أشرنا الى هذا

فيما سبق : أحدها من يقول ان الأسباب تفعل بطبعها من غير أن يخلق الله فيها قوة على أن تفعل ذلك وانما هى بنفسها هكذا كانت وليس فى الامكان أن يغيرها الله بل هى مطبوعة طبعا مؤبدا بدون مشيئة من الله ولا إرادة وليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وهذا قول ملاحدة الدهرية وأمثالهم من الزنادقة ، فلا معجزة عندهم ولا آية ولا كرامة ، لأن ذلك عندهم تغيير فى طبيعة الأسباب ، وبنوا على هذا إنكار النبوات لأنها لم تثبت إلا بالمعجزة وليس فى الامكان وجود معجزة بهذا الوضع ، على أن منهم فرقا كثيرة يجوزون تغيير الطبيعة وانقطاع النتيجة عن وسيلتها لانهم رأوا هذا وعلموه بالاستقراء ، ولكن يسمون هذا فلتات الطبيعة فلا يعللون ذلك بشيء لا مشيئة ولا غيرها

والقول الثانى أن الأسباب لها قوة فى التأثير والفعل خلقها الله فيها ، فهى تفعل وتؤثر بالطبع والقوة التى خلقها الله وأودعها فيها ، فالسكين تقطع بنفسها والنار تحرق بطبع القوة التى خلقت فيها وكذلك الطعام يشبع بالقوة التى فيه والماء يروى كذلك ، وهذا قول جماهير أهل السنة من أصحاب الحديث وغيرهم وهو الذى حققه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما

قال شيخ الاسلام فى رسالته أقوم ما قيل [١] : ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول فقد جحد مافى خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم ولم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا فى النار قوة تمتاز عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون مافى الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز ، قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى

---

(١) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١٥٦ طبعة المنار

إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ، ثم إن هؤلاء يقولون لا ينبغى للانسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء ، بل يقولون شبعت عنده ورويت عنده فالله يخلق الشبع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات عادة لابها ، وهذا خلاف الكتاب والسنة ، انتهى . ثم ساق آيات استدل بها على كون الله يفعل بالأسباب وأن الأسباب فيها قوة مؤثرة بارادة الله . ثم قال الشيخ : ونظر هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المشروعة فى أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرا حصل بدون ذلك وان لم يكن مقدورا لم يحصل ، ثم رد هذا الرأى ، ثم ذكر أن الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الاسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجوه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية يقدح فى الشرع ، ونقله عن العلماء على نحو ما تقدم ، وكلامه رحمه الله فى هذه الأمور كثير مشهور

وقال الامام ابن القيم فى شفاء العليل صحيفة (٤) : وزعمت هذه الفرقة (يعنى بعض المغالين فى القدر من الجبرية ونحوهم من الجهمية) أنهم بذلك للسنة ناصرون وللقدر مثبتون ولأقوال أهل البدع مبطلون ، هذا وقد طووا بساط التكليف وطففوا فى الميزان غاية التطفيف وحملوا ذنوبهم على الاقدار ويرأوا أنفسهم فى الحقيقة من فعل الذنوب والاوزار ، وقالوا انها فى الحقيقة فعل الخلاق العليم ، واذا سمع المنزه لربه هذا قال سبحانك هذا بهتان عظيم ، فالشر ليس اليك والخير كله فى يديك . ولقد ظنت هذه الطائفة بالله أسوأ الظن ونسبته الى أقبح الظلم وقالوا ان أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فى السموات وكتكليف الميت إحياء الاموات ، والله يعذب عباده أشد العذاب على فعل مالا يقدرون على تركه وعلى ترك مالا يقدرون على فعله ، بل يعاقبهم على نفس فعله الذى هو لهم غير مقدور وليس أحد ميسر له بل هو عليه مقهور ، ونرى العارف منهم ينشد مترنما ومن ربه متشكيا ومتظلما :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وليس عند القوم فى نفس الامر سبب ولا غاية ولا حكمة ولا قوة فى الاجسام ولا طبيعة وغريزة ، فليس فى الماء قوة التبريد ولا فى النار قوة التسخين ولا فى الاغذية قوة الغذاء ولا فى الادوية قوة الدواء ولا فى العين قوة الإبصار ولا فى الاذن قوة السماع ولا فى الانف قوة الشم ولا فى الحيوان قوة فاعلة ولا جاذبة ولا ممسكة ولا دافعة والرب تعالى لم يفعل شيئا بشىء ولا شيئا لشىء ، فليس فى أفعاله باء تسبب ولا لام تعليل ، وما ورد من ذلك فمحمول على باء المصاحبة ولام العاقبة ، وزادوا على ذلك أن الافعال لا تنقسم فى نفسها إلى حسن وقبيح ولا فرق فى نفس الامر بين الصدق والكذب والبر والفجور والعدل والظلم والسجود للرحمن والسجود للشيطان والاحسان الى الخلق والاساءة اليهم ومسبة الخالق والثناء عليه ، وانما نعلم الحسن من ذلك من القبيح بمجرد الامر والنهى ، ولذلك يجوز النهى عن كل ما أمر به والامر بكل ما نهى عنه ، ولو فعل ذلك لكان هذا قبيحا وهذا حسنا ، وزاد بعض محققيهم على هذا أن الاجسام كلها متماثلة فلا فرق فى الحقيقة بين جسم النار وجسم الماء ولا بين جسم الذهب وجسم الخشب ولا بين المسك والرجيع ، وإنما تفرق بصفاتها وأعراضها مع تماثلها فى الحد والحقيقة . وزادوا على ذلك بان قالوا الاعراض كلها لا تبقى زمانين ولا تستقر وقتين ، فاذا جمعت بين قولهم بعدم بقاء الاعراض وقولهم بتماثل الاجسام وبتساوى الافعال وأن العبد لا فعل له البتة وأنه لا سبب فى الوجود ولا قوة ولا غريزة ولا طبيعة ، وقولهم أن الرب تعالى ليس له فعل يقوم به وفعله غير مفعوله ، وقولهم انه ليس بمباين لخلقه (١)

---

(١) أى ليس فوق العرش ، فان الجهمية ينكرون أن يكون الله فوق العرش كما جاء فى النصوص

ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ، وقولهم انه لا يتكلم ولا يكلم ولا قال ولا يقول ولا سمع أحد خطابه ولا يسمعه ولا يراه المؤمنون يوم القيمة جهرة بابصارهم من فوقهم أنتجت لك هذه الأصول عقلا يعارض السمع ويناقض الوحى ، وقد أوصاك الأشياخ عند التعارض بتقديم هذا المعقول على ما جاء به الرسول

فلو أنى بليت بهاشمى	خئولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن	تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

انتهى

وقال ايضا (١) الحق الذى لا يجوز غيره هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ويفعل ما يفعله بأسباب وحكمة وغايات محمودة ، وقد أودع العالم من القوى والطبائع والغرائز والأسباب والمسببات ما به قام الخلق والأمر ، وهذا قول جمهور أهل الاسلام وأكثر طوائف النظار ، وهو قول الفقهاء قاطبة إلا من خلى الفقه ناحية وتكلم بأصول النفاة فعادى فقهه وأصول دينه . انتهى كلام ابن القيم ، وهو صريح فى أن هذا قول جماهير أهل الاسلام ، وقد تقدم كلامه أيضا فى هذا الموضع فى آخر البحث السادس فليراجع

والقول الثالث أن الأسباب لا تؤثر بنفسها ولا بالقوة التى أودعها الله فيها بل الفعل الحادث عند اقتران السبب بالمسبب فعل الله ، فالاحتراق فعل الله والنار علامة له ، وهكذا الأسباب . قالوا وقد جعل الله هذه الأمور علامة على هذه الافعال ودلالة عليها فلكل نتيجة وفعل علامة لئلا تشتبه طرق المفعولات والنتائج . وهذا القول فى الأصل قول الجهمية وقد سرى فى طائفة من طوائف الأشعرية من المتأخرين وهى من الأمور التى اخذها الأشعرية

---

(١) ص ٢٠٦

من الجهمية وهو قول مرجوح . قد عرفت كلام ابن القيم وابن تيمية فى رده كما رده غيرهما . ولكن ينبغى أن يعلم أنه ليس مذهب الأشعرية هو مذهب الجهمية بل بينهما فروق ، فان مذهب الأشعرية فيه كثير من مذاهب اهل السنة سوى أمور أخرى كهذه المسألة ومسائل تأويل بعض الصفات ، فان هذه مأخوذة من مذهب الجهمية والمعتزلة . ثم ان هذا القول فى مسألة الاسباب الذى يقوله الاشعرية ليس فيه حجة لهذا المبطل بأنهم معترفون بسببية الاسباب وأن لها نتائج وإنما ينكرون التأثير فقط وإلا فهم يقولون بأن النار سبب للاحراق أى دليل وعلامة له فلا بد منها ، فهم يوجبون استعمال الاسباب ولا يحذرون أحدا بترك الاسباب الضرورية من أجل أنه لا فعل لها بل يجب استعمالها لانها علامة ، وليس فيهم من يقول إن الزرع يحصل بدون بذر أو سقى أو أرض ونحو ذلك ، بل يوجبون الاتيان بالاسباب ويقولون من استعملها على وجهها فقد استعمل السبب الذى به تحصل النتيجة مالم يكن هنالك مانع آخر ، ومن تركها لم يحصل له شىء ، فليس قولهم ملازما لتركها ، فمن نسب اليهم القول بترك الاخذ بالاسباب فقد بالغ فى البهت والمكابرة ، وأدنى كتاب من كتبهم شاهد على ذلك ، ومسألة الكلام فى تأثيرها وعدمه غير مسألة الاخذ بها ، وقد أورد الغزالى أنه ليس عند المخالفين له فى هذه المسألة دليل على كون النتيجة هى بسبب تأثير الوسائل بنفسها لا بفعل الله ، وادعى أنه ليس عندهم إلا كونهم يرون الفعل عند اقتران السبب بالمسبب فقط ، والفعل شىء خفى فمن أين لهم أنه من فعل السبب لا من خلق الفعل عنده ومجرد الاقتران لا يوجب التعليل ، ثم أورد مسألة جذب المغناطيس للحديد فانه شىء غير مدرك بالعقل وأطال فى ذلك . وهذا الملحد وأمثاله عاجزون عن معارضته ، غاية ما عنده الاستهزاء والبهت والتحريف بدون حجة . هذه هى عوامله وسلاحه الذى يحارب به المسلمين

فقد تبين لك من هذا أن الناس على ثلاثة أقوال ، وأن المسلمين على

قولين ، فالاكثرون قائلون بان الاسباب مربوطة بمسبباتها والعلل بمعلولاتها وأن الله قد أودع فيها طبيعة وقوة على التأثير ، وأن هذا قول أهل السنة . والقول الثانى من يجعلها أسبابا لكن ينفى تأثيرها بقوتها ويجعل التأثير بفعل الله عندها لا بها وأن هذا قول أكثر الأشاعرة [١] فكيف يدعى هذا الزنديق على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد ما ذكره من تأثير الأسباب فى مسبباتها والعلل بمعلولها بقوة فيها يكون كافرا زنديقا مشركا بالله ، فهل فى الدنيا أعظم من هذا البهت والفجور فى هذا الادعاء على المسلمين . والمصيبة أنه عم المسلمين بهذه الدعوى حيث قال فى أول الدعوى « أساء المسلمون الظن بالاسباب الخ » ومن شنيع خبثه وتلبيسه ادخاله الذكاء والعلم والطلب مع مسألة السيف والنار والطعام والشراب بنتائجها ، وكل عاقل يفرق بين تلازم هذه الأشياء ، فان الذكاء والطلب أعراض وأسباب قاصرة لا تكون لازمة للنجاح كملازمة النار للاحراق والطعام للشبع والشراب للرى ، فان هذه قوى قوية المفعول فى نتائجها بخلاف الذكاء والطلب فلا بد من انضمام أسباب أخرى وموانع كثيرة ، وكل أحد يعرف تفاوت هذه الأمور فى النتائج ، بل هو نفسه ادعى فى أبياته المتقدمة أن الذكاء والعقل سبب للحرمان وأن الجهل سبب للسيادة وأن العقل ضرب من الفقر ، وهذا تصريح منه بان هذه الأسباب لا تستلزم نتائجها ولا عجب فهكذا كان دأبه فى التناقض والاضطراب والقلق والحيرة والعياذ بالله

ثم انه زاد الطين بلة فقال :

« وقد نظموا هذا شعرا واستظهروه وأمروا باستظهاره فقالوا فى احدى المنظومات الاعتقادية التى تحفظ وتدرس :

---

(١) والسبكى وكثير من الأشاعرة يرون أنها مؤثرة بنفسها كما ذكره فى شرح الخريدة

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

والمسألة اجماعية على هذه العقيدة النظمية ، انتهى

قلت : فلينظر المنصف الى هذا الفجور والتحريف الخبيث فى الاستشهاد على ما ادعاه ، والمنظومة إنما تضمنت ثلاثة أقوال أشار اليها الناظم بقوله ـ أى فى القصيدة المسماة بالخريدة :

والفعل فى التأثير ليس إلا للواحد القهار جل وعلا

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعى فلا تلتفت

فصاحب هذه المنظومة وهو أحمد الدردير بين الفرق بين القول بالطبع والقول بالقوة المودعة ، وهذا الملحد خلطهما جميعا وجعل الجميع كفرا وزندقة وشركا ، والفرق بين القولين ظاهر ، فانه لما ذكر أن التاثير منفرد به الله أردفه بمضاده وهو قول الدهرية القائلين بأن مستند حركات الكون نواميس الطبيعة وأن الاشياء تفعل بطبعها لا أن الله خلق فيها طبيعة وقوة على الفعل وهى تحت مشيئته وقدرته بل هى نفسها لم تزل كذلك فهى علل للمعلولات لذاتها وطبيعة نتائجها لذاتها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهاياتها ، وهم ينكرون الربوبية ، ومنهم من يقول بقدم العالم وأنها لم تزل كذلك ليس لله قدرة على تغييرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه بين المسلمين ، وهو الذى يذهب اليه هذا الملحد ، وأما القول الثانى فهو قول اهل السنة من يجعل فيها قوة على الفعل خلقها الله فيها ، فالنار تحرق بقوتها المودعة فيها وكذلك السيف يقطع بقوته المودعة فيه وكذلك الطعام والشراب كل منهما يؤدى وظيفته بالقوة المودعة فيه وكل هذه القوى والخصائص تحت المشيئة العليا وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهكذا جميع الوسائل مع نتائجها ، وهذا هو الذى نصره شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأكابر أهل السنة وأصحاب

الحديث ، والقول الثالث وهو الذى أشار اليه الناظم واختاره لأنه من بعض الأشاعرة المنكرين القوى الموثرة فى الطبائع ولهـــذا قال فيمن خالف رأيه « فذاك بدعى فلا تلتفت » ولم يقل انه كافر مشرك زنديق كما يقول هذا الكاذب ، وهذا الناظم بنى هذا القول على اعتقاده لان معه شيئا من أصول الجهمية كرأيه فى تأويل الصفات الخبرية ونفى المباينة وانكار الحرف والصوت فى كلام الله ، وهذه الأمور ليست مذهبا للاشعرى بل هو قد صرح فى كتبه كلها كالإبانة وغيرها بخــلاف ما ذكره فى هذه المنظومة المسماة بالخريدة ، وكذلك هو مصرح بخلاف ما قاله صاحب الجوهرة والسنوسى وأمثال هؤلاء المتأخرين فى مثل هذه الامور ، فانه صرح فى كتبه بالاستواء على العرش والمباينة وأنكر على من زعم أن استوى بمعنى استولى ورد عليهم وأقر بجميع النصوص الواردة على ظاهرها ، وكذلك كثير من أصحابه من أئمة الاشاعرة والشافعية ، فمن طالع عقيدة الامام الصابونى وابن خزيمة والجوينى والد امام الحرمين[١] وغيرهم علم ان هذه العقائد المتأخرة فيها أشياء مخالفة لهم خلافا ظاهرا ، وهذا الجوينى الملقب امام الحرمين أثبت التأثير فى فعل العبد كما نقله عنه ابن القيم فى شفاء العليل . وليس غرضنا شرح هذه الأمور وإنما الغرض بيان أن ما نقله محتجا به فيه من البهت والتحريف مالا يخفى على عاقل

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحــه فى فتوى له فى النجوم والكواكب[٢] ، وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرها لهم كما قال تعالى ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ ، ﴿ نسخر لكم الليل والنهار ﴾ وقال تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ وقال تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ ومن منافعها

---

(١) له رسالة جليلة مطبوعة ضمن المجموعة المنيرية
(٢) المجلد الاول ص ٣٢٤ من مجموعة فتاويه طبعة الكردى

الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار وإنضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن ، وكذا ما يجعله بها من الترطيب والتيبيس وغير ذلك من الامور المشهورة ، كما جعل فى النهار الاشراق والاحراق وفى الماء التطهير والسقى وأمثال ذلك من نعمه التى يذكرها فى كتابه كما قال تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ وكما قال ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ فمن قال من أهل الكلام إن الله يفعل هذه الأمور عندها لابها فعبارته مخالفة لكتاب الله تعالى والأمور المشهورة كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدين » انتهى

وقال أيضا رحمه الله فى كتابه (منهاج السنة) فى الرد على الرافضى ص ٢٦٥ ج ١ : « الوجه الثانى أن يقال نقله (يعنى الرافضى) عن الأكثر أن العبد لا تأثير له فى الكفر والمعاصى نقل باطل ، بل جمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون ان العبد فاعل حقيقة وان له قدرة حقيقة وهم لا ينكرون تأثير الاسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه العقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون ان قوى الطبائع الموجودة فى المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون أن لها تأثيرا لفظا ومعنى ، حتى جاء لفظ الأثر فى مثل قوله تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ وان كان التأثير هناك أعم منه فى الآية لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب فى مسبباتها والله خالق السبب والمسبب ومع أنه خالق السبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له لابه بأن يخلق الله تعالى السبب الآخر ويزيل الموانع » انتهى . فهذا كلام شيخ الاسلام - كما ترى - صريح فى أن جماهير الناس من أهل السنة على إثبات

تأثير العبد فى فعله ، وأن الأسباب مؤثرة بقوتها فى مسبباتها ، فكيف يدعى هذا الكاذب على المسلمين بأن من ادعى ذلك فهو كافر مشرك زنديق[١] ولكنه تبع هذا الرافضى الذى ادعى كدعواه فى التشنيع على أهل السنة بأنهم ينكرون تأثير فعل العبد بغضا ومقتا للمخالفين له فى رفضه وعداوته للصحابة ، كما أن هذا فعله خبثا وعداوة للمضادين له فى زندقته وإلحاده وعداوته للأديان

وأما قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فقال فى شرح الطحاوية ص ٣٦٧ ، فهو دليل عليهم (أى على الجبرية) لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله ﴿ اذ رميت ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفى ، وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ والله أعلم : وما اصبت اذ حذفت ولكن الله أصاب[٢] ، وإلا فطرد قولهم وما صليت اذ صليت ولكن الله صلى وما صمت اذ صمت وما زنيت اذ زنيت وما سرقت اذ سرقت ، وفساد هذا ظاهر . انتهى

وقد تقدم الكلام فى الأسباب ونتائجها والربط بينها فى مواضع كثيرة جدا بما يغنى عن إعادته ويأتى له بقية

فصل

ثم استدل بقصة ذى القرنين على أن الأسباب هى التى تمكن الانسان من

---

(١) أى فيما سبق فى بحث القدر

(٢) أى لأن الاصابة التى وقعت كانت معجزة فان حفنة التراب التى رمى بها عليه السلام المشركين حتى دخلت أعينهم وانهزموا ليس فى استطاعته فعل ذلك ولكن الذى فى استطاعته الرمى فقط ، فأثبت له الرمى الذى هو الحذف ، ونفى عنه أثره العظيم الذى ليس فى استطاعته ، فالمثبت غير المنفى ، وإلا فلو لزم هذا للزم ما ذكره الشارح

كل شيء لقوله تعالى ﴿ انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ فاستدل بهذه الآية وبالقصة ، وهى حجة عليه ، فان الله تعالى أسند تمكينه فى الأرض اليه تعالى لا الى أسبابه ، وأسند ما استحصل عليه من الأسباب الى إعطائه ذلك فضلا منه بمشيئته وقدرته ، لانه قال جل وعلا ﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ ولم يقل إنه تمكن بما آتيناه من الأسباب ، أو ان الأسباب مكنته ، أو انه مكن بالأسباب ، بل قال ﴿ انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ فأخبر أنه مكنه وأنه آتاه ، لئلا يظن زنديق أن التمكين بنتيجة الأسباب وحدها . ثم انه ذكر أنه آتاه من كل شيء سببا ، وإعطاء الأسباب لايقتضى استحصال النتائج حتما كما فى قصة بلعام ، بل لا بد من حصول الرحمة والمشيئة وإلا فقد يعطى الانسان أسبابا ليستحصل بها الخير فيستعملها فى ضده . بل يستعملها فى المعاصى فتكون وبالا عليه [1] بل قد يستعملها فى شيء يضره وهو يراه رأى العين ويقر بأنه ضر كتعاطى المسكرات ونحوها . فالقصة حجة عليه ، مع أننا لا ننكر تأثير الأسباب ولا الأخذ بها لكن ننكر أن تكون هى الفاعلة لذاتها بدون أن يغيرها الله وأن يكون له قدرة عليها أو أن تكون خارجة عن مشيئته وإرادته . فنحن إنما ننازع فى هذه الدعوى العريضة

ثم استدل بقوله تعالى ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ وهذا أيضا من عكس

---

(١) ينعم الله على كثير من الخلق بالمال والجاه ليتقوى به على طاعته فيستعمله فى المعاصى ، ويعطى آخر ذكاء وفصاحة وبلاغة لينفع بها ويدعو الى الله والى دينه فيستعملها فى عكس ذلك فى تقرير الالحاد والزندقة والحط على الدين وأهله ، ويعطى الانسان قوة فى بدنه فيستعملها فى المعاصى . وكذلك يقال فى حسن الصورة وسائر الأسباب الحسنة التى خلقها الله فى الانسان وللانسان ليسعد بها نفسه فيجعلها سببا لشقائه ، وذلك برهان على أن وجود السبب ليس كافيا فى حصول المطلوب بل لا بد من المشيئة فى ذلك

الاستدلال ، لان هذه الآية من أبلغ الحجج عليه ، فانه تعالى أخبر عن حال هؤلاء أنهم كانوا متعلقين بالأسباب متوجهين اليها فتقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا اليها ، فلو أنهم علقوا آمالهم به تعالى وأخـذوا بالأسباب كما أمروا لاستمسكوا بالعرى الوثيقة كما قال تعالى ﴿ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور﴾ ولـكنهم احتقروا هذه العرى وذهبوا يلتمسون غيرها ظانين أن فيها الـكفاية فتقطعت بهم وسقطوا فى الهـاوية السحيقة فانقطعت آمالهم وتقطعت قلوبهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ولو أن الأسباب لا تتغير وأن نتائجها لازمة لها لزوما ذاتيا ليس لله قدرة على تغييرها لم تتقطع بهم بل تبقى على ما هى عليه ممـا ظنوه واعتمدوا عليه ، فالآية حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم قال « وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد فى ذم الأسباب أو ذم الأخذ بها » [1] فيقال بل كل الذى جاء عن الله وعن رسوله من أوله الى آخره فى ذمها وذم الأخذ بها على المعنى الذي تريده وتدعو اليه ، فانك لم تقتنع بالأخذ بها واعتقاد أن الله يصرفها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، بل جعلت هذا هو السفه والفوضى ، وإنما تدعو الى الأخذ بهـا والاعتماد عليها [2] والـكفر بمشيئة الله بأن يتصرف فيها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب . ومعلوم أن هذا وأمثاله ممـا قررته هو الوثنية المحضة والزندقة التى لا شك فيها ، وحينئذ فان الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله ليعبد

---

(١) قد عرفت مرارا أننا لم نذمها ولم يذمها أحد من المسلمين على الوجه الصحيح ، وإنما الذم فيما يدعو اليه من الاشراك بها

(٢) كما صرح به فى المبحث الماضى وغيره

وحده لا شريك له وأن يتوكل عليه ويعتمد عليه ويركن اليه ويوثق به وأن يتوجه اليه فى كل مهمة ومقصد ، فلا يدعى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه ولا يلجأ إلا إليه ولا تنزل الفاقات إلا به . ومعلوم أن هـذا يضاد دعايتك إلى الأسباب ، فانك قررت أن الاعتماد على الأسباب والرجوع اليها والتوجه اليها هو أصل كل سيادة والخروج من كل بلاء ، وهذا هو اعتقاد المشركين كما مر تقريره ، فان الشرك كله ليس إلا الرجوع الى الأسباب المخلوقة ، والالحاد كله والنفاق كله والزندقة كلها كذلك ليس إلا الاعتماد على الأسباب المادية وتعليق الآمال عليها وطلب الحاجات المختصة بالله منها ، إما قولا وإما فعلا باعتقاد أن فيها الكفاية إما بواسطتها بسر غيبى أو بذاتها ظاهرا وقد أمرنا الله تعالى أن نقول كل وقت فى صلاتنا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ والاعتماد على الأسباب يناقض هذا أعظم المناقضة ، ولهذا قال بعض العلماء ان الله جمع معانى دعوة القرآن فى الفاتحة وجمع ذلك فى آية اياك نعبد واياك نستعين [1] فالعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل والتعظيم والاجلال ، والاستعانة تتضمن الدعاء والطلب والافتقار واستنزال الرحمة والنصر والتأييد والفيض الربانى الذى هو مصدر القوة كلها ، ومن تأمل القرآن كله علم أنه يدور على هذا الأصل فى طلب التوجـه إلى الله والانابة اليه وطلب الرزق والنصر وكل شىء من عنده ، بل الأسباب التى جعلها طريقا الى ذلك قال تعالى ﴿ وان من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ فخزائن السموات والأرض بما فيها من الأسباب عنده لا تطلب إلا منه ، فمن أعرض عن

---

(١) قال ابن تيمية رضى الله عنه فى المنهاج ص ٩٨ مجلد ٢ : روى الحسن البصرى رحمه الله أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع سرها فى الأربعة ، وجمع سر الأربعة فى القرآن ، وجمع سر القرآن فى الفاتحة ، وجمع سر الفاتحة فى هاتين الكلمتين ﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾

صاحب الخزائن وذهب الى الخزائن بدون أمره فهو إما سارق تقطع يده ، أو لص قاطع طريق فله حكمه أو محارب فكذلك له حكمه مع حرمانه ما أراد فلا يستحصل الا نقيض قصده ، وقال تعالى ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ ، فقرن العبادة بابتغاء الرزق لأنها مفتاح خزائنه وطرق تحصيلها ، فمن اعتدى على الخزائن مع علم صاحبها به فلا بد أن يعاقب ، والله سبحانه بين الطريق التى توصل الى خزائنه ورحمته وخيراته كلها أوضح بيان ، فطالب من العباد أن يدعوه ويطلبوا منه وأن يعبدوه ويسيروا على نظامه فيأخذوا بما شرعه من الأسباب الدينية والمادية ، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن ييسر لهم الطريق ويهيء لهم من الأسباب ويدفع عنهم من الموانع والمعارضات ما لا يقدرون هم على دفعه فينجح لهم العمل ويعينهم عليه . وأعظم الناس غلوا فى الأسباب واعتمادا عليها دون الله هم أكفر الناس ، ولهذا كان فرعون ونمرود أعظم الناس غلوا فى الاعتماد على الأسباب والايمان بها وأنها فاعلة بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وهم أزهد الناس وأحقرهم للأسباب الدينية فان فرعون رأى آية العصا واليد وغيرهما واحتقرها واعتمد على القوة الطبيعية وحارب القوة الدينية فقال ﴿ ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ﴾ وهذه أقوى الأسباب الحربية المادية ، فان الكثرة مع الغيظ والحذر مع الاتيان صفا كما فى الآية الأخرى — هى القوة الحربية ، ولم يعبأ بالأسباب الدينية كورثته الذين اتبعوه فى هذه الفكرة كما أشرنا الى هذا فيما تقدم ، وكذلك نمرود لم يعبأ برسالة الخليل عليه الصلاة والسلام بل قصد أقوى سبب مادى فى الضرر والربط بالنتيجة فأوقد النار لأنه معتقد أن النار مطبوعة على الاحراق طبعا مؤيدا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها وتتحكم فى نهايتها ولا أشد من ملازمة النار للاحراق ، فلهذا اعتمد على هذا السبب ، وذهب يقذف خليل الله فيها ،

فكان الدعاء وحسبي الله كافيا فى قلبها الى ضدها وتحويلها بردا وسلاما ، لأن ذلك الدعاء وذلك التوجه الذى هو أكبر سبب فى الوجود استعمل على أكمل الوجوه لما فيه من الاخلاص والصدق الكامل فبطل المسبب عن سببه والوسيلة عن نتيجتها . وهكذا كانت عقيدة كل أعداء الرسل الذين قاتلوهم وقاتلوا أتباعهم انما قاتلوهم معتقدين أن الأسباب فيها كفاية لذاتها ، وأن الأمور الدينية لا تقف فى سبيلها أبدا ، ومن المعلوم أيضا أن كلمة التوحيد « لا اله إلا الله » هى أصل الاسلام ولا شك عندالمسلمين أن معناها لا معبود بحق إلا الله ، والمعبود هو المألوه الذى يتوجه اليه ويعتمد عليه فى سد الحاجات والرغبات ويلجأ اليه عند الضرورات ، فمن اعتمد على الاسباب ودعا الى الاعتماد عليها وتعلق بها فقد ناقض معناها مناقضة صريحة . وكذلك شهادة أن محمدا رسول الله تستدعى التصديق التام والمتابعة المحققة ، فمن شهد أنه رسول الله فيجب عليه العمل بمقتضى شهادته ، إذ كونه رسولا يوجب التصديق الذى لا يدخله أدنى ريب فى كل ما جاء به وتحكيم سننه وكل ما جاء به فى كل أمر ووجبت المتابعة الخالصة بدون أدنى تردد ، إذ هو رسول الله فيجب أن يتبع ، فمن كذبه أو ارتاب فيما جاء به واستكبر عن اتباعه أو رأى أن غيره أهدى منه سبيلا من كل مشروع شرعه فهو لم يحقق هذه الشهادة بل ناقضها . ومعلوم أن من تعلق على الاسباب المادية واعتمد عليها ولم يلتفت الى الاسباب الدينية التى وضعها الله ورسوله وضعا كاملا وأخبر أن النجاح متوقف على من اتبعه فيها ، فمن خالفه فى ذلك فقد ناقض شهادته وصار منافقا ، فان المنافقين الذين قالوا نشهد أنك لرسول الله انما أكذب الله شهادتهم هذه لانهم لم يعتقدوا مقتضاها من التصديق والاخلاص فى المتابعة ، وهكذا يقال فى أصول الدين وأركانه كالصلاة والزكاة والصيام والحج كلها مظاهر واعتقادات تحقق معنى الشهادة وتحقق معنى المتابعة ، فانها ترجع الى كمال محبة الله تعالى وتعظيمه والاعتماد عليه والذل والخضوع له وإنزال الحاجات والفاقة به واستنزال الرحمة والاعانة

والتوفيق والسعادة منه ، فالاعتماد على الاسباب والتوجه اليها يصادم ذلك أعظم المصادمة ويناقضه أعظم المناقضة ، وهذا الملحد العنيد لما كان يعلم أن هـــذه الاصول الدينية تناقض روح دعايته فى الاعتماد على الاسباب صرف همته الى الطعن فيها ، بل كل أغلاله فى الطعن فى صميمها ولا سيما مظاهرهـا العظيمة كالدعاء والخطب أيام الجمع على المنابر ومواضع العبادات كالمساجد ، فانه جعل ذلك شرا وملهاة وتعويقا الى آخر كلامه ، وقد قال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منـكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخـلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أولئـــك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيهـا خالدون ﴾ فأخبر سبحانه أن الامم الماضية كان لديها من الاسباب والقوة شىء كثير فان الاموال والاولاد هى الاسباب المادية كلها فانهـا ترجع الى هذين الشيئين فلمـا استمتعوا بخلاقهم ولم يعتمدوا على الله بل اعتمدوا على هذه الاسباب التى هى الاموال والاولاد حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وتأمل قوله ﴿ فى الدنيا ﴾ تجـد أن العقوبات وحبوط الاعمـال تتأتى فى الدنيا كما تتأتى فى الآخرة وانه ليس ذلك خاصا بالآخرة كما أن إثابة الطاعات تجىء فى الدنيا أيضا كما تجىء فى الآخرة ، وهـذا يناقض فكرة كثير من الزنادقة الذين يدعون أن الجـزاء فى الطاعات والمعاصى مختص بالآخرة كما ادعاه هذا الملحد[1] فى مواضع كثيرة

وقال تعالى ﴿ ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون ﴾ فأخبر تعالى ان هـذه الأسبـاب التى لها المحل الأعلى عند جميع الأمم وهى الأسماع والأبصار والأفئـدة ، فان

(١) أى فى نبذته (كيف ذل المسلمون)

هذه هى التى تناط بها السياسة ونحوها ـ لم تغن عن أهلها شيئا ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، لأنهم احتقروا الأسباب الدينية واستهزأوا بها ورأوها أوهاما ، وأنه ليس فيها كبير أمر ، وأنه لا يوثق بها كما يدعى جميع الزنادقة إلى اليوم ، سنة متبوعة وطريقة معمودة أتواصوا بها بل هم قوم طاغون أخذوها خلفا عن سلف ، وبذلك تجد كثيرا من هذه البشرية ولا سيما الطبقات المترفة المتطرفة محتقرين الأخلاق الدينية زاهدين فيها ، بل قد زادت المصيبة حتى جعلوا التقوى والصلاح من سيماء البله والجهلاء ، وادعوا أن الصلاح والتقوى ينافيان السياسة وسبب هذا الفجور أنهم تصوروا شيئا زريا ضعيفا فظنوا أنه هو التقوى والصلاح ، ثم استرسلوا مع هذا الظن فسموا هذا الحق تقوى وصلاحا ، ثم رتبوا على ذلك هذه النتائج التى تصوروها هم ولم يفهموا معنى التقوى والصلاح بالمعنى الصحيح الذى هو القوة فى الأخذ بالأخلاق الدينية والصدق والاخلاص فى هذا المبدأ وما يلزمه من الأمور الدنيوية التى سار عليه النبى ﷺ وأصحابه فى الجد والاجتهاد والدهاء ومعرفة أحوال الزمان وأهله وما يلائمه وأمثال ذلك . والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا ، وقد أخبر تعالى عن ابن نوح أنه لجأ الى السبب المادى من دون الله معتمدا عليه وقت حاجته فقال ﴿ سآوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ فما نفعه هذا السبب القوى الذى لجأ اليه ، وقد أخبره نوح عليه السلام أنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، فأنكر عليه أبوه التجاءه الى هذا السبب المادى فى تلك الساعة فانه اذا جاء أمر الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولا يرد أمر الله ولا غيره ، وهو عليه السلام ركب السفينة اقتداء بأمر الله ، واستعمل الدعاء فقال بسم الله مجراها ومرساها ، لأن السبب المادى لا يكفى بدون السبب الدينى ، وقال تعالى ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله

أنصاراً الى أمثال ذلك وهذا كله شامل لجميع الأسباب ، فدعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم هى ضد الاعتماد على كل شىء دون الله عز وجل من جميع الأسباب ، وحصر الاعتماد على الله سبحانه وتعالى فانه هو الذى يتصرف فى الأسباب كيف شاء

ثم قال بعد العبارة السابقة « بل كان التاريخ الاسلامى قبل أن ترتديه هؤلاء قائما على الاعتراف بطبائع الأشياء ، ولم ينكر طبيعة من طبائعها »

فيقال : لكنك خالفت التاريخ الاسلامى كله ، فانك تجاوزت حد الاعتراف الى الاعتماد على الطبيعة ونواميسها ، فدعوت الى ذلك ، وليس النزاع فى ثبوت الطبائع إنما النزاع فى الدعوة الى الاعتماد عليها ، وأن الله لا يغير فيها ولا يتصرف فيها ، ثم إنك مطالب باثبات ما تدعيه فى هذا التاريخ وكونه على النحو الذى تدعو اليه وقد بينا أقوال أئمة الاسلام فى ذلك وان ذلك على خلاف ما تدعيه وتدعو اليه .

فصل

قال « ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان أحدهما أنهم حسبوا أن الايمان بقدرة الله المطلقة فى تصرفها وعملها ينافى الايمان بالأسباب وحسبوا أنهم اذا آمنوا بالسبب (١) فقد قيدوا الله به وألزموه بأن لا يخرج عنه وأن لا يعمل بدونه ، والله عندهم (٢) غير مقيد فى فعل من أفعاله ، بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام (٣) . وثانيهما أنهم وجدوا

---

(١) قد علمت مما مر أنه لا يكتفى بالايمان بالسبب ، بل لا بد من الاعتماد عليه ، فكان من الواجب عليه أن يقول اذا آمنوا بالسبب واعتمدوا عليه

(٢) يلاحظ قوله « عندهم » هنا

(٣) يلاحظ هنا قوله « بلا قيد ولا إلزام » فعنده أنه مقيد وملزم ، وأما السبب فقد بينا أنه تعالى يفعل بالأسباب وليس الفعل بالأسباب كالقيد والالزام فان القيد والالزام نوع من القهر ، وأما الفعل بالأسباب فهو كمال لأنه يوجب أن تكون المخلوقات كلها خاضعة له طوع إرادته كلها بأسبابها

المسببات كثيرا ما تتخلف عن أسبابها ، ووجدوا أن الانسان قد يؤدى السبب على الوجه الأوفى الأكمل فيما يبدو ، ثم لا يصل به ذلك الى غرض منشود ، كما وجدوا أن العكس أيضا صحيح ، أى وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب[١] هذان أمران هما أعظم ما صار بالقوم الى هذا المصير فى حكمهم على الأسباب وفى تراخيهم عند الأخذ بها وفى شكهم فيها ، ذلك الحكم والتراخى والشك الذى جعلهم عاجزين عن الاتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة الى مسبباتها . . . ومن أخذ بالسبب شاكا فيه متراخيا فى أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم[٢] لأنه لن يتقنه ، ولن يثابر ويصابر عليه ولن يبدع فيه ، بل لا بد من الايمان به مع الاصرار على هذا الايمان وإلا فلا نجاح ، ولا بد من الاتقان والمثابرة والمصابرة على العمل ، وإلا فلا أمل فى فوز حقيق ، ولا بد من تقليب الرأى على كل وجوهه بحثا عما يمكن أن يكون قد دق من خفى الأسباب وضروب الوسائل »

فيقال : كل هذا الذى ذكرته هنا من الاعتذار عن بلوغ المسببات مع استعمال أسبابها مع ما ادعيته من المثابرة والمصابرة والاجتهاد والاصرار كله قد تقدم معناه مرارا وأجبنا عليه بما تقدم ، فانه معارض بمثله فى مسألة الأسباب الدينية التى حاربها فادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها نتائج سوى الشر والتعويق والملهاة ، فاذا كان معترفا هنا بان المسببات تتخلف عن نتائجها لموانع وعوارض ولتخلف بعض الشروط فكيف يغلو فيها هذا الغلو الذى تجاوز به الى حد الجنون والكفر ولم يكن هذا التخلف مانعا له عن هذا

---

(١) هذا كذب ظاهر

(٢) يعارض بمثل هذا القول فى الأسباب الدينية كالدعاء وإجابته سواء بسواء ، فلم عادى هذا وعبد هذا

الاطراء والمغالاة الزائدة والاعتماد عليها والاهتمام بها ، وأما دعاء الله والثناء عليه والصلوات فى المساجد والايمان والتقوى ونحو ذلك من الأسباب الدينية التى عاش فى أثرها الخلق فذهب فيها الى عكس ذهابه فى الأسباب المادية فحاربها وعاندها وعاكسها أشد المعاكسة والعناد والحرب حتى نفى سببيتها أصلا فلم يجعلها وسيلة ولم يجعل لها فائدة بل حكم عليها بأنواع الضرر والخبث مع علمه بأن الأسباب الدينية لو كانت تستعمل ويجتهد فيها كما يجتهد فى الأسباب المادية لما كاد أن يتخلف شىء من نتائجها ألبته بل هى تستعمل غالبا إما ضعيفة وإما معكوسة أو مقلوبة أو ملوثة بما يفسدها ويضعفها ، بل كثير منها يستعمل مقرونا بما يضاده ويبطله كالأحزاب التى يخلط فيها ذكر الله ودعاؤه بدعاء غيره من الأموات والغائبين من الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات أو لكشف الضر وهذا كفر واضح

فما أجاب عنه هنا على تخلف الأسباب المادية فهو جوابنا عليه فى تخلف بعض نتائج الأسباب الدينية كالاجابة فى الدعاء أحيانا . ومعلوم أن كل سبب فى الوجود لا يمكن بحال من الأحوال أن تحصل نتيجته إلا على حسب كماله وكمال شروطه وانتفاء موانعه واستعماله على الوجه الصحيح المطلوب منه كما أوضحنا هذا فيما سبق ، سواء كان ذلك السبب ماديا أو كان دينيا فالمغالاة فى هذا وحصر الخير فيه والمعاداة لنظيره من هذه الجهة ومحاربته والتنفير منه هوس ظاهر وجنون واضح . ثم إن ما ادعاه هنا تخرص وتمحل ليس عليه أثارة من علم ولا نظر صحيح ، فهو دعوى مجردة عن أدنى دليل يصحبها ، وأكثره باطل وكذب . وأما نحن فى دعوانا فى الأسباب الدينية فقد دلت النصوص الصريحة والاستقراء التام أن للايمان والعمل الصالح والتمسك بالشريعة المطهرة أكبر الأثر فى حصول المطالب العالية ، وأن من استعمل الأسباب المادية وهو على هذه الأخلاق فلا بد أن ينصر ويؤيد وتكون له العاقبة الحميدة كما تقدمت الشواهد على ذلك كقوله تعالى ﴿ فمن آمن وأصلح

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ﴿ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ولم تتقدم أمة من الأمم قط إلا على أخلاق صحيحة سامية أساسها العدل والاحسان اللذان هما من ثمرات الدين والايمان ، ولم تتأخر إلا بعكس ذلك كالهمجية والوحشية التى هى من نتائج النفاق والالحاد . ثم ان حاصل كلامه أن أسباب فشل الأسباب أحيانا هو كون أهلها لم يعملوا عمل من يحزم بالنجاح ويبذلوا الغاية فى الاجتهاد والاصرار ، وإلا فلو فعلوا ذلك لنجحوا . ومعلوم أن هذا اعتذار ساقط ، فانه يقال له هم أعرف منك بأعمالهم وبالأسباب التى باشروها وحرصوا عليها وتخلفت نتائجهـــا فقد بذلوا دماءهم وأموالهم وفعلوا كل ممكن كما أقروا بذلك وكتبوه وسجلوه وهو أمر معروف بالحس والعيان فلا يقبل الجدال حتى جعلوا ذلك من مسائل القدر وكثير من هؤلاء الذين فشلت نتائجهم من أحرص الناس واذكاهم وأدقهم فطنة فى معرفة الاسباب ، ومع ذلك فقد سبقهم من هو دونهم ، ممن استعمل أسبابا دون أسبابهم وعمل عمـلا دون أعمالهم ، وكل هؤلاء معترفون بأنهم لم يستعملوا الاسباب الدينيـة كمـــا يستعملون الاسباب المـادية فى الاجتهـاد والصدق والاخلاص ، فكلهم إلا من شاء الله يعلم أنه مقصر فى ما أمر به من الطاعات ولهذا كانوا يعترفون بالذنوب أكثر مما يعترفون بالتقصير فى استعمال الاسباب المادية ، وكم من انسان معه من الاسباب الـكثيرة التى تؤهله للتجارة والامارة والسيادة والمناصب الـكبرى وقد بذل جهده للوصول الى ذلك فلم يصل الى شىء مما وصل اليه من هو دونه بكثير ممن لم يستعمل غير بعض أسبابه التى عملها للوصول الى ذلك ، وهذا المعارض قد اعترف بذلك فى أبيـاته السابقة حتى ادعى أن العقل ضرب من الفقر ، بل ادعى أن الذكاء والعلم مما يوجب التأخر وأن الجهل سبب للسيادة فى الدنيا ويكفى أن يقال له أنت ادعيت لنفسك بانك المستحق للتقديم فى كل أمر [1] وقد بذلت أعظم الجهـد للوصول الى وظيفـة

(١) كما تقدم كلامه

واحدة أو منصب رسمى فما حصل لك من ذلك شيء ، فما سر هذا وما سببه ؟
ودعواه أن الاصرار على بلوغ الغاية سبب فى بلوغها ليس بصحيح فان كثيرا من الدول المغلوبة أصرت غاية الاصرار ولم يفدها ذلك شيئا وكثير من الناس يصر على بلوغ مراده حتى يكاد أن يموت ولا يحصل على طائل . ثم انك لم تجب على العكس الذى ذكرته من أن بعض الناس ينال حاجته من غير سبب أو بسبب ضعيف ، فما هو السبب فى تركك ذلك وهو يبطل كلامك فى عكسه

ثم قال « وليس من ريب فى أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لانهم لا يجربون كل الاسباب والوسائل ، بل انهم اذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم ولصقوا بالتراب والذل والمسكنة حاسبين أنه لم يبق لهم مكان فى هذا الوجود وذهبوا يبكون أقدارهم وحظوظهم ويلعنون أيامهم وأقوامهم ، ولا شك أن نجاحهم كان مضمونا ومحققا لو أنهم أعادوا الكرة وأصروا على الوصول الى الغاية »

فيقال : ينبغى أن تبعث ضمانك هذا الى هذه الدول والحكومات المهزومة ، فانك ضمنت الضمان المحقق أنهم لو أعادوا الكرة وأصروا على الوصول الى الغاية لوصلوا . وهذا الرجل يكتب ما خطر على باله ولو كان فى غاية البطلان فليست إعادة الكرة والاصرار بدون حساب ورأى صحيح إلا مجازفة قد تؤدى الى الهلاك والدمار ، فاعادة الكرة ليس بالأمر الهين الميسور على كل من رامه ، ولو كان الأمر كما قال لبادر كل من هزم الى ذلك بدون توقف

ثم قال « ولا ريب أن من أخطا الهدف فى الرمية الأولى سيصيبه اذا كرر الرميات وعاودها مرات ، ومن المعلوم أن بلوغ قصب السبق لا يكون فى الوثبة أو الخطوة الأولى ، إنما يكون فى تكرير الخطوات والوثبات ، وفى معاودة شد الاعصاب والعضلات »

فيقال : هذا المثل غير مطابق ، فان إصابة الهدف إنما تحصل إذا كان الساعد

سليما والسلاح صحيحا والهدف فى مكانه يمكن إصابته ، أما من انكسر ساعده وسلاحه وبعد هدفه فلا يقدر أن يرمى فضلا عن أن يكرر الرميات فضلا عن أن يصيب . وكذلك لو انكسر سلاحه فقط لا يمكنه تكرار الرمى فضلا عن الإصابة . وكذلك لو كان السلاح معيبا عيبا يمنع الرمى فلا بد من جبر الساعد وتصليح السلاح وتحقيق الهدف ، وقد يعجز الانسان عن الجبر وعن تصليح السلاح لكثرة التعثر والموانع والعوارض ، ثم العدو ليس هو كالهدف واقف لكل من يريد رميه كل وقت ، بل العدو اذا رميته مرة وأخطأته فقد يرميك فيصيبك فالطريقة أن تعرف الموازنة بين سلاحك وسلاحه وتتثبت فى رميتك الأولى فى القضاء عليه قضاء حاسما ، ولا شك أن من هزم هزيمة شنيعة منكرة أنه يكسر سلاحه بل وساعده فيحتاج الى معالجة طويلة لاعادة ما فقده ، فالقوة الاولى يجب أن تكون موزونة محققة .

وكذلك ما ذكره من السبق فغير مطابق ، فان قصة السبق لا تبرح مكانها ولا تنقلب على من لم يصل اليها ، والعدو ليس كذلك ، فانه اذا استولى على أثر هزيمة شنيعة فقد يضع أغلالا وقيودا تمنع من المشى الى الهدف كما تمنع من شد الأعصاب والعضلات ، فيحتاج الى السلامة من هذا كله ، ولكن الذى قد ينفع ويدفع هو أن ينظر من أصيب بالهزيمة فيعرف من أين جاءت ، وما أسبابها ، وما هى الأسباب التى قضت عليه ، وكيف كانت الهزيمة ، وكيف استولى العدو عليه ، فيحسب الحساب ويوازن بين الأسباب ويعالج مرضه بالعلاج الناجح الذى يستطيعه حتى يعرف كيف يمكن أن ترجح كفته اذا هم بالوثوب مرة أخرى . ومعلوم أن أقوى قوة فى الوجود هى القوة العليا الجبارة القهارة فيستمد منها قوته وليصنع من نظامها قوة عظيمة ويعلم أن الله قد وضع بين يديه أسبابا لا تعد ولا تحصى ، وفتح له الباب يدعوه ليستعين به ويعتمد عليه ، فيجب عليه أن يأخذ بهذه القوى الدينية والمادية بثبات وتفكير وبصيرة نافذة ، ويدعو من وضع هذا له ويعلم أنه هو ومن يحاربه تحت قدرته

تعالى ومشيئته ، وأنه محق وأن عدوه مبطل ، وأن الله أمره بالدفاع والقتال بالمعنى الشرعى ، وأنه إنما أمره وأعطاه هذه الأسباب ومكنه منها لينصره ويؤيده ، فان فاته النصر حصل على السعادة ، فلا بد له من إحدى الحسنيين بكل حال ، فاذا أجمع أمره فليتوكل على خالقه وليعتمد عليه والله مع المتقين والعاقبة للمتقين والله ولى المتقين . أما اذا رجعت المسألة الى تنافس وبغى وعناد وحقد ومحاماة عصبية قومية محضة ونحو ذلك فتلك أمور أخرى قل أن يظهر لها نتيجة صالحة فاكبر ما تكون عقوبة على أهلها (ولا ظالم الا سيبلى بظالم)

فصل

ثم أجاب عن الأمر الأول ، وهو الايمان بقدرته تعالى على حسب ما ذكره سابقا فقال « أما الايمان بقدرة الله المطلقة من القيود والحدود فانه يقتضى الايمان بالسبب لا الكفر به ، لأن الايمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بمسببه وصاحبه ، والكفر به كفر به »

فيقال : ما شاء الله يابلعام هذا الوقت ما أدق فطنتك ، من أين وجدت أن الايمان بقدرة الله ومشيئته هو الايمان بأنه مقيد بأن لا يخرج عما طبعت عليه الأسباب فلا يتصرف فيها بمشيئته وقدرته فلا يدبرها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، فان ذلك هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . من أين وجدت أن الايمان بالأسباب بأنها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو لتتحكم فى نهاياتها ، أن ذلك هو الايمان بقدرة الله ، فاذا كان الايمان بقدرة الله هو الايمان بعجز الله عن تغيير الأسباب والتصرف فيها عندك فتبا لك وسحقا كأنك تخاطب بهذا الهذيان أنعاما لا رجالا عقلاء ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجدت أن الايمان بالأسباب المادية ايمان بمسببها والكفر بها كفر به ، فعلى هذا فجميع المسلمين كفار لأنهم لم يؤمنوا بها . هذا

الايمان الذى تدعيه ، فقد قلت فيما سبق أساء المسلمون الظن بالأسباب إلخ ، وقد ذكرت أنهم لم يؤمنوا بالأسباب ، والملاحدة آمنوا بها فهم المسلمون اذن [1] . وقد قال تعالى ﴿ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فكل من آمن بالأسباب ـ وكل ما فى هذا الوجود هو من أسباب الله كما يقول ـ فهو ممن آمن بالله ورسله فهو فى الجنة ، فالملاحدة والطبائعيون وكل من آمن بالطبائع فهم المؤمنون بالله ورسله ، وأما المسلمون الذين أساءوا الظن بالأسباب وأكثروا من القول بتقليل قيمتها كما يقول فهم لم يؤمنوا بالله ورسله بل أساءوا الظن بالله لأن الايمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بالله وإساءة الظن بالسبب إساءة ظن بالله . يا الدر الذى فى لجج البحر ، يا الشمس التى فى غير برجها ، يا عالم الشرق الأوسط ، من آمن بالأسباب فهو فى الواقع مؤمن بالله ، فما هو الفرق بين الايمان بالله والايمان بالسبب ، فمن قال آمنت بالله فقد آمن بالسبب ومن قال آمنت بالسبب فقد آمن بالله . إنه لمن الغريب جدا أن تتكلم فى الاتحادية الصوفية وأن تسفه آراءهم وقد اضطررت الى مثل هذا القول الذى هو فى الاتحاد أظهر مما قالوه بكثير ، بل أكثرهم يحتشم ويستحى من أن يقول مثل هذا القول .

الله أكبر يا بلعام هذا الوقت ، من آمن بأن الكلب يصيد الأرنب بطبيعته وأن الذئب يأكل النعجة بطبيعته فهو مؤمن بالله مؤمن بقدرته ، ومن كفر بذلك فقد كفر بالله ، ومن شك فى ذلك فقد شك فى قدرة الله ، ومن أساء الظن بذلك فقد أساء الظن به ، ومن آمن بأن الذكاء سبب فى الحصول على النجاح والعصمة من الفشل فهو مؤمن بالله تعالى مؤمن بقدرته ومن شك فى ذلك فقد شك فيه وفى قدرته ومن كفر بذلك فقد كفر بالله وهكذا عندك جميع الأسباب المادية ، أما من آمن بأن الدعاء سبب للاجابة وأن ذكر الله على المنابر والثناء عليه سبب فى

(١) وقد ذكر فيما سبق أن الشعوب الأخرى إنما تقدمت لأنها آمنت بالأسباب.

نزول الرحمة والنصر والتأييد فهو الضال الجامد الرجعى الجاهل الذى فعل الشر والخبث والظلام والدمار ، فسحقا لك ما أكثر مخازيك وفضائحك ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون

ثم قال « والشاكون فى أسباب الله - وكل ما فى هذه الدنيا هو من أسباب الله - هم فى الحقيقة شاكون فى الله وفى عمله ، فان هذا الشك معناه الشك فى قدرته تعالى على أن يجعلها موصلة مبلغة »

فيقال : ﴿ وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ﴾ هكذا تكون آيات الحقائق الأزلية الأبدية وإلا فلا حاجة اليها . هذه حلقة مفرغة من حلق هذه السلسلة الخاطئة : فى بيان الايمان بقدرة الله أنه الايمان بالأسباب . والمصيبة أنه جعل كل ما فى الوجود من أسباب الله التى يجب الايمان بها على هذا النحو ، فمن آمن بأن القمل يتولد فى جسم الانسان بسبب الوسخ ونحوه فقد آمن بالله وقدرته ، وهكذا جميع الأسباب والمسببات ، فمن آمن بها فقد آمن بالله تعالى ، وكذلك من آمن بهذه الحشرات المتنوعة وطبائعها وكذا غيرها فقد آمن بالله فان هذه كلها فى هذا الوجود - ولو أن الدجوى قال شيئا من هذا القول لقامت قيامة هذا الملحد عليه ، فأما عالم الشرق الأوسط ونابغة القرن الرابع عشر وبحر العلوم الذى لا ساحل له فانه قرر أن الايمان بالله هو الايمان بالأسباب وكل مافى هذا الوجود هو من أسباب الله فالنبى ﷺ حين قال فى تلقيح النخل ما أظن ذلك يغنى شيئا فتركوه لذلك لم يؤمن هو وأصحابه بالله تعالى بزعمه بل هم شاكون مرتابون فيه تعالى وفى قدرته ، فانهم لم يعتقدوا بأن هذا السبب مربوط بسببه ربطا لا يمكن انفكاكه أبدا ، وان ذلك مستحيل وكذلك كل من شك فى أن الماء يروى بطبعه والطعام يشبع بطبعه وأن الكلاب تصيد الصيد بطبعها وأن الحمير تنهق بطبعها وأن الضب يستغنى عن شرب الماء بالهواء بطبعه وأن العلم والذكاء يوصل الى النجاح بالطبع كل من

شك فى هذا فقد شك فى الله وفى قدرته ولم يؤمن بالله ، لأن الايمان بالاسباب — وكل مافى هذا الوجود من الأسباب — هو فى الواقع ايمـــان بالله ، هكذا يكون نور الشمس التى فى غير برجها ، وهكذا يكون لمعـان الدر الذى فى لجج البحر ، وهذا القول أشنع وأبشع مما يعتقده المشركون فى الأصنام والأوثان مدعين أن عبادتها عبادة لله ومدعين انها اسباب للنجاح إما بالوساطة وإمـــا بالذات ، فهم بكل حال مؤمنون بأنها أسباب ، فمنهم من يجعلهـا واسطة ومنهم من يعتقد فيها بنفسها الـكفاية ، وهـــذا الملحد نفسه قد ادعى أن أوربا قد وحدت صناعتها وأبت الاشراك بهـا ، فمن التجأ الى الصناعة أو الزراعـة أو التجارة أو غيرها معتمدا عليهـا بأن فيها الـكفاية فقد آمن بالله وقدرته عـلى كلام هذا الملحد ، والـكفار المشركون على عظم كفرهم لم يصلوا الى هـــذا الحد فيدعوا أن الايمان بالأسباب هو الايمان بالله ، بل هم يؤمنون بالله تارة وبأسبابهم تارة ويشركون بها ويفرقون بين الاعتماد عليه تعالى والاعتماد على أسبابهم ، فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولم يدعوا أن إيمانهم بالأسباب هو عـين إيمـانهم بالله لأنهم لم يصلوا فى الزندقة والنفاق والـكفر والالحاد إلى الحد الذى وصل اليه هـذا الزنديق الذى حاول قلب شرائع الله والطعن فى صميمها . وهذا الملحد قد فقد كل مناعة من عقل ودين وحياء فتكلم بكل ما خطر على باله ، ولو أنه سلم من هذا الجواب لكان أستر له ، ولـكنه أراد قلب الحقيقة فانقلب على وجهه وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . ثم انه قد تناقض فقد مرّ أنه كفر بالأسباب الدينية وادعى أنهـا شر مـا يؤدى ، أما الايمـان بامتثال أوامره الشرعية وكون ذلك سببا فى دخول الجنة فليس ذلك هو الايمان بأسباب مخلوقة بل ذلك هو تصديق الله فيما وعد به أولياءه والاعتماد عليه فى ذلك ، لأنه سبحانه وعد من آمن وعمل صالحـــا بالفوز والنجاة كما قال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا

وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ﴾ فهـذا ايمان به وبأسبابه الدينية والتصديق به حيث أمر بذلك وليس فى النصوص حرف واحد يوجب القول بأن من آمن بالأسباب كلها التى فى هـذا الوجود يكون مؤمنا بالله ومن شك فيها فقد شك فى الله وكفر به . وقد تقدم حـديث تأبير النخل وهو كاف فى بطلان دعواه . ثم اننا لا نجزم على معين بأن عمله سبب فى دخول الجنة حتما وأن هذا السبب متحقق مسببه ما لم يكن فى ذلك نص خاص ، فالايمان والتقوى والعمل الصالح هى من الأسباب لدخول الجنة ، لكن الشهادة بكون هذا السبب المعين لا بد من وقوع مسببه لا يمكن ، فقـد يكون هنالك موانع وعوارض توجب عدم حصول النتيجة ، بل قد يصحب العمل الصالح إعجاب وكبر وزهو فيبطله ويقع ضده كما فعل بلعام وغيره من المرتدين ، فامتثالنـا أوامر الله هو أخذ بالأسباب الدينية التى تقع مسبباتها بحسب سنة الله فى خلقه ، ولـكن حصول المسببـات لا يتحقق فى أسبـاب معينة بجهول ما يصحبهـا ويعارضها من الموانع ، ونحن انما نؤمن بوقوع مسببات هذه الأسباب وانها سنة لأن النصوص دلت على ذلك دلالة صريحة ، بخلاف الأسباب المادية فان أكثرها عرف بالعقل وفيها كثير قد دل العقل على تخلف مسبباتها عن أسبابها بل قد تنقلب الى ضدها فتكون واقعة على وجهة أخرى غير الوجهة المقصودة ، وليس الايمان بالأسباب الدينية كالايمان بالأسبـاب الدنيوية ، فان من آمن بالأسباب الدينية حـكم بايمانه وكان هـذا عاصمـا له فى الدنيـا ولم يسأل عن الأسباب المادية ، بخلاف مالو آمن بالاسباب المادية فانه لن يدخل فى الاسلام حتى يؤمن بالاسباب الدينية ، فالفرق بينهما واضح جلى ، ومن جمع بينهما وجعل أحدهما عين الآخر فهو فى غاية الضلال والـكفر

ثم قال « والتقيد بالـكمال والخير والحـكمة والعدل ليس قيـدا إلا فى لغـة هؤلاء ، فيقال أولا : لا نسلم أن ما ذكرته كمال وخـير وحكمة وعـدل ، وقد

عرفنا مرادك بالعدل والحكمة وأنه التسوية بين المسىء والمحسن والمفسد والمصلح ومعلوم أن هذا ليس من العدل والحكمة فى شىء بل هو عكس ذلك

ونقول ثانيا : ليس لأحد أن يقيد قدرة الله تعالى بتحكمه وهواه ، بل هو سبحانه قد أخبر صريحا بأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وانه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه كل يوم هو فى شأن ، وأنه يدبر الأمر ، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وكل ذى مسكة من عقل يعلم أن ما ذكرته فى كل هذا الخداع لا حكمة ولا عدل ولا خير فيه ، بل هو عين الخبث والشر والفوضى والظلم العظيم ، وكيف يكون العدل والحكمة فى دعواك أن العالم محكوم بنواميس الطبيعة وأن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس بعلمه وملكته وأمثال هذه الترهات الفاحشة ، فمن اعتقد أن أمور العالم كلها تجرى بمقتضى استخدام الانسان لنواميس الطبيعة فقد سلب الله تصرفه ومشيئته وإرادته ، بل اعتقد الفوضى والسفه الذى لا ريب فيه

ودعواه أنه ليس هذا قيدا إلا فى لغة هؤلاء ، ولو كان قيدا لكان مدحا فيقال : وليس النقص والفوضى والعجز كما لا إلا فى لغتك ، لأن ذلك لا يتأتى إلا على اعتقادك فى زندقتك وإلحادك .

ثم قال « أما تخلف الأسباب عن المسببات فهذا لا يكون أبدا »

فيقال : هذا تحكم باطل ورجم بالغيب وتكذيب بما لم تحط به علما . فنفيك له يحتاج الى برهان ، ويكفى فى تكذيبه ثبوت المعجزات ، فان انقطاع الاحتراق من النار تخلف مسبب عن سببه الكامل ، وكذلك غير هذه المعجزة مما لا يعد ولا يحصى ، وتأكيدك النفى بالتأبيد فجور واضح بل جماهير الملاحدة مقرون بأن المسببات تتخلف عن أسبابها ويسمون ذلك فلتات الطبيعة ، فقد تبين رد باطلك بما اعترف به سادتك من التخلف كما أشار إلى

ذلك السيد محمد رشيد رضا فى الوحى المحمدى وغيره [1] بل العامة تعرف ذلك معرفة ترتفع عن الجدال ، ولهذا يحتجون بالقضاء والقدر ويذكرون الحظ الذى تجده فى فم كل إنسان فكيف تنكر شيئا لم تعلمه ، ومعلوم أن عدم العلم ليس علما بالعدم بالاتفاق

فصل

قال « ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فانه إنما يقع حيث تجتمع الأسباب وهى إما الأمراض وإما عجز الخلايا [بسبب] الشيخوخة ، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه أو لأمر داهم مفاجىء »

فيقال : هذا كلام لا حاصل له سوى أن الموت إنما يقع اذا وقعت أسبابه ، وهو من جنس كلامك الماضى فى البذر أنه يخرج إذا اجتمعت أسبابه ، وكأنك تظن أن خصومك يدعون ان الموت لا يقع بالأسباب ، فإن كان هذا ظنك - وما هو على غباوتك ببعيد - فنحن نخبرك بأنهم يقولون انه يقع بأسبابه ، وقد بينا غير مرة أن الله تعالى يفعل بالأسباب ويوجد

---

(١) قد ذكر الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى كتاب (الشواهد) كلاما كثيرا لعلماء الطبيعة المشهورين فى اعترافهم بتخلف الأسباب عن المسببات وأن هذا أمر معروف عند علماء المادة فنقل عن جيمز الانجليزى مؤلف كتاب (النجوم فى مسالكها) وكتاب (الكون الغامض) وهو دكتور فى الآداب ودكتور فى العلوم وعضو المجمع العلمى البريطانى وقطب من أقطاب العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية فنقل الشيخ عنه كلاما طويلا فى الشواهد من ص ٢٦ الى ٣٥ فى إثبات تخلف المسببات عن أسبابها وأن النتيجة ليست حتمية ، وأثبت القضاء والقدر ، ونقل عن غيره كلاما كثيرا فليراجع .

بعض الأسباب ببعض ويصرف الأسباب بعضها ببعض وان الله يرزق بالأسباب ويحيي بالأسباب ويميت بأسباب ويفقر بأسباب ويعز بأسباب ويذل بأسباب ويؤتى الملك من يشاء بأسباب وينزع الملك ممن يشاء بأسباب قال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ وكونه يفعل بالأسباب أعظم فى القدرة لأن هذا يقضى أن الأسباب كلها فى قبضته وطوع مشيئته وإرادته وأنها كلها مقهورة بالمشيئة العليا لا يمكن أن تفلت من حكمها ، وهذا القول لو قيل لمن لا يرى أنه يفعل بأسباب فربما كان له وجه ، واذا كان مرادك أن الاسباب نفسها هى علة الموت عاد الكلام فى مسألة نواميس الطبيعة وقد تقدم الكلام فيه مرارا وبينا أن الطبيعة ونواميسها وقواها كلها تجرى بارادته تعالى ومشيئته ، واذا كنت تريد أن ذلك الفعل هو فيها لذاتها ليس بالمشيئة والارادة - وهذا هو مرادك - فهذا الحاد صريح فلا حاجة الى الخداع وكثرة التناقض والاسهاب والاطناب ، فصرح به مجاهرة ودع الخداع والمنافقة جانبا لتعرف عاقبته . ثم يقال لك ما أسباب المرض وما أسباب أسبابه وما أسباب عجز الخلايا فى وقت دون وقت وما سبب عجز القلب عن تنظيم نبضه وما سبب الأمر الداهم المفاجىء فهل أحد يحيط بذلك ويمكنه ازالة هذه العلل وجعل البدن مستقيما على الحالة التى بها يعيش ويحيي حياة صالحة ، أليس ذلك كله راجعا الى أمور غيبية ليس للبشر قدرة على الاحاطة بها وإدراك الغاية فيها ، ثم إن الموت قد يحدث فجأة [1] وقد يحدث من مرض ضعيف جدا كما أنه قد لا يقع فى وجود المرض المخوف فما أسباب هذا التفاوت . ثم انه قد علم أن الأسباب التى يموت بها البشر لا يعدها ولا يحصيها الا الله تعالى ، وهذا واضح جلى فى

---

(١) قد مات كثير من الناس وهو جاحد وفيهم من مات وهو فى حالة صحية جدا فيأتيه الموت فجأة

عجز الانسان عن ضبط الاسباب فكيف بالقدرة على استخدامها كلها فى كل ما شاء وأراد

ثم قال « أما الآيات التى تنص على آجال الأفراد والامم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها ، فهى كذلك أيضا ، لأن حلول الأجل معناه اجتماع الاسباب واجتماع الاسباب معناه حلول الاجل »

فيقال : نعم هذا معناه فى لغة أغلالك لأنك تريد أن تجعل لك لغة مفردة فيها ، لانك المقدم فى الأمر ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجدت أن معنى الأجل هو اجتماع الأسباب ، وهذه قواميس لغة العرب لا تعد ولا تحصى ، وهى تكذب هذه الدعوى ، وقد قال تعالى ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ فهل يقول عاقل : ولولا اجتماع الاسباب لجاءهم العذاب . وقال تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ فهل يقول عاقل إن معنى هذا الأجل هو اجتماع الأسباب ، وهل فى لغة العرب أن هذا معنى الأجل ، وفى حديث ابن مسعود المتفق على صحته « فيكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد » ويقول المسلمون : اذا جاء الأجل المسمى ويذكرونه فيعينون الوقت والزمان المحدود ، ويقول العلماء يصح بيع السلم الى أجل مسمى ، فالأجل فى جميع اللغة هو الوقت المحدود المعلوم ليس هو اجتماع الأسباب وهذا الوقت قد تجتمع فيه الأسباب وقد لا تجتمع فانه الوقت الذى تكون فيه مفارقة الروح للجسد ، وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ فاخبر تعالى أنه لا يمكن لنفس أن تموت الا باذنه فى وقت مؤجل قد كتبه الله وحقيقة كلام هذا الملحد يقتضى ألا يكون معنى الآية فاذا جاء موتهم لا يستأخرون ساعة عن موتهم ولا يستقدمونها ، وهذا باطل ، وانما يصح المعنى اذا كان الأجل هو الوقت المحدود فانه يصح حينئذ أن يكون المعنى اذا جاء وقت موتهم أو هلاكهم لا يستأخرون عن هذا الوقت المحدود ساعة ولا يستقدمون ، ويدل على هذا أنه ذكر الساعة ، ومعلوم أنها الوقت

المحدود . ثم اجتماع الأسباب يختلف اختلافا لا يحصى ، فقد تجتمع أسباب ويتأخر الميت ساعات وأكثر من ذلك ، واذا قيل المراد الأسباب المقتضية للموت قيل هذا يوجب أن يكون الأجل اسما لأسباب دون أسباب ، وهذا كثير لا ينضبط ولا يسمى اجلا مطلقا فى جميع اللغة كما تقدم

وقوله « فمن صدمته سيارة فقد حل أجله »

يقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، فاننا نقول قد تصدمه ولا يموت كما يقع كثيرا ، لانه حينئذ لم يكن قد حل الوقت الذى هو أجله . ثم إنه إذا كان موته بصدمة سيارة فانها لا يمكن أن تصدمه قبل الوقت الذى هو أجله فلا يستقدم الأجل بصدمة سيارة يموت فيها ولا يستأخر ، فليس نفس الموت بالصدمة هو الأجل ، بل هو الوقت الذى تكون فيه الصدمة فلا تصدمه إلا حين حلول الأجل الذى هو الوقت بمشيئته تعالى

ثم ذكر أن بعض الناس يعتقد أن بعض الأمم تسقط بدون أسباب ، وأن أمما أخرى قد تنهض بدون أسباب ، وذكر أن بعض الناس يقول إن بعض الأمم تشيخ كما يشيخ الافراد وأطال من هذا الهذيان ، وقد تقدم الجواب عن مثل هذا

ثم قال « وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة ـ وهى فكرة إنكار الأسباب أو التهوين من شأنها أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها (١) . وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها »

---

(١) هذا صريح ظاهر فى غاية الوضوح والجلاء بانه يدعى أن الله لا يحول بين الأسباب ومسبباتها ولا بينها وبين نهاياتها ، وهو كفر صريح واضح ، لانه انكار لتصرف الله فى ملكه كما أنه تكذيب بالمعجزات وإبطال للشرائع ، فاى فعل لله اذا كان لا يتصرف فى الأسباب بقطع أو وصل أو غيره

فيقال : أما إنكار الاسباب والتهوين من شأنها فقد بينا أن هذا كذب ظاهر . وأما اعتقاد أن الله يتصرف فيها بالقطع والوصل ويحول بينها وبين نهاياتها فهذا هو اعتقاد المسلمين بل وأهل الملل كلهم ، ممن يقر بالخالق تعالى كما تقدم إيضاحه ، فهذا الملحد صرح فى هذا بأنه تعالى لا يحول بين الاسباب ومسبباتها ونهاياتها أبدا وهذا تصريح ظاهر فى إنكار كونه يتصرف فيها بقطع أو وصل ، وأنت اذا تأملت قوله هذا ونظرت الى قوله فى المشكلة التى لم تحل « والانسان لن يكون سببيا إلا إذا آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهاياتها » علمت أنه يريد أنه ليس لله أن يقف فى سبيلها ويتحكم فى نهاياتها ، وهذا صريح فى ان النجاح لا يمكن إلا لمن كفر بتصرف الله فى ملكه وكفر بكونه يحول بين الاسباب والمسببات وبين الوسائل والنتائج ، فما دام الانسان لم يكفر بمشيئة الله بالقطع والوصل فانه لن ينجح لانه لن يكون سببيا ، وأى كفر فى الدنيا أظهر من هذا فقبحه الله ما أخبث كلامه وقبح ما جادل عنه . وهذا كما أنه كفر صريح يقتضى إبطال النبوات وإبطال الكتب السماوية بل إبطال الاديان كلها ، فهو كلام ساقط ، فان أكثر الملاحدة أنفسهم يخالفون فى هذا ، فانهم معترفون بوجود انقطاع المسببات عن الاسباب كثيرا ويسمون ذلك فلتات الطبيعة ، وفساد هذا القول فى الشرع والعقل والضرورة أمر واضح ، ومن يخفى عليه فساد هذا فهو مصاب فى دينه وعقله ، ولهذا أنكر هذا الملحد على ابن خلدون هذه الفكرة وادعى أنها من الاغاليط ، مع أنه عجز عن إثباتها ، فلو طولب هذا الملحد ببيان سبب واحد لم يختلف ولن يختلف لن يجد ذلك أبدا ، وابن خلدون أعقل من أن ينكر تصرف الله فى ملكه ، بل تكلم فى الاسباب وأثبت المشيئة ، وهو ممن يثبت الاسباب لكن لا يتجاوز الى حد الاشراك بها وأنه يجب الاعتماد عليها ، وأن

الله لا سيطرة له عليها ، فان هذا قول الدهرية والزنادقة المقلدين لهم على غير بصيرة

ثم قال « ويحسب بعض الناس ـ وقد تورعنا عن أن نقول كلهم [١] ـ أن أمثال قول الله ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ يدل على ضعف أمر الأسباب ، وعلى أن الأخذ بالحيطة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئا ولا يرد آتيا ، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا ـ مقدرة لهم ومقدرين ـ لا محالة ولولزموا البيوت المشيدة . . . والواقع أن الآية تعطى عكس ما فهم الناس منها ، لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضى عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه »

فيقال : بل الآية نص صريح فى عكس ما فهمته منها فى العكس الذى ذكرته وفيما قبله ، فان مما لا ريب فيه أن البروج المشيدة من أعظم ما يتحصن به من الموت والوقاية من أسبابه لا سيما وقت الحرب ، وهذه الآية سيقت فى هذا الشان فلا مناسبة لما ذكره عليها ، بل سيقت للمعنى الذى فهمه عامة المفسرين وسائر علماء الدين كما يدل عليه ما قبلها من السياق وما بعدها ، فانه سبحانه أخبر بأن هذا السبب الذى هو عند المنافقين وورثتهم أقوى الأسباب فى رد الموت ومقتضياته ولان المنافقين كلهم خلفا عن سلف كانوا يعتمدون على الأسباب غاية الاعتماد ويؤمنون بها غاية الايمان ولهذا كانوا يلجأون اليها عند الشدائد ويرون أن فيها الكفاية فى الوقاية من الموت وأسبابه ، فرد الله عليهم ردا صريحا فى هذا الرأى فى قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم

---

(١) لا حاجة الى هذا الورع البسيط الزائف فى جانب هذا الفجور الفاحش المنكر

يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ الآية ففى هذا بيان أنهم فهموا كما فهم أتباعهم أن الآجال هى اجتماع أسباب الموت ولهذا جزعوا غاية الجزع من القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فقالوا معترضين على ما أمروا به من القتال ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ ففى هذا بيان أنهم معترفون بالربوبية ومع هذا فهم فى الدرك الأسفل من النار ، لأنهم منافقون خالف فعلهم واعتقادهم قولهم ، واتخذوا أيمانهم جنة ، وأفسدوا فى الأرض وقالوا إنما نحن مصلحون ، وخادعوا الله ورسوله والمؤمنين فقالوا ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ يعنون أن هذا شىء يوجب الموت بحكم العادة فى الأغلب ، فانهم يسندون الأمور الى الأسباب مطلقا بدون ملاحظة القضاء والقدر والمشيئة وأنه لا يصيبهم شىء إلا ما قدر لهم ، ولهذا قالوا ﴿ لولا ﴾ أى هلا ﴿ أخرتنا الى أجل قريب ﴾ فانهم جزموا بالموت فى القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فلهذا فرقوا منه واعترضوا على الله فى هذا التقدير الذى هو كتب القتال ، ولم يقولو لولا أخرت أجلنا لانهم لا يرون القضاء بل يرون أن الأسباب هى التى تفعل لذاتها ، فلذا قالوا ﴿ لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ أى أخرت كتب القتال[1] لأنهم نزلوه منزلة القتل المحقق - لشدة القلق والجزع ورسوخ عقيدة استناد الموت الى الأسباب فقط ، فودوا أنه لم يكتب عليهم القتال ، فانهم أيقنوا بالهلاك فيه ، فرد الله عليهم هذا الوهم وهذا الظن الخبيث أعظم الرد وأبينه فقال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ متاع الدنيا قليل ﴾ لأن غاية ما تتمنونه أن تؤخروا وتمتعوا قليلا وهو متاع قليل ، ثم يأتيكم الأجل المحتوم الذى لا بد منه ، فكأنكم لم تؤخروا ولم يحصل لكم شىء من

---

(١) أى الذى أمرت به أمرا دينيا كقوله ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ونحو ذلك

المتاع ، فان الفائدة المطلوبة من الحياة أن يكتب فيها عمل صالح وإلا كانت خسارة سرمدية لا عوض عنها [١] ﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ أى فقط ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ بل تجازون جزاء ما عملتم ، فلأى شيء هذا الجزع والقلق وطلب التأخير والحال هذه ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ فلأى شيء هذا الجزع والفرار من القتال وهو أنه إن كان أجلكم فيه فهذا لا يفيدكم بل لا بد أن يدرككم الموت بكل حال ﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ فلا حاجة الى طلب التأخير وكراهة القتال خوفا من الموت وهو واقع لا محالة بكم ولو كنتم متحصنين منه فى بروج مشيدة أى حصينة وهذا أبلغ شيء فى التحرز والبعد عن القتال ، وهذا رد صريح لما يتوهم المنافقون فى الأسباب بأنها مصدر الأعمال دون القضاء والقدر بل الأسباب تجرى على مقتضى القضاء والقدر ، ولو كان التحصين فى البروج يفيد تأخير الأجل لم يحسن الاعتراض عليهم والرد عليهم لانهم لم يدعوا عدم الموت حتى يكون فى الآية اثبات ان الموت مقضى به على كل أحد وإنما طلبوا التاخير فقط فرد عليهم بأن كتب القتال لا يستقدم الأجل ، بل الموت اذا حل أجله جاءهم ولو كانوا فى بروج مشيدة ، فسيان بين موضع القتال والبروج المشيدة فى حلول الأجل أى أنه لا فرق بين الاستجابة لله بالقتال وبين التحصن فى البروج فى حلول الأجل كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا موجلا ﴾ وقوله ﴿ ولكل أمة أجل ، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وكقوله تعالى ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ الآية ، فهذا الملحد قد تبع سلفه فى هـــذا الرأى كما تبعهم فى كل شئونهم فى النفاق الغليظ وهو مبتلى بالاعتذار عنهم والدفاع والنضال عن أسلافه هؤلاء

---

(١) أى كما قال تعالى ﴿ أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾

والتصلب فى تقليدهم والاقتداء بهم ولا سيما فى الاستهزاء بالمؤمنين والتعلق على الأسباب والاعتماد عليها وإنكار القضاء والقدر وإظهار الاسلام احيانا عند الحاجة والملق ومحبة أعداء الله وموالاتهم وغير ذلك من شئونه حتى صارت حالته أصدق صورة ترسم للمنافق الحقيق والعياذ بالله تعالى

فصل

قال « أما قوله تعالى ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فالمعنى فيه أن هنالك أقواما من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفى قومهم ، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية ، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال حتى ولو كان فى هذا الخروج الهلاك المحقق ، اذا ما أهاب بهم داعى المجد - وان لم يدعهم الرسول وأصحابه الى ذلك ، كما هو الشأن فى كل الأمم ، وكما هو الشأن فى الجاهلية والاسلام . . وحكم هذه الظروف عليهم المحفوفة بالاخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم ، ومعنى بروزهم الى مضاجعهم . وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل »

انتهى كلامه على هذه الآية فاعتبروا يا أولى الأبصار ، اعتبروا أيها المسلمون ، ان خروج الأشراف الى القتال هو معنى الكتابة ، وكأنه لدقة فطنته تخيل أن الأرض صحيفة وأن أرجلهم أقلام تخط فيها وتنقط ، وذلك هو الكتب حينما يخرجون الى القتال وحق له أن يقول هذا البيت الذى امتدح به نفسه :

ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

فقد جاء بعض تأويل هذا البيت فى تفسير هذه الآية ، فمن هو الذى

يستطيع أن يدرك ذكاؤه أن معنى كتب الله هو خروج الأشراف بداعي الشرف الى القتال ، ومن ذا الذى يكون له غور بعيد فى استخراج هذا الزعاف المنتن غير (الدر الذى فى لجج البحر) فالكتابة فى قوله تعالى ﴿ كتب عليهم القتل ﴾ عند صاحب الحقائق الأزلية الأبدية التى تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى هى خروج الأشراف الى القتال ، فيكون معنى الآية قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين برزوا للقتال ، فانه فسر معنى الكتابة بالبروز الى المضاجع ، فيكون معنى كتب الله القتل عليهم خروجهم وبروزهم . وليس من شك عند أدنى عاقل أن هذا مسخ صريح للقرآن ، فلو جاز أن يفسر كتاب الله بهذا المسخ ويتحكم فيه هذا التحكم والهذيان لبطل الانتفاع به جملة ، فانه من الممكن لليهودى والمجوسى وكل ملحد وكل مشرك وكافر أن يستدل به على صحة رأيه اذا سلك هذا المسلك ، فانه إذا كان خروج أناس من بيوتهم الى مواضع القتال يسمى كتابة فكل معنى فيه يمكن أيضا أن يسمى كتابة ، فان هذا الزنديق لو وهب عمر نوح لم يجد فى اللغة أن معنى الكتابة هو مشى الأشراف من بيوتهم الى مواضع القتل ، وهو يعلم حقيقة العلم أنه لا يمكنه وجود ما يؤيد هذه الدعوى المرذولة لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، ولكنه لا يريد أن يتبع اللغة ولا التفسير ولا أحدا من أهل العلم ، بل لا يريد أن يتبع غير هواه وأن تكون كتابة الله أيضا مطابقة لهواه ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ، ولهذا ادعى بأنه ليس عليه أن يأخذ بما قاله أهل العلم ، بل هو معترف بأن ما سطره فى أغلاله هو رأى رآه ولم يسبق اليه ، فلهذا تحكم فى كلام الرب تعالى بما يشاء ويشتهى بدون حدود ولا قيود ، فقد سولت له نفسه وزين له شيطانه وغره تيهه واختياله أن المسلمين أمة برابرة همجية لا تفهم ولا تعقل ، بل انه ليس فى المسلمين من يفهم كلام الله ويعقله وأنه اذا قال قولا قبل منه وترك جميع ما يخالفه من كلام علماء المسلمين ، وهذا

من آثار اعتقاده فى قوله (١)

متى جريت فكل الناس فى أثرى وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

ولهذا فانه أخذ يعبث فى القرآن والسنة على حسب ما يشاء ويريد غير متقيد باللغة ولا غيرها من أقوال أهل العلم من أولهم الى آخرهم

ودعوة المرء تطفى نور بهجته هذا المحق فكيف المدعى زللا

ولقد أبعد النجعة فى تحريفه لهذه الآية الكريمة ، فليس فيها اختصاص أهل الشرف أو المكانه من العرب فى قومهم ، بل هى فى المنافقين سواء كانوا من أهل الشرف فى قومهم أو لم يكن لهم شرف ، فان الله تعالى يقول أول الآية وذلك فى غزوة أحد حين كان فيها أناس من المنافقين ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، قل ان الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلناهاهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدورهم وليمحص ما فى قلوبهم والله عليم بذات الصدور ﴾ فتأمل الآية من أولها الى آخرها تجد أنها صريحة فى مناقضة ما ادعاه . فقوله جل من قائل ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعنى تعالى بذلك المنافقين ، فانهم ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ وذلك لخبث بواطنهم وعدم ايمانهم بالله ومحبتهم له وإخلاصهم وصدقهم ، فانهم لم يحبوه ويعظموه ويشهدوا معانى أسمائه وصفاته وأنه الكامل الذى له الغاية فى الكمال المستحق للحمد والثناء فى كل أفعاله وتدبيره ، فأفعاله كلها إما عدل وإما إحسان وكلاهما يستحق عليه الحمد ، فكيف يظنون به تعالى غير

---

(١) فى آخر نبذته (شيوخ الأزهر)

الحق ، وهل هذا إلا من خبث طويتهم وجهلهم به ، ولهذا أسندوا الأمور الى الأسباب وجعلوه غير قادر على ضبطها وتصريفها على مقتضى مشيئته وقدرته [١] ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أى فى الخروج الى القتال وهذا من شدة ما بهم من القلق والجزع وعدم الثبات والاستسلام والصبر كما هو شأن كل منافق ، فانه شديد اللجاجة والخصومة فيما اذا وقع الأمر على خلاف ما يهوى ويريد ولا سيما إذا ظن أن فى ذلك هلاكه أو خسارته ، قال تعالى ردا عليهم ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ ان الامر كله لله ﴾ فهو الذى أخرجكم وأخرجنا ، وذلك لانهم يلومون المؤمنين فى خروجهم للقتال وينسبون ما أصابهم فى هذه الوقعة اليهم وأنهم لو كان الامر بأيديهم هم لما خرجوا ولما صار شيء من القتل ، والا فلو أنهم اعتقدوا أن الامر كله لله فهو الذى أخرجهم فانه جهاد مشروع ، ثم انه وإن كان مصيبة فى حق البعض فالواجب الصبر عند المصائب والاحتساب كما قال النبي ﷺ « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، فان أصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » فهؤلاء استعملوا (لو) فانهم قالوا ﴿ لو كان لنا من الامر من شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ ولم يقولوا قدر الله وما شاء فعل ولا صبروا واحتسبوا ، ولا سيما فقد كان النبي ﷺ معهم فيجب أن يستسلموا وينقادوا لما أمر به ويتبعوه وأن لا يعترضوا على ما فعل ، ولكنهم لخبث عقائدهم لم يعبأوا بذلك شيئا وهذا من الاسرار التى تكون سببا فى هزيمة المؤمنين اذا كان فيهم منافقون فانه بذلك يتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق كما فى آخر هذه الآية نفسها . فقوله ﴿ قل إن الامر كله لله ﴾ يوجب عليهم أن يستسلموا ويطيعوا ويتركوا الضجر والقلق فانه ربهم الحكيم العليم الرءوف الرحيم ، فما

---

(١) أى فلا يعز أهل طاعته ولا يذل أهل معصيته

هذا الاعتراض والتمرد الاعدم رضا به وبتدبيره وأمره كما فى الحديث « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا » والرضا يوجب الانقياد والاستسلام ، ليس هو مجرد الاقرار باللسان فقط فهم مقرون بذلك ، ومع هذا فهم فى الدرك الاسفل من النار ، وقوله تعالى ﴿ يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ﴾ لأنهم اذا جاءوا عند الرسول عليه الصلاة والسلام أظهروا الملق والخداع كما ذكر ذلك عنهم فى الآية الأخرى ﴿ واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ﴾ فهم يخفون فى أنفسهم من عدم الرضا وعدم الاستسلام والقلق والضجر بخلاف ما يبدون له من الخداع والنفاق والأيمان الفاجرة ، فانه عليه السلام أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون وذلك أنهم ﴿ يقولون ﴾ فيما لا يبدون له ﴿ لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ﴾ وهذا تصريح بأنهم لا يرون القضاء والقدر شيئا بل يرون أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس فيصرفها بقدر استخدامه ، وذلك أنهم ادعوا أنه لو كان الامر فى أيديهم بأن كانوا هم الذين قدموا فى الامر لم يشيروا بالخروج الى القتال ولم يخرجوا اليه ولم يجر قتل ، وإنما ذلك كان فى مقدرتهم ، وانما جرى هذا كله بأسباب أنهم لم يكن لهم فى الامر شىء وكان الامر فى أيدى غيرهم ، قال تعالى ردا عليهم فى هذا الزعم الخبيث اذ ليس هذا شىء فى مقدورنا ولا مقدورهم وإنما الامر بقضاء وقدر سابق ، فانه أمر كله لله ف ﴿ لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فان هذا القضاء المحتوم لا بد من نفوذه ، فقولكم ﴿ لو كان لنا من الامر من شىء ما قتلناها هنا ﴾ قول باطل فانما يفيد هذا لو كان أمر القتل والخروج وغيره ليس لله وانما هو لكم أو لغيركم ، ولكن الامر هو لله فليس فى الاستطاعة دفعه ، فانه قد علمه الله وكتبه فى اللوح المحفوظ وفى أم الكتاب ، فلو كنتم فى بيوتكم فلن ينفعكم جلوسكم فيها بل

لبرز هؤلاء الذين كتب عليهم القتل فى سابق علم الله الى مضاجعهم أى المواضع التى يقتلون فيها ، فانه سبحانه إذا قضى أمرا فلا راد لقضائه إنما يقول له كن فيكون ، فلا بد أن يهيء لهم من الأسباب ما يخرجهم الى مضاجعهم فقدرته تعالى غالبة ستسوقهم بأسباب أو بغير أسباب الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها . فما هذا الجزع والفرق والإرجاف والاعتراض على الله ورسوله والمؤمنين باللوم وسوء الظن به غير الحق ، وانما ذلك منشأه ضعف الإيمان واليقين وعدم الاستسلام الكامل . ثم ختم الآية ببيان الحكمة فى هذه الواقعة وغيرها بقوله ﴿ وليبتلى الله مافى صدوركم ﴾ وليمحص مافى قلوبكم ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ فان الله سبحانه لا بد أن يمتحن خلقه بما يبين الصادق من الكاذب والخبيث من الطيب لتظهر حكمته وتقوم حجته كما قال تعالى بعد هذه الآيات ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية . وهذا الذى ذكرناه هو ظاهر الآية وكلام المفسرين فى معناها ، فاما ما ذكره هو على الآية فهو قرمطة ظاهرة ، فانه ليس فيها اختصاص أهل الشرف دون غيرهم ، وليس المشى من البيوت والخروج منها الى مواضع القتل هو الكتابة ، وإلا لكان معنى الآية : لبرز الذين برزوا الى مضاجعهم ، أو لبرز الذين خرجوا الى مضاجعهم ، ويصان كلام الله عن هذا الهذيان ، فان المقصود من الآية أن التوقف عن القتال أو الاعتراض على الرسول والمؤمنين فى الخروج اليه اعتراض على الله وتوقف لا معنى له ، وليس فى الجلوس وقاية من الموت اذا كان الله قد قضى وقدر أن هؤلاء المقتولين سيقتلون فى هذا الوقت ، بل هذا القضاء سينفذ ولو كان هؤلاء المقتولون فى بيوتهم لبرزوا الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها . وهذا مشى على قاعدته فى الالحاد وأبى أن تكون قدرة الله ومشيئته هى التى تخرجهم فقال : وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج . فيقال له : من أين اطلعت على أنه ليس هناك قوة خفية تلزمهم بالخروج ، وليس من شرط هذه القوة أن تطلع عليها ، وعدم اطلاعك عليها

وعلمك بها لا يوجب أن لا يكون هنـاك قوة خفية فكم فى الوجود من أشياء لم تطلع عليها ، فاذن احكم على كل ما لم تعلمه وتطلع عليه بالعدم ، فعدم العـلم ليس علما بالعدم ، والآية فى غاية الصراحة فى نقيض ما ادعيته فى إنكار إرادة الله ومشيئته تعالى وقضائه قال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بـاذن الله كتابا مؤجـلا ﴾ وكيف يقر هذا الملحد بأن الشرف يوجب عليهم الخـروج ويخرجهم مع أنه عرض وينكر أن يكون الله القادر الجبار القهار الذى له ملك السموات والأرض لا يخرجهم ، وقد عبر عن الله بالقوة الخفية خداعا ونفاقا ، فكأنه هاب من التصريح بالاسم الظاهر ، ولا معنى لهذه الهيبة فان كل من له عقل ودين يعرف ذلك ، فهو سبحانه القادر على إخراجهم بأن يزين لهم القتال ويكره اليهم الجلوس ويهيىء لهم من الأسباب ما يدفعهم الى الخروج أو يسلط عليهم من يخرجهم بمطامع أو غيرها ، والاسباب التى توجب خروج الانسان من بيته أكثر من أن تحصر ، فانه تعالى كتب عليهم القتل هنا لحكمة ربانية لا بد من ايجاد مقتضاها ، والقتل فى ميادين القتال الشرعى فيه مصالح كبيرة ، فانه ان كان فى قوم مؤمنين فهو خير لهم ورحمة لهم ليحييهم تعالى حياة طيبة صحيحة سعيدة ينسون بها ألم القتل وغيره ، وان كانوا أشقياء رحم العباد والبـــلاد بازالتهم منهـا والانتقام منهم ونفذ فيهم عدله الذى يستحق به الحمـد . والبلية والمصيبة قوله « لا أنهم مرادون للقتل لاغراض لا تعقل » فجعل هذا الزنديق أفعال الله التى ينفذهـا فى خلقه موقوفا تنفيذها على عقله بأن يعقلهـا هو وإلا فهى مردودة ، فقد أبان فى هذا أن الذى حمله على هذه القرمطة والتحريف أنه لم يعقل حكمة الله التى سماها غرضا فى هذا القتل ، فكان فعل الله ومشيئته وقدره وقضاؤه مردودا محجودا مرفوضا رفضا باتا حتى يفهمه ويطلع عليه هذا الزنديق ، فانه علل هذا بانه لا يعقل ، فجعل كل مالا يفهمه ولا يعقله لا يمكن أن يقع إلا على ما يريده هو ، ثم رتب على هذا تحريف هذه النصوص ، ثم ركب على هذا أيضا أن الذى قاله هو الذى يجب اتباعه ، ظلمات بعضها فوق

بعض . ومعلوم أن ما ذكره الله فى هذه الآية الكريمة فى غاية الوضوح ، وهو معقول مقبول معلوم ، فلا أحسن ولا أطيب ولا أبين ولا أوضح منه ، فهو عين الحكمة فان المقتول إما مستريح أو مستراح منه كما فى الحديث ، ثم لو فرض أننا لم نعقله فمن الجنون أن نحرفه أو نرده ، بل نقول : آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب

فصل

ومن عجيب أمره أنه احتج على غلوه فى الأسباب وكونها لا تغير باعتقاد المنافقين الموجودين فى زمن النبى ﷺ ، مع أن القرآن صرح بالنهى عما فعلوه فقال :

« ومما يجب فهمه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب إيمانا عميقا ، وقد حكى القرآن عنهم قولهم ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ﴾ يعنون ان الأمر لو كان أمرهم - أو لو كانوا مطاعين - لنهوا عن الخروج الى القتال ، ولما عرضوا أنفسهم على الموت ، ولنجوا حينئذ ، لأن القتل انما يقع بالتعرض له ولأسبابه . وفى آية اخرى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض او كانوا غزّا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ وفى آية أخرى ﴿ الذين قالوا لاخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ فهم اذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة إيمانا برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء » انتهى

ولا يخفى على أدنى عاقل مافى هذا الاستدلال من المخازى المضحكة وكأنه يستهزئ بهذا الاستدلال ويسخر به ، فدعواه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب ثم استدلاله بهذه الآيات دعوى فى غاية السقوط ، فان هذه الآيات سيقت لبيان حالة شرذمة قليلة من المنافقين الذين كانوا بين المسلمين(١)

(١) لأنه تعالى صرح بأن هذا قول طائفة كما تقدم

ليس هى فى العرب كلهم ولا أكثرهم ، بل العرب المسلمون على عكس هذا الاعتقاد ، ودعواه أنهم قبل الاسلام ثم استدلاله بالآيات خطأ فوق ضلال ، فان الآيات صريحة فى واقعة أحد وواقعة أحد ليست قبل الاسلام ، ثم استدلاله بأفعالهم هذه كفر فوق خطأ فوق ضلال . وهذا الملحد مبتلى بتركيب الضلالات المترادفة كالظلمات التى فى قلبه

ثم يقال : نعم هؤلاء المذكورون فى الآيات يؤمنون بالأسباب كالايمان الذى ذكرته أو قريبا منه ، فهل تعرف هؤلاء أنهم أسلافك وسادتك وأئمتك ، هؤلاء هم المنافقون الذين لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وهم الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، وهم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وهم الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ، واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالو انما نحن مصلحون ، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، كما قلت انت ذلك فى مكاتباتك حين خانك أملك ، وهم الذين يسارعون فى موالاة الكافرين ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، وهم الذين يقولون للمؤمنين استهزاء وسخرية غر هؤلاء دينهم ، وهم الذين آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وهؤلاء هم الذين قالوا لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، وهم الذين قالوا لإخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وقالوا أيضا لاخوانهم ـ وقعدوا ـ لو أطاعونا ما قتلوا ، فهؤلاء هم المؤمنون بالأسباب إيمانا عميقا لا المؤمنون بالقضاء والمشيئة العليا. ولهذا تجدهم فى غاية الاعتماد عليها والاعجاب بها واسناد الامور اليها وفى نهاية السخرية بالأسباب الدينية فلا يرون لها قيمة ، ولهذا يسخرون بأهلها أعظم السخرية ، والله حكم عليهم حكما صارما من أول الدنيا

الى آخرها باللعن والطرد والابعاد ، ولهذا فانك لا تجد منافقا إلا وقد كبته الله وأذله وجعله تحت أعدائه ، ولم تتقدم أمة من الأمم بالنفاق ابدا (١) بل قد يتقدم الكافر الصريح دون المنافق المذبذب . والغريب أنه استدل بفعلهم - مغالطة للاغبياء وضعفاء البصائر - مع كون الله نهى عن فعلهم صريحا حين قال ﴿ لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض ﴾ الآية ، فكفرهم ونهى عن الاقتداء بهم . وفى الآية الأخرى رد عليهم بما يبطل قولهم واعتقادهم فى قوله ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ أى إنكم تموتون وأنتم فى بيوتكم وإن لم تشيخوا وتهرموا وتخرجوا للقتال وتضربوا فى الأرض ، ورد عليهم فى الآية الأخرى بقوله ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وقد أبى هذا الا المشاكسة بهذا البيان الواضح فجعل فعلهم هذا حجة على الايمان بالأسباب مع وضوح الآيات فى رد رأيهم واعتقادهم ، بل يدعى أنه لم ينكر عليهم مع تصريح الآيات بالانكار

ثم لو فرض أن ذلك هو اعتقاد العرب قبل الاسلام فهل يكون فى هذا حجة مع أفعالهم الأخرى المنافية للأديان والأخلاق الانسانية

وقوله « إيمانا برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء » هذا تكملة منه لادعائهم واعانة لهم فى الاحتجاج مع أنها دعوى فى غاية الفساد ، فان حاصل هذا أن بعض الناس يموتون فى القتال وأن التجارب دلت على هذا ، وهذا ليس من الحجة فى شىء ، فاننا لا ننكر تأثير الأسباب والتجارب وكذا حصول المسببات بالأسباب غالبا ، والشرع قد دل على هذا ، لكن من أين لهؤلاء أن اجتماع الأسباب ووقوع المسببات ليس من فعل الله ، وان الله هو الذى رتب

---

(١) أى النفاق الدينى الاعتقادى

هذا على هذا فمن أين لهؤلاء أن الله لم يجعل آجالهم بأسباب هذا القتال وبسبب خروجهم اليه ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب وهو الذى أمر بهذا القتال ورتب عليه نتائجه ، فلا بد من وجودها ولا بد من وقوع ما قدره فيها . فالتجربة دلت على أن من قرب من أسباب الموت لحرى أن يموت ، لكن لم تدل على أنه لا مسبب لهذه الأسباب وأن من كتب عليه الموت بهذه الأسباب أنه يمتنع من ذلك (١) وهـــذا يناقض اعتقادهم ، وكذلك الاستقراء فهم لم يكتفوا بالاعتراف بالأسباب والايمان بها ، بل أعتمدوا عليها وجعلوها هى المصدر فى النفع والضرر فقالوا لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، اى لو كان الأمر بأيدينا لكان فى استطاعتنا أن ننجو من القتل ، فهم الذين يدبرون أنفسهم استقلالا بدون قدر ولا قضاء بزعمهم ، ولذلك احتج عليهم تعالى بحكم الكتاب الأول فى القدر والقضاء ولم ينكر الأسباب ، وهذا ظاهر ، والاستقراء الذى دلهم هو التجربة ، وقد بينا أنها لا تفيد ما اعتقده مطلقا

ثم ذكر أن طبيعة بلاد العرب توحى بالايمان بالأسباب ، لأنها قليلة الثروة ، وهذه أيضا مهزلة أخرى لا حاجة لنا فى ردها لأن مثل هـذا ليس من الدين فى شىء ، واستطرد مكررا ما سبق بأن العرب كانوا فى غاية الايمـان بالأسباب

وقد تقدم الجواب عن هذا مرارا ، على أن لقائل أن يعارضه بأن مشركى العرب أيضا كانوا يحتجون بالقدر على أفعالهم الشركية أحيانا كقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا . ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البـلاغ المبين ﴾ أى ليس عليهم أن يجادلوهم بغير ما بلغوا به فان احتجاجهم هذا تعنت ، وإلا فلو قتل أحـد منهم أحـدا لم يعذروا القاتل بالقدر بل ولا يطيعونه ، فكيف يتركونه فى حقوقهم ويحتجون به فى حق الله تعالى

---

(١) ولم تدل أيضا على أن من قرب من أسباب الموت أنه يموت قطعا بدون مباشرة

فصل

ثم قال « يصادفك وأنت تسير فى الأحياء الوطنية الحين بعد الأحيان هذان البيتان من الشعر الركيك مكتوبين على المتاجر والمصانع :

ملك الملوك اذا وهب   لا تسألن عن السبب
فالله يعطى من يشا   ء فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة ، وكلهم يشتركون فى هذه العقيدة ، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه »

فيقال : وهذه بشرى عظيمة وعلامة نيرة قوية من العلامات الصادقة المبشرة بمستقبل طيب سعيد صحيح ان شاء الله تعالى ، فان كانت هذه مكتوبة هنالك فهى تدل على روح فيها حياة علمية دينية ، فليس فى هذه الأبيات غير الثناء على الله تعالى وتقدس ، وليس فيها ما ينكر ، وكأنه انتقد قوله « فقف على حد الأدب » أو قوله « لا تسألن عن السبب » يعنى أنه لا ينبغى السكوت والوقوف على حد الأدب ، بل يجب أن يسأل الله عن السبب الذى به أعطى هذا ومنع به هذا ولمّ يعطى هذا دون هذا ، فلا يجوز أن يسكت عن عطاء الله وافضاله وهبته ، فقبحه الله ما أكثر خبائثه ، ومن طلب إزالة هذين البيتين فليطلب إزالة المصحف المتضمن لما يصدقهما ويقطع علائق المنافقين كلها ، قال تعالى ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شىء عليم ﴾ الى غير ذلك من الآيات ، وهذا الملحد يريد أن يدخل بين الله وبين عباده حتى فى الثناء عليه ويطالبهم بان لا يتأدبوا فى ترك التفتيش والسؤال عن مشيئته وحكمته فى تقسيم أرزاقه

بين عباده ، ولهذا غاظته هـذه الأبيات غيظا عظيما وتضايق منهـا وأحرجت صدره ووقع منها فى مشكلة فكانت ريبة فى صدره وقذى فى عينه كلـما مرّ فى طريق صادفته وكانت له بالمرصاد لما فيها من تعظيم الله وعدم سؤاله عن تصرفه فى الرزق والوقوف على حد الادب فى ذلك ، أما تلك الصور القبيحة والمظاهر المخزية والمنكرات التى لا تعد ولا تحصى والمشاتمـة والملاعنة والنشيد الخبيث الموجود فى كثير من الأندية فذلك كله لا يهمه ولا يحزنه فهو لم يتعرض له بل هو غذاء قلبه وروحه ، ولهـذا خصص بحثا يدعو فيه لافساد المرأة ، وأنـكر على من أنـكر عليها تعلم الموسيقى والشطرنج ودقائق الفلسفة ، فكل هـذه الأمور الخبيثة هى التى تناسبه ، فان القلوب والأرواح الخبيثة إنما تتغذى بمـا يناسبها وتنفر غاية النفرة مما لا يلائمها من الأمور الطيبة الطاهرة كمثل مـا تضمنته هذه الأبيات ، ولهذا جعلها شعرا ركيكا ، وكل ذى ذوق سليم يعلم أنها فى غـاية القوة والسلاسة وحسن التعبير وان أبيـاته التى قدمنا بعضها فى غـاية الركاكة والفهاهة وفساد التصور والتركيب

ثم قال « فالله إذا أعطى أحدا مالا أوجاها أو مجـداً أو نجاحا لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها ، لأن الله وهو ملك الملوك لا يعطى على السبب ، ولا على قدر السبب (١) وإنما يعطى على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها ، فالسؤال عن ذلك اذن خروج عـلى الأدب وضلال فى جانب الله ، لأنه اعتقاد بانه تعالى إنمـا يهب جزاء ومكافأة ، وبقيود وحـدود وأسباب ، لا مشيئة وقدرة وإرادة واطـلاقا . وهـذا اتهـام لذاته وصفاته وأفعاله . والادب (٢) هو الاعتقاد بان الأسباب لا شأن لها لافى نجاح ولا

---

(١) هذا استهزاء وتقريع على البيت

(٢) أى عندهم

إخفاق ، فاذا رأينا ناجحا لم يجز الاعتقاد بأن لنجاحه أسبابا وموازين وعللا تدرس وتفهم ويقاس عليها ، واذا وجدنا مخفقا فكذلك لم يجز التعليل والتسبب »

قلت : هكذا علق على هذين البيتين اللذين تضمنا الثناء على الله والأدب معه ، وهذه محادة صريحة لله تعالى ، وليس فى البيتين ما يدل على هذا كله ، بل مضمونهما أن الله تعالى لا يسأل عما يفعل من الاعطاء والمنع والخفض والرفع ، ولو أن رجلا أخذ يتعنت على ملك من ملوك الدنيا — ولله المثل الأعلى — لم أعطيت فلانا ومنعت فلانا ولم هيأت لفلان أسبابا وتركت فلانا ، - مع علمه بان فيهم المطيع والعاصى وأنه عليم بهم خبير بأحوالهم وما يليق بكل أحد منهم - لكان فى غاية المشاقة والمحادة له ، ولمقته وبطش به ، ولمقته الناس أيضا وتحامقوه ، فكيف بالله عز وجل الذى لا يخلو موجود من آثار رحمته وفضله وإحسانه وانه المعروف بالكرم والجود والعلم والحكمة والكمال الذى لا غاية فوقه فهو الذى يضع الأمور فى مواضعها اللائقة بها ، وكيف يجوز أن يسأله سائل ويتعنت عليه فى أفعاله التى أخبرنا بأنها صادرة عن علم وحكمة وعدل وإحسان ، وهل هذا إلا من الزندقة والخبث العميق والنفاق الفظيع . ولم يرد صاحب الأبيات أن الناس لا يسأل بعضهم بعضا عن الأسباب والأمور التى يحتاجون اليها ، ولم يفهم الناس ذلك منها ، والبرهان على هذا أن هؤلاء الذين يعلقونها أو يكتبونها على متاجرهم ومصانعهم يسأل بعضهم بعضا ويناقش بعضهم بعضا فى كل أمورهم التى بينهم ، وقد تقدم البيان بأننا لا ننكر تاثير الأسباب ، والله سبحانه يفعل بها ، وأكثر هؤلاء الذين يعلقون هذه الأبيات وأمثالها يعرفون هذا ، لأنهم يباشرون الأمور التجارية والصناعية وغيرها ، فهم معترفون بأنها أسباب وأن لها نتائج ، وسواء كان ذلك بالقوة المودعة فيها أو بفعل الله عندها فهم بكل حال عاملون بها مجتهدين فى ذلك معترفين بأنها أسباب ، فلا معنى لهذه القحة والهراء الذى هو أشبه بنباح الكلاب

ثم قال هذا الملحد « وهذا من شر ما تبتلى الأفراد والجماعات بالايمان به » فيقال لهذا الملحد : ألا قاتلك الله ، أى شرّ فى هـذين البيتين وقد تضمنا الثناء على الله والأمر بالأدب عن سؤاله . ولـكن هـذا دأبه إزاء المظاهر المتضمنة لتعظيم الله وإجلاله ، كما ذكر أن المنابر والمساجد أدت شر مؤدى ، لأن كلا منهما مظهر من مظاهر الايمـان بالله تعالى ، وهو قد جعل الايمان به نكبة عـلى الناس متبعا صنمه غوستاف فى هذه الدعوى ، وكأنه لم ير فى هـذه الأمصار منكرات وفجورا وخبائث والحادا وشركا لا يحصى ، وقد تركها كلها وقصد ذكر الله وتعظيمه وإجـلاله وجعله السب والشتم والعـداوة الزائدة . ان الانسان ليعجب كيف عاش هذا الملحد بين هؤلاء المسلمين المتحمسين لدينهم ومبـدإهم المقدس ، وكيف ذهبت الغيرة الدينية من النفوس الى هذا الحد البعيد

ثم قال « ولا ريب أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر فى دلالتهما ونتيجتهما من مئـات الجيوش الغـازية التى تحتل البلاد اغتصابا واقتدارا (١) »

قلت هكذا صرح هذا الزنديق بأن ما اشتمل عليه هذان البيتان من تعظيم الله تعالى وعدم سؤاله ولزوم الأدب معه شر عظيم ينوب عن مئات الجيوش الغازية التى تحتل البلاد اغتصابا واقتدارا ، فلينظر المسلم المعافى من هذا البلاء وليحمد الله تعالى . وقد بينا أن من انتقد هذه الابيات فلينتقد القرآن كلــه وليدّع فيه ما ادعى فيها ، فانه اشتمل على الايمـان بالله وتعظيمه والثنـاء عليه وعدم الاعتراض على حكمه فى خلقه ولزوم الأدب معه ، قال تعالى ﴿ والذين

---

(١) نعم هما شر منها بالنسبة اليك ، لانك زنديق قد أحرق قلبك بغض الأديان وأهلها . وجيوش الالحاد الغازية هى لذة فؤادك وسروره ، فهى من هـذه الناحية نقمة عليك وشر من الجيوش الزاحفة اليك

يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فأخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة والمنافقين الذين يجادلون فى آياته سبحانه مع ظهورها ووضوحها ودلالتها على الحق إنما حملهم على ذلك الكبر والإعجاب بأنفسهم وأن لديهم من العلم والمعرفة ما هو فوق ذلك(١) وما أجمل قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فانه سبحانه سميع بصير بما يقولون ويفعلون فيجب الاستعاذة به من فعلهم ، فان الشيطان قد نفخ فى أنوفهم وأزّهم عن معرفة الحق واتباعه أزا ، نعوذ بالله السميع البصير

لم يؤذ هذا الملحد من هذه المناظر غير هذا الثناء على الله وتعظيمه وتقديسه ولزوم الادب معه فجعل ذلك شرا ينوب عن مئات الجيوش المحتلة ، ثم مع ذلك يدعى أنه مؤمن بالله وأن إيمانه كايمان عمر بن الخطاب ، لا نظنه يتصور المسلمين إذ خاطبهم بهذا الهذيان رجالا لهم عقول يفرقون بها بين الكفر والاسلام ، بل تصورهم غوغاء نوكى ليسوا على شىء من العقل والفهم والدين ، فكأنه لم يعلم بأن هذه الدول والحكومات التى احتلتها جيوش أعدائها شر احتلال لم تكن هذه الأبيات تعلق على متاجرها ومصانعها ، وما نفعها ذلك شيئا ، بل نحن نشهد بالله أن وجود مثل هذه الابيات بين الامم من أعظم المنافع لها ومن أعظم ما يدفع الله به عنها ، بل ان وجود ما تتضمنه كجيش محافظ ، فانها كما قال تعبير بليغ صادق عن وجود الايمان بالله فى تلك الأمكنة ، وكم يدفع الله بمثل هذه وما فى معناها عن أهلها من بلاء وشر ، وقد علم أن من هى موجودة لديهم فى نعم لا تعد ولا تحصى ، مع ما هم فيه من

---

(١) كما قال عنهم فى الآية الأخرى ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾

ذنوب لا تعد ولا تحصى[١]، ثم هى ليس فيها تعرض للأسباب ولا نفى لها البتة ولا يفهم منها ذلك أبدا مالم يكن زنديقا مبالغا فى الدعوة الى الزندقة والنفاق، فأين فيها نفى للأسباب، بل الذى فيها الثناء على الله وأنه ملك الملوك وأنه يعطى من يشاء ولا يجوز سؤاله عن الأسباب التى بها أعطى، وليس فيها أنه يجب على الناس أن يطلبوا أرزاقهم من غير أسباب أو يرفضوا الاسباب، ولكن لعظيم ما رسخ فى ذهنه من بغض المظاهر الدينية والشغف بالأسباب المادية والاعتماد عليها صار يحارب بكل ما أمكنه ما فيه دعوة للدين، ويحتج بكل ما له علاقة بفعل الأسباب، ولهذا احتج بفعل المنافقين مع ظهور بطلان حجتهم وان الله نهى عن فعلهم وحذر منهم غاية التحذير ورد عليهم أبلغ الرد، وقد تقدم الكلام فى الأخذ بالأسباب وأنها تراعى وتعتبر ولا يعتمد عليها من دون الله وتجعل هى علة كل فوز ونجاح وهبوط وقنوط، بل الله سبحانه هو الذى يسخرها وهو الذى بيده ملكوت كل شىء فيجب التوكل والاعتماد عليه واتباع نظامه وشرعه فى الأسباب الدينية والمادية، وذلك هو الطريق لتحصيل كل خير فى الدنيا والآخرة

انه لمن العجب جدا أن يحارب الانسان هذه المظاهر الدينية هذه المحاربة المكشوفة، ثم مع ذلك يدعى أنه متدين وأنه ما قال غير الحق، بل أنه وفق بين الدين والعمل، وحقيقة هذا استهزاء بعقول الناس وسخرية بهم، فان من فعل هذا الفعل وادعى ما يضاده وطلب تصديقه فى ذلك فقد ظن بمن خاطبه الجهالة والبلادة والغباوة المتناهية

---

(١) ملاحظة : ينبغى صون الآيات القرآنية وكذا الأحاديث النبوية عن التعليق فى نحو الأمكنة التى لا تليق بها من المنازل والأسواق وغيرها ، وكذلك ما يجرى مجرى هذا من ذكر الله تعالى، لان صونه عن ذلك احترام له، وجعله فى غير موضعه إهانة له، وقد أشار الى هذا كثير من العلماء فى كتب الاصول وغيرها

ولقد تكلم كثير من العلماء على ما فى هذا الكتاب من الخداع والتمويه وبينوا أنه دليل على ضعف عقل مؤلفه، فعكسوا عليه ظنه، وأوضحوا مناقضته للدين والعقل أيضا وقد تقدم ما قاله السيد قطب وغيره

ولهذا قال الاستاذ محمد أحمد الغمراوى [١] فى مقدمة كتاب (الشواهد) لما قرأ الأغلال: «وجدت كتابا ينبض بالضغن، ويفيض بالقدح فى الاسلام وأهله، فقد نقض صاحبه ما وصلت اليه يده من كتب المتقدمين، حتى اذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يعتد به اليوم ـ ولا يخلو من مثلها تاريخ أمة حتى فى هذا العهد الحديث ـ اتخذ تلك الأقوال ذريعة الى الطعن فى المسلمين أجمعين فى عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الاسلام، مؤكدا للقارىء وللناس أن المسلمين جميعا عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون الأخذ بالأسباب، معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير اتكالا على أن الله سيرزقهم من غير سعى ولا عمل، ويحميهم من غير إعداد عدة ولا جهاد، واكتفاء فى ذلك بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم أو صلاة، فتأخروا فى زعمه عن ركب الانسانية ألف عام ناموها وسارها غيرهم من مختلف الشعوب والأديان، ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم لهان على شناعته، فكل عارف بتاريخ الاسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم أو جلهم يعتقدون ذلك يوما من الأيام، ولعل فترات عزهم فى ألف عام الأخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم، بعكس الغربيين الذين يسبح صاحب الاغلال بحمدهم وحمد مدنيتهم ويقدس لها ولهم، وعلى فرض أن المسلمين كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن، فكلهم يريد الأخذ بالأسباب والنهوض والعزة وان اختلفوا فى الأسباب ذاتها اختلاف أى أمة ناهضة أو شعب فى كل عصر وعلى الأخص فى هذا العصر

---

(١) العالم الشهير صاحب كتابى (النقد التحليلى) و (سنن الله الكونية)

ففيم الهمز واللمز والطعن والذم والاستهزاء والسخرية وقد انقضى سببها المزعوم ان كان قد وجد يوما من الأيام ، أليس من الحمق والغباوة أو من الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من اسوأ طريق أن يفترض صاحب الاغلال وجود ما لم يوجد أو استمرار ما قد انقطع وانقضى ليجاهده وينازله كما كان (دون كيشوت فى كتاب سرفنتس) يجادل وينازل طواحين الهواء يظنها مردة وعماليق تقطع على الناس الطريق . ثم أليس من الغرور والحمق معا أن يعتقد صاحب الاغلال أن الاربعمائة المليون المسلم — على حد تعبيره — خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التى يزعم ، ثم يطمع أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاءته التى بثها فى كتابه والتى تصد عنه كل من يقترب منه كما تصد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة ، فلو أن انسانا أحسن الدعوة من وجهها وجاء الى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم — والاسلام كله مقاد الى الخير والعز والفلاح — لكان عجبا مع ذلك أن يطمع بمفرده فى تحريك العالم الاسلامى ، وقد قعد العمل بالاسلام ، طالت مدة القعود أو قصرت ، فكيف بهذا المغرور الضال الذى لا يرى سبيلا الى نهوض المسلمين إلا أن يكفروا بماضيهم كله وينزلوا عن ميراثهم كله ويحتقروا كل ما ألف فى ألف سنة فى أى علم أو فن لانه صورة من كتاب واحد ألف فى علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف ، وأن ينزلوا أى رواية أو رأى يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية الفرد الواحد ورأى الشخص الواحد ، هكذا يدعى ، والى ذلك يدعو هذا المغرور المفتون فى إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد . واقرأ له إن شئت لترى الى أى مدى يذهب الغرور بصاحبه ، ولتحكم أعن عقل يصدر فى كلامه أم عن تخليط . قال فى ص ٣٠٦ من كتابه (والخطوط من عندنا) [١] « اننا نعد فى علم التاريخ مئات الكتب وألوفها وكذا فى الحديث والفقه والتفسير وفى

---

(١) اى الخطوط العرضية من عند صاحب المقدمة لملاحظه النقط التى هى أساس النقد من المغرور

كل علم ، ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتابا واحدا ، فانسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفا فى علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها فاذا جاء بعده ألف مؤلف فى هذا العلم فانهم جميعا سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير ، وهذا هو الشأن فى جميع المؤلفات التى تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتى يفوت إحصاؤها وعلى هذا فمن الخطأ الذى يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا فى مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأى قد قال به ورواه هذا العدد العديد ، والصحيح أن نقول أنها أو انه رواية أو رأى إنسان واحد فى مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ، وكيف تكون كذبا ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ، ان من السهل على الانسان أن لا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه ولكن من العسير عليه أن يشك فى رواية العشرات ورأيهم ولا سيما ان كانوا ممن يجل ويحترم [1] »

دعوى يلقيها هذا الاحمق كأنه قرأ تلك الألوف المؤلفة فى جميع العلوم فى عشرة قرون فجاء يعلن بنتيجة بحوثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس . والحمق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التى نقلناها لك من كتاب الاغلال هما الطابع الذى طبع به على الكتاب كله لا يكاد يخلو من أماراتها صفحة من صفحاته ، فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجى اذ تقرأ « سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل » كأن الأمم العربية عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تبصرهما ، ولكن على يد صاحب الاغلال ـ إلى أن قال ـ ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس هو من تركهم الدين ، ولكن من اتباعهم إياه ، فهو لذلك

(١) انتهت جملة الأغلال

يحارب الدين ويستهزىء بقوانينه التى وضعها للناس كلما وجـد الى الاستهزاء سبيلا ، أى كلما أمن عواقب الاستهزاء ، فان لم يأمن وظن أن رأيه الذى يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لسخطهم ولرميهم إياه بما هم لابد راموه به من الزندقة والالحاد أو ما هو أكبر منهما لف ودار وقرر رأيه بجميع الصور ثم تبرأ بالهامش أو فى الصلب أن يكون قصد كفرا أو إلحادا ، ولكنه قصد تقرير الحقيقة ، أو أنه فعل ما فعل وأورد ما أورد للاعتبار . ولا نجد شيئا إسلاميا سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاءته لا الدهماء ولا العلماء ، لا الفقراء ولا الأغنياء ، لا الملوك ولا السوقة ، لا الأمم ولا الأفراد ، لا العرب ولا العجم ، لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين فى سبيله فى الماضى والحاضر ، لا شىء من ذلك للاسلام يلقى من صاحب الاغلال إلا الغل والضغن ، كأن ذلك كله حال فى الماضى ويحول فى الحاضر بين صاحب الأغلال وبين ما يبتغيه من جاه وقوة وثراء . ولو كان هذا الرجل ينبض قلبه بشىء من الحب للاسلام وأهله لكان سبيله فى تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلمس المساوىء والمعايب الموجود منها والموهوم واتخاذها وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية والتشهير ، ولدعاهم الى ما دعاهم ربهم اليه من العمل بدينه كما فى كتاب الله وسنة رسوله بدلا من ان يحاول صرف ذلك كله عن وجهه وصرفهم عنه — الى أن قال — ولو قرأت كتابه لرأيت سحق ما انقلب اليه ، تقرأ له فتقول دهرى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول صهيونى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول شيوعى يتكلم ، ولعل فى هذا ما يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الاسلام العداوة ومبالغته فى ذلك ، حتى ليخيل اليك أنك ازاء كلب أو ذئب عقور يحاول أن يعقر من الاسلام كل ما يرى ، لولا أنك ترى أحيانا من خداعه وختله ودورانه ولفه ما ينذرك أنك تجاه عدو يكيد ولكن كيد مفتون مغرور » هذا كلام الاستاذ الغمراوى المصرى ، وهو طويل اقتصرنا على هذا منه اختصارا ، كما تركنا كثيراً من المقالات التى هى بمعناه لكثرتها وشهرتها

الكلام على المبحث العاشر في الأخلاق السلفية

عنوانه فى كتابه هكذا :

أمامنا لا وراءنا

ومضمون هذا المبحث هو الحط الشديد على السلف الصالح ، والصدر الأول من الصحابة والتابعين ، والقدح فى آرائهم وأخلاقهم ، وأنهم ليسوا على شىء من العلم والفهم ، وانما هؤلاء المتأخرون من الملاحدة وأمثالهم من الغربيين هم العلماء العارفون المحققون الذين يجب تعظيمهم والاقتداء بهم . وقد خادع ـ كعادته ـ فى التلبيس بالتعبير عن السلف بالقدماء ، ولكن خانته محنته فوصفهم بالوصف الذى لا ينطبق إلا على الصحابة والتابعين ، حيث ذكر فى وصفهم بأن جميع فرق المسلمين على اختلاف مذاهبهم معظمون لهم مقدمون لآرائهم ، ومعلوم أن هذا الوصف لا ينطبق الا عليهم . وغرضه الأكبر من هذا المبحث هو الرد على أولئك الجماعات الذين عارضوه فى دعايته الالحادية وهم الذين نقل عنهم أنهم يرون المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى وإقامة الفرائض إلخ ما ذكره . وقد علم أن كثيرا من هذه الجماعات يرون أن الأساس الوحيد لاعادة مجد الاسلام هو الأخذ بما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام مالك «لا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها» ولما كان يعلم أن من طالع كتابه هذا وتأمله حقيقة التأمل جزم بلا أدنى ريب أنه مضاد لدعاية القرآن ولما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل القرون المفضلة وأنه دعوة صريحة لتقليد الملاحدة والمنافقين العصريين ، ومعاكسة ظاهرة لما قرره المسلمون فى كتبهم المعتمدة ، لا سيما كتب السلف الصالح والصحاح والمسانيد ونحوها فى الأصول والفروع ، ولا شك أن وجود تعظيم السلف

ووجود هذه الكتب والايمان بها يضاد غاية المضادة اتباع أغلاله والأخذ بها واعتبارها ، فكان لا بد له من ازالة هذا العائق الكبير ، فانه من المستحيل أن يجمع الانسان بين الإيمان بكتابه وكتب الدين كما أشار الى هذا فى دعواه بأنه يجب تعليم الناس الكفر بالأولين وإفهامهم بأنهم ليسوا على شىء من الفهم والعلم كما يأتى ، فمن أجل هذا ـ ومن أجل ما ذكرناه من الأمور الاخرى ـ خصص هذا المبحث لهذا الغرض نفسه زيادة وإيضا حالما أدخله فى تضاعيف المباحث المتقدمة . وقد نفث كل ما بصدره من غل وخبث وعداوة للدين وأهله فى هذا وأظهر من المحادة والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين مالم يتجاسر على مثله أكفر كافر ولا شر زنديق

اذا تقرر هذا فاعلم أنه جرى على عادته من اختراع الكذب ثم البناء عليه ، فهو فارس مغوار فى حرب أوهامه والرد على أكاذيبه المزورة ، فقد أوهم الجهلاء ومن لا يعرف عن الاسلام والمسلمين شيئا أن المسلمين على جانب عظيم من الغباء والجهل وفساد العقل ، وأنهم يوجبون تقليد جميع المتقدمين فى كل شىء ، وأنهم يدعون أن الخير كله فى كل متقدم ، وأن الشر كله فى كل متأخر ، وأن كل المتقدمين هم أهل الدين والعلم وأن جميع المتأخرين بعكس ذلك ، ثم ركب على هذا تشنيعه واستهزاءه ووقاحته وهذيانه الطويل المتناقض ، وأى عاقل من المسلمين يعلم أن هذا كله كذب وبهت وفرية وفجور لا صحة له أصلا بهذا الاطلاق ، ولكنهم يقولون إن الواجب المفروض اتباعهم فيما أوجب الله من الأمور الدينية التعبدية بأن يؤخذ بما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه واهل القرون المفضلة على حسب ما رتبه الله ورسوله فى الايجاب وغيره ، واجتناب ما يخالف ذلك . أما الامور الدنيوية المحض كالامور الصناعية والتجارية ونحو ذلك فهذه ليست بأمور تعبدية بمجردها بل هى أمور عادية دنيوية يتبع فيها ما كان فيه صلاح للأمة أفرادا وشعوبا ، وجميع النصوص إنما دلت على اتباع السلف الصالح فى الأمور الدينية ، وأما الدنيوية

التى لا نص فيها فالأصل فيها الاباحة ، وهى بالقصد والنية اذا أسست على دين وهدى صارت خيرا وقوة مضافة الى قوة يثاب الانسان عليها ، وكل ما فيه نفع دنيوى فالمؤمن أحق به وأولى به كما قال النبى ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن اذا وجدها فهو أحق بها » ولم يأت نص يمنع من تعاطى هذه الأمور ، وانما جاءت نصوص تمنع من أشياء معينة لوضوح ضررها ، أو لأن ضررها أكثر من نفعها كالربا ونحوه ، وهذا عمم الدعوى فى المتقدمين والمتأخرين بالاطلاق لقصد التلبيس وتشويه سمعة الاسلام . ومعلوم أن المسلمين ينكرون غاية الانكار على من يقتدى بأعمال الجاهلية الأولى وهم من المتقدمين فكيف يسوغ أن يقال إنهم يعظمون كل متقدم ويأمرون بالاقتداء به ، وينكرون على كل متأخر ، وهذا أمر ظاهر يعرفه أى عامى ، ولكن هذا شأنه لا يهاب من مكابرة ولا بهت ولا فجور قال :

(أمامنا لا وراءنا)

لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه (زعموه حديثا نبويا) (١)

أمس خير من اليوم واليوم خير من غد وهكذا حتى قيام الساعة

(زعموه من كلام ابن مسعود)

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس الا شحا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق

(زعموه أيضا حديثا)

كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزيد (حديث أيضا على ما زعموا)

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف (٢)

كتب العقائد المقررة

---

(١) هذا الملحد بنفسه ممن زعمه وصححه واحتج به كما يأتى

(٢) المشهور « فى ابتداع من خلف »

قلت : هكذا ساق هذه الروايات مصدرا بها هذا المبحث ، وغرضه من ذلك أن المسلمين يعتقدونها وأنها دالة على أن كل القدماء خير من كل المتأخرين ، وهذا لا يفيده شيئا لأمور :

أولا : أن هناك روايات كثيرة أخرى فى معناها تؤيدها وتوضح معناها المراد منها ، وأن المراد أن الخير فى التمسك بأصول الدين كما فى الحديث الصحيح فى صفة الفرقة الناجية أنها من كان على مثل ما هو عليه وأصحابه كما سيأتى بيان الروايات فى هذا الشأن

وثانيا : أنه ليس فى هذه الروايات ما يشهد لما ادعاه من التعميم كما سيأتى إيضاحها

وثالثا : أن هناك روايات أخرى صريحة فى بيان المتقدمين والمتأخرين والمراد بهم كما ستراه

أما حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » فهو حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه ، ورواه أهل الكتب المعتمدة كالسنن والمسانيد ، وقد صححه هذا نفسه واحتج به على مشايخ الأزهر فى نبذته (شيوخ الأزهر) فقوله هنا « زعموه حديثا نبويا » مهزلة مضحكة . فانه ثابت فى الصحاح التى اعتمدها المسلمون ، ثم هو نفسه ممن زعم ذلك واحتج به على من خالفه ، وقد حاول هذا الملحد الفرار والتخلص منه هنا بالطعن فى صحته وتحريف معناه ، وهيهات وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وسيأتى كلامه بنصه ، وأما الأثر الذى نسبه الى ابن مسعود فلا نعرفه بهذا اللفظ ، فمن الواجب عليه أن ينسبه الى مصدر معين ، وهو لم يفعل فلا يعتد بقوله لثبوت كذبه وخيانته ، ولكن المروى فى السنن عنه أنه قال : من كان مستنا بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة : أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه . فاعرفوا

فضلهم ، واتبعوهم على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها فان الأول لم يدع للآخر مقالا ، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم . رواه أبو داود . فتبين من هذا أن المراد بذلك أمور العبادة . وهذا هو الذى فهمه المسلمون واعتمدوه واعتقدوه وقرروه

وأما الرواية الثالثة : فقد عزاها السيوطى فى (الجامع الصغير) الى أحمد والطبرانى وأشار الى تحسين اسنادها ، والكلام فى معناها يأتى أيضا

وأما البيت الذى ذكره فانما عنى صاحبه بقوله « وكل خير فى اتباع من سلف ، أى السلف الصالح فى أصول الدين والأمور التعبدية كما بين ذلك الشراح وكما عنى ذلك غيره وهو الذى لا يفهم أحد من المسلمين غيره بل نفس العقيدة تدل على هذا فانها فيما يختص بعقيدة الدين لا فى غيرها ، فانها لم توضع للأمور الصناعية ونحوها ، ولهذا قال « وكل شر فى ابتداع من خلف » ومعلوم ان الابتداع هو فى أمر الدين فى اصطلاح علماء الدين وهذ حرفه فنقل « اتباع » بدل « ابتداع » ، وبكل حال فلا حجة له فيه سواء كان بهذا أو هذا .

ثم انه ترك ما نقله العلماء الأمناء فى عقائدهم المشهورة فى هذا الشأن وتفصيلهم فى ذلك ، واكتفى بهذا البيت الذى لا حجة له فيه كما هو ظاهر

ثم قال « من الحقائق التى ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله - حيوانه ونباته وجماده - لم يزل دارجا فى طريق التطور ، متنقلا من طور الى طور أفضل ، ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف »

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ونازعت فيه أشد المنازعة فلم يرتفع عن متناول نزاعك ، فعاكست فيما ادعيته هنا حقائق ، وادعيت أن معاكستك

هذه هى الحقائق التى لا يمكن الخلاف فيها ولا المماراة ، فقلت فى نبذتك (الثورة الوهابية) صحيفة ١٣٩ ما نصه : «وأما الزعم أن النفوس الانسانية ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتدلى بطفرة من الجهة الخلقية تدليا لا تمكن المماراة فيه ولا الخلاف فى بعد قراره ، وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخصبت مرتع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرقى المزعوم إنما هو رقى صناعى صرف لا حظ للاخلاق ولا للكمال فيه ، والرقى الصناعى إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة على الانسانية وعلى الأخلاق وعلى الصناعة أيضا وعلى كل شىء ، وقائل غير هذا إما غاش أو جاهل» انتهى كلامك بحرفه . وهو صريح فى نقض ما ذكرته هنا ، وقد حصرت الرقى بأنه فى الصناعة فقط وأن ذلك أيضا لا ينفع ان لم يصحبه الرقى الخلق ، وصرحت أيضا بأن قائل غيره إما غاش وإما جاهل ، وصرحت بأن هذا الرأى مما لا يقبل المماراة ولا الخلاف فى صدقه . وهذه الحقيقة التى قلتها هنا إنما رأيتها فى الحين الذى استوقدت فيه النار فأضاءت ما حولك ، فلما أن ذهب الله بنورك ذهبت تنكرها وتتخبط فى ظلمات الشكوك والشبهات . وهذه الجملة كافية فى الشهادة عليك ببطلان ما ذكرته فى هذا المبحث ، بل فى أغلالك كلها فى الاطناب والاسهاب فى تركيز عقيدة التطور وتثبيته وكون التطور عاما فى كل شىء حتى ادعيته فى العلوم الصحيحة كلها ، وقصدت بذلك التنفير من حب السلف الصالح والبعد عن الاقتداء بهم ، فهذا الغل المحكم الذى عملته يداك يشد فى عنقك وتخنق به فلا يمكنك الخلاص منه أبدا ، لأن غاية ما تعتذر به عنه بأنك ادعيت ذلك قبل أن تكفر بعد ايمانك ، فاذا اعتذرت بهذا قيل : واذ كفرت فلا يقبل قولك فى دين المسلمين ، فان الكافر مردود قوله فى دين المسلمين ومذاهبهم ، وهذا يبطل الكتاب كله ولا يمكنك أن تتنصل منه بأن ذلك نظرية قد بان لك خلافها بعد ، فانك صرحت فيها بأن هذا شىء ضرورى

واقعى من الحقائق ، وصرحت بأن ذلك لا يمكن الخلاف ولا المماراة فيه ، وحكمت بأن قائل غيره (إما غاش وإما جاهل) ، وهذا صريح فى أن هذه الدعوى من أعظم الضروريات . ثم انك هنا فى أغلالك هذه ذكرت ضد ما ادعيته هنالك [١] وادعيت ان حقائقك ترتفع عن متناول النزاع . ويل امك فبأى حقائقك تريد أن يأخذ الناس ، تأتى الى الآراء الغامضة المتضادة ثم تدعى أنها حقائق ، وتارة تقول فيه أنه يرتفع عن متناول النزاع ، وهنا تقول انه لا يمكن المماراة ولا الخلاف فيه ، وان قائل غيره إما جاهل وإما غاش ، ثم تريد أن يأخذ الناس بقولك ، فمن أين تعلمت هذه الترهات والرعونات والجنون الظاهر ، ألا قبحك الله ما أقبحك وأقبح كلامك . لقد أصبحت عورة لا يسترها حجاب ، ويكفى العاقل أن يحكم عليك بالحكم الذى حكمت به على نفسك فى هذه الجملة نفسها ، وهى أنك إما غاش وإما جاهل ، أو غاش وجاهل معا .

ويقال ثانيا دعواك هنا أن التطور فى هذه الأمور شىء يرتفع عن متناول النزاع دعوى كاذبة خاطئة ، بل كثير من أهل المعرفة فى هذه الأمور من علماء النفس وغيرهم ينازعون فى ذلك ، وهذا أحد علماء النفس عندهم المدعو (شيلر[٢]) منكر استمرار التطور . وكذلك (هلدين) وهو من أشهر مشاهير

---

(١) سيأتى تصريحه بأن التطور شامل حتى للأخلاق .

(٢) شيلر من العلماء المشاهير الألمان وهو استاذ بجامعة بون قال فى كلام له : لم يطرأ أى تحسين على النوع البشرى منذ مدة طويلة من السنين ، وهذا ثابت بالنتائج التشريحية للجسم والمخ ، فان عقل الانسان فى القرن العشرين لا يختلف وعقل الانسان منذ فجر التاريخ . إلى أن قال : وإذا كان الانسان قد توصل الى عدد من الاكتشافات والاختراعات العظيمة خلال القرنين الأخيرين فليس يعنى ذلك أن عقله قد ارتقى أو تطور ، بل يرجع ذلك الى المصادفة فى غالب الأحيان ، والى تراكم المعلومات التى توارثها الانسان فى العصر الحديث عن آبائه وأجداده خلال مئات السنين الماضية =

علماء النفس منكر ذلك أيضا ، وقد نقلنـا شيئـا من كلامهما فى انكار استمرار التطور ، بل ادعى (هلدين) بأن الظـاهر العكس[١] وأكثر من علماء النفس منكرون ذلك فضلا عن غيرهم من علماء الدين فانهم مجمعون على أن التطور فى الأخلاق الفاضلة غير صحيح

واذا كان علماء النفس أنفسهم مختلفين فى ذلك وكلامهم متضادا علم أن ذلك أمر غـير محقق لديهم فكيف بغيرهم ، والنصوص صريحـة فى بطلانه فى الأخــلاق . والكلام فى مسألة التطور طويل عريض ، ونحن لا ننكر وجود التطور فى بعض الأمور ، لـكن هـذا التطور الذى يدعيه باطل ، وقد حقق الكلام السيد محمود الفيضى فى (كتاب الوجود) فى مسألة التطور كما حققه غيره

فصل

ثم قال « وعند العلماء أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة ، ولا بحالة فيها استعداد للرجوع الى الوراء ، ولا للانتقال من الكمال الى النقص ، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدائيا ، وأنه قد ظل يتنقل من وجود الى وجود ومن شكل الى شكل ، وأنه قد ظل فى عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود الحياة فيه »

فيقال : قد علم أنك لست من أهل هذه العلوم ولا خبرة لك بها ، وغاية ما لديك أن تقلد فيها بعض أهلها ، واذا كان الأمر كذلك فلم تسفه آراء علماء

= بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا ، والخلق هو رباط المجتمع السليم ، وليس أدل على ذلك من إنشاء دور الرقص والملاهى المبتذلة وتفشى الآراء المتطرفة المادية ، وفى هذا دليل على ثورة الجنس البشرى على الأوضاع التى فرضتها الأديان . انتهى من (الشواهد) ص ٥٥ و ٥٦

(١) راجع مجلة الهلال شعبان ١٣٦٦

الدين من أهل الحديث والتفسير والفقه وترميهم بالجهالة والتقليد وعدم الفهم في علومهم التي عرفوها وعلموا حقائقها حتى كانت لديهم ضرورية كالشمس ، ثم لا تكتفي بتجهيلهم حتى تعاكسهم في أقوالهم وتحكم بالجهالة والبلادة حين خالفوك في مثل هذه الأمور الغامضة المضادة لبراهين القرآن والسنة ، ثم تقلد فيها بعض من يدعي معرفتها تقليدا أعمى ، وتدعي بأن ذلك ثابت ثبوت الحقائق ، ثم تحتج بذلك على المسلمين ، ثم تسفه رأى من يتوقف فيها أو يكذب بها ، ثم تنقلب على عقبك مرة اخرى فتدعي أن الانسان لا يمكن أن يفهم حتى يشك ، والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، وأن الشك والفهم شرطان في تحصيل العلم ، هكذا تقول ، وهكذا تفعل ، فلم لا تشك في هذه العلوم الغامضة الدقيقة وأنت لست من أهلها ، مع العلم بأن أكثر أهلها ممن عرف بالخبث والكفر ومعاداة الأديان والعداوة لها . ثم مع هذا كنت في غاية الشك والريب في كثير من النصوص الدينية ، بل أكثرها ولا سيما أصول الدين فانك في غاية الانكار لها فضلا عن الشك فيها ، أما كتب علوم الدين فهي عندك كما قلت فيها ليس لها أدنى قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، فكيف تقدح في علوم المسلمين وتنكرها ثم تحتج عليهم بعلوم أعدائهم وتوجب عليهم تصديقها وتدعي أنها ثبتت ثبوت الحقائق ، ثم تركب عليها أمرا آخر وهو الاحتجاج بثبوت التطور ، ثم تركب على ذلك ما هو أدهى وأمر وهو أن المتأخرين من هؤلاء الملاحدة اعلم من المتقدمين وأفضل منهم وأوسع علوما وعقولا ، ثم تدعي أن هذا من الحقائق الازلية الأبدية التي لا يستغنى عنها مسلم ، وكل عاقل يعلم أن هذه الدعاوى التي افتريتها باطلة بالشرع والعقل والحس ، فان الأخلاق الفاسدة الموجودة في الزمان القديم منذ آلاف السنين تتطور زيادتها في الأزمنة الأخيرة تطورا مدهشا لا ينكر ، هذا مع اتفاق العقول كلها على أنها تأخر وفساد في الفطرة وضرر ظاهر في الشعوب والأفراد مثل الخيانات والكذب والبهت واللواط والزنا والظلم والعدوان والحروب

العدائية والأحقاد والضغائن وأمثال ذلك فهذه الأخلاق وأمثالها قد عمت وطغت فلا يستطاع أن تنتشل منها قريبك الذى تشفق عليه ، بل هى تزداد بالرغم من كثرة التعليم وتطور الأفكار فى الأمور الأدبية والصناعية ، وهذا برهان على أن النفوس تزداد انحطاطا فى اتباع أهوائها وشهواتها ، واتباع الأهواء والشهوات هو أصل أكثر الفساد . ومعلوم أن صلاح الأخلاق وتقويمها وتنويرها إنما يحصل بالعلوم الدينية الصحيحة ، فكلما كثرت العلوم الدينية فى أمة تحسنت أخلاقها وكثر فيها العدل والاحسان ، فارتفعت نفوسها وقويت وعظمت ، وكلما بعدت عن الدين وعلومه تدهورت وانحطت الى الوحشية والهمجية ، وكل مايوجد فى الأمم المتمدنة الغربية وغيرها من أخلاق راقية فانها مأخوذة من الأديان نفسها ، ولهذا كانت تعاليم الأديان هى الكفيل الوحيد لصلاح النفوس وشفائها وتقويتها وترقيتها ، وفقدانها هو العامل الوحيد لهدمها وفسادها ورجوعها الى الأخلاق الوحشية الهمجية من الظلم والعدوان والفحشاء والمنكر ، وهذا هو الواقع الذى لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة (١)

فصل

ثم ذكر العبارة الطويلة التى نقلناها فى المبحث الأول التى أولها قوله : « علم الكون ـ أول ما علم ـ فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا ـ الى قوله ـ إن أنفس شىء الدنيا كاللآلىء مثلا لا يمكن الحصول عليه لولا

---

(١) ثم الصناعة من حيث النظر اليها بالجملة لا يمكن أن يحكم عليها بأنها جاءت بخير للبشر ، فمن الذى يستطيع أن يقول ان الغاز الخانق وما استنتجه علماء البكتريا من مكروبات أو ان القنبلة الذرية كل هذه جاءت تحمل الخير والراحة للشعوب ، بل أكثر المفكرين يرون أن ضررها فى الجملة أكثر من نفعها ، فثبوت مطلق الخير فى تطورها للبشر جملة ممنوع فيحتاج الى تحقيق ونظر

خضوعه لهذه العملية ، أى عمليه التطور ، وهذه العبارة تتضمن كيفية تخلق هذا العالم ، وأن الشموس ولدت السيارات والسيارات ولدت الأقمار حتى قال فيها : « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها أى تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها التى هى المادة الجامدة . فلا غرابة إذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد » الى آخر عبارته المتضمنة بأن العالم يحكم نفسه بنفسه لا بمشيئة الله وقدرته . ونحن نسوق عبارته برمتها إيضاحا للحقيقة ، وان كانت قد تقدمت ، لمناسبة الإتيان بها هنا فقال :

« علم الكون - أول ما علم - فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا ، مثل أن تبخر مقدارا من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء ، أو مثل أن تنثر مقدارا من الدقائق فى مكان نثرا متساويا . وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر (١) أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقلص ، فأصبح كتلة واحدة هائلة ، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع . فبقى على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين ، وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلا مستمرا استعدادا للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمل . وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود فى ذرته انفجارا فجائيا فى الظاهر ، موقتا معلوما مقدورا فى الباطن ، مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة . فتطايرت منه الدقائق والذرات تطايرا قائما على الحساب الدقيق ، فتفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية ، فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتجتمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين ، حتى أصبحت نجوما وشموسا . ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه والاستعداد

(١) انظر كيف أسند استطاعته الى نفسه فى هذا الأمر العظيم على حد قوله

المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التى يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التى إحداها مجموعتنا الشمسية التى نحن إحدى رعاياها ... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضا وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون - أى الأقمار - من حولها كما كانت هى من حول شمسها . وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التى يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعا لسنة هذا الوجود . والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها - اى تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة الجامدة . فلا غرابة إذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد . وبعد هذا التوزع وهذه الانقسامات فى ذرة الكون الاولى الكبرى لم يكن شىء منه صالحا للحياة أو للاستقرار بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة فى الارض - وهى منفصلة عنها - بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وقدروا عمر الارض بنحو ألفى مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا من نحو ثلاثمائة مليون سنة [1] أى إنها ظلت حوالى ألف وسبعمائة مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الانسان فى الأرض بثلثمائة ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم ، ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الانسان الذى هو أرقى الموجودات.

(١) قال (لو كنت دى نوى) مؤلف كتاب (مصير الانسان) ومن أشهر مشاهير علماء الطبيعة « لقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف بدأت الحياة » ذكره فى (الشواهد)

فيها ، أى انها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تتهيأ لوجود حياة الانسان المعدود كائنا راقيا . وما من شيء فى هذا الوجود وصل الى حالته التى هو عليها إلا بعد أن سلك هذا السبيل - سبيل التطور المنظم البطيء - فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق »

قلت : فهذا برهانه على مسألة التطور ، وهذا برهانه على القدح فى السلف الصالح ، وأن ملاحدة هذا العصر أعلم منهم وأفهم . وانظر الى النقطة الخبيثة فى قوله « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها -أى تحكم الكائنات الحية- إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة الجامدة » تجد هذه العبارة صريحة جدا فى أن النواميس من المخلوقات المولودة وأنها هى التى تحكمنا وتحكم غيرنا من الكائنات الحية ، فصار العالم يحكم نفسه بنفسه ، ولم يجعل لله حكما لافى هذا الموضع ولا فى غيره ، فعزل الله تعالى عن ملكه عزلا تاما ، فالمشيئة العليا عنده لا دخل لها فى التصرف فى هذا العالم ، وكون القوانين واحدة برهان على نقيض قوله ، فانه اذا كان الأمر كذلك فى القوانين فهى آية من آياته وأنه المتصرف فيها ، وأن النواميس محكومة تحت المشيئة ، اذ من المحال أن تنسجم القوانين أو ينسجم شيء من الأشياء انسجاما صحيحا كاملا من غير أن يكون انسجامه صادرا عن حكمة واتقان وعلم وإرادة ، فان أمور الفوضى كلها متناقضة مضطربة ، بخلاف أمور الحكمة والعلم والارادة والاتقان . ثم المصيبة العظمى أنه ذكر ما ذكره فى خلق العالم واعتمد عليه ودعا اليه وادعى أنه حقائق بل وجعله برهانا وقاعدة لهذا المبحث الخبيث كله فى معارضة أهل الأديان كلهم ، وقد علم كل من له أدنى إلمام بعلم الهيئة أن أهل الهيئة أنفسهم مضطربون فى هذه المسألة اضطرابا كثيرا لا ينضبط ، وأن هذا القول الذى ادعاه ساقط لا يعتد به الآن عندهم فضلا

عن غيرهم [١] وليس غرضنا هنا ذكر كلامهم فأن النصوص كافية لمن يؤمن بها فى إبطال ما ادعاه من أصله ، فان الله سبحانه قد أخبرنا عن خلق السموات والأرض وخلق الانسان بأحسن كلام وأجله وأجمله كما هو مذكور فى سورة فصلت وفى سورة النازعات وغيرها ، وقد كرر تعالى ما ذكره فى خلق آدم فى عدة سور لأنه تعالى قد علم ما سيكون فبين هذه الأصول بأوضح بيان لعلمه أنه سيكون فى هذه الأزمنة زنادقة وملاحدة يشبهون على الناس ويشككونهم فى معرفة الحق ودلائله ، وقد قدمنا سياق الآيات كما قدمنا كلام أهل العلم فى هذه الأصول مثل كلام الشيخ تقى الدين بن تيمية . ثم إن نفس هذه الدعوى تبطل مقصوده فى التطور ، فانه ادعى أنه وجد بدائيا ، ومعلوم أنه إذ ذاك لا يخلو من ثلاثة أمور : إما أن يعترف أنه كان فى الأزل كذلك على حالته ، وهذا يوجب أن يكون ثابتا أزمانا سحيقة ، وينتقض قوله فى عدم الثبوت ووجود التطور المستمر . وإما أن يكون مستحيلا عن حالة غير الغازية والسديمية ، فان كان عن حالة أكبر وأعظم منها صار متحولا ، وهو ضد التطور ، وإن كان عن حالة دونها فلا بد أن ينتهى الى مبدأ يقف التطور عليه وتنتقض دعوى ازلية التطور وأبديته أيضا كما تنقض دعواه أنه لا يوجد شىء من غير سبب مادى يخالف نواميس الطبيعة كما تقدم مرارا . وبالجملة فدخوله هنا فى هذا العلم الغيبي ، ثم جزمه بما ادعاه بدون برهان ، ثم احتجاجه به مع مصادمته للنصوص دليل على ضعف عقله وطيشه . ومسألة التطور مسألة طويلة عريضة وكلام الناس فيها كثيرا جدا ، وقد قبلها واحتج بها بحذافيرها مع

---

(١) قد أشار الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى كتابه (الشواهد والنصوص) صفحة ٥٣ الى ضعف هذه النظرية التى هى نظرية (لابلاس) عند أهل الهيئة ، وأشار الى ما ذكره شيلر وجيمس وهما من أشهر مشاهير علماء هذه البحوث وأنهما قررا خلاف هذا ، فراجعه

أنه ليس من أهل المعرفة بهذه الأمور ، وإنما هو مقلد لغيره جامد على قول مهجور ليس عليه أثارة من علم ، بل هو باطل شرعا وعقلا ، وبطلانه لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فلا نطيل فى رده زيادة على مـا تقدم فى المبحث الأول

فصل

ثم أخذ يبرهن على ما ادعاه فى التطور فقال :

« إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالاستغلال ، وحتى نسرف فى امتصاصها وامتصاص قواهـا الى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منهـا ، والى أن تـكاد تضعف عن القيام بوظيفتها - كما يفعل أحدنا اذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة - فنتركها لا تعطينا ولا نأخذ منها . ثم نرجع اليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان فاذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطى بسخاء . فكيف حصل هذا . إن يد التطور ويد الاستعداد للنمو والتحسن قد امتدت الى هذه الأرض فرجعت اليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها . اننا نعمد الى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية ، ولـكن نرجع اليها بعد مدة فنجدهـا قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى . فلماذا هـــذا . إنه الاستعداد الطبيعى للتطور ، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء » انتهى

فهـذه براهينه على اثبـات التطور الذى أطـار عقله فاستنبط به وجوب الاقتداء بافعال المتأخرين ورفض آراء السلف وأخلاقهم من المتقدمين . وهذا الذى ذكره هذيان بارد ليس فيه شىء من التحقيق أصلا . أما الأرض فما ذكره فيها فمنقوض بالأراضى التى لا تختلف زراعتها مهما زرعت فى كل وقت وهى كثيرة كاراضى تهامة باليمن فانا شاهدنا ذلك فى أكثرها ، إنها تزرع كل وقت صيفا وشتاء ولا تختلف زراعتهـا مع عدم استعمال أى شىء من الأسمـدة أو

غيرها (١) ويقال أيضا هذه الأرض التى تزرعها على الصفة التى ذكرتها ليس فى ذلك ما يدل على التطور ، فان غاية ما ذكرته أنها استردت قوتها الممتصة لا أنها زادت شيئا فوق القوة الأصلية المأخوذة منها ، وهذا ليس بتطور ، فانها قد كانت متوفرة فيها مواد نمو الزراعة وأضعفها امتصاص الزرع فنقصت لذلك وتحولت من القوة الى الضعف ، فلما تركت عادت اليها تلك القوة المفقودة إما لأجل مواد واردة عليها بسبب السيول والرياح أو لاجل تأكل العروق الموجودة فيها أو غير ذلك ، وعلى كل حال فالقوة المسترجعة لا تكون أكثر من القوة الأصلية الموجودة قبل الزراعة ، فان العناصر الاصلية على ما هى عليه ، إنما الزيادة والنقص فى المواد ، وهى تارة تضعف وتارة تقوى ، وهذا ليس بتطور حقيق ، فان التطور هو الزيادة شيئا فشيئا فى الكم والكيف لا استرجاع قوة فائتة ، فان هذا إعادة مفقود الى محله الاصلى . ومعنى هذا كله أن هذه الأرض عادت على ماكانت عليه من قبل ، لا أنها زادت عما كانت عليه قبل ذلك ، ومعلوم أن هذا لا يسمى تطورا ولا يفهم أحد منه معنى التطور الحقيق ، أما الشجرة فانها إذا شذبت أوراقها أو شيء من أغصانها ثم عاد على ماكان عليه فهو جبر نقص حادث لا أنها زادت تطورا فزادت على ماكانت من قبل ، فانه لو كان الأمر كذلك لزادت الشجرة زيادة مستمرة بهذا الفعل وهو خلاف المشاهدة فانها لا بد أن تقف على مستوى الشكل الطبيعى لها ، وسبب هذا فى الأرض وفى الشجر وفى الحيوان أيضا أن الله تعالى خلق هذا الفرد على شكل معين متناسب متسق غاية الاتساق والاتزان ، فاذا حدث فيه نقص لا يُذهب شيئا من العنصر الاصلى فانه يعود الى هيئته الأصلية والى مستواه الطبيعى لأن عناصر النمو التى بها حدث تكوينه قائمة حية ،

---

(١) أى لا ينقل الناس اليها شيئا كغيرها بل يكتفى بعضها بالرياح ، وبعضها بالسيول ، أو بما يحترق مما بقى من تلك المواد التى زرعت بها . ولماذا لا تتطور الأرض السبخة فتنبت الأشجار أو تنقلب عن حالتها بدون تبدل أو تغير

أما اذا ضعفت فانه يضعف استعداده لتكميل ما نقص به بمقدار ضعف العنصر الأصلى ، وهذا يتفاوت كثيرا فى الانواع ، فان النخلة اذا شذبت جريدتها الخضراء الكاملة فى البلوغ لم تعد كالعضو فى الانسان ، لكن النخلة تستعيض عن ما شذب منها بخروج جريدة أخرى بدلا عنها سواء شذبت أو لم تشذب لان النخلة تنمو من جهة وتتحول من جهة أخرى ، بخلاف الانسان فانه اذا قطع منه عضو أصلى فانه لا يعود على حالته وانما يعود ما كان قابلا للعودة ، كما اذا مرض وضعف ثم عوفى أو جرح جرحا لا يتلف شيئا من عنصره الأصلى الذى لا يسترد ، فما ذكره لا يصح دليلا على التطور ، بل لو ادعى مدع العكس ، أى أن ذلك يدل على التحول لكانت دعواه أقرب الى الصحة من قول هذا ، وذلك أنه اذا توبع فى الشجرة على الشذب فى الأغصان أو الأوراق فانها تضعف وربما تتلف ، ثم انها اذا تركت فلا بد أن تتحول الى النقص شيئا فشيئا ثم الى التلف . فالنبات ومثله الحيوان له ثلاث حالات : الحالة الأولى الضعف البدائى ، ثم يأخذ فى النمو الجسمى وما يتبعه ، حتى يصل المستوى وهى الغاية التى ينتهى اليها فى حدود وجوده الطبيعى ، ثم يرجع الى مبدئه متحولا ضد حالته الأولى الى أن يكاد أن يصل الى حالته الأولى فى الضعف حتى ينعدم وهكذا ، فاذا احتج بتطور نحو الشجرة أو الحيوان من هذه الناحية أمكن لمعارضه أن يحتج عليه بالعكس فى التحول ، قال تعالى ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ فجميع النباتات والحيوانات على هذا المقياس ، لان ايجادها على هذه الصورة ثم إحالتها ثانيا من أبدع مظاهر القدرة والعلم والحكمة والدلالة على البعث والنشور ، كما أن ذلك أيضا برهان واضح على ضعفها وعجزها وعدم قيامها بنفسها ، وأن وجودها ونموها وتلفها راجع الى أمور غيبية ، فأن العناصر والقوابل الأصلية الكلية هى هى ثابتة ، فلو كانت هى الموجدة لها بالذات والطبع لدامت بدوامها ، فان العلة الكاملة يجب وجود

معلولها ودوامه بدوامها ، هذا مع اختلاف أجسامها وأنواعها وألوانها وأعمارها وما فيها من بديع الصنعة والحكمة وحسن الاتقان ، فتبارك الله أحسن الخالقين

ثم قال « إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياما بديعا منظما ، ولولاها لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة فكل ما يحدث مما يجدد الصور والمظاهر والألوان ، ومما يعيد ما فقد ، ما هو إلا تطور وقيام بعمليته »

فيقال : هذا ممنوع يعرف منعه مما تقدم ، فان الصور المتجددة عوض عن صور متحولة ذاهبة ، فهى صور تصوّر وجود أمهاتها السابقة فهى مثلها ، فالتطور والتحول متعاقبان ـ فى الصور والمظاهر ـ كتعاقب الأيام والليالى مع أنهما ليس فيهما تطور والحكمة تجدد آيات الله على كل متجدد وتكررها على كل متعاقب ، والعبرة بها والتفكير فيها والاستدلال بها على قدرته ومشيئته وإرادته وعلمه وحكمته ورحمته ، فهى صور تخرج لصور عن صور منعدمة متحولة ، وهذا ليس بتطور حقيق ، فالتطور هو الزيادة العامة فى الأصول والفروع والكليات والأفراد ، وهذا الذى ادعيته ليس من هذا بل هو فى الأفراد خاصة مع كونه باطلا ومع كونه خارجا عن محل النزاع ، فان محل النزاع هو فى تطور الأخلاق والعلوم الدينية ، وأما العلوم الصناعية فتطورها ناشيء عن التجارب والضعف والحاجة والضرورة ، فان الضعف والحاجة والضرورة سبل الى شدة الخوف والرجاء وذلك يبعث على التفكير والتماس النجاة ، وذلك يبعث على العمل والرياضة فيه وكثرة التجارب وتقليب الأفكار ، مع أن كل جيل لا بد أن يكون له فكر متجدد على حسب ضعفه وحاجته وفساد خلقه ، فلا بد أن يكون له زيادة عمل فيما يناسب خلقه (١) ولهذا كانت الأخلاق الصحيحة لا

(١) لان كل فرد له ميزة عن غيره فى النظر والتفكير إما قوة أوضعفا ، فيستحصل من المجموع أفكار متنوعة يؤخذ منها ما يحتاج اليه بحكم الضرورة المتزايده فيتفق مع =

تتجدد وانما يتجدد ضدها ، فالحروب مكروهة عند أكثر البشر ومع ذلك تزداد ، وزيادتها دليل على فساد الأخلاق ، وكذلك الظلم والارهاق . على أن تطور الصناعات ليس خيراكله ، بل ربما يكون أكثره شرا ، ثم هو تطور جزئى قليل بالنسبة الى غيره ، وهذا الرجل نفسه قد ادعى فيما مر أنه إن لم يصحبه الرقى الخلق عاد هبوطا ونكبة كما تقدم . وأتباع السلف لم ينكروا تطور الصناعات كما سبق بيان هذا ، فما دام معترفا بأن تطورها ليس بتطور فى الأخلاق مطلقا فلا حاجة الى تطويل الاستدلال على ذلك ، لأن اعتراف الخصم يغنى عن إقامة الدليل عليه

ثم قال « ان دفن الحبة فى التراب أو ركز الغصن فيه ، ثم خروج تلك الحبة أو ذلك الغصن وارتفاعه فى الفضاء ، ثم تقسمه الى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور »

فيقال : هذا مردود أيضا ، مع أنه فى الأفراد خاصة ، وهو بديهى البطلان ، فان كل فرد من هذه يتحول حتى ينعدم فان خروج الحبة أو الغصن على هذه الحالة ما هو إلا ظهور صورة متجددة عن صورة متحولة او ذاهبة ، أو ما هو فى حكمها ، اذ لولا ذلك لانقطع النوع ، ولكن الله سبحانه أراد بقاءه ، فهو جل وعلا جعل الحبة والنواة أداة لايجاد النوع وإبقائه بحيث كلما ذهب نوع بآفة أو غيرها استعيض بدله وكان الحب أو الغصن يقوم مقام أبيه لحكم كثيرة منها تيسر نقله وغرسه واستعماله ولأنه أبدع فى مظهر القدرة كما نبه على ذلك فى القرآن العزيز ، ولهذا كانت حبة القمح مثلا تخرج مثل أمها لا

= زيادة الحاجات وزيادة الأفكار ، وهذا هو سبب التطور الصناعى ، بخلاف الخلق فهو بعكسه لان الترف الحاصل من تطور الصناعات يدفع الى حب الشهوات والفساد ، وهذا الحب يدفع الى فساد الأخلاق فانحلال الاخلاق وفسادها نتيجة الترف والترف نتيجة حصول شهوات النفس ومطالبها بسبب الصناعات المقتضية لذلك

أكبر منها ولا أصغر ، والنخلة أو غيرها كذلك ، وكون الحبة تأتى بحبات متعددة لأمور : أولا أن أمها الأصلية كذلك وهى إنما تعطى صورتها وتؤدى رسالتها الصادقة . وثانيا أن الحبات الزائدة كالوقاية عن فناء النوع ، فانه لو كانت الحبة لا تخرج إلا حبة واحدة لا نقطع النوع ، لان الآفات والعوارض كثيرة فى الاتلاف ولا سيما فى مثل الحبوب المأكولة ، وهذا يوجب الانقطاع . ثالثا أن الحب الزائد بمنزلة النفقة على بقاء الأصل ، فانه لو كانت الحبة لا تنبت إلا حبة مثلها مع كونها تستنبت وتحتاج الى عمل كبير - لم تزرع وتستنبت لعدم الفائدة ، والله سبحانه جعله غذاء باقيا نوعه ، فالزارع إنما يزرع ليكتسب فائدة عمله فيكون الزائد فى مقابلة العمل والنفقة على إيجاد النوع ، وهذا مطرد فى النبات الزراعى وكذلك الحيوان أيضا كالدجاج وكالجراد أيضا فانه لما كان حيوانا مستضعفا تطمع فيه أكثر الحيوانات على اختلاف أجناسها وأنواعها كثر نسله ليبقى نوعه ، وكذلك الشجر الذى لا ثمر له وينتفع به فان خشبه يقام مقام ثمرة ، وأما شجر البادية فلقلة نفاسته قلت مؤنته إلا إذا كان نفيسا مرغوبا فيه فلا بد أن يكون الحصول عليه شاقا أو يكون قليلا غالبا كما لا يخفى على من تتبع ذلك

ثم قال « لقد ثبت أن كل شىء فى الحياة يتحسن اذا لم يوجد ما يفوقه ، وأن طبيعة كل شىء دائبة علـــى عملية التحسين المستمر الدائب ، وثبت أن الأحياء الثلاثة - كما ثبت ذلك للجماد - فى عملية متواصلة فى سبيل التحسن والتحسين »

ونحن نعارضه بمنع الثبوت ، ويكفى أنه بنفسه قد منعه فى كلامه المتقدم ، فكل هذه دعاوى لا مستند لها فلا تقبل ، على أن قوله « اذا لم يجد ما يعوقه » كاف فى فساد دعواه ، فاننا نقول وجد ما يعوقه عن التطور الكلى وهو النقص الطبيعى ، فان المخلوق ناقص بالطبع ، فقولك ان كل شىء فى الحياة يتحسن اذا

لم يجد ما يعوقه كقول الآخر كل شيء كامل اذا لم يوجد ما يمنعه من الكمال وأمثال ذلك ، فهذا العائق أصلى طبيعى لا بد من وجوده

ثم قال « اما الانسان فليس هناك شك فى أنه كان منذ ثلاثمائة سنة - دع أكثر من ذلك - أضعف منه اليوم أجساما وعقولا ومعارف ، وليس هناك من يرتاب فى أنه فى هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة ومن ناحية التفكير ومن ناحية القوة البدنية تحسنا عظيما »

فيقال : نعم قد يكون ليس هناك من الزنادقة ممن يرى رأيك من يرتاب فى هذا الذى ادعيته لأنه ليس هناك من له مسكة من عقل ودين يشك فى بطلان ما ذكرته ، ويكفى فى بطلان هذه الدعوى أنك قد صادمتها وادعيت نقيضها فيما نقلناه عنك فى إبطال دعوى التطور فى غير الصناعات . ويحك كيف يشك مسلم أن هذه الثلاثة القرون المتأخرة خير من الذين قبلهم ، بل خير من القرون التى اثنى عليها النبى ﷺ بقوله « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد صرح فى هذه الطامة المرذولة بأن القرون الأولى التى قبل هذه القرون الأخيرة الثلاثة أضعف عقولا ومعارف وأفكارا من هؤلاء المتأخرين ، وأكبر من ذلك وأطم دعواه أنه ليس هناك من يشك أو يرتاب فى هذه الدعوى ، ونسى هذا الملحد أنه ادعى فى هذا المبحث نفسه ما ينقض هذا حيث قال فى صحيفة ٣٠٢ ما نصه « ولقد يعجب المرء اذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام قد عقمت فى عددها العديد وعمرها المديد عن أن تلد مولودا واحدا » (١) انتهى . ومراده بهذا أن هذه الجامعة قد بلغ عمرها من الطول

---

(١) المقصود من تناقضه هنا أنه معترف بأن عمر نوح طويل جدا سواء كان حوالى ألف سنة أو قريبا منها ، وهو هنا يعلم أنه ليس فى القرون الثلاثة من بلغ عمره قريبا من هذا ، فأين التطور والتحسن فى القوة البدنية ونحوها ، فكيف تتفق دعواه هنا وهناك

أكثر من عمر نوح أى فوق ألف سنة تقريبا ، فهذه الجامعة الاسلامية التى بلغت هذا المبلغ عجزت عن أن تلد واحـــدا ينفعها نفعا صحيحا ، فقد أقر بطول عمر نوح وبلوغه هـذا المبلغ وإلا لم يكن لضرب المثـل بعمره فائدة ، وهو يريد أنه هو المولود الوحيد فى هذه الجامعة فانه طلب أن يكون هو المقدم فى الأمر الى غير ذلك مما أسلفناه فى ادعائه لنفسه ، وانما يحصل هذا الادعاء لمن فيه نوع من هذه المزية ، وقد ترك جميع ما مدح به شيخ الاسلام ابن تيمية فى الصراع وجعله الامام الوحيد بعد القرون المفضلة الخ ما مدحه به ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامـــا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ وهذا صريح فى أن نوحا بلغ من العمر ما ينيف عن ألف سنة ، فاذا كان معترفا بذلك فكيف يدعى أن هؤلاء المتـأخرين فى القرون الثلاثة أقوى أجساما الخ ، ثم هـــذا صريح أيضا فى نقض دعواه فى التطور فى القوة البدنية ، وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أن طول آدم ستون ذراعا فى السماء ، والآثار الصحيحة فى هذا أكثر من أن تحصر ، ومن تأمل أفعال الأولين فى آثارهم الباقية وأفعالهم وأقوالهم ومكرهم علم أنهم أدهى من المتأخرين فى هذه الأزمنة ، وقد قال لوط عليه السلام لقومـــه ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ وهذا يدل على أن فساد الأخلاق فى الزمان الأول أقل ، فان اللواط أعظم فساد خلق كما قال الخليفة الوليـد بن عبد الملك « لولا أن الله ذكر اللواط فى كتابه ما ظننت أن احـدا يفعله » أى لنفور الفطرة منه . ثم إن هذا القول الذى قاله مجرد دعوى مصادمـة للشرع والحس والتاريخ المتواتر ، فيكتفى فى ردها بالمنع ، فمن أين له أن المتـأخرين أكمل عقولا ومعارف وأفكارا من الأولين وأنهم أحسن صورا وأبدانا منهم ، ومعلوم أن مثل هذه الدعاوى العارية من الحجة لا يعجز كل مـدع أن يدعى مثلها

ثم قال « وليس تطور الحضارة إلا تعبيرا عن تطور الانسانية ، فلو أن الانسان لا يتطور فى وجوده العام لما أمكن أن تتطور حضارته ، وليس ثمة شىء يرجع الى الوراء ويتقدم القهقرى ، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقا واحدة تؤدى به الى الأمام وإلى الأمام دائما »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، إنما هو تعبير عن تطور الصناعة فقط ، وهذا مما لا خلاف فيه ، ولا يلزم منه تطور حسن الصور ولا الأفكار ولا العقول ولا الأجسام لما تقدم ، وها نحن نرى أناسا نشأوا فى الحضارة ولهم فيها أصول عريضة وليسوا فى صورهم بل ولا اجسامهم بأحسن من غيرهم ممن نشأوا فى البادية الساذجة ، بل يوجد كثير من الجمال البارع والصور البديعة فى كثير من البوادى مالا يوجد مثله فى أناس من المتمدنين

وكذلك يقال فى الاجسام والأفكار وصحة التصور كالشعر وغيره ، بخلاف الصناعات لان أكثرها أمور اكتسابية بالتعليم ، ولهذا اذا علم أن هؤلاء الذين ليس لهم أصل عريق فى الحضارة لم يكادوا يقصرون عن غيرهم فى الفطنة والذكاء وقبول التعليم ، فعلم أنه لا يلزم من تطور الحضارة وجود التطور فى كل شىء ، بل ذلك راجع الى الأمور الصناعية وما يتعلق بها ، هذا مع أن كلامك الماضى ينقض هذا نقضا بينا كما تقدم . ثم أى علاقة فى هذا بأن المتأخرين أصح آراء من الأولين فى كل شىء ، ومعلوم أن أكثر أصول هذه الحضارة مأخوذة عن الأولين فهى موروثة عنهم ، وانما غير فيها الآخرون حسنا وقبحا أيضا ، وقد بينا فيما مضى أن الإلحاد رجوع الى الوراء بلا شك وهو فى المتأخرين فى هذه العصور أكثر ، كما أن فساد الأخلاق فيهم أعم

ثم قال « وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضا نصوص الدين ، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخانا كما قال فى الآية السابقة ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان ﴾ ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس

والسيارات والارض وكل شيء فيها »

فيقال : لكن الذى أخبرنا بأنه استوى الى السماء وهى دخان وأنه خلق السموات والارض هو الذى أخبرنا بأن نوحا مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وأخبرنا رسوله بأن طول آدم ستون ذراعا فى السماء وأخبرنا بأنه لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه ، الى غير ذلك من النصوص الواضحة فى الدلالة على أن الانسان يتأخر فى الجملة لا يتقدم ، فالعلم العقلى الصحيح دل على أن الانسان يتأخر ويضعف فى أموره كلها وكذلك النصوص التى لا تعد ولا تحصى ، فمن هو الذى يبلغ الآن فى العمر ما بلغ نوح أو قريبا منه ، وهذا كاف فى بطلان ما تدعيه . ثم النصوص انما دلت على خلق السموات والأرض على تفصيل يناقض تفصيلك كما دلت على أن الانسان الأول أكبر وأقوى أجساما وأطول أعمارا ، ثم قوله تعالى ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان ﴾ الآية صريحة فى أنه خلق الأرض قبل السموات ، وأنت عكست الدعوى فجعلت الأرض مخلوقة بعد السماء بملايين السنين ، فانها من السيارات المولودة من الشموس ، وأيضا النص دل على أن السماء حين خلق الأرض دخان ، وأنت عكست مدلوله فقلت ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس والسيارات والأرض وكل شيء فيها وهذا يناقض الآية مناقضة صريحة ، فانه أخبر بخلق الأرض فى يومين وقدر أقواتها وبارك فيها فى يومين ، ثم ذكر بعد ذلك أنه استوى الى السماء وهى دخان . وكل مسلم عاقل يعرف أن النصوص لا تنطبق على ما ذكرت أبدا ، فكيف تحتج بما هو حجة عليك ، ولكن هذا شأن المنافق يريد أن يجمع بين الدين والكفر والايمان والنفاق كما هو شأنك فى هذه الأغلال ، وكما هو شأنك فى الذبذبة دائما بين الأصناف المتباينة

يوما يمان إذا ما جئت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدنانى

ثم قال « وجاء فى النصوص أن الوجود كله فى تغير وتغيير مستمرين فى طريق الكمال ، ففى الكتاب الكريم ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وهذا يوم القيامة »

فيقال : قد ذكرت فيما مضى أن هذا العالم محكوم بسنن لا تقبل التغير ولا التبديل ولا الزيادة ولا النقصان ، فما هذا التقلب والمراوغة المنكرة . وليس النزاع فى التغير والتبديل مطلقا ، فان الرجوع والتقهقر تغير وتغير أيضا فلمَ لم تقبله ، إنما النزاع فى وجود التطور فى العلوم الصحيحة وأن المتأخرين خير من السلف الصالح ، وفرارك الى تطور العالم وتبديله يوم القيامة لا يفيدك شيئا فهو مع كونه خداعا لا يخفى على مسلم فهو خروج عن محل النزاع ، فان كلامك فى التطور الدنيوى والنزاع فيه ، ولم ينكر أحد من أتباع السلف فى وجوده يوم القيمة فلا حاجة الى هذه المداجاة والخداع الظاهر

ثم قال « وفى الكتاب ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ وليس من اللازم علينا أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطوار ، وانما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعانى »

فيقال : هذا تناقض ظاهر ، كيف تدعى أنك تطلق ما أطلقه الله ثم تدعى أنك تحمله على أحسن الوجوه والمعانى . ومعلوم أن حمله على هذه الوجوه ضد إطلاقه ، مع أنك حملته على أقبح الوجوه وأكرهها وأفسد المعانى وأخبثها . ثم انك تناقضت أيضا من وجه آخر حيث ادعيت أنك لا تلتزم ما قاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطوار ثم التزمت ما قاله بعض الشيوخ الخبثاء ممن هو مثلك ورفضت ما قاله جميع شيوخ الملة والدين ، ولعل مرادك أنك لا يمكن أن تلتزم بأقوال شيوخ الدين وتلزم ما قاله بعض شيوخ الملاحدة ، أو لعل السبب أنك أنت المقدم فى كل أمر ، ومن هو كذلك فليس من اللازم أن يلتزم ما قاله بعض الشيوخ أو كلهم كما ادعيته فى الموضع الآخر ، لان ذلك

ينافى التقديم (١) والذى يوافقه هو حمله على مقتضى ما يوافق هواك وإرادتك وتدعى أنه أحسن الوجوه والمعانى لكونه صدر من الشمس التى فى غير برجها والدر الذى فى لجج البحر ، فيجب أن يكون إذن على أحسن الوجوه والمعانى طبعا

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن كل فرد من أفراد هذا العالم له بداية وغاية ونهاية ، وأن ثبوت التحول فيه بعد التطور بديهى لا يمكن جحده أطال فى المراوغة واللجاجة فى التملص من ذلك وهيهات ، فقال :

« أما الشيخوخة والموت اللذان قد يحسبان من الرجوع الى الوراء فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بانقضاء دور من الأدوار التى تقوم المادة والعالم كله دائما بتمثيلها ، لتأخذ بتمثيل دور آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة ، فان العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة الغرض ، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة ، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه . وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدها مقصودة لأنها متممة للأغراض العامة التى رمى اليها بها ، وليس فى فصل من فصولها ولا فى مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلا على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة »

قلت : لا يخفى على عاقل ضعف هذا القول بل بطلانه ، فانه مغالطة محضة وعذر بارد لا يخرجه عن ما وقع فيه من الحجة القاطعة ، فان كل عاقل صحيح

---

(١) يتبين لك ان ايراده للآيات القرآنية احيانا كما هنا انه اعتبر القرآن تاريخا لارسالة من الله ، فهو ياخذ منه ـ ليستدل به على ما يريد ان يذهب اليه ـ وجها مخالفا ولا يتوقف عند نصوصه وكلمه اذا كان سياق بحثه يقتضى ذلك ، وهذا غاية الايغال فى الخبث (خ .)

الذهن يعرف أن ذبول الشجرة وأخذهـا فى النقص حتى تفنى ، وضعف الحيوان شيئا فشيئا حتى ينتهى الى الفناء والى الحالة التى ابتدأ منها برهان قاطع لا يقبل المعارضة ، فلا أوضح من هذا على وجود التحول والضعف الذى هو ضد التطور ، وقد بينا أن الصور المتولدة هى حلق من سلسلة الموجودات التى اختفت فى عالم الفنـاء ، وأن التطور الأول ما هو إلا بروز مظـاهر مسبوقة بأنواع مثلها ، لا يزيد الأخير عن الأول شيئا فى الجمله أبدا ، وقد جعلت هذه الصور التى تتبادل وتتعاقب آيات وعبرا ومنافع ينتفع بهـا مادة ومعنى ، كما قال تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ ما ذرأ لكم فى الأرض مختلفـا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ فنى هـذا دلالات وعلامات متعاقبة تبعـا لتعاقب الأفراد المنتفعة بهـا ، فأى حجة فى هذا عـلى التطور . وقد أطال العناد فى التخلص من هـذه الحجة ، وحسبك دليلا على فساد دعواه أنه هو بنفسه قد أنكر ذلك إنكارا باتا كما تقدم كلامه ، فكيف بغيره ، فلو اقتصرنا على خنقه بأغلاله ونقض ادعائه بأقواله لكان ذلك رأيـا حميدا ومسلكا سديدا ، فانه قطع لسانه بسنانه ، وهذه عادة الله فى كل من خرج عن دينه واتبع هواه

فصل

اذا عرفت ما تقدم ، وعلمت أن هذا الرجل تكلم بمـا تكلم به فى مسألة وجود هـذا العالم واحتج بمـا لم يحط به علما مستندا على بعض أقوال قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، فاخذ ما ذكروه مـع علمه باختلافهم فى ذلك اختلافا متباعدا ، ومـــع علمه أنه مصادم للنصوص الدينية مصادمة واضحة لا تقبـل الشك ، ومع علمه بأنه ليس من أهل هـذه العلوم ولا دراية له بها ، ومع هـذا كله استسلم لما قاله بعضهم استسلاما كاملا وقلدهم تقليدا أعمى بلا أدنى قيد أو شرط ، فانظر الى كلامه هنـا فى علماء الملة

الاسلامية من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أهـل القرون المفضلة ومن بعدهم وطبق فعله هـذا على فعل أسلافه من منـافقة اليهود إذ قالوا للمشركين ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ قال وهذا لفظه :

« أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية ، واختيروا لقيادة الفكر الاسلامى فى أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم ، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهنى وموجة من موجـــات العماية الأصيلة ، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد فقاموا ـ وهم يترنحون من الغبـــاوة ويتمايلون على أنغام الشيطان ـ ليوقعوا على أكذوبة علمية [١] من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية فى التاريخ ... فقد زعم هؤلاء ـ بين هتاف الغباء المتواصل ـ فى كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبدا وألا يمـد بصره بين يديه أبدا ، وأن يرجع القهقرى وينكص الى الوراء ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق وبالعدالة وبالنظام الاجـتماعى المبرأ من العيوب والنقائص [٢] . . . وزعموا أن كل خير فى أعمال الماضين ، وكل شر فى أعمال المتأخرين ، وأن كل خير فى اتباع من سلف ، وكل شر فى اتباع من خلف [٣] وأن كل ما يمكن تصوره فى الخير فقد مضى ، وكل ما يمـكن تصوره من الشر

---

(١) هى تفضيل صدر هذه الامة على المتأخرين ، وحديث « لا يأتى زمـان إلا والذى بعده شر منه » وقد صححه هو واحتج به ، ولـكنه راوغ فى التصريح بذلك خوفا ورهبة شأن الزنديق

(٢) لقد غمغم فى بيان الحقيقة ، وهى أن أئمـة المسلمين مجمعون على أن السلف حازوا قصب السبق فى الأخلاق الفاضلة الدينية ، ولـكن هذا الملحد جرىء على السب غير جرىء على بيان الحقيقة والتصريح بها للخوف والرعب الذى فى قلبه ، كما قال فيه السيد قطب : « هو رجل تنقصه الجرأة أن يقول ما يريد أن يقوله »

(٣) المشهور فى البيت « فى ابتداع من خلف »

فقد بقي ، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد، وأنه اذا كان خيرا وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الأواخر . . . »

قلت : هذا الموضع هو من تلك المواضع التي اختبل فيها وتخبطه الشيطان من المس ، وكل هذا الهراء الذي قاله نفثة مقهور ، وأنه معثور ، وما ضر السحاب نبح الكلاب ، وبهذا وأمثاله تعلم أنه إهاب ملىء خبثا وبغضا ومقتا للاسلام وأهله من قدمه الى مفرق رأسه، ولو أن هذا المأفون لم يتملق لهؤلاء الذين ذكر أنهم يقدمون السلف على الخلف ويتضرع اليهم ويخضع لهم خضوعا لا نظير له ويعمل معهم كما يعمل الكلب مع صاحبه لكان له شيء من العذر ، أما والحالة هذه ثم يريد أن ينقم عليهم ويكيل لهم السباب كيلا فصفاقة وسقوط لاحد لهما

أضحى يسد فم الأفعى باصبعه يكفيه ما قد تلاقى منه إصبعه

إن هذا الزنديق لما سئل عن هذا الادعاء : من أين وجدت أن أئمة المسلمين الذين قلدوا الزعامة الدينية قالوا هذا القول الذي ادعيته ، وفي أي كتاب أو عقيدة معتبرة وجدته ، وعن أي عالم سمعته ، أخذه الرعب وتنصل من ظاهره ولم يقدر أن يجاهر بما يفهمه الناس منه ، بل لجأ الى النفاق والزندقة والتأويل المضاد لنص كلامه كعادته في المكابرة والنفاق الذي لا حد له

ليت شعري ، من هو الذي قال من أئمة المسلمين أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه ابدا الخ ، قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأسهله عليك وأخفه على لسانك ، وقصده من هذا الافتراء أن المسلمين يقولون كما قال الامام مالك « لا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها » وانهم متفقون على أن خير هذه الأمة هم الصحابة وأهل القرون المفضلة ، وأنه يجب اتباعهم في الاخلاق الدينية . هذا هو مقصوده ، وإلا فهو يعلم أنهم لم يقولوا نه يجب على

الانسان أن ينكص الى الوراء ولا يمد بصره بين يديه أبدا ، فان هذا الادعاء بهت وفجور لا يخفى على عاقل ، ولكنه لما كان فيه شبه قوى من اليهود بدل قولا غير الذى قيل له : بدل قول المسلمين « لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها » بدعواه أنهم يدعون أن تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يلتفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه . فانظر كيف شابه اليهود هذه المشابهة التى قل أن توجد فى غيره ، لانه لما شابههم فى الاعتقاد والاخلاق شابههم فى البهت والتحريف وإبدال القول بقول غير الذى قيل له

يا صاحب الاغلال ، غلت يداك كما غلت أيدى إخوانك وسادتك ، فى أى كتاب وجدت هذه الأقوال التى ادعيتها على هذه الصفة وعلى هذا اللفظ ، وعن أى عالم سمعت ذلك ، وكيف تهجم على أمة عظيمة اسلامية منتشرة فى مشارق الارض ومغاربها فتنسب اليها هذه الأمور التى لو سألت عنها مسلما واحدا يعرف دينه لأنكرها ، فكيف بمن قلدوا الزعامة الدينية كما تدعى ، بل فكيف بسائر أهل الدين على اختلاف مذاهبهم كما صرحت بذلك فيما يأتى . تالله لقد عاد الاسلام غريبا ، ولا عجب اذا قامت هذه الحثالة اليهودية تتحدى المسلمين أو العرب وتطمع فى بعض أوطانهم اذ كان مثل هذا يشتم أئمة هذه الأمة وهو فى وسطها بكل ما خطر على باله غير مبال بما يأتى وما يذر ، وهل هذا الا من إدبار الدين وضعف احترامه فى نفوس الأكثرين ، فانا لله وإنا اليه راجعون

ثم قال « وقد حاولوا ـ والبلاهة تحدو لهم ـ أن يعززوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى اصحابه وإلى الأئمة المقلدين ، وجدوا فى نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفى ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقى عليها وينضوى اليها أربعمائة مليون من الاجناس المختلفة المتباينة الآخذة بأعظم دين جاء

لايجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقى المستمر [1] وقد استسلم لهذه الثقافة او لهذه الخرافة كل الطوائف ، فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها فى شعرهم وأدبهم وتاريخهم ، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام فى الدين أو فى الأخلاق أو فى الوعظ . وقد غبروا زمانا قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون فى تركيزها فى النفوس وفى المعتقدات ، حتى قام عليها من الاجماع بين الخواص والعوام ما لم يقم على قضية أخرى ، وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بها مما يتسامى على الخلاف والجدل . . . ولو ان قائلا قال إنه لم يدر على خاطر انسان الشك فيها وفى صحتها كل هذه القرون لما كان قائلا باطلا ، ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيقى أكبر مدة من الزمن لذكرنا هذه القضية أول ما نذكر » . انتهى

فيقال : نعم هذه القضية هى كما ذكرت وكما علمت فى الاجماع عليها من جميع طوائف المسلمين على رغم أنفك . وهذه شهادة سجلتها على نفسك فى الخروج عن طريقة المسلمين ، والمنابذة لهم ، وأنك متبع غير سبيل المؤمنين . فانك هنا اعترفت صريحا بثبوت الاجماع الحقيقى عن جميع فرق الاسلام أزيد من عشرة قرون وخالفتهم وادعيت بعد أن صرحت باجماعهم بانهم غالطون فى هذا الاجماع المحقق ، ومخالفة الاجماع المحقق كفر صريح عند جميع المسلمين ولا سيما فى المسائل الاصولية ، فانك اعترفت بان الاجماع الحقيقى من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفين والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام فى الدين – قائم بالايمان بهذه الثقافة ، ومعلوم قطعا أن هؤلاء لم يتفقوا إلا على تقديم الصحابة والقرون المفضلة فى الأخلاق الدينية ، وأنهم أفضل الناس بعد الانبياء فى

---

(١) احتاج فى هذا المضيق الشائك إلى الخداع ، فهو هكذا يرتفع ثم يرمى بنفسه من حالق

ذلك ، وأنهم هم الذين على الهدى والرشد والخير ، وأما الرافضة فأنت قد أخرجتهم من الملة فى كتبك السابقة فأنت لا تعتدّ بهم ، ومع هذا فقد زاحمتهم فى هذه الرذيلة ، بل زدت عليهم فلم تستثن أحدا دون أحد ، فهذه الوثيقة التى حكمت بها على نفسك شاهدة عليك بانك مخالف للأمة كلها ، مارق من سبيلها فى هذا بل وغيره ، فلا بد من أن يصك بها وجهك وأن تعلق فى الأغلال التى فى عنقك كالجريمة التى تعلق فى عنق المتهم ولو لم يكن فى كتابك هذا من الشهادة على بطلانه وفساده ومضادته للاسلام وأهله إلا هذا الاعتراف لكفى ، فانك صرحت تصريحا واضحا بأنك مخالف لسائر هذه الفرق الاسلامية أزيد من عشرة قرون فى هذه القضية . ومن المعلوم أنها من أكبر أصول الدين فانها اذا لم تثبت وحصل الطعن فى أولئك بطل الدين من أصله ، فانهم هم الذين دونوا القرآن ونقلوا لنا الأحاديث الصحيحة كما أنهم هم الذين أخذت عنهم جميع العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وتفاصيل ذلك ، فاذا تطرق الطعن فيهم لم يصح لأحد أن يحتج بشىء من الدين ، لأنه كله أصوله وفروعه مأخوذ عنهم ، ونحن نعلم أنك إنما طعنت فيهم هذا الطعن تذرعا الى الوصول الى هذه الغاية . ولكن اخسأ يا عدو الله ، أما علمت أن الله يقول فى كتابه العزيز ﴿ ان الذين يحادُّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ . وقال ﴿ ان الذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ الآية . فلا بد إن شاء الله إن يطبق عليك هذا النظام الالهى . ويلك ثم ويلك ، أما وجدت لدعايتك الخبيثة غير هذه الزندقة المفضوحة . كيف تحكم على أزيد من عشرة قرون فى هذه الامة المحمدية . فهل كل هؤلاء عندك ضالون وأنت وحدك اهتديت . فالحمد لله الذى أخزاك وجعلك من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فانهم هم إخوانك تشابهت قلوبكم ، ثم مع هذا تقول بدون جمجمة ولا حياء « ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيقى أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية فى أول ما نذكر » فهذا اعتراف فى غاية الصراحة

بأنه قد قام على هذه القضية الإجماع الحقيقى ، وتصريح منك بأن هذا الإجماع غالط وأنك مخالف له وأن الصواب معك وحدك بمجرد دعواك ، مع أنك لم تذكر دليلهم ولم تحتج على دعايتك ، بل غلطتهم بمجرد الدعوى وصوبت نفسك بمجردها أيضا ، ومع أنك معترف قبل ذلك بصواب ما رأوه ومقيم البراهين عليه ومدع بأنه أمر لا شك فى صدقه ، ومع أنك معترف أيضا بأن ما ادعيته أمر مشكل لم يوجد له حل الى اليوم ، ومع أنك معترف أيضا فى آخر كتابك بأنك قد تكون أخطأت ، ومع أنك معترف أيضا بأن هذه الأغلال حقائق أزلية أبدية تتركها أمة فتهوى ، وتأخذ بها أمة فتنهض ، ولن يستغنى عنها مسلم

ويلك ، من لقنك هذه الخبائث والمخازى المتسلسلة ، قطع الله لسانك ما أقذرك وأقذر كلامك وأقذر من يقبله ومن يروج عليه

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلامُ

أى رجل له مسكة من عقل أو دين أو حياء يتجاسر أن يسجل على نفسه هذا الضلال فيرضى على نفسه أن يغلط هذه الأمة كلها أزيد من عشرة قرون ، ويدعى أن هداتها وأئمتها ومصابيحها ضالون غالطون منحرفون ، ثم يصوب رأيه ، إلا من هو قد خلع جلباب الحياء والعقل والدين وكان من الغافلين

والذى دفعه إلى هذا الهراء والاستهتار والعناد أنه لما علم أن دعاية هؤلاء الأئمة علـى اختلاف مذاهبهم من أولهم الى آخرهم معاكسة لدعايته مضادة لقواعد أغلاله من كل وجه لم يجد طريقا لإزالة ذلك إلا بان سفههم وغلطهم وادعى أن الصواب معه والسداد فى رأيه وكتابه ، ولكن خانته قريحته وأقر بأنهم مجمعون إجماعا حقيقيا على خلافه ، وكما أنه قد شابه اليهود فى كل خبائثهم فهو كذلك يريد أن يضيف الى هذه المشابهة مشابهة غلاة الروافض فى تضليل السلف ، بل فاقهم فى هذا حيث لم يستثن أحدا دون أحـد فى الذم والسباب والاتهام

من كان محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع

فصل

قال « من هذه الروايات الرواية التى أوردناها فى مطلع البحث وهى « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » وهـــذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » لأن نسبة الشر الى الزمان سب صريح له ، والزمان يقينا لا يفعل خيرا ولا شرا ، ولـكن أهـله هم الذين يفعلون فأنى ينسب اليه الشر »

فيقال أولا : طعنك فى هذا الحديث بالتشهى والتحكم مضروب به وجهك فانه قد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من الـكتب المعتمدة ، وأنت بنفسك قد ادعيت أنه صحيح واحتججت به على أعدائك من شيوخ الأزهر . فقلت فى صحيفة ٢٤ من نبذتك (شيوخ الأزهر) ما نصه « وفى الحديث الصحيح أنه ﷺ قال « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » هكذا نقلته مصححا له محتجا به على علماء الأزهر ، فكيف تصححه وتدعى أنه صحيح وتحتج به ثم تنقلب ظهر البطن وتطعن فيه ، أتريد أن تتحكم فى شريعة الله وتتلاعب بها تارة تحتج بها وتارة تطعن فيها وتريد أن النـــاس يقدمونك فى كل أمر (١) فالحديث فى غاية الصحة ولم ينازع أحد من المسلمين فى صحة هذا الحديث بل تقبلوه وقبلوه وشرحوه واحتجوا به ولم يشكل على أحد منهم ، وكلام عامة الشراح والمعلقين عليه مشهور فى الـكتب ، وقد رواه الإمام أحمـد فى مسنده

---

(١) من طرائفه المخزية المضحكة دعواه أن مقتضى هـذا الحديث يكذبه الدين والحس والعقل والتاريخ وأن الأديان كلهـا لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكذيبا لهذه الدعوى ، ثم مع هـذا ـ كما ترى ـ قد صححه وقبله واحتج به على علماء الأزهر وجعله برهانا له عليهم . وهذه عادته قبحه الله فى إلقاء الكلام مجازفة بدون حساب ولا تقدير لانه المقدم فى الأمر

وابن ماجه وغيرهما من طرق كثيرة كلها صحيحة ، وقد نقـلـه أيضا الفقهاء والمفسرون وأهل اللغة وفهموا معناه ولم يدع واحد منهم أنه يعارض حديث « لا تسبوا الدهر » لأنهم لم يتلقوه بقلوب مثل قلب هذا الملحد الذى يحاول قلب الدين ، وأدنى عامى يسمعه لا يفهم منه مناقضة لحديث « لا تسبوا الدهر » ولا علاقة لأحدهما بالثانى إلا بمجرد أن الزمان فى كل واحد منهما ، فأى مناسبة للتناقض ، فان هذا تضمن أن كل أهل زمان فى الجملة خير ممن بعدهم كما فى الروايات الأخرى لأنه ورد فى قصة ، وهو أنهم أتوا الى أنس يشكون من الحجاج فقال : اصبروا فانه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه ، وفى رواية لا يأتى عليكم زمان ولا يوم ، فقد فهم المسلمون منه أنه سيأتى بعد الحجاج أزمنة يكون الشر فيها أكثر بسبب ضعف الدين ، لأنه كلما بعد العهد من آثار الرسالة كثر الجهل والظلم فيكثر الشر لأنه أثره المرتب عليه . وأما حديث « لا تسبوا الدهر » فالمقصود منه أن أهل الجاهلية كان من عاداتهم نسبة النوازل والقحط ونحوه الى الدهر فيسبونه ، فيقولون أصابهم الدهر وأبادهم الدهر ، فاذا أسندوا مثل هذه المصائب الى الدهر كان حقيقة قولهم سبا لله لأنه هو الذى يصرفه ، لأن الدهر بنفسه غير مكلف ولا فعل له ، فهذا نهى عن فعل مناف للتسليم والتوكل على الله والاعتماد عليه والتوبة والتنصل من الذنوب ، وحديث « لا يأتى زمان » خبر بأن هذا سيكون ، فهذا خبر وذاك إنشاء ، ثم إنه يوجب التسليم والتوبة والتضرع الى الله ، لا التسخط والجزع الذى هو سبب السب ، فقوله « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » يوجب التسلية ويوجب التوبة والاستغفار ، وليس فيه أمر بالسب حتى يقال انه يخالف الحديث الثانى ، فانه انما يخالفه إذا كان فيه أمر بأن يسب الدهر أو الزمان ، وذاك فيه نهى عن سب الدهر أما اذا كان هذا خبرا يتضمن التسلية والصبر والاحتساب والدعاء بأن يكشف الله الضر ، فأين المناقضة ، وعلماء الأمة على اختلاف مشاربهم الذين تلقوه وشرحوه وفسروه لم يتأملوه بقلوب

كقلب هذا الملحد حتى يفهموا منه مثل ما فهمه ، كما أن أنس بن مالك رضى الله عنه لم يخاطب بذلك زنادقة يحاولون قلب الدين ، اذ لو كان يخاطبهم لقالوا هذا يخالف حديث النهى عن سب الدهر ، ولو أن هذا المغرور مثل هؤلاء العلماء الأخيار فى صحة الفكر وطهارة القلب لفهم منه مثل ما فهموا ، ولكن لما كان قلبه مشابها لقلوب الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الزنادقة والملاحدة فهم كما فهموا

ويقال ثانيا : هذا الحديث يصدقه الواقع أظهر تصديق ، ويكفى فى تصديقه الحس والعيان ، فلا شىء أبين من تصديقه اليوم ، فانه كلما تأخر الزمان زاد البلاء والمحن وفسدت الأخلاق ، فان كان تأخر الاسلام والمسلمين شرا فهذا دليل ظاهر ، وان كان تأخر الاسلام والمسلمين ليس بشر عنده بل هو محض خير فهذا كفر ظاهر فلا حاجة الى الكلام فى الحديث

ويقال ثالثا : لا حاجة الى التعنت والجدال فى رد هذا الحديث وحده ، فلو فرض أنه ضعيف أو لم يرو بالكلية فان فى معناه أحاديث كثيرة فى غاية الصحة والصراحة على معناه ، وهى متواترة لا يمكن إنكارها والمكابرة فى ردها ، وهى أغلال فى عنقك لا محيص لك من التخلص منها ، ونحن نذكر بعضها لتكون قذى فى عينك وريبة فى قلبك ، أخرج البخارى فى صحيحه عن مرداس الاسلمى قال : قال رسول الله ﷺ « يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله باله » رواه الامام أحمد وغيره . وهذا نص صريح فى المسألة لا يمكن تحريفه ولا الطعن فيه . وفى الصحيحين عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا . وفى الصحيحين أيضا عن ابن مسعود مرفوعا « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم

يمينه ويمينه شهادته » وفى صحيح مسلم عن عائشة مرفوعا أيضا « خير الناس قرنى الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » رواه الطبرانى . وعن جعدة ابن هبيرة مرفوعا « خير الناس قرنى الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم والآخرون اراذل » رواه البخارى وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « يأتى على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذى وحسنه . وعن ابن عمر مرفوعا قال « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من يأتى أمه لكان فى أمتى من يصنع ذلك . وان بنى اسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة . قالوا : من هى يارسول الله . قال : ما أنا عليه وأصحابى » وفى السنن الأربعة نحوه من حديث أبى هريرة باسناد صحيح قال « افترقت اليهود على أحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة » الحديث وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال « كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزاد فيه » رواه أحمد والطبرانى وغيرهما : والنصوص فى ذلك كثيرة جدا ، وكلها فى غاية الصحة والصراحة قاطعة لظهره هو وأمثاله ، فلا حاجة الى التعنت فى رد حديث « لا يأتى عليكم عام إلا والذى بعده شر منه » فان فعله فى تحريفه وتضعيفه يوهم أنه ليس ثمة حجة غيره ، وهو حديث واحد من أحاديث لا تحصى كلها بمعناه . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » وفيه أيضا . قال عليه الصلاة والسلام « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ولا شك أن الذى يدعى أن الخير يزيد والشر ينقص معاكس لمدلول هذه الأحاديث والواقع معاكسة صريحة ، مع أنه لا يمكنه أن يجد أثرا واحدا لا صحيحا ولا ضعيفا يؤيد كلامه . وكذلك الآثار عن الصحابة والتابعين فى هذا المعنى أكثر من أن تحصى . وقد

روى أبو داود وغيره عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها ، فان الأول لم يدع للآخر شيئا ، فاتقوا الله يامعشر القراء وخذوا بمن كان قبلكم . وقد تقدم الأثر الذى ذكرناه عن ابن مسعود وفيه : أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم . والآثار فى ذلك كثيرة جدا . وكذلك التابعون فان المروى عنهم فى ذلك لا يعد ولا يحصى ، وقد اشتهر قول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . وبالجملة فالأحاديث والآثار وإجماع الأمة متفقة على هذا مع تصديق الضرورى من الدين والواقع . والملحد نفسه معترف بالاجماع المحقق ، لكن يزعم أنهم كلهم غالطون ، ولا شك أن من اعتقد اعتقاده فلا بد أن يرى ما رآه من الغلط ، فانه من المحال أن يجمع الانسان بين تصديق الملاحدة والتمسك بآرائهم والايمان بالسلف الصالح وتصديقهم واعتقاد الصدق والخير فيهم ، ولهذا ادعى أن الطريقة الى اخراج الناس من هذا الاعتقاد أن يعلموا الكفر بهؤلاء الأولين كما يأتى ، فمن هذا اعتقاده خليق بأن يدعى أن الناس غالطون أزيد من عشرة قرون ، ولو لم يكن فى هذه القضية إلا الواقع مصدقا لها لكفى ، فان أدنى رجل مسلم يعرف أن الشرور بأنواعها كلها تزيد على المسلمين ، وما اجترأت هذه الحثالة اليهودية على فلسطين وتحدت الأمم الاسلامية على ذلك إلا فى هذا الزمن الذى مدحه هذا المغرور ، وما تجاسر هذا الملحد على إخراج كتاب يشتم فيه الأديان السماوية وأهلها شتما لم يسبق له نظير ، حتى ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها

العلوم هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها . إلخ هذيانه ويطيل ويسهب في رفض الأديان . ويقلب نصوص شرع الله ونظامه فيجعلها دلائل لعبادة الطبيعة ونواميسها ، وأنها هي التي تحكم هذا العالم باستخدام الانسان لها ، ولا يكفيه ذلك حتى يدعي أن النهوض موقوف على الأخذ به والهلاك موقوف على تركه ، إلا في هذه الأزمان الأخيرة المملوءة بالشر والطغيان ، وهذا أمر ظاهر لا يجادل فيه إلا جاهل أو ذو هوى . ومن العجب أنه ادعى أن حديث « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » يفهم منه أن هذا يتناول الازمان التي قبل الرسول عليه السلام ، وهو يريد بهذا إفساد معنى الحديث ، وكل عاقل من المسلمين لا يفهم منه هذا أبدا ، بل نفس الحديث يرده ، فان قوله « لا ياتي عليكم زمان » فيه بيان أنه لا يأتي على هؤلاء المخاطبين بهذا الخطاب الذين هم الصحابة وأمة الاجابة ، وهو لم يقل كل زمان يأتي بل قال لا يأتي عليكم ، فهذا معناه واضح جلي ، فكيف يتناول من قبلهم ، ولهذا كان الواقع مصدقا له مطابقا له غاية المطابقة ، وقد شاهد تصديقه الصحابي أنس بن مالك فاحتج به ، فانه أدرك من زمن الرسول الى خلافة عبد الملك بن مروان ، فاين زمان أبي بكر وعمر من زمن يزيد وعبد الملك بن مروان . وقد فهم العلماء كلهم منه هذا المراد ، ولذلك كان معناه عندهم واضحا جليا . والملحد يعلم ذلك ، ولهذا احتج به لما كان محتاجا اليه كما اسلفناه ، وانما أراد ان يغالط الاغبياء ومن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم

ثم إنه بعد أن ضعف حديث « لا يأتي عليكم زمان » حكم على غيره من سائر الروايات التي في معناه بالتكذيب بمجرد الدعوى ، لأنها تخالف هواه فقال :

« فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا المبحث وسواها من النقول الأخرى ، المزعوم فيها أن الانسانية ترتد الى الوراء ، وأن القدماء

أبداً خير من الذين يجيئون بعدهم ، وأن الشر والفساد أبدا فى ازدياد ، وأن كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزيد - روايات من أصر على نسبتها للاسلام والرسول فقد أصر على التنقيص والاتهام »

هكذا قال بدون حجة ، وقد كان من الواجب عليه أن يذكر هذه الروايات بطرقها وينقضها على أساس معقول كصنيعه مع الرافضة فى (الصراع) ولكنه يعلم أنه ليست حجج أئمة الدين كحجج الرافضة ، فنحن نكتفى برد ما زعمه من التكذيب لها بان أئمة المسلمين الذين نقلوا هذه الشريعة المطهرة قد نقلوها وصححوها وقبلوها ، وهو نفسه قد احتج بأكثرها لما كان محتاجا اليه ، وليس له أن يتحكم فى شريعة الله فيكذبها حينا ويصدق بها أحيانا ، ويحتج بها على أعدائه ويكذب بها إذا احتج بها عليه أحد ، فان هذا العمل لا يفعله الا ماجن متلاعب بالشريعة الغراء قد انسلخ من الدين والعقل والحياء ، وقد بينا أن الواقع يصدقها تصديقا أوضح من الشمس فى رائعة النهار

ومما يجب أن يتفطن له أن أساس هذه الدعايات الخبيثة فى عداوة الأخلاق الدينية السلفية وشيوع هذه الأقاويل والأكاذيب فى تهجينها والدعوة الى حب الاخلاق الالحادية المشتملة على الكفر والفسوق والعصيان وسائر الرذائل التى لا تعد ولا تحصى بحجة الجديد أو التجديد أو التمدن والحضارة والرقى والتطور وأمثال ذلك ، كل هـذا من عمل أيدى السياسات المستعمرة الاجنبيه سعيا وراء إقناع الشعوب المستعبدة ، وإماتة الروح الحية فيها والحيلولة بينها وبين إيقاظ الشعور الدينى والقومى المستمد من الدين ، ومن ذكرى أخلاق السلف الأولين، لئلا ينفروا من هؤلاء المستعبدين ، ومن أفعالهم الغريبة الخبيثة المنافية للرجولة ، والمحافظة على الكرامة والمناعة الموجودة فى الأخلاق السلفية الدينية ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة نافذة كما نبه عليه غير واحد من عقلاء المسلمين ودهاتهم

فصل

ثم أخذ يبحث عن سبب هذه الفكرة التى هى تقديم السلف على الخلف فى الفضائل ، وهو يعلم أن مستندها النصوص والحقائق الواقعية ، ولكن أراد أن يغالط الأغبياء فقال : « كيف جاءت هذه الفكرة ـ فكرة اعتقاد الخير فى الأولين والشر فى الآخرين ؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الانسانية . ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الاطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم واتجاههم العام ، فانهم يرون أن من هم أقدم منهم سنا أكبر منهم عقولا وأضخم اقتدارا »

فيقال : هذا الذى غلب ظنك بل وعقلك خطأ معلوم الفساد لأمور :

أولا أن هذه الفكرة مستندها النصوص الصحيحة الصريحة المطابقة للواقع وللعقول السليمة

ثانيا أن هذه النصوص مؤيدة بالاستقراء الصادق كما شرحناه ، فانه لا يشك مسلم فى أن أول هذه الأمة خير من آخرها ، وأن الخير فى أولها أكثر منه فى آخرها ، وأن أولئك الأولين كانوا أكبر عقولا وأقوى ديانة وقلوبا وأحسن أخلاقا من آخرها ، وأنها لم تبلغ تلك الذروة العالية إلا بأخلاقها الدينية الصحيحة ، وأنها ما تدهورت فى آخرها إلا من أجل بعدها عن هذه الأخلاق والعلوم نفسها وعن تلك الروح القوية الحية ، وأن تقدمها وتأخرها من حين نشأتها الى هذا الوقت تابع لقيامها بدينها أو ضعفها فى هذا القيام ، فبقدر تمسكها يحصل تقدمها وبقدر تقصيرها ومخالفتها يكون تأخرها :

ثالثا أن ما ذكرته من نظرية الأطفال ليس بصحيح ، بل هو حجة عليك ، فإن الأطفال إذا كبروا اختلفت نظرياتهم وتقليدهم وتفكيرهم حتى لو كانوا ناشئين فى منزل واحد أو مدرسة واحدة ، ثم إنهم قلما يتركون على نظرهم البدائى ، ولو أن الأطفال ينشأون على تقليد كبرائهم مطلقا لكان كل الناس سواء ، لأنهم كلهم قد كانوا أطفالا ، أنت قد اعترفت بان جميع فرق المسلمين

على اختلاف مذاهبهم وتباينهم فى النظريات متفقون ومجمعون إجماعا قطعيا على تقديم هؤلاء الأولين على الآخرين ، فكان ما ذكرته صحيحا وانه حجة عليك ، لأنه قد ثبت ثبوتا لا يقبل الجدال بأن الأطفال يعشقون الجديد ويندفعون اليه اندفاعا مدهشا وينفرون من القديم ويكرهونه ويسأمون منه ، فهم إذا وجدوا صناعة جديدة أو حيوانا غريبا جديدة رؤيته أو شيئا من الجمادات حديثا قبلوه وتركوا ما قبله وان كان أقوى وأحسن منه ، فهم يكرهون القديم من أجل قدمه ويحبون الجديد من أجل جدته لا لشىء آخر ، وهذا شىء مغروز فى طبيعة أكثر الأطفال ، ولهذا كان أهلهم يعرفون ذلك منهم فيأتونهم بالأشياء الجديدة ولو كانت صورا جوفاء لا فائدة فيها ، ولهذا تجد الطفل يفرح ويلهو بالصورة الفارغة التى لا روح فيها فيلهو بها أكثر مما يلهو بأخيه وقريبه وغيرهما ممن هم دائما عنده أو معه لأنه يرى هذه الصورة شيئا جديدا غريبا ، وهؤلاء منذ نشأته وهو يراهم وهم بهذه الحالة ، فهم قدماء بالنسبة الى الصورة التى أعجب بها ، وهذا أمر معروف فيهم فى تعشق كل جديد وحديث ، وكراهة كل قديم ، ولا تكاد تجد طفلا يميل الى الشيوخ والكهول حتى والديه الا عند الحاجة والضرورة ، بخلاف الصور المستجدة فان لم توجد مال الى الاطفال ومن فى سنه لأنهم أقرب الى الجدة من أولئك ، فهو لا يرتاح إلا معهم ولا يقبل إلا كلا منهم ، فهو يحب كل جديد بالجملة فى أكله ولباسه وفى شئونه كلها . فما ذكره فهو حجة عليه لا له

فصل

ثم أخذ على عادته فى الطعن فى الهواء ، والتفريع على أوهامه وأكاذيبه التى يخترعها من كون المسلمين يفضلون كل قديم مطلقا على كل شىء متأخر ، وقد مر لك بطلان كلامه وأنه ادعاء كاذب وافتراء صرف ، فما ركبه عليه من التفريع فكلام لا محل له لأنه فرع أكاذيب على أصول افتراها بمجرد التشهى والهوى وسوء القصد ، فقال :

« كانت العقيدة التى حكمت على هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم : أحدهما أن كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر ، وثانيها أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال »

فيقال : كل هذا كذب لا صحة له ، وقد بينا أن المسلمين لا يقولون هذا القول ولا يرون هذا الرأى على إطلاقه ، بل يقولون إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين قد بلغوا الغاية فى الأخلاق الدينية فلا يجوز أن نشرع فى دين الله شيئا لم يقولوا به . أما الأمور الدنيوية المحضة مما لا نص فيه فهى تتغير بتغير الأزمنة كالصناعات ونحوها ، ولم يقل أحد من المسلمين إن ما عجز عنه الأوائل من الأمور الدنيوية فلن يستطيعه الأواخر ، وقد قدمنا كلام حذيفة رضى الله عنه فى قوله : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها . فكلامهم إنما هو فى الأخلاق الدينية ، فان السلف بلغوا فيها غاية الكمال . وفى الحديث الصحيح « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها » فكل حكمة فالمؤمن أحق بها بنص الحديث

ثم قال « أما الأمر الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير فى التجديد والابتكار وقوفا تاما وأن عدل نهائيا - على حسب ما ظنوا - عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير »

فيقال : هذا التفريع مبنى على ما اخترعه فيما سبق ، وهو كذب ظاهر ، بل إنما وقف التفكير من أجل البعد عن اقتفاء آثار السلف ، والانحراف الى تقليد الجامدين المتأخرين ، وبيان هذا أن مذهب السلف ليس فيه شىء من البدع أصلا كتحريف الصفات [1] وعبادة الموتى وكون الأسباب ليس فيها قوى

---

(١) مثل العلو على العرش والكلام وسائر الصفات الخبرية ، بل يجرونها على ظاهرها اللائق بالله تعالى كما ذكره عنهم الذهبي وابن القيم وابن خزيمة وغيرهم

طبيعية وأمثال ذلك ، وأنه يجب اتباع المعقول اذا خالف المنقول وأمثال هذه الأقاويل الباطلة ، ولهذا تجد أكثر العقائد ولا سيما المتأخرة مشتملة على هذا وكلها من آثار المتأخرين الذين انغمسوا فى آراء المتفلسفه وخلطوا بها علوم الدين ، ولهذا تجد كتب السبكى وابنه وابن حجر الهيتمى والرازى وأمثال هؤلاء مشحونة بالتعصب لهذه الآراء الكاسدة ، أما كتب السلف الأولى وأتباعهم مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والعينى ومحمد بن عبد الوهاب وأمثالهم فهى أكبر العوامل فى تحرير الأفكار وتنويرها وإطلاقها فى محاولة التجديد فى الابتكار فى كل ما فيه نفع للانسانية مما لا يتعارض مع أصول الدين . ثم إنه لما استولى هؤلاء الأجانب على أكثر الأقطار الاسلامية ونفثوا فيها سمومهم القتالة فى إماتة الأخلاق وقتل الحرية الصحيحة باتباع الأهواء والشهوات وكراهة الأخلاق الفاضلة وعشق الخرافات فزادت الأغلال ووقف التفكير الصحيح وقوفا تاما ، لأنهم سدوا عليهم باب الفضائل التى بها تعرف قيمة الحياة وقيمة العز والذل فيها . وقد علم أعداؤهم قيمة هذا فصدوهم عن ذلك كله ، وشغلوهم بالانغماس فى الفجور والغى والارتكاس فى الذل والهوان ، فصار وقف الفكر إنما جاء من كراهة السلف وعدم الاقتداء والاحتذاء بأخلاقهم الدينية الفاضلة ، ولهذا أجمع الباحثون على أن أكثر مبادىء الأمور الصناعية إنما أخذت من الاسلام ومن المسلمين أنفسهم باختلاطهم مع الغربيين فى أوربا كأسبانيا وغيرها وانتقال كتب هؤلاء الأولين بين أيديهم ، فكان دخول تلك الكتب عاملا من أعظم العوامل التى تدفع إلى العمل وإلى التجديد والابتكار فى كل ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض . ومن الأسباب الكبرى فى تأخر الصناعات وأمثالها التعصب للأنساب والمذاهب ، ومعلوم بالضرورة التى لامرية فيها أن السلف أبعد الناس عن هذين الخلقين ، فصار أثر هذين الخلقين يتبعهما لانهما فى المتأخرين أكثر ، فان أغلب الحروب والعداوات والضغائن تنتج عنهما ،

وذلك مما يشغل القلب والجوارح عن العلم والعمل للدين والدنيا . وقد بينا غير مرة أن الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح كل ذلك ليس فيه ما يمنع الاخذ بالاخلاق الصناعية والتجارية والمادية وغيرها ، بل هذا كله ما دلت الشريعة على الاخذ به ، وليس التجديد الصحيح هو رفض العقائد الصحيحة ، بل العمل بها هو التجديد الصحيح ، وتركها هو الرجوع إلى الوراء ، لأن الجاهلية الأولى والقرون المتقدمة التى هى فى غاية الجهالة كانت لا تعمل بهذه العقائد ، فعدم العمل بها رجوع إلى أخلاق هؤلاء ، فان الانسان فى أحد أمرين : إما أن يتبع السلف ، وإما أن يتبع الجاهلية الأولى التى قبلهم بقرون طويلة ، فمخالفة السلف رجوع صريح الى الوراء . انظر إلى هؤلاء الذين يحكمون قوانين الرومان وفرنسا وأمثالهم ويدعون أحكام القرآن والسنة هل خرجوا الى تجديد ، بل خرجوا إلى أقدم من الكتاب والسنة ، فان قانون الرومان وفرنسا أقدم من شريعة الاسلام فى الزمان ، فكيف يقال انهم مجددون وإنما هم متجردون ، وهل هذا إلا رجوع صريح الى الوراء ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هذا المغرور إنما يدعو الى رفض الكتاب والسنة والاخذ بقوانين الملاحدة ، وقوانينهم كلها ـ الا ما ندر ـ قديم جدا مبنى على نظريات هى بعينها نظريات الجاهلية الأولى الذين حاربوا الرسل وبادوا عن آخرهم ، وكانوا على غاية من الجهل والغباء ، وهو نفسه لما تكلم فى نبذته (الثورة الوهابية) تكلم بما يناقض كلامه هنا مناقضة صريحة ، وادعى أن الأخذ بأخلاق القرن الثانى هو الطريقة الى الرقى والتقدم ، حتى رد على الشيخ المراغى شيخ الازهر بكلام طويل فهم منه أن شيخ الأزهر يدعو إلى التجديد ، وأكثر ما فهمه خطأ ظاهر . ولولا طلب الاختصار لنقلنا كلامه فليراجع . ومن العجيب أنه لم تطب نفسه بكلام واحد من علماء الأمة كلهم على كثرتهم ، كما لم تطب أيضا بعالم واحد منهم ارتضاه فى أغلاله هذه ، بل هجم عليهم كلهم كما هجم على كتبهم ، ثم قال :

« انظر ، ان الكتب التى ألفت منذ مئات السنين - بل منــذ ألف عام تقريبا - فى الفقه أو فى التفسير أو فى الحديث أو فى العقائد أو فى التاريخ أو فى الأدب أو فى النحو أو الصرف أو فى اللغـة ، بل أو فى الطب ، إن كان هناك طب ، كتذكرة داود وأمثالها ، أو فى الفلسفة أو فى التربية - إن كان ثمة تربية - إن الكتب التى ألفت منذ ذاك التاريخ فى هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هى المرجع . وهى تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع الى قراءتها واقتنائها فى العالم الاسلامى كله .. . وان وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلا مشوشا ونسخا ممسوخا من هذه الكتب المعمرة ذات الألف وذات المئين من السنين ، حتى ان المجلات الدينية (١) التى تكاثرت فى السنين الاخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن أو شرح للحديث وتعديد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم فى الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه ، إن كان قد وجد اتفاق - إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون فتاتا متناثرا من تلك الموائد التى قام الآكلون عنها منذ ألف عام . ولقد يعجب المرء اذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام ، قد عقمت فى عمرها العديد ، وعمرها المديد ، عن أن تلد مولودا واحدا حتى ضرب المثل بعقمها . . . »

قلت : هذا نظره الى علماء المسلمين ، وذا رأيه فى كتبهم ، فلم يستثن عالمـا واحدا ولا كتابا واحدا على كثرتهم وكثرتها ، بل صرح بأن هـذه الجامعـة الاسلامية التى بلغت هذا المبلغ الطويل من العمر عجزت عن أن تلد مولودا ، يعنى يجدد لها وينفعها ، فلم يملأ عينه أحد منهم ، كما لم يملأ عينه كتاب من كتبهم

(١) يقال له وكذلك المجلات الداعية الى الالحاد لا يخرج ما فيهـا عن نظرية متقدمة فى الدعوة الى أخلاق الجاهلية الأولى فى محاربة الرسل وما جاءوا به ودعوى انه أساطير الاولين

فلا غرابة على هذا أن يدعى لنفسه أنه الخليق بأن يقدم فى الأمر وأن تجعل افكاره هذه هى النظام الجديد الذى تتركه أمة فتهوى ، وتأخذ به أمة فتنهض الخ . ثم انه لشدة شقائه صرح بازدراء ما سماه الفتات المتناثر ، يعنى كتب السلف - اذ صرح بأنه قام عنه آكلوه منذ ألف عام ، ومعلوم أن كتب السلف هى التى مضى عليها هذا العمر - فانتقد على المسلمين أخذهم بها وعدم التجديد بتركها ، لأن الفتات يجب أن يترك . ولم يبين وجه التجديد بيانا موضحا غير ما مدح به كتابه على الوصف الذى ذكرناه ، وكان من الواجب عليه فى مثل هذه الأمور أن يبين الكتب بأسمائها ووجه الانتقاد بدليله ، ثم يبين وجه التجديد ببراهين وتفصيل واضح ، فان من يريد أن يتكلم فى مثل هذه الأمور العظام لا يكتفى فيها بالمنافقة والغمغمة والتبليس الذى لا طائل تحته ، فان كل عاقل يعرف دينه يعرف مراده وما يرتضيه ، ومن كان جاهلا مخدوعا لا ينفعه مثل هذا الكلام . والحاصل أنه يقصد بهذا إبدال هذه الكتب بكتابه والاعتماد عليه . وحقيقة هذا كله هو طلب إبدال الدين بمبدأ الإلحاد ، فان هذه الكتب التى يشنع على أهلها إما تفسير للقرآن وبيان لمعانيه ، أو أحاديث مجموعة بأسانيدها ، أو شروح وتعليقات عليها ، كما صرح بذلك ، وهذا غاية ما يفعله المسلمون الذين يعتقدون أن الله أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الاسلام دينا ، وأن الشريعة كاملة لا تحتاج الى زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير فى أصلها ونظامها . أما لو كانوا يعتقدون خلاف هذا ، وأن الأديان كالسياسات ، لامكن أن ينتقدهم بعدم التعديل والتبديل والتغيير ، لأنها قابلة لذلك . ولا ينسى القارىء العزيز أن هذا الملحد نفسه قد انتقد المسلمين حينما ذكر أن عمر رضى الله عنه نهى عن قراءة كتب الأوائل ، وذكر فيما ذكر فى المبحث الثالث أن عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية ، ثم شنع على المسلمين فى ذلك بل شنع على عمر فى نفس الامر وأطال الهذيان وادعى أن هذه جهالة وأنهم يرون بذلك أن العلم حجاب ، وأن الجهالة أم الفضائل ، فرماهم كلهم

بالغباوة والبلادة والجهالة والرجوع الى الوراء بنفس ما ادعاه هو فى هــذا المبحث فى كتب القدماء ، هذا مع علمه أن تلك الكتب القديمة لما خرج أكثرها على وقت المأمون كان ذلك سببا فى تدهور الاسلام وانهياره ، ومع ادعائه أيضا بأن تلك الكتب ألفت فى العصور التى ذكر أنها فى طور الحيوان أو قريبا من الطور الحيوانى ، ثم هو كما ترى عاد الى مثل هذا الذى نقم على المسلمين به ، فأخذ يسفه آراءهم ويرميهم بالجهالة والسفاهة وفساد الرأى فى تمسكهم بالكتب التى ألفت قبل ألف عام ، هذا مع علمه بأن أولئك الذين كانوا فى تلك القرون على غاية من الدهاء والشجاعة ونزاهة الأخلاق وصحة الرأى ، ومع علمه بأن المسلمين كلهم معظمون لهم ، ومع علمه بأن بين هذه الكتب وبين تلك الكتب التى نهى عمر عن قراءتها فرقا واضحا ، فان تلك الكتب قد نسخت وجاءت خلاصة ما فيها من الصدق والخير فى هذه الشريعة ، بخلاف هذه الكتب التى يدعو الى إزالتها ورفضها ، وهو لو قدر عليها لأتلفها بأسرع ما يمكن ، ولكن الله أعجزه كما أعجز تلك الحيوانات [1] التى عملت على إضرام نار الخليل فما صنعت شيئا ، وكيده ومكره فى هذه المحاولة ككيد تلك الحيوانات ومكرها سواء بسواء

ثم يقال له من وجه آخر : غاية ما نقمته على هؤلاء هو تفسير الشريعة وشرحها والتعليق عليها ، فبأى شىء تريد أن يعملوا غير هذه اذا لم ترد رفضها وابدالها بمبدأ آخر . وهذا الذى انتقدته على هؤلاء المسلمين هو من جنس ما يفعله الملاحدة والمنافقون — وانت منهم — فى كتب أسلافهم ، فانه لا يعدو أن يكون تفسيرا أو شرحا أو تعليقا متنوعا ، وبرهان هذا أن هؤلاء الذين حكموا الطواغيت دون شريعة الله إنما تمسكوا بأصل القانون الرومانى أو ما هو فى معناه ، وجميع ما عدلوه وغيروه إما شرح أو تعليق أو مافى معناه ، مع أن

---

(١) يعنى الوزغ وما شابهه

هذا التغيير الذى غيروه أو جددوه ضئيل جدا . ثم ان أغلالك المشدودة فى عنقك كلها جهالات الزنادقة القدماء وملاحدتهم ، وهى كلها على ما فيها من خبث وقذارة لا تعدو أن تكون إما تفسيرا أو شرحا لها أو تعليقا عليها ، فان من تدبر أغلالك هذه علم بلا أدنى شك أنها تدور على ما قرره غوستاف لوبون الملحد فى كتابه الآراء والمعتقدات[1] ولا سيما فى قوله ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فكل كتابك تعليق على هذا ، ولهذا ادعيت أن الخطب وايام الجمعات هى إحدى النكبات لأنها تحث على الايمان بالله واليوم الآخر ، وقد بينا فيما سلف أن جميع أعداء الرسل من الملاحدة والمشركين ذهبوا الى جنس ما قررته فى هذا الكتاب كفرعون نفسه فى معاندته ومكابرته وإلحاده وسخريته بموسى ومن معه من المؤمنين ، واعتماده على نفسه ، وإيمانه بالاسباب . وقد استأنست بكلام سيدك هذا غوستاف لوبون حين نقلت عنه تلك الجملة الملعونة ، واخذت شوطا تفسر كلامه وتعلق عليه وتؤوله وتخرج له الوجوه القبيحة ، فهذا الصنيع الذى نقمت به على هؤلاء المسلمين فى كتب أسلافهم الطيبين الطاهرين قد صنعت جنسه فى كتب سادتك الملاحدة وأعداء الرسل . ونحن هنا نكتفى عن المناقشة فيما هذيت به - وان كانت من أسهل شىء علينا - بأن نطالبك ببيان الكتب التى نقمت منها وتسميتها باسمائها وتعيين مواضع الانتقاد ووجهه ، وأن المسلمين كلهم فعلوا ما ادعيته ، وأن فعلهم هذا هو السبب فى تأخرهم . وحيث انك لم تفعل شيئا من ذلك بل جئت بها هوجاء مغمغمة مدخولة بالزور والبهت والفجور ، فنكتفى فيها بالرد ونحيل القارىء على ما ذكرته فى نبذك الأولى فى (الثورة الوهابية) حينما انتقدت المراغى فى نفس

---

(١) وغيره من كتبه الخبيثة . وقد علم أنه من أعداء الاسلام المناوئين له ، حتى انه سب النبى ﷺ وقد ادعى بانه متهوس ، فهل يقلد هذا من فيه غيرة على الدين أو العرب على الأقل

ما تنصره الآن ، وكلامك فى شيوخ الأزهر ، وادعائك هنالك بأن ما ذكرته فى تلك النظرية الأولى هو الحق الذى لا ريب فيـه وهنا نقضته وادعيت أنه حقائق أزليـــة أبدية ، فلا أحسن من أن تختنق بأغلالك وتحـمّل بأثقالك ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلبك ، والله لا يهدى كيد الخائنين

يا ناطح الجبـل العـالى ليكلمه ارفق على الرأس لا ترفق على الجبل

فصل

قال « واما الأمر الثانى ـ وهو الاعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخـير كله وبلغوا الكمال المطلق ، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بهـــا ـ فقد تترتب عليه أيضا نتائجه . فان هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم وعنايتهم الى محاولة الاقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ، ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم ، بل محاولة إعادتهم ونشرهم لو كان ذلك مستطاعا »

فيقال أولا : كل ما تدعيه فى المسلمين المحاولين للاقتداء بأسلافهم والتشبه بهم وما يترتب على ذلك يعارض عنه بما فعله الملاحدة مع أسلافهم ، فانهم أعظم فى المغالاة فيهم والاحتذاء حذوهم ، وأما المسلمون فكثير منهم خالفوا أسلافهم بل ناقضوا كثيرا مما ذهبوا اليه ، فكل ما يمكن أن يترتب عـلى التقليـــد الذى تدعيه فى هؤلاء يمكن أن يترتب على أولئك فى تقليد أسلافهم ، ومعلوم الفرق الواضح بين أسلاف هؤلاء وأسلاف هؤلاء ، هذا مع أن ما ادعيته هنا عـلى هذه الصفة بهتان ظاهر ، فان المدعين بأن السلف قد فعلوا الخير وبلغوا الكمال فيه لا يعنون ما تعنيه ، يقولون ان ذلك فى الأخلاق الدينية والفضائل الانسانية خاصة ، لا فى الصناعات والتجارات ونحوها ، فانهم فرقوا بين هذا وهذا فى كل كتبهم المشهورة المعمول بها ، فدعواه على وجه الاجمال كذب ظاهر . ثم مـا ذكره من كونهم فعلوا ذلك فصرفوا أوقاتهم وعنايتهم الى الاقتداء بهم كذب آخر لا يرتاب فيه مسلم ، ويا ليته صدق فى هذه الدعوى ، بل ان عكس الدعوى

أصح ، فان أكثرهم أهمل الطريقة السلفية فجاءت النكبة من الاهمال لا من الاقتداء ، ولهذا تجد المخالفة للسلف شاملة لاصول الدين وفروعه فضلا عن آدابه وما يتعلق بذلك ، بل ادعى كثير منهم بأن مذهب الخلف أعلم ومذهب السلف أسلم ، فتبعوا الأعلم بزعمهم ، وكثير من العقائد المنتشرة المدروسة اليوم وقبل اليوم فيها كثير مخالف لطريقة السلف كالسنوسية والجوهرة والخريدة وأمثال ذلك ، ففى هذه العقائد مسائل مخالفة لاجماع السلف كمسألة علو الله على عرشه ، وقد يعبر بعضهم عن ذلك بنفى الجهة ، وكإنكار الصفات الخبرية كالحب والرضا والغضب وغير ذلك ويؤولونها ، وكإنكار حقيقة الكلام ويدعون أن ذلك هو المعنى النفسى ، فكل هذا مخالف لعقائد السلف كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية بالبراهين الواضحه فى كتبه كلها ولا سيما كتاب (العقل والنقل (١)) وابن القيم والذهبي وغيرهم فالعقائد الصحيحة المبنية على الطريقة السلفية المحضة هى مثل (كتاب التوحيد) للامام ابن خزيمة الشافعى وعقيدة الصابونى الشافعى وابن عبد البر المالكى وشيخ الاسلام ابن تيمية فى العقيدة الواسطة المشهورة وغيرهم وهذا فى أصول الدين فكيف بغيره . ولا يخفى على أدنى مسلم اليوم أن كثيرا من النظامات مخالفة للدين ولما كان عليه السلف ولا تمت الى ذلك بأى صلة ، فهؤلاء الذين خالفوا السلف إنما خالفوهم رجاء أن يصلوا الى هذا الرقى والعلم الذى يدعيه ، فكل من رغب عن النصوص واستصغرها بعد علمها لم يحصل على طائل ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ فلهذا لم يجد هؤلاء الذين رغبوا عنها إلا سرابا وعذابا ، وإلا فلو اقتدوا بهم فى هذه الأمور لكان أهدى لهم وأسلم وأحكم ، فما ذكره من النتيجة باطل قطعا كما لا يخفى . هذا فى الخاصة فكيف بالعامة الذين لا يعرف أكثرهم غير الفسوق والدعارة والاخلاق الساقطة فضلا عن أن يعرف أخلاق السلف والاقتداء بهم

---

(١) المطبوع بعضه بهامش (منهاج السنة)

ثم أطال فى سب هذه الكتب وأنها هى التى أضلت النـــاس ، ولم يسم واحدا منها باسمه كما انه لم يبين وجه الانتقاد ولا المعنى الذى أوجب السب ، بل سبها سبا إجماليا ، وهذا ليس من التحقيق فى شىء ، بل هو هذيان لا قيمة له وقد قدمنا ما ذكره الأستاذ محمد أحمد الغمراوى المصرى فيما نقله عن هـــذا المغرور فى رأيه فى كتب المسلمين ، فلا حاجة الى إعادته

فصل

ولما كان هذا الملحد قد حرج صدره وعجز عن مقاومة هذه العقيـــدة الراسخة التى هى من أعظم الحواجز بين الدين والالحاد وبين قبول كتابه وكتب الدين واعتقاد تقديم السلف على هؤلاء الملاحدة الذين يدعون أنهم يجددون وأنهم خير منهم ، ورأى أن هـذه العقيدة ثابتة فى قلوبهم ثبوت الجبال فى أماكنها لا يمكن أن يزحزحها هذا الهذيان وأمثاله فلا تتفق هـذه العقيدة وقواعد أغلاله أبداً ، انفجر غيظا فقال :

« والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال فى أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات فى كتبهم ، فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقاد الكمال المطلق فيهم . والسبيل التى لا سبيل سواها لاخراج هذه الجماعات المنكودة مما هى فيـه أن تعلم الكفر بهؤلاء ، والشك فيهم ، وإساءة الظن بهم وبعلمهم ، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جدا ، وأنهم أبعد عن الكمال من المعـــاصرين ومن المتأخرين »

فيقال : ما قصرت فى أغلالك هذه من الحث على تعليم الكفر بهم والقدح فيهم ، ولكن الله تعالى أبطل كيدك ، وردّه فى نحرك ، فذهب كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . ثم ما هى الأباطيل والخرافات ، لا بد من بيانها ، فان

مجرد دعوى الأباطيل والخرافات فى كل ما يضاد رأيك لا يعجز عن مثله كل انسان يريد أن يرد قول خصمه ، فان كل من هان عليه دينه وعقله أمكنه أن يدعى كهذه الدعوى . ونحن نعلم أن مرادك بالأباطيل هى ما يخالف ما ادعيته فى هذه الأغلال من نواميس الطبيعة وغيره ، ولكن الأولى لك فى مثل هذه الدعاية أن تبين ذلك بمعناه الواضح ودليله الجلى ، وحيث أنك لم تفعل شيئا من ذلك فنكتفى فى رده بالمنع والمطالبة بالبيان والدليل بالايضاح والتفصيل

فصل

قال « فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة ، وأظهر آثارها كما سبق شيئان : التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل ، وغل العقل والفهم »

فيقال أولا : هذا كلام لا محل له ، فخصومك لا يدعون الى التقليد ، انما يدعون الى اتباع شرع الله ونظامه ، وهذا هو الواجب على كل من آمن بالله ورسوله ، وما خالف هذا هو تقليد بلا ريب ولا يمكن الخروج عنه أبدا كما هو الواقع ، فمن لم يتبع نظام الله فلا بد أن يتبع نظام أعداء الله ، ولهذا لما حاول البعض الخروج عن الشريعة المحمدية بدعوى التجديد اضطروا الى تقليد الجهلاء الكفرة الأولين كما تقدم بيانه .

ويقال ثانيا : اذا كان الأمر كما تدعى فما هو السبب الذى رمى بك فى أحضان الملاحدة وتقليدهم هذا التقليد الأعمى فى كل ما قالوه حتى فى أصل الأصول وحتى فى أغمض الأشياء كمسأله خلق العالم على التفصيل الذى ذكرته وفى نواميس الطبيعة وغير ذلك ، فقلدتهم وجمدت على كل ما قالوه جمودا لم تسبق اليه ، فانك تقلدهم وتحتج بأقوالهم وتذم من خالفهم ، وما رأيناك خالفت واحدا منهم كما أننا ما رأيناك وافقت واحدا من علماء الملة من أولهم الى آخرهم . أما المسلمون فقد علمت أنهم لا يقولون بالتقليد فى أصول

الدين ، أما فى بعض المسائل التى قد يخفى دليلها عند العامة أو غيرهم فهم قد يقلدون من أجمع المسلمون على هدايته ودرايته ، لأنه من أهل الذكر الذين قال الله فيهم ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾

ويحك يا بلعام زمانه ، أين من قلد الصحابة وأئمة أهل القرون المفضلة ـ مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وأمثالهم ونظرائهم وأتباعهم كشيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم والحافظ الذهبى ونور الدين الحنفى وأمثال هؤلاء الذين خدموا الاسلام الخدمة الصادقة بكل ما فى وسعهم ، أين هؤلاء من سادتك الذين قلدتهم تقليدا أعمى مثل غوستاف لوبون الذى نقلت عنه أن البشرية لم تستطع أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام ، وأمثال هذا ممن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، وقل أن يوجد من هؤلاء أحد الا وكلبه هو خدينه ومعبوده ، هؤلاء هم أئمتك ، فان الله تعالى لما مسخ نفسك نفس خنزير كنت تكره الطيبات والطيبين وتنفر منها وترمى بنفسك على الخبيثات والخبيثين وتلتذ بذلك لأنها تلائم نفسك وتستريح بها . ودعواك أن من آثار ذلك التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل فهذا مما ينطبق عليك لأنك هكذا صدقت بكل ما يقوله الملاحدة ويسمع وينقل عنهم ، ولهذا لم تخالفهم فى شىء مطلقا ، وأما المسلمون فانهم لا يصدقون إلا بما قام البرهان على صدقه لا بكل ما يقال ويسمع فان هذا كذب ظاهر . وقوله « وغل العقل عن الفهم » يقال هو ذا أنت أيضا فانه من أدوائك القديمة العريقة ، وكفى بما نقلته من الهذيان وصدقت به ثم احتججت به فى مسألة خلق العالم وغيرها شاهدا على غل عقلك عن الفهم والرشد ومعرفة الصواب

ثم قال « ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغا من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم ، فالشك والفهم شرطان ضروريان فى تحصيل الحضارة والعلم

والقوة . والذى لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، والذى لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل هو باطل بهذا الاطلاق . أما أولا فان الحقائق وموضوعاتها مختلفة فى الظهور والخفاء وقوة البرهان وضعفه ، فالحكم عليها كلها بالشك فيها باطل بالبداهة ، فان وضوح الدين والرسالة وصدقها ولزوم الخير فيها أمر أوضح من الشمس ، ومن شك فى ذلك فهو كافر ، فمن شك فى أصول الدين المعروفة من الدين بالضرورة فلا شك فى كفره . ولو جاز الشك فى كل شىء لوقع الناس فى السفسطة ، فانها هى الشك فى الحقائق الظاهرة ، فثبوت فضيلة الصحابة وصدقهم ونصحهم للامة وسبقهم إلى الفضائل أمر واضح كالشمس ، فمن شك فى ذلك فقد شك فى الدين وهو كفر ، فالشك فى مثل هذه الأمور كما أنه كفر فهو سفسطة ووسواس ، فان الشك فى الأمور الضرورية كالشمس والنهار والليل وأمثال ذلك وسواس لا ريب فيه . ومن العجب أن أعظم الناس شكا وريبا فى أصول الدين هم أقرب الناس تصديقا بالمحالات ، واندفاعا الى قبول كل ما يقال ويسمع عن سادتهم وشيوخهم فالعلوم إما قطعية أو ظنية ، فالقطعى كالذى ذكرنا لا يجوز الشك فيه مطلقا ، ومن شك فى ذلك فقد شك فى الدين ، ولا يمكن أن تثبت حقيقة من الحقائق إلا ويرد عليها أعظم مما يرد على الحقيقة التى يريد إثباتها من التشكيك فى الدين وأما الأمور الظنية فهى مراتب كثيرة فهذه ينظر الى أدلتها وبراهينها ، فما قام البرهان على صدقه فهو صدق وما قام البرهان على كذبه فهو كذلك ، ومابين ذلك فينظر الى الدليل والترجيح كما هو مبين فى مواضعه

ويقال ثانيا : أنت خالفت هذه الدعوى ، فانك لم تشك فيما ذكرته وكتبته ودعوت اليه بل جعلته حقائق أزلية ، ومعلوم أنه كله مجرد دعاوى ليس عليها أثارة من العلم ، بل البراهين الصادقة قائمة على تكذيبها ، ومع ذلك فلم تدع

الناس الى الشك فيها ، بل دعوتهم الى تصديقها واعتقادها والأخذ بها ، بل علقت النهوض على التمسك بها ، والسقوط على الاعراض عنها . وكذلك لم تشك فيما ذكره الملاحدة فى مسألة خلق العالم وغيره مع أنه شيء بعيد دقيق غامض من عالم الغيب لادراية لك به ، وقد دلت النصوص على خلافه ، ومع هذا قبلته وصدقت به واحتججت به وسفهت رأى من شك فيه وخالفه ، فأين الشك الذى تدعيه

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

فاذن أنت لا تفهم لأنك لا تعرف أن تشك ، ولا تعلم لعدم وجود الشرطين اللذين ذكرتهما ، فلا يمكن أن تنبغ أو تمتاز ، وهكذا كان الواقع ، كما أن هذا الحكم إنما هو على رأسك

ثم إن الملحد أعاد كلامه فى التطور وقد سبق الكلام على ذلك مرارا كثيرة فلا حاجة الى إعادته ، ولكن تلك الجملة التى نقلناها عنه فى إنكار التطور إنكارا باتا كافية فى بطلان كلامه كله فى ذلك

ثم استطرد يستدل على أن هذه الدول تعتقد هذا التطور ، وأنها تقدمت بسبب ذلك ، وبالغ فى مدحها على ذلك ، ثم ختم هذا المبحث الخبيث بمسك ختامه اللائق به وهو الثناء العظيم على تشرشل وزير بريطانيا ، وأما الذين قلدوا الزعامة الدينية فقد عرفت ما قاله فيهم فيما سبق ، فقال فى هذا الختام اللائق به :

« ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة [١] إسقاط بريطانيا للرجل الذى أعطاها النصر وانتزعه لها من لهوات الهزيمة ، اذ لا شك أن الانجليز إنما أسقطوا تشرشل لايمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم

(١) أى فكرة التطور

بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه . . . ولا ريب أن شعبا يعتقد هذه العقيدة فى تشرشل وفى خلفه شعب يؤمن أشد الايمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائما أفضل وأكمل من الماضى وأهله . . . وإن شعبا (١) تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جدا مباراته وإنزاله عن سلطانه الضخم الواسع . ولو أن رجلا كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذى أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة بل ومن الكفر بالله التفكير فى إبعاده عن الحكم والقيادة ، ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحا لو أريد العمل به ، ولكان من المستيقن أيضا أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين فى أرجاء العالم الاسلامى ممن عبدوا مجانا لأنهم لم يصنعوا شيئا يستحقون عليه العبادة (٢) التى يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء ، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الابدى (٣) ، انتهى . وهذه الآية من أطول آيات الحقائق الأزلية الأبدية ، فهذا رأى هذا الرجل فى أسباب تغيير وزارة تشرشل ، وهذا رأيه فى أسباب انتصار بريطانيا بأنه بهذا السبب ، وهذا رأيه فى كون عزل تشرشل دليلا على صحة عقيدة التطور على النحو الذى ذكره ، وفى صحة عقيدتهم هذه أيضا ، وهذا رأيه فى توسع دولتهم وقوة سياستهم ، وهذا رأيه فينا معاشر المسلمين من سوء الظن والسخرية والاحتقار ، وهذا رأيه فينا

---

(١) لما كان يعلم ان دعايته فى أغلاله دعاية بلشفية خبيثة جاء بهذه الجملة إرضاء للانجليز لئلا يظنوه شيوعيا فيعرقلوا مقاصده

(٢) يريد بالعبادة هنا تعظيم السلف والأخذ بأقوالهم ونحو ذلك

(٣) كيف يكون ما صنعه السلف وسائر الأموات من علماء المسلمين إنما هو شىء يستحقون عليه الرجم ؟ ألا قبحك الله وقبح من يغتر بكلامك

بأنه لم يوجد منا من هو مثل تشرشل ، وهذا رأيه فينا بأننا لو كان فى أمتنا مثله لكننا نعبده عبادة زائدة عن العبادات فليست مثلها بل تفوق عليها ، فليس فى المسلمين من أولهم الى آخرهم من يساويه أو يدانيه ، اذ لو وجد مثله لوجدت العبادة التى علقها على وجوده باليقين ، وتكون عبادة صحيحة لانها ليست مجانا فلعل عدم وجوده من نعم الله علينا لئلا نتخذ إلها آخر ، وهذا رأيه فى السلف أو فى علماء المسلمين الأموات والحاضرين ، فالأموات لم يفعلوا شيئا مثل فعل تشرشل فيستحقوا عليه العبادة ، بل كل أفعالهم التى فعلوها لا يستحقون عليها سوى الرجم من أجـــل اختلال شرط العبادة الذى هو فعل تشرشل ، أو التجديد الذى هو فعله هو فى أغلاله ، فهم لم يفعلوا شيئا من هذا ولا هذا ، بل كل أفعالهم تلك الأفعال المعروفة المشهورة ليست بشىء ، فلا يستحقون عليها - على رأى هذا الرجل - سوى الرجم والتدمير ، فلا يكفى الرجم وحده بل ولا التدمير معه بل لا بد أن يضاف إلى ذلك الكفران الأبدى

تالله ان الانسان ليحار ويعجب كيف ذهبت الحماسة والشجاعة والغيرة الدينية وأخطأت هذا الملحد الزنديق ، وكيف راجت هذه الفضائح والمخازى المكشوفة على من يشم رائحة الاسلام . ولا نحتاج هنا الى تطويل التعليق على مثل هذه الجمل الخبيثة ، فان القارىء الذى يخفى عليه ما فيها من الخبث والزندقة وسوء الطوية لا يفيد فيه إفهام ولا إرشاد ، بل لا بد أن يكون ميت القلب فاسد العقل جامد الذهن قد ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فانى له الرشاد والتوفيق . وما أخلق هذا الملحد بمن قال الله فيهم ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾

اختتم هذا المغرور هذه المباحث الخبيثة بهذا المبحث المتضمن رفض الدين ومنابذه أهله والحث على تقليد الغربيين والانطلاق وراءهم فى هذه المبادىء

الهدامة التى اتبعوها وذاقوا وبال أمرها فودوا لو أنهم جهلوها واستراحوا من توقع غوائلها وأخطارها المستهدفة كما صرح بذلك كثير من رؤسائهم وعقلائهم

طاش عقل هذا المسكين وذهب به الغرور والزهو الى أقصى حد حينما قيل انه استحصل على شىء من المعرفة والمبادىء العلمية ، ودفعه زيادة على ذلك ما سمعه من الإغواء والإغراء ممن غشه أو لم يعرف حقيقة أمره ومزاجه

فقد خيل اليه أنه ابتلع العلم كله بجميع فنونه ونواحيه ولم يبق لاحد منه شيء ، فأخذ العلوم كلها وترك لغيره الجهالة والبلادة والغباوة كلها - فجن جنونه ، فنعب وهذى وذهب يشتم ويمقت ويتهكم ويستهزىء ويعادى كل من خالفه أو أعرض عن قبول قوله ، بل فرض طاعته وتصديقه على الناس أجمعين

ولو كان له ادنى مسكة من عقل لم يذهب مندفعا فى هذه المهامه المهلكة سعيا وراء هذه الاوهام اللامعة والمظاهر الخداعة التى اغتر بها كل سخيف رأى وضعيف عقل ، بل كان من الواجب عليه أن يتبين ويتثبت ويسترشد حتى يعرف حقيقة الأمر كما عرفها العقلاء وكما ادعى معرفتها هو قبل ذلك

وقد تكلم كثير من علماء الشرق والغرب أيضا وبينوا مافى هذه الحضارة الزائفة المدخولة التى أعجب بها هذا وأمثاله من ضعفاء العقول من القلق والفساد والانحلال المادى والمعنوى ، وكما ظهر بالمشاهدة فى كثير من شعوبها الدمار والانهيار الفظيع ، وأصبح الباقون فى أشد حالة خطرة ، كل ذلك بأسباب هذه المادية التى فتنوا بها وعبدوها كما نقل الاستاذ محمد عبده فى (تفسير سورة العصر) عن ماكس نوردو الشهير فى كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا الحديث) قال الاستاذ : ان ما يرى فى بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب ، حتى اذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئا . وقال ماكس نوردو أيضا فى كتابه المذكور ما معناه : ان الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ، ولم يكونوا فى زمن أبعد عنه منهم فى هذا الزمان . ثم قال ما ترجمته :

انك لو طرقت أى باب تسأل هل مرت السعادة بهذا البيت ، لا جابك مجيب : إذا شئت فاطرق بابا آخر ، فان السعادة لم تمر ببيتنا . وقال جود الانكليزى[١] رئيس قسم علوم النفس والفلسفة باحدى كليات جامعة لندن : « إن الاوربيين قد فقدوا تعادل القوى والأخلاق ، والتوازن بين العلم بظاهر من الحياة الدنيا وبين الدين منذ قرون ، فلم تزل القوة فى أوربا بعد النهضة الجديدة ولم يزل العلم ينموان على حساب الدين والاخلاق ، ولم يزل ذانك فى ارتفاع وهذان فى انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض ثقلا وهى كفة القوة والعلم ، وخفت الثانيـــة كفة الاخلاق والدين حتى ارتفعت هذه الثانية جدا ، فبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيره للمادة والقوة الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر ، فاذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله وفى شرهه وطمعه وفى طيشه ونزقه وفى فسوقه وظلمه عن البهائم والوحوش » ثم أطال فى ذلك . وتقدم ما قاله شيلر الالمانى الشهير : بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا ، والخلق هو رباط المجتمع السليم ، وليس أدل على ذلك من انتشار دور الرقص والملاهى المبتذلة وتفشى الآراء المتطرفة المادية الخ . وقال السيد المودودى[٢] ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الالهية ، لقد كان فيها قادة الدين ، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، لم يكن عندهم إلا خيال دينى لو حاول أن يسير بالنوع الانسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع . ثم ذكر أن هذا هو السبب فى نبذهم الدين . الى أن قال : وجدوا المخلوقات مسخرة فاستخدموها

---

(١) نقله فى (الشواهد) ص ٦٥

(٢) ذكره فى (الشواهد) ص ٧٢

لاغراضهم، وجهلوا انهم ليسوا سادتها ومدبريها، وانما هم خلفاء سيدها الحق، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنهـا ولا عليهم تبعات وحساب ، فزاغ أساس مدنيتهم وتهذيبهم ، وانحرفوا عن عبادة الله الى عبادة أنفسهم واتخـذوا إلههم هواهم، وفتنتهم عبادة الهوى ، فساروا بهذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق شتى وسبل متفرقة خلابة رائعة، ولـكن مصيرها الى الهلاك . هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الانسان ، ضاعت الاخلاق فى قالب الشهوات والرياء والخلاعة والاباحة، وتسلط على العيش شيطان الأثرة والشح والفتك ببنى الانسان، ودس فى عروق المجتمع وشرايينه سموم عبادة النفس والانانية والإخلاد الى الرفاهية والتنعم، ولطخ السياسة بنعرة الجنسية والوطنية وفروق الألوان والأجناس وعبـادة القوة و تأليهها والتغنى بها وجعلها هدف الانسانية الاكبر . وبالجملة ان البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربـا ونهضتها الأخـيرة نبتت منها دوحـة خبيثة أثمرت ثمرات يانعة سامة، وأزهرت أزهارا بهيجة شائكة : فروع خضراء تنفث غازا ساما لا يرى، لـكنه يسمم دم النوع البشرى . وغارسو هذه الشجرة الخبيثة من الغرب قد مقتوها وأمسوا يتذمرون منهـا ، فقد خلفت فى كل ناحية من النواحى مشاكل وعقد عجزوا عن حلها، وما حلوا عقدة إلا ظهر غيرهـا ، ولا قطعوا فرعا إلا نبتت فروع شائكة أخبث منه ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الخمار بالخمر، ومداوى الادمان بالمداومة عليه، وكـناقش الشوكة بالشوكة التى تنكسر مع أختهـا . عالجـوا الرأسمـاليـة الظالمـة بالاشتراكية المتطرفة، حاولوا استئصال الديمقراطية الزائفة فنبتت الدكتاتورية المستبدة الخانقة، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة (تذكير) النساء وحركة منع الولادة ، أرادوا تشريع قوانين الاستئصال المفاسد الخلقية فهاجت حركة العصيان والجنايات، فلا ينتهى شر إلا بولادة شر ، ولا فساد إلا الى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورا ومصائب

حتى صارت الحياة الأوروبية جسدا مقروحا متسمما يشكو كل عضو منه أوجاعا وأوصابا ، وأعيا الداء أطباءه ، واتسع الخرق على الراقع : الأمم الغربية تتململ ألما بقلوب مضطربة وأرواح متعطشة الى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة اه

وكلامهم فى هذا كثير جدا ، حتى أن لوبون الخبيث الذى يعظمه هذا الملحد قال فى كتابه (حضارة العرب) : « وتعانى مجتمعاتنا تحولا بعيد المدى فى الوقت الحاضر ، وقد قلبت مبتكرات العلوم الصناعية كياننا المادى والأدبى رأسا على عقب ، ويقاسى الغرب خلافا شديدا فى مجتمعه ، ويكابد فى سبيل معالجة الشرور التى نشأت من ذلك الخلاف أزمة عامة تسوقه باطراد الى تبديل نظمه ، ويئن من عدم الانسجام بين المشاعر والمعتقدات الجديدة » الخ . فهذا كلام طاغوته ، واذا اعترف الخصم فلا حاجة الى الدليل عليه ، فهلا تداوى به من إلحاده الذى قلده فيه (كما يتداوى شارب الخمر بالخمر) . ومما وقع فى الغرب كأمريكا واوربا وغيرهما من الفساد والدمار يعرف الحكمة فى اختصاص الشرق بانزال الكتب وارسال الرسل المشهورين ، لانه أقبل لها ، فلهذا أخذوا بها وعملوا بها مئات السنين ، وأما هؤلاء فان الله أنعم عليهم بما به يعرفون الدين والكتب ودعوة الرسل ، ولكن لم يقبلوا ذلك ولم يكونوا كأهل الشرق ، وقد قامت عليهم الحجة لئلا يقول قائلهم حينما يرون ما يوعدون ﴿ ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ كما نبهنا على هذا فيما مضى والله اعلم

الكلام على خلاصة كتابه

عنوانها فى أغلاله :

(المشكلة التى لم تحل)

وقد جعل هذه (الخلاصة) هى حاصل ما ذكره فى كتابه من أوله إلى اخره ، وقد تبين لك بما سبق أن هذا الرجل افتتح كتابه بمدحه وتعظيمه ، مدعيا أن هذه الأفكار من الحقائق الأزلية الأبدية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت ولن يستغنى عنه مسلم . فقد افتتح هذا الكتاب بهذه الدعوى ، واختتمه مدعيا أن خلاصته مشكلة لم يوجد لها حل إلى اليوم ، فكان حاصل الكتاب الوقوع فى الشك والريب والحيرة . ولا تنس أن هذا الرجل نفسه افتتح المبحث الثانى الذى هو فى الحقيقة أول مباحث الكتاب المقصودة بما نقله عن الزمخشرى والرازى وابن أبى الحديد فى تلك الأبيات ، وتهكم بهم وبعلومهم ، ونسبهم الى الجهل والضلال ، وسخر منهم غاية السخرية حيث اخبروا بأن غاية ما وصلوا اليه من أمرهم الحيرة وعدم الحصول على الحقيقة . فها هوقد وقع فى ماهوأعظم وأدهى وأطم مما وقعوا فيه ، فانه جعل حاصل هذا الكتاب الذى وصفه بما تقدم مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم :

ومن العجائب والعجائب جمة أن يلهج الأعمى بعيب الأعمش

قال :

(المشكلة التى لم تحل)

« يتبين للقارىء إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها ، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل ، أو على الفكرة الدينية من حيث هى . فالمشكلة التى ما أظن أحداً درسها دراسة صحيحة وافيـــة هى أن فكرة

التدين قائمة على الايمان بسبب ترجع اليه جميع الأسباب ، لأنه هو خالقها ، المهيمن عليها ، المتصرف فيها كيف شاء ، وهذا السبب الذى هو سبب الأسباب - أى الله ، على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفى حقيقته [١] - لا يحتاج هو الى سبب فى وجوده وقيامه بنفسه وفى فعله وصنعه . فاذا وصلوا الى الايمان بهذا السبب والى الايمان بقدرته الكاملة التى لا يعجزها شىء ولا يندّ عن سلطانها وقبضتها أمر ، شكوا فى الأسباب الأخرى التى هى دونه ، والتى هى من خلقه وصنعه ! وإذا ما صاروا الى هذا الشك فى الأسباب تراخوا فيها وفى الأخذ بها ، وفى العمل على اتقانها والتعويل عليها ، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الابداع والتبريز وعن الانتاج والعمل البارع العظيم . فان الانسان لن يكون سببيا محضا إلا إذا آمن بأن هذا الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ، تسير إلى نهاياتها ونتائجها سيراً آليا طبيعيا ، ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو أن تتحكم فى نهايتها [٢]. وهو - أى الانسان - لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببيا محضا . فالايمان بسبب الأسباب يمنعه - على حسب ما تصور وبلغ - من أن يكون سببيا ، وعدم كونه سببيا يمنعه من النجاح . هذا هو كل ما استطاعت مدارك البشر الدينية

---

(١) ذكر الاختلاف فى صفته هذا كلام ساقط لا محل له ، لأن الكلام هنا فى التصرف المطلق وهو مجمع عليه بين أصناف المتدينين له

(٢) تقدم قوله : « وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة ، وهى فكرة إنكار الأسباب أو التهوين من شأنها أو الاعتقاد أن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها » . وتقدم تصريحه أيضا بأن غضب الله ورضاه وسخطه وحبه وبغضه لا دخل له فى الأسباب مطلقا ، لجرد الله من التصرف مطلقا ، وجعل النواميس هى التى تدبر أمر العالم باستخدام الانسان لها بذاته بدون حدود ولا قيود

أن تبلغ وأن تعرف . تلك لعمر الله هى المشكلة الحقيقية الكبرى التى لم يوجد لها حل الى اليوم »

هذا شرحه للتدين الباطل والفكرة الدينية من حيث هى التى هى أساس هذه المزالق الفكرية التى ذكرها ، وهو أن الدين الباطل عنده أو الفكرة الدينية مطلقا — أى من حيث هى كما ذكر — هى أن يؤمن الانسان بالله وبقدرته الكاملة المتصرفة فى هذا العالم ، فاذا آمن الانسان بهذا كان على دين باطل ولن ينجح ، لأن إيمانه هذا يمنعه أن يكون سببيا والسببى هو الذى لا يؤمن هذا الايمان ، بل يؤمن بأن قدرة الله لا تدخل بين الأسباب ومسبباتها ، ولا يمكن أن تحول بينها وبين نتائجها . فالمصيبه التى أصابت المسلمين أو المتدينين وحاقت بهم – على ما زعم – هو ايمانهم بالله الذى هو سبب الأسباب ، فان إيمانهم به أوجب لهم الإيمان بقدرته الكاملة وانه المتصرف فى الأسباب كلها كيف شاء ، فلا يعجزه شىء ولا يند عن سلطانه أمر ، فلما آمنوا به آمنوا بعموم قدرته ومشيئته فكانوا غير سببيين ، ومن كان غير سببى فلن ينجح ، لأن النجاح إنما يكون للسببى المحض ، والسببى المحض هو المؤمن بأن الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو ان تتحكم فى نهاياتها . فهذا الايمان يتنافى مع الايمان بالقدرة الكاملة والمشيئة العامة المتصرفه فى الاسباب . فالمتدين أفسد على نفسه النجاح حيث كان مؤمنا بكون القدرة والمشيئة لها سلطة على الأسباب بالوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم فيها ، ولهذا صار غير سببى ، فلا بد له من التأخر ، كما ان السببى لا بد له من التقدم . فالانسان الذى يريد النجاح لا بد له من الكفر بقدرة الله وتصرفه فى الاسباب ليكون سببيا محضا ، لأن السببى المحض هو الذى ينجح . هذا حاصل كلامه بل صريحه فى هذه الجملة بل فى الكتاب كله . وسرّ المسألة أنه لا بد من طلب النجاح ، وطلب النجاح إنما

يكون حاصلا للسببي المحض الذى لا يؤمن بالقدرة والمشيئة المتصرفة فى الأسباب ، بل يؤمن بأن هذا الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها . فاذا آمن الذى يطلب النجاح هذا الايمان فانه يكون سببيا يمكنه النجاح ، بخلاف ما لو آمن بالقدرة والمشيئة وأنها تقف فى سبيل الأسباب أو تتحكم فى نهاياتها فان إيمانه هذا الذى تصوره يمنعه من النجاح ، فكان لا بد من الكفر بالقدرة والمشيئة التى تقف فى سبيل الأسباب . وكفره بالقدرة والمشيئة مشكلة لا يمكن أن تتفق مع الايمـــان بالله ، فلا بد أيضا من الكفر به تعالى ، لأنه صرح فيما ياتى قريبا بأنه لا إله بلا فعل ، وأن الاقرار بافعاله يوجب الاقرار بالتصرف ، وهذا يوجب للانسان بأن لا يكون سببيا (١) كما يأتى ، ولأن الاله الذى لا فعل له ولا يتصرف فى مخلوقاته إما معدوم أو عاجز ، وهذا حقيقة كلامه بل صريحه . وهذا القول مع كونه كفرا صريحا غليظا أشنع من كفر المشركين واليهود وغيرهم ، فهو تقرير ساقط بالمرة ، وسقوطه ظاهر بالشرع والعقل والحس والضرورة والاستقراء

أما كونه كفرا ظاهرا فانه مصادم للشرائع السماوية كلها ، فانها متفقة على عموم قدرته تعالى ومشيئته وتدبيره لخلقه وتصرفه فيهم كيف شاء ، وأنه بيده ملكوت كل شىء ، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء ، ويمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل الأسباب خاضعة له جارية تحت إرادته لا يعجزه شىء من جميع ما خلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولهذا كان كل من أقر بالله تعالى أقرّ بذلك وأقر بتصرفه ومشيئته العامة وأنه لا يسأل عما يفعل وهم

---

(١) أى فيكون متأخرا

يسألون . ولكون الايمان بهذا بديهيا لكل من آمن به تعالى فقد أقر به حتى عبدة الاوثان الذين يتقربون بعبادتها اليه زلفى لوضوح هذا الامر وجلائه

وأما مخالفته للعقل والضرورة (١) فانه يمتنع الايمان بالله والكفر بقدرته ومشيئته وتصرفه فى الأسباب ، فان الايمان به على هذه الصفة من جنس الايمان ببعض الأوثان العاجزة ، وكل الناس يعلمون من غير أدنى شك بالعقل والحس والضرورة والاستقراء أن الرسل أعظم ايمانا بالله تعالى ومشيئته العامة وقدرته الكاملة ، وقد نجحوا فى كل مطالبهم ، ونصرهم الله على أعدائهم المعتمدين على الأسباب المادية كما قال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون ﴾ وهذا نص قاطع على أن الله قد نصر رسله وجنده كلهم ، وأن النصر لا بد أن يكون فى جانبهم ، وهكذا كان الواقع . ولا يرد على هذا أن بعض الأنبياء والصلحاء قتل ، فان وجود قتل بعض منهم لا ينافى نصر الله لهم ، فان الله ينتقم ممن فعل ذلك بهم سريعا وينصر أعوانهم وأتباعهم ويجعلهم فوقهم وأولئك تحت اقدامهم فيكونوا هم الغالبين كما قال تعالى ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ﴾ فهذا نص صريح فى أنه سبحانه ينصر رسله فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ألا ترى أن اليهود عليهم لعائن الله لما قتلوا بعض الانبياء ظلما وعدوانا اذلهم الله وضرب عليهم الذلة والمسكنة آلاف السنين ، وكانوا تحت أقدام أتباع الانبياء ، مع أنهم بذلوا غاية جهدهم فى هذه العصور الطويلة للخلاص مما هم فيه من الاذلال والاهانة فما حصلوا على شىء ، وقد

---

(١) بل كثير من علماء المادة والطبيعة المشاهير اليوم معترفون بان قانون السببية قد أصبح غير حتمى كما قرره جيمس الانجليزى وشيلر الالمانى وغيرهما . فهو كما أنه خالف الأديان كلها فقد خالف أكثر علماء الطبيعة الذين يسبح بحمدهم ويقدسهم، فكان مذبذبا فى كل نظرياته

حاولوا قتل عيسى عليه السلام واهانته وإهانة أتباعه من الحواريين وغيرهم فما حصل لهم غير عكس ما راموا ، كما قال تعالى ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيمة ﴾ وهكذا كان الواقع . وكذلك لا يقال ان المجوس انتصروا على عمر بن الخطاب لما قتله أبو لؤلؤة حسدا وبغيا وعدوانا ، ولا يقال أن أولئك البغاة الذين قتلوا عثمان رضى الله عنه انتصروا ، فان الله عاملهم بنقيض قصدهم فاذلهم وبدد شملهم ونصره الله عليهم فانتقم منهم بأبغض شيء اليهم وهم عصبة عثمان ، وقد كان هؤلاء الذين خرجوا عليه وقتلوه إنما قصدوا نقل الخلافة منه لكونه من بنى أمية الى على بغيا وعدوانا لا لغير ذلك ، فعاملهم الله بنقيض قصدهم بان قيدهم بالسبب الذى فروا منه ، فولى بنى أمية عليهم وجعلهم تحتهم يسومونهم سوء العذاب حتى هلك ذلك الجيل كله عن آخره فكان هذا الخليفة الراشد منصورا وان كان مقتولا ، وهكذا كل نبى وصالح . قال شيخ الاسلام ابن تيمية (١) « فان قيل : ففى الانبياء من قتل كما اخبر الله تعالى أن بنى اسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ويسلطه على المتدينين كما سلط بخت نصر على بنى اسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين ، قيل أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيدا . قال تعالى ﴿ وكأين من نبى قتل (٢) معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن

---

(١) أى فى (الجواب الصحيح فى الرد على النصارى) ج ٤ ص ٢٦٦

(٢) كذا نقله الشيخ ، وهى قراءة مشهورة ، وان كان الأشهر « قاتل » كما فى المصحف المطبوع

ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا فى القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه ، قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ أى إما النصر والظفر وإمـــا الشهادة والجنة . ثم الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة ، من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا ، وهذا غاية ما يكون من النصر ، اذ كان الموت لا بد منـه ، فالموت على الوجه الذى تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته ولا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعـلوا الأسباب التى بها قتـلوا كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت ، إما انهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء ، عالمين بان لهم السعادة فى الآخرة وفى الدنيا بانتصار طائفتهم وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء ، بخلاف من هلك من الـكفار فانهم هلـكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل به لهم ولا لطائفتهم شىء من سعادة الدنيا ، بل اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين . وقيل فيهم ﴿ كم تركوا من جنـات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أى ألوف كثيرة ،وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العـدو ، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فاذا كان هذا قتل المؤمنين فما الظن بقتل الانبياء ، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيـا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح ، وظهور الـكفار عـــلى المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد ، فان تابوا انتصروا على الـكفار وكانت العاقبة لهم . كما

قد جرى مثل هذا للمسلمين فى عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامهـــا ودلائلها ، فان النبي اذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فاذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر . وقولنا « من غير مزاحمة وصف آخر » يزيل النقوض الواردة . فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو سبب اتباع النبي وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه ، وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء . وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا . ومن هذا ظهور بخت نصر على بنى اسرائيل ، فانه من دلائل نبوة موسى ، اذ كان ظهور بخت نصر انما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك (١) وكانوا اذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا فى زمن داود وسليمان وغيرهما ، قال تعـــالى ﴿ وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن اسأتم فلها ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ﴾ فكان ظهور بنى إسرائيل على عدوهم تارة وظهور عدوهم عليهم تارة من دلائل نبوة موسى

---

(١) كما جرى لهذه الأمة ، فانها لما كانت مستمسكة بالدين ولا سيما فى الأصول كانت على غاية من العزة وضخامة الشأن ، فلما أن تغيرت حالتهم فى زمن المأمون وما بعده بدأ الضعف فيهم كما فى الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم »

صلى الله عليه وسلم وآياته ، وكذلك ظهور أمة محمد صلى الله عليه وسلم على عدوهم تارة وظهور عدوهم تارة هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته ، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم فى حياته وبعد موته كما جرى لهم من يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى ، وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينصرون على أهل الكتاب أحيانا ، فان أولئك لا يقول مطاعهم إنى نبى ولا يقاتلون أتباع الانبياء على دين ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم ، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم . وأيضا فلا عاقبة لهم بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعا . ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت . فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين وظهور بعضهم على بعض » انتهى

قلت : وجميع الرسل الذين قص الله علينا ما جرى بينهم وبين قومهم فى القرآن العزيز قد نصرهم الله كنوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . ومن المعلوم الذى لا ريب فيه أن الحضارة والملك منذ آلاف السنين كانت فى أيدى المتدينين المقرين بالرسل ، وهى الآن تحت من كان لهم أصل عريق فى الديانات ، وإن كان فيهم الآن من ليس متدينا ، فان الأسباب الأولية التى أهلتهم للمعرفة فى هذه الأمور كانت مأخوذة فى أزمنة التدين مقتبسة منها . وهذا الملحد نفسه قد اعترف اعترافا ظاهرا فى نبذته الهوجاء (كيف ذل المسلمون) بأن أوربا لم تأتها هذه الحضارة وتقتبس هذه العلوم التى هى عليها الآن إلا من تعاليم الاسلام ومن المسلمين الذين خالطوهم فى أوربا ، ومعلوم أن أولئك المسلمين كلهم مقرون بالقدرة والمشيئة العامة ودخولها فى الأسباب والمسببات ، ومع هذا حصل النجاح . بل

هو نفسه ذكر فيما مضى أن المجردين من الدين يبقون على طباعهم الخبيثة من الجهالة والظلم والعدوان المطلق ، فاذا كان المجرد من الدين يبقى كذلك فكيف يقال ان المتدين لا بد أن يكون غير سببى والنجاح إنما يكون للسببى المحض ، وصريح هذا أن الملحد هو الذى يعتقد أن الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، فان هذا هو اعتقاد الملحد بخلاف المتدين فانه لا يعتقد هذا أبدا كما اعترف هو بذلك فيما يأتى بانه لا إله بلا فعل ، وإثبات الفعل يقضى للانسان بأن لا يكون سببيا ، وقد قدمنا غير مرة أن الايمان بالأسباب بكونها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أكبر مصيبة وأعظم مخذل للقوى ومضعف لها ، ولا يمكن بحال أن ينجح من هذا اعتقاده ، لأن هذا الوهن العظيم والعائق الاكبر لابد أن يضطر صاحبه الى الايمان بالمخلوقات العاجزة التى يشاهد عجزها فى نفسه وفى غيره فيكون ضميره قلقا حائرا ، فان هذه الاسباب المحدودة الضئيلة التى هى غير مضبوطة له وهى مشتركة بينه وبين عدوه ، وقد آمن بان عدوه يقدر على مثل ما يقدر هو عليه لأنه مؤمن بأن جنس الانسان يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، وهذا يوجب أحد أمرين : الأول إتلاف النفس فى العمل إما اختيارا أو اضطرارا ، فالاختيار قلّ أن يفعله من فيه حياة صحيحة ، ولا سيما اذا كان يرى أن أكبر مصلحة عمله لغيره كرئيس ونحوه (١) وأما الاضطرار فلا يخفى ما فيه من الاستعباد وقتل الذهن والحرية والتفكير الصحيح . والأمر الثانى يوجب رفض العمل رأسا ، ولا سيما اذا كان فى شعب صغير قد استولى عليه شعب أو حكومة أكبر منه ، لأنه قد آمن بان القوة الكبرى تغلب الصغرى حتما ، وآمن بأن عدوه سيعمل أضعاف ما يعمل هو ، فلا فائدة حينئذ فى

---

(١) وربما كان أكره الناس اليه ذلك الرئيس أو الرؤساء الذين أجبروه على العمل لمصالحهم

العمل ، بل قد يختار أن يغتنم حياته فى الفرح والمرح واللذات العــــاجلة ولا يتلف قواه فى عمل نفعه لغيره ، وهذا بخلاف الدافع الدينى الذى يعتقد صاحبه أن الأسباب مربوطة بنتائجها والوسائل بغاياتها وأن الله يفعل بالأسباب وقد أمر بالأخذ بها والاعتماد عليه تعالى وأنها كلها تحت مشيئته وقدرته فهو القادر على نصره وتأييده وتوفيقه وإذلال عدوه وقهره وإفساد أعماله متى نصح العامل معه ، معتقدا أن عمله لا يذهب سدى : إما السعادة ، وإما الشهادة . فعمله كله خير له وكله طاعـة وكله مثاب عليه ، فمن كان هـذا هو اعتقاده فانه حقيق أن ينجح وحقيق أن يوفق وحقيق أن يواصل السير فى عمله بقوة ونشاط ، ولا بد أن تكون له العاقبة الحميدة

ودعواه أن هذه مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، يقال له : من المحال أن تكون هذه الفكرة مشكلة كبرى لم تحل ولا يذكرها أحد من الناس غيرك ، فان من المعلوم الذى لا يستريب فيه من له مسكة من عقل أنها لو كانت مشكلة لذكرها أحد من الناس على اختلاف أصنافهم منـــــذ آلاف السنين ، فمن هو الذى أشكلت عليه غيرك . وهذا برهان ظاهر عـلى أنهـا من أوضح الواضحات ، وان وضوحها عند النـــــاس أوضح من الشمس ، حتى السوفسطائية الذين يغالطون فى الحقائق لم يجعلوها مشكلة كبرى . وكيف تكون مشكلة كبرى ويسكت عنها الملايين وملايين الملايين آلاف السنين وهم سائرون عليها حاكمين بها على كثرة أعمالهم ، حتى أن المختلفين فى الصفات مقرّون بها ، فالناس إما ملحد زنديق منكر لها رأسا ، وإما مقر بها . أما كونها مشكلة فانمـا يكون هذا فيمن كانت نظريته مقلوبة فى معرفة الحقائق ، وكان مخالفا للناس فى كل نظرياتهم مثلك ، فمن كانت هذه حاله فخليق به أن تشكل عليه ، لغلـظ حجاب قلبه ، وانطماس بصيرته وقوة ظلمته . ولقد كان من الواجب المفروض عليك أن تستفتى فيها اذا كانت مستشكلة عليك . أما كونك تذهب الى مشكلة

حقيقية كبرى عندك فتبنى عليها كتابا طويلا وتدعى أنه حقائق أزلية أبدية وأن النهوض موقوف على الأخذ به والسقوط موقوف على تركه وأنه لن يستغنى عنه مسلم ، فهذا من أخبث ما يفعله الانسان وأشنع ما يضلل به غيره

ولا غرابة فى من سقط على أم رأسه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة أن يذهب الى أوضح شيء فى الدنيا كلها بأسرها وهو الايمان بالله تعالى وبقدرته ومشيئته العامة والعمل مع ذلك والنجاح فيه فيدعى أن ذلك مشكلة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، فان الاعمى الذى فى غاية الظلمة المحجوب بالحجب الكثيفة لا يرى الشمس صحوا وسط النهار ، وهكذا أعمى البصيرة مظلم القلب المحجوب بحجب الضلالات لا يرى الحقائق السافرة التى هى فى الوضوح والجلاء كذلك ، فجميع المسلمين بل وغيرهم من أهل الاديان من عالم وعامى من سائر الأصناف يعمل ويسعى جاهدا جادا فى عمله فى زراعته وصناعته وتجارته وسائر أمور معيشته وأكثرهم ينجح فى عمله ، واذا عدم النجاح عرف أنه من سبب غير هذا الايمان ، فأدنى إنسان من عامة المتدينين يؤمن بالله وقدرته ومشيئته العامة يجد فى عمله ولا يوهن هذا الايمان شيئا من عمله البتة . ولو أن هذا الذى ذكره قد خطر على بال أحد من الناس لسأل عنه ، وكيف يخطر على بال من له عقل أن الايمان بالقدرة والمشيئة يوجب عدم النجاح ، وأن الكفر بذلك يوجب النجاح . وكل عاقل يرى هؤلاء الناس على اختلاف طبقاتهم يسعون سعيا حثيثا فى طلب حاجاتهم سواء أكانت مشروعة أو مباحة أو محرمة موقنين بالنتيجة تحت المشيئة ولا أوهن هذا الايمان عزائمهم ، بل منهم من هلك من شدة اجتهاده وحرصه على العمل مع ايمانه هذا ، ولا يمكن لأحد أن يجد فرقا بين هؤلاء العاملين من أشعرية ومعتزلة وغيرهم فى هذه الاعمال التى يحاولونها مع اختلافهم فى تعلق الاسباب بمسبباتها

ومما يبطل هذه الدعوى من أصلها أن اجتهاد الانسان وحرصه فى عمله أو تراخيه أو وهنه فيه ليس منشأه الايمان بقدرة الله ومشيئته ، بل منشأ ذلك هى العوامل الغريزية بحسب الدواعى من الحب والبغض ونحو ذلك ، فان الانسان اذا كان يحب شيئا حبا شديدا كان سيره واندفاعه الى تحصيله عظيما ، كالرجل الذى يريد انقاذ ابنه أو حبيبه من مهلكة ونحو ذلك ، بخلاف ما لو اراد أن ينقذ شيئا تافها أو ليس فى انقاذه أمر كبير فان سعيه فى ذلك يتراخى ، وذلك لأجل الداعى والحافز مع ان اعتقاده فى المشيئة والاسباب هو بحاله ، وكذلك الرجل الذى يريد أن يصنع لابنه أو حبيبه دواء فانه يبذل غاية جهده ويحرص غاية الحرص فى إتقانه ، بخلاف ما لو صنعه لبهيمة تافهة أو لآخر لا علاقة له به أو كان يكرهه مع أن اعتقاده فى القدرة والمشيئة فى هذا الدواء ومفعوله بحاله لم يتغير فى الحالتين فى الحرص والاجتهاد ، فمن ادعى أن الايمان بالقدرة والمشيئة ينافى العمل أو ينافى الاجتهاد فهو مكابر مصاب فى دينه وعقله ، كما أنه كفر ظاهر وخروج عن حظيرة الاسلام بالكلية ، ولا يخفى هذا إلا على من طبع الله على قلبه وكان من الغافلين

وقد تبين من هذا معنى الدين الباطل عنده والفكرة الدينية التى هى أصل هذه المزالق التى حاقت بالمسلمين ، فالدين الباطل ـ كما ترى من صريح كلامه فى هذه الجملة ـ أن يؤمن الانسان بالله تعالى الذى هو سبب الأسباب بان له قدرة كاملة ومشيئة عامة فى إمكانها أن تقف فى سبيل الأسباب وتتحكم فى نهاياتها ، فان إيمانه بهذا السبب يمنعه على حسب ما تصور فى تلك القدرة والمشيئة فلا ينجح ، فاذا اعتقد الانسان هذا فهو على دين باطل ، أما إذا كفر بالمشيئة والقدرة التى حصلت من أجل الايمان بهذا السبب وآمن بالأسباب بأنها آلية طبيعية لا يقف فى سبيلها شىء ولا يتحكم فى نهايتها شىء فهو على دين صحيح . فهذا هو الدين الصحيح عنده . ولهذا ذكر فيما بعد أن هذا الدين الصحيح لا

يكاد يوجد ، أو أن الناس عاجزون عن فهمه ، فلاحظ هذا المقام ملاحظة دقيقة ينكشف لك ما وراءها من الخبث الذى ليس وراءه خبث ، ويزول عنك شىء كثير من خداعه الذى خدع به بعض النوكى وضعفاء البصائر وأشباه الأنعام

* * *

ثم قال بعد تلك الجملة « فالتصور الدينى البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الاله إما أن يكون له فعل وعمل فى هذا الوجود ، أو لا فعل له ولا عمل له . أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفى الاله ، إذ لا إله بلا عمل وأثر . أما الافتراض الأول - الذى لا بد من الاقتناع به - فانه على حسب الفكرة الدينية - أو على حسب تصور المتدين - يوجب الارتياب والاستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها . فان تصرف هذا الاله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولا فى الأسباب وتصرفا فيها أو عملا بدونها ، أو إيجادا وخلقا لها . فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب ، فلا محالة من افتراض قطع سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء [1] ، ثم هو اذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفا لسبب ، أو إبطالا ومنعا له من بلوغ غايته ، وإما اعانة له [2] وإبلاغا للغرض والنتيجة بدونه ، وأما إيجادا وخلقا له ، والاحتمالات كلها معناها الشك فى الأسباب والتهوين لشأنها »

قلت : هذه الجملة هى شرح حقيقة الاشكال الذى ادعاه فى الجملة السابقة ، وذلك أن التصور الدينى يوجب للانسان بداهة بان الاله له فعل وأثر فى

---

(١) هذا ممنوع

(٢) وأى محذور فى هذا

مخلوقاته ، ولا بد أن يكون هذا الفعل وهذا الأثر تصرفا في الأسباب [١] بقطع أو وصل أو اعانة أو ابطال أو منع ، وكل ذلك ـ على ما زعم ـ يوجب للانسان الشك في الأسباب والتهوين في شأنها ، فلا يكون الانسان الذي يعتقد هذا سببيا فلا ينجح . فالايمان بفعله وأثره ، والايمان بهذا الفعل والأثر أوجب الشك في الأسباب ، والشك فيها أوجب عدم النجاح . هذا صريح كلامه ـ كما ترى ـ فلا بد على هذا من الكفر بالسبب الأول ليزول ما بعده فيحصل النجاح المطلوب . فأي عبارة أصرح في الدعوة الى الالحاد من هذه ، فصارت المصيبة التي أخرت جميع المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا كما يقول هو ايمانهم بالله تعالى وأنه يتصرف في الوجود بفعله وأثره كيف شاء ، اما المتحللون من الأديان الذين صنعوا الحياة فهم عكس هؤلاء ، فلهذا نجحوا [٢] . ووجه الاشكال وسره الذي ادعاه وسقط فيه أنه لا بد للناس أو للمتدينين من الاقتناع بوجود الاله ، ولا بد لهم من طلب النجاح ، وطلب النجاح موقوف على اعتقاد عدم التصرف في الأسباب والتحكم فيها ، والايمان بالله يوجب الايمان بفعله إذ لا إله بلا فعل ، وفعله لا بد أن يكون تغييرا للاسباب وتصرفا فيها على كل احتمال ، وهذا يفضي الى عدم النجاح ، وحينئذ لابد من أحد أمرين : اما أن يبقوا على الايمان به وبتصرفه وعدم النجاح ، وإما جحده ونفيه والاعتماد على الأسباب ، وهذا يوجب النجاح . وهم لا يقتنعون إلا بالأول وهو يفضي الى التأخر ، ومن هنا وقع الاشكال . فهذا محز مشكلته التي لم تحل ، وهذا سرها الخبيث المنتن ، فانه لما آمن بالأسباب على الذي ادعاه ، وهو أن النجاح منوط بالاعتماد عليها لا على خالقها ، وأنها تفعل

---

(١) لأن كل ما في الوجود فهو أسباب

(٢) هذا روح الكتاب ـ وهو أن الايمان بالله نكبة على البشر كما نقله عن صنمه غوستاف لعنهما الله

بطبعها فعلا آليا طبيعيا لا يمكن لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، أوجب له هذا الايمان الكفر بما يرد على ذلك وهو تصرف الله فيها على كل احتمال ، وهو انكار فعله مطلقا ، وانكار فعله يوجب انكاره كما ادعاه بأن نفى فعله نفى له بلا شك ، فهذا سر مشكلته التى جعلها حقيقة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ولا شك أن من اعتقد هذا الاعتقاد فلا بد من وقوعه فى هذا الاشكال الذى هو صريح الالحاد ، فهو فرض أشياء ومقدمات باطلة وبنى عليها ما شاء : وقد بينا أنها لم تشكل على أحد غيره . فاذا عرفت أن هذا محور كلامه ونقطة دائرة إلحاده وأنه وجه إشكاله ، فاعلم أن أدنى متدين عاقل فضلا عن غيره يسهل عليه حلها فيقول : دعواك أن الاقرار بالتصرف يوجب الشك فى الأسباب والاستهانة بها على كل احتمال دعوى فى غاية السقوط ، فهى مع كونها دعوى مجردة ليس عليها دليل فهى مخالفة للعقل والضرورة والحس والوجدان والاستقراء والواقع ، أما الفعل فانه من المعلوم الذى لا ريب فيه أن الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد أمر بالأخذ بها ووعد من استعان به أن يعينه وأنه القادر على تقويتها وتسديدها وهى تحت قدرته ومشيئته وطوع إرادته يوجب الحث ومواصلة السير فى العمل بها والاجتهاد فى الأخذ بها ، ولو أن ملكا عظيما أمر عبيده بعمل وأعطاهم أسبابا يعملون بها ووعدهم أن يعينهم هو وييسر لهم هذه الاسباب ويدفع ما يعارضها لكان أخذهم بهذه الأسباب والاجتهاد فيها أعظم وأقوى وأشد من كونهم لا يؤمنون إلا بأسباب قد عرفوا عجزها وضعفها ، وعلموا وجود أمور أخرى مثلها تعارضها وتبطلها . وهذا الملحد جعل جميع الاحتمالات التى ذكر منها الاعانة والوصل فى الأسباب مما يوجب الشك والاستهانة بها ، وهذا من أفسد ما يقال

وأما بطلانه بالضرورة والاستقراء والواقع فكل انسان يرى الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم يأخذون بالأسباب جادين فى الأخذ بها ، وكثير منهم قد هلك من شدة الحرص والاعتماد عليها ، وليس وراء الهلاك فى الحرص

شيء . واذا وجد فى أحد منهم كسل أو وهن لم يكن منشأ ذلك من هـــذا الايمان ، بل منشأه إما من اعتياد البطالة أو من أمر آخر ، والبرهان على هذا أن الكسل والوهن الذى يوجد فى النادر مشترك بين سائر الناس ، وغالبه إنما يوجد فى أهل الفساد وأتباع الشهوات والمنافقين ، وقل أن يوجد فى المستمسكين بالدين من هو كذلك . وقد قلنا غير مرة إن الايمان بالله وصفاته وإعانته ورحمته وتحكمه فى الأسباب أعظم حافز يوجد على وجه الأرض ، فانه يبعث على النشاط ومواصلة العمل ، لكون الله أمر بذلك ووعد بالاجابة لمن أطاعه وتوعد من خالف أمره بالاهانة والخذلان . فمتى علم الانسان أنه محق وأنه مطيع وأن خصمه ظالم له أوجب له هذا الايمان مواصلة السير والصبر والثبات والحزم والعزم الذى لا حد له ، أما اذا اعتمد على الأسباب وحدها وأن العادل والجائر والجاهل والعالم والمسيء والمحسن عند هذه الأسباب سواء فى ناموسها فان اعتقاده هذا فيها وفى أسبابها سيكون هو العائق الأكبر والمخدر الاعظم الموجب لليأس والقنوط للانسان حينئذ ، ولا سيما اذا كان فى أمة صغيرة وعدوه أمة كبرى فانه يقنط ويضرب بالعمل والاجتهاد عرض الحائط ، لان القوة الكبرى فى ناموس الطبيعة كما يدعى ستغلب الصغرى لا محالة ، واذا حاول المغالبة والمصابرة والعزيمة فقد علم أن خصمه سيكون كذلك وسيسبقه ، لانه أكثر منه عددا وأعظم انتاجا ، واذا حاول زيادة القوة فانه يعلم أيضا أن خصمه كذلك ، فاذا مشى شبرا مشى عدوه باعا أو أكثر ، لان ناموس الطبيعة كذلك ، وحينئذ يشك ويرتاب ويستهين بالعمل ويترك رأسا إن استطاع ، ويغتنم فرصة لذة الحياة العاجلة وراحة الضمير ويسلك مع عدوه مسلك المسالمة أو الخضوع الذى لا بد منه ، ولا حاجة الى المقاومة لانها ضرر أو عبث ، ولانه ليس هناك عقوبة ولا ثواب وليس معه رأسمال يحيى به غير هذا العمر القصير فكيف ينفقه فى مصلحة غيره ممن لا يعلم به ، وربما كان عدوا له . وهكذا كان كثير من الشعوب التى فشا فيها النفاق والزندقة والالحاد ، فانهم

اضطروا الى جعل العمل إجباريا لفقدان الروح الحية الدافعة الى العمل اختيارا ، وأما المؤمن فانه بخلاف هذا كله ، فانه يعتقد أنه موعود باحدى الحسنيين إما السيادة أو الشهادة والحصول على الجنة أو النجاة من النار ، وهذا هو الذى لا بيع فيه ولا خلال ، بخلاف التعصب للقومية والوطن ونحو ذلك فأكثر هذا دعايات فارغة وأصباغ لامعة سرعان ما تزول ، فأكثر الناس لا يبيع حياته التى لا يرى أن لا حياة له غيرها بالوطن ونحوه ، وهذا معروف بالاستقراء فى الشعوب المؤمنة والمنافقة ونحوها كما أوضحنا هذا مرارا كثيرة

☆ ☆ ☆

ثم قال : « وقد يقال بعبارة اخرى ـ على حسب تصور المتدين ـ ان المسألة لا بد أن تفهم هكذا : الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية ، فان كانت كافية فأين الاله وأفعاله وألطافه ؟ ! فهى اذن غير كافية ، واذا كانت غير كافية فهى إذن غير خليقة بان يعول عليها المؤمن تعويلا صحيحا ، ولا أن يلتفت اليها . ومن هنا يصبح غير سببى »

قلت : وهذا كالذى قبله فى كونه إلحادا صريحا ، فانه اذا كان يصبح غير سببى فلا ينجح ، وهو خلاف المطلوب ، فعليه إذن أن يعتقد كفايتها ليكون سببيا ، واعتقاد كفايتها يتنافى مع اعتقاد وجود أفعاله وألطافه وهذا لا يمكن نفيه إلا بنفى الاله كما قال فيما سبق ، اذ لا إله بلا فعل ولا أثر ، وان معنى هذا بلا شك نفى الاله فجعله نفيا للاله بلا شك ، وهذا صريح فى الكفر والالحاد ، وهل يشك فى هذا من له عقل يميز به بين الدين والكفر ، ونقض هذه الدعوى فى هذه الجملة يفهم من نقض الجملة التى قبلها ، لأن هناك فرضا ثالثا تجاهله وتركه وهو الحق الواضح ، وهو اعتقاد كفايتها بالله تعالى تحت المشيئة وجودا وعدما وهذا الفرض أوضح من الفرضين الآخرين ، فان أكثر البشرية مقتنعة به وسائرة عليه ، ولا يلزم من عدم كفايتها لذاتها تركها . ألا ترى أن

وجود الشفاء من التداوى غير محتوم ، ولم يلزم من ذلك تركه رأسا ، بل ولا التهوين من شأنه ، وكذلك الزراعة والتجارة فان حصول نتيجتها والانتفاع بها ليس حاصلا حتما ، وذلك لم يمنع من استعمالها والحرص على الأخذ بهما والقيام والاجتهاد فيهما عند المتدينين كلهم ، والسببيون الملحدون أنفسهم معترفون بأن عدم تحتم وجود النتيجة لا يمنع استعمال سببها ولا التهاون فيه ، ولذلك يجرون التجارب تلو التجارب ، وقد يخسرون أموالا طائلة ولا يحصل لهم نتيجة إما مطلقا وإما مكافئة ، وأكثر أعمال الناس فى أمورهم وفى معايشهم تجرى على الظنون وعلى المخاطرة وعلى التحرى ، وذلك لم يمنعهم من الجد والاجتهاد فى استعمال أسبابها [1] كما أن علمهم بأن الأكل والشرب واستعمال الوقاية من المضار لا يمنع من الموت ومن المرض ، ولم يمنعهم اعتقادهم هذا من استعمال هذه الأمور . فما ذكره كلام ساقط كالذى قبله ، وهو دائما يجعل الدعوى دليلا على نفسها فيدعى ويستدل معاً ، فيقدر تقديرا مستحيلا أو بعيدا أو يبنى عليه ويحكم به بل ويجعله برهانا على غيره ، هذا مع أن تصور المتدين فى هذه الأمور مختلف اختلافا بعيدا وقد جعلها قضية كلية عامة مع فسادها وظهور بطلانها كما هو ظاهر

* * *

ثم قال « وجهة أخرى تلك هى أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ، فالله فى تقديرهم وتصويرهم ـ وان اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيرا ـ لا يعدو ان يكون ـ فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى

---

(١) بل قد هلك بعضهم من الحرص عليها والكدح فيها مع اعتقاده بان النتيجة غير حتمية

سائر عبيده ورعاياه - بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم ، ولهذا فانه - أى الاله - يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه ، ويلجأ الى المحسوبية [١] والى الاعطاء والمنع على الشفاعة ، ويتحكم في هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده وعلى مقتضى تطورها وتغيرها لا على مقتضى نواميس شاملة [٢] ثابتة ، فاذا بلغوا هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا ، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه ، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل ، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون ، فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل [٣] وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية ، لأن تصورهم للاشياء قد أصيب بالفساد ، واذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة ، وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم ، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجواريهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والامتداح وكل تلك المخازى الخلقية التى أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافئات وأدبيات إننا إذا وضعنا أمامنا ملكا أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده ، وتصورنا كيف كان يعطى ويقرب الشعراء والشفعاء وصنوف المتملقين لكبريائه ، وكيف كان يحرم

---

(١) قبحك الله من هو الذى ادعى هذا

(٢) أتريد أن يكون خاضعا لنواميس الطبيعة التى يستخدمها الانسان بزعمك فيكون الانسان هو المتصرف وهو العاجز

(٣) يوهم بهذا أنهم إنما تركوا العمل لأجل اشتغالهم بالعبادات والعكوف فى المساجد فقط

ويقصى أهل الجد والصدق فى القول والعمل ، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب لأنه أراد ذلك ولأنه رضى ولأنه أحب أن يمدح ، وكيف كان يسيل نقمة وعذابا لأنه أراد ذلك ولأنه غضب ولأنه أحب أن يرهب ، ثم تصور كيف كان يتصرف فى اقطاعياته وفى عبيده وكيف كان يعطى ويمنع لابخلا ولا كرما ولا عقلا ولا سفها ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال وتصيبهم بالخبال ، وكيف كان ينتقم ويثيب [1] إننا اذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك ، ثم تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون اليه ويلتمسون رضاه وهباته ويتعرضون لمواقع مجازفاته ، وكيف يصبحون شر الأنام [2] وكيف يعجزون أن يفعلوا الخير والصواب [3] ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة - إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة »

قلت : فلينظر المسلم الغيور على دينه الى هذه السلسلة الخبيثة الملعونة وما تضمنته من الكفر الغليظ والفجور الذى لا حد له ، ولولا أن الله تعالى ذكر فى كتابه العزيز ما نسبه اليه أعداؤه من الأقاويل الكفرية لم تستطع الأنامل نقله [4]. يا مغلولا بهذه الأغلال ، فى أى كتاب وجدت أن المتدينين على

---

(١) هكذا وصف من امتثل أمر الله وعمل صالحا ، كما أنه وصف الله جل وعلا بهؤلاء الملوك الفسقة أهل الجور والظلم

(٢) هذا تصريح بأن المتدينين شر البرية

(٣) تصريح ظاهر بأن المتدينين لم يفعلوا الخير ولا الصواب

(٤) كما نبهنا على هذا فيما سبق

اختلاف أجناسهم يتصورون إلههم بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم الى آخر ما هذيت به . وأدنى عقيدة من عقائد المسلمين تصرح بأن من شبه الله تعالى بالبشر فقد كفر ، ومن أعظم الكفر عندهم أن يشبه الله بخلقه فى أى كتاب وجدت أنه جل وعلا يلجأ الى المحسوبية وأنه يحكم هذا العالم كالحكم الذى ذكرت . ومعلوم أن ما ذكرته من التطورات والانفعالات انما يلصق بما ذهبت اليه فى الطبيعة ونواميسها ، فانك قررت أنها تتطور وتتفاعل ، ومع ذلك دعوت الى عبادتها ونسبت اليها حكم العالم ، ثم بعد أن اجترأت على المقام الأقدس ذهبت تشبه عباده المؤمنين به -مع أنك تخضع لهم وتضرع اليهم وتعبدهم- بالزعانف المنافقين مع أمراء الجور والخبث والظلم فتبنى ضلالات على كفريات ، ثم لم يكفك هذا الزعاف حتى ذهبت تشبه رب العالمين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين -الذى له الكمال المطلق الذى لاغاية فوقه القائم على كل نفس بما كسبت بالقسط والعدل والاحسان- بالملك أو الخليفة الأهوج الذى لا يحسن تدبير مملكته ، وأن هؤلاء المؤمنين بالله كأولئك المنافقين عند أولئك الملوك والخلفاء والسفهاء ، وتدعى أن هذه هى حالة المتدينين ولو اختلفوا وتخلفوا لا تعدو هذا ، ثم تركب على هذا فجورا أقبح منه فتقول « ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها إلها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة » إلخ . ومعلوم أنك اذا تصورت هذا انما تتصور أوهاما تخيلتها بنفسك لا حقيقة لها ورميت بها المتدينين ، ثم ذهبت تدعى بأنهم شر البرية ، ثم ركبت على ذلك فجورا فوق كفر متراكم بقولك « اننا اذا تصورنا هذا كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديد أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » ألا قاتلك الله ما أهون الكفر عليك وأخفه على لسانك ، أيا بلعام زمانه اذا تصورنا ما ذكرته فانما نتصور الملاحدة واستخدامهم للطبيعة ونواميسها وعبادتهم لها فان هؤلاء

الملاحدة اعتقدوا فى الطبيعة كما اعتقد أولئك المنافقون فى أمراء الظلم والجور وسفاهة الرأى ، لأن هؤلاء المنافقين لما علموا أن أولئك الأمراء لا عدل ولا رحمة ولا علم ولا حكمة لديهم وإنما أمورهم وأفضالهم تابعة لقوة دهاء من يخدمهم ويعرف كيف يسير مع ناموس طبيعتهم الفاسدة عملوا ما يعمل الملحد مع الطبيعة ونواميسها ، فان الملحد يعتقد أن الطبيعة مجرد المصادفات التى لا علم ولا حكمة ولا عدل ولا رحمة لديها ، بل من استخدم هذه النواميس نال ما يبغى كما ادعيت ذلك صريحا ، ومن خالفها لم يستحصل شيئا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، فكل عمل صالح يبذله فلن ينفعه لأنها لا تعطى على الأعمال الصالحة وانما تعطى على مقتضى استخدام البشر لها وتصريفها على وفق معرفتهم وملكتهم ، وكل ما يصدر أيضا عنها من نتيجة إنما هى بحسب تطورها وتفاعلها لا على مقتضى مشيئة عادلة شاملة صارمة صادرة عن علم وحكمة ورحمة ، فهؤلاء المنافقون مع أولئك الأمراء هم من جنس هؤلاء الملاحدة مع الطبيعة ونواميسها ، بل الملاحدة شر منهم وأضعف آراء لأنهم عبدوا كل مظاهرها من خبيث وغيره وخضعوا له وخدموه واستخدموه ، بخلاف أولئك فانهم عبدوا مظهرا واحدا حصلوا فيه بعض مقاصدهم كما حصل هؤلاء بعض مقاصدهم واستمتع بعضهم ببعض ، أما المؤمنون بالله تعالى فانهم بخلاف هؤلاء كلهم ، فانهم اعتقدوا فى الله تعالى الكمال المطلق الذى لا غاية فوقه من جميع الوجوه فوصفوه بما وصف به نفسه فى كتابه العزيز وعلى لسان رسوله ﷺ على الوجه اللائق به لا على ما يليق بخلقه ، فكل صفاته تختص به وتليق به ، وقد علموا أنه سبحانه غنى عنهم وعن عبادتهم وأنهم لو لم يعبدوه بل ولم يخلقوا لم يضره شيئا ، وإنما أمرهم بهذه الفروض السهلة اليسيرة رحمة بهم ، فانهم خلقوا من أصل النقص العدمى من كل وجه فلا بد أن ينحطوا الى الأصل الذى خلقوا منه ويرجعوا اليه ، ولكن لرحمته ولطفه وإحسانه خلق فيهم فطرة قابلة لمادة الخير المستمد من الكمالات فأرسل اليهم الرسل وأنزل اليهم الكتب ليدلهم

على الطريقة الوحيدة التى تنفعهم وبها يستحصلون على غاية اللذة وغاية الحياة الصحيحة فضلا منه وإحسانا ، فالطريقة التى لا طريقة سواها هى أن يستمدوا بهذه الفطرة المخلوقة فيهم ما يلائمها من مضادر الكمال التى هى الآثار السماوية والاتصال بها [١] ، وحيث أن الانسان جاهل بكيفية العمل الذى به يدرك هذا الشرف الرفيع والمجد الذى لا أعظم منه جعل له نظاما سهلا يسيرا مضبوطا يسير عليه ويتمسك به ، فالدعوات والصلوات وغيرهـا من مظاهر عبادة الخالق هى اتصال مقدس بين العبد وبين مصادر الرحمة والاحسان وسائر صفات الكمال يحصل للنفس بها تطهير وتقديس وتنوير وقوة وروح ولذة وغيره ، وهى تؤثر فيها تأثيرا بليغا يخرج به من حالتها البهيمية الجاهلة الى أن تكون إنسانية ملكية ، ولا يحصل لها ذلك إلا من طريق هذه العبادات المفروضة لأنها هى السبيل الى اكتساب هذا الكمال الوجودى ، فاذا أعرضت عن ذلك وتركته صارت منحدرة فى ظلماتها ودركاتها الاصليه الطبيعية بسبب ما يتعاقب عليها من ظلمات المعاصى ومباشرتها للنقائص ومصادر النقص ، فان تقابل الطبيعة والنظام السماوى كتقابل الوجود والعدم والنقص والكمال ، فكلما أبعد الانسان عن النقص حصل له زيادة كمال ونور ، كما أنه اذا أبعد عن مصادر الكمال انغمس فى النقص والظلمة ، فالعبادات انما شرعت فضلا من الله وإحسانا الى خلقه ليحصلوا بها سعادتهم ، إذ أن ذلك غير ممكن لهم إلا من هذا الطريق ، فكيف تقاس هذه العبادات الشريفة على تلك الأعمال الخبيثة التى يعملها المنافقون مع الملوك الذين كل منهم مضطر الى منافقة صاحبه ومراعاته وخداعه والكذب عليه ، بل هؤلاء إنما ينطبق عليهم فعل الملاحدة مع نواميس الطبيعة إذ هؤلاء الملوك الظلمة سبب من أسبابها التى تستخدم وتخدم .

---

(١) أى يقابلون الفطرة الصحيحة بما يلائمها من مصادر الصحة والكمال التى هى الاتصال بالخالق فى عبادته وطاعته واتباع أوامره

ولا عجب فالمنافقون هم أعداء النبيين منذ وجدوا كما قال تعالى فيهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال فيهم ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾

ثم دعواه على المتدينين على اختلاف أجناسهم أنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا الخ دعوى عدو على عدوه يمكن أن يقابل بمثلها ، وأن تقام الأدلة على ضدها . فان ما ادعاه قول مجرد عن الدليل ، والبراهين الصادقة قائمة على إبطاله وتقرير ضده ، فان الملاحدة مطلقا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا كما علم ذلك بالبراهين القطعية التى لا تحصى والتى لا يمكن معارضتها نذكر منها ثلاثة استيفاء للبحث ، وقد تقدم كثير منها :

البرهان الاول : أنه من المتفق عليه أن كل شيء جديد إنما يخرج بالعلم لا بالجهل ، واذا كان الأمر كذلك فقد ثبت أن المجرد من كل دين ليس معه علم إلا ما اكتسبه من المتدينين ، وهذا الملحد نفسه مقر بهذا ومعترف به ، وهاك عبارته فى صحيفة ٦٥ من اغلاله وهذا نصها : « ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان [١] ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا [٢] لم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين ، وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست ممدوحة وليست خيرا » انتهى . فقد اعترف بان المجرد من كل دين يبقى على فطرته التى ادعى أنها العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط وليست خيرا ، وقرر كما تقدم بان الانسان بطبيعته خبيث ظالم جاهل

---

(١) أى الاسلامية واليهودية والنصرانية والمجوسية المذكورة فى حديث « كل مولود يولد على الفطرة »

(٢) أى الأطفال

وأنه يبقى كذلك اذا كان مجردا من كل دين ، وبأن التعليم مأخوذ من الدين نفسه ، وقد تقدم الكلام على هذه العبارات فى المبحث الثانى . والمقصود هنا أن العلم النافع مكتسب من الديانات ومأخوذ منها بلا خلاف كما قال تعالى ﴿ اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ انا انزلنا التوارة فيها هدى ونور ﴾ الى قوله ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ وكذلك ذكر فى القرآن أنه هدى ونور ، وكل انسان يعلم أن جميع الحضارة الموجودة انما أخذت من هذه الأديان الثلاثة ولهذا كانت أمريكا قبل أن تتصل بأهل هذه الأديان على غاية من الجهالة والانحطاط ، فلما اتصلت بهم واكتسبت منهم شيئا من آثار هذا الهدى والنور وصلت الى ما وصلت اليه . فالتجديد النافع والحضارة الراقية قد عرف بالضرورة انها قائمة على هذه الآثار السماوية ولا يضر وجود ملاحدة بعد ذلك ، فان هذا أيضا موجود فى الدول الاسلامية ، وقد ادعى هذا الملحد أن المسلمين يبلغون أربعمائة مليون ، ومعلوم أن فيهم ملاحدة ومنافقين كما فى غيرهم من الدول الكبرى كثيرون ، فاذا احتج بأن أولئك فيهم ملاحدة قد رفضوا أديانهم قيل يوجد فى المسلمين من هو كذلك ، فما بال هذا التجديد لم يوجد فيهم ، واذا قيل لان فيهم خرافات قيل وفى غيرهم كذلك ، وكل الخرافات التى فيهم إنما أخذوها من الملاحدة وهى من آثار الالحاد فانها كلها ترجع الى الايمان بالأسباب المادية كما تقدم

البرهان الثانى : أن يقال : اذا كان المراد باعطاء الحياة الشىء الجديد هو إعطاء الانسانية ما ينفعها ويرقيها وينعمها عاجلا وآجلا فقد كان من المعلوم بالاستقراء الذى لا ريب فيه أن الأنبياء وأتباعهم من المتدينين هم الذين اخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، فانه قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن بنى اسرائيل كانوا فى رق الفراعنة وقد كانوا على أسوأ الحالات فأخرجهم موسى

من هذه الظلمات الى النور حتى صاروا ملوك الدنيا فى زمانهم ، ثم لما جاء عيسى بالبينات والهدى والنور وآمن به من آمن من بنى إسرائيل وكفر به من كفر منهم أيد الله الذين آمنوا على عدوهم فكانوا ظاهرين عليهم مئات السنين من أجل هذا الهدى والنور الذى جاء به . ثم إنه قد علم بلا أدنى شك ما كانت عليه العرب قبل نزول هذا الهدى والنور الذى جاء به محمد ﷺ من الحالة السيئة ، فأخذوا به فكانوا ملوك الدنيا ، ونشروا النور والعدالة على سائر أقطار الارض ، ووهبوا البشرية الشىء الذى يصح أن يقال إنه جديد ، وقد قال هذا الملحد فى صحيفة ٦٧ من هذه الاغلال « وقد عمل الاسلام أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده اليوم ما هو معروف » انتهى .

وقد قال هذا الملحد فيما تقدم ان العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، هذا كلامه ، ومعلوم بلا شك أن الملحد لا يخشى الله فلا يكون عالما فلا يمكن أن يهب الحياة شيئا جديدا . وقد ذكر هذا أيضا فى مقدمته (كيف ذل المسلمون) أن حضارة أوربا إنما اكتسبت من دين الاسلام ، قال فيها ص ١٢٦ « وقد ظلت أوربا قرونا طويلة مديدة خاضعة لهذه الخرافات مسلمة أعناقها الى أغلالها واضعة رجلها فى أصفادها ، فكانت إذ ذاك فى غاية من الجهل والانحطاط والتأخر والضعف والفقر ، حتى أدركتها رحمة الله المنزلة على العالمين جميعا ، فانبثقت عليها أنوار الاسلام من جهة إسبانيا والقسطنطينية ومن سائر الجهات ، وقبست من هذه الأنوار العربية المحمدية حينما اختلطت بالمسلمين فى الحروب الصليبية وفى الحروب الاخرى ، فمزقت هذه الأنوار الشرقية العربية السماوية التى حملها اليهم المسلمون تلك الظلمات الداجية ، فأتيح لهم أن يبصروا بعد العمى الطويل الممل ، وأن يلتمسوا على ضيائه الوهاج أول الطريق الذى سلكوه الى حضارتهم هذه القائمة الحاكمة » انتهى . وهذه سجيته فى التناقض ، فكيف بعد هذا الاعتراف الصريح ينتكس على رأسه فيدعى

أن المتدينين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا أليس هذا كله هراء ووقاحة ظاهرة

البرهان الثالث : أنه من المعلوم الذى لا ريب فيه أن هذه المخترعات كلها إنما أخرجها هذه الدول المنتسبة الى الأديان العريقة فيها . وإذا كان الأمر كذلك فمن أين للمدعى أن المخترعات كلها أو بعضها من المتحللين وحدهم دون غيرهم ، فان هذا مكابرة ودعوى مجردة عن الدليل ، فهو مطالب بالبرهان الصادق على أن المتحللين من الأديان مستقلون بايجادها بدون أى مساعدة من نظر أو تفكير أو إعانة من الأشياء المأخوذة من الديانات . وقد ذكر هذا فى أغلاله أن المتأخرين لم يأتوا بشىء جديد يساوى الكتابة فى النفع ، ومعلوم أنها من الأمور التى خرجت على أيدى المتدينين القدماء وانتفع بها المتأخرون وكانوا مضطرين اليها غاية الاضطرار ، ولولاها لم يوجد أكثر هذه الصناعات ، قال تعالى ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ وهذا نص صريح بأنه تعالى علم الكتابة ، ومن يقول ان الانسان عرفها بطبعه يكذب هذا صريحا بدون حجة ، وهذا الملحد نفسه مطالب باثبات وجود شىء واحد جديد على أيدى الملاحدة استقلالا عن غيرهم ، فاذا كان عاجزا عن ذلك - وهو بلا ريب عاجز ، اذ لو كان قادرا لذكره أول ما يذكر ، فانه أحرص الناس على إثبات كل ما فيه أدنى علاقة للحث على الالحاد - فليعلم أن لخصمه أن يعكس دعواه هذه بدعوى مثلها سواء [1] وليس قبول قوله بأولى من قبول قول خصمه ، بل خصمه أولى بالصدق ، فان البراهين الدينية متضافرة على ذلك كما أسلفنا ، والعقل والاستقراء يشهدان لذلك وهذه الامم البعيدة عن الديانات أجهل الناس بمعرفة هذه

---

(١) أى فيقول قد عجز الملاحدة على اختلاف أجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا الخ . وكل ما يجيبه من وجود هذا عند بعض الملاحدة يمكن المتدين مقابلته بعدم اختصاصهم بايجاده وبما ذكرناه من البراهين ، ودعوى الاختصاص فيما ينفع تحتاج الى برهان

الامور ومعلوم أنهم أبعد النـاس عن الاديان كالزنوج ونحوهم ، فكيف يدعى هـذه الدعوى العريضة التى تتضمن القدح فى الأديان ومن جاء بهـا ومن دان بها ، إذ حاصلهـا أن الـكتب السماوية والانبياء كلهم لم يأتوا إلا بالشر ، لأنهم لم ينفعوا البشرية بشيء سوى العذاب بالتعبدات ، ولا شك أن الجمـلة التى تقدمت ، بل الـكتاب كله برمته ، يتضمن الحث على بغض الرب الكريم ومقته ومقت دينه ومن دان به بمجرد القحة والهراء والتحكم المجرد ، فالله يجازيه بعدله إنه سميع مجيب

وأما دعواه المرذولة الأخرى فى قوله « وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » فهى من المهازل التى تضحك الثكلى ، فما هو التألق الذى انفرد به الملاحدة دون المتدينين ، هل هو أكل أو شرب أو نكاح أو ركوب طائرات أو سيارات أو فى شيء غير ذلك فلا بد من بيانه ، فان هذه الأمور كلها قد اشترك فيها الملاحدة والمتدينون بل وكثير من البهائم ، ولعله يشير الى أنهم يركبون الطـائرات والسيارات ، فان كان هذا هو الذى خطر على باله فليعلم أن الـكلاب والخنازير قد استحصلت على هذا أيضا فضلا عن سائر أصناف بنى آدم عـلى اختلاف مذاهبهم ، وليعلم أيضا أن النسور والغربان وغيرها قد ظفرت بالطيران والتحليق فى السماء بدون أدنى كلفة وبدون أدنى خسـارة فى كل وقت مـع أن أكثر ما تعيش به جيف الحمير وأشباهها من الخبائث والقاذورات ، فان كان هذا هو التألق فليحكم على هذه بأنها أفضـل من المتـدينين بل والملحـدين لأن قدرتها على هذه الخصلة ومعرفتها لها وسهولته عليها أعظم من غـيرها . وقد سبق الـكلام على ما يتعلق بهذه الجملة فى مواضع كثيرة تغنى عن الاعادة

* * *

ثم قال « وأمر آخر ، ذلك أن المؤمنين يرون دائما أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهـد بحمايتهم ورعايتهم فى كل أمورهم

أوجلها ، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله وهو الكريم القادر عمن صنع بيديه وعمن أوجدهم اختيارا واقتدارا (١) فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين - أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجية (٢) وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنع وما لن يظفروا به إلا إذا صنعوه هم ، ولا يمكن أن يكونوا فى أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم ،كما أن ذلك الطفل المدلل المكفى لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصامى الذى يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له الى البقاء »

قلت : كل هذا غير صحيح ، فان المؤمنين لا يرون هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها ، بل هم يرون أن الله تعالى أمرهم بطاعته والقيام بما شرع لهم من الأمور الدينية والأخذ بالأسباب الدنيوية ، فيجب عليهم أن يعملوا بهذا وهذا . ولم يدعوا أنه ضمن أرزاقهم وتعهد بحمايتهم بدون أسباب أبدا . ثم على فرض التنزل مع هذا الملحد يقال له : هل هم عملوا بهذا الرأى أو تركوه . فان ادعيت أنهم فعلوه واشتغلوا بالطاعة عن فعل الأسباب فقد بالغت فى المكابرة والبهت كما هى عادتك ، وان نفيت هذا بطل كلامك ، فان هذه الدعوى مفروضة فرضا لا حقيقة له ، فان الناس كلهم على اختلاف أصنافهم لم يعملوا بما ادعيته ، ولم يروا أنفسهم كالطفل المدلل المكفى ، بل تقاتلوا وتضاربوا وتشاتموا وتشاحنوا وتقاطعوا على هذه الأسباب وعلى هذه الدنيا فى تجاراتها وصناعاتها وزراعاتها ورآساتها وفى شئونها كلها ، وكل منهم قد

---

(١) كل هذا تهكم وسخرية به تعالى

(٢) لا يوجد فرد ولا شعب ولا أمة مهما كانت فى القوة لا تحتاج الى ما هو غير عنها من نفسها أو جنسها اه

اتخذ له شغلا وعملا يعيش به من محرم ومباح . فاذا كانت هذه النتيجة ـ أى التواكل والاعتماد على القوى الخارجية ـ فلا حاجة الى ذكرها ، واذا كان الناس لم يعملوا بها وأكثرهم اعتمد عكسها فاعتمد على نفسه أى صابر كالرجل الثانى العصامى ومع ذلك لم يصلوا الى ما ادعيته من النجاح ، فان كل عارف يعلم أن كثيرا من الشعوب الاسلامية أقرب الى الرجل الثانى من الأول . ومع ذلك لم ينجحوا ، وقد قدمنا أن الفكرة الدينية الصحيحة توجب اعتبار الأسباب واستعمالها بالاعتماد على الله تعالى ، فهذا هو طريق النجاح ، فلا يقولون بالبطالة وتعطيل الأسباب كما لا يقولون بالاعتماد على الأسباب والتوكل عليها ، فان ذلك شرك صريح . وفى الحديث « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » وقد تقدم . فما ادعاه هنا تجاهل وافتراض موهوم يقصد به التهكم والاستهزاء بآراء المتدينين وتشويه الفكرة الدينية والتنفير عنها كما لا يخفى

ثم قال « ثم ان المؤمن يعتقد عادة بأن الله اذ تفضل عليه بخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشتغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالانقطاع الى عبادته ، زاهدا فى خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشئونه الخاصة وأن يصرف إن استطاع كل قواه وأعماله وأوقاته ـ أو أكثر ذلك ـ الى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل ، وإلا فانه عبد سوء ، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرد (١) . وحينئذ يجىء عاجزا فى تناوله الأمور والحياة ، ويكون دون ذلك الذى صرف جميع قواه وأوقاته فى سبيل الانتصار فى معركة الوجود والبقاء وما من شىء ينجح فيه المرء إلا على قدر انصرافه اليه وإعطائه من نفسه ووجوده ، وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين »

قلت : غرضه من كل هذه الجمل التى ساقها محاولة التفريق بين المتدين

---

(١) هذا كالذى قبله فى التهكم والاستهزاء بالله وبمن آمن به

والملحد ، وتصوير حالة كل واحد منهما ومحاولة إثبات كون نتيجة الملحد خير من نتيجة المتدين ، وأن هذا لابد أن يتأخر وذاك لا بد أن يتقدم . وكل ذى مسكة من عقل يعرف بداهة أن تصويره فى هذه الجمل كلها الحالة كل واحد منهما تصوير باطل لا حقيقة له البتة ، فما بناه عليه من النتيجتين بديهى البطلان وما هى غير دعاوى مجردة لا يعسر على خصمه مقابلته بمثلها . وكيف يمكن أن يصدق ذو عقل أن جنس المتدين يكون مستغرقا وقته بالعبادة متفرغا لها لا يباشر شيئا من الأسباب ، كالطفل المدلل المكفول ، فانه صوره عاكفا فى مسجده صائما نهاره قائما يصلى ليله صارفا إن استطاع كل قواه وأعماله فى القيام بالشكر والعبادة ، قد رفض الأسباب من أجل اشتغاله بهذه الخدمة ، فهل ذو عقل يصدق بهذا ويكذب عقله وسمعه وبصره وفؤاده بما يراه فى الناس المتدينين من خلاف هذا ، بل لا يوجد فى الألف واحد أو اقل هذه صفته ، ثم إنه صور جنس الملحد بأنه الجاد الحازم فى العمل الآخذ بالأسباب النافعة مستغرقا أوقاته فى ذلك ، وهذا بديهى البطلان ايضا ، بل اكثر البطالين والسراق وقطاع الطريق وأهل الفسوق والمجون والدعارة من الملاحدة والمنافقين ، وأكثر الذين يعملون الأعمال النافعة القوية اختيارا هم المتدينون وأكثر الأعمال مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، فما ذكره فى هذه الجمل كلها فى غاية السقوط . وهذه الجملة كالتى قبلها تقدير لا حقيقة لوقوعه ، بل الواقع خلافه ، ومع ذلك لم تحصل النتيجة على ما يدعى . وكل هذه المغالطات الباطلة فعلها تجاهلا منه ، وإلا فهو يعلم أن المؤمن غير مكلف تكليفا مفروضا بغير الفروض المعروفة التى لا تستغرق غير جزء قليل من وقته ، فدعواه أنه « اذا لم يصرف أوقاته كلها فى خدمته فلا يستحق الا الطرد والحرمان » كلام فى نهاية السقوط ، فانه لا يستحق الطرد والحرمان الا اذا ترك ما فرض عليه وهو سهل ميسور لا يأخذ معشار أوقات عمره . على أن لنا أن نقول على هذا ان من خدمته استعمال الأسباب المادية والمعنوية على الوجه المشروع كما أشار الى

ذلك النبي ﷺ فى حديث « كل سلامى من الناس عليه صدقة » و « وان الرجل يثاب حتى على ما يجعله فى فى امرأته » ومن ذلك الصناعات وكل ما فيه نفع للأمة فهو من خدمته بالنية . وحينئذ فالنتيجة اذن صحيحة ولا يرد على هذا فى هذه الفكرة الدينية شيء مما ذكره من التأخر ، بل لنا أن نعارض بالملحد المترف فان عمله بعكس هذا ، وهو كثير موجود فى الملاحدة والمنافقين المترفين ، فان أكثرهم يغتنم الراحة واللذة العاجلة والانغماس فى الغى والفجور ، ويرى أن من الجنون أن يضيع عمره الذى هو أثمن عنده من الذهب ولا عوض له عنه فى الشقاء لنفع غيره ممن قد يكون عدوا له فيتحمل الأسباب الثقيلة النكدة المتواصلة على عاتقه على غير طائل أو كبير أمر ، أما المؤمن فانه ان فعل أعمالا كبيرة فهو موقن بأن عمله هذا لا بد له من ثمرة يستحصل عليها بكل حال إما السعادة وإما الشهادة وكلها حسنات تكتب له ، ويجب فى هذه الخدمة من اللذة والفرح والسرور وعزة النفس وراحة الضمير مالا يحيط به وصف ، فان الانسان يستعذب أمورا كثيرة من التعب والنصب لما يعلم فى عواقبها من الثمرات الحميدة التى لا بد من حصولها ، وهذا لا يوجد إلا فى اعتقاد المتدين الصادق الناصح ، فظهر من هذا أن استعمال الأسباب النافعة المأمور بها شرعا هى فى خدمة ربه الكريم المحسن القادر فى سبيل الله وفى سبيل الانتصار فى معركة الوجود ، فيكون له النجاح بقدر انصرافه وصدقه وإخلاصه فى ذلك كله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

* * *

ولما كان هذا الملحد مؤسسا أغلاله على الكفر بالله واليوم الآخر ، فانه اعتقد أن الايمان بالله واليوم الآخر هو سبب التأخر تقليدا لسادته الملاحدة الساعين فى هدم الأديان ، فذكر ما ذكر من هذه الجمل وما قبلها دعاية الى الكفر بالله ، ثم انتقل من هذا الى الحث على الكفر بالآخرة فادعى أن الايمان

بالجنة ونعيمها وكون الانسان يعلق بها أمله عامل من عوامل الضعف الموجب للتأخر ، لأن ذلك على ما زعم يشغل عن الأخذ بالأسباب المادية كما يجب ، فقال بعد كلامه السابق :

« على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى ايجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية ، ذلك أن الانسان مهما كان تافها وصغيرا لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شىء يرجيه . والعادة أن الانسان يحاول أبدا أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع ، واذا خير بين أملين أو آمال فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال فى رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل . وهكذا هو فى حياته وفى تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها ، ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التى تسلك اليها ، لاختلاف الناس فى تصورهم وفى استعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه ، وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال التى يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها ، واذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه ، وأن هذا الانسان لا يعمل كما يعمل الانسان الآخر لأن له أملا آخر ألهاه عن ذلك الذى شغل الآخر ، أو لأنه تصور الطريق تصورا لم يتصوره الآخر ، أو لأمر آخر من هذه الأمور التى تصنع الخلاف والاختلاف بين البشر فى أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم ، على أنه لاخلاف فى أن أسمى هذه الآمال وأقواها فى الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدى فى تلك الحياة الضخمة الأبدية التى ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شىء من المكدرات المعروفة التى تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة والتى تملؤها بالخوف والاكتئاب . فاذا ما استطاع انسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يغنى ويتغنى به وأن يصرف

اليه تصوره والتفكير فيه وفى لذة الظفر به والوصول اليه والحصول عليه، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء فى هذا الوجود (١) وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئا، وقد يدع شيئا قليلا أو كثيرا، والاختلاف فى هذا راجع الى الاختلاف فى قوة الاجتذاب وضعفه، وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها، لأنه ليس من أهلها، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجل شيء فيها، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذى صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبى سفيان وهو يضع خطوط الطريق لابنه « أما فلان فقد أعجزه الورع، فدع له دينه يدع لك دنياك » يعنى أنه لا يبالى بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان الى الآخرة والى الاستعداد للقائها. فاذا لا حظنا على المتدينين - أفرادا وشعوبا - عجزا عن إيجاد الحياة (٢) وعن التحليق بالصناعة والزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الانسانية أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف اليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام (٣) واذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا اذا وجدنا على بن أبى طالب وأمثاله وجيوشهم تنهار بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم، واذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة (٤) فى

---

(١) تأمل تصريحه بأن تصوره للجنة يشغله عن العمل للدنيا فيكون عائقا عن التقدم

(٢) هكذا شهد لنفسه وحكم لها

(٣) هذا صريح فى أن اهتمام أهل الآخرة بالآخرة عائق عن التقدم، وأنه لا ينبغى أن يهتم به جدا

(٤) قبحه الله ما أرخص الكذب عليه

كل عمل يتناوله أمام ذلك الرجل الذى جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته مصيرا ذلك إلهه المطـــاع المعبود وربه . فالمؤمنون اذن يشغلون بأملهم فى الآخرة [١] عن أن يصنعوا لهم فى الدنيا أملا جسيما عظيما ، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذى صنعوا لهم هذا الأمـل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم فأصبحوا فيها السادة الغالبين » انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل فى المؤمنين بالله واليوم الآخر فقد صرح بأن الايمان بنعيم الآخرة والاهتمام له يوجب الاشتغال به ، وأن هذا يشغل عن العمل للدنيا فيكون عاملا من عوامل التأخر ومعوقا عن النجاح ، فجعل الايمان بهذا الركن نكبة على البشر لانه يتعبهم ويصدهم عن السعى الى الكمال . وقد بينا لك أن هذا الرجل قصد الى أصول الدين فحمل عليها كل نكبة ومصيبة ، ولهذا جعل أعظم المصائب الايمان بالله واليوم الآخر ، وهذا التقرير الذى ادعاه مع كونه كفرا صريحا فهو ادعاء مجرد ساقط ، والجواب عنه كالجواب عما قبله

فاننا نقول أولا : ان الواقع خلاف ما ادعيته فان صدر هذه الأمة كانوا من أعظم الناس إيمانا بهذا الأمر واهتماما به ، ولم يشغلهم ذلك عن العمـــل للدنيا بل تقدموا على غيرهم ممن لم يشغلهم هذا الأمل العظيم

وثانيا : لا يخفى أن أكثر البشرية من قبل ثلاثمائة عام أو قريبا منها مؤمنون بهذا الأمر ، وقد عمروا الدنيا عمارة أعظم من عمارة الشعوب المنحطة الجاهلة الملحدة ، بل هؤلاء الملاحدة المحض لم يعملوا شيئا يذكر فقد عجزوا شعوبا كما عجزوا أفرادا عن ايجاد شىء كبير منها بأنفسهم ، وكل هذه الحضارات الحاضرة التى فى أيدى هؤلاء الملحدين المتحللين ونحوهم فى هذه

---

(١) كلام صريح واضح فى الحث على الكفر بالآخرة

السنين الأخيرة ما هى إلا آثار أولئك المتدينين كما مر تقريره ، وهذا الشيء لا يمكن المماراة فيه ولا يجادل فيه إلا مكابر . وقد قال السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٥٢ : إن نصف الدول الافرنجية خاضعون للدين الكنائسى . وهذا فى وقته هو فى نحو سنة ١٣٥٠ مع فشو الالحاد فكيف بما قبله .

ونقول ثالثا : ان هذا الأمل الكبير من أعظم ما يدفع الانسان على العمل فانه اذا كان المؤمن يعلم ان هذه الحياة السعيدة التى لا يشعر فيها بشيء من المكدرات لا تدرك إلا بطاعة الله تعالى ، وأن من أعظم طاعته الجهاد فى سبيله بالنفس والمال وما هو وسيلة الى ذلك من صناعة أو زراعة أو علوم دينية أو مادية أو غيرها ، فان كل عمل فيه نفع للامة ونصر للدين ـ من الاسباب التى توصل الى هذا النعيم الابدى ـ فلا شك أنه يقوم بالجد والاجتهاد والعمل المتواصل المستمر القوى لتحصيل هذه الوسائل التى توصل الى هذا النعيم وتقيه من عذاب الجحيم ، وعلى هذا فلا بد من أن يحارب ويخاصم ويناضل ويغاضب ويسالم فى سبيل الحق والعدالة وإزالة الظلم والاستعباد والقهر والعسف وكل ما يقف فى هذا السبيل الذى هو هذا الأمل الكبير فانه لا ينال إلا بذلك ، فكيف يدعى هذا الملحد أن من يأمل هذا لا يعمل شيئا من هذه الأمور ، فهل هذا إلا من أفسد ما يقال

ويقال رابعا : أنت ذكرت فى هذا أنه لا يمكن أن يعيش أحد بلا أمل ، فيكون أمل الملاحدة منحصرا فى شيء ما من أعراض الدنيا التافهة ، وأكثر ما يوجد هذا الأمل ولا سيما فى الكثرة الساحقة هو الاستحصال على الصور البديعة الجميلة والانسجام معها ونبذ ما يكدر ذلك ويشغل عنه ، وكثير من هؤلاء أيضا يكون غاية أمله الحصول على المادة من أى وجه جاءته من جميع الطرق الكثيرة المختلفة ، وكل هذا يوجب الضعف والوهن عن العمل

والكسل العظيم ، والانصراف الى هذه المطالب النافقة والتمتع بها والاشتغال بها عن الأعمال الكبيرة النافعة وايجاد وسائل الحياة ، ولهذا تجد العمل الاختيارى الصحيح يكاد أن يكون مفقودا فى الشعوب المنافقة والملحدة ، وانما يدفعون الى هذه الأعمال دفعا قهريا (١) وحينئذ فلا فرق من هذه الوجهة بين متدين ولا غيره اذا كان العمل إجباريا قهريا ، فيبطل الفرق الذى حاوله ، بل ربما يكون المتدين أنجح لثباته وقوة صبره فى كل أعماله ، فان المتدين عند جميع العقلاء اهدأ قلبا وأعظم عزيمة من الملحد ، فانه عكسه فى هذه الأخلاق كلها

أما ما استشهد به من أن معاوية قال لابنه « أما فلان فقد أعجزه الورع » الى آخره فاستشهاد ساقط لا محل له ، فان الكلام فى هذه الجملة فى الأمل الأخروى ومعاوية بلا ريب عند المسلمين ممن يؤمن بهذا الأمل ويطلبه . ثم هذا القول لو صح ليس فيه ما يتشبث به ، فان معاوية لم يذم هذا الشخص الذى ادعى أنه أعجزه الورع بل مدحه ، وإنما بين لابنه أنه أعجزه - أو حجزه كما فى القول الآخر - عن الدخول فيما لا يعنيه وما لا فائدة فيه من إثارة الفتن وسفك الدماء بدون فائدة سوى الضرر العام على هذا الشخص وعلى الأمة كلها فان هذا ليس من العجز فى شىء ، فان العجز هو القعود عن الشىء النافع المقدور على استحصاله ، أما ترك المضارة والفتن والتباعد عنها فليس من العجز فى شىء ، بل هذا هو الحزم ونفع الأمة واجتناب ما قد يعود عليها بالضرر العام ، ولهذا لما قام الحسين وهو أفضل من قام فى ذلك لم يحصل شىء من النفع

---

(١) ياليت هذا الملحد المنكود عاش بين أولئك الشعوب الملحدة ليعرف كيف الضغط والقهر والاضطهاد السائد فيهم وما يلاقونه من الشدة والانحلال والقيود ، وهذا أمر لا يستريب فيه إلا جاهل أحمق

لا له ولا للأمة ، بل حصل ضرر كبير عام ، فأى فائدة فى القيام على هذا الوجه .

وأما قوله « فاذا لا حظنا على المتدينين أفرادا وشعوبا عجزا عن ايجاد الحياة » الى آخره

يقال : اذا لا حظت ذلك فانما تلاحظ فجورك الذى اخترعته من رأسك لنفسك وبنيت عليه أوهاما لا حقيقة لها ، وإلا فأى عاقل من عقلاء بنى آدم يصدقك ويكذب ما علم بالضرورة والمشاهدة والحس ، فان المتدينين هم الذين نشروا النور وهدوا الناس الى كل حياة صحيحة وما هذه الحضارة القائمة إلا من الآثار المأخوذة عنهم كما اعترفت أنت بذلك قبل أن ترتد وبعد أن ارتددت غفلة منك فى صدر هذا الكتاب حيث ادعيت أن المجرد من كل دين يبقى على العدوان المطلق وعلى طبعه الخبيث والجهل والظلم . ثم إن ما ذكرته هنا مبنى على أن جميع المتدينين يزهدون فى الدنيا وأسبابها كلها وأدنى عامى فضلا عن غيره يكذبك فى هذه الدعوى لانها خلاف ما ينظره الناس ويشاهدونه

وليس يصح فى الاذهان شىء إذا احتاج النهار الى دليل

فهذا الذى لا حظته إنما لا حظته بعين بصيرتك العمياء فلم تلاحظ شيئا موجودا وإنما تلاحظ ما قام بقلبك ورسخ فيه من الخيالات والأوهام الخبيثة الباطلة ، ولهذا فانه لا يعلم أن أحدا لا حظه غيرك ، ما لم يكن على شاكلتك فى اعتقادك .

* * *

وأما ادخالك ما جرى بين على بن أبى طالب ومعاوية فى هذه المسألة فمن الخطأ الفاحش والاختلال الواضح ، فليس للاتيان بها فى هذا المحل أدنى علاقة فانك قلت فى أول هذه الجملة « على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية » فصريح كلامك فى بيان

الاختلاف بين المتدين وغير المتدين ، ومعلوم عند المسلمين أن عليا ومعاوية رضى الله عنهما من المتدينين فلا معنى للتشبيه بمسألتهما والاستشهاد بها على الفرق بين المتدين وغيره . ثم ان مسألة ما جرى بين على ومعاوية رضى الله عنهما من أبلغ الحجج عليك وعلى أمثالك من الملاحدة والزنادقة الذين يسندون الأمور فى التقدم والتأخر الى النواميس الطبيعية والى الأسباب المادية ، فان عليا رضى الله عنه أحرى بالانتصار لو كان ذلك بمجرد الأسباب المادية لأنه أقوى من معاوية ، فان جنده أكثر والدواعى الى نصره والقيام معه أبين وأظهر للأكثر . ولكن هناك أسبابا دينية عارضت هذه الأسباب ، ولا بد أن يكون النصر فى جانبها حتما.

ونحن نوضح هذه المسألة بقدر ما يحتمله هذا الموضوع ونبين أنه لا حجة له فيما حاوله منها ، وأنه ليس السبب فى فشل على هو ورعه وتقواه كما زعم هذا وبعض من لا بصيرة له . فنقول : ان الله سبحانه وتعالى قد قضى قضاء لا مردّ له وسن سننا لا تبديل لها ولا تحويل . ومن هذه السنن الثابتة العظيمة أنه تعالى ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، فينصرهم على من قصدهم بسوء وحاربهم وآذاهم وقاتلهم من الكافرين والمنافقين والظالمين المعتدين ، كما أخبر تعالى بذلك فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقد كان من المعلوم عند جميع المسلمين أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان من أكابر أولياء الله المتقين والأئمة المهديين وقد أجمع على مبايعته أفضل الخلق بعد الانبياء إجماعا قطعيا كما نص على ذلك الامام أحمد وغيره ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وقال « ما ضرّ عثمان مافعل بعد اليوم » فقد كان خليفة راشدا تقيا وليا عادلا محسنا مرضيا ، فلما أن منحه الله هذا المقام الشريف فى الخلافة وطال عمره وكثرت الفتوحات فى زمنه وصار المسلمون فى خلافته وخلافة من قبله يدا واحدة على عدوهم - حرجت صدور أعدائهم من الفرس

واليهود ومن شابههم من المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام كيدا له وللعرب ، فقاموا - ورأسهم الزنديق عبد الله بن سبأ اليهودى الذى ادعى الاسلام ، وسعى فى افساده ، وادعى مع ذلك أنه مؤمن بالله وباليوم الآخر ليقضى غرضه بذلك - وما زالوا يؤلبون الناس على عثمان ويسعون فى إثارة الفتنة عليه فى العراق وفى مصر حيث وجدوا هنالك سماعين لهم حتى دخلت دعايتهم قلوب كثير من الغوغاء وضعفاء البصائر ممن لم يدخل الايمان الصحيح فى قلبه ومن غلب هواه على عقله ، وقد صاغوا هذه الدعاية الممقوتة فى قالب التشيع لأهل البيت والتظاهر بالمحاماة لهم وأنهم أولى بالخلافة وأن عليا هو الأولى بها - فقام هؤلاء المنافقون ومن استخفوا به من الجهلاء على هذا الخليفة الراشد التقى البار بغيا وعدوانا وظلما وحسدا له على هذه النعمة التى خلعها الله عليه محاولين خلعه منها أو قتله ونقل الخلافة الى على بن أبى طالب بحجة أنه أولى بها منه ، من أجل ماذا ، من أجل أن عليا من بنى هاشم وأن عثمان من بنى أمية ، وان هذا أولى من هذا بملك الله ولو كان أفضل منه ، ومعنى هذا أنهم اعتمدوا على الأسباب المادية ، فانتصبوا خصوما لرب العالمين داخلين بينه وبين عباده فى ملكه الذى يتصرف فيه كيف شاء فيؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ليس لأحد معه فى ملكه مثقال أدنى حبة من خردل من شركة ، وقد أحرجهم طول عمر هذا الخليفة مع أنه أحق بها من غيره ، ولكنهم أبوا إلا أن يسفهوا آراء الذين أثنى الله عليهم فى كتابه العزيز وأخبر أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم فى اختيارهم إياه خليفة للمسلمين ، ولهذا فانهم أبوا الا اتباع أهوائهم وشهواتهم فرأوا أنه لا بد من انتزاع هذه الولاية من هذا الخليفة وهى فى يده وإعطائها من أرادوه هم ولو أفضى ذلك الى قتل هذا الولى المعصوم الدم ، وحقيقة هذا محاربة الله ومحاولة تبديل سنته كما قال عليه الصلاة والسلام « من

آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، الحديث (١) فقام هؤلاء البغاة المعتدون الى هذا الخليفة الذى أجمع المسلمون على بيعته وولايته وتقواه وفضيلته على غيره بدون أدنى مشاورة من أكابر الصحابة واولى الأمر والرأى ، ثم عمدوا اليه متعنتين عليه المرة تلو المرة بأنه ظالم وأنه غير عادل ثم تطلبوا منه أشياء لاحق لهم فيها تمردا وعنادا مع وجود من هو أكبر منهم وأولى فى الطلب ، وهو لكرمه وحيائه وورعه وتقواه وشفقته على الدين والمسلمين يتنازل لهم عن ما طلبوه مما هو مختص بحقوقه الشخصية حتى اسكتهم . فلما لم تجد هذه الفئة الباغية طريقا تقضى به غرضها تعمد الى مكر آخر فتدعى أنها وجدت صورة ختمه بأنه أمر بقتل رجل منهم مع رسوله ، مع أنه من الجائز أن يكون بعض هؤلاء هو الذى صنع الصورة ودسها على الرسول إما عند الحصول عليه أو قبله ، ثم يأتون اليه فيسألون عن ذلك فيحلف لهم بالله أنه لم يعلم بذلك (وليس وراء الله للمرء مطلب) وهو الصادق البار الذى لا يشك فى صدقه إلا كل خبيث ضال ، ثم يدعون عليه بأن كاتبه هو الذى فعل ذلك ظنا منهم (ان الظن لا يغنى من الحق شيئا) ثم لو ثبت هذا ماذا يكون ، أيوجب هذا قتل رجل معصوم الدم ، فضلا عن خليفة راشد . .. فلما أن عجزت هذه الفئة عن أن تجد سبيلا إلى غرضها وأحرجها الغيظ والبلاء الذى حملته وحملها فى صدورها عمدت اليه تحصره فى بيته هو وأهله وذريته ، ثم تمنع وصول الماء البارد اليه ، ثم تتسور عليه فتقتله فى داره وبين أهله وهو جالس يقرأ كتاب الله تعالى وأهله وبنوه عنده فى تلك الساعة الرهيبة بأنفاس متصاعدة تلتهب منها آفاق السماء ، ودموع مرسلة تستنزل غضب الله على الأرض كأن لم يكن هذا الشيخ المقتول وليا لله والله وليه وناصره وكفى به وليا وكفى به نصيرا ،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه

وانه لنعم المولى ونعم النصير ، ثم تذهب هذه الطائفة الخبيثة لتقضى حاجتها وتنفذ أغراضها التى جاءت لها بمبايعة على بن أبي طالب فتلتف حوله وتدخل فى جيشه ، ثم تظن أو تعتقد أن هذا الجيش الذى هى فيه سينتصر ويذهب دم عثمان ولى الله الشهيد المظلوم أدراج الرياح ، هيهات هيهات ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . دار الفلك وجاء القضاء المحتوم الجبار بأن لا يكون الأمر على ما ظنوا ولا على ما زعموا (تلك أمانيهم) فلقد قتل - بسبب هذا الولى الشهيد الذى اجترأ هؤلاء المعتدون على قتله ، وتساهل من تساهل فى نصره - ما ينيف على مائة ألف قتيل ، ثم بعد هذا تكون الفرقة الطاغية الباغية المشردة المبددة وهؤلاء المتقاعدون أو المتساهلون فى القيام معه من أجل أنه من بنى أمية داخلين قهرا تحت حكم بنى أمية عصبة هذا الولى الشهيد ، تحت حكم معاوية بل وابنه يزيد على رغم أنف كل من جزع من ذلك ، ثم تحت حكم بنى مروان الذى حسد بكونه كاتبا لعثمان وهو من بنى أمية ، هذا مع وجود أبناء على وفاطمة ، فيبقى هذا الجيل كله تحت حكم عصبة هذا الخليفة المقتول ينظرونهم وهم يحكمون ويتحكمون فيهم ، وكل من قام أو عارض قتل ولم ينل شيئا حتى فنى هذا الجيل عن آخره ، فلما لم يحجزهم الدين والورع عن قتل هذا الخليفة العادل الولى الذى حجزه عنهم الدين والورع فكفروا بهذه النعمة سلط الله عليهم من لا يحجزه عنهم ورع ولا غيره ، بل يطاردهم ويقاتلهم فى الصحارى وغيرها اذا حاولوا القيام والتعنت عليه ، فالحكم لله العلى الكبير ، فانتصر الله لوليه أعظم انتصار ، وأجرى سنته الماضية فى العالمين ، وانتقم لعبده التقى المظلوم والله ولى المتقين ، فقتل هؤلاء الطغاة البغاة شر قتلة ، ومن بقى منهم اذيقوا مرارة الذل والخزى والتشريد والطرد ، وما نالوا مما راموا شيئا ، بل حبطت أعمالهم وحيل بينهم وبين ما يشتهون . أما من لم يدخل مع هؤلاء من أهل الدين والتقوى فلم ينلهم ضرر بالكلية ، وليس فى ولاية بنى أمية ضرر عليهم ،

فانهم لم يتعرضوا للناس فى أديانهم وأمورهم الخاصة وانما كانوا نقمة على أهل الشر والظلم والعدوان

ولو أن عليا انتصر على معاوية وهم معه فى جيشه لكان فى ذلك نصر لهم وتنفيذ لغرضهم وقضاء لمآربهم التى طلبوها بمعاندة الله ومحاربة أوليائه، وهذا خلاف ما علم من سنة الله فى خلقه من نصر أوليائه المتقين وخذلان أعدائهم المعتدين، فمحال أن ينصر الله جيشا مدخولا بالزنادقة والمنافقين على جيش آخر ليس مثله، وإن كان فى هذا الجيش المدخول بررة أتقياء كعلى وغيره، فان الله تعالى يقول ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فبين تعالى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل قد تتناول وتشمل من هو معهم أو فيهم أوله علاقة بهم، وهكذا كان الواقع فى كثير من الفتن، فالفتن الكبرى تعم فى الغالب، فالمطلوب اتقاؤها والتباعد منها، ولهذا أشار ابن عباس وابن عمر والحسن بن على رضى الله عنهم بترك القتال أولا، ولكن عليا رضى الله عنه لم يكن يظن أن الأمر يبلغ ما بلغ كما أخبر بذلك عن نفسه [١]

فتقوى عثمان رضى الله عنه وولايته لله وورعه ذلك الورع العظيم النادر الذى يتضاءل دونه كل ورع، واعتداء هؤلاء الطغاة الظلمة عليه وبعدهم عن التقوى والورع، من أعظم الأسباب التى كانت عاملا فى انهيار جيش على أمام جيش معاوية. وهذا برهان ظاهر على أن الأسباب المادية لا تقاوم الأسباب الدينية، وأن المشيئة العليا هى المستقلة بتصريف الأسباب ونتائجها، وإلا فكل إنسان يعلم بداهة أن أسباب على المادية أكثر من أسباب معاوية، وما النصر إلا من عند الله، ولهذا ترى كثيرا من الناس يتعجب من هذا الانتصار لضعف تصور أسبابه الحقيقية فالنصر إنما أتى من هذه الناحية المشار اليها، وإلا

---

(١) كما نقله عنه شيخ الاسلام فى (المنهاج) ص ١٨٠ ج ٢

فلا شك عند المسلمين بأن عليا نفسه أفضل من معاوية ، بل معاوية معترف بهذا ولم يقاتل مدعيا أنه أفضل من على أو أنه أحق بالخلافة منه ، وانما قاتل بطلب دم عثمان وتسليم المجرمين اليه أو الاقتصاص منهم ، حتى قال فيما قال لجيشه : إما أن يكون على راضيا بقتل عثمان ، أوكارها له ولكنه عاجز عن إقامة الحد على من قتله ، فان كان عاجزا فكيف يستطيع أن يحميكم من هؤلاء ، وان كان راضيا فكيف ندخل فى طاعته وقد تقرر لدى الجيش كله أن عثمان قتل مظلوما شهيدا فلا يمكن أن يضيع دمه ، وكان من البلاء أن كثيرا من جيوش الطرفين يتظاهرون بأن عليا كان راضيا بقتله لتبرير كل منهم فعله وقصده ، وكل هذا كذب ظاهر ، بل على من أولياء الله المتقين ، وحاشا أن يرضى بقتل عثمان ، وكان يحلف على ذلك وهو الصادق بلا ريب ، ولكن البلاء المبين إنما جاء من الخبث الذى فى جيشه ، فانه مدخول بالمنافقين وهم كثيرون ، لأن دعاية الفرس والزنادقة أثرت فيهم كثيرا . ولهذا كانت الفتن لا تفتأ قائمة بينهم أنفسهم ، وقد قلنا فيما سبق إن النفاق للنفوس كالوباء للأبدان متى حل فيها أهلكها ، فكان هذا الوباء العظيم من أعظم ما أفسد هذا الجيش الكثير كما هى العادة السائرة المطردة فيه . واذا كان الوباء المادى يفسد الجيش ويدمره ويحدث فيه الانهيار فكذلك النفاق فانه أعظم فتكا منه ، لأن علاقته بالنفوس لا الأبدان (١) ، والنفوس هى العوامل الحقيقية ، والمواد تبع لها ، ولتكن الآية السابقة على بالك وهى قوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ تعرف بها أن ضرر النفس يتعدى الى غير من ظلموا كما قيل :

وجرم جره سفهاء قوم ... فحل بغير جارمه العذاب

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن نبيه ﷺ أنه لو خرج معه

---

(١) ولكن قد يؤثر فى الأبدان

لمنافقون ما زادوا جيشه إلا خبالا ولحصل منهم فساد فيه كما حصل فى أحد ، مع أنه أفضل الخلق ، فكيف لا يؤثر النفاق فى جيش على ، وقد لاحظ هذا الحسن رضى الله عنه ، فانه لما علم أن هذا الجيش فيه من الفساد ما يمنع الانتفاع به لمن استصحبه تركه وسلم الخلافة لمعاوية ، وما يعلم قط أن جيشا كثر فيه النفاق فانتصر أبدا إلا أن يكون مقاتله مثله أو دونه كما تقدم ، ولهذا قال تعالى فيهم ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ وهكذا كان حالهم مع على ومع غيره فانهم أوضعوا خلال جيش على وجيش ابنه الحسن الفتنة وخانوا الحسين فلم يفوا بما وعدوه فكانوا نعمة على أهل البيت ، فلما ماتوا آذوهم بعبادتهم والشرك بهم والكفر بالله عند قبورهم وادعوا أنهم يعظمونهم وهم يؤذونهم [1] والمقصود أن انهيار جيش على كان بسبب المنافقين الذين يعتمدون على الأسباب المادية غير مفوضين الأمور الى الله تعالى آخذين بالأسباب التى أرشد اليها ، ولهذا كانوا يحدثون الشغب والضجر والقلق وكثرة التبرم بعضهم من بعض ، فأوضعوا خلال هذا الجيش الفتنة بالاختلاف والتنافر والتباغض والفوضى ، حتى حصل الانهيار والتفكك فى هذا الجيش العظيم ، وقد فطن لهذا على رضى الله عنه أيضا فقال لهم « وددت لو صرفتكم بأهل الشام صرف الدرهم بالدينار » وهذا يدل على أنه بعد أن اختبرهم علم عدم الوثوق بهم لما بهم من عدم الثبات والائتلاف الذى هو ثمرة الايمان الصادق والتقوى والورع ، وأما جيش معاوية فليس فيهم من شارك فى دم عثمان الشهيد وكانوا معه كسهم واحد متفقين اتفاقا صادقا ، لأنهم جاءوا لقصد

---

(١) بل هم أعظم الناس إيذاء لهم وسبا وقدحا فيهم ، لانهم يكفرون بالله عند قبورهم ويكذبون على الله ورسله بانه شرع ذلك وينسبونه اليهم وأمثال هذا . وهذه عادة الأحمق يريد أن ينفع فيضر

واحد وان كان كل من هؤلاء وهؤلاء فى الجملة مسلمين ، لكن الخصائص المفسدة كانت مختصة بالدخول فى جيش على ، ولهذا بعد أن قتلوا عثمان ولم يتم الأمر لعلى انقلب أكثرهم عليه خوارج وغيرهم فقاتلوه فكان عنصر ضعف الدين فيهم متقدما ، فصار النصر فى غير هذه الجهة المدخولة بالنفاق وسوء التنظيم الدينى ، ولو أن الجيش الذى مع على غير مدخول بهذه العناصر الخبيثة لكان فى ذلك نوع شبهة لدعوى هذا الملحد وأمثاله ، هذا مع أن دعواه أيضا - كما تقدم - فى بيان الاختلاف بين المتدين وغيره ، وهؤلاء فى الجملة كلهم متدينون ، أما كون بعض من جيش على توقفوا عن القتال لما رأوا رفع المصاحف وأن ذلك دليل على الورع والتقوى فليس بصحيح ، بل هو دليل على ضعف الرأى والحزم المنافى للورع والتقوى ، فانه لو دل على أن ذلك من الورع والتقوى لكان ذلك قد جافى عليا لأنه خالفهم فى هذا الرأى فيكون خلافه عدم ورع وتقوى وقد بين ان ذلك خدعة والمخالف يوافق على أن فعل على هو الصواب وهو المطلوب ، فبطل كون ذلك منهم ورعا ، ولهذا لما خالفهم على فى كف القتال قالوا له : إن لم تجب فعلنا بك مثل ما فعلنا بابن عفان ، وهذا غاية الغباء والجهل ، اذ كيف يقتلون الأولياء فى بيوتهم وهم يقرأون فى مصاحفهم ويكفون عن أعدائهم المحاربين لهم فى الصحراء [1] وهذا ليس من الورع والتقوى فى شىء ، وبكل حال فهم مخطئون فى نفس الأمر ومخالفون للورع والتقوى . ثم إن عليا قد بين لهم وجه الحق فى ذلك وهم قد بايعوه وتابعوه وقاتلوا معه ولأجله فكيف يعصونه فى ذلك

وأما احتجاج بعض الناس بأن قتال على مشروع وأن معاوية وأصحابه بغاة مستحقون للقتال فهذا الاحتجاج ليس بصحيح ، أما آية القتال فلا تنطبق

---

(١) أى حينما رفعوا المصاحف

على هذا القتال وهى قوله تعالى ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ﴾ فالقتال المشروع فيها عند البغى بعد الصلح ، ومعلوم أن عليا بدأ معاوية بالقتال ، ثم هى تنقض أصل من احتج بها من الشيعة الذين يدعون أن خصوم على غير مؤمنين ، ثم إنه لا يجوز قتال المؤمنين ابتداء ، والبغاة هم الذين يبغون على الناس ويقاتلونهم بدون حق ، ولهذا ذهب جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وأتباعهم الى أن هذا القتال قتال فتنة ، وأن ترك القتال من الطائفتين أولى (١) ، كما أن كثيرا من أكابر الصحابة لم يقاتلوا مع على ولا مع معاوية ، ولو كان ذلك مشروعا وفيه نص لم يخف على جماهير الأمة ، ولو كان أيضا مشروعا لم يمدح النبى ﷺ الحسن بتركه ، ولو كان أيضا مشروعا لاحتج على رضى الله عنه على فعله هذا بالدليل على مشروعيته ولم يصرح بأن ذلك رأى منه كما فى سنن أبى داود وغيره عن قيس بن عباد قال : قلت لعلى : أخبرنا عن مسيرك هذا عهد عهده اليك رسول الله ﷺ أم رأى رأيته . فقال : ما عهد الى النبى صلى الله عليه وسلم شيئا . وهذا نص صريح منه باعترافه بأنه ليس عنده دليل واضح من السنة على مشروعية هذا القتال ، اذ لو كان عنده نص لاستدل به كما استدل على قتال الخوارج بالنصوص الكثيرة وانتصر عليهم . وأيضا فالذين خرجوا على عثمان وقتلوه فى داره بين أهله بدون حجة بغاة باتفاق المسلمين ، فكان يجب أن يقاتلوا ، فانهم قتلوا وأفسدوا وأثاروا الفتن وشقوا العصا وفرقوا بين المسلمين فقتالهم أولى فى الدخول فى الأمر بقتال البغاة ، فلو فرض أن أولئك بغاة مختلف فيهم فهؤلاء بغاة متفق عليهم ، فكانوا أولى بالقتال . وقد طعن بعض أئمة الحديث فى الرواية التى فيها أنه عليه السلام قال لعمار « تقتلك الفئة الباغية » فهذه الرواية

---

(١) كما قرره شيخ الاسلام فى (منهاج السنة) ج ٢

تكلم فيها كثير من العلماء مثل الامام أحمد فى رواية عنه ويحي بن معين وحسين الكرابيسى وغيرهم (١) والقصة أخرجها البخارى بدون هذه الزيادة، وعلى فرض ثبوتها فليست نصا فى مشروعية ابتداء القتال، فان الباغى المؤمن لا يبدأ بالقتال مطلقا، ولو فرض أن قتال معاوية مشروع وأنه لا تجوز ولايته لزم الطعن فى الحسن بن على رضى الله عنه لأنه ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وقد مدحه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل العظيم كما فى الصحيحين أنه عليه السلام قال « إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »، فيكون الحسن على مقتضى زعم المعادين لعثمان وأضرابهم عاصيا بترك هذا القتال، وعاصيا بتسليم أمر الأمة الاسلامية لهؤلاء البغاة، ويكون هذا الحديث ذما له لا مدح فيه، ومعلوم أن هذا من أفسد ما يقال، بل يكون مخالفا للكتاب والسنة اللذين استدل بهما المعارض، وبالجملة ففعل الحسن رضى الله عنه الذى أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم به مخالف لفعل أبيه وأخيه وقد مدحه النبى صلى الله عليه وسلم على فعله هذا فلا بد من حمل ما فعلاه على الاجتهاد، فان عليا رضى الله عنه ظن أن معاوية سيسلم الأمر وأن فى ذلك جمعا لكلمة المسلمين، ولم يكن يظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، لأنه بلا ريب أفضل من معاوية وأولى بالحق منه فلما أن وقع ما وقع ندم على ذلك وكان يقول « يا حسن يا حسن، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ هذا، لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر، إن كان برا إن أجره لعظيم، وإن كان إثما ان خطره ليسير، نقل هذا عنه شيخ الاسلام بن تيمية فى منهاج السنة ١٨٠ ج ٢ وذكر عنه انه كان يقول :

---

(١) قال شيخ الاسلام فى (منهاج السنة) ج ٢ ص ٩٤ فى كلامه على حديث عمار « تقتلك الفئة الباغية » ما نصه : « وطائفة من العلماء ضعفوا هذا الحديث، منهم حسين الكرابيسى وغيره، ونقل عن أحمد أيضا »

لقد عجزت عجزة لا أعتذر سوف أكيس بعدها واستمر
واجمع الرأى الشتيت المنتشر

ومن العجيب احتجاج بعضهم بحديث « أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » وهذا الحديث لم يروه أحد من العلماء المعتبرين، بل حكموا بأنه حديث باطل (١) ، فانه من المعلوم أن سفينة نوح واحدة ومذاهب المنتسبين لأهل البيت كثيرة جدا ، وفيهم من يبدع بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضا وكل منهم يدعى أن مذهبه هو سفينة نوح ، فكيف تكون هذه الشيع المتضادة كسفينة نوح ، ولهذا تجد الغالية تحتج به وتجد الامامية تحتج به وتجد الاسماعلية والنصيرية وغيرهم يحتجون به ، وكل من هؤلاء له نحلة قد ذهب اليها وضال من خالفها والنبى صلى الله عليه وسلم قد بين الفرقة الناجية بقوله « من كان مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » متفق عليه من حديث قد تقدم . والمقصود أن ما استدل به هذا الملحد من انهيار جيش على وتعليل ذلك بأنهم شغلوا بالتقوى والاهتمام بالجنة وأن هذا الأمل هو الذى أفسدهم وأن مقابلهم على خلافهم كذب ظاهر يعرفه أدنى عاقل ، بل الأمر بالعكس فان الانهيار إنما جاء بسبب المنافقين الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة واعتمدوا على الأسباب المادية وقتلوا عثمان ثم قاتلوا طلحة والزبير وأثاروا الفتنة تلو الفتنة ، ثم آذوا عليا بالاختلاف عليه ، ثم انقلب بعضهم

---

(١) كما حكم عليه فى (المنهاج) وغيره . والحق أن من اتبع الكتاب والسنة فهو الذى على الحق ، أما من تعبد الله بشتم الصحابة والقرون المفضلة وعطل صفات الله وعبد القبور فهذا مضاد للقرآن ، وقد علم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة رضى الله عنها سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا وقال « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ولكن أعداء الدين لم يدخلوا على افساد العرب والقاء البغضاء بينهم إلا من هذا الطريق وأمثاله

عليه وقاتله ، فهذا أصل البلاء (١) فان المنافقين هم أصل كل فساد فى كل الأمم ولولا كثرة وجودهم فى هذه الأمم الاسلامية لما أصابها من الضعف والمحن ما أصابها ، فان هؤلاء هم الذين أسسوا تعطيل الصفات وتحريفها عن ظواهرها وأسسوا عبادة القبور والبناء عليها والصلاة عندها ، وهم الذين أسسوا تحكيم الطواغيت بدلا من أحكام الله ، فكيف ينهض المسلمون وهذه العلل متغلغلة فى أعصابهم وقواهم ، فلا بد من إزالتها بالأخذ بما جاءهم من الله من النور والكتاب المبين ، ولا يمكن لهم الحصول على هذا إلا بالأخذ بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فى الاخلاق الدينية كما قال الأئمة « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولهذا لما نبغت هذه الفرقة الباغية واغترت بدسائس الفرس وأمثالهم حصل ما حصل حتى تعدى ضررهم الى غيرهم وكانوا فتنة لكل زنديق ومنافق

ومما يستدعى النظر والاعتبار أن جميع الذين قاموا فى هذه الفتنة فى قتل عثمان رضى الله عنه عوقبوا فى الدنيا من جنس ما فعلوه فى فتنتهم ، فانهم لما كادوا أن يرجعوا الى بلادهم وتركوا الفتنة رجعوا مجمعين على المكر والخديعة بدعوى الدين وأنهم قائمون بالحق ، وجعلوا مسألة مروان ذريعة لهم ، وعثمان رضى الله عنهم يعلم حقيقة أمرهم وأنهم لا يقصدون إلا نزع الخلافة إما بقتله

---

(١) ومن الغريب أن بعض الكتاب احتج على تأخر على بأنه كان ورعا تقيا ، واستدل على ذلك بأنه لم يكن يعطى ولاته من الأموال إلا قليلا ، وكان يدقق المحاسبة عليهم ، وأن معاوية بخلاف ذلك ، وما شعر هذا الكاتب أن انتصار معاوية لم يأت من ناحية المال وإنما جاء من القتال ، ومعلوم أن أخذ المال وخطره أسهل من خطر القتال والدماء . فهذا الكاتب لم ينظر الى مقدمات الفتنة ، ولم ينظر الى الأسباب التى حصل بسببها التقدم والتأخر ، وانما نظر الى سبب لم يحصل لعلى منه ضرر البتة ، وانما جاء الضرر من غيره

أو خلعه ، لا يريدون مروان . ولهذا لما قتلوه تركوا مروان ولم يقتلوه مع قدرتهم عليه (وحسبوا أن لا تكون فتنة) فلهذا أعطوا جزاءهم فى الدنيا فضلا عن الآخرة ، فانهم لما كادوا أن يهزموا جيش الشام وأن يحصل لهم النصر والظفر أظهر الله لهم من يكيد لهم ويمكر بهم بدعوى القيام بالحق فى رفع المصاحف ، فكانت النتيجة الفشل النهائى ، كما كانت نتيجة رجوعهم الأول بالكيد والمكر حصولهم على الشر والاجرام المنكر فى حقهم ، أما فى حق عثمان فهو الخير ، فانه ظفر بالشهادة الحقيقية التى لا ينالها الا المقربون . ثم رؤساء هذه الفتنة - مثل محمد بن أبى بكر والاشتر النخعى وغيرهما - كل منهم جوزى من جنس فعله ، فان محمدا كان من أول من شب نار الفتنة لجيفة الدنيا فدخل على عثمان وقد منع عنه الماء ففعل ما فعل ، فلذا كانت خاتمته أن وجد فى خربة من خرائب مصر هاربا فى غاية العطش فقتل وهو على تلك الحالة ثم شبوا عليه النار فى جيفة حمار . وكذلك الاشتر النخعى ، فانه كان قائما فى الفتنة بدعوى إقامة الحق ، وباطنه الكيد والمكر ، فلذا كانت خاتمته أن سلط الله عليه من سقاه سما فى عسل حتى مات فى ذهابه الى مصر للولاية عليها ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ، فعاقبة الغى والبغى والعدوان لا بد أن تكون وخيمة ، كما أن عاقبة أهل الدين والتقوى هى العاقبة الحميدة ، سنة مطردة لا تبديل لها ولا تحويل .

وينبغى أن يعلم أن الذى دعانا إلى الافاضة فى هذه المسألة بيان الأسباب والعوامل الأساسية الدينية والدنيوية فى التقدم والتأخر ، وبيان أن النصر يكون دائما فى جانب التقوى فى الجملة لا فى التفصيل ، وأن البغى والعدوان والنفاق - وهذه الأمور منشأها الاعتماد على الأسباب المادية فقط - لا بد أن تكون عاقبة أهلها وخيمة اذا كان مقابلهم أهل دين صحيح ، لا اذا كان مقابلهم مثلهم . وقد رأيت كلاما كثيرا لبعض العلماء من الكتاب غيرهم من المتدينين

وغيرهم فى هذه المسألة فيه أشياء كثيرة من الاخطاء والاغلاط الفاحشة ، فلهذا وجب على الانسان بيان ما يراه فى هذه المسألة ـ ليعلم به تلك الأغلاط من الطرفين ـ وإن كان فى كلامنا هذا ما لا يرضاه من أصيب بداء الرفض ، فان هذا الداء العضال قد وقع فيه من شاء الله ممن لا يعدهم ولا يحصيهم إلا هو تعالى ، فهؤلاء ـ بلا شك ـ لا يرضون إلا على من اتبع ملتهم وأهواءهم ، وإلا فقوم لا يرضون عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن جماهير السلف الذير بذلوا نفوسهم لله تعالى ولدينه كيف يرضون عنا ، هذا من أشد المحال .

ولقد حكم الله سبحانه بأن أعداء عثمان والراضين بقتله تحت محبيه وناصريه من ذلك الوقت الى هذا الوقت الحاضر فى الجملة ، وهذا من تمام نصره لوليه ، رضى الله تعالى عنه وعن إخوانه ومن نصرهم وتبع هداهم

وختاما نقول ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤف رحيم ﴾

* * *

ثم قال « ومن المعلوم أن أوربا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت فى ذلك الهوان والضعف والعجز الذى نعرفه ونقرؤه ، فلما أن مرقت من ايمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروى وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هى آلهتها التى وحدتها وأبت الاشراك بها صعدت بالحياة هذا الصعود الذى أعجز أبصارنا تنوره والنظر اليه . وقد قال أحد فلاسفة الانجليز المعاصرين المدرسين اليوم فى إحدى الجامعات البريطانية — وهو ملحد كما هو ظاهر — « ان أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الايمان بالله واليوم الآخر »

قلت لما ذكر أن الايمان بالله وباليوم الآخر عاملان من عوامل التأخر

أخذ يستدل بفعل أوربابقول هذا الانجليزى مع شهادته عليه بأنه ملحد ، وقد نسى بأنه قد اعترف بأن أوربا لم تصعد هذا الصعود الذى أعجز بصره تنوره إلا بعد أن خالطت المسلمين وأخذت حضارتها من تعاليم الاسلام كما تقـدم كلامـه ، وهنا تناقض فادعى بأنها لم تصعد إلا بالإلحاد ، وهو يريد بهذا الاستشهاد بفعلها على ما ادعاه فيما تقدم فى الحث على الالحاد ، ثم إنه لعظم شقائه برهن على هذا الكفر بكفر مثله ، وهو ما ذكره عن هذا الانجليزى المدرس بكون أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد عتقها من الايمان بالله واليوم الآخر ، ولكنها استرقت للصناعة ونحوها فهى فى الحقيقة لم تعتق من رقها . ثم إنه شهد على هذا المدرس بالالحاد ، واستدل بكلامه على ما يدعى ، وكل ذى عقل يعلم حقيقة العلم أنه لا فرق بين قوله وبين قول هذا الملحد فى هذه الجملة التى ساقها فى قوله « ومن المعلوم الخ » فان هذه الجملة التى ادعاها هو كالجملة التى ادعاها هذا الانجليزى سواء بسواء ، فان هـذا الملحد صرح بان أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن مرقت من الإيمان بالكنيسة والدين ، وتنازلت عن الإيمان بالأمل الأخروى ، وجعلت إلهها ومعبودها صناعتها وتجارتها . وهذا الكلام إن لم يكن أخبث من كلام سيده الانجليزى الملحد فليس بدونه ، فكيف يرمى من ادعى كدعواه بالالحاد ، ولا يكون هو أيضا ملحدا . ثم إنها دعوى فى نهاية السقوط ، فليس دين المسلمين كدين الكنيسة حتى يصح رفضه ، هذا لو قدر أنها رفضته فى حين تقدم هذه الصناعات ، فان هذا باطل وهو خلاف المشهور المعروف ، فان أكثر من نصف أوربا يدين بدين الكنيسة ، مع أن كثيرا من هذه الشعوب المدعية للاسلام قد رفضت دينها وفعلت كما فعلت أوربا من رفض دين الكنيسة تقليدا لهم ، وما زادهم ذلك إلا خسارا . والمعروف أن أوربا وغيرها إنما رفضت كثيرا من الخرافات المخالفة للعقول فقط [1] ، وإلا فكثير من مبادىء الكنيسة موجود

---

(١) أى لا الايمان بالله واليوم الآخر إجمالا

فى كثير من الشعوب الأوربية وغيرها ، أى انها موجودة فى هذا الوقت الذى تطورت فيه الصناعات والحضارة ، وان كان قد فشا فيها الالحاد فى الازمنة الاخيرة بسبب الشيوعية فهذا لا يرد ، لأن الكلام فى مسألة اتفاق الحضارة مع التدين ، وقد بينا فيما تقدم أن مرض الالحاد والنفاق للنفوس كمرض الوباء المادى للأبدان ، فكما أن الأبدان العليلة التى ليس فيها قوة تقاوم المرض بل تكون فاسدة المزاج قابلة له يكون المرض أسرع فشوًّا فيها واستئصالا لها ، فهكذا مرض الالحاد فان أكثر هذه الشعوب الاوربية وغيرها ليس لهم معرفة بالدين الصحيح الذى يوجب قوة القلب والروح فيدفع ما يرد عليه من أمراض الشكوك والشبهات فى الالحاد ، فان هؤلاء الملحدين إنما تؤثر دعايتهم لعدم وجود أديان صحيحة تقاومها . ويتبين الفرق فى هذا بين الهند والصين ، فان الصين لما كانت أبعد عن معرفة الأديان السماوية ولا سيما الاسلام الصحيح فشا فيها الالحاد ، بخلاف الهند فان الممانعة فيها أقوى لقوة موجبه من العلوم الدينية الصحيحة ، فضعف الدين يجر الى الخرافات ، وان لم توجد جر الى النفاق ، وقد تجر الخرافات الى النفاق أيضا ، وكل من الخرافات والنفاق سبيل الى الالحاد ، وقد يضطر الملحد الى النفاق أحيانا لمقاصد أخرى ، فهكذا كان دين الكنيسة ، وكذلك الرفض والتجهم المحض يكون قابلا لتأثير عوامل الالحاد ، ولا ريب أن ذلك من أجل ضعف عنصر المقاومة الدينية فى أهلها . ثم كيف تتفق دعواه بأن هذه الحضارة وهذا التطور انما أخذ عن الاسلام وأن ذلك هو رفض الأمل الأخروى ، وكيف يدعو الى رفض الدين من أجل هذا وهو مأخوذ عن الدين نفسه ، فما أكثر فضوله ورعوناته

ودعواه أنها صعدت بالحياة هذا الصعود إلخ . يقال لكن سقط أكثرها سقوطا مدمرا ، ولا سيما الذين مرقوا مروقا تاما ، بل عادوا الى أسفل سافلين ، وصار سقوطهم بأسباب رق آلهتهم التى ادعيت أنهم وجدوها وأبوا

الاشراك بها وهى صناعتهم وتجارتهم ، فأنزلتهم معبوداتهم ودمرتهم لما تنازلوا عن الأمل الأخروى ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعونها من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، ومن لم يسقط منهم فهو مهدد بالسقوط ومصيره لا بدّ أن يكون للسقوط المحتوم ما دام رفيقا لآلهته

وغرض هذا الملحد من هذا الهراء — كما لا يخفى — أنكم أيها المسلمون يجب إن تفعلوا كما فعلوا ، فترفضوا دينكم الذى هو كدين الكنيسة لتصعدوا كما صعد أولئك . وما علم هذا الزائغ أن المسلمين على بينة من ربهم ، يعرفون الفرق بين دينهم ودين الكنيسة ، كما يعرفون الفرق بينهم وبين اليهود وغيرهم ، وأنه لا نجـــاة لهم ولا خلاص ولا حياة الا بالتمسك بدينهم والعض عليه بالنواجذ ، وأن أولئك لم ينفع أكثرهم ما فعله من المروق ، بل عاد عليه نكبة عظيمة وخسارة جسيمة فى الدنيا والآخرة

* * *

ثم قال « ولقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاما مثلا طيبا للفقر والضعف والمسكنة والجهل حينما كانت مسيحية متدينة صالحة ! فلما أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لهـا أربابا آخرين وعبادة أخرى صارت هى روسيا اليوم قاهرة ألمانيا التى لم تكن تقهر ، ولعل روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العـالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد المانيـــا العبقرى ، وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهـدين القيصرى والبلشفى أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء وعوامل التحول قائلا : لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين فى الزمـان القيصرى يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وفقرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الاجتماعى الى القوى الخفية المجهولة ، فكانوا يومذاك مثلا رائعا فى الانحطاط ، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك الى المصنع والمحراث والمدرسة ، فصاروا هم

الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها »

قلت : هنا طاب له الكلام والمكان ، فأخذ يهذى بما خطر على باله ، ولو كان له عقل ودين لم يحتج على المسلمين بمثل هذه الأمور ويدعى أنه مؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا الذى ادعاه وفرح به من أبلغ الحجج عليه لأمور :

أولا انه قد تقدم قوله فى الجملة السابقة قريبا بان أوربا مرقت من إيمانها وتنازلت عن الأمل الأخروى ، وهذا تصريح بأنها ملحدة ، ومعلوم أن روسيا انما انتصرت على هذه الشعوب المعروفة فيها بل على أقواها التى صرح باسمها فادعى أنها انتصرت بهذا المروق نفسه على هذه المارقة نفسها ، فصار هـذا الاستدلال صريحا فى أن روسيا الملحدة انتصرت على أوربا الملحدة ، فكان حقيقة الدعوى أن هذا المبدأ الالحادى انتصر على نفسه ودمر أهله الدائنين به ، أى انتصر أحد طرفيه على الآخر فدمره وأنزل به أعظم النكبات والكوارث ، واذن فمن الذى قال لك ـ يا بلعام زمانه ـ ان الالحـاد لا ينتصر على الالحاد وعلى النفاق أيضا وأنه يدمر بعضه بعضا ، بل هذا غل خنقت به نفسك ، فهل كانت روسيا منتصره على قوم يؤمنون به تعالى إيمانا صادقا خالصا ويعبدونه ويحكمون شرعه ويلجأون اليه فى السراء والضراء ويثقون به ويركنون اليه ، أم كانت منتصرة على من هو مثلها كما تدعى مجاهرة بلا تلعثم ، فأى شبهة لك فى هذا ، وكيف تعمد الى قوم نبـذوا أمر الله وراء ظهورهم واحتقروا طاعته وعبادته ورأوها ـ كما رأيتها ـ ضعفا وعجـزا ، فتسجل عليهم بأنهم مارقون ، ثم تعمد الى قوم مثلهم فتقرر بأنهم مثلهم قوم مارقون ، ثم تستدل على المسلمين بانتصار هؤلاء على هؤلاء ثم تدعو الى الاقتداء بهم ثم تحتج على هذا بكلام روسى بلشفى مجهول يدعو الى نفسه وجنسه بقول هراء يدعى فيه أن الشكوى الى المحراث خير من الشكوى الى خالقه ، فلو أن قائـلا عكس دعواك وادعى بأن الالحاد عامل هدام بدليل ما أصاب الطرف الثانى المهزوم

لكان أولى بالصحة من قولك ، لأن الذى هدمه هو مبدأه ، فكان متهادما . ولعله ألقى فى روعك أن خصومك يدعون ان مبدأ الالحاد لا ينتصر على نفسه ، فان كان هذا هو الذى توهمته وخطر على بالك فليكن لديك معلوما بأن خصومك لا يقولون هذا أبدا ، بل يقولون ان الله تعالى يولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، ومعلوم أنه تعالى لا يولى بعضهم بعضا إلا بتقدم بعضهم على بعض كما حكى فى أول سورة الاسراء فى انتصار بختنصر على بنى اسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض ، ففيه برهان على أنه لا مانع من تقدم الكافر على المفسدين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا . أما من استمسك بطاعة الله تعالى واستقام على الدين الصحيح فلا بد أن يعينه الله ويسخر له من الأسباب ما ينتفع به فى الدنيا نفعا صحيحا كما قال تعالى ﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ وكما قال تعالى ﴿ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون﴾

الأمر الثانى أن دعواه بأن روسيا لم تتقدم إلا بسبب مروقها من دين الكنيسة دعوى غير صحيحة ، بل هى تقدمت بأسباب أخرى كثيرة ككثرة عددها وخصوبة أرضها وغير ذلك من الأمور المعروفة التى لولاها لم تتقدم ، فانه يوجد حكومات أبعد منها عن الاديان ولم يحصل لها أدنى تقدم ، وهذه اليابان تقدمت تقدما عظيما يشبه الطفرة قبل هذه السنوات الاخيرة وهى لم تكن على دين الكنيسة ، كما أن هناك دولا أخرى لم تفعل فعلها فى الكنيسة كأمريكا والانجليز وتقدموا أعظم من تقدمها حتى على كثير ممن رفضوا الكنيسة ومرقوا من دينها . فتبين من هذا أن ليس لرفضهم الكنيسة كبير أثر فى تقدمهم ، بل لو لم يتركوا الكنيسة لكان أحرى لتقدمهم فانهم أرهقوا الشعب بالتشريد والتقتيل والعذاب ونفروا كثيرا منهم بسبب ذلك وكرههم أكثر الناس بسبب هذا ولا سيما فى الشرق ، وكان من الممكن محاربة بعض

الخرافات المنحطة جدا العائقة عن الأعمال وهى كافية كما فعل غيرهم

الامر الثالث : أن كثيرا من الناس يعارضونه فى كون روسيا كلها مرقت هذا المروق الذى يدعيه ، بل فيها كثيرون جدا ممن يدينون بالكنيسة وبغيرها وان كان أكثر المظاهر الدينية أزيل ، لكن كونها كلها مرقت غير صحيح ، وقد تراجعت فى السنين الاخيرة قبيل الحرب وكثرت الدعايات الدينية فيها لأنها عرفت أن ما فعلته فى أمر الكنيسة وغيرها قد أصبح ضرره أكبر من نفعه وإلا لم تتراجع بعض التراجع ، وبعض الناس يدعى أنها إنما حاربت الخرافات المنحطة فقط ، ومعلوم ان الخرافات المنحطة جدا كالتجهم والاتحاد وأمثال ذلك كالالحاد أو الزندقة أو هن أضر

الامر الرابع : أن دين الكنيسة ليس كدين المسلمين حتى يصح التمثيل ، بل هذا القياس باطل بالبداهة كما تقدم توضيحه مرارا كثيرة

الامر الخامس : أنه مطالب ببيان كون الفرد فى روسيا أحسن حالة مما كان قبل ذلك ، فانها قبل مروقها كانت مستقلة وكانت على حالة هادئة وحرية الفرد كانت جيدة جدا بخلاف انقلابها الأخير ، اما ما ذكره من الفقر والشقاء فليس بصحيح ، بل هى غنية من قديم وان كان حصل لها إثراء أعظم مما كان قبل فذاك لا يقتضى شقاء وفقرا قبل ذلك مع أن ما حل بها من الكوارث والنكبات فى السنين الأخيرة ليس بالامر الهين فيها

وهذه الصحف العالمية مملوءة بشرح حالها أولا وأخيرا مما لا حاجة الى التطويل فيه ، ويكفينا أن نقول لهذا الملحد : هل مكثت فيها وعرفت أحوالها أو احوال أهلها وماذا يجرى فيها وعرفت أحوال غيرهم حتى تستدل بهذا الكلام الذى حقيقته حجة عليك ، وقد بينا فيما سبق أن التقدم أحيانا والكثرة لا تدل على الحق ، ولا يدعى هذا أحد ممن يقدر الامور ويزنها بالميزان العقلى الصحيح ، وهو نفسه معترف بهذا أحيانا ، ولو لم يكن له إلا شذوذه فى هذه

الأغلال لكفى ، ولكن يريد أن يكون كل شىء حجة له ولو كانت قضايا متناقضة ، وهذه الجملة هى بيت القصيد هنا ، وما تقدم فى أول هذه الخلاصة كالتمهيد لها وما بعدها تقرير لها ولهذا وقف عليها

(وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه)

* * *

ثم قال : « وكذلك القول فى تركيا وفى كل الامم الحديثة والقديمة »

فيقال : كل هذا كذب ظاهر ، أما تركيا فكل أحد يعلم أنها لما كانت متدينة كانت متقدمة وعلى جانب عظيم من الاعتبار وسعة الملك والرقى والسيادة ، فلما أن بدأت تغير فى دينها ودبت اليها عناصر الالحاد - كالتجهم [١] والغلو فى الأموات وطلبهم الحوائج وإدخالها الانظمة المضادة لما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة - أخذت فى التأخر حتى وصلت الى هذا الحد ، فلما أن قلبت نظامها وصارت لا دينية لم يحصل لها تقدم البتة مع أن أكثر شعبها متدين ، ولهذا عرفت ضرر الإلحاد وشدة فساده فتراجعت الى التدين لأنها علمت أنها لا يمكن أن تعيش بغير دين لما أصاب شبابها من الانحطاط وخبث الأخلاق ، فهى أعرف بنفسها من غيرها ، ومن المكابرة والمجاهرة بالفجور ما ذكره فى نبذته (كيف ذل المسلمون) من أن تركيا لما كانت متدينة تأخرت ، فلما ألحدت تقدمت ، فهل يخفى هذا الفجور على أدنى عاقل ، فان الناس يعلمون أن تركيا كانت من أكبر الدول لما كانت متدينة فلما أن حرفت دينها وانقلبت على عقبها [٢] تدهورت ثم لما أعلنت بأنها لا دينية لم يحصل لها تقدم ، بل كانت

---

(١) مثل تحريف الصفات وإنكار العلو والكلام ونحو ذلك

(٢) اى الحكومة ، وإلا فأكثر الشعب متدين

وقت تدينها أعظم وأرقى وأوسع ملكا من بعد أن كانت لا دينية ، وهذا أظهر من أن ينبه عليه

ومن أفجر الفجور الذى لا يتكلم به إلا من بلغ فى الاستهتار وعدم الحياء أبلغ حد قوله « وكذلك الامم الحديثة والقديمة » فجعل الأمم الحديثة والقديمة كلها على هذا المنوال . ونحن نتحداه باثبات دولة واحدة من الدول القديمة كانت على مبدأ إلحاد فتقدمت ، أفيظن أن بنى إسرائيل أو العرب وغيرهم لم يتقدموا إلا بالمروق من الدين ، وكذلك الدول الحديثة فقد عرف أمرها . وقد بين سبحانه كيف كان عاقبة الأمم المتقدمة وأنها عكس ما ادعاه ، كما أن البراهين التاريخية دلت على ذلك كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ والآيات فى هذا كثيرة جدا فى الأمم الأولى والأخرى وكلها كانت عاقبتها على هذه السنة والوتيرة لا تختلف أبدا كما قال تعالى ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾

* * *

ثم قال « ولعل الفرق يظهر جليا فى دولتين شرقيتين متجاورتين وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول ، فاليابان وإن كان للدين البوذى فيها آثار وبقايا ومعابد وتماثيل ، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئا ، وان أبقت بعض الأشياء على جسمها الخارجى ! والدين الشنتوى الذى تقمصته الروح اليابانية هو الذى يوجهها ويمثلها ، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك ، وهو دين يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة

مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة وعلى عبادة الجمال والقوى المادية ، ولهذا فان اليابان يبالغون جدا فى تصور الجمال وفى إدخاله على كل وجوه الحياة حتى على لعب الاطفال وأحذيتهم الخشبية ، وأصغر الامور التى يعملونها ، وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص يتعبد بها وبتلاوتها وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء ، وخلاصته أنه دين طبيعى أو أنه دين الطبيعة فى أعم معانيها ، ومن ثمة كان أهله من أشد الناس اتصالا بالطبيعة وجمالها .

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى البطلان ، بل هو حجة عليه ، والغالب على هذا الشعب هو الدين البوذى بلا ريب فى جميع الطبقات عند جميع العارفين بهم ، ودعواه عليها بأنها قد نضت هذا الدين أى البوذى كذب ومكابرة مرذولة وأكثر عمال هذه الدولة وأشرافها وقادتها على هذا الدين البوذى وهو الذى يوجهها وهو الشائع فيها مع أن هناك أديانا أخرى فيها خرافات كثيرة لا تنقص عما فى الصين وما حولها ، وهذا يبطل دعواه كلها ويجتثها من أصلها حيث ادعى أن الدين الباطل لا يمكن أن تقوم عليه دولة وان الالحاد لا يمنع الرقى ، وهذا الدين أى البوذى هو الغالب على أكثر الصين والمغول ، فلو كان علة تأخر الصين هو وجود هذا الدين فيها لكان ذلك أيضا فى اليابان فانهما سواء فيه بلا فرق ، وهذا أمر معروف عند كل من له أدنى إلمام بمعرفة ذلك

ودعواه أن الدين الشنتوى هو الذى تقمصته الروح اليابانية وأنه هو الذى يوجهها فمن المكابرة التى يستحى من له عقل أن يجاهر بها ، فان هذا الدين لا يكاد يوجد فيها إلا بالنسبة الضئيلة فى بعض الطبقات القليلة وأكثر الرؤساء والأشراف هنالك على الدين البوذى فهو السائد فيها فى جميع الطبقات ، ومعلوم أن السيطرة إنما تكون للأكثر الأغلب فهو الذى يوجهها . ثم يقال

لهذا الزنديق : على فرض التنزل بأن الدين الشنتوى موجود فيها سواء أكان بقلة أو كثرة هل هو دين باطل أو دين صحيح ، فانت قد جعلته دينا ، فان كان دينا صحيحا عندك فصرح بذلك ولا حاجة الى ادعاء الاسلام فانه يناقضه ، وقد ذكرت أنه ليس فيه إيمان بالآخرة ، وان كان دينا باطلا بطل كلامك فى أن الدين الباطل لا تقوم عليه دولة وأنه عامل تأخر ، فان أهل هذا الدين تقدموا تقدما مدهشا فى سنوات قليلة مع كونه دينا باطلا ومشتملا على خرافات كثيرة ، وهذا يأتى على جميع قواعدك من أساسها ولا سيما فى التطويح حول تقدم روسيا برفض الكنيسة ، فهو مقابل لتقدم هذه الدولة مع كونها على أديان باطلة ولم ترفض كنيسة ولا غيرها

ثم أى مناسبة للاتيان بدين اليابان وأدنى رجل من المسلمين يعرف أن دينه ليس هو كدين اليابان ، ومن لم يفرق بين الاسلام والدين البوذى والشنتوى ونحوه من الأديان الباطلة فهو لا يعرف الاسلام ، وهذا المغرور مشى على قاعدته الخبيثة أن دين الاسلام كغيره من سائر الاديان الباطلة ، ولهذا عبر عن ذلك بالمتدينين وبالأمم المتدينة فجعل الناس فى الجملة بين متدين وملحد فالمتدين متأخر والملحد متقدم ، وكابر فى الحسيات كما كابر فى الضروريات وهو يعرف أن أكثر الأمم المنحطة كبعض سكان افريقيا وغيرهم لا يعرفون عن الأديان شيئا ، وهكذا غيرهم من أهل الأديان الثلاثة فان فيهم من الناس من هم أعظم تاخرا ، وكل هذا أعرض عنه وتعلق بهذا الدين الشنتوى فمدحه مع إقراره بأن أصوله تتضمن الكفر باليوم الآخر ، وذم جميع الأديان التى تخالفه لانها أديان سماوية ، ولو كان هذا الملحد من أهل هذا الدين لعلم أن كتابه يتضمن الدعوة اليه والى ما يتضمنه من الالحاد الصريح

* * *

ثم قال « أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشيوسى وسواه بما لم

يستطيعوا القيام منه لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال ومن التأميل بالمستحيل » ، ثم شرع فى ذم هذا الدين ، وكل هذا لا حجة له فيه ، فليست هذه الأديان كدين الاسلام ، والمسلمون لم يمنعوها حتى يتكلف ذمها والحط على أهلها ، ومن ساوى بينها وبين الاسلام فهو مصاب فى دينه وعقله وهى لا تسمى أديانا إلا مضافة الى أهلها فلا يشملها إطلاق اسم الدين فى عرف أهل الأديان السماوية بل هى خرافات فالاديان هى الاسلامية والمسيحية واليهودية وما سوى ذلك فوثنية فان الملاحدة وثنيون فانهم يعبدون الأسباب ويعتمدون عليها ويعلقون عليها آمالهم بل ويعبد بعضهم بعضا ويعبدون أهواءهم ، فكل من اعتمد على غير الله وعلق عليه أمله وتوكل عليه وأطاعه وخضع له فقد عبده ، وليس من شرط عبادة الشيء أن يعمل الانسان مع معبوده كما يعمل مع الله كما اوضحنا ذلك فيما سلف قال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ فجعل من اتبع هواه واختاره على شرع الله عابدا له قال أبو تمام :

وعبادة الأهواء فى تطويحها   بالدين مثل عبادة الأوثان

كما فى حديث ابى واقد الليثى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر إنها السنن ، قلتم — والذى نفسى بيده — كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . رواه الترمذى وصححه ، فجعل فعلهم هذا عبادة ، وان لم يطلبوا أن يعملوا عند هذه السدرة كما يعملون لله . ثم انه استطرد فذكر الهند وادعى أن سبب تأخرها عبادة بعض أهلها للبقر ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، وهو مما يدل على أنه لا يرى بين عبادة الله وعبادة الأوثان فرقا ، وإلا فكيف يذكر ويشنع على أهلها وهو يعلم أن المسلمين يرونها وثنية لا ريب فيها .

ثم من أين له أن الهند لم تتأخر إلا بهذا السبب ، وقد تقدمت فى سنين طويلة وهى على حالتها هذه ، بل هناك عوامل أخرى غير هذه

* * *

ثم قال « وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل فى هذه الحياة ومن الدوران حولها ، وقد أبدع الاغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم كانوا يبالغون جدا فى حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود ، وهوت جميع الأمم التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحسن وتجد الى مالا تحس ولا تجد ولا ترى »

قلت : وهذا من جنس ما قبله فى المكابرة والفجور الظاهر ، فان الشعوب القديمة التى هوت كلها انما هوت بسبب هذا التأميل وهذا الالحاد الذى تدعو اليه كالاغريق والرومان والفراعنة الأقدمون وغيرهم ، وما ترقت الأمم التى ورثت هؤلاء وتقدمت ونالت ضخامة الشأن الا بالتدين بالأديان السماوية كبنى إسرائيل والمسيحيين والعرب ، وهؤلاء كلهم يدينون بالعبادات ويؤمنون باليوم الآخر . وهذه حقائق ظاهرة لاجدال فيها ، فما ذكرته معروف البطلان بالبداهة . هذا مع كونه يناقض دعاويك السابقة فى ذم القديم والتصريح بأن القدماء لا يبعدون جدا عن طور الحيوانية وقت نزول القرآن فكيف بما قبله ، وانهم لا يعرفون إلا الظواهر وأنهم على غاية من الجهالة والغباء ، فكيف تنسبهم الى الجهالة العظيمة والغباء وتذمهم ذلك الذم العظيم ثم تنقلب وتدعى أنهم أبدعوا فيها بسبب حب مظاهر هذه الطبيعة وعبادتها ، وهذا مع ان التاريخ مملوء بأنهم على عبادات باطلة كعبادة الأرواح والكواكب وغيرها ، وقد قررت أن الدين الباطل لا يمكن أن يتقدم أهله ، وتذكر أن هؤلاء تقدموا ، أليس هذا كله هذيانا ظاهرا . والعجب من قولك « وهوت جميع الشعوب التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد الى مالا تحس ولا تجد ولا ترى » أى صرفت آمالها الى الاسباب المحسوسة ، ولو قلت كفرت بالله وملائكته واليوم

الآخر لكان أروح لضميرك . وهذه الثرثرة الفارغة لا يخفى ما فيها من الكذب على عاقل ، فان الناس يعرفون أن الأمم الحية منذ خمسة آلاف سنة بل أكثر هى التى صرفت آمالها الى الأديان السماوية ما عدا ملاحدة قليلون لم يقم لهم قائمة قط ، وهؤلاء أهل الكتاب هم أرقى الأمم الموجودة فى زمانهم ، ثم جاء بعدهم الاسلام وكان أهله فى القرون المفضلة هم أعظم الناس إيمانا بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتقدموا على غيرهم ، وكلما ضعف هذا الأمل ضعف هذا التقدم كما هو معروف بالبراهين اليقينية . ثم ان هذا الملحد استشهد على هذا الفجور بأخبث شهادة على وجه الأرض وهى ما ذكره بقوله :

« حتى إن رجلا فيلسوفا عظيما هو الدكتور جستاف لوبون [1] لما لاحظ هذا قال فى كتابه المرسوم بالآراء والمعتقدات « إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر » لانه — على ما زعم — قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير الى الامام ، قال « ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الاصنام [2] » انتهى . هكذا ساق هذا الملحد

---

(١) غوستاف أو جستاف لوبون هذا من أخبث الملاحدة المعروفين بالمجاهرة بالالحاد وسب الأديان بل صرح بسب النبى ﷺ فسماه متهوسا حيث قال فى كتابه (حضارة العرب) : « حقا إن من عجائب التاريخ أن يلبى نداء ذلك المتهوس الشهير (يعنى النبى ﷺ) شعب جامح شديد الشكيمة إلخ » فملحد يصل به إلحاده وخبثه الى هذا الحد كيف يجوز لمن يدعى الاسلام أن يصفه بالعظمة ويحتج بكلامه ويصفه بالذكاء والفطنة ونحو ذلك كما فى مقدمته ، ولكن شبيه الشىء منجذب اليه

(٢) علق هنا بأنه يبرأ من الالحاد . ومثل هذا سهل يسير على كل من فعل فعلا شنيعا وادعى أنه يبرأ منه فيقول مثل هذا القول ، فلا يعجز الزانى أن يزنى ويقول حال زناه أو بعده أنا أبر أمن الزنا ، ويسرق السارق ويقول حال سرقته أو بعدها أنا أبر أمن السرقة وهكذا ، فهل يروج مثل هذا على من له عقل أو فكر صحيح . ولكن العقل الذى يرى أن عبادة الأوثان والأصنام أولى من عبادة الله قد بلغ الغاية فى السقوط والعمى والضلال ، ومثل هذا لا يعد عقلا بمعناه الحقيقى أى مطلقا

هـــذه الشهادة مستدلا بها على دعايته فى هذا الكتاب ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ وهذا هو اللائق بأغلاله الخبيثة فانه لا يجد لها دليلا إلا مثل هذا الخبث المناسب لها ، وأغلاله كلها تدور على هذه النقطة الخبيثة فانه كالشرح لما ذكره جستاف لعنهما الله جميعا وحشره الله تحت قدمه . ولو أن له ادنى مسكة من عقل وحياء ودين لم يستدل عـــلى المسلمين بهذا الكفر الفظيع الساقط ، ولكن كلب جاع فانصاع الى جيفة . ومع هذا فلا حجة له فيه فان متبوعه صرح فى زيغه بأن البشرية لم تخط خطواتها القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام وهذا مع كونه باطلا بالضرورة يناقض ما ادعاه فى الهند والصين وعباداتهم فانها عبادة للاصنام ووثنية ظاهرة ، ولكن الذى أعجبه هو قوله إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ولهذا ينسبه الى العظمة ، وأما سهل بن عبد الله التسترى فانه لما ذكره قال عنه « وهو أحد أصنامهم » وكذلك قدح فى السيوطى والغزالى وغيرهما وجعل جميع كتب الفقهاء ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، فهم لا عقول لهم ولا دين ولا علم . أما هذا الملحد المجاهر بالكفر فيستدل بكلامه على المسلمين ، وليس هذا بغريب فى فروخ الملاحدة ومناحيسهم فشبيه الشيء منجذب اليه ، فان هذا الزنديق لما مسخه الله باطنا خنزيرا خبيثا صار لا يعجبه ولا يغذى روحه إلا هذه الخبائث المنتنة ، فأخذ يتتبعها ويسقط عليها ، وقوله « لانه ـ على ما زعم ـ قد وقف بالحضارة » فيقال : وعلى ما زعمت أيضا فانك ادعيت كدعواه بل أخبث ، لأنه جاهر بها ولم يخلطها بزندقة ، واما أنت فزدت عليه بالنفاق وقلب أصول الدين إلى أصول الالحاد ، وإلا فهو مقر بان القرآن لا يتفق مع دعايته أبدا . ثم ما هو الداعى للاستدلال بقوله وعدم الرد عليه ، وقد قلت فى صراعك ص ٢٧ « والسكوت على الخطأ ليس مما يعذر عليه وليس مما يهون أمره عند الله وعند المتقين » الى قولك « والمسلم والعاقل لا يقولان أقوالا تضطرهما الى التأويل والتمحل » فأين العقل ودين الاسلام إذن ، وكون الانسان يستدل بالكفر ويقرره ويدعو اليه ويدعى

البراءة منه من المضحكات والتلاعب الواضح ، فهذا الذى ادعاه متبوعك هذا الذى تنصره ، ولهذا قلت فى الخطب انها إحدى النكبات لأنها مظهر من مظاهر الايمان بالله وحده . وكذلك قد زعم المشركون بأن الايمان بالله وحده يقف بالحضارة كما أسلفنا تقريره فى قوله تعالى عنهم ﴿ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ ومعلوم أنه دعاهم الى الايمان بالله وحده كما قال تعالى ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ وقال تعالى حاكيا عن المشركين ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب﴾ فهذه طريقة الملاحدة والمشركين فى الايمان بالله وحده ، وقد كان معلوما أن الله سبحانه نصر عليهم المؤمنين به وحده ، ولأنه لا يمكن بحال أن يستولى الملاحدة على المؤمنين المخلصين له . ولما كان قول هذا الملحد جستاف فى عبادة الأصنام فيه ما فيه عند هذا الملحد ، لأن أهم عبادة الأصنام عنده هى مظاهر الطبيعة ، أخذ يحرف كلام إمامه وسيده ويحمله مالا يحتمله بأن المراد من عبادة الأصنام هى عبادة الطبيعة ، وهذا كذب ظاهر يكذبه التاريخ والدلائل التى لا تحصى ، فانهم كانوا يعبدون الكواكب والأرواح وكثيراً من الاوثان والأصنام المتعددة ، وماكان ينبغى له أن يجترىء على إمامه فيتصرف فى كلامه بخلاف نصه وظاهره ، فان هذا خيانة وتمرد ولكنه مبتلى بالخيانه فى كل شىء ومع كل أحد ، فقال : « وهو طبعا يريد بعهود الوثنية تلك العهود التى سادت فيها عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة كالذى كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون ، ويعنى بعهود التوحيد والايمان ـ التى زعم أنها وقفت بالانسانية ـ تلك العهود التى أعلن فيها بالدعوة الى عبادة الله وحده والى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا كعهود بنى اسرائيل وأسباطهم وعهود الكنيسة فى القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين

وعهود الغزالى والشعرانى وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين (١) فان هذه العهود - على حسب ما رأى وقال - كانت نكبة على البشر أجمع لانها لم تستطع أن تصنع لهم شيئا سوى التأميل فى الآخرة ، أما تلك العهود الوثنية فانها كما يرى ويقول ناهضة على حب ما فى هذا الوجود الى حد العبادة فاستطاعت - يدفعها هذا الحب وهذه العبادة - أن تصنع اساس هذه الحياة (٢) التى يتمتع بها انسان هذا العصر السعيد فكأنها قضية مفروغ منها ، تلك هى أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها »

قلت : فلينظر الانسان العاقل الى ما فى هذا الكلام من الفجور والكفر والمكابرة الظاهرة والغش والخلط الفاحش ، وانظر كيف جعل العهود التى أعلن فيها الدعوة الى عبادة الله وحده هى عهود الغزالى والشعرانى وشيوخ الطريق ، وأبسط انسان من المسلمين فضلا عن غيره يعلم أن إعلان الدعوة الى عبادة الله وحده هى بالنسبة الى المسلمين من ظهر وفجر النبوة على يد نبينا محمد ﷺ وأصحابه ، وقد سادوا ونشروا عناصر الحضارة كلها وقطعوا دابر الذين وقفوا بالانسانيه عن التقدم ، أما فى وقت الغزالى فقد سادت عبادة الطبيعة ومظاهرها وتدهور المسلمون بسبب ذلك الى اليوم ، وهكذا عهود بنى

---

(١) ان الذى يقرن بين وثنية الاغريق والرومان والمصريين القدماء وبين تقدمهم ويقرن بين الاسلام وتأخر المسلمين الآن انما هو كذلك الطفل الذى رأى بقرة بيضاء تحلب فظن أن بياض لبنها من بياض جلدها (غ) . اه حاشية من الشواهد

(٢) لاحظ قوله فى ما مضى انهم لا يبعدون عن طور الحيوان وأنهم كالأطفال ، وهنا يدعى أنهم هم الذين وضعوا أساس هذه الحياة ، أما بنو إسرائيل والمسيحيون وأهل الاسلام فانهم كانوا نكبة على البشر لأنهم من المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا

إسرائيل فان موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أعلنوا الدعوة الى عبادة الله وحده وسادوا بذلك أهل زمانهم واستولوا على من عبد الأوثان والأصنام ، فلما ضعف فيهم الإيمان بالله وحده وعبدوا الأوثان والأصنام تدهوروا حتى دخل كثير منهم فى الديانة الاسلامية واقتبسوا من نورها فتقدموا وانشأوا روح هذه الحضارة على هذا النور السماوى ، وهذا أمر ظاهر جلى ، وقد تقدم كلامه بأن الإغريق والرومان ونحوهم من الدول المنكمشة التى ذهبت فى غيرها فكيف يحتج بأفعالها القديمة التى ذهبت فى طوفان الأديان السماوية . ومن أعجب العجب أنه يقرر كلام هذا الخبيث تقريرا صريحا لا شك فيه حتى ختمه بقوله « تلك هى أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها » هكذا قال ثم يخالجه الرعب والخوف فى تقريره فيقول « على حسب ما رأى وقال » وهذا عين التلاعب ، ولكنه علم أنه يوجد من قد ختم على قلوبهم يقنعهم مثل هذا الخداع البسيط فلا مانع من الاتيان به ليكون عذرا له عندهم ان احتاج الى ذلك

* * *

ثم قال « ومن الملاحظات الفردية فى هذه القضية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون فى التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الانسانية هم دائما من غير الأنقياء الورعين(١) وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم »

فيقال : هذا ليس بصحيح على هذا الاطلاق ، بل يوجد فى الاتقياء والمتدينين من هم أعظم فى المنافسة القاصمة الصحيحة من أولئك ، وهؤلاء

---

(١) كان المناسب أن يقول « من غير المتدينين » لأن الكلام فيهم ، فانهم هم الذين تركوا الأوامر الدينية وراء ظهورهم

أكثر من أن يحصى عددهم فى كل زمان ومكان ، بل لا يوجد فى هذه الامور من له ذكـــر حسن وأثر كبير عظيم إلا وهو من المتدينين الذين لم يتركوا الأوامر الدينية وراء ظهورهم . ثم لو فرض وجود هـذا فليس من الحجة فى شىء ، فان هـذه حجة فرعون بعينها فى قوله تعـالى عنه ﴿ ونادى فرعون فى قومه فقال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفــلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملئكة مقرنين [1] فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهى حجة جميع الـكفار المعادين للرسل كما قال تعـــالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنو أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ وقال تعالى فى قصة نوح ﴿ قال المـلأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذ لنا بادى الرأى — الى قوله — ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين ﴾ وقال عن كفار قريش ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجـلا مسحورا ﴾ الى أمثـال ذلك من النصوص الـكثيرة الدالة عـلى أن الـكفار دائما يحتجون

---

(١) احتج عليه بعدم وجود المال والجاه ، فالاسورة تدل على الثراء والتجارة ، والملئكة على الجاه ، وهذه هى أكبر حجة عند هذا الملحد القصيمى فانه دائما يحتج بقلة المال والجاه ، فاذا كانت هى بعينها حجة فرعون ، وانه استخف قومه بها فأى قيمة لهذا الاحتجاج القديم الباطل الذى لا ينخدع به غير الأطفال والأغبياء وأهل القلوب المظلمة

بالمظاهر الدنيوية على أن الحق فيها ، ولا ينظرون الى الحقيقة ، فيردون الحق بقلة أهله أو ضعفهم ويقبلون الباطل لكثرة أهله وقوتهم ، هذا مع أن الله سبحانه قد أعطى كثيرا منهم من سعة الملك والتقدم فى الحياة والعلم كما أعطى سليمان وابنه وذا القرنين وطالوت وغيرهم ، وكثير من هذه الامة قد أعطى من الملك والتجارة وسعة الرزق مالا يحصى مع تقواهم وتمسكهم بالدين ، فهؤلاء الخلفاء الاربعة ومعاوية وعمر بن عبد العزيز وهرون الرشيد والمتوكل والمهتدى ومحمود بن سبكتكين ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبى وملوك آل سعود وأمثال هؤلاء كلهم من الأتقياء وقد أعطاهم الله الملك والتقدم الباهر وقد قدروا على منافسة الكفرة فى زمانهم ، بل ليس فى ملوك المسلمين أو خلفائهم البارزين الذين نفعوا الاسلام ملحد معروف قد ترك الأوامر الدينية وراءه (١) غاية مافى ذلك أن يكون فيهم من هو عاص والعاصى لا يخرج عن ان يكون متدينا . ثم ان أكثر الحكومات الساذجة الوحشية التى لا حظ لها غير الشقاء والفقر والبؤس إنما تكون ملحدة لا تكون متدينة ، فهذه الأمم الموجودة فى بعض أنحاء افريقيا وغيرها من الأمم الوحشية كلها لا تعرف الأديان ، وإلا فلو عرفتها لكانت كغيرها من الأمم الراقية الحية ، فمن المحال أن تجتمع الهمجية الوحشية والجهل وضعف العقل مع تعاليم الاديان السماوية ، وهذا أمر ظاهر لا يستريب فيه إلا جاهل أو معاند أو مغرور

* * *

ثم قال « حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس فى تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا فى سماء الشعر والأدب الخالد ، أو قاموا بنظريات

---

(١) وقد علم أن العبيديين من أخبث الملوك وأهل السلطة وهم أشد الناس تأخرا وما نفعوا الاسلام بشىء كبنى بويه وأمثالهم

علمية لها بقاء وخلود ، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات لم نجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الدينى أمثال المتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ وابن سينا والرازى والفارابى وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم »

قلت : هذا مقدار عقل هذا البجباج النفاج ، بعد أن كان يمدح الخلفاء الراشدين والصحابة والأئمة وأهل القرون المفضلة ويثنى على مثل ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ذلك الثناء العظيم حتى قال فى نبذته (الثورة الوهابية) ص ٧١ : وابن تيمية وابن القيم لو ادعى مدع بأنه لم يأت فى القرون الوسطى كلها من يشبههما فى الذكاء وغزارة العلم والصلاح والغيرة على الدين والفضيلة - لما وجد من يقول له ظلمت الحقيقة وافتريت الكذب ، إلا أن يكون ذا ضغن على الرجلين أو جهل بهما » انتهى ، ثم بعد هذا وأمثاله كثير ارتد على عقبه فأخذ يثنى على مثل الفارابى وابن الرومى والحسن بن الهيثم وأضرابهم ثم يمدحهم بأنهم كانو متمردين موصوفين بالانحلال الدينى ، وهذا لو ثبت لكان من أعظم الخزى عليه ، فان هؤلاء ليس لهم ذكريات حسنة فى نصر الملة والقيام فى الأمور الاسلامية العظام أبدا ، بل غاية مافى بعض هؤلاء شىء من الشعر الذى فيه ما فيه وقد شاركهم من هو أفضل منهم فى ذلك ويوجد لهم أيضا بعض اشياء من الفلسفة المنسوخة الممسوخة القديمة ، فأى فضيلة لهؤلاء ، هذا لو قدر أن ما ادعاه صحيح . وإلا فكثير من هؤلاء لم يكونوا معروفين بالانحلال من الدين كالجاحظ والحسن بن الهيثم والرازى وابن رشد ، ثم هم مع هذا فى أكثر كلامهم معظمون للسلف مقرّون لهم بالسبق فى كل فضيلة ، وهذه كتب الجاحظ مملوءة بمدح الخلفاء ثم أهل البيت والثناء عليهم بالتقوى والورع وكانوا من أشد الناس فى الحط على الانسان الذى يكون متطرفا فى دينه ولا يوجد لهم كلام فى الثناء على رفض الدين بالكلية ، وأكثر المحامين عن

هؤلاء لا يرضون بنسبتهم الى الالحاد بل يدافعون عنهم لأن ذلك من أعظم العيوب التى سقط بها الانسان سقوطا كليا ، ولم نعلم أحدا مدح الإلحاد قبل هذا الزنديق ، ولعله إنما ارتد واعتنق النفاق والإلحاد ليكون مثل هؤلاء وأمثالهم ليكون قمرا لامعا فى سماء الادب الخالد وكالشمس التى فى غير برجها كما يقول فاقتدى بهؤلاء فى هذه العملية التى ادعاها . ويحكى أن قردا رأى رجلا يشق خشبة فأعجبه ذلك جدا ، فذهب الرجل وترك الخشبة بحالها وجعل مكان المنشار عودا ليعود اليها فيكمل عمله فلما ذهب جاء القرد ليفعل فعله فركب فوق الخشبة وادخل المنشار فيها ونزع ذلك العود الذى كان فى الشق وكان ذنب القرد قد سقط فى الشق فأطبقت عليه الخشبة وعصرته حتى ذهب شعوره واشتغل بنفسه عن العمل فجاءه صاحب الخشبة فجعل يضربه بالسوط وهو مشدود ذنبه بالخشبة حتى غشى عليه فلم يسلم ولم يحصل على ما أعجبه وعشقه [(١)] وهكذا كان حال هذا المغرور

ثم ذكر أن بعض هذه الدول الاسلامية المتأخرة تولى الوزارة والسفارة ونحوها غير المتدينين ، وهذا مجاهرة بالفجور وقدح ظاهر فيهم ، بل هى تختار من فيه صلاحية وكفاءة للمهمة التى تقصدها ولا يلزم من ذلك أن تختار الأتقى بل تختار من له عقل ودين ومعرفة وهو متدين ، ولا نعلم أمة لا ترسل إلا ملحدا وهى مسلمة أو تختار الملحد على غيره ، اللهم إلا أن تكون تلك الأمة تنسب نفسها الى الاسلام وليس لها حظ منه . ثم لو قدر أنها قد تختار من فيه نوع انحراف للحاجة اليه فماذا حصلت عليه وماذا وصلت اليه وماذا كانت عاقبتها فليس فى مثل هذا حجة أصلا بل هو قدح صريح فى المسلمين

ثم ذكر أن عمر قال : لو ددت أنى وجدت رجلا تقيا قويا مسلما أستعمله .

---

(١) راجع كتاب كليلة دمنة

وقال مرة أخرى حينما حار بين الأتقياء والأقوياء : اشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الورع

فيقال : هذا إن سلم فهو حجة عليك ، فانه يدل على فضيلة التقوى والورع وأن أهلها أولى بالولاية عند القدرة عليه ، وهذا شان كل نفيس فانه يندر وجوده ، واذا وجد فانه هو الذى ينفع ، وإلا فبحسب ما يوجد ممن فيه مزية من هذه الخصال ، وقد وجد عمر رضى الله عنه كثيرين اتقياء أقوياء مسلمين فولاهم فحصل النجاح الكامل ، فانه ولى سعد بن أبي وقاص . وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فولاه قيادة الجيش الذى اكتسح الفرس ، ولهذا نجح هذا الجيش نجاحا يعد معجزة ، فانه هدّ صرح هذه الدولة الكبيرة فى أيام معدودات ، لأنه هو وقادته كانوا أتقياء ورئيسهم سعد بن أبي وقاص هذا التقى الولى والخليفة عمر ، فلما كانت التقوى منتظمة فى هذا الجيش حصل النصر الباهر الذى لم يسبق له نظير وهو من اظهر الدلائل على أن الولاة الأتقياء الأقوياء هم الذين ينفعون وهم الذين تحصل بهم المطالب غالبا ، بخلاف الملاحدة والمنحرفين فانهم على خلاف ذلك ، ولهذا أثبت التاريخ العام بأن القواد الذين خانوا أمتهم وقومهم ودمروا أنفسهم وأوطانهم كلهم من أولئك المنحرفين ، لأنهم لضعف الدين فى قلوبهم واعتمادهم على الأسباب المادية وحبهم للحياة الدنيا يقبلون الرشوة ويحصل بهم من الفساد أضعاف أضعاف ما يحصل بهم من الصلاح ، وأكثر ما ينفع هؤلاء اذا كانوا فى أمم مثلهم يدفعون الى أعمالهم دفعا اضطراريا عالمين ان وراءهم عقوبات قاسية صارمة لا هوادة فيها ، ومن هذه حاله فليس هو كمن تدفعه حرارة الإيمان وما فيه من حب الله ودينه وخوفه ورجائه

وكذلك قول عمر « أشكو الى الله جلد الفاجر وعجز الورع » فانه يدل على أن ذلك مصيبة ، فان جلد الفاجر لا خير فيه إلا القليل فى بعض الظروف

النادرة وإلا فهو ضرر ، وان عجز الورع اذا وقع فلا ينبغى بل المطلوب الورع مع القوة ، وهذا لا يوجد إلا فى التمسك بالكتاب العزيز والأخذ بالأخلاق السلفية ، وليس الكلام فى قلته وكثرته إنما الكلام فى أنه هو النافع كما يدل عليه كلام عمر رضى الله عنه

ثم قال « وحتى لو أردنا أن نطبع هذا الكتاب لم نجد بدا من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور »

فيقال : هذه أصدق كلمة قلتها فى أغلالك كلها ، فانك إذا أردت أن تطبع هذا الكفر والنفاق والزندقة والالحاد لا تجد ذلك إلا عند غير الأتقياء المتدينين ، إذ من غير الممكن أن يتفق الإيمان فى قلب إنسان والإعانة على إظهار الكفر وسب الله تعالى وأديانه وأهلها ، فلا يطبع هذا الكتاب إلا من طبع الله على قلبه فكان من الغافلين ، وإلا فالمؤمن يأبى طبعه أن يطبعه ، ولهذا لما عرضته على الاستاذ محب الدين الخطيب أبى أن يطبعه على هذه الصورة ، ثم ندمت ندامة الكسعى وأكلت أناملك حسرة أن لو قبلت نصيحته . فما ادعيته هنا شهادة منك على أن هذا الكتاب لا يوافق عليه إلا من ترك أوامر الدين وراءه وأن الذى طبعه غير تقى بل منحرف عن الدين[1] وهذا شأنك فى كل من كان له أى علاقة بك لا بد أن تذمه وتقدح فيه فى نفس الأمر ، ولهذا فانك مدحت هؤلاء الذين طبعوا كتابك بكونهم منحرفين عن الدين تاركين أوامره وراءهم ، أما لو كان كتابا دينيا فما أسرع طبعه وإخراجه على أكمل الوجوه كما طبعت الكتب الدينية التى لا يحصيها إلا الله وكما طبعت نبذك السابقة على ما فيها من سذاجة وهذيان بدون أدنى تكلف منك لها

---

(١) لأنه ذكر فى الجملة السابقة فى مقابلة الاتقياء : الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم

ثم قال « ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكرى الذى توزن به الأمور فى الغالب ، ويصبحون من الناحية النفسية أناسا طيبين خيرين ، فاقدين لكل مناعة عقلية ، مستعدين استعدادا غريبا للوقوع فى حبائل المشعوذين والدعاة المضللين ، عمين عن كل الحقائق التى يراها ويستفيد منها الآخرون ، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعا عجيبا ، وتنفق بينهم سوقه ، وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين دينيين وغير دينيين ، ويصيخون لكل ناعق ، ويهبون بسخاء نادر جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل ، لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب ، والقائد من الصائد ، فصدقوا المستحيلات والمناقضات ، وآمنوا بأشنع الترهات ، لأن العاصم من ذلك وهو العقل قد أبعد وعزل »

فيقال فى جوابه : وهذه أيضا دعوى عدو على عدوه بدون حجة فتقابل بالمنع والرد ، لأن حقيقتها هراء نشأ عن عداوة ومقت وحقد وحسد كامن

تكلم بالقول المضلل حاسد ... وكل كلام الحاسدين هراء

ولا شك أن هذا الزنديق ما ألف هذه الأغلال المملوءة بالخبائث والجنون والخبال إلا لأنه تصور المسلمين فى ضعف العقل بهذه المنزلة التى ادعاها ، فلهذا طلب منهم التقديم فى كل أمر ، وأن يفردوه بالرغبة والرهبة ، وأنهم لا يبصرون طريق العقل إلا بكتابه ، وأنه لا يستغنى عنه أحد منهم ، ولكن . . ولكن المنافقين لا يعلمون . فلقد عرف نتيجة ما يتمناه فى رسالة السراب فليقرأها وما احسن ما قيل فى مثله :

رأى خيار الورى طرا فجانبهم ... كذا يجانب أرباب العلى السفل

وصار يرميهم منه بكل هجا ... وما على البدر لو أزرى به طفل

وما على العنبر الفواح من حرج ... إن مات من شمه الزبال والجعل

أوهل على الأسد الكرار من ضرر ... أن ينهق العير مربوطا أو البغل

أوهل على الأنجم الخضراء منقصة | أن عابها من حصى الغبراء منجدل
فلا وربك لا يزرى بشمس ضحى | أعابها الجدى أم قد عابها الحمل
وقد يعيب الفتى ما ليس يدركه | إذ كل ضد بذم الضد مشتغل
كما تعيب فتاة راق منظرها | قبيحة ، ويعيب الصائب الخطل
والزج يحسد لؤما حرص سمهره | كذاك يهجو الشجاع الباسل الفشل
فلا يضر أولى الفضل الألى سبقوا | من كل أهل العلى ، ان ذمهم سفل
مثل الأسنة والاسياف ما برحت | بطعن أعدائها والضرب تنصقل

فدعواه عليهم أنهم عزلوا العقل يقال : نعم هم عزلوا عقلك وعقل كل زنديق [1] لأنها عقول خبيثة قد حكم الله على أهلها بأنهم لا يعقلون ، وأنهم لا يعلمون ، وأنهم كالانعام ، فكيف يتابعونهم على هذه العقول المعكوسة ، ولكنهم لم يعزلوا العقل الصحيح المطابق للفطرة والدين القيم فهم أعظم الخلق عقولا ، لأن عقولهم نفعتهم فى الحياة الدنيا وأسعدتهم فى الآخرة بخلاف العقول التى قصاراها أن تنفع صاحبها نفعا معيشيا منكدا كما تنتفع البهائم بمعرفتها فى طرق معيشتها ، فكم من بهيمة عاشت طوال حياتها فى رغد العيش والسمن والراحة كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ فالعقل الذى غايته أن يوصل صاحبه الى رتبة البهائم فأى فائدة فيه ، فكيف اذا أوصل صاحبه الى الخسارة السرمدية

وأما دعواه بأن ارضهم تنبت الكثيرين من متدينين وغير متدينين الى

---

(١) فى محاربة الأديان ومضادة الشرع ، أما ما يتعلق بالدنيا فهم يرون أن الحق فيه مقبول من كل من جاء به ، كما فى الحديث « الحق ضالة المؤمن اينما وجده أخذه » وقال بعض السلف « اقبل الحق ولو من كافر ، قيل وكيف نعرف أنه حق ، قال « ان للحق نورا يعرف به » أو كما قال

آخره ، يقال : هذا لا يوجد غالبا إلا فى البدع المخرجة عن الملـــة ممن أصيب أهلها بمرض الالحاد أو النفاق أو الزندقة كالجهمية والرافضة ، أما المتدينون الصادقون فلا يوجد هذا فيهم ، فاذا كان هذا لا يوجد الا عند بعض المبتدعة المنافقين فلا شك أن أرض الملاحدة تنبت الدعاة الخبثاء كالزنادقة والمنافقين وأهل الغش والخبث والقيادة والدياثة والزنا واللواط وجميع الفواحش المنكرة كما تنبت السراق واللصوص وأهل الخيانات كلها على اختلاف ضروبها ، لان العاصم من ذلك هو الدين ، وقد رفض وترك ، فوقع ما يناقض تعاليمه من أخلاق الخبث ، ولا سيما وهذا الملحد نفسه قد اعترف فيما سبق بأن الانسان مطبوع على الخبث والشر والظلم والعدوان ، وان المجرد من كل دين ينشأ على هذه الأمور ، فصار الملحد منسلخا من الدين والعقل جميعا ، لأن الدين هو مادة كل الأخلاق الطيبة الصحيحة التى هى مادة تقوية العقل وصحته وثباته ، فمتى صح صحت نتائجه . ودعواه بأنهم صدقوا بالمستحيلات والمتناقضات ، يقال : ما هى هذه المستحيلات والمتناقضات . لابد من بيانها . بل الحق الذى لا شك فيه أن هذا الوصف إنما ينطبق على الملاحدة والمنافقين ، وعلى من اغتر بكلامك وصدق بمخادعاتك وأفكارك هذه وما تضمنته من المستحيلات حيث ادعيت أنه من الحقائق الازلية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت ولا يوجد مسلم واحد يستغنى عنه ، وأن البروق والرعود والقواصف تراض كما تراض الوحوش العاتية ، وأنك تعرف رجلا على غاية من الجهل والغباء والسفه والقحه كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أن ينجو منها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، وأنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كانهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد كل ذلك بنظراته وأسراره الى آخر تلك الترهات والهذيان الذى لا يتكلم به إلا من انسلخ من الدين والعقل ، لا شك أن الذى يصدق بهذيانك هذا وغيره مما تضمنته أغلالك هو الذى يصدق

بالمستحيلات والمتناقضات ، وكل ما تتصوره من المستحيلات فى الأمور الدينية التى صحت فى النصوص يكفى المتدين أن يقول لك ليس كل ما استحال وقوعه فى عقل بعض الناس يكون مستحيل الوقوع فى نفس الأمر ، فان ثبوت صدق الرسول يوجب ثبوت وجود كل ما أخبر به عن الله تعالى وأمر باعتقاده . ونحن نعلم أن كثيرا من هذه الأمور الصناعية المشاهدة الآن لو أن انسانا أخبر بوقوعها على هذا الصفة الواقعة لكذبه أكثر الناس ولعدوا وقوع ما أخبر به مستحيلا إن لم يعدّوا قوله نوعا من الجنون الذى يستهزأ به ويسخر منه مهما بلغ ذلك الرجل فى الصدق والأمانه ما بلغ ، فاذا كان حكم العقل فى استحالة وجود هذه الأمور خطأ لو أخبر به من علم بالصدق والأمانه من غير أن يكون نبيا فكيف بالأمور التى أخبر بها أصدق الخلق على الإطلاق بل أخبر بها عن الله وهى ليس فيها شىء يخالف صريح العقل البتة ، بل أكثرها مما دل العقل على صدقه وصحته ، ويكفينا أن كثيرا من علماء الكلام ونحوهم ممن بلغوا الغاية فى المعقولات بزعمهم وزعم أتباعهم قد أخبروا بأشياء وادعوا أن صريح العقل يقطع بعدم وقوعها ، مثل ما ذكروه فى كثير من آيات الصفات ونحوها ، وقد علم أن صريح العقل يقطع بخطأ ما ذكروه فيها ، وكما ذكر علماء الهيئة الاولون فى علمهم أشياء وادعوا أن العقل يقطع بوجودها على الصفة التى ذكروها وقد كشف المتأخرون خطأ ما قطعوا بعقولهم بالقول فيه وقطع هؤلاء ببطلان ما ذكره أولئك ، وهذا الملحد نفسه قد ذكر ما ذكر فى كتبه السابقة وادعى أن ما ذكره هو مقتضى العقل الذى لا ريب فيـــه ، ويكفيك شاهدا على هذا ما نقلناه عنه فى التطور فى إنكاره أولا انكارا باتا ثم إقراره به أخيرا وإنكار إنكاره إنكارا باتا . ثم إنا نجد هؤلاء الزنادقة من أشد الناس تسرعا الى التصديق بكل ما يقال ويسمع عن متبوعيهم ورؤسائهم وإن كان ذلك فى غاية الاستحالة ويعدون من اعترض عليهم بليدا غبيا ، ولكنهم من الجهة الأخرى يعدون الذى يصدق بكل ما يقوله الرسول تصديقا مطلقـا رجعيا وان لم يفهموا معناه ، بل يتصورون شيئا فى معنى النص ثم يجزمون به

ثم يكذبون من يصدق به ويستضعفون رأيه لظلمة قلوبهم وفساد أذهانهم لأنهم لم يفرحوا به ويصدقوا به ويطلبوا الهدى منه ، ولا يمكن للانسان أن ينتفع بالنصوص الدينية انتفاعا صحيحا حتى يصدق بها تصديقا كاملا لا يخالجه أدنى شك ، ثم يستعمل جهده فى معرفة المعنى ويسأل الله بجهد واجتهاد أن يعينه وأن ينفعه به فمتى فعل ذلك فلا بد أنه يستنير ذهنه ويعلم حقيقة العلم أن النصوص هى على ظاهرها وأن معانيها فى غاية المطابقة للحقيقة ، وأنه لا يمكن أن يرد عليها شيء أبدا ، بل كل ما ورد عليها فهى شبه فاسدة بلا ريب . ولكن هؤلاء انما يستفيدون من النصوص عند الضرورات وعند الحاجة اليها لمقتضى تنفيذ أغراضهم ، لا إلى ابتغاء الحق والعمل به فى نفس الأمر ، فلهذا كان النص الشرعى عليهم عمى وفى آذانهم عنه وقر أولئك ينادون من مكان بعيد

وليس هذا الملحد ببدع فى إخوانه الزنادقة والمنافقين فى كراهية المتدينين والسخرية والاستهزاء بهم ، فان هذه الأخلاق الخبيثة ملازمة لهم فى كل زمان ومكان ، وفى القرآن من الأدلة ما فيه كفاية كما أسلفناه ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ولقد أصبح من المعتاد الجارى على ألسنة هؤلاء المنافقين المارقين أنهم يرون ويعتقدون أن المتدين وبخاصة من يميل الى الصلاح والتقوى ناقص الفكر ضعيف العقل قريب الرأى ، ليس له معرفة بالدهاء والسياسة والحيلة وبعد الرأى ، بل انهم هم المنفردون بذلك ، هكذا حكموا لأنفسهم بهذه القسمة الضيزى ، ولهذا نجدهم ولا سيما إذا خلا بعضهم الى بعض دائما يبغون الفتنة فيهم ، ويحاولون بكل مالديهم من بغى وغواية أن لو قضى عليهم قضاء تاما واستراحوا من رؤيتهم أمامهم وبين أعينهم ، وتجدهم متى خلا بعضهم الى بعض شرعوا فى أكل لحومهم والتنقيب عن عيوبهم ، فاذا ما حضر المتخلق بالدين عندهم ينظرون

إليه نظر المغشى عليه من الموت وضاقوا به ذرعا حتى يفارقهم أو يفارقوه

وأرحم أقواما من الغى والغبا   وأعذر فى بغضى لأنهم ضد

ولما كانت هذه حالة المنافقين وأنها هى أسفل سافل فى كل غى وسقوط حكم الله عليهم بالذل فى كل مكان وزمان ، كما قال تعالى ﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ ولهذا كان من الجائز أن يتقدم الكافر الصريح برهة وزمنا ، بخلاف المنافق فانه لا يمكن بحال أن يتقدم ، بل لا بد أن يضرب بالذل والمسكنة ، ولا ندرى من أين وجد هؤلاء الخبثاء أن حملة الشريعة المطهرة وورثة الأنبياء هم فاقدو الميزان الفكرى وأنهم عزلوا العقل وأنهم كانوا عمين عن كل الحقائق ، وأنهم بالتمرد عن الدين هم الدهاة العقلاء العارفون ، قبح الله تلك الوجوه ولطمها وضرب عليها الذل والشقاء والبلاء لأنها أهل لذلك

* * *

ثم قال « وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التى كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ انهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ استعدادهم لتصديق مالا يجوز على العاقلين ، بدون مقاومة أو إباء ، وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التى توجه اليهم ، ونتعجب من السخف والكذب الذى يجىء فيها ، ونقول : كيف يرجو هؤلاء العقلاء — إذ هم عقلاء بدون ريب (١) — أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشىء منه ! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف المناعة العقلية لديهم ، فان هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضا وكانت تنفع »

---

(١) ما هى الأسباب فى كون الأجانب عقلاء بلا ريب وأن المتدينين قد عزلوا العقل وأنهم عمون عن كل الحقائق . ما أسرعك فى إصدار الحكم لسادتك على أعدائك من أتباع الرسل

فيقال : هذا كالذى قبله هراء ليس من التحقيق فى شىء ، فهو مطالب ببيان الإشاعات التى تروج ما هى ومن هو الذى راجت عليه ، وبيان الاذاعات التى يسمعها ويصدق بها ومن هو الذى صدق بها حتى تعرف حقيقتها وحقيقة من صدق بها ، والا فالمعروف أن الإذاعات والخداع الباطل لا يصدق به إلا من ابتلوا بالنفاق وضعف الدين فى قلوبهم ، فالذين صدقوا بها فيما نعلم هم الذين صدقوك واغتروا بخداعك فى هذه الاغلال ، والذى حملك على تأليفها هو أنك رأيت هؤلاء الذين أصيبوا بفساد الذهن والعقل من الملاحدة والمنافقين ورأيت كثيرا منهم يصدقون ببعض الخداع والنفاق ، فسولت لك نفسك وشيطانك أن الناس كلهم مثل هؤلاء ، فنسجت لهم هذه الشبكة الخبيثة للوقوع فيها لما عرفت فيهم من فساد الأخلاق والخروج عن العقل والدين ، ولهذا كان أكثر من اغتر بكلامك هم أولئك النوكى والحمقى ممن عرفوا بالخبث والفواحش والغى وسقوط الأخلاق ، أما عقلاء المتدينين فلا يصدقون إلا بما قام الدليل على صدقه ، فلا يغترون بخداع ونفاق ودجل ومداجاة . ثم لو سلم ما ادعيته فلم نسبت نفسك الى المتدينين والتجأت اليهم وتضرعت اليهم وهم على هذه الحالة التى ادعيتها ، فاذن أنت منافق مذبذب بمقتضى تقريرك الساقط فيكون حجة عليك بكل حال

ثم قال « ومن أجل هذا الضعف فى المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الانسانية وعلى أفضل صفات البشر ، فانك لن تلقى فى حياتك ما عشت منظرا أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية فى سائر العلوم التى قاومت الجهل والسخف عند غيرنا وطاردتهما يحشدون بكل شكل يزرى بالانسان تحت ركاب رجل هو أقل منهم فى كل شىء مما يتصل بالقيم الانسانية ليسوقهم بدون وعى ولا معارضة منهم ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه ، ثم ليملى عليهم ما يشاء وما تشاء

له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل الى المجد الذى حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التى يفرضها لشخصه الكريم باعتباره الانسان المقدس الطاهر المعصوم الذى يجب أن يطاع طاعة عمياء ، والذى يجب أن لا يخطر على البال بالنسبة لذاته الكريمة توجيه عبارة من عبارات الاستفهام دع الاعتراض وما هو أشد منه ، فترتفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعى الخير وبين اتباعه الخيرين كلمات « لمَ » ، « كيف » ، « من اين » ، « الى اين » . وليس لهذا الصنم الأرضى الذى ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمتم بها ويطلقها على ضحاياه وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور »

فيقال : وهذا كالذى قبله طنين ذباب ، بل هو أشبه شىء بنبح الكلاب . وهذا الذى تدعيه هو كل ما تتمنى أن تستحصل عليه ، فما طلبت من الناس التقديم فى الأمر وأن تطلب منك الرغبة وحدك ولا يذكر فى الذكاء غيرك وأن الناس لا يبصرون طريق العقل ولا ينجون الا باتباع أفكارك الا من أجل الحصول على ذلك وهيهات

وأتعب خلق الله من زاد همه ... وقصر عما تشتهى النفس وجده

لقد عرف العقلاء أن اغلالك هذه هى حل اللغز الذى أشرت اليه فى قولك :

ولولا رجائى والرجاء مخادعى ... لعذت بشر لا يضيق به صدر

فلقد بحت بهذا الشر الذى أكل صدرك لما لم يحصل لك ما ترجوه وتتمناه كما مهدت له كتبك السابقة والله لا تخفى عليه خافية . وكان كثير من المطلعين على أحوالك العارفين باقوالك يتوقعون خروج هذا الشر الذى أشرت اليه وقد انكشف ما وراء الستار وظهر الشر المكنون ظهور النار ، وفى الحديث

« ما أسر عبد سريرة إلا أظهر الله عليه رداءها علانية » ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

ثم أى فائدة فى هذا الهراء الذى ادعيته هنا ، فمن هو هذا الانسان ومن هم أتباعه وما هى دعايته وكلماته التى ذكرت أنها جوفاء فوارغ ، وحيث انك لم تذكر شيئا من ذلك فلا حاجة الى تطويل الجواب عنه بل نكتفى بما أشرنا اليه فى رده وبالمطالبة ببيان هذه الامور المبهمة ، وكل عاقل يعرف أن أكثر ما يوجد هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها فى الملاحدة وأشباههم من الزنادقة الاتحادية ونحوهم ، فان هؤلاء إن كانوا ملاحدة فهم يسوقون عمالهم وأكثر أتباعهم سوقا عنيفا الى رغباتهم وتنفيذ أغراضهم ، وان كانوا زنادقة فكثير منهم إنما يفعل ذلك لأنه يرى أن طاعة متبوعه أمر محتوم عليه كما يوجد ذلك فى أصناف الاتحادية بل وكثير من الشعوب الملحدة وهذا الملحد نفسه إنما يدعو الى تقليد هؤلاء وأتباعهم واقتفاء آثارهم ، فما ذكره فهو حجة عليه

⋆ ⋆ ⋆

ثم قال « وليست روح التسليم العقلى عند المتدينين بجديدة ، بل هى ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا ، حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون فى ذلك مجالا لا بأس به للسخرية ، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية [1] ! وقد طار فى كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهمكين الساخرين ـ وهو ابو العلاء ، وقد قسا كثيرا ـ :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

⋆ ⋆ ⋆

(١) لكن نسبت نفسك اليهم اضطرارا على رغم أنفك ، فكيف تنعتهم وتنسى أنك منهم . مسكين والله مسكين

مالى أرى كل الأنام لجهلهم   بالدين أشباه النعام أو النعم
ولو قال ذئب غضا بعثت بملة   من عند ربى قال بعضهم نعم »

فيقال لهذا الزنديق : لو زدت على استشهادك بقول المعرى هذا أقوال المنافقين الذين كانوا يسخرون من الذين آمنوا من الصحابة وأفعال الكافرين أعداء الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم لكان أكمل من اقتصارك على قول المعرى لانه متناقض ومنتسب الى المتدينين ومدحه لهم أكثر من ذمه ، ومن استدل بقول أبى العلاء هذا على نقص عقول المتدينين فالأولى له أن يعالج عقله ، فان استشهاده برهان على فساد عقله ، ويجب عليه أيضا أن يحرم اللحم ولا يأكله ولا يذبح حيوانا لأن عقل المعرى الذى جعله برهانا له هو العقل الذى به حرم ذبح الحيوان وأكله ، بل اتباعه على هذا أولى لانه لم يتناقض فى هذا الرأى بخلاف ذلك ، فالله تعالى ورسوله والمؤمنون هم أعداء الملاحدة والمنافقين منذ وجدوا وكيف وجدوا ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ـ الى قوله ـ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ﴾ وقال تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون وتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ وقال تعالى ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ الى غير ذلك من الآيات . وهكذا كان أتباع الرسل مع أعدائهم تارة يسخرون منهم وتارة ينسبونهم الى ضعف العقل والى عدم الرأى ، فانهم لما عميت بصائرهم فلم يفهموا الدين ولم يعرفوا حقيقته ولم يدخل نوره قلوبهم ظنوا أن أهله ليسوا على شىء وأنه ليس بشىء كبير معتبر

لان همتهم صارت مصروفة الى الأسباب الطبيعية المشاهدة فاعتمدوها وتعلقوا عليها وكفروا بما وراءها وحكموا على من خالفهم بضعف العقل مـــع أنهم يعبدون أوثانا وأصناما وكفارا منافقين من البشر وينقادون لهم انقيادا أعمى فانهم استكبروا عن عبـادة الله وطاعته فابتلوا بعبادة الخبثاء وطاعتهم وذلهم تحت أقدامهم

ويقال أيضا لهذا الملحد : اذا كانت هذه حالة المتدينين على ما وصف أبو العلاء المعرى فلِـمَ انتسبتَ اليهم وخادعت وراوغت وتنصلت بما ادعيته فيهم (عار عليك إذا فعلت عظيم) وممـــا يعزى الى المعرى هذا أنه لما مرض أتى بفروج [١] فى مرضه فقيل له ان شفاءك فى أكل هـذا ، فلمسه بيده فاذا هو ينتفض ويرتعد ، فقال « استضعفوك فوصفوك ، فهلا وصفوا شبل الأسد » فان صح هذا فيقال لأبى العلاء أما لو أن هذا الفروج لا يعتدى على غيره ولا يستضعف شيئا فربما يكون لك فى ذلك شبهة ، ولـكن نلزمك على وجه الجدل مع قطع النظر عن الإباحة الشرعية بأن هذا الفروج قد استضعف حيوانات أخرى كثيرة دونه من خشاش الأرض واعتدى عليها وقتل نفوسا كثيرة منها شر قتلة على أشنع الوجوه ، بل ربما يأكل منها أشياء وهى حية ، فهلا عمد هذا الفروج الى ابن الصقر أو الشاهين فأكله أو اكتفى بالحب ونحوه دون القتل ، فنحن نعامله بما عامل به غيره ، بل ربمـا تكون معاملتنا له فى القتل أحسن من معاملته هو لغيره . ولا يصح أن يقال إنه لا يعلم بالاضرار التى تصيب غيره ، بل يعلم ذلك ، فانه يميز بين النفع والضر ، ولهـــذا فانه يفعل بجنسه إذا أراد طرده كما يفعل بهذه الحشرات ، لانه يعلم أن ذلك يضره ، ومن تسلط سلط عليه . فاذا كان هذا مقدار عقل أبى العلاء فكيف يجعل رأيه حجة على الدين

---

(١) الفروج هو الديك الصغير

وأهله . فان قيل هذا التعليل ينتقض فى الحيوانات التى لا تقتل شيئا كبهيمة الأنعام ، قلنا : ليس تعليلنا هذا هو كل وجوه جواز القتل ، بل انه وجه واحد من وجوه كثيرة منها ما ذكرناه ، ومنها أن هذه الحيوانات المباحة ليس فيها شىء لا يكون فيه اعتداء على آخر ، وهى وإن كان فيها أنواع لا تقتل من أجل الأكل لكنها قد يقتل بعضها بعضا كما فى النطيحة ، وقد يضرب بعضها بعضا ويطرد بعضها بعضا كما هو معروف مشاهد ، ومنها أن ما يحصل لها من اللذة والراحة والطمأنينة ورغد العيش بسبب خدمة الانسان لها ومدافعته ومحاماته عنها بل ربما يقتل دونها أو يهلك فى سبيل منفعتها وقيامه بشئونها كلها وما يلزم لها — أضعاف أضعاف ما يحصل لها من ألم القتل والموت الذى لا بد لها منه ولو لم تذبح ، بل ربما كان قتلها على هذا الوجه الشرعى أسهل علينا ، فان وجودها متوقف على ثلاث حالات : إما توجد وهى على هذا الضعف ويحرم قتلها والانتفاع بها على هذا الوجه ، وهذا يوجب تركها وإهمالها ، فان الانسان مجبول على الشح فلن يؤدى لها نفعا مجانا بدون معاوضة تكون أكثر مما أداه فاذا كان لا يرجو منها أكثر مما يؤديه لها تركها فلا يمكن بقاء نوعها وهى على هذا الضعف وعلى هذه الحالة ، لأنها تكون عرضة لشهوات الحيوانات العادية الشريرة ، اللهم إلا أن يكون بقاؤها نادرا . والحالة الثانية أن يكون حراما قتلها لكن يكون فيها قوة تمتنع بها من غيرها من أنواع السباع مطلقا وحينئذ إما أن تكون كالسباع أو كالظباء ، فان كانت كالسباع صارت زيادة نوع من أنواع السباع (١) ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر على كلا التقديرين مع فوات النعمة الممنون بها المرتبة على وجودها . والحالة الثالثة أن توجد على هذه

---

(١) وان كانت كالظباء كانت زيادة نوع ظباء فقط ولم يحصل وجودها الذى لا بد منه لما فيه من الحكم على هذا الوجه .

الصفة التى هى عليها الآن ، وهذه الحالة هى أكملها وأحسنها ، فكانت موجودة على أكمل الحالات وأحسنها بالنسبة اليها والى الانسان . فكان ما ينالها من ألم الذبح — مع أنه لا بد لها من الموت — سببا لما ينالها من الحياة على هذه الصورة ، لأن المقصود الأكبر هو الأكل منها والمنافع الأخرى تابعة لها وزيادة رحمة لها . فاذا عرضت منفعة أهم من الذبح قدمت غالبا ، وكان ما تناله من الانتفاع فى مقابل ما ينال منها من تلك المنفعة ، هذا مع ملاحظة أنه لا يجوز ذبحها إلا على وجه خاص فى أحوال خاصة ، فلا يجوز ذبحها إلا على الوجه الشرعى للامور المباحة والمشروعة لا اللعب والعبث ولا للاعانة على المعاصى والكفر ووسائل ذلك فان هذا كله محرم ولا يجوز بحال

ومن العجب أن هذا الملحد لم يجد ما يستدل به على نقص عقول المتدينين إلا بقول المعرى ، وقد نسى هذا الملحد أن الله سبحانه هو الذى حكم على الملاحدة ومن شابههم بأنهم هم الذين لا يعقلون ، بل حكم عليهم بأنهم أضل من الأنعام كما قال تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الناصة عل كل من خالف الدين أنه شر من البهائم العجم كما قال تعالى فيهم ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ فأين من استدل بقول الله تعالى ممن لم يجد ما يستدل به إلا قول المعرى ، مع أنه متناقض فى ذلك ، ولكن المضطر يأكل الجيف ، لأنه لا يجد غيرها وهى خبيثة لا تلائم إلا النفوس الخبيثة المنحطة

* * *

ثم قال ، ومن الواجب أن تعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين . والذى يظهر لنا كثيرا أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط وتعليل ثابت ، بل يرون

أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحـــداث محكوم بقوة مجنونـة أو هى كالمجنونة فى أفعالها وتصرفاتها ، فلذا فـلا قوانين ولا ضوابط للمعجـــزات والخوارق ، فـكل شىء جائز وكل شىء مستحيل ، فيصابون بالفساد الفـكرى العام ، واذا اختلفت الوسيلة فـكذلك النتيجة »

فيقال : اذا كنت ترى أن مستند هذا الضعف الذى تدعيـه هو انـكار الترابط بين أحداث هذا الوجود فقد بينا بالبراهين الصحيحة أنهم لا ينـكرون الترابط المعقول بينها كما أوضحه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ونقلاه عن أئمة المسلمين ، لـكن هم ينكرون ما تدعيه من نفى المشيئة والارادة العليا وأنها غير مسيطرة على هذا العالم ، والـكفر بكونها تغير فيه شيئا . نعم هم ينـكرون هذا ، فاذا كان هذا مستندك فقد زال الأساس ، فلا بد من سقوط ما بنى عليه فبطلت الوسيلة فـكذلك النتيجة ، لأن جميع المتدينين ليس فيهم من يرى أن هذا العالم محـكوم بهذه القوة التى ذكرها ، بل أدنى عامى يكفر من زعم ذلك فـكيف يكون هذا رأيهم واعتقادهم ، ولـكن نحن إذا بحثنا ودققنـا عن أسباب هذا الانهيار الخلقى وهذه البلادة المنـكرة وهذه الغباوة الظـــاهرة فى هؤلاء الملاحدة والزنادقة بحيث أن أكبر مفـكر منهم لا يمكن بحال أن يكون بينه وبين الحيوان الأعجم أدنى فرق إلا بالصورة الظاهرة والنطق ، بل هو أضل فى الحقيقة كما قال تعالى فيهم ﴿أولئك كالانعام بل هم أضل﴾ أليس من البداهة التى لا ريب فيها أن الحيوان الاعجم غاية ما يسعى اليه الحصول على المتاع الدنيوى فى إشباع نهمته وشهوته ، وكذلك الملحد . وقد بينا فيما مضى عدم وجود أدنى فرق بين الملحد أو الزنديق والطفل أو الحيوان ، وإذا وجد فى أحد منهم نوع سيطرة فـكذلك يوجد فى بعض البهائم سيطرة على جنسهـا وهذا بخلاف المتدينين فانهم امتازوا بانسانيتهم بالدين الذى به يعرف العدل والاحسان والرحمة والعلم والحـكمة والـكرامة وغير ذلك من الخصال الحميدة

نحن لو بحثنا عن أسباب هذا الفساد الفكرى الذى قذف بالملاحدة والزنادقة فى هذه الهاوية السحيقة لوجدنا أن السبب الأول فى ذلك أنهم اعتقدوا أن هذا العالم محكوم بالفوضى ، فقد تقدم تصريح هذا الملحد أن هذا العالم محكوم بنواميس الطبيعة ، وبين أن الحاكم له هو الانسان الذى يستخدم النواميس . وهذا صريح واضح فى أنه يرى أنه محكوم بالفوضى لأن الطبيعة ليست شيئا عاقلا عالما حكيما رحيما ، وإنما هى مصادفات التفاعل فى أفراد أسبابها ، وقد علم أن الانسان متفاوت فى العلم والمعرفة والقوة والضعف تفاوتا لا يمكن ضبطه ، فاذا كان هو المستخدم لها وهى تتفاعل باستخدام نفسها وباستخدام بعضها بعضا فلا شك أن النتيجة ستكون فى غاية الاضطراب والفساد لأنها نتيجة وسائل مختلفة متباينة متضادة غير منتظمة ، ولا فرق بين هذا الحكم وبين حكم المجنون ، فان المجنون إنما يعمل بمقتضى طبعه ، وبمقتضى استخدام من يستخدمه . وكذلك نواميس الطبيعة إنما تجرى وتحكم بمقتضى طبعها وبمقتضى استخدام من يستخدمها ، فالملاحدة بلا ريب يرون أن هذا العالم محكوم بقوة كالمجنونة ، ولهذا فانهم لما كانوا كافرين بالله وبنظامه وعدله وإحسانه وحكمته فلم تسع قلوبهم معرفة ذلك وظنوا به ظن السوء حيث أنهم رأوا حكمه تعالى مخالفا لآرائهم الخبيثة فكفروا به وبنظامه ووقعوا بالايمان بالطبيعة ونواميسها على الوجه الذى ذكرنا ، فكانوا أضل من الأنعام . ولهذا لما انكشف فى بعض الامم مضرة الالحاد وعظم تأثيره فى الشباب وأنه مرض قاتل تراجعت عنه كما فعلت تركيا وغيرها ، بالرغم من أن بعض هذه لم تعرف الدين الصحيح ، وإلا فلو عرفته حقيقة المعرفة لكانت شناعة الالحاد لديها أعظم لمعرفة حسن ضده ، والدين الصحيح هو ما كان عليه السلف الصالح فى الأخلاق الدينية ، تلك الأخلاق العالية السهلة القوية ، وقد تقدم الكلام فى الأسباب وبيان الترابط الذى بينها فلا حاجة الى إعادته

٭ ٭ ٭

ثم قال « وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا ، كما علل بعض علماء النفس والاجتماع القسوة التى يتصف بها المتدينون غالبـــا اذا قدروا ، وأخذهم خصومهم أخذا خاليا من الشفقة والانسانية لكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصـاة والكافرين وكثرة قراءتهم النصوص الـتى تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات ، فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيرا حتى أصبحوا وحوشا تنطق باسم الدين وتفترس على حسابه ، ومن ثم فاننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة الى الدين الناطقة باسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح فى يدها (١) لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهـاب يستنكره العـالم اليوم ، وهـذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأى والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان ، ولن تجد أقسى قلبا ولا أفتك يدا من إنسان يثب على عنقك ومالك يقتلك ويسلبك معتقدا أنه يتقرب الى الله بذلك ويجاهد فى سبيله وينفذ أوامره وشرائعه ، والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين : لعله لا ينطلق »

فيقال : الله أكبر ، ياما تضمن هذا الكلام من الخبث والضلال والتحريض عـــلى أهل الدين والدعاية الى بقاء المستعمرين فى أمكنتهم والتشديد عليهم وإضعافهم والضغط عليهم بكل شدة ، وان الانسان ليحار عند نقل هذه الجمل الملعونة ويتعجب كيـف صبر المتدينون من المسلمين والمسيحيين وغـيرهم من المنتسبين الى الاديان المؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر على كثرتهم وعلى ما فيهم من شهامة وشجاعة وانتصار للحق ـ عن رجمه ولعنه فى كل حال وزمان ،

---

(١) إذن فالمتدينون لم يلوا الحكم يوما من الأيام ، وانما الحكم فى يد الملاحدة ، وقد مر لك أنه عد الهند والصين ودول الشرق كلها من المتدينين ، فانظر الى هـذه المضحكات والمهازل المتسلسلة

وكيف بقى هذا الزنديق فى بلد تدعى أنها تدين بدين الاسلام . وأيم الله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ . ولقد جاء الزمن الذى وصف النبى ﷺ المسلمين فيه بأنهم « غثاء كغثاء السيل » أى على كثرتهم ليس فيهم حياة إلا ضعيفة

نحن لا نشك كما لا يشك مسلم عارف أن هذا الزنديق لو وجه هذا الخطاب الى شخص واحد من المتدينين أو الى أهل مذهب أو شيعة لكان من المستيقن أن يحاكم على ذلك ولكن لما هجم على الأمم الاسلامية كلها بل على كل الديانات السماوية وشتمها وارتكب أكبر ذنب صار ذنبه أخف ، وهذا من أعجب العجب ، انه لما عظم ذنبه صغر حكمه فى أعين البعض ، وإلا فحقيقة هذا الكلام وروحه هو الطعن فى أديان الله تعالى والدائن بها ، وهو دعاية صريحة فى تحريض المستعمرين على الضغن على هذه الامم المتدينة وإضعافهم والمراقبة الشديدة عليهم ، والا فهو يعلم حقيقة العلم أنه قد قرر فيما مضى أن الانسان مطبوع على الشر والخبث والظلم وأن المجرد من كل دين يبقى على الظلم والعدوان المطلق ، وهذا صريح فى أن الملاحدة هم أولى بالقسوة وأبعد عن العدل والرحمة ، لأنهم لم يمارسوا نصوص الحث على الرحمة والإحسان والعدل والنهى الأكيد عن تحدى هذه الأمور فى مواضعها ، فانه من المعلوم أن جميع الأمم المتوحشة بل الآكلين لحوم البشر هم من أولئك الموصوفين بالالحاد والبعد عن الأديان ، ولهذا كان معروفا لدى الخاص والعام أن أبعد الناس عن الدين أخبثهم خلقا وأنهم لا يرقبون فى إنسان إلا ولا ذمة لانهم لا يرجون ولا يخافون عقوبة ولا إثابة على ذلك ، بخلاف المتدينين فانهم قد علموا أن الله يحب المحسنين ويأمر بالعدل والاحسان وأنه من لا يرحم لا يرحم .

وانظر كيف أثر الدين فى العرب ذلك التأثير العظيم لما دخلوا فيه بعد أن كانوا على تلك الحالة الهمجية الوحشية ، فصار يضرب باحسانهم ورحمتهم المثل ، كما قرر غير واحد من العارفين بأحوالهم أنه لم يوجد فاتح أرحم من العرب ،

ويكفيك حديث بريدة أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أمر جيشا أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا وقال : اغزوا باسم الله الى آخر الحديث . وقد اشتمل على وصايا نافعة فى العدل والاحسان ، فان الدين كله دائر على العدل وعلى الاحسان بخلاف الإلحاد فانه دائر على الظلم والاستعباد ، وقد دلت جميع الحوادث القديمة والاخيرة على الفرق الواضح بين المتدينين والملاحدة ، فأين سيرة المسلمين فى القرون المفضلة من سيرة عدوهم ، وأين سيرتهم فى القرون الوسطى من سيرة التتار والباطنية ونحوهم ، وكذلك ما جرى فى هذه الأزمان الأخيرة من الفظائع والشراسة والفوضى والهمجية التى ينكرها الدين والعقل ، فليوازن العاقل بين ما فعلته أمم الملاحدة حين ظفروا بغيرهم كايطاليا وأشباهها بغيرها فى شمال افريقية وبين فتوحات المسلمين ليعرف الفروق العظيمة بين المسلمين وغيرهم فى الرفق والإحسان والرحمة ، وهذا أمر واضح يعرفه كل من له مسكة من عقل ، وأما من طبع الله على قلبه فلن ينفع فيه شيء ، إنما يستجيب الذى يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون

* * *

ولما فرغ هذا الملحد من شتم الاديان وأهلها وأفرغ جميع ما فى صدره من غل وخبث فى بغضها ومقتها ومقت أهلها وظن أنه قد انكشف أمره لف ودار ولجأ الى الخداع والنفاق على عادته فى الخداع والمنافقة والمكر السيء لأنه علم أن هناك قلوبا مقفلة يروج عليها هذا الهذيان ، وهذه هى طريقة سلفه من المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم - أى بالتعلق على الدين - جنة ، فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، فقال :

« ولكن ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الدين نفسه مفسد للبشر ، حائل بينهم وبين الكمال ، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الانسانية المبدعة »

فيقال : نعم على صريح كلامك هو هذا معناه ، فهل أبين من تصريحك بهذا

فى كل أغلالك ، ولو لم يكن من ذلك إلا دعواك بان المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم [1] وديارهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، فهل هناك بيان اظهر من هذا ، ومن يخفى عليه هذا فهو أجهل من حمار أهله

* * *

ثم قال « كلا ، ليس هذا هو المراد ، ولا هو الصحيح ، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوبا بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل ، وانه لكذلك اذا أخذ وفهم على وجهه »

فيقال : لكن لم تبين وجهه النافع المفيد ، بل صرّحت بان جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فأين هذا الدين الذى أخطأه جميع أجناس المتدينين وأنبياؤهم ؟ كل هذا خداع ونفاق ومراوغة لا تنطلى إلا على أشباه الأنعام ، وإلا فكل من له عقل ودين يفهم ما فهمه السيد قطب من كلامك فى قوله : هذا رجل يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشىء (دون كيشوت) جديد يطعن فى الهواء ويحارب أفكارا لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص وينكر أن يكون قد قرأ شيئا من هذه الافكار ، الى قوله : هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، واذن فلا حرية فكر ، ولا خطر على حرية

---

(١) ليس هناك عبارة أشمل وأصرح من دعواه هذه ، فان هذا يشمل جميع أجناس المتدينين

الفكر ، انما هى دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين وبخاصة الاسلام ، وضد الروح الخلقية فى النفس والضمير إلخ .

ويقال أيضا : اذا كان الحال كما تذكر فى الدين فلم لم تقرره وتبينه وتدعو اليه وتنهى غاية النهى عن ضده والبعد عنه ، وتجعل كل موضوع كتابك معرفته والبحث عنه وعن أهله الآخذين به وبيانهم والثناء عليهم ، وما رأيناك فعلت شيئا من هذا ، بل كل كتابك فى عكس هـذا الموضوع ، فانك لم تثن عليه ولم تذكر أن أحدا من الناس على هذا الدين ولم تحث على خلق دينى قط ، بل غاية ما ادعيت فى كتابك هو فهم الدين الذى هو توفيق لروح الدين والعمل ، فاذا كان فهمك للدين هو ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هذه المخازى التى منها مسبة وزارة التموين المصرية والثناء على تشرشل ذلك الثناء الضخم وأمثـال ذلك ، فهذا هو اللائق بعقلك المعكوس وفؤادك الخبيث

٭ ٭ ٭

ثم قال « ولكن ههنا شيئان : أحدهما أنه اذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضارا مفسدا لأخلاق الانسان وكل معانيه الطيبه أو التى يجب أن تكون طيبة كما سبق البيان »

فيقال : أخذ الدين على غير وجهه يشمل أمورا كثيرة كان من الواجب عليك أن تبينها لتجتنب ، أو تبين وجهه الصحيح ليؤخذ به ويترك ما عداه ، وأنت لم تفعل إلا الحث على رفضه وأخذ مضاده ، بل كل كلامك فى قلبه والأخذ به مقلوبا ، فان عبادة الطبيعة وأسبابها ضد عبادة الله وحده ، والاعتماد على الأسباب ضد الاعتماد على الله ، والتوجه اليها وتعليق الآمال عليها ضد الوثوق بالله والتوكل عليه وتعليق الامل عليه ، بل لا بد من الاعتماد عليه والأخذ بذلك كما أمر كما تقدم الحديث : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن . الحديث

ثم قال « وثانيهما أن البشر عاجزون - فيما يبدو لنا حتى اليوم - عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد ، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تدينا باطلا كما أثبت هذا جملة تاريخ الانسان ، ولا بد من استثناء فترات وومضات قليلة خافتة » .

فيقال : نعم لا بد من أن تستثنى ذلك ليكون هذا عذرا لك ، وفاتك أن هذا لا ينفعك إلا ببيان الفترات والومضات ما هى ، ومن أهلها ، بايضاح وتفصيل ، وكيف يكون البشر عاجزين حتى اليوم غير هـذه الفترات ، ولم لم يكن أهلها أيضا عاجزين ، ومن أين اطلعت عليهم وعرفتهم ، وما كيفية عجز أولئك وفهم هؤلاء ، وليس مثل هذه الدعوى العريضة بالأمر الهين الذى يكفى فيه الخداع بالأمور الغامضة المموهة ، فان دعوى كون البشر عاجزين عن فهم الدين كفر صريح لا يشك فيه إلا كافر أو زنديق ، فان هـذا يتضمن أن الله سبحانه لم يقم على البشر حجة (١) ولا أنزل ما فيه هدى وشفاء ونور وبصائر ، وأنه عليه السلام ما تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنهـا بعده إلا هالك ، وقال تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر ذلك مرارا ايضاحا لـكون الدين ميسر لمن أراد الاهتداء به ، وليس فى الدنيا أظهر ولا أيسر من فهم الدين على وجهه لمن طلب ذلك وأراده ، وأما من أعرض عنه واستكبر عن الاهتداء به فانه لن يبصر ما فيه من الهداية والبصائر والرحمة .

---

(١) ان الدعوى بكون البشر عاجزين عن فهم الدين تصريح بأن الله لم يقم عليهم حجته لأنه نسب المصيبة الى الدين لا إلى البشر ، فان هذا يقتضى أنهم لا يمكنهم أن يفهموه لعجزهم ، ومعلوم أن العاجز عن الشىء لا يكلف به ، بل هو تكليف بما لا يطاق ، فهو لم يدع أنه واضح ولـكن الناس لا يريدونه أو أن البشرية قد فسد أكثرها فلا يقبلونه ، بل نسب القصور الى الدين لا الى البشر ، وهذا يصادم حقيقة قيام حجة الله على الناس

ولو أن إنسانا أغمض عينيه عن نور الشمس لم يرها ولم ينتفع بالاستضاءة بها فى طريقه ولا غيره ، ومن أين لهذا الملحد أن يحكم على البشر أنهم عاجزون عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه وهو قد ادعى فى كتبه السابقة كلها أن السلف الصالح وأتباعهم مثل ابن تيمية وابن القيم وأمثالهم كانوا على الدين الصحيح ، بل ادعى فى هذا الكتاب نفسه ص ١٥ أن الناس غير عاجزين عنه حيث قال فيما تقدم « إن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية » الى قوله « وإننا إنما عجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه ، لا لعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية » انتهى ، وقد سبق هذا النقل وسبق الكلام عليه ، فانظر كيف تمرغ هـذا الملحد كما تتمرغ الدابة ظهرا لبطن ، هناك يدعى أن إيماننا بالله وفضائلنا الدينية غير عاجزة وليس فى ذلك عجز ، وهنا يقول إن البشر حتى اليوم عاجزون عن فهم الدين وأخذه وتصوره على وجهه ، وسيأتى انقلابه أيضا مدعيا أن ديننا هـذا محرف ، وهكذا هو دائما تراه مستصحبا هـذه المراوغات الثعلبية وقصده من ذلك أنه ليس ثم دين بالكلية ، لأن الدين الذى قد ثبت عجز البشر عنه وجوده كعدمه ، ولا ينفع استثناء الفترات التى لم تبين ويبين عملها وما هى عليه ، لأن الاستثناء المجهول لا فائدة فيه ، وجل الله أن ينزل دينا لا يعرف أو لا يعرفه إلا النادر ، فان النادر لا حكم له ، وقال تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فأمر بتدبر القرآن وبين أن من لم يتدبره فهو مقفل على قلبه ، ففيه بيان أنه مفهوم ميسر فهمه والأخذ به وتصوره ، فان الغامض المعقد لا يستفاد منه ، فأخبرنا أن طريق الاستفادة منه هو تدبره وتذكره ، وأن من لم يفعل ذلك فلا يمكن أن يفهمه ، وذلك لا لأجل غموضه بل لأجل مافى قلب المعرض عنه من الطبع والاقفال ، فالفساد العارض هو من ناحية الانسان ، والا فهو نور وبصائر وحق على حقيقته ، وكيف ينزل الله علينا دينا ويجعله ختام الأديان مع علمه أن الناس عاجزون

عن فهمه ، فهو إذن لم يقم عليهم الحجة ، وقد قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ومجرد كون بعض الأمم والشعوب والأفراد لم تعرفه لا يدل على خفائه لأن منشأ ذلك من الفساد العارض فى من لم يفهمه أو يعرفه لأنه إما معرض أو لم يجتهد فى التقصى والبحث عن ما به يعرفه ويفهمه من مظانه ، وإلا فمن طلب الحق بجد واجتهاد وصدق وإخلاص وجده بلا شك ، ولذلك لما اجتهد سلمان الفارسى فى طلب الحق وجده وقصته فى ذلك مشهورة ، وها نحن نرى كثيرا من الناس يصبر على المشاق العظيمة ويخاطر بنفسه فى أموره التى يحرص عليها فى مصالح نفسه أو أمته أو وطنه ، وأما دينه فانه أعجز الناس وأكسلهم فى معرفته وفهمه ، ومع ذلك يحمل عهدته على الدين ، والله سبحانه قد أوضح السبيل وأقام الحجة على خلقه بما أنزله من النور والكتاب المبين ، وأيد ذلك فى كل زمان بعلماء يبينون للناس وجه الحق وإزالة الباطل بيانا واضحا جليا ، كما قال الامام أحمد فى خطبته المشهورة « الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » انتهى ويروى نحو هذه الخطبة عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كما ذكر ذلك ابن وضاح . وهذه كتب السلف الصالح كلها واضحة الدلالة فى بيان الهدى وفهم الدين على وجهه ، وهذه كتب الإمام شيخ الاسلام ابن تيمية كالذهب

المصفى ، وهى مشتملة على بيان الدين بيانا واضحـــا كالشمس بحيث لا يبقى للعاقل المنصف الذى قصده الحق أدنى شبهة فى أصل هذا الدين ، فان كتب هذا الامام فتح كبير لهذه الأمة الاسلامية ، ومن أعظم النعم التى رحم الله بها هذه الأمة ولا سيما فى أصول الدين ، فهذه عقيدته (الواسطيـة) المختصرة والعقيدة (الحموية) كافيتان للمبتدىء . ولقـد كان من أعظم المصـائب التى حلت بأهل الاسلام بدعة الجهمية ، وأصلها كان مستمدا من الملحدين المنكرين للبارىء فلهذا توسل أهلها بانكار الصفات ، وإنكار كونه تعالى مباينا للمخلوقات ليس فوقها تذرعا الى نفيه ، فان وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه مما لا تقبله فطرة ولا تأتى به شريعة ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه ، بل هو سبحانه فوق العرش وما تحته فقير اليه ، وهو غنى عن العرش وعما تحته ، ولا يلزم من كونه فوقه احتياجه اليه ، فان استواءه عليه استواء يليق به ليس كاستواء المخلوقـين ، وكما أنه خلق الخلق كلهم وأمرهم ونهـاهم وهو غـير محتاج اليهم بل هو غنى عن ذلك كله فـكذلك علوه المختص به فوق عرشه كما أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وكل ما وصف الله به نفسه فهو على ظاهره على الوجه اللائق به تعالى ، ولا يسوغ تحريفه ذلك التحريف الذى يسمى تأويلا ، فلو فتح هذا الباب لتطرق التأويل الى نصوص المعاد ونصوص العبادات كلها ، وهذا عين إفساد الدين ، فان الجرأة على تأويل صفات الله تعالى أعظم من الجرأة على تأويل العبادات ، وما أفسد الملة غير هـذه التـأويلات الباطلة التى صنعها الملحدون باسم التنزيه حـتى نزهوا الله بزعمهم عن كل معـانى الربوبية ، فعمدوا إلى صفات الأفعال فسموها حوادث وقالوا منزه عن الحوادث ، وعمدوا إلى الحـكمة والغايات المطلوبة فسموها أغراضا فقالوا منزه عن الأغراض ، وعمدوا إلى صفاته تعالى كاليد والوجـه ونحو ذلك فسموها أبعاضا وقالوا منزه عن الأبعاض ، بل عمدوا إلى كل ما لم يوافق عقولهم فاخترعوا له عبارة قبيحة وتوسلوا بنفيها لنفى تلك الصفة ، فصار حقيقة قولهم

أنه منزه عن كل معانى الربوبية غير صفات قليلة مضطربون فيها اضطرابا لا ينضبط . والمقصود أن شيخ الاسلام عمد الى هذه الأصول فهدمها كلها كما عمد الى البدع الأخرى المسماة توسلا وهى عبادة القبور ودعاء أهلها والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات وانزال الفاقات بأعتاب أهلها ، فلقد انتصب هذا الامام للرد على هذه الدسائس الالحادية وفروعها ردا أزاح عن الملة البيضاء كل حجاب وقتام ، حتى أسفرت وظهرت واضحة كالشمس فى نحر الظهيرة ، فكان إماما لأهل التوحيد ، ونقمة وعدوا لكل زنديق عنيد ، فانه رضى الله عنه صبر فى ذات الله وجاهد فى سبيله بيده ولسانه وقلمه جهادا لم يسبق له نظير بعد القرون المفضلة ، ومن طالع كتابه العجيب الفذ الخالد كتاب (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) وقد يسمى كتاب(العقل والنقل) وهو مطبوع بعضه على هامش كتاب (منهاج السنة) عرف مقدار هذا الإمام وعرف كيف ناضل عن سلامة هذه الشريعة الغراء نضالا خليقا بان يعد أكبر نضال سجل فى الدفاع عن الشريعة الاسلامية بعد أن أحاطت بها مكايد الأعداء من كل جانب ، وقد بين فى هذا الكتاب مقدار هذه الشريعة العظيمة وأنها غير محتاجة الى فلسفة المتفلسفين وتأويلات المشككين الظالمين الضالين ، بل الاسلام دين الفطرة الواضح السهل القوى ، وقد جمع هذا الكتاب العظيم جميع الشبه الواردة على الصفات مما لفقه جهلة المتكلمين ومن حذا حذوهم ممن لا بصيرة له ، وأجاب عن تلك الشبه بما يثلج الصدر بالعقل والنقل ، وسد طرق البدع سدا محكما ، فهو الكتاب الذى جمع فيه بين العقل والنقل ، وبين فيه أن ما جاءت به الرسل هو المطابق للعقول السليمة ، وأنه ليس بين العقل الصريح والنقل الصحيح أدنى مخالفة ، ويكفيك شهادة على عظمة هذا الكتاب ما قاله الامام ابن القيم فيه :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذى   ما فى الوجود له نظـــير ثانى

ومما يؤسف له أن هذا الكنز النفيس المجهول القدر لما طبع لم يطبع كله ، بل ترك منه نحو مجلد ، ومع ذلك طبع على نسخة كثيرة الغلط ، ولعل الله أن ييسر له من أهل الدين والمجد والشهامة من يعيد طبعه فيطبعه كله ، فانه كتاب الاسلام فيما يختص بابطال كلام الدجالين والمبشرين والمشككين من أهل الكلام ونحوهم من الزنادقة الملحدين والجهمية والاتحادية وأمثالهم ، وهكذا كتب هذا الإمام كلها من تتبعها وجدها دينا خالصا [(١)]

وكذلك كانت كتب تلميذه البار العلامة ابن القيم فإن أكثرها مقتبس من نورها . وقد كنت أعرف شخصا جاء من اليمن الى الرياض وقد قرأ فى مذهب الزيدية ، وكان فى الأصول معتزليا لا يثبت العلو ولا الكلام ويؤول أكثر الصفات وكان يجادل فى ذلك ويناظر عليه ، فلما ظفر بمختصر كتاب (الصواعق

---

(١) من أظهر الأكاذيب الهزلية الخرافية ما وقع فى رحلة ابن بطوطة فيما نسبه الى ابن تيمية فى النزول ، وقد رده العلماء ببراهين كثيرة فان كتب ابن تيمية كلها صريحة فى رد هذه الدسيسة . وقد أثبت التاريخ ان الوقت الذى دخل فيه ابن بطوطة دمشق لم يكن ابن تيمية فيها . ويكفيك أن كتاب شرح النزول للشيخ من أوله إلى آخره فى هذه المسألة ، وقد صنفه الشيخ ابن تيمية وقرر النزول بأنه لا كنزول المخلوقين بل من جنس سائر الصفات اللائقة بالله تعالى . وقال فى رسالته التدمرية ص ٢٧ « وكذلك اذا قيل كيف ينزل ربنا الى سماء الدنيا ، قيل له : كيف هو ، فاذا قال لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته » انتهى كلامه بحروفه . وأمثال هذا كثير . وقال فى (منهاج السنة) ص ٢٦٢ ج ١ عن أهل السنة : « وهم متفقون على أن الله ليس كمثله شىء ، وأنه لا يعلم كيف ينزل ولا تمثل صفاته بصفات خلقه » . انتهى كلامه بحروفه

المرسلة على الجهمية والمعطلة) لابن القيم أخذ يطالعه ويتدبره فلم يقرأ نحو نصفه حتى رجع عن مذهبه وقد رأيته مرة وهو يبكى ويقول : لقد كنت قبل أن أطلع على هذا الكتاب على ضلال ويؤسفنى والله أننى أعرف كثيرا من الناس على ما كنت عليه من قبل وأعرف أنهم لو اطلعوا على هذا الكتاب لعرفوا الحق الذى لا شك فيه . هذا كلامه ، وقد صدق ، فان من طالع هذا الكتاب النفيس عرف الحق معرفة كالشمس ، وهذا الكتاب مطبوع وموجود بكثرة وأكثره مستمد من كتاب العقل والنقل الذى تقدم ذكره وهكذا سائر كتب هذين الامامين وأمثالهما كالحافظ الذهبي وابن رجب وشارح الطحاوية وأمثال هؤلاء فى القرون الوسطى ، ثم أظهر الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فقرر هذه الأصول التى ذكرها الشيخ ، وبذل جهده فى تطهير هذه الاراضى الاسلامية من الشرك وعبادة الأوثان ، وكتبه وكتب أتباعه فى ذلك كثيرة شهيرة . وبالجملة فمن طلب الدين الصحيح بنية خالصة وعزيمة صادقة فلا بد أن يوفق حتى يفهمه ويعرفه على وجهه ، وأما من أعرض عنه فلا يمكن أن يفهمه ولا يعرفه أبدا ، فان المنافقين الذين كانوا بين الصحابة والنبي ﷺ حاضر عندهم لم يفقهوه بل كان عليهم عمى وفى آذانهم عنه وقر لأنهم لا يريدونه ولا يستطيعون سماعه لبغضه وكراهيته عندهم كما قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ فهؤلاء الكفرة لم يفقهوا ما يقول لهم هذا الرسول الكريم شعيب عليه السلام مع عظم فصاحته وهو منهم ، وقد كرر عليهم النذر عشرات السنين ، ولكنهم يفقهون ما يقوله رهط شعيب من المحاماة عنه لانهم اعتمدوا على الأسباب المادية ورهبوها بخلاف الأسباب الدينية التى جاءهم بها شعيب فانها ليست عندهم بشىء ، فأعرضوا عنها ولم يستمعوا لها فلم يفقهوها ، وقال تعالى ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ ،

ومعلوم أن من أجاب دعوة الله فلا بد أن يهديه الى صراطه المستقيم ومن اعرض واستكبر وتمرد فان الله لا يهدى القوم الظالمين

وينبغى أن يعلم أن دعواه هذه هى بعينها دعوى كثير من الملاحدة والكفار الذين كذبوا الرسل من أولهم الى آخرهم ، ولا سيما كفرة هذه الازمنة فانهم لم ينكروا إمكان وجود الدين الحق ومن نازع منهم الأنبياء فانما نازع فى صدق رسالة ذلك النبى الذى يدعوهم الى الإيمان برسالته ، كما قال المشركون للنبى ﷺ لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب من محمد بن عبد الله ، فهم لا ينكرون وجود الأديان ، فانهم يقرون برسالة ابراهيم عليه السلام ويعلمون أنه نبى ، ولم يكونوا معذورين فى ذلك ، بل قد قامت عليهم الحجة . وكذلك الذين كفروا بعيسى عليه السلام لم ينكروا الاديان كلها ، وهكذا كل من عاند الرسل ولم يعترف برسالة الرسول لم يقولوا له لا نتبعك ولو كنت رسول الله ، ولا أن ما جئت به حق ولكن لا نتبعه ، بل غالب ما حكى الله عنهم أنهم يكذبونهم فى دعوى الرسالة ويجحدون بآيات الله ، وان كانوا يقرون باطنا ، كفرعون مع عظم كفره وتمرده فانه معترف بالرسالة باطنا كما قال موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ فأقسم موسى عليه السلام بأن فرعون قد علم أن الله مرسله وأنه رسول الله ، ولكن جحد ذلك استكبارا وإبقاء على مكانته ، وراوغ فى تكذيب موسى تاره بدعوى أنه ساحر ، وتارة بانه تواطأ مع السحرة ، وتارة بانه فقير ولم يكن عظيما معه أسورة من ذهب أو معه ملئكة مقترنين ، ولم يعترف بالرسالة ظاهرا ويقول لا نتبعك ، قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فهذا ظاهر فى أنهم كانوا مقرين بوجوده تعالى وبوجود أديانه باطنا جاحدين ذلك ظاهرا ، فبهذا يعرف أن الملاحدة والزنادقة شر منهم

لانهم ملاحدة باطنا وظاهرا ، ثم هم مع كونهم شرا من فرعون فهم أهون أمرا من الزنديق الذى هو ملحد باطنا ويلحد أحيانا ظاهرا وأحيانا يتظاهر بالتدين لقصد قلب الدين وإفساده وإضلال عباد الله والصد عن سبيله ، كل هذه حقائق لا شك فيها لمن تأمل وأنصف ، وأكثر هذه الأمم التى يذكر عنها محاربة الأديان لا يقولون كلهم انه لا يوجد دين صحيح بالمرة ، بل كثير منهم يقولون هذه خرافات وأديان فاسدة أضرت باهلها فيجب إزالتها ، والدين صحيح قد وجد ولكن لا تعرفه وقد عجزنا عن معرفته ، ولا يمكن أن نبقى على دين فاسد كما يدعى هذا الملحد سواء بسواء ، فدعواه هى عين دعواهم ، فلا ينفعه هذا الاعتذار البسيط المموّه ، كما أنه لم ينفع جميع الكفار الذى ادعوه واعتذروا به ، وسيأتى لهذا البحث بقية

ودعواه بأنه لا بد من استثناء ومضات خافتة . يقال : هذا مع كونه خداعا لا يغنى شيئا ، فهو عين ما يدعيه الكفار أيضا ، فانهم لم يقولوا انه لم يوجد ، بل يقول أكثرهم إنه لا يعرف ، فدعوى وجوده غير دعوى معرفته ، فهذا الملحد قد ادعى أنه يوجد فى النادر ، لكن صرح بعدم إمكان معرفته ، لانه صرح بالعجز فلا حاجة إذن الى وجود النادر الذى تستحيل معرفته ، فان الشىء الموجود الذى لا طاقة للبشر بمعرفته وأخذه على وجهه لا حاجة الى وجوده ، بل هو ضرر محض ، فانه تكليف بما لا يطاق ، وكيف يكون برهانا ونورا مبينا ورحمة وبصائر وهدى وبينات والبشر عاجزون عن معرفته وأخذه على وجهه ، فأين الرحمة وأين الهدى وأين البرهان والنور ، قاتلك الله ما أشد جرأتك على الله ودينه وعباده المؤمنين

* * *

ثم قال « ويظهر أن المبادىء الانسانية العظيمة تاتى دائما سابقة لاستعداد الجماهير من البشر ، فاذا دعوا اليها أو فرضت عليهم ـ قبل تمام هذا الاستعداد ـ

أخذوها أخذا سيئا ضارا بهم وبالمبادىء نفسها، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها، ومن هنا تأتى النكبة ، وكلما تقدم نضج الانسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادىء الجميلة التى تسبق استعداده (١) ولا شك أن الناس اليوم يتصورون الدمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام العام للسلام، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات، ولغير ذلك من مسائل الانسان العظمى ، تصورا هو أرقى جدا من تصورهم لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين ، كما أن تصورهم لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائما ، وهم أبدا يقومون بعملية تخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاما أرقى وأفضل (٢) ، والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التى عجز الناس عن تصورها تصورا صحيحا لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت (٣) فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل ، وكان من

---

(١) نسى دعواه أن المجرد من كل دين ينشأ على الظلم والخبث والعدوان المطلق

(٢) قد تبين نتيجة ذلك فى هذه الأمم التى تدعى أنها قد بلغت أقصى الحد فى فرض السلام وبث العدالة والنظام فيما فعلته مع اليهود إزاء العرب، وما فعلته مع أندونوسيا إزاء هولاندة ، فهذا عدلهم وذارقيهم ورحمتهم بالبشرية والانسانية، وبهذا المقياس يعرف ما وصل اليه الغربيون الراشدون عند هذا المغرور من النظام وحب العدالة، وهذا ظاهر لا خفاء به ، ولا نحتاج أن نذكر أنهم حكموا على ليبيا بأنها لم تبلغ رشدها الآن ، وإنما تبلغ رشدها بعد عشر سنين اذا هذبوها هم وارتمت فى أحضانهم ، وهكذا طرابلس انما تبلغ رشدها اذا أعيدت لايطاليا أو غيرها وكفلوها كفالة الوصى الرحيم لليتيم ، واما سائر دول الغرب ولو كانت أصغر شىء فهى رشيدة كاملة بالغة بلا أدنى شك . هذه تصوراتهم وأفهامهم عند (الدر الذى فى لجج البحر)

(٣) اى ان الله استعجل بانزال هذا الدين قبل استعداد اهله لفهمه فانزله على اناس عاجزين عن فهمه وتصوره على وجهه

نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها لأنها فيما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق »

قلت : اذا كان الدين من هذه المبادىء التى جاءت قبل استعداد الناس لقبولها فلا شك إذن أن الله قد أخطأ فى إنزاله فى ذلك الوقت ، بل كان ينبغى أن لا يجىء إلا فى الوقت المناسب لقبول الناس له ، لئلا يكون ضارا . وهذا صريح كلام هذا الزنديق كما ترى ، فهو اعتراض صريح على الله تعالى فى إنزاله هذا الدين فى ذلك الوقت الذى يدعى أن الناس لا يبعدون فيه جدا عن طور الحيوان ، ولهذا صرح بانه جاء ضارا ، لأن الناس عجزوا عن فهمه لعدم استعدادهم لمعرفته ، فلم يكن نورا ولا شفاء ولا هدى ولا بيانا ولا رحمة ، ولم يبعث الله فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، بل أرسل اليهم ما لم يعرفوه فأخذوه أخذا سيئا ، فكان ضارا بهم فلم يخرجهم من الظلمات الى النور ، ولم ينشروا به العدل والحق على وجه البسيطة ، بل ردهم الى الفوضى والوحشية والهمجية ، لأنه جاء ضارا بهم كما يقول ، فأى كفر أصرح من هذا ، فقبح الله من يخفى عليه ما فى كلامه من الكفر الفظيع ، ولهذا ركب على هذا الرأى الخبيث أنه حيث جاء بهذه السرعة صار ضررا ونكبة عليهم ، لأنهم كلفوا بما يعجزون عنه ، فكلفهم الله مالا يطيقونه ، ولهذا وقعوا فى النكبات فى تلك القرون المفضلة ، وهذه هى عادته فى المباهتة والمكابرة ، وقد صرح بدون جمجمة ولا حياء بأن الناس اليوم أحسن تصورا فى هذه المبادىء ممن كانوا قبل ألف سنة ، وأنهم أبدا يقومون بعملية تخلّ مستمر عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى ، وهذا كله بهت ظاهر وهذيان ساقط ، بل التصورات منها مالا يتغير أبدا ، ومنها ما يتحول ، ومنها ما يتطور ، فالأخلاق الفاسدة والكفر والالحاد والفواحش والكذب والنفاق والخيانة والغش والفجور والظلم والاستعباد

والبغى والقتل والسرقة والمكر والعدوان وأمثال ذلك كله يتطور كما فى الحديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » والواقع يشهد لذلك ، ولم تتخل الانسانيه عن شىء من ذلك ، وكلها نتائج لضعف التصور وفساد الفهم وعدم الثبات ، وهى كلها أخلاق ، والأمم كما يقال هى الاخلاق ، فاذا كانت هذه كلها تزيد فما الفائدة العائدة من تطور التصورات الاخرى كالأمور الصناعية ألتى لا تعادل الاضرار الناشئة عنها ، لان النكبات دائما إنما تأتى من حيث الاخلاق ، فاذا فسدت أخلاق أمة حلت بها النكبات ولا بد . ثم لو قدر أنها تعلم قبح الظلم والبغى والعدوان ولم تعمل بذلك فلا فائدة فى علمها ، فالعلم اذا لم يصحبه العمل فقد يكون ضررا على صاحبه . أما كونها قد عرفت شيئا من أمور هذا الكون لم تعرفه الانسانية الاولى فقد بينا السبب فى ذلك وهو تكرار آيات الله وتقلب عبره لقيام الحجة على خلقه كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ومن الحكمة فى ذلك بيان أن هذه العلوم لا يعتمد عليها وعلى أهلها ، فان الأولين الذين كانوا يرون هذه العلوم التى تبين عدم صحتها قد ادعوا أنها حقائق وبراهين قطعية قد دلت عليها العقول ، وأن ما خالفها لا يلتفت اليه ، ولهذا شمخوا بأنوفهم عن العلوم السماوية والاهتداء بها وتمسكوا بتلك العقليات بزعمهم فظهر بطلان تلك النظريات ، وتبين أن تلك المعقولات شبهات انخدع بها أهلها ، وأن الحق كان فى ما جاء به الانبياء ، فانه على ما هو عليه وانه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولهذا كان كل نظرية خالفت القرآن قد تبين بطلانها ولم يأت قط ما يبطل أقل شىء مما أشار اليه القرآن ، فكان ذلك من أظهر المعجزات ومن أبلغ الحجج على كل من خالفه

* * *

وقوله « وكان من نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها » الخ

فيقال : أنت من هؤلاء بلا شك ، بل من أعظمهم ، بل لم نعلم ملحدا او زنديقا وصل الى ما وصلت اليه من محاولة قلب الدين وتدميره وإفساده ، وكل هذه المجادلات الطويلة والمحاولات الملتوية التى نشرتها فى اغلالك هذه كلها مستعارة منهم ، شيء منها بالنص وشيء بالمعنى ، وقد استخدموك فى تبليغ هذه الرسالة الخبيثة التى حملت بها نفسك وحملت وزرها على ظهرك فبئسما قدمت لنفسك وجنيت عليها ، فما أخلقك بالدخول فيمن قال الله فيهم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾

* * *

ثم قال « ولا ريب عندنا فى مجيء ذلك اليوم الذى يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا ، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها ، وحينئذ — حينئذ فقط تبلغ بهم السمو المقدر لها »

فيقال : متى هذا اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان اذا كانت كل هذه العصور الطويلة قد مرت بهم وهم غير مستعدين لها فلم يدركوا من حقائقها شيئا ، ومعلوم أنها إنما نزلت عليهم ليدركوها ويعملوا بها لا لينقلوها الى غيرهم ممن بعدهم آلاف السنين ، فان هذا ليس فيه رحمة ولا هدى ولا بيان لهم ، بل هو ضرر وعناء وشقاء عليهم فقط ، وقد ذم الله اليهود لما كانوا يحملون التوارة بدون أن ينتفعوا بها بقوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ وقد تواترت الأحاديث بأنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه وان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، الى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الكثيرة المتقدمة الدالة بالنص على ضعف الاسلام وغربته آخر الزمان . فهذه الدعوى معاكسة لمدلولاتها معاكسة صريحة . نعم نحن نقول

انه سيأتى اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ومنافعها وضرر مخالفتها ونبذها ، نعم سياتى ذلك اليوم ، يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، وقال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ يعنى هذا القرآن الذى هو أصل الدين ﴿ يوم ياتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ نعم هو هـذا اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ، وحينئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا . ولكن هذا اليوم لا تسمو فيه الأديان إلا بمن أحبها وعمل بها ودعا اليها ، وأما من رفضها وعاداها ونافق فى الطعن فيها فانها تقذف بهم فى الدركات الجهنمية ولن يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا

* * *

قال « والانسانية — كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف — لها ثلاث حالات : إحداها أن تكون بلا دين ، لا باطل ولا صحيح . وثانيها أن تكون على دين باطل ، أى على دين تتصوره على الصورة التى شرحناها فى هذا الكتاب . وثالثها — وهو خير بلا شك عندنا — أن تكون على دين صحيح تدركه إدراكا صحيحا . وهذه الحالات الثلاث هى على ثلاث درجات . ولا شك أن الحالة الثانية هى شر الحالات ، وأن الأمة التى تكون متدينة بهذا الدين تأتى عاجزة عن مقارعة الأمتين الأخريين »

قلت : قد رأيت أن هذا الملحد صرح بأن المسلمين اليوم شر من الملاحدة ، فانه قرر أنهم على دين محرف واهم ، وأنهم ليسوا على دين صحيح ، وإلا لم ينكر عليهم وهم ليسوا ملاحدة ، بل يدعى أنهم على دين باطل ، وهذه الحالة صرح كما ترى بأنها شر الحالات فجعلها شرا من حالة الالحاد . فالمسلمون اليوم

شر من الملاحدة بنص كلامه (١) ، ولكن من يسمع ومن يرى

(لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى)

وهذا التقسيم الذى ادعاه باطل من أصله، والتفريع عليه ساقط بالضرورة والتاريخ والمشاهدة ، أما فساد التقسيم فانه لا يشك عاقل أن الناس يتفاوتون فى الإتيان بهذا الدين ، فمنهم من يكون متمسكا به تمسكا صحيحا جدا كتمسك الصحابة فى القرن الاول فى وقت الخلفاء ، ثم ضعف التمسك به شيئا فشيئا ، ومع ذلك فأهله على دين صحيح لا سيما فى القرن الأول والثانى ، ثم فى الثالث ظهرت بعض البدع المنحرفة ، ثم بعده افترقت الأمة طوائف ، وأكثر الطوائف معها حق وباطل وبعضها أقرب الى الحق من بعض ، ولا يقول ذو عقل إن الامة من وقت الصحابة الى هذا الوقت على دين باطل ، ومن ادعى هذا فقد كفر الأمة . وعلى هذا الذى ذكرناه تكون الأمة على درجات فكل من كان أقرب الى التمسك كان أقرب الى الدين ، فيكون أقرب الى الحياة والى القوة ، ومن كان عنه أبعد كان ابعد عن الحياة والقوة ، وهذا فى الفرق التى لا يطلق عليها اسم الكفر ، وأما الأديان المنحرفة أو الباطلة فهى أيضا درجات : فان الديانة المسيحية أقرب الى الحق من اليهودية وأقرب الى الحياة والقوة ، واليهودية أولى من الوثنية ، وقد قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين

---

(١) انه لمن العجب أن يخفى كفر هذا الزنديق على من نظر فى كلامه كما قال الشيخ العلامة المحقق عمر بن حسن آل الشيخ عندما اطلع على كلامه فى الذين مرقوا وجعلوا الصناعة والتجارة آلهة موحدة لا يشركون بها فتقدموا فى الحياة الصحيحة : « ما كان يخطر على البال أن يصرح إنسان بمثل هذا الكلام ثم يشك فى كفره ، فكفره واضح لا يستريب فيه من له ادنى مسكة من دين » وكذا قال الشيخ الفاضل قاضى القصيم عبد الله بن حميد وأمثاله من علماء المسلمين كما تقدم .

آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ففرق تعالى بين هذه الفرق وأباح الكتابية دون غيرها كما أباح لنا أكل ذبيحة الكتابي دون المجوسي والوثني ، فهذا القسم كما قلنا درجات أيضا وكل درجة فيها من الحياة والقوة والبصيرة بقدر ما بقي معها من آثار الدين السماوي ، ولهذا كانت الحياة في النصراني أكثر منها في اليهودي ، وفي اليهودي أكثر منها في الوثني كالملاحدة فان الملاحدة داخلون في الوثنيين لانهم يعبدون مظاهر الطبيعة ومظاهر الأسباب وان لم يتخذوها عبادة ولم يقصدوا بها العبادة فهي عبادة بنفس الفعل ، كما أن عباد القبور يكونون عابدين لها بنفس أفعالهم الشركية التي يؤدونها لها وان لم يقصدوا بها العبادة كما تقدم في حديث أبي واحد الليثي قال خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين وكنا حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال « الله أكبر ، انها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . لتتبعن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي وصححه . وفي حديث عدي بن حاتم أنه لما سمع النبي ﷺ يقرأ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ قال : انهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ « أليس انهم يحلون لهم الحرام ويحرمون لهم الحلال » قال : بلى ، قال « تلك عبادتهم » ومعلوم أنهم لم يقصدوا بذلك العبادة فبين أن فعلهم هذا عبادة لان هذا ضرب من التعبد ، فان تقديمهم لآرائهم وطاعتهم لهم فيها مع كونها مخالفة للاديان عبادة صريحة . وهؤلاء الملحدون أعظم الناس خضوعا لأوامر رؤسائهم وطواغيتهم وأسرعهم انقيادا لهم واستسلاما لكل ما يأمرونهم به ولو كان مصادما أعظم المصادمة للشرائع ، أما أوامر الله تعالى فانهم يتعنتون في اتباعها وتصديقها ويحتقرونها بل وكثير منهم يرونها ضررا محضا ، فهل وراء هذه الوثنية وثنية ، ولهذا كان الملاحدة أعظم الخلق رسوخا في الوثنية لأنهم يعبدون مطلق

الأسباب الطبيعية التى يحملهم عليها رؤساؤهم كما يعبدون أشياء يعلمون قبحها وخبثها ، فالوثنيون والملاحدة قسم واحد ، وهو دركات متفاوتة . وهناك قسم آخر وهم الزنادقة والمنافقون ونعنى بالنفاق والزندقة اذا اطلقناهما معناهما الشرعى وهو ابطان الكفر واظهار الإيمان أحيانا خداعا ومكرا ، وهـذا القسم هو أخبث الأقسام على الاطلاق ، وهو أسفلها فى الدنيا كما أن أهله فى الدرك الأسفل من النار وقد حكم الله على أهل هذا القسم باللعنة والطرد وعدم النصر مطلقا كما قال تعالى فيهم ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخـذوا وقتـلوا تقتيلا﴾ وهؤلاء هم المذكورون فى الآيات من أول البقرة فى قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ الى قوله ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير﴾ وهم المذكورون فى قوله ﴿واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صـدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا احسانا وتوفيقا﴾ وهم من أولئك المذكورين فى قوله ﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ فتأمل بدقة قوله ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ تجـد السر العظيم فى أن كل من ادعى أن الكافرين أو الملحدين أهـدى من الذين آمنوا سبيلا فقدم أقوالهم وآراءهم أو رآها بعقله وبفكره خيرا من طريق المؤمنين انه ملعون وانه لا ينصر ولا يمكن أن يجد من ينصره أو يعينه ، ولا سيما إذا كان ممن أوتى نصيبا من الكتاب ، أى عرف شيئا من الدين لان عقوبتـه تكون أغلظ لأنه اختار الخبائث على الطيبات ، فكان خليقا بالطرد والابعاد ، ولن ينفعه قوله ﴿ إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ أى بأنى مـا أردت إلا أمرا حسنا وهو السياسة والتوفيق بين الدين والحضارة ونحو ذلك ، لأن

حقيقة كلامه أن الدين ليس فيه كفاية ، وحقيقة هذا أنه لم يعرف الدين وهو عبادة الله وحده وتحكيم ما أمر به صريحا مطلقا

والمقصود أن تقسيمه الذى ادعاه باطل بطلانا ظاهرا ، وأن الالحاد الذى ادعى أنه خير من الدين الباطل ليس بصحيح ، بل شر منه ، فان أكثر الدول المتقدمة قامت على أديان باطلة كدولة كسرى وقيصر وغيرها مئات السنين ، بخلاف الالحاد فانه لا يعرف أن أمة قامت عليه ما يقارب ستين سنة أى مقدار ما يعيش فيها الانسان غالبا ، بل قد يقوم بعضها سنوات تتخللها الكوارث والنكبات والمحن والمصائب ، ثم يحل بها الغضب الماحق ولا بد ، فالأديان الصحيحة والباطلة مثلها كمثل الأمراض والصحة ، فالدين الصحيح كالصحة والأديان الباطلة كالأمراض ، فمنها ما قد يبقى معه حياة ونوع من الصحة ، ومنها ما يقتل صاحبه ولا بد كالجذام ، ومنها ما هو دون ذلك ، ولكن الأمراض لا تحل بالجسم إلا إذا ضعفت صحته واختل مزاجه وفقد العوامل التى تكون فيها قوة على مقاومة الأمراض وازالتها ، وهذا هو التقسيم المعقول الذى تقوم عليه البراهين التاريخية والاستقراء التام والاعتبار الصحيح

اذا تبين هذا فاعلم أن الكتاب مقصود به رفض الدين والدعوة الى الالحاد وذلك أنه قرر صريحا فى هذه الجملة أن التقدم لا يمكن إلا فى حالتين إما فى الدين الصحيح أو فى الالحاد الصريح فأما الدين الباطل فقرر أنه عائق عن التقدم . ومعلوم أنه إنما وضع كتابه على ما يزعم فى الحث على التقدم ، وقد ادعى أن الحالة الأولى التى هى العمل بالدين غير معروفة ، وأن الناس غير مستعدين لفهمها فيما سبق ، بل عاجزون عن تصورها إلا فى النادر . وكل ذى مسكة من عقل يعرف أن كتابه ليس فى الحث على الدين وعبادة الله وطاعته ، حتى عند المرتابين فى أمره فانهم معترفون بان كتابه ليس حثا على الدين ، وغاية من يعتذر عنه أنه حث على العمل فقط ، فاذا كان موضوع كتابه

ليس حثا على الدين بالبداهة وبالاتفاق ، تعين أن يكون حثا على الإلحاد لأنه لا يمكن أن يكون حثا على الدين الباطل ، فانه قرر أن الدين الباطل عائق عن الرقى فتعين ـ بلا شك ـ أن كتابه دعاية الى الالحاد بضرورة التقسيم ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له مسكة من عقل نابذ للعصبية والهوى ، قاصد وجه الحقيقة والصواب

وقوله « ولا شك ان الحالة الثانية هى شر الحالات » الخ يقال : بل لا شك فى بطلان ما ذكرته ، بل شر الحالات هى الثالثة أى حالة الالحاد المحض ، فان هذا هو الموت والدمار والهلاك المحتوم والمصيبة العظمى نسأل الله العافية ، وقد سبق بيان كونها شر الحالات قريبا

ثم الدين الباطل لم تبينه تبيينا مفصلا غير ما ادعيته من أنه الإقرار بمشيئة الله العامة ، وكونه تعالى يغير الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، وان له الهيمنة عليها والوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم فى نتائجها وان رضى الله وغضبه له دخل فى الأسباب وأمثال ذلك ، فهذا هو الذى شرحته وادعيت أنه دين باطل وأنه فكرة دينية وهى أصل المزالق ، فيكون أهل هذا الدين عندك شرا من أهل الالحاد ، ويكون أهل توحيد الربيوبية الذى أقر به كل من آمن بالله شرا من أهل الالحاد ، وأهل التوحيد الحق المخلصين فيه شرا من الملحدين بطريق الأولى ، فانهم أعظم فى المحافظة على توحيد الربوبية ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على دعواك هم شر البرية

ثم أنت قررت أن التأخر إما يعود الى سبب واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فيكون الدين الصحيح الذى يوجب النجاح هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها لديك ، والجهل بذلك هو الدين الباطل ، فيكون كل من لم يعرف هذا فهو شر ممن عرفه سواء أكان ذلك دينا صحيحا أو الحادا صريحا ، فالعرب الذين قررت أنهم أجهل من غيرهم فى هذه الأمور شر من الملاحدة ،

بل المسلمون شر من الملاحدة عندك لانك قررت أنهم عاجزون من كل ناحية من نواحى الأمور الاقتصادية والمادية والتجارية ، وان سبب ذلك هو عدم معرفة قوى الطبيعة ونواميسها فهم شر من الملاحدة [١]

هذا حقيقة كلامك بل صريحه ، وانما طولت الخداع والنفاق والجدال خوفا من أن تقع فيما وقعت فيه آخرا

* * *

ثم قال « وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا فى سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبدا أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف ، بل ان ذلك ليعجبهم ويرضيهم ، وانهم لعلى استعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد ، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية ، وأن يصنعوا لهذا الغرض كل شىء ، وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض ، اذ أى ضير يصيبهم من ذلك »

والجواب ان يقال : نعم يجب أن يعلم هذا إخوانك الغافلون من الزنادقة والمنافقين فى سائر بقاع الأرض ، أما المسلمون فانك برىء منهم وهم براء منك ، وهم يعلمون ان العز كل العز والمجد كل المجد والسعادة كل السعادة فى القيام بما أمر الله به والاعتصام بحبله المتين ، وان ذلك هو الوسيلة الوحيدة الى عزهم واستعادة مجدهم ، وأنهم ما فقدوا هذا العز وهذا المجد إلا لما تلوثوا بآراء الملاحدة والزنادقة وتساهلوا بالاعتصام بالدين ، وهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فمن كان مؤمنا فلا بد أن ينال العز والمجد والسعادة ، ومن

---

(١) بل ذكرت حديث تأبير النخل وهو يتضمن أن الرسول وأصحابه الذين تركوا التأبير على دين باطل ، لأنهم ظنوا أن النتيجة غير لازمة لوسيلتها ، وان المسبب غير لازم لمسببه لزوما حتميا

خرج من الايمان أو تطرف فيه فلا بد أن يصيبه نصيبه من تطرفه ونصيبه من خسرانه فى الخروج . وهم يعلمون أن هناك بلاداً تدعى الاسلام وقد عشقت هذه المبادئ الغربية الالحادية ورأت أن العز فيها وفى الاحتذاء بأهلها، وقد أسرفت فى ذلك فما نالت إلا عكس ما أرادته ، وسلط عليها عدوها وسامها سوء العذاب ، وكلما ازدادت فى البعد ازدادت فى البلاء والشقاء والشر ، وهم يعلمون أيضا حقيقة العلم أنه لا أضر على هؤلاء الغربيين ولا أشد إيذاء لهم من القيام بالأخلاق الدينية والاعتصام بها، لما يعلمون من قوة أهلها وشدة جلادهم وقوتهم على العمل والجهاد والكفاح والنضال المتواصل ، ولهذا فانهم يدسون لهم الدسائس الخبيثة فى إفساد أخلاقهم ، ويسعون فى طبع المقالات المخدرة فى الفسوق والالحاد وحب الجديد وأمثال ذلك ، وقد علم الناس أنهم قد اتخذوا جمعيات سرية لافساد الاخلاق واستعملوا الوسائل المتنوعة لاماتة روحهم المعنوية الدينية ، وبذلوا الأموال الطائلة فى ذلك لانهم يعلمون أن أقرب وسيلة لتخدير الناس عنهم هو انغماسهم فى الفجور والملاهى والغى والغرام ، وهذا بخلاف الاخلاق الدينية التى تبعث على حب الرجولة والكرامة والمجد والعز والاستقلال ، ولذا يقفون دائما فى وجه كل ذى خلق دينى ، ويضعون العراقيل أمامه ، وقد استفاض ما فعلوه من بث الدعايات فى التشكيك فى الدين وافساد العقائد ، ولا سيما العقائد السلفية ، والطعن فى الروايات الصحيحة الواردة فى فضل القرون المفضلة ، كما طعنوا فى حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » وهذا أمر قد عرفه كل الدهاة فيهم وحسبوا له الحساب ، وقد كان هذا الملحد من قبل خروج هذا الكتاب مقرا بذلك ، فانه ادعى على بعض خصومه ممن يعادونه فى سيرته الأولى فى تفضيل السلف بأن الملاحدة يستخدمونهم فى ذلك ، فدعواه الآن أن هذه الأخلاق الدينية لا تؤذى سادته الغربيين انقلاب الى ضد ما كان يدعيه سابقا . ثم لو فرض هذا فهل يسوغ فى العقل والدين أن نترك ما أمرنا الله به عنادا وحسدا لهم كمن يغضب على

صاحب سفينة فى البحر فيغرقها وهو وماله فيها فيهلك نفسه حسدا لصاحب السفينة ، فالعناد والهوى والأغراض لادخل لها فى الدين ، ولعل مقصودك من هذا ابعاد التهمة بانك فى دعايتك هذه غير مستخدم لهم فيها

(ثكلتك أمك ما ظننت غرور)

وادعاؤه بأن الناس على دين محرف صريح فى أنه يرى الناس على دين باطل ، فيكونون شرا من الملاحدة لما تقدم فى دعواه أن حال أهل الدين الباطل شر من حال أهل الالحاد ، وقصده فى هذا ايجاب رفضه ، فانه قرر أنهم على دين محرف وأنه يجب رفضه واعتناق الالحاد الصريح ، لأن الدين الصحيح قد ثبت أن البشر عاجزون عن فهمه وأخذه عن وجهه ، فيكون بأخذه على غير وجهه دينا محرفا وهو مضر مفسد للاخلاق ، فيكون شرا من الإلحاد ، وهذا هو هدفه الذى يرمى اليه ، ولم يستثن أحدا من المسلمين بأنهم على دين صحيح فيدعو اليه ، بل عمم الدعوى كما نرى . وهذا كما أنه فجور ظاهر وكفر صريح فهو يناقض دعواه السابقة فى صحيفة ١٥ وتصريحه بأنه ليس فى إيماننا بالله وفضائلنا الدينية عجز كما تقدمت عبارته

كريشة فى مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

ثم قال « ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم استعداد — اذا لم يمنع من ذلك مانع — أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها ، وانهم يخشون ويحترمون فى وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة ويقرون عينا — مع الاحتقار الشديد والفرح البالغ — بأمثال ذلك الرجل الجامد ، ذلك الرجل الذى قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض ، والذى أمر رعاياه فى العام الماضى بقراءة القرآن والبخارى لرفع الوباء الذى اجتاح بلاده التى ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة ، هذا الرجل الذى عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة ، لانقاذ بلاده

البائسة الشقية من طاعون وفد اليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة ، فرد هذه المساعدات قائلا : ان الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة ؟ ! هذا الرجل الذى يمضى فى بناء السجون فى بلاده ، بينما تمضى كل الأمم فى بناء المدارس والمصانع والمصحات ! »

يقال : كل هذا احتجاج بآراء المستعمرين بأنهم يرون هذه الأمور ، ولو ثبت ما ذكره عنهم لم يكن من الحجة الصحيحة فى شىء ، فانه إذا كان يحتج بآرائهم فهم يرون أيضا الكفر بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وينكرون رسالة النبي ﷺ ، وملاحدتهم ينكرون الرسالة مطلقا ، فليحتج بذلك أيضا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن الحقائق إنما تعرف بدلائلها وبراهينها ، لا تعرف بآراء قوم كافرين مختلفين أعظم اختلاف على وجه الارض فى آرائهم ونظرياتهم ، وهل يدعى مثل هذه الدعاوى الساقطة من له مسكة من عقل أو دين ، ومن العجب أنه مدح مصطفى كمال وادعى أنه موجد تركيا بمجرد إلحاده وقلبه لنظام تركيا وجعلها حكومة لا دينية بعد أن كان دينها الرسمى الاسلام ، فمدحه على هذه الردة الخبيثة وادعى أنه موجدها ، وهو يعلم انها كانت قبله من مئات السنين أكبر وأعظم وأرقى ، وقد عرفت تركيا نفسها هذا الخطأ الذى فعله هذا الرجل وتحققت ضرره فى شبابها الذى نشأ فى هذه المدة القصيرة فنادت بهذا الخطأ ورجعت تلتمس الدين وتعلمه فى مدارسها ، وهذا برهان منهم ظاهر على خطأه الذى مدحه هذا الملحد عليه ، ثم إنه لم يكتف بذلك حتى ذم الرجل الآخر الذى لم يسمه باسمه ، وبماذا ذمه ، ذمه لأنه أمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى واحتج بالحديث النبوى ، وهذه عنده ذنوب لا تغفر ، فكانت ردة مصطفى كمال وكفره بالله ورسله واليوم الآخر أحسن وأشرف وأجل وأعظم من الأمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى والاحتجاج بالحديث ، وهذا هو اللائق بمن لعنه الله وجعله كالذى يحب الخبائث ويسقط عليها ، ويكره الطيبات

وينفر منها ، فهذه هى قاعدة هـذا الملحد ، فهو دائما يقول للذين كفروا ﴿ هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيـلا ﴾ فما أخلق به أن يكون من الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا

وهـذا الرجل الذى لم يصرح باسمه لعله يريد به ملك اليمن السابق يحيي ، لـكن لم يبين من الذى عرض عليه هذه المساعـدات حتى يعرف كيفية ردهـا ولعلها حكومة عدن ، ومعلوم أن قبول الانسان للمساعدات مطلقا من دون ملاحظة أمر آخر غلط كبير لا ترضاه أكبر دولة على نفسها فهى لا تقبل إلا اذا كانت النتيجة أولى من الخسارة ، وأيضا فانه لا يعرف وقوع هذا الطاعون الذى جاءها فى هذه السنين التى أشار اليها على الصفة التى ذكرها ، بل يوجـد هناك أمراض متنوعة قد تكثر بعض الأحيان فى الأودية العميقة فى المنـاطق الحارة . ثم انتقاده الاحتجاج بالحديث هو انتقاد للحديث نفسه ، والحديث ليس فيه نهى عن التداوى وانمـا فيه إخبار بأن مثل هـذه المصائب التى منها الطاعون قد يقع رحمة ، فان جميع المصائب التى يصاب بها المؤمن اذا صبر واحتسب فتكون له اجرا ، ومع ذلك فهو مأمور بالتداوى ، كما ان النبى ﷺ قال فى الجهاد « لا تتمنوا لقـاء العـدو ، واسألوا الله العافيـة ، فاذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وكما أن العمى والخرس وموت الأولاد كل ذلك من المصائب التى يؤجر عليها الانسان ، وليس مأمورا بالوقوع فيها والجناية على نفسه بها ، بل هو مأمور بتجنبها ومداواتها ما استطاع ، ولعل هذا الرجل إنما احتج بالحديث لبيان أن أخذ المساعـدة بكل حال ليس بواجب ، لأن هذا رحمة فلا يكون ترك مثل هذا معصية اذا كان قد يجـر الى ضرر أكبر ، ومعلوم أن مثل حكومة عدن لا تسدى اليه نفعـا رخيصا باردا بدون معاوضة أعظم وأكثر ، وقد عرف ما بينه وبينهـا من سوء التفـاهم ، ولـكن يجب أن يعرف أن هناك ما هو أعظم من هذا الطاعون ومـا هو شر

منه ، وهو طاعون النفوس ووباؤها المميت القاتل ، ولم نجد أحـــدا مد يد المساعدة اليه فى انقاذ شعبه منـه ، وقد كان من الواجب عليه السعى فى تحصيل دوائه وقبول ما يأتيه من المساعدة على إزالته ، وهذا الطاعون والوباء القاتل الذى لا يمكن لشعب أن يحيي وأن يظفر بالعافية وهو فيه هو اعتقاد المعـتزلة وكثير من أصول الجهمية فى الدين ، وذلك أن كثيرا من أهل تلك البلاد على هذه العقائد الباطلة ، وقد سمعنا من أناس منهم بدعوى أن القرآن مخـــلوق ، وأن الله لا يتكلم ، كما سمعنا منهم من ينكر أن يكون الله تعالى عـلى العرش ، وينكرون كثيرا من الصفات ، وفيهم أيضا بعض عقائد أخرى . فهذه هى العلل القاتلة ولهذا كانوا على هذه الحالة ، فان أصل مذهب الجهمية والمعتزلة فى إنكار العلو والكلام والصفات مأخوذ من الالحاد المحض ، فان الذين أصلوا هـذه الدعايات التى هى ضد ظواهر النصوص هم جمعيات سرية خبيثة من الفرس واليهود وغـيرهم قصدوا بذلك قلب أصول الإسلام وإفساده حسداً للعرب ، واستعملوا فى هذه الدعاية من أضله الله من ذوى السلطة وغيرهم لبثها ونشرها ، وقد قدمنا أن مـذهب السلف الصالح فى نصوص الصفات هى إجراؤها عـلى ظاهرها على المعنى اللائق بالله تعالى ، وذلك كالاستواء ، فان استواء الله سبحانه فوق العرش ليس كاستواء المخـلوق بل استواؤه كسائر صفاته استواء يليق به ويختص به ، فهو سبحانه خلق العرش كما خلق غيره من سائر المخلوقات ، وهو غنى عنها كلها ، فهو مستو عليه ، وهو غنى عنه ، والعرش وما تحته فقير اليه ، ولا يلزم من استوائه عليه افتقاره اليه ، كما لا يلزم من خلقه له افتقـــاره الى خلقه ، وليس فوق العرش شىء مخلوق وجودى حتى يكون الله محتاجا اليه ، بل الذى فوقه عدم خالص والعدم ليس بشىء ، فاذا كان الله فوقه فليس هو فى شىء مخلوق موجود ، بل المخلوقات كلها بائنة منه وهو بائن عنها ، ومن أول وحرف الاستواء بأن معنى ذلك « استولى » فقد وقع فيما فر منه ، إذ أنه شبهه باستيلاء المخلوقين كبشر بن مروان الذى استولى على العراق ، واذا قال ان استيلاء بشر

لا يماثل استيلاء الله قلنا فهلا اعتقدت فى الاستواء مثل ذلك فقلت : واستواء الله ليس كاستواء المخلوق ، بل هو استواء يليق به ويختص به ، وبذلك تسلم من تحريف كلام الله ، والا فكيف تفهم من الاستواء مالا تفهم من الاستيلاء وكلاهما يتصف به المخلوق على ما يليق به من النقص ويتصف به الخالق على ما يليق به من الكمال ، فكما أن ذاته كاملة من كل وجه فصفاته كذلك ، ومعلوم بالبداهة أن كل صفة تختص بموصوفها وتليق به من كمال ونقص ، فالعبد لا بد من وجود النقص فيه طبعا ، فانه مكون من عناصر كلها ناقصة ومفتقر بعضها الى بعض ، وأما البارى تعالى فله الكمال المطلق من كل وجـــه وصفاته من الاستواء والكلام والرضا والغضب والرحمة والحكمة والعلم وغير ذلك كلها كاملة . وليس غرضنا الإفاضة فى بسط هذه المسائل فقد أوفينا البحث فيها فى كتابنا (كشف البهتان) وفى كتاب (الرد على الحصنى) فما ذكره من الانتقاد على هذا الرجل ومدحه لمصطفى كمال هراء مرذول كعادته

* * *

ثم قال « وان هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب الى قلوبهم والى رضاها من أولئك الذين يوسمون بالإلحاد والزيغ ، ممن يعملون عـــلى إيقاظ الشعور القومى ، وعلى بث الكرامة الوطنية السجينة فى النفوس تحت هذه الأنقاض المحطمة »

فيقال : بل الأمر المعروف هو عكس هذا ، فانه من المعلوم أنهم يبثون الدعايات فى تشكيك النـــاس فى أديانهم ، ويؤيدون بكل الوسائل أولئك الموصوفين بالالحاد والزيغ ، لأنهم يعلمون أن هؤلاء هم الذين يميتون فيهم الروح الحية ويصدونهم عن العلم والعمل ، وقد علموا بالتجربة أن أكثر من يصمد فى مكافحتهم ونزاعهم هم الدعاة الدينيون أى المتمسكون بالكتاب والسنة ، وهذا الرجل نفسه قد اعترف بهذا فى كل كتبه السابقة ، ولكنه لما

نكص على عقبه وصار من الهدامين أخذ لا يألو المسلمين خبـالا فى إفساد الأخلاق الدينية والقاء العداوة بين أهلها ، وغرضه من هذه الأكاذيب إبعاد التهمة الموجهة اليه بكونه داعية لهم ، وهيهات ذلك

ثم قال « وقد حدثنى أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر الى بلاده التى يقبض عليها الاستعمار بقسوة وإحكام ، فلم يستطع أن ينـال التصريح الذى يبيح له السفر فالجأ إلى حيلة لطيفة هى أنه تزيى بزى رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والارشاد ، واضعاً على رأسه عمامـة تزرى بالهرم ، وعلى كتفيه جبة تتسع لايواء كل الشياطين ، وتحت إبطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحى ، قال ونجحت هذه الحيلة أعظم نجاح ، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الاحترام والتوقير والسرور »

فيقال : قد مرّ أن هذا الرجل طعن فى روايات فى صحيح البخارى ، بل فى الصحيحين وغيرهما ، وهو هنا يحتج برواية هـذا المجهول الذى أقر عـلى نفسه بالنفاق ، ثم يريد منا أن نصدقه ونصدق هذا المجهول ونجعل ذلك برهانا عـلى حسن الالحاد ، مع كون الرواية نفسها رواية منكرة ساقطة مشتملة على نفاق ومجازفة واستهزاء بأمر الدين . ثم هى لو صحت لـكانت حجة عليه لأن غاية ما فيها أن هذا المجهول الحال سمح له لـكونهم يرون أن ليس فى مثل هذا ضرر ، وفات هذا الزائغ أنهم يكونون بهذا مخدوعين لان حيلته انطلت عليهم فخدعهم بها ، فكان معه مكر وخبث ودهاء ، وقد تقدم أن هذا المغرور ادعى أن المـكر والخبث والدهاء من الأمور العلمية العظيمة ، فاذا كانوا مخدوعين بهذه الحيلة البسيطة فقد يكونون ضالين فى هذا الرأى الذى رأوه ، وهو يناقض زعمه أن المتدينين هم الذين يخدعون دائما وأن الملاحدة يخدعونهم ، فصار الأمر هنـا بالعكس . ثم هى طعن فيه ، فان هذه القصة مما يدل على أنه كان يخلو بأمثال

هذا المنافق المستهزئ ويتحدث معه بهذه السخريات فى أكل أعراض أهل الدين ، ثم ماذا يضر المسلمين لو كانت هذه المسألة وقعت مهما كانت حالتها ، ولكن هذا شان المضطر يحتاج الى الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أشبهها

* * *

ثم قال « وقريب من هذا ما حدث قبيل هذه الحرب فى البرلمان الفرنسى ، إذ قام أحد الأعضاء — على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون فى المغرب العربى — قائلا : إن فرنسا دولة علمية إلحادية ، فما لها وللتبشير ؟ ! فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك . فقام الرئيس فرد عليه ردا ما أعجبه (١) اذ قال : ان هذه — يعنى العلمانية الالحادية — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج . وقصده من هذا أن الدعوة الى الأديان (٢) يجب أن تبقى مستمرة نشيطة فى المستعمرات ، وإن حرمت فى فرنسا نفسها ، ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم — أى الفرنسيين — لن يصدروا الخير الى الخارج مجانا ويحرموا بلادهم منه »

فيقال : وهذا من نمط ما قبله فى الاستدلال الساقط ، فان حاصله استدلال برأى رجل من فرنسا ، وهوان صح فهو حجة عليه ، لأن هذا الرئيس رد على هذا العضو ردا مسكتا لم يستطع الجواب عنه ، فبين فساد رأيه فى عدم الدعوة الى الاديان فقال ان هذه — يعنى نظرية الالحاد التى ذكرها العضو — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج ، ومقصوده من هذا أن الالحاد فى نفس فرنسا أو فى عاصمتها قد استحكم فبث التبشير فيه لا يفيد ، لأنه قد غلب على أكثرهم

---

(١) من أخبرك أن هذا الرد ما أعجبه ، وهو قد أسكته به ، فهو رد جيد ولو لم يعجبك

(٢) هذا تلبيس ، لأن المبشرين لم يدعوا الى الأديان ، بل الى المسيحية فقط

الالحاد وغالبهم يعرف الديانة المسيحية فلا معنى للتبشير هنا ، وأما المستعمرات فليست كذلك ، فانه لم يفش فيها الالحاد كغيرها ، وقبول الاديان هناك ممكن فان الفطر تقبل الدين ولا تقبل الالحاد ، فلا مانع إذن من بث التبشير هناك لأن الحكومة اذ ذاك مسيحية أى دينها الرسمى ، وهذا يبين فساد دعواه بأنها لن تصدر الخير الى الخارج وتحرم بلادها منه ، فانهم لو كانوا يرون أن الأديان ضرر محض لم يخصوا الدين المسيحى بالتبشير بل لعلموهم الاسلام ، لأنهم ويرونه أضر إذا كانوا يريدون تصدير الشر الى مستعمراتهم . ثم لو فرض أنها ترى ما ادعاه فهل يكون رأيها هذا حجة ، فهذا المسكين تارة يحتج بحكاية مجهول منافق وتارة برأى رجل من فرنسا قد رده رأى رجل منهم أكبر منه ، وكل هذا الهذيان مكرر مما قبله ، وقد تقدم الجواب عنه ، فان الغرض المقصود منه إثارة الشنآن بين الرؤساء والمتدينين ، ومحاولة محـــاربة من ينسب الى الدين وطرده واحتقاره وأنه ليس على شيء من العقل والمعرفة

* * *

ثم قال « هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة . ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ أقول ان التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد »

فيقال : هذا الذى تريد أن تقوله من كون هذا الدين الذى عليه المسلمون محرف واهم ، قد بينا لك أنه قول غير صحيح بل باطل بلا ريب ، فالدين الذى عليه كثير من المسلمين اليوم خصوصا أهل السنة وأصحاب الحديث ، وهو ما قرره الامام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما من أكابر المسلمين ، وهو ما ذكره أئمة السلف الصالح فى كتبهم المشهورة ، فهذا الدين ليس بدين محرف ولا واهم ، بل هو دين صحيح لا غبار عليه ولله الحمد ، فاذا كان الله قد أعماك عن فهمه ومعرفته وتصوره على وجهه فليس لك أن تحكم على المسلمين بالضلال ، وعلى دينهم بأنه محرف واهم ، فتنكر ما لم تحط به علما ، مع أنك متناقض فانك فى

كتبك السابقة ادعيته ودعوت اليه وقررت أنه دين صحيح لا ريب فيـــه ، وذكرت البراهين المتعددة عـلى ذلك . ثم لما انقلبت أخـيرا ذهبت تدعى أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح ، وتدعى فيما سبق وفى هذا أن ديننـا محرف واهم ، وتدعى مرة أخرى أن إيماننا بالله وأخلاقنا الدينية ليس فيهما عجز ، وهذا عين التلاعب . وأيضا اذا كنت فى شك من هذا الدين الذى نحن عليه فعليك أن تذكر هذا الدين المحرف وتبين وجه تحريفه وفساده ، فتذكر عقيدة أو عقائد من التى نعتمدها كالواسطية أو غيرها من كتب ابن تيمية أو ابن القيم أو محمد بن عبد الوهاب ونحوهم ثم تجيب عليها وتبين عدم فهمك لهـا ووجه فسادها ، أما الهجوم على دين الاسلام الذى عليه المسلمون بأنه دين محرف هكذا كيلا مجازفة ، فقول لا يجرؤ عليه إلا من انسلخ من الدين والعقل جميعا ، ونحن ولله الحمد على بصيرة من ديننا ونعلم أنه صحيح غـير محرف ولا واهم ، وليس بنكبة على أحد لا على جماعات ولا على أفراد ، بل دين الاسلام الحنيف هو دين الفطرة ، ونحن مستعدون لمباهلتك عـــلى ذلك ، فلو قام المسلمون كلهم جميعا بهذا الدين وعملوا به وأخلصوا فى العمل به لخلصوا أنفسهم وشعوبهم كلهـا من عدوهم ، ولتقدموا به كما تقدم من عمـل به من أسلافهم وكانوا على غاية من العز والسيادة وضخامة الشأن

* * *

ثم قال « ولـكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أنى أريد الاستغناء عن الدين . كلا . فالدين حاجة من حاجات الانسان التى لا يمكن أن يستغنى عنها [1] . ولـكن ثبت أن البشرية عاجزة — إلا فيما ندر — عن فهمه عـلى

---

(١) هكذا صنيعه : لف ودار وتقهقر . مسكين والله مسكين من هذا الرعب والقلق والخوف الشديد

وجهه الصحيح . هذه هى المشكلة التى لم يستطع حلها بعد »

فيقال : نعم ، قد فهم كل من له عقل أنك تريد رفض الدين بلا شك ، فمن تدبر كتابك هذا وأحاط علما بمغزاه ومرماه لم يتوقف فى هذا أبدا ، اللهم إلا أن يكون ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة ، أما ما ذكرته من عجز البشرية عن فهم الدين فقد سبق الكلام عليه ، وكان من الواجب أن تبين لنا بأى وجه ثبت عجزها ، وما وجه الثبوت ، مع كونك قد ادعيت فى كتبك السابقة أن ما تدعو اليه دين صحيح كما سبق ، وكذلك ما ذكرته من كون هذه المسألة الكبرى هى المشكلة التى لم تحل ، فقد تقدم الجواب عنها أيضا ، وهى برهان على أنك لم تفهم الدين على وجهه ، وأنك تكلمت فيما لم تحط به علما ، وأنك لم تصل الى غاية محققة ، وأنك حكمت على المسلمين بان دينهم واهم بمجرد رأيك ، وضربت بجميع براهينهم عرض الحائط ، لأنك لم تذكرها ثم تجيب عنها وتبين ما يبطلها ، بل حكمت عليها بالبطلان بالدعوى المجردة ، فصار الكتاب الذى مدحته ذلك المدح غير موصل الى حقيقة ويقين بل الى شك وريب ، وقد بينا أنها اذا كانت هذه المسألة الكبرى مشكلة عليك فمن الواجب أن تستفتى فيها وتسأل عنها . أما نحن فهى لم تشكل علينا ، بل هى عندنا أوضح من الشمس فى نصف النهار ليس دونها غيم ولا قتر ولا شىء من الأشياء التى تحول بيننا وبينها أبدا . وأما أنت فانك لما كنت على عكس ما كنا عليه كانت نظرتك اليه عكس نظرتنا ، فانه خفى عليك هذا الواضح الجلى ، لأنك فى ظلمات بعضها فوق بعض ، مع عمى البصيرة والصمم والبكم والأغلال والختم والطبع والأقفال . وأيضا اذا كان قد ثبت هذا عندك فمن أين فهمت هذا الدين الصحيح الذى تمدحه لو أخذ على وجهه ، وما هو ، وما حقيقته ، وكيف كان مشكلا عليك ولم يحل . وأنت ذكرت أنه لو وجد لكان نافعا وكان أولى من الدين الفاسد والالحاد المحض ، وأيضا نقول : إما أن تكون قد فهمته أو لم تفهمه ،

فان كنت فهمته فكيف تدعى أنه مشكلة لم تحل ، بل عليك أن تبينه وتشرحه شرحا واضحا مفصلا ، ولا سيما إذا كنت تعلم أن الناس فى أشد حاجة اليه ، وكيف اختصصت بفهمه دون العالمين والنادر لا حكم له ، وان كنت لم تفهمه فكيف تدعى إنكار شىء لم تفهمه وعدم العلم بالشىء ليس علما بالعدم ، وكيف تحكم على غيرك أنه لم يفهمه مع اعترافك بأنه مشكل عليك ، وأنت لم تنقل عن أحد أنه أشكل عليه مثلك ، فهل هذا إلا عين التلاعب والخداع الظاهر ، وجل الله وتقدس أن يكلف الله الناس بما لا يطيقون فهمه أو لا يفهمه الا النادر منهم ، مع دعوة الخلق جميعا الى تدبره وفهمه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ فكيف ييسره للذكر ويكون الناس عاجزين عن فهمه ، وقال تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ فبين أن الضرر إنما جاء من الناس لنفورهم لا من حيث غموض فى دلالة القرآن ، وقال تعالى ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف الذين أوتوه إلا من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ فبين أن سبب الاختلاف هو البغى لا من أجل غموض أو قصور فى الدلالة على الحق ، بل بما قام بأكثر الناس من اختيار الباطل على الحق بالبغى ، وهذا المغرور جعل النقص من حيث الدين فانه جعلهم عاجزين عن فهمه ، ومعلوم أنهم لا يكونون عاجزين إلا من أجل غموض دلالته وقصورها ، وأنهم لو بذلوا طاقتهم عجزوا — ومعلوم أن هذا طعن صريح فيه وفى من أنزله — بل هم الذين أعرضوا عنه ونفروا منه واختارو العمى على الهدى ، والا فهو أوضح شىء وأظهره ، وليس هذا خاصا بالدين بل كل من أعرض عن شىء فلم يتأمله ويتدبره لم يفهمه ولم يتصوره على وجهه ، وإلا فمن ابتغاه بصدق وإخلاص هداه الله اليه

كما قال ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال تعالى ﴿ ويهدى اليه من ينيب ﴾ فقد بين تعالى طريق فهمه والهداية به بأسهل شيء وهو الإنابة اليه تعالى والافتقار والتضرع اليه والاخلاص والصدق فى معاملته، فانه أكرم الأكرمين، وقد بين صريحا أنه يهدى اليه من ينيب ، وأما من لم يرد الهداية فقد بين الله له طريقا آخر، فاذا سلكه الانسان فان الله لا يهديه، وهو طريق الظلم والتمرد والفسوق والاعراض، وحقيقة هذا هو عدم الانابة اليه ، فقال تعالى ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ، ﴿ إن الله لا يهدى من يضل ﴾ ، ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ ، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ ، ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ فكل من كان فى صدره حزازة أو ريب وشك فيما أخبر به الرسول ﷺ أو قدم عليه رأى أحد كائنا من كان أو استصغره أو احتقره أو رأى انه لا يفيد فى الدنيا أو أنه آلة ضعف أو أنه لا يفهم جدا فقد ضل وتعرض للخيبة وانخساف القلب وانطماس البصيرة والهلاك المحتوم.

وهؤلاء المساكين ـ الذين تساهلوا فى أمر هذه الأغلال ـ إنما أتوا من حيث ظنوا أن أمر الدين ليس بالامر الكبير الذى يجب احترامه جدا والبعيد كل البعد عما يقدح فيه ويشوه سمعته ، فانهم لما كانوا ضعفاء الدين محترمين لأمور الدنيا رأوا أن إطلاق هذه الأمور ليس فيه ضرر كبير لأنهم لا يرون احترام الدين وتعظيمه أكبر شيء فى الوجود ، وهل أعظم من احترام نظام الله الذى به أنزل الكتب وأرسل الرسل وأعز من أطاعه واذل من عصاه بسببه

* * *

اذا عرفت هذا فقد بينا لك فيما سبق أن من أعظم قواعد هذا المغرور فى كتابه الذى يدور عليها فى كل فصل من فصوله ما نقلناه عن السيد قطب من

كونه يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين ثم يتوارى هنيهة فيذكر ما تنطق به النصوص ويتحصن فى الدين . فهو هنا لما قال ما قال وسجل ما سجل على الأديان السماوية وأهلها وآنس من نفسه أنه قد يكون قد انكشف أمره توارى ثم رجع يذكر ما فهمه القارئ من نصوص أغلاله ولجأ الى حصن الدين لأنه خاتمة الكتاب فأراد أن ينسى القارئ جميع ما تقدم ، وهيهات

أسأت ومن يسئ يوما يساء رويدك فالجزاء بها وراء

فقال « وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الانسانية الأمل الحار والوقود لتسير فى سبيلها الطويل الشاق ، لتبلغ هذه الغاية التى بلغتها ، وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر فى الظلام ، وكم حبب اليها الألم والعذاب فى تحويمها حول أهدافها الكبرى ، وان كل ما نحن فيه ما هو إلا إحدى نتائج هذا التحويم »

فيقال : هذا مع كونه مناقضة وخداعا لا يخفى على عاقل ، فانك لم تبين من أخذ بهذا الدين من علماء الامة ، ومن هو الذى سار عليه على كثرتهم ، بل ادعيت فيما سبق أن هذه الفرق كلها غالطة ، ولم تستثن أحدا منهم ، فأين هذا الدين ، فان كان موجودا فهو لا يعرف ، وأنت لم تبين غير ما ذكرت أنه ما تضمنه كتابك ، مع دعواك أنه رأى رأيته وحدك ، وأنه مشكلة لم تحل ، فما الفائدة إذن من هذا الدين الغامض المجهول . واذا كانت كل هذه القرون الطويلة لم يعرف فيها الدين والناس يحومون حوله ولم يقعوا فيه ، فمتى يقعون ومتى يعرفون هذا الدين ويعملون به

ثم قال « ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة السماوية التى هي الدين لتقرر مصير الانسان على نحو آخر من هذه النهايات »

فيقال : ما هو تقرر مصير الانسانية الذى تعنيه ، أهو الدمار والهلاك ، فهذا تناقض صريح منك ، أم هو السعادة والتقدم المستمر ، فما بالك إذن لم تبين

هذه الهبة وتشرحها وتفصلها وتدعو اليها ، وكيف ساغ لك أن تعاديها . ثم من هو الذى قد ظفر بالأخذ بهذه الهبة وتقرر مصيره على ما تعنيه وتريده ؟ كل هذا خداع مكشوف

* * *

ثم قال « وما كان مستطاعا أن يستغنى البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل فى حياتهم ، أو يصنعوا لهم أملا آخر ، إذ لا حياة بدون أمل »

فيقال : هذا مكرر قد تقدم الجواب عن مثله مرارا ، وهو خداع متناقض

ثم قال : واذن فهل معنى عجز الانسان عن أن يفهم التدين والدين فهما صحيحا أن الواجب عليه ، أو المستحسن له ، أن يتركه وينأى عنه . كلا ، وإنما الواجب أن ننفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه ، وهذا عين ما فعلناه فى كتابنا هذا . وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة الى تصحيح التدين وتصحيح الاديان ، وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الانسان الكبرى » هذا آخر كتابه

فنقول : ما فعلته فى كتابك هذا معلوم مشهور مقطوع بمعرفته ، ونحن نباهلك على أنه كفر وضلال ، فلقد عرفناه وعرفه كل مسلم تدبره (وهل يخفى النهار) لا ريب أن كتابك دعاية واضحة الى رفض الأديان ومحاربتها والقدح فيها وأهلها ، وهذا لا يتفق أبدا أن يكون محاولة لفهم الدين ، فمحاولة فهم الدين شىء وكتابك هذا شىء آخر ، فأى مسألة واحدة من مسائل الدين كبيرة كانت أو صغيرة ذكرتها ورغبت فيها ودعوت اليها حتى يسوغ لك أن تدعى هذه الدعوى ، اللهم إلا أن يكون مرادك بالدين هو التوجه الى الطبيعة ونواميسها والاعتماد الكلى عليها ومحاربة دعاء الله وعبادته وذكره والتوجه اليه ، فهذا صحيح على مقتضى موضوع كتابك ، فهو عين ما فعلته فى هذا الكتاب مع أنك أيضا معترف بأن نهاية أمرك فيه إشكال لم يوجد له حل ، فهذه المحاولة

التى ادعيتها لم توصلك الى شيء بكل حال ، ثم اذا كانت أعظم رسالات الانبياء موجهة الى تصحيح الدين وتصحيح الأديان ولم تكن موجهة الى رفض الاديان ومعاداتها وأهلها فما الذى حملك على معاكستهم ومعاندتهم بالشدة الحادة والمضادة الظاهرة ، فاين تصحيح التدين وأين تصحيح الأديان ، فان تصحيح التدين بيان الدين الصحيح ببراهينه وبيان أهله ومن قام به بدلائل واضحة مفصلة ، ثم بيان فساد ما يعارضه ويخالفه بأدلة وبراهين صحيحة جلية ، هذا هو المعقول فى بيان تصحيح التدين ، أما الهجوم على الأديان وعلى مظاهرها وسبها وشتمها والتهكم بأهلها والاستهزاء بهم مجازفة وقحة فليس هذا من التدين فى شيء ، بل هو محاربة لها ولأهلها ، ومن ادعى أن طريقة هذا الكتاب هو تصحيح الاديان أو التدين فليعالج عقله وليبك على نفسه وليعلم أنه لم يعرف الدين ، والله سبحانه قد أوضح غاية الايضاح ما دعا اليه الأنبياء فى كتابه العزيز من التوحيد والايمان والعمل الصالح والتقوى والدعاء والانابة اليه والتوكل عليه كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وبالجملة فكل أصول الدين ومظاهر عبادته حاربتها وعاندتها أشد المعاندة ، فأين تصحيح الدين ، هذا مع إقرارك بان هذا الذى تدعيه شيء انفردت بمعرفته ولم تذكر أن أحدا من علماء المسلمين وافقك عليه ، ومعلوم أن الله سبحانه جعل للدين سبيلا وأهلا وأتباعا وأنصارا ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

هذا آخر ما أردنا جمعه ، ونسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، إنه سميع مجيب . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

لقد ضل من أغراك بالسب والهجا . .

ألا أيها الغمر الذى غرّه الكبر ... ترديت من عال وناسبك القعر
تمنيت يا مغرور ما ليس حاصلا ... فساءت لك العقبى وصادمك الدهر
أمانى مغرور تزايد عجبه ... فليس له إلا الإهانة والدحر
فأصبح مدحورا لدى كل عاقل ... له الطرد والابعاد والذم والهجر
تفكر طويلا يا جهولا ترادفت ... عليه المخازى فهى فى متنه أسر
خسرت بهذا البيع أخسر صفقة ... فما أنتج المسعى ولا أربح الوفر
نبذت نفيس الدر واخترت ضده ... ومن يكره الياقوت يعجبه البعر
تخيرت عن سبل الرشاد غواية ... وصدك عن طرق الهدى الكبر والأشر
فأصبحت مصبوبا عليك شتائم ... كما كان مشبوبا على قلبك الجمر
ظننت خداع الله فى الدين هينا ... ولن يخرج الله الذى كنه الصدر
فجئت بأقوال النفاق مخادعا ... فقد بان ما تخفيه وانهتك الستر
أبى الله إلا أن يعاقب من بغى ... وأضمر سوءا قصده الكيد والشر
فما نلت مما كنت تبغيه ضلة ... سوى عكس ما ترجو وحل بك الضر

* * *

لقد جاء فى (الغل) الذى قد عملته ... لنفسك قول ليس يخفى به الكفر
تحارب دين الله يا شر ملحد ... وتلصق آراء به مالها قدر
وتعرض عما فيه من ساطع الضيا ... ومن مُثل عليا ينال بها الفخر
فكم من شعوب مسها الويل والعنا ... فجاء لها من نوره المجد والنصر
وكم من شعوب ذاقت الذل والشقا ... به اعتصمت يوما فطار لها ذكر
فسل من درى التاريخ من كل عارف ... اذا كنت لا تدرى كأمثال من غروا
وسل من له علم صحيح وفكرة ... لكى تعرف الغرّ فانك مغتر
والا فعز الدين — ويحك — بين ... كما بان وجه الشمس واتضح الظهر

دعوت إلى الإلحاد جهدك معلنا بأن فساد الناس ليس له إثر
سوى أنها الأسباب تجرى بطبعها وليس لرب العرش فى سيرها أمر
وهذا هو الإلحاد لا شك واضح فكيف يروج المين أو ينفع العذر
وتزعم أن الغرب ما سار وارتقى ولا ساد إلا حينما حله الكفر
وأن نظام الدين أخر أهله وليس لأهل الدين عقل ولا فكر
تجاهلت عن كل الشعوب التى هوت وسيرتها الإلحاد والكفر والنكر
فكل ذوى الجهل الشنيع وشبههم من الأمم السذجى وليس لها حصر
همو عندك الراقون فى العلم والحجى لأنْ ما لهم فى الدين فهم ولا خبر
فانك عللت التأخر عندنا بأسباب هذا الدين لا سيما الذكر
وإقرارنا التدبير لله كله بقدرته من شأنه الحكم والقهر

* * *

أطلت لحاك الله فى القدح فى الدعا وتسفيه من يدعو إذا مسه الضر
نفيت صريحا أن يكون وسيلة وليس له نفع سوى أنه الشر
وكررت هذا الكفر فى كل موضع لعلمك أن الدين أشرفه الذكر
فهل قال هذا القول قبلك مشرك سوى الملحد الأشقى ومن قاده الجمر
وفسرت عدل الله فى الحكم والقضا بقرمطة شنعاء بل إنها جبر
بتفويضه الأسباب تحكم ذا الورى بطبع قديم عندها العسر واليسر
فكل أسير للطبيعة موثق وليس يعين اللهُ من ضده عسر
فعطلت هذا الكون عن أمر ربه وصيرته طبعا له الوصل والبتر
فلا فرق بين المحسنين وضدهم فلا تنفع الحسنى ولا يوبق الوزر
وهذا هو الكفر الصريح مؤكدا ومن شك فى هذا فليس له حجر

* * *

وتسلك فى أمر النسا شر مسلك إباحية صلعاء ليس لها ستر

فتزعم أن المسلمين يرونها كبعض متاع البيت ان صانها خدر
فلا العلم أعطوها ولا شيء غيره سوى القيد والأصفادقد شدها الأسر
خلقت فجورا ثم جئت مدافعا لتوهم أغمارا إلى الغى قد جروا
بأنك تدعوها الى العلم والنهى وتدفع ما أبقى لها الجهل والقسر
فأسميت ما تنوى من الخبث والخنا كذا الرقص والفحشاء والخمر والسكر
هو العلم والتحرير والعدل والضيا وأما سوى هذا فليس به خير
فمن أعجب الاشياء أنك تفترى وتحسب أن الناس بالزور لن يدروا
فتصنع من دعواك فى البهت حجة ومن ردّ ما تملى هو الجاهل الغرّ

* * *

مدحت بنى صهيون عظمت شأنهم وذا المدح والتعظيم حتما له سر
(دسائس لا تدرى اليهود بعشرها) حداك اليها السوء والخبث والتبر
وإلا فما هذى المحاماة دونهم وتحريف آى الذكر ما ردك الزجر
أضفت لهم كل المعارف والقوى ونحن جميعا حظنا الجهل والفقر
وجردتنا من كل علم وقوة ومن كل آيات يفيض بها العصر
وقلت جهارا دون أى تكتم بأن ضلالا أن يتم لنا أمر
سوى أن تمسكنا بابقا حليفنا ليدفع عنا إن أريد بنا الغدر
فصرحت بالعدوان والخبث ظاهرا ولكن أعمى القلب أقنعه الهذر
جننت بأمر (النشء) فيما سمعته فأسرعت فى تصديق من قوله هجر
فأعماك ما أبصرت فى البر والفضا ومن سفن شتى يموج بها البحر
فصدقت ما يروى على كل حالة وقد طار منك العقل وانتفخ السحر
وأما علوم الدين والنور والهدى جميعا ففى أذنيك عن سمعها وقر

* * *

ألا يا نصير الكفر ويلك فاتئد ولا تنطح الصفوان يدمغك الصخر

لقد ضل من أغراك بالسب والهجا … كما زل من أغواك نيته المكر
أتحسب أن الدين سهلا أساسه … ستنزله أقوالك الزور والفجر
أتحسب أن الدين تخفى ضياءه … عجاجتك الهوجا وآثارها الكدر
أتحسب أن الناس قد غاب عنهم … مقاصدك السوءى وأفعالك المرّ
أتحسب أن الدين يدرك بالريا … بلا فعل إخلاص يصاحبه البر
فما أنت فى دعواك إلا منافق … كأصحابك النوكى وهم فى الورى كثر
فأنتم فساد الناس فى كل أمة … وجرثومة يضنى بها الجسم والفكر

* * *

لقد فات ما ترجو وأخفقت دونه … فشب على أحشائك (الغل) والحرّ
فدعنا من التلبيس فالحق واضح … وإن ظلام الليل يفضحه الفجر
وإن خداع المرء يعرف ظاهرا … وكل رياء سوف يجرى له نشر
فمن عجب دعواك أنك مصلح … وأنك ترجو أن يزاد لك الوفر
فأمليت ما أمليت بالطيش والهوى … مقالة مأفون تمادى به السخر
فتقدح فى الأديان جهرا وترتجى … بأسباب هذا القدح يوعى[1] لك الذخر
(كمطعمة الأيتام من كد فرجها) … وتزعم فى ذا الفعل أن لها أجر
لحى الله قوما صانعوك غباوة … لأهواء نفس نالها الخوف والذعر
أمثلك يا مأفون يخشى ويتقى … لقد هزلت نفس يهولنها الصر
فما أنت إلا ضفدع مترنم … يتق علـى بعد إذا بله القطر
فلا تجعل العدوان للدين راحة … فبعدا وسحقا عاقك العسر والخسر
فانك لن تشفى من الغيظ والبلا … بلى ان هذا الوحر يلهبه الوحر
فمهلا قليلا انك اليوم غافل … ستندم فى الدنيا ومن بعدها القبر
ومن بعد ذا يوم عسير حسابه … به يعلم الانسان ما أثمر العمر
وكل بذى الأيام يلقى جزاءه … فليس بها هضم لحق ولا جور

ابراهيم بن عبد العزيز السويح

فهرس

الجزء الثانى من (بيان الهدى من الضلال)

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تم بحمد الله

المطبعة السلفية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح * بجزيرة الروضة (القاهرة)